

تفسير

التحرير والتوير

تأليف

بمناجاة الشيخ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاتق

المجلد الأول

الكتاب الأول

الدار التونسية للنشر

جميع حقوق الطبع محفوظة للدار التونسية للنشر

تونس 1984

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ

الحمد لله على أن يَبَيِّنَ للمستهدين معالم مُرادِهِ ، ونصب لجحافل المستفتحين أعلام أمداده .
خَازِل القرآن قانونا عاما معصوما ، وأعجز بمجائبه فظهرت يوما فيوما ، وجعله مصداقا
لما بين يديه ومهيئنا ، وما فرط فيه من شيء يعظ مسيئا ويعد محسنا ، حتى عرفه النصفون
من مؤمن وجاهد ، وشهد له الراغب والمُحتار والحاسد ، فكان الحال بتصديقه أنطقَ من
اللسان ، وبرهانُ العقل فيه أبصرَ من شاهد العيان ، وأبرز آياته في الآفاق فتبين للمؤمنين
أنه الحق ، كما أنزله على أفضل رسول فبشّر بأن لهم قَدَمَ صِدْق ، فيه أصبح الرسول الأُمّي
سيدَ الحكماء المريّين ، وبه شرح صدره إذ قال « إنَّكَ على الحق المبين » ، فلم يزل كتابه
مُشعّاترا ، محفوظا من لدنه أن يُترك فيكون مبدّلا ومغيّرا .

ثم قبيض لتبيينه أصحابه الأشداء الرحاء ، وأبان أسرارَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ في الأمة من العلماء .
فصلاة الله وسلامه على رسوله وآله الطاهرين ، وعلى أصحابه نجوم الاقتداء للسائرين والمآخرين^(١)
أما بعد فقد كان أكبر أمنيّتي منذ أمد بعيد ، تفسير الكتاب المجيد ، الجامع لمصالح
الدنيا والدين ، وموثق شديد العرى من الحق التين ، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد
استنباطها ، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها ، طمعا في بيان نكت من العلم وكلّيات
من التشريع ، وتفاصيل من مكارم الأخلاق ، كان يلوح انموذج من جميعها في خلال
تدبره ، أو مطالعة كلام مفسّره^(٢) ، ولكنني كنت على كافي بذلك أنجههم التقحّم على هذا

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم فبنيت على هذا التشبيه
تشبيه المهتدين بهم بفريقين : فريق سائرُونَ في البر وفي ذلك تشبيه عملهم في الإهداء ، وهو اتباع طريق
السنة ؛ بالسير في طرق البر . وفريق مآخرون أي سائرُونَ في الفلك المآخِر في البحر ، وتضمن ذلك تشبيه
عملهم في الإهداء وهو الخوض في العلوم بالخمر في البحر . ومن ذلك الإشارة إلى أن العلم كالبحر كما هو
شائع ، وأن السنة كالسبيل المبلغ للمقصود .

(٢) أشير بهذا إلى أن الملم من كلام المفسرين يرشد إلى الزيادة على ما ذكره ، والذي دون ذلك من
كلامهم ينبه إلى تقويم ما ذكره ، والمفسر هنا مراد به الجنس .

المجال ، وأحجم عن الزجّ بِسِيَةِ قوسى فى هذا النضال . اتقاء ما عسى أن يعرّض له المرء نفسه من متاعب تنوء بالقوة ، أو فلتات سهام الفهم وإن بلغ ساعدُ الذهن كَالِ الْفُتُوَّةِ . فَبَقِيَتْ أُسُوفُ النَّفْسِ مَرَّةً وَمَرَّةً أُسُومَهَا زَجْرًا ، فَإِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا تَصْمِيماً أَحَلَّتْهَا عَلَى فُرْصَةٍ أُخْرَى ، وَأَنَا آمَلُ أَنْ يُمَنِّحَ مِنَ التَّيْسِيرِ ، مَا يَشْجَعُ عَلَى قَصْدِ هَذَا الْفَرْضِ الْمَسِيرِ . وَفِيهَا أَنَا بَيْنَ إِقْدَامٍ وَإِحْجَامٍ ، أَنْحِيلُ هَذَا الْحَقْلَ مَرَّةً الْقَتَادَ وَأُخْرَى الثُّمَامَ . إِذَا أَنَا بِأَمْلِي قَدْ خِيلَ إِلَى أَنَّهُ تَبَاعَدَ أَوْ انْقَضَى ، إِذْ قَدَّرْتُ أَنْ تَسْنَدَ إِلَى خُطَّةِ الْقَضَا^(١) . فَبَقِيَتْ مَتْلِفًا وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ، وَأَضْمَرْتُ تَحْقِيقَ هَاتِهِ الْأَمْنِيَةِ مَتَى أَجْمَلَ اللَّهُ الْخِلَاصَ ، وَكُنْتُ أَحَادِثَ بِذَلِكَ الْأَصْحَابِ وَالْإِخْوَانَ ، وَأَضْرَبُ الْمَثَلَ بِأَبِي الْوَلِيدِ ابْنِ رَشْدٍ فِي كِتَابِ الْبَيَانِ^(٢) ، وَلَمْ أَزَلْ كَلِمًا مَضَتْ مَدَّةُ يَزْدَادِ التَّمَنَّى وَأَرْجُو إِنْجَازَهُ ، إِلَى أَنْ أَوْشَكَ أَنْ تَمُضِيَ عَلَيْهِ مَدَّةُ الْحَيَازَةِ ، فَإِذَا اللَّهُ قَدْ مَنَّ بِالنَّقْلَةِ إِلَى خُطَّةِ الْفَتَا^(٣) . وَأَصْبَحْتُ الْهَمَّةَ مَصْرُوفَةً إِلَى مَا تَنْصَرِفُ إِلَيْهِ الْهَمُّ الْعُلَمَاءُ ، فَتَحَوَّلَ إِلَى الرَّجَاءِ ذَلِكَ الْيَاسَ ، وَطَمَعْتُ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ أُوتِيَ الْحِكْمَةُ فَهُوَ يَقْضَى بِهَا وَيَعْلَمُهَا النَّاسُ^(٤) . هُنَا لَكَ عَقْدَتُ الْعَزْمِ عَلَى تَحْقِيقِ مَا كُنْتُ أَضْمَرْتُهُ ، وَاسْتَعْنَتْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَاسْتَخَرْتَهُ ؟ وَعَلِمْتُ أَنَّ مَا يَهْوُلُ مِنْ تَوْقَعِ كُلِّ أَوْ غُلْطٍ ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْوِلَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَسْجِ هَذَا النَّمْطِ ، إِذَا بِذَلِكَ الْوَسْعِ مِنَ الْجَهْدِ ، وَتَوَخَّيْتُ طَرُقَ الصَّوَابِ وَالسَّدَادِ . أَقْدَمْتُ عَلَى هَذَا الْمَهْمِ إِقْدَامَ الشَّجَاعِ ، عَلَى وَادَى السَّبَاعِ^(٥) ؛ مَتَوَسِّطًا فِي مَعْتَرَكِ أَنْظَارِ

(١) فى ٢٦ رمضان ١٣٣١ والقضاء هنا بالقصر لمراعاة السجع . (٢) حيث ذكر أنه شرع فيه ، ثم عاقبه عنه تقليد خطة القضاء بقرطبة فعزم على الرجوع إليه لأن أريح من القضاء ، وأنه عرض عزمه على أمير المؤمنين على بن يوسف ابن تاشفين ، فأجابته لذلك وأعفاه من القضاء . ليعود إلى إكمال كتابه « البيان والتحصيل » وهذا الكتاب هو شرح جليل على كتاب العتبية الذى جمع فيه العتبي سماع أصحاب مالك منه ، وسماع أصحاب ابن القاسم منه . (٣) فى ٢٦ رجب ١٣٤١ .

(٤) أردت الإشارة إلى الحديث : « لا حسد إلا فى اثنتين » لأنه يتعين أن لا يكون المراد خصوص الجمع بين القضاء بها وتعليمها . بل يحصل المقصود ولو بأن يقضى بها مدة ، ويعلمها الناس مدة أخرى .

(٥) وادى السباع موضع بين مكة والبصرة وهو واد قفر من السكان تكثر به السباع قال سحيم

ابن وثيل :

مررتُ على وادى السباع ولا أرى
أقلَّ به ركبٌ أتوه تبيّةً
كوادى السباع حين يُظلم واديا
وأخوفَ إلّا ما وفى الله ساريا

الناظرين . وزائرنا بين ضُباح الزائر^(١) ، فجعلت حقا على أن أبدى في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني إليها ، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها ، فإن الاختصار على الحديث المُعاد ، تعطيل لفيض القرآن الذى ماله من نقاد . ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحدَ رَجُلَيْنِ : رجل معتكف فيما شاده الأقدمون ، وآخر أخذ بمعموله فى هدم ما مضت عليه القرون ، وفى كلتا الحالتين ضرٌّ كثير ، وهنا لك حالة أخرى ينجر بها الجناح الكسير ، وهى أن نعيد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذه به وزيدَه ، وحاشا أن ننقضه أو نبنيَه ، عالما بأن غمض فضلهم كفران للنعمة ، وجَحْدُ مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأُمَّة ، فالحمد لله الذى صدّق الأمل ، ويسر إلى هذا الخير ودلّ .

والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل . وإن أهم التفاسير « تفسير الكشاف » و « المحرر الوجيز » لابن عطية و « مفاتيح الغيب » لفخر الدين الرازى ، وتفسير البيضاوى الملخص من الكشاف ومن مفاتيح الغيب بتحقيق بديع ، وتفسير الشهاب الآلوسى ، وما كتبه الطيبي والقزويني والقطب والتفتزاني على الكشاف ، وما كتبه الخفاجى على تفسير البيضاوى ، وتفسير أبى السعود ، وتفسير القرطبي والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسى من تقييد تلميذه الأبيّ وهو بكونه تعليقا على تفسير ابن عطية أشبه منه بالتفسير لذلك لا يأتى على جميع آى القرآن وتفسير الأحكام ، وتفسير الإمام محمد ابن جرير الطبرى ، وكتاب « درة التنزيل » المنسوب لفخر الدين الرازى ، وربما ينسب للراغب الأصفهاني . ولقصد الاختصار أعرض عن الغزو إليها ، وقد ميزت ما يفتح الله لى من فهم فى معانى كتابه وما أجلبه من المسائل العلمية ، مما لا يذكره المفسرون ، وإنما حسبي فى ذلك عدم عثورى عليه فيما بين يديّ من التفاسير فى تلك الآية خاصة ، ولست أدعى انفرادى به فى نفس الأمر ، فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك إليه متكلم ،

(١) الزائر من هنا اسم فاعل من زار بهمزة بعد الزاى ، وهو الذى مصدره الزئير ، وهو صوت

الأسد قال عنتره :

حَلَّتْ بِأَرْضِ زَائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِرًا عَلَى طِلَالُكَ ابْنَةَ مَحْرَمٍ

وكم من فهم تستظهره وقد تقدّمك إليه متفهم ، وقدماً قيل :
* هل غادر الشعراء من مَرَدِّمْ *

إن معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف موزعة على آياته فالأحكام مبينة في آيات الأحكام ، والآداب في آياتها ، والقصص في مواقعها ، وربما اشتملت الآية الواحدة على فنين من ذلك أو أكثر . وقد نحا كثير من المفسرين بعض تلك الأفانين ، ولكنّ فنّاً من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن ، وهو فن دقائق البلاغة هو الذي لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب كما خصّوا الأفانين الأخرى ، من أجل ذلك التزمت أن لا أغفل التنبيه على ما يلوح لي من هذا الفن العظيم في آية من آي القرآن كلّما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبّر .

وقد اهتممت في تفسيرى هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال ، واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآى بعضها ببعض ، وهو منزع جليل قد عني به نحر الدين الرازى ، وألف فيه برهان الدين البقاعى كتابه المسمى « نظم الدرر في تناسب الآى والسور » إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآى بما فيه مقنع ، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع ، أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض ، فلا أراه حقا على المفسر .

ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعانى جملة كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله .

واهتممت بتبيين معانى المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة . وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده ، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعدادده ، فإنى بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معانى القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير ، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه هم النحارير ، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير ، ففيه أحسن ما فى التفاسير ، وفيه أحسن مما فى التفاسير .

وسميته « تحرير المعنى السديد ، وتنوير العقل الجديد ، من تفسير الكتاب المجيد » .

واختصرت هذا الاسم باسم ﴿التحرير والتنوير من التفسير﴾ وها أنا^(١) أبتدى بتقديم مقدمات تكون عوناً للباحث في التفسير ، وتفنيه عن مُعاد كثير .

(١) عن قصد قلت « وها أنا » ولم أقل « وها أناذا » كما التزمه كثير من المتحذلقين أخذاً بظاهر كلام معنى اللبيب لما بينته عند تفسير قوله تعالى : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » . في سورة البقرة .

المقدمة الأولى

في التفسير والتأويل وكون التفسير علماً

التفسير مصدر فسر بتشديد السين الذي هو مضاعف فسر بالتخفيف (من بابي نصر وضرب) الذي مصدره الفسر، وكلاهما فعل متعد فالتضعيف ليس للتعمدية .

والفسر الإبانة والكشف لدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى الفسر عند السامع ، ثم قيل المصدران والفعلان متساويان في المعنى ، وقيل يختص المضاعف بإبانة المعقولات ، قاله الراغب وصاحب البصائر ، وكأن وجهه أن بيان المعقولات يكلف الذي يبينه كثرة القول ، كقول أوس بن حجر :

الألمى الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع

فكان تمام البيت تفسيراً لمعنى الألمى ، وكذلك الحدود المنطقية المفسرة للمواهي والأجناس ، لاسيما الأجناس العالية الملقبة بالمقولات فناسب أن يخص هذا البيان بصيغة المضاعفة، بناء على أن فعل المضاعف إذا لم يكن للتعمدية كان المقصود منه الدلالة على التكثير من المصدر، قال في الشافية « وفعل للتكثير غالباً » وقد يكون التكثير في ذلك مجازياً واعتبارياً بأن ينزل كدُّ الفكر في تحصيل المعاني الدقيقة ، ثم في اختيار أضبط الأقوال لإبانته منزلة العمل الكثير كتفسير صُحَّارِ الْعَبْدِي^(١) وقد سأله معاوية عن البلاغة فقال: « أن تقول فلا تخطئ » ، وتجب فلا تبطل^٢ » ثم قال لسأله أفلني « لا تخطئ ولا تبطل » .

(١) صحار بضم الصاد وتخفيف الحاء المهملين ، وهو ابن عياش، بلغ من يلقاء قبيلة عبد القيس في صدر الدولة الأموية .

ويشهد لهذا قوله تعالى « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » .
 فأما إذا كان فعل المضاعف للتعدي فإن إفادته التكثير مختلف فيها ، والتحقيق أن
 المتكلم قد يعدل عن تعدي الفعل بالهزمة إلى تعديته بالتضعيف لقصد الدلالة على التكثير
 لأن المضاعف قد عُرِفَ بتلك الدلالة في حالة كونه فعلاً لازماً فقارنته تلك الدلالة عند استعماله
 للتعدي مقارنة تبعية . ولذلك قال العلامة الزخشري في خطبة الكشاف « الحمد لله الذي أنزل
 القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً ، ونزله على حسب المصالح منجماً » فقال المحققون من مشرّاحه ،
 جمع بين أنزل ونزل لما في نزل من الدلالة على التكثير ، الذي يناسب ما أراده العلامة
 من التدرّج والتنجيم . وأنا أرى أن استفادة معنى التكثير في حال استعمال التضعيف للتعدي
 أمر من مستنبطات الكلام حاصل من قرينة عدول المتكلم البليغ عن المهموز . الذي هو
 خفيف إلى المضعف الذي هو ثقیل ، فذلك المدول قرينة على المراد وكذلك الجمع بينهما في مثل
 كلام الكشاف قرينة على إرادة التكثير .

وعزا شهاب الدين القرافي في أول «أنواء البروق» إلى بعض مشايخه أن العرب فرقوا بين
 فرق بالتخفيف ، وفرّق بالتشديد ، فجعلوا الأول للمعاني والثاني للأجسام بناء على أن كثرة
 الحروف تقتضي زيادة المعنى أو قوته ، والمعاني لطيفة يناسبها الخف ، والأجسام كثيفة
 يناسبها التشديد ، واستشكله هو بعدم أطراده ، وهو ليس من التحرير بالحمل اللائق ،
 بل هو أشبه باللطائف منه بالحقائق ، إذ لم يراع العرب في هذا الاستعمال معقولا ولا محسوساً
 وإنما راعوا الكثرة الحقيقية أو المجازية كما قرنا ، ودل عليه استعمال القرآن ، ألا ترى أن
 الاستعمالين ثابتان في الموضع الواحد ، كقوله تعالى « وقرآنا فرقناه » قرئ بالتشديد
 والتخفيف ، وقال تعالى حكاية لقول المؤمنين « لا تفرّق بين أحد من رسله » وقال لبيد:

ففضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عرّدت إقدامها

فجاء بفعل قدّم وبمصدر أقدم ، وقال سيبويه « إن فعل وأفعل يتعاقبان » على أن
 التفرقة عند مثبتها ، تفرقة في معنى الفعل لافي حالة مفعوله بالأجسام .
 والتفسير في الاصطلاح نقول :

هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار
 أو توسع .

والمناسبة بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول إليه لا يحتاج إلى تطويل .

وموضوع التفسير : ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه ، وما يستنبط منه وبهذه الحثيثة خالف علم القراءات لأن تمايز العلوم - كما يقولون - بتمايز الموضوعات ، وحيثيات الموضوعات .

هذا وفي عد التفسير علماً تسامح؛ إذ العلم إذا أطلق ، إما أن يراد به نفس الإدراك ، نحو قول أهل المنطق ، العلم إما تصور وإما تصديق ، وإما أن يراد به الملكة المسماة بالعقل وإما أن يراد به التصديق الجازم وهو مقابل الجهل ، (وهذا غير مراد في عد العلوم) وإما أن يراد بالعلم المسائل المعلومات وهي مطلوبات خبرية يُبرهن عليها في ذلك العلم وهي قضايا كلية ، ومباحث هذا العلم ليست بقضايا يبرهن عليها فإما هي بكلية ، بل هي تصورات جزئية غالباً لأنه تفسير ألفاظ أو استنباط معان . فأما تفسير الألفاظ فهو من قبيل التعريف اللفظي وأما الاستنباط فن دلالة الالتزام وليس ذلك من القضية .

فإذ قلنا إن يوم الدين في قوله تعالى « مَلِكِ يوم الدين » هو يوم الجزاء ، وإذا قلنا أن قوله تعالى « وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » مع قوله « وفصاله في عامين » يؤخذ منه أن أقل الحمل ستة أشهر عند من قال ذلك ، لم يكن شيء من ذلك قضية ، بل الأول تعريف لفظي ، والثاني من دلالة الالتزام ولكنهم عدوا تفسير ألفاظ القرآن علماً مستقلاً أراهم فعملوا ذلك لواحد من وجوه ستة :

الأول : أن مباحثه لكونها تؤدي إلى استنباط علوم كثيرة وقواعد كلية ، نزلت منزلة القواعد الكلية لأنها مبدأ لها ، ومنشأ ، تنزيلاً للشيء منزلة ما هو شديد الشبه به بقاعدة ما قارب الشيء يعطى حكمه ، ولاشك أن ما تستخرج منه القواعد الكلية والعلوم أجدر بأن يعد علماً من عد فروعه علماً ، وهم قد عدوا تدوين الشعر علماً لما في حفظه من استخراج نكت بلاغية وقواعد لغوية .

والثاني أن نقول : إن اشتراط كون مسائل العلم قضايا كلية يبرهن عليها في العلم خاص بالعلوم المعقولة ، لأن هذا اشتراط ذكره الحكماء في تقسيم العلوم ، أما العلوم الشرعية والأدبية فلا يشترط فيها ذلك ، بل يكفي أن تكون مباحثها مفيدة كمالاً علمياً لمزاويلها ،

والتفسير أعلاها في ذلك ، كيف وهو بيان مراد الله تعالى من كلامه ، وهم قد عدوا البديع علما والعروض علما وما هي إلا تعاريف لألقاب اصطلاحية .

والثالث أن نقول : التعاريف اللفظية تصديقات على رأى بعض المحققين فهي تؤول إلى قضايا ، وتفرعُ المعاني الجمّة عنها نزّلها منزلة السكينة ، والاحتجاجُ عليها بشعر العرب وغيره يقوم مقام البرهان على المسألة ، وهذا الوجه يشترك مع الوجه الأول في تنزيل مباحث التفسير منزلة المسائل ، إلا أن وجه التنزيل في الأول راجع إلى ما يتفرع عنها ، وهنا راجع إلى ذاتها مع أن التنزيل في الوجه الأول في جميع الشروط الثلاثة وهنا في شرطين ، لأن كونها قضايا إنما يجيء على مذهب بعض المنطقيين .

الرابع أن نقول : إن علم التفسير لا يخلو من قواعد كلية في أثنائه مثل تقرير قواعد النسخ عند تفسير « ما نسخ من آية » ، وتقرير قواعد التأويل عند تقرير « وما يعلم تأويله » وقواعد المحكم عند تقرير « منه آيات محكمات » ، فسمى مجموع ذلك وما معه علما تقليديا ، وقد اعتنى العلماء بإحصاء كليات تتعلق بالقرآن ، وجمعها ابن فارس ، وذكرها عنه في الإتيان وعنى بها أبو البقاء السكوي في كلياته ، فلا بدع أن تراد تلك في وجوه شبه مسائل التفسير بالقواعد السكينة .

الخامس : أن حق التفسير أن يشتمل على بيان أصول التشريع وكلياته فكان بذلك حقيقا بأن يسمى علما ولكن المفسرين ابتدأوا بتقصي معاني القرآن فطفت عليهم وحسرت دون كثرتها قواهم ، فانصرفوا عن الاشتغال بانتراع كليات التشريع إلا في مواضع قليلة .

السادس - وهو الفصل - : أن التفسير كان أول ما اشتغل به علماء الإسلام قبل الاشتغال بتدوين بقية العلوم ، وفيه كثرت مناظراتهم وكان يحصل من مزاويله والدرية فيه لصاحبه ملكة يدرك بها أساليب القرآن ودقائق نظمها ، فكان بذلك مفيدا علوما كلية لها مزيد اختصاص بالقرآن المجيد ، فمن أجل ذلك سمي علما .

ويظهر أن هذا العلم إن أخذ من حيث إنه بيان وتفسير لمراد الله من كلامه كان معدودا من أصول العلوم الشرعية وهي التي ذكرها الغزالي في الضرب الأول من العلوم الشرعية .

المحمودة من كتاب الإحياء ، لأنه عد أولها الكتاب والسنة ، ولا شك أنه لا معنى بعلم الكتاب حفظ ألفاظه بل فهم معانيها وبذلك صح أن يعد رأس العلوم الإسلامية كما وصفه البيضاوى بذلك ، وإن أخذ من حيث ما فيه من بيان مكي ومدني ، وناسخ ومنسوخ ، ومن قواعد الاستنباط التي تذكر أيضا في علم أصول الفقه من عموم وخصوص وغيرها كان معدودا في متمات العلوم الشرعية المذكورة في الضرب الرابع من كلام الغزالي^(١) ، وبذلك الاعتبار عُد فيها إذ قال « الضرب الرابع المتمات وذلك في علم القرآن ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ ، وكلم القراءات ، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير فإن اعتماده أيضا على النقل ، وإلى ما يتعلق بأحكامه كالنسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، وكيفية استعمال البعض منه مع البعض وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه » وهو بهذا الاعتبار لا يكون رئيس العلوم الشرعية .

والتفسير أول العلوم الإسلامية ظهورا ، إذ قد ظهر الخوض فيه في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ كان بعض أصحابه قد سأل عن بعض معاني القرآن كما سأل عمر رضي الله عنه عن الكلاله ، ثم اشتهر فيه بعد من الصحابة على وابن عباس وما أكثر الصحابة قولاً في التفسير ، وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم ، وكثر الخوض فيه ، حين دخل في الإسلام من لم يكن عربى السجية ، فلزم التصدي لبيان معاني القرآن لهم ، وشاع عن التابعين وأشهرهم في ذلك مجاهد وابن جبير ، وهو أيضا أشرف العلوم الإسلامية ورأسها على التحقيق .

وأما تصنيفه فأول من صنف فيه عبد الملك بن جريج المكي (الولود سنة ٨٠ هـ والتوفي سنة ١٤٩ هـ) صنف كتابه في تفسير آيات كثيرة وجمع فيه آثارا وغيرها وأكثر روايته عن أصحاب ابن عباس مثل عطاء ومجاهد ، وصنفت تفاسير ونسبت روايتها إلى ابن عباس ،

(١) حيث قسم العلوم إلى شرعية وغيرها ، وقسم الشرعية إلى محودة ومذمومة ، وقسم المحمودة منها إلى أضرب أربعة : أصول وفروع ومقدمات ومتمات ، فالأصول الكتاب والسنة والإجماع وآثار الصحابة ، والثاني الفروع وهو ما فهم من الأصول ، وهو الفقه وعلم أحوال القلوب ، والثالث المقدمات كالنحو واللغة ، والرابع المتمات للقراءات وللآثار وهي القراءات والتفسير والأصول وعلم الرجال وليس في العلوم الشرعية مذموم إلا عرضا ، كبعض أحوال علم الكلام ، وبعض الفقه الذي يقصد لتجليل ونحوه ،

لكن أهل الأثر تكلموا فيها وهي تفسير محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة ١٤٦ هـ) عن أبي صالح عن ابن عباس، وقد رُوى أبو صالح بالكذب حتى لقب بكلمة «دروغدت» بالفارسية بمعنى الكذاب^(٢) وهي أوهى الروايات فإذا انضم إليها رواية محمد بن مروان السُدِّي عن الكلبي فهي سلسلة الكذب^(٣)، أرادوا بذلك أنها ضد ما لقبوه بسلسلة الذهب، وهي مالك عن نافع عن ابن عمر. وقد قيل إن الكلبي كان من أصحاب عبد الله بن سبأ اليهودي الأصل، الذي أسلم وطمن في الخلفاء الثلاثة وغلا في حب علي بن أبي طالب، وقال إن عليا لم يمت وأنه يرجع إلى الدنيا وقد قيل إنه ادعى إلهية على.

وهناك رواية مقاتل ورواية الضحاک، ورواية علي بن أبي طلحة الهاشمي كلها عن ابن عباس، وأصحها رواية علي بن أبي طلحة، وهي التي اعتمدها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه فيما يصدر به من تفسير المفردات على طريقة التعليق، وقد خرج في الاتقان، جميع ما ذكره البخاري من تفسير المفردات، عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس مرتبة على سور القرآن. والحاصل أن الرواية عن ابن عباس، قد اتخذها الوضاعون والمذلسون ملجأ لتصحيح ما يروونه كدأب الناس في نسبة كل أمر مجهول من الأخبار والنوادر، لأشهر الناس في ذلك المقصد.

وهناك روايات تسند لعلی رضي الله عنه، أكثرها من الموضوعات، إلا ما روى بسند صحيح، مثل ما في صحيح البخاري ونحوه، لأن لعلی أفهما في القرآن كما ورد في صحيح البخاري، عن أبي جحيفة قال: قلت لعلی هل عندكم شيء من الوحي ليس في كتاب الله فقال «لا والذي فلق الحبة، وبر النّسمة، ما أعلمه إلا فهمما يعطيه الله رجلا في القرآن» ثم تلاحق العلماء في تفسير القرآن وسلك كل فريق مسلكا يأوي إليه وذوقا يعتمد عليه.

فهم من سلك مسلك نقل ما يؤثر عن السلف، وأول من صنف في هذا المعنى، مالك ابن أنس، وكذلك الداودي تلميذ السيوطي في طبقات المفسرين، وذكره عياض في المدارك إجمالا. وأشهر أهل هذه الطريقة فيما هو بأيدي الناس محمد بن جرير الطبري.

(٢) تفسير القرطبي، (٣) الإتيان

ومنهم من سلك مسلك النظر كأبي إسحاق الزجاج وأبي على الفارسي ، وشغف كثير بنقل القصص عن الإسرائيليات ، فكثرت في كتبهم الموضوعات ، إلى أن جاء في عصر واحد عالمان جليان أحدهما بالشرق ، وهو العلامة أبو القاسم محمود الزمخشري ، صاحب الكشف ، والآخر بالمغرب بالأندلس وهو الشيخ عبد الحق بن عطية ، تألف تفسيره المسمى بـ « المحرر الوجيز » . كلاهما يفتون على معاني الآيات ، ويأتى بشواهدا من كلام العرب ويذكر كلام المفسرين إلا أن منحى البلاغة والعربية بالزمخشري أخص ، ومنحى الشريعة على ابن عطية أغلب ، وكلاهما عضاداتا الباب ، ومرجع من بعدهما من أولى الألباب .

وقد جرت عادة المفسرين بالخوض في بيان معنى التأويل ، وهل هو مساو للتفسير أو أخص منه أو مباين . وجماع القول في ذلك أن من العلماء من جعلهما متساويين ، وإلى ذلك ذهب ثعلب وابن الأعرابي وأبو عبيدة ، وهو ظاهر كلام الراغب ، ومنهم من جعل التفسير للمعنى الظاهر والتأويل للمتشابه ، ومنهم من قال : التأويل صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر محتمل لدليل فيكون هنا بالمعنى الأصولي ، فإذا فسر قوله تعالى « يخرج الحي من الميت » بإخراج الطير من البيضة ، فهو التفسير ، أو بإخراج المسلم من الكافر فهو التأويل ، وهناك أقوال أخر لا عبرة بها ، وهذه كلها اصطلاحات لا مشاحة فيها إلا أن اللغة والآثار تشهد للقول الأول ، لأن التأويل مصدر أوله إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة ، والغاية المقصودة من اللفظ هو معناه وما أراد منه التكلم به من المعاني ، فساوى التفسير ، على أنه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول . قال الأعشى :

على أنها كانت تَأْوُلُ حُبَّهَا تَأْوُلُ رَيْمِي السَّقَابِ فَأَصْحَبَا

أى تبين تفسير حبها أنه كان صغيرا في قلبه ، فلم يزل يشب حتى صار كبيرا كهذا السقب أى ولد الناقة ، الذى هو من السقاب الريمية لم يزل يشب حتى كبر وصار له ولد يصحبه قاله أبو عبيدة ، وقد قال الله تعالى « هل ينظرون إلا تأويله » أى ينتظرون إلا بيانه الذى هو المراد منه ، وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه لابن عباس « اللهم قهقهة في الدين وعلمه التأويل » ، أى فهم معاني القرآن ، وفي حديث عائشة رضى الله عنها

« كان صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي
يتأول القرآن » أى يفعل بقوله تعالى « فسبح بحمد ربك واستغفره » فلذلك جمع في دعائه
التسبيح والحمد وذكر لفظ الرب وطلب المغفرة فقولها « يتأول » ، صريح فى أنه فسر الآية
بالظاهر منها ولم يحملها على ما تشير إليه من انتهاء مدة الرسالة وقرب انتقاله صلى الله عليه
وسلم ، الذى فهمه منها عمر وابن عباس رضى الله عنهما .

المقدمة الثانية

في استمداد علم التفسير

استمداد العلم يراد به توقفه على معلومات سابق وجودها على وجود ذلك العلم عند مدوّنيه لتكون عوناً لهم على إتقان تدوين ذلك العلم ، وسمى ذلك في الاصطلاح بالاستمداد عن تشبيه احتياج العلم لتلك المعلومات بطلب المدد ، والمدد المون والغوث ، فقرنوا الفعل بحرفي الطلب وهما السين والتاء ، وليس كل ما يذكر في العلم معدوداً من مدده ، بل مدده ما يتوقف عليه تقومه ، فأما ما يورد في العلم من مسائل علوم أخرى ، عند الإفاضة في البيان ، مثل كثير من إفاضات نحر الدين الرازي ، في «مفاتيح الغيب» فلا يمدد مدداً للعلم ، ولا ينحصر ذلك ولا يتضبط ، بل هو متفاوت على حسب مقادير توسع المفسرين ومستطرداتهم ، فاستمداد علم التفسير للمفسر العربي والمولد ، من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار ، ومن أخبار العرب وأصول الفقه قيل وعلم الكلام وعلم القراءات .

أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة ، بالسجية والسليقة ، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم ، أم حصلت بالتلق والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافوها ببقية العرب ومارسوها ، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها .

إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه ، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم ، لمن ليس بعربي بالسليقة ، ومعنى بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي ، وهي : متن اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعاني ، والبيان . ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغاتهم ، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستشناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين ، قال في الكشف : « ومن حق مفسر كتاب الله الباهر ، وكلامه المعجز أن يتعمد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها ، وما وقع به

التحدى سليماً من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل»^(١) ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز ولذلك كان هذان العلمان يسميان في القديم «علم دلائل الإعجاز» قال في الكشف: «علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يفوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علما البيان والمعاني اه»^(٢).

وقال في تفسير سورة الزمر عند قوله تعالى (والسماوات مطويات بيمينه): «وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول، قد ضيى وسيم الخسف، بالتأويلات الفقهية، والوجوه الزمّة، لأن من تأولها ليس من هذا العلم في غير ولا تغير، ولا يعرف قبلاً منه من دبير» يريد به علم البيان. وقال السكاكي في مقدمة القسم الثالث من كتاب المفتاح: «وفيما ذكرنا ما ينبغي على أن الوافق على تمام مراد الحكيم تعالى، وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين (المعاني والبيان) كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل»، قال السيد الجرجاني في شرحه: «ولا شك أن خواص نظم القرآن أكثر من غيرها فلا بد لمن أراد الوقوف عليها، إن لم يكن بليفاً سليقة، من هذين العلمين. وقد أصاب (السكاكي) بذكر الحكيم الحز، أى أصاب الحز إذ خص بالذكر هذا الاسم من بين الأسماء الحسنى، لأن كلام الحكيم يحتوى على مقاصد جليلة ومعاني غالية، لا يحصل الاطلاع على جميعها أو معظمها إلا بعد الترس بقواعد بلاغة الكلام المفرغة فيه، وفي قوله ينبى إشارة إلى أن من حقه أن يكون معلوماً ولكنه قد يغفل عنه،

(١) انظره عند قوله تعالى «وعدهم في طفانيهم يعمهون» في سورة البقرة.

(٢) ديباجة الكشف.

وقوله فالويل كل الويل تنفير ، لأن من لم يعرف هذين العلمين إذا شرع في تفسير القرآن واستخراج لطائفه أخطأ غالبا ، وإن أصاب نادرا كان مخطئا في إقدامه عليه اه .
 وقوله تمام مراد الحكيم ، أى المقصود هو معرفة جميع مراد الله من قرآنه ، وذلك إما ليكثر الطلب واستخراج النكت ، فيدأب كل أحد للاطلاع على غاية مراد الله تعالى ، وإما أن يكون المراد الذى نصب عليه علامات بلاغية وهو منحصر فيما يقتضيه المقام بحسب التتبع ، والكل مظنة عدم التناهى وباعث للنظر على بذل غاية الجهد في معرفته ، والناس متفاوتون في هذا الاطلاع على قدر صفاء القرائح ووفرة المعلومات ، وقال أبو الوليد ابن رشد ، في جواب له عن قال إنه لا يحتاج إلى لسان العرب ما نصه : « هذا جاهل فليصرف عن ذلك وليتب منه فإنه لا يصح شئ من أمور الديانة والإسلام إلا بلسان العرب يقول الله تعالى « بلسان عربى مبين » إلا أن يرى أنه قال ذلك نخب في دينه فيؤدبه الإمام على قوله ذلك بحسب ما يرى فقد قال عظيم اه » ، ومراد السكاكي ، من تمام مراد الله ما يتحمله الكلام من المعانى الخصوصية ، فن يفسر قوله تعالى « إياك نعبد » بأننا نعبدك لم يطلع على تمام المراد لأنه أهمل ما يقتضيه تقديم المفعول من القصد .

وقال في آخر فن البيان من المفتاح : « لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه ، من علمى المعانى والبيان ، ولا أعون على تعاطى تأويل متشابهاته ، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره ، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيبت حقها واستلبيت ماءها ورونتها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم ، فأخذوا بها في مأخذ مردودة ، وحملوها على محامل غير مقصودة إلخ » .

وقال الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز . في آخر فصل المجاز الحكى : « ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم ، أن يتوهوا الباب الألفاظ الموضوع على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها (أى على الحقيقة) ، فيفسدوا المعنى بذلك ويطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسماع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف ، وناهيك بهم إذا أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثررون في غير طائل ، هناك ترى ماشئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به » .

وأما استعمال العرب ، فهو التملّ من أساليبهم وأشعارهم وأمثالهم وعوائدهم ومحدثاتهم ، ليحصل بذلك لممارسة المولّد ذوق يقوم عنده مقام السليقة والسجّية عند العربي الفُحّ « والذوق كيفية للنفس بها تدرك الخواص والزايّات التي للكلام البليغ » قال شيخنا الجّد الوزير « وهى ناشئة عن تتبع استعمال البلغاء فتحصل لغير العربي بتتبع موارد الاستعمال والتدبر في الكلام المقطوع ببلوغه غاية البلاغة ، فدعوى معرفة الذوق لا تقبل إلا من الخاصة وهو يضعف ويقوى بحسب متفاوتة ذلك التدبر » اهـ .

ولله دره في قوله المقطوع ببلوغه غاية البلاغة المشير إلى وجوب اختيار الممارس لما يطالعه من كلامهم وهو الكلام المشهود له بالبلاغة بين أهل هذا الشأن ، نحو المعلقات والحامسة ونحو نهج البلاغة ومقامات الحريري ورسائل بديع الزمان .

قال صاحب المفتاح قبيل الكلام على اعتبارات الإسناد الخبري « ليس من الواجب في صناعته وإن كان المرجع في أصولها وتفاصيلها إلى مجرد العقل ، أن يكون الدخيل فيها كالناشيء عليها في استفادة الذوق منها ، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكيمات وضعية ، واعتبارات إيفية ، فلا بأس على الدخيل في علم المعاني ، أن يقلد صاحبه في بعض فتاواه إن فاته الذوق هناك إلى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق اهـ » .

ولذلك - أي لإيجاد الذوق أو تكميله - لم يكن غنى للمفسر في بعض المواضع من الاستشهاد على المراد في الآية ، ببيت من الشعر ، أو بشيء من كلام العرب لتكميل ما عنده من الذوق ، عند خفاء المعنى ، ولإقناع السامع والمتعلم الذين لم يكمل لهما الذوق في المشكلات .

وهذا - كما قلناه آنفاً - شيء وراء قواعد علم العربية . وعلم البلاغة به يحصل انكشاف بعض المعاني وإطمئنان النفس لها ، وبه يترجح أحد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن ألا ترى أنه لو اطلع أحد على تفسير قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم قوله ولا يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء » ، وعرض لديه احتمال أن يكون عطف قوله « ولا نساء » على قوله (قوم) عطف مباين ، أو عطف خاص على عام فاستشهد المفسر في ذلك بقول زهير .

وما أدري وسوف إخالُ أدري أقومُ آلُ حصنٍ أم نساء
كيف تطمئن نفسه لاحتمال عطف المبين دون عطف الخاص على العام ، وكذلك إذا
رأى تفسير قوله تعالى « وامسحوا برؤوسكم » وتردد عنده احتمال أن الباء فيه للتأكيد
أو أنها للتبويض أو للآلة وكانت نفسه غير مطمئنة لاحتمال التأكيـد إذ كان مدخول الباء
مفعولا فإذا استشهد له على ذلك بقول النابغة :

لك الخَيْرُ إنْ وارتبك الأرضُ واحداً وأصبح جدُّ الناس يطلع عاثرا
وقول الأعشى :

فكلنا مغرم يهوى بصاحبه . قاصٍ ودانٍ ومحبُولٍ ومُحْتَبَلٍ
رجح عنده احتمال التأكيـد وظهر له أن دخول الباء على المفعول للتأكيـد طريقة مسلوكة
في الاستعمال .

روى أئمة الأدب أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ على المنبر قوله تعالى « أو يأخذهم
على تخوف » ثم قال ما تقولون فيها أى فى معنى التخوف ، فقام شيخ من هذيل فقال :
هذه لفتنا ، التخوف التنقص ، فقال عمر : وهل تعرف العرب ذلك فى كلامها ؟ قال نعم قال
أبو كبير الهذلى :

تَخَوَّفَ الرَّجُلُ مِنْهَا تَامِسًا قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعةِ السَّفَنِ (١)

فقال عمر « عليكم ديوانكم لاتضلوا ، هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم »
وعن ابن عباس « الشعر ديوان العرب فإذا خفى علينا الحرف من القرآن ، الذى أنزله الله
بلفظهم رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه » وكان كثيرا ما ينشد الشعر إذا سئل عن
بعض حروف القرآن . قال القرطبي سئل ابن عباس ، عن السَّنةِ فى قوله تعالى « لا تَأْخُذْهُ
سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ » فقال النعمان وانشد قول زهير :

لا سِنَّةٌ فى طُوالِ اللَّيْلِ تَأْخُذْهُ ولا ينام ولا فى أَمْرِه فَنَدُّ

وسئل عكرمة ما معنى الزنيم ، فقال هو ولد الزنى وانشد :

زَنِيمٌ ليس يعرف من أبوه بَنَى الأمُّ ذُو حسبٍ لثيم

(١) التامك : السنام ، وقرد بفتح القاف وكسر الراء : كثير القراء ، والسفن - بفتح السين - المبرد

فما يؤثر^(١) عن أحمد بن حنبل رحمه الله ، أنه سئل عن تمثل الرجل ببيت شعر لبيان معنى في القرآن فقال « ما يعجبني » فهو عجيب ، وإن صح عنه فلمله يريد كراهة أن يذكر الشعر لإثبات صحة ألفاظ القرآن كما يقع من بعض الملاحدة ، روى أن ابن الراوندي^(٢) (وكان يُزَنُّ بالألحاد) قال لابن الأعرابي : « أتقول العرب لباس التقوى » فقال ابن الأعرابي لا لباس لا لباس ، وإذا أنجى الله الناس ، فلا نجى ذلك الراس ، هبك يا ابن الرواندي تنكر أن يكون محمد نبياً أفتنكر أن يكون فصيحاً عربياً ؟ .

ويدخل في مادة الاستعمال العربي ما يؤثر عن بعض السلف في فهم معاني بعض الآيات على قوانين استعمالهم ، كما روى مالك في الموطأ عن عروة ابن الزبير قال « قلت لعائشة - وأنا يومئذ حديث السن - : رأيت قول الله تعالى . إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، فما على الرجل شيء أن لا يطوف بهما ، فقالت عائشة : كلا لو كان كما تقول ، لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، إنما نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة الطاغية ، وكانت مناة حذو قديس ، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك ، فأمر الله : إن الصفا والمروة الآية اه » ، فبينت له ابتداء طريقة استعمال العرب لو كان المعنى كما وجهه عروة ثم بينت له مشار شبهته الناشئة عن قوله تعالى « فلا جناح عليه » الذي ظاهره رفع الجناح عن الساعي الذي يصدق بالإباحة دون الوجوب .

وأما الآثار فالمعنى بها ، ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من بيان المراد من بعض القرآن في مواضع الإشكال والإجمال ، وذلك شيء قليل . قال ابن عطية عن عائشة « ما كان رسول الله يفسر من القرآن إلا آيات معدودات علمه إياهن جبريل » ، قال معناه في منييات القرآن وتفسير مجمله مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف ، قلت : أو كان تفسيراً لا توقيف فيه ، كما بين لمدى بن حاتم أن الخياط الأبيض والخياط الأسود هما سواد الليل وبياض النهار ، وقال له إنك لعريض الوسادة ، وفي رواية إنك لعريض القفا ، وما نقل عن الصحابة الذين

(١) ذكره الآلوسی . (٢) توفي سنة ٢٤٠ .

شاهدوا نزول الوحي من بيان سبب النزول ، وناسخ ومنسوخ ، وتفسير مبهم ، وتوضيح واقعة من كل ما طرقتهم فيه الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، دون الرأى وذلك مثل كون المراد من « المنضوب عليهم » اليهود ومن الضالين النصارى ، ومثل كون المراد من قوله تعالى « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً » الوليد ابن المغيرة المخزومي أبا خالد بن الوليد ، وكون المراد من قوله تعالى « أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا » الآية ، العاصي بن وائل السهمي في خصومته بينه وبين خَبَّاب بن الأرت كما في صحيح البخارى في تفسير سورة المدثر .

قال ابن عباس مكثت سنين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعني إلا مهابته ، ثم سألته فقال هما حفصة وعائشة . ومعنى كون أسباب النزول من مادة التفسير ، أنها تعين على تفسير المراد ، وليس المراد أن لفظ الآية يقصر عليها ؛ لأن سبب النزول لا يخص ، قال تقي الدين السبكي : وكما أن سبب النزول لا يخص ، كذلك خصوص غرض الكلام لا يخص ، كأن يرد خاص ثم يعقبه عام للمناسبة فلا يقتضى تخصيص العام ، نحو « فلا جناح عليهما أن يَصَّالِحَا بينهما صلحا والصلح خير » وقد يكون المروى في سبب النزول مبيناً ومؤيلاً لظاهر غير مقصود ، فقد توهم قدامة بن مظعون من قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » فاعتذر بها لعمر بن الخطاب في شرب قدامة خمر ، روى أن عمر استعمل قدامة ابن مظعون على البحرين فقدم الجارود على عمر فقال : إن قدامة شرب فسكر ، فقال عمر من يشهد على ما تقول ، قال الجارود أبو هريرة يشهد على ما أقول وذكر الحديث ، فقال عمر يا قدامة إنى جالدك ، قال والله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدى ، قال عمر ولم ؟ قال لأن الله يقول « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح الخ » ، فقال عمر إنك أخطأت التأويل يا قدامة ، إذا اتقيت الله اجتبت ما حرم الله . وفي رواية فقال لِمَ تجلدى ! بينى وبينك كتاب الله ، فقال عمر وأى كتاب الله تجد أن لا أجلك ؟ قال : إن الله يقول في كتابه « ليس على الذين آمنوا إلى آخر الآية » فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله بدرا وأحدا والخندق والمشاهد ، فقال عمر ألا تردون عليه قوله ! فقال ابن عباس ، إن هؤلاء الآيات أنزلن عذرا للماضين وحجة على الباقين ،

فغذر الماضين بأنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر ، وحجة على الباقيين لأن الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ، ثم قرأ إلى آخر الآية الأخرى ، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا وأحسنوا فإن الله قد نهى أن يشرب الخمر ، قال عمر صدقت . الحديث »

وتشمل الآثار إجماع الأمة على تفسير معنى ، إذ لا يكون إلا عن مستند كإجماعهم على أن المراد من الأخت في آية الكلاله الأولى هي الأخت للأُم ، وأن المراد من الصلاة في سورة الجمعة هي صلاة الجمعة ، وكذلك المعلومات بالضرورة كلها ككون الصلاة مراداً منها الهيئة المخصوصة دون الدعاء ، وإزالة المال المخصوص المدفوع .

وأما القراءات فلا يحتاج إليها إلا في حين الاستدلال بالقراءة على تفسير غيرها ، وإنما يكون في معنى الترجيح لأخذ المعاني القائمة من الآية أو لاستظهار على المعنى ، فذكر القراءة كذكر الشاهد من كلام العرب ؛ لأنها إن كانت مشهورة ، فلا جرم أنها تكون حجة لنوعية ، وإن كانت شاذة فحجتها لا من حيث الرواية ، لأنها لا تكون صحيحة الرواية ، ولكن من حيث إن قارئها ماقرأ بها إلا استناداً لاستعمال عربي صحيح ، إذ لا يكون القارئ معتداً به إلا إذا عرف سلامة عربيته ، كما احتجوا على أن أصل الحمد لله أنه منصوب على المفعول المطلق بقراءة هارون المتكى الحمد لله بالنصب كما في الكشف ، وبذلك يظهر أن القراءة لا تعد تفسيراً من حيث هي طريق في أداء ألفاظ القرآن ، بل من حيث إنها شاهد لغوي فرجت إلى علم اللغة .

وأما أخبار العرب فهي من جملة أدبهم وإنما خصصتها بالذكر تنبيهاً لمن يتوهم أن الاشتغال بها من اللغو فهي يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن في سوقها لأن القرآن إنما يذكر القصص والأخبار للموعظة والاعتبار ، لا لأن يتحداث بها الناس في الأسمار ، فبمعرفة الأخبار يعرف ما أشارت له الآيات من دقائق المعاني ، فنحو قوله تعالى « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » وقوله « قتل أصحاب الأخدود » يتوقف على معرفة أخبارهم عند العرب .

وأما أصول الفقه فلم يكونوا يمدونه من مادة التفسير ، ولكنهم يذكرون أحكام الأوامر

والنواهي والعموم وهي من أصول الفقه ، فتحصل أن بعضه يكون مادة للتفسير وذلك من جهتين : إحداهما أن علم الأصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب وفهم موارد اللغة أهل التنبيه عليها علماء العربية مثل مسائل الفحوى ومفهوم المخالفة ، وقد عد الغزالي علم الأصول من جملة العلوم التي تتعلق بالقرآن وبأحكامه فلا جرم أن يكون مادة للتفسير .

الجهة الثانية : أن علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها فهو آلة للمفسر في استنباط المعاني الشرعية من آياتها .

وقد عد عبد الحكيم والآلوسی ، أخذاً من كلام السكاكي ، في آخر فن البيان الذي تقدم آنفاً وما شرحه به شارحاه التفتراني والجرجاني ، علم الكلام في جملة ما يتوقف عليه علم التفسير ، قال عبد الحكيم : « لتوقف علم التفسير على إثبات كونه تعالى متكلماً ، وذلك يحتاج إلى علم الكلام » .

وقال الآلوسی « لتوقف فهم ما يجوز على الله ويستحيل على الكلام » بمعنى من آيات التشابه في الصفات مثل « الرحمن على العرش استوى » ، وهذا التوجيه أقرب من توجيه عبد الحكيم ، وهو مأخوذ من كلام السيد الجرجاني في شرح المفتاح ، وكلاهما اشتباه لأن كون القرآن كلام الله قد تقرر عند سلف الأمة قبل علم الكلام ، ولا أثر له في التفسير ، وأما معرفة ما يجوز وما يستحيل فكذلك ، ولا يحتاج لعلم الكلام إلا في التوسع في إقامة الأدلة على استحالة بعض المعاني ، وقد أثبت أن ما يحتاج إليه التوسع لا يصير مادة للتفسير .

ولم نعد الفقه من مادة علم التفسير كما فعل السيوطي ، لعدم توقف فهم القرآن ، على مسائل الفقه ، فإن علم الفقه متأخر عن التفسير وفرع عنه ، وإنما يحتاج المفسر إلى مسائل الفقه ، عند قصد التوسع في تفسيره ، للتوسع في طرق الاستنباط وتفصيل المعاني تشريهاً وآداباً وعلوماً ، ولذلك لا يكاد يحصر ما يحتاجه المتبحر في ذلك من العلوم ، ويوشك أن يكون المفسر المتوسع محتاجاً إلى الإلمام بكل العلوم وهذا المقام هو الذي أشار له البيضاوي بقوله : « لا يليق لتعاطيه ، والتصدي للتكلم فيه ، إلا من برع في العلوم الدينية ، كلها أصولها وفروعها وفي الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها » .

تنبيه: اعلم أنه لا يمد من استمداد علم التفسير ، الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في تفسير آيات ، ولا ما يروى عن الصحابة في ذلك لأن ذلك من التفسير لا من مدده ، ولا يمد أيضا من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن من معنى يفسر بعضا آخر منها ، لأن ذلك من قبيل حمل بعض الكلام على بعض ، كتحصيل العموم وتقييد المطلق وبيان المجمل وتأويل الظاهر ودلالة الاقتضاء وغوى الخطاب ولحن الخطاب ، ومفهوم المخالفة .

ذكر ابن هشام ، في معنى اللبيب ، في حرف لا ، عن أبي على الفارسي ، أن القرآن كله كالسورة الواحدة ، ولهذا يذكر الشئ في سورة وجوابه في سورة أخرى ، نحو « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » وجوابه « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » اهـ . وهذا كلام لا يحسن إطلاقه ، لأن القرآن قد يحمل بعض آياته على بعض وقد يستقل بعضها عن بعض ، إذ ليس يتعين أن يكون المعنى المقصود في بعض الآيات مقصودا في جميع نظائرها ، بله ما يقارب غرضها .

واعلم أن استمداد علم التفسير ، من هذه المواد لا ينافي كونه رأس العلوم الإسلامية كما تقدم ، لأن كونه رأس العلوم الإسلامية ، معناه أنه أصل لعلوم الإسلام على وجه الإجمال فأما استمداده من بعض العلوم الإسلامية ، فذلك استمداد لقصد تفصيل التفسير على وجه أتم من الإجمال ، وهو أصل لما استمد منه باختلاف الاعتبار على ما حققه عبد الحكيم .

المقدمة الثالثة

في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأى ونحوه

إِنْ قُلْتَ أَرَأَيْكَ بِمَا عَدَدْتَ مِنْ عُلُومِ التَّفْسِيرِ ثَبَتَ أَنْ تَفْسِيرًا كَثِيرًا لِلْقُرْآنِ لَمْ يَسْتَنْدِ إِلَى مَأْثُورٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا عَنْ أَصْحَابِهِ ، وَتَبِيحٌ لِمَنْ اسْتَجْمَعَ مِنْ تِلْكَ الْعُلُومِ حَظًّا كَافِيًا وَذَوْقًا يَنْفَتِحُ لَهُ بِهِمَا مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ مَا يَنْفَتِحُ عَلَيْهِ ، أَنْ يَفْسِرَ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ بِمَا لَمْ يَوْثُرْ عَنْ هَؤُلَاءِ ، فَيَفْسِرَ بِمَعَانٍ تَقْتَضِيهَا الْعُلُومُ الَّتِي بَسْتَمِدُّ مِنْهَا عِلْمُ التَّفْسِيرِ ، وَكَيْفَ حَالِ التَّحْذِيرِ الْوَاقِعِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « مِنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيَهُ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ، وَفِي رِوَايَةٍ : مِنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَغَيْرَ عِلْمٍ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ، وَالْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ » وَكَيْفَ مَحَلِّ مَا رَوَى مِنْ تَحَاثُّي بَعْضِ السَّلَفِ عَنِ التَّفْسِيرِ بَغَيْرِ تَوْقِيفٍ ؟ فَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ الْأَبِّ فِي قَوْلِهِ « وَفَاكِهَةً وَأَبًّا » فَقَالَ : « أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي ، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي إِذَا قُلْتَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيِي » وَيُرْوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالشَّعْبِيِّ إِحْجَامُهُمَا عَنْ ذَلِكَ .

قُلْتُ : أَرَأَيْكَ كَمَا حَسِبْتَ أَثْبَتُ ذَلِكَ وَأُبَيِّحُهُ ، وَهَلْ اتَّسَعَتِ التَّفَاسِيرُ وَتَفَنَّتْ مُسْتَنْبَطَاتُ مَعَانِي الْقُرْآنِ إِلَّا بِمَا رُزِقَهُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ فَهْمٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ . وَهَلْ يَتَحَقَّقُ قَوْلُ عَلَمَائِنَا « إِنْ الْقُرْآنَ لَا تَنْقُضِي عَجَائِبِهِ » إِلَّا بِازْدِيَادِ الْمَعَانِي بِاتِّسَاعِ التَّفْسِيرِ ؟ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ مُخْتَصَرًا فِي وَرَقَاتٍ قَلِيلَةٍ . وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ : « مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَفْسِرُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا آيَاتَ مَعْدُودَاتٍ عِلْمُهُ جَبْرِيلُ إِيَّاهُنَّ » كَمَا تَقْدُمُ فِي الْمَقْدَمَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ لَوْ كَانَ التَّفْسِيرُ مَقْصُورًا عَلَى بَيَانِ مَعَانِي مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَكَانَ التَّفْسِيرُ نِزْرًا ، وَنَحْنُ نَشَاهِدُ كَثْرَةَ أَقْوَالِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَمَنْ يَلِيهِمْ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَمَا أَكْثَرَ ذَلِكَ الْاسْتِنْبَاطَ بِرَأْيِهِمْ وَعِلْمِهِمْ . قَالَ الْبَزْزَالِيُّ وَالْقُرْطُبِيُّ : لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ فِي التَّفْسِيرِ مَسْمُوعًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْجِهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَثْبِتْ عَنْهُ مِنَ التَّفْسِيرِ إِلَّا تَفْسِيرَ آيَاتٍ قَلِيلَةٍ وَهِيَ مَا تَقْدَمُ عَنْ عَائِشَةَ . الثَّانِي أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي التَّفْسِيرِ عَلَى وَجْهِ مُخْتَلَفٍ لَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا .

وسماع جميعها من رسول الله محال ، ولو كان بعضها مسموعاً لترك الآخر ، أى لو كان بعضها مسموعاً لقال قائله إنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليه من خالفه ، فتبين على القطع أن كل مفسر قال فى معنى الآية بما ظهر له باستنباطه . روى البخارى فى صحيحه عن أبى جحيفة قال : قلت لعلى : هل عندكم شئ من الوحي إلا ما فى كتاب الله ؟ قال « لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لا أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً فى القرآن إلخ » وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس فقال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » واتفق العلماء على أن المراد بالتأويل تأويل القرآن ، وقد ذكر فقهاؤنا فى آداب قراءة القرآن أن التفهم مع قلة القراءة أفضل من كثرة القراءة بلا تفهم ، قال الغزالي فى الإحياء « التدبر فى قراءته إعادة النظر فى الآية والتفهم أن يستوضح من كل آية ما يليق بها كي تتكشف له من الأسرار معان مكنونة لا تتكشف إلا للموفقين » قال : « ومن موانع الفهم أن يكون قد قرأ تفسيراً واعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس وابن مجاهد ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى فهذا من الحجب العظيمة » وقال نضر الدين فى تفسير قوله تعالى « وعاشروهن بالمعروف » فى سورة النساء « وقد ثبت فى أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجهاً فى تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر فى تفسيرها وإلا لصارت الدقائق التى يستنبطها المتأخرون فى التفسير مردودة ، وذلك لا يقوله إلا مقلدٌ خُلف - بضم الخاء - اه » وقال سفيان بن عيينة فى قوله تعالى « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون » هى تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، فقيل له من قال هذا فغضب وقال : إنما قاله من علمه يريد نفسه ، وقال أبو بكر ابن العربى فى العواصم إنه أُملى على سورة نوح خمسمائة مسألة وعلى قصة موسى ثمانمائة مسألة .

وهل استنباط الأحكام التشريعية من القرآن فى خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم يسبق تفسيرها به قبل ذلك ؟ وهذا الإمام الشافعى يقول ، تطلبت دليلاً على حجية الإجماع فظفرت به فى قوله تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

قال شرف الدين الطيبي فى شرح الكشاف فى سورة الشعراء : « شرط التفسير الصحيح

أن يكون مطابقاً للفظ من حيث الاستعمال، سليماً من التكلف عرياً من التعسف ، وصاحب الكشف يسمى ما كان على خلاف ذلك بدع التفسير .

وأما الجواب عن الشبهة التي نشأت من الآثار الروية في التحذير من تفسير القرآن بالرأى فرجعه إلى أحد خمسة وجوه : أولها - أن المراد بالرأى هو القول عن مجرد خاطر دون استناد إلى نظر في أدلة العربية ومقاصد الشريعة وتصاريقها ، وما لا بد منه من معرفة الناسخ والنسخ وسبب النزول فهذا لا محالة إن أصاب فقد أخطأ في تصويره بلا علم ، لأنه لم يكن مضمون الصواب كقول المثل « رَمِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ رَامٍ » وهذا كمن فسر « ألم » ! إن الله أنزل جبريل على محمد بالقرآن فإنه لا مستند لذلك ، وأما ما روى عن الصديق رضى الله عنه فيما تقدم في تفسير الآية فذلك من الورع خشية الوقوع في الخطأ في كل ما لم يقم له فيه دليل أو في مواضع لم تدع الحاجة إلى التفسير فيها ، ألم تر أنه سئل عن « الكلاله » في آية النساء فقال (أقول فيها برأى فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فني ومن الشيطان الخ) وعلى هذا المحمل ما روى عن الشعبي وسعيد أى أنهما تباعدا عما يوقع في ذلك ولو على احتمال بعيد مبالغة في الورع ودفعاً للاحتمال الضعيف ، وإلا فإن الله تعالى ما تعبدنا في مثل هذا إلا ببذل الوسع مع ظن الإصابة .

ثانيها : أن لا يتدبر القرآن حق تدبره فيفسره بما يخطر له من بادى الرأي دون إحاطة بجوانب الآية ومواد التفسير مقتصر على بعض الأدلة دون بعض كأن يعتمد على ما يبدو من وجه في العربية فقط ، كمن يفسر قوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله » الآية على ظاهر معناها يقول إن الخير من الله والشر من فعل الإنسان بقطع النظر على الأدلة الشرعية التي تقتضى أن لا يقع إلا ما أراد الله خافلاً عما سبق من قوله تعالى « قل كل من عند الله » (١) أو بما يبدو من ظاهر اللغة دون استعمال العرب كمن يقول في قوله تعالى « وآتينا نوحاً الناقة مبصرة » فيفسر مبصرة بأنها ذات بصر لم تكن عمياء ، فهذا من الرأى المذموم لفساده .

(١) هذا التمثيل للقرآنى على أحد تفسيرين ، والنال يكتفى فيه الفرض . وذكر الفخر في تفسير قوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله » أنه جرى على معنى التعليم للتأديب مع الخالق وقوله « قل كل من عند الله » جرى مجرى بيان الحقيقة .

ثالثها : أن يكون له ميل إلى نزعة أو مذهب أو نحلة فيتأول القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف ، فيجر شهادة القرآن لتقرير رأيه وينمعه عن فهم القرآن حق فهمه ما قيّد عقله من التعصب ، عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه حتى إن لمع له بارق حق وبدا له معنى يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصب حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك ، وهو خلاف معتقدك كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكن والاستقرار ، فإن خطر له أن معنى قوله تعالى «القدوس» أنه المنزه عن كل صفات المحدثات حجبه تقليده عن أن يتقرر ذلك في نفسه ، ولو تقرر للتوصل فهمه فيه إلى كشف معنى ثان أو ثالث ، ولكنه يسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته مذهبه . وجمود الطبع على الظاهر مانع من التوصل للغور . كذلك تفسير المعتزلة قوله « إلى ربها ناظرة » بمعنى أنها تنتظر نعمة ربها على أن « إلى » واحد الآلاء مع ما في ذلك من الخروج عن الظاهر وعن المأثور وعن المقصود من الآية . وقالت البيهاتية في قوله تعالى « هذا بيان للناس » إنه بيان ابن سمان كبير مذهبهم^(١) . وكانت المنصورية أصحاب أبي منصور الكسف^(٢) يزعمون أن المراد من قوله تعالى « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحب مراكوم » أن الكسف إمامهم نازل من السماء ، وهذا إن صح عنهم ولم يكن من ملصقات أضدادهم فهو تبديل للقرآن ومروق عن الدين .

رابعها : أن يفسر القرآن برأى مستند إلى ما يقتضيه اللفظ ثم يزعم أن ذلك هو المراد دون غيره لما في ذلك من التضييق على المتأولين .

خامسها : أن يكون القصد من التحذير أخذ الحيلة في التدبر والتأويل ونبد التسرع إلى ذلك ، وهذا مقام تفاوت العلماء فيه واشتد الغلو في الورع ببعضهم حتى كان لا يذكر تفسير شيء غير عازيه إلى غيره . وكان الأصمعي لا يفسر كلمة من العربية إذا كانت واقعة في القرآن ،

(١) وهو بيان بن سمان التميمي ، والبيان من غلاة الشيعة ، يقولون بالحلول وبإلهية علي والحسن والحسين ومحمد بن الحنفية . صلب خالد بن عبد الله القسري بياناً هذا سنة ١١٩ بالكوفة .

(٢) هو أبو منصور العجلي الملقب بالكسف - بكسر الكاف وسكون السين - زعم أنه خليفة الباقر وزعم أنه عرج إلى السماء وتلقى من الله الإذن بأن يبلغ عنه ، وأنه المراد بقوله تعالى « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحب مراكوم » قتله يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق بين سنة ١٢٠ و ١٢٦ هـ .

ذكر ذلك في الزهر فأبى أن يتكلم في أن سَرَى وأسَرَى بمعنى واحد ، لأن أسرى ذكرت في القرآن . ولا في أن عصفت الريح وأعصفت بمعنى واحد لأنها في القرآن ، وقال : الذي سمعته في معنى الخليل أنه أصنى المودة وأصمها ولا أزيد فيه شيئا لأنه في القرآن - اه .

فهذا ضرب من الورع يعتري بعض الناس لخوف ، وأنه قد يعتري كثيرا من أهل العلم والفضل ، وربما تطرق إلى بعضهم في بعض أنواع الأحوال دون بعض ، فتجد من يعتريه ذلك في العلم ولا يعتريه في العقل ، وقد تجد العكس ، والحق أن الله ما كلفنا في غير أصول الاعتقاد بأكثر من حصول الظن المستند إلى الأدلة والأدلة متنوعة على حسب أنواع المستند فيه . وأدلة فهم الكلام معروفة وقد بينها .

أما الذين جمدوا على القول بأن تفسير القرآن يجب أن لا يعدو ما هو مأثور فهم رموا هذه الكلمة على عواهنها ولم يضبطوا مرادهم من المأثور عن يثر ، فإن أرادوا به ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير بعض آيات إن كان مرويا بسند مقبول من صحيح أو حسن ، فإذا التزموا هذا الظن بهم فقد ضيقوا سعة معاني القرآن وينايع ما يستنبط من علومه ، وناقضوا أنفسهم فيما دونوه من التفاسير ، وغلطوا سلفهم فيما تأولوه ، إذ لا ملجأ لهم من الاعتراف بأن أئمة المسلمين من الصحابة ممن بعدهم لم يقصروا أنفسهم على أن يرووا ما بلغهم من تفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد سأل عمر بن الخطاب أهل العلم عن معاني آيات كثيرة ولم يشترط عليهم أن يرووا له ما بلغهم من تفسيرها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن أرادوا بالمأثور ما روى عن النبي وعن الصحابة خاصة وهو ما يظهر من صنيع السيوطي في تفسيره الدر المنثور ، لم يتسع ذلك المضيق إلا قليلا ولم يغن عن أهل التفسير فتىلا ، لأن أكثر الصحابة لا يؤثر عنهم في التفسير إلا شيء قليل سوى ما يروى عن علي بن أبي طالب على ما فيه من صحيح وضعيف وموضوع ، وقد ثبت عنه أنه قال : ما عندي مما ليس في كتاب الله شيء إلا فهماً يؤتيه الله . وما يروى عن ابن مسعود وعبد الله بن عمر وأنس وأبي هريرة . وأما ابن عباس فكان أكثر ما يروى عنه قولاً برأيه على تفاوت بين رواته . وإن أرادوا بالمأثور ما كان مرويا قبل تدوين التفاسير الأول مثل ما يروى عن أصحاب ابن عباس وأصحاب ابن مسعود ، فقد أخذوا يفتحون الباب من شقة ، ويقربون ما بعد من الشقة . إذ لا محيص لهم من الاعتراف بأن التابعين قالوا أقوالا في معاني القرآن

لم يسندوها ولا ادعوا أنها محذوفة الأسانيد ، وقد اختلفت أقوالهم في معاني آيات كثيرة اختلافًا ينيءُ إنباءً واضحًا بأنهم إنما تأوّلوا تلك الآيات من أفهامهم كما يعلمه من له علم بأقوالهم ، وهي ثابتة في تفسير الطبرى ونظرائه ، وقد ألزم الطبرى في تفسيره أن يقتصر على ما هو مروى عن الصحابة والتابعين ، لكنه لا يلبث في كل آية أن يتخطى ذلك إلى اختياره منها وترجيح بعضها على بعض بشواهد من كلام العرب ، وحسبه بذلك تجاوزاً لما حدده من الاقتصار على التفسير بالمأثور وذلك طريق ليس بنهج ، وقد سبقه إليه بقى ابنُ غَخلد ولم نقف على تفسيره ، وشا كل الطبرى فيه معاصروه ، مثل ابن حاتم وابن مردويه والحاكم ، فله در الذين لم يحبسوا أنفسهم في تفسير القرآن على ما هو مأثور مثل الفراء وأبى عبيدة من الأولين ، والزجاج والرّمّاني ممن بعدهم ، ثم الذين سلكوا طريقهم مثل الزمخشري وابن عطية .

وإذ قد تقصينا ماثرات التفسير بالرأى الذموم وبيننا لكم الأشباه والأمثال ، بما لا يبق معه للاشتباه من مجال ، فلا نجاوز هذا المقام ما لم ننبهكم إلى حال طائفة ألزمت تفسير القرآن بما يوافق هواها ، وصرفوا ألفاظ القرآن عن ظواهرها بما سمّوه الباطن ، وزعموا أن القرآن إنما نزل متضمنًا لكنيات ورموز عن أغراض ، وأصل هؤلاء طائفة من غلاة الشيعة عُرفوا عند أهل العلم بالباطنية فلقبهم بالوصف الذى عرفوهم به ، وهم يعرفون عند المؤرخين بالإسماعيلية لأنهم ينسبون مذهبهم إلى جعفر بن إسماعيل الصادق ، ويعتقدون عصمته وإمامته بعد أبيهم بالوصاية ، ويرون أن لا بد للمسلمين من إمام هدى من آل البيت هو الذى يقيم الدين ، ويبين مراد الله . ولما توقعوا أن يحاجّهم العلماء بأدلة القرآن والسنة رأوا أن لا محيص لهم من تأويل تلك الحجج التى تقوم في وجه بدعتهم ، وأنهم إن خصوها بالتأويل وصرف اللفظ إلى الباطن اتهمهم الناس بالتعصب والتحكّم فأروا صرف جميع القرآن عن ظاهره وبنوه على أن القرآن رموز لمعان خفية في صورة ألفاظ تفيد معاني ظاهرة ليشغل بها عامة المسلمين ، وزعموا أن ذلك شأن الحكماء ، فذهبهم مبنى على قواعد الحكمة الإشرافية ومذهب التناسخ والحولية فهو خليط من ذلك ، ومن طقوس الديانات اليهودية والنصرانية وبعض طرائق الفلسفة ودين زرادشت . وعندهم أن الله يحل في كل رسول وإمام وفي الأماكن المقدسة ، وأنه يشبه الخلق - تعالى وتقدس - وكل علوى يحل فيه الإله . وتكلفوا لتفسير القرآن بما يساعد

الأصول التي أسسوها . ولهم في التفسير تكلفات ثقيلة منها قولهم ان قوله تعالى « وعلى الأعراف رجال » أن جيلا يقال له الأعراف هو مقر أهل المعارف الذين يعرفون كلا بسياهم . وأن قوله تعالى « وإن منكم إلا واردها » أى لا يصل أحد إلى الله إلا بعد جوازه على الآراء الفاسدة إما في أيام صباه ، أو بعد ذلك ، ثم ينجى الله من يشاء . وإن قوله تعالى « اذهبوا إلى فرعون إنه طغى » أراد بفرعون القلب . وقد تصدى للرد عليهم الغزالي في كتابه الملقب بـ « المستظهرى » . وقال إذا قلنا بالباطن فالباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر فيمكن تنزيل الآية على وجوه شتى اه معنى والذي يتخذونه حجة لهم يمكن أن نقلبه عليهم وندعى أنه باطن القرآن لأن المعنى الظاهر هو الذى لا يمكن اختلاف الناس فيه لاستناده للغة الموضوعة من قبل . وأما الباطن فلا يقوم فهم أحد فيه حجة على غيره اللهم إلا إذا زعموا أنه لا يلتقى إلا من الإمام المعصوم ولا إخا لهم إلا قائلين ذلك . ويؤيد هذا ما وقع في بعض قراطيسهم قالوا « إنما ينتقل إلى البدل مع عدم الأصل ، والنظر بدل من الخبر فإن كلام الله هو الأصل فهو خلق الإنسان وعلمه البيان والإمام هو خليفته ومع وجود الخليفة الذى يبين قوله فلا ينتقل إلى النظر اه ويبن ابن العربى في كتاب العواصم شيئا من فضائح مذهبهم بما لا حاجة إلى التطويل به هنا . فإن قلت فما روى : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا . وعن ابن عباس أنه قال إن للقرآن ظهرا وبطنا . قلت لم يصح ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بله الروى عن ابن عباس فمن هو المتصدى لروايته عنه؟ على أنهم ذكروا من بقية كلام ابن عباس أنه قال « فظهره التلاوة وبطنه التأويل » فقد أوضح مراده إن صح عنه بأن الظاهر هو اللفظ والباطن هو المعنى . ومن تفسير الباطنية تفسير القاشانى وكثير من أقوالهم مبثوث في رسائل إخوان الصفاء .

أما ما يتكلم به أهل الإشارات من الصوفية في بعض آيات القرآن من معان لا تجرى على ألفاظ القرآن ظاهرا ولكن بتأويل ونحوه فينبغى أن تعلموا أنهم ما كانوا يدعون أن كلامهم في ذلك تفسير للقرآن ، بل يعنون أن الآية تصلح للتمثل بها في الفرض المتكلم فيه ، وحسبكم في ذلك أنهم سموها إشارات ولم يسموها معانى ، فبذلك فارق قولهم قول الباطنية . ولعلماء الحق فيها رأيان : فالغزالي يراها مقبولة ، قال في كتاب من الإحياء : إذا قلنا في قوله صلى

الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة » فهذا ظاهره أو إشارته أن القلب بيت وهو مهبط الملائكة ومستقر آثارهم ، والصفات الرديئة كالغضب والشهوة والحسد والحقد والعجب كلاب نابجة في القلب فلا تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ، ونور الله لا يقذفه في القلب إلا بواسطة الملائكة ، فقلب كهذا لا يُقذف فيه النور . وقال ولست أقول إن المراد من الحديث بلفظ البيت القلب وبالكلب الصفة المذمومة ولكن أقول هو تنبيه عليه ، وفرق بين تغيير الظاهر وبين التنبيه على البواطن من ذكر الظواهر اهـ فهذه الدقيقة فارق نزعة الباطنية . ومثل هذا قريب من تفسير لفظ عام في آيةٍ بخاص من جزئياته كما وقع في كتاب المغازي من صحيح البخاري عن عمرو بن عطاء في قوله تعالى « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً » قال هم كفار قريش ، ومحمد نعمة الله « وأحلوا قومهم دار البوار » قال يوم بدر . وابن العربي في كتاب العواصم يرى إبطال هذه الإشارات كلها حتى أنه بعد أن ذكر نحلة الباطنية وذكر رسائل إخوان الصفاء أطلق القول في إبطال أن يكون للقرآن باطن غير ظاهره ، وحتى أنه بعد ما نوه بالثناء على الغزالي في تصديه للرد على الباطنية والفلاسفة قال : « وقد كان أبو حامد بدرأ في ظلمة الليالي ، وعقدا في لَبَّةِ المعالي ، حتى أوغل في التصوف ، وأكثر معهم التصرف ، فخرج عن الحقيقة ، وحاد في أكثر أقواله عن الطريقة اهـ » .

وعندي أن هذه الإشارات لا تعدو واحداً من ثلاثة أنحاء : الأول ما كان يجري فيه معنى الآية بحرى التمثيل لحالٍ شبيهٍ بذلك المعنى كما يقولون مثلاً « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » أنه إشارة للقلوب لأنها مواضع الخضوع لله تعالى إذ بها يعرف فتسجد له القلوب بفناء النفوس . ومنعها من ذكره هو الحيلولة بينها وبين المعارف الدنية، وسعى في خرابها بتكديرها بالتعصبات وغلبة الهوى، فهذا يشبه ضرب المثل لحال من لا يركى نفسه بالمعرفة ويمنع قلبه أن تدخله صفات الكمال الناشئة عنها بحال مانع المساجد أن يذكر فيها اسم الله ، وذكر الآية عند تلك الحالة كالنطق بلفظ المثل ، ومن هذا قولهم في حديث « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب » كما تقدم عن الغزالي . الثانى : ما كان من نحو التفاؤل فقد يكون للكلمة معنى يسبق من صورتها إلى السمع هو غير معناها المراد وذلك من باب انصراف ذهن السامع إلى ما هو المهم عنده . والذي يجوز في خاطره

وهذا كمن قال في قوله تعالى « من ذا الذي يشفع » من ذلّ ذى إشارة للنفس يصير من المقربين الشفعاء ، فهذا يأخذ صدى موقع الكلام في السمع ويتأوله على ما شغل به قلبه . ورأيت الشيخ محي الدين يسمى هذا النوع سماعا ولقد أبدع . الثالث : غير ومواعظ وشأن أهل النفوس اليقظ أن ينتفعوا من كل شيء . يأخذوا الحكمة حيث وجدوها فما ظنك بهم إذا قرأوا القرآن وتدبروه فاتعظوا بمواعظه فإذا أخذوا من قوله تعالى « فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً » اقتبسوا أن القلب الذي لم يمثل رسول المعارف العليا تكون عاقبته وبالا . ومن حكاياتهم في غير باب التفسير أن بعضهم مر رجل يقول لآخر : هذا العود لا ثمرة فيه فلم يمدّ صالحاً إلا للنار ، فجعل يبكي ويقول : إذن فالقلب غير الثمر لا يصلح إلا للنار .

فنسبة الإشارة إلى لفظ القرآن مجازية لأنها إنما تشير لمن استمدت عقولهم وتدبرهم في حال من الأحوال الثلاثة ولا ينتفع بها غير أولئك ، فلما كانت آيات القرآن قد أنارت تدبرهم وأنارت اعتبارهم نسبوا تلك الإشارة للآية . فليست تلك الإشارة هي حق الدلالة اللفظية والاستعمالية حتى تكون من لوازم اللفظ وتوابعه كما قد نسين . وكل إشارة خرجت عن حد هذه الثلاثة الأحوال إلى ما عداها فهي تقترب إلى قول الباطنية روي دارويدا إلى أن تبلغ عين مقالاتهم وقد بصروناكم بالحد الفارق بينهما ، فإذا رأيتم اختلاطه فحققوا مناطه ، وفي أيديكم فيصل الحق فدوّنكم اختراطه .

وليس من الإشارة ما يعرف في الأصول بدلالة الإشارة ، وغوى الخطاب ، وفهم الاستغراق من لام التعريف في المقام الخطابي ، ودلالة التضمن والالتزام كما أخذ العلماء من تنبيهات القرآن استدلالا لمشروعية أشياء ، كاستدلالهم على مشروعية الوكالة من قوله تعالى « فابمشوا أحدكم بورقكم هذه » ومشروعية الضمان من قوله « وأنا به زعيم » . ومشروعية القياس من قوله « لِيَتَحَكَّمْ » بين الناس بما أراك الله » ولا بما هو بالمعنى المجازي نحو « يا جبال أوبى مه - فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » ولا ما هو من تنزيل الحال منزلة المقال نحو « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » لأن جميع هذا مما قامت فيه الدلالة العرفية مقام الوضعية واتحدت في إدراكه أفهام أهل العربية فكان من الدولات التبعية .

قال في الكشف : وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها واعتباراً بموردها . يعنى أنها في شأن الكافرين من دلالة العبارة وفي شأن المؤمنين من دلالة الإشارة .

هذا وإن واجب النصيح في الدين والتنبيه إلى ما يففل عنه المسلمون مما يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم قضى على أن أنه إلى خطر أمر تفسير الكتاب والقول فيه دون مستند من نقل صحيح عن أساطين المفسرين أو إبداء تفسير أو تأويل من قائله إذا كان القائل توفرت فيه شروط الضلالة في العلوم التي سبق ذكرها في المقدمة الثانية .

فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات على طريقة كتب التفسير ومنهم من يضع الآية ثم يركض في أساليب المقالات تاركاً معنى الآية جانباً ، جالباً من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالباً ، وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض لهذا العمل العلمي الجليل فيجب على العاقل أن يعرف قدره ، وأن لا يتعدى طوره ، وأن يرد الأشياء إلى أربابها ، كي لا يختلط الخاثر بالزباد ، ولا يكون في حالك سواد ، وإن سكوت العلماء على ذلك زيادة في الورطة ، وإغشاش لأهل هذه الغلطة ، فمن يركب متن عمياء ، ويخبط خبط عشواء ، فحق على أساطين العلم تقويم اعوجاجه ، وتمييز حلوه من أجابه ، تحذيراً للمطالع ، وتنزيلاً في البرج والطالع .

المقدمة الرابعة

فيما يحق أن يكون غرض المفسر

كأنى بكم وقد مر على أسماعكم ووعت ألبابكم ما قررته من استمداد علم التفسير ، ومن صحة تفسير القرآن بنير المأثور ، ومن الإنحاء على من يفسر القرآن بما يدعيه باطنا ينافي مقصود القرآن ، ومن التفرقة بين ذلك وبين الإشارات ، تتطلعون بعد إلى الإفصاح عن غاية المفسر من التفسير ، وعن معرفة المقاصد التي نزل انقرآن لبيانها حتى تستبين لكم غاية المفسرين من التفسير على اختلاف طرائقهم ، وحتى تعلموا عند مطالعة التفاسير مقادير اتصال ما تشتمل عليه ، بالغاية التي يرى إليها المفسر فترنوا بذلك مقدار ما أوفى به من المقصد ، ومقدار ما تجاوزه ، ثم ينعطف القول إلى التفرقة بين من يفسر القرآن بما يخرج عن الأغراض المرادة منه ، وبين من يفصل معانيه تفصيلا ، ثم ينعطف القول إلى نموذج مما استخرجه العلماء من مستنبطات القرآن في كثير من العلوم .

إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى « وأزلنا عليك الكتاب تبیاناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية ، والجماعية ، والعمرانية . فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها ، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير ، ثم صلاح السريرة الخاصة ، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة ، والباطنة كالخلق بترك الحسد والحقد والكبر . وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع ، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه . ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات وموانية القوى النفسانية . وهذا هو علم المعاملات ، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية .

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي ، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع ، ورعى المصالح الكلية الإسلامية ، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها ، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع .

ففراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيناً وتميذاً بعمرفة مراده والاطلاع عليه فقال: « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكروا أولوا الألباب » سواء قلنا إنه يمكن الاطلاع على تمام مراد الله تعالى وهو قول علمائنا والمشافحي والسكاكي وهما من المعتزلة ، أم قال قائل بقول بقية المعتزلة إن الاطلاع على تمام مراد الله تعالى غير ممكن (وهو خلاف لا طائل تحته) إذ القصد هو الإمكان الوقوعى لا العقلى ، فلا مانع من التكليف باستقصاء البحث عنه بحسب الطاقة ومبلغ العلم مع تعذر الاطلاع على تمامه .

وقد اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربى مظهرًا لوحيه ، ومستودعاً لمراده ، وأن يكون العرب هم المتلقين أولاً لشرعه وإبلاغ مراده لحكمة علمها : منها كون لسانهم أفصح الألسن وأسهلها انتشاراً ، وأكثرها تحملاً للمعانى مع إيجاز لفظه ، ولتكون الأمة المتلقية للتشريع والناشرة له أمة قد سلت من أفن الرأى عند المجادلة ، ولم تقعد بها عن النهوض أغلال التكالب على الرفاهية ، ولا عن تلقى الكمال الحقيق إذ يسبب لها خلطه بما يجر إلى اضمحلاله فيجب أن تعلموا قطعاً أن ليس المراد من خطاب العرب بالقرآن أن يكون التشريع قاصراً عليهم أو مراعيًا لخاصة أحوالهم ، بل إن عموم الشريعة ودوامها وكون القرآن معجزة دائمة مستمرة على تماقب السنين ينافى ذلك ، نعم إن مقاصده تصفية نفوس العرب الذين اختارهم كما قلنا لتلقى شريعته وبثها ونشرها ، فهم المخاطبون ابتداء قبل بقية أمة الدعوة فكانت أحوالهم مرعية لا محالة ، وكان كثير من القرآن مقصوداً به خطابهم خاصة ، وإصلاح أحوالهم قال تعالى « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » وقال « أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » لكن ليس ذلك بوجه الاختصار على أحوالهم كما سيأتى .

أليس قد وجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيينها فقلنم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراءنا وهى ثمانية أمور :

الأول : إصلاح الاعتقاد وتعليم العقيد الصحيح . وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق ، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل ، ويظهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والذهرية وما بينهما ، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى « فَاغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » فأسند آلِهَتَهُمْ زيادة تبيينهم ، وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة .

الثاني : تهذيب الأخلاق قال تعالى « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » وفُسرَت عائشة رضي الله تعالى عنها لما سُئِلَت عن خُلُقِهِ صلى الله عليه وسلم فقالت كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ . وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بُمَثَلْتُمْ لَأَتَمُّكُمْ مَكَارِمَ حَسَنِ الْأَخْلَاقِ » وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب بَلَّغَ خاصة الصحابة ، وقال أبو خِرَاشِ الْهَذَلِيُّ مشيراً إلى ما دخل على العرب من أحكام الإسلام بأحسن تعبير :

فليس كمهد الدار يا أمَّ مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالسهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

أراد بإحاطة السلاسل بالرقاب أحكام الإسلام . والشاهد في قوله وعاد الفتى كالسهل .

الثالث : التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة . قال تعالى « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ - وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعاً كلياً في الغالب ، وجزئياً في المهم ، فقوله تبييناً لكل شيء ، وقوله : اليوم أكملت لكم دينكم المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس . قال الشاطبي لأنه على اختصاره جامع والشرعية تمت بتمامه ولا يكون جامعاً لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية .

الرابع : سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » وقوله « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْياً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ »

وقوله « ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » وقوله « وأمرهم شورى بينهم » .

الخامس : القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم قال « نحن نَقُصُّ عليك أَحْسَنَ الْقَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وللتحذير من مساوئهم قال « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » وفي خلاصها تعليم ، وكنا أشرنا إليها في المقدمة الثانية .

السادس : التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين ، وما يؤهلهم إلى تلقى الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالط العرب من أهل الكتاب . وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلته للضالين وفي دعوته إلى النظر ، ثم نوه بشأن الحكمة فقال « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف ، وافتتحت به عيون الأميين إلى العلم . وقد لحق به التنبيه التكرار على فائدة العلم ، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل ، إنما قصارى علومهم أمور تجريبية ، وكان حكاؤهم أفراداً اختصوا بفرط ذكاء تُضَمُّ إليه تجربة وهم العُرفاء فجاء القرآن بقوله « وما يعقلها إلا العالمون » - « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال « ن والقلم » فنبه إلى منزلة الكتابة .

السابع : المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير ، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد ، وكذلك الحاجة والمجادلة للمعاندين ، وهذا باب الترغيب والترهيب .

الثامن : الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدى ، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدى لأجله بمعناه والتحدى وقع فيه « قل فأتوا بسورة مثله » ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه . هذا ما بلغ إليه استقرارى وللغزالي في إحياء علوم الدين بعض من ذلك .
✓ ففرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بآتم بيان يحتمله المعنى ولا ياباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن ، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم ، أو يخدم القصد تفصيلاً وتقريباً كما أشرنا إليه في المقدمة الأولى ، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء ، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل ، فلا جرم كان رائد

المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله ، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ ، وللتزليل اصطلاح وعادات ، وتعرض صاحب الكشف إلى شيء من عادات القرآن في متناثر كلامه في تفسيره .

فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث ، إما الاختصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل . وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافىها الاستعمال ولا مقصد القرآن ، وتلك هي مستبعات التراكيب وهي من خصائص اللغة العربية البحوث فيها في علم البلاغة ككون التأكيديد على إنكار المخاطب أو ترده ، وكفحوى الخطاب ودلالة الإشارة واحتمال المجاز مع الحقيقة ، وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى ، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها ، أو للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه ، أو لرد مطاعن من يزعم أنه ينافيه لا على أنها مما هو مراد الله من تلك الآية بل لقصد التوسع كما أشرنا إليه في المقدمة الثانية .

ففي الطريقة الثانية قد فرع العلماء وفصلوا في الأحكام ، وخصوها بالتأليف الواسعة ، وكذلك تفاريع الأخلاق والآداب التي أكثر منها حجة الإسلام الغزالي في كتاب الإحياء فلا يلام المفسر إذا أتى بشيء من تفاريع العلوم مما له خدمة للمقاصد القرآنية ، وله مزيد تعلق بالأمور الإسلامية كما تفرض أن يفسر قوله تعالى « وكلم الله موسى تكليماً » بما ذكره المتكلمون في إثبات الكلام النفسى والحجج لذلك ، والقول في ألفاظ القرآن وما قاله أهل المذاهب في ذلك . وكذا أن يفسر ما حكاه الله تعالى في قصة موسى مع الخضر بكثير من آداب العلم والمتعلم كما فعل الغزالي . وقد قال ابن العربي إنه أملى عليها ثمانمائة مسألة . وكذلك تقرير مسائل من علم التشريع لزيادة بيان قوله تعالى في خلق الإنسان « من نطفة ثم من علقه » الآيات . فإنه راجع إلى المقصد وهو مزيد تقرير عظمة القدرة الإلهية .

وفي الطريقة الثالثة تجلب مسائل علمية من علوم لها مناسبة بمقصد الآية : إما على أن بعضها يوصى إليه معنى الآية ولو بتلويح ما كما يفسر أحد قوله تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » فيذكر تقسيم علوم الحكمة ومنافعها مدخلاً ذلك تحت قوله « خيراً كثيراً » .

فالحكمة وإن كانت علما اصطلاحيا وليس هو تمام المعنى للآية إلا أن معنى الآية الأصلي لا يفوت وتقاريع الحكمة تعين عليه . وكذلك أن نأخذ من قوله تعالى « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » تفاصيل من علم الاقتصاد السياسي وتوزيع الثروة العامة ونعلل بذلك مشروعية الزكاة والمواثيث والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل على أن ذلك توىء إليه الآية إيماء .

وأن بعض مسائل العلوم قد تكون أشد تعلقا بتفسير أى القرآن كما نقرض مسألة كلامية لتقرير دليل قرآنى مثل برهان التمانع لتقرير معنى قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وك تقرير مسألة التشابه لتحقيق معنى نحو قوله تعالى « والسماء بنيناها بأيدٍ » فهذا كونه من غايات التفسير واضح، وكذا قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » فإن القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة فلو زاد المفسر ففصل تلك الحالة وبين أسرارها وعللها بما هو مبين في علم الهيئة كان قد زاد المقصد خدمة . وإما على وجه التوفيق بين المعنى القرآنى وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع . وإما على وجه الاسترواح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى « ويوم نُسيرُ الجبال » أن فناء العالم يكون بالزلزال ومن قوله « إذا الشمس كورت » الآية أن نظام الجاذبية يختل عند فناء العالم .

وشرط كون ذلك مقبولا أن يُسلك فيه مسلك الإيجاز فلا يُجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم ولا يصير الاستطراد كالفرض المقصود له لئلا يكون كقولهم السى بالسى يُذكر (١) .

وللعلماء في سلوك هذه الطريقة الثالثة على الإجمال آراء : فأما جماعة منهم فيرون من الحسن التوفيق بين العلوم غير الدينية وآلاتها وبين المعانى القرآنية ، ويرون القرآن مشيرا إلى كثير منها . قال ابن رشد الحفيد في فصل المقال « أجمع المسلمون على أن ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ، ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل، والسبب في ورود الشرع بظاهر وباطن هو اختلاف نظر الناس . وتباين قرائحهم في التصديق »

(١) السبي بسين: مهلة مكسورة وتحية مشددة النظير والمثيل

« وتَحَلَّصَ إلى القول بأن بين العلوم الشرعية والفلسفية اتصالاً . وإلى مثل ذلك ذهب قطب الدين الشيرازي في شرح حكمة الإشراق ، وهذا الغزالي والإمام الرازي وأبو بكر ابن العربي وأمثالهم صنيعهم يقتضي التبسط وتوفيق المسائل العلمية ، فقد ملأوا كتبهم من الاستدلال على المعاني القرآنية بقواعد العلوم الحكيمة وغيرها وكذلك الفقهاء في كتب أحكام القرآن ، وقد علمت ما قاله ابن العربي فيما أملاه على سورة نوح وقصة الخضر » وكذلك ابن جنى والزجاج وأبو حيان قد أشبعوا تفاسيرهم من الاستدلال على القواعد العربية ، ولا شك أن الكلام الصادر عن علام الغيوب تعالى وتقدس لا تبني معانيه على فهم طائفة واحدة ولكن معانيه تطابق الحقائق ، وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم وكانت الآية لها اعتلاق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه . وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم ، وشرطه أن لا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية ، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل ، ولا يكون تكلفاً بينا ولا خروجاً عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية . وأما أبو إسحاق الشاطبي فقال في الفصل الثالث من المسألة الرابعة : « لا يصح في مسلك الفهم والإفهام إلا ما يكون عاماً لجميع العرب . فلا يُتكلَّف فيه فوق ما يقدرُونَ عليه » وقال في المسألة الرابعة من النوع الثاني : « ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها وهم للعرب تنبني عليه قواعد، منها : أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدَّ فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وأشباهاها وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح فإن السلف الصالح كانوا أعلم بالقرآن وعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أن أحداً منهم تكلم في شيء من هذا سوى ما ثبت فيه من أحكام التكليف وأحكام الآخرة . نعم تضمن علومنا من جنس علوم العرب وما هو على معبودها مما يتوجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجعة الخ » وهذا مبني على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطاباً للأمة وهم العرب فإنما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقاتهم ، وأن الشريعة أمية . وهو أساس واه لوجوه ستة : الأول أن ما بناء عليه يقتضي أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال وهذا باطل لما قدمناه ، قال تعالى « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » . الثاني أن مقاصد القرآن

راجعة إلى عموم الدعوة وهو معجزة باقية فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة. الثالث أن السلف قالوا: إن القرآن لا تنقضي عجائبه يعنون معانيه ولو كان كما قال الشاطبي لا نقضت عجائبه بأحصار أنواع معانيه. الرابع أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة. الخامس أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء لا يقضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهومًا لديهم فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد تهيأ لفهمه أقوام، وتجب عنه أقوام، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. السادس أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيها ليس راجعًا إلى مقاصده فنحن نساعده عليه، وإن كان فيها يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات بل قد بينوا وفصلوا وفرغوا في علوم عُنُوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن تقتنى على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية، أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لا يوضح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضا. لأن العلوم العقلية إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هي عليه، وإن كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التفسير لكنه تكملة للمباحث العلمية واستطراد في العلم لمناسبة التفسير ليكون متعاطى التفسير أوسع قريحة في العلوم.

وذهب ابن العربي في العواصم إلى إنكار التوفيق بين العلوم الفلسفية والمعاني القرآنية ولم يتكلم على غير هاته العلوم وذلك على عادته في تحقير الفلسفة لأجل ما خولطت به من الضلالات الاعتقادية وهو مُفرط في ذلك مستخف بالحكماء.

وأنا أقول: إن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:

الأولى: علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة.

الثانية: علوم تريد المفسر إلهما كالْحِكْمَة والهِمَاء وخواص المخلوقات.

الثالثة: علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق.

الرابعة: علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها كالزجر والعيافة والميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي.

المقدمة الخامسة

في أسباب النزول

أولع كثير من المفسرين بتطلب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث يُروى أن آيات من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها أو لحكايتها أو إنكارها أو نحو ذلك، وأغربوا في ذلك وأكثروا حتى كاد بعضهم أن يوهم الناس أن كل آية من القرآن نزلت على سبب . وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا . بيد أنا نجد في بعض آي القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها ونجد لبعض الآي أسباباً ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأى الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائراً بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه وإرسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن . فذلك الذي دعاني إلى خوض هذا الغرض في مقدمات التفسير لظهور شدة الحاجة إلى تمحيصه في أثناء التفسير، وللإستغناء عن إعادة الكلام عليه عند عروض تلك المسائل، غير مُدَّخِر ما أراه في ذلك رأياً يجمع شتاتها . وأنا عاذر المتقدمين الذين ألفوا في أسباب النزول فاستكثرُوا منها، بأن كل من يتصدى لتأليف كتاب في موضوع غير مشبَّع تمتلكه محبة التوسع فيه فلا ينفك يستريد من ملقطاته لِيُذَكِّرَ كَيْ قَبَسَهُ، وَيُمِدَّ نَفْسَهُ، فيرضى بما يجد رضى الصب بالوعد، ويقول زِدْنِي من حديثك يا سعد . غير هَيَّابٍ لعاذل، ولا متطلب مَعْدِرَةٍ عاذر، وكذلك شأن الولع إذا أمتك القلب ولكني لا أعذر أساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فاثبتوها في كتبهم ولم ينهبوا على مراتبها قوة وضعفاً، حتى أوهوا كثيراً من الناس أن القرآن لا تنزل آياته إلا لأجل حوادث تدعو إليها، وبئس هذا الوهم فإن القرآن جاء هادياً إلى ما به صلاح الأمة في أصناف الصلاح فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية إلى تشريع الأحكام . نعم إن العلماء توجسوا منها فقالوا إن سبب النزول لا يخصُّص، إلا طائفة شاذة أدعت للتخصيص بها، ولو أن أسباب النزول كانت كلها متعلقة بآيات عامة لما دخل من ذلك ضرر على عمومها إذ قد أراحنا أئمة الأصول حين قالوا « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » ولكن أسباباً كثيرة رام روايتها تعيين مراد من تخصيص عام أو تقييد مطلق أو إلجاء إلى محمل، فذلك هي التي قد تقف عُرْضةً أمام معاني التفسير قبل التنبيه على ضعفها أو تأويلها .

وقد قال الواحدى فى أول كتابه فى أسباب النزول : « أما اليوم فكل أحد يخترع للآية سبباً ، ويختلق إفسكاً وكذباً ، ملقياً زمامه إلى الجهالة ، غير مفكر فى الوعيد » وقال « لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل » اهـ .

إن من أسباب النزول ما ليس المفسر بغنى عن علمه لأن فيها بيان مجمل أو إيضاح خفى وموجز، ومنها ما يكون وحده تفسيراً . ومنها ما يدل المفسر على طلب الأدلة التى بها تأويل الآية أو نحو ذلك . ففى صحيح البخارى أن مروان ابن الحكم أرسل إلى ابن عباس يقول « لئن كان كل أمرى فرح بما أتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل منعذباً لنعذب بن أجمعون » يشير إلى قوله تعالى « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » فأجاب ابن عباس قائلاً: إنما دعا النبىء اليهود فسألهم على شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأرؤه أنهم قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أتوا من كتابهم ، ثم قرأ ابن عباس « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون . . لا يحسبن الذين يفرحون . الآيات » . وفى الموطأ عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه أنه قال قلت لعائشة أم المؤمنين وأنا يومئذ حديث السن : رأيت قول الله تعالى « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » فما على الرجل شىء ألا يطوف بهما ، قالت عائشة : كلا، لو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، إنما نزلت هذه الآية فى الأنصار كانوا يهلئون لمناة ، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك فأنزله الله تعالى « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » اهـ . ومنها ما ينبه المفسر إلى إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات فإن من أسباب النزول ما يعين على تصوير مقام الكلام كما سننبهك إليه فى أثناء المقدمة العاشرة .

وقد تصفحت أسباب النزول التى صحت أسانيدھا فوجدتها خمسة أقسام :

الأول : هو المقصود من الآية يتوقف فهم المراد منها على علمه فلا بد من البحث عنه للمفسر ، وهذا منه تفسير مبهمات القرآن مثل قوله تعالى « قد سمع الله قول التى تجادلنك

في زوجها » ، ونحو « يأياها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظُرنا » ومثل بعض الآيات التي فيها « ومن الناس » .

والثاني : هو حوادث تسببت عليها تشريعات أحكام، وصور تلك الحوادث لا تبين مجملها ولا تخالف مدلول الآية بوجه تخصيص أو تعميم أو تقييد ، ولكنها إذا ذكرت أمثالها وُجِدَتْ مساوية لمدلولات الآيات النازلة عند حدوثها، مثل حديث عُوَيْرِ المَجَلَانِي الذي نزلت عنه آية اللعان ، ومثل حديث كعب بن عُجْرَةَ الذي نزلت عنه آية « ومن كان مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام » الآية فقد قال كعب بن عُجْرَةَ : هي لي خاصة ولكم عامة ، ومثل قول أم سلمة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم : يغزو الرجال ولا تغزو فنزل قوله تعالى « ولا تتمنوا ما فضل الله به بمضكم على بعض » الآية . وهذا القسم لا يفيد البحث فيه إلا زيادة تفهم في معنى الآية وتمثيلاً لحكمها، ولا يُخشى توهم تخصيص الحكم بتلك الحادثة ، إذ قد اتفق العلماء - أو كادوا - على أن سبب النزول في مثل هذا لا يخصص، واتفقوا على أن أصل التشريع أن لا يكون خاصاً .

والثالث : هو حوادث تكررت أمثالها تختص بشخص واحد فنزلت الآية لإعلانها وبيان أحكامها وزجر من يرتكبها، فكثيراً ما تجد المفسرين وغيرهم يقولون نزلت في كذا وكذا ، وهم يريدون أن من الأحوال التي تشير إليها تلك الآية تلك الحالة الخاصة فكأنهم يريدون التمثيل . ففي كتاب الأيمان من صحيح البخاري في باب قول الله تعالى « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً » أن عبد الله بن مسعود قال : « قال رسول الله من حلف على يمين صبرٍ يَفْقَطُعُ بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان » فأنزل الله تصديق ذلك « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً » الآية فدخل الأشعث بن قيس فقال ما حدثكم أبو عبد الرحمن ؟ فقالوا كذا وكذا ، قال في أنزلت ، لي بئر في أرض بنِ عَمٍّ لي الخ ، فابن مسعود جمل الآية عامة لأنه جعلها تصديقاً لحديث عام ؟ والأشعث بن قيس ظنها خاصة به إذ قال « في أنزلت » بصيغة الحصر . ومثل الآيات النازلة في المنافقين في سورة براءة المفتحة بقوله تعالى « ومنهم - ومنهم » ، ولذلك قال ابن عباس : كنا نسمى سورة التوبة سورة الفاضحة . ومثل قوله تعالى « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّلَ عليكم من خيرٍ من ربكم » فلا حاجة لبيان أنها نزلت لما أظهر بعض اليهود

مودة المؤمنين . وهذا القسم قد أكثر من ذكره أهل القصص وبعض المفسرين ولا فائدة في ذكره، على أن ذكره قد يوم القاصرين قصر الآية على تلك الحادثة لعدم ظهور العموم من ألفاظ تلك الآيات .

والرابع : هو حوادث حدثت وفي القرآن آيات تناسب معانيها سابقة أو لاحقة فيقع في عبارات بعض السلف ما يوم أن تلك الحوادث هي المقصود من تلك الآيات، مع أن المراد أنها مما يدخل في معنى الآية ويدل لهذا النوع وجود اختلاف كثير بين الصحابة في كثير من أسباب النزول كما هو مبسوط في المسألة الخامسة من بحث أسباب النزول من الاتقان فارجعوا إليه ففيه أمثلة كثيرة . وفي صحيح البخاري في سورة النساء أن ابن عباس قرأ قوله تعالى « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » . بألف بعد لام السلام وقال كان رجل في غنيمة له (تصغير غنم) فلحقه المسلمون فقال السلام عليكم فقتلوه (أى ظنوه مشركاً يريد أن يتقى منهم بالسلام) وأخذوا غنيمته فأنزل الله في ذلك « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام » الآية . فالقصة لا بد أن تكون قد وقعت لأن ابن عباس رواها لكن الآية ليست نازلة فيها بخصوصها ولكن نزلت في أحكام الجهاد بدليل ما قبلها وما بعدها فإن قبلها « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا » وبعدها « فعند الله مغائرم كثيرة كذلك كنتم من قبل » . وفي تفسير تلك السورة من صحيح البخاري بعد أن ذكر نزاع الزبير والأنصاري في ماء شراج الحرة قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم الآية » قال السيوطي في الإتقان عن الزركشي قد عرفت من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها . وفيه عن ابن تيمية قد تنازع العلماء في قول الصحابي نزلت هذه الآية في كذا هل يجري مجرى المسند أو يجري مجرى التفسير؟ فالبخاري يدخله في المسند، وأكثر أهل المسانيد لا يدخلونه فيه، بخلاف ما إذا ذكر سبب نزل عقبه فإنهم كلهم يدخلونه في المسند .

والخامس قسم بين مجملات . ويدفع متشابهات مثل قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » فإذا ظن أحد أن من للشرط أشكل عليه كيف يكون الجور في الحكم كفراً، ثم إذا علم أن سبب النزول هم النصاري علم أن من موصولة وعلم أن الذين

تركوا الحكم بالإنجيل لا يتمجب منهم أن يكفروا بمحمد . وكذلك حديث عبد الله بن مسعود قال لما نزل قوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينما لم يلبسوا إيمانهم بظلم (ظنوا أن الظلم هو المعصية) . فقال رسول الله : إنه ليس بذلك ؟ ألا تسمع لقول لقمان لابنه « إن الشُّركَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . ومن هذا القسم مالا يبين مجملا ولا يؤول متشابهها ولكنه يبين وجه تناسب الآي بعضها مع بعض كما في قوله تعالى (في سورة النساء) « وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » الآية ، فقد تخفى الملازمة بين الشرط وجزائه فيبينها ما في الصحيح ، عن عائشة أن عروة ابن الزبير سألها عنها فقالت : « هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله فيريد أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في الصداق . فأمرنا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن » . هذا وإن القرآن كتاب جاء لهدى أمة والتشريع لها ، وهذا الهدى قد يكون واردا قبل الحاجة ، وقد يكون مخاطبا به قوم على وجه الزجر أو الثناء أو غيرها ، وقد يكون مخاطبا به جميع من يصلح لخطابه ، وهو في جميع ذلك قد جاء بكليات تشريعية وتهذيبية ، والحكمة في ذلك أن يكون وعي الأمة لديها سهلا عليها ، وليتمكن تواتر الدين ، وليكون لعلماء الأمة مزية الاستنباط ، وإلا فإن الله قادر أن يجعل القرآن أضعاف هذا المنزل وأن يطيل عمر النبي صلى الله عليه وسلم للتشريع أكثر مما أطال عمر إبراهيم وموسى ، ولذلك قال تعالى « وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » ، فكما لا يجوز حمل كلماته على خصوصيات جزئية لأن ذلك يبطل مراد الله ، كذلك لا يجوز تعميم ما قصد منه الخصوص ولا إطلاق ما قصد منه التقييد ؛ لأن ذلك قد يفضي إلى التخليط في المراد أو إلى إبطاله من أصله ، وقد اغتر بعض الفرق بذلك ، قال ابن سيرين في الخوارج : إنهم عمّدوا إلى آيات الوعيد النازلة في المشركين فوضعوها على المسلمين فجاءوا ببدعة القول بالتكفير بالذنوب ، وقد قال الحارورية لعلي رضي الله عنه يوم التحكيم « إن الحكم إلا لله » فقال علي « كلمة حق أريد بها باطل » وفسرها في خطبة له في نهج البلاغة . وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إنجازها من ناحية الارتجال ، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم ، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين .

المقدمة السادسة

في القراءات

لولا عناية كثير من المفسرين بذكر اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن حتى في كفيات الأداء ، لكنت بمعزل عن التحكم في ذلك لأن علم القراءات علم جليل مستقل قد خص بالتدوين والتأليف وقد أشبع فيه أصحابه وأسهبوا بما ليس عليه مزيد ، ولكني رأيتني بمحل الاضطرار إلى أن ألقى عليكم جملاً في هذا الغرض تعرفون بها مقدار تعلق اختلاف القراءات بالتفسير ، ومراتب القراءات قوة وضعفا ؟ كي لا تفجبوا من إعراضى عن ذكر كثير من القراءات في أثناء التفسير .

أرى أن للقراءات حالتين إحداها لا تعلق لها بالتفسير بحال ، والثانية لها تعلق به من جهات متفاوتة .

أما الحالة الأولى فهي اختلاف القراء في وجوه النطق بالحروف والحركات كمقادير المد والإمالات والتخفيف والتسهيل والتحقيق والجره والهمس والفنة ، مثل عذابى بسكون الياء وعذابى بفتحها ، وفي تعدد وجوه الإعراب مثل «حتى يقول الرسول» بفتح لام يقول وضمها . ونحو «لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة» برفع الأسماء الثلاثة أو فتحها أو رفع بعض وفتح بعض ، ومزية القراءات من هذه الجهة عائدة إلى أنها حفظت على أبناء العربية ما لم يحفظه غيرها وهو تحديد كفيات نطق العرب بالحروف في مخارجها وصفاتها وبيان اختلاف العرب في لهجات النطق بتلقى ذلك عن قراء القرآن من الصحابة بالأسانيد الصحيحة ، وهذا غرض مهم جداً لكنه لا علاقة له بالتفسير لعدم تأثيره في اختلاف معانى الآى ، ولم أر من عرف لفن القراءات حقه من هذه الجهة ، وفيها أيضاً سعة من بيان وجوه الإعراب في العربية ، فهي لذلك مادة كبرى لعلوم اللغة العربية .

فأئمة العربية لما قرأوا القرآن قرأوه بلهجات العرب الذين كانوا بين ظهرانيهم في الأمصار التي وزعت عليها المصاحف : المدينة ، ومكة ، والكوفة ، والبصرة ، والشام ، قيل واليمن والبحرين ، وكان في هذه الأمصار قراؤها من الصحابة قبل ورود مصحف عثمان إليهم فقرأ كل فريق بعربية قومه في وجوه الأداء ، لا في زيادة الحروف وتقصها ، ولا في اختلاف

الإعراب دون مخالفته مصحف عثمان ، ويحتمل أن يكون القارئ الواحد قد قرأ بوجهين يُرى صحتها في العربية قصداً لحفظ اللغة مع حفظ القرآن الذي أنزل بها ، ولذلك يجوز أن يكون كثير من اختلاف القراء في هذه الناحية اختياراً ، وعليه يحمل ما يقع في كتابي الزخشرى وابن العربى من نقد بعض طرق القراء ، على أن في بعض تقدم نظراً ، وقد كره مالك رحمه الله القراءة بالإمالة مع ثبوتها عن القراء ، وهى مروية عن مقرئ المدينة نافع من رواية ورش عنه وانقرد بروايته أهل مصر ، فدلّت كراهته على أنه يرى أن القارئ بها ما قرأ إلا بمجرد الاختيار ، وفي تفسير القرطبي في سورة الشعراء عن أبى إسحاق الزجاج ، يجوز أن يقرأ « طسين ميم » بفتح النون من « طسين » وضم الميم الأخيرة كما يقال هذا معد يكربُ اه مع أنه لم يقرأ به أحد . قلت : ولا ضير في ذلك ما دامت كلمات القرآن وجمله محفوظة على نحو ما كتب في المصحف الذى أجمع عليه أصحاب رسول الله إلا نقرأ قليلاً شذوا منهم ، كان عبد الله بن مسعود منهم ، فإن عثمان لما أمر بكتب المصحف على نحو ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأثبتته كُتّاب المصحف ، رأى أن يحمل الناس على اتباعه وترك قراءة ما خالفه ، وجمع جميع المصاحف المخالفة له وأحرقها ووافقه جمهور الصحابة على ما فعله . قال شمس الدين الأصفهاني في المقدمة الخامسة من تفسيره (كان على طول أيامه يقرأ مصحف عثمان ويتخذة إماماً) . وقلت : إنما كان فعل عثمان إماماً لما فعله أبو بكر من جمعه القرآن الذى كان يقرأ في حياة الرسول ، وأن عثمان نسخه في مصاحف لتوزع على الأمصار ، فصار المصحف الذى كُتب لعثمان قريباً من الجمع عليه وعلى كل قراءة توافقه وصار ما خالفه متروكاً بما يقارب الإجماع . قال الأصفهاني في تفسيره « كانت قراءة أبى بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة ، وهى قراءة العامة التى قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل في العام الذى قبض فيه ، ويقال إن زيد بن ثابت شهد الغزوة الأخيرة التى عرضها رسول الله على جبريل اه » وبقي الذين قرأوا قراءات مخالفة لمصحف عثمان يقرأون بما رووه لا ينههم أحد عن قراءتهم ولكن يعدوهم شذاذا ولكنهم لم يكتبوا قراءتهم في مصاحف بعد أن أجمع الناس على مصحف عثمان ، قال البغوى في تفسير قوله تعالى « وطلع منضود » عن مجاهد وفي الكشاف والقرطبي - قرأ على بن أبى طالب « وطلع منضود » بعين في موضع الحاء ، وقرأ قارى بين يديه وطلع منضود فقال : وما شأن الطلح ؟ إنما هو « وطلع »

وقرأ «لهاطلع نضيد» فقالوا أفلا نحولها؟ فقال إن آى القرآن لا تهاج اليوم ولا تحول، أى لا تغير حروفها ولا تحول عن مكانها فهو قد منع من تغيير المصحف، ومع ذلك لم يترك القراءة التى رواها، ومن نسبت إليهم قراءات مخالفة لمصحف عثمان، عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وسالم مولى أبى حذيفة، إلى أن ترك الناس ذلك تدريجاً. ذكر الفخر فى تفسير قوله تعالى إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ من سورة النور أن سفيان قال سمعت أُمى تقرأ «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ» وكان أبوها يقرأ بقراءة ابن مسعود، ومع ذلك فقد شدت مصاحف بقيت مغفولة عنها بأيدي أصحابها، منها ما ذكره الزخشرى فى الكشف فى سورة الفتح أن الحارث بن سويد صاحب عبد الله بن مسعود كان له مصحف دفنه فى مدة الحجاج، قال فى الكشف - لأنه كان مخالفاً للمصحف الإمام، وقد أفرط الزخشرى فى توهين بعض القراءات لمخالفتها لما اصطلاح عليه النحاة وذلك من إعراضه عن معرفة الأسانيد.

من أجل ذلك اتفق علماء القراءات والفقهاء على أن كل قراءة وافقت وجهها فى العربية ووافقت خط المصحف - أى مصحف عثمان - وصح سند راويها؛ فهى قراءة صحيحة لا يجوز ردها، قال أبو بكر ابن العربى ومعنى ذلك عندى أن تواترها تبع لتواتر المصحف الذى وافقته وما دون ذلك فهو شاذ، يعنى وأن تواتر المصحف ناشئ عن تواتر الألفاظ التى كتبت فيه.

قلت - وهذه الشروط الثلاثة، هى شروط فى قبول القراءة إذا كانت غير متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم، بأن كانت صحيحة السند إلى النبى ولكنها لم تبلغ حد التواتر فهى بمنزلة الحديث الصحيح، وأما القراءة المتواترة فهى غنية عن هذه الشروط لأن تواترها يجعلها حجة فى العربية، ويغنيها عن الاعتضاد بموافقة المصحف المجمع عليه، ألا ترى أن جمعاً من أهل القراءات المتواترة قرأوا قوله تعالى «وما هو على الغيب بظنين» بظاء مشالة أى بتمهم، وقد كتبت فى المصاحف كلها بالضاد الساقطة.

على أن أبا على الفارسى صنف كتاب الحجة للقراءات، وهو معتمد عند المفسرين وقد رأيت نسخة منه فى مكاتب الآستانة. فالقراءات من هذه الجهة لا تفيد فى علم التفسير والمراد بموافقة خط المصحف موافقة أحد المصاحف الأئمة التى توجه بها عثمان بن عفان إلى أمصار الإسلام إذ قد يكون اختلاف يسير نادر بين بعضها، مثل زيادة الواو فى «وسارعوا

إلى مفقرة « في مصحف الكوفة ومثل زيادة الفاء في قوله « وما أصابكم من مصيبة فبا كسبت أيديكم » في سورة الشورى « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً - أو إحساناً » فذلك اختلاف ناشئ عن القراءة بالوجهين بين الحفاظ من زمن الصحابة الذين تلقوا القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه قد أثبتته ناسخو المصحف في زمن عثمان فلا ينافي التواتر إذ لا تعارض، إذا كان المنقول عنه قد نطق بما نقله عنه الناقلون في زمانين أو أزمنة، أو كان قد أذن للناقلين أن يقرأوا بأحد اللفظين أو الألفاظ ، وقد انحصر توفر الشروط في الروايات العشر للقراء وهم ، نافع بن أبي نعيم المدني ، وعبد الله بن كثير المكي ، وأبو عمرو المازني البصري وعبد الله بن عامر الدمشقي ، وعاصم بن أبي النجود الكوفي ، وحزمة بن حبيب الكوفي ، والكسائي على بن حمزة الكوفي ، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي البصري ، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني ، وخلف البزار (بزاي فالف فراء مهملة) الكوفي ، وهذا العاشر ليست له رواية خاصة ، وإنما اختار لنفسه قراءة تناسب قراءات أئمة الكوفة ، فلم يخرج عن قراءات قراء الكوفة إلا قليلا ، وبعض العلماء يجعل قراءة ابن محيصين واليزيدي والحسن ، والأعمش ، مرتبة دون العشر ، وقد عد الجمهور ما سوى ذلك شاذاً لأنه لم ينقل بتواتر حفاظ القرآن .

والذي قاله مالك والشافعي ، أن مادون العشر لا تجوز القراءة به ولا أخذ حكم منه لمخالفته المصحف الذي كتب فيه ما تواتر ، فكان ما خالفه غير متواتر فلا يكون قرآناً ، وقد تروى قراءات عن النبي صلى الله عليه وسلم بأسانيد صحيحة في كتب الصحيح مثل صحيح البخاري ومسلم وأضرابهما إلا أنها لا يجوز لغير من سمعها من النبي صلى الله عليه وسلم القراءة بها لأنها غير متواترة النقل فلا يترك المتواتر للآحاد وإذا كان راويها قد بلغته قراءة أخرى متواترة تخالف ما رواه وتحقق لديه التواتر وجب عليه أن يقرأ بالمرئية تواتراً ، وقد اصطلاح المفسرون على أن يطلقوا عليها قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنها غير منتسبة إلى أحد من أئمة الرواية في القراءات ، ويكثر ذكر هذا العنوان في تفسير محمد بن جرير الطبري وفي الكشف وفي المحرر الوجيز لمبد الحق ابن عطية ، وسبقهم إليه أبو الفتح ابن جني ، فلا تحسبوا أنهم أرادوا بنسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أنها وحدثها المأثورة عنه ولا ترجيحها على القراءات المشهورة لأن القراءات المشهورة قد رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم

بأسانيد أقوى وهي متواترة على الجملة كما سندكره، وما كان ينبغي إطلاق وصف قراءة النبي عليها لأنه يوم من ليسوا من أهل الفهم الصحيح أن غيرها لم يقرأ به النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يرجع إلى تبجح أصحاب الرواية بمروياتهم .

وأما الحالة الثانية : فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات مثل مالك يوم الدين وملاك يوم الدين - ونشرها ونشرها - وظنوا أنهم قد كُذِّبوا « بتشديد الذال » أو قد كُذِّبوا بتخفيفه، وكذلك اختلاف الحركات الذى يختلف معه معنى الفعل كقوله « ولما ضُرب ابنُ مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون » قرأ نافع بضم الصاد وقرأ حمزة بكسر الصاد، فالأولى بمعنى يصدون غيرهم عن الإيمان، والثانية بمعنى صدودهم في أنفسهم وكلا المعنيين حاصل منهم، وهي من هذه الجهة لها مزيد تعلق بالتفسير لأن ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره، ولأن اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن يُكثِّر المعاني في الآية الواحدة نحو « حتى يَطَهَّرَنَ » بفتح الطاء المشددة والهاء المشددة، وبسكون الطاء وضم الهاء مخففة، ونحو « لأمسَم النساء » و« لمَسَم النساء »، وقراءة « وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثا » مع قراءة « الذين هم عباد الرحمن » والظن أن الوحي نزل بالوجهين وأكثر، تكثيراً للمعاني إذا جزمنا بأن جميع الوجوه في القراءات المشهورة هي مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، على أنه لا مانع من أن يكون مجيء ألفاظ القرآن على ما يحتمل تلك الوجوه مراداً لله تعالى ليقراً القراء بوجوه فتكثر من جراء ذلك المعاني، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزئاً عن آيتين فأكثر، وهذا نظير التضمن في استعمال العرب، ونظير التورية والتوجيه في البديع، ونظير مستتبعات التراكيب في علم المعاني، وهو من زيادة ملاءمة بلاغة القرآن، ولذلك كان اختلاف القراء في اللفظ الواحد من القرآن قد يكون معه اختلاف المعنى؛ ولم يكن حمل أحد القراءتين على الأخرى متعينا ولا مرجحاً، وإن كان قد يؤخذ من كلام أبي علي الفارسي في كتاب « الحجة » أنه يختار حمل معنى إحدى القراءتين على معنى الأخرى، ومثال هذا قوله في قراءة الجمهور قوله تعالى « فإن الله هو الغنى الحميد » في سورة الحديد، وقراءة نافع وابن عامر « فإن الله الغنى الحميد » بإسقاط هو أن من أثبت هو يحسن أن يعتبره ضمير فصل لا مبتدأ، لأنه

لو كان مبتدأ لم يميز حذفه في قراءة نافع وابن عامر ، قال أبو حيان : « وما ذهب إليه ليس بشيء لأنه بنى ذلك على توافق القراءتين وليس كذلك ، ألا ترى أنه قد يكون قراءتان في لفظ واحد لكل منهما توجيه يخالف الآخر ، كقراءة « والله أعلم بما وضعت » بضم التاء أو سكونها . وأنا أرى أن على المفسر أن يبين اختلاف القراءات المتواترة لأن في اختلافها توفيراً لمعاني الآية غالباً فيقوم تعدد القراءات مقام تعدد كلمات القرآن .

وهذا يبين لنا أن اختلاف القراءات قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في حديث عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم بن حزام « فني صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب قال سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ في الصلاة سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ، فكذبت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال أقرأنيها رسول الله ، فقلت كذبت فإن رسول الله أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله فقلت إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله كذلك أنزلت ، ثم قال اقرأ يا عمر فقرأت القراءة التي أقرأني فقال رسول الله كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه » اهـ .

وفي الحديث إشكال ، وللعلماء في معناه أقوال ترجع إلى اعتبارين : أحدهما اعتبار الحديث منسوخاً والآخر اعتباره محكماً .

فأما الذين اعتبروا الحديث منسوخاً وهو رأى جماعة منهم أبو بكر الباقلائي وابن عبد البر وأبو بكر بن العربي والطحاوي ، وينسب إلى ابن عيينة وابن وهب قالوا كان ذلك رخصة في صدر الإسلام أباح الله للعرب أن يقرأوا القرآن بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها ، ثم نسخ ذلك بحمل الناس على لغة قريش لأنها التي بها نزل القرآن وزال العذر لكثرة الحفظ وتيسير الكتابة ، وقال ابن العربي دامت الرخصة مدة حياة النبي عليه السلام ، وظاهر كلامه أن ذلك نسخ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما نسخ بإجماع الصحابة أو بوصاية من النبي صلى الله عليه وسلم ، واستدلوا على ذلك بقول عمر : إن القرآن نزل بلسان قريش ، وبنهيه عبد الله بن مسعود أن يقرأ « فتول عنهم عتي حين » وهي

لغة هذيل في حَتَّى ، وبقولِ عثمان لكتَّابِ المصاحف فإذا اختلفتم في حرف فاكتبوه بلغة قريش فإنما نزل بلسانهم ، يريد أن لسان قريش هو الغالب على القرآن ، أو أراد أنه نزل بما نطقوا به من لغتهم وما غلب على لغتهم من لغات القبائل إذ كان عكاظ بأرض قريش وكانت مكة مهبط القبائل كلها .

ولهم في تحديد معنى الرخصة بسبعة أحرف ثلاثة أقوال : الأول أن المراد بالأحرف الكلمات المتزادة للمعنى الواحد ، أى أنزل بتخيير قارئه أن يقرأه باللفظ الذى يحضره من المرادفات تسهيلا عليهم حتى يحيطوا بالمعنى . وعلى هذا الجواب فقيل المراد بالسبعة حقيقة العدد وهو قول الجمهور فيكون تحديدا للرخصة بأن لا يتجاوز سبعة مرادفات أو سبع لهجات أى من سبع لغات ؛ إذ لا يستقيم غير ذلك لأنه لا يتأتى في كلمة من القرآن أن يكون لها ستة مرادفات أصلا ، ولا في كلمة أن يكون فيها سبع لهجات إلا كلمات قليلة مثل - أف - وجبريل - وأرجه - وقد اختلفوا في تعيين اللغات السبع ، فقال أبو عبيدة وابن عطية وأبو حاتم والباقلاني هي من عموم لغات العرب وهم : قريش ، وهذيل ، وتيمم الرِّبَابِ ، والأزد ، وربيعة ، وهوزان ، وسعد بن بكر من هوزان ، وبعضهم يعد قريشا ، وبنى دارم ، والمُعليا من هوزان وهم سعد بن بكر ، وجُشَم ابن بكر ، ونَصْر بن معاوية ، وثقيف ، قال أبو عمرو بن العلاء أفصح العرب عُليا هوزان وسُفلى تيمم وهم بنو دارم . وبعضهم يعد خُزَاعَةَ ويطرح تيمما ، وقال أبو على الاهوازي ، وابن عبد البر وابن قتيبة هي لغات قبائل من مضر وهم قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتيمم الرِّبَابِ ، وأسد بن خزيمة ، وكلها من مضر .

القول الثانى : لجماعة منهم عياض : أن العدد غير مراد به حقيقته ، بل هو كناية عن التعدد والتوسع ، وكذلك المرادفات ولو من لغة واحدة كقوله « كالمهن المنفوش » - وقرأ ابن مسعود كالصوف المنفوش ، وقرأ أبى - كلما أضاء لهم مشوا فيه - مروا فيه - سَعَوْا فيه ، وقرأ ابن مسعود « انظرونا نقبَس من نوركم » - أخرونا - أمهلونا ، وأقرأ ابن مسعود رجلا « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » فقال الرجل طعامُ اليتيم ، فأعاد له فلم يستطع أن يقول الأثيم فقال له ابن مسعود : أتستطيع أن تقول طعام الفاجر ؟ قال نعم ، قال فاقرا كذلك ، وقد اختلف عمر وهشام بن حكيم ولقتهما واحدة .

القول الثالث : أن المراد التوسعة في نحو كان الله سميعا عليما أن يقرأ عليما حكما ما لم يخرج عن المناسبة كذكره عقب آية عذاب أن يقول « وكان الله غفورا رحيما » أو عكسه وإلى هذا ذهب ابن عبد البر .

وأما الذين اعتبروا الحديث محكما غير منسوخ فقد ذهبوا في تأويله مذاهب : فقال جماعة منهم البيهقي وأبو الفضل الرازي أن المراد من الأحرف أنواع أغراض القرآن كالأمر والنهي ، والحلال والحرام . أو أنواع كلامه كالخبر والإنشاء ، والحقيقة والمجاز . أو أنواع دلالاته كالعموم والخصوص ، والظاهر والمؤول . ولا يخفى أن كل ذلك لا يناسب سياق الحديث على اختلاف رواياته من قصد التوسعة والرخصة . وقد تكلف هؤلاء خصر ما زعموه من الأغراض ونحوها في سبعة فذكروا كلاما لا يسلم من النقض .

وذهب جماعة منهم أبو عبيد وثلث والأزهري وعزى لابن عباس أن المراد أنه أنزل مشتملا على سبع لغات من لغات العرب مبثوثة في آيات القرآن لكن لا على تحخير القارىء ، وذهبوا في تعيينها إلى نحو ما ذهب إليه القائلون بالنسخ إلا أن الخلاف بين الفريقين في أن الأولين ذهبوا إلى تحخير القارىء في الكلمة الواحدة ، وهؤلاء أرادوا أن القرآن مبثوثة فيه كلمات من تلك اللغات ، لكن على وجه التبيين لا على وجه التخيير ، وهذا كما قال أبو هريرة : ما سمعت السكينة إلا في قوله تعالى « وآت كل واحدة منهن سكينة » ما كنا نقول إلا المذبة^(١) ، وفي البخاري إلا من النبي في قصة حكم سليمان بين المرأتين من قول سليمان « ايتوني بالسكين أقطعها بينكما » ، وهذا الجواب لا يلاقى مساق الحديث من التوسعة ، ولا يستقيم من جهة العدد لأن المحققين ذكروا أن في القرآن كلمات كثيرة من لغات قبائل العرب ، وأنها السيوطي نقلها عن أبي بكر الواسطي إلى خمسين لغة .

وذهب جماعة أن المراد من الأحرف لهجات العرب في كفيات النطق كالفتح والإمالة ، والمد والقصر ، والهمز والتخفيف ، على معنى أن ذلك رخصة للعرب مع المحافظة على كلمات القرآن ، وهذا أحسن الأجوبة لمن تقدمنا ، وهناك أجوبة أخرى ضئيلة لا ينبغي للعالم التعرّيج عليها وقد أنهى بمفهم جملة الأجوبة إلى خمسة وثلاثين جوابا .

(١) رواه ابن وهب عن مالك ، وهو في أحاديث ابن وهب عنه في جامع التبتية .

وعندى أنه إن كان حديثُ عمرَ وهشامِ بنِ حكيمٍ قد حَسُنَ إِنْصَاحَ رَاوِيهِ عَنِ مَقْصِدِ
عمرَ فيما حدث به بأن لا يكون مروياً بالمعنى مع إخلال بالمقصود أنه يحتمل أن يرجع إلى
ترتيب آى السور بأن يكون هشام قرأ سورة الفرقان على غير الترتيب الذى قرأ به عمر
فتكون تلك رخصة لهم فى أن يحفظوا سور القرآن بدون تعيين ترتيب الآيات من السورة،
وقد ذكر الباقلانى احتمال أن يكون ترتيب السور من اجتهاد الصحابة كما يأتى فى المقدمة
الثامنة . فعلى رأينا هذا تكون هذه رخصة. ثم لم يزل الناس يتوخون بقراءتهم موافقة
قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان ترتيب المصحف فى زمن أبى بكر على نحو
العرضة الأخيرة التى عرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمع الصحابة فى عهد أبى بكر
على ذلك لعلمهم بزوال موجب الرخصة :

ومن الناس من يظن المراد بالسبع فى الحديث ما يطابق القراءات السبع التى اشتهرت
بين أهل فن القراءات ، وذلك غلط ولم يقله أحد من أهل العلم ، وأجمع العلماء على خلافه
كما قال أبو شامة ، فإن انحصار القراءات فى سبع لم يدل عليه دليل ، ولكنه أمر حصل
إما بدون قصد أو بقصد التيمن بعدد السبعة أو بقصد إيهاً أن هذه السبعة هى المرادة
من الحديث تنوياً بشأنها بين العامة ، ونقل السيوطى عن أبى العباس ابن عمار أنه قال :
لقد فعل جاعلُ عددِ القراءات سبعا ما لا ينبغى ، وأشكل به الأمر على العامة إذ أوهمهم
أن هذه السبعة هى المرادة فى الحديث ، ولت جامعها نقص عن السبعة أو زاد عليها .

قال السيوطى : وقد صنف ابن جبير المكي - وهو قبل ابن مجاهد - كتاباً فى القراءات
فاقتصر على خمسة أئمة من كل مصر إماماً ، وإنما اقتصر على ذلك لأن المصاحف التى أرسلها
عثمان إلى الأمصار كانت إلى خمسة أمصار .

قال ابن العربى فى العواصم : أول من جمع القراءات فى سبع ، ابن مجاهد غير أنه عد
قراءة يعقوب سابعا ثم عوضها بقراءة الكسائى ، قال السيوطى وذلك على رأس الثلاثمائة :
وقد اتفق الأئمة على أن قراءة يعقوب من القراءات الصحيحة مثل بقية السبعة ، وكذلك
قراءة أبى جعفر وشيبة ، وإذ قد كان الاختلاف بين القراء سابقاً على تدوين المصحف الإمام
فى زمن عثمان وكان هو الداعى لجمع المسلمين على مصحف واحد تعين أن الاختلاف لم يكن
ناشئاً عن الاجتهاد فى قراءة ألفاظ المصحف فيما عدا اللهجات .

وأما صحة السند الذي تُروى به القراءة لتكون مقبولة فهو شرط لا محيد عنه إذ قد تكون القراءة موافقة لرسم المصحف وموافقة لوجوه العربية لكنها لا تكون مروية بسند صحيح ، كما ذكر في الزهر أن حماد بن الزرقان قرأ « إلا عن موعدة وعدها أباه » بالباء الموحدة وإنما هي « إِيَّاه » بتحتية ، وقرأ « بل الذين كفروا في غرة » بغير معجمة وراء مهملة وإنما هي « غرة » بغير مهملة وزاى ، وقرأ « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه » بغير مهملة ، وإنما هي « يغنيه » بغير معجمة ، ذلك أنه لم يقرأ القرآن على أحد وإنما حفظه من المصحف .

مراتب القراءات الصحيحة والترجيح بينها

قال أبو بكر بن العربي في كتاب العواصم: اتفق الأئمة على أن القراءات التي لا تخالف الألفاظ التي كتبت في مصحف عثمان هي متواترة وإن اختلفت في وجوه الأداء وكيفيات النطق ، ومعنى ذلك أن تواترها تبع لتواتر صورة كتابة المصحف ، وما كان نطقه صالحا لرسم المصحف ، ولخلف فيه فهو مقبول ، وما هو بمتواتر لأن وجود الاختلاف فيه مناف لدعوى التواتر ، نخرج بذلك ما كان من القراءات مخالفا لمصحف عثمان ، مثل ما نقل من قراءة ابن مسعود ، ولما قرأ المسلمون بهذه القراءات من عصر الصحابة ولم يغير عليهم ، فقد صارت متواترة على التخيير ، وإن كانت أسانيدھا المعينة آحادا ، وليس المراد ما يتوهم بعض القراء من أن القراءات كلها بما فيها من طرائق أصحابها ورواياتهم متواترة وكيف وقد ذكروا أسانيدهم فيها فكانت أسانيد آحاد ، وأقواها سندا ما كان له راويان عن الصحابة مثل قراءة نافع بن أبي نعيم وقد جزم ابن العربي ، وابن عبد السلام التونسي ، وأبو العباس ابن إدريس فقيه بجاية من المالكية ، والأبيّارى من الشافعية بأنها غير متواترة ، وهو الحق لأن تلك الأسانيد لا تقتضى إلا أن فلانا قرأ كذا وأن فلانا قرأ بخلافه ، وأما اللفظ القروء فغير محتاج إلى تلك الأسانيد لأنه ثبت بالتواتر كما علمت آنفا ، وإن اختلفت كيفيات النطق بحروفه فضلا عن كيفيات أدائه . وقال إمام الحرمين في اليرهان : هي متواترة ورده عليه الأبيّارى ، وقال المازرى في شرحه : هي متواترة عند القراء وليست متواترة عند عموم الأمة ، وهذا توسط بين إمام الحرمين والأبيّارى ، ووافق إمام الحرمين ابن سلامة الأنصارى

من المالكية . وهذه مسألة مهمة جرى فيها حوار بين الشيخين ابن عرفة التونسي وابن لب الأندلسي ذكرها الونشريسي في المعيار .

وتنتهي أسانيد القراءات العشر إلى ثمانية من الصحابة وهم : عمر بن الخطاب ، وعثمان ابن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وزيد ابن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، فبعضها ينتهي إلى جميع الثمانية وبعضها إلى بعضهم وتفصيل ذلك في علم القرآن .

وأما وجوه الإعراب في القرآن فأكثرها متواتر إلا ماساغ فيه إعرابان مع اتحاد المعاني نحو ولات حين مناص بنصب حين ورفعها ، ونحو « وزلزلوا حتى يقول الرسول » بنصب يقول ورفعها ، ألا ترى أن الأمة أجمعت على رفع اسم الجلالة في قوله تعالى « وكلم الله موسى تكليما » وقرأه بعض المعتزلة بنصب اسم الجلالة لثلاثين ثلثا يثبتوا لله كلاما ، وقرأ بعض الرافضة « وما كنت متخذ المضلين عضدا » بصيغة التثنية ، وفسروها بأبي بكر وعمر حاشاهما ، وقالتهم الله .

وأما ماخالف الوجوه الصحيحة في العربية ففيه نظر قوى لأنا لاثقة لنا بأحوصار فصيح كلام العرب فيما صار إلى نحة البصرة والكوفة ، وبهذا نبطل كثيرا مما زيفه الزغشري من القراءات المتواترة بعله أنها جرت على وجوه ضعيفة في العربية لا سيما ما كان منه في قراءة مشهورة كقراءة عبد الله ابن عامر قوله تعالى « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » ببناء زين للمفعول ورفع قتل ، ونصب أولادهم وخفض شركائهم ولو سلمنا أن ذلك وجه مرجوح ، فهو لا يمدو أن يكون من الاختلاف في كيفية النطق التي لا تنأ كد التواتر كما قدمناه آنفا على ما في اختلاف الإعرابين من إفادة معنى غير الذي يفيداه الآخر ، لأن لإضافة المصدر إلى المفعول خصائص غير التي لإضافته إلى فاعله ، ولأن لبناء الفعل للمجهول نكتا غير التي لبنائه للفاعل ، على أن أبا على الفارسي ألف كتابا سماه « الحجة » احتج فيه للقراءات المأثورة احتجاجا من جانب العربية .

ثم إن القراءات العشر الصحيحة المتواترة ، قد تتفاوت بما يشتمل عليه بعضها من خصوصيات البلاغة أو الفصاحة أو كثرة المعاني أو الشهرة ، وهو تمايز متقارب ، وكل أن

يكسب إحدى القراءات في تلك الآية رجحانا، على أن كثيرا من العلماء كان لا يرى مانعا من ترجيح قراءة على غيرها، ومن هؤلاء الإمام محمد بن جرير الطبري، والعلامة الزنجشري وفي أكثر ما رُجح به نظر سند كره في مواضعه ، وقد سئل ابن رشد عما يقع في كتب المفسرين والمربين من اختيار إحدى القراءتين المتواترتين وقولهم هذه القراءة أحسن : أذاك صحيح أم لا ؟ فأجاب : أما ما سألت عنه مما يقع في كتب المفسرين والمربين من تحسين بعض القراءات واختيارها على بعض لكونها أظهر من جهة الإعراب ، وأصح في النقل ، وأيسر في اللفظ فلا ينكر ذلك ، كرواية ورش التي اختارها الشيوخ المتقدمون عندنا (أى بالأندلس) فكان الإمام في الجامع لا يقرأ إلا بها لما فيها من تسهيل الثبرات وترك تحقيقها في جميع المواضع ، وقد تؤول ذلك فيما روى عن مالك من كراهية الثبر في القرآن في الصلاة .

وفي كتاب الصلاة الأول من المتتية: سئل مالك عن الثبر في القرآن فقال: إني لأكرهه وما يمجني ذلك ، قال ابن رشد في البيان يعني بالثبر ههنا إظهار الهمزة في كل موضع على الأصل فكره ذلك واستحب فيه التسهيل على رواية ورش، لما جاء من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن لفته الهمز (أى إظهار الهمز في الكلمات المهموزة بل كان ينطق بالهمزة مسهلة إلى أحرف علة من جنس حركاتها، مثل ياجوج وماجوج بالآلف دون الهمز، ومثل الذيب في الذئب - ومثل مؤمن في مؤمن) .

ثم قال : ولهذا المعنى كان العمل جاريا في قرطبة قديما - أن لا يقرأ الإمام بالجامع في الصلاة إلا برواية ورش ، وإنما تثير ذلك وتركت المحافظة عليه منذ زمن قريب ، اه ، وهذا خلف بن هشام البزار راوى حمزة ، قد اختار لنفسه قراءة من بين قراءات الكوفيين ، ومنهم شيخه حمزة بن حبيب وميزها قراءة خاصة فعدت عشرة القراءات العشر وما هي إلا اختيار من قراءات الكوفيين ، ولم يخرج عن قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم إلا في قراءة قوله تعالى « وحرام على قرية » قرأها بالآلف بعد الراء مثل حفص والجمهور .

فإن قلت هل يفضى ترجيح بعض القراءات على بعض إلى أن تكون الراجحة أبلغ من المرجوحة فيفضى إلى أن المرجوحة أضعف في الإيجاز ؟

قلت : حد الإعجاز مطابقة الكلام لجميع مقتضى الحال ، وهو لا يقبل التفاوت ، ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام المعجز مشتملاً على لطائف وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن كالجناس والمبالغة ، أو تتعلق بزيادة الفصاحة ، أو بالتفنن مثل « أم تسألهم خراجاً فخرّاج ربك خير » .

على أنه يجوز أن تكون إحدى القراءات نشأت عن ترخيص النبي صلى الله عليه وسلم للقارئ أن يقرأ بالمرادف تيسيراً على الناس كما يشعر به حديث تنازع عمر مع هشام بن حكيم ، فتروى تلك القراءة للخلف فيكون تمييز غيرها عليها بسبب أن التميزة هي البالغة غاية البلاغة وأن الأخرى توسعة ورخصة ، ولا يعكر ذلك على كونها أيضاً بالغة الطرف الأعلى من البلاغة وهو ما يقرب من حد الإعجاز .

وأما الإعجاز فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن لأن التحدى إنما وقع بسورة مثل سور القرآن ، وأقصر سورة ثلاث آيات فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه معجزاً .

(تنبيه) أنا أقتصر في هذا التفسير على التعرض لاختلاف القراءات العشر المشهورة خاصة في أشهر روايات الراويين عن أصحابها لأنها متواترة ، وإن كانت القراءات السبع قد امتازت على بقية القراءات بالشهرة بين المسلمين في أقطار الإسلام .

وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى ابن مينا المدني الملقب بقالون لأنها القراءة المدنية إماماً وراوياً ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس ، ثم أذكر خلاف بقية القراء العشرة خاصة .

والقراءات التي يقرأ بها اليوم في بلاد الإسلام من هذه القراءات العشر ، هي قراءة نافع برواية قالون في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري ، وفي ليبيا برواية ورش في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي جميع القطر الجزائري وجميع المغرب الأقصى ، وما يتبعه من البلاد . والسودان .

وقراءة عاصم برواية حفص عنه في جميع الشرق من العراق والشام وغالب البلاد المصرية والمهند وبالكستان وتركيا وأفغان .

وبلغني أن قراءة أبي عمرو البصري يقرأ بها في السودان المجاور مصر .

المقدمة السابعة

قصص القرآن

امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَاقِلِينَ » فَعَلِمْنَا مِنْ قَوْلِهِ أَحْسَنَ ، أَنْ الْقَصَصَ الْقُرْآنِيَّ لَمْ تُسَقِّ مَسَاقَ الْإِحَاضِ^(١) وَتَجْدِيدِ النَّشَاطِ ، وَمَا يَحْصُلُ مِنْ اسْتِغْرَابٍ مَبْلُغٍ تِلْكَ الْحَوَادِثِ مِنْ خَيْرٍ أَوْشَرٍ ؛ لِأَنَّ غَرَضَ الْقُرْآنِ أَسْمَى وَأَعْلَى مِنْ هَذَا ، وَلَوْ كَانَ مِنْ هَذَا لَسَاوَى كَثِيرًا مِنْ قِصَصِ الْأَخْبَارِ الْحَسَنَةِ الصَّادِقَةِ فَمَا كَانَ جَدِيرًا بِالْتَفْضِيلِ عَلَى كُلِّ جِنْسِ الْقِصَصِ .

والقصة : الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها ، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصاً مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم . وجمع القصة قصص بكسر القاف ، وأما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المخصوص ، وهو مصدر سمي به المفعول ، يقال قص على فلان إذا أخبره بخبر .

وَأَبْصَرَ أَهْلَ الْعِلْمِ أَنَّ لَيْسَ الْغَرَضُ مِنْ سَوْقِهَا قَاصِرًا عَلَى حَصُولِ الْعِبَرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ الْقِصَّةُ مِنْ عَوَاقِبِ الْخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ ، وَلَا عَلَى حَصُولِ التَّنْوِيهِ بِأَصْحَابِ تِلْكَ الْقِصَصِ فِي عَنَایَةِ اللَّهِ بِهِمْ أَوْ التَّشْوِيهِ بِأَصْحَابِهَا فِيمَا لَقَوْهُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَمَا تَقِفُ عِنْدَهُ أَفْهَامُ الْقَانِعِينَ بِظَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ وَأَوَائِلِهَا ، بَلِ الْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ أَسْمَى وَأَجَلٌ . إِنْ فِي تِلْكَ الْقِصَصِ لَعِبْرًا جَمَّةً وَفَوَائِدَ لِلْأُمَّةِ ؛ وَلِذَلِكَ نَرَى الْقُرْآنَ يَأْخُذُ مِنْ كُلِّ قِصَّةٍ أَشْرَفَ مَوَاضِعِهَا وَيَعْرِضُ عَمَّا عَدَاهُ لِيَكُونَ تَعْرِضُهُ لِلْقِصَصِ مِنْهَا عَنْ قِصْدِ التَّفَكُّكِ بِهَا . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَاهُ لَمْ تَأْتِ الْقِصَصُ فِي الْقُرْآنِ مُتَتَالِيَةً مُتَعَابِقَةً فِي سُورَةٍ أَوْ سُورَةٍ كَمَا يَكُونُ كِتَابُ تَارِيخٍ ، بَلْ كَانَتْ مَفْرَقَةً مَوْزَعَةً عَلَى مَقَامَاتٍ تَنَاسَبَتْ ، لِأَنَّ مَعْظَمَ الْفَوَائِدِ الْحَاصِلَةِ مِنْهَا لَهَا عِلَاقَةٌ بِذَلِكَ التَّوْزِيعِ ، هُوَذَا كَرُمُوعِظَةٍ لِأَهْلِ الدِّينِ فَهِيَ بِالْخَطَابَةِ أَشْبَهَ . وَلِلْقُرْآنِ أَسْلُوبٌ خَاصٌّ هُوَ الْأَسْلُوبُ الْعَبْرِيٌّ عَنْهُ بِالتَّذْكِيرِ وَبِالتَّذْكِيرِ فِي آيَاتٍ يَأْتِي تَفْسِيرُهَا ؛ فَكَانَ أَسْلُوبُهُ قَاضِيًا لِلْوَطَرَيْنِ وَكَانَ أَجَلٌّ مِنْ أَسْلُوبِ الْقِصَاصِيِّينَ فِي سَوْقِ الْقِصَصِ لِجَرْدِ مَعْرِفَتِهَا لِأَنَّ سَوْقَهَا فِي مَنَاسِبَاتِهَا يَكْسِبُهَا صِفَتَيْنِ : صِفَةَ الْبَرَهَانِ وَصِفَةَ التَّيْيَانِ وَنَجِدُ مِنْ مِمِّزَاتِ قِصَصِ الْقُرْآنِ نَسْجَ نَظْمِهَا عَلَى أَسْلُوبِ الْإِيْجَازِ لِيَكُونَ شَبْهًا بِالتَّذْكِيرِ

(١) مِنْ أَحْمَضِ الْقَوْمِ : أَفَاضُوا فِيمَا يُؤْنَسُهُمْ .

أقوى من شبهها بالقصص، مثال ذلك قوله تعالى في سورة القلم « فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » فقد حُكيت مقالته هذه في موقع تذكيره أصحابه بها لأن ذلك يحز حكايتها ولم تحك أثناء قوله « إذا قسموا ليصرمونها مصبحين » وقوله « فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين »

ومن مميزات طي ما يقتضيه الكلام الوارد كقوله تعالى في سورة يوسف « واستبق الباب » فقد طوي ذكر حضور سيدها وطرقه الباب واسراعهما إليه لفتحه ، فإسراع يوسف ليقطع عليها ما توسمه فيها من المكر به لثري سيدها أنه أراد بها سوء . وإسراعها هي لصد ذلك لتكون البادئة بالحكاية فتقطع على يوسف ما توسمته فيه من شكاية . فدل على ذلك ما بعده من قوله « وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا » الآيات ، ومنها أن القصص بثت بأسلوب بديع إذ ساقها في مظان الاتعاض بها مع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع فتوفرت من ذلك عشر فوائد :

الفائدة الأولى : أن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم ، فكان اشتغال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحديا عظيما لأهل الكتاب ، وتعجيذا لهم بقطع حججهم على المسلمين ، قال تعالى « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصف به أحبار اليهود ، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن المسلمين في نظر اليهود ، وانقطعت السنة المعرضين بهم بأنهم أمة جاهلية ، وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين .

الفائدة الثانية أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء بشرائعهم فكان اشتغال القرآن على قصص الأنبياء وأقوامهم تكميلا لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشريعين ، قال تعالى « وَكَأَيُّنَ مِّنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِيبِيُونَ كَثِيرٌ » الآية . وهذه فائدة من فتوحات الله لنا أيضا . وقد رأيت من أسلوب القرآن في هذا الغرض أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة في رسوخ الإيمان وضعفه وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان . وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم

أو بلدانهم إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم. وكذلك مواضع العبرة في قدرة الله تعالى في قصة أهل الكهف « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا - إِلَى قَوْلِهِ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى. الْآيَاتِ » فلم يذكر أنهم من أى قوم وفى أى عصر . وكذلك قوله فيها « فَأَبْمَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِكِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ » فلم يذكر أية مدينة هي لأن موضع العبرة هو انبعاثهم ووصول رسولهم إلى مدينة إلى قوله « وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّنَا وَغَدَّ اللَّهُ حَقٌّ » .

الفائدة الثالثة :- ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدى الأمة وتحذر، قال تعالى « فَتَلَكَّ يَبُوتَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا » وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك .

الفائدة الرابعة : ما فيها من موعظة المشركين بما لحق الأمم التي عانت رسلها ، وعصت أوامر ربها حتى يرعَوْوا عن غُلُوِّهم ، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم ، وكيف يورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين قال تعالى « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » وقال « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب » وقال « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرُثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » وهذا في القصص التي يُذكر فيها ما لقيه الكذِّبُونَ للرسل كقصص قوم نوح وعاد وثمود وأهل الرِّسِّ وأحباب الأيِّكَةِ .

الفائدة الخامسة : أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة وذلك أسلوب لم يكن معهودًا للعرب فكان حيث في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان ، وهو من إعجاز القرآن؛ إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يمتادوه ، انظر إلى حكاية أحوال الناس في الجنة والنار والأعراف في سورة الأعراف، وقد تقدم التنبيه عليه في المقدمة الخامسة فكان من مكمالات عجز العرب عن المعارضة .

الفائدة السادسة : أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدى عقولهم إلا بما يقع تحت الحس ، أو ما ينتزع منه ففقدوا فائدة الاتعاض بأحوال الأمم الماضية وجهلوا معظمها وجهلوا أحوال البعض الذي علموا أسماءه فأعقبهم ذلك إعراضا عن السعى لإصلاح

أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك مَنْ قبلهم ، فكان في ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها ، قال مشيراً إلى غفلتهم قبل الإسلام « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » .

الفائدة السابعة : تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الأمم والإعتراف لها بجزايلها حتى تدفع عنهم وصحة الفرور كما وعظهم قوله تعالى عن قوم عاد « وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً » فإذا علمت الأمة جوامع الخيرات وملأمت حياة الناس تطلبت كل ما ينقصها مما يتوقف عليه كمال حياتها وعظمتها .

الفائدة الثامنة أن يُنشئ في المسلمين همة السعى إلى سيادة العالم كما سادته أمم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضاً فكان منتهى السيد منهم أن يَغْنَمَ صُرَيْمَةَ ، ومنتهى أمل العامى أن يرعى غَنِيْمَةً ، وتقاصرت همهم عن تطلب السيادة حتى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزيتهم فأصبحوا كالأتباع للفرس والروم ، فالعراق كله واليمن كله وبلاد البحرين تبع لسيادة الفرس . والشام ومشارفه تبع لسيادة الروم . وبقي الحجاز ونجد لا غنية لهم عن الاعتزاز بملوك العجم والروم في رحلاتهم وتجاريتهم .

الفائدة التاسعة : معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة، وأن الله ينصر من ينصره ، وأنهم إن أخذوا بوسيلتي البقاء : من الاستعداد والاعتماد ؛ سلموا من تسلط غيرهم عليهم . وذكر العواقب الصالحة لأهل الخير ، وكيف ينصرهم الله تعالى كما في قوله « فنأدى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجينا من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين » .

الفائدة العاشرة : أنها يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية كقوله تعالى « كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » في قراءة من قرأ دين بكسر الدال ، أى في شرع فرعون يومئذ ، فعلمنا أن شريعة القبط كانت تحول استرقاق السارق . وقوله « قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده » يدل على أن شريعتهم ما كانت تسوغ أخذ البدل في الاسترقاق ، وأن الحر لا يملك إلا بوجه معتبر . ونعلم من قوله « وابعث في المدن

حاشرين- فأرسل فرعون في المدائن حاشرين» أُنْ نظام مصر في زمن موسى إرسال المؤذنين والبريح بالإعلام بالأمور المهمة . ونعلم من قوله « قال قاتل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيايات الجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بعضُ السيَّارة » أنهم كانوا يعلمون وجود الأجباب في الطرقات وهي آبار قصيرة يقصدها المسافرون للاستقاء منها . وقول يعقوب (وَأَخَافُ أَنَّ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) أن بادية الشام إلى مصر كانت توجد بها الذئاب المفترسة وقد انقطعت منها اليوم .

وفيا ذكرنا ما يدفع عنكم هاجسا رأيته خطر لكثير من أهل اليقين والتشككين وهو أن يقال : لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة في حصول المقصود منها . ومافائدة تكرار القصة في سور كثيرة ؟ وربما تطرق هذا الهاجس ببعضهم إلى مناهج الإلحاد في القرآن . والذي يكشف لسائر المتحيرين حيرتهم على اختلاف نواياهم وتفاوت مداركهم أن القرآن - كما قلنا - هو بالخطب والمواعظ أشبه منه بالتأليف . وفوائد القصص تجتلبها المناسبات فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرا لها لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى . كما لا يقال للخطيب في قوم، ثم دعيته المناسبات إلى أن وقف خطيبا في مثل مقامه الأول فخطب بعمان تضمنتها خطبته السابقة - إنه أعاد الخطبة ، بل إنه أعاد معانيها ولم يُعِدْ ألفاظ خطبته . وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي . ثم تحصل معه مقاصد أخرى : أحدها رسوخها في الأذهان بتكريرها .

الثاني : ظهور البلاغة، فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات أو كناية . وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات مثل : ولئن رُدِّدَتْ . ولئن رُجِّعَتْ . وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان ذلك من الحدود القصوى في البلاغة، فذلك وجه من وجوه الإعجاز .

الثالث : أن يسمع اللاحقون من المؤمنين في وقت نزول القرآن ذكر القصة التي كانت فاتتهم مِمَّا ثَلَّتْهَا قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ أَوْ فِي مَدَّةِ مَغِيْبِهِمْ، فَإِنْ تَلَقَّى الْقُرْآنُ عِنْدَ نَزْوِلِهِ أَوْ قَعَّ فِي النَفُوسِ مِنْ تَطْلَبِهِ مِنْ حَافَظِيهِ .

الرابع : أن جمعَ المؤمنين جميع القرآن حفظاً كان نادراً بل تجد البعض يحفظ بعض السور فيكون الذي حفظ إحدى السور التي ذكرت فيها قصة معينة عالماً بتلك القصة . كعلم من حفظ سورة أخرى ذكرت فيها تلك القصة .

الخامس : أن تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة ويذكر في بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الآخر وذلك لأسباب :

منها تجنب التلويح في الحكاية الواحدة فيقتصر على موضع العبرة منها في موضع ويذكر آخر في موضع آخر فيحصل من متفرق مواضعها في القرآن كمال القصة أو كمال المقصود منها ، وفي بعضها ما هو شرح لبعض .

ومنها أن يكون بعض القصة المذكور في موضع مناسباً للحالة المقصودة من سامعها ، ومن أجل ذلك تجد ذكر بعض القصة في موضع وتجد ذكر بعض آخر منها في موضع آخر لأن فيما يذكر منها مناسبة للسياق الذي سبقت له ، فإنها تارة تساق إلى الشرّيين ، وتارة إلى أهل الكتاب ، وتارة تساق إلى المؤمنين ، وتارة إلى كليهما ، وقد تساق للطائفة من هؤلاء في حالة خاصة ، ثم تساق إليها في حالة أخرى . وبذلك تتفاوت بالإطناب والإيجاز على حسب المقامات ، ألا ترى قصة بعث موسى كيف بسطت في سورة طه ، وسورة الشعراء . وكيف أوجزت في آيتين في سورة الفرقان « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً » .

ومنها أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة ، وتارة لا يقصد ذلك .

فهذه تحقيقات سمحت بها القريحة ، وربما كانت بعض معانيها في كلام السابقين غير صريحة .

المقدمة الثامنة

في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها

هذا غرض له مزيد اتصال بالقرآن . وله اتصال متين بالتفسير ؛ لأن ما يتحقق فيه يُنتفع به في مواضع كثيرة من فواتح السور ، ومناسبة بعضها لبعض فينبغي المفسر عن إعادته .

معلوم لك أن موضوع علم التفسير هو القرآن لتبيان معانيه وما يشتمل عليه من إرشاد وهدى وآداب وإصلاح حال الأمة في جماعتها وفي معاملتها مع الأمم التي تخالطها : بفهم دلالاته اللغوية والبلاغية . فالقرآن هو الكلام الذي أوحاه الله تعالى كلاما عربيا إلى محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل على أن يبلغه الرسول إلى الأمة باللفظ الذي أوحى به إليه للعمل به ولقراءة ما يتيسر لهم أن يقرأوه منه في صلواتهم وجعل قراءته عبادة .

وجعله كذلك آية على صدق الرسول في دعواه الرسالة عن الله إلى الخلق كافة بأن تحدّث منكره والمتردد في من العرب وهم المخاطبون به الأولون بأنهم لا يستطيعون معارضته ، ودعاهم إليها فلم يفعلوا . دَعَاهُمْ أَوَّلَ الْأَمْرِ إِلَى الْإِثْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ فَقَالَ « أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » (سورة هود) . ثم استنزلهم إلى أهون من ذلك عليهم فقال « أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » (سورة يونس) ثم جاء بأصرح من ذلك وأنذرهم بأنهم ليسوا بآتين بذلك فقال في سورة البقرة « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ . الْآيَةُ » وقال « وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (سورة العنكبوت) .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله « مَا مِنْ الْإِنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وفي هذا الحديث معان جليلة ليس هذا مقام بيانها وقد شرحتها في تعليق على صحيح البخارى المسمى « النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح » .

فالقرآن اسم للكلام الموحى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو جملة المكتوب في المصاحف المشتمل على مائة وأربع عشرة سورة ، أولها الفاتحة وأخرها سورة الناس . صار هذا الاسم علما على هذا الوحي . وهو على وزن فعلان وهى زنة وردت في أسماء المصادر مثل غفران ، وشكران وبهتان ، ووردت زيادة النون في أسماء أعلام مثل عثمان وحسان وعدنان . واسم قرآن صالح للاعتبارين لأنه مشتق من القراءة لأن أول ما بدى به الرسول من الوحي « اقرأ باسم ربك » الآية . وقال تعالى « وَقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » فهزمة قرآن أصلية ووزنه فعلان ولذلك اتفق أكثر القراء على قراءة لفظ قرآن مهموزا حيثما وقع في التنزيل ولم يخالفهم إلا ابن كثير قرأه بفتح الراء بعدها ألف على لغة تخفيف المهموز وهى لغة حجازية ، والأصل توافق القراءات في مدلول اللفظ المختلف في قراءته . وقيل هو قرآن بوزن فُعال ، من القرن بين الأشياء أى الجمع بينها لأنه قرنت سورة بعضها ببعض وكذلك آياته وحروفه وسمى كتاب الله قرآنا كما سمي الإنجيل الأنجيل ، وليس مأخوذا من قرأت ، ولهذا يهز قرأت ولا يهز القرآن فتكون قراءة ابن كثير جارية على أنه اسم آخر لكتاب الله على هذا الوجه . ومن الناس من زعم أن قرآن جمع قرينة أى اسم جمع ، إذ لا يجمع مثل قرينة على وزن فُعال في التكثير فإن المجموع الواردة على وزن فُعال محصورة ليس هذا منها ، والقرينة العلامة ، قالوا لأن آياته يصدق بعضها بعضا فهي قرائن على الصدق .

فاسم القرآن هو الاسم الذى جعل علما على الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يسبق أن أطلق على غيره قبله ، وهو أشهر أسمائه وأكثرها ورودا في آياته وأشهرها دورانا على السنة السلف .

وله أسماء أخرى هي في الأصل أوصاف أو أجناس أنها هي الإتيان إلى نيف وعشرين .
والذي اشتهر إطلاقه عليه منها ستة: التنزيل ، والكتاب ، والفرقان ، والدُّكر ، والوحي
وكلام الله .

فأما الفرقان فهو في الأصل اسم لما يفرق به بين الحق والباطل وهو مصدر، وقد وصف
يوم بدر بيوم الفرقان وأطلق على القرآن في قوله تعالى «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده»
وقد جعل هذا الاسم علماً على القرآن بالقلبة مثل التوراة على الكتاب الذي جاء به موسى
والإنجيل على الوحي الذي أنزل على عيسى قال تعالى «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات
محكمات- إلى قوله- وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان» فوصفه أولاً
بالكتاب وهو اسم الجنس العام ثم عبّر عنه باسم الفرقان عقب ذكر التوراة والإنجيل وهما
علمان ليعلم أن الفرقان علم على الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . ووجه
تسميته الفرقان أنه امتاز عن بقية الكتب السماوية بكثرة ما فيه من بيان التفرقة بين الحق
والباطل، فإنّ القرآن يعضد هديه بالدلائل والأمثال ونحوها، وحسبك ما اشتمل عليه من
بيان التوحيد وصفات الله مما لا تجد مثله في التوراة والإنجيل كقوله تعالى «ليس كمثله شئ»
وأذكر لك مثالا يكون تبصرة لك في معنى كون القرآن فرقانا وذلك أنه حكى صفة أصحاب
محمد صلى الله عليه وسلم الواردة في التوراة والإنجيل بقوله «والذين معه أشداء على الكفار
رحماء بينهم» الآيات- من سورة محمد- فلما وصفهم القرآن قال «كنتم خير أمة أخرجت للناس»
الآية - آل عمران - فجمع في هاته الجملة جميع أوصاف الكمال .

وأما إن افتقدت ناحية آيات أحكامه فإنك تجدها مبرأة من اللبس وبعيدة عن تطرق
الشبهة، وحسبك قوله «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا
تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا» فإنك لا تجد في التوراة
جملة تفيد هذا المعنى بله ما في الإنجيل .

وهذا من مقتضيات كون القرآن مهيمناً على الكتب السالفة في قوله تعالى «وأنزلنا
عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» وسيأتى بيان هذا في أول
آل عمران .

وأما التنزيل فهو مصدر نزل، أطلق على المنزل باعتبار أن ألفاظ القرآن أنزلت من السماء

قال تعالى « تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » وقال : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » .

وأما الكتاب فأصله اسم جنس مطلق ومعهود . وباعتبار عهده أطلق على القرآن كثيرا قال تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه » ، وقال « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب » وإنما سمي كتابا لأن الله جملة جامعا للشريعة فأشبه التوراة لأنها كانت مكتوبة في زمن الرسول المرسل بها ، وأشبه الإنجيل الذي لم يكتب في زمن الرسول الذي أرسل به ولكنه كتبه بعض أصحابه وأصحابهم ، ولأن الله أمر رسوله أن يكتب كل ما أنزل عليه منه ليكون حجة على الذين يدخلون في الإسلام ولم يتلقوه بحفظ قلوبهم . وفي هذه التسمية معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم بأن ما أوحى إليه سيكتب في المصاحف قال تعالى « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذّر أمّ القري ومن حولها » ، وقال « وهذا كتاب مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون » وغير ذلك ، ولذلك اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه كُتّاباً يكتبون ما أنزل إليه ؛ من أول ما ابتدئ نزوله ، ومن أولهم عبد الله ابن سعد بن أبي سرح ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان . وقد وجد جميع ما حفظه المسلمون في قلوبهم على قدر ما وجدوه مكتوبا يوم أمر أبو بكر بكتابة المصحف .

وأما الذكّر فقال تعالى « وأنزلنا إليك الذكّر لتبين للناس ما نزل إليهم » أى لتبينه للناس ، وذلك أنه تذكير بما يجب على الناس اعتقاده والعمل به .

وأما الوحي فقال تعالى « قل إنما أنذركم بالوحي » ووجه هذه التسمية أنه أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة الملك وذلك الإلقاء يسمى وحياً لأنه يترجم عن مراد الله تعالى فهو كالكلام المترجم عن مراد الإنسان ، ولأنه لم يكن تأليف تراكيبه من فعل البشر . وأما كلام الله فقال تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » .

واعلم أن أبا بكر رضى الله عنه لما أمر بجمع القرآن وكتابته كتبه على الورق فقال للصحابة : التمسوا اسما ، فقال بعضهم سمّوه إنجيلا فسكرهوا ذلك من أجل النصارى ،

وقال بعضهم سَمَّوْهُ السِّفْرَ فكَرَهُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْيَهُودَ يَسْمُونِ التَّوْرَةَ السِّفْرَ . فقال عبد الله ابن مسعود : رأيتُ بالحبشة كتاباً يَدْعُوْنَهُ الْمُصْحَفَ فَسَمَّوْهُ مُصْحَفًا . (يعنى أنه رأى كتاباً غير الإنجيل) .

آيات القرآن

الآية : هى مقدار من القرآن مركب ولو تقديراً أو إلحاقاً ، فقولى ولو تقديراً لإدخال قوله تعالى « مُدْهَمَّتَانِ » إذ التقدير هَامِدَاهُمَاتَانِ ، ونحو « وَالْفَجْرِ » إذ التقدير أُقْسِمَ بِالْفَجْرِ . وقولى أو إلحاقاً : لإدخال بعض فواتح السور من الحروف المقطعة فقد عُدَّ أكثرها فى المصاحف آيات ما عدا : آل ، والمّر ، وطسّ ، وذلك أمر توقيفى وسنة متبعة ولا يظهر فرق بينها وبين غيرها . وتسمية هذه الأجزاء آيات هو من مبتكرات القرآن، قال تعالى « هُوَ الَّذِى أُنْزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ » وقال « كِتَابٌ أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ » . وإنما سُميت آية لأنها دليل على أنها موحى بها من عند الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنها تشتمل على ما هو من الحد الأعلى فى بلاغة نظم الكلام ، ولأنها لوقوعها مع غيرها من الآيات جعلت دليلاً على أن القرآن منزل من عند الله وليس من تأليف البشر إذ قد تحدّى النبي به أهل الفصاحة والبلاغة من أهل اللسان العربى فمجزوا عن تأليف مثل سورة من سورة .

فلذا لا يحقُّ لمجل التوراة والإنجيل أن تسمى آيات إذ ليست فيها هذه الخصوصية فى اللغة العبرانية والآرامية . وأما ماورد فى حديث رجم اليهوديين اللذين زنيا من قول الراوى « فوضع الذى نشرَ التوراة يده على آية الرجم » فذلك تعبير غلب على لسان الراوى على وجه المشاكلة التقديرية تشبيهاً بجمل القرآن، إذ لم يجد لها اسماً يعبر به عنها .

وتحديد مقادير الآيات مروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد تختلف الرواية فى بعض الآيات وهو محمول على التخخير فى حد تلك الآيات التى تختلف فيها الرواية فى تعيين منتهائها ومبتدأها ما بعدها . فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على علم من تحديد الآيات . قلت وفى الحديث الصحيح « أن فاتحة الكتاب السبعُ الثمانى » أى السبع الآيات . وفى الحديث « من قرأ العشر الخواتم من آخر آل عمران » الحديث . وهى الآيات التى

أولها « إن في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » إلى آخر السورة .

وكان المسلمون في عصر النبوة وما بعده يُقدِّرون تارة بعض الأوقات بمقدار ما يقرأ القارئ عددا من الآيات كما ورد في حديث سُحور النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان بينه وبين طلوع الفجر مقدار ما يقرأ القارئ خمسين آية .

قال أبو بكر ابن العربي « وتحديد الآية من معضلات القرآن ، فمن آياته طويل وقصير ، ومنه ما ينقطع ومنه ما ينتهي إلى تمام الكلام » ، وقال الزخشري « الآيات علم توقيفي » .

وأنا أقول لا يبعد أن يكون تعيين مقدار الآية تبعا لانتهاء نزولها وأمارته وقوع

الفاصلة

والذي استخلصته أن الفواصل هي الكلمات التي تتماثل في أواخر حروفها أو تتقارب ، مع تماثل أو تقارب صيغ النطق بها وتكرر في السورة تكرر يؤذن بأن تماثلها أو تقاربها مقصود من النظم في آيات كثيرة متماثلة ، تكثر وتقل ، وأكثرها قريب من الأسجاع في الكلام المسجوع .

والعبرة فيها بتماثل صيغ الكلمات من حركات وسكون وهي أكثر شيها بالتزام ما لا يلزم في القوافي . وأكثرها جار على أسلوب الأسجاع .

والذي استخلصته أيضا أن تلك الفواصل كلها تنتهي آيات ولو كان الكلام الذي تقع فيه لم يتم فيه الغرض المسوق إليه ، وأنه إذا انتهى الغرض المقصود من الكلام ولم تقع عند انتهائه فاصلة لا يكون منتهى الكلام نهاية آية إلا نادرا كقوله تعالى « ص والقرآن ذي الذكر » ، فهذا المقدار عد آية وهو لم ينته بفاصلة ، ومثله نادر . فإن فواصل تلك الآيات الواقعة في أول السورة أقيمت على حرف مفتوح بعده ألف مد بعدها حرف ، مثل : شقاق ، مناص ، كذآب ، عجاب .

وفواصل بنيت على حرف مضموم مشبع بواو . أو على حرف مكسور مشبع بياء ساكنة ، وبعد ذلك حرف ، مثل « أنتم عنه معرضون ، اذ يستمعون ، نذير مبين ، من طين » .

فلو انتهى الغرض الذي سبق له الكلام وكانت فاصلة تأتي بعد انتهاء الكلام تكون

الآية غير منتهية ولوطالت ، كقوله تعالى « قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك - إلى قوله - وخرّ راكعاً وأُناب » ، فهذه الجمل كلها عدت آية واحدة .

واعلم أن هذه الفواصل من جملة المقصود من الإعجاز لأنها ترجع إلى محسنات الكلام وهي من جانب فصاحة الكلام فمن الغرض البلاغي الوقوف عند الفواصل لتقع في الأسماع فتتأثر نفوس السامعين بمحاسن ذلك التماثل ، كما تتأثر بالقوافي في الشعر وبالأسجاع في الكلام المسجوع . فإن قوله تعالى « إذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (آية) في الحميم ثم في النار يسجرون (آية) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (آية) من دون الله » إلى آخر الآيات . فقوله « في الحميم » متصل بقوله « يسحبون » وقوله « ومن دون الله » متصل بقوله « تشركون » . وينبغي الوقف عند نهاية كل آية منها .

وقوله تعالى « واشهدوا أنني بريء مما تشركون (آية) . وقوله « من دونه » ابتداء الآية بعدها (في سورة هود) .

الا ترى أن من الإضاعة لدقائق الشعر أن يلقيه ملقيه على مسامع الناس دون وقف عند قوافيه فإن ذلك إضاعة لجهود الشعراء ، وتغطية على محاسن الشعر ، وإلحاق للشعر بالنثر .

وان إلقاء السجع دون وقوف عند أسجاعه هو كذلك لا محالة .

ومن السذاجة أن ينصرف ملقي الكلام عن محافظة هذه الدقائق فيكون مضيعاً لأمر نفيس أجهد فيه قائله نفسه وعنايته .

والعلة بأنه يريد أن يبين للسامعين معاني الكلام ، فضول ، فإن البيان وظيفة ملقي درس لا وظيفة منشد الشعر ، ولو كان هو الشاعر نفسه .

وفي الإتقان عن أبي عمرو قال بعضهم : الوقف على رؤس الآي سنة . وفيه عن البيهقي في شعب الإيمان : الأفضل الوقف على رؤس الآيات وإن تعلق بما بعدها اتباعاً لهدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسنته ، وفي سنن أبي داود عن أم سلمة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » . ثم يقف . « الحمد لله رب العالمين » . ثم يقف . « الرحمن الرحيم » ثم يقف .

على أن وراء هذا وجوب اتباع المأثور من تحديد الآي كما قال ابن العربي والزنجشري ولكن ذلك لا يصدنا عن محاولة ضوابط تنفع الناظر وإن شذ عنها ما شذ .

الا ترى أن بعض الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور قد عد بعضها
 آيات مثل . ألم . المص . كهيعص . عسق . طسم . يس . حم . طه .
 ولم تعد السور الممر . طس . ص . ق . ن . آيات .

وآيات القرآن متفاوتة في مقادير كلماتها فبعضها أطول من بعض ولذلك فتقدير الزمان بها في قولهم مقدار ما يقرأ القارئ خمسين آية مثلاً ، تقدير تقريبي ، وتفاوت الآيات في الطول تابع لما يقتضيه مقام البلاغة من مواقع كلمات الفواصل على حسب ما قبلها من الكلام .

وأطول آية قوله تعالى « هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام - إلى قوله - وكان الله بكلّ شيء عليماً » في سورة الفتح ، وقوله « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان - إلى قوله - لو كانوا يعلمون » في سورة البقرة . ودونهما قوله تعالى « حرّمت عليكم أمهاتكم - إلى قوله - إن الله كان غفوراً رحيماً » في سورة النساء .

وأقصر آية في عدد الكلمات قوله تعالى « مُدْهَمَّتَانِ » . في سورة الرحمان وفي عدد الحروف المقطعة قوله « طه » .

وأما وقوف القرآن فقد لا تساير نهايات الآيات ، ولا ارتباط لها بنهايات الآيات فقد يكون في آية واحدة عدة وقوف كما في قوله تعالى « إليه يرد علم الساعة (وقف) وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه (وقف) ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذنك مأميناً من شهيد . (وقف ، ومنتهى الآية) في سورة فصلت . وسيأتي الكلام على الوقوف في آخر هذا المبحث .

فأما ما اختلف السلف فيه من عدد آيات القرآن بناء على الاختلاف في نهاية بعضها ، فقد يكون بعض ذلك عن اختلاف في الرواية كما قدمنا آنفاً ، وقد يكون بعضه عن اختلاف الاجتهاد .

قال أبو عمرو الداني في كتاب العدّد : أجمعوا على أن عدد آيات القرآن يبلغ ستة آلاف آية ، واختلفوا فيما زاد على ذلك ، فمنهم من لم يزد ، ومنهم من قال ومائتين وأربع

آيات ، وقيل وأربع عشرة ، وقيل وتسع عشرة ، وقيل وخمسا وعشرين ، وقيل وستا وثلاثين ، وقيل وستمائة وست عشرة .

قال المازري في شرح البرهان : قال مَكِّي بن أبي طالب قد أجمع أهل المدد من أهل الكوفة والبصرة والمدينة والشام على ترك عد البسملة آية في أول كل سورة ، وإنما اختلفوا في عدّها وتركها في سورة الحمد لا غير ، فعدها آية الكوفي والكني ولم يعدّها آية البصري ولا الشامي ولا المدني .

وفي الإتيان كلام في الضابط الأول من الضوابط غير محرر وهو آيل إلى ما قاله المازري ، ورأيت في عد بعض السور أن المصحف المدني عدّها آياتها أكثر مما في الكوفي ، ولو غنوا عد البسملة لكان الكوفي أكثر .

وكان لأهل المدينة عددان ، يعرف أحدهما بالأول ويعرف الآخر بالآخر ، ومعنى ذلك أن الذين تصدوا لعد الآي بالمدينة من أئمة القراء هم : أبو جعفر يزيد بن القمقاع ، وأبو نصح شيبه بن نصح ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي ، وإسماعيل بن جعفر بن كثير الأنصاري ، وقد اتفق هؤلاء الأربعة على عدد وهو المسمى بالعدد الأول ، ثم خالفهم إسماعيل ابن جعفر بعدد انفرد به وهو الذي يقال له العدد الثاني ، وقد رأيت هذا ينسب إلى أيوب ابن المتوكل البصري المتوفى سنة ٢٠٠ .

ولأهل مكة عدد واحد ، وربما اتفقوا في عدد آي السورة المينة ، وربما اختلفوا ، وقد يوجد اختلاف تارة في مصاحف الكوفة والبصرة والشام ، كما نجد في تفسير المهدوي وفي كتب علوم القرآن ، ولذلك تجد المفسرين يقولون في بعض السور عدد آياتها في المصحف الفلاني كذا . وقد كان عدد آي السور معروفا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم : وروى محمد بن السائب عن ابن عباس أنه لما نزلت آخر آية وهي قوله تعالى « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » الآية قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ضعها في رأس ثمانين ومائتين من سورة البقرة ، واستمر العمل بعد الآي في عصر الصحابة ، ففي صحيح البخاري عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم » الآية .

ترتيب الآي

وأما ترتيب الآي بعضها عقب بعض فهو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم حسب نزول الوحي ، ومن العلوم أن القرآن نزل منجّما آيات فربما نزلت عدة آيات متتابعة أو سورة كاملة ، كما سيأتي قريبا ، وذلك الترتيب مما يدخل في وجوه إعجازه من بداعة أسلوبه كما سيأتي في المقدمة العاشرة ، فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلفتنا عليه متعينا بحيث لو غيّر عنه إلى ترتيب آخر لنزل عن حد الإعجاز الذي امتاز به ، فلم تختلف قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في ترتيب آي السور على نحو ما هو في المصحف الذي بأيدي المسلمين اليوم ، وهو ما استقرت عليه رواية الحفاظ من الصحابة عن العرّضات الأخيرة التي كان يقرأ بها النبي صلى الله عليه وسلم في أواخر سني حياته الشريفة ، وحسبك أن زيد بن ثابت حين كتب المصحف لأبي بكر لم يُخالف في ترتيب آي القرآن .

وعلى ترتيب قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في الصلوات الجهرية وفي عديد المناسبات حفظ القرآن كل من حفظه كلا أو بعضا ، وليس لهم معتمد في ذلك إلا ما عُرفوا به من قوة الحواظ ، ولم يكونوا يعتمدون على الكتابة ، وإنما كان كتّاب الوحي يكتبون ما أنزل من القرآن بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك بتوقيف إلهي . ولعل حكمة الأمر بالكتابة أن يرجع إليها المسلمون عندما يحدث لهم شك أو نسيان ولكن ذلك لم يقع .

ولما أُجمع القرآن في عهد أبي بكر لم يؤثر عنهم أنهم ترددوا في ترتيب آيات من إحدى السور ولا أثر عنهم إنكار أو اختلاف فيما أُجمع من القرآن فكان موافقا لما حفظته حواظهم ، قال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : إنما أُلّف القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن الأنباري كانت الآية تنزل جوابا لمستخبر يسأل ويؤقف جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع الآية .

واتساق الحروف واتساق الآيات واتساق السور كله عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم .

فهذا كان الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل ، ومما يدل عليه وجود

حروف المطف المفيدة للاتصال مثل الفاء ولكن وب^(١) ومثل أدوات الاستثناء ، على أن وجود ذلك لا يعميُّ اتصال ما بعده بما قبله في النزول ، فإنه قد اتَّفَقَ على أن قوله تعالى « غيرَ أولى الضَّرَرِ » نزل بعد نزول ما قبله وما بعده من قوله « لا يستوى القاعدون » إلى قوله « وأنفسهم » قال بدر الدين الزركشي « قال بعض مشايخنا المحققين قد وهم من قال لا تُطَلَّبُ للآي الكريمة مناسبةٌ والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول شيء عن كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وَجَّهَ مناسبتها لما قبلها في ذلك علم جم . »

على أنه يندر أن يكون موقع الآية عقب التي قبلها لأجل نزولها عقب التي قبلها من سورة هي بصدد النزول فيؤمر النبي بأن يقرأها عقب التي قبلها ، وهذا كقوله تعالى « وما نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » عقب قوله « تلك الجنة التي نُورِثُ من عبادنا مَنْ كَانَ تَقِيًّا » في سورة مريم ، فقد روى أن جبريل لبث أياماً لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بوحى ، فلما نزل بالآيات السابقة عاتبه النبي ، فأمر الله جبريل أن يقول « وما نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » فكانت وحياً نزل به جبريل ، فقرأ مع الآية التي نزل بأثرها ، وكذلك آية « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها » عقب قوله تعالى « وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات - إلى قوله - وهم فيها خالدون » - في سورة البقرة - إذ كان ردّاً على المشركين في قولهم : أمّا يستحي محمدٌ أن يمثل بالذُّباب وبالمنكبات ؟ فلما ضَرَبَ لهم الأمثال بقوله « مثَلُهم كمثل الذي استوقد ناراً » تخلص إلى الرد عليهم فيما أنكروه من الأمثال . على أنه لا يمدم مناسبة ما ، وقد لا تكون له مناسبة ولكنه اقتضاء سبب في ذلك المكان كقوله تعالى « لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمْجُلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » فهذه الآيات نزلت في سورة القيامة في خلال توبيخ المشركين على إنكارهم البعث ووصف يوم الحشر وأهواله ، وليست لها مناسبة بذلك ولكن سبب نزولها حصل في خلال ذلك . رَوَى البخاري عن ابن عباس قال : « كان رسول الله إذا نزل جبريل بالوحى كان مما يحرك به لسانه وشفثيه يريد أن يحفظه فأنزل الله الآية التي في هـ أقسم بيوم القيامة » اهـ ، فذلك يفيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرك شفثيه بالآيات التي نزلت في أول السورة .

(١) دون الواو لأنها تعطف الجمل والقصص ، وكذلك ثم لأنها قد تعطف الجمل .

على أنه قد لا يكون في موقع الآية من التي قبلها ظهوراً مناسبة فلا يوجب ذلك حيرة للمفسر؛ لأنه قد يكون سبب وضعها في موضعها أنها قد نزلت على سبب وكان حدوث سبب نزولها في مدة نزول السورة التي وضعت فيها فقرئت تلك الآية عقب آخر آية انتهى إليها النزول، وهذا كقوله تعالى « حافظوا على الصلوات - إلى قوله - ما لم تكونوا تعلمون » بين تشريعات أحكام كثيرة في شؤون الأزواج والأمهات، وقد ذكرنا ذلك عند هذه الآية في التفسير .

وقد تكون الآية ألحقت بالسورة بعد تمام نزولها بأن أمر الرسول بوضعها عقب آية معينة كما تقدم آتفا عن ابن عباس في آية « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » وكذلك ما روى في صحيح مسلم عن ابن مسعود أن أول سورة الحديد نزل بمكة، ولم يختلف المفسرون في أن قوله تعالى « وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله » إلى آخر السورة نزل بالمدينة فلا يكون ذلك إلا لمناسبة بينها وبين آية تلك السورة والتشابه في أسلوب النظم، وإنما تأخر نزول تلك الآية عن نزول أخواتها من سورتها لحكمة اقتضت تأخرها ترجع غالباً إلى حدوث سبب النزول كما سيأتي قريباً .

ولما كان تعيين الآيات التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها في موضع معين غير مروي إلا في عدد قليل، كان حقا على المفسر أن يتطلب مناسبات لمواقع الآيات ما وجد إلى ذلك سبيلاً موصلاً وإلا فليعرض عنه ولا يكن من التكلفين .

إن الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأمرها . فإصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان ونسب العباد الضالة واتباع الإيمان والإسلام، وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هدايتهم وإرشادهم إلى طرق النجاح وتركهم نفوسهم ولذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع في مدة الدعوة، فكانت آيات القرآن مستقلة بعضها عن بعض، لأن كل آية منه ترجع إلى غرض الإصلاح والاستدلال عليه، وتكميله وتحليصه من تسرب الضلالات إليه فلم يلزم أن تكون آياته متسلسلة، ولكن حال القرآن كحال الخطيب يتطرق إلى معالجة الأحوال الحاضرة على اختلافها وينتقل من حال إلى حال بالمناسبة ولذلك تكثر في القرآن الجمل المعترضة لأسباب اقتضت نزولها أو بدون ذلك؛ فإن كل جملة تشتمل على حكمة وإرشاد أو تقويم معوج، كقوله « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه

النَّهَارَ - إلى قوله - قل إن الهدى هدى الله أن يوثق أحد مثل ما أوتيتم « فقله رقل إن الهدى هدى الله جملة معترضة .

وقوف القرآن

الوقف هو قطع الصوت عن الكلمة حصّة يتنفس في مثلها المتنفس عادة ، والوقف عند انتهاء جملة من جمل القرآن قد يكون أصلاً لمعنى الكلام فقد يختلف المعنى باختلاف الوقف مثل قوله تعالى « وكأين من نبيّ قتل معه ربّيون كثير » فإذا وقف عند كلمة (قتل) كان المعنى أن أنبياء كثيرين قتلهم قومهم وأعداؤهم . ومع الأنبياء أصحابهم فما تزلزلوا لقتل أنبيائهم فكان المقصود تأييس المشركين من وهن المسلمين على فرض قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزوته . على نحو قوله تعالى في خطاب المسلمين « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفطعن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » الآية ، وإذا وصل قوله (قتل) عند قوله (كثير) كان المعنى أن أنبياء كثيرين قتل معهم رجال من أهل التقوى فما وهن من بقي بعدهم من المؤمنين وذلك بمعنى قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا - إلى قوله - ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وكذلك قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به » الآية ، فإذا وقف عند قوله « إلا الله » كان المعنى أن المتشابه الكلام الذي لا يصل فهم الناس إلى تأويله وأنّ علمه ممّا اختص الله به مثل اختصاصه بعلم الساعة وسائر الأمور الخمسة وكان ما بعده ابتداء كلام يفيد أن الراسخين يفوضون فهمه إلى الله تعالى ، وإذا وُصل قوله « إلا الله » بما بعده كان المعنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه في حال أنهم يقولون آمنا به .

وكذلك قوله تعالى « واللّاء يشن من المحيض من نسائك إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاء لم يحضن » فإنه لو وقف على قوله « ثلاثة أشهر » وابتدأ بقوله « واللاء لم يحضن » وقع قوله « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » معطوفاً على « اللاء لم يحضن » فيصير قوله « أجلهن أن يضعن حملهن » . خبراً عن « اللاء لم يحضن وأولات الأحمال » ولكنه لا يستقيم المعنى إذ كيف يكون لللاء لم يحضن حمل حتى يكون أجلهن أن يضعن حملهن .

وعلى جميع التقادير لاتجد في القرآن مكانا يجب الوقف فيه ولا يحرم الوقف فيه كما قال ابن الجزري في أرجوزته ، ولكن الوقف ينقسم إلى أكيد حسن ودونه وكل ذلك تقسيم بحسب المعنى . وبعضهم استحسّن أن يكون الوقف عند نهاية الكلام وأن يكون ما يتطلب المعنى الوقف عليه قبل تمام المعنى سكنا وهو قطع الصوت حصّة أقل من حصّة قطعه عند الوقف ، فإنّ اللغة العربية واضحة وسياق الكلام حارس من الفهم المخطئ ، فنحو قوله تعالى « يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ » لو وقف القاري على قوله « الرسول » لا يخطر ببال العارف باللغة أن قوله « وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » تحذير من الإيمان بالله ، وكيف يخطر ذلك وهو موصوف بقوله « ربكم » فهل يحذر أحد من الإيمان برّبه .

وكذلك قوله تعالى « أنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها » فإن كلمة (بناها) هي منتهى الآية والوقف عند (أم السماء) ولكن لو وصل القارئ لم يخطر ببال السامع أن يكون (بناها) من جملة (أم السماء) لأنّ معادل همزة الاستفهام لا يكون إلا مفردا .

على أنّ التعدد في الوقف قد يحصل به ما يحصل بتعدد وجوه القراءات من تعدّد المعنى مع اتحاد الكلمات . فقوله تعالى « ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآثَانٍ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِنْ فَضَّةٍ قَدْ رَوَّهَا تَقْدِيرًا » فإذا وقف على (قواريرا) الأول كان (قواريرا) الثاني تأكيدا لرفع احتمال المجاز في لفظ (قَوَارِيرًا) ، وإذا وقف على (قواريرا) الثاني كان المعنى الترتيب والتصنيف ، كما يقال : قرأ الكتاب بابا بابا ، وحضروا صفّا صفّا . وكان قوله (من فضة) عائدا إلى قوله (بآثان من فضة) .

ولما كان القرآن مرادا منه فهم معانيه وإعجاز الجاحدين به وكان قد نزل بين أهل اللسان كان فهم معانيه مفروغا من حصوله عند جميعهم . فأما التحدي بعجز بلغائهم عن معارضته فأمر يرتبط بما فيه من الخصوصيات البلاغية التي لا يتسوي في القدرة عليها جميعهم بل خاصّة بلغائهم من خطباء وشعراء ، وكان من جملة طرق الإعجاز ما يرجع إلى محسّنات الكلام من فنّ البديع ، ومن ذلك فواصل الآيات التي هي شبه قوافي الشعر وأسجاع النثر ، وهي مرادة في نظم القرآن لا محالة كما قدّمناه عند الكلام على آيات القرآن فكان عدم الوقف عليها تفريطا في الغرض المقصود منها .

لم يشتدّ اعتناء السلف بتحديد أوقافه لظهور أمرها ، وما ذكر عن ابن النحاس من الاحتجاج لوجوب ضبط أوقاف القرآن بكلام لعبد الله بن عمر ليس واضحاً في الغرض المحتج به فانظره في الإتيان للسيوطي .

فكان الاعتبار بفواصله التي هي مقاطع آياته عندهم أهمّ لأنّ عجز قاداتهم وأوليّ البلاغة والرأي منهم تقوم به الحجة عليهم وعلى دهمائهم ، فلما كثر الداخلون في الإسلام من ذمّاء العرب ومن عموم بقية الأمم ، توجه اعتناء أهل القرآن إلى ضبط وقوفه تيسيراً لفهمه على قارئيه ، فظهر الاعتناء بالوقوف ورؤعي فيها ما يراعى في تفسير الآيات فكان ضبط الوقوف مقدمة لما يفاد من المعاني عند واضع الوقف . وأشهر من تصدّى لضبط الوقوف أبو محمد بن الأنباري ، وأبو جعفر بن النحاس ، وللنكزاي أو النكزوي كتاب في الوقف ذكره في الإتيان ، واشتهر بالمغرب من المتأخرين محمد بن أبي جمعة الهبطي المتوفى سنة 930 .

سُور القرآن

السورة قطعة من القرآن معيّنة بمبدأ ونهاية لا يتغيران ، مسماة باسم مخصوص ، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة ، ناشئ عن أسباب النزول ، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة .

وكونها تشتمل على ثلاث آيات مأخوذ من استقرار سور القرآن مع حديث عمر فيما رواه أبو داود عن الزبير قال « جاء الحارث بن خزيمة (هو المسمى في بعض الروايات خزيمة وأبا خزيمة) بالآيتين من آخر سورة براءة فقال : أشهد أني سمعتهما من رسول الله . فقال عمر وأنا أشهد لقد سمعتهما منه ، ثم قال : لو كانت ثلاث آيات لجمعتها سورة على حدة » إلخ ، فدل على أن عمر ما قال ذلك إلا عن علم بأن ذلك أقلّ مقدار سورة . وتسمية القطعة المينة من عدة آيات القرآن سورة من مصطلحات القرآن ، وشاعت تلك التسمية عند العرب حتى المشركين منهم . فالتحدى للعرب بقوله تعالى « فأتوا بمثل » وقوله « فأتوا بسورة من مثله » لا يكون إلا تحدياً باسم معلوم المسمى والمقدار عندهم وقت التحدى ، فإن آيات التحدى نزلت بعد السور الأول ، وقد جاء في القرآن تسمية سورة النور باسم سورة في قوله تعالى « سورة أنزلناها » أي هذه سورة ، وقد زادته السنة بياناً . ولم تكن

أجزاء التوراة والإنجيل والزبور مسماة سوراً عند العرب في الجاهلية ولا في الإسلام .
 ووجه تسمية الجزء المعين من القرآن سورة قيل مأخوذة من السور بضم السين ، وتسكين الواو
 وهو الجدار المحيط بالمدينة أو بحلة قوم زادوه هاء تأنيث في آخره مراعاة لمعنى القطعة
 من الكلام ، كما سموا الكلام الذى يقوله القائل خطبةً أو رسالةً أو مقامة . وقيل مأخوذة
 من السور بهمزة بعد السين وهو البقية مما يشرب الشارب بمناسبة أن السور جزء مما يشرب ،
 ثم خففوا الهمز بعد الضمة فصارت واوا ، قال ابن عطية : « وترك الهمز في سورة هو لغة
 قريش ومن جاورها من هذيل وكنانة وهوازن وسعد بن بكر ، وأما الهمز فهو لغة تميم ،
 وليست إحدى اللغتين بدالة على أن أصل الكلمة من المهموز أو المعتل ، لأن للعرب في تخفيف
 المهموز وهمز المخفف من حروف العلة طريقتين ، كما قالوا أجوه وإعاء وإشاح ، في وجوه ووعاء
 ووشاح ، وكما قالوا الذئب بالهمز والذئب بالياء . قال الفراء : ربما خرجت بهم فصاحتهم
 إلى أن يهمزوا ما ليس مهموزاً كما قالوا «رئأت الميت وكبأت بالحج وحلأت السوق بالهمز» .
 وجمع سورة سُور بتحريك الواو ككُفِرَ ، ونقل في شرح القاموس عن الكراع^(١)
 أنها تجمع على سور بسكون الواو .

وتسوير القرآن من السنة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان القرآن يومئذ
 مقسماً إلى مائة وأربع عشرة سورةً بأسمائها ، ولم يخالف في ذلك إلا عبد الله بن مسعود
 فإنه لم يُثبت المعوذتين في سور القرآن ، وكان يقول « إنما هما تعوذُ أمر الله رسوله بأن يقوله
 وليس هو من القرآن » ، وأثبت القنوت الذى يقال في صلاة الصبح ، على أنه سورة من
 القرآن سماها سورة الخلم والخنع . وجعل سورة الفيل وسورة قريش سورة واحدة .
 وكل ذلك استناداً لما فهمه من نزول القرآن . ولم يحفظ عن جمهور الصحابة حين جمعوا القرآن
 أنهم ترددوا ولا اختلفوا في عدد سورته ، وأنها مائة وأربع عشرة سورة ، روى أصحاب السنن
 عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت الآية يقول : ضعوها في السورة
 التى يذكر فيها كذا ، وكانت السور معلومة المقادير منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم
 محفوظة عنه في قراءة الصلاة وفى عرض القرآن ، فترتيب الآيات في السور هو بتوقيف

(١) هو على بن حسن الهاشمى - بضم الهاء - نسبة إلى هناة بوزن ثمامة : اسم جد قبيلة من قبائل الازد ،
 والكراع بضم الكاف وتخفيف الراء لقب لعل هذا ، كان يلقب كراع النمل .

من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عن ابن عطية إلى مكي بن أبي طالب وجزم به السيوطي في الإتيان ، وبذلك يكون مجموع السورة من الآيات أيضا توفيقيا ، ولذلك نجد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة سورة كذا وسورة كذا من طوال وقصار ، ومن ذلك حديث صلاة الكسوف ، وفي الصحيح أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يزوجه امرأة فقال له النبي : هل عندك ما تُصدقها ؟ قال : لا ، فقال : ما معك من القرآن ؟ قال : سورة كذا وسورة كذا لسور سماها ، فقال « قد زوجتكم بما معك من القرآن » وسيأتي مزيد شرح لهذا الغرض عند الكلام على أسماء السور .

وفائدة التيسير ما قاله صاحب الكشف في تفسير قوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » : « إن الجنس إذا انطوت تحته أنواع كان أحسن وأنبل من أن يكون بيّنا^(١) واحدا ، وأن القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهن إعطفه كالسافر إذا علم أنه قطع ميلا أو طوي فرسخا » .

وأما ترتيب السور بعضها إثر بعض ، فقال أبو بكر الباقلاني : يحتمل أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أمر بترتيبها كذلك ، ويحتمل أن يكون ذلك من اجتهاد الصحابة ، وقال الداني : كان جبريل يوقف رسول الله على موضع الآية وعلى موضع السورة . وفي المستدرک عن زيد بن ثابت أنه قال : « كنا عند رسول الله يؤلف القرآن من الرقاع » قال البيهقي : تأويله أنهم كانوا يؤلفون آيات السور . ونقل ابن عطية عن الباقلاني الجزم بأن ترتيب السور بعضها إثر بعض هو من وضع زيد بن ثابت بمشاركة عثمان ، قال ابن عطية : وظاهر الأثر أن السبع الطوال والحواميم والمفصل كانت مرتبة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من السور ما لم يرتب فذلك هو الذي رتب وقت كتابة المصحف .

أقول : لاشك أن طوائف من سورا القرآن كانت مرتبة في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - على ترتيبها في المصحف الذي بأيدينا اليوم الذي هو نسخة من المصحف الإمام الذي جمع وكتب في خلافة أبي بكر الصديق ووزعت على الأمصار نسخ منه في خلافة عثمان ذي النورين فلا شك في أن سور المفصل كانت هي آخر القرآن ولذلك كانت سنة قراءة السورة في الصلوات المفروضة أن يكون في بعض الصلوات من طوال المفصل وفي بعضها من

(١) بيانا بموحدتين ثانيتهما مشددة ونون . قال السيد : هو الشيء ، وكأن الكلمة يمانية .

وسط المفصل وفي بعضها من قصار المفصل . وأن طائفة السور الطولى الأوائل في المصحف كانت مرتبة في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - أول القرآن . والاحتمالُ فيما عدا ذلك وأقول : لا شك في أن زيد بن ثابت وعثمان بن عفان وهما من أكبر حفاظ القرآن من الصحابة ، تَوَحَّيَا ما استطاعا ترتيب قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للسور ، وترتيب قراءة الحفاظ التي لا تخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان زيد بن ثابت من أكبر حفاظ القرآن وقد لازم النبي صلى الله عليه وسلم مدة حياته بالمدينة ، ولم يتردد في ترتيب سور القرآن على نحو ما كان يقرؤها النبي صلى الله عليه وسلم حين نسخ المصاحف في زمن عثمان . ذلك أن القرآن حين جمع في خلافة أبي بكر لم يجمع في مصحف مرتب وإنما جعلوا لكل سورة صحيفة مفردة ولذلك عبروا عنها بالمصحف ، وفي موطأ ابن وهب عن مالك أن ابن عمر قال « جَمَعَ أبو بكر القرآن في قراطيس » . وكانت تلك المصحف عند أبي بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين ، بسبب أنها كانت وَصِيَّةَ أبيها على تركته ، فلما أراد عثمان جمع القرآن في مصحف واحد أرسل إلى حفصة فأرسلت بها إليه ولما نُسِختُ في مصحف واحد أُرْجِعَ المصحف إليها ، قال في فتح الباري : « وهذا وقع في رواية عمارة ابن غزيرة أن زيد بن ثابت قال : أمرني أبو بكر فكتبتُ في قطع الأديم والعسب فلما هلك أبو بكر وكان عمر كُتِبَتْ ذلك في صحيفة واحدة فكانت عنده » والأصح أن القرآن جمع في زمن أبي بكر في مصحف واحد .

وقد يُوجد في آي من القرآن ما يقتضى سَبْقَ سورة على أخرى مثل قوله في سورة النحل « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل » يُشير إلى قوله « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر » الآية من سورة الأنعام فدلّت على أن سورة الأنعام زلت قبل سورة النحل ، وكذلك هي مرتبة في المصحف ، وقد ثبت أن آخر آية زلت آية في سورة البقرة أو في سورة النساء أو في براءة ، وثلاثتها في الترتيب مقدمة على سور كثيرة .

فالمصاحف الأولى التي كتبها الصحابة لأنفسهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم كانت مختلفة في ترتيب وضع السور . ومن كان له مصحف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ، وروى أن أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة . قال في الإتيان : إن من الصحابة من رتب مصحفه على ترتيب النزول - أي بحسب ما بلغ إليه علمه - وكذلك

كان مصحف علي رضي الله عنه وكان أوله اقرأ باسم ، ثم المدثر ، ثم المزمل ، ثم التكوثر وهكذا إلى آخر المكي ثم المدني . ومنهم من رتب على حسب الطول والقصر وكذلك كان مصحف أبي وابن مسعود فكانا ابتداءً بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران ، وعلى هذه الطريقة أمر عثمان رضي الله عنه بترتيب المصحف المدعو بالإمام ، أخرج الترمذى وأبو داود عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثني فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها في السبع الطوال ، فقال عثمان « كان رسول الله ﷺ يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بمض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فن أجل ذلك قرنتم بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم فوضعتهما في السبع الطوال » . وهو صريح في أنهم جعلوا علامة الفصل بين السور كتابة البسملة ولذلك لم يكتبوها بين سورة الأنفال وسورة براءة لأنهم لم يجزموها بأن براءة سورة مستقلة ، ولكنه كان الراجح عندهم فلم يقدموا على الجزم بالفصل بينهما تحريماً . وفي باب تأليف القرآن من صحيح البخارى عن عبد الله بن مسعود أنه ذكر النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأهن في كل ركعة فسئل علقمة عنها فقال : عشرون سورة من أول الفصل على تأليف ابن مسعود آخرها من الحواميم حم الدخان وعم يتساءلون ، على أن الجمهور جزموا بأن كثيراً من السور كان مرتباً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم اعلم أن ظاهر حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح البخارى في باب تأليف القرآن أنها لا ترى القراءة على ترتيب المصحف أمراً لازماً فقد سألتها رجل من العراق أن تربه مصحفها ليؤلف عليه مصحفه فقالت « وما يضرك أية آية قرأت قبل ، إنما نزل أول ما نزل منه سورة فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام » وفي صحيح مسلم عن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالبقرة ثم بالنساء ثم بآل عمران في ركعة . قال عياض في الاكمال « هو دليل لكون ترتيب السورة وقع

باجتهاد الصحابة حين كتبوا المصحف وهو قول مالك رحمه الله وجمهور العلماء « وفي حديث صلاة الكسوف أن النبي قرأ فيها بسورتين طويلتين ولما كانت جهرية فإن قراءته تينك السورتين لا يخفى على أحد ممن صلى معه ، ولذلك فالظاهر أن تقديم سورة آل عمران على سورة النساء في المصحف الإمام ما كان إلا اتباعا لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما قرأها النبي كذلك إما لأن سورة آل عمران سبقت في النزول سورة النساء التي هي من آخر ما أنزل ، أو لرى المناسبة بين سورة البقرة وسورة آل عمران في الافتتاح بكلمة آم ، أو لأن النبي صلى الله عليه وسلم وصفهما وصفا واحدا « في حديث أبي أمامة أن النبي قال اقرأوا الزهراء وابن البقرة وآل عمران وذكر فضلها يوم القيامة » أو لما في صحيح مسلم أيضا عن حديث النّوّاس ابن سَمْعَانَ أن النبي قال « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدّمه سورة البقرة وآل عمران، وضرب لها ثلاثة أمثال » الحديث . ووقع في تفسير شمس الدين محمود الأصفهاني الشافعي^(١) ، في المقدمة الخامسة من أوائله « لا خلاف في أن القرآن يجب أن يكون متواترا في أصله وأجزائه ، وأما في محله ووضعه وترتيبه فعند المحققين من أهل السنة كذلك؛ إذ الدواعي تتوفر على نقله على وجه التواتر ، وما قيل التواتر شرط في ثبوته بحسب أصله وليس شرطا في محله ووضعه وترتيبه فضعيف لأنه لو لم يشترط التواتر في المحل جاز أن لا يتواتر كثير من المكررات الواقعة في القرآن وما لم يتواتر يجوز سقوطه » وهو يعني بالقرآن ألفاظ آياته ومحملها دون ترتيب السور .

قال ابن بَطَّال^(٢) « لا نعلم أحدا قال بوجوب القراءة على ترتيب السور في المصحف بل يجوز أن تقرأ الكهف قبل البقرة ، وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكسا ، فالمراد منه أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها » . قلت أو يحمل النهي على الكراهة .

واعلم أن معنى الطولي والقصرى في السور مراعى فيه عدد الآيات لا عدد الكلمات

(١) هو محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الأسفهانى الشافعى المتوفى سنة تسع وأربعين وسبعائة جمع في تفسيره الكشف، ومفاتيح الغيب، وهو مخطوط بالمكتبة الأحمديّة بجامع الزيتونة بتونس .

(٢) هو على بن خلف بن بطلال القرطبي ثم البلسنى المالكي المتوفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة، له شرح على صحيح البخارى .

والحروف . وأن الاختلاف - بينهم في تعيين المكي والمدني من سور القرآن خلاف ليس بكثير . وأن ترتيب المصحف تخللت فيه السور المسكية والمدنية . وأما ترتيب نزول السور المسكية ونزول السور المدنية ففيه ثلاث روايات ، إحداها - رواية مجاهد عن ابن عباس ، والثانية رواية عطاء الخراساني عن ابن عباس ، والثالثة لجابر ابن زيد ولا يكون إلا عن ابن عباس ، وهي التي اعتمدها الجعبري في منظومته التي سماها «تقريب المأمول في ترتيب النزول» وذكرها السيوطي في الإتيان وهي التي جرينا عليها في تفسيرنا هذا .

وأما أسماء السور فقد جعلت لها من عهد نزول الوحي ، والمقصود من تسميتها تيسير المراجعة والمذاكرة . وقد دل حديث ابن عباس الذي ذكر آنفاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا نزلت الآية «ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا» ، فسورة البقرة مثلاً كانت تلقب بالسورة التي تذكر فيها البقرة . وفائدة التسمية أن تكون بما يميز السورة عن غيرها . وأصل أسماء السور أن تكون بالوصف كقولهم السورة التي يذكر فيها كذا ، ثم شاع تحذفوا الموصول وعوضوا عنه الإضافة فقالوا سورة ذكر البقرة مثلاً ، ثم حذفوا المضاف وأقاموا المضاف إليه مقامه فقالوا سورة البقرة . أو أنهم لم يقدرُوا مضافاً - وأضافوا السورة لما يذكر فيها لأدنى ملاسة . وقد ثبت في صحيح البخاري قول عائشة رضي الله عنها «لما نزلت الآيات من آخر البقرة الحديث» وفيه عن ابن مسعود قال قرأ رسول الله النجم . وعن ابن عباس أن رسول الله سجد بالنجم . وما روى من حديث عن أنس مرفوعاً «لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذلك القرآن كله ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها آل عمران - وكذا القرآن كله» ، فقال أحمد بن حنبل هو حديث منكسر ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ، ولكن ابن حجر أثبت صحته . ويذكر عن ابن عمر أنه كان يقول مثل ذلك ولا يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره البيهقي في شعب الإيمان ، وكان الحجاج بن يوسف يمنع من يقول سورة كذا ويقول قل السورة التي يذكر فيها كذا ، والذين صححوا حديث أنس تأولوه وتأولوا قول ابن عمر بأن ذلك كان في مكة حين كان المسلمون إذا قالوا : سورة الفيل وسورة العنكبوت مثلاً هزأ بهم المشركون ، وقد روى أن هذا سبب نزول قوله تعالى «إنا كفيناك المستهزئين» فلما هاجر المسلمون إلى المدينة زال سبب النهي فنسخ ، وقد علم الناس كلهم معنى التسمية .

ولم يشتهر عن السلف هذا المنع ولهذا ترجم البخارى فى كتاب فضائل القرآن بقوله « باب من لم ير بأساً أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وسورة كذا » وأخرج فيه أحاديث تدل على أنهم قالوا سورة البقرة ، سورة الفتح ، سورة النساء ، سورة الفرقان ، سورة براءة ، وبعضها من لفظ النبىء صلى الله عليه وسلم ، وعليه فللقائل أن يقول سورة البقرة أو التى يذكر فيها البقرة ، وأن يقول سورة والنجم وسورة النجم ، وقرأت النجم وقرأت والنجم ، كما جاءت هذه الإطلاقات فى حديث السجود فى سورة النجم عن ابن عباس .

والظاهر أن الصحابة سموا بما حفظوه عن النبىء صلى الله عليه وسلم أو أخذوا لها أشهر الأسماء التى كان الناس يعرفونها بها ولو كانت التسمية غير مأثورة ، فقد سمي ابن مسعود القنوت سورة الخلع والخنوع كما مر ، فتعين أن تكون التسمية من وضعه ، وقد اشتهرت تسمية بعض السور فى زمن النبىء صلى الله عليه وسلم وسميها وأقرها وذلك يكفى فى تصحيح التسمية . واعلم أن أسماء السور إما أن تكون بأوصافها مثل الفاتحة وسورة الحمد ، وإما أن تكون بالإضافة لشيء اختصت بذكره نحو سورة لقمان وسورة يوسف وسورة البقرة ، وإما بالإضافة لما كان ذكره فيها أوفى نحو سورة هود وسورة إبراهيم ، وإما بالإضافة لكلمات تقع فى السورة نحو سورة براءة ، وسورة حم عسق ، وسورة حم السجدة كما سماها بعض السلف ، وسورة فاطر . وقد سموا مجموع السور المفتحة بكلمة حم « آل حم » ، وربما سموا السورتين بوصف واحد فقد سموا سورة الكافرون وسورة الإخلاص المشقتين .

واعلم أن الصحابة لم يثبتوا فى المصحف أسماء السور بل اكتفوا بإثبات البسملة فى مبدأ كل سورة علامة على الفصل بين السورتين ، وإنما فعلوا ذلك كراهة أن يكتبوا فى أثناء القرآن ما ليس بآية قرآنية ، فاختاروا البسملة لأنها مناسبة للافتتاح مع كونها آية من القرآن وفى الإتيان أن سورة البينة سميت فى مصحف أبى سورة أهل الكتاب ، وهذا يؤذن بأنه كان يسمى السور فى مصحفه . وكتبت أسماء السور فى المصاحف باطراد فى عصر التابعين ولم ينكر عليهم ذلك . قال المازرى فى شرح البرهان عن القاضى أبى بكر الباقلانى : إن أسماء السور لما كتبت المصاحف كتبت بخط آخر لتمييز عن القرآن ، وإن البسملة كانت مكتوبة فى أوائل السور بخط لا يميز عن الخط الذى كتب به القرآن .

وأما ترتيب آيات السورة فإن التنجيم فى النزول من المعلوم كما تقدم آنفاً ، وذلك فى

آياته وسوره فربما نزلت السورة جميعا دفعة واحدة كما نزلت سورة الفاتحة وسورة المرسلات من السور القصيرة، وربما نزلت نزولا متتابعاً كسورة الأنعام، وفي صحيح البخارى عن البراء ابن عازب قال آخر سورة نزلت كاملة براءة، وربما نزلت السورة مفردة ونزلت السورتان مفترقتان في أوقات متداخلة، روى الترمذى عن ابن عباس عن عثمان بن عفان قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد - أى في أوقات متتالية - فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب الوحي فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة كذا». ولذلك فقد تكون السورة بعضها مكيا وبعضها مدنيا. وكذلك تنبيه كل سورة كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت نهايات السور معلومة، كما يشير إليه حديث «من قرأ الآيات الخواتم من سورة آل عمران» وقول زيد بن ثابت «فقدت آخر سورة براءة». وقد توفي رسول الله والقرآن مسوّر سوراً معينة، كما دل عليه حديث اختلاف عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم بن حزام في آيات من سورة الفرقان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم في المقدمة الخامسة. وقال عبد الله بن مسعود في سور بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء «هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ وَهُنَّ مِنَ تِلَادِي» وقد جمع من الصحابة القرآن كله في حياة رسول الله زيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وأبى بن كعب، وأبو الدرداء، وعبد الله بن عمر، وعُباد بن الصامت، وأبو أيوب، وسعد بن عبيد، ومُجمّع بن جارية، وأبو موسى الأشعري، وحفظ كثير من الصحابة أكثر القرآن على تفاوت بينهم.

وفي حديث غزوة حنين لما انكشف المسلمون قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس «اصْرُخْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا أَصْحَابَ السَّمَرَةِ، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» ففعل الأنصاريون كما كانوا قد عكفوا على حفظ ما نزل من سورة البقرة لأنها أول السور النازلة بالمدينة، وفي حكام القرآن لابن العربي عن ابن وهب عن مالك كان شعارهم يوم حنين يا أصحاب سورة البقرة وقد ذكر النحويون في الوقف على تاء التأنيث هاء أن رجلاً نادى: يا أهل سورة البقر يا ثبات التاء في الوقف وهي لغة، فأجابه مجيب «ما أحفظ منها ولا آيت» محاكاةً للفتة.

(١/٦ - التحرير)

المقدمة التاسعة

في أن المعاني التي تتحملها جُمْلُ القرآن ، تُعتبر مرادةً بها

إن العرب أمة جُبِلَتْ على ذكاء القرائح وفطنة الأفهام ، فعلى دَعامة فطنتهم وذكائهم أقيمت أساليب كلامهم ، وبخاصة كلام بلغائهم ، ولذلك كان الإيجاز عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلمين على أفهام السامعين كما يقال « لَمَحَّة دَالَّة » . لأجل ذلك كثر في كلامهم : المجاز ، والاستعارة ، والتمثيل ، والكناية ، والتمريض ، والاشتراك والتسامح في الاستعمال كالمبالغة ، والاستطرادُ ومستتبعاتُ التراكيب ، والأمثالُ ، والتلميح ، والتلميح ، واستعمال الجملة الخبرية في غير إفادة النسبة الخبرية ، واستعمال الاستفهام في التقرير أو الإنكار ، ونحو ذلك .

وملاك ذلك كله توفير المعاني ، وأداء ما في نفس المتكلم بأوضح عبارة وأخصرها ليسهل اعتلائها بالأذهان ؛ وإذ قد كان القرآن وحيا من العَلَامِ سبحانه وقد أراد أن يجعله آية على صدق رسوله وتحدّي بلغاء العرب بمعارضة أقصر سورة منه كما سيأتى في المقدمة العاشرة ، فقد نُسجَ نظمه نسجا بالغا منتهى ما تَسْمَحُ به اللغة العربية من الدقائق واللطائف لفظا ومعنى بما يفي بأقصى ما يراد بلاغة إلى المرسل إليهم .

فجاء القرآن على أسلوب أبدع مما كانوا يمهّدون وأعجب ، فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته ولم يَسْمَهُم إلا الإذعان ، سواء في ذلك من آمن منهم مثل لبيد ابن ربيعة وكعب ابن زهير والناطقة الجمعدى ، ومن استمر على كفره عنادا مثل الوليد بن المغيرة . فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم . وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر مما تحتمله الألفاظ ، في أقلّ ما يمكن من المقدار ، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات ، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى ، فعتاد البلغاء إيداع التكلم معنى يدعوه إليه غرض كلامه وترك غيره والقرآن ينبئ أن يودع من المعاني كل ما يحتاج السامعون إلى علمه وكل ما له حظ في البلاغة سواء كانت متساوية أم متفاوتة في البلاغة إذا كان المعنى الأعلى مقصودا وكان ما هو

أدنى منه مرادامعه لامرادا دونه سواء كانت دلالة التركيب عليها متساوية في الاحتمال والظهور أم كانت متفاوتة بعضها أظهر من بعض ولو أن تبلغ حد التأويل وهو حمل اللفظ على المعنى المحتمل المرجوح . أما إذا تساوى المعنيان فالأمر أظهر ، مثل قوله تعالى « وما قتلوله يقينا » أي ما يتيقنوا قتله ولكن توهموه ، أو ما أيقن النصارى الذين اختلفوا في قتل عيسى عليم ذلك يقينا بل فهموه خطأ ، ومثل قوله « فأنساء الشيطان ذكر ربه » ففي كل من كلمة ذكر وربه معنيان ، ومثل قوله « قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي » ففي لفظ رب معنيان . وقد تكرثر المعاني بإزالة لفظ الآية على وجهين أو أكثر تكرثيرا للمعاني مع إيجاز اللفظ وهذا من وجوه الإعجاز . ومثاله قوله تعالى « إلا عن موعدة وعدھا إياه » بالمشناة التحتية وقرأ الحسن البصري أباه بالباء الموحدة ، فنشأ احتمال فيمن هو الواعد . ولما كان القرآن نازلا من المحيط علمه بكل شيء ، كان ما تسمح تراكيبه الجارية على فصيح استعمال الكلام البليغ باحتماله من المعاني المألوفة للعرب في أمثال تلك التراكيب ، مظنوننا بأنه مراد لمنزله ، ما لم يمنع من ذلك مانع صريح أو غالب من دلالة شرعية أو لغوية أو توقيفية . وقد جعل الله القرآن كتاب الأمة كلها وفيه هديها ، ودعاهم إلى تدبره وبذل الجهد في استخراج معانيه في غير ما آية كقوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » وقوله « وإذا جاءهم أمر من الأمان أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وقوله « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » وغير ذلك . على أن القرآن هو الحجة العامة بين علماء الإسلام لا يختلفون في كونه حجة شريعتهم وإن اختلفوا في حجية ما عداه من الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة الخلاف في شروط تصحيح الخبر ، ولتفاوتهم في مقدار ما يبلغهم من الأخبار مع تفرق العصور والأقطار ، فلا مرجع لهم عند الاختلاف يرجعون إليه أقوى من القرآن ودلالته .

وبدل لتأصيلنا هذا ما وقع إلينا من تفسيرات مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم لآيات ، فنرى منها ما نوقن بأنه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب ؛ ولكننا بالتأمل نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد بتفسيره إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن ، مثال ذلك ما رواه أبو سعيد بن المعلى قال : دعاني رسول الله وأنا في الصلاة فلم أجبه فلما فرغت أقبلت إليه فقال « ما منعك أن تجيبني ؟ فقلت : يا رسول الله

كنتُ أصلي ، فقال : أَلَمْ يَقُلِ اللهُ تَعَالَى اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ؟ » ، فلا شك أن المعنى المسوقَ فيه الآيةُ هو الاستجابة بمعنى الامتثال ، كقوله تعالى « الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » ، وأن المراد من الدعوة الهداية كقوله « يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ » ، وقد تعلق فعل دعاكم بقوله لما يحْيِيكُمْ أي لما فيه صلاحكم ، غير أن لفظ الاستجابة لما كان صالحاً للحمل على المعنى الحقيقي أيضاً وهو إجابة النداء حمَلِ النبي صلى الله عليه وسلم الآية على ذلك في المقام الصالح له ، بقطع النظر عن المتعلق وهو قوله « لما يحْيِيكُمْ » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا » ، كما بدأنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » إنما هو تشبيه الخلق الثاني بالخلق الأول لدفع استبعاد البعث ، كقوله تعالى « أَفَمَنْ يَتَّبِعُنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » ، وقوله « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » ، فذلك مورد التشبيه ، غير أن التشبيه لما كان صالحاً للحمل على تمام المشابهة أَعْلَمْنَا النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك مراد منه ، بأن يكون التشبيه بالخلق الأول شاملاً للتجرد من الثياب والنعال .

وكذلك قوله تعالى « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب لما قال له لَا تُصَلِّ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي بَرْزٍ سَأُولُ فَإِنَّهُ مُنَافِقٌ وقد نهاك الله عن أن تستغفر للمنافقين ، فقال النبي « خَيْرَنِي رَبِّي وَسَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ » فحمل قوله تعالى « أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ » على التخيير مع أن ظاهره أنه مستعمل في التسوية ، وحمل اسم العدد على دلالة الصريحة دون كونه كناية عن الكثرة كما هو قرينة السياق لما كان الأمر واسم العدد صالحين لما حملهما عليه فكان الحمل تأويلاً ناشئاً عن الاحتياط . ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لَمْ يَكُنْ بِنْتُ عَقْبَةَ بْنِ مُعَيْطٍ حِينَ جَاءَتْ مُسْلِمَةً مُهَاجِرَةً إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَبَتْ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَرَأَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَوْلَهُ تَعَالَى « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » فاستعمله في معنى مجازي هو غير المعنى الحقيقي الذي سبق إليه ، وما أرى سجود النبي صلى الله عليه وسلم في مواضع سُجُودِ التَّلَاوَةِ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَاجِعًا إِلَى هَذَا الْأَصْلِ فَإِنْ كَانَ فَهَمًا مِنْهُ رَجَعَ إِلَى مَا شَرَحْنَا تَأْصِيلَهُ ، وَإِنْ كَانَ وَحْيًا كَانَ أَقْوَى حُجَّةً فِي إِرَادَةِ اللَّهِ مِنَ الْفَافِظِ كِتَابَهُ مَا تَحْتَمِلُهُ الْفَافِظُ مِمَّا لَا يَنَاقِي أَغْرَاضَهُ .

وكذلك لما ورد عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من الأئمة مثل ما روى

أن عمرو بن العاص أصبح جنباً في غزوة في يوم باردٍ فتيمم وقال « الله تعالى يقول: ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً » مع أن مورد الآية أصله في النهي عن أن يقتل الناس بعضهم بعضاً. ومن ذلك أن عمر لما فتحت العراق وسأله جيش الفتح قسمة أرض السواد بينهم قال: « إن قسمتها بينكم لم يجز المسلمون الذين يأتون بعدكم من البلاد المفتوحة مثل ما وجدتم فأرى أن أجعلها خراجاً على أهل الأرض يقسم على المسلمين كل مؤمٍم فإن الله يقول: والذين جاءوا من بعدهم » وهذه الآية نزلت في فء قريظة والنضير، والمراد بالذين جاءوا من بعد المذكورين هم المسلمون الذين أسلموا بعد الفتح المذكور. وكذلك استنباط عمر ابتداء التاريخ بيوم الهجرة، من قوله تعالى « لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ » فإن المعنى الأصلي أنه أُسِّسَ من أول أيام تأسيسه، واللفظ صالح لأن يُحمل على أنه أُسِّسَ من أول يوم من الأيام أى أحق الأيام أن يكون أول أيام الإسلام فتكون الأولوية نسبياً. وقد استدلل فقهاؤنا على مشروعية الجمالة ومشروعية الكفالة في الإسلام، بقوله تعالى في قصة يوسف « وَلَمِنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ » كما تقدم في المقدمة الثالثة، مع أنه حكاية قصة مضت في أمة خلت ليست في سياق تقرير ولا إنكار، ولا هي من شريعة سماوية، إلا أن القرآن ذكرها ولم يُعقبها بإنكار. ومن هذا القبيل استدلال الشافعي على حجية الإجماع وتحريم خرقه بقوله تعالى « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُضْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » مع أن سياق الآية في أحوال المشركين، فالمراد من الآية مشاققة خاصة واتباع غير سبيل خاص ولكن الشافعي جمل حجية الإجماع من كمال الآية.

وإن القراءات المتواترة إذا اختلفت في قراءة ألفاظ القرآن اختلافاً يفضى إلى اختلاف المعاني لِمَا يرجع إلى هذا الأصل.

ثم إن معاني التركيب المحتمل معنيين فصاعداً قد يكون بينهما العموم والخصوص فهذا النوع لا تردد في حمل التركيب على جميع ما يحتمله، ما لم يكن عن بعض تلك المحامل صارف لفظي أو معنوي، مثل حمل الجهاد في قوله تعالى « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » في سورة العنكبوت على معني مجاهدة النفس في إقامة شرائع الإسلام، ومقاتلة الأعداء في الذب عن حوزة الإسلام. وقد يكون بينها التغاير، بحيث يكون تعيين التركيب للبعض

منافيا لعمينه للآخر بحسب إرادة المتكلم عرفا ، ولكن صلوحية التركيب لها على البدلية مع عدم ما يعين إرادة أحدها تحمّل السامع على الأخذ بالجميع إيفاء بما عسى أن يكون مراد المتكلم ، فالجمل على الجميع نظير ما قاله أهل الأصول في حمل المشترك على معانيه احتياطا . وقد يكون ثانى المعنيين متولدا من المعنى الأول ، وهذا لا شبهة في الحمل عليه لأنه من مُسْتَبْعَات التراكيب ، مثل الكناية والتعريض والتهمك مع معانيها الصريحة ، ومن هذا القبيل ما في صحيح البخارى عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فنكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ، فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم قال : فما رُئيت أنه دعاني إلا ليريههم ، قال : ما تقولون في قول الله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ؟ » فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لي : أأذكلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله أعلمه له ، قال إذا جاء نصر الله والفتح وذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول .

وإنك لتمرّ بالآية الواحدة فتأملها وتدبرها فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي . وقد تتكاثر عليك فلا تك من كثرتها في حصر ولا تجعل الحمل على بعضها منافيا للحمل على البعض الآخر إن كان التركيب سمحا بذلك .

فختلّف المحامل التي تسمح بها كلمات القرآن وتراكيبه وإعراجه ودلالته ، من اشتراك وحقيقة ومجاز ، وصريح وكناية ، وبديع ، ووصل ، ووقف ، إذا لم تنفض إلى خلاف المقصود من السياق ، يجب حمل الكلام على جميعها كالوصل والوقف في قوله تعالى « لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » إذا وقف على لاريب أو على فيه . وقوله تعالى « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ » باختلاف المعنى إذا وقف على قوله قتل ، أو على قوله معه ربيون كثير . وكقوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون » باختلاف المعنى عند الوقف على اسم الجلالة أو على قوله في العلم ، وكقوله تعالى « قَالَ أَرَأَيْتُمْ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » باختلاف ارتباط النداء من قوله

يا إبراهيم بالتوخيخ بقوله أرأغب أنت ، أو بالوعيد في قوله لئن لم تنته لأَرْجُمَنَّكَ ، وقد أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتابا مخاطبا به كل الأمم في جميع العصور ، لذلك جملة بلغة هي أفصح كلام بين لغات البشر وهي اللغة العربية ، لأسباب يلوح لي منها . أن تلك اللغة أوفر اللغات مادة ، وأقلها حروفا ، وأفصحها لهجة ، وأكثرها تصرفا في الدلالة على أغراض التكلم ، وأوفرها ألفاظا ، وجملة جامعا لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبهامن المعاني ، في أقل ما يسمح به نظم تلك اللغة ، فكان قوام أساليبه جارياعلى أسلوب الإيجاز ؛ فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب .

ومن أدق ذلك وأجدره بأن نبه عليه في هذه المقدمة استعمال اللفظ المشترك في معنييه أو معانيه دَفْعَةً .

واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي ومعناه المجازي معا . بَلَّةُ إرادة المعاني المكتنى عنها مع المعاني المصرح بها ، وإرادة المعاني المستتبعات (بفتح الباء) من التراكيب المستتبعة (بكسر الباء) .

وهذا الأخير قد نبه عليه علماء العربية الذين اشتغلوا بعلم المعاني والبيان . وبقى المبحثان الأولان وهما استعمال المشترك في معنييه أو معانيه ، واستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، مَحَلٌّ تردد بين المتصدين لاستخراج معاني القرآن تفسيرا وتشريحا ، سببه أنه غير وارد في كلام العرب قبل القرآن أو واقع بندرة ، فلقد تجد بعض العلماء يدفع مَحْمَلًا من محامل بعض آيات بأنه يحمل يفضى إلى استعمال المشترك في معنييه أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، ويعُدون ذلك خَطْبًا عظيمًا .

من أجل ذلك اختلف علماء العربية وعلماء أصول الفقه في جواز استعمال المشترك في أكثر من معنى من مدلوله اختلافا يُنبئ^١ عن ترددهم في صحة حمل ألفاظ القرآن على هذا الاستعمال . وقد أشار كلام بعض الأئمة إلى أن مثار اختلافهم هو عدم العهد بمثله عند العرب قبل نزول القرآن ، إذ قال الغزالي وأبو الحسين البصري^(١) يصح أن يراد بالمشترك عدة معان لكن بإرادة التكلم وليس بدلالة اللغة . وظنى بهما أنهما يريدان تصوير تلك الإرادة

(١) محمد بن علي البصري الشافعي المعتزلي المتوفى سنة ٤٣٩ له كتاب المعتمد في أصول الفقه .

إلى أنها دلالة من مستتبعات التراكيب لأنها دلالة عقلية لا تحتاج إلى علاقة وقرينة ، كدلالة المجاز والاستعارة .

والحق أن المشترك يصح إطلاقه على عدة من معانيه جميعا أو بعضا إطلاقا لغويا، فقال قوم هو من قبيل الحقيقة ونسب إلى الشافعي وأبي بكر الباقلاني وجمهور المعتزلة . وقال قوم هو المجاز وجزم ابن الحاجب بأنه مراد الباقلاني من قوله في كتاب التقريب والإرشاد إن المشترك لا يحمل على أكثر من معنى إلا بقرينة ، ففهم ابن الحاجب أن القرينة من علامات المجاز وهذا لا يستقيم لأن القرينة التي هي من علامات المجاز هي القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي وهي لا تتصور في موضوعنا ؛ إذ معاني المشترك كلها من قبيل الحقيقة وإلا لانقضت حقيقة المشترك فارتفع الموضوع من أصله . وإنما سها أحناب هذا الرأي عن الفرق بين قرينة إطلاق اللفظ على معناه المجازي وقرينة إطلاق المشترك على عدة من معانيه ، فإن قرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي وقرينة المشترك معينة للمعاني المرادة كلا أو بعضا .

وثمة قول آخر لا ينبغي الالتفات إليه وإنما نذكره استيعابا لأراء الناظرين في هذه المسألة ، وهو صحة إطلاق المشترك على معانيه في النفي وعدم صحة ذلك في الإيجاب ، ونسب هذا القول إلى برهان على المرغيناني الفقيه الحنفي صاحب كتاب الهداية في الفقه ، ومثاره في ما أحسب اشتباه دلالة اللفظ المشترك على معانيه بدلالة النكرة الكلية على أفرادها حيث تفيد العموم إذا وقعت في سياق النفي ولا تفيده في سياق الإثبات .

والذي يجب اعتباره أن يحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني سواء في ذلك اللفظ المفرد المشترك ، والتركيب المشترك بين مختلف الاستعمالات ، سواء كانت المعاني حقيقية أو مجازية ، محضة أو مختلفة . مثال استعمال اللفظ المفرد في حقيقته ومجازيه قوله تعالى « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » فالسجود له معنى حقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض ومعنى مجازي وهو التعظيم ، وقد استعمل فعل يسجد هنا في معنييه المذكورين لا محالة . وقوله تعالى « وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ » فبسط الأيدي حقيقة في مدّها للضرب والسلب ، وبسط الألسنة مجاز في عدم إمساكها عن القول البذيء

وقد استعمل هنا في كلا معنييه . ومثال استعمال المركب المشترك في معنييه قوله تعالى « وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ » فركب ويل له يستعمل خبرا ويستعمل دعاء ، وقد حمله المفسرون هنا على كلا المعنيين .

وعلى هذا القانون يكون طريق الجمع بين المعاني التي يذكرها المفسرون ، أو ترجيح بعضها على بعض ، وقد كان المفسرون غافلين عن تأصيل هذا الأصل فلذلك كان الذي يرجح معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن ، يجعل غير ذلك المعنى مُلغى . ونحن لا نتابهم على ذلك بل نرى المعاني المتعددة التي يحتملها اللفظ بدون خروج عن مهيبة الكلام العربي البليغ ، معاني في تفسير الآية . فنحن في تفسيرنا هذا إذا ذكرنا معنيين فصاعدا فذلك على هذا القانون . وإذا تركنا معنى مما حمل بعض المفسرين عليه في آيات من القرآن فليس تركنا إياه دالا على إبطاله ، ولكن قد يكون ذلك لترجُّح غيره ، وقد يكون اكتفاء بذكره في تفاسير أخرى تجنبنا للإطالة ، فإن التفاسير اليوم موجودة بين يدي أهل العلم لا يعوزهم استقراؤها ولا تمييز حاملها متى جروا على هذا القانون .

المقدمة العاشرة

في إعجاز القرآن

لم أر غرضا تناضلت له سهام الأفهام . ولا غاية تسابقت إليها جياذ الهمم فرجعت دونها
حسرى . واقتنعت بما بلغت من ضيابة نَزْرًا . مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن فإنه لم
يزل شغل أهل البلاغة الشاغل . ومورد لها للمعلول والناهل . ومُنْغَى سبائِها للنديم والواغل ،
ولقد سبق أن أَلَفَ علمُ البلاغة مشتتلا على نماذج من وجوه إعجازه . والفرقة بين حقيقته
وعجازه . إلا أنه باحث عن كل خصائص الكلام العربي البليغ ليكون معيارا للنقد أو آلة
للصنع . ثم لِيُظْهَرَ من جراء ذلك كيف تفوّق القرآن على كل كلام بليغ بما توفر فيه من
الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر للبلاء حتى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الإتيان
بمثله . قال أبو يعقوب السكاكي في كتاب المفتاح « واعلم أنى مهدت لك في هذا العلم
قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها . واعترف لك بكلال الخدق في البلاغة
أبناؤها . إلى أن قال - ثم إذا كنت ممن ملّك الذوق وتصفحت كلام رب العزة .
أطلعتك على ما يُوردك موارد العزة . وكشفت عن وجه إعجازه القناع » اهـ .

فأما أنا فأردت في هذه المقدمة أن أَلِمَّ بك أيها المتأمل إلمامة ليست بخطرة طيف .
ولا هي كإقامة المنتجع في المَرَبَع حتى يظله الضيف . وإنما هي لَمَحَةٌ ترى منها كيف
كان القرآن بمعجزا وتنبصر منها نواحي إعجازه وما أنا بمستقص دلائل الإعجاز في آحاد
الآيات والسور . فذلك له مصنفاته وكل صغير وكبير مستطر . ثم ترى منها بلاغة القرآن
ولطائف أدبه التي هي فتح لفنون رائدة من أدب لغة العرب حتى ترى كيف كان هذا
القرآن فَتَحَ بَصائر ، وَفَتَحَ عقول ، وَفَتَحَ ممالك ، وَفَتَحَ أدب غرض ارتقى به الأدب
العربي مرتقى لم يبلغه أدب أُمَّة من قَبْلُ . وكنت أرى الباحثين ممن تقدّمنى يخلطون
هذين الغرضين خلطا ، وربما أهملوا معظم الفن الثاني، وربما أَلْمَؤُوبَهُ إلاما وخلطوه بقسم الإعجاز
وهو الذي يحق أن يكون البحث فيه من مقدمات علم التفسير ، ولعلك تجد في هذه المقدمة
أصولا ونكتا أغفلها من تقدموا ممن تكلموا في إعجاز القرآن مثل الباقلاني ، والزماني ،
وعبد القاهر ، والخطّابي ، وعياض ، والسكاكي ، فكونوا منها بالمرصاد ، وأفلّوا عنها

كما يفلى عن النار الرماد . وإن علاقة هذه المقدمة بالتفسير هي أن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغنا حد الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آية المفسرة بمقدار ما تسمو إليه المهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آى القرآن من طرق الاستعمال العربى وخصائص بلاغته وما فاقت به آى القرآن في ذلك حسبما أشرنا إليه في المقدمة الثانية لئلا يكون المفسر حين يُعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر .

فمن أعجب ما نراه خلوّ معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى لإلاعيون التفاسير ، فمن مقل مثل معانى القرآن لأبى إسحاق الزجاج ، والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسى ، ومن مُكثر مثل الكشاف . ولا يعذر في الخلو عن ذلك إلا التفاسير التى نحت ناحية خاصة من معانى القرآن مثل أحكام القرآن ، على أن بعض أهل الهمم العلية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب أحكام القرآن لإسماعيل بن إسحاق بن حمّاد المالكي البغدادي ، وكما نراه في مواضع من أحكام القرآن لأبى بكر بن العربى .

ثم إن العناية بما نحن بصده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مُحْتَزَن أصل كبير من أصول الإسلام وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكونه المعجزة الباقية ، وهو المعجزة التى تحدى بها الرسولُ معانديه تحدياً صريحاً . قال تعالى « وقالوا لو لا أنزلَ عليه آياتٌ من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم » ولقد تصدى للاستدلال على هذا أبو بكر الباقلانى في كتاب له سماه أوُسْمَى « إعجاز القرآن » وأطال ، وخلاصة القول فيه أن رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام بنيت على معجزة القرآن وإن كان قد أُيِّدَ بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال ومع ناس خاصة ونُقِلَ بعضها متواترا وب بعضها نُقِلَ نَقْلاً خاصاً ، فأما القرآن فهو معجزة عامة ، ولزوم الحجة به باق من أول ورودها إلى يوم القيامة ، وإن كان يُعْلَمُ وَجْهُ إعجازه من عجز أهل العصر الأوّل عن الإتيان بمثله فيغنى ذلك عن نظر مُجَدِّد ، فكذلك عَجَزَ أهل كل عصر من العصور التالية عن النظر في حال عجز أهل العصر الأوّل ، ودليل ذلك متواتر من نص القرآن في عدة آيات تتحدى

العرب بأن يأتوا بسورة مثله ، وبَعَثَ سُورَ مثله مما هو معلوم ، ناهيك أن القرآن نَادَى بآئه معجز لهم ، نحو قوله تعالى « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ » الآية فإنه سَهَّلَ وَسَجَّلَ : سَهَّلَ عليهم أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ سُورَةٍ مِنْ سُورِهِ ، وَسَجَّلَ عليهم أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ أَبَدًا ، فكان كما سَجَّلَ ، فالتحدى متواترٌ وعجز المتحدِّين أيضًا متواترٌ بشهادة التاريخ إذ طالَّت مدتهم في الكفر ولم يقيموا الدليل على أنهم غير عاجزين ، وما استطاعوا الإتيان بسورة مثله ثم عدلوا إلى المقاومة بالقوة .

قال الله تعالى « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ » الآية من سورة البقرة .

وقال « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (سورة يونس) وقال « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » (سورة هود) .

فعجزُ جميع المتحدِّين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توفر دواعيهم عليها .

وقد اختلف العلماء في تعليل عجزهم عن ذلك فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأنَّ الله صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعي ، لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من جميع العرب . ويعرف هذا القول بالصَّرْفَةِ كما في المواقف للعضد والمقاصد للتفتتاني (ولعلها بفتح الصاد وسكون الراء وهي مرة من الصرف وصغ بصيغة المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص فصارت كالعلم بالغلبة) ولم ينسبوا هذا القول إلاَّ إلى الأشعري فيما حكاه أبو الفضل عياض في الشفاء وإلى النظام والشريف المرتضى وأبي إسحاق الإسفرائيني فيما حكاه عنهم عضد الدين في المواقف ، وهو قول ابن حزم صرح به في كتاب الفصل (ص 7 جز 3) (ص 184 جز 2) وقد عزاها صاحب المقاصد في شرحه إلى كثير من المعتزلة .

وأما الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق واقتصر عليه أئمة الأشعرية وإمام

الحرمين وعليه الجاحظ وأهل العربية كما في المواقف ، فالتعليل لعجز المتحدّين به بانه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله ، وهو الذي نعتمه ونسير عليه في هذه المقدمة العاشرة .

وقد بدا لي دليل قوي على هذا وهو بقاء الآيات التي نسخ حكمها وبقيت متلوة من القرآن ومكتوبة في المصاحف فإنّها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها وكتبتها في المصاحف إلّا ما في مقدار مجموعها من البلاغة بحيث يلثم منها مقدار ثلاث آيات متحدّى بالآتيان بمثلها مثال ذلك آية الوصية في سورة العقود .

وإنما وقع التحدى بسورة أى وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات لأن من أفانين البلاغة ما مرّجه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فوائخ الكلام وخواتمه ، وانتقال الأغراض ، والرجوع إلى الغرض ، وفنون الفصل ، والإيجاز والإطناب ، والاستطراد والاعتراض ، وقد جعل شرف الدين الطيّبي^(١) هذا هو الوجه لإيقاع التحدّى بسورة دون أن يحمل بعدد من الآيات .

وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره التأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات :

الجهة الأولى بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيد أصل وضع اللغة ، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم .

الجهة الثانية ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب ، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

الجهة الثالثة ما أودع فيه من المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة ، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض .

(١) اسمه على الأصح الحسين، وقيل: الحسن بن محمد الطيّبي بكسر الطاء وسكون الياء، الشافعي المتوفى

وقد عد كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما بعد جهة رابعة هي ما انطوى عليه من الأخبار عن المُنْبِئَات مما دل على أنه منزل من عَلَامِ الفُيُوب ، وقد يدخل في هذه الجهة ما عده عياض في الشفاء وجهاً رابعاً من وجوه إعجاز القرآن وهو ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلمُ منه القصة الواحدة إلا الفذُّ من أحبار أهل الكتاب ، فهذا معجز للعرب الأُميين خاصة وليس معجزاً لأهل الكتاب ؛ وخاصُّ ثبوت إعجازه بأهل الإنصاف من الناظرين في نشأة الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله، وليس معجزاً للمكابرين فقد قالوا إنما يعلمه بشر .

فإعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجه إلى العرب ، إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة ، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عَجْزَ مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم . ثم هو بذلك دليل على صدق المنزَّل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغاً لا يُستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار ، ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ . فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلي ، وإعجازه لغيرهم دليل إجمالي .

ثم قد يشارك خاصة العرب في إدراك إعجازه كلُّ من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية في مختلف العصور ، وهذا معنى قول السكاكي في الفتح مخاطباً للناظر في كتابه « مُتَوَسَّلاً بِذلك (أى بمعرفة الخصائص البلاغية التي هو بصدد الكلام عليها إلى أن تتأنق في وجه الإعجاز في التنزيل منتقلاً مما أَجْمَلَهُ عَجْزُ المتحدِّين به عندك إلى التفصيل » .

والقرآن معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة إعجازاً مستمراً على ممر العصور ، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين : إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين ، لأنه قد يُدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكومية والعلمية والأخلاقية ، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني وإجمالي لمن تبلفه شهادتهم بذلك . وهو من الجهة الرابعة - عند الذين اعتبروها زائدة على الجهات الثلاث - معجز لأهل عصر نزوله إعجازاً تفصيلياً ، ومعجز لمن يجيء بعدهم ممن يبلفه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن ، وتعيَّن صرف الآيات المشتمة على هذا الإخبار إلى ما أريد منها .

هذا ملاك الإعجاز بحسب ما انتهى إليه استقراؤنا إجمالاً ، ولنأخذ في شيء من تفصيل ذلك وتمثيله .

فأما الجهة الأولى فرجعها إلى ما يُسمَّى بالطَّرَف الأعلى من البلاغة والفصاحة ، وهو المصطلح على تسميته حدَّ الإعجاز ، فلقد كان منتهى التنافس عند العرب بمقدار التفوق في البلاغة والفصاحة ، وقد وصف أئمة البلاغة والأدب هذين الأمرين بما دُوِّنَ له علماً المعاني والبيان ، وتصدَّوا في خلال ذلك للموازنة بين ما ورد في القرآن من ضروب البلاغة وبين أبلغ ما حفظ عن العرب من ذلك مما عُدَّ في أقصى درجاتها . وقد تصدى أمثالُ أبي بكر الباقلاني وأبي هلال العسكري وعبد القاهر والسَّكَّاكي وابن الأثير ، إلى الموازنة بين ما ورد في القرآن وبين ما ورد في بليغ كلام العرب من بعض فنون البلاغة بما فيه مقنع للمتملِّ ، ومثل للمتملِّ . وليس من حظ الواصف إعجاز القرآن وصفا إجمالياً كصنعنا ههنا أن يصف هذه الجهة وصفا مفصلاً لكثرة أفاينها ، فحسبنا أن نُحيل في تحصيل كلياتها وقواعدها على الكتب المَجْمُوعة لذلك مثل دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، والقسم الثالث فما بدمه من المفتاح ، ونحو ذلك ، وأن نُحيل في تفاصيلها الواصفة لإعجاز آي القرآن على التفاسير المؤلَّفة في ذلك وعمدتها كتاب الكشاف للعلامة الزمخشري ، وما سنستنبطه ونبتكره في تفسيرنا هذا إن شاء الله ، غير أني ذاكر هنا أصولاً لنواحى إعجازه من هذه الجهة وبخاصة ما لم يذكره الأئمة أو أجلوا في ذكره .

وحسبنا هنا الدليل الاجبالي وهو أن الله تعالى تحدى بلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد إلى معارضته ، اعترافاً بالحق وربَّثاً بأنفسهم عن التعريض بالنفس إلى الافتضاح ، مع أنهم أهل القدرة في أفانين الكلام نظماً ونثراً ، وترغيباً وزجراً ، قد خُصُّوا من بين الأمم بقوة الذهن وشدة الحافظة وفصاحة اللسان وتبيان المعاني ، فلا يستصعب عليهم سابق من المعاني ، ولا يجمع بهم عسير من المقامات .

قال عياض في الشفاء : « فلم يزل يُقرَّعهم النبي صلى الله عليه وسلم أشدَّ التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ويُسَفُّ أحلامهم ويحط أعلامهم وهم في كل هذا ناكضون عن معارضته محجَّمون عن مماثلته ، يخادعون أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء ، وقولهم : إن هذا إلا سحر يُؤثَّر - وسحرٌ مستمِرٌّ - وإفكٌ افتراء - وأساطيرُ الأولين . وقد قال تعالى : فإن لم

تفعلوا ولن تفعلوا ، فما فعلوا ولا قدروا ، ومن تماطى ذلك من سخفائهم كمُسَيْلَمَةَ كُشِفَ عَوَارُهُ لجميعهم . وَلَمَّا سَمِعَ الوليد بن المغيرة قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية قال : « والله إنَّ له لَحَلَاوَةً وإنَّ عليه لَطَلَاوَةً » ، وإنَّ أسفله كَمُغْدِقٍ وإنَّ أعلاه كَمُشِيرٍ وما هو بكلام بشر . وذكر أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ « فاصدع بما تؤمر » فسجد وقال : سجدت لفصاحته ، وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة اصدع في إبانها عن الدعوة والجمهور بها والشجاعة فيها ، وكلمة بما تؤمر في إيجازها وجمعها . وسمع آخر رجلا يقرأ « فلما استنأسوا منه خلصوا نجيا » فقال : أتمهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام . وكونُ النبي صلى الله عليه وسلم تحدَّى به وأنَّ العرب عجزوا عن معارضته مما علم بالضرورة إجمالا وتصدى أهل علم البلاغة لتفصيله ، قال السكاكي في المفتاح : « واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يُدْرِك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدْرِك ولا يمكن وصفها ، أو كالملاحاة . ومُدْرِك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا . وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعاني والبيان) نعم للبلاغة وجوه متلزمة ربما تيسرت إمطة اللثام عنها لتُجَلَّى عليك ، أما نفس وجه الإعجاز فلا » اهـ .

قال التفتراني « يعني أن كل ما ندركه بقولنا في غالب الأمر تتمكن من التعبير عنه ، والإعجازُ ليس كذلك لأننا نعلم قطعا من كلام الله أنه بحيث لا تمكن للبشر معارضته والإتيانُ بمثله ولا يماثله شيء من كلام فصحاء العرب مع أن كلماته كلماتُ كلامهم ، وكذا هيئاتُ تراكيبه ، كما أنا نجد كلاما نعلم قطعا أنه مستقيم الوزن دون آخر ، وكما أنا ندرِك من أحد كون كل عضو منه كما ينبغي وآخر كذلك أو دون ذلك ، لكن فيه شيء نسميه الملاحاة ولا نعرف أنه ما هو ، وليس مدرك الإعجاز عند المصنف سوى الذوق وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية ، فإن كان حاصلا بالفترة فذاك وإن أريد اكتسابه فلا طريق إليه سوى الاعتناء بعلم المعاني والبيان وطول ممارستهما والاشتغال بهما ، وإن جمع بين الذوق الفطري وطول خدمة العلمين فلاغية وراه ، فوجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة لا كإذهب إليه النظام وجمع من المعزلة أن إعجازه بالصرفة بمعنى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب قدرتهم عليها ، ولا كما ذهب إليه جماعة من أن إعجازه بمخالفة أسلوبه لأساليب كلامهم من الأشعار والخطب والرسائل لاسيا في المقاطع

مثل يؤمنون وينفقون ويعلمون (قال السيد لاسيا في مطالع السور ومقاطع الآي) أو بسلامته من التناقض (قال السيد مع طوله جدا) أو باشتاله على الإخبار بالغييات والكل فاسد. اه وقال السيد: الجرجاني فهذه أقوال خمسة في وجه الإعجاز لا سادس لها .

وقال السيد أراد المصنف أن الإعجاز نفسه وإن لم يمكن وصفه وكشفه بحيث يدرك به لكن الأمور المؤدية إلى ككون الكلام معجزا أعنى وجوه البلاغة قد تحتجب فربما تيسر كشفها ليتقوى بذلك ذوق البليغ على مشاهدة الإعجاز .

يريد السيد بهذا الكلام إبطال التدافع بين قول صاحب المفتاح : 'يدرك ولا يمكن وصفه إذ نقي الإمكان ، وبين قوله نعم للبلاغة وجوه متلثة ربما تيسرت إمطة اللثام عنها ، فأنبت تيسر وصف وجوه الإعجاز ، بأن الإعجاز نفسه لا يمكن كشف القناع عنه، وأما وجوه البلاغة فيمكن كشف القناع عنها .

واعلم أنه لاشك في أن خصوصيات الكلام البليغ ودقائقه مرادة لله تعالى في كون القرآن معجزا وملحوظة للمتحدثين به على مقدار ما يبلغ اليه بيان المبين . وإن إشارات كثيرة في القرآن تلفت الأذهان لذلك ويحضرني الآن من ذلك أمور : أحدها ما رواه مسلم والأربعة عن أبي هريرة قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « قال الله تعالى : قسمت الصلاة (أي سورة الفاتحة) بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل . فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدي عبدي . وإذا قال : الرحمان الرحيم ، قال الله تعالى أنئي علي عبدي . وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدي عبدي ، وقال مرة : فوض الي عبدي - فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدي ولعبي ما سأل .

ففي هذا الحديث تنبيه على ما في نظم فاتحة الكتاب من خصوصية التقسيم إذ قسم الفاتحة ثلاثة أقسام . وحسن التقسيم من المحسنات البديعية . مع ما تضمنته ذلك التقسيم من محسن التخلص في قوله « فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : « هذا بيني وبين عبدي » إذ كان ذلك مزيجا من القسمين الذي قبله والذي بعده .

وفي القرآن مراعاة التجنيس في غير ما آية والتجنيس من المحسنات ، ومنه قوله تعالى « وهم يبهون عنه وينأون عنه » .

وفيه التنبيه على محسن المطابقة كقوله « فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ » .
 والتنبيه على ما فيه من تمثيل كقوله تعالى « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » - وقوله - ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . . .
 ولذا فتحن نحاول تفصيل شيء مما أحاط به علمنا من وجوه الإعجاز :
 نرى من أفانين الكلام الالتفات وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب
 أو الغيبة إلى طريق آخر منها . وهو بمجرد معدود من الفصاحة ، وسماه ابن جني شجاعة
 العربية لأن ذلك التغير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى
 ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس ، وقد جاء منه
 في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال .

وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلى في باب البلاغة ، وبه
 فاق امرؤ القيس ونُبِئت سمعته ، وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب
 كقوله « واشتعل الرأس شيبا » وقوله « وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ » وقوله « وآية لهم الليلُ
 نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ » وقوله تعالى « اِبْلَعْ مَاءَكَ » وقوله « صِبْغَةَ اللَّهِ » إلى غير ذلك من وجوه
 البديع .

ورأيت من محاسن التشبيه عندهم كمال الشَّبه ، ورأيت وسيلة ذلك الاحتراس وأحسنه
 ما وقع في القرآن كقوله تعالى « فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ
 طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ » احتراس عن كراهة الطعام « وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ
 مُصَفًّى » احتراس عن أن تتخلله أقذاء من بقايا نخله .

وانظر التمثيلية في قوله تعالى « أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . الْآيَةُ » فيه إتمام جهات كمال تحسين التشبيه لإظهار أن الحسرة على
 تلفها أشد . وكذا قوله تعالى « مِثْلُ نَوْرٍ كَمِشْكَاةٍ - إلى قوله - يكاد زيتها يضيء » فقد ذكر
 من الصفات ، والأحوال ما فيه مزيد وضوح المقصود من شدة الضياء ، وما فيه تحسين
 الشَّبه وترينه بتحسين شَبْهِهِ ، وأُيِّنَ مِنَ الْآيَتِينَ قَوْلَ كَعْبِ .

شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَخْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ
 تَنْفَى الرِّيحُ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضُ يَمَالِيلُ

إن نظم القرآن مبنى على وفرة الإفادة وتمدد الدلالة ، فجُمِّل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله ، ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مُجَمِّلها كلامُ البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مَبْلَغِ بَلَاغَتِهَا .

ولها دلالتها المَطْوِيَّةُ وهي دلالة ما يُذَكَّرُ على ما يُقَدَّرُ اعتماداً على القرينة ، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء وكثرت في القرآن مثل تقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصفة . ولها دلالة مواقع جُمِّلِه بِحَسَبِ ما قَبْلَهَا وما بَعْدَهَا ، ككون الجملة في موقع البلة لكلام قبلها ، أو في موقع الاستدراك ، أو في موقع جواب سؤال ، أو في موقع تعريض أو نحوه . وهذه الدلالة لا تَتَأَنَّى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن ، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سَمَحَتْ أغراضه بالإطالة ، وبذلك الإطالة تَأَنَّى تعدد مواقع الجمل والأغراض .

مثال ذلك قوله تعالى « وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ - بقدر قوله - أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » فإن قوله « وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَى آخِرِهِ مَفِيدٌ بِتَرَاكِيْبِهِ فَوَائِدٌ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالتَّذْكِيرِ ، وَهُوَ لَوْ قَوَّعَهُ عَقِبَ قَوْلِهِ « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ » وَاقِعَ مَوْقِعَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي مِنْ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ مَعَ مَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ .

وإنَّ للتقديم والتأخير في وضع الجمل وأجزائها في القرآن دقائق عجيبة كثيرة لا يحاط بها وسننبّه على ما يلوح منها في مواضعه إن شاء الله . وإليك مثلاً من ذلك يكون لك عوناً على استجلاء أمثاله . قال تعالى « إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً لِلطَّاغِينَ مَابَا - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَاتٍ وَأَعْنَابًا - إِلَى قَوْلِهِ - وَكَأْسًا دِهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا » فكان للابتداء بذكر جهنم ما يفسر المفااز في قوله « إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا » أَنَّهُ الْجَنَّةُ لِأَنَّ الْجَنَّةَ مَكَانٌ فَوْزٌ . ثُمَّ كَانَ قَوْلُهُ « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا » مَا يَحْتَمِلُ لُضْمِيرَ (فِيهَا) مِنْ قَوْلِهِ « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا » أَنْ يَعُودَ إِلَى « كَأْسًا دِهَاقًا » وَتَكُونَ (فِي) لِلظَّرْفِيَّةِ الْمَجَازِيَّةِ أَيْ الْمَلَابَسَةِ أَوْ السَّبِيْبَةِ أَيْ لَا يَسْمَعُونَ فِي مَلَابَسَةِ شَرْبِ الْكَأْسِ مَا يَعْتَرِي شَارِبِيهَا

في الدنيا من اللغو واللجاج ، وان يعود إلى (مفازا) بتأويله باسم مؤنث وهو الجنة وتكون (في) للطرفية الحقيقية أي لا يسمعون في الجنة كلاما لافائدة فيه ولا كلاما مؤذيا . وهذه المعاني لا يتأتى جميعها إلا بجمل كثيرة لو لم يقدم ذكر جهنم ولم يعقب بكلمة (مفازا) . ولم يؤخر (وكأسا دهاقا) ولم يعقب بجملته « لا يسمعون فيها لغوا » الخ .

ومما يجب التنبيه له أن مراعاة المقام في أن يُنظَّم الكلام على خصوصيات بلاغية هي مراعاة من مقومات بلاغة الكلام وخاصة في إعجاز القرآن، فقد تشتمل آية من القرآن على خصوصيات تتساءل نفس المُفسِّر عن دواعيها وما يقتضيها فيتصدى لتطلب مقتضيات لها ربما جاء بها متكلفة أو مغصوبة ، ذلك لأنه لم يلتفت إلا إلى مواقع ألفاظ الآية، في حال أن مقتضياتها في الواقع منوطة بالمقامات التي نزلت فيها الآية ، مثال ذلك قوله تعالى في سورة المجادلة « أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » ثم قوله « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » فقد يخفى مقتضى اجتلاب حرف التنبيه في افتتاح كلتا الجملتين فيأوى المفسر إلى تطلب مقتضيه ويأتي بمقتضيات عامة مثل أن يقول: التنبيه للاهتمام بالخبر ، ولكن إذا قدرنا أن الآيتين نزلتا بسمع من المنافقين والمؤمنين جميعا علمنا أن اختلاف حرف التنبيه في الأولى لمراعاة إيقاظ فريق المنافقين والمؤمنين جميعا فالأولون لأنهم يتظاهرون بأنهم ليسوا من حزب الشيطان في نظر المؤمنين إذ هم يتظاهرون بالإسلام فكان الله يقول قد عرفنا دخالكم ، وثاني الفريقين وهم المؤمنون نبهوا لأنهم غافلون عن دخال الآخرين فكانه يقول لهم تيقظوا فإن الذين يتولون أعداءكم هم أيضا عدوكم لأنهم حزب الشيطان والشيطان عدو الله وعدو الله عدوكم ! واجتلاب حرف التنبيه في الآية الثانية لتنبيه المنافقين إلى فضيلة المسلمين لعلمهم يرغبون فيها فيرعون عن النفاق ، وتنبيه المسلمين إلى أن حولهم فريقا ليسوا من حزب الله فليسوا بمفلحين ليتوسموا أحوالهم حق التوسم فيحذروهم .

ومرجع هذا الصنف من الإعجاز إلى ما يسمّى في عرف علماء البلاغة بالنكت البلاغية فإنّ بقاءهم كان تناقضهم في وفرة إبداع الكلام من هذه النكت ، وبذلك تفاضل بلغاؤهم ، فلما سمعوا القرآن انتالت على كل من سمعه من بلغائهم من النكت التي تفتن لها ما لم يجد من قدرته قبلاً بمثلها . وأحسب أن كل بليغ منهم قد فكر في الاستعانة بزملائه

من أهل اللسان فلم ألاّ مَبْلَغَ بهم إلى التظاهر على الإتيان بمثل القرآن فيما عهده كل واحد من ذوق زميله ، هذا كله بحسب ما بلغت إليه قريحة كل واحد ممن سمع القرآن منهم من التفطن إلى نكت القرآن وخصائصه .

ووراء ذلك نُكْتُ لا يتفطن إليها كل واحد ، وأحسب أنهم تأمروا وتدارسوا بينهم في نواديهم أمر تحدى الرسول إياهم بمعارضة القرآن وتواصفوا ما اشتملت عليه بعض آياته العالقة بحوافظهم وأسماعهم من النكت والخصائص وأوقف بعضهم بعضا على ما لاح له من تلك الخصائص ، وفكروا وقدروا وتدبروا فعملوا أنهم عاجزون عن الإتيان بمثلها إن انقردوا أو اجتمعوا ، ولذلك سجل القرآن عليهم عجزهم في الحالتين فقال تارة « فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » وقال لهم مرّة « لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » فحالة اجتماعهم وتظاهرهم لم تكن مغفولا عنها بينهم ضرورة أنهم مُتَّحِدُونَ بها .

وهذه الناحية من هذه الجهة من الإعجاز هي أقوى نواحي إعجاز القرآن وهي التي يتحقق بها إعجاز أقصر سورة منه .

وفي هذه الجهة ناحية أخرى وهي ناحية فصاحة اللفظ وانسجام النظم وذلك بسلامة الكلام في أجزائه ومجموعه مما يَجْرُ الثَقْلُ إلى لسان الناطق به ، ولغة العرب لغة فصيحة وأهلها مشهورون بفصاحة الألسن . قال نضر الدين الرازي في مفاتيح الغيب : « إن المحاسن اللفظية غير مهجورة في الكلام الحكيم ، والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى وكما أن الإنسان الذي نُورُ رُوحِهِ بالمعرفة ينبغي أن يُنَوَّرَ جسمه بالنظافة ، كذلك الكلام ، ورب كلمة حكيمة لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها » .

وكان مما يعرض لشعرائهم وخطباءهم ألفاظ ولهجات لها بعض الثقل على اللسان ، فأما ما يعرض للألفاظ فهو ما يسمى في علم الفصاحة بتنافر حروف الكلمة أو تنافر حروف الكلمات عند اجتماعها مثل : مُسْتَشْرِزَاتِ وَالْكَنْهَبَلِ في معلقة امرئ القيس ، وَسَفْنَجَةٍ وَالْخَفِيدَدِ في معلقة طرفة ، وقول القائل « وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ » .

وقد سلم القرآن من هذا كله مع تفننه في مختلف الأغراض وما تقتضيه من تكرار الألفاظ ، وبعض العلماء أورد قوله تعالى « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ » وقوله « وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ »

وتصدى للجواب ، والصواب أن ذلك غير وارد كما قاله المحققون لعدم بلوغه حد الثقل ، ولأن حسن دلالة اللفظ على المعنى بحيث لا يخلفه فيها غيره مقدّم على مراعاة خفة لفظه .
فقد اتفق أئمة الأدب على أن وقوع اللفظ المتنافر في أثناء الكلام الفصيح لا يزيل عنه وصف الفصاحة ، فإن العرب لم يميئوا معلقة امرئ القيس ولا معلقة طرفة . قال أبو العباس البرد : « وقد يضطرّ الشاعر المُفْلِق والخطيب المِصْقَع والكاتب البليغ فيقع في كلام أحدهم المعنى المستفلق واللفظ المستكهر فإذا انمطت عليه جَنَبَتَا الكلام غطّتا على عواره وسترنا من شينّه » .

وأما ما يعرض للهجات العرب فذلك شيء تفاوتت في مضماره جياذ ألسنتهم وكان المجلى فيها لسان قريش ومن حولها من القبائل المذكورة في المقدمة السادسة وهو مما فسر به حديث: أنزل القرآن على سبعة أحرف ، ولذلك جاء القرآن بأحسن اللهجات وأخفها وتجنب المكروه من اللهجات، وهذا من أسباب تيسير تلقى الأسماع له ورسوخه فيها . قال تعالى « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

ومما أعدّه في هذه الناحية صراحة كلماته باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة ، وأشملها لَمَّانٍ عديدة مقصودة بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها ، ولا تجدها مستعملة إلا في حقائقها مثل إيثارة كلمة حَرَد في قوله تعالى « وَغَدَوَا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ » إذ كان جميع معاني الحرد صالحا للإرادة في ذلك الغرض، أو مَجَازَاتٍ أو استعاراتٍ أو نحوها مما تنصب عليه القرائن في الكلام ، فإن اقتضى الحال تصرفا في معنى اللفظ كان التصرف بطريق التضمين وهو كثير في القرآن مثل قوله تعالى « ولقد أتوا على القرية التي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوءِ » فجاء فِعْلُ أَتَوْا مضمنا معنى مَرُّوا فَعَدَى بحرف على ؛ لأن الإتيان تعدّى إلى اسم القرية والمقصود منه الاعتبارُ بِمَآلِ أهلها ، فإنه يقال أتى أرض بني فلان ومَرَّ على حى كذا . وهذه الوجوه كلها لا تخالف أساليب الكلام البليغ بل هي معدودة من دقائقه وقائمه التي تقل نظائرها في كلام بلغائهم لمعجز فطنة الأذهان البشرية عن الوفاء بجميعها .

وأما الجملة الثانية وهي ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في أساليب الكلام البليغ وهذه جملة مغفولة من علم البلاغة ، فاعلم أن أدب العرب نوعان شعر ونثر ، والنثر

خطابة وأسجاعٌ كُهمانٍ ، وأصحاب هذه الأنواع وإن تنافسوا في ابتكار المعاني وتفاوتوا في تراكيب أدائها في الشعر فهم - بالنسبة إلى الأسلوب - قد التزموا في أسلوب الشعر والخطابة طريقة واحدة تشابهت فنونها فكادوا لا يمدّون ما ألفوه من ذلك حتى إنك لتجد الشاعر يحذو حذو الشاعر في فوائج القصائد وفي كثير من تراكيبها ، فكم من قصائد افتتحت بقولهم « بَانتْ سَعَادٌ » للنابغة وكم بن زهير ، وكم من شعر افتتح بـ :

* يا خَلِيلِي أربما واستخبرا *

وكم من شعر افتتح بـ : * يا أيها الراكب المزجي مطيته *
وقال امرؤ القيس في معلقته :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتحمل

فقال طرفه في معلقته بيتا مماثلا له سوى أن كلمة القافية منه « وَتَجَلَّدَ » .

وكذلك القول في خطبهم تكاد تكون لهجة واحدة وأسلوبا واحدا فيما بلغنا من خطب سحبان وقس بن ساعدة . وكذلك أسجاع الكهان وهي قد اختصت بقصر الفقرات وغرابة الكلمات . إنما كان الشعرُ الغالبُ على كلامهم ، وكانت الخطابة بحالة ندور لندرة مقاماتها . قال عُمر « كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه » فأنحصر تسابق جياذ البلاغة في ميدان الكلام المنظوم ، فلما جاء القرآن ولم يكن شعرا ولا سجع كهان ، وكان من أسلوب النثر أقرب إلى الخطابة ، ابتكر للقول أساليب كثيرة بعضها تتنوع بتنوع المقاصد ، ومقاصدها بتنوع أسلوب الإنشاء ، فيها أفانين كثيرة فيجد فيه المطلع على لسان العرب بغيته ورغبته ، ولهذا قال الوليد ابن المغيرة لما استمع إلى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم « والله ما هو بكاهن ، ما هو بزمزمت ولا سجمه ، وقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وَهَزَجَه ، وقريضه ومبسوطه ، ومقبوضه ما هو بشاعر » .

وكذلك وصفه أنيس بن جنادة الغفاري الشاعر أخو أبي ذر حين انطلق إلى مكة ليسمع من النبي صلى الله عليه وسلم ويأتي بخبره إلى أخيه فقال « لقد سمعتُ قول السكينة فها هو بقولهم ، ولقد وضعت على أقرأ الشعر^(١) فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان واحد بعدى أنه شعر » ثم أسلم . وورد مثل هذه الصفة عن عتبة بن ربيعة والنضر بن الحرث ، والظاهر أن

(١) الأقرأ جمع قرء وهو الطريق .

الشركين لمسا لم يجدوا بُدًّا من إلحاق القرآن بصِنْفٍ من أصناف كلامهم الْحَقُّوهُ بِأَشْبِهِ
الكلام به فقالوا إنه شعر تقريبا للدَّهْمَاءِ بما عهده النُّوم من الكلام الجدير بالاعتبار من
حيث ما فيه من دقائق المعاني وأحكام الانتظام والنُّفُوز إلى العقول ، فإنه مع بلوغه أقصى حد
في فصاحة العربية ومع طول أغراضه وتفنن معانيه وكونه نثرا لا شعرا ترى أسلوبه يجري
على الألسنة سلسا سهلا لا تفاوت في فصاحة تراكيبه ، وترى حفظه أسرع من حفظ الشعر .
وقد اختار العرب الشعر لتخليد أغراضهم وآدابهم لأن ما يقتضيه من الوزن يلجئ إلى التدريب
على ألفاظ متوازنة فيكسبها ذلك التوازن تلاؤما . فتكون سلسلة على الألسن ، فلذلك انحصر
تسابق جياذ البلاغة في الكلام المنظوم ، وغفل الشعراء مع ذلك متفاوتون في سلسلة
الكلام مع تسامحهم في أمور كثيرة اغتفرها الناس لهم وهي المسماة بالضرورات .
بحيث لو كان لواحد من البشر أن يتكلف فصاحة لما يقوله من كلام ويعاود تنقيحه
وتغيير نظمه بإبدال الكلمات أو بالتقديم لِمَا حَقَّه التأخير ، أو التأخير لِمَا حَقَّه التقديم ، أو
حذف أو زيادة ، لقضى زمنا مديدا في تأليف ما يُقَدَّر بسورة من متوسط سور القرآن ، ولما
سلم مع ذلك من جمل يتعثر فيها اللسان . ولم يَدْعُ مع تلك الفصاحة داع إلى ارتكاب
ضرورة أو تقصير في بعض ما تقتضيه البلاغة ، فبني نظمه على فواصل وقرائن متقاربة فلم
تفته سلسلة الشعر ولم ترزح تحت قيود الميزان ، فجاء القرآن كلاما منشورا ولكنه فاق في
فصاحته وسلاسته على الألسنة وتوافق كلماته وتراكيبه في السلامة من أقل تنافر وتعثر
على الألسنة . فكان كونه من النثر داخلا في إعجازه ، وقد اشتمل القرآن على أنواع
أساليب الكلام العربي وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها وإن لذلك التنوع حكمتين
داخلتين في الإعجاز : أولاها ظهور أنه من عند الله ؛ إذ قد تعارف الأدباء في كل عصر أن يظهر
نبوغ نوابغهم على أساليب مختلفة كل يجيد أسلوبا أو أسلوبين . الثانية أن يكون في ذلك
زيادة التحدي للمتحدِّين به بحيث لا يستطيع أحد أن يقول إن هذا الأسلوب لم تسبق لي
معالجته ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته .

نرى من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء في نظمه بأسلوب
جامع بين مقصديه وهما : مقصد الموعظة ومقصد التشريع ، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين
ما يحتاجون أن يعلموه وهو في هذا النوع يشبه خطبهم ، وكان في مطاوى معانيه ما يستخرج

منه العالم الخبير أحكاماً كثيرة في التشريع والآداب وغيرها، وقد قال في الكلام على بعضه « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والإيحاء إلى العلل والمقاصد وغيرها .

ومن أساليبه ما أُسمي بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذليل والإتيان بالترادفات عند التكرير تجنباً لثقل تكرير الكلم ، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات الممدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير ، ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه ، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صَمٌّ بَكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيز مَثَلُهَا في شعر العرب وفي نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة . وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المتنقل منه والمنتقل إليه هي في منتهى الرقة والبداعة بحيث لا يشعر سامعه وقارؤه بانتقاله إلا عند حصوله . وذلك التفنن مما يُعين على استماع السامعين ويدفع سامة الإطالة عنهم ، فإن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » فقوله ما تيسر يقتضي الاستكثار بقدر التيسر ، وفي تناسب أقواله وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير وعون على التكثير ، نقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه سراج المريدين « ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة مُتَّسِمَةً المعاني منتظمة المباني ، علمٌ عظيم » ونقل الزركشي عن عمر الدين بن عبد السلام « المناسبةُ علمٌ حسنٌ ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض » .

وقال شمس الدين محمود الأصفهاني في تفسيره نقلا عن الفخر الرازي أنه قال « إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه هو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك » .

إن بلاغة الكلام لا تنحصر في أحوال تراكيبه اللفظية ، بل تتجاوز إلى الكيفيات التي تؤدي بها تلك التراكيب .

فإن سكوت المتكلم البليغ في جملة سكوتا خفيفاً قد يفيد من التشويق إلى ما يأتي بعده ما يفيد إيهام بعض كلامه ثم تعقيبه ببيان ، فإذا كان من مواقع البلاغة نحو الإتيان بلفظ الاستئناف البياني ، فإن السكوت عند كلمة وتعقيها بما بعدها يجعل ما بعدها بمنزلة الاستئناف البياني ، وإن لم يكن عينه ، مثاله قوله تعالى « هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى » فإن الوقف على قوله (موسى) يحدث في نفس السامع ترقباً لما يبيّن حديث موسى ، فإذا جاء بعده « إذ ناداه ربه » الخ حصل البيان مع ما يحصل عند الوقف على كلمة موسى من قرينة من قرائن الكلام لأنّه على سبعة آلاف مثل قوله طوى ، طعى ، تزكى ، الخ .

وقد بينت عند تفسير قوله تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » أنك إن وقفت على كلمة « ريب » كان من قبيل إيجاز الحذف أي لا ريب في أنه الكتاب فكانت جملة « فيه هدى للمتقين » ابتداء كلام وكان مفاد حرف (في) استئزال طائر المعاندين أي إن لم يكن كلّ هدى فإنّ فيه هدى . وإن وصلت « فيه » كان من قبيل الإطناب وكان ما بعده مفيداً أنّ هذا الكتاب كلّ هدى .

ومن أساليب القرآن العدول عن تكرير اللفظ والصيغة فيما عدا المقامات التي تقتضي التكرير من تهويل ونحوه ، ومما عدل فيه عن تكرير الصيغة قوله تعالى « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما » فجاء بلفظ قلوب جمعاً مع أن المخاطب امرأتان فلم يقل قلباً كما تجنبنا لتعدد صيغة المثني .

ومن ذلك قوله تعالى « وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » فروعى معنى ما الموصولة مرّة فأتى بضمير جماعة المؤنث وهو خالصة، وروعى لفظ ما الموصولة فأتى بمحرم مذكراً مفرداً .

إن المقام قد يقتضى شيئين متساويين أو أشياء متساوية فيكون البليغ غيرا في أحدهما وله ذكرهما تفننا وقد وقع في القرآن كثير من هذا :

من ذلك قوله «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا» بواو العطف في سورة البقرة ، وقوله في الأعراف «فكلا» بفاء التفریع وكلاهما مطابق للمقام فإنه أمر ثان وهو أمر مفرع على الإسكان فيجوز أن يحكى بكل من الاعتبارين ، ومنه قوله في سورة البقرة «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها» وفي سورة الأعراف «وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية فكلوا منها» فمر مرة بادخلوا ومرة باسكنوا، وعبر مرة بواو العطف ومرة بفاء التفریع .

وهذا التخالف بين الشيتين يقصد لتلوين المعاني المعادة حتى لا تخلو إعادتها عن تجديد معنى وتفاير أسلوب ، فلا تكون إعادتها مجرد تذكير .

قال في الكشف في تفسير قوله تعالى «إن ربّي يعلم القول في السماء والأرض» في سورة الأنبياء : « ليس بواجب ان يجاء بالأكّد في كل موضع ولكن يجاء بالوكيد تارة وبالأكد أخرى كما يجاء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتنّ الكلام افتنانا » .

ومنها اتساع أدب اللغة في القرآن . لم يكن أدب العرب السائر فيهم غير الشعر، فهو الذى يحفظ وينقل ويسير في الآفاق ، وله أسلوب خاص من انتقاء الألفاظ وإبداع المعاني ، وكان غيره من الكلام عسير الملق بالحواظ ، وكان الشعر خاصا بأغراض وأبواب معروفة أشهرها وأكثرها النسيب والحماسة والثناء والمجاء والفخر، وأبواب آخر لهم فيها شعر قليل وهى المُلح والمديح . ولهم من غير الشعر الخطب ، والأمثال ، والمحاورات : فأما الخطب فكانت تنسى بانتهاء المقامات المقولة فيها فلا يحفظ من ألفاظها شيء ، وإنما يبقى في السامعين التأثير بمقاصدها زمانا قليلا للعمل به فتأثر مخاطبين بها جزئى ووقتى . وأما الأمثال فهى ألفاظ قصيرة يقصد منها الاتماظ بمواردها ، وأما المحاورات فنمّا عادية لا يهتمون بما تتضمنه إذ ليست من الأهمية بحيث تنقل وتسير ، ومنها محاورات نَوادٍ وهى المحاورات الواقعة فى الجامع العامة والمنتديات وهى التى أشار إليها لبيد بقوله :

وكثيرة غرابؤها مجهولة تُرجى نوافلها ويُخشى ذامها
غلبت تشدُّرُ بالدُّخول كأنها جِنُّ البديّ رواسيا أقدامها

أَنْكَرْتُ بَاطِلَهَا وَيُوتُ بِحَقِّهَا عِنْدِي وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَى كِرَامِهَا

وتلك مثل مجامعهم عند الملوك وفي مقامات المفاخرات وهي نادرة الوقوع قليلة السيران وحيدة الغرض؛ إذ لا تعدو المفاخر والمبالغات فلا يحفظ منها إلا ما فيه نكتة أو ملححة أو فقرات مسجوعة مثل خطاب امرئ القيس مع شيوخ بني أسد .

نجاء القرآن بأسلوب في الأدب غرض جديد صالح لكل العقول، متفنن إلى أفانين أغراض الحياة كلها معط لكل فن ما يليق به من المعاني والألفاظ واللهجة : فتضمن المحاوراة والخطابة والجدل والأمثال (أى الكلم الجوامع) والقصص والتوصيف والرواية .

وكان لفصاحة ألفاظه وتناسبها في تراكيبه وترتيبه على ابتكار أسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة في الأسماع وإن لم تكن متماثلة الحروف في الأسجاع، كان لذلك سريع المألوف بالحواظ خفيف الانتقال والسير في القبائل، مع كون مادته ولحمته هي الحقيقة دون المبالغات الكاذبة والمفاخرات المزعومة، فكان بذلك له صولة الحق وروعة لسامعيه، وذلك تأثير روحاني وليس بلفظي ولا معنوي .

وقد رأيتُ المحسنات في البديع جاءت في القرآن أكثر مما جاءت في شعر العرب، وخاصة الجناس كقوله « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

والطباق كقوله « كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ » وقد ألف ابن أبي الإصبع كتاباً في بديع القرآن .

وصار - لمجيئه نثراً - أدباً جديداً غصا ومتناولاً لكل الطبقات .

وكان لبلاغته وتناسقه نافذة الوصول إلى القلوب حتى وصفوه بالسَّخَرِ وبالشَّعْر « أم

يقولون شاعر تربع به ريب النون » .

مُبْتَكِرَاتُ الْقُرْآنِ

هذا وللقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب ..

فإنها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة وقد نبه عليه العلماء المتقدمون . وأنا أضمر إلى ذلك أن أسلوبه يخالف أسلوب الخطابة بمحض المخالفة ، بل جاء بطريقة كتاب يُقصد حفظه وتلاوته ، وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام .

وأعدُّ من ذلك أنه جاء بالجل الذالة على معان مفيدة محررة شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية ، فلم يأت بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة ، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة ، كما كان يفعل العرب لقلة أكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة . مثاله قوله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون » وقوله « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » فيبين أن الهوى قد يكون محمودا إذا كان هوى المرء عن هدى ، وقوله « إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا » .

ومنها أن جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وهي سنة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف وقد أوما إليها في الكشف إيماء .

ومنها الأسلوب القصصى في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة ، وفي تمثيل الأحوال ، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقودا من أدب العربية إلا نادرا ، كان في بعض الشعر كآيات النابغة في الحية التي قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها ، فلما جاء القرآن بالأوصاف بُهِت به العرب كما في سورة الأعراف من وصف أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » إلخ وفي سورة الحديد « فضرب بينهم بسور » الآيات .

ومما يتبع هذا أن القرآن يتصرف في حكاية أقوال الحكماء فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها ، فهو إذا حكى أقوالا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية ، وإذا حكى أقوالا عربية تصرف فيها تصرفا يناسب أسلوب المعبر مثل ما يحكيه عن العرب فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكى

حاصل كلامهم ، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الاحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ ، فالإيجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إيجاز للقرآن لا للأقوال المحكية . ومن هذا القبيل حكاية الأسماء الواقعة في القصص فإن القرآن يغيرها إلى ما يناسب حسن مواقعها في الكلام من الفصاحة مثل تغيير شاول إلى طالوت ، وتغيير اسم تارح أبي إبراهيم إلى آزر .

وكذلك التمثيل فقد كان في أدب العرب الأمثال وهي حكاية أحوال مرموز لها بتلك الجمل البليغة التي قيلت فيها أو قيلت لها المسماة بالأمثال، فكانت تلك الجمل مشيرة إلى تلك الأحوال ، إلا أنها لمّا تداولتها الألسن في الاستعمال وطال عليها الأمد نُسِيتْ الأحوال التي وردت فيها ولم يبق للأذهان عند النطق بها إلا الشعور بمغازيها التي تقال لأجلها . أما القرآن فقد أوضح الأمثال وأبدع تركيبها كقوله تعالى « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ » وقوله « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » وقوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ - إِلَى قَوْلِهِ - فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » وقوله « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفْنِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ » . لم يلتزم القرآن أسلوبا واحدا، واختلفت سورته وتفتنت، فتكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة ، فإن بعضها بنى على فواصل وبعضها ليس كذلك . وكذلك فوائدها منها ما افتتح بالاحتفال كالحمد ، ويا أيها الذين آمنوا ، وآلَمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ ، وهي قريب مما نعر عنه في صناعة الإنشاء بالمقدّمات . ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض من أول الأمر نحو « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ » و « بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

ومن أبدع الأساليب في كلام العرب الإيجاز وهو مُتَنَافِسُهُمْ وَغَايَةُ تَبَارَى إِلَيْهَا فَصَحَاؤُهُمْ ، وقد جاء القرآن بأبدعه إذ كان - مع ما فيه من الإيجاز المبين في علم المعاني - فيه إيجاز عظيم آخر وهو صلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ ، فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه، وبعضها وإن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر فتحرّيك الأذهان إليه وإخطاره بها يكفي في حصول المقصد من التذكير به للامتنال أو الانتهاء . وقد أشرنا إلى هذا في المقدمة التاسعة .

ولولا إيجاز القرآن لكان أداء ما يتضمنه من المعاني في أضعاف مقدار القرآن ، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدًا يدق عن تفتن العالم ويزيد عن تبصره ، ولا ينبئك مثل خبير .

إنك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفًا ولكنك لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق ، زيادة على جمعه المعاني الكثيرة في الكلام القليل ، قال في الكشف في سورة المدثر « الحذف والاختصار هو نهج التنزيل » قال بعض بطارقة الروم لعمر بن الخطاب لما سمع قوله تعالى « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » . « قد جمع الله في هذه الآية ما أنزل على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة » ومن ذلك قوله تعالى « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه » الآية ، جمع بين أمرين ونهيين وبشارتين ، ومن ذلك قوله « ولكم في القصص حياة » مقابلاً لأوجز كلام عرف عندهم وهو « القتل أنقى للقتل » ، ومن ذلك قوله تعالى « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » ولقد بسط السكاكي في المفتاح آخر قسم البيان نموذجاً مما اشتملت عليه هذه الآية من البلاغة والفصاحة ، وتصدى أبو بكر الباقلائي في كتابه المسمى إيجاز القرآن إلى بيان ما في سورة النمل من الخصائص فأرجع إليهما .

وأعد من أنواع إيجازه إيجاز الحذف مع عدم الالتباس ، وكثر ذلك في حذف القول ، ومن أبدع الحذف قوله تعالى « في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر » أي يتذاكرون شأن المجرمين فيقولون من علموا شأنهم سألناهم فقلنا ما سلككم في سقر . قال في الكشف قوله ما سلككم في سقر ليس ببيان للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسؤولين ، أي أن المسؤولين يقولون للسائلين قلنا لهم ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين اه . ومنه حذف المضاف كثيراً كقوله تعالى « ولكن البر من آمن بالله » . وحذف الجمل التي يدل الكلام على تقديرها نحو قوله تعالى « وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب » إذ التقدير فاضرب فانقلب . ومن ذلك الإخبار عن أمر خاص بنحو يعمه وغيره لتحصل فوائد : فائدة الحكم العام ، وفائدة الحكم الخاص ، وفائدة أن هذا المحكوم عليه بالحكم الخاص هو من جنس ذلك المحكوم عليه بالحكم العام .

وقد تتبعت أساليب من أساليب نظم الكلام في القرآن فوجدتها مما لا عهد بمثلها في

كلام العرب ، مثال ذلك قوله تعالى « قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات » فإبدال رسولا من ذكرا يفيد أن هذا الذكر ذكر هذا الرسول ، وأن مجيء الرسول هو ذكر لهم ، وأن وصفه بقوله يتلو عليكم آيات الله يفيد أن الآيات ذكراً . ونظير هذا قوله « حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة » الآية وليس المقام بسامح لإيراد عديد الأمثلة من هذا . ولعله يأتي في أثناء التفسير .

ومن بديع الإيجاز في القرآن وأكثره ما يسعى بالتضمن ، وهو يرجع إلى إيجاز الحذف ، والتضمن أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان .

ومن هذا الباب ما اشتمل عليه من الجمل الجارية مجرى الأمثال، وهذا باب من أبواب البلاغة نادر في كلام بلغاء العرب، وهو الذي لأجله عدت قصيدة زهير في المعلقة فجاء في القرآن ما يفوق ذلك كقوله تعالى « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ » وقوله « طاعة معروفة » وقوله « ادفع بالتي هي أحسن » .

وسلك القرآن مسلك الإطناب لأغراض من البلاغة ومن أهم مقامات الإطناب مقام توصيف الأحوال التي يراد بتفصيل وصفها إدخال الروح في قلب السامع وهذه طريقة عربية في مثل هذا كقول ابن زبابة :

نُبِّئْتُ عَمْرًا غَارِزًا رَأْسَهُ فِي سِنَةٍ يُوعِدُ أَخُوَالَهُ
فَنِ آيَاتِ الْقُرْآنِ فِي مِثْلِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى « كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالتَّجَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ » وقوله « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ » وقوله « مُهْطِعِينَ مُقْنِنِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » .

ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يرد فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلح المقام بحسب اللغة العربية لإرادة ما يصلح منها ، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما ، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز وهذا من آثار كونه معجزة خارقة لعادة كلام البشر ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والتقدير عليه . وقد نهنا على ذلك وحققناه في المقدمة التاسعة . ومن

أساليبه الإتيان بالألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حروفها أو اختلاف حركات حروفها وهو من أسباب اختلاف كثير من القراءات مثل « وجملوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثا » قرئ عند بالنون دون ألف وقرئ عباد بالموحدة وألف بعدها ، ومثل « إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » بضم الصاد وكسرها .
وقد أشرنا إلى ذلك في المقدمة السادسة .

واعلم أن مما يندرج تحت جهة الأسلوب ما سماه أئمة نقد الأدب بالجزالة ، وما سمّوه بالرقة وبينوا لكل منهما مقاماته وهما راجعتان إلى معاني الكلام ، ولا تخلو سورة من القرآن من تكرر هذين الأسلوبين ، وكل منهما بالغ غايته في موقعه ، فبينما تسمعه يقول « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » ويقول « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » إذ تسمعه يقول « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » قال عياض في الشفا : إن عتبة بن ربيعة لما سمع هذه الآية أمسك بيده على فم النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : ناشدتك الله والرحيم إلّا ما كففت .

عادات القرآن

يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن من نظمه وكيّله . وقد تعرض بعض السلف لشيء منها ، فعن ابن عباس : كل كاس في القرآن فالمراد بها الخمر . وذكر ذلك الطبري عن الضحاك أيضا .

وفي صحيح البخاري في تفسير سورة الأنفال قال ابن عيينة : ما سمي الله مطرا في القرآن إلا عذابا ، وتسميه العرب الغيث كما قال تعالى « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا » .
وعن ابن عباس أن كل ما جاء من يا أيها الناس فالتقصود به أهل مكة المشركون .
وقال الجاحظ في البيان « وفي القرآن معان لا تكاد تفترق ، مثل الصلاة والزكاة ، والجوع والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس » قلت : والنفع والضرر ، والسماء والأرض .

وذكر صاحب الكشف ونغر الدين الرازى أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد ، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة . ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد ، ورأيت منه قليلا في شعر العرب كقول لييد :

فاقطعُ لبانة من تعرض وصله فلشرُّ واصل خلة صرامها
وأحبُّ المُجامل بالجزيل وصرمه باقى إذا ظلمت زواغ قوامها

وفي الكشف في تفسير قوله تعالى « فَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » قال قائل منهم إني كان لى قرين « الآية : « جىء به ماضيا على عادة الله في أخباره » . وقال نغر الدين في تفسير قوله تعالى « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرِّسْلَ » من سورة العنكبوت : « عادة هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء وأحوال القيامة ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع » .

وقد استقرتُ بجهدى عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعها ، ومنها أن كلمة هؤلاء إذا لم يرد بعدها عطف بيان بين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة كقوله تعالى « بل تمتع هؤلاء وآباءهم » وقوله « فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ » وقد استوعب أبو البقاء الكفوى في كتاب الكلبيات في أوائل أبوابه كليات مما ورد في القرآن من معانى الكلمات ، وفي الالتقان للسيوطى شيء من ذلك .

وقد استقرتُ أنا من أساليب القرآن أنه إذا حكي المحاورات والمجوابات حكاها بلفظ قال دون حروف عطف ، إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى ، انظر قوله تعالى « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » إلى قوله « أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » .

وأما الجهة الثالثة من جهات الإعجاز وهى ما أودعته من المعانى الحكيمية والإشارات العلمية فاعلموا أن العرب لم يكن لهم علم سوى الشعر وما تضمنه من الأخبار : قال عمر بن الخطاب « كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه » .

إن العلم نوعان علم اصطلاحى وعلم حقيقى، فأما الاصطلاحى فهو ما تواضع الناس فى عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد فى صف العلماء، وهذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار، وهذا النوع لا تخلو عنه أمة.

وأما العلم الحقيقى فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلا وآجلا، وكلا العلمين كمال إنسانى ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم، وبين العلمين عموم وخصوص من وجه. وهذه الجهة خلا عنها كلام فصحاء العرب، لأن أغراض شعرهم كانت لاتعدو وصف المشاهدات والتخييلات والافتراضات المختلفة ولا تحوم حول تقرير الحقائق وفضايا الأخلاق التى هى أغراض القرآن، ولم يقل إلا صدقا كما أشار إليه نجر الدين الرازى.

وقد اشتمل القرآن على النوعين، فأما النوع الأول فتناوله قريب لا يحتاج إلى كد فكر ولا يقتضى نظرا فإن مبلغ العلم عندهم يؤمئذ علوم أهل الكتاب ومعرفة الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء والأمم وأخبار العالم، وقد أشار إلى هذا القرآن بقوله « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كننا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكننا أهدي منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة » وقال « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » ونحو هذا من حاجة أهل الكتاب. ولعل هذا هو الذى عناء عياض بقوله فى الشفاء « ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم القصة منه إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قضى عمره فى تعليم ذلك فيورده النبى صلى الله عليه وسلم على وجهه فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه كخبر موسى مع الخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذى القرنين، ولقمان » الخ كلامه، وإن كان هو قد ساقه فى غير مساقنا بل جاء به دليلا على الإعجاز من حيث علمه به صلى الله عليه وسلم مع ثبوت الأُمِّية، ومن حيث حاجته بإمام بذلك. فأما إذا أردنا عد هذا الوجه فى نسق وجوه الإعجاز فذلك فيما نرى من جهة أن العرب لم يكن أدبهم مشتملا على التاريخ إلا بإشارات نادرة، كقولهم درع عادية، ورُمح يزنية،

وقول شاعرهم : * أحلامُ عاد وأجسامُ مُطَهَّرَةٌ * وقول آخر :
 تراهُ يُطَوِّفُ الآفاقَ حرصاً لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بْنِ عادٍ

ولكنهم لا يأبهون بذكر قصص الأمم التي هي مواضع العبرة ، فجاء القرآن بالكثير من ذلك تفصيلاً كقوله «وَإِذْ كُرُّ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ» وكقوله «فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» ولهذا يقل في القرآن التعرض إلى تفاصيل أخبار العرب لأن ذلك أمر مقرر عندهم معلوم لديهم، وإنما ذكر قليل منه على وجه الإجمال على معنى العبرة والموعظة بخبر عاد وثمود وقوم تبع، كما أشرنا إليه في المقدمة السابعة في قصص القرآن .

وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين : قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فينبليج للناس شيئاً فشيئاً انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم ، وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أميٌّ في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم ، والجائي به ناوٍ بينهم لم يفارقهم . وقد أشار القرآن إلى هذه الجهة من الإعجاز بقوله تعالى في سورة القصص « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم » ثم إنه ما كان قصاراه مشاركة أهل العلوم في علومهم الحاضرة ، حتى ارتقى إلى ما لم يالفوه وتجاوز ما درَّسوه وألفوه .

قال ابن عرفة عند قوله تعالى « تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ » في سورة آل عمران : « كان بعضهم يقول إن القرآن يشتمل على ألفاظ يفهمها العوام وألفاظ يفهمها الخواص وعلى ما يفهمه الفريقان ومنه هذه الآية فإن الإيلاج يشمل الأيام التي لا يدركها إلا الخواص والفصول التي يدركها سائر العوام » أقول : وكذلك قوله تعالى « أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » .

فن طرق إعجازه العلمية أنه دعا للنظر والاستدلال ، قال في الشفاء « ومنها جمعة لعلوم ومعارف لم تمهد للعرب ، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم ، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم لجمع فيه من بيان علم الشرائع ، والتنبيه على طرق الحجة العقلية ، والرد على فرق

الأمير يرايين قوية وأدلة كقوله: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» وقوله: «أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم» .

ولقد فتح الأعين إلى فضائل العلوم بأن شبه العلم بالنور وبالحياة كقوله « لتتذرع من كان حيا » وقوله « يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » وقال «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» وقال « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وهذا النوع من الإعجاز هو الذي خالف به القرآن أساليب الشعر وأغراضه مخالفة واضحة. وهذا الشاطبي قال في الموافقات: « إن القرآن لا تحمّل معانيه ولا يُتَأَوَّلُ إِلَّا على ما هو متعارف عند العرب » ولعل هذا الكلام صدر منه في التفصي من مشكلات في مطاعن الملحدین اقتصادا في البحث وإبقاء على تقيس الوقت ، وإلا فكيف ينفي إعجاز القرآن لأهل كل العصور ، وكيف يَقْصُر إدراك إعجازه بعد عصر العرب على الاستدلال بمعجز أهل زمانه إذ عجزوا عن معارضته ، وإذا نحن نسلّم لهم التفوق في البلاغة والفصاحة ، فهذا إعجاز إقناعي بمعجز أهل عصر واحد ولا يفيد أهل كل عصر إدراك طائفة منهم لإعجاز القرآن . وقد بينت نقض كلام الشاطبي في أواخر المقدمة الرابعة . وقد بدت لي حجة لتعلق هذه الجهة الثالثة بالإعجاز ودوامه وعمومه وهي قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ - أَوْ أُعْطِيَ - مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ففيه نكتتان غفل عنهما شارحوه : الأولى أن قوله ما مثله آمن عليه البشر اقتضى أن كل نبيء جاء بمعجزة هي إعجاز في أمر خاص كان قومه أعجب به وأعجز عنه فيؤمنون على مثل تلك المعجزة . ومعنى آمن عليه أى لأجله وعلى شرطه ، كما تقول على هذا يكون عملنا أو اجتماعنا ، الثانية أن قوله وإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا اقتضى أن ليست معجزته من قبيل الأفعال كما كانت معجزات الرسل الأولين أفعالا لا أقوالا ، كقلب العصا وانتجار الماء من الحجر ، وإبراء الأكمه والأبرص ، بل كانت معجزته ما في القرآن من دلالة على عجز البشر عن الإتيان بمثله من جهتي اللفظ والمعنى ، وبذلك يمكن أن يؤمن به كل من يتفنى إدراك ذلك من البشر ويتدبره ويفصح عن ذلك تعقيبه بقوله: فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا إذ قد عُطِفَ بالفاء المؤذنة بالترتب، فالمناسبة بين كونه أوتي وحيا وبين كونه يرجو أن يكون

أكثرهم تابعا لا تنجلي إلا إذا كانت المعجزة سالحة لجميع الأزمان حتى يكون الذين يهتدون لدينه لأجل معجزته أمما كثيرين على اختلاف قرائحهم فيكون هو أكثر الأنبياء تابعا لاحالة ، وقد تحقق ذلك لأن المعنى بالتابع التابع له في حقائق الدين الحق لا اتباع الادعاء والالتساب بالقول . ولعل الرجاء متوجه إلى كونه أكثر من جميعهم تابعا أى أكثر أتباعا من أتباع جميع الأنبياء كلهم ، وقد أغفل بيان وجه التفريع في هذا اللفظ النبوى البليغ .

وهذه الجهة من الإعجاز إنما تثبت للقرآن بمجموعه أى مجموع هذا الكتاب إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز ، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن وغير حاصل به التحدى إلا إشارة نحو قوله « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

وإعجازه من هذه الجهة للعرب ظاهر : إذ لا قبل لهم بتلك العلوم كما قال الله تعالى « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » ، وإعجازه لعامة الناس أن تبيى تلك العلوم من رجل نشأ أميا في قوم أميين ، وإعجازه لأهل الكتاب خاصة إذ كان ينبئهم بعلوم دينهم مع كونه أميا ، ولا قبل لهم بأن يدعوا أنهم علموه لأنه كان بمرأى من قومه في مكة بعيدا عن أهل الكتاب الذين كان مستقرهم بقرى النصير وقريظة وخيبر وتيآ وبلاد فلسطين ، ولأنه جاء بنسخ دين اليهودية والنصرانية ، والإنحاء على اليهود والنصارى في تحريفهم فلو كان قد تعلم منهم لأعلنوا ذلك وسجلوا عليه أنه عقم حق التعليم .

وأما الجهة الرابعة وهى الإخبار بالمغيبات فقد اقتفينا أثر من سلفنا ممن عد ذلك من وجوه الإعجاز اعتدادا منا بأنه من دلائل كون القرآن منزلا من عند الله ، وإن كان ذلك ليس له مزيد تعلق بنظم القرآن ودلالة فصاحته وبلاغته على المعانى العليا ، ولا هو كثير فى القرآن ، وسيأتى التنبيه على جزئيات هذا النوع فى تضاعيف هذا التفسير إن شاء الله . وقد جاء كثير من آيات القرآن بذلك منها قوله « ألم غلبت الروم » الآية روى الترمذى فى تفسيرها عن ابن عباس قال كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم لأنهم أهل كتاب فذكره أبو بكر لرسول الله فنزل قوله تعالى « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون فى بضع سنين » فخرج أبو بكر يصيح بها فى نواحي مكة ، فقال له ناس من قريش أفلا تراهنك على

ذلك؟ قال بلى وذلك قبل تحريم الرهان ، فلما كانت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس وأسلم عند ذلك كثير من قريش . وقوله « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » وقوله « لَتَرَنَّ كِبَوهَا وزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » فما حدث بعد ذلك من المراكب مُنْبَأً به في هذه الآية . وقوله « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » نزلت قبل فتح مكة بعامين . وقوله « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » . وأعلن ذلك الإعجاز بالتحدي به في قوله تعالى في شأن القرآن « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مما نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » إلى قوله - « وَلَنْ تَفْعَلُوا » فسجل أنهم لا يفعلون ذلك أبدا وكذلك كان ، كما بيناه آنفا في الجهة الثالثة .

وكانك بعد ما قررناه في هذه المقدمة قد ضرت قديرا على الحكم فيما اختلف فيه أئمة علم الكلام من إعجاز القرآن للعرب هل كان بما بلغه من منتهى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وما احتوى عليه من النكت والخصوصيات التي لا تقف بها عدة ، ويزيدها النظر مع طول الزمان جدة ، فلا تخطر ببال ناظر من العصور الآتية نكتة أو خصوصية إلا وجد آيات القرآن تتحملها بحيث لا يمكن إيداع ذلك في كلام إلا لِعَلَّامِ الْغُيُوبِ وهو مذهب المحققين ، أو كان الإعجاز بصرف الله تعالى مشركي العرب عن الإتيان بمثله وأنه لولا أن الله سلبهم القدرة على ذلك لأمكن أن يأتوا بمثله لأنه مما يدخل تحت مقدور البشر ، ونسب هذا إلى أبي الحسن الأشعري وهو منقول في شرح التفتراني على الفتح عن النظام وطائفة من المعتزلة ، ويسمى مذهب أهل الصرفة ، وهو الذي قال به ابن حزم في كتابه في الملل والنحل .

والأول هو الوجه الذي اعتمده أبو بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن ، وأبطل ما عداه بما لا حاجة إلى التطويل به ، وعلى اعتباره دون أئمة العربية علم البلاغة ، وقصدوا من ذلك تقريب إعجاز القرآن على التفصيل دون الاجمال ، فجاءوا بما يناسب الكامل من دلائل الكمال .

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

سورة الفاتحة من السور ذات الأسماء الكثيرة : أنهاها صاحب الإتيان إلى ليف وعشرين بين القاب وصفات جرت على ألسنة القراء من عهد السلف، ولم يثبت في السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا فاتحة الكتاب ، والسبع المثاني ، وأم القرآن ، وأمام الكتاب ، فلنقتصر على بيان هذه الأسماء الثلاثة .

فأما تسميتها فاتحة الكتاب فقد ثبتت في السنة في أحاديث كثيرة منها قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ، وفاتحة مشتقة من الفتح وهو إزالة حاجز عن مكان مقصودٍ ولوجه فصيفتها تقتضي أن موصوفها شيء يزيل حاجزا ، وليس مستعملا في حقيقته بل مستعملا في معنى أول الشيء تشبيها للأول بالفتح لأن الفاتح للباب هو أول من يدخل ، ففيل الفاتحة في الأصل مصدر بمعنى الفتح كالكاذبة بمعنى الكذب ، والباقية بمعنى البقاء في قوله تعالى : «فهل ترى لهم من باقية» وكذلك الطاغية في قوله تعالى : «فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية» (في قول ابن عباس أي بطغيانهم) . والحاظنة بمعنى الخطأ والحاقة بمعنى الحق . وإنما سمي أول الشيء بالفاتحة إما تسميةً للمفعول بالمصدر الآتي على وزن فاعلة لأن الفتح يتعلق بأول أجزاء الفعل ففيه يظهر مبدأ المصدر ، وإما على اعتبار الفاتحة اسم فاعل ثم جعلت اسما لأول الشيء ؛ إذ بذلك الأول يتعلق الفتح بالمجموع فهو كالباعث على الفتح ، فالأصل فاتح الكتاب ، وأدخلت عليه هاء التأنيث دلالة على النقل من الوصفية إلى الاسمية أي إلى معاملة الصفة معاملة الاسم في الدلالة على ذات معينة لا على ذي وصف ، مثل الغائبة في قوله تعالى « وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » ومثل العافية والعاقبة قال التفتراني في شرح الكشاف : « ولعدم اختصاص الفاتحة والخاتمة بالسورة ونحوها كانت التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية وليست لتأنيث الموصوف في الأصل ، يعني لأنهم يقولون فاتحة وخاتمة دائما في خصوص جريانه على موصوف مؤنث كالسورة والقطعة ، وذلك كقولهم فلان خاتمة العلماء ، وكقول الحريري في المقامة الأولى « أدتني خاتمة المطاف ، وهدتني فاتحة الألفاظ »

وأَيًّا ما كان ففاتحة وصفٌ وُصِفَ به مبدأ القرآن وعمِلَ معاملة الأسماء الجنسية ، ثم أضيف إلى الكتاب ثم صار هذا المركب علما بالغلبة على هذه السورة .

ومعنى فتحها الكتاب أنها جمعت أول القرآن لمن يريد أن يقرأ القرآن من أوله فتكون فاتحةً بالجمع النبوى فى ترتيب السور ، وقيل لأنها أول ما نزل وهو ضعيف لما ثبت فى الصحيح واستفاض أن أول ما أنزل سورة اقرأ باسم ربك ، وهذا مما لا ينبغي أن يتردد فيه . فالذى نجزم به أن سورة الفاتحة بعد أن نزلت أمر الله رسوله أن يجعلها أول ما يقرأ فى تلاوته .

وإضافة سورة إلى فاتحة الكتاب فى قولهم سورة فاتحة الكتاب من إضافة العام إلى الخاص باعتبار فاتحة الكتاب علماً على المقدار المخصوص من الآيات من الحمد لله إلى الضالين ، بخلاف إضافة سورة إلى ما أضيفت إليه فى بقية سور القرآن فإنها على حذف مضاف أى سورة ذكر كذا ، وإضافة العام إلى الخاص وردت فى كلام العرب مثل قولهم شجر الأراك ويوم الأحد وعلم الفقه ، وزاهاً قبيحة لوقال قائل إنسان زيد ، وذلك بادٍ لمن له أدنى ذوق إلا أن علماء العربية لم يفصحوا عن وجه الفرق بين ما هو مقبول من هذه الإضافة وبين ما هو قبيح فكان حقاً أن أُبين وجهه : وذلك أن إضافة العام إلى الخاص تحسن إذا كان المضاف والمضاف إليه اسمى جنس وأولها أعم من الثانى ، فهناك يجوز التوسع بإضافة الأعم إلى الأخص إضافة مقصوداً منها الاختصار ، ثم تُكسبها غلبة الاستعمال قبولاً نحو قولهم شجر الأراك ، عوضاً عن أن يقولوا الشجر الذى هو الأراك ، ويوم الأحد عوضاً عن أن يقولوا يوم هو الأحد وقد يكون ذلك جائزاً غير مقبول لأنه لم يشع فى الاستعمال كما لو قلت حيوان الإنسان ؛ فأما إذا كان أحد المتضايين غير اسم جنس فالإضافة فى مثله ممتنة فلا يقال إنسان زيد ولهذا جُمِل قولُ الناس « شهر رمضان » علماً على الشهر المعروف بناء على أن لفظ رمضان خاص بالشهر المعروف لا يحتمل معنى آخر ، فتميّز أن يكون ذكر كلمة شهر معه قبيحاً لعدم الفائدة منه لولا أنه شاع حتى صار مجموع المركب الإضافى علماً على ذلك الشهر .

ويصح عندي أن تكون إضافة السورة إلى فاتحة الكتاب من إضافة الموصوف إلى الصفة ، كقولهم مسجد الجامع ، وعشاء الآخرة ، أى سورة موصوفة بأنها فاتحة الكتاب

فتكون الإضافة بيانية، ولم يجعلوا لها اسماً استغناء بالوصف، كما يقول المؤلفون مقدمة أو باب بلا ترجمة ثم يقولون باب جامع مثلاً، ثم يضيفونه فيقولون باب جامع الصلاة .

وأما إضافة فاتحة إلى الكتاب فإضافة حقيقية باعتبار أن المراد من الكتاب بقيته عدا السورة المسماة الفاتحة ، كما تقول : خطبة التأليف ، وديباجة التقليد .

وأما تسميتها أم القرآن وأم الكتاب فقد ثبتت في السنة، من ذلك ما في صحيح البخاري في كتاب الطب أن أبا سعيد الخدري رقى ملدوغاً فجعل يقرأ عليه بأم القرآن، وفي الحديث قصة، ووجه تسميتها أم القرآن أن الأم يطلق على أصل الشيء ومنشئه، وفي الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وسلم : كل صلاة لم يُقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاجٌ (أى منقوصة مخدوجة) . وقد ذكروا لتسمية الفاتحة أم القرآن وجوها ثلاثة : أحدها أنها مبدؤه ومفتتحه فكأنها أصله ومنشؤه، يعنى أن افتتاحه الذى هو وجود أول أجزاء القرآن قد ظهر فيها فجعلت كالأم للولد في أنها الأصل والنشأ فيكون أم القرآن تشبيهاً بالأم التى هى منشأ الولد لمشابتها بالنشأ من حيث ابتداء الظهور والوجود . الثانى أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن وهى ثلاثة أنواع : الثناء على الله ثناء جامعاً لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص ، ولإثبات تفرده بالإلهية وإثبات البعث والجزاء وذلك من قوله «الحمد لله» إلى قوله «يوم الدين» ، والأوامر والنواهي من قوله «إياك نعبد» ، والوعد والوعيد من قوله «صراط الذين» إلى آخرها ، فهذه هى أنواع مقاصد القرآن كله ، وغيرها تكملات لها لأن القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية وهى صلاح الدارين وذلك يحصل بالأوامر والنواهي ، ولما توقفت الأوامر والنواهي على معرفة الأمر وأنه الله الواجب وجوده خالق الخلق لزم تحقيق معنى الصفات، ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء فى الثواب والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد . والفاتحة مشتملة على هاته الأنواع فإن قوله «الحمد لله» إلى قوله «يوم الدين» حمد وثناء ، وقوله «إياك نعبد» إلى قوله «المستقيم» من نوع الأوامر والنواهي ، وقوله «صراط الذين» إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد مع أن ذكر المغضوب عليهم والضالين يشير أيضاً إلى نوع قصص القرآن ، وقد يؤيد هذا الوجه بما ورد فى الصحيح فى قل هو الله أحد أنها تعدل ثلث القرآن لأن ألفاظها كلها ثناء على الله تعالى .

الثالث أنها تشتمل معانيها على جملة معانى القرآن من الحكم النظرية والأحكام العملية

فإن معاني القرآن إما علوم تقصد معرفتها وإما أحكام يقصد منها العمل بها ، فالعلوم كالفتوحيد والصفات والنبوءات والوعاظ والأمثال والحكم والتقصص ، والأحكام إما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات ، وإما عمل القلوب أى العقول وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة ، وكلها تشتمل عليها معاني الفاتحة بدلالة المطابقة أو التضمن أو الالتزام ف « الحمد لله » يشمل سائر صفات الكمال التي استحق الله لأجلها حصر الحمد له تعالى بناء على ما تدل عليه جملة الحمد لله من اختصاص جنس الحمد به تعالى واستحقاقه لذلك الاختصاص كما سيأتى و « رب العالمين » يشمل سائر صفات الأفعال والتكوين عند من أثبتها ، و « الرحمن الرحيم » يشمل أصول التشريع الراجعة للرحمة بالكافرين ، و « ملك يوم الدين » يشمل أحوال القيامة ، و « إياك نعبد » يجمع معنى الديانة والشريعة ، و « إياك نستعين » يجمع معنى الإخلاص لله فى الأعمال . قال عز الدين بن عبد السلام فى كتابه حل الرموز ومفاتيح الكنوز : الطريقة إلى الله لها ظاهر (أى عمل ظاهر أى بدنى) وباطن (أى عمل قلبى) فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة ، والمراد من الشريعة والحقيقة إقامة العبودية على الوجه المراد من المكلف . ويجمع الشريعة والحقيقة كلتان هما قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » فإياك نعبد شريعة وإياك نستعين حقيقة ، اهـ . و « اهدنا الصراط المستقيم » يشمل الأحوال الإنسانية وأحكامها من عبادات ومعاملات وآداب ، و « صراط الذين أنعمت عليهم » يشير إلى أحوال الأمم والأفراد الماضية الفاضلة ، وقوله « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » يشمل سائر قصص الأمم الضالة ويشير إلى تفاصيل ضلالاتهم المحكية عنهم فى القرآن ، فلا جرم يحصل من معاني الفاتحة - تصريحاً وتضمناً - علمٌ إجمالى بما حواه القرآن من الأغراض . وذلك يدعو نفس قارئها إلى تطلب التفصيل على حسب التمكن والقابلية . ولأجل هذا فرضت قراءة الفاتحة فى كل ركعة من الصلاة حرصاً على التذكر لما فى مطاوعها .

وأما تسميتها السبع المثاني فهي تسمية ثبتت بالسنة ، فى صحيح البخارى عن أبى سعيد ابن العلى ^(١) « أن رسول الله قال الحمد لله رب العالمين هى السبع المثاني والقرآن العظيم

(١) هو الحارث بن نفيع (مصفراً) الزرقى - بضم ففتح - الأنصارى المتوفى سنة ٧٤ وتمام الحديث عن أبى سعيد بن العلى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله فلم أجبه فقلت يا رسول الله لى كنت أصلى فقال ألم يقل الله استجبوا لله ولا رسول إذا دعاكم . ثم قال ألا أعلمك سورة هى أعظم السور فى القرآن =

الذى أوتيته» ووجه تسميتها بذلك أنها سبع آيات باتفاق القراء والمفسرين ولم يشذ عن ذلك إلا الحسن البصرى فقال هي ثمان آيات، وإلا الحسين^(١) الجعفى فقال هي ست آيات، وقال بعض الناس تسع آيات ويتعين حينئذ كون البسمة ليست من الفاتحة لتكون سبع آيات ومن عد البسمة أدمج آيتين . وأما وصفها بالثاني فهو مفاعل جمع مُثْنَى بضم الميم وتشديد النون ، أو مُثْنَى مخفف مُثْنَى ، أو مَثْنَى بفتح الميم مخفف مَثْنَى كَمَعْنَى مخفف مَعْنَى ويجوز تأنيث الجميع كما نبه عليه السيد الجرجاني في شرح الكشف وكل ذلك مشتق من التثنية وهي ضم ثان إلى أول . ووجه الوصف به أن تلك الآيات تثني في كل ركعة كذا في الكشف. قيل وهو مأثور عن عمر بن الخطاب ، وهو مستقيم لأن معناه أنها تضم إليها السورة في كل ركعة ، ولعل التسمية بذلك كانت في أول فرض الصلاة فإن الصلوات فُرِضَتْ ركعتين ثم أُقِرَّت صلاةُ السفر وأُطِيلَتْ صلاةُ الحضر كذا ثبت في حديث عائشة في الصحيح وقيل العكس ، وقيل لأنها تثني في الصلاة أى تكرر فتكون التثنية بمعنى التكرير بناء على ما شاع عند العرب من استعمال المثنى في مطلق المكرر نحو « ثم أرجع البصر كررتين » وقولهم لبيك وسعديك ، وعليه فيكون المراد بالثاني هنا مثل المراد بالثاني في قوله تعالى « كتاباً مُتَشَابِهاً مثنائى » أى مكرر القصص والأعراض، وقيل سميت الثانية لأنها نثيت في النزول فنزلت بمكة ثم نزلت في المدينة وهذا قول بعيد جدا وتكرر النزول لا يعتبر قائله ، وقد اتفق على أنها مكية فأى معنى لإعادة نزولها بالمدينة .

وهذه السورة وضعت في أول السور لأنها نزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب ، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن كما علمت آنفا وذلك شأن الديباجة من براعة الاستمالة . وهذه السورة مكية باتفاق الجمهور ، وقال كثير إنها أول سورة نزلت ، والصحيح أنه نزل قبلها اقرأ باسم ربك وسورة المدثر ثم الفاتحة ، وقيل نزل قبلها أيضا « ن والقلم » وسورة الزمل ، وقال بعضهم هي أول سورة نزلت كاملة أى غير منجمة ، بخلاف سورة « القلم » ، وقد حقق بعض العلماء أنها نزلت عند فرض الصلاة فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها ، وقد عدت في رواية عن جابر بن زيد السورة الخامسة في ترتيب

= قبل أن يخرج من المسجد، ثم أخذ يندى فلما أراد أن يخرج قلت له ألم تفل لأعلنك سورة هي أعظم سورة في القرآن فقال الحمد لله رب العالمين الخ . (١) ستأتى ترجمته قريبا .

نزول السور. وأيا ما كان فإنها قد سماها النبي صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب وأمر بأن تكون أول القرآن .

قلت : ولا يناكد ذلك نزولها بعد سور أخرى لمصلحة اقتضت سبقها قبل أن يتجمع من القرآن مقدار يصير به كتابا فحين تجمع ذلك أنزلت الفاتحة لتكون ديباجة الكتاب . وأغراضها قد علمت من بيان وجه تسميتها أم القرآن .

وهي سبع آيات باتفاق القراء والفسرين ، ولم يشذ عن ذلك إلا الحسن البصري ، قال هي ثمان آيات ، ونسب أيضا لمعمرو بن عبيد وإلى الحسين الجعفي^(١) قال هي ست آيات ، ونسب إلى بعضهم غير مُعَيَّن أنها تسع آيات ، وتحديد هذه الآيات السبع هو ما دل عليه حديث الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قال الله عز وجل ، قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدی فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، يقول العبد الحمد لله رب العالمين ، فأقول حمدنى عبدى ، فإذا قال العبد الرحمن الرحيم ، يقول الله أننى على عبدى ، وإذا قال العبد ملك يوم الدين ، قال الله مجدنى عبدى ، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال الله هذا بينى وبين عبدى ، وإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل » اهـ .

فهن ثلاث ثم واحدة ثم ثلاث ، فعند أهل المدينة لا تعد البسملة آية وتعد « أنعمت عليهم » آية ، وعند أهل مكة وأهل الكوفة تعد البسملة آية وتعد أنعمت عليهم جزء آية ، والحسن البصري عد البسملة آية وعد أنعمت عليهم آية .

(١) هو حسين بن على بن الوليد الجعفي مولاهم الكوفي المتوفى سنة ٢٠٠ أحد أعلام المحدثين روى عن الأعمش وروى عنه أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، ويحيى بن معين .

الكلام على البسملة

البسملة اسم لكلمة باسم الله ، صيغ هذا الاسم على مادة مؤلفة من حروف الكلمتين - باسم - و - الله - على طريقة تسمى النَحْت ، وهو صوغ فعلٍ مُضَيٍّ على زنة « فَعَلَل » مؤلفة مادته من حروف جملة أو حروف مركبٍ إضافيٍّ ، مما ينطق به الناس اختصاراً عن ذكر الجملة كلها لقصد التخفيف لكثرة دوران ذلك على الألسنة . وقد استعمل العرب النحت في النسب إلى الجملة أو المركب إذا كان في النسب إلى صدر ذلك أو إلى عجزه التباس ، كما قالوا في النسبة إلى عبد شمس - عَبْشَمِيٍّ - خشية الالتباس بالنسب إلى عبدٍ أو إلى شمس ، وفي النسبة إلى عبد الدار - عَبْدَرِيٍّ - كذلك وإلى حضرموت - حضرمي - قال سيبويه في باب الإضافة (أي النسب) إلى المضاف من الأسماء : « وقد يعملون للنسب في الإضافة اسماً بمنزلة جَعْفَرِيٍّ ويعملون فيه من حروف الأول والآخر ولا يخرجونه من حروفهما ليُعْرَفَ » اهـ ، فجاء من خلفهم من مولدى العرب واستعملوا هذه الطريقة في حكاية الجمل التي يكثر دورانها في الألسنة لقصد الاختصار ، وذلك من صدر الإسلام فصارت الطريقة عربية . قال الراعي :

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَا
أَي لَمْ يَتْرَكُوا قَوْلَ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . وقال عمر بن أبي ربيعة :
لَقَدْ بَسَمَلْتُ لَيْلَى غَدَاةَ لَقِيْتَهَا أَلَا حَبْدَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُبْسَمِلُ

أى قالت بسم الله فرقا منه ، فأصل بسمل قال بسم الله ثم أطلقه المولدون على قول بسم الله الرحمن الرحيم ، اكتفاء واعتماداً على الشهرة وإن كان هذا المنحوت خلياً من الحاء والراء اللذين هما من حروف الرحمان الرحيم ، فشاع قولهم بسمل في معنى قال بسم الله الرحمن الرحيم ، واشتق من فعل بسمل مصدر هو « البسملة » كما اشتق من هَلَّلَ مصدر هو « الهيلة » وهو مصدر قياسي لفعلل .

واشتق منه اسم فاعل في بيت عمر بن أبي ربيعة ولم يسمع اشتقاق اسم مفعول .
ورأيت في شرح ابن هارون التونسي على مختصر ابن الحاجب ^(١) في باب الأذان عن المطرز

(١) رقم ١٠٥٢٠ بالمكتبة الصادقية (المبدلية) بتونس .

في كتاب اليواقيت: الأفعال التي نَحَتَتْ من أسمائها سبعة : بَسَمَلٌ في بسم الله ، وَسَبَّحَلٌ في سبحان الله ، وَحَيَّعَلٌ في حي على الصلاة ، وَحَوَقَلٌ في لا حول ولا قوة إلا بالله ، وَحَمَدَلٌ في الحمد لله ، وَهَلَلٌ في لا إله إلا الله ، وَجَيَّعَلٌ إذا قَالَ جُعِلَتْ فِدَاكَ ، وَزَادَ الطَّيْقَلَةَ في أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ ، وَاللَّامُوعَةَ في أَدَامَ اللهُ عَزْرَكَ .

ولما كان كثير من أئمة الدين قائلًا بأنها آية من أوائل جميع السور غير براءة أو بعض السور تعين على المفسر أن يفسر معناها وحكمها وموقعها عند من عدوها آية من بعض السور . وينحصر الكلام عليها في ثلاثة مباحث .

الأول في بيان أمي آية من أوائل السور أم لا . الثاني في حكم الابتداء بها عند القراءة . الثالث في تفسير معناها المختص بها .

فأما المبحث الأول فهو أن لا خلاف بين المسلمين في أن لفظ بسم الله الرحمن الرحيم هو لفظ قرآني لأنه جزء آية من قوله تعالى « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » كما أنهم لم يختلفوا في أن الافتتاح بالتسمية في الأمور المهمة ذوات البال ورد في الإسلام ، وروى فيه حديث « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع » لم يروه أصحاب السنن ولا المستدركات ، وقد وصف بأنه حسن ، وقال الجمهور إن البسملة رسمها الذين كتبوا المصاحف في أوائل السور ما عدا سورة براءة ، كما يؤخذ من محادثة ابن عباس مع عثمان ، وقد مضت في المقدمة الثامنة ، ولم يختلفوا في أنها كتبت في المصحف في أول سورة الفاتحة وذلك ليس موضع فصل السورة عما قبلها ، وإنما اختلفوا في أن البسملة هل هي آية من سورة الفاتحة ومن أوائل السور غير براءة ، بمعنى أن الاختلاف بينهم ليس في كونها قرآنا ، ولكنه في تكرار قرآنيها كما أشار إليه ابن رشد الحفيد في البداية ، فذهب مالك والأوزاعي وفقهاء المدينة والشام والبصرة - وقيل باستثناء عبد الله بن عمرو ابن شهاب من فقهاء المدينة - إلى أنها ليست بآية من أوائل السور لكنها جزء آية من سورة النمل ، وذهب الشافعي في أحد قولييه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وفقهاء مكة والكوفة غير أبي حنيفة ، إلى أنها آية في أول سورة الفاتحة خاصة ، وذهب عبد الله بن مبارك والشافعي في أحد قولييه وهو الأصح عنه إلى أنها آية من كل سورة . ولم ينقل عن أبي حنيفة من فقهاء الكوفة فيها شيء ، وأخذ منه صاحب الكشف أنها ليست من السور عنده فعده في الذين قالوا بعدم

جزئيتها من السور وهو الصحيح عنه . قال عبد الحكيم لأنه قال بعدم الجهر بها مع الفاتحة في الصلاة الجهرية وكره قراءتها في أوائل السور الموصولة بالفاتحة في الركعتين الأوليين . وأزيدُ فأقول إنه لم ير الاختصار عليها في الصلاة مجزئاً عن القراءة .

أما حجة مذهب مالك ومن وافقه فلمهم فيها مسالك : أحدها من طريق النظر ، والثاني من طريق الأثر ، والثالث من طريق الذوق العربي .

فأما المسلك الأول فللمالكية فيه مقالة فائقة للقاضي أبي بكر الباقلاني وتابعه أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن والقاضي عبد الوهاب في كتاب الاشراف ، قال الباقلاني : « لو كانت التسمية من القرآن لكان طريق إثباتها إما التواتر أو الآحاد ، والأول باطل لأنه لو ثبت بالتواتر كونها من القرآن لحصل العلم الضروري بذلك ولا ممتنع وقوع الخلاف فيه بين الأئمة ، والثاني أيضا باطل لأن خبر الواحد لا يفيد إلا الظن فلو جعلناه طريقا إلى إثبات القرآن لخرج القرآن عن كونه حجة يقينية ، ولصار ذلك ظنيا ، ولو جاز ذلك لحاز ادعاء الروافض أن القرآن دخله الزيادة والنقصان والتغيير والتحريف » اهـ (وهو كلام وجيه والأفيسة الاستثنائية التي طواها في كلامه واضحة لمن له ممارسة للمنطق وشرطياتها لا تحتاج للاستدلال لأنها بديهية من الشريعة فلا حاجة إلى بسطها) . زاد أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن فقال : يكفيك أنها ليست من القرآن الاختلاف فيها ، والقرآن لا يختلف فيه اهـ . وزاد عبد الوهاب فقال : « إن رسول الله بين القرآن بيانا واحدا متساويا ولم تكن عادته في بيانه مختلفة بالظهور والخفاء حتى يختص به الواحد والاثنان ؛ ولذلك قطعنا بمنع أن يكون شيء من القرآن لم ينقل إلينا وأبطلنا قول الرافضة إن القرآن حُمِلَ حَمَلًا عند الإمام المعصوم المنتظر فلو كانت البسمة من الحمد لبيّنها رسول الله بيانا شافيا » اهـ .

• وقال ابن العربي في العارضة : إن القاضي أبا بكر بن الطيب ، لم يتكلم من الفقه إلا في هذه المسألة خاصة لأنها متعلقة بالأصول .

وقد عارض هذا الدليل أبو حامد الغزالي في المستصفى فقال « نقي كون البسمة من القرآن أيضا إن ثبت بالتواتر لزم أن لا يبقى الخلاف (أى وهو ظاهره البطلان) وإن ثبت بالآحاد يمين القرآن ظنيا ، قال ولا يقال إن كون شيء ليس من القرآن عدم والعدم لا يحتاج إلى الإثبات لأنه الأصل بخلاف القول بأنها من القرآن ، لأننا نحبب بأن هذا وإن كان عدما

إلا أن كون التسمية مكتوبة بخط القرآن يوهن كونها ليست من القرآن فها هنا لا يمكننا الحكم بأنها ليست من القرآن إلا بالدليل ويأتي الكلام في أن الدليل ما هو ، فثبت أن الكلام الذي أورده القاضي لازم عليه اه ، وتبعه على ذلك الفخر الرازي في تفسيره ولا يخفى أنه آل في استدلاله إلى المصادرة إذ قد صار مرجع استدلال الغزالي ونحو الدين إلى رسم البسملة في المصاحف ، وسنتكلم عن تحقيق ذلك عند الكلام على مدرك الشافعي .

وتعقب ابن رشد في بداية المجتهد كلام الباقلاني والغزالي بكلام غير محرم فلا نطيل به .
وأما المسلك الثاني وهو الاستدلال من الأثر فلا نجد في صحيح السنة ما يشهد بأن البسملة آية من أوائل سور القرآن والأدلة ستة :

الدليل الأول : ما روى مالك في الموطأ عن الملاء بن عبد الرحمن إلى أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدى فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ماسأل ، يقول العبد الحمد لله رب العالمين فأقول حمدنى عبدى إلخ ، والمراد في الصلاة القراءة في الصلاة ووجه الدليل منه أنه لم يذكر بسم الله الرحمن الرحيم .
الثاني : حديث أبي بن كعب في الموطأ والصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : ألا أعلمك سورة لم يُنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثلها قبل أن تخرج من المسجد؟ قال : بلى ، فلما قارب الخروج قال له : كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟ قال أبى فقرأت الحمد لله رب العالمين حتى أتيت على آخرها ، فهذا دليل على أنه لم يقرأ منها بالبسملة .

الثالث : ما في صحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائي عن أنس بن مالك من طرق كثيرة أنه قال : صليت خلف رسول الله وأبى بكر وعمر فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم ، لا في أول قراءة ولا في آخرها .

الرابع : حديث عائشة في صحيح مسلم وسنن أبى داود قالت : كان رسول الله يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين .

الخامس : ما في سنن الترمذى والنسائي عن عبد الله بن مغفل قال : صليت مع النبي وأبى بكر وعمر وعثمان ، فلم أسمع أحدا منهم يقول بسم الله الرحمن الرحيم ، إذا أنت صليت فقل الحمد لله رب العالمين .

السادس - وهو الحاسم - عمل أهل المدينة ، فإن المسجد النبوي من وقت نزول الوحي إلى زمن مالك ، صلى فيه رسول الله والخلفاء الراشدون والأمراء وصلى وراءهم الصحابة وأهل العلم ولم يسمع أحد قرأ بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة الجهرية ، وهل يقول عالم أن بعض السورة جهر وبعضها سر ، فقد حصل التواتر بأن النبي والخلفاء لم يجهروا بها في الجهرية ، فدل على أنها ليست من السورة ولو جهروا بها لما اختلف الناس فيها .

وهناك دليل آخر لم يذكره هنا وهو حديث عائشة ، في بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معتبر مرفوعاً إلى النبي ، وذلك قوله « فَفَجَّهَ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ » - إلى أن قال - ففطنني الثالثة ثم قال - اقرأ باسم ربك الذي خلق » الحديث . فلم يقل فقال لي بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك ، وقد ذكروا هذا في تفسير سورة العلق وفي شرح حديث بدء الوحي .

وأما السلك الثالث وهو الاستدلال من طريق الاستعمال العربي فيأتي القول فيه على مراعاة قول القائلين بأن البسمة آية من سورة الفاتحة خاصة ، وذلك يوجب أن يتكرر لفظان وهما الرحمن الرحيم في كلام غير طويل ليس بينهما فصل كثير وذلك مما لا يحمد في باب البلاغة ، وهذا الاستدلال نقله الإمام الرازي في تفسيره وأجاب عنه بقوله : إن التكرار لأجل التأكيد كثير في القرآن وإن تأكيد كونه تعالى رحماناً رحيماً من أعظم المهمات . وأنا أدفع جوابه بأن التكرار وإن كانت له مواقع محمودة في الكلام البليغ مثل التهويل ، ومقام الرثاء أو التعميد أو التوكيد اللفظي ، إلا أن الفاتحة لا مناسبة لها بأغراض التكرير ولا سيما التوكيد لأنه لا منكر لكونه تعالى رحماناً رحيماً ، ولأن شأن التوكيد اللفظي أن يقترن فيه اللفظان بلا فصل فتعين أنه تكرير اللفظ في الكلام لوجود مقتضى التعبير عن مدلوله بطريق الاسم الظاهر دون الضمير ، وذلك مشروط بأن يبعد ما بين المكررين بُعْداً يُقْصِيهِ عن السمع ، وقد علمت أنهم عدوا في فصاحة الكلام خلوصه من كثرة التكرار ، والقرب بين الرحمن والرحيم حين كررا يمنع ذلك . وأجاب البيضاوي بأن نكتة التكرير هنا هي تعليل استحقاق الحمد ، فقال السلوكي أشار بهذا إلى الرد على ما قاله بعض الحنفية : إن البسمة لو كانت من الفاتحة للزم التكرار وهو جواب لا يستقيم لأنه إذا كان التعليل قاضياً بذكر صفتي الرحمن الرحيم فدفع التكرير يقتضي تجريد البسمة

التي في أول الفاتحة من هاتين الصفتين بأن تصوير الفاتحة هكذا « بسم الله الحمد لله الخ » .
وأنا أرى في الاستدلال بمسلك الذوق العربي أن يكون على مراعاة قول القائلين بكون
البسمة آية من كل سورة فينشأ من هذا القول أن تكون فواتح سور القرآن كلها متماثلة
وذلك مما لا يحمد في كلام البلغاء إذ الشأن أن يقع التفنن في الفواتح ، بل قد عد علماء
البلاغة أهم مواضع التأنيق فاتحة الكلام وخاتمة ، وذكروا أن فواتح السور وخواتمها
واردة على أحسن وجوه البيان وأكملها فكيف يسوغ أن يدعى أن فواتح سورهم جملة
واحدة ، مع أن عامة البلغاء من الخطباء والشعراء والكتاب يتنافسون في تفنن فواتح
منشآتهم ويمعبون من يلتزم في كلامه طريقة واحدة فما ظنك بأبلغ كلام .

وأما حجة مذهب الشافعي ومن وافقه بأنها آية من سورة الفاتحة خاصة فأمور كثيرة
أنهاها نخر الدين إلى سبع عشرة حجة لا يكاد يستقيم منها بعد طرح المتداخل والخارج عن
محل النزاع وضعيف السند أو واهيه إلا أمران: أحدهما أحاديث كثيرة منها ما روى أبو هريرة
أن النبي عليه الصلاة والسلام قال « فاتحة الكتاب سبع آيات . أولهن بسم الله الرحمن
الرحيم » وقول أم سلمة قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاتحة وعدّ بسم الله الرحمن
الرحيم الحمد لله رب العالمين آية » .

الثاني : الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله .

والجواب أما عن حديث أبي هريرة فهو لم يخرججه أحد من رجال الصحيح إنما خرججه
الطبراني وابن مردويه والبيهقي فهو نازل عن درجة الصحيح فلا يعارض الأحاديث الصحيحة ،
وأما حديث أم سلمة فلم يخرججه من رجال الصحيح غير أبي داود وأخرججه أحمد بن حنبل
والبيهقي ، وصحح بمضطرقة وقد طعن فيه الطحاوي بأنه رواه ابن أبي مليكة ، ولم يثبت
سماع ابن أبي مليكة من أم سلمة ، يعني أنه مقطوع ، على أنه روى عنها ما يخالفه ، على أن
شيخ الإسلام زكرياء قد صرح في حاشيته على تفسير البيضاوي بأنه لم يرو باللفظ المذكور
وإنما روى بالفاظ تدل على أن بسم الله آية وحدها ، فلا يؤخذ منه كونها من الفاتحة ، على
أن هذا يفضي إلى إثبات القرآنية بغير المتواتر وهو ما يأباه المسلمون .

وأما عن الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله ، فالجواب أنه لا يقتضي إلا أن البسمة
قرآن وهذا لا نزاع فيه ، وأما كون الواضع التي رسمت فيها في المصحف مما تجب قراءتها

فيها ، فذلك أمر يتبع رواية القراء وأخبار السنة الصحيحة فيعود إلى الأدلة السابقة .
وهذا كله بناء على تسليم أن الصحابة لم يكتبوا أسماء السور وكونها مكية أو مدنية في المصحف وأن ذلك من صنع المتأخرين وهو صريح كلام عبد الحكيم في حاشية البيضاوي ، وأما إذا ثبت أن بعض السلف كتبوا ذلك كما هو ظاهر كلام المفسرين والأصوليين والقراء كما في « لطائف الإشارات » للقسطلاني وهو مقتضى كتابة المتأخرين لذلك لأنهم ما كانوا يجرأون على الزيادة على ما فعله السلف فاحتجاج حينئذ بالكتابة باطل من أصله ودعوى كون أسماء السور كتبت بلون مخالف لحبر القرآن ، يردّه أن المشاهد في مصاحف السلف أن حبرها بلون واحد ولم يكن التلوين فاشيا .

وقد احتج بعضهم بما رواه البخاري عن أنس أنه سئل كيف كانت قراءة النبي ، فقال كانت مدّا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يد بسم الله ويد بالرحمن ويد بالرحيم ، اهـ ، ولا حجة في هذا لأن ضمير قرأ وضمير يد عائدان إلى أنس ، وإنما جاء بالبسمة على وجه التمثيل لكيفية القراءة لشهرة البسمة .

وحجة عبد الله بن المبارك وثاني قول الشافعي ، ما رواه مسلم عن أنس ، قال « بينا رسول الله بين أظهرنا ذات يوم إذ أغفَى إغفَاءً ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أحسك يارسول الله ، قال أنزلت على سورة آتفا فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر » السورة ، قالوا وللإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله ولإثبات الصحابة إياها في المصاحف مع حرصهم على أن لا يدخلوا في القرآن ما ليس منه ولذلك لم يكتبوا آمين في الفاتحة . والجواب عن الحديث أنا نمنع أن يكون قرأ البسمة على أنها من السورة بل افتتح بها عند إرادة القراءة لأنها تغني عن الاستعاذة إذا نوى المبسم تقدير استعيز باسم الله وحذف متعلق الفعل ، ويتعين حمله على نحو هذا لأن راويه أنسا بن مالك جزم في حديثه الآخر أنه لم يسمع رسول الله يسمّل في الصلاة .

فإن أبوا تأويله بما تأولناه لزم اضطراب أنس في روايته اضطرابا يوجب سقوطها .
والحق البين في أمر البسمة في أوائل السور ، أنها كتبت للفصل بين السور ليكون الفصل مناسبا لابتداء المصحف ، ولثلا يكون بلفظ من غير القرآن ، وقد روى أبو داود (١ / ٩ - التحرير)

في سننه والترمذى وصححه عن ابن عباس أنه قال . قلت لعثمان بن عفان: « ما حملك أن عديتم إلى براءة وهي من المثني وإلى الأتقال وهي من المثاني فجعلتموهما في السبع الطوال ولم تكتبوا بينهما سطرا - بسم الله الرحمن الرحيم » ، قال عثمان كان النبي لما نزل عليه الآيات فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له ضع هذه الآية بالسورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، أو تنزل عليه الآية والآيتان فيقول مثل ذلك ، وكانت الأتقال من أول ما أنزل عليه بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما أنزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فقيض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها ، فظننت أنها منها ، فمن هناك وضعتها في السبع الطوال ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم .

وأرى في هذا دلالة بينة على أن البسمة لم تكتب بين السور غير الأتقال وبراءة إلا حين جمع القرآن في مصحف واحد زمن عثمان ، وأنها لم تكن مكتوبة في أوائل السور في المصحف التي جمعها زيد بن ثابت في خلافة أبي بكر إذ كانت لكل سورة صحيفة مفردة كما تقدم في المقدمة الثامنة من مقدمات هذا التفسير .

وعلى أن البسمة تختلف في كونها آية من أول كل سورة غير براءة ، أو آية من أول سورة الفاتحة فقط ، أو ليست بآية من أول شيء من السور ؛ فإن القراء اتفقوا على قراءة البسمة عند الشروع في قراءة سورة من أولها غير براءة . ورووا ذلك عن تلقوا ، فأما الذين منهم يروون اجتهدا أو تقليدا أن البسمة آية من أول كل سورة غير براءة ، فأمرهم ظاهر ، وقراءة البسمة في أوائل السور واجبة عندهم لا محالة في الصلاة وغيرها ، وأما الذين لا يروون البسمة آية من أوائل السور كلها أو ما عدا الفاتحة فإن قراءتهم البسمة في أول السورة عند الشروع في قراءة سورة غير مسبوقه بقراءة سورة قبلها تُعَلَّل بالتيميم باقتفاء أثر كتاب المصحف ، أي قصد التشبه في مجرد ابتداء فعل تشبهها لا ابتداء القراءة بابتداء الكتابة . فتكون قراءتهم البسمة أمرا مستحبا للتأسي في القراءة بما فعله الصحابة الكاتبون للمصحف ، فقراءة البسمة عند هؤلاء نظير النطق بالاستعاذة ونظير التهليل والتكبير بين بعض السور من آخر المفضل ، ولا يبسمون في قراءة الصلاة الفريضة ، وهؤلاء إذا قرأوا في صلاة الفريضة تجرى قراءتهم على ما انتهى إليه فهمهم من أمر البسمة من اجتهد أو تقليد . وبهذا تعلم أنه لا ينبغي أن يؤخذ من قراءتهم قولهم بأن البسمة آية

من أول كل سورة كما فعل صاحب الكشاف والبيضاوى .

واختلفوا في قراءة البسمة في غير الشروع في قراءة سورةٍ من أولها ، أى في قراءة البسمة بين السورتين .

فورش عن نافع في أشهر الروايات عنه وابنُ عامر ، وأبو عمرو ، وحزرة ، ويعقوب ، وخلف ، لا يسمّلون بين السورتين وذلك يملل بأن التشبّه بفعل كُتّاب المصحف خاص بالابتداء ، وبحملهم رسمَ البسمة في المصحف على أنه علامة على ابتداء السورة لا على الفصل ، إذ لو كانت البسمة علامة على الفصل بين السورة والتي تليها لما كتبت في أول سورة الفاتحة ، فكان صنيعهم وجيهاً لأنهم جمعوا بين ما رووه عن سلفهم وبين دليلٍ قصد التيمن ، ودليل رأيهم أن البسمة ليست آية من أول كل سورة .

وقالون عن نافع وابنُ كثير وعاصمٌ والكسائي وأبو جعفر يسمّلون بين السورتين سوى ما بين الأتقال وبراءة ، وعدوه من سنة القراءة ، وليس حظهم في ذلك . إلا اتباع سلفهم ، إذ ليس جميعهم من أهل الاجتهاد ، ولعلمهم طردوا قصد التيمن بمشابهة كُتّاب المصحف في الإشعار بابتداء السورة والإشعار بانتهاء التي قبلها .

واتفق المسلمون على ترك البسمة في أول سورة براءة وقد تبين وجه ذلك آتفاً ، ووجه الأئمة بوجوه أخر تأتي في أول سورة براءة ، وذكر الجاحظ في البيان والتبيين ^(١) أن مُورجاً السدوسي البصري سمع رجلاً يقول « أمير المؤمنين يرُدُّ على المظلوم » فرجع مُورج إلى مُصحفه فردَّ على براءة بسم الله الرحمن الرحيم ، ويحمل هذا الذي صنعه مُورج - إن صح عنه - إنما هو على التلميح والهزل وليس على الجد .

وفي هذا ما يدل على أن اختلاف مذاهب القراء في قراءة البسمة في مواضع من القرآن ابتداءً ووصلاً كما تقدم لا أثر له في الاختلاف في حكم قراءتها في الصلاة ، فإن قراءتها في الصلاة تجرى على أحكام النظر في الأدلة وليست مذاهب القراء بمعدودة من أدلة الفقه ، وإنما قراءاتهم روايات وسنة متبعة في قراءة القرآن دون استناد إلى اعتبار أحكام رواية القرآن من تواتر ودونه ، ولا إلى وجوب واستحباب وتخيير ، فالقارىُّ يقرأ كما روى عن معلمه

ولا ينظر في حكم ما يقرأه من لزوم كونه كما قرأ أو عدم اللزوم، فالقراء تجرى أعمالهم في صلاتهم على نزعائهم في الفقه من اجتهاد وتقليد، ويوضح غلط من ظن أن خلاف الفقهاء في إثبات البسمة وعدمه مبني على خلاف القراء، كما يوضح تسامح صاحب الكشف في عدة مذاهب القراء في نسق مذاهب الفقهاء. وإنما اختلف المجتهدون لأجل الأدلة التي تقدم بيانها، وأما الموافقة بينهم وبين قراء أمصارهم غالباً في هاته المسألة فسيبه شيوع القول بين أهل ذلك العصر بما قال به فقهاؤه في المسائل، أو شيوع الأدلة التي تلقاها المجتهدون من مشايخهم بين أهل ذلك العصر ولو من قبل ظهور المجتهد مثل سبّح نافع بن أبي نعيم إلى عدم ذكر البسمة قبل أن يقول مالك بعدم جزئيتها؛ لأن مالكا تلقى أدلة نفي الجزئية عن علماء المدينة وعنهم أو عن شيوخهم تلقى نافع بن أبي نعيم. وإذا قد كنا قد تقلدنا مذهب مالك واطمأننا لمداركه في انتفاء كون البسمة آية من أول سورة البقرة كان حقاً علينا أن لا نتعرض لتفسيرها هنا وأن نرجئه إلى الكلام على قوله تعالى في سورة النمل «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» غير أننا لما وجدنا من سلفنا من المفسرين كلهم لم يهتموا الكلام على البسمة في هذا الموضع اقتفينا أثرهم إذ صار ذلك مصطلح المفسرين.

ولعلم أن متعلق المجرور في بسم الله محذوف تقديره هنا أقرأ، وسبب حذف متعلق المجرور أن البسمة سنت عند ابتداء الأعمال الصالحة فحذف متعلق المجرور فيها حذفاً ملزماً بإيجازاً اعتماداً على القرينة، وقد حكى القرآن قول سحرة فرعون عند شروعه في السحر بقوله «فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون» وذكر صاحب الكشف أن أهل الجاهلية كانوا يقولون في ابتداء أعمالهم «باسم اللات باسم العزى» فالمجرور ظرف لنحو معمول للفعل المحذوف ومتعلق به وليس ظرفاً مستقراً مثل الظروف التي تقع أخباراً، ودليل المتعلق ينبئ عنه العمل الذي شرع فيه فتعين أن يكون فعلاً خاصاً من النوع الدال على معنى العمل المشروع فيه دون المتعلق العام مثل ابتدئ لأن القرينة الدالة على المتعلق هي الفعل المشروع فيه المبدوء بالبسمة، فتعين أن يكون المقدر اللفظ الدال على ذلك الفعل، ولا يجرى^(١) في هذا الخلاف الواقع بين النحاة في كون متعلق الظروف هل يقدر اسماً نحو كائن أو مستقراً أم فعلاً نحو كان أو استقر لأن ذلك الخلاف في الظروف الواقعة أخباراً أو أحوالاً بناء على تعارض

(١) هذا رد على ابن عطية وبعض المفسرين إذ فرضوا خلاف النحاة معتبراً هنا.

مقتضى تقدير الاسم وهو كونه الأصل في الأخبار والحالية، ومقتضى تقدير الفعل وهو كونه الأصل في العمل لأن ما هنا ظرف لغو، والأصل فيه أن يمدى الأفعال ويتعلق بها، ولأن مقصد المبتدئ بالبسمة أن يكون جميع عمله ذلك مقارنا ببركة اسم الله تعالى فلذلك ناسب أن يقدر متعلق الجار لفظا دالا على الفعل المشروع فيه . وهو أنسب لتعميم التيمن لأجزاء الفعل ، فالابتداء من هذه الجهة أقل عموما، فتقدير الفعل العام يخصص وتقدير الفعل الخاص يعمم وهذا يشبه أن يلغزه . وهذا التقدير من المقدرات التي دلت عليها القرائن كقول الداعي للمعسر « بالرفاء والبنين »^(١) وقول المسافر عند حلوله وترحاله « باسم الله والبركات » وقول نساء العرب عند ما يرفقن العروس « باليمن والبركة وعلى الطائر اليمون » ولذلك كان تقدير الفعل ههنا واحدا . وقد أسمع هذا الحذف بفائدة وهي صلحية البسمة ليبتدئ بها كل شاعر في فعل فلا يلجأ إلى مخالفة لفظ القرآن عند اقتباسه ، والحذف هنا من قبيل الإيجاز لأنه حذف ما قد يصرح به في الكلام ، بخلاف متعلقات الظروف المستقرة نحو عندك خير ، فإنهم لا يظهرون المتعلق فلا يقولون خير كائن عندك ولذلك عدوا نحو قوله:

* فإنك كالليل الذي هو مُدركي *

من المساواة دون الإيجاز (يعنى مع ما فيه من حذف المتعلق) . وإذا قد كان المتعلق محذوفا تعين أن يقدر في موضعه متقدما على المتعلق به كما هو أصل الكلام ؛ إذ لا قصد هنا لإفادة البسمة الحصر ، ودعوى صاحب الكشف تقديره مؤخرا تعمق غير مقبول ، لاسيما عند حالة الحذف ، فالأنسب أن يقدر على حسب الأصل.

والباء بـاء الملابس والملابسة، هي المصاحبة ، وهي الإلصاق أيضا فهذه مترادفات في الدلالة على هذا المعنى وهي كما في قوله تعالى « تَبَّتْ بِالذَّهْنِ » وقولهم « بالرفاء والبنين » وهذا المعنى هو أكثر معاني الباء وأشهرها ، قال سيبويه : الإلصاق لا يفارق الباء وإليه ترجع تصارييف معانيها ولذلك قال صاحب الكشف (وهذا الوجه أى الملابس أعرب وأحسن) أى أحسن من جمل الباء للآلة أى أدخل في العربية وأحسن لما فيه من زيادة التبرك بملابسة جميع أجزاء الفعل لاسمه تعالى .

والاسم لفظ جُمِل دالا على ذات حسية أو معنوية يشخصها أو نوعها . وجمله أئمة البصرة مشتقا من السمو وهو الرفعة لأنها تتحقق في إطلاقات الاسم ولو بتأويل فإن أصل

(١) انظر حديث بناء النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة عائشة رضى الله عنها .

الاسم في كلام العرب هو العلم ولا توضع الأعلام إلا لشيء مهم به ، وهذا اعتداد بالأصل والغالب ، وإلا فقد توضع الأعلام لغير ما يهتم به كما قالوا فَجَارٍ علم للفَجْرَةِ . فأصل صيغته عند البصريين من الناقص الواوى فهو إما سَمُو بوزن حِمْل ، أو سُمُو بوزن قفل فحذفت اللام تحذفا لمجرد التخفيف أو لسكثرة الاستعمال ولذلك جرى الإعراب على الحرف الباقي ، لأنه لو حذفت لامه لعله صرفية لكان الإعراب مقدر على الحرف المحذوف كما في نحو قاضٍ وجَوَّارٍ ، فلما جرى الإعراب على الحرف الباقي الذي كان ساكنا تقلوا سكونه للمتحرك وهو أول الكلمة وجلبوا همزة الوصل للنطق بالساكن ؛ إذ العرب لا تستحسن الابتداء بحرف ساكن لا ابتناء لفتحهم على التخفيف ، وقد قضوا باجتلاب همزة وطراً ثانياً من التخفيف وهو عود الكلمة إلى الثلاثي لأن الأسماء التي تبقى بالحذف على حرفين كيدٍ ودمٍ لا تخلو من ثقل ، وفي هذا دليل على أن الهمزة لم تحتلب لتعويض الحرف المحذوف وإلا لاجتلبوها في يدٍ ودمٍ وغدٍ .

وقد احتجوا على أن أصله كذلك بجمعه على أسماء بوزن أفعال ، فظهرت في آخره همزة وهي منقلبة عن الواو المتطرفة إثر ألف الجمع ، وبأنه جمع على أساى وهو جمع الجمع بوزن أفاعيل بإدغام ياء الجمع في لام الكلمة ويجوز تخفيفها كما في أثافي وأمانى ، وبأنه صُغِرَ على سُمى . وأن الفعل منه سُميت ، وهي حجاج بينة على أن أصله من الناقص الواوى . وبأنه يقال سُمى كهدى ؛ لأنهم صاغوه على فَعَل كَرُطَب فتقلب الواو المتحركة ألفا إثر الفتح وأنشدوا على ذلك قول أبي خالده القناني الراجز (١) :

وَاللَّهُ أَسْمَاكَ سُمِيَ مُبَارَكَا أَثَرَكَ اللَّهُ بِهِ إِشَارَكَا

وقال ابن يمش : لا حجة فيه لاحتمال كونه لغة من قال سُم والنصب فيه نصب إعراب لا نصب الإعلال ، ورد عبد الحكيم بأن كتابته بالإمالة تدل على خلاف ذلك . وعندي فيه أن الكتابة لا تتعلق بها الرواية فلعل الذين كتبوه بالياء هم الذين ظنوه مقصورا ، على أن

(١) القناني - بفتح القاف والتون مخففا - نسبة إلى قناني بن سلمة من مذحج قاله شارح الفاموس وشارح الشواهد الكبرى ، ولم يذكر ابن الأثير ولا غيره القناني هذا في بطون مذحج فلهذا قد دخل بنوه في قبيلة أخرى ، ولم يوجد سلمة هذا وإنما الموجود مسلمة - بالياء - بوزن مسلمة ، وهم بطون من مذحج دخلوا في بني الحارث ابن كعب .

قياسها الكتابة بالألف مطلقاً لأنه واوى إلا إذا أريد عدم التباس الألف بألف النصب . ورأى البصريين أرجح من ناحية تصاريف هذا اللفظ . وذهب الكوفيون إلى أن أصله وسم بكسر الواو لأنه من السمة وهي العلامة ، فحذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليبقى على ثلاثة أحرف ثم يتوسل بذلك إلى تخفيفه في الوصل ، وكأنهم رأوا أن لا وجه لاشتقاقه من السمو لأنه قد يستعمل لأشياء غير سامية وقد علمت وجه الجواب ، ورأى الكوفيون أرجح من جانب الاشتقاق دون التصريف ، على أن همزة الوصل لم يعمد دخولها على ما حذف صدره وردوا استدلال البصريين بتصاريفه بأنها يحتمل أن تكون تلك التصاريف من القلب المكاني بأن يكون أصل اسم وسم ، ثم نقلت الواو التي هي فاء الكلمة فجعلت لاماً ليتوسل بذلك إلى حذفها ورد في تصرفاته في الموضع الذي حذف منه لأنه تنوسى أصله ، وأجيب عن ذلك بأن هذا بعيد لأنه خلاف الأصل وبأن القلب لا يلزم الكلمة في سائر تصاريفها وإلا لما عرف أصل تلك الكلمة . وقد اتفق علماء اللغة على أن التصاريف هي التي يعرف بها الزائد من الأصلي والنقلب من غيره . وزعم ابن حزم في كتاب الملل والنحل أن كلا قولي البصريين والكوفيين فاسد افتعله النحاة ولم يصح عن العرب وأن لفظ الاسم غير مشتق بل هو جامد وتطاول ببذائه عليهم وهي جرأة عجبية ، وقد قال تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

وإنما اقمح لفظ اسم مضافاً إلى علم الجلالة إذ قيل بسم الله ولم يقل بالله لأن المقصود أن يكون الفعل المشروع فيه من شؤون أهل التوحيد الموسومة باسم الإله الواحد فلذلك تقحم كلمة اسم في كل ما كان على هذا المقصد كالتسمية على النسك قال تعالى « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » وقال « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » وكالأفعال التي يقصد بها التيمن والتبرك وحصول المعونة مثل « اقرأ باسم ربك » فاسم الله هو الذي تمكن مقارنته للأفعال لآذاته ، ففي مثل هذا لا يحسن أن يقال بالله لأنه حينئذ يكون المعنى أنه يستمد من الله تيسيراً وتصرفاً من تصرفات قدرته وليس ذلك هو المقصود بالشروع ، فقوله تعالى فسبح باسم ربك العظيم أمرٌ بأن يقول سبحان الله ، وقوله وسبحه - أمرٌ بتزيه ذاته وصفاته عن النقائص ، فاستعمال لفظ الاسم في هذا بمنزلة استعمال سمات الإبل عند القبائل ، وبمنزلة استعمال

القبائل شعار تعارفهم^(١) ، واستعمال الجيوش شعارهم المصطلح عليه . والخلاصة^(٢) أن كل مقام يقصد فيه التيمن والاتساق إلى الرب الواحد الواجب الوجود يمدى فيه الفعل إلى لفظ اسم الله كقوله « وقال اركبوا فيها بنسب الله مجراها ومرساها » وفي الحديث في دعاء الاضطجاع « باسمك ربى وضعت جنبي وباسمك أرفعه » وكذلك المقام الذى يقصد فيه ذكر اسم الله تعالى كقوله تعالى « فسبح باسم ربك العظيم » أى قل سبحان الله « سبح اسم ربك الأعلى » وكل مقام يقصد فيه طلب التيسير والعون من الله تعالى يمدى الفعل المسؤول إلى علم الذات باعتبار ماله من صفات الخلق والتكوين كما في قوله تعالى « فاسجد له » وقوله في الحديث « اللهم بك نصبح وبك نعيش » أى بقدرتك ومشيتك وكذلك المقام الذى يقصد فيه توجه الفعل إلى الله تعالى كقوله تعالى « فاسجد له » « وسبحه » أى تزه ذاته وحقيقته عن النقائص .

فمعنى بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ قراءة ملابسة لبركة هذا الاسم المبارك . هذا وقد ورد في استعمال العرب توسعات في إطلاق لفظ الاسم مرة يعنون به ما يرادف المسمى كقول النابغة :

نبئت زُرعةً والسفاهةُ كاسمها يُهْدَى إلى غرائبِ الأشعار

يعنى أن السفاهة هى هى لا تُعرَف للناس بأكثر من اسمها وهو قريب من استعمال اسم الإشارة في قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » . أى مثل ذلك الجعل الواضح الشهير ويطلقون الاسم مقحجا زائدا كما في قول لبيد : * إلى الحولِ ثم اسم السلام عليكما *
يعنى ثم السلام عليكما وليس هذا خاصا بلفظ الاسم بل يجىء فيما يرادفه مثل الكلمة في قوله تعالى « وألزمهم كلمة التقوى » وكذلك « لفظ » في قول بشار هاجيا :

وكذاك ، كان أبوك يؤثر بالهنى - ويظل في لَفْظِ الندى يتردد

وقد يطلق الاسم وما في معناه كنايةً عن وجود المسمى ، ومنه قوله تعالى « وجعلوا لله شركاء قل سمّوهم » والأمر للتمجيز أى أثبتوا وجودهم ووضع أسماء لهم . فهذه اطلاقات أخرى ليس ذكر اسم الله في البسملة من قبيلها ، وإنما نهينا عليها لأن بعض المفسرين خلط بها في

(١) قال النابغة :

مُسْتَشْعِرِينَ قَدْ أَلْفَوْا فِي دِيَارِهِمْ دُعَاءَ سُوعٍ وَدُعَى وَأَيُوبَ

(٢) نوق الخبر « كان شعار المسلمين يوم بدر أحد أحد » .

تفسير البسملة ، ذكرتها هنا توضيحاً ليكون نظركم فيها فيسيحاً فشدوا بها يدا . ولا تتبعوا طرائق قديداً وقد تكلموا على ملحظ تطويل الباء في رسم البسملة بكلام كله غير مقنع ، والذي يظهر لي أن الصحابة لما كتبوا المصحف طولوها في سورة النمل للإشارة إلى أنها مبدأ كتاب سليمان فهي من المحكي ، فلما جعلوها علامة على فواتح السور نقلوها برسمها ، وتطويل الباء فيها صالح لا تحاذه قدوة في ابتداء الغرض الجديد من الكلام بحرف غليظ أو ملون .

والكلام على اسم الجلالة ووصفه يأتي في تفسير قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » .

ومناسبة الجمع في البسملة بين علم الجلالة وبين صفتي الرحمن الرحيم ، قال البيضاوي إن المسمى إذا قصد الاستعانة بالعبود الحق الموصوف بأنه مولى النعم كلها جليلها ودقيقها يذكر علم الذات إشارة إلى استحقاقه أن يستعان به بالذات ، ثم يذكر وصف الرحمان إشارة إلى أن الاستعانة على الأعمال الصالحة وهي نعم ، وذكر الرحيم للوجوه التي سندكرها في عطف صفة الرحيم على صفة الرحمان .

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده : إن النصارى كانوا يبتدئون أدعيتهم ونحوها باسم الأب والابن والروح القدس إشارة إلى الأقانيم الثلاثة عندهم ، فجاءت فاتحة كتاب الإسلام بالرد عليهم موقظة لهم بأن الإله الواحد وإن تعددت أسمائه فإنما هو تعدد الأوصاف دون تعدد السميات ، يعني فهو رد عليهم بتغليط وتبليد . وإذا صح أن فواتح النصارى وأدعيتهم كانت تشتمل على ذلك - إذ الناقل أمين - فهي نكتة لطيفة .

وعندى أن البسملة كان ما يرادفها قد جرى على السنة الأنبياء من عهد إبراهيم عليه السلام فهي من كلام الحنيفية ، فقد حكى الله عن إبراهيم أنه قال لأبيه « يا أبتِ إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » ، وقال « سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيظاً » ومعنى الحفي قريب من معنى الرحيم . وحكى عنه قوله « وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » . وورد ذكر مرادفها في كتاب سليمان إلى ملكة سبأ « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلموا على أتوني مسلمين » . والمظنون أن سليمان اقتدى في افتتاح كتابه بالبسملة بسنة موروثه من عهد إبراهيم جعلها إبراهيم كلمة باقية في وارئ نبوته ، وأن الله أحيا هذه السنة في الإسلام في جملة ما أحى له من الحنيفية كما قال تعالى « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

الشأن في الخطاب بأمرهم لم يسبق للمخاطب به خطاب من نوعه أن يُستأنس له قبل إلقاء المقصود وأن يهيئاً لتلقيه، وأن يشوق إلى سماع ذلك وتراض نفسه على الاهتمام بالعمل به ليستعد للتلقى بالتخلي عن كل ما شأنه أن يكون عائقاً عن الانتفاع بالهدى من عناد ومكابرة أو امتلاء العقل بالأوهام الضالة، فإن النفس لا تكاد تنفع بالعظات والنذر، ولا تشرق فيها الحكمة وصحة النظر ما بقي يخالجه العناد والبهتان، وتخامر رشدها نزغات الشيطان، فلما أراد الله أن تكون هذه السورة أولى سور الكتاب المجيد بتوقيف النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم آتينا به الله تعالى قراء كتابه وفتح مصحفه إلى أصول هذه التزكية النفسية بما لقنهم أن يبتدئوا بالمناجاة التي تضمنتها سورة الفاتحة من قوله «إياك نعبد» إلى آخر السورة. فإنها تضمنت أصولاً عظيمة: أولها التخلي عن تعطيل والشرك بما تضمنته «إياك نعبد». الثاني التخلي عن خواطر الاستغناء عنه بالتبرؤ من الحول والقوة تجاه عظمته بما تضمنته «وإياك نستعين». الثالث الرغبة في التحلي بالرشد والاهتداء بما تضمنته «اهدنا الصراط المستقيم». الرابع الرغبة في التحلي بالأسوة الحسنة بما تضمنته «صراط الذين أنعمت عليهم». الخامس التهمم بالسلامة من الضلال الصريح بما تضمنته «غير المغضوب عليهم». السادس التهمم بسلامة تفكيرهم من الاختلاط بشبهات الباطل الموه بصورة الحق وهو المسمى بالضلال لأن الضلال خطأ الطريق المقصود بما تضمنته «ولا الضالين».

وأنت إذا اقتدت أصول نجاح الرشيد في إرشاده والمسترشد في تلقيه على كثرتها وتفايرها وجدتها عاكفة حول هذه الأركان الستة فكن في استقصائها لبيبا. وعسى أن أزيدك من تفصيلها قريباً.

وإن الذي لقن أهل القرآن ما فيه جماع طرائق الرشد بوجه لا يحيط به غير علام الغيوب لم يهمل إرشادهم إلى التحلي بزيينة الفضائل وهو، أن يقدروا النعمة حق قدرها بشكر المنعم بها فأراهم كيف يُتوجون مناجاتهم بحمد واهب العقل ومناخ التوفيق. ولذلك كان افتتاح كل كلام مهم بالتحميد سنة الكتاب المجيد. فسورة الفاتحة بما تقرّر من الآيات من القرآن منزلة

الديباجة للكتاب أو المقدمة للخطبة ، وهذا الأسلوب له شأن عظيم في صناعة الأدب العربي وهو أعون للفهم وأدعى للوعي .

وقد رسم أسلوب الفاتحة للمنشئين ثلاث قواعد للمقدمة : القاعدة الأولى إيجاز المقدمة لثلاث نغمات نفوس السامعين بطول انتظار المقصود وهو ظاهر في الفاتحة ، وليكون سنة للخطباء فلا يطيلوا المقدمة كي لا ينسبوا إلى المي فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض ، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة . الثانية أن تشير إلى الغرض المقصود وهو ما يسمى براءة الاستهلال لأن ذلك يهيئ السامعين لسماع تفصيل ما سيرد عليهم فيتأهبوا لتلقيه إن كانوا من أهل التلقى فحسب ، أو لنقده وإكماله إن كانوا في تلك الدرجة ، ولأن ذلك يدل على تمكن الخطيب من الغرض وثقته بسداد رأيه فيه بحيث ينبه السامعين لوعيه ، وفيه سنة للخطباء ليحيطوا بأغراض كلامهم . وقد تقدم بيان اشتمال الفاتحة على هذا عند الكلام على وجه تسميتها أم القرآن . الثالثة أن تكون المقدمة من جوامع الكلم وقد بين ذلك علماء البيان عند ذكرهم المواضع التي ينبغي للمتكلم أن يتأق فيها . الرابع أن تفتتح بحمد الله .

إن القرآن أنزل هدى للناس وتبيناً للأحكام التي بها إصلاح الناس في عاجلهم وآجلهم ومعاشهم ومعادهم ولما لم يكن لنفوس الأمة اعتياد بذلك لزم أن يُهيئَ المخاطبون بها إلى تلقيها ويعرف تهيؤهم بإظهارهم استعداد النفوس بالتخلي عن كل ما من شأنه أن يعوق عن الانتفاع بهاته التعاليم النافعة وذلك بأن يجردوا نفوسهم عن العناد والمكابرة . وعن خلط معارفهم بالأغلاط الفارقة . فلا مناص لها قبل استقبال تلك الحكمة والنظر من الاتسام بميسم الفضيلة . والتخلية عن السفاسف الرذيلة .

فالفاتحة تضمنت مناجاة للخالق جامعة التنزه عن التعطيل والإلحاد والذهرية بما تضمنه قوله « ملك يوم الدين » ، وعن الإشراف بما تضمنه « إياك نعبد وإياك نستعين » ، وعن المكابرة والعناد بما تضمنه « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » فإن طلب الهداية اعتراف بالاحتياج إلى العلم ، ووصف الصراط بالمستقيم اعتراف بأن من العلم ما هو حق ومنه ما هو مشوب بشبه وغلط ، ومن اعترف بهذين الأمرين فقد أعد نفسه لاتباع أحسنهما ، وعن الضلالات التي تعترى العلوم الصحيحة والشرائع الحققة فتذهب بفائدتها

وتنزل صاحبها إلى دركةٍ أقل مما وقف عنده الجاهل البسيط، وذلك بما تضمنه قوله « غير المفضوب عليهم ولا الضالين » . كما أجملناه قريبا . ولأجل هذا سميت هاته السورة أم القرآن كما تقدم .

ولما لقّن المؤمنون هاته المناجاة البديعة التي لا يهتدى إلى الإحاطة بها في كلامه غير علام الغيوب سبحانه قدم الحمد عليها ليضعه المناجون كذلك في مناجاتهم جريا على طريقة بلغاء العرب عند مخاطبة العظماء أن يفتتحوا خطابهم بإيham وطلبهم بالثناء والذكر الجميل . قال أمية ابن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جُدعان :

أَذْكُرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أننى عليك المرء يوما كفاه عن تعرّضه الثناء

فكان افتتاح الكلام بالتحميد . سنة الكتاب المجيد ، لكل بليغ مجيد ، فلم يزل المسلمون من يومئذ يلقّبون كل كلام نفيس لم يشتمل في طالعهِ على الحمد بالأبتر أخذًا من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « كلُّ أمرٍ ذى بال لا يُبدَأُ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع »^(١) . وقد لُقبت خطبة زياد ابن أبي سفيان التي خطبها بالبصرة بالبراء لأنه لم يفتتحها بالحمد . وكانت سورة الفاتحة لذلك منزلة من القرآن منزلة الديباجة للكتاب أو المقدمة للخطبة . ولذلك شأن مهم في صناعة الإنشاء فإن تقديم المقدمة بين يدي المقصود أعون للأفهام وأدعى لوعينا .

والحمد هو الثناء على الجميل أى الوصف الجميل الاختيارى فعلا كان كالكرم وإغاثة الملهوف أم غيره كالشجاعة . وقد جعلوا الثناء جنسا للحمد فهو أعم منه ولا يكون ضده . فالثناء الذكر بخير مطلقا وشذ من قال يستعمل الثناء في الذكر مطلقا ولوبشر^(٢) ، ونسبا إلى ابن القطاع^(٣) وغيره في ذلك ما ورد في الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم « من أنتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن أنتم عليه شرا وجبت له النار » وإنما هو مجاز دعت إليه المشاكاة اللفظية والتعريض بأن من كان متكلما في مسلم فليتكلم بثناء أو ليدع ، فسمي ذكركم بالشر ثناء

(١) رواه البيهقي في سننه باللفظ الأول، ورواه أبو داود في سننه باللفظ الثاني وهو حديث حسن .

(٢) هو على بن حفص السعدي بن سعد بن مالك من بني تميم الصقلي، ولد بصقلية سنة ثلاث وثلاثين

وأربعمئة، ورحل إلى القاهرة وتوفي بها سنة خمس عشرة وقيل أربع عشرة وخمسمئة .

تنبيهاً على ذلك . وأما الذى يستعمل فى الخير والشر فهو الثناء بتقديم النون وهو فى الشر أكثر كما قيل . وأما المدح فقد اختلف فيه فذهب الجمهور إلى أن المدح أعم من الحمد فإنه يكون على الوصف الاختيارى وغيره . وقال صاحب الكشف الحمد والمدح أخوان فقيل أراد أخوان فى الاشتقاق الكبير نحو جَبَدَ وجَذَبَ ، وإن ذلك اصطلاح له فى الكشف فى معنى أخوة اللفظين لئلا يلزم من ظاهر كلامه أن المدح يطلق على الثناء على الجميل الاختيارى ، لكن هذا فهم غير مستقيم والذى عليه المحققون من شراح الكشف أنه أراد من الأخوة هنا الترادف لأنه ظاهر كلامه ؛ ولأنه صريح قوله فى الفائق « الحمد هو المدح والوصف بالجميل » ولأنه ذكر الذم تقيضاً للحمد إذ قال فى الكشف « والحمد تقيضه الذم مع شيوع كون الذم تقيضاً للمدح ، وعُرف علماء اللغة أن يريدوا من النقيض المقابل لا ما يساوى النقيض حتى يجب بأنه أراد من النقيض ما لا يجمع المعنى والذم لا يجمع الحمد وإن لم يكن معناه رفع معنى الحمد بل رفع معنى المدح إلا أن نقيض الأعم وهو المدح يستلزم نقيض الأخص وهو الحمد لأن هذا لا يقصده علماء اللغة ، يعنى وإن اغتفر مثله فى استعمال العرب كقول زهير:

ومن يجعل المَعْرُوفَ فى غير أهله يَكُنْ حمده ذمًّا عليه ويندم

لأن كلام العلماء مبنى على الضبط والتدقيق .

ثم اختلف فى مراد صاحب الكشف من ترادفهما هل هما مترادفان فى تقييدهما بالثناء على الجميل الاختيارى ، أو مترادفان فى عدم التقييد بالاختيارى ، وعلى الأول حملة السيد الشريف وهو ظاهر كلام سعد الدين . واستدل السيد بأنه صرح بذلك فى قوله تعالى « ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ » إذ قال « فَإِنْ قُلْتَ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَمْدَحُ بِالْجَمَالِ وَحَسَنَ الْوَجْوهِ وَهُوَ مَدْحٌ مَقْبُولٌ عِنْدَ النَّاسِ ، قُلْتَ الَّذِى سَوَّغَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ رَأَوْا حَسَنَ الرِّوَاءِ وَوَسَامَةَ النَّظَرِ فِي الْغَالِبِ يَسْفِرُ عَنْ خَبَرٍ مَرُوضٍ وَأَخْلَاقٍ مَحْمُودَةٍ ، عَلَى أَنَّ مِنْ مُحَقِّقَةِ الثَّقَاتِ وَعِلْمَاءِ الْمَعَانِى مَنْ دَفَعَ صِحَّةَ ذَلِكَ وَخَطَأَ الْمَادِحَ بِهِ وَقَصَرَ الْمَدْحَ عَلَى النَّعْتِ بِأَمْهَاتِ الْخَيْرِ وَهِيَ كَالْفَصَاحَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْعَدْلِ وَالْعِفَّةِ وَمَا يَتَشَبَّعُ عَنْهَا » اهـ . وعلى الحمل الثانى وهو أن يكون قصد من الترادف إلغاء قيد الاختيارى فى كليهما حملة المحقق عبد الحكيم السلوكوتى فى حواشى التفسير فرضاً أو نقلاً لا ترجيحاً بناءً على أنه ظاهر كلامه فى الكشف والفائق إذ أننى قيد الاختيارى فى تفسير المدح بالثناء على الجميل وجعلتهما مع ذلك مترادفين .

وبهذا يندفع الإشكال عن حمدنا الله تعالى على صفاته الذاتية كالعالم والقدرة دون صفات الأفعال وإن كان اندفاعه على اختيار الجمهور أيضا ظاهرا ؛ فإن ما ورد عليهم من أن مذهبهم يستلزم أن لا يحمد الله تعالى على صفاته لأنها ذاتية فلا توصف بالاختيار إذ الاختيار يستلزم إمكان الاتصاف، وقد أجابوا عنه إما بأن تلك الصفات العلية نزلت منزلة الاختيارية لاستقلال موصوفها ، وإما بأن ترتب الآثار الاختيارية عليها يجعلها كالاختيارية ، وإما بأن المزداد بالاختيارية أن يكون المحمود فاعلا بالاختيار وإن لم يكن المحمود عليه اختياريا . وعندى أن الجواب أن نقول إن شرط الاختيارى فى حقيقة الحمد عند مثبتته لإخراج الصفات غير الاختيارية لأن غير الاختيارى فىنا ليس من صفات الكمال إذ لا ترتب عليها الآثار الموجبة للحمد، فكان شرط الاختيار فى حمدنا زيادة فى تحقق كمال المحمود، أما عدم الاختيار المختص بالصفات الذاتية الإلهية فإنه ليس عبارة عن نقص فى صفاته ولكنه كمال نشأ من وجوب الصفة للذات لقدم الصفة فعدم الاختيار فى صفات الله تعالى زيادة فى الكمال لأن أمثال تلك الصفات فىنا لا تكون واجبة للذات ملازمة لها فكان عدم الاختيار فى صفات الله تعالى دليلا على زيادة الكمال وفىنا دليلا على النقص، وما كان نقصا فىنا باعتبار ما قد يكون كمالا لله تعالى باعتبار آخر مثل عدم الولد، فلا حاجة إلى الأجوبة المبنية على التنزيل إما باعتبار الصفة أو باعتبار الموصوف، على أن توجيه الثناء إلى الله تعالى بمادة (حمد) هو أقصى ما تسمى به اللغة الموضوع لأداء المعانى المتعارفة لدى أهل تلك اللغة ، فلما طرأت عليهم المدارك المتعلقة بالحقائق العالية عبر لهم عنها بأقصى ما يقربها من كلامهم .

الحمد مرفوع بالابتداء فى جميع القراءات الروية وقوله « الله » خبره فلام « الله » متعلق بالكون والاستقرار العام كسائر المجرورات المخبر بها وهو هنا من المصادر التى أتت بدلا عن أفعالها فى معنى الإخبار ، فاصله النصب على المفعولية المطلقة على أنه بدل من فعله وتقدير الكلام نحمد حمدا لله ، فلذلك التزموا حذف أفعالها معها . قال سيبويه هذا باب ما ينصب من المصادر على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره وذلك قولك سقيا ورعيا وخيبة وبؤسا ، والحذر بدلا عن أحذر فلا يحتاج إلى متعلق وأما قولهم سقيا لك نحو * سَقِيًّا وَرَعِيًّا لَذاكَ الْعَاتِبِ الرَّأْيِ *

فإنما هو ليبينوا المعنى بالدعاء . ثم قال بعد أبواب : هذا باب ما ينصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره من المصادر فى غير الدعاء ، من ذلك قولك حمدا

وَشُكْرًا ، لا كُفْرًا وَعَجَبًا ، فإنما ينتصب هذا على إضمار الفعل كأنك قلت أحمد الله حمداً وإنما اختزل الفعل ههنا لأنهم جعلوا هذا بدلا من اللفظ بالفعل كما فعلوا ذلك في باب الدعاء وقد جاء بعض هذا رفعا يُبتدأ به ثم يبنى عليه (أى يخبر عنه) - ثم قال بعد باب آخر - هذا باب يختار فيه أن تكون المصادر مبتدأة مبنيا عليها ما بعدها، وذلك قولك الحمد لله ، والمجِبُّ لك ، والويل له ، وإنما استحبوا الرفع فيه لأنه صار معرفة وهو خبر (أى غير إنشاء) فقوى في الابتداء (أى أنه لما كان خبراً لادعاء وكان معرفة بألّ تهيات فيه أسباب الابتداء لأن كونه في معنى الإخبار يهتِي جانب المعنى للخبرية وكونه معرفة يصحح أن يكون مبتدأ) بمنزلة عبد الله، والرجل ، والذي تَعْلَم (من المعارف) لأن الابتداء إنما هو خبر وأحسنه إذا اجتمع معرفة ونكرة أن تبدأ بالأعرف وهو أصل الكلام . وليس كل حرف (أى تركيب) يصنع به ذاك ، كما أنه ليس كل حرف (أى كلمة من هذه المصادر) يدخل فيه الألف واللام، فلو قلت السقى لك والرعى لك لم يجوز (معنى يقتصر فيه على السماع) . وأعلم أن الحمد لله وإن ابتدأته فيه معنى المنسوب وهو بدل من اللفظ بقولك أحمد الله . وسمعا ناسا من العرب كثيرا يقولون: التراب لك والمجِبُّ لك، فتفسير نصب هذا كتفسيره حيث كان نكرة ، كأنك قلت حمداً وعجبا ، ثم جئت بِلك لتبين منى تمنى ولم تجعله مبنيا عليه فتبتدئه .

انتهى كلام سيبويه باختصار . وإنما جلبناه هنا لأنه أفصح كلام عن أطوار هذا المصدر في كلام العرب واستعمالهم ، وهو الذى أشار له صاحب الكشف بقوله « وأصله النصب بإضمار فعله على أنه من المصادر التى ينصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار كقولهم شكرا ، وكفرا ، وعجبا ، ينزلونها منزلة أفعالها ويسدون بها مسدها، ولذلك لا يستعملونها معها والعدول بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى » الخ . ومن شأن بلغاء العرب أنهم لا يعدلون عن الأصل إلا وهم يرمون إلى غرض عدلوا لأجله، والعدول عن النصب هنا إلى الرفع ليتأتى لهم : الدلالة على الدوام والثبات بمصير الجملة اسمية ؛ والدلالة على العموم المستفاد في المقام من أل الجنسية ، والدلالة على الاهتمام المستفاد من التقديم . وليس واحد من هذه الثلاثة يمكن الاستفادة لو بقى المصدر منصوبا إذ النصب يدل على الفعل المقدر والمقدر كالملفوظ فلا تكون الجملة اسمية إذ الاسم فيها نائب

عن الفعل فهو ينادى على تقدير الفعل فلا يحصل الدوام . ولأنه لا يصح معه اعتبار التقديم فلا يحصل الاهتمام . ولأنه وإن صح اجتماع الألف واللام مع النصب كما قرئ بذلك وهي لغة تميم كما قال سيبويه فالتعريف حينئذ لا يكون دالا على عموم المحامد لأنه إن قدر الفعل أحمداً بهمة المتكلم فلا يعم إلا تجميدات المتكلم دون تجميدات جميع الناس، وإن قدر الفعل نحمداً وأريد بالنون جميع المؤمنين بقرينة « اهدنا الصراط المستقيم » وبقريئة « إياك نعبد » فإنما يعم محامد المؤمنين أو محامد الموحدين كلهم ، كيف وقد حمد أهل الكتاب الله تعالى وحده العرب في الجاهلية . قال أمية بن أبي الصلت :

الحمد لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع

أما إذا صار الحمد غير جارٍ على فعل فإنه يصير الإخبار عن جنس الحمد بأنه ثابت لله فيعم كل حمد كما سيأتي . فهذا معنى ما نقل عن سيبويه أنه قال : إن الذي يرفع الحمد يُخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق والذي ينصب يُخبر أن الحمد منه وحده الله تعالى . واعلم أن قراءة النصب وإن كانت شاذة إلا أنها مجدية هنا لأنها دلت على اعتبار عربي في تطور هذا التركيب المشهور ، وأن بعض العرب نطقوا به في حال التعريف ولم ينسوا أصل المفعولية المطلقة . فقد بان أن قوله الحمد لله أبلغ من الحمد لله بالنصب ، وأن الحمد لله بالنصب والتعريف أبلغ من حمداً لله بالتنكير . وإنما كان الحمد لله بالرفع أبلغ لأنه دال على الدوام والثبات . قال في الكشف « إن العدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ومنه قوله تعالى « قالوا سلاماً قال سلام » رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم عليه السلام حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم » اهـ .

فإن قلت وقع الاهتمام بالحمد مع أن ذكر اسم الله تعالى أهم فكان الشأن تقديم اسم الله تعالى وإبقاء الحمد غير مهتم به حتى لا يلجأ إلى تغييره عن النصب إلى الرفع لأجل هذا الاهتمام ، قلت قدم الحمد لأن المقام هنا مقام الحمد إذ هو ابتداء أولى النعم بالحمد وهي نعمة تنزيل القرآن الذي فيه نجاح الدارين ، فتلك المنة من أكبر ما يحمد الله عليه من جلائل صفات الكمال لاسيما وقد اشتمل القرآن على كمال المعنى واللفظ والغاية فكان خطوره عند ابتداء سماع إزاله وابتداء تلاوته مذكراً بما منزهة تعالى من الصفات الجميلة ، وذلك يذكر بوجوب حمده وأن لا يُفعل عنه فكان المقام مقام الحمد لا محالة ، فلذلك قدم وأزيل عنه ما يؤذن بتأخره لمنافاته

الاهتمام ، ثم إن ذلك الاهتمام تأتى به اعتبار الاهتمام بتقديره أيضا على ذكر الله تعالى اعتدادا بأهمية الحمد العارضة في المقام وإن كان ذكر الله أهم في نفسه لأن الأهمية العارضة تقدم على الأهمية الأصلية لأنها أمر يقتضيه المقام والحال والآخر يقتضيه الواقع ، والبلاغة هي المطابقة لمقتضى الحال والمقام ، ولأن ما كان الاهتمام به لعارض هو المحتاج للتنبيه على عارضه إذ قد يخفى ، بخلاف الأمر المعروف المقرر فلا فائدة في التنبيه عليه بل ولا يفيتته التنبيه على غيره .

فإن قلت كيف يصح كون تقديم الحمد وهو مبتدأ مؤذنا بالاهتمام مع أنه الأصل ، وشأن التقديم المفيد للاهتمام هو تقديم ما حقه التأخير .

قلت لو سلم ذلك فإن معنى تقديره هو قصد المتكلم للإتيان به مقدما مع إمكان الإتيان به مؤخرا ؛ لأن للبلغاء صيغتين متعارفتين في حمد الله تعالى إحداها الحمد لله كما في الفاتحة والأخرى لله الحمد كما في سورة الجاثية .

وأما قصد العموم فسيوضح عند بيان معنى التعريف فيه .

والتعريف فيه بالألف واللام تعريف الجنس لأن المصدر هنا في الأصل عوض عن الفعل فلا جرم أن يكون الدال على الفعل والساد مسنده دالا على الجنس فإذا دخل عليه اللام فهو لتعريف مدلوله لأن اللام تدل على التعريف للمسمى فإذا كان المسمى جنسا فاللام تدل على تعريفه . ومعنى تعريف الجنس أن هذا الجنس هو معروف عند السامع فإذا قلت الحمد لله أو العجب لك فكأنك تريد أن هذا الجنس معروف لديك ولدى مخاطبك لا يلتبس بغيره كما أنك إذا قلت الرجل وأردت معينا في تعريف العهد التحوى فإنك تريد أن هذا الواحد من الناس معروف بينك وبين مخاطبك فهو في المعنى كالنكرة من حيث إن تعريف الجنس ليس معه كبير معنى إذ تعين الجنس من بين بقية الأجناس حاصل بذكر لفظه الدال عليه لئلا وهو كاف في عدم الدلالة على غيره ؛ إذ ليس غيره من الاجناس بمشارك له في اللفظ ولا متوهم دخوله معه في ذهن المخاطب بخلاف تعريف العهد الخارجى فإنه يدل على واحد معين بينك وبين مخاطبك من بين بقية أفراد الجنس التى يشملها اللفظ ، فلا يفيد هذا التعريف أعنى تعريف الجنس إلا توكيد اللفظ وتقريره وإيضاحه للسامع ؛ لأنك

للمجملته معهودا فقد دلت على أنه واضح ظاهر، وهذا يقتضى الاعتناء بالجنس وتقريبه من المعروف المشهور، وهذا معنى قول صاحب الكشف « وهو نحو التعريف في أرسلها المراك^(١) ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أن الحمد ما هو والمراك ما هو من بين أجناس الأفعال » وهو مأخوذ من كلام سيبويه .

وليست لام التعريف هنا للاستغراق لما علمت أنها لام الجنس ولذلك قال صاحب الكشف « والاستغراق الذى توهمه كثير من الناس وهم منهم » غير أن معنى الاستغراق حاصل هنا بالمثل لأن الحكم باختصاص جنس الحمد به تعالى لوجود لام تعريف الجنس فى قوله « الحمد » ولام الاختصاص فى قوله « لله » يستلزم انحصار أفراد الحمد فى التعلق باسم الله تعالى لأنه إذا اختص الجنسُ اختصت الأفراد؛ إذ لو تحقق فرد من أفراد الحمد لغير الله تعالى لتحقق الجنس فى ضمنه فلا يتم معنى اختصاص الجنس المستفاد من لام الاختصاص الداخلة على اسم الجلالة، ثم هذا الاختصاص ادعائى فهو بمنزلة القصر الادعائى للمبالغة. واللام فى قوله تعالى « لله » يجوز أن يكون للاختصاص على أنه اختصاص ادعائى كما مر، ويجوز أن يكون لام التقوية قوت تعلق العامل بالمفعول لضعف العامل بالفرعية وزاده التعريف باللام ضعفاً لأنه أبعد شبهه بالأفعال، ولا يفوت معنى الاختصاص لأنه قد استفيد من تعريف الجزأين:

هذا وقد اختلف فى أن جملة الحمد هل هى خبر أو إنشاء فإن لذلك مزيد تعلق بالتفسير لرجوعه إلى المعنى بقول القائل الحمد لله .

وجماع القول فى ذلك أن الإنشاء قد يحصل بنقل المركب من الخبرية إلى الإنشاء وذلك كصيغ العقود مثل بعث واشترت، وكذلك أفعال المدح والذم والرجاء كعسى ونعم وبئس وهذا الأخير قسمان منه ما استعمل فى الإنشاء مع بقاء استعماله فى الخبر ومنه ما خص بالإنشاء فالأول كصيغ العقود فإنها تستعمل أخباراً تقول بعث الدار لزيد التى أخبرتك بأنه ساومنى إياها

(١) إشارة إلى بيت لبيد :

فأرسلها المراك ولم يدُها ولم يُشفقْ على نفس الدخالِ

يصف حمار وحش. والضمير المؤنث للآتن، أى أطلقها الحمار أمامه إلى الماء فانطلقت متزاحمة . والنفس: الكمد . والداخل : دخول الدابة بين الدواب لتشرب .

فهذا خبر، وتقول بعث الدار لزيد أو بعثك الدار بكذا فهذا إنشاء بقرينة أنه جاء للشهاد أو بقرينة إسناد الخبر للمخاطب مع أن الخبر عنه حال من أحواله ، والثاني كنتم وعسى . فإذا تقرر هذا فقد اختلف العلماء في أن جملة الحمد لله هل هي إخبار عن ثبوت الحمد لله أو هي إنشاء ثناء عليه إلى مذهبين، فذهب فريق إلى أنها خبر، وهؤلاء فريقان منهم من زعم أنها خبر باق على الخبرية ولا إشعار فيه بالإنشائية ، وأورد عليه أن المتكلم بها لا يكون حامداً لله تعالى مع أن القصد أنه يثنى ويحمد الله تعالى ، وأجيب بأن الخبر بثبوت الحمد له تعالى اعتراف بأنه موصوف بالجميل إذ الحمد هو عين الوصف بالجميل، ويكفي أن يحصل هذا الوصف من الناس وينقله المتكلم . ويمكن أن يجاب أيضا بأن الخبر داخل في عموم خبره عند الجمهور من أهل أصول الفقه . وأجيب أيضا بأن كون المتكلم حامدا قد يحصل بالالتزام من الخبر يريدون أنه لازم عرفي لأن شأن الأمر الذي تضافر عليه الناس قديما أن يقتدى بهم فيه غيرهم من كل من علمه، فإخبار المتكلم بأنه علم ذلك يدل عرفا على أنه مقتد بهم في ذلك هذا وجه اللزوم ، وقد خفي على كثير أي فيكون مثل حصول لازم الفائدة من الخبر المقررة في علم المعاني ، مثل قولك سهرت الليلة وأنت تريد أنك علمت بسهره ، فلا يلزم أن يكون ذلك إنشاء لأن التقدير على هذا القول أن المتكلم يخبر عن كونه حامدا كما يخبر عن كون جميع الناس حامدين فهي خبر لا إنشاء والمستفاد منها بطريق اللزوم معنى إخباري أيضا . ويرد على هذا التقدير أيضا أن حمد المتكلم يصير غير مقصود لذاته بل حاصل بالتبع مع أن المقام مقام حمد المتكلم لا حمد غيره من الناس، وأجيب بأن المعنى المطابق قد يؤثر به لأجل المعنى الالتزامي لأنه وسيلة له، ونظيره قولهم طویل النجاد والمراد طول القامة فإن طول النجاد أتى به ليدل على معنى طول القامة .

وذهب فريق ثان إلى أن جملة الحمد لله هي خبر لا محالة إلا أنه أريد منه الإنشاء مع اعتبار الخبرية كما يراد من الخبر إنشاء التحسر والتحزن في نحو «إني وضعتها أنثى» وقول جعفر بن عتبة الحارثي * هوأي مع الركب اليمانيين مُصعدُ * فيكون المقصد الأصلي هو الإنشاء ولكن العدول إلى الإخبار لما يتأتى بواسطة الإخبار من الدلالة على الاستغراق والاختصاص والدوام والثبات ووجه التلازم بين الإخبار عن حمد الناس وبين إنشاء الحمد واضح مما علمته في وجه التلازم على التقرير الأول، بل هو هنا أظهر لأن الخبر عن حمد الناس

لله تعالى لا جرم أنه منشئٌ ثناء عليه بذلك ، وكونُ المعنى الالتزامى فى الكناية هو المقصود دون المعنى المطابق أظهر منه فى اعتبار الخبرية المحضة لما عهد فى الكناية من أنها لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة الأصل معه، فدل على أن المعنى الأصلي إما غير مراد أو مراد تبعاً لأن مع تدخل على المتبوع .

الذهب الثانى أن جملة الحمد لله إنشاء محض للإشعار له بالخبرية، على أنها من الصيغ التى نقلتها العرب من الإخبار إلى إنشاء الثناء كما نقلت صيغ العقود وأفعال المدح والذم أى نقلاً مع عدم إماتة المعنى الخبرى فى الاستعمال؛ فإنك قد تقول الحمد لله جواباً لمن قال لمن الحمد أو من أحمد، ولكن تعهد المعنى الأصلي ضعيف فيحتاج إلى القرينة . والحق الذى لا محيد عنه أن الحمد لله خبر مستعمل فى الإنشاء فالقصد هو الإنشائية لا محالة، وعدل إلى الخبرية لتحمل جملة الحمد من الخصوصيات ما يناسب جلالة المحمود بها من الدلالة على الدوام والثبات والاستغراق والاختصاص والاهتمام، وشئ من ذلك لا يمكن حصوله بصيغة إنشاء نحو حمد الله أو أحمد الله حمداً، ومما يدل على اعتبار العرب إياها إنشاء لا خبراً قول ذى الرمة :

ولما جَرَتْ فى الجزل جرباً كأنَّه سنا الفجر أُحْدِثْنَا خالقها شكراً^(١)

فعبّر عن ذكر لفظ الحمد أو الشكر بالإحداث، والإحداث يرادف الإنشاء لغة فقوله أحدثنا خبر حكى به ما عبّر عنه بالإحداث وهو حمده الواقع حين التها بها فى الخطب . والله هو اسم الذات الواجب الوجود المستحق لجميع الحماد . وأصل هذا الاسم الإله بالتعريف وهو تعريف إله الذى هو اسم جنس للمعبود مشتق من ألّه بفتح اللام بمعنى عبد، أو من ألّه بكسر اللام بمعنى تحير أو سكن أو فزع أو ولع مما يرجع إلى معنى هو ملزوم للخضوع والتعظيم فهو فعال بكسر الفاء بمعنى مفعول مثل كتاب، أطلقه العرب على كل معبود من أصنامهم لأنهم يرونها حقيقة بالعبادة ولذلك جمعوه على آلهة بوزن أفعلة مع تخفيف الهمزة الثانية مدّة ، وأحسب أن اسمه تعالى تقرر فى لغة العرب قبل دخول

(١) هو من قصيدة له ذكر فيها صفات النار بطريقة لغزية . وقوله :

فأما بدت كفتها وهى طفلة	بطلساء لم تكمل ذراعاً ولا شبرا
وقلت له ارفعها إليك فأحيها	بروحك واقتنه لها قيتة قدرا
وظاهر لها من يابس الشخت واستعن	عليها الصفا واجعل يدك لها سترا

الإشراك فيهم فكان أصل وضعه دالا على انقراذه بالألوهية إذ لا إله غيره فلذلك صار علما عليه ، وليس ذلك من قبيل العلم بالغلبة بل من قبيل العلم بالانحصار مثل الشمس والقمر فلا بدع في اجتماع كونه اسم جنس وكونه علما ، ولذلك أرادوا به المعبود بحق رداً على أهل الشرك قبل دخول الشرك في العرب وإنما لم تقف على أن العرب أطلقوا الإله معرّفاً باللام مفردا على أحد أصنامهم وإنما يضيفون فيقولون إله بنى فلان والأكثر أن يقولوا رب بنى فلان أو يجمعون كما قالوا لعبد المطلب أرض الآلهة ، وفي حديث فتح مكة « وجد رسول الله البيت فيه الآلهة » .

فلما اختص الإله بالإله الواحد واجب الوجود اشتقوا له من اسم الجنس علما زيادة في الدلالة على أنه الحقيق بهذا الاسم ليصير الاسم خاصا به غير جائز الاطلاق على غيره على سنن الأعلام الشخصية ، وأراهم أبدعوا وأعجبوا إذ جعلوا علم ذاته تعالى مشتقا من اسم الجنس المؤذن بمفهوم الألوهية تنبيها على أن ذاته تعالى لا تستحضر عند واضع العلم وهو الناطق الأول بهذا الاسم من أهل اللسان إلا بوصف الألوهية^(١) وتنبيها على أنه تعالى أولى من يؤلّه ويُعبد لأنه خالق الجميع فحذفوا الهمزة من الإله لكثرة استعمال هذا اللفظ عند الدلالة عليه تعالى كما حذفوا همزة الأناس فقالوا الناس؛ ولذلك أظهروها في بعض الكلام . قال البغيت بن خريث^(٢) .

مَعَاذَ الْإِلَهِ أَنْ تَكُونَ كَظْيِيَّةٍ وَلَا دُمِيَّةٍ وَلَا عَقِيلَةٍ رَبَّ

(١) فيكون وصف الألوهية طريقا لاستحضار الذات المقصودة بالعلية ولذلك لا يجعل الاسم العلم وصفا قال السيد في شرح الكشف : الاسم قد يوضع لذات مبهمة باعتبار معنى يقوم بها فيتركب مدلوله من صفة معنى ومن ذات مبهمة فيصح إطلاق الاسم على كل متصف بتلك الصفة وهذا يسمى صفة ولذلك المعنى الاعتبار فيه يسمى مصحح الإطلاق كالمعبود مثلا . وقد يوضع لذات معينة من غير ملاحظة شيء من المعاني القائمة بها وهذا يسمى اسما لا يشته بالصفة كإيل وفرس ، وقد يوضع لذات معينة ويلاحظ عند الوضع معنى له نوع تعلق بها . وذلك نوعان : الأول أن يكون المعنى خارجا عن الموضوع له ولكنه سبب باعث على تعيين الاسم بإزائه كأحر إذا جعل عاما لمولود فيه حمرة . النوع الثاني أن يكون ذلك المعنى داخلا في مفهومه كأسماء الزمان والمكان وهذان النوعان شديدا الاشتباه بالصفات ، ومعيار الفرق أنهما يوصفان ولا يوصف بهما اه يعنى والإله من النوع الأول من القسم الثالث . (٢) وبعد البيت :

ولكنها زادت على الحسن كله كالا ومن طيب على كل طيب وهذا من التنزيه على التشبيه وهذا الشاعر غير مولد كما هو ظاهر كلام المعري الذي نقله الخطيب . التبريزي في شرحه على الحماسة .

كما أظهروا همزة الأناس في قول عبيد بن الأبرص الأسدى :

إِنِ النَّيَّاءَ لِيَطْلُعَ رَسَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْآمِنِينَ

ونُزِّلَ هذا اللفظ في طوره الثالث منزلة الأعلام الشخصية فيصرفوا فيه هذا التصرف لينتقلوا به إلى طور جديد فيجعلوه مثل علم جديد ، وهذه الطريقة مسلوكة في بعض الأعلام.

قال أبو الفتح بن جنى في شرح قول تأبط شرا في التشيد الثالث عشر من الحماسة :

إِنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَقَاصِدٌ بِهِ لَابِنْ عَمِ الصَّدَقِ شُمُسِ بْنِ مَالِكِ

شُمس بضم الشين وأصله شمس بفتحها كما قالوا حُجِرَ وسُئِلَ فيكون مما غير عن نظائره لأجل العلمية اهـ . وفي الكشف في تفسير سورة أبي لهب بعد أن ذكر أن من القراء من قرأ أبي لهب بسكون الهاء مانصه وهى من تغيير الأعلام كقولهم شُمس بن مالك بالضم اهـ . وقال قبله « وفلُيْتَهُ بن قاسم أمير مكة ابنان أحدهما عبد الله بالجر ، والآخر عبد الله بالنصب ، وكان بمكة رجل يقال له عبد الله لا يعرف إلا هكذا اهـ » يعنى بكسر دال عبد في جميع أحوال إعرابه ، فهو بهذا الإيحاء نوع مخصوص من العلم ، وهو أنه أقوى من العلم بالغلبة لأن له لفظا جديدا بعد اللفظ المغلب . وهذه الطريقة في العلمية التي عرضت لاسم الجلالة لا نظير لها في الأعلام فكان اسمه تعالى غير مشابه لأسماء الحوادث كما أن مسمى ذلك الاسم غير مماثل لمسميات أسماء الحوادث . وقد دلوا على تناسيهم ما في الألف واللام من التعريف وأنهم جعلوهما جزءاً من الكلمة بتجويزهم نداء اسم الجلالة مع إبقاء الألف واللام إذ يقولون يا الله مع أنهم يمنعون نداء مدخول الألف واللام .

وقد احتج صاحب الكشف على كون أصله الإله بيت البيث المقدم ، ولم يقرظ ناظروه وجه احتجاجه به ، وهو احتجاج وجيه لأن معاذ من المصادر التي لم ترد في استعمالهم مضافة لغير اسم الجلالة ، مثل سبحان فأجريت مجرى الأمثال في لزومها لهاته الإضافة ، إذ تقول معاذ الله فلما قال الشاعر معاذ الإله وهو من فصحاء أهل اللسان علمنا أنهم يعتبرون الإله أصلاً للفظ الله ، ولذلك لم يكن هذا التصرف تغييراً إلا أنه تصرف في حروف اللفظ الواحد كاختلاف وجوه الأداء مع كون اللفظ واحداً ، ألا ترى أنهم احتجوا

على أن لآه مخفف الله بقول ذى الأصيح العدواني .
 لآه ابن عمك لا أفضلت في حسب عني ولا أنت ديانى فتخزوني
 وبقولهم لآه أبوك لأن هذا مما لزم حالة واحدة ، إذ يقولون لله أبوك والله ابن عمك
 والله أنت .

وقد ذكرت وجوه أخر في أصل اسم الجلالة : منها أن أصله لآه مصدر لاه يليه ليها
 إذا احتجب سمي به الله تعالى ، ثم أدخلت عليه الألف واللام للمح الأصل كالفضل والمجد
 اسمين ، وهذا الوجه ذكر الجوهري عن سيبويه أنه جوزه . ومنها أن أصله ولاء بالواو
 فعال بمعنى مفعول من وله إذا تحير ، ثم قلبت الواو همزة لاستئصال الكسرة عليها ، كما قلبت
 في إعاء وإشاح ، أى وعاء ووشاح ، ثم عرف بالألف واللام وحذفت الهمزة . ومنها أن أصله
 (لآها) بالسريانية علم له تعالى فعرب بحذف الألف وإدخال اللام عليه . ومنها أنه علم وضع
 لاسم الجلالة بالقصد الأولي من غير أخذ من أله وتصويره الإله فتكون مقارنته في
 الصورة لقولنا الإله مقارنة اتفاقية غير مقصودة ، وقد قال بهذا جمع منهم الزجاج ونسب إلى
 الخليل وسيبويه ، ووجه بعض العلماء بأن العرب لم تهمل شيئاً حتى وضعت له لفظاً فكيف
 يتأتى منهم إهمال اسم له تعالى لتجرى عليه صفاته .

وقد التزم في لفظ الجلالة تفخيم لأمه إذا لم ينكسر ما قبل لفظه وحاول بمض
 الكاتنين توجيه ذلك بما لا يسلم من المنع ، ولذلك أبى صاحب الكشف التعرّيج عليه فقال
 « وعلى ذلك (أى التفخيم) العرب كلهم ، وإطباقهم عليه دليل أنهم ورثوه كابراً عن
 كابر » .

وإنما لم يقدم المسند المجرور وهو متضمن لاسم الجلالة على المسند إليه فيقال لله الحمد؛ لأن
 المسند إليه حمد على تنزيل القرآن والتشرف بالإسلام وهما منة من الله تعالى فحمده عليهما
 عند ابتداء تلاوة الكتاب الذى به صلاح الناس فى الدارين فكان المقام للاهتمام به اعتباراً
 لأهمية الحمد العارضة ، وإن كان ذكر الله أهم أصالة فإن الأهمية العارضة تقدم على الأهمية
 الأصلية لانتضاء المقام والحال . والبلاغة هى المطالبة لمقتضى الحال . على أن الحمد لما تعلق
 باسم الله تعالى كان فى الاهتمام به اهتمام بشئون الله تعالى .

ومن أعجب الآراء ما ذكره صاحب «المنهل الأصفي في شرح الشفاء» التلمساني عن جمع من العلماء القول بأن اسم الجلالة يمسك عن الكلام في معناه تعظيما وإجلالا ولتوقف الكلام فيه على إذن الشارع .

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢

وصف لاسم الجلالة فإنه بعد أن أسند الحمد لاسم ذاته تعالى تنبيهها على الاستحقاق الذاتي ، عقب بالوصف وهو الرب ليكون الحمد متعلقا به أيضا لأن وصف المتعلق متعلق أيضا ، فلذلك لم يقل الحمد لرب العالمين كما قال « يوم يقوم الناس لرب العالمين » ليؤذن باستحقاقه الوصفي أيضا للحمد كما استحققه بذاته . وقد أجرى عليه أربعة أوصاف هي : رب العالمين ، الرحمان ، الرحيم ، ملك يوم الدين ، للإيدان بالاستحقاق الوصفي فإن ذكر هذه الأسماء المشعرة بالصفات يؤذن بقصد ملاحظة معانيها الأصلية . وهذا من المستفادات من الكلام بطريق الاستنباع لأنه لما كان في ذكر الوصف غنية عن ذكر الموصوف لا سيما إذا كان الوصف منزلا منزلة الاسم كأوصافه تعالى وكان في ذكر لفظ الموصوف أيضا غنية في التنبيه على استحقاق الحمد المقصود من الجملة علمنا أن التكلم ما جمع بينهما إلا وهو يشير إلى أن كِلَا مَدْلُوكَي الموصوف والصفة جدير بتعلق الحمد له . مع ما في ذكر أوصافه المختصة به من التذكير بما يميزه عن الآلهة المزعومة عند الأمم من الأصنام والأوثان والعناصر كما سيأتي عند قوله تعالى « ملك يوم الدين » .

والرب إما مصدر وإما صفة مشبهة على وزن فَعَلَ مِنْ رَبَّهٖ يَرْبُّهُ بمعنى رباه وهو رَب بمعنى مُرَبٍّ وسائس . والتربية تبليغ الشيء إلى كماله تدريجا ، ويجوز أن يكون من ربه بمعنى ملكه ، فإن كان مصدرا على الوجهين فالوصف به للمبالغة ، وهو ظاهر ، وإن كان صفة مشبهة على الوجهين فهي واردة على القليل في أوزان الصفة المشبهة فإنها لا تكون على فَعَلَ من فَعَلَ يَفْعَلُ إلا قليلا ، من ذلك قولهم نَمَّ الحديث يُنَمُّ فهو نَمٌّ للحديث .

والأظهر أنه مشتق من رَبَّهٖ بمعنى رباه وساسه ، لامن ربه بمعنى ملكه لأن الأول الأنسب بالمقام هنا إذ المراد أنه مدبر الخلائق وسائس أمورها ومبلغها غاية كمالها ، ولأنه لو حمل على معنى المالك لكان قوله تعالى بعد ذلك ملك يوم الدين كالتأكيذ والتأكيذ خلاف الأصل ولاداعي

إليه هنا، إلا أن يجاب بأن العالمين لا يشمل إلا عوالم الدنيا ، فيحتاج إلى بيان أنه ملك الآخرة كما أنه ملك الدنيا، وإن كان الأكثر في كلام العرب ورود الرب بمعنى الملك والسيد وذلك الذي دعا صاحب الكشف إلى الاختصار على معنى السيد والملك وجوز فيه وجهي المصدرية والصفة، إلا أن قرينة المقام قد تصرف عن حمل اللفظ على أكثر موارد إلى محله على ما دونه فإن كلا الاستعمالين شهير حقيق أو مجازي والتبادر العارض من المقام المخصوص لا يقضى بتبادر استعماله في ذلك المعنى في جميع المواقع كما لا يخفى . والعرب لم تكن تخص لفظ الرب به تعالى لا مطلقا ولا مقيدا لما علمت من وزنه واشتقاقه . قال الحرث بن حنظلة :

وهو الرب والشهيدُ على يو م الحيارَيْن والبلاء بلاء

يعنى عمرو بن هند . وقال النابغة في النعمان بن الحارث :

تُحِبُّ إلى النعمان حتى تناله فِدَى لك من ربِّ طريقي وتالدي

وقال في النعمان بن المنذر حين مرض :

وَرَبُّ عليه الله أحسن صنعه وكان له على البرية ناصرا

وقال صاحب الكشف ومن تابعه: إنه لم يطلق على غيره تعالى إلا مقيدا أو لم يأتوا على ذلك بسند وقد رأيت أن الاستعمال بخلافه ، أما إطلاقه على كل من آلهتهم فلا مزية فيه كما قال غاوي بن ظالم أو عباس بن مرداس .

أَرْبُ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ برأسه لقد هان من بآلت عليه الثعالبُ

وسموا العزى الرِّبة . وجمعه على أرباب أدل دليل على إطلاقه على متعدد فكيف تصح دعوى تخصيص إطلاقه عندهم بالله تعالى . وأما إطلاقه مضافا أو متعلقا بخاص فظاهر وروده بكثرة نحو رب الدار ورب الفرس ورب بني فلان .

وقد ورد الإطلاق في الإسلام أيضا حين حكى عن يوسف عليه السلام قوله « إنه ربي أحسن مثوإى » إذا كان الضمير راجعا إلى العزيز وكذا قوله « أأرباب متفرقون خير » فهذا إطلاق للرب مضافا وغير مضاف على غير الله تعالى في الإسلام لأن اللفظ عربي أطلق في الإسلام، وليس يوسف أطلق هذا اللفظ بل أطلق مرادفه فلو لم يصح التعبير بهذا اللفظ عن المعنى الذي عبر به يوسف لكان في غيره من ألفاظ العربية معدّل، إنما ورد في الحديث النهى عن أن يقول

أحد لسيدته ربى وليقل سيدى، وهو نهى كراهة للتأديب ولذلك خص النهى بما إذا كان المضاف إليه ممن يعبد عرفا كأسماء الناس لدفع تهمة الإشراك وقطع دابرهم وجوزوا أن يقول رب الدابة ورب الدار، وأما بالإطلاق فالكره أشد فلا يقل أحد للملك ونحوه هذا رب .

والعالمين جمع عالم قالوا ولم يجمع فاعل هذا الجمع إلا فى لفظين عالم وياسم ، اسم للزهر المعروف بالياسمين، قيل جمعه على يَاسْمُونُ وَيَاسْمِين قال الأعشى :

وَقَابَلَنَا الْجُلُ وَالْيَاسِمُونَ وَالْمُسْتِمَاتِ وَقَصَابِهَا

والعالم الجنس من أجناس الموجودات وقد بنته العرب على وزن فاعل بفتح العين مشتقا من العلم أو من العلامة لأن كل جنس له تميز عن غيره فهو له علامة ، أو هو سبب العلم به فلا يختلط بغيره . وهذا البناء مختص بالدلالة على الآلة غالبا كخاتم وقالب وطابع فجعلوا العوالم لكونها كالآلة للعلم بالصانع، أو العلم بالحقائق . ولقد أبدع العرب فى هذه اللطيفة إذ بنوا اسم جنس الحوادث على وزن فاعل لهذه النكتة، ولقد أبدعوا إذ جمعه جمع العقلاء مع أن منه ما ليس بعقل تغليبا للعقل .

وقد قال التفترانى فى شرح الكشف « العالم اسم لذوى العلم ولكل جنس يعلم به الخالق، يقال عالم الملك، عالم الإنسان ، عالم النبات يريد أنه لا يطلق بالإفراد إلا مضافا لنوع يخصه يقال عالم الإنس عالم الحيوان ، عالم النبات وليس اسما لمجموع ما سواه تعالى بحيث لا يكون له إجراء فيمتنع جمعه » وهذا هو تحقيق اللغة فإنه لا يوجد فى كلام العرب إطلاق عالم على مجموع ما سوى الله تعالى ، وإنما أطلقه على هذا علماء الكلام فى قولهم العالم حادث فهو من المصطلحات .

والتعريف فيه للاستغراق بقرينة المقام الخطابى فإنه إذا لم يكن عهد خارجى ولم يكن معنى للحمل على الحقيقة ولا على المجهود الذهنى تمحض التعريف للاستغراق لجميع الأفراد دفعا للتحكم فاستغراقه استغراق الأجناس الصادق هو عليها لا محالة وهو معنى قول صاحب الكشف « ليشمل كل جنس مما سُمى به » إلا أن استغراق الأجناس يستلزم استغراق أفرادها استلزاما واضحا إذ الأجناس لا تقصد لذاتها لا سيما فى مقام الحكم بالربوبية عليها فإنه لا معنى لربوبية الحقائق .

وإنما جمع العالم ولم يؤت به مفردا لأن الجمع قرينة على الاستغراق، لأنه لو أفرد لتوهم أن

المراد من التعريف العهد أو الجنس فكان الجمع تنصيصا على الاستغراق ، وهذه سنة الجموع مع (ال) الاستغراقية على التحقيق ، ولما صارت الجمعية قرينة على الاستغراق بطل منها معنى الجماعات فكان استغراق الجموع مساويا لاستغراق المفردات أو أشمل منه . وبطل ما شاع عند متايلي السكاكي من قولهم استغراق المفرد أشمل كما سنبينه عند قوله تعالى «وعلم آدم الاسماء كلها» .

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾³

وصفان مشتقان من رَحِمَ، وفي تفسير القرطبي عن ابن الأباري عن البرد أن الرحمان اسم عبراني نقل إلى العربية قال وأصله بالخاء المعجمة (أى فأبدلت خاؤه حاء مهملة عند أكثر العرب كشان التغير في التعريب) وأنشد على ذلك قول جرير يخاطب الأخطل :
أو تَرَكْنِي إِلَى الْقَسَيسِ هَجَرْتَكُمْ وَمَسَحَكُمْ صُلْبَكُمْ رَحْمَانُ قُرْبَانَا
(الرواية بالخاء المعجمة) ولم يأت البرد بحجة على ما زعمه، ولم لا يكون الرحمان عربيا كما كان عبرانيا فإن العربية والعبرانية أختان وربما كانت العربية الأصلية أقدم من العبرانية ولعل الذي جراه على ادعاء أن الرحمان اسم عبراني ما حكاه القرآن عن المشركين في قوله «قالوا وما الرحمن» ويقتضى أن العرب لم يكونوا يعلمون هذا الاسم لله تعالى كما سيأتي وبعض عرب اليمن يقولون رَحِمَ رَحمة بالمعجمة .

واسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لركة الخاطر وانعطافه نحو حيي بحيث يحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه ودفع الضر عنه وإعائته على المشاق . فهي من الكيفيات النفسانية لأنها أفعال ، ولتلك الكيفية اندفاع يحمل صاحبها على أفعال وجودية بقدر استطاعته وعلى قدر قوة أفعاله . فأصل الرحمة من مَقُولَة الانفعال وآثارها من مقولة الفعل ، فإذا وصف موصوف بالرحمة كان معناه حصول الانفعال المذكور في نفسه ، وإذا أخبر عنه بأنه رحم غيره فهو على معنى صدر عنه أثر من آثار الرحمة ؛ إذ لا تكون تمعية فعل رحم إلى المرحوم إلا على هذا المعنى فليس لماهية الرحمة جزئيات وجودية ولكنها جزئيات من آثارها . فوصف الله تعالى بصفات الرحمة في اللغات ناشيء على مقدار عقائد أهلها فيما يجوز على الله ويستحيل ، وكان أكثر الأمم مجسمة ثم يجيء ذلك

في لسان الشرائع تعبيراً عن المعاني العالية بأقصى ما تسمح به اللغات مع اعتقاد تنزيه الله عن أعراض المخلوقات بالدليل العام على التنزيه وهو مضمون قول القرآن « ليس كمثله شيء » فأهل الإيمان إذا سمعوا أو أطلقوا وصفی الرحمان الرحيم لا يفهمون منه حصول ذلك الانفعال الملحوظ في حقيقة الرحمة في متعارف اللغة العربية لسطوع أدلة تنزيه الله تعالى عن الأعراض ، بل إنه يراد بهذا الوصف في جانب الله تعالى إثبات الغرض الأسمى من حقيقة الرحمة وهو صدور آثار الرحمة من الرفق واللفظ والإحسان والإعانة؛ لأن ما عدا ذلك من القيود الملحوظة في مسمى الرحمة في متعارف الناس لا أهمية له لولا أنه لا يمكن بدونه حصول آثاره فيهم ألا ترى أن المرء قد يرحم أحداً ولا يملك له نقماً لمعجز أو نحوه . وقد أشار إلى ما قلناه أبو حامد الغزالي في المقصد الأسنى بقوله « الذي يريد قضاء حاجة المحتاج ولا يقضيها فإن كان قادراً على قضائها لم يسمَّ رحماً إذ لو تمت الإرادة لوفى بها وإن كان عاجزاً فقد يسمى رحماً باعتبار ما اعتوره من الرحمة والرفقة ولكنه ناقص » . وبهذا تعلم أن إطلاق نحو هذا الوصف على الله تعالى ليس من التشابه لتبادر المعنى المراد منه بكثرة استعماله وتحقق تنزه الله عن لوازم المعنى المقصود في الوضع مما لا يليق بجلال الله تعالى كما نطلق العليم على الله مع اليقين بتجرد علمه عن الحاجة إلى النظر والاستدلال وسبق الجهل ، وكما نطلق الحي عليه تعالى مع اليقين بتجرد حياته عن العادة والتكون ، ونطلق القدرة مع اليقين بتجرد قدرته عن الحاجة والاستعانة . فوصفه تعالى بالرحمان الرحيم من المنقولات الشرعية فقد أثبت القرآن رحمة الله في قوله « ورحمتي وسعت كل شيء » فهي منقولة في لسان الشرع إلى إرادة الله إيصال الإحسان إلى مخلوقاته في الحياة الدنيا وغالب الأسماء الحسنى من هذا القليل . وأما التشابه فهو ما كانت دلالاته على المعنى المنزه عنه أقوى وأشد وسيأتي في سورة آل عمران عند قوله تعالى « وأخر متشابهات » . والذي ذهب إليه صاحب الكشف وكثير من المحققين أن الرحمان صفة مشبهة كغضبان وبذلك مثله في الكشف . وفعل رَحِمَ وإن كل متعديا والصفة المشبهة إنما تصاغ من فعلٍ لازم إلا أن الفعل المتعدي إذا صار كالسجية لموصوفه ينزل منزلة أفعال الغرائز فيحول من فعلٍ بفتح العين أو كسرهما إلى فَعَلَ بضم العين للدلالة على أنه صار سجية كما قالوا فَعَلَ الرجل وظرف وفهم ، ثم تشتق منه بعد ذلك الصفة المشبهة، ومثله كثير في الكلام ، وإنما يعرف هذا التحويل بأحد أمرين

إما بسماع الفعل المحول مثل فقه وإما بوجود أثره وهو الصفة المشبهة مثل بليغ إذا صارت البلاغة سجية له ، مع عدم أو قلة سماع بلغ . ومن هذا رحمان إذ لم يسمع رحم بالضم . ومن النحاة من منع أن يكون الرحمان صفة مشبهة بناء على أن الفعل المشتق هو منه فعل متعمد وإليه مال ابن مالك في شرح التسهيل في باب الصفة المشبهة ونظره رب وملك .. وأما الرحيم فذهب سيبويه إلى أنه من أمثلة المبالغة وهو باق على دلالاته على التعدى وصاحب الكشاف والجمهور لم يثبتوا في أمثلة المبالغة وزن فعيل فالرحيم عندهم صفة مشبهة أيضا مثل مريض وسقيم ، والمبالغة حاصلة فيه على كلا الاعتبارين . والحق ما ذهب إليه سيبويه . ولا خلاف بين أهل اللغة في أن الوصفين دالان على المبالغة في صفة الرحمة أى تمكنها وتعلقها بكثير من الرحومين وإنما الخلاف في طريقة استفادة المبالغة منهما وهل هما مترادفان في الوصف بصفة الرحمة أو بينهما فارق والحق أن استفادة المبالغة حاصلة من تتبع الاستعمال وأن الاستعمال جرى على نكتة في مراعاة واضى اللغة زيادة المبنى لقصد زيادة في معنى المادة قال في الكشاف « ويقولون إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى وقال الزجاج في الغضبان هو الممتلى غضبا ومما طن على أذن من ملح العرب أنهم يسمون مركبا من مراكبهم بالشقذف وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق فقلت في طريق الطائف لرجل منهم ما اسم هذا الحمل أردت الحمل العراقي فقال أليس ذلك اسمه الشقندف؟ قلت بلى فقال هذا اسمه الشقنداف فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى» وهى قاعدة أغلبية لا تتخلف إلا في زيادات معروفة موضوعة لزيادة معنى جديد دون زيادة في أصل معنى المادة مثل زيادة ياء التصغير فقد أفادت معنى زائدا على أصل المادة وليس زيادة في معنى المادة . وأما نحو حذر الذى هو من أمثلة المبالغة وهو أقل حروفا من حاذر فهو من مستثنيات القاعدة لأنها أغلبية .

وبعد كون كل من صفتى الرحمان الرحيم دالة على المبالغة في اتصافه تعالى بالرحمة فقد قال الجمهور إن الرحمان أبلغ من الرحيم بناء على أن زيادة المبنى تؤذن بزيادة المعنى وإلى ذلك مال جمهور المحققين مثل أبى عبيدة وابن جنى والزجاج والزمخشري وعلى رعى هذه القاعدة أعنى أن زيادة المبنى تؤذن بزيادة المعنى فقد شاع ورود إشكال على وجه إرداف وصفه الرحمان بوصفه بالرحيم مع أن شأن أهل البلاغة إذا أجزوا وصفين في معنى واحد على موصوف في مقام السكالم أن يرتقوا من الأعم إلى الأخص ومن القوى إلى الأفى كقولهم شجاع بأسل

وجواد فياض ، وعالم تحرير ، وخطيب مصقع ، وشاعر مفلح . وقد رأيت للمفسرين في توجيه الارتقاء من الرحمان إلى الرحيم أجوبة كثيرة مرجعها إلى اعتبار الرحمان أخص من الرحيم فتعقيب الأول بالثاني تعميم بعد خاص ولذلك كان وصف الرحمان مختصا به تعالى وكان أول إطلاقه مما خصه به القرآن على التحقيق بحيث لم يكن التوصيف به معروفا عند العرب كما سيأتي . ومدلول الرحيم كون الرحمة كثيرة التعلق إذ هو من أمثلة المبالغة ولذلك كان يطلق على غير الله تعالى كما في قوله تعالى في حق رسوله « بالؤمنين رءوف رحيم » فليس ذكر إحدى الصفتين بمنع عن الأخرى : وتقديم الرحمان على الرحيم لأن الصيغة الدالة على الاتصاف الذاتى أولى بالتقديم في التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها . وينسب إلى قطرب أن الرحمان والرحيم يدلان على معنى واحد من الصفة المشبهة فهما متساويان وجعل الجمع بينهما في الآية من قبيل التوكيد اللفظي ومال إليه الزجاج وهو وجه ضعيف إذ التوكيد خلاف الأصل والتأسيس خير من التأكيد والمقام هنا بعيد عن مقتضى التوكيد . وقد ذكرت وجوه في الجمع بين الصفتين ليست بمقنعة .

وقد ذكر جمهور الأئمة أن وصف الرحمان لم يطلق في كلام العرب قبل الإسلام وأن القرآن هو الذي جاء به صفة لله تعالى فلذلك اختص به تعالى حتى قيل إنه اسم له وليس بصفة واستدلوا على ذلك بقوله تعالى « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان » وقال « وهم يكفرون بالرحمان » وقد تكرر مثل هاتين الآيتين في القرآن وخاصة في السور المكية مثل سورة الفرقان وسورة الملك وقد ذكر الرحمان في سورة الملك باسمه الظاهر وضميره ثماني مرات مما يفيد الاهتمام بتقرير هذا الاسم لله تعالى في نفوس السامعين فالظاهر أن هذا الوصف تنوسى في كلامهم . أو أنكروا أن يكون من أسماء الله . ومن دقائق القرآن أنه آثر اسم الرحمان في قوله « ما يمسكهن إلا الرحمان » في سورة الملك ، وقال « ما يمسكهن إلا الله » في سورة النحل إذ كانت آية سورة الملك مكية وآية سورة النحل القدر النازل بالمدينة من تلك السورة ، وأما قول بعض شعراء بني حنيفة في مسيلة :

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

فإنما قاله بعد مجيء الإسلام وفي أيام ردة أهل اليمامة ، وقد لقبوا مسيلة -أيامئذ- رحمان اليمامة وذلك من غلوهم في الكفر . وإجراء هذين الوصفين العليين على اسم الجلالة بعد

وصفه بأنه رب العالمين لمناسبة ظاهرة للبليغ لأنه بعد أن وصف بما هو مقتضى استحقاقه الحمد من كونه رب العالمين أى مدبر شؤونهم ومبلغهم إلى كمالهم فى الوجودين الجثمانى والروحانى ، ناسب أن يتبع ذلك بوصفه بالرحمان أى الذى الرحمة له وصف ذاتى تصدر عنه آثاره بعموم واطراد على ما تقدم ، فلما كان ربا للعالمين وكان المربوبون ضعفاء كان احتياجهم للرحمة واضحا وكان رقبهم إياها من الموصوف بها بالذات ناجحا . فإن قلت إن الربوبية تقتضى الرحمة لأنها إبلاغ الشئ إلى كماله شيئا فشيئا وذلك يجمع النعم كلها ، فلماذا احتيج إلى ذكر كونه رحمانا؟ قلت لأن الرحمة تتضمن أن ذلك الإبلاغ إلى الكمال لم يكن على وجه الإعانت بل كان برعاية ما يناسب كل نوع وفرد ويلائم طوقه واستعداده، فكانت الربوبية نعمة ، والنعمة قد تحصل بضرب من الشدة والأذى ، فأتبع ذلك بوصفه بالرحمان تنبيها على أن تلك النعم الجليلة وصلت إلينا بطريق الرفق واليسر ونفى الحرج ، حتى فى أحكام التكليف والنهى والزواج فإنها مرفوقة باليسر بقدر مالا يبطل المقصود منها ، فعظم تدييره تعالى بنا هو رحمت ظاهرة كالتمكن من الأرض وتيسير منافعها ، ومنه ما رحمته بمراعاة اليسر بقدر الامكان مثل التكليف الراجحة إلى منافعنا كالطهارة وبث مكارم الأخلاق ، ومنها ما منفعته للجمهور فتنبهها رحمت الجميع لأن فى رحمة الجمهور رحمة بالبقية فى انتظام الأحوال كالكفاة . وقد اختلف فى أن لفظ رحمان لو لم يقرن بلام التعريف هل يصرف أو يمنع من الصرف قال فى الكافية (النون والألف إذا كانا فى صفة فشرط منعه من الصرف انتفاء فعلانة، وقيل وجود فعلى ، ومن ثم اختلف فى رحمان، وبنو أسد يصرفون جميع فعلان لأنهم يقولون فى كل مؤنث له فعلانة) واختار الزمخشري والرضي وابن مالك عدم صرفه .

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ٤

إتباع الأوصاف الثلاثة المتقدمة بهذا ليس لجرد سرد صفات من صفاته تعالى ، بل هو مما أثارته الأوصاف المتقدمة، فإنه لما وصف تعالى بأنه رب العالمين الرحمن الرحيم وكان ذلك مفيدا لما قدمناه من التنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين فى سائر أكوانهم ، ثم التنبيه بأن تصرفه تعالى فى الأكوان والأطوار تصرف رحمة عند الاعتبار ، وكان من جملة تلك

التصرفات تصرفات الأمر والنهي المعبر عنها بالتشريع الراجع إلى حفظ مصالح الناس عامة وخاصة ، وكان معظم تلك التشريعات مشتملا على إخراج المكلف عن داعية الهوى الذي يلائمه اتباعه وفي نزعته عنه إرغام له ومشقة ، خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة في فاتحة الكتاب مخففا عن المكلفين عبء العصيان لما أمروا به ومثيرا لأطاعهم في العفو عن استخفافهم بذلك وأن يمتلكهم الطمع فيعتمدوا على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكدة فلا يخشوا غائلة الإعراض عن التكاليف ، لذلك كان من مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنه صاحب الحكم في يوم الجزاء «يوم تجزى كل نفس بما كسبت» لأن الجزاء على الفعل سبب في الامتنال والاجتناب لحفظ مصالح العالم ، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد ، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة . ولذلك اختير هنا وصف ملك أو مالك مضافا إلى يوم الدين . فأما ملك فهو مؤذن بإقامة العدل وعدم الهوادة فيه لأن شأن الملك أن يدبر صلاح الرعية وينذب عنهم ، ولذلك أقام الناس الملوك عليهم . ولو قيل رب يوم الدين لكان فيه مطمع للمفسدين يجدون من شأن الرب رحمة وصفحا ، وأما مالك فمثل تلك في إشعاره بإقامة الجزاء على أوفق كفياته بالأفعال المجزى عليها . فإن قلت فإذا كان إجراء الأوصاف السابقة مؤذنا بأن جميع تصرفات الله تعالى فينا رحمة فقد كفى ذلك في الحث على الامتنال والانتهاز إذ المرء لا يخالف ما هو رحمة به فلا جرم أن ينساق إلى الشريعة باختياره . قلت مخاطبون مراتب منهم من لا يهتدى لفهم ذلك إلا بعد تعقيب تلك الأوصاف بهذا الوصف ، ومنهم من يهتدى لفهم ذلك ولكنه يظن أن في فعل الملائم له رحمة به أيضا فربما آثر الرحمة الملائمة على الرحمة المنافرة وإن كانت مفيدة له ، وربما تأول الرحمة بأنها رحمة للعموم وأنه إنما يناله منها حظ ضعيف فأثر رحمة حظه الخاص به على رحمة حظه التابع للعمامة . وربما تأول أن الرحمة في تكاليف الله تعالى أمر أغلبي لا مطرد وأن وصفه تعالى بالرحان بالنسبة لغير التشريع من تكوين ورزق وإحياء ، وربما ظن أن الرحمة في المال فأثر عاجل مايلائمه . وربما علم جميع ما تشتمل عليه التكاليف من المصالح باطراد ولكنه ملكته شهوته وغلبت عليه شقوته . فكل هؤلاء مظنة للإعراض عن التكاليف الشرعية ، ولأمثالهم جاء تعقيب الصفات الماضية بهذه الصفة تذكيرا لهم بما سيحصل من الجزاء يوم الحساب لئلا يفسد المقصود من التشريع حين تتلقفه أفهام كل متأول مضيع .

ثم إن في تعقيب قوله رب العالمين الرحمان الرحيم، بقوله ملك يوم الدين إشارة إلى أنه ولي التصرف في الدنيا والآخرة فهو إذن تتميم . وقوله ملك قرأه الجمهور بدون ألف بعد الميم وقرأه عاصم والكسائي ويعقوب وخلف مالك بالألف فالأول صفة مشبهة صارت اسما لصاحب الملك (بضم الميم) والثاني اسم فاعل من ملك إذا اتصف بالملك (بكسر الميم) وكلاهما مشتق من ملك، فأصل مادة ملك في اللغة ترجع تصاريدها إلى معنى الشد والضبط كما قاله ابن عطية، ثم يتصرف ذلك بالحقيقة والجاز، والتحقيق والاعتبار، وقراءة ملك بدون ألف تدل على تمثيل الهيئة في نفوس السامعين لأن الملك - بفتح الميم وكسر اللام - هو ذو الملك - بضم الميم - والملك أخص من الملك، إذ الملك - بضم الميم - هو التصرف في الموجودات والاستيلاء ويختص بتدبير أمور العقلاء وسياسة جمهورهم وأفرادهم ومواطنهم فلذلك يقال ملك الناس ولا يقال ملك الدواب أو الدراهم، وأما الملك - بكسر الميم - فهو الاختصاص بالأشياء ومنافعها دون غيره . وقرأ الجمهور ملك بفتح الميم وكسر اللام دون ألف ورويت هذه القراءة عن النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبي بكر وعمر في كتاب الترمذى . قال ابن عطية حكى أبو على عن بعض القراء أن أول من قرأ ملك يوم الدين مروان بن الحكم فردّه أبو بكر بن السراج بأن الأخبار الواردة تبطل ذلك فلعل قائل ذلك أراد أنه أول من قرأ بها في بلد مخصوص . وأما قراءة مالك بألف بعد الميم بوزن اسم الفاعل فهي قراءة عاصم والكسائي ويعقوب وخلف، ورويت عن عثمان وعلى وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وطلحة والزبير، ورواها الترمذى في كتابه أنها قرأ بها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابه أيضا . وكلاهما صحيحة ثابتة كما هو شأن القراءات المتواترة كما تقدم في المقدمة السادسة . وقد تصدى المفسرون والمحتجون للقراءات لبيان ما في كل من قراءة ملك - بدون ألف - وقراءة مالك - بالألف - من خصوصيات بحسب قصر النظر على مفهوم كلمة ملك ومفهوم كلمة مالك، وغفلوا عن إضافة الكلمة إلى يوم الدين، فأما الكلمة مضافة إلى يوم الدين فقد استويا في إفادة أنه يتصرف في شئون ذلك اليوم دون شبهة مشارك . ولا محيص عن اعتبار التوسع في إضافة ملك أو مالك إلى يوم بتأويل شئون يوم الدين . على أن مالك لغة في ملك في القاموس « وكأمير وكتف وصاحب ذو الملك » .

ويوم الدين يوم القيامة ، ومبدأ الدار الآخرة ، فالدين فيه بمعنى الجزاء ، قال الفند الزماني^(١) :

فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانٌ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْمُدَاوَاةِ دَنَانُ

أى جازيناهم على صنعهم كما صنعوا مشاكلة ، أو كما جازوا من قبل إذا كان اعتداؤهم ناشئا عن ثأر أيضا ، وهذا هو المعنى التمين هنا وإن كان للدين إطلاقات كثيرة في كلام العرب .

واعلم أن وصفه تعالى بملك يوم الدين تكملة لإجراء مجامع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى ، فإنه بعد أن وُصف بأنه رب العالمين وذلك معنى الإلهية الحققة إذ يفوق ما كانوا ينعنون به آلهتهم من قولهم إله بنى فلان فقد كانت الأمم تتخذ آلهة خاصة لها كما حكى الله عن بعضهم « فقالوا هذا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى » وقال « قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » وكانت لبعض قبائل العرب آلهة خاصة ، فقد عبدت ثقيف اللات قال الشاعر :

* ووقرت ثقيف إلى لاتها^(٢) *

وفي حديث عائشة في الموطأ « كان الأنصار قبل أن يسلموا يهلون لِمَنَاءَ الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل » الحديث^(٣) .

فَوُصِفَ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ ، ثُمَّ عَقِبَ بِوَصْفِي الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِإِفَادَةِ عَظَمِ

(١) الفند لقبه ، وأصل الفند بكسر الفاء الجبل ، واسمه شهل بن شيان بشين معجمة وليس في أسماء العرب شهل بالشين المعجمة غيره ، وهو من شعراء حرب البسوس ، وإنما لقب الفند لأنه لما جاء لينصر بني بكر ابن وائل قالوا ما يعني عنا هذا المم - بكسر الهاء - أى الشيخ ، فقال لهم أمارضون أن أكون لكم فندا تأوون إليه أى معقلا ومرجعا في الرأي والحرب . والزمانى - بكسر الزاى وتشديد الميم - نسبة لقبيلة هم أبناء عم بني حنيفة .

(٢) تمامه : * بمنقلب الخائب الخاسر * كذا في تاريخ العرب في باب أديان العرب من كتابنا تاريخ العرب قبل الإسلام مخطوط .

(٣) في الصحيحين واللفظ للبخارى (ومناة) اسم صنم يعبد المشركون من العرب وهو صخرة كانوا يذبحون عندها . والمشلل - بضم الميم وفتح الشين المعجمة ولام مشددة مفتوحة ولام أخرى - اسم نثية مسرفة على قديد بين مكة والمدينة .

رحمته ، ثم وصف بأنه ملك يوم الدين وهو وصف بما هو أعظم مما قبله لأنه ينبىء عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء الذى هو أول أيام الخلود ، فملك ذلك الزمان هو صاحب الملك الذى لا يشد شئ عن الدخول تحت ملكه ، وهو الذى لا ينتهى ملكه ولا ينقضى ، فاین هذا الوصف من أوصاف المبالغة التى يفيضها الناس على أعظم الملوك : مثل ملك الملوك (شَاهَانْ شَاهْ) وملك الزمان وملك الدنيا (شَاهْ جَهَانْ) وما شابه ذلك .

مع ما في تعريف ذلك اليوم بإضافته إلى الدين أى الجزاء من إدماج التنبيه على عدم حكم الله لأن إثبات لفظ الدين (أى الجزاء) للإشعار بأنه معاملة العامل بما يعادل أعماله المجزئ عليها في الخير والشر ، وذلك العدل الخاص قال تعالى « اليوم تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمِ » فلذلك لم يُقل ملك يوم الحساب قوصفه بأنه ملك يوم العدل الصّرف وصفه بأشرف معنى الملك فإن الملوك تتخلد عمادهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل وقد عرف العرب المدح بذلك . قال النابغة يمدح الملك عمرو بن الحارث الفسائى ملك الشام .

وَكَمْ جَزَانًا بِأَيْدٍ غَيْرِ ظَلَمَةٍ عُرْفًا بَعُورًا وَإِنْكَارًا بِإِنْكَارِ

وقال الحارث بن حنظلة يمدح الملك عمرو بن هند اللخمي ملك الحيرة :

مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَفْضَلُ مَنْ يَمْدُ شَيْءٌ وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الْقَضَاءُ

وإجراء هذه الأوصاف الجليلة على اسمه تعالى إيماء بأن موصوفها حقيق بالحمد الكامل الذى أعربت عنه جملة « الحمد لله » ، لأن تقييد مفاد الكلام بأوصاف مُتَمَلِّقِ ذلك المقاد يُشعر بمناسبة بين تلك الأوصاف وبين مفاد الكلام مناسبة تفهم من المقام مثل التعليل في مقام هذه الآية .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

إذا أتم الحامدُ حمد ربه يأخذ في التوجه إليه بإظهار الإخلاص له انتقلا من الإفصاح عن حق الرب إلى إظهار مراعاة ما يقتضيه حقه تعالى على عبده من إفراده بالعبادة والاستعانة فهذا الكلام استئناف ابتدائي .

ومفاتيح العطاء بالتعجيد عند التوجه إليهم قَبْلَ أَنْ يَخَاطَبُوا طَرِيقَةً عَرَبِيَّةً . روى

أبو الفرج الأصفهاني عن حسان بن ثابت قال : كنتُ عند النعمان فنادمته وأكثتُ معه فبينما أنا على ذلك معه في قُبَّةٍ إذا رجلٌ يَرْتَجِزُ حولها :

أَصَمٌّ أَمْ يَسْمَعُ رَبُّ الْقُبَّةِ يَا أَوْهَبَ النَّاسِ لِعِيسَى صَلَّيْهِ
ضَرَابَةٌ بِالْمِشْغَرِ الْأَذْبَةِ ذَاتِ هِبابٍ فِي يَدَيْهَا خُلْبَةُ
فِي لَاحِبٍ كَأَنَّهُ الْأَطْبَةُ^(١)

فقال النعمان : أليس بأبي أمامة ؟ (كنية النابغة) قالوا : بلى ، قال : فأذنوا له فدخل .
والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدأ من قوله « الحمد لله » إلى قوله « ملك يوم الدين » إلى أسلوب طريق الخطاب ابتداء من قوله « إياك نعبد » إلى آخر السورة ، فن بديع من فنون نظم الكلام البليغ عند العرب ، وهو المسمى في علم الأدب العربي والبلاغة التفاتا . وفي ضابط أسلوب الالتفات رأيان لأئمة علم البلاغة : أحدهما رأى مَنْ عدا السكاكي من أئمة البلاغة وهو أن التكلم بعد أن يعبر عن ذات بأحد طرق ثلاثة من تكلم أو غيبة أو خطاب ينتقل في كلامه ذلك فيعبر عن تلك الذات بطريق آخر من تلك الثلاثة ، وخالفهم السكاكي فجعل مسمى الالتفات أن يعبر عن ذات بطريق من طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة عادلا عن أحدهما الذي هو الحقيقي بالتعبير في ذلك الكلام إلى طريق آخر منها .
ويظهر أثر الخلاف بين الجمهور والسكاكي في المحسن الذي يسمى بالتجريد في علم البديع مثل قول علقمة بن عبده في طالع قصيدته :

* طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَانِ طُرُوبِ *

مخاطبا نفسه على طريقة التجريد ، فهذا ليس بالثفات عند الجمهور وهو معدود من الالتفات عند السكاكي ، فتسمية الالتفات التفاتا على رأى الجمهور باعتبار أن عدول التكلم عن الطريق الذي سلكه إلى طريق آخر يشبه حالة الناظر إلى شيء ثم يلتفت عنه ، وأما تسميته التفاتا على رأى السكاكي فتجري على اعتبار الغالب من صور الالتفات دون صورة التجريد ، ولعل السكاكي ألزم هذه التسمية لأنها تقررت من قبله فتابع هو الجمهور في هذا الاسم . ومما يجب

(١) الهمة في قوله : أصم للاستفهام المستعمل في التنبيه . والمشعر : آلة الشغار أى الطرد وهو يعنى ذئب البعير . والأذبة - بكسر الهمزة - جمع ذبابة . والخلبة - بضم الخاء المعجمة وسكون اللام حلقة من ليف . واللاحب : الطريق وهو متعلق بقوله هباب . والأطبة - جمع طباب - وهو الشراك يجمع بين الأديمين .

التنبه له أن الاسم الظاهر معتبر من قبيل الغائب على كلا الرأيين ، ولذلك كان قوله تعالى «إياك نعبد» التفتاً على كلا الرأيين لأن ما سبق من أول السورة إلى قوله «إياك نعبد» تعبير بالاسم الظاهر وهو اسم الجلالة وصفاته . ولأهل البلاغة عناية بالالتفات لأن فيه تجديد أسلوب التعبير عن المعنى بمعناه تحاشياً من تكرار الأسلوب الواحد عدة مرار فيحصل بتجديد الأسلوب تجديد نشاط السامع كي لا يمل من إعادة أسلوب بعينه . قال السكاكي في المفتاح بعد أن ذكر أن العرب يستكثرون من الالتفات: «أفترأهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الأرواح فيخالفون بين أسلوب وأسلوب» . فهذه فائدة مطردة في الالتفات . ثم إن البلاء لا يقتصر على غالباً بل يراعى لالتفات لطائف ومناسبات ولم يزل أهل النقد والأدب يستخرجون ذلك من مغاصه .

وما هنا التفاتٌ بديع فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منهاها فتخيّل نفسه في حضرة الربوبية فخطب ربه بالإقبال . كعكس هذا الالتفات في قول محمد بن بشير الخارجي (نسبة إلى بني خازجة قبيلة) .

ذُمتَ ولم تُحمد وأدركتُ حاجةً تولى سواكم أجزها واصطناعها
أبى لك كسبَ الحمدِ رأيتُ مقصراً ونفسُ أضاق الله بالخير باعها
إذا هي حثته على الخير مرة عصاها وإن همت بشرٍ أطاعها

نخطبه ابتداء ثم ذكر قصور رأيه وعدم انطباع نفسه على الخير فالتفت من خطابه إلى التعبير عنه بضمير الغيبة فقال إذا هي حثته فكأنه تخيله قد تضاءل حتى غاب عنه . وبالعكس ذلك قوله تعالى «والذين كفروا بآيات الله ولقاءه أولئك يؤسوا من رحمتي» لاعتبار تشنيع كفر المتحدث عنهم بأنهم كفروا بآيات صاحب ذلك الاسم الجليل، وبعد تقرر ذلك انتقل إلى أسلوب ضمير المتكلم إذ هو الأصل في التعبير عن الأشياء المضافة إلى ذات التكلم . ومما يزيد الالتفات وقفاً في الآية أنه تخلص من الثناء إلى الدعاء ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله «إياك نعبد» تخلصاً يمجى بعده «أهدنا الصراط» ونظيره في ذلك قول النابغة في رثاء النعمان الغساني :

أبى غفلتي أنى إذا ما ذكرته تحرك داء في فؤادي داخل

وَأَنْ تَلَدِي إِنْ نَظَرْتُ وَشَكَّيْتُ وَمُهْرِي وَمَا ضَمَّتْ إِلَى الْأَنَامِلِ
جِبَاؤُكَ وَالْمَيْسُ الْمُتَأَقُّ كَأَنَّهَا هِجَانُ الْمَهَى تُزْجِي عَلَيْهَا الرَّحَائِلِ

وأبو الفتح ابن جني يسمى الالتفات « شجاعة العربية » كأنه عنى أنه دليل على حدة ذهن البليغ وتمكنه من تصريف أساليب كلامه كيف شاء كما يتصرف الشجاع في مجال الوغى بالكر والفر .

وإياك ضمير خطاب في حالة النصب والأظهر أن كلمة إيا جعلت ليمتعِد عليها الضمير عند انفصاله ولذلك لزمها الضمائر نحو: إياي تعنى، وإياك أعنى، وإياهم أرجو . ومن هنالك التزم في التحذير لأن الضمير انفصل عند التزام حذف العامل . ومن النجاة من جعل (إِيَّا) ضميرا منفصلا ملازما حالة واحدة وجعل الضمائر التي معه أضيفت إليه للتأكيد . ومنهم من جعل (إِيَّا) اعتمادا للضمير كما كانت أي اعتمادا للمنادى الذي فيه ال . ومنهم من جعل (إِيَّا) اسما ظاهرا مضافا للمضمرات . والعبادة فعل يدل على الخضوع أو التعظيم الزائدين على المتعارف بين الناس . وأما إطلاقها على الطاعة فهو مجاز . والعبادة في الشرع أخص فتعرف بأنها فعل ما يرضى الرب من خضوع وامتنال واجتناب ، أو هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه ، وقال الرازي في تفسير قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » « العبادة تعظيم أمر الله والشفقة على الخلق . وهذا المعنى هو الذي اتفقت عليه الشرائع وإن اختلفوا في الوضع والهيئة والقلة والكثرة اهـ » فهي بهذا التفسير تشمل الامتنال لأحكام الشريعة كلها .

وقد فسر الصوفية العبادة بأنها فعل ما يرضى الرب . والعبودية بالرضا بما يفعل الرب . فهي أقوى . وقال بعضهم : العبودية الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود . والصبر على المفقود . وهذه اصطلاحات لامشاحة فيها .

قال الفخر « مراتب العبادة ثلاث : الأولى أن يعبد الله طمعا في الثواب وخوفا من العقاب وهي العبادة ، وهي درجة نازلة ساقطة لأنه جعل الحق وسيلة لنيل المطلوب . الثانية أن يعبد الله لأجل أن يتشرف بعبادته والانتساب إليه بقبول تكاليفه وهي أعلى من الأولى إلا

أنها ليست كاملة لأن القصور بالذات غير الله . الثالثة أن يعبد الله لكونه إلها خالقا مستحقا للعبادة وكونه هو عبدالله، وهذه أعلى المقامات وهو المسمى بالعبودية اه .

قلت ولم يسم الإمام المرتبة الثالثة باسم والظاهر أنها ملحقة في الاسم بالمرتبة الثالثة أعني العبودية لأن الشيخ ابن سينا قال في الإشارات « العارف يريد الحق لا شيء غيره ولا يُؤثر شيئاً على عرفانه وتمبُّدُه له فقط ولأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه لا رغبة أو رهبة اه . فجعلها حالة واحدة .

وما ادعاه الفخر في سقوط الدرجة الأولى ونزول مرتبتها قد غلب عليه فيه اصطلاح غلاة الصوفية وإلا فإن العبادة للطمع والخوف هي التي دعا إليها الإسلام في سائر إرشاده، وهي التي عليها جمهور المؤمنين وهي غاية التكليف، كيف وقد قال تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فإن بلغ المكلف إلى المرتبتين الآخرين فذلك فضل عظيم وقليل ما هم ، على أنه لا يخلو من ملاحظة الخوف والطمع في أحوال كثيرة ، نعم إن أفاضل الأمة متفاوتون في الاحتياج إلى التخويف والإطعام بمقدار تفاوتهم في العلم بأسرار التكليف ومصالحه وتفاوتهم في التمكن من مغالبة نفوسهم ، ومع ذلك لا يحيص لهم عن الرجوع إلى الخوف في أحوال كثيرة والطمع في أحوال أكثر . وأعظم دليل على ما قلنا أن الله تعالى مدح في كتابه المتقين في مواضع جمة ودعا إلى التقوى ، وهل التقوى إلا كاسمهما بمعنى الخوف والاتقاء من غضب الله قال تعالى « ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا » .

والمرتبة الثالثة هي التي أشار لها قوله صلى الله عليه وسلم لمن قال له كيف تُجهد نفسك في العبادة وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال « أفلا أكون عبدا شكورا » لأن من الظاهر أن الشكر هنا على نعمة قد حصلت فليس فيه حظ للنفس بالطمع في المزيد لأن الغفران العام قد حصل له فصار الشكر لأجل المشكور لا غير وتمحض أنه لا خوف ولا طمع^(١) .

(١) كأنهم اصطلاحوا على أن العبودية أبلغ من العبادة لما فيها من النسب لأن الأوصاف التي تلحقها بـ النسب يقصد منها المبالغة في الوصفية وذلك للجمع بين طريقي توصيف فإن صيغة الوصف تفيد التوصيف وصيغة النسب كذلك ولهذا كان قولهم أسحى أبلغ من أسجم ، ولحياني أبلغ من لحيان فالعبودية مصدر من هذا النوع . واعلم أن كون الشكر يشتمل على حظ للمشكور قد تقرر في بحث الحمد إذ بينا أن الحمد والشكر تزيين للعرض الحمد والمشكور لقول النابغة * شكرت لك النعمى * البيت .

واعلم أن من أهم المباحث البحث عن سر العبادة وتأثيرها وسر مشروعاتها لنا وذلك أن الله تعالى خلق هذا العالم ليكون مظهراً لكمال صفاته تعالى : الوجود ، والعلم ، والقدرة . وجعل قبول الإنسان للكمالات التي بمقياسها يعلم نسبة مبلغ علمه وقدرته من علم الله تعالى وقدرته ، وأودع فيه الروح والعقل اللذين بهما يزداد التدرج في الكمال ليكون غير قانع بما بلغه من المراتب في أوج الكمال والمعرفة ، وأرشده وهداه إلى ما يستعين به على مرامه ليحصل له بالارتقاء العاجل رُقيّ آجل لا يضمحل ، وجعل استعداداً لقبول الخيرات كلها عاجلاً وأجلاً متوقفاً على التلقين من السَّفَرَةِ المَوْحَى إليهم بأصول الفضائل . ولما توقف ذلك على مراقبة النفس في نَفَرَاتِهَا وَشَرَدَاتِهَا وكانت تلك المراقبة تحتاج إلى تذكّر المُجَازَى بالخير وضده ، شُرعت العبادة لِتَدَكَّرُ ذلك المُجَازَى لأن عدم حضور ذاته واحتجابَهُ بِسُبُحات الجلال يُسَرِّبُ نسيانَهُ إلى النفوس ، كما أنه جعل نظامه في هذا العالم متصل الارتباط بين أفرادهِ فأمرهم بلزوم آداب المعاشرة والمعاملة لئلا يفسد النظام ، وللمراقبة الدوام على ذلك أيضاً شُرعت العبادة لِتَدَكَّرُ به ، على أن في ذلك التذكّر دوام الفكر في الخالق وشؤونه وفي ذلك تخلّق بالكمالات تدريجاً فظهر أن العبادة هي طريق الكمال الذاتي والاجتماعي مَبْدَأً وَنَهَايَةً ، وبه يتضح معنى قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فالعبادة على الجملة لا تخرج عن كونها محققةً للمقصد من الخلق ، ولما كان سرُّ الخلق والناية منه خفية الإدراك عَرَفْنَا الله تعالى إياها بمظهرها وما يحققها جمعاً لعظيم المعاني في جملة واحدة وهي جملة « إلا ليعبدون » ، وقريب من هذا التقرير الذي نحواه وأقل منه قول الشيخ ابن سينا في الإشارات « لما لم يكن الإنسان بحيث يستقل وحده بأمر نفسه إلا بمشاركة آخر من بنى جنسه وبمعاوضة ومعارضة تجريان بينهما يُفرغ كل واحد منهما لصاحبه عن مهم لو تولاه بنفسه لآزدهم على الواحد كثير وكان مما يتدبر إن أمكن ، وجب أن يكون بين الناس معاملة وعدل يحفظه شرعٌ يَفْرِضُهُ شارعٌ متميزٌ باستحقاق الطاعة ووجب أن يكون للمحسن والسيء جزاء من عند القدير الخبير ، فوجب معرفة المُجَازَى والشارع وأن يكون مع المعرفة سبب حافظ للمعرفة ففُرِضَتْ عليهم العبادة المذكَرَةُ للمعبود ، وكررت عليهم لِيُسْتَحَفَّظَ التذكُّرُ بالتكرير اهـ » .

لا شك أن داعي العبادة التعظيم والإجلال وهو إما عن محبة أو عن خوف مجرد ،

وأهمه ما كان عن محبة لأنه يرضى نفس فاعله قال :

أهابك إجلالا وما بك قدرةً على ولكن ملء عين حبيبها
وهي تستلزم الخوف من غضب المحبوب قال محمود الوراق ، أو منصور الفقيه :
تَعَصَى الْإِلَٰهَ وَأَنْتَ تُظَهِّرُ حَبِّهَ هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطقتَه إن الحب لمن يُحِبُّ مطيع
ولذلك قال تعالى « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » فذلك يشعر بأن اتباع
الشريعة يوجب محبة الله وأن الحب يود أن يحبه حبيبته كما قال المتنبي :

أنت الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون مُحِبًا غير محبوب
وإلى هذا النوع ترجع عبادة أكثر الأمم ، ومنها العبادة المشروعة في جميع الشرائع
لأنها مبنية على حب الله تعالى ، وكذلك عبادة المشركين أصنامهم قال تعالى « ومن الناس
مَن يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » . ومن الأمم من عبدت عن خوف دون
محبة وإنما هو لاتقاء شر كما عبدت بعض الأمم الشياطين وعبدت المانية من المجوس المعبود
(أَهْرُمُنْ) وهو عندهم رب الشر والضر ويرمزون إليه بعنصر الظلمة وأنه تولد من خاطر
سوء خطر للرب (يَزْدَانْ) إله الخير ، قال المری :

فُكَّرَ يَزْدَانُ عَلَى غِرَّةٍ فَصِيغَ مِنْ تَفْكِيزِهِ أَهْرُمُنْ

والحصر المستفاد من تقديم المفعول في قوله تعالى « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » حصر حقيق لأن
المؤمنين الملقين لهذا الحمد لا يعبدون إلا الله . وزعم ابن الحاجب في إيضاح الفصل في شرح
ديباجة الفصل عند قول الزمخشري « الله أحمد » أن التقديم لا يفيد إلا الاهتمام دون حصر
وأن قوله تعالى « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » تقديم المفعول للاهتمام دون قصر وأن تمسكهم بقوله « بل الله
فاعبُد » ضعيف لورود « فاعبُد الله مخلصا له الدين » وإبطال رأيه مقرر في كتب علم الماني .
وأنا أرى استدلاله بورود قوله تعالى « فاعبد الله » لا يليق بمقامه العلمي إذ لا يظن أن محامل
الكلام متماثلة في كل مقام ، « وإياك نستعين » جملة معطوفة على جملة « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » وإنما تفصل عن
جملة « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » بطريقة تعداد الجمل مقام التضرع ونحوه من مقامات التعداد والتكرير كلا
أو بعضا للإشارة إلى خطورة الفعلين جميعا في إرادة المتكلمين بهذا التخصيص ، أي نخضك

بالاستعانة أيضا مع تخصيصك بالعبادة . والاستعانةُ طلبُ العون . والعون والإعانة تسهيل
 فعل شيء يشق ويصعب على المستعين وحده ، فهي تحصل بإعداد طريق تحصيله من إغارة
 آلة ، أو مشاركة بعمل البدن كالحمل والقود ، أو بقول كالإرشاد والتعليم ، أو برأى
 كالنصيحة . قال الحريري في المقامة « وخلق نعم العون » ، أو بحال كدفع الغرم ، بحيث
 يحصل الأمر بمسير من جهود المستعين والمعين . وأما الاستعانة بالله فهي طلب المونة على
 ما لا قبل للبشر بالإعانة عليه ولا قبل للمستعين بتحصيله بمفرده ، ولذلك فهي مشعرة بأن
 المستعين يصرف مقدورته لتحصيل الفعل ويطلب من الله العون عليه بتيسير ما لا قبل لقدرة
 المستعين على تحصيله بمفرده ، فهذه هي المونة شرعا وقد فسرها العلماء بأنها هي خلق مابة
 تمام الفعل أو تيسيره ، فتتقسم قسمين ضرورية أى ما يتوقف الفعل عليها فلا يحصل بدونها
 أى لا يحصل بدون توفر متعلقاتها وهي إعطاء الاقتدار للفاعل وتصوره للفعل وحصول المادة
 والآلة ، ومجموع هاته الأربعة يعبر عنه بالاستطاعة ، ويعبر عنها بسلامة الأسباب والآلات
 وبها يصح تكليف المستطيع . القسم الثانى المونة غير الضرورية وينبنى أن تخص باسم
 الإعانة وهي إيجاد المعين ما ييسر به الفعل للمعان حتى يسهل عليه ويقرب منه كإعداد
 الراحلة في السفر للقادر على المشى . وبانضمام هذا المعنى للمعنى الأول تم حقيقة التوفيق
 المعروف عندهم بأنه خلق القدرة والداعية إلى الطاعة ، وسمى الراغب هذا القسم الثانى
 بالتوفيق ولا تعارض بين كلامه وبين تعريفهم إياه لما علمت من أنه لا يحصل إلا بعد حصول
 المونة بالمعنى الأول فتم التوفيق ؛ والمقصود هنا الاستعانة على الأفعال المهمة كلها التى
 أعلاها تلقى الدين وكل ما يمسر على الرء تذليله من توجهات النفوس إلى الخير وما يستتبع
 ذلك من تحصيل الفضائل . وقرينة هذا المقصود رسمه في فاتحة الكتاب ووقوع تخصيص
 الإعانة عقب التخصيص بالعبادة . ولذلك حذف متعلق نستمين الذى حقه أن يذكر مجورا
 بملئ ، وقد أفاد هذا الحذف الهامم عموم الاستعانة المقصورة على الطلب من الله تأدبا معه
 تعالى ، ومن توابع ذلك أسبابه وهى المعارف والإرشادات والشرائع وأصول العلوم
 فكلها من الإعانة المطلوبة وكلها من الله تعالى فهو الذى ألهمنا مبادئ العلوم وكلفنا
 الشرائع ولقننا النطق ، قال « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين وهدينا النجدين » -
 فالأول إيماء إلى طريق المعارف وأصلها المحسوسات وأعلاها البصرات ، والثانى إيماء إلى

النطق والبيان للتعليم ، والثالث إلى الشرائع . والحصر المستفاد من التقديم في قوله « وإياك نستعين » حصر ادعائى للمبالغة لعدم الاعتداد بالاستعانة المتعارفة بين الناس بعضهم ببعض في شئونهم ، ومعنى الحصر هنا لا نستعين على عظام الأمور التي لا يستعان فيها بالناس إلا بالله تعالى . ويفيد هذا القصر فيهما التعريض بالمشركين الذين يعبدون غير الله ويستعينون بغيره لأنهم كانوا فريقين منهم من عبد غير الله على قصد التشريك إلا أن ولّاه واستهتاره بغير الله تعالى أنساء عبادة الله تعالى كما عبدت سبأ الشمس وعبد الفرس النور والظلمة ، وعبد القبط العجل وأهلوا الهرعنة ، وعبدت أم السودان الحيوانات كالثعابين . ومن المشركين من أشرك مع عبادة الله عبادة غيره وهذا حال معظم العرب ممن عبد الأصنام أو عبد الكواكب ، فقد عبدت ضبة وتيم وعُكل الشمس ، وعبدت كنانة القمر ، وعبدت لحم وخزاعة وبعض قريش الشعري ، وعبدت تميم الدبران ، وعبدت طي الثريا ، وهؤلاء كلهم جعلوا الآلهة بزعمهم وسيلة يتقربون بها إلى الله تعالى ، فهؤلاء جمعوا العبادة والاستعانة بهم لأنّ جمّلتهم وسيلة إلى الله ضرب من الاستعانة ، وإنما قلنا إن استفادة الرد على المشركين ونحوهم بطريق التعريض أى بطريق عرض الكلام لأن القصر الحقيقي لا يصلح أن يكون لرد الاعتقاد إلا تعريضا لأن معناه حاصل على الحقيقة كما أشار إليه السلكوتى في حاشية التفسير . فإن قلت كيف أمرنا بأن لا نعبد إلا الله ولا نستعين إلا به حسبما تشير إليه هذه الآية ، وقد ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما علم عبد الله ابن عباس قال له إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فلم يأت بصيغة قصر قلت قد ذكر الشيخ الجد قدس الله روحه في تعليقه على هذا الحديث أن ترك طريقة القصر إيماء إلى أن المقام لا يقبل الشراكة وأن من حق السؤال أن لا يكون إلا لله القادر العليم . وقد قال علماء البلاغة إذا كان الفعل مقصورا في نفسه فارتكاب طريق القصر لغو من الكلام اه . وأقول تقيية على أثره إن مقام الحديث غير مقام الآية فمقام الحديث مقام تعليم خاص لمن نشأ وشب وترجل في الإسلام فتقرّر قصر الحكم لديه على طرف الثمام ولذلك استغنى عنه وأما مقام هذه الآية فمقام مفتّح الوحي والتشريع واستهلال الوعظ والتفريع ، فناسب تأكيد الحكم بالقصر مع التعريض بحال الشرك الشنيع على أن تعليق الأمر بهما في جواب الشرط على حصول أى سؤال وأية استعانة يفيد مفاد القصر . تعريضا بالمشركين

وبراءة من صنيعهم فقد كانوا يستمعون بألتهم . ومن ذلك الاستقسام بالأزلام الموضوعه عند الآلهة والأصنام .

وضميرا « نعبد » « ونستعين » ، يعودان إلى تالى السورة ذاكرا معه جماعة المؤمنين . وفى العدول عن ضمير الواحد إلى الإتيان بضمير المتكلم المشارك الدلالة على أن هذه الحماد صادرة من جماعات . ففيه إغاظة للمشركين إذ يعلمون أن المسلمين صاروا فى عزة ومنمة ، ولأنه أبلغ فى الثناء من أعبد وأستعين لئلا تخلو المناجاة عن ثناء أيضا بأن المعبود المعبود المستعان قد شهد له الجماعات وعرفوا فضله ، وقريب من هذا قول النابغة فى رثاء النعمان بن الحارث الفسائى :

قمودا له غسان يرجون أوبة وترك ورهط الأعجمين وكأبل

إذ قصد من تعداد أصناف من الأمم الكناية عن عظمة النعمان وكثرة رعيته .
فكأنَّ الحماد لما انتقل من الحمد إلى المناجاة لم يغادر فرصة يقتنص منها الثناء إلا انتهزها

ووجه تقديم قوله إياك نعبد على قوله وإياك نستعين أن العبادة تقرب للخالق تعالى فهى أجدر بالتقديم فى المناجاة . وأما الاستعانة فهى لنفع المخلوق للتيسير عليه فناسب أن يقدم المناجى ما هو من عزمه وصنعه على ما يسأله مما يعين على ذلك ، ولأن الاستعانة بالله تتركب على كونه معبودا للمستعين به ولأن من جملة ما تطلب الإعانة عليه العبادة فكانت متقدمة على الاستعانة فى التعقل . وقد حصل من ذلك التقديم أيضا إيفاء حق فواصل السورة المبنية على الحرف الساكن المتماثل أو القريب فى مخرج اللسان (وأعيد لفظ إياك) فى الاستعانة دون أن يعطف فعل نستعين على نعبد مع أنهما مقصودان جميعا كما أنبأ عنه عطف الجملة على الجملة لأن بين الحصرين فرقا ، فالحصر فى إياك نعبد حقيقى والقصر فى إياك نستعين ادعائى فإن المسلم قد يستعين غير الله تعالى كيف وقد قال تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » ولكنه لا يستعين فى عظام الأمور إلا بالله ولا يعد الاستعانة حقيقة إلا الاستعانة بالله تعالى .

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

تهياً لأصحاب هذه النجاة أن يسعوا إلى طلب حظوظهم الشريفة من الهداية بعد أن حمدوا الله ووصفوه بصفات الجلالة ثم أتبعوا ذلك بقولهم إياك نعبد وإياك نستعين الذي هو واسطة جامع بين تعجيد الله تعالى وبين إظهار العبودية وهي حظ العبد بأنه عابد ومستعين وأنه قاصر ذلك على الله تعالى ، فكان ذلك واسطة بين الثناء وبين الطلب ، حتى إذا ظنوا برهم الإقبال عليهم ورجوا من فضله ، أفضوا إلى سُؤال حظهم فقالوا «أهدنا الصراط المستقيم» فهو حظ الطالبين خاصة لما يفهمهم في عاجلهم وآجلهم ، فهذا هو التوجيه المناسب لكون الفاتحة بمنزلة الديباجة للكتاب الذي أنزل هدى للناس ورحمة فتتزل هاته الجملة مما قبلها منزلة المقصد من الديباجة ، أو الموضوع من الخطبة ، أو التخلص من القصيدة ، ولاختلاف الجمل المتقدمة معها بالخبرية والإنشائية فصلت هذه عنهن ، وهذا أولى في التوجيه من جعلها جواباً لسؤال مقدر على ما ذهب إليه صاحب الكشف .

والهداية الدلالة بتلطف ولذلك خصت بالدلالة لما فيه خير المدلول لأن التلطف يناسب من أريد به الخير ، وهو يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه لأن معناه معنى الإرشاد ، ويتعدى إلى المفعول الثاني وهو المهدي إليه يالئ وباللام والاستعمالان واردة ، تقول هديته إلى كذا على معنى أوصلته إلى معرفته ، وهديته لكذا على معنى أرشدته لأجل كذا «فأهدوهم إلى صراط الجحيم» ، «الحمد لله الذي هدانا لهذا» وقد يعدى إلى المفعول الثاني بنفسه كما هنا على تضمينه معنى عرف قيل هي لفظة أهل الحجاز وأما غيرهم فلا يعدي بنفسه وقد جعلوا تعديته بنفسه من التوسع المعبر عنه بالحذف والإيصال . وقيل الفرق بين المتعدي وغيره أن المتعدي يستعمل في الهداية لمن كان في الطريق ونحوه ليزداد هدى ومصدره حينئذ الهداية ، وأما هداه إلى كذا أو لكذا فيستعمل لمن لم يكن سائراً في الطريق ومصدره هدى ، وكأن صاحب هذا القول نظر إلى أن المتعدي بالحرف إنما عدى لتقويته والتقوية إما أن يقصد بها تقوية العامل لضعفه في العمل بالفرعية أو التأخير ، وإما أن يقصد بها تقوية معناه ، والحق أن هذا إن تم فهو أغلبي على أنه تخصيص من الاستعمال فلا يقتضي كون الفعل مختلف المعنى لأن الفعل لا تختلف معانيه باعتبار كيفية تعديته إلا إذا ضمن معنى فعل آخر ،

على أن كلا من الهدى والهداية اسم مصدر والمصدر هو الهدى . والذي أراه أن التعمدية والقصور ليسا من الأشياء التي تصنع باليد أو يصطلح عليها أحد ، بل هي جارية على معنى الحدث المدلول للفعل فإن كان الحدث يتقوم معناه بمجرد تصور من قام به فهو الفعل القاصر وإن كان لا يتقوم إلا بتصور من قام به ومن وقع عليه فهو التعمدى إلى واحد أو أكثر ، فإن أشكلت أفعال فإنما إشكالها لعدم اتضاح تشخص الحدث المراد منها لأن معناها يحوم حول معان متعددة . وهدى متعد لواحد لا محالة ، وإنما الكلام في تعديته لثان فالحق أنه إن اعتبر فيه معنى الإراءة والإبانة تعدى بنفسه وإن اعتبر فيه مطلق الإرشاد والإشارة فهو متعد بالحرف فحالة تعديته هي المؤذنة بالحدث المتضمن له .

وقد قيل إن حقيقة الهداية الدلالة على الطريق للوصول إلى المكان المقصود فالهادى هو العارف بالطرق وفي حديث الهجرة « إن أبا بكر استأجر رجلا من بنى الديل هاديا خريتا » وإن ما نشأ من معانى الهداية هو مجازات شاع استعمالها . والهداية في اصطلاح الشرع حين تسند إلى الله تعالى هي الدلالة على ما يرضى الله من فعل الخير ويقابلها الضلالة وهي التفرير . واختلف علماء الكلام في اعتبار قيد الإيصال إلى الخير في حقيقة الهداية فالجمهور على عدم اعتباره وأنها الدلالة على طريق الوصول سواء حصل الوصول أم لم يحصل وهو قول الأشاعرة وهو الحق . وذهب جماعة منهم الزغشرى إلى أن الهداية هي الدلالة مع الإيصال وإلا لما امتازت عن الضلالة أى حيث كان الله قادرا على أن يوصل من يهديه إلى ما يهداه إليه ، ومرجع الخلاف إلى اختلافهم في أصل آخر وهو أصل معنى رضى الله ومشيئته وإرادته وأمره ، فأصحاب الأشعرى اعتبروا الهداية التي هي من متعلق الأمر . والمهتلة نظروا إلى الهداية التي هي من متعلق التكوين والخلق ، ولا خلاف في أن الهداية مع الوصول هي المطلوبة شرعا من الهادى والمهدى مع أنه قد يحصل الخطأ للهادى وسوء القبول من المهدى وهذا معنى ما اختار عبد الحكيم أنها موضوعة في الشرع لقدر المشترك لورودها في القرآن في كل منهما قال « إنك لاهدى من أحببت » وقال « وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا أعمى على الهدى » والأصل عدم الاشتراك وعدم المجاز .

والهداية أنواع تندرج كثرتها تحت أربعة أجناس مرتبة : الأول إعطاء القوى الحركة والدركة التي بها يكون الاهتداء إلى انتظام وجود ذات الإنسان ، ويندرج تحتها أنواع

تبتدىء من إلهام الصبي التقام الثدي والبكاء عند الألم إلى غاية الوجدانيات التي بها يدقع عن نفسه كإدراك هول المهلكات وبشاعة المنافرات ، ويجلب مصالحه الوجودية كطلب الطعام والماء وذود الحشرات عنه وحك الجلد واختلاج العين عند مرور ما يؤذى تجاهها ، ونهايتها أحوال الفكر وهو حركة النفس في المعقولات أعني ملاحظة المقول لتحصيل المجهول في البديهيات وهي القوة الناطقة التي انقرض بها الإنسان المنزعجة من العلوم المحسوسة . الثاني نصب الأدلة الفارقة بين الحق والباطل والصواب والخطأ، وهي هداية العلوم النظرية . الثالث الهداية إلى ما قد تقصّر عنه الأدلة أو يفضى إعمالها في مثله إلى مشقة وذلك بإرسال الرسل وإزالة الكتب وموازين القسط وإليها الإشارة بقوله تعالى في شأن الرسل « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » . الرابع أقصى أجناس الهداية وهي كشف الحقائق العليا وإظهار أسرار المعاني التي حارت فيها أبواب العقلاء إما بواسطة الوحي والإلهام الصحيح أو التجليات، وقد سمي الله تعالى هذا هدى حين أضافه للأنبياء فقال « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

ولا شك أن المطلوب بقوله « اهدنا » الملقن للمؤمنين هو ما يناسب حال الداعي بهذا إن كان باعتبار داع خاص أو طائفة خاصة عندما يقولون اهدنا، أو هو أنواع الهداية على الجملة باعتبار توزيعها على من تأهل لها بحسب أهليته إن كان دعاء على لسان المؤمنين كلهم المخاطبين بالقرآن ، وعلى كلا التقديرين فبعض أنواع الهداية مطلوب حصوله لمن لم يبلغ إليه ، وبعضها مطلوب دوامه لمن كان حاصله خاصة أو لجميع الناس الحاصل لهم، وذلك كالهداية الحاصلة لنا قبل أن نسألها مثل غالب أنواع الجنس الأول .

وصيغة الطلب موضوعة لطلب حصول الماهية المطلوبة من فعل أو كف فإذا استعملت في طلب الدوام كان استعمالها مجازاً نحو « يا أيها الذين آمنوا آمِنُوا » وذلك حيث لا يراد بها إلا طلب الدوام . وأما إذا استعملت في طلب الدوام للزيادة مما حصل بعضه ولم يحصل بعضه فهي مستعملة في معناها وهو طلب الحصول لأن الزيادة في مراتب الهداية مثلاً تحصيل مواد أخرى منها . ولما كان طلب الزيادة يستلزم طلب دوام ما حصل إذ لا تكاد تنفع الزيادة إذا انتقض الأصل كان استعمالها حينئذ في لازم المعنى مع المعنى فهو كناية . أما إذا قال اهدنا الصراط المستقيم من بلغ جميع مراتب الهداية ورتق إلى قمة غاياتها وهو النبي صلى الله

عليه وسلم فإن دعاءه حينئذ يكون من استعمال اللفظ في مجاز معناه ويكون دعاءه ذلك اقتباساً من الآية وليس عين المراد من الآية لأن المراد منها طلب الحصول بالزيد مع طلب الدوام بطريقة الالتزام ولا محالة أن المقصود في الآية هو طلب الهداية الكاملة .

والصراط الطريق وهو بالصاد وبالسین وقد قرئ بهما في الشهورة وكذلك نطقت به بالسین جمهور العرب إلا أهل الحجاز نطقوه بالصاد مبدلة عن السین لقصد التخفيف في الانتقال من السین إلى الراء ثم إلى الطاء قال في لطائف الإشارات عن الجعبري إنهم يفعلون ذلك في كل سین بمدها غین أو خاء أو قاف أو طاء وإنما قلبوها هنا صاداً لتطابق الطاء في الإطباق والاستعلاء والتفخيم مع الراء استتقالاً للانتقال من سفلى إلى علو اهـ .
أى بخلاف العكس نحو طست لأن الأول عمل واثنائى ترك . وقیس قلبوا السین بین الصاد والزای وهو إشتام وقرأ به حمزة في رواية خلف عنه . ومن العرب من قلب السین زایا خالصة قال القرطبي : وهى لغة عُذرة وکلب وبنی القین وهى مرجوحة ولم يُقرأ بها ، وقد قرأ باللغة الفصحى (بالصاد) جمهور القراء وقرأ بالسین ابن كثير في رواية قبل ، والقراءة بالصاد هى الراجحة لموافقتها رسم المصحف وكونها اللغة الفصحى .

فإن قيل كيف كتبت في المصحف بالصاد وقرأها بمضى القراء بالسین ؟ قلت إن الصحابة كتبوها بالصاد تنبيها على الأفصح فيها لأنهم يكتبون بلغة قريش واعتمدوا على علم العرب . فالذين قرأوا بالسین تأولوا أن الصحابة لم يتركوا لغة السین للعلم بها فعادوا الأفصح بالأصل ولو كتبوها بالسین مع أنها الأصل لتوهم الناس عدم جواز العدول عنه لأنه الأصل والمرسوم كما كتبوا المصيطر بالصاد مع العلم بأن أصله السین فهذا مما يرجع الخلاف فيه إلى الاختلاف في أداء اللفظ لا في مادة اللفظ لشهرة اختلاف لهجات القبائل في لفظ مع اتحادهم .

والصراط اسم عربى ولم يقل أحد من أهل اللغة أنه معرب ولكن ذكر في الإتيان عن النقاش وابن الجوزى أنه الطريق بلغة الروم وذكر أن أبا حاتم ذكر ذلك في كتاب الزينة له وبنى على ذلك السيوطى فزاده في منظومته في المعرب ، والصراط في هذه الآية مستعار لمعنى الحق الذى يبلغ به مدرکه إلى الفوز برضاء الله لأن ذلك الفوز هو الذى جاء الإسلام بطلبه .

والمستقيم اسم فاعل استقام مطاوع قومته فاستقام ، والمستقيم الذى لا عوج فيه ولا تعاريج ، وأحسن الطرق الذى يكون مستقيماً وهو الجادة لأنه باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره فلا يضل فيه سالكه ولا يتردد ولا يتحير . والمستقيم هنا مستعار للحق البين الذى لا تخلفه شبهة باطل فهو كالطريق الذى لا تتخلله بُنيّات ، عن ابن عباس أن الصراط المستقيم دين الحق ، ونقل عنه أنه ملة الإسلام ، فكلامه يفسر بعضه بعضاً ولا يريد أنهم لقنوا الدعاء بطلب الهداية إلى دين مضى وإن كانت الأديان الإلهية كلها صُرُطاً مستقيمة بحسب أحوال أممها يدل لذلك قوله تعالى فى حكاية غواية الشيطان « قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم » .

فالتعريف فى الصراط المستقيم تعريف العهد الذهنى ، لأنهم سألوا الهداية لهذا الجنس فى ضمن فرد وهو الفرد المنحصر فيه الاستقامة لأن الاستقامة لا تتعدد كما قال تعالى « فإذا بعد الحق إلا الضلال » ولأن الضلال أنواع كثيرة كما قال « ولو أعجبك كثرة الخيث » وقد يوجه هذا التفسير بحصول الهداية إلى الإسلام فعلمهم الله هذا الدعاء لإظهار منته وقد هداهم الله بما سبق من القرآن قبل نزول الفاتحة ويهديهم بما لحق من القرآن والإرشاد النبوى . وإطلاق الصراط المستقيم على دين الإسلام ورد فى قوله تعالى « قل إننى هدى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً » . والأظهر عندى أن المراد بالصراط المستقيم المعارف الصالحات كلها من اعتقاد وعمل بأن يوفقهم إلى الحق والتمييز بينه وبين الضلال على مقادير استعداد النفوس وسعة مجال العقول النيرة والأفعال الصالحة بحيث لا يعتريهم زيغ وشبهات فى دينهم وهذا أولى ليكون الدعاء طلب تحصيل ما ليس بحاصل وقت الطلب وإن المرء بحاجة إلى هذه الهداية فى جميع شؤونها كلها حتى فى الدوام على ما هو متلبس به من الخير للوقاية من التقصير فيه أو الزيغ عنه . والهداية إلى الإسلام لا تُقَصَّر على ابتداء اتباعه وتقلده بل هى مستمرة باستمرار تشريعاته وأحكامه بالنص أو الاستنباط . وبه يظهر موقع قوله « غير المنضوب عليهم ولا الضالين » مصادفاً الحز.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

بدل أو عطف بيان من الصراط المستقيم، وإنما جاء نظم الآية بأسلوب الإبدال أو البيان دون أن يقال: إهدنا صراط الذين أنعمت عليهم المستقيم، لفائدتين: الأولى أن المقصود من الطلب ابتداء هو كون المهدى إليه وسيلة للنجاة واضحة ممحة سهلة، وأما كونها سبيل الذين أنعم الله عليهم فأمر زائد لبيان فضله. الفائدة الثانية ما في أسلوب الإبدال من الإجمال المعقب بالتفصيل ليتمكن معنى الصراط للمطلوب فضل تمكن في نفوس المؤمنين الذين لقنوا هذا الدعاء فيكون له من الفائدة مثل ما للتوكيد المعنوي، وأيضاً لما في هذا الأسلوب من تقرير حقيقة هذا الصراط وتحقيق مفهومه في نفوسهم فيحصل مفهومه مرتين فيحصل له من الفائدة ما يحصل بالتوكيد اللفظي واعتبار البدلية مساو لاعتباره عطف بيان لامتزجية لأحدهما على الآخر خلافاً لمن حاول التفاضل بينهما، إذ التحقيق عندي أن عطف البيان اسم لنوع من البديل وهو البديل المطابق وهو الذي لم يفصح أحد من النحاة على تفرقة معنوية بينهما ولا شاهداً يعين المصير إلى أحدهما دون الآخر. قال في الكشف «فإن قلت ما فائدة البديل قلت فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير» اه فافهم كلامه أن فائدة الإبدال أمران يرجعان إلى التوكيد وهما ما فيه من التثنية أي تكرار لفظ البديل ولفظ المبدل منه وعننى بالتكرير ما يفيد البديل عند النحاة من تكرير العامل وهو الذي مهد له في صدر كلامه بقوله «وهو في حكم تكرير العامل كأنه قيل: إهدنا الصراط المستقيم إهدنا صراط الذين، وسماه تكريراً لأنه إعادة للفظ بعينه، بخلاف إعادة لفظ المبدل منه فإنه إعادة له بما يتحد مع مصادقه فلذلك عبر بالتكرير وبالتثنية، ومراده أن مثل هذا البديل وهو الذي فيه إعادة لفظ المبدل منه يفيد فائدة البديل وفائدة التوكيد اللفظي، وقد علمت أن الجمع بين الأمرين لا يتأتى على وجه معتبر عند البلغاء إلا بهذا الصوغ البديع.

وإن إعادة الاسم في البديل أو البيان ليبنى عليه ما يراد تعلقه بالاسم الأول أسلوبٌ بهيج من الكلام البليغ لإشعار إعادة اللفظ بأن مدلوله يحلّ العناية وأنه حبيب إلى النفس، ومثله تكرير الفعل كقوله تعالى «وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً» وقوله «ربنا هؤلاء الذين أغويّنا أغويّناهم كما غويّنا» فإن إعادة فعل مرّوا وفعل أغويّناهم وتعليق المتعلق بالفعل المعاد دون الفعل الأول تجد له من الروعة والبهجة ما لا تجده لتعليقه بالفعل الأول

دون إعادة ، وليست الإعادة في مثله لجرد التأكيد لأنه قد زيد عليه ما تعلق به .
قال ابن جني في شرح مشكل الحاشية عند قول الأحوص :

فَإِذَا تَزَوَّلُ تَزَوَّلُ عَنْ مُتَخَمِّطٍ تُخْشَى بَوَادِرُهُ عَلَى الْأَقْرَانِ

عَالٌ أَنْ يَقُولَ إِذَا قُمْتَ قُمْتَ وَإِذَا أَعْمَدُ أَعْمَدُ لَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الثَّانِي غَيْرُ مَا فِي الْأَوَّلِ
وإنما جاز أن يقول فَإِذَا تَزَوَّلُ تَزَوَّلُ لِمَا اتصل بالفعل الثاني من حَرَفِ الجَرِ المفادة منه الفائدة ،
ومثله قول الله تعالى « هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » وقد كان أبو علي (يعني
الفارسي) امتنع في هذه الآية مما أخذناه اه . قلت ولم يتضح توجيه امتناع أبي علي فعله
امتنع من اعتبار أَغْوَيْنَاهُمْ بدلا من أَغْوَيْنَا وجعله استثنافا وإن كان المآل واحدا .
وفي استحضر النعم عليهم بطريق الموصول ، وإسناد فعل الإنعام عليهم إلى ضمير الجلالة ،
تنويه بشأنهم خلافا لغيرهم من المغضوب عليهم والضالين .

ثم إن في اختيار وصف الصراط المستقيم بأنه صراط الذين أنعمت عليهم دون بقية
أوصافه تمهيدا لبسط الإجابة فإن الكريم إذا قلت له أعطني كما أعطيت فلانا كان ذلك
أَنْشَطَ لكرمه ، كما قرره الشيخ الجد قدس الله سره في قوله صلى الله عليه وسلم كما صليت
على إبراهيم ، فيقول السائلون اهدنا الصراط المستقيم الصراط الذي هديت إليه عبيد نعمك
مع ما في ذلك من التعريض بطلب أن يكونوا لاحقين في مرتبة الهدى بأولئك النعم عليهم ،
وتهمما بالاعتداء بهم في الأخذ بالأسباب التي ارتقوا بها إلى تلك الدرجات ، قال تعالى
« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » ، وتوطئة لما سيأتى بعد من التبري من أحوال المغضوب
عليهم والضالين فتضمن ذلك تفاؤلا وتعوذا .

والنعمة - بالكسر وبالفتح - مشتقة من النعيم وهو راحة العيش وملائم الإنسان
والترفيه ، والفعل كسمع ونصر وضرب . والنعمة الحالة الحسنة لأن بناء الفعله بالكسر
للهيئات ومتعلق النعمة الذات الحسية ثم استعملت في الذات المعنوية العائدة بالنفع ولو لم
يحسبها صاحبها . فالمراد من النعمة في قوله الذين أنعمت عليهم النعمة التي لم يشبها ما يكدرها
ولا تكون عاقبتها سوءاً ، فهي شاملة لخيرات الدنيا الخالصة من العواقب السيئة وخيرات
الآخرة ، وهي الأهم ، فيشمل النعم الدنيوية الموهوبية منها والكسبية ، والرؤحانية والجسمانية ،
ويشمل النعم الأخروية .

والنعمة بهذا المعنى يرجع معظمها إلى الهداية، فإن الهداية إلى الكسبي من الدنيوى وإلى الأخرى كـ ظاهرة فيها حقيقة الهداية ، ولأن الموهوب في الدنيا وإن كان حاصلًا بلا كسب إلا أن الهداية تتعلق بحسن استعماله فيما وُهب لأجله .

فالمراد من المنعم عليهم الذين أفيضت عليهم النعم الكاملة ولا تخفى تمام المناسبة بين المنعم عليهم وبين المهديين حينئذ فيكون في إبدال صراط الذين من الصراط المستقيم معنى بديع وهو أن الهداية نعمة وأن المنعم عليهم بالنعمة الكاملة قد هُودوا إلى الصراط المستقيم . والذين أنعم الله عليهم هم خيار الأمم السابقة من الرسل والأنبياء الذين حصلت لهم النعمة الكاملة . وإنما يلتزم كون المسئول طريق المنعم عليهم فيما مضى وكونه هو دين الإسلام الذى جاء من بعد باعتبار أن الصراط المستقيم جار على سنن الشرائع الحقّة في أصول الديانة وفروع الهداية والتقوى ، فسألوا دينًا قويًا يكون في استقامته كصراط المنعم عليهم فأجيبوا بدين الإسلام ، وقد جمع استقامة الأديان الماضية وزاد عليها . أو المراد من المنعم عليهم الأنبياء والرسل فإنهم كانوا على حالة أكمل مما كان عليه أممهم ، ولذلك وصف الله كثيرًا من الرسل الماضين بوصف الإسلام وقد قال يعقوب لأبنائه «فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون» ذلك أن الله تعالى رفق بالأمم فلم يبلغ بهم غاية المراد من الناس لعدم تأهلهم للاضطلاع بذلك ولكنه أمر الرسلين بأكمل الحالات وهى مراده تعالى من الخلق فى الغاية ، ولنمثل لذلك بشرب الخمر فقد كان القدر غير المسكر منه مباحا وإنما يحرم السكر أو لا يحرم أصلا غير أن الأنبياء لم يكونوا يتعاطون القليل من المسكرات وهو المقدار الذى هدى الله إليه هذه الأمة كلها ، فسواء فسرنا النعم عليهم بالأنبياء أو بأفضل أتباعهم أو بالمسلمين السابقين فالمقصود الهداية إلى صراط كامل ويكون هذا الدعاء محمولا في كل زمان على ما يناسب طرق الهداية التى سبقت زمانه والتى لم يبلغ إلى نهايتها .

والقول فى المطلوب من -اهدنا- على هذه التقادير كلها كالقول فيما تقدم من كون -اهدنا- لطلب الحصول أو الزيادة أو الدوام .

والدعاء مبنى على عدم الاعتداد بالنعمة غير الخالصة، فإن نعم الله على عباده كلهم كثيرة والكافر منعم عليه بما لا يمتري في ذلك ولكنها نعم تحفها آلام الفكرة في سوء العاقبة ومعقبا عذاب الآخرة . فالخلاف المفروض بين بعض العلماء في أن الكافر هل هو منعم عليه خلاف لا طائل تحته فلا فائدة في التطويل بطواهر أدلة الفريقين .

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ٧

كلمة غير مجرورة باتفاق القراء العشرة وهي صفة للذين أنعمت عليهم . أو بدل منه والوصف والبدلية سواء في المقصود ، وإنما قدم في الكشف بيان وجه البدلية لاختصار الكلام عليها ليفضى إلى الكلام على الوصفية ، فيورد عليها كيفية صحة توصيف المعرفة بكلمة غير التي لا تعرف ، وإلا فإن جعل غير المغضوب صفة للذين هو الوجه وكذلك أعربه سيبويه فيما نقل عنه أبو حيان ووجهه بأن البدل بالوصف ضعيف إذ الشأن أن البدل هو عين المبدل منه أى اسم ذات له ، يريد أن معنى التوصيف في -غير- أغلب من معنى ذات أخرى ليست السابقة ، وهو وقوف عند حدود المهارات الاصطلاحية حتى احتاج صاحب الكشف إلى تأويل -غير المغضوب- بالذين ساموا من الغضب ، وأنا لا أظن الزمخشري أراد تأويل غير بل أراد بيان المعنى . وإنما صح وقوع غير صفة للمعرفة مع قولهم إن غير لتوغلها في الإبهام لا تقيدها الإضافة تعريفاً أى فلا يكون في الوصف بها فائدة التمييز فلا توصف بها المعرفة لأن الصفة يلزم أن تكون أشهر من الموصوف ، فغير وإن كانت مضافة للمعرفة إلا أنها لما تضمنه معناها من الإبهام انعدمت معها فائدة التعريف ، إذ كل شيء سوى المضاف إليه هو غير ، فإذا استفاد من الوصف في قولك مرتت يزيد غير عمرو . فالتوصيف هنا إما باعتبار كون الذين أنعمت عليهم ليس مراداً به فريق معين فكان وزان تعريفه بالصلة وزان المعرفة بأل الجنسية المسماة عند علماء المعاني بلام العهد الذهني ، فكان في المعنى كالنكرة وإن كان لفظه لفظ المعرفة فلذلك عرف بمثله لفظاً ومعنى ، وهو غير المغضوب الذي هو في صورة المعرفة لإضافته لمعرفة وهو في المعنى كالنكرة لعدم إرادة شيء معين ، وإما باعتبار تعريف غير في مثل هذا لأن غير إذا أريد بها نقي ضد الموصوف أى مساوى نقيضه صارت معرفة ، لأن الشيء يتعرف بنقيضه نحو عليك بالحركة غير السكون ، فلما كان من أنعم عليه لا يعاقب كان المعاقب هو المغضوب عليه ، هكذا نقل ابن هشام عن ابن السراج والسيرافي وهو الذي اختاره ابن الحاجب في أماليه على قوله تعالى « غَيْرَ أُولَى الضَّرَرِ » ونقل عن سيبويه أن غيراً إنما لم تتعرف لأنها بمعنى المغاير فهي كاسم الفاعل وألحق بها مثلاً وسوى وحسب وقال إنها تتعرف إذا قصد بإضافتها الثبوت . وكان مآل المذهبين واحد لأن غيراً إذا أضيفت

إلى ضد موصوفها وهو ضد واحد أى إلى مساوى تقيضه تعينت له الغيرية فصارت صفة ثابتة له غير منتقلة ، إذ غيرية الشيء لتقيضه ثابتة له أبداً فقولك عليك بالحركة غير السكون هو غير قولك مرتت بزيد غير عمرو وقوله « غير المغضوب عليهم » من النوع الأول .

ومن غرض وصف الذين أنعمت عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين التعمود مما عرض لأهم أنعم الله عليهم بالهداية إلى صراط الخير بحسب زمانهم بدعوة الرسل إلى الحق فتقلدوها ثم طرأ عليهم سوء الفهم فيها فغيروها وما رعوها حق رعايتها ، والتبرؤ من أن يكونوا مثلهم فى بَطَرِ النعمة وسوء الامتثال وفساد التأويل وتغليب الشهوات الدنيوية على إقامة الدين حتى حق عليهم غضب الله تعالى ، وكذا التبرؤ من حال الذين هُدوا إلى صراط مستقيم فما صرفوا عنايتهم للحفاظ على السير فيه باستقامة ، فأصبحوا من الضالين بعد الهداية إذ أساءوا صفة العلم بالنعمة فاقبلت هدايتهم ضلالا ، والظاهر أنهم لم يحق عليهم غضب الله قبل الإسلام لأنهم ضلوا عن غير تعمد فلم يسبق غضب الله عليهم قديما واليهود من جملة الفريق الأول ، والنصارى من جملة الفريق الثانى كما يعلم من الاطلاع على تاريخ ظهور الدينين فيهم . وليس يلزم اختصاص أول الوصفين باليهود والثانى بالنصارى فإن فى الأمم أمثالهم وهذا الوجه فى التفسير هو الذى يستقيم معه مقام الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم ولو كان المراد دين اليهودية ودين النصرانية لكان الدعاء تحصيلاً للحاصل فإن الإسلام جاء ناسخاً لهما . ويشمل المغضوب عليهم والضالون فرّق الكفر والفسوق والعصيان ، فالمغضوب عليهم جنس للفرق التى تعدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد أو عن تأويل بعيد جدا ، والضالون جنس للفرق التى أخطأت الدين عن سوء فهم وقلة إصغاء ؛ وكلا الفريقين مذموم لأننا مأمورون باتباع سبيل الحق وصرف الجهد إلى إصابته ، واليهود من الفريق الأول والنصارى من الفريق الثانى . وما ورد فى الأثر مما ظاهره تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى فهو إشارة إلى أن فى الآية تعريضا بهذين الفريقين اللذين حق عليهما هذان الوصفان لأن كلا منهما صار علما فيما أريد التعريض به فيه . وقد تبين لك من هذا أن عطف ولا الضالين على غير المغضوب عليهم ارتقاء فى التعوذ من شر سوء العاقبة لأن التعوذ من الضلال الذى جلب لأصحابه غضب الله لا يفتى عن التعوذ من الضلال الذى لم يبلغ بأصحابه تلك الدرجات وذلك وجه تقديم المغضوب عليهم على ولا الضالين ، لأن الدعاء كان بسؤال النفي ، فالتدرج فيه

يحصل بنى الأضعف بعد نقي الأقوى ، مع رعاية الفواصل .

والغضب المتعلق بالمغضوب عليهم هو غضبُ الله وحقيقة الغضب المعروف في الناس أنه كيفية تعرض للنفس يتبعها حركة الروح إلى الخارج وثوراتها فتطلب الانتقام ، فالكيفية سبب لطلب الانتقام وطلب الانتقام سبب لحصول الانتقام . والذي يظهر لى أن إرادة الانتقام ليست من لوازم ماهية الغضب بحيث لا تنفك عنه ولكنها قد تكون من آثاره ، وأن الغضب هو كيفية للنفس تعرض من حصول مالا يلائمها فتترتب عليه كراهية الفعل المغضوب منه وكراهية فاعله ، ويلازمه الإعراض عن المغضوب عليه ومعاملته بالعنف وبقطع الإحسان وبالأذى وقد يفضى ذلك إلى طلب الانتقام منه فيختلف الحد الذي يثور عند الغضب في النفس باختلاف مراتب احتمال النفوس للمنافرات واختلاف العادات في اعتبار أسبابه . فلعل الذين جعلوا إرادة الانتقام لازمة للغضب بنوا على القوانين العريية . وإذا كانت حقيقة الغضب يستحيل اتصاف الله تعالى بها وإسنادها إليه على الحقيقة للأدلة القطعية الدالة على تنزيه الله تعالى عن التغيرات الذاتية والعرضية ، فقد وجب على المؤمن صرف إسناد الغضب إلى الله عن معناه الحقيقي ، وطريقة أهل العلم والنظر في هذا الصرف أن يصرف اللفظ إلى المجاز بعلاقة الزوم أو إلى الكناية باللفظ عن لازم معناه فالذى يكون صفة لله من معنى الغضب هو لازمه ، أعنى العقاب والإهانة يوم الجزاء واللجنة أى الإبعاد عن أهل الدين والصلاح في الدنيا أو هو من قبيل التمثيلية .

وكان السلف في القرن الأول ومنتصف القرن الثاني يسكون عن تأويل هذه التشابهات لما رأوا في ذلك الإمساك من مصلحة الاشتغال بإقامة الأعمال التي هي مراد الشرع من الناس فلما نشأ النظر في العلم وطلب معرفة حقائق الأشياء وحدث قول الناس في معاني الدين بما لا يلائم الحق ، لم يجد أهل العلم بدا من توسيع أساليب التأويل الصحيح لإفهام المسلم وكبت الملحد ، فقام الدين بصنيعهم على قواعده . وتميز الخليل له عن ما كرهه وجاحده . وكلّ فيما صنعوا على هدى . وبعد البيان لا يرجع إلى الإجمال أبدا . وما تأولوه إلا بما هو معروف في لسان العرب مفهوم لأهله .

فغضبُ الله تعالى على العموم يرجع إلى معاملته الحائدين عن هديه العاصين لأوامره ويترتب عليه الانتقام وهو مراتب أقصاها عقاب المشركين والنافقين بالخلود في الدرك

الأسفل من النار وبدون الغضب الكراهية فقد ورد في الحديث « وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ » ، ويقابلها الرضى والمحبة وكل ذلك غير المشيئة والإرادة بمعنى التقدير والتكوين ، فلا يرضى لعباده الكفر « وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » « ولو شاء ربك ما فعلوه » « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » وتفصيل هذه الجملة في علم الكلام .

واعلم أن الغضب عند حكماء الأخلاق مبدأ من مجموع الأخلاق الثلاثة الأصلية التي يعبر عن جميعها بالعدالة وهي : الحكمة والعفة والشجاعة ، فالغضب مبدأ الشجاعة إلا أن الغضب يعبر به عن مبدأ نفساني لأخلاق كثيرة متطرفة ومعتدلة فيلقبون بالقوة الغضبية ما في الإنسان من صفات السَّبْعِيَّة وهي حب الغلبة ومن فوائدها دفع ما يضره ولها حد اعتدال وحد انحراف فاعتدالها الشجاعة وكبر الهمة ، وثبات القلب في المخاوف ، وانحرافها إما بالزيادة فهي التهور وشدة الغضب من شيء قليل والكبر والمُجَب والشراسة والحقد والحسد والقساوة ، أو بالنقصان فالجبن وخور النفس وصغر الهمة فإذا أُطلق الغضب لغةً انصرف إلى بعض انحراف الغضبية ، ولذلك كان من جوامع كَلِم النبي صلى الله عليه وسلم « أَنْ رجلاً قال له أوصني قال : لا تغضب فكرر مراراً فقال : لا تغضب » رواه الترمذی .

وسئل بعض ملوك الفرس بم دأب ملككم فقال : لأنامق على قدر الذنب لا على قدر الغضب .

فالغضب المنهى عنه هو الغضب للنفس لأنه يصدر عنه الظلم والعدوان ، ومن الغضب محمود وهو الغضب لحماية المصالح العامة وخصوصاً الدينية وقد ورد أن النبي كان لا يغضب لنفسه فإذا انتهكت حرمة من حرمت الله غضب لله .

وقوله « ولا الضالين » معطوف على المغضوب عليهم كما هو متبادر ، قال ابن عطية ، قال مكي ابن أبي طالب إن دخول لا لدفع توهم عطف الضالين على الذين أنعم عليهم ، وهو توجيه بعيد فالحق أن (لا) مزيدة لتأكيد النفي المستفاد من لفظ غير على طريقة العرب في المعطوف على ما في حيز النفي نحو قوله « أَنْ تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » وهو أسلوب في كلام العرب . وقال السيد في حواشي الكشف لثلاثتهم أن النفي هو المجموع فيجوز ثبوت أحدها ، ولما كانت غير في معنى النفي أجريت إعادة النفي في المعطوف عليها ، وليست زيادة (لا) هنا كزيادتها في نحو « ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك » كما توهمه بعض المفسرين ؛ لأن

تلك الزيادة لفظية ومعنوية لأن المعنى على الإثبات والتي هنا زيادة لفظية فحسب والمعنى على النفي . والضلال سلوك غير الطريق المراد عن خطأ سواء علم بذلك فهو يتطلب الطريق أم لم يعلم ، ومنه ضالة الإبل ، وهو مقابل الهدى وإطلاق الضال على المخطيء في الدين أو العلم استعارة كما هنا . والضلال في لسان الشرع مقابل الاهتداء والاهتداء هو الإيمان الكامل والضلال ما دون ذلك ، قالوا وله عرض عريض أدناه ترك السنن وأقصاه الكفر . وقد فسرنا الهداية فيما تقدم أنها الدلالة بلطف ، فالضلال عدم ذلك ، ويطلق على أقصى أنواعه الختم والطبع والأكنة .

والمراد من المفضوب عليهم والضالين جنساً فرّق الكفر ، فالمفضوب عليهم جنس للفرق التي تعمدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد وعن تأويل بعيد جدا تحمّل عليه غلبة الهوى ، فهؤلاء سلكوا من الصراط الذي خط لهم مسالك غير مستقيمة فاستحقوا الغضب لأنهم أخطأوا عن غير معذرة إذ ما حملهم على الخطأ إلا إثارة حظوظ الدنيا .

والضالون جنس للفرق الذين حرفوا الديانات الحق عن عمد وعن سوء فهم وكلا الفريقين مذموم معاقب لأن الخلق مأمورون باتباع سبيل الحق وبذل الجهد إلى إصابته . والحذر من مخالفة مقاصده . وإذ قد تقدم ذكر المفضوب عليهم وعلم أن الغضب عليهم لأنهم حادّوا عن الصراط الذي هُدى إليه فخرموا أنفسهم من الوصول به إلى مرضاة الله تعالى ، وأن الضالين قد ضلوا الصراط ، فحصل شبه الاحتباك وهو أن كلا الفريقين نال حظاً من الوصفين إلا أن تعليق كل وصف على الفريق الذي علق عليه يرشد إلى أن الموصوفين بالضالين هم دون المفضوب عليهم في الضلال فالمراد المفضوب عليهم غضباً شديداً لأن ضلالهم شنيع . فاليهود مثلاً للفريق الأول والنصارى من جملة الفريق الثاني كما ورد به الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في جامع الترمذ وحسنه . وما ورد في الأثر من تفسير المفضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى ، فهو من قبيل التمثيل بأشهر الفرق التي حق عليها هذان الوصفان ، فقد كان العرب يعرفون اليهود في خير والنضير وبعض سكان المدينة وفي عرب اليمن . وكانوا يعرفون نصارى العرب مثل تغلب وكتب وبعض قضاة ، وكل أولئك بدّلوا وغيروا وتكبّوا عن الصراط المستقيم الذي أرشدهم الله إليه وتفرّقوا في بنيات الطرق على تفاوت في ذلك .

فاليهود تَمَرَدُوا على أنبيائهم وأخبارهم غير مرة وبدلوا الشريعة عمدا فلزمهم وصفُ
 المغضوب عليهم وَعَلِقَ بهم في آيات كثيرة . والنصارى ضلوا بعدَ الحواريين وأساءوا فهم
 معنى التقديس في عيسى عليه السلام فزعموه ابن الله على الحقيقة قال تعالى « قل يا أهل الكتاب
 لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا
 عن سواء السبيل » . وفي وصف الصراط المسئول في قوله « اهدنا الصراط » بالمستقيم إيماء
 إلى أن الإسلام واضح الحجة قويمة الحجة لا يَهْوِي أهله إلى هُوة الضلالة كما قال تعالى
 « قل إنني هُديتُ إلى صراط مستقيم دينا قيما » وقال « وأن هذا صراطي مستقيما
 فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، على تفاوت في مراتب إصابة مراد الله تعالى
 ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله
 أجر واحد » ولم يترك بيان الشريعة مجارى اشتباه بين الخلاف الذى تحيط به دائرة الإسلام
 والخلاف الذى يخرج بصاحبه عن محيط الإسلام قال تعالى « إنك على الحق المبين » .
 واختلف القراء في حركة هاء الضمير من قوله أنعمت عليهم ، وقوله غير المغضوب عليهم ،
 وما ضاهاها من كل ضمير جمع وثنية مذكر ومؤنث للغائب وقع بعد ياء ساكنة ، فالجمهور
 قرأوها بكسر الهاء تخلصا من الثقل لأن الهاء حازر غير حصين فإذا ضمت بعد الياء فكان
 ضمتها قد وليت الكسرة أو الياء الساكنة وذلك ثقل وهذه لغة قيس وتيم وسعد بن بكر .
 وقرأ حمزة عليهم وإليهم ولديهم فقط بضم الهاء وما عداها بكسر الهاء نحو إليهما وصياصيهما
 وهى لغة قريش والحجازيين . وقرأ يعقوب كل ضمير من هذا القبيل مما قبل الهاء فيه ياء
 ساكنة بضم الهاء .

وقد ذكرنا هذا هنا فلا نعيد ذكره في أمثاله وهو مما يرجع إلى قواعد علم القراءات
 في هاء الضمير .

واختلفوا أيضا في حركة ميم ضمير الجمع الغائب المذكور في الوصل إذا وقعت قبل متحرك
 فالجمهور قرأوا « عليهم غير المغضوب عليهم » بسكون الميم وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون
 في رواية عنه بضمة مشبعة « غير المغضوب عليهم » وهى لغة لبعض العرب وعليها قول لبيد :
 * وهو فوارسها وهُمُ حكامها * نجاء بالفتن ، وقرأ ورش بضم الميم وإشباعها إذا وقع
 بعد الميم همز دون نحو « غير المغضوب عليهم » وأجمع الكل على إسكان الميم في الوقف .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

كذا سُميت هذه السورة سورة البقرة في الروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وما جرى في كلام السلف، فقد ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كَفَتاه، وفيه عن عائشة لما نزلت الآيات من آخر البقرة في الربا قرأهن رسول الله ثم قام فحرم التجارة في الحمر. ووجه تسميتها أنها ذكرت فيها قصة البقرة التي أمر الله بنى إسرائيل بذبحها لتكون آية ووصف، سوء فهمهم لذلك، وهى مما انقردت به هذه السورة بذكره، وعندى أنها أضيفت إلى قصة البقرة تمييزاً لها عن السور آل آلم من الحروف المقطعة لأنهم كانوا ربما جعلوا تلك الحروف المُقطعة اسماً للسور الواقعة هى فيها وعرفوها بها نحو: طه، ويس، وص وفي الاتفاق عن المستدرك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إنها سنام القرآن »، وسنام كل شىء أعلاه وهذا ليس علماً لها ولكن وصف تشريف. وكذلك قول خالد بن معدان أنها فسطاط القرآن والفسطاط ما يحيط بالمكان لإحاطتها بأحكام كثيرة.

نزلت سورة البقرة بالمدينة بالاتفاق وهى أول ما نزل في المدينة وحكى ابن حجر في شرح البخارى الاتفاق عليه، وقيل نزلت سورة المطففين قبلها بناء على أن سورة المطففين مدينية، ولا شك أن سورة البقرة فيها فرض الصيام، والصيام فرض في السنة الأولى من الهجرة، فرض فيها صوم عاشوراء ثم فرض صيام رمضان في السنة الثانية لأن النبي صلى الله عليه وسلم صام سبع رمضانات أولها رمضان من العام الثانى من الهجرة. فتكون سورة البقرة نزلت في السنة الأولى من الهجرة في أواخرها أو في الثانية. وفي البخارى عن عائشة ما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده (تعنى النبي صلى الله عليه وسلم) وكان بناء رسول الله على عائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة. وقيل في أول السنة الثانية، وقد روى عنها أنها مكثت عنده تسع سنين فتوفى وهى بنت ثمان عشرة سنة وبني بها وهى بنت تسع سنين، إلا أن اشتغال سورة البقرة على أحكام الحج والعمرة وعلى أحكام القتال من المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام يبنى بأنها استمر نزولها إلى سنة خمس وسنة ست كما سنبينه عند آية « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى »

وقد يكون ممتدا إلى ما بعد سنة ثمان كما يقتضيه قوله « الحج أشهر معلومات - الآيات إلى قوله - لمن اتقى » . على أنه قد قيل إن قوله « واثقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » الآية هو آخر ما نزل من القرآن ، وقد بينا في المقدمة الثامنة أنه قد يستمر نزول السورة فتزَل في أثناء مدة نزولها سورٌ أخرى .

وقد عدت سورة البقرة السابعة والثمانين في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة المطففين وقبل آل عمران .

وإذ قد كان نزول هذه السورة في أول عهد إقامة الجامعة الإسلامية واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم كان من أول أغراض هذه السورة تصفية الجامعة الإسلامية من أن تختلط بعناصر مفسدة لما أقام الله لها من الصلاح سعيًا لتكوين المدينة الفاضلة النقية من شوائب الدجل والدخل .

وإذ كانت أول سورة نزلت بعد الهجرة فقد عُني بها الأنصار وأكبوا على حفظها، يدل لذلك ما جاء في السيرة أنه لما انكشف المسلمون يوم حُنين قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس « اصرُخْ يا معشرَ الأنصار يا أهل السَّمرَةِ (يعني شجرة البيعة في الحديبية) يا أهل سورة البقرة » فقال الأنصار : لبيك لبيك يا رسول الله أبشر . وفي الموطأ قال مالك إنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانين سنين يتعلمها ، وفي صحيح البخاري : كان نصراني أسلم فقرأ البقرة وآل عمران وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم ارتد إلى آخر القصة .

وعدد آياتها مائتان وخمس وثمانون آية عند أهل العدد بالمدينة ومكة والشام ، وست وثمانون عند أهل العدد بالكوفة ، وسبع وثمانون عند أهل العدد بالبصرة .

مُحتَوَيَاتُ هذه السورة

هذه السورة مترامية أطرافها ، وأساليبها ذات أفنان . قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقا لتلقيبها فُسطاط القرآن . فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان ، وعلى الناظر أن يتقرب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها ، ولكن هذا لا يحجم بنا عن التعرض إلى لأبحاث منها ، وقد حيكت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لُحمة محكمة في نظم الكلام ، وسدّى متين من فصاحة الكلمات .

ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين : قسمٌ يُثبت سموّ هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس ، وقسمٌ يبين شرائع هذا الدِّين لأتباعه وإصلاح مجتمعاتهم . وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لحاسن الأساليب الخطائية ، وأساليب الكتب التشريعية ، وأساليب التذكير والموعظة ، يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الأفانين ، ويحضر لنا من أغراضها أنها ابتدئت بالرمز إلى تحدى العرب المعاندين تحديا إجماليا بحروف التهجي المفتتح بها رمزا يقتضى استشرافهم لما يرد بعده وانتظارهم لبيان مقصده ، فأعقب بالتنويه بشأن القرآن فتحول الرمز إيماء إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقع على نفوسهم فتبقى في انتظار ما يتعقبه من صريح التجيز الذى سيأتى بعد قوله « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » الآيات .

فعدل بهم إلى ذات جهة التنويه بفائق صدق هذا الكتاب وهديه ، وتخلص إلى تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه أصنافا أربعة (وكانوا قبل الهجرة صنفين) بحسب اختلاف أحوالهم فى ذلك التلقا . وإذا قد كان أخص الأصناف انتفاعا بهديه هم المؤمنون بالغيب المقيمين الصلاة - يعنى المسلمين - ابتدئ بذكرهم ، ولما كان أشد الأصناف عنادا . وحقا صنفاً المشركين الصُّرَحَاء والمنافقين لف الفريقان لقا واحدا فقورعوا بالحجج الدائمة والبراهين الساطعة ، ثم خص بالإطئاب صنف أهل النفاق تشويها لنفاقهم وإعلانا لدخائلهم ورد مطاعنهم ، ثم كان خاتمة ما قرعت به أنوفهم صريح التحدى الذى رضى إليه بدء تحديا يلجئهم إلى الاستكانة . ويخرس ألسنتهم عن التناول والإبانة ، ويلقى فى قرارات أنفسهم مذلة الهزيمة وصدق الرسول الذى تحداهم ، فكان ذلك من رد

العَجَزُ على الصدر فاستمع المجال لدعوة المنصفين إلى عبادة الرب الحق الذى خلقهم وخلق السماوات والأرض، وأنعم عليهم بما فى الأرض جميعا . وتخلص إلى صفة بدء خلق الإنسان فإن فى ذلك تذكريا لهم بالخلق الأول قبل أن توجد أصنامهم التى يزعمونها من صالحى قوم نوح ومن بعدهم ، ومنه على النوع بتفضيل أصلهم على مخلوقات هذا العالم ، وبمزيته يعلم ما لم يعلمه أهل الملأ الأعلى وكيف نشأت عداوة الشيطان له ولنسله ، تهيئة نفوس السامعين لاتهم شهواتها ولحاسبتها على دعواتها . فهذه المنة التى شملت كل الأصناف الأربعة المتقدم ذكرها كانت مناسبة للتخلص إلى منة عظمت تخص الفريق الرابع وهم أهل الكتاب الذين هم أشد الناس مقاومة لهدى القرآن، وأتخذ الفرق قولاً فى عامة العرب لأن أهل الكتاب يومئذ هم أهل العلم ومظنة اقتداء العامة لهم من قوله « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفو بعهدى » الآيات، فأطنب فى تذكريهم بنعم الله وأيامه لهم ، ووصف ما لا قوا به نعمه الجمة من الانحراف عن الصراط السوى انحرافا بلغ بهم حد الكفر وذلك جامع لخلاصة تكوين أمة إسرائيل وجامعهم فى عهد موسى ، ثم ما كان من أهم أحداثهم مع الأنبياء الذين قفوا موسى إلى أن تلقوا دعوة الإسلام بالتحسد والعداوة حتى على الملك جبريل ، وبيان أخطائهم ، لأن ذلك يلقى فى النفوس شكافى تأهلهم للاقتداء بهم . وذكر من ذلك نموذجا من أخلاقهم من تعلق الحياة « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » ومحاولة العمل بالسحر « واتبعوا ما تتلوا الشياطين الخ » وأذى النبىء بموجه الكلام (لا تقولوا راعنا) .

ثم قرن اليهود والنصارى والمشركون فى قرن حسدهم المسلمين والسخط على الشريعة الجديدة « ما يؤد الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين - إلى قوله - ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، ثم ما أثير من الخلاف بين اليهود والنصارى وادعاء كل فريق أنه هو الحق « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء - إلى - يختلفون » ثم خص المشركون بأنهم أظلم هؤلاء الأصناف الثلاثة لأنهم منعوا المسلمين من ذكر الله فى المسجد الحرام وسعوا بذلك فى خرابه وأنهم تشابهوا فى ذلك هم واليهود والنصارى واتحدوا فى كراهية الإسلام .

وانتقل بهذه المناسبة إلى فضائل المسجد الحرام ، وبانيه ، ودعوته لدريته بالهدى ،

والاحتراز عن إجابتهما في الذين كفروا منهم ، وأن الإسلام على أساس ملة إبراهيم وهو التوحيد ، وأن اليهودية والنصرانية ليستا ملة إبراهيم ، وأن من ذلك الرجوع إلى استقبال الكعبة اذخره الله للمسلمين آية على أن الإسلام هو القائم على أساس الحنيفية ، وذكر شعائر الله بحكمة ، وإبكات أهل الكتاب في طعنهم على تحويل القبلة ، وأن العناية بتزكية النفوس أجدر من العناية باستقبال الجهات « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » . وذكروا بنسخ الشرائع لصالح الأمم وأنه لا بدع في نسخ شريعة التوراة أو الإنجيل بما هو خير منهما .

ثم عاد إلى محاجة المشركين بالاستدلال بآثار صنعة الله « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك إلخ » ، ومحاجة المشركين في يوم يتبرأون فيه من قادتهم ، وإبطال مزاعم دين الفريقين في محرمات من الأكل « يأبى الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ، وقد كمل ذلك بذكر صنف من الناس قليل وهم المشركون الذين لم يظهروا الإسلام ولكنهم أظهروا مودة المسلمين « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » . ولما قضى حق ذلك كله بأبدع بيان وأوضح برهان ، انتقل إلى قسم تشريعات الإسلام إجمالاً بقوله « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » ، ثم تفصيلاً : القصاص ، الوصية ، الصيام ، الاعتكاف ، الحج ، الجهاد ، ونظام المعاشرة والعائلة ، المعاملات المالية ، والإتفاق في سبيل الله ، والصدقات ، والمسكرات ، واليتامى ، والموارث ، والبيوع والربا ، والديون ، والإشهاد ، والرهن ، والنكاح ، وأحكام النساء ، والعدة ، والطلاق ، والرضاع ، والنفقات ، والأيمان .

وختمت السورة بالدعاء المتضمن لخصائص الشريعة الإسلامية وذلك من جوامع الكلم فكان هذا الختام تذييلاً وفذلكة « لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه » الآيات .

وكانت في خلال ذلك كله أغراض شتى سبقت في معرض الاستطراد في متفرق المناسبات تجديدًا للنشاط القارئ والسامع ، كما يسفر وجه الشمس إثر زول الغيوث الهوامع ، وتخرج بوادر الزهر عقب الرعود القوارع ، من تمجيد الله وصفاته « الله لا إله إلا هو » ورحمته وسماحة الإسلام ، وضرب أمثال « أو كصيب » واستحضار نظائر « وإن من الحجارة »

« ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » وعلم وحكمة ، ومعاني الإيمان والإسلام ، وثبتت المسلمين « يأبى الذين آمنوا استعينوا بالصبر » والكلمات الأصلية ، والمزايا التحسينية ، وأخذ الأعمال والمعاني من حقائقها وفوائدها لا من هيئاتها ، وعدم الاعتداد بالمصطلحات إذا لم ترم إلى غايات « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » « ليس البر أن تولوا وجوهكم » « وإخراج أهله منه أكبر عند الله » والنظر والاستدلال ، ونظام الحاجة ، وأخبار الأمم الماضية ، والرسل وتفاضلهم ، واختلاف الشرائع .

﴿ أَلَمْ ﴾ ١

تخير المفسرون في محل هاته الحروف الواقعة في أول هاته السور ، وفي فواتح سور أخرى عدة جميعها تسع وعشرون سورة ومعظمها في السور المكية ، وكان بعضها في ثانی سورة نزلت وهي « ن والقلم » ، وأُخْلِقَ بها أن تكون مثنى حيرة ومصدر أقوال متعددة وأبحاث كثيرة، ومجموع ما وقع من حروف الهجاء أوائل السور أربعة عشر حرفا وهي نصف حروف الهجاء وأكثر السور التي وقعت فيها هذه الحروف : السورُ المكية عدا البقرة وآل عمران ، والحروف الواقعة في السور هي - ا ، ح ، ر ، س ، ص ، ط ، ع ، ق ، ك ، ل ، م ، ن ، ه ، ي ، بعضها تكرر في سور وبعضها لم يتكرر وهي من القرآن لاحالة ومن التشابه في تأويلها .

ولا خلاف أن هاته الفواتح حين ينطق بها القارئ أسماء الحروف التهجى التي يُنطق في الكلام بمسمياتها وأن مسمياتها الأصوات المكيفة بكيفيات خاصة تحصل في مخارج الحروف ولذلك إنما يقول القارئ (أَلِفٌ لَامٌ مِيمٌ) مثلا ولا يقول (أَلَمْ) . وإنما كتبها في المصاحف بصور الحروف التي تهجى بها في الكلام التي يقوم رسم شكلها مقام المنطوق به في الكلام ولم يكتبوها بدوال ما يقرأونها به في القرآن لأن المقصود التهجى بها وحروف التهجى تكتب بصورها لا بأسمائها . وقيل لأن رسم المصحف سنة لا يقاس عليه وهذا أولى إنه لأشمل للأقوال المندرجة تحتها، وإلى هنا خلاص أن الأرجح من تلك الأقوال ثلاثة وهي كونها تلك الحروف لتبكت المعاندين وتسجيلا لعجزهم عن المعارضة، أو كونها أسماء للسور الواقعة هي فيها ، أو كونها أقساما أقسم بها لتشريف قدر الكتابة ، وتنبيه العرب الأميين إلى

فوائد الكتابة لإخراجهم من حالة الأمية، وأرجح هذه الأقوال الثلاثة هو أولها، فإن الأقوال الثاني والسابع والثامن والثاني عشر والخامس عشر والسادس عشر يطلها أن هذه الحروف لو كانت مقتضية من أسماء أو كلمات لكان حق أن ينطق بمسمياتها لأسمائها؛ لأن رسم المصحف سنة لا يقاس عليها، وهذا أولى لأنه أشبه للأقوال.

وعرفت اسميتها من دليلين: أحدهما اعتوار أحوال الأسماء عليها مثل التعريف حين تقول: الألف، والباء، ومثل الجمع حين تقول الجيات، وحين الوصف حين تقول ألف معدودة. والثاني ما حكاه سيويه في كتابه: قال الخليل يوما وسأل أصحابه كيف تلفظون بالكاف التي في لك والباء التي في ضرب فقيل تقول كاف. باء. فقال إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف وقال أقول كه، وبه (يعني بهاء وقعت في آخر النطق به ليعتمد عليها اللسان عند النطق إذا بقيت على حرف واحد لا يظهر في النطق به مفردا).

والذي يستخلص من أقوال العلماء بعد حذف متداخله وتوحيد متشاكله يؤول إلى واحد وعشرين قولاً ولشدة خفاء المراد من هذه الحروف لم أر بدا من استقصاء الأقوال على أننا نضبط انتشارها بتنويعها إلى ثلاثة أنواع: النوع الأول يرجع إلى أنها رموز اقتضت من كَلَم أو جمل، فكانت أسراراً يفتح غلقها مفاتيح أهل المعرفة ويندرج تحت هذا النوع ثمانية أقوال: الأول أنها علم استأثر «الله تعالى» به ونسب هذا إلى الخلفاء الأربعة في روايات ضعيفة ولعلمهم يثبتون إطلاع الله على المقصود منها رسوله صلى الله عليه وسلم وقاله الشعبي وسفيان. والثاني أنها حروف مقتضية من أسماء وصفات الله تعالى المفتحة بحروف مماثلة لهذه الحروف المقطعة رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقاله محمد بن القرظي أو الربيع ابن أنس «فالم» مثلاً. الألف إشارة إلى أحد أو أول أو أزلي، واللام إلى لطيف، والميم إلى ملك أو مجيد، ونحو ذلك، وعلى هذا يحتاج في بيانها إلى توقيف وأنى لهم به، الثالث أنها رموز لأسماء الله تعالى وأسماء الرسول عليه السلام والملائكة «فالم» مثلاً، الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، قاله الضحاك، ولا بد من توقيف في كل فائحة منها، ولعلنا سننبه على ذلك في مواضعه، الرابع جزم الشيخ محي الدين في الباب الثامن والتسعين والمائة في الفصل ٢٧ منه من كتابة الفتوحات أن هاته الحروف المقطعة في أوائل

السور أسماء للملائكة وأنها إذا تليت كانت كالنداء للملائكة فتصني أصحاب تلك الأسماء إلى ما يقوله التالي بعد النطق بها ، فيقولون صدقت إن كان ما بعدها خبر ، ويقولون هذا مؤمن حقانطق حقاً وأخبر بحق فيستغفرون له ، وهذا لم يقله غيره وهو دعوى . الخامس أنها رموز كلها لأسماء النبي صلى الله عليه وسلم وأوصافه خاصة قاله الشيخ محمد بن صالح المعروف بابن مملكة التونسي^(١) في رسالة له قال إن كل حرف من حروف الهجاء في فوائج السور مكنى به عن طائفة من أسمائه الكريمة وأوصافه الخاصة ، فالألف مكنى به عن جملة أسمائه المفتوحة بالألف كأحمد وأبي القاسم ، واللام مكنى به عن صفاته مثل لب الوجود ، والميم مكنى به عن محمد ونحوه مثل مبشر ومنذر ، فكلها منادى بحرف نداء مقدر بدليل ظهور ذلك الحرف في يس . ولم يَمَرُ هذا القول إلى أحد ، وعلّق على هذه الرسالة تلميذه شيخ الإسلام محمد معاوية تعليقة أكثر فيها من التعداد ، وليست مما ينثليج لمباحثه الفؤاد (وهي وأصلها موجودة بمخزنة جامع الزيتونة بتونس عدد ٥١٤) ويردُّ هذا القول التزام حذف حرف النداء وما قاله من ظهوره في يس مبني على قول من قال إن يس بمعنى يا سيد وهو ضعيف ؛ لأن الياء فيه حرف من حروف الهجاء ولأن الشيخ نفسه عد يس بعد ذلك من الحروف الدالة على الأسماء مدلولاً لنحو الياء من « كميمص » القول السادس أنها رموز لمدة دوام هذه الأمة بحساب الجمل^(٢) قاله أبو العالية أخذاً بقصة رواها ابن إسحاق عن جابر بن عبد الله بن وثاب قال : « جاء أبو ياسر بن أخطب وخي بن أخطب وكعب بن الأشرف فسألوا رسول الله عن آله وقالوا هذا أجل هذه الأمة من السنين إحدى وسبعون سنة فضحك رسول الله وقال لهم ص وآلهم فقالوا اشتبه علينا الأمر فلا ندري أبالقليل نأخذ أم بالكثير » اه . وليس في جواب رسول الله إياهم بعدة جروف أخرى من هذه الحروف المتقطعة في أوائل السور تقريراً لاعتبارها رموزاً لأعداد مدة هذه الأمة ، وإنما أراد إبطال ما فهموه بإبطال أن يكون مفيداً لزعيمهم على نحو

(١) كان من الزهاد والمرين درس علوماً كثيرة وبخاصة القرائن والحساب وله شرحان على الدرة

البيضاء توفي في تونس .

(٢) حساب الجمل بضم الجيم وتشديد الميم المفتوحة هو جعل أعداد لكل حرف من حروف المعجم من آحاد وعشرات ومئات وألف واحد ، فإذا أريد رقم حسابي وضع الحرف عوضاً عن الرقم وقد كان هذا الاصطلاح قديماً ووسمت به عدة أناشيد من كتاب داود واشتهر ترقيم التاريخ به عند الرومان ولعله نقل إلى العرب منهم أو من اليهود .

الطريقة السبابة بالنقض في الجدل ومرجئها إلى المنع والمانع لا مذهب له . وأما ضحكه صلى الله عليه وسلم فهو تعجب من جهلهم . القول السابع أنها رموز كل حرف رمز إلى كلمة فنحو (آلَمْ) أنا الله أعلم ، و (المر) أنا الله أرى ، و (المرص) أنا الله أعلم وأفصل . رواه أبو الضحى عن ابن عباس ، ويوهنه أنه لا ضابط له لأنه أخذ مرة بمقابلة الحرف بحرف أول الكلمة ، ومرة بمقابلته بحرف وسط الكلمة أو آخرها . ونظروه بأن العرب قد تتكلم بالحروف المقطعة بدلا من كلمات تتألف من تلك الحروف نظما وثرا ، من ذلك قول زهير :

بالحير خيرات وإن شرًّا فآ ولا أريد الشر إلا أن تآ
أراد وإن شر فشر وأراد إلا أن تشاء ، فآتى بحرف من كل جملة . وقال الآخر (قرطبي) :
ناداهم ألا الجوا إلا تآ قالوا جميعاً كلهم ألا فا
أراد بالحرف الأول ألا تركبون ، وبالثاني الأفا ركبوا . وقال الوليد بن المغيرة عامل عثمان
يخاطب عدى بن حاتم :

قلت لها قفى لنا قالت قاف لا تحسبني قد نسيت الإيجاف^(١)
أراد قالت وقتت . وفي الحديث : «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» قال شقيق :
هو أن يقول أق مكان اقتل . وفي الحديث أيضا : «كفى بالسيف شأ» ، أى شاهدا^(٢) .
وفي كامل المبرد من قصيدة لعلى بن عيسى القمي وهو مولد :

ولبس المجاجة والخافقا تترك المنأ برؤوس الأسل
أى تترك المنأيا . وفي «تلع» من صحاح الجوهري قال ليبيد :
درَسَ المنأ بمتالع فابأن فتقادت بالحبس فالسوبان
أراد درس المنازل . وقال علقمة الفحل (خصائص ص ٨٢) :
كان إبريقهم ظبي على شرف مقدم بسبا الكتان ملثوم
أراد بسباب الكتان . وقال الراجز :

(١) يوجد في أكثر الكتب قلت لها قفى فقالت قاف ، وهو مشتعل على زحاف ثقيل . وفي بعض نسخ
البيضاوى فقالت لي وهى مصححة ، وفي الخصائص لابن جني : قلت لها قفى لنا قالت قاف ، وبعد هذا البيت :
والنشوات من معتق صاف وعزف قينات علينا عزاف
(٢) هو حديث سعد بن عباد «كفى بالسيف شاهدا» أخرجه ابن ماجه .

حين أَلقت بَقَاءَ بَرَكهَا واستمر القتلُ في عبد الأشل
أى عبد الأشهل . وقول أبى دؤاد :

يدرين حَندل حائرَ لجنوبها فكأنما تُذكى سنا بكمها الحبا
أراد الحياحب . وقال الأخطل :

أُمت مِنَاهَا بأرض ما يبلغها بصاحب الهم إلا الجسرة الأجد
أراد منازلها . ووقع (طراز المجالس - المجلس)^(١) للتأخيرين من هذا كثير مع التورية
كقول ابن مكناس :

لم أنس بدرا زارنى ليلة مستوفزا مطالعا للخطر
فلم يقيم إلا بمقدار ما قلت له أهلا وسهلا ومرّ

أراد بعض كلمة مرحبا وقد أكرت من شواهد توسعة في مواقع هذا الاستعمال
الغريب ولست أريد بذلك تصحيح حمل حروف فواتح السور على ذلك لأنه لا يحسن
تخريج القرآن عليه وليس معها ما يشير إليه مع التورية بجعل مرّ من المرور .

القول الثامن أنها إشارات إلى أحوال من تركية القلب، وجعلها في الفتوحات في الباب
الثاني إيماء إلى شعب الإيمان، وحاصله أن جملة الحروف الواقعة في أوائل سور القرآن على
تكرار الحروف ثمانية وسبعون حرفا والثمانية هنا هي حقيقة البضع حصل له ذلك بالكشف
فيكون عدد الحروف ثمانية وسبعين وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضع
وسبعون شعبة» فهذه الحروف هي شعب الإيمان، ولا يكمل لأحد أمرار الإيمان حتى يعلم
حقائق هذه الحروف في سورها . وكيف يزعم زاعم أنها واردة في معان غير معروفة مع
ثبوت تلقى السامعين لها بالتسليم من مؤمن ومعاند، ولولا أنهم فهموا منها معنى معروفا دلت
عليه القرائن لسأل السائلون وتورك الماندون . قال القاضي أبو بكر بن العربي «لولا أن
العرب كانوا يعرفون لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي صلى
الله عليه وسلم بل تلا عليهم (حم فصلات وص) وغيرها فلم ينكروا ذلك مع تشوفهم إلى عثرة
وحرصهم على زلة» قلت وقد سألوا عن أوضح من هذا فقالوا وما الرحمان، وأما ما استشبهوا

(١) نسبة إليه البرد في الكامل ص ٢٤٥ . وسيبويه في كتابه ص ٥٧ جزء ٢ وتبعهما المفسرون .

به من بيت زهير وغيره فهو من نوادر كلام العرب، ومما أخرج مخرج الألفاظ والتلميح وذلك لا يناسب مقام الكتاب المجيد .

النوع الثاني يجمع الأقوال الراجعة إلى أن هاته الحروف وضعت بتلك الهيئات أسماء أو أفعالا وفيه من الأقوال أربعة .

التاسع في عداد الأقوال في أولها جماعة من العلماء والمتكلمين واختاره الفخر أنها أسماء للسور التي وقعت فيها ، قاله زيد بن أسلم ونسب لسيبويه في كتابه باب أسماء السور من أبواب مالا ينصرف أو للخليل ونسبه صاحب الكشف للأكثر ويعضده وقوع هاته الحروف في أوائل السور فتكون هاته الحروف قد جمعت أسماء بالعلامة على تلك السور، وسميت بها كما تقول الكراسية بـ والرزمة ج ونظرة القفال بما سمى العرب بأسماء الحروف كما سموا لآم الطائي والد حارثة، وسموا الذهب عَيْنَ ، والسحاب غَيْنَ ، والحوث نونَ ، والجبل قاف ، وأقول: وحاء قبيلة من مذحج ، وقال شريح بن أوفى العنسي أو العبسي:

يذكرني حَامِيمَ والرمحُ شاجرَ فَهَلَّا تَلا حَامِيمَ قبل التقدم^(١)

يريد حم عسق التي فيها « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » .

ويبعد هذا القول بعداً ما إن الشأن أن يكون الاسم غير داخل في المسمى وقد وجدنا هذه الحروف مقروءة مع السور بإجاء المسلمين، على أنه يردّه اتحاد هذه الحروف في عدة سور مثل آلم وآلر وحم . وأنه لم توضع أسماء السور الأخرى في أوائلها .

القول العاشر وقال جماعة إنها أسماء للقرآن اصطلاح عليها قاله الكلبي والسدي وقتادة . ويبتله أنه قد وقع بعد بعضها مالا يناسبها لو كانت أسماء للقرآن، نحو آلم غلبت أروم، وآلم أحسب الناس .

القول الحادي عشر أن كل حروف مركبة منها هي اسم من أسماء الله روي عن علي أنه كان يقول يا كهيص يا حم عسق وسكت عن الحروف المفردة فيرجع بها إلى ما يناسبها أن تندرج تحته من الأقوال ويبتله عدم الارتباط بين بعضها وبين ما بعده لأن يكون

(١) الضمير في يذكرني راجع لمحمد بن طلحة السجاد بن عبيد الله القرشي من بني مرة بن كعب، وأراد

بحم سورة الشورى لأن فيها « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » فكانت دالة على قرابة النبي صلى الله عليه وسلم لقريش الذين منهم محمد السجاد .

خبراً أو نحوه عن اسم الله مثل ألم ذلك الكتاب، وآمّص كتاب أنزل إليك .
 الثانى عشر قال الماوردى هى أفعال فإن حروف الميم كتاب فعل ألم بمعنى نزل فالمراد
 ألم ذلك الكتاب أى نزل عليكم ، ويبتل كلامه أنها لا تُقرأ بصيغ الأفعال على أن هذا
 لا يتأتى فى جميعها نحو كميمص وآمّص وآر ولولا غرابة هذا القول لكان حرياً
 بالإعراض عنه .

النوع الثالث تندرج فيه الأقوال الراجعة إلى أن هاته الحروف حروف هجاء مقصودة
 بأسمائها لأغراض داعية لذلك وفيه من الأقوال :

القول الثالث عشر أن هاته الحروف أقسم الله تعالى بها كما أقسم بالقلم تنوياً بها لأن
 مسمياتها تألفت منها أسماء الله تعالى وأصول التخاطب والعلوم قاله الأخفش، وقد وهن هذا
 القول بأنها لو كانت مقسماً بها لذكر حرف القسم إذ لا يحذف إلا مع اسم الجلالة عند
 البصريين وبأنها قد ورد بعدها فى بعض المواضع قسم نحو « ن والقلم » « وحم والكتاب المبين »
 قال صاحب الكشف : وقد استكرهوا الجمع بين قسمين على مقسم واحد حتى قال الخليل
 فى قوله تعالى « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى » أن الواو الثانية هى التى تضم الأسماء
 للأسماء أى واو العطف ، والجواب عن هذا أن اختصاص الحذف باسم الجلالة يختلف فيه
 وأن كراهية جمع قسمين تندفع بجعل الواو التالية لهاته الفواتح واو العطف على أنهم قد جمعوا
 بين قسمين ، قال النابغة :

والله والله لنعم الفتى الـ حارث لا النكس ولا الخامل

القول الرابع عشر أنها سيقّت مساق التهجى مسرودة على نمط التعديد فى التهجى
 تبكيتاً للمشرّكين وإيقاظاً لنظرهم فى أن هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تحدوا بالإتيان بسورة
 مثله هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم كأنه يفرّهم بمحاولة المعارضة ويستأنس لأقسامهم
 بالشروع فى ذلك بتهجى الحروف ومعالجة النطق تعريضاً بهم بمعاملتهم معاملة من لم يعرف
 تقاطيع اللغة . فيلقنها كتهجى الصبيان فى أول تعلمهم بالكتاب حتى يكون عجزهم عن المعارضة
 بمد هذه المحاولة عجزاً لا معذرة لهم فيه ، وقد ذهب إلى هذا القول المبرد وقطرب والقراء ، قال فى
 الكشف وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزلة ، وقلت وهو الذى نختاره وتظهر المناسبة
 لوقوعها فى فواتح السور أن كل سورة مقصودة بالإعجاز لأن الله تعالى يقول « فاتوا بسورة من مثله »

فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتهديد لمحاولته ويؤيد هذا القول أن التهجي ظاهر في هذا المقصد فلذلك لم يسألوا عنه لظهور أمره وأن التهجي معروف عندهم للتعليم فإذا ذكرت حروف الهجاء على تلك الكيفية المعهودة في التعليم في مقام غير صالح للتعليم عرف السامعون أنهم عوملوا معاملة التعلّم لأن حالهم كحاله في العجز عن الإتيان بكلام بليغ، ويعضد هذا الوجه تعقيب هاته الحروف في غالب المواقع بذكر القرآن وتنزيله أو كتابيته إلا في كهيمصّ وآلم، أحسب الناس، وآلم غلبت الروم ووجه تخصيص بعض تلك الحروف بالتهجي دون بعض، وتكرير بعضها لأمر لا نعلمه ولعله لمراعاة فصاحة الكلام، ويؤيده أن معظم مواقع هذه الحروف في أوائل السور المكية عدا البقرة على قول من جملوها كلها مدنية وآل عمران، ولعل ذلك لأنهما نزلتا بقرب عهد الهجرة من مكة وأن قصد التحدى في القرآن النازل بمكة قصد أولى، ويؤيده أيضا الحروف التي أسماؤها مختومة بألف ممدودة مثل الياء والهاء والراء والطاء والحاء قرئت فواتح السور مقصودة على الطريقة التي يتهجي بها للصبيان في الكتاب طلبا للخفة كما سيأتي قريبا في آخر هذا البحث من تفسير آلم .

القول الخامس عشر أنها تعليم للحروف المقطعة حتى إذا وردت عليهم بعد ذلك مؤلفة كانوا قد علموها كما يتعلم الصبيان الحروف المقطعة ، ثم يتعلمونها مركبة قاله عبد العزيز ابن يحيى ، معنى إذ لم يكن فيهم من يحسن الكتابة إلا بعض المدن كأهل الحيرة وبعض طي وبعض قريش وكثافة من أهل مكة ، ولقد تقلبت أحوال العرب في القراءة والكتابة تقلبات متنوعة في العصور المختلفة ، فكانوا بادئ الأمر أهل كتابة لأنهم ترحلوا إلى البلاد العربية من العراق بعد تبلبل الألسن ، والعراق مهد القراءة والكتابة وقد أثبت التاريخ أن ضنخم بن إرم أول من علم العرب الكتابة ووضع حروف المعجم التسعة والعشرين ، ثم إن العرب لما بادوا (أى سكنوا البادية) تناست القبائل البادية بطول الزمان القراءة والكتابة، وشغلهم حالم عن تلقى مبادئ العلوم ، فبقيت الكتابة في الحواضر كحواضر اليمن والحجاز، ثم لما تفرقوا بعد سيل العرم نقلوا الكتابة إلى المواطن التي نزلوها فكانت طي بنجد يعرفون القراءة والكتابة ، وهم الفرقة الوحيدة من القحطانيين ببلاد نجد ولذلك يقول أهل الحجاز ونجد إن الذين وضعوا الكتابة ثلاثة نفر من بني بولان من طي يريدون من الوضع أنهم علموها للعدنانيين بنجد ، وكان أهل الحيرة يعلمون الكتابة فالعرب بالحجاز تزعم

أن الخط تعلموه عن أهل الأنبار والحيرة ، وقصة التلمس في كتب الأدب تذكرنا بذلك إذ كان الذي قرأ له الصحيفة غلام من أغيلة الحيرة . ولقد كان الأوس والخزرج مع أنهم من نازحة القحطانيين ، قد تناسوا الكتابة إذ كانوا أهل زرع وفروسية وحروب ، فقد ورد في السير أنه لم يكن أحد من الأنصار يحسن الكتابة بالمدينة وكان في أسرى المشركين يوم بدر من يحسن ذلك فكان من لا مال له من الأسرى يفتدى بأن يعلم عشرة من غلمان أهل المدينة الكتابة فتعلم زيد بن ثابت في جماعة ، وكانت الشفاء بنت عبد الله القرشية تحسن الكتابة وهي علمتها لفصة أم المؤمنين . ويوجد في أساطير العرب ما يقتضى أن أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل مدين في جوارهم فقد ذكروا قصة وهي أن المحض ابن جندل من أهل مدين وكان ملكا كان له ستة أبناء وهم : أبجد ، وهوز ، وخطي ، وكلن ، وسعقص ، وقرشت . فجعل أبناءه ملوكا على بلاد مدين وما حولها فجعل أبجد بمكة وجعل هوزا وخطيا بالطائف ومجد ، وجعل الثلاثة الباقيين بـدين ، وأن كلنا كان في زمن شعيب وهو من الذين أخذهم عذاب يوم الظلة^(١) قالوا فكانت حروف الهجاء أسماء هؤلاء الملوك ثم ألحقوا بها ثم أخذ وضغط فهذا يقتضى أن القصة مصنوعة لتلقين الأطفال حروف المعجم بطريقة سهلة تناسب عقولهم وتقتضى أن حروف ثم أخذ وضغط لم تكن في معجم أهل مدين فألحقها أهل الحجاز ، وحقا إنها من الحروف غير الكثيرة الاستعمال ولا الموجودة في كل اللغات إلا أن هذا القول يبعده عدم وجود جميع الحروف في فواتح السور بل الموجود نصفها كما سيأتى بيانه من كلام الكشاف .

القول السادس عشر أنها حروف قصد منها تنبيه السامع مثل النداء المقصود به التنبيه في قولك يافتي لإيقاظ ذهن السامع قاله ثعلب والأخفش وأبو عبيدة ، قال ابن عطية كما يقول في إنشاد أشهر القصائد لا وبلا ، قال الفخر في تفسير سورة العنكبوت : إن الحكيم إذا

(١) الظلة : السحابة وقد أصابهم صواعق فذكروا أن حارثة ابنة كلمن قالت ترثى أباهما :

كلمن مدم ركني	هلكه وسط المحله
سيد القوم أمناه	خلف نارا وسط ظله
كونت نارا وأضحت	دار قومي مضجعه

ومسحة التوليد ظاهرة على هاته الآيات .

خاطب من يكون محل الغفلة أو مشغول البال يُقدّم على الكلام المقصود شيئاً ليلفت المخاطب إليه بسبب ذلك المقدم ثم يشرع في المقصود فقد يكون ذلك المقدم كلاماً مثل النداء وحروف الاستفتاح ، وقد يكون المقدم صوتاً كمن يصفق ليُقبِل عليه السامع فاختار الحكيم للتنبيه حروفاً من حروف التهجى لتكون دلالتها على قصد التنبيه متعينة إذ ليس لها مفهوم فتمحضت للتنبيه على غرض مهم .

القول السابع عشر أنها إعجاز بالفعل وهو أن النبيء الأُمى الذى لم يقرأ قد نطق بأصول القراءة كما ينطق بها مهرة الكتابة فيكون النطق بها معجزة وهذا بين البطلان لأن الأُمى لا يصسر عليه النطق بالحروف .

القول الثامن عشر أن الكفار كانوا يُعرضون عن سماع القرآن فقالوا «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» فأوردت لهم هذه الحروف ليقبلوا على طلب فهم المراد منها فيقع إليهم ما يتلوها بلا قصد ، قاله قُطرب وهو قريب من القول السادس عشر .

القول التاسع عشر أنها علامة لأهل الكتاب وعدوا بها من قبل أنبيائهم أن القرآن يفتح بحروف مقطعة .

القول العشرون قال التبريزى علم الله أن قوماً سيقولون بقدم القرآن فأراهم أنه مؤلف من حروف كحروف الكلام ، وهذا وهم لأن تأليف الكلام من أصوات الكلمات أشد دلالة على حدوثه من دلالة الحروف المقطعة لقلة أصواتها .

القول الحادى والعشرون روى عن ابن عباس أنها ثناء أثنى الله به على نفسه وهو يرجع إلى القول الأول أو الثانى . هذا جماع الأقوال ، ولا شك أن قراءة كافة المسلمين إياها بأسماء حروف الهجاء مثل ألف . لآم . ميم دون أن يقرأوا أَلَمْ وأن رسمها فى الخط بصورة الحروف يزيّف جميع أقوال النوع الأول ويمين الاختصار على النوعين الثانى والثالث فى الجملة ، على أن ما يندرج تحت ذينك النوعين متفاوت فى درجات القبول ، فإن الأقوال الثانى ، والسابع ، والثامن ، والثانى عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر ، يبطلها أن هذه الحروف لو كانت مقتضبة من أسماء أو كلمات لكان الحق أن ينطق بسمياتها لا بأسمائها . فإذا تعين هذان النوعان وأسقطنا ما كان من الأقوال المندرجة تحتها واهياً ، خلّص أن الأرجح من تلك الأقوال ثلاثة : وهى كون تلك الحروف لتبكيّت المعاندين وتسجيلاً

لمعجزهم عن المعارضة ، أو كونها أسماء للسور الواقعة هي فيها ، أو كونها أقساما أقسم بها لتشريف قدر الكتابة وتنبية العرب الأميين إلى فوائد الكتابة لإخراجهم من حالة الأمية . وأرجح هذه الأقوال الثلاثة هو أولها .

قال في الكشف : ما ورد في هذه الفواتح من أسماء الحروف هو نصف أسامي حروف المعجم إذ هي أربعة عشر وهي : الألف ، واللام ، والميم ، والصاد ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والطاء ، والسين ، والحاء ، والقاف ، والنون ، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، وهذه الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس صفات الحروف ففيها من المهموسة نصفها : الصاد ، والكاف ، والهاء ، والسين والحاء ، ومن المجهورة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والعين ، والطاء ، والقاف ، والياء ، والنون ، ومن الشديدة نصفها : الألف ، والكاف ، والطاء ، والقاف ، ومن الرخوة نصفها : اللام ، والميم ، والراء ، والصاد والهاء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والياء ، والنون . ومن المُنطَبَّعة نصفها : الصاد ، والطاء . ومن المفتحة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والعين ، والسين ، والقاف ، والياء ، والنون . ومن المستغلة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والنون . ومن حروف القلقة نصفها : القاف ، والطاء .

ثم إن الحروف التي ألتى ذكرها مكثورة بالذكورة ، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته اه وزاد البيضاوي على ذلك أصنافا أخرى من صفات الحروف لا نطيل بها فن شاء فليراجعها . ومحصول كلامهما أنه قد قضى بذكر ما ذكر من الحروف وإهمال ذكر ما أهمل منها حق التمثيل لأنواع الصفات بذكر النصف ، وترك النصف من باب «وَلْيُقَاسَ مَا لَمْ يُقَلَّ» لحصول الغرض وهو الإشارة إلى العناية بالكتابة ، وحق الإيجاز في الكلام .

فيكون ذكر مجموع هذه الفواتح في سور القرآن من المعجزات العلمية وهي المذكورة في الوجه الثالث من وجوه الإعجاز التي تقدمت في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير . وكيفية النطق أن يُنطق بها موقوفة دون علامات إعراب على حكم الأسماء المسرودة إذ لم تكن معمولة لعوامل كخالها كحال الأعداد المسرودة حين تقول ثلاثة أربعة خمسة .

وكحال أسماء الأشياء التي تُنمَلَى على الجارد لها ، إذ تقول مثلاً : ثَوْبٌ ، بِسَاطٌ ، سَيْفٌ ، دون إعراب ، ومن أعربها كان مخطئاً . ولذلك نطق القراء بها سا كنة سكون الموقوف عليه فإ كان منها صحيح الآخر نطق به سا كناً نحو أَلِفٌ ، لَامٌ ، مِيمٌ . وما كان من أسماء الحروف ممدود الآخر نطق به في أوائل السور أَلِفاً مقصوراً لأنها مسوقة مساق التهجى بها وهي في حالة التهجى مقصورة طلباً للخفة لأن التهجى إنما يكون غالباً لتعليم المبتدئ ، واستعمالها في التهجى أكثر فوقت في فواتح السور مقصورة لأنها على نمط التعميد أو مأخوذة منه . ولكن الناس قد يجعلون فاتحة إحدى السور كالاسم لها فيقولون قرأت « كهيمص » كما يجعلون أول كلمة من القصيدة اسماً للقصيدة فيقولون قرأت « قفأ نَبْكَ » و « بانت سعاد » حينئذ قد تعامل جملة الحروف الواقعة في تلك الفاتحة معاملة كلمة واحدة فيجرب عليها من الإعراب ما هو لنظائر تلك الصيغة من الأسماء فلا يصرف حَامِيمَ كما قال شريح بن أوفى العنسي المتقدم آنفاً :

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمَحُ شَاوِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقْدُمِ
وكما قال الكمي :

قَرَأْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمَ آيَةً تَأَوَّلَهَا مِنَّا فَيَهُ وَمُعْرِبٌ
ولا يعرب « كهيمص » إذ لا نظير له في الأسماء إفراداً ولا تركيباً . وأما طسم فيعرب اعتراب المركب المزجي نحو حَضَرَمَوْتَ وَدَارًا بِجِرْدٍ^(١) وقال سيبويه : إنك إذا جعلت (هود) اسم السورة لم تصرفها فتقول قرأت هُودَ لِلْعَلَمِيَّةِ والتأنيث قال لأنها تصير بمنزلة امرأة سميتها بعمرو . ولك في الجميع أن تأتي به في الإعراب على حاله من الحكاية وموقع هاته الفواتح مع ما يليها من حيث الإعراب ، فإن جعلتها حروفاً للتهجى تعريضاً بالمشركين وتبكيتهما لهما فظاهرها أنها حينئذ محكية ولا تقبل إعراباً ، لأنها حينئذ بمنزلة أسماء الأصوات لا يقصد إلا صدورها فدلالاتها تشبه الدلالة العقلية فهي تدل على أن الناطق بها يهتئ السامع إلى ما يرد بعدها مثل سرد الأعداد الحسائية على من يراى منه أن يجمع حاصلها ،

(١) دَارًا بِجِرْدٍ اسم بلدة بفارس مركبة من دَارًا اسم ملك . واب اسم الماء . وجرْد بمعنى بلد فهي بفتحات ثم جيم مكسورة .

أو يطرح ، أو يقسم ، فلا إعراب لها مع ما يليها ، ولا معنى للتقدير بالمؤلف من هذه الحروف إذ ليس ذلك الإعلام بمقصودٍ لظهوره وإنما المقصود ما يحصل عند تعدادها من التعريض لأن الذي يتهجى الحروف لمن ينافى حاله أن يقصد تعليمه يتعين من المقام أنه يقصد التعريض . وإذا قدرتها أسماء للسور أو للقرآن أو لله تعالى مقسما بها فقليل إن لها أحكاما مع ما يليها من الإعراب بعضها محتاج للتقدير الكثير ، فدع عنك الإطالة بها فإن الزمان قصير . وهاته الفواتح قرآن لاحتالة ولكن اختلف في أنها آيات مستقلة والأظهر أنها ليست بآيات مستقلة بل هي أجزاء من الآيات الموالية لها على المختار من مذاهب جمهور القراء . وروى عن قراء الكوفة أن بعضها عدوه آيات مستقلة وبعضها لم يعدوه وجعلوه جزء آية مع ما يليه ، ولم يظهر وجه التفصيل حتى قال صاحب الكشف إن هذا لا دخل للقياس فيه . والصحيح عن الكوفيين أن جميعها آيات وهو اللائق بأصحاب هذا القول إذ التفصيل تحكم ؛ لأن الدليل مفقود . والوجه عندي أنها آيات لأن لها دلالة تعريضية كنائية إذ المقصود إظهار عجزهم أو نحو ذلك فهي تطابق مقتضى الحال مع ما يعقبها من الكلام ولا يشترط في دلالة الكلام على معنى كنهاني أن يكون له معنى صريح بل تعتبر دلالة المطابقة في هذه الحروف تقديرية إن قلنا باشتراط ملازمة دلالة المطابقة لدلالة الالتزام . ويدل لإجراء السلف حكم أجزاء الآيات عليها أنهم يقرأونها إذا قرأوا الآية المتصلة بها ، ففي جامع الترمذي في كتاب التفسير في ذكر سبب نزول سورة الروم : « فَتَزَلَّتْ رُوحُكُ وَغُلِبْتَ بِالْأُفْجَاءِ » ، وفيه أيضا « فَنَجَّى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ رُوحُكُ وَغُلِبْتَ بِالْأُفْجَاءِ » وفي سيرة ابن إسحاق من رواية ابن هشام عنه « فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ رُوحُكُ وَغُلِبْتَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » حتى بلغ قوله « فَقُلْ أُنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ » الحديث .

وعلى هذا الخلاف اختلف في أجزاء قراءتها في الصلاة عند الذين يكتفون في قراءة السورة مع الفاتحة بآية واحدة مثل أصحاب أبي حنيفة .

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾

مبدأ كلام لا اتصال له في الإعراب بحروف الـم كما علمت مما تقدم على جميع الاحتمالات كما هو الأظهر . وقد جوز صاحب الكشف على احتمال أن تكون حروف الـم مسوقة مساق التهجي لإظهار عجز الشركين عن الإتيان بمثل بعض القرآن ، أن يكون اسم الإشارة مشاراً به إلى الـم باعتباره حرفاً مقصوداً للتعجيز ، أى ذلك المعنى الحاصل من التهجي أى ذلك الحروف باعتبارها من جنس حروفكم هى الكتاب أى منها تراكيه فا أعجزكم عن معارضته ، فيكون الـم جملة مستقلة مسوقة للتعريض واسم الإشارة مبتدأ والكتاب خبراً . وعلى الأظهر تكون الإشارة إلى القرآن المعروف لديهم يومئذ ، واسم الإشارة مبتدأ والكتاب بدل وخبره ما بعده ، فالإشارة إلى الكتاب النازل بالفعل وهى السور المتقدمة على سورة البقرة ؛ لأن كل ما نزل من القرآن فهو المعبر عنه بأنه القرآن وينضم إليه ما يلحق به ، فيكون الكتاب على هذا الوجه أطلق حقيقة على ما كُتب بالفعل ، ويكون قوله الكتاب على هذا الوجه خبراً عن اسم الإشارة ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع القرآن ما نزل منه وما سينزل لأن نزوله مترقب فهو حاضر في الأذهان فشبّه بالحاضر في العيان ، فالتعريف فيه للمعهد التقديرى والإشارة إليه للحضور التقديرى فيكون قوله الكتاب حينئذ بدلاً أو بياناً من ذلك والخبر هو لا ريب فيه .

ويجوز الإتيان في مثل هذا باسم الإشارة الموضوع للقريب والموضوع للبعيد ، قال الرضى ^(١) وُضِعَ اسم الإشارة للحضور والقرب لأنه للمشار إليه حساً ثم يصح أن يشار به إلى الغائب فيصح الإتيان بلفظ البعد لأن المحكى عنه غائب ، ويقل أن يذكر بلفظ الحاضر القريب فتقول جاءنى رجل فقلت لذلك الرجل وقلت لهذا الرجل ، وكذا يجوز لك في الكلام المسموع عن قريب أن تشير إليه بلفظ الغيبة والبعد كما تقول « والله وذلك قسم عظيم » لأن اللفظ زال سماعه فصار كالغائب ولكن الأغلب في هذا الإشارة بلفظ الحضور فتقول وهذا قسم عظيم هـ ، أى الأكثر في مثله الإتيان باسم إشارة البعيد ويقل ذكره بلفظ الحاضر ، وعكس ذلك في الإشارة للقول . وابن مالك في التسهيل سوى بين الإتيان بالقريب والبعيد في الإشارة لكلام متقدم إذ قال : وقد يتعاقبان (أى اسم القريب والبعيد) مشاراً

(١) شرح كافيّة ابن الحاجب صفحة ٣٢ جزء ٢ طبع الآستانة .

بهما إلى ما ولياه أي من الكلام، ومثله شارحه بقوله تعالى بعد قصة عيسى « ذلك نتلوهُ عليك من الآيات والذكر الحكيم » ثم قال « إن هذا هو القصص الحق » فأشار مرة بالبعيد ومرة بالقرب والمشار إليه واحد، وكلام ابن مالك أوفق بالاستعمال إذ لا يكاد يحصر ماورد من الاستعمالين فدعوى الرضى قلة أن يذكر بلفظ الحاضر دعوى عريضة . وإذا كان كذلك كان حكم الإشارة إلى غائب غير كلام مثل الإشارة إلى الكلام في جواز الوجهين لكثرة كليهما أيضاً، ففي القرآن « فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه » فإذا كان الوجهان سواء كان ذلك الاستعمال مجالا لتسابق البلغاء ومراعاة مقتضيات الأحوال ، ونحن قد رأيناهم يتخيرون في مواقع الإتيان باسم الإشارة ما هو أشد مناسبة لذلك المقام فدلنا على أنهم يعرفون مخاطبتهم بأغراض لا قبل لتعرفها إلا إذا كان الاستعمال سواء في أصل اللغة ليكون الترجيح لأحد الاستعمالين لا على معنى مثل زيادة التنبيه في اسم الإشارة البعيد كما هنا ، وكما قال خُفاف بن نَدْبَة (١) :

أقول له والرمحُ يَطرُ مَتَنَه تأمل خُفَافاً إِنِّى أَنَا ذَلكَ (٢)
وقد يَؤتى بالقرب لإظهار قلة الأكرث كقول قيس بن الخطيم في الحماسة :
مَتى يَأْتِ هَذَا المَوْتُ لا يَلِفُ حَاجَةً لِنَفْسِي إِلا قَدْ قَضِيتُ قَضَاءَهَا

فلا جرم أن كانت الإشارة في الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد لإظهار رفعة شأن هذا القرآن لجعله بعيد المنزلة . وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشريف بالشيء المرفوع

(١) خُفاف بضم الخاء وتخفيف الفاء هو خفاف بن عمير وأمه نَدْبَة أمة سوداء . وهي بفتح النون . وخفاف أحد فرسان العرب وشعرائهم ممن لقب بالفُراب ، وأغربة العرب سُودَانُهُمْ وهم خمسة جاهليون ، وثمانية مسلمون ، فأما الجاهليون فهم : عنترة ، وخفاف ، وأبو عمير بن الحُباب ، وسُليَكُ بن السَّلَكَة ، وهشام بن عُقبة بن أبي مُعَيْط ، وخفاف وهشام أدركا الإسلام وعُذّا في الصحابة وشهد خفاف فتح مكة وأبلى البلاء الحسن . وأما الأغربة المسلمون فهم : تَابِطُ شَرّاً ، والشَّنْفَرى - عمرو بن بَرّاقة - وعبد الله بن حازم ، وعمير بن أبي عمير ، وهام بن مطرف ، ومنشَر بن وهب ، ومَطَرُ بن أبي أوفى ، وحَاجِر بجاء ثم جيم ثم زاي معجمة غير منسوب . (٢) يَطرُ مضارع أَطَرَ كنصر وضرب ، بمعنى أحنى وكسر قال طرفة : « وَأَطَرَ قَيْسٍ فَوْقَ صُلْبِ مُوَيْدٍ » .

في عزة المال لأن الشيء النفيس عزيز على أهله فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صونا له عن الدروس وتناول كثرة الأيدي والابتذال ، فالكتاب هنا لما ذكر في مقام التحدي بمعارضته بما دلت عليه حروف التهجى في آلم كان كالشيء العزيز المبال بالنسبة إلى تناولهم إياه بالمعارضة أو لأنه لصدق معانيه ونفع إرشاده بعيد عن تناوله بهجر القول كقولهم « افتراه » وقولهم « أساطير الأولين » . ولا يرد على هذا قوله « وهذا كتاب أنزلناه » فذلك للإشارة إلى كتاب بين يدي أهله لترغيبهم في العكوف عليه والاتعاظ بأوامره ونواهيه . ولعل صاحب الكشف بنى على مثل ما بنى عليه الرضى فلم يعد « ذلك الكتاب » تنبيهاً على التعظيم أو الاعتبار ، فله در صاحب المفتاح إذ لم يُغفل ذلك فقال في مقتضيات تعريف المسند إليه بالإشارة « أو أن يقصد ببعده تعظيمه كما تقول في مقام التعظيم ذلك الفاضل وأولئك الفحول وكقوله عز وعلا « آلم ذلك الكتاب » ذهاباً إلى بعده درجة » . وقوله « الكتاب » يجوز أن يكون بدلا من اسم الإشارة لقصد بيان المشار إليه لعدم مشاهدته ، فالتعريف فيه إذن للعهد ، ويكون الخبر هو جملة لا ريب فيه ، ويجوز أن يكون الكتاب خبراً عن اسم الإشارة ويكون التعريف تعريف الجنس فتفيد الجملة قصر حقيقة الكتاب على القرآن بسبب تعريف الجزءين فهو إذن قصر ادّعاء ومعناه ذلك هو الكتاب الجامع لصفات الكمال في جنس الكتب بناء على أن غيره من الكتب إذا نسبت إليه كانت كالفقود منها وصف الكتاب لعدم استكمالها جميع كمالات الكتب ، وهذا التعريف قديعبر عنه النجاة في تعداد معاني لام التعريف بمعنى الدلالة على الكمال فلا يرد أنه كيف يحصر الكتاب في أنه آلم أو في السورة أو نحو ذلك إذ ليس المقام مقام الحصر وإنما هو مقام التعريف لا غير ، ففائدة التعريف والإشارة ظاهرية وليس شيء من ذلك لغوا بحال وإن سبق لبعض الأوهام على بعض احتمال .

والكتاب فعال بمعنى المكتوب إما مصدر كآب المصوغ للمبالغة في الكتابة ، فإن المصدر يجيء بمعنى المفعول كالخلق ، وإما فعال بمعنى مفعول كلباس بمعنى ملبوس وعماد بمعنى معمود به . واشتقاقه من كتب بمعنى جمع وضم لأن الكتاب تجمع أوراقه وحروفه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بكتابة كل ما ينزل من الوحي وجعل للوحي كتاباً ، وتسمية القرآن كتاباً إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه . وكتابة القرآن فرض كفاية على المسلمين .

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ٢

حال من الكتاب أو خبر أول أو ثان على ما مر قريبا . والريب الشك وأصل الريب القلق واضطراب النفس ، وريبُ الزمان وريبُ المنون نوايب ذلك ، قال الله تعالى « ترى به ريب المنون » ولما كان الشك يلزمه اضطراب النفس وقلقها غلب عليه الريب فصار حقيقة عرفية يقال رابه الشيء إذا شككته أى يجعل ما أوجب الشك في حاله فهو متمدد ، ويقال أرابه كذلك إذ الهمزة لم تكسبه تعديّة زائدة فهو مثل لَحِقَ وَالْحَقُّ ، وَزَلَّقه وَأَزَلَّقه وقد قيل إن أراب أضعف من راب أراب بمعنى قرَّبه من أن يشك قاله أبو زيد، وعلى التفرقة بينهما قال بشار :

أخوك الذى إن ربه قال إنما أَرَبْتَ وإن عاتبته لان جانبه (٥)

وفي الحديث « دع ما يُرِيك إلى ما لا يُرِيك » أى دع الفعل الذى يقربك من الشك في التحريم إلى فعل آخر لا يدخل عليك في فعله شك في أنه مباح . ولم يختلف متواتر القراء في فتح لا ريب نقيا للجنس على سبيل التنصيص وهو أبلغه لأنه لو رفع لاحتمل نقى الفرد دون الجنس فإن كانت الإشارة بقوله « ذلك » إلى الحروف المجتمعة فى الم على إرادة التعريض بالمتحدِّثين وكان قوله « الكتاب » خبرا لاسم الإشارة على ما تقدم كان قوله لا ريب نقيا لريب خاص وهو الريب الذى يعرض فى كون هذا الكتاب مؤلفا من حروف كلامهم فكيف عجزوا عن مثله ، وكان نقى الجنس فيه حقيقة وليس بادعاء ، فتكون جملة لا ريب منزلة منزلة التأكيد لمفاد الإشارة فى قوله « ذلك الكتاب » وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون المجرور وهو قوله « فيه » متعلقا بريب على أنه ظرف لغو فيكون الوقف على قوله فيه ، وهو مختار الجمهور على نحو قوله تعالى « وتندبر يوم الجمع لا ريب فيه » وقوله « ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » ويجوز أن يكون قوله فيه ظرفا مستقرا خبرا لقوله بعده « هدى للمتقين » ومعنى « فى » هو الظرفية المجازية العرفية تشبيها لدلالة اللفظ باحتواء الظرف فيكون تحطئة للذين أعرضوا عن استماع القرآن فقالوا « لا تسمعوا لهذا القرآن » استنزالا لطائر تفورهم كأنه قيل هذا الكتاب مشتمل على شيء من الهدى فاسمعوا إليه ولذلك نكر (١) أى إن فعلت معه ما يوجب شكك فى مودتك راجع نفسه . وقال إنما قرئى من الشك ولم أشك

فيه ، أى التمس لك العذر

الهدى أى فيه شيء من هدى على حد قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر « إنك امرؤ فيك جاهلية » ويكون خبر لا محذوفاً لظهوره أى لا ريب موجود ، وحذف الخبر مستعمل كثيراً في أمثاله نحو « قالوا لا خير » وقول العرب لا بأس ، وقول سعد بن مالك :

من صد عن نيرانها فأنا ابن قيس لا يرأخ

أى لا بقاء في ذلك ، وهو استعمال مجازى فيكون الوقف على قوله « لا ريب » وفي الكشف أن نافعا وعاصما وقفا على قوله ريب .

وإن كانت الإشارة بقوله « ذلك » إلى الكتاب باعتبار كونه كالحاضر المشاهد وكان قوله الكتاب بدلا من اسم الإشارة لبيان المجرور من قوله « فيه » ظرف لغو متعلق بريب وخبر لا محذوف على الطريقة الكثيرة في مثله ، والوقف على قوله فيه ، فيه معنى نفي وقوع الريب في الكتاب على هذا الوجه نفي الشك في أنه منزل من الله تعالى لأن المقصود خطاب المرتابين في صدق نسبته إلى الله تعالى وسيجيء خطابهم بقوله « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » فارتبابهم واقع مشتهر ، ولكن نزل ارتبابهم منزلة العدم لأن في دلائل الأحوال ما لو تأملوه لزال ارتبابهم فنزل ذلك الارتباب مع دلائل بطلانه منزلة العدم . قال صاحب المفتاح « ويقبلون القضية ^(١) مع النكر إذا كان معه ما إن تأمله ارتدع فيقولون لننكر الإسلام : الإسلام حق وقوله عز وجل في حق القرآن لا ريب فيه - وكمن شق مراتب فيه - وارد « على هذا » فيكون المركب الدال على النفي المؤكد للريب مستعملا في معنى عدم الاعتداد بالريب لمسابهة حال المرتاب في وهن ريبه بحال من ليس بمرتاب أصلا على طريقة التمثيل .

ومن المفسرين من فسر قوله تعالى « لا ريب فيه » بمعنى أنه ليس فيه ما يوجب ارتيابا في صحته أى ليس فيه اضطراب ولا اختلاف فيكون الريب هنا مجازاً في سببه ويكون المجرور ظرفاً مستقراً خبر (لا) فينظر إلى قوله تعالى « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » أى أن القرآن لا يشتمل على كلام يوجب الريبة في أنه من عند الحق رب العالمين ، من كلام يناقض بعضه بعضا أو كلام يجافى الحقيقة والفضيلة أو

(١) أى قضية التأكيد للخبر الموجه إلى منكر مضمون الخبر .

يأمر بارتكاب الشر والفساد أو يصرف عن الأخلاق الفاضلة، وانتفاء ذلك عنه يقتضى أن ما يشتمل عليه القرآن إذا تدبر فيه التدبرُ وجده مفيدا اليقين بأنه من عند الله والآية هنا تحتمل المعنيين فلنجعلهما مقصودين منها على الأصل الذى أصلناه فى المقدمة التاسعة .

وهذا النفي ليس فيه ادعاء ولا تنزيل فهذا الوجه يغنى عن تنزيل الموجود منزلة المعلوم .
 فيفيد التعريض بما بين يدي أهل الكتاب يومئذ من الكتب فإنها قد اضطربت أقوالها وتخالفت لما اعتراها من التحريف وذلك لأن التصدى للأخبار بنفى الريب عن القرآن مع عدم وجود قائل بالريب فيما تضمنه أى ريب مستند لموجب ارتياب إذ قصارى ما قالوه فيه أقوال مجمة مثل هذا سحر ، هذا أساطير الأولين ، يدل ذلك التحدى على أن المراد التعريض لا سيما بعد قوله « ذلك الكتاب » كما تقول لمن تكلم بعد قوم تكلموا فى مجلس وأنت ساكت : هذا الكلام صوابٌ تعرض بغيره .

وبهذا الوجه أيضا يتسنى اتحاد المعنى عند الوقف لدى من وقف على فيه ولدى من وقف على ريب ، لأنه إذا اعتبر الظرف غير خبر وكان الخبر محذوفاً أمكن الاستغناء عن هذا الظرف من هاته الجملة ، وقد ذكر الكشف أن الظرف وهو قوله « فيه » لم يقدم على المسند إليه وهو ريب (أى على احتمال أن يكون خبراً عن اسم لا) كما قدم الظرف فى قوله « لا فيها غول » لأنه لو قدم الظرف هنا لقصد أن كتاباً آخر فيه الريب اه . يعنى لأن التقديم فى مثله يفيد الاختصاص فيكون مفيداً أن نفي الريب عنه مقصور عليه وأن غيره من الكتب فيه الريب وهو غير مقصود هنا . وليس الحصر فى قوله « لا ريب فيه » بمقصود لأن السياق خطاب للعرب المتحدّين بالقرآن وليسوا من أهل كتاب حتى يُرد عليهم . وإنما أريد أنهم لا عذر لهم فى إنكارهم أنه من عند الله إذ هم قد دُعوا إلى معارضته فمَجَزَوْا . نعم يستفاد منه تعريض بأهل الكتاب الذين آزرُوا المشركين وشجعوهم على التكذيب به بأن القرآن لعلو شأنه بين نظرائه من الكتب ليس فيه ما يدعوا إلى الارتياب فى كونه منزلاً من الله إثارة للتدبر فيه هل يجدون ما يوجب الارتياب فيه وذلك يستطير جاثم إعجابهم بكتابتهم المبدل المحرف فإن الشك فى الحقائق رائد ظهورها . والفجر بالمستطير بين يدي طلوع الشمس بشير بسفورها . وقد بنى كلامه على أن الجملة السكيفة بالقصر فى حالة الإثبات لو دخل عليها نفي وهى بتلك الكيفية أفاد قصر النفي لا نفي القصر ، وأمثلة

صاحب المفتاح في تقديم المسند للاختصاص سوى فيها بين ما جاء بالإثبات وما جاء بالنفي .
وعندى فيه نظر سأذكره عند قوله تعالى ، « ليس عليك هدام » . وحكم حركة هاء الضمير
أو سكونها مقررة في علم القراءات في قسم أصولها .

وقوله « هدى للمتقين » الهدى اسم مصدر الهدى ليس له نظير في لغة العرب
إلا سُرَى وَتَقَى وَبُكَّى وَلُغْنَى مصدر لنى في لغة قليلة . وفعله هَدَى هديا يتمدى إلى
المفعول الثانى بإلى وربما تمضى إليه بنفسه على طريقة الحذف المتوسع فيما تقدم في قوله تعالى
« اهدنا الصراط المستقيم » .

والهدى على التحقيق هو الدلالة التى من شأنها الإيصال إلى البغية وهذا هو الظاهر في
معناه لأن الأصل عدم الترادف فلا يكون هُدى مرادفاً للدل ولأن المفهوم من الهدى الدلالة
الكاملة وهذا موافق للمعنى المنقول إليه الهدى في العرف الشرعى . وهو أسعد بقواعد
الأشعرى لأن التوفيق الذى هو الإيصال عند الأشعرى مِنْ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى فِي قَلْبِ الْمَوْفَّقِ
فيناسب تفسير الهداية بما يصلح له ليكون الذى يهدى يوصل الهداية الشرعية . فالقرآن
هدى ووصفه بالمصدر للمبالغة أى هو هاد .

والهدى الشرعى هو الإرشاد إلى ما فيه صلاح العاجل الذى لا ينقض صلاح الآجل .
وأثر هذا الهدى هو الاهتداء فالتقون يهتدون بهديه والمائدون لا يهتدون لأنهم
لا يتدبرون ، وهذا معنى لا يختلف فيه وإنما اختلف المتكلمون في منشأ حصول الاهتداء
وهى مسألة لا حاجة إليها في فهم الآية . وتفصيل أنواع الهداية تقدم عند قوله تعالى « اهدنا
الضراط » . ومحل هدى إن كان هو صدر جملة أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف هو ضمير
الكتاب فيكون المعنى الإخبار عن الكتاب بأنه الهدى وفيه من المبالغة في حصول
الهداية به ما يقتضيه الإخبار بالمصدر للإشارة إلى بلوغه الغاية في إرشاد الناس حتى كان
هو عين الهدى تنبيهها على رجحان هُدها على هَبْدَى ما قبله من الكتب ، وإن كان الوقف
على قوله لا ريب وكان الظرف هو صدر الجملة الموالية وكان قوله هدى مبتدأ خبره الظرف
المتقدم قبله فيكون إخباراً بأن فيه هدى فالظرفية تدل على تمكن الهدى منه فيساوى ذلك
في الدلالة على التمكن الوجه المتقدم الذى هو الإخبار عنه . بأنه عين الهدى .

والتقى من اتصف بالاتقاء وهو طلب الوقاية ، والوقاية الصيانة والحفظ من المكروه فالتقى هو الحذر المتطلب للنجاة من شيء مكروه مضر ، والمراد هنا المتقين الله، أى الذين هم خائفون غضبه واستعدوا لطلب مرضاته واستجابة طلبه فإذا قرئ عليهم القرآن استمعوا له وتدبروا ما يدعو إليه فاهتدوا .

والتقوى الشرعية هى امتثال الأوامر واجتناب المنهيات من الكبائر وعدم الاسترسال على الصغائر ظاهرا وباطنا أى اتقاء ما جعل الله الاقتحام فيه موجبا غضبه وعقابه ، فالكبائر كلها متوعد فاعلمها بالعقاب دون اللوم .

والمراد من الهدى ومن المتقين فى الآية معناها اللغوى فالمراد أن القرآن من شأنه الإيصال إلى المطالب الخيرية وأن المستعدين للوصول به إليها هم المتقون أى هم الذين تجردوا عن المكابرة ونزهاوا أنفسهم عن حضيض التقليد للمضلين وخشوا العاقبة وصانوا أنفسهم من خطر غضب الله هذا هو الظاهر ، والمراد بالمتقين المؤمنون الذين آمنوا بالله وبمحمد وتلقوا القرآن بقوة وعزم على العمل به كما ستكشف عنهم الأوصاف الآتية فى قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب - إلى قوله - من قبلك » .

وفى بيان كون القرآن هدى وكيفية صفة التقى معان ثلاثة : الأول أن القرآن هدى فى زمن الحال لأن الوصف بالمصدر عوض عن الوصف باسم الفاعل وزمن الحال هو الأصل فى اسم الفاعل والمراد حال النطق . والمتقون هم المتقون فى الحال أيضا لأن اسم الفاعل حقيقة فى الحال كما قلنا، أى أن جميع من نزه نفسه وأعدّها لقبول الكمال يهديه هذا الكتاب ، أو يزيده هدى كقوله تعالى « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . الثانى أنه هدى فى الماضى أى حصل به هدى أى بما نزل من الكتاب ، فيكون المراد من المتقين من كانت التقوى شعارهم أى أن الهدى ظهر أثره فيهم فاتقوا وعليه فيكون مدحا للكتاب بمشاهدة هديه وثناء على المؤمنين الذين اهتدوا به . وإطلاق المتقين على المتصفين بالتقوى فيما مضى ، وإن كان غير الغالب فى الوصف باسم الفاعل ، إطلاق يعتمد على قرينة سياق الثناء على الكتاب . الثالث أنه هدى فى المستقبل للذين سيتقون فى المستقبل وتعين عليه هنا قرينة الوصف بالمصدر فى « هدى » لأن المصدر لا يدل على زمان معين .

حصل من وصف الكتاب بالمصدر من وفرة المعانى ما لا يحصل ، لو وُصف باسم

الفاعل فقيل هادٍ للمتقين ، فهذا ثناء على القرآن وتنويه به وتخلص للثناء على المؤمنين الذين انتفعوا بهديه ، فالقرآن لم يزل ولن يزال هدى للمتقين ، فإن جميع أنواع هدايته تقعت المتقين في سائر مراتب التقوى ، وفي سائر أزمانه وأزمانهم على حسب حرصهم ومبالغ علمهم واختلاف مطالبهم ، فمن منتفع بهديه في الدين . ومن منتفع في السياسة وتدير أمور الأمة . ومن منتفع به في الأخلاق والفضائل ، ومن منتفع به في التشريع والتفقه في الدين . وكل أولئك من المتقين وانتفاعهم به على حسب مبالغ تقواهم . وقد جعل أئمة الأصول الاجتهاد في الفقه من التقوى ، فاستدلوا على وجوب الاجتهاد بقوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » فإن قصرَ بأحد سميهِ عن كمال الانتفاع به ، فإنما ذلك لنقص فيه لا في الهداية ، ولا يزال أهل العلم والصلاح يتسابقون في التحصيل على أوفر ما يستطيعون من الاهتداء بالقرآن .

وتلتمَّ الجمل الأربع كمالَ الالتئام : فإن جملة « آلم » تسجيل لإعجاز القرآن وإنحاء على عامة المشركين عجزهم عن معارضته وهو مؤلف من حروف كلامهم وكفى بهذا نداء على تعنتهم .

وجملة « ذلك الكتاب » تنويه بشأنه وأنه بالغ حد الكمال في أحوال الكتب ، فذلك موجه إلى الخاصة من العقلاء أن يقول لهم هذا كتاب مؤلف من حروف كلامكم ، وهو بالغ حد الكمال من بين الكتب ، فكان ذلك مما يوفر دواعيكم على اتباعه والافتخار بأن منحتموه فإنكم تعدون أنفسكم أفضل الأمم ، فكيف لا تسرعون إلى متابعة كتاب نزل فيكم هو أفضل الكتب فوزان هذا وزان قوله تعالى « أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا - إلى قوله - ورحمة » ، وموجه إلى أهل الكتاب بإيقاظهم إلى أنه أفضل مما أوتوه .

وجملة « لا ريب » إن كان الوقف على قوله « لا ريب » تعريضاً بكل المرتابين فيه من المشركين وأهل الكتاب أي أن الارتياب في هذا الكتاب نشأ عن المكابرة ، وأن لا ريب فإنه الكتاب الكامل ، وإن كان الوقف على قوله « فيه » كان تعريضاً بأهل الكتاب في تملقهم بمحرف كتابهم مع ما فيهما من مثار الريب والشك من الاضطراب الواضح الدال

على أنه من صنع الناس، قال تعالى « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وقال في الكشف ثم لم تخل كل واحدة من هذه الأربع بعد أن نظمت هذا التنظيم السرى من نكتة ذات جزالة : ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه ، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف ، وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر - وهو الهدى - موضع الوصف وإرادته منكراً والإيجاز في ذكر المتقين اه .

فالتقوى إذن بهذا المعنى هي أساس الخير ، وهي بالمعنى الشرعى الذى هو غاية المعنى اللغوى جاع الخيرات . قال ابن العربى لم يتكرر لفظ فى القرآن مثلما تكرر لفظ التقوى اهتماماً بشأنها .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

يتعين أن يكون كلاماً متصلاً بقوله « للمتقين » على أنه صفة لإرداف صفتهم الإجمالية بتفصيل يعرف به المراد ، ويكون مع ذلك مبدأ استطراد لتصنيف أصناف الناس بحسب اختلاف أحوالهم فى تلقى الكتاب النور به إلى أربعة أصناف بعد أن كانوا قبل الهجرة صنفين ، فقد كانوا قبل الهجرة صنفاً مؤمنين وصنفاً كافرين مصارحين ، فزاد بعد الهجرة صنفان : هما المنافقون وأهل الكتاب ، فالشركون الصرحاء هم أعداء الإسلام الأولون ، والمنافقون ظهروا بالمدينة فاعتز بهم الأولون الذين تركهم المسلمون بدار الكفر ، وأهل الكتاب كانوا فى شغل عن التصدىق لمناواة الإسلام ، فلما أصبح الإسلام فى المدينة بجوارهم أوجسوا خيفة فالتفتوا مع المنافقين وظاهروا المشركين . وقد أشير إلى أن المؤمنين المتقين فريقان : فريق هم المتقون الذين أسلموا ممن كانوا مشركين وكان القرآن هدى لهم بقرينة مقابلة هذا الموصول بالموصول الآخر المعطوف بقوله « والذين يؤمنون بما أنزل إليك الخ » فالثنى عليهم هنا هم الذين كانوا مشركين فسمعوا الدعوة الحميدة فتدبروا فى النجاة واتقوا عاقبة الشرك فأمنوا ، فالباعث الذى بعثهم على الإسلام هو التقوى دون الطمع أو التجربة ، فوائل بن حجر مثلاً لما جاء من اليمين راغباً فى الإسلام هو من المتقين ، ومسيلمة حين وفد مع

بنى حنيفة مضمر العداء طامعا في الملك هو من غير المتقين . وفريق آخر يحى ذكره بقوله «والذين يؤمنون بما أنزل إليك» الآيات . وقد أجريت هذه الصفات للثناء على الذين آمنوا بعد الإشراك بأن كان رائدهم إلى الإيمان هو التقوى والنظر في العاقبة ، ولذلك وصفهم بقوله يؤمنون بالغيب أى بعد أن كانوا يكفرون بالبعث والمعاد كما حكى عنهم القرآن في آيات كثيرة ، ولذلك اجتلبت في الإخبار عنهم بهذه الصلّات الثلاث صيغة المضارع الدالة على التجدد أيذانا بتجدد إيمانهم بالغيب وتجدد إقامتهم الصلاة والإنفاق إذ لم يكونوا متصفين بذلك إلا بعد أن جاءهم هدى القرآن . وجوز صاحب الكشف كونه كلاما مستأنفا مبتدأ وكون «أولئك على هدى» خبره . وعندى أنه تجوز لما لا يليق ، إذ الاستئناف يقتضى الانتقال من غرض إلى آخر ، وهو المسمى بالاقتضاب وإنما يحسن في البلاغة إذا أشيع الغرض الأول وأفيض فيه حتى أوعب أو حتى خيفت سامة السامع ، وذلك موقع أما بعد أو كلمة هذا ونحوها ، وإلا كان تقصيرا من الخطيب والمتكلم لاسيما وأسلوب الكتاب أوسع من أسلوب الخطابة لأن الإطالة في أغراضه أمكن .

والغيب مصدر بمعنى الغيبة «ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب» «ليعلم الله من يخافه بالغيب» وربما قالوا بظهر الغيب قال الخطيئة :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتيني

وفي الحديث دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجابة . والمراد بالغيب مالا يدرك بالحواس مما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم صريحا بأنه واقع أو سيقع مثل وجود الله ، وصفاته ، ووجود الملائكة ، والشیاطين ، وأشرار الساعة ، وما استأثر الله بعلمه . فإن فسر الغيب بالمصدر أى الغيبة كانت الباء للملابسة ظرفا مستقرا فالوصف تعريض بالمنافقين ، وإن فسر الغيب بالاسم وهو ما غاب عن الحس من العوالم العلوية والأخروية ، كانت الباء متعلقة بيؤمنون ، فالعنى حينئذ : الذين يؤمنون بما أخبر الرسول من غير عالم الشهادة كالإيمان بالملائكة والبعث والروح ونحو ذلك . وفي حديث الإيمان . «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» . وهذه كلها من عوالم الغيب ، كان الوصف تعريضا بالمشرकिन الذين أنكروا البعث وقالوا «هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا حنرقم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد» فجَمَعَ هذا الوصف بالصراحة ثناء على المؤمنين ،

وبالتعريض ذمًا للمشركين بعدم الاهتداء بالكتاب ، وذمًا للمنافقين الذين يؤمنون بالظاهر وهم مبطنون الكفر ، وسيُعقَّب هذا التعريضُ بصريح وصفهم في قوله « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم » الآيات . وقوله « ومن الناس من يقول آمنا بالله » . ويؤمنون معناه يصدقون ، وآمن مزيد آمن وهمزته الزيدة دلت على التعدية ، فأصل آمن تعدية آمن ضد خاف فأمن معناه جعل غيره آمناً ثم أطلقوا آمن على معنى صدَّق ووَثِقَ حكى أبو زيد عن العرب « ما آمنت أن أجد صحابة » يقوله المسافر إذا تأخر عن السفر ، فصار آمن بمعنى صدَّق على تقدير أنه آمن مُخْبِرَه من أن يُكذِّبه ، أو على تقدير أنه آمن نفسه من أن تخاف من كذب الخبر مبالغة في أمن كأقدم على الشيء بمعنى تقدم إليه وعمد إليه ، ثم صار فعلاً قاصراً إما على مراعاة حذف المفعول لكثرة الاستعمال بحيث نزل الفعل منزلة اللازم ، وإما على مراعاة المبالغة المذكورة أى حصل له الأمن أى من الشك واضطراب النفس واطمأن لذلك لأن معنى الأمن والاطمئنان متقارب ، ثم إنهم يضمنون آمن معنى أقر فيقولون آمن بكذا أى أقر به كما في هذه الآية ، ويضمنونه معنى اطمأن فيقولون آمن له « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » .

وحجى صلة الموصول فعلاً مضارعاً لإفادة أن إيمانهم مستمر متجدد كما علمت آتفاً ، أى لا يطرأ على إيمانهم شك ولا ريبه .

وخص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلقات الإيمان لأن الإيمان بالغيب أى ما غاب عن الحس هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوى ، فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسول وللنظر فيما يبلِّغه عن الله تعالى فسهل عليه إدراك الأدلة ، وأما من يعتقِد أن ليس وراء عالم الماديات عالم آخر وهو ما وراء الطبيعة فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله وعالم الآخرة كما كان حال الماديين وهم السموّن بالذَّهْرَيْن الذين قالوا « ما يهلكنا إلا الدهر » وقريب من اعتقادهم اعتقاد المشركين ولذلك عبدوا الأصنام المجسمة ومعظم العرب كانوا يثبتون من الغيب وجود الخالق وبعضهم يثبت الملائكة ولا يؤمنون بسوى ذلك . والكلام على حقيقة الإيمان ليس هذا موضعه ويحجى عند قوله تعالى « وما هم بمؤمنين » .

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾

الإقامة مصدر أقام الذي هو معدى قام، عدى إليه بالهزمة الدالة على الجمل ، والإقامة جعلها قائمة ، مأخوذ من قامت السوق إذا نفقت وتداول الناس فيها البيع والشراء وقد دل على هذا التقدير تصريح بعض أهل اللسان بهذا المقدر. قال أيمن ابن خريم الانطري^(١) .

أقامت غزالة سوق الضراب لأهل العراقيين حولا قيطا

وأصل القيام في اللغة هو الاتصاب المضاد للجلوس والاضطجاع ، وإنما يقوم القائم لقصد عمل صعب لا يتأتى من قعود، فيقوم الخطيب ويقوم العامل ويقوم الصانع ويقوم الماشي فكان للقيام لوازم عرفية مأخوذة من عوارضه اللازمة ولذلك أطلق مجازا على النشاط في قولهم قام بالأمر، ومن أشهر استعمال هذا المجاز قولهم قامت السوق وقامت الحرب، وقالوا في ضده ركبت ونامت، ويفيد في كل ما يتعلق به معنى مناسباً لنشاطه المجازي وهو من قبيل المجاز المرسل وشاع فيها حتى ساوى الحقيقة فصارت كالحقائق ولذلك صح بناء المجاز الثاني والاستعارة عليها ، فإقامة الصلاة استعارة تبعية شبت المواظبة على الصلوات والعناية بها يجعل الشيء قائما، وأحسب أن تعليق هذا الفعل بالصلاة من مصطلحات القرآن وقد جاء به القرآن في أوائل نزوله فقد ورد في سورة المزمل «وأقيموا الصلاة» وهي ثلاثة السور نزولا . وذكر صاحب الكشف وجوها أخر بعيدة عن مساق الآية .

وقد عبر هنا بالمضارع كما وقع في قوله «يؤمنون» ليصلح ذلك للذين أقاموا الصلاة فيما مضى وهم الذين آمنوا من قبل نزول الآية ، والذين هم بصدد إقامة الصلاة وهم الذين يؤمنون عند نزول الآية، والذين سيهتدون إلى ذلك وهم الذين جاءوا من بعدهم إذ المضارع صالح لذلك كله لأن من فعل الصلاة في الماضي فهو يفعلها الآن وغداً ، ومن لم يفعلها فهو إما يفعلها الآن أو غداً وجميع أقسام هذا النوع جمل القرآن هدى لهم. وقد حصل من إفادة المضارع التجدد

(١) أيمن بن خريم بالهاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة من قصيدة يحرض أهل العراق على قتال الخوارج، ويذكر غزالة بنت طريف زوجة شبيب الخارجي كانت تولت قيادة الخوارج بعد قتل زوجها وحاربت الحجاج عاما كاملا ثم قتلت وأول القصيدة :

أبى الجبناء من أهل العراق على الله والناس إلا سُقوطا

تأكيد ما دل عليه مادة الإقامة من المواظبة والتكرار ليكون الثناء عليهم بالمواظبة على الصلاة أصرح .

والصلاة اسم جامد بوزن فَعْلَة محرّك العين (صَلَوَة) ورد هذا اللفظ في كلام العرب بمعنى الدعاء كقول الأعشى :

تقول بنتي وقد يَمَمْتُ مُرْتَحِلًا ياربِّ جَنَّبْ أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليتِ فاغتمضى جَفْنَا فَإِنْ لَجْنِبِ المرءِ مضطجعا
وورد بمعنى العبادة في قول الأعشى :

يُرَاحُ من صَلَواتِ المَلِكِ لكِ طَوْرَ اسْجُودٍ وطَوْرَ اجْوَارٍ^(١)

فأما الصلاة المقصودة في الآية فهي العبادة المخصوصة المستعملة على قيام وقراءة وركوع وسجود وتسليم . قال ابن فارس كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال ونقلت ألفاظ من مواضع إلى مواضع آخر زيادات ، ونما جاء في الشرع الصلاة وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود وإن لم يكن على هاتاه الهيئة قال النابغة :

أَوْ دُرَّةٌ صَدْفِيَّةٌ غَوَّاصُهَا بِهِجْ مُتَى يَرَهَا يَهْلٌ وَيَسْجِدُ^(٢)

وهذا وإن كان كذا فإن العرب لم تعرفه بمثل ما أتت به الشريعة من الأعداد والمواقيت اه « قلت لا شك أن العرب عرفوا الصلاة والسجود والركوع وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام فقال « ربنا ليقيموا الصلاة » وقد كان بين ظهريهم اليهود يصلون أى يأتون عبادتهم بهيأة مخصوصة ، وسمّوا كنيسة صلاتهم ، وكان بينهم النصارى وهم يصلون وقد قال النابغة في ذكر دفن النعمان بن الحارث الغساني :

فَأَبْ مُصَلُّوه بِمَعِينِ جَلِيَّةٍ وَغَوْدِرَ بِالْجَوْلَانِ حَزْمٌ وَنَائِلُ^(٣)

(١) عائد إلى أَيُّبُلَى في قوله قبله : وما أَيُّبُلَى على هيكلٍ بناءً وصلب فيه وصاراً والأَيُّبُلَى الراهب .

(٢) يهل : أى يرفع صوته فرحاً بما أتيج له ويسجد شكراً لله تعالى .

(٣) روى مصلووه بالصاد فقال في شرح ديوانه : إن معناه رجع الرهبان الذين صلوا عليه صلاة الجنائزة وروى بالضاد المعجمة ومعناه دافنوه ، أى رجع الذين أضلوه أى غيّبوه في الأرض . قال تعالى « وقالوا أنذا ضللنا في الأرض إنما لنا لقي خلق جديد » وقوله بعين جلية : أى بتحقيق خبر موته لمن كان في شك من ذلك لشدة هول المصائب . والجولان : موضع دفن به .

على رواية مصلوه بصاد مهمة أراد المصلين عليه عند دفنه من القسس والرهبان، إذ قد كان منتصرا ومنه البيت السابق . وعرفوا السجود . قال النابغة :

أو درة صدفية غَوَّاصها بهج متى يرَهَا يُهَلُّ ويسجد

وقد تردد أئمة اللغة في اشتقاق الصلاة، فقال قوم مشتقة من الصلا وهو عرق غليظ في وسط الظهر ويفترق عند عَجَب الذنب فيكتنفه فيقال حينئذ هما صَلَوَان، ولما كان المصلي إذا انحنى للركوع ونحوه تحرك ذلك العرق اشتقت الصلاة منه كما يقولون أَفَفَ من كذا إذا شَمَخَ بأنفه لأنه يرفعه إذا اشمأز وتعاظم فهو من الاشتقاق من الجامد كقولهم استنوق الجمل وقولهم تنمر فلان، وقولها « زَوْجِي إِذَا دَخَلَ فَهَذَا وَإِذَا خَرَجَ أُسِدٌ »^(١) والذي دل على هذا الاشتقاق هنا عدم صلاحية غيره فلا يعد القول به ضعيفا لأجل قلة الاشتقاق من الجوامد كما توهمه السيد .

وإنما أطلقت على الدعاء لأنه يلزم الخشوع والانخفاض والتذلل، ثم اشتقوا من الصلاة التي هي اسم جامد صلى إذا فعل الصلاة واشتقوا صلى من الصلاة كما اشتقوا صلى الفرس إذا جاء معاقبا للمجلى في خيل الحلبة، لأنه يجيء مزاحما له في السبق، واضعا رأسه على صلا سابقه واشتقوا منه المصلى اسما للفرس الثاني في خيل الحلبة، وهذا الرأي في اشتقاقها مقتضب من كلامهم وهو الذي يجب اعتماده إذ لم يصلح لأصل اشتقاقها غير ذلك . وما أورده الفخر في التفسير أن دعوى اشتقاقها من الصلوة يفضي إلى طعن عظيم في كون القرآن حجة لأن لفظ الصلاة من أشد الألفاظ شهرة، واشتقاقها من تحريك الصلوة من أبعدها الأشياء اشتهاها فيما بين أهل النقل، فإذا جوزنا أنه خفي واندرس حتى لا يعرفه إلا الآحاد لجاز مثله في سائر الألفاظ فلا تقطع بأن مراد الله تعالى من هذه الألفاظ ما يتبادر منها إلى أفهامنا في زماننا هذا لاحتمال أنها كانت في زمن الرسول موضوعة لمعان آخر خفيت علينا اه يروده أنه لا مانع من أن يكون لفظ مشهور منقولا من معنى خفي لأن العبرة في الشيوع بالاستعمال وأما الاشتقاق فبحث علمي ولهذا قال البيضاوي « واشتهار هذا اللفظ في المعنى الثاني مع عدم اشتهاؤه في الأول لا يقدح في نقله منه » .

(١) في حديث أم زرع .

ومما يؤيد أنها مشتقة من هذا كتابتها بالواو في المصاحف إذ لولا قصد الإشارة إلى ما اشتقت منه ما كان وجه لكتابتها بالواو وهم كتبوا الزكاة والربا والحياة بالواو إشارة إلى الأصل. وأما قول الكشاف وكتابتها بالواو على لفظ المفخم أى لغة تفخيم اللام يرد أنه ذلك لم يصنع في غيرها من اللامات المفخمة .

ومصدر صلّى قياسه التصلية وهو قليل الورد في كلامهم. وزعم الجوهري أنه لا يقال صلّى تصلية وتبعه الفيروزابادي ، والحق أنه ورد بقلة في ثعلب في أماليه .
وقد نقلت الصلاة في لسان الشرع إلى الخضوع بهيأة مخصوصة ودعاء مخصوص وقراءة وعدد . والقول بأن أصلها في اللغة الهيئة في الدعاء والخضوع هو أقرب إلى المعنى الشرعى وأوفق بقول القاضي أبي بكر ومن تابعه بنى الحقيقة الشرعية ، وأن الشرع لم يستعمل لفظاً إلا في حقيقته اللغوية بضميمة شروط لا يقبل إلا بها . وقالت المعتزلة الحقائق الشرعية موضوعة بوضع جديد وليست حقائق لغوية ولا مجازات . وقال صاحب الكشاف: الحقائق الشرعية مجازات لغوية اشتهرت في معان . والحق أن هاته الأفعال ترجع إلى أقسام موجودة في الحقائق الشرعية .

﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

صلة ثالثة في وصف المتقين مما يحقق معنى التقوى وصدق الإيمان من بذل عزيز على النفس في مرضاة الله؛ لأن الإيمان لما كان مقره القلب ومترجمه اللسان كان محتاجاً إلى دلائل صدق صاحبه وهي عظام الأعمال، من ذلك التزام آثاره في الغيبة الدالة عليه « الذين يؤمنون بالغيب » ومن ذلك ملازمة فعل الصلوات لأنها دليل على تذكر المؤمن من آمن به . ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء امتثالاً لأمر الله بذلك .

والرزق ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم التي يسد بها ضروراته وحاجاته وينال بها موائمه ، فيطلق على كل ما يحصل به سد الحاجة في الحياة من الأطعمة والأنعام والحيوان والشجر الثمر والثياب وما يقتنى به ذلك من النقدين ، قال تعالى « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فازرقوهم منه » أى مما تركه الميت . وقال « الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا » وقال في قصة قارون :- « وآتيناه من الكنوز - إلى قوله -

ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» مراداً بالرزق كنوز قارون وقال «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» وأشهر استعماله بحسب ما رأيت من كلام العرب وموارد القرآن أنه ما يحصل من ذلك للإنسان، وأما إطلاقه على ما يتناوله الحيوان من الرعى والماء فهو على المجاز، كما في قوله تعالى «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وقوله - وجد عندنا رزقا - وقوله - لا يأتيكما طعام ترزقانه !

والرزق شرعا عند أهل السنة كالرزق لغة إذ الأصل عدم النقل إلا لدليل، فيصدق اسم الرزق على الحلال والحرام لأن صفة الحل والحرمه غير ملتفت إليها هنا فبيان الحلال من الحرام له مواقع أخرى ولا يقبل الله إلا طيبا وذلك يختلف باختلاف أحوال التشريع مثل الخمر والتجارة فيها قبل تحريمها، بل المقصود أنهم ينفقون مما في أيديهم. وخالفت المعتزلة في ذلك في جملة فروع مسألة خلق الفاسد والشور وتقديرهما، ومسألة الرزق من المسائل التي جرت فيها المناظرة بين الأشاعرة والمعتزلة كمسألة الآجال، ومسألة السعر، وتمسك المعتزلة في مسألة الرزق بأدلة لا تنتج المطلوب.

والإتفاق إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال ومن يرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس. وأريد به هنا بثه في نفع الفقراء وأهل الحاجة وتسديد نوائب المسلمين بقرينة المدح واقترائه بالإيمان والصلاة فلا شك أنه هنا خصلة من خصال الإيمان الكامل، وما هي إلا الإتفاق في سبيل الخير والمصالح العامة إذ لا يمدح أحد بإتقائه على نفسه وعياله إذ ذلك مما تدعو إليه الجبله فلا يمتنى الدين بالتحريض عليه؛ فمن الإتفاق ما هو واجب وهو حق على صاحب الرزق، للقرابة والمحاويج من الأمة ونوائب الأمة كتجهيز الجيوش والزكاة، وبعضه محدد وبعضه تفرضه المصلحة الشرعية الضرورية أو الحاجة وذلك مفصل في تضايف الأحكام الشرعية في كتب الفقه، ومن الإتفاق تطوع وهو ما فيه نفع من دعا الدين إلى نفعه. وفي إسناده فعل رزقنا إلى ضمير الله تعالى وجعل مفعوله ضمير الذين يؤمنون تنبيه على أن ما يصير الرزق بسببه رزقا لصاحبه هو حق خاص له خوّل الله إياه بحكم الشريعة على حسب الأسباب والوسائل التي يقرر بها ملك الناس للأموال والأرزاق، وهو الوسائل المعتبرة في الشريعة التي اقتضت استحقاق أصحابها واستشارهم بها بسبب الجهد مما عمله البرء بقوة بدنه التي لا مرية في أنها حقه مثل انتزاع

الماء واحتطاب الحطب والصيد وجنى الثمار والتقاط مالا ملك لأحد عليه ولا هو كائن في ملك أحد ، ومثل خدمته بقوته من حمل ثقل ومشى لقضاء شؤون من يؤجره وأنحباس للحراسة ، أو كان مما يصنع أشياء من مواد يملكها وله حق الانتفاع بها كالتخبز والنسج والتجبر وتطريق الحديد وتركيب الأطعمة وتصوير الآنية من طين الفخار ، أو كان مما أنتجه مثل الفرس والزرع والتوليد ، أو مما ابتكره بعقله مثل التعليم والاختراع والتأليف والطب والحمامة والقضاء ونحو ذلك من الوظائف والأعمال التي لنفع العامة أو الخاصة ، أو بما أعطاه إياه مالك رزق من هبات وهدايا ووصايا ، أو أذن بالتصرف كإحياء الموات ، أو كان مما ناله بالتعارض كالبيع والإيجارات والأكرية والشركات والمفارسة ، أو مما صار إليه من مال انعدم صاحبه بكونه أحق الناس به كالإرث . وتملك اللقطة بعد التعريف المشروط ، وحق الخمس في الركا . فهذه وأمثالها مما شمله قول الله تعالى « مما رزقناهم » .

وليس لأحد ولا لمجموع الناس حق فيما جعله الله رزق الواحد منهم لأنه لا حق لأحد في مال لم يسع لا كتسابه بوسائله وقد جاءت هند بنت عقبة زوج أبي سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن أبا سفيان رجل مسيك فهل أتق من الذي له عيالنا فقال لها « لا إلا بالمعروف » أى إلا ما هو معروف أنه تتصرف فيه الزوجة مما في بيتها مما وضعه الزوج في بيته لذلك دون مسارقة ولا خلسة .

وتقديم المجرور المعمول على عامله وهو ينفقون لمجرد الاهتمام بالرزق في عرف الناس فيكون في التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع مال الرزق من العزة على النفس كقوله تعالى « ويطعمون الطعام على حبه » ، مع رعى فواصل الآيات على حرف النون ، وفي الإتيان بمن التي هي للتبويض إيماء إلى كون الإتفاق المطلوب شرعا هو إتفاق بعض المال لأن الشريعة لم تكلف الناس حرجا ، وهذا البعض يقل ويتوفر بحسب أحوال المتفقين . فالواجب منه ما قدرت الشريعة نُصَبَه ومقاديره من الزكاة وإتفاق الأزواج والأبناء والعبيد ، وما زاد على الواجب لا ينضبط تحديده وما زاد فهو خير ، ولم يشرع الإسلام وجوب تسليم المسلم ما ارتقه واكتسبه إلى يد غيره . وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعار المسلمين وهى الإيمان الكامل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فإنهما أقدم المشروعات وهما أختان في كثير من آيات القرآن ، ولأن هذه الصفات

هي دلائل إخلاص الإيمان لأن الإيمان في حال الغيبة عن المؤمنين وحال خَوِصَّة النفس أدل على اليقين والإخلاص حين ينتفي الخوف والطمع إن كان المراد ما غاب . أو لأن الإيمان بما لا يصل إليه الحس أدل دليل على قوة اليقين حتى إنه يَتَلَقَّى من الشارع ما لا قبل للرأى فيه وشأن النفوس أن تنبو عن الإيمان به لأنها تميل إلى المحسوس فالإيمان به على علته دليل قوة اليقين بالخبر وهو الرسول إن كان المراد من الغيب ما قابل الشهادة ، ولأن الصلاة كلفة بدنية في أوقات لا يتذكرها مقيمها أى مُحَسِّن آدائها إلا الذى امتلأ قلبه بذكر الله تعالى على ما فيها من الخضوع وإظهار العبودية ، ولأن الزكاة أداء المال وقد عُلِمَ شح النفوس قال تعالى « وإذا مسه الخير منوعا » ولأن المؤمنين بعد الشرك كانوا محرومين منها في حال الشرك بخلاف أهل الكتاب فكان لذكرها تذكير بنعمة الإسلام .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ

يُوقِنُونَ ﴾ 4

عطف على «الذين يؤمنون بالغيب» طائفة ثانية على الطائفة الأولى المعنية بقوله « الذين يؤمنون بالغيب » وهما معاً قسمان للمتقين ، فإنه بعد أن أخبر أن القرآن هدى للمتقين الذين آمنوا بعد الشرك وهم العرب من أهل مكة وغيرهم ووصفهم بالذين يؤمنون بالغيب لأنهم لم يكونوا يؤمنون به حين كانوا مشركين ، ذكر فريقاً آخر من المتقين وهم الذين آمنوا بما أنزل من الكتب الإلهية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ثم آمنوا بمحمد ، وهؤلاء هم مؤمنو أهل الكتاب وهم يومئذ اليهود الذين كانوا كثيرين في المدينة وما حولها في قريظة والنضير وخيبر مثل عبد الله بن سلام ، وبعض النصارى مثل صهيب الرومي ودحية الكلبي ، وهم وإن شاركوا مسلمي العرب في الاهتمام بالقرآن والإيمان بالغيب وإقامة الصلاة فإن ذلك كان من صفاتهم قبل مجيء الإسلام فذكرت لهم خصلة أخرى زائدة على ما وُصف به المسلمون الأوّلون ، فالغايرة بين الفريقين هنا بالعموم والخصوص ، ولما كان قصد تخصيصهم بالذكر يستلزم عطفهم وكان المطف بدون تنبيه على أنهم فريق آخر يوم أن القرآن لا يهدى إلا الذين آمنوا بما أنزل من قبل لأن هذه خاتمة الصفات فهي مرادة فيظن أن الذين آمنوا عن شرك لا حظ لهم من هذا الثناء ، وكيف وفيهم من خيرة المؤمنين

من الصحابة وهم أشد اتقاء واهتداء إذ لم يكونوا أهل ترقب لبعثة رسول من قبل فاهتدأؤهم نشأ عن توفيق رباني ، دُفع هذا الإيهام بإعادة الوصول ليؤذن بأن هؤلاء فريق آخر غير الفريق الذي أجريت عليهم الصفات الثلاث الأول ، وبذلك تبين أن المراد بأهل الصفات الثلاث الأول هم الذين آمنوا بعد شرك لوجود المقابلة . ويكون الموصولان للعهد ، وعلم أن الذين يؤمنون بما أنزل من قبل هم أيضا ممن يؤمن بالغيب وقيم الصلاة وينفق لأن ذلك مما أنزل إلى النبي ، وفي التعبير بالمضارع من قوله يؤمنون بما أنزل إليك من إفادة التجدد مثل ما تقدم في نظائره لأن إيمانهم بالقرآن حدث جديدا ، وهذا كله تخصيص لهم بجزية يجب اعتبارها وإن كان التفاضل بعد ذلك بقوة الإيمان ورسوخه وشدة الاهتداء ، فأبو بكر وعمر أفضل من دحية وعبد الله بن سلام .

والإنزال جعل الشيء نازلا ، والنزول الانتقال من علو إلى سُفل وهو حقيقة في انتقال الذوات من علو ، ويطلق الإنزال ومادة اشتقاقه بوجه المجاز اللغوي على معان راجعة إلى تشبيه عمل بالنزول لاعتبار شرف ورفعة معنوية كما في قوله تعالى « قد أنزلنا عليكم لباسا » وقوله « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » لأن خلق الله وعطاءه يُجعل كوصول الشيء من جهة عليا لشرفه ، وأما إطلاقه على بلوغ الوصف من الله إلى الأنبياء فهو إما مجاز عقلى بإستناد النزول إلى الوحي تبعا لنزول الملك مبلغه الذي يتصل بهذا العالم نازلا من العالم العلوي قال تعالى « نزل به الروح الأمين على قلبك » فإن الملك ملابس للكلام المأمور بتبليغه ، وإما مجاز لغوي بتشبيه المعاني التي تلقى إلى النبي بشيء وصل من مكان عال ، ووجه الشبه هو الارتفاع المعنوي لا سيما إذا كان الوحي كلاما سمعه الرسول كالقرآن وكما أنزل إلى موسى وكما وصف النبي صلى الله عليه وسلم بعض أحوال الوحي في الحديث الصحيح بقوله « وأحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت ما قال » وأما رؤيا النوم كرويا إبراهيم فلا تسمى إنزالا ، والمراد بما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم المقدار الذي تحقق نزوله من القرآن قبل نزول هذه الآية فإن الثناء على المهتدين إنما يكون بأنهم حصل منهم إيمان بما نزل لا توقُّعُ إيمانهم بما سينزل لأن ذلك لا يحتاج للذكر إذ من المعلوم أن الذي يؤمن بما أنزل يستمر إيمانه بكل ما ينزل على الرسول لأن العناد وعدم الاطمئنان إنما يكون في أول الأمر ، فإذا زالا بالإيمان آمنوا من الارتداد « وكذلك الإيمان حين

تخالط بشاشته القلوب» . فالإيمان بما سينزل في المستقبل حاصل بفحوى الخطاب وهي الدلالة الأخروية فيإيمانهم بما سينزل مراد من الكلام وليس مدلولاً للفظ الذي هو للماضي فلا حاجة إلى دعوى تغليب الماضي على المستقبل في قوله تعالى « بما أنزل » والمراد ما أنزل وما سينزل كما في الكشف .

وعدى الإنزال إلى لتضمينه معنى الوصف فالمُنَزَّل إليه غاية للنزول والأكثر والأصل أنه يُعدَّى بحرف على لأنه في معنى السقوط كقوله تعالى « نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ » وإذا أُريد أن الشيء استقر عند المنزل عليه وتمكن منه قال تعالى « وأنزلنا عليكم المن والسلوى » واختيار إحدى التعديتين تفنن في الكلام .

ثم إن فائدة الإتيان بالموصل هنا دون أن يقال والذين يؤمنون بك من أهل الكتاب الدلالة بالصلة على أن هؤلاء كانوا آمنوا بما ثبت نزوله من الله على رسالهم دون تخليط بتحريفات صدت قومهم عن الدخول في الإسلام ككون التوراة لا تقبل النسخ وأنه يجيء في آخر الزمان من عقب إسرائيل من يخلص بني إسرائيل من الأمر والعبودية ونحو ذلك من كل ما لم ينزل في الكتب السابقة، ولكنه من الموضوعات أو من فاسد التأويلات ففيه تعريض بفلاة اليهود والنصارى الذين صدم غلوهم في دينهم وقولهم على الله غير الحق عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله « وبالآخرة هم يوقنون » عطف صفة ثانية وهي ثبوت إيمانهم بالآخرة أى اعتقادهم بحياة ثانية بعد هذه الحياة، وإعماخض هذا الوصف بالذكر عند الثناء عليهم من بين بقية أوصافهم لأنه ملاك التقوى والخشية التي جعلوا موصوفين بها لأن هذه الأوصاف كلها جارية على ما أجمله الوصف بالمتقين فإن اليقين بدار الثواب والعقاب هو الذي يوجب الحذر والفكرة فيما ينجي النفس من العقاب وينعمها بالثواب وذلك الذي ساقهم إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ولأن هذا الإيقان بالآخرة من مزايا أهل الكتاب من العرب في عهد الجاهلية فإن الشركين لا يوقنون بحياة ثانية فهم دُهريون ، وأما ما يحكى عنهم من أنهم كانوا يربطون راحلة الميت عند قبره ويتركونها لاتأكل ولاتشرب حتى الموت يزعمون أنه إذا حيى ركبها فلا يحشر رجلا

ويسمونها البلية فذلك تخليط بين مزامم الشرك وما يتلقونه عن المتنصرين منهم بدون تأمل . والآخرة في اصطلاح القرآن هي الحياة الآخرة فإن الآخرة صفة تأنيث الآخر بالبد وكسر الخاء وهو الحاصل المتأخر عن شيء قبله في فعل أو حال ، وتأنيث وصف الآخرة منظور فيه إلى أن المراد إجراؤه على موصوف مؤنث اللفظ حُذِفَ لكثرة استعماله وصيرورته معلوما وهو يقدر بالحياة الآخرة مراعاة لضده وهو الحياة الدنيا أى القرية بمعنى الحاضرة ، ولذلك يقال لها العاجلة ثم صارت الآخرة علما بالغلبة على الحياة الحاصلة بعد الموت وهى الحاصلة بعد البعث لإجراء الجزاء على الأعمال . فعنى «وبالآخرة هم يوقنون» أنهم يؤمنون بالبعث والحياة بعد الموت .

واليقين هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال أو بعد شك سابق ولا يكون شك إلا فى أمر ذى نظر فيكون أخص من الإيمان ومن العلم . واحتج الراغب لذلك بقوله تعالى «لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» ولذلك لا يطلقون الإيمان على علم الله ولا على العلوم الضرورية وقيل هو العلم الذى لا يقبل الاحتمال وقد يطلق على الظن القوى إطلاقا عرفيا حيث لا يخطر بالبال أنه ظن ويشتهه بالعلم الجازم فيكون مرادفا للإيمان والعلم .

فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بمادة الإيقان لأن هاته المادة ، تشعر بأنه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر فى طريق الاستدلال لأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة غربية بحسب المتعارف وقد كثرت الشبه التى جرت المشركين والدهريين على نفيها وإحالتها ، كان الإيمان بها جديرا بمادة الإيقان بناء على أنه أخص من الإيمان ، فلا يثار يوقنون هنا خصوصية مناسبة لبلاغة القرآن ، والذين جعلوا الإيقان والإيمان مترادفين جعلوا ذكر الإيقان هنا لمجرد التفنن تجنباً لإعادة لفظ يؤمنون بعد قوله «والذين يؤمنون بما أنزل إليك» ،

وفى قوله تعالى « وبالآخرة هم يوقنون » تقديم للمجرور الذى هو معمول يوقنون على عامله ، وهو تقديم لمجرد الاهتمام مع رعاية الفاصلة ، وأرى أن فى هذا التقديم ثناء على هؤلاء بأنهم أيقنوا بأنهم ما يوقن به المؤمن فليس التقديم بمفيد حصرا إذ لا يستقيم معنى الحصر هنا بأن يكون المعنى أنهم يوقنون بالآخرة دون غيرها ، وقد تكلف صاحب الكشف وشارحوه لإفادة الحصر من هذا التقديم ويخرج الحصر عن تعلقه بذات المحصور فيه إلى تعلقه بأحواله وهذا غير معهود فى الحصر .

وقوله « هم يوقنون » جىء بالسند إليه مقدما على السند الفعلى لإفادة تقوية الخبر إذ هو إيقان ثابت عندهم من قبل مجىء الإسلام على الإجمال، وإن كانت التوراة خالية عن تفصيله ١- والإنجيل أشار إلى حياة الروح . وتعرض كتابا حزقيال وأشعيا لذكره، وفى كلا التقديمين تعريض بالمشركن الدهريين ونداء على انحطاط عقيدتهم، وأما المتبعون للحنيفية فى ظنهم مثل أمية بن أبى الصلت وزيد بن عمرو بن نُقيل فلم يلتفت إليهم لقلة عددهم أو لأنهم ملحقون بأهل الكتاب لأخذهم عنهم كثيرا من شرائعهم بعله أنها من شريعة إبراهيم عليه السلام .

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾

اسم الإشادة متوجه إلى المتقين الذين أجرى عليهم من الصفات ما تقدم ، فكانوا فريقين. وأصل الإشارة أن تعود إلى ذات مشاهدة معينة إلا أن العرب قد يخرجون بها عن الأصل فتعود إلى ذات مستحضرة من الكلام بعد أن يذكر من صفاتها وأحوالها ما ينزلها منزلة الحاضر فى ذهن المتكلم والسامع ، فإن السامع إذا وعى تلك الصفات وكانت مهمة أو غريبة فى خير أو ضده صار الموصوف بها كالشاهد، فالتكلم يبنى على ذلك فيشير إليه كالحاضر المشاهد، فيؤتى بتلك الإشارة إلى أنه لا أوضح فى تشخصه ، ولا أغنى فى مشاهدته من تعرف تلك الصفات ، فتكنى الإشارة إليها ، هذا أصل الاستعمال فى إيراد الإشارة بعد ذكر صفات مع عدم حضور المشار إليه . ثم إنهم قد يُتبعون اسم الإشارة الوارد بعد تلك الأوصاف بأحكام فيدل ذلك على أن منشأ تلك الأحكام هو تلك الصفات المتقدمة على اسم الإشارة ، لأنها لما كانت هى طريق الاستحضار كانت الإشارة لأهل تلك الصفات قائمة مقام الذوات المشار إليها . فكأن الأحكام الواردة بعد اسماء الذوات تفيد أنها ثابتة للمسميات فكذلك الأحكام الواردة بعد ما هو للصفات تفيد أنها ثبتت للصفات، فكقوله، أو أئتك على هدى من ربهم، بمنزلة أن يقول إن تلك الأوصاف هى سبب تمكنهم من هدى ربهم بإيهم . ونظيره قول حاتم الطائي :

وَلِلّٰهِ صُغُلُوكُمْ يَسَاوِرُ هَمَّهُ وَيَمِضُ عَلَى الْأَحْدَاثِ وَالْدَّهْرِ مُقَدِّمًا
فَتَى طَلَبَاتٍ لَا يَرَى الْخَمَصُ تَرْحَةً وَلَا شُبُومَةً إِنْ نَالَهَا عَدَدٌ مَغْنَمًا

إلى أن قال :

فذلك إن يَهْلِكُ فحُسْنَى ثَنَاؤُهُ وإن عاش لم يَقُمد ضعيفا مذمما^(١)

فقوله « أولئك على هدى » جملة مستأنفة استئنفا بيانيا لأن السامع إذا سمع ما تقدم من صفات الثناء عليهم ترقب فائدة تلك الأوصاف ، واسم الإشارة هنا حل محل ذكر ضميرهم والإشارة أحسن منه وقعا لأنها تتضمن جميع أوصافهم المتقدمة فقد حققه التفتران في باب الفصل والوصل من الشرح المطول أن الاستئناف بذكر اسم الإشارة أبلغ من الاستئناف الذى يكون بإعادة اسم المستأنف عنه . وهذا التقدير أظهر معنى وأنسب بلاغة وأسعد باستعمال اسم الإشارة في مثل هاته المواقع ، لأنه أظهر في كون الإشارة لقصد التنويه بتلك الصفات المشار إليها وبما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم الناشئ عنها ، وهذا لا يحصل إلا بجوع اسم الإشاة مبتدأ أول صدر جملة استئناف . فقوله « أولئك على هدى من ربهم » رجوع إلى الإخبار عنهم بأن القرآن هدى لهم والإتيان بحرف الاستعلاء تمثيل لحالهم بأن شبهت هيئة تمكنهم من الهدى وثباتهم عليه ومحاولتهم الزيادة به والسير في طريق الخيرات بهيئة الراكب في الاعتلاء على المركوب والتمكن من تصريفه والقدرة على إرضائه فشبهت حالتهم المنتزعة من متعدد بتلك الحالة المنتزعة من متعدد تشبيها ضميا دل عليه حرف الاستعلاء لأن الاستعلاء أقوى أنواع تمكن شيء من شيء ، ووجه جعلنا إياها مؤذنة بتقدير مركوب دون كرسى أو مسطبة مثلا ، لأن ذلك هو الذى تسبق إليه أفهامهم عند سماع ما يدل على الاستعلاء ، إذ المركوب هو أكثر أنواع استعلائهم فهو الحاضر في أذهانهم ، ولذلك تراءم حين يصرحون بالمشبه به أو يرمزون إليه ما يذكرون إلا المركوب وعلاقته ، فيقولون جمل النواية مركبا وامتطى الجهل وفي المقامة « لما اقتعدت غارب الاغتراب » وقالوا في الأمثال ركب متن عمياء . تخبط خبط عشواء . وقال النابغة يهجو عامر بن الطفيل النوى :

فإن يك عامر قد قال جهلا فإن مَطيّةَ الجهل الشبابُ

فتكون كلمة « على » هنا بعض المركب الدال على الحياة المشبه بها على وجه الإيجاز

(١) الصلوك - بضم الصاد - أصله الفقير، ويطلق على المتلصص لأت الفقر يدعو للتخلص عنهم لأنهم ما كانوا يرضون باكتساب ثبات الشجاعة ويكسب المذلة بالسرقة والسؤال. فحاشم يمدح الصلوك الذى لا يقتصر على التلصص بل يكون بشجاعته عدة لقومه عند الحاجة .

وأصله أولئك على مطية الهدى فهي تمثيلية تصريحية إلا أن المصرح به بعض المركب الدال لا جميعه . هكذا قرر كلام الكشف فيها شارحوه والطبي ، والتحتاني والتفتراني والبيضاوي . وذهب القزويني في الكشف والسيد الجرجاني إلى أن الاستعارة في الآية تبعية مقيدة بأن شبه التمسك بالهدى عند المتقين بالتمسك من الدابة للراكب ، وسرى التشبيه إلى معنى الحرف وهو على ، وجوز السيد وجها ثالثا وهو أن يكون هنا استعارة مكنية مفردة بأن شبه الهدى بمركوب وحرف الاستعلاء قرينة على ذلك على طريقة السكاكي في رد التبعية للمكنية . ثم زاد الطبي والتفتراني فجعل في الآية استعارة تبعية مع التمثيلية قائلين إن مجيء كلمة على يعين أن يكون معناها مستعار لما يماثله وهو التمكن فتكون هناك تبعية لا محالة .

وقد انتصر سعد الدين التفتراني لوجه التمثيلية وانتصر السيد الجرجاني لوجه التبعية . واشتد السيد في إنكار كونها تمثيلية ورآه جمعا بين متنافيين لأن انتزاع كل من طرفي التشبيه من أمور متعددة يستلزم تركبه من معان متعددة ، كيف ومتعلق معنى الحرف من المعاني المفردة كالاستعلاء هنا ؛ فإذا اعتبر التشبيه هنا مركبا استلزم أن لا يكون معنى على ومتعلق معناها مشبها به ولا مستعارا منه لا تبعا ولا أصالة ، وأطال في ذلك في حاشيته للكشاف وحاشيته على المطول كما أطال السعد في حاشية الكشف وفي المطول ، وتراسقا سهام المناظرة الحادة . ونحن ندخل في الحكومة بين هذين العلمين بأنه لا نزاع بين الجميع أن في الآية تشبيه أشياء بأشياء على الجملة حاصلة من ثبوت الهدى للمتقين ومن ثبوت الاستعلاء على المركوب غير أن اختلاف الفريقين هو في تعيين الطريقة الحاصل بها هذا التشبيه فالأكثرون يجعلونها طريقة التمثيلية بأن يكون تشبيه تلك الأشياء حاصلا بالانتزاع والتركيب لهيئة ، والسيد يجعلها طريقة التبعية بأن يكون المشبه والمشبه به هما فردان من تلك الأشياء ويحصل العلم ببقية تلك الأشياء بواسطة تقييد الفردين المشبه والمشبه به ، ويجوز طريقة التمثيل وطريقة المكنية .

فينصرف النظر هنا إلى أي الطريقتين أرجح اعتبارا وأوفى في البلاغة مقدارا ، وإلى أن الجمع بين طريقتي التمثيلية والتبعية هل يعد متناقضا في اعتبار القواعد البيانية كما زعمه السيد .
تقرر في علم البيان أن أهله أشد حرصا على اعتبار تشبيه الهيئة فلا يعدلون عنه إلى الفرد

مهما استقام اعتباره ولهذا قال الشيخ في دلائل الإعجاز عند ذكر بيت بشار :

كَانَ مَثَارُ النَّقْعِ فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبهُ

« قصد تشبيه النقع والسيوف فيه بالليل التهاوية كواكبهُ ، لا تشبيه النقع بالليل من جانب والسيوف بالكواكب من جانب ، ولذلك وجب الحكم بأن أسيافنا في حكم الصلة المصدر (أى مثار) لثلايق في تشبيهه تفرق ، فإن نصب الأسياف على أن الواو بمعنى مع لا على العطف » . إذا تقرر هذا تبين لديك أن للتشبيه التمثيل الحظ الأوفى عند أهل البلاغة ووجهه أن من أهم أغراض البلاغ وأولها باب التشبيه وهو أقدم فنونها ، ولا شك أن التمثيل أخص أنواع التشبيه لأنه تشبيه هيئة بهيئة فهو أوقع في النفوس وأجلى للمعاني .

ونحن نجد اعتبار التمثيلية في الآية أرجح لأنها أوضح وأبلغ وأشهر وأسعد بكلام الكشف ، أما كونها أوضح فلأن تشبيه التمثيل منزع واضح لا كافة فيه فيفيد تشبيه مجموع هيئة المتقين في انصافهم بالهدى بهيئة الراكب إلخ بخلاف طريقة التبعية فإنها لا تفيد إلا تشبيه التمكن بالاستعلاء ثم يستفاد ما عدا ذلك بالتقييد . وأما كونها أبلغ فلأن المقام لما سمح بكلا الاعتبارين باتفاق الفريقين لا جرم كان أولاهما بالاعتبار ما فيه خصوصيات أقوى وأعز . وأما كونها أشهر فلأن التمثيلية متفق عليها بخلاف التبعية . وأما كونه أسعد بكلام الكشف فلأن ظاهر قوله « مَثَلٌ » أنه أراد التمثيل ، لأن كلام مثله من أهل هذه الصناعة لا يخرج فيه اللفظة الاصطلاحية عن متعارف أهلها إلى أصل المعنى اللغوي .

فإذا صح أن التمثيلية أرجح فلننقل الكلام إلى تصحيح الجمع بينها وبين التبعية وهو المجال الثاني للخلاف بين العلامتين فالسعد والطبي يجوزان اعتبار التبعية مع التمثيلية في الآية والسيد يمنع ذلك كما علمتم ويقول إذا كان التشبيه منتزعا من متعدد فقد انتزع كل جزء في المشبه من جزئ المشبه به وهو معنى التركيب فكيف يعتبر بعض المشبه به مستعارا لبعض المشبه فينتقض التركيب . وهذا الدليل ناظر إلى قول أئمة البلاغة إن أصل مفردات المركب التمثيل أن تكون مستعملة في معانيها الحقيقية وإنما المجاز في جملة المركب أي في إطلاقه على الهيئة المشبهة ، فكلام السيد وقوف عندها . ولكن التفتراني لم ير مانعا من اعتبار المجاز في بعض مفردات المركب التمثيل إذا لم يكن فيه تكلف ، ولعله يرى ذلك زيادة في خصوصيات إعجاز هذه الآية ، ومن شأن البليغ أن لا يفيت ما يقتضيه الحال من الخصوصيات ، وبهذا

تفاوتت البلفاء كما تقرر في مبحث تعريف البلاغة وحد الإعجاز هو الطرف الأعلى للبلاغة الجامع لأقصى الخصوصيات كما يبناه في موضعه وهو المختار فلما وجد في الهيئة الشبهة والهيئة المشبهة شيئا يصلح أن يشبه أحدهما بالآخر تشبيها مستقلا غير داخل في تشبيه الهيئة كان حق هذا المقام تشبيه التمكن بالاستعلاء وهو تشبيه بديع وأشير إليه بكلمة على وأما غير هذين من أجزاء الهيأتين فلما لم يحسن تشبيه شيء منها بآخر أنشئ التشبيه المفرد فيها إذ لا يحسن تشبيه التقي بخصوص الراكب ولا الهدى بالركوب فتكون « على » على هذا الوجه بعضا من المجاز المركب دليلا عليه باعتبار ومجازا مفردا باعتبار آخر .

والذي أختاره في هذه الآية أن يكون قوله تعالى « أولئك على هدى » استعارة تمثيلية مكنية شبت الحالة بالحالة وحذف لفظ المشبه به وهو المركب الدال على الركوب كأن يقال رَاكِبِينَ مطية الهدى وأبق ما يدل على المشبه وهو أولئك والهدى، ورمز للمركب الدال على المشبه به بشيء من لوازمه وهو لفظ (على) الدال على الركوب عرفا كما علمت، فشكل لنا في أقسام التمثيلية الأقسام الثلاثة : الاستعارة كما في الاستعارة المفردة فيكون التمثيل منه مجاز مرسل كاستعمال الخبر في التحسر ومنه استعارة مصرحة « نحو أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى » ومنه مكنية كما في الآية على رأينا ، ومنه تبعية كما في قول الحماسي :

وفارس في غمار الموت منغمس إذا تآلى على مكروهه صدا

فإن منغمس تمثيل لهيئة إحاطة أسباب الموت به من كل جانب بهيئة من أحاطت به المياه المهلكة من كل جانب ولفظ منغمس تبعية لا محالة .

وإنما نكر هدى ولم يعرف باللام لمساواة التعريف والتنكير هنا إذ لو عُرف لكان التعريف تعريف الجنس فرجح التنكير تمهيدا لوصفه بأنه من عند ربهم، فهو معيار للهدى السابق في قوله هدى للمتقين « مغيرةً بالاعتبار إذ القصد التنويه هنا بشأن الهدى وتوسلا إلى إفادة تعظيم الهدى بقرينة مقام المدح وبذكر ما يدل على التمكن فتعين قصد التعظيم . فقوله من ربهم تنويه بهذا الهدى يقتضي تعظيمه وكل ذلك يرجع إلى تعظيم المتصفين بالتمكن منه .

وإنما وصف الهدى بأنه من ربهم للتنويه بذلك الهدى وتشريفه مع الإشارة بأنهم يحفل العناية من الله وكذلك إضافة الرب إليهم هي إضافة تعظيم لشأن المضاف إليه بالقرينة .

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٥

مرجع الإشارة الثانية عين مرجع الأولى، ووجه تكرير اسم الإشارة التنبيه على أن كلتا الأثرين جدرة بالاعتناء والتنويه، فلا تذكر إحداها تبعاً للأخرى بل تخص بجملة وإشارة خاصة ليكون اشتهاهم بذلك اشتهاً باركنا بجلتين وأنهم ممن يقال فيه كلا القولين .

ووجه العطف بالواو دون الفصل أن بين الجلتين توسطاً بين كمالى الاتصال والاقطاع لأنك إن نظرت إلى اختلاف مفهومهما وزمن حصولهما فإن مفهوم إحداها وهو الهدى حاصل فى الدنيا ومفهوم الأخرى وهو الفلاح حاصل فى الآخرة كاتنا منقطعتين . وإن نظرت إلى تسبب مفهوم إحداها عن مفهوم الأخرى ، وكون كل منهما مقصوداً بالوصف كاتنا متصلتين ، فكان التعارض بين كمالى الاتصال والاقطاع منزلاً إياهما منزلة المتوسطتين ، كذا قرر شراح الكشاف ومعلوم أن حالة التوسط تقتضى العطف كما تقرر فى علم المعانى ، وتعليله عندى أنه لما تعارض المقتضيان تعين العطف لأنه الأصل فى ذكر الجمل بعضها بعد بعض .

وقوله «هم المفلحون» الضمير للفصل، والتعريف فى المفلحون للجنس وهو الأظهر إذ لا معهود هنا بحسب ظاهر الحال، بل المقصود إفادة أن هؤلاء مفلحون، وتعريف المسند بلام الجنس إذا حمل على مسند إليه معرف أفاد الاختصاص فىكون ضمير الفصل لمجرد تأكيد النسبة ، أى تأكيداً للاختصاص . فأما إذا كان التعريف للجنس وهو الظاهر فتعريف المسند إليه مع المسند من شأنه إفادة الاختصاص غالباً لكنه هنا مجرد عن إفادة الاختصاص الحقيقى ، ومفيد شيئاً من الاهتمام بالخبر، فلذلك جلب له التعريف دون التنكير وهذا مثله عبد القاهر بقولهم: هو البطل الحامى . أى إذا سمعت بالبطل الحامى وأعطت به خبراً فهو فلان .

وإليه أشار فى الكشاف هنا بقوله «أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم» والسكاكى لم يتابع الشيخين على هذا فعدل عنه فى الفتاح والله دره .

والفلاح: الفوز وصلاح الحال، فيكون في أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، والمراد به في اصطلاح الدين الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة. والفعل منه ، أفلح أى صار ذا فلاح، وإنما اشتق منه الفعل بواسطة الهمزة الدالة على الصيرورة لأنه لا يقع حدثاً قائماً بالذات بل هو جنس تحف أفراده بمن قدرت له - قال في الكشف: انظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى وهى ذكر اسم الإشارة وتكريره وتعريف الفلاحين ، وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين أولئك ليبصر كمراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾

هذا انتقال من الثناء على الكتاب ومتقليديه ووصف هديه وأثر ذلك الهدى في الذين اهتموا به والثناء عليهم الراجع إلى الثناء على الكتاب لما كان الثناء إنما يظهر إذا تحققت آثار الصفة التي استحق بها الثناء ، ولما كان الشيء قد يقدر بضده انتقل إلى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء بهذا الكتاب ، وسجل أن حرمانهم من الاهتداء بهديه إنما كان من خبث أنفسهم إذ نبوا بها عن ذلك، فما كانوا من الذين يفكرون في عاقبة أمورهم ويحذرون من سوء العواقب فلم يكونوا من المتقين ، وكان سواء عندهم الإنذار وعدمه فلم يتلقوا الإنذار بالتأمل بل كان سواء والعدم عندهم ، وقد قرنت الآيات فريقين فريقاً أضمر الكفر وأعلنه وهم من المشركين كما هو غالب اصطلاح القرآن في لفظ الذين كفروا وفريقاً أظهر الإيمان وهو مخادع وهم المنافقون المشار إليهم بقوله تعالى «ومن الناس من يقول آمنا». وإنما قطعت هاته الجملة عن التي قبلها لأن بينهما كمال الانقطاع إذ أجل السابقة لذكر الهدى والمهتدين، وهذه لذكر الضالين فبينهما الانقطاع لأجل التضاد ، ويعلم أن هؤلاء قسم مضاد للقسمين المذكورين قبله من سياق المقابلة . وتصدير الجملة بحرف التأكيد إما لجرد الاهتمام بالخبر وغرابته دون رد الإنكار أو الشك ؛ لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه و للامة وهو خطاب أنف بحيث لم يسبق شك في وقوعه ، ووجب أن للاهتمام كثير في الكلام وهو في القرآن كثير . وقد تكون إن هنا رد الشك تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر ؛ لأن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية الكافرين تجعله لا يقطع الرجاء

في تقع الإنذار لهم وحاله كحال من شك في تقع الإنذار ، أو لأن السامعين لما أجرى على الكتاب من الثناء ببلوغه الدرجة القصوى في الهداية يطعمهم أن تؤثر هدايته في الكافرين المرضى وتجعلهم كالذين يشكون في أن يكون الإنذار وعدمه سواء فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ونزل غير الشاك منزلة الشاك . وقد نقل عن المبرد أن إن لا تأتي لرد الإنكار بل لرد الشك .

وقد تبين أن الذين كفروا المذكورين هنا هم فريق من المشركين الذين هم مأیوس من إيمانهم ، فالإتيان في ذكرهم بالتعريف بالوصول إما أن يكون لتعريف العهد مراداً منه قوم معهودون كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم من رؤوس الشرك وزعماء العناد دون من كان مشركاً في أيام نزول هذه الآية ثم من آمن بعد مثل أبي سفيان بن حرب وغيره من مُسلمة الفتح وإما أن يكون الوصول لتعريف الجنس الفريد للاستغراق على أن المراد من الكفر أبلغ أنواعه بقرينة قوله « لا يؤمنون » فيكون عاماً مخصوصاً بالحس لمشاهدة من آمن منهم أو يكون عاماً مراداً به الخصوص بالقرينة وهذان الوجهان هما اللذان اقتصر عليهما المحققون من المفسرين وهما ناظران إلى أن الله أخبر عن هؤلاء بأنهم لا يؤمنون فتعني أن يكونوا ممن تبين بعد أنه مات على الكفر . ومن المفسرين من تأوّل قوله تعالى « الذين كفروا » على معنى الذين قضى عليهم بالكفر والشقاء ونظّره بقوله تعالى « إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون » وهو تأويل بعيد من اللفظ وشتان بينه وبين تنظيره . ومن المفسرين من حمل « الذين كفروا » على رؤساء اليهود مثل حيي بن أخطب وأبي رافع يعني بناء على أن السورة نزلت في المدينة وليس فيها من الكافرين سوى اليهود والمنافقين وهذا بعيد من عادة القرآن وإعراض عن السياق المقصود منه ذكر من حرم من هدى القرآن في مقابلة من حصل لهم الاهتداء به ، وأياً ما كان فالعنى عند الجميع أن فريقاً خاصاً من الكفار لا يرجى إيمانهم وهم الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وروى ذلك عن ابن عباس والمقصود من ذلك أن عدم اهتدائهم بالقرآن كان لعدم قابليتهم لا لنقص في دلالة القرآن على الخير وهديه إليه .

والكفر- بالضم- إخفاء النعمة، وبالفتح : الستر مطلقاً وهو مشتق من كفر إذا ستر . ولما كان إنكار الخالق أو إنكار كماله أو إنكار ما جاءت به رسله ضرباً من كفران نعمته على

جاحدها ، أطلق عليه اسم الكفر وغلب استعماله في هذا المعنى. وهو في الشرع إنكار ما دلت عليه الأدلة القاطعة وتناقضه جميع الشرائع الصحيحة الماضية حتى علمه البشر وتوجهت عقولهم إلى البحث عنه ونصبت عليه الأدلة كوحداية الله تعالى ووجوده ولذلك عد أهل الشرك فيما بين الفترة كفارا . وإنكار ما علم بالضرورة بحجى النبي محمد صلى الله عليه وسلم به ودعوته إليه وعده في أصول الإسلام أو المكابرة في الاعتراف بذلك ولو مع اعتقاد صدقه ولذلك عبر بالإنكار دون التكذيب . ويلحق بالكفر في إجراء أحكام الكفر عليه كل قول أو فعل لا يجترى عليه مؤمن مصدق بحيث يدل على قلة أكثراث فاعله بالإيمان وعلى إضمماره الطعن في الدين وتوسله بذلك إلى نقض أصوله وإهانتته بوجه لا يقبل التأويل الظاهر وفي هذا النوع الأخير مجال لاجتهاد الفقهاء وفتاوى أساطين العلماء إثباتا ونقيا بحسب مبلغ دلالة القول والفعل على طعن أو شك . ومن اعتبر الأعمال أو بعضها المعين في الإيمان اعتبر فقدها أو فقد بعضها المعين في الكفر .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: القول عندى أن الكفر بالله هو الجهل بوجوده والإيمان بالله هو العلم بوجوده فالكفر لا يكون إلا بأحد ثلاثة أمور أحدها الجهل بالله تعالى . الثاني أن يأتي بفعل أو قول أخبر الله ورسوله أو أجمع المؤمنون على أنه لا يكون إلا من كافر كالسجود للصنم . الثالث أن يكون له قول أو فعل لا يمكن معه العلم بالله تعالى . ونقل ابن راشد في الفائق عن الأشعري رحمه الله أن الكفر خصلة واحدة . قال القرافي في الفرق ٢٤١ أصل الكفر هو انتهاك خاص لحمة الربوبية ويكون بالجهل بالله وبصفاته أو بالجرأة عليه وهذا النوع هو المجال الصعب لأن جميع المعاصي جرأة على الله .

وقوله «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم» خبر إن الذين كفروا وسواء اسم بمعنى الاستواء فهو اسم مصدر دل على ذلك لزوم إفراده وتذكيره مع اختلاف موصوفاته وتخبراته فإذا أخبر به أو وصف كان ذلك كالصدر في أن المراد به معنى اسم الفاعل لقصد المبالغة . وقد قيل إن سواء اسم بمعنى المثل فيكون التزام إفراده وتذكيره لأن المثلية لا تتعدد ، وإن تعدد موصوفها تقول هم رجال سواء لزيد بمعنى مثل لزيد . وإنما عدى سواء بعلی هنا وفي غير موضع ولم يعلق بعند ونحوها مع أنه المقصود من الاستعلاء في مثله ، للإشارة إلى تمكن الاستواء عند التكلم وأنه لا مصرف له عنه ولا تردد له فيه فالمعنى سواء عندهم الإنذار وعنده .

واعلم أن للعرب في سواء استماليين : أحدهما أن يأتوا بسواء على أصل وضعه من الدلالة على معنى التساوى في وصف بين متعدد فيقع معه « سواء » ما يدل على متعدد نحو ضمير الجمع في قوله تعالى « فهم فيه سواء » ونحو العطف في قول بئينة :

سواء علينا يا جميل بن معمر إذا مت بأساء الحياة ولينها

ويجوز إعرابه على ما يقتضيه موقعه من التركيب ؛ وثانيهما أن يقع مع همزة التسوية وما هي إلا همزة استفهام كثر وقوعها بعد كلمة « سواء » ومعها (أم) العاطفة التي تسمى المتصلة كقوله تعالى « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا » وهذا أكثر استعمالها وتردد النحاة في إعرابه وأظهر ما قالوه وأسلمه أن (سواء) خبر مقدم وأن الفعل الواقع بعده مقترنا بالهمزة في تأويل مبتدأ لأنه صار بمنزلة المصدر إذ تجرد عن النسبة وعن الزمان ، فالتقدير في الآية سواء عليهم إنذارك وعدمه .

وأظهر عندي مما قالوه أن المبتدأ بعد (سواء) مقدر يدل عليه الاستفهام الواقع معه وأن التقدير سواء جواب « أأنذرتهم أم لم تنذرهم » وهذا يجري على نحو قول القائل علمت أزيد قائم إذ تقديره علمت جواب هذا السؤال ، ولك أن تجعل (سواء) مبتدأ رافعاً لفاعل سد مسد الخبر لأن (سواء) في معنى مستوفى فهو في قوة اسم الفاعل فيرفع فاعلاً ساداً مسد خبر المبتدأ وجواب مثل هذا الاستفهام لما كان واحداً من أمرين كان الإخبار باستوائيهما عند الخبر مشيراً إلى أمرين متساويين ولأجل كون الأصل في خبره الأفراد كان الفعل بعد سواء مؤولاً بمصدر ووجه الألفية فيه أن هذين الأمرين خلفاء الاستواء بينهما حتى ليسأل السائلون أفعل فلان كذا وكذا فيقال إن الأمرين سواء في عدم الاكتراث بهما وعدم تطلب الجواب على الاستفهام من أحدهما فيكون قوله تعالى « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » مشيراً إلى أن الناس لتمجيهم في دوام الكفار على كفرهم مع ما جاءهم من الآيات بحيث يسأل السائلون أأنذرتهم النبي أم لم ينذرهم متيقنين أنه لو أنذرهم لما ترددوا في الإيمان ف قيل إنهم سواء عليهم جواب تساؤل الناس عن إحدى الأمرين ، وبهذا اتقى جميع التكلفات التي فرضها النحاة هنا ونبراً مماورد عليها من الأبحاث ككون الهمزة خارجة عن معنى الاستفهام ، وكيف يصح عمل ما بعد الاستفهام فيما قبله إذا أعرب سواء خبراً والفعل بعد الهمزة مبتدأ مجرداً عن الزمان ، وككون الفعل مراداً منه مجرد الحدث ، وكدعوى كون الهمزة في التسوية مجازاً بعلاقة

اللزوم ، وكون أم بمعنى الواو ليكون الكلام لشيئين لأحد شيئين ونحو ذلك ، ولا يحتاج إلى تكلف الجواب عن الإيراد الذي أورد على جعل الهمزة بمعنى سواء إذ يؤول إلى معنى استوى الإنذار وعدمه عندهم سواء فيكون تكراراً خالياً من الفائدة فيجاء بما نقل عن صاحب الكشف أنه قال معناه أن الإنذار وعدمه المستويين في علم المخاطب هما مستويان في عدم النفع ، فاختلفت جهة المساواة كما نقله التفثاني في شرح الكشف .

ويتعين إعراب سواء في مثله مبتدأ والخبر محذوف دل عليه الاستفهام تقديره جواب هذا الاستفهام فسواء في الآية مبتدأ ثان والجملة خبر الذين كفروا . ودع عنك كل ما خاض فيه الكاتبون على الكشف ، وحرف (على) الذي يلزم كلمة سواء غالباً هو للاستعلاء المجازي المراد به التمكن أى إن هذا الاستواء متمكن منهم لا يزول عن نفوسهم ولذلك قد يحىء بعض الظروف في موضع على مع كلمة سواء مثل عند ، ولدى ، قال أبو الشغب العبسي (١) .

لا تَعْدِلِي فِي جُنْدُجٍ إِنْ جُنْدُجًا وَلَيْتَ كِفْرَيْنٍ لَدَيَّ سَوَاءٌ
وسياتى تحقيق لنظير هذا التركيب عند قوله تعالى في سورة الأعراف « سواء عليكم أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ » ، وقرأ ابن كثير « أُنْذَرْتَهُمْ » بهمزين أولها محققة والثانية مسهلة . وقرأ قالون عن نافع وورش عنه في رواية البغداديين وأبو عمرو وأبو جعفر كذلك مع إدخال ألف بين الهمزتين ، وكلتا القرائتين لغة حجازية . وقرأه حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين وهى لغة تميم . وروى أهل مصر عن ورش إبدال الهمزة الثانية ألفاً . قال الزخشرى وهو لحن ، وهذا يضعف رواية المصريين عن ورش ، وهذا اختلاف في كيفية الأداء فلا ينافى التواتر .

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ،

الأظهر أن هاته الجملة مسوقة لتقرير معنى الجملة التى قبلها وهى « سواء عليهم أُنْذَرْتَهُمْ » الخ فلك أن تجعلها خبراً ثانياً عن إِيَّان واستفادة التأكيد من السياق ولك أن

(١) هو من شعراء ديوان الحماسة إلا أن هذا الشعر في ديوان الحماسة غير منسوب في غالب النسخ ، وفي

بعضها منسوب لأبي الشغب وهو بفتح الشين وسكون العين المعجمتين ، اسمه عكرشة بن أربد ، شاعر مقل من شعراء العصر الأموى .

تجعلها تأكيداً وعلى الوجهين فقد فصلت إما جوازاً على الأول وإما وجوباً على الثاني، وقد فرضوا في إعرابها وجوهاً أخرى لا نكثر بها لضعفها ، وقد جوز في الكشف جعل جملة « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » اعتراضاً للجملة « لا يؤمنون » وهو مرجوح لم يرتضه السعد والسيد ، إذ ليس محل الإخبار هو لا يؤمنون إنما المهم أن يخبر عنهم باستواء الإنذار وعدمه عندهم ، فإن في ذلك نداء على مكابرتهم وغبائهم ، وعذراً للنبي صلى الله عليه وسلم في الحرص على إيمانهم ، وتسجيلاً بأنهم يفتح سمعه وقلبه لتلقى الحق والرشاد لا ينفع فيه حرص ولا ارتياد ، وهذا وإن كان يحصل على تقديره جعل لا يؤمنون خبراً إلا أن القصود من الكلام هو الأولى بالإخبار ، ولأنه يصير الخبر غير معتبر إذ يصير بمثابة أن يقال إن الذين كفروا لا يؤمنون، فقد علم أنهم كفروا فعدم إيمانهم حاصل ، وإن كان المراد من لا يؤمنون استمرار الكفر في المستقبل إلا أنه خبر غريب بخلاف ما إذا جعل تفسيراً للخبر .

وقد احتج بهاته الآية الذين قالوا بوقوع التكليف بما لا يطاق احتجاجاً على الجملة إذ مسألة التكليف بما لا يطاق بقيت زماناً غير محررة، وكان كل من لاح له فيها دليل استدل به ، وكان التعبير عنها بعبارة فمنهم من يعنونها التكليف بالمحال ، ومنهم من يعبر بالتكليف بما ليس بمقدور ، ومنهم من يعبر بالتكليف بما لا يطاق ، ثم إنهم ينظرون مرة للاستحالة الذاتية العقلية ، ومرة للذاتية العادية ، ومرة للأمريضة ، ومرة للمشقة القوية المحرجة للمكلف فيخلطونها بما لا يطاق ولقد أفصح أبو حامد الاسفراييني وأبو حامد الغزالي وأضر بهما عما يرفع القناع عن وجه المسألة فصارت لا تحير أفهاماً وانقلب قتادها تماماً . وذلك أن المحال منه محال لذاته عقلاً كجمع النقيضين ومنه محال عادة كصعود السماء ومنه مافيه حرج وإعنات كدخ الخمر ولده ووقوف الواحد لعشرة من أقرانه ، ومنه محال عرضت له الاستحالة بالنظر إلى شيء آخر كإيمان من علم الله عدم إيمانه وحج من علم الله أنه لا يحج ، وكل هاته أطلق عليها ما لا يطاق كما في قوله تعالى « ولا تحملنا مالا طاقة لنا به » إذ المراد ما يشق مشقة عظيمة ، وأطلق عليها المحال حقيقةً ومطابقة في بعضها والتزاماً في البعض ، وبجازاً في البعض ، وأطلق عليها عدم المقدور كذلك ، كما أطلق الجواز على الإمكان ، وعلى الإمكان للحكمة ، وعلى الوقوع . فنشأ من تفاوت هاته الأقسام

واختلاف هاته الإطلاقات مقالات ملأت الفضاء . وكانت للمخالفين كجبر المضاء ، فلما قيض الله أعلاماً نفوا ما شاكها ، وفتحوا أغلقها ، تبين أن الجواز الإمكاني في الجميع ثابت لأن الله تعالى يفعل ما يشاء لو شاء ، لا يخالف في ذلك مسلم . وثبت أن الجواز الملازم للحكمة منتف عندنا وعند المعتزلة وإن اختلفنا في تفسير الحكمة لاتفاق الكل على أن فائدة التكليف تنعدم إذا كان المكلف به متمذر الوقوع . وثبت أن الممتنع لتعلق العلم بعدم وقوعه مكلف به جوازا ووقوعا ، وجل التكليف لا تخلو من ذلك ، وثبت ما هو أخص وهو رفع الحرج الخارجى عن الحد المتعارف ، تفضلا من الله تعالى لقوله « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وقوله « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم » أى لاتطيقونه كما أشار إليه ابن العربى في الأحكام ، هذا ملاك هاته المسألة على وجه يلتزم به متناثرها ، ويستأنس متنافرها .

وبقى أن نبين لكم وجه تعلق التكليف بمن علم الله عدم امتثاله أو بمن أخبر الله تعالى بأنه لا يمتثل كما في هاته الآية ، وهى أخص من مسألة العلم بعدم الوقوع إذ قد انضم الإخبار إلى العلم كما هو وجه استدلال المستدل بها ، فالجواب أن من علم الله عدم فعله لم يكلفه بخصوصه ولا وجه له دعوة تخصه إذ لم يثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم خص أفراداً بالدعوة إلا وقد آمنوا كما خص عمر بن الخطاب حين جاءه ، بقوله « أما أن لك يا ابن الخطاب أن تقول لا إله إلا الله » وقوله لأبى سفيان يوم الفتح قريباً من تلکم المقالة ، وخص عمه أبا طالب بمثلها ، ولم تكن يومئذ قد نزلت هذه الآية ، فلما كانت الدعوة عامة وهم شملهم العموم بطل الاستدلال بالآية وبالدليل العقلى ، فلم يبق إلا أن يقال لماذا لم يخص من علم عدم امتثاله من عموم الدعوة ، ودفع ذلك أن تخصيص هؤلاء بطيل الشريعة ويجرى غيرهم ويضعف إقامة الحجة عليهم ، ويوهم عدم عموم الرسالة ، على أن الله تعالى قد اقتضت حكمته الفصل بين ما فى قدره وعلمه ، وبين ما يقتضيه التشريع والتكليف ، ومير الحكمة فى ذلك بيناه فى مواضع يطول الكلام بجلبها ويخرج من غرض التفسير ، وأحسب أن تفطنكم إلى مجمله ليس بعسير .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾

هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله ، فإذا علم أن على قلوبهم ختما وعلى أسماعهم وأن على أبصارهم غشاوة علم سبب ذلك كله وبطل العجب ، فالجملة استئناف بياني يفيد جواب سائل يسأل عن سبب كونهم لا يؤمنون ، وموقع هذه الجملة في نظم الكلام مقابل موقع جملة « أولئك على هدى من ربهم » فلهذه الجملة مكانة بين ذم أصحابها بمقدار ما لتلك من المسكنة في الثناء على أربابها . والختم حقيقة السد على الإناء والعلق على الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة مرسومة في خاتم لمنع ذلك من فتح المحتوم ، فإذا فُتح علم صاحبه أنه فُتح لفساد يظهر في أثر النقش وقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم خاتما لذلك ، وقد كانت العرب تختم على قوارير الخمر ليصلحها انحباس الهواء عنها وتسلم من الأقدار في مدة تعتيقها . وأما تسمية البلوغ لآخر الشيء ختما فلأن ذلك الموضع أو ذلك الوقت هو ظرف وضع الختم فيسمى به مجازا . والخاتم بفتح التاء الطين الموضوع على السكان المحتوم ، وأطلق على القالب النقوش فيه علامة أو كتابة يطبع بها على الطين الذي يختم به . وكان نقش خاتم النبي صلى الله عليه وسلم « محمد رسول الله » . وطين الختم طين خاص يشبه الجبس يبل بماء ونحوه ويشد على الموضع المحتوم فإذا جف كان قوى الشد لا يُقلع بسهولة وهو يكون قِطعا صغيرة كل قطعة بمقدار مضنة وكانوا يعملونه خواتيم في رقاب أهل الذمة قال بشار :

ختم الحب لها في عنق موضع الخاتم من أهل الذمم

والغشاوة فعالة من غشاء وتغشاء إذا حجبته ومما يصاغ له وزن فعالة بكسر الفاء معنى الاشتمال على شيء مثل الإمامة والعلاوة واللفافة . وقد قيل إن صوغ هذه الرنة للصناعات كالخياطة لما فيها من معنى الاشتمال المجازي ، ومعنى الغشاوة الغطاء . وليس الختم على القلوب والأسماع ولا الغشاوة على الأبصار هنا حقيقة كما توهمه بعض المفسرين فيما نقله ابن عطية بل ذلك جار على طريقة المجاز بأن جعل قلوبهم أي عقولهم في عدم نفوذ الإيمان والحق

والإرشاد إليها ، وجعل أسماعهم في استسكا كما عن سماع الآيات والنذر ، وجعل أعينهم في عدم الانتفاع بما ترى من المعجزات والدلائل الكونية ، كأنها مختوم عليها ومغشىٌ دونها إما على طريقة الاستمارة بتشبيه عدم حصول النفع المقصود منها بالخم والغشاوة ثم إطلاق لفظ ختم على وجه التبعية ولفظ الغشاوة على وجه الأصلية وكتاتها استمارة تحقيقية إلا أن المشبه محقق عقلا لا حسا .

ولك أن تجعل الختم والغشاوة تمثيلا بتشبيه هيئة وهمية متخيلة في قلوبهم أى إدراكهم من التصميم على الكفر وإمسأهم عن التأمل في الأدلة - كما تقدم - بهيئة الختم ، وتشبيه هيئة متخيلة في أبصارهم من عدم التأمل في الوحدانية وصدق الرسول بهيئة الغشاوة وكل ذينك من تشبيه العقول بالمحسوس ، ولك أن تجعل الختم والغشاوة مجازا مرسلابلاقة الزوم والمراد اتصافهم بلأزم ذلك وهو أن لا تعقل ولا تحس ، والختم في اصطلاح الشرع استمرار الضلالة في نفس الضال أو خلق الضلالة ، ومثله الطبع ، والآكنة . والظاهر أن قوله وعلى سمعهم معطوف على قوله « قلوبهم » فكون الأسماع مختوما عليها وليس هو خبرا مقدما لقوله غشاوة فيكون « وعلى أبصارهم » معطوفا عليه لأن الغشاوة تناسب الأبصار لا الأسماع ولأن الختم يناسب الأسماع كما يناسب القلوب إذ كلاهما يشبه بالوعاء ويتخيل فيه معنى الغلق والسد ، فإن العرب تقول : استكَّ سمعه ووقر سمعه وجعلوا أصابعهم في آذانهم .

والمراد من القلوب هنا الأبواب والعقول ، والعرب تطلق القلب على اللحمة الصنوبرية ، وتطلقه على الإدراك والعقل ، ولا يكادون يطلقونه على غير ذلك بالنسبة للإنسان وذلك ، غالب كلامهم على الحيوان ، وهو المراد هنا ، ومقره الدماغ لا محالة ولكن القلب هو الذى يعمده بالقوة التى بها عمل الإدراك

وإنما أفرد السمع ولم يجمع كما جمع قلوبهم وأبصارهم إما لأنه أريد منه المصدر الدال على الجنس ، إذ لا يطق على الآذان سمع ألا ترى أنه جمع لما ذكر الآذان في قوله « يجعلون أصابعهم في آذانهم » - وقوله - « وفي آذاننا وقر » فلما عبر بالسمع أفرد لأنه مصدر بخلاف القلوب والأبصار فإن القلوب متعددة والأبصار جمع بصر الذى هو اسم لامصدر ، وإما لتقدير محذوف أى وعلى حواس سمعهم أو

جوارح سمعهم . وقد تكون في أفراد السمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن هي أن القلوب كانت متفاوتة واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة ، وبالكثرة والقلّة وتلقى أنواعا كثيرة من الآيات فلكل عقل حظه من الإدراك ، وكانت الأبصار أيضا متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوجدانية في الآفاق ، وفي الأنفس التي فيها دلالة ، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعت . وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يُلقى إليها من القرآن فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعا متساويا وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعا واحدا .

وإطلاق أسماء الجوارح والأعضاء إذا أُريد به المجاز عن أعمالها ومصادرها جاز في إجراءاته على غير المفرد أفراده وجمعه وقد اجتمعا هنا فأما الإطلاق حقيقة فلم يصح ، قال الجاحظ في البيان^(١) (قال بعضهم لفلان له اشترى رأس كبشين فقيل له ذلك لا يكون، فقال إذا فرأسي كبش فزاد كلامه إحالة) وفي الكشف أنهم يقولون ذلك إذا أمن اللبس كقول الشاعر :

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعَفُّوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصٌ

وهو نظير ما قاله سيبويه في باب ما لُفَظَ به مما هو مثني كما لُفَظَ بالجمع من نحو قوله تعالى « فقد صفت قلوبكما » ويقولون ضع رحلهما وإنما هما اثنان وهو خلاف كلام الجاحظ وقد يكون ما عده الجاحظ على القائل خطأ لأن مثل ذلك القائل لا يقصد المعاني الثانية فحمل كلامه على الخطأ لجهله بالعربية ولم يحمل على قصد لطيفة بلاغية بخلاف ما في البيت فضلا عن الآية كقول علي رضي الله عنه لمن سأله حين مرت جنازة: من المتوفى (بصيغة اسم الفاعل) فقال له علي « الله » لأنه علم أنه أخطأ أراد أن يقول المتوفى وإلا فإنه يصح أن يقال توفي فلان بالبناء للفاعل فهو متوفى أي استوفى أجله، وقد قرأ على نفسه قوله تعالى « والذين يتوفون منكم » بصيغة المبنى للفاعل .

وبعد كون الختم مجازا في عدم تقوُّذ الحق لمقولهم وأسماعهم وكون ذلك مسببا لا محالة عن إعراضهم ومكابرتهم أسند ذلك الوصف إلى الله تعالى لأنه المقدَّر له على طريقة إسناد

(١) انظر صحيفة ٢٠١ من الجزء الأول طبع بولاق .

نظائر مثل هذا الوصف في غير ما آية من القرآن نحو قوله « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم - وقوله - « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » ونظائر ذلك كثيرة في القرآن كثرة تنبو عن التأويل ومحملها عندنا على التحقيق أنها واردة على اعتبار أن كل واقع هو بقدر الله تعالى وأن الله هدى ووفق بعضا ، وأضل وخذل بعضا في التقدير والتكوين ، فلا ينافي ذلك ورود الآية ونظائرها في معنى النمی على الموصوفين بذلك والتشنيع بحالهم لأن ذلك باعتبار ما لهم من الميل والاكتساب ، وبالتحقيق القدرة على الفعل والترك التي هي دون الخلق ، فالله تعالى قدّر الشرور وأوجد في الناس القدرة على فعلها ولكنه نهام عنها لأنه أوجد في الناس القدرة على تركها أيضا ، فلا تعارض بين القدر والتكليف إذ كلٌّ راجع إلى جهة خلاف ما توهمته القدرية فنفوا القدر وهو التقدير والعلم وخلاف ما توهمته المعتزلة من عدم تعلق قدرة الله تعالى بأفعال المكلفين ولا هي مخلوقة له وإنما المخلوق له ذواتهم وآلات أفعالهم ، ليتوسلوا بذلك إلى إنكار صحة إسناد مثل هاته الأفعال إلى الله تعالى تنزيهاً له عن إيجاد الفساد ، وتأويل ما ورد من ذلك : على أن ذلك لم يغن عنهم شيئاً لأنهم قائلون بعلمه تعالى بأنهم سيفعلون وهو قادر على سلب القدر منهم فبتركه إياهم على تلك القدرة إهمال لهم على فعل القبيح وهو قبيح ، فالتحقيق ما ذهب إليه الأشاعرة وغيرهم من أهل السنة أن الله هو مقدر أفعال العباد إلا أن فعلها هو من العبد لا من الله وهو الذي أفصح عنه إمام الحرمين وأضرابه من المحققين . ولا يرد علينا أنه كيف أقدرهم على فعل المعاصي ؟ لأنه يرد على المعتزلة أيضاً أنه كيف علم بعد أن أقدرهم بأنهم شارعون في المعاصي ولم يسلب عنهم القدرة ؟ فكان مذهب الأشاعرة أسعد بالتحقيق وأجرى على طريق الجمع بين ما طفق به الكتاب والسنة من الأدلة . ولنا فيه تحقيق أعلى من هذا بسطناه في رسالة القدرة والتقدير التي لما تظهر .

وإسناد الختم المستعمل مجازاً إلى الله تعالى للدلالة على تمكن معنى الختم من قلوبهم وأن لا يرجى زواله كما يقال خلقة في فلان ، والوصف الذي أودعه الله في فلان أو أعطاه فلانا ، وفرق بين هذا الإسناد وبين الإسناد في المجاز العقلي لأن هذا أريد منه لازم المعنى والمجاز العقلي إنما أسند فيه فعل لنير فاعله للملازمة ، والغالب صحة فرض الاعتبارين فيما صلح لأحدهما وإنما يرتكب ما يكون أصلح بالمقام .

وجملة «وعلى سمعهم» معطوفة على قوله «وعلى قلوبهم» بإعادة الجار لزيادة التأكيد حتى يكون المعطوف مقصوداً لأن على مؤذنة بالمتعلق فكأنَّ ختم كُرر مرتين . وفيه ملاحظة كون الأسماع مقصودة بالختم إذ ليس العطف كالتصريح بالعامل . وليس قوله وعلى سمعهم خبراً مقدماً لغشاوة لأن الأسماع لا تناسبها الغشاوة وإنما يناسبها السد ألا ترى إلى قوله تعالى «وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة» ولأن تقديم قوله «وعلى أبصارهم» دليل على أنه هو الخبر لأن التقديم لتصحيح الابتداء بالنكرة فلو كان قوله «وعلى سمعهم» هو الخبر لاستغنى بتقديم أحدهما وأبقى الآخر على الأصل من التأخير ف قيل وعلى سمعهم غشاوة وعلى أبصارهم .

وفي تقديم السمع على البصر في مواقفه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم وذلك لأن السمع آلة لتلقى المعارف التي بها كمال العقل ، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع ، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه ، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالاتفات إلى الجهات غير المقابلة .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ٧

العذاب: الألم. وقد قيل إن أصله الإعذاب مصدر أعذب إذا زال العذوبة لأن العذاب يزيل حلاوة العيش فصيغ منه اسم مصدر بحذف الهزمة ، أو هو اسم موضوع للألم بدون ملاحظة اشتقاق من العذوبة إذ ليس يلزم مصير الكلمة إلى نظيرتها في الحروف . ووصف العذاب بالعظيم دليل على أن تنكير عذاب للنوعية وذلك اهتمام بالتنصيص على عظمه لأن التنكير وإن كان صالحاً للدلالة على التعظيم إلا أنه ليس بنص فيه ولا يجوز أن يكون عظيم تأكيداً لما يفيد التنكير من التعظيم كما ظنه صاحب المفتاح لأن دلالة التنكير على التعظيم غير وضعية ، والدلولات غير الوضعية يستغنى عنها إذا ورد ما يدل عليها وضماً فلا يمد تأكيداً . والعذاب في الآية ، إما عذاب النار في الآخرة ، وإما عذاب القتل والمسغبة في الدنيا .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ مَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٨

هذا فريق آخر وهو فريق له ظاهر الإيمان وباطنه الكفر وهو لا يعدو أن يكون مبطننا الشرك أو مبطننا التمسك باليهودية ويجمعه كله إظهار الإيمان كذبا، فالواو لعطف طائفة من الجمل على طائفة مسوق كل منهما لغرض جمعهما في الذكر المناسبة بين الغرضين فلا يتطلب في مثله إلا المناسبة بين الغرضين لا المناسبة بين كل جملة وأخرى من كلا الغرضين على ما حققه التفتراني في شرح الكشاف، وقال السيد إنه أصل عظيم في باب العطف لم ينتبه له كثيرون فأشكك عليهم الأمر في مواضع شتى وأصله مأخوذ من قول الكشاف « وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة » فأفاد بالتشبيه أن ذلك ليس من عطف الجملة على الجملة. قال المحقق عبد الحكيم: وهذا ما أهمله السكاكي أي في أحوال الفصل والوصل وتفرده به صاحب الكشاف .

واعلم أن الآيات السابقة لما انتقل فيها من الثناء على القرآن يذكر المهتدين به بنوعهم الذين يؤمنون بالغيب والذين يؤمنون بما أنزل إليك إلى آخر ما تقدم ، وانتقل من الثناء عليهم إلى ذكر أضدادهم وهم الكافرون الذين أريد بهم الكافرون صراحة وهم المشركون ، كان السامع قد ظن أن الذين أظهروا الإيمان داخلون في قوله الذين يؤمنون بالغيب فلم يكن السامع سائلا عن قسم آخر وهم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الشرك أو غيره وهم المنافقون الذين هم المراد هنا بدليل قوله « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » الخ ، لأنه لغرابته وندرة وصفه بحيث لا يخطر بالبال وجوده ناسب أن يذكر أمره للسامعين ، ولذلك جاء بهذه الجملة معطوفة بالواو إذ ليست الجملة المتقدمة مقتضية لها ولا مشيرة لدلوها في نفوس السامعين ، بخلاف جملة « إن الذين كفروا سواء عليهم » ترك عطفها على التي قبلها لأن ذكر مضمونها بعد المؤمنين كان مترقبا للسامع ، فكان السامع كالسائل عنه فجاء الفصل للاستئناف البياني .

وقوله « ومن الناس » خبر مقدم لا محالة وقد يترأى أن الإخبار بمثله قليل الجدوى لأنه إذا كان المبتدأ دالا على ذات مثله ، أو معنى لا يكون إلا في الناس كان الإخبار عن المبتدأ بأنه من الناس أو في الناس غير مجد بخلاف قولك ألخصر من الناس، أي لا من

الملائكة فإن الفائدة ظاهرة ، فوجه الإخبار بقولهم من الناس في نحو الآية ونحو قول بعض أعزة الأصحاب في تهنئة لى بخطة القضاء .

في الناس من ألقى فلادتها إلى خلفٍ خرمٍ ما ابتغى وأباحا
إن القصد إخفاء مدلول الخبر عنه كما تقول قال هذا إنسانٌ وذلك عندما يكون الحديث يكسب ذما أو نقصانا ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله » وقد كثر تقديم الخبر في مثل هذا التركيب لأن في تقديمه تنبيها للسامع على عجيبة ما سيذكر ، وتشويقا لمعرفة ما يتم به الإخبار ولو أخر لكان موقعه زائداً لحصول العلم بأن ما ذكره التكلم لا يقع إلا من إنسان كقول موسى بن جابر الحنفى :

ومن الرجال أسنةٌ مذروبةٌ ومزندون وشاهد كالغائب

وقد قيل إن موقع من الناس مؤذن بالتمعجب وإن أصل الخبر إفادة أن فاعل هذا الفعل من الناس لثلا يظنه المخاطب من غير الناس لشناعة الفعل ، وهذا بعيد عن القصد لأنه لو كان كما قال لم يكن للتقديم فائدة بل كان تأخيره أولى حتى يتقرر الأمر الذى يؤم أن المبتدأ ليس من الناس ، هذا توجيه هذا الاستعمال وذلك حيث لا يكون لظاهر الإخبار بكون المتحدث عنه من أفراد الناس كبير فائدة فإن كان القصد إفادة ذلك حيث يجهله المخاطب كقولك من الرجال من يلبس برقا تريد الإخبار عن القوم المدعون بالملثمين من (لمتونة) ، أو حيث ينزل المخاطب منزلة الجاهل كقول عبد الله بن الزبير (بفتح الزاى وكسر الباء) .

وفي الناس إن رمت حبالك وأصل وفى الأرض عن دار القلٍ مُتَحَوِّل

إذا كان حال المخاطبين حال من يظن أن التكلم لا يجد من يصله إن قطعه هو ، فذكر من الناس ونحوه في مثل هذا وارد على أصل الإخبار ، وتقديم الخبر هنا للتشويق إلى استعلام المبتدأ وليس فيه إفادة تخصيص . وإذا علمت أن قوله من الناس مؤذن بأن المتحدث عنهم ستساق في شأنهم قصة مذمومة وحالة شنيعة إذ لا يُستَر ذكرهم إلا لأن حالهم من الشناعة بحيث يستحي التكلم أن يصرح بموصوفها وفى ذلك من تحقير شأن النفاق ومذمته أمر كبير ، فوردت في شأنهم ثلاث عشرة آية نعى عليهم فيها خُبثهم ، ومكرهم ، وسوء عواقبهم ،

وسفه أحلامهم ، وجهاتهم ، وأردف ذلك كله بستم واستهزاء وتمثيل حالهم في أشنع الصور وهم أحرىء بذلك فإن الخطة التي تدربوا فيها تجمع مذام كثيرة إذ النفاق يجمع الكذب ، والجبن ، والمكيدة ، وأفن الرأي ، والبله ، وسوء السلوك ، والطمع ، وإضاعة العمر ، وزوال الثقة ، وعداوة الأصدقاء ، واضمحلال الفضيلة . أما الكذب فظاهر ، وأما الجبن فلائه لولاه لما دعاه داع إلى مخالفة ما يبطن ، وأما المكيدة فإنه يحمل على اتقاء الاطلاع عليه بكل ما يمكن ، وأما أفن الرأي فلائ ذلك دليل على ضعف في العقل إذ لا داعي إلى ذلك ، وأما البله فلهجهل بأن ذلك لا يطول الاغترار به ، وأما سوء السلوك فلائ طبع النفاق إخفاء الصفات المذمومة ، والصفات المذمومة إذا لم تظهر لا يمكن للعربي ولا للصديق ولا لعموم الناس تغييرها على صاحبها فتبقى كما هي وتزيد تمكنا بطول الزمان حتى تصير مملكة يتعذر زوالها ، وأما الطمع فلائ غالب أحوال النفاق يكون للرغبة في حصول النفع ، وأما إضاعة العمر فلائ العقل ينصرف إلى ترويح أحوال النفاق وما يلزم إجراؤه مع الناس ونصب الحيل لإخفاء ذلك وفي ذلك ما يصرف الذهن عن الشغل بما يجدى ، وأما زوال الثقة فلائ الناس إن اطلعوا عليه ساء ظنهم فلا يثقون بشيء يقع منه ولو حقاً ، وأما عداوة الأصدقاء فكذلك لأنه إذا علم أن ذلك خلق لصاحبه خشي غدره فخره فأدى ذلك إلى عداوته ، وأما اضمحلال الفضيلة فنتيجة ذلك كله . وقد أشار قوله تعالى « وما هم بمؤمنين » إلى الكذب ، وقوله « يخادعون » إلى المكيدة والجبن ، وقوله « وما يخادعون إلا أنفسهم » إلى أفن الرأي ، وقوله « وما يشعرون » إلى البله ، وقوله « في قلوبهم مرض » إلى سوء السلوك . وقوله « فزادهم الله مرضاً » إلى دوام ذلك وتزايد مع الزمان ، وقوله « قالوا إنما نحن مصلحون » إلى إضاعة العمر في غير المقصود ، وقوله « قالوا إنا معكم » مؤكداً بياناً إلى قلة ثقة أصحابهم فيهم ، وقوله « فاربحت تجارتهم » إلى أن أمرهم لم يحظ بالقبول عند أصحابهم ، وقوله « صم بكم عى فهم لا يملكون » إلى اضمحلال الفضيلة منهم وسيجىء تفضيل لهذا ، وجمع عند قوله تعالى « في قلوبهم مرض » .

والناس اسم جمع إشيى بكسر الهمزة وياء النسب فهو عوض عن أناسى الذى هو الجمع القياسى لأنس وقد عوضوا عن أناسى أناس بضم الهمزة وطرح ياء النسب ، دل على هذا التعويض ظهور ذلك في قول عبيد بن الأبرص الأسدى يخاطب امرأ القيس :

إِنَّ النَّايَا يَطْلَعُ نَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْآمِنِينَ

ثم حذفوا همزته تخفيفاً ، وحذفوا الهمزة للتخفيف شائع كما قالوا لَوْقَة في أَلَوْقَة وهي الزُّبْدَة ، وقد ألزم حذف همزة أناس عند دخول أل عليه غالباً بخلاف المجرد من أل فذكر الهمزة وحذفها شائع فيه وقد قيل إِنَّ نَاسَ جَمْعٍ وإنه من جموع جاءت على وزن فُعَال بضم الفاء مثل طُؤَارَ جَمْعِ طِئْرٍ ، ورُخَالُ جَمْعِ رَخِلٍ وهي الأنثى الصغيرة من الضأن ووزن فُعَال قليل في الجموع في كلام العرب وقد اهتم أئمة اللغة بجمع ما ورد منه فذكرها ابن خالويه في كتاب (لَيْسَ) وابنُ السكيت وابنُ بَرِي . وقد عد المتقدمون منها ثمانية جُمعت في ثلاثة أبيات تُنسب للزخشرى والصحيح أنها لصدر الأفاضل تلميذه ثم أَلْحَقَ كثير من اللغويين بتلك الثمانِ كلماتٍ أخر حتى أَتَهَيَّتْ إلى أربع وعشرين جمعا ذكرها الشهاب الخفاجي في شرح درة الغواص وذَكَرَ معظَمُها في حاشيته على تفسير البيضاوى وهي فائدة من علم اللغة فارجعوا إليها إن شئتم . وقيل إن ماجاء بهذا الوزن أسماء جموع ، وكلام الكشاف يؤذن به ومفرد هذا الجمع إِنْسى أو إِنْس أو إِنْسان وكله مشتق من أُنِسَ ضد توحش لأن الإنسان يألف ويأُنَسَ .

والتعريف في الناس للجنس لأن ما علمت من استعماله في كلامهم يؤيد إرادة الجنس ويجوز أن يكون التعريف للعهد والمعهود هم الناس المتقدم ذكرهم في قوله « إن الذين كفروا » أو الناس الذين يمهدهم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في هذا الشأن ، ومَنْ موصولة والمراد بها فريق وجماعة بقرينة قوله وما هم بمؤمنين وما بعده من صيغ الجمع .

والمذكور بقوله « ومن الناس من يقول » الخ قسم ثالث مقابل للقسمين المتقدمين للتمايز بين الجميع بأشهر الصفات وإن كان بين البعض أو الجميع صفات متفقة في الجملة فلا يشبهه وجه جعل المنافقين قسماً للكافرين مع أنهم منهم لأن المراد بالتقسيم الصفات المختصة .

وإنما اقتصر القرآن من أقوالهم على قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر مع أنهم أظهروا الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إيجازاً لأن الأول هو مبدأ الاعتقادات كلها لأن من لم يؤمن برب واحد لا يصل إلى الإيمان بالرسول إذ الإيمان بالله هو الأصل وبه يصلح الاعتقاد وهو أصل العمل ، والثاني هو الوازع والباعث في الأعمال كلها وفيه صلاح الحال العملي أو هم

الذين اقتصروا في قولهم على هذا القول لأنهم لفلوهم في الكفر لا يستطيعون أن يذكروا الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم استتقالات هذا الاعتراف فيقتصرون على ذكر الله واليوم الآخر إيهاما للاكتفاء ظاهراً ومحافظة على كفرهم باطناً لأن أكثرهم وقادتهم من اليهود . وفي التعبير يقول في مثل هذا المقام إيماء إلى أن ذلك قول غير مطابق للواقع لأن الخبر المحكى عن النير إذا لم يتعلق الغرض بذكر نصه وحكى بلفظ يقول ، أو ما ذلك إلى أنه غير مطابق لاعتقاده أو أن التكلم يكذبه في ذلك ، فيه تمهيد لقوله وما هم بمؤمنين ، وجلة وما هم بمؤمنين في موضع الحال من ضمير يقول أى يقول هذا القول في حال أنهم غير مؤمنين .

والآية أشارت إلى طائفة من الكفار وهم المنافقون الذين كان بعضهم من أهل يثرب وبعضهم من اليهود الذين أظهروا الإسلام وبقيتهم من الأعراب المجاورين لهم ، ورد في حديث كعب بن مالك أن المنافقين الذين تخلفوا في غزوة تبوك بضعة وثلاثون ، وقد عرف من أسمائهم عبد الله بن أبي بن سلول وهو رأس المنافقين ، والجد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، والجلال بن سويد الذي نزل فيه « يحلفون بالله ما قالوا » ، وعبد الله بن سبا اليهودى وكبيد ابن الأعصم من بنى زريق حليف اليهود كما في باب السحر من كتاب الطب من صحيح البخارى ، والأخمس أبى بن شريق الثقفى كان يظهر الود والإيمان وسيأتى عند قوله تعالى « ومن الناس من يعجبك » ، وزيد بن اللصيت القينقى ووديمة بن ثابت من بنى عمرو بن عوف ، ومخشن بن حمير الأشجعى الذين كانوا يثبطان المسلمين ، من غزوة تبوك وقد قيل إن زيد بن اللصيت تاب وحسن حاله ، وقيل لا ، وأما مخشن فتابع وعفا الله عنه وقتل شهيدا يوم اليمامة ، وفي كتاب المرتبة الرابعة لابن حزم قد ذكر قوم معتب ابن قشير الأوسى من بنى عمرو بن عوف في المنافقين وهذا باطل لأن حضوره بدرا يبطل هذا الظن بلا شك ولكنه ظهر منه يوم أحد ما يدل على ضعف إيمانه فلمزوه بالنفاق فإنه القائل يوم أحد « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا » ، رواه عنه الزبير بن العوام قال ابن عطية كان مغموصا بالنفاق .

ومن المنافقين أبو عفاك أحد بنى عمرو بن عوف ظهر نفاقه حين قتل رسول الله الحارث بن سويد بن صامت وقال شعرا يعرض بالنبى صلى الله عليه وسلم وقد أمر رسول الله

بقتل أبي عَفَك فقتله سالم بن عُمر ، ومن المنافقات عَصَاء بنت مروان من بنى أمية ابن زيد نافقت لما قتل أبو عَفَك وقالت شعرا تعرض بالنبيء قتلها عمير بن عدى الخطمي وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينتطح فيها عَتْرَانِ ، ومن المنافقين بشير بن أُبَيْرِ كان منافقا يهجو أصحاب رسول الله وشهد أحدا ومنهم ثعلبة بن حاطب وهو قد أسلم وعد من أهل بدر ، ومنهم بشر المنافق كان من الأنصار وهو الذي خاصم يهوديا فدعا اليهودي بشرا إلى حكم النبيء فامتنع بشر وطلب المحاكمة إلى كعب بن الأشرف وهذا هو الذي قتله عُمر وقصته في قوله تعالى « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك » في سورة النساء .

وعن ابن عباس أن المنافقين على عهد رسول الله كانوا ثلاثمائة من الرجال ومائة وسبعين من النساء ، فأما المنافقون من الأوس والخزرج فالذي سن لهم التناق وجمعهم عليه هو عبد الله بن أبي حَسَدَا وحنقا على الإسلام لأنه قد كان أهل يثرب بعد أن انتقضت حروب بُمَات بينهم وهلك جل ساداتهم فيها قد اصطلحوا على أن يجعلوه ملكا عليهم ويعصبوه بالعصابة . قال سعد بن عبادة للنبيء صلى الله عليه وسلم في حديث البخاري : « اعف عنه يا رسول الله واصفح فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصابة فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرقي بذلك » اه ، وأما اليهود فلا أنهم أهل مكر بكل دين يظهر ولأنهم خافوا زوال شوكتهم الحالية من جهات الحجاز ، وأما الأعراب فهم تبع لهؤلاء ولذلك جاء « الأعراب أشد كفرا وثقاقا » الآية ، لأنهم يقلدون عن غير بصيرة وكل من جاء بعدهم على مثل صفاتهم فهو لاحق بهم فيما نعى الله عليهم وهذا معنى قول سلمان الفارسي في تفسير هذه الآية « لم يحيى هؤلاء بعد » قال ابن عطية معنى قوله أنهم لم ينقضوا بل يحيئون من كل زمان اه ، يعنى أن سلمان لا ينكر ثبوت هذا الوصف لطائفة في زمن النبوة ولكن لا يرى المقصد من الآية حصر المذمة فيهم بل وفي الذين يحيئون من بعدهم .

وقوله « وما هم بمؤمنين » جىء في نفي قولهم بالجملة الاسمية ولم يحيى على وزن قولهم آمنا بأن يقال وما آمنوا لأنهم لما أثبتوا الإيمان لأنفسهم كان الإتيان بالماضى أشمل حالا لاقتضائه تحقق الإيمان فيما مضى بالصراحة ودوامه بالالتزام ؛ لأن الأصل ألا يتغير

الاعتقاد بلا موجب كيف والدين هو هو ، ولما أريد نقي الإيمان عنهم كان تقيهم في الماضي لا يستلزم عدم تحققه في الحال بله الاستقبال فكان قوله « وما هم بمؤمنين » دالا على انتفائه عنهم في الحال؛ لأن اسم الفاعل حقيقة في زمن الحال وذلك النفي يستلزم انتفاءه في الماضي بالأولى ، ولأن الجملة الفعلية تدل على الاهتمام بشأن الفعل دون الفاعل فلذلك حكى بها كلامهم لأنهم لما رأوا المسلمين يتطلبون معرفة حصول إيمانهم قالوا آمناً ، والجملة الاسمية تدل على الاهتمام بشأن الفاعل أى أن القائلين آمناً لم يقع منهم إيمان فالاهتمام بهم في الفعل المنفي تسجيل لكذبهم وهذا من مواطن الفروق بين الجملتين الفعلية والاسمية وهو مُصَدِّق بقاعدة إفادة التقديم الاهتمام مطلقا وإن أهملوا التنبيه على جريان تلك القاعدة عندما ذكروا الفروق بين الجملة الفعلية والاسمية في كتب المعاني وأشار إليه صاحب الكشف هنا بكلام دقيق الدلالة .

فإن قلت كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أسلم ثم ارتد وزعم بعد رده أنه كان يكتب القرآن وأنه كان يُعَلِّم عليه النبي صلى الله عليه وسلم « عزيز حكيم » مثلاً في كتبها غفور رحيم مثلاً والعكس وهذا من عدم الإيمان فيكون حينئذ من المنافقين الذين آمنوا بعد فالجواب أن هذا من نقل المؤرخين وهم لا يعتد بكلامهم في مثل هذا الشأن لاسيما وولاية عبد الله ابن أبي سرح الإمارة من جملة ما نقمه الثوار على عثمان وتحامل المؤرخين فيها معلوم لأنهم تلقوها من الناقين وأشياهم ، والأدلة الشرعية تنفي هذا لأنه لو صح عليه دخول الشك في الدين ولو حاول عبد الله هذا لأعلم الله تعالى به رسوله لأنه لا يجوز على الرسول السهو والغفلة فيما يرجع إلى التبليغ على أنه ضريف من حيث العقل إذ لو أراد أن يكيد للدين لكان الأجدر به تحريف غير ذلك ، على أن هذا كلام قاله في وقت ارتداده وقوله حينئذ في الدين غير مصدق لأنه متهم بقصد ترويح رده عند الشركين بمكة وقد علمت من المقدمة الثامنة من هذا التفسير أن العمدة في آيات القرآن على حفظ حُفَظَه وقراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان يأمر بكتابه لقصد المراجعة للمسلمين إذا احتاجوا إليه ، ولم يَرَوْا أَحَدًا أنه وقع الاحتياج إلى مراجعة ما كُتِبَ من القرآن إلا في زمن أبي بكر ، ولم ينقل أن حفاظ القرآن وجدوا خلافاً بين محفوظهم وبين الأصول المكتوبة ، على أن عبد الله بن أبي سرح لم يكن منفردا بكتابة الوحي فقد كان يكتب معه آخرون .

ونفى الإيمان عنهم مع قولهم آمنا دليل صريح على أن معنى الإيمان التصديق وأن النطق بما يدل على الإيمان قد يكون كاذبا فلا يكون ذلك النطق إيمانا ، والإيمان في الشرع هو الاعتقاد الجازم بثبوت ما يعلم أنه من الدين علما ضروريا بحيث يكون ثابتا بدليل قطعي عند جميع أئمة الدين ويشتهر كونه من مقومات الاعتقاد الإسلامي اللازم لكل مسلم اشتهارا بين الخاصة من علماء الدين والعامه من المسلمين بحيث لا نزاع فيه فقد نقل الإيمان في الشرع إلى تصديق خاص وقد أفصح عنه الحديث الصحيح عن عمر أن جبريل جاء فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

وقد اختلفت علماء الأمة في ماهية الإيمان ما هو وتطرقوا أيضا إلى حقيقة الإسلام ونحن نجتمع متناثر المنقول منهم مع ما للتحققين من تحقيق مذاهبهم في جملة مختصرة . وقد أرجعنا متفرق أقوالهم في ذلك إلى خمسة أقوال : القول الأول قول جمهور المحققين من علماء الأمة قالوا إن الإيمان هو التصديق لا مسمى له غير ذلك وهو مسماه اللغوى فينبغي ألا ينقل من معناه لأن الأصل عدم النقل إلا أنه أطلق على تصديق خاص بأشياء يتبها الدين وليس استعمال اللفظ العام في بعض أفرادها بنقله له عن معناه اللغوى وغلب في لسان الشرعيين على ذلك التصديق واحتجوا بعدة أدلة هي من أخبار الأحاد ولكنها كثيرة كثرة تلحقها بالاستيفاض .

من ذلك حديث جبريل المتقدم وحديث سعد أنه قال يا رسول الله : مالك عن فلان فإني لأراه مؤمنا فقال أو مسلما ، قالوا وأما النطق والأعمال فهي من الإسلام لا من مفهوم الإيمان لأن الإسلام الاستسلام والانقياد بالجسد دون القلب ودليل التفرقة بينهما اللغة وحديث جبريل ، وقوله تعالى « قالت الأعراب آمنوا ولمكن قولوا أسلمنا » ولما رواه مسلم عن طلحة بن عبيد الله أنه جاء رجل من نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا تفقه ما يقول فإذا هو يسأل عن الإسلام فبين له النبي صلى الله عليه وسلم أن الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، ونسب هذا القول إلى مالك بن أنس أخذا من قوله في المدونة « من اغتسل وقد أجمع على الإسلام بقلبه أجزأه ، قال ابن رشد لأن إسلامه بقلبه فلو مات مؤمنا » وهو

مأخذ بعيد وستعلم أن قول مالك بخلافه . ونسب هذا أيضا إلى الأشعري قال إمام الحرمين في الإرشاد وهو المرضى عندنا . وبه قال الزهري من التابعين .

القول الثاني إن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان بالشهادتين للإقرار بذلك الاعتقاد فيكون الإيمان منقولا شرعا لهذا المعنى فلا يمتد بالاعتقاد شرعا إلا إذا انضم إليه النطق وتقل هذا عن أبي حنيفة ونسبه النووي إلى جمهور الفقهاء والمحدثين والتكلمين ونسبه الفخر إلى الأشعري وبشر الريسى . ونسبه الخفاجي إلى محقق الأشاعرة واختاره ابن العربي ، قال النووي وبذلك يكون الإنسان من أهل القبلة .

قلت ولا أحسب أن بين هذا والقول الأول فرقا وإنما نظر كل قيل إلى جانب ، فالأول نظر إلى جانب المفهوم والثاني نظر إلى الاعتداد ولم يمتنوا بضبط عباراتهم حتى يرتفع الخلاف بينهم وإن كان قد وقع الخلاف بينهم في أن الاختصار على الاعتقاد هل هو منج فيما بين المراء وبين ربه أو لا بد من الإقرار ، حكاه البيضاوي في التفسير ومال إلى الثاني ويؤخذ من كلامهم أنه لو ترك الإقرار لا عن مكابرة كان ناجيا مثل الأخرس والمفل والمشتغل شغلا اتصل بموته . واحتجوا بإطلاق الإيمان على الإسلام والعكس في مواضع من الكتاب والسنة ، قال تعالى « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » وفي حديث وفد عبد القيس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : « أمركم بأربع وأنها كم عن أربع الإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة » الخ وهذه أخبار آحاد فلا استدلال بها في أصل من الدين إنما هو مجرد تقريب على أن معظمها لا يدل على إطلاق الإيمان على حالة ليس معها حالة إسلام .

القول الثالث قول جمهور السلف من الصحابة والتابعين أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل ذلك أنهم لكمال حلهم ومجيئهم في فاتحة انبثاق أنوار الدين لم يكونوا يفرضون في الإيمان أحوالا تقصر في الامتثال ، ونسب ذلك إلى مالك وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والأوزاعي وابن جريج والنخعي والحسن وعطاء وطاووس ومجاهد وابن المبارك والبخاري ونسب لابن مسعود وحذيفة وبه قال ابن حزم من الظاهرية وتمسك به أهل الحديث لأخذهم بظاهر ألفاظ الأحاديث ، وبذلك أثبتوا الزيادة والنقص في الإيمان بزيادة الأعمال ونقصها لقوله تعالى « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » الخ . وجاء في الحديث « الإيمان بضع وسبعون شعبة » فدل ذلك على قبوله

للتفاضل . وعلى ذلك حمل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » أى ليس متصفا حينئذ بكمال الإيمان .

ونقل عن مالك أنه يزيد ولا ينقص فقيل إنما أمسك مالك عن القول بنقصانه خشية أن يظن به موافقة الخوارج الذين يكفرون بالذنوب . قال ابن بطال وهذا لا يخالف قول مالك بأن الإيمان هو التصديق وهو لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق أول منازل الإيمان ويوجب المصدق الدخول فيه ولا يوجب له استكمال منازلها وإنما أراد هؤلاء الأئمة الرد على المرجئة فى قولهم إن الإيمان قول بلا عمل اهـ . ولم يتابعهم عليه المتأخرون لأنهم رَوَاهُ شرحا للإيمان الكامل وليس فيه النزاع إنما النزاع فى أصل مسمى الإيمان وأول درجات النجاة من الخلود ولذلك أنكر أكثر المتكلمين أن يقال الإيمان يزيد وينقص وتأولوا نحو قوله تعالى « ليزدادوا إيماناً » بأن المراد تعدد الأدلة حتى يدوموا على الإيمان وهو التحقيق .

القول الرابع قول الخوارج والمعتزلة إن الإيمان اعتقاد ونطق وعمل كما جاء فى القول الثالث إلا أنهم أرادوا من قولهم حقيقة ظاهره من تركب الإيمان من مجموع الثلاثة بحيث إذا اختل واحد منها بطل الإيمان، ولهم فى تقرير بطلانه بنقص الأعمال الواجبة مذاهب غير منتظمة ولا معضودة بأدلة سوى التعلق بظواهر بعض الآثار مع الإهمال لما يعارضها من مثلها .

فأما الخوارج فقالوا إن تارك شئ من الأعمال كافر غير مؤمن وهو خالد فى النار فالأعمال جزء من الإيمان وأرادوا من الأعمال فعل الواجبات وترك المحرمات ولو صفائر ، إذ جميع الذنوب عندهم كبائر - وأما غير ذلك من الأعمال كالمندوبات والمستحبات فلا يوجب تركها خلوداً ، إذ لا يقول مسلم إن ترك السنن والمندوبات يوجب الكفر والخلود فى النار ، وكذلك فعل المكروهات .

وقالت الإباضية من الخوارج إن تارك بعض الواجبات كافر لكن كفره كفر نعمة لا شرك ، نقله إمام الحرمين عنهم وهو الذى سمعناه من طلبتهم . وأما المعتزلة فقد وافقوا الخوارج فى أن للأعمال حظاً من الإيمان إلا أنهم خالفوهم فى مقاديرها ومذاهب المعتزلة فى هذا الموضع غير منضبطة ، فقال قداموهم وهو المشهور عنهم إن الماصى غلغل فى النار لكنه لا يوصف بالكفر ولا بالإيمان، ووصفوه بالفسق وجعلوا استحقات الخلود لارتكاب الكبيرة

خاصة، وكذلك نسب إليهم ابن حزم في كتاب الفصل ، وقال واصل بن عطاء الغزالي إن مرتكب الكبيرة منزلة بين المنزلتين أي لا يوصف بإيمان ولا كفر فيفارق بذلك قول الخوارج وقول المرجئة ووافقه عمرو بن عبيد على ذلك. وهذه هي المسألة التي بسببها قال الحسن البصري لو اصل وعمرو بن عبيد اعتزل مجلسنا . ودرج على هذا جميعهم ، لكنهم اضطربوا أو اضطرب النقل عنهم في مسمى المنزلة بين المنزلتين، فقال إمام الحرمين في الإرشاد إن جمهورهم قالوا إن الكبيرة تحبط ثواب الطاعات وإن كثرت ، ومعناه لا محالة أنها توجب الخلود في النار وبذلك جزم التفترائي في شرح الكشاف وفي المقاصد ، وقال إن المنزلة بين المنزلتين هي موجبة للخلود وإنما أثبتوا المنزلة لعدم إطلاق اسم الكفر والإجراء أحكام المؤمنين على صاحبها في ظاهر الحال في الدنيا بحيث لا يعتبر مرتكب المعصية كالمرتد فيقتل . وقال في المقاصد ومثله في الإرشاد: المختار عندهم خلاف المشتهر فإن أبا علي وابنه وكثيرا من محققيهم ومتأخريهم قالوا إن الكبائر إنما توجب دخول النار إذا زاد عقابها على ثواب الطاعات فإن أُرْبِت الطاعات على السيئات درأت السيئات ، وليس النظر إلى أعداد الطاعات ولا الزلات ، وإنما النظر إلى مقدار الأجور والأوزار فرب كبيرة واحدة يفلب وزرها طاعات كثيرة العدد، ولا سبيل إلى ضبط هذه المقادير بل أمرها موكل إلى علم الله تعالى . فإن استوت الحسنات والسيئات فقد اضطربوا في ذلك فهذا محل المنزلة بين المنزلتين . ونقل ابن حزم في الفصل عن جماعة منهم ، فيهم بشر المريسي والأصم أن من استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف ولهم وقفة لا يدخلون النار مدة ثم يدخلون الجنة ومن رجحت سيئاته فهو مجازي بقدر ما رجح له من الذنوب فمن لفحة واحدة إلى بقاء خمسين ألف سنة في النار ثم يخرجون منها بالشفاعة . وهذا يقتضي أن هؤلاء لا يرون الخلود . وقد نقل البعض عن المعتزلة أن المنزلة بين المنزلتين لاجنة ولا نار إلا أن التفترائي في المقاصد غلط هذا البعض وكذلك قال في شرح الكشاف . وقد قرر صاحب الكشاف حقيقة المنزلة بين المنزلتين بكلام مجمل فقال في تفسير قوله تعالى « وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين » من سورة البقرة والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة وهو النازل بين المنزلتين أي بين منزلي المؤمن والكافر . وقالوا إن أول من حد له هذا الحد أبو حذيفة واصل بن عطاء وكونه بين بين أن حكمه حكم المؤمن في أنه يناكح ويوارث ويفسّل ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين

وهو كالكافر في الذم واللن والبراء منه واعتقاد عداوته وأن لا تقبل له شهادة اه ،
فتراه مع إيضاحه لم يذكر فيه أنه خالد في النار وصرح في قوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا
متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » في سورة النساء بما يعم خلود أهل الكبائر دون توبة
في النار .

قلت وكان الشأن أن إجراء الأحكام الإسلامية عليه في الدنيا يقتضى أنه غير خالد
إذ لا يعقل أن تجرى عليه أحكام المسلمين وتنتفي عنه الثمرة التي لأجلها فارق الكفر إذ المسلم
إنما أسلم فرارا من الخلود في النار فكيف يكون ارتكاب بعض المعاصي موجبا لا تتقاض
فائدة الإسلام، وإذا كان أحد لا يسلم من أن يقارب معصية وكانت التوبة الصادقة قد تتأخر
وقد لا تحصل فيلزمهم ويلزم الخوارج أن يعدوا جمهور المسلمين كفارا وبئس مُنكراً من
القول . على أن هذا مما يجزى العصاة على نقض عمرى الدين إذ ينسل عنه المسلمون لانعدام
الفائدة التي أسلموا لأجلها بحكم « أنا الفريق فما خوفي من البلل » ومن العجيب أن يصدر
هذا القول من عاقل فضلا عن عالم ، ثم الأعجب منه عكوف أتباعهم عليه تلوكه ألسنتهم
ولا تفقهه أفئدتهم وكيف لم يقيض فيهم عالم منصف ينبرى لهاته الترهات فيهنّبها أو يؤولها
كما أراد جمهور علماء السنة من صدر الأمة فمن يليهم . القول الخامس قالت الكرامية
الإيمان هو الإقرار باللسان إذا لم يخالف الاعتقاد القول فلا يشترط في مسمى الإيمان شيء
من المعرفة والتصديق ، فأما إذا كان يعتقد خلاف مقاله بطل إيمانه وهذا يرجع إلى الاعتداد
بإيمان من نطق بالشهادتين وإن لم يشغل عقله باعتقاد مدلولها بل يكتفى منه بأنه لا يضر
خلاف مدلولها وهذه أحوال نادرة لا ينبغي الخوض فيها . أو أرادوا أنه تجرى عليه في
الظاهر أحكام المؤمنين مع أن الكرامية لا ينكرون أن من يعتقد خلاف ما نطق به من
الشهادتين أنه خالد في النار يوم القيامة ، وفي تفسير الفخران غيلان الدمشقي وافق الكرامية .
هذه جوامع أقوال الفرق الإسلامية في مسمى الإيمان .

وأنا أقول كلمة أربأ بها عن الانحياز إلى نصره وهي أن اختلاف المسلمين في أول
خطوات مسيرهم وأول موقف من مواقف أنظارهم وقد مضت عليه الأيام بعد الأيام وتماقت
الأقوام بعد الأقوام يعد نقصا علميا لا ينبغي البقاء عليه . ولا أعرفنى بعد هذا اليوم ملتفتا
إليه . لا جرم أن الشريعة أول ما طلبت من الناس الإيمان والإسلام ليخرجوا بذلك من

عقائد الشرك ومناوأة هذا الدين فإذا حصل ذلك تهيمت النفوس لقبول الخيرات وأفاضت الشريعة عليها من تلك النيرات فكانت في تلقى ذلك على حسب استعدادها . زينة لمعاشها في هذا العالم ومعادها . فالإيمان والإسلام هما الأصلان اللذان تنبعث عنهما الخيرات ، وهما الحد الفاصل بين أهل الشقاء وأهل الخير حدا لا يقبل تفاوتاً ولا تشككاً ، لأن شأن الحدود أن لا تكون متفاوتة كما قال الله تعالى « فإذا بعد الحق إلا الضلال » ، ولا يدعى أحد أن مفهوم الإيمان هو مفهوم الإسلام ، فيكابر لغة تتلى عليه . كيف وقد فسرهُ الرسول لذلك الجالس عند ركبتيه . فما الذين أدعوه إلا قوم قد ضاقت عليهم العبارة فأرادوا أن الاعتداد في هذا الذي لا يكون إلا بالأمرين وبذلك يتضح وجه الإكتفاء في كثير من مواد الكتاب والسنة بأحد اللفظين ، في مقام خطاب الذين تحولوا بكلتا الخصلتين ، فاتنظم القولان الأول والثاني .

إن موجب اضطراب الأقوال في التمييز بين حقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام أمران : أحدهما أن الرسالة المحمدية دعت إلى الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته وبصدق محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بالغيب ودعت إلى النطق بما يدل على حصول هذا الاعتقاد في نفس المؤمن لأن الاعتقاد لا يعرف إلا بواسطة النطق ولم يقتنع الرسول من أحد بما يُحصّل الظن بأنه حصل له هذا الاعتقاد إلا بأن يعترف بذلك بنطقه إذا كان قادراً .

الثاني أن المؤمنين الذين استجابوا دعوة الرسول لم تسكن ظواهرهم مخالفة لعقائدهم إذ لم يكن منهم مسلم يبطن الكفر فكان حصول معنى الإيمان لهم مقارناً لحصول معنى الإسلام وصدق عليهم أنهم مؤمنون ومسلمون ، ثم لما نبع النفاق بعد الهجرة طرأ الاحتياج إلى التفرقة بين حال الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام وبين حال الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر تفرقة بالتحذير والتنبيه لا بالتعيين وتمييز الموصوف ، لذا كانت ألفاظ القرآن وكلام النبيء تجرى في الغالب على مراعاة غالب أحوال المسلمين الجامعين بين المعنيين وريعا جرت على مراعاة الأحوال النادرة عند الحاجة إلى التنبيه عليها كما في قوله تعالى « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » وكما في قول النبيء لمن قال له مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً قال « أو مسلماً » .

فحاصل معنى الإيمان حصول الاعتقاد بما يجب اعتقاده ، وحاصل معنى الإسلام إظهار الرء أنه أسلم نفسه لاتباع الدين ودعوة الرسول ، قال تعالى « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » الآية .

وهل يخامركم شك في أن الشريعة ما طلبت من الناس الإيمان والإسلام لمجرد تمييز العالم الأخرى من جنة ونار لأن الله تعالى قادر على أن يخلق لهذين الموضعين خلقاً يعمروهما إن شاء خلقهما ، ولكن الله أراد تمييز العالمين الدنيوي والأخرى ، وجعل الدنيا مصفلة النفوس البشرية تهيئها للتأهل إلى تمييز العالم الأخرى لتلتحق بالملائكة ، فجعل الله الشرائع لكف الناس عن سىء الأفعال التي تصدر عنهم بدواعي شهواتهم المفسدة لفطرتهم ، وأراد الله حفظ نظام هذا العالم أيضا ليبقى صالحا للوفاء بمراد الله إلى أمدٍ أرادَه ، فشرع للناس شرعا ودعا الناس إلى اتباعه والدخول إلى حظيرته ذلك الدخول المسمى بالإيمان وبالإسلام لاشتراط حصولهما في قوام حقيقة الانضواء تحت هذا الشرع ، ثم يستتبع ذلك إظهار تمكين أنفسهم من قبول ما يرسم لهم من السلوك عن طيب نفس . وثقة بما لى نزاهة أو رجس . وذلك هو الأعمال اثبارا وانتهاء وفعلا وانكفا . وهذه الغاية هى التى تتفاوت فيها المراتب إلا أن تفاوت أهلها فيها لا ينقص الأصل الذى به دخلوا فإن الآتى بالبعض من الخير قد آتى بما كان أحسن من حاله قبل الإيمان ، والآتى بمعظم الخير قد فاق الذى دونه ، والآتى بالجميع بقدر الطاقة هو الفائر . بحيث إن الشريعة لا تعدم منفعة تحصل من أفراد هؤلاء الذين تسموا بالمؤمنين والمسلمين ومن تلك المراتب حماية الحوزة والدفاع عن البيضة ، فهل يشك أحد في أن عمرو بن معد يكرب أيام كان لا يرى الانتهاء عن شرب الخمر ويقول إن الله تعالى قال « فهل أنتم منتبهون فقلنا لا » أنه قد دلَّ جهاده يوم القادسية على إيمانه وعلى تحقيق شيء كثير من أجزاء إسلامه فهل يُعد سواء والكافرين في كونه يخلد في النار .

فالأعمال إذن لها المرتبة الثانية بعد الإيمان والإسلام لأنها مكملة المقصد لا ينافى في هذين - أعنى كونها في الدرجة الثانية وكونها مقصودة - إلا مكابر . ومما يؤيد هذا أكمل تأييد ما ورد في الصحاح في حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعثه إلى اليمن فقال له « إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب فإذا جثتهم فادعهم إلى أن يشهدوا

أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله (أى ينطقوا بذلك نطقا مطابقا لاعتقادهم) فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة إلخ» فلولاً أن للإيمان وللإسلام الحظ الأول لما قدمه ، ولولاً أن الأعمال لا دخل لها في مسمى الإسلام لما فرّق بينهما ، لأن الدعوة للحق يجب أن تكون دفعة وإلا لكان الرضا ببقائه على جزء من الكفر ولو لحظة مع توقع إجابته للدين رضى بالكفر وهو من الكفر فكيف يأمر بساكوكة المصوم عن أن يُقرّ أحداً على باطل ، فانتظم القول الثالث للقولين .

ومما لا شبهة فيه أن استحقاق الثواب والعقاب على قدر الأعمال القلبية والجوارحية فالأمر الذى لا يحصل شئ من المطلوب دونّه لا يُنجى من العذاب إلا جميعه فوجب أن يكون من لم يؤمن ولم يسلم مخلداً في النار لأنه لا يحصل منه شئ من المقصود بدون الإيمان والإسلام ، وأما الأمور التى يقرب فاعلمها من الغاية بمقدار ما يخطو في طرقها فتوابعها على قدر ارتكابها والعقوبة على قدر تركها ، ولا ينبغي أن ينزع في هذا غير مكابر ، إذ كيف يستوى عند الله العليم الحكيم رجلان أحدهما لم يؤمن ولم يسلم والآخر آمن وأسلم وامتلأ وانتهى ، إلا أنه اتبع الأمانة بالسوء في خصلة أو زلة فيحكم بأن كلا الرجلين في عذاب وخلود ، وهل تبقى فائدة لكل مرتكب معصية في البقاء على الإسلام إذا كان الذى فر من أجله للإسلام حاصلًا على كل تقدير وهو الخلود في النار حتى إذا أراد أن يتوب آمن يومئذ ، وهل ينكر أحد أن جل الأمة لا يخلون من التلبس بالمعصية والمعصيتين إذ المعصية مفقودة فإذا كان ذلك قبل التوبة كفرا فهل يقول هذا العاقل إن الأمة في تلك الحالة متصفة بالكفر ولا إخال عاقلا يلتزمها بعد أن يسمعها ، أفهل يموه أحد بعد هذا أن يأخذ من نحو قوله تعالى « وما كان الله ليضيع إيمانكم » يعنى الصلاة ، إن الله سمى الصلاة إيمانا ولولا أن العمل من الإيمان لما سميت كذلك بعد أن بينا أن الأعمال هى الغاية من الإيمان والإسلام فانتظم القول الرابع والخامس لثلاثة الأقوال لمن اقتدى في الإنصاف بأهل الكمال . ثم على العالم التشجيع بالاطلاع على مقاصد الشريعة وتصاريفها أن يفرق بين مقامات خطابها فإن منها مقام موعظة وترغيب وترهيب وتبشير وتحذير ، ومنها مقام تعليم وتحقيق فيرد كل وارد من نصوص الشريعة إلى مورده اللائق ولا تتجاذبه المتعارضات مجاذبة المآذق فلا يحتاج أحد بما ورد في أثبت أوصاف الموصوف ، وأثبت أحد تلك الأوصاف تارة في سياق الثناء عليه

إذ هو متصف بها جميعاً، فإذا وصف تارة بجميعها لم يكن وصفه تارة أخرى بواحد منها دالاً على مساواة ذلك الواحد لبقيتها، فإذا عرضت لنا أخبار شرعية جمعت بين الإيمان والأعمال في سياق التحذير أو التحريض لم تكن دليلاً على كون حقيقة أحدها مركبة ومقومة من مجموعها فإنما يحتج بسياق التفرقة والنفي أو بسياق التعليم والتبيين فلا ينبغي لمنتسب أن يجازف بقوله سخيصة ناشئة عن قلة تأمل وإحاطة بموارد الشريعة وإغضاء عن غرضها ويؤول إلى تكفير جمهور المسلمين وانتقاض الجامعة الإسلامية بل إنما ينظر إلى موارد الشريعة نظرة محيطية حتى لا يكون ممن غابت عنه أشياء وحضره شيء، بل يكون حكمه في المسألة حكم فتاة الحى .

أما مسألة العفو عن العصاة فهي مسألة تتعلق بفرضنا وليست منه، والأشاعرة قد توسعوا فيها وغيرهم ضيقها وأمرها موكل إلى علم الله إلا أن الذى بلغنا من الشرع هو اعتبار الوعد والوعيد وإلا لكان الزواجر كضرب فى بارد الحديد وإذا علمتم أن منشأ الخلاف فيها هو النظر لدليل الوجوب أو الجواز علمتم خروج الخلاف فيها من الحقيقة إلى المجاز ولا عجب أعجب من مرور الأزمان على مثل قولة الخوارج والإباضية والمعتزلة ولا ينبى من حذاق علمائهم من يهذب المراد أو يؤول قول قدمائه ذلك التأويل المعتاد ، وكأنى يومئذ فطنة نبهائهم أخذ يلوح من خلل الرماد .

﴿يُخْلِدُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخْلِدُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٩

جملة «يخلدون» بدل اشتغال من جملة يقول آمنا بالله، وما معها لأن قولهم ذلك يشتمل على المخادعة. والخداع مصدر خادع الدال على معنى مفاعلة الخدع، والخدع هو فعل أو قول معه ما يؤم أن فاعله يريد بمذلوله نفع غيره وهو إنما يريد خلاف ذلك ويتكلف ترويجه على غيره ليغيره عن حالة هو فيها أو يصرفه عن أمر يوشك أن يفعله، تقول العرب خدع الضب إذا أوهم حارشه أنه يحاول الخروج من الجهة التى أدخل فيها الحارش يده حتى لا يرقبه الحارش لعله أنه آخذه لا محالة ثم يخرج الضب من النافقاء .

والخداع فعل مذموم إلا فى الحرب والاختداع تمشى حيلة المخادع على المخدوع وهو مذموم أيضاً لأنه من البله وأما إظهار الاختداع مع التفتن للحيلة إذا كانت غير مضرة

فذلك من الكرم والحلم قال الفرزدق :

استمطروا من قریش كل منخدع
إن الكريم إذا خادعته انخدعا
وفي الحديث «المؤمن غر كريم» أى من صفاته الصفح والتغاضى حتى يظن أنه غر ولذلك
عقبه بكريم لدفع الغرية المؤذنة بالبله فإن الإيمان يزيد الفطنة لأن أصول اعتقاده مبنية على
نبذ كل ما من شأنه تضليل الرأى وطمس البصيرة ألا ترى إلى قوله: والسعيد من وعظ بغيره
مع قوله ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؛ وكلها تنادى على أن المؤمن لا يليق به البله وأما معنى
المؤمن غر كريم فهو أن المؤمن لما زكت نفسه عن ضمائر الشر وخطورها بباله وحمل أحوال
الناس على مثل حاله فعرضت له حالة استثنان تشبه الغرية قال ذو الرمة :

تلك الفتاة التى علقها عرضاً
إنّ الحليم وذا الإسلام يختلب
فاعتذر عن سرعة تعلقه بها واختلابها عقله بكرم عقله وصحة إسلامه فإن كل ذلك من
أسباب جودة الرأى ورقة القلب فلا عجب أن يكون سريع التأثر منها .

ومعنى صدور الخداع من جانبهم للمؤمنين ظاهر ، وأما نخادعتهم الله تعالى المقتضية أن
المنافقين قصدوا التزويج على الله تعالى مع أن ذلك لا يقصده عاقل يعلم أن الله مطلع على الضمائر
والمقتضية أن الله يعاملهم بخداع ، وكذلك صدور الخداع من جانب المؤمنين للمنافقين كما هو
مقتضى صيغة المفاعلة مع أن ذلك من مذموم الفعل لا يليق بالمؤمنين فعله فلا يستقيم إسناده
إلى الله ولا قصد المنافقين تعلقه بمعاملتهم لله كل ذلك يوجب تأويلاً فى معنى المفاعلة الدال عليه
صيغة يخادعون أو فى فاعله المقدر من الجانب الآخر وهو المفعول المصرح به .

فأما التأويل فى يخادعون فعلى وجوه :

أحدها أن مفعول خادع لا يلزم أن يكون مقصوداً للمخادع (بالكسر) إذ قد يقصد
خداع أحد فيصاف غيرهما كما يخادع أحد وكيل أحد فى مال فيقال له أنت تخادع فلانا
وفلاناً تعنى الوكيل وموكله ، فهم قصدوا خداع المؤمنين لأنهم يكذبون أن يكون الإسلام
من عند الله فلما كانت نخادعتهم المؤمنين لأجل الدين كان خداعهم راجعاً لشارع ذلك
الدين ، وأما تأويل معنى خداع الله تعالى والمؤمنين إياهم فهو إغضاء المؤمنين عن بواطنهم
وفلتات ألسنتهم وكبوات أفعالهم وهفواتهم الدال جميعها على نفاقهم حتى لم يزالوا يعاملونهم
معاملة المؤمنين فإن ذلك لما كان من المؤمنين بإذن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لقد نهى

من استأذنه في أن يقتل عبد الله بن أبي ابن سلول ، كان ذلك الصنيع بإذن الله فكان مرجعه إلى الله ، ونظيره قوله تعالى « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » في سورة النساء ، كما رجع إليه خداعهم للمؤمنين ، وهذا تأويل في الخداعة من جانبها ، كل بما يلائمه .

الثاني ما ذكره صاحب الكشف أن يخادعون استمارة تمثيلية تشبها للهيئة الحاصلة من معاملتهم للمؤمنين ولدين الله ، ومن معاملة الله إياهم في الإيماء لهم والإبقاء عليهم ، ومعاملة المؤمنين إياهم في إجراء أحكام المسلمين عليهم ، بهيئة فعل المتخادعين .

الثالث أن يكون خادع بمعنى خدع أى غير مقصود به حصول الفعل من الجانبين بل قصدُ المبالغة . قال ابن عطية عن الخليل : يقال خادع من واحد لأن في الخداعة مهلة كما يقال عالجت المريض لمكان المهلة ، قال ابن عطية كأنه يُرد فاعل إلى اثنين ولا بد من حيث إن فيه مهلة ومدافعة ومماثلة فكأنه يقاوم في المعنى الذى يحجى فيه فاعل اه . وهذا يرجع إلى جعل صيغة الفاعلة مستمارة لمعنى المبالغة بتشبيه الفعل القوى بالفعل الحاصل من فاعلين على وجه التبعية ، ويؤيد هذا التأويل قراءة ابن عامر ومن معه : يخدعون الله . وهذا إنما يدفع الإشكال عن إسناد صدور الخداع من الله والمؤمنين مع تنزيه الله والمؤمنين عنه ، ولا يدفع إشكال صدور الخداع من المنافقين لله .

وأما التأويل في فاعل يخادعون القدر وهو المفعول أيضا فبان فيجعل المراد أنهم يخادعون رسول الله فالإسناد إلى الله تعالى إما على طريقة المجاز العقلي لأجل الملابسة بين الرسول ومُرسله وإما مجاز بالحذف للمضاف ، فلا يكون مرادهم خداع الله حقيقة ، ويبقى أن يكون رسول الله مخدوعا منهم ومخداعا لهم ، وأما تجويز خداعة الرسول والمؤمنين للمنافقين لأنها جزاء لهم على خداعهم فذلك غير لائق .

وقوله يخادعون الله قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وخلف يخادعون بألف بعد الخاء . وقرأه ابن عامر وعاصم وحمة والكسائي وأبو جعفر ويقوب يخدعون بفتح التحتية وسكون الخاء .

وجملة وما يخادعون إلا أنفسهم حال من الضمير في يخادعون الأول أى يخادعون في حال كونهم لا يخادعون إلا أنفسهم أى خداعهم مقصور عن ذواتهم لا يرجع شيء منه إلى

الله والذين آمنوا . فيتعين أن الخداع في قوله وما يخادعون عين الخداع المتقدم في قوله « يخادعون الله » فيرد إشكال صحة قصر الخداع على أنفسهم مع إنبات مخادعتهم الله تعالى والمؤمنين . وقد أجاب صاحب الكشف بما حاصله أن المخادعة الثانية مستعملة في لازم معنى المخادعة الأولى وهو الضرر فإنها قد استعملت أولا في مطلق المعاملة الشبيهة بالخداع وهي معاملة الماكر المستخف فأطلق عليها لفظ المخادعة استعارة ثم أطلقت ثانيا وأريد منها لازم معنى الاستعارة وهو الضرر لأن الذي يعامل بالمكر والاستخفاف يتصدى للانتقام من معاميله فقد يجد قدرة من نفسه أو غيره من صاحبه فيضره ضرا فصار حصول الضرر للمعامل أمرا عرفيا لازما لمعامله ، وبذلك صح استعمال يخادع في هذا المعنى مجازا أو كناية وهو من بناء المجاز على المجاز لأن المخادعة أطلقت أولا استعارة ثم نزلت منزلة الحقيقة فاستعملت مجازا في لازم المعنى المستعار له ، فالمعنى وما يضرهم إلا أنفسهم فيجرى فيه الوجوه المتعلقة بإطلاق مادة الخداع على فعلهم ، ويجيء تأويل معنى جمل أنفسهم شقا ثانيا للمخادعة مع أن الأنفس هي عينهم فيكون الخداع استعارة للمعاملة الشبيهة بفعل الجانبين المخادعين بناء على ما شاع في وجدان الناس من الإحساس بأن الخواطر التي تدعو إلى ارتكاب ما تسوء عواقبه أنها فعل نفس هي منارة للعقل وهي التي تسول للإنسان الخير مرة والشر أخرى وهو تخيل بُني على خطابة أخلاقية لإحداث العداء بين المرء وبين خواطره الشريرة بجعلها واردة عليه من جهة غير ذاته بل من النفس حتى يتأهب لمقارعتها وعصيان أمرها ولو انتسبت إليه لما رأى من سبيل إلى مدافعتها ، قال عمرو بن معديكرب :

فجاشت على النفس أول مرة فردت على مكروهاها فاستقرت

وذكر ابن عطية أن أبا علي الفارسي أنشد لبعض الأعراب :

لم تدر ما (لا) ولست قائلها عمرك ما عشت آخر الأبد

ولم تؤامر نفسك ممتريا فيها وفي أختها ولم تكذب

يريد بأختها كلمة (نعم) وهي أخت (لا) والمراد أنها أخت في اللسان . وقلت ومنه

قول عمرو بن أذينة :

وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الفؤاد إلى الضمير فسألها

فكانهم لما عصوا نفوسهم التي تدعوهم للإيمان عند مباح الآيات والنذر إذ لا تخلو

النفس من أوبة إلى الحق جعل معاملتهم لها في الإعراض عن نصحتها وإعراضها عنهم في قلة تجديد النصح لهم وتركهم في غيهم كالمخادعة من هذين الجانبين .

واعلم أن قوله وما يخادعون إلا أنفسهم أجمعت القراءات العشر على قراءته بضم التحتية وفتح الخاء بعدها ألف والنفس في لسان العرب الذات والقوة الباطنية المعبر عنها بالروح وخابر العقل .

وقوله وما يشعرون يعطف على جملة « وما يخادعون » والشعور يطلق على العلم بالأشياء الخفية ، ومنه سمي الشاعر شاعرا لعلمه بالمعاني التي لا يهتدى إليها كل أحد وقدرته على الوزن والتقفية بسهولة ، ولا يحسن لذلك كل أحد ، وقولهم ليت شعري في التحير في علم أمر خفي ، ولولا الخفاء لما تنعى علمه بل لعلمه بلا تنى ، فقولهم هو لا يشعر وصف بعدم الفطنة لا بعدم الإحساس وهو أبلغ في الذم لأن الذم بالوصف الممكن الحصول أنكى من الذم بما يتحقق عدمه فإن إحساسهم أمر معلوم لهم وللناس فلا ينيضهم أن يوصفوا بعدمه وإنما الذي ينيضهم أن يوصفوا بالبلادة . على أن خفاء مخادعتهم أنفسهم مما لا يمتري فيه واختير مثله في نظيره في الخفاء وهو ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون لأن كليهما أثبت فيه ما هو المسأل والناية وهي مما يخفى واختير في قوله ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون نقي العلم دون نقي الشعور لأن السفه قد يبدو لصاحبه بأقل التفاتة إلى أحواله وتصرفاته لأن السفه أقرب لادعاء الظهور من مخادعة النفس عند إرادة مخادعة الغير ومن حصول الإفساد عند إرادة الإصلاح وعلى الإطلاق الثاني درج صاحب الكشف قال: فهم لتمادى غفلتهم كالذي لا حس له .

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ بِمَا كَانُوا

يَكْذِبُونَ ۝ ١٠

استئناف محض لمد مساوئهم ويجوز أن يكون بيانيا لجواب سؤال متعجب ناشئ عن سماع الأحوال التي وصفوا بها قبل في قوله تعالى « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون » فإن من يسمع أن طائفة تخادع الله تعالى وتخادع قوما عديدين وتطمع أن خداعها يتمشى عليهم ثم لا تشعر بأن ضرر الخداع لا حق بها لطائفة جديدة بأن يتعجب من أمرها المتعجب ويتساءل كيف خطر هذا بخواطرها فكان قوله في قلوبهم مرض» ميانا وهو أن في قلوبهم خلا ترايد إلى أن بلغ حد الأفن .

ولهذا قدم الظرف وهو في قلوبهم للاهتمام لأن القلوب هي محل الفكرة في الحداق فلما كان المسئول عنه هو متعلقها وأثرها كان هو المهم به في الجواب . وتنوين مرض للتعظيم . وأطلق القلوب هنا على محل التفكير كما تقدم عند قوله تعالى: ختم الله على قلوبهم .

والمرض حقيقة في عارض للمزاج يخرججه عن الاعتدال الخاص بنوع ذلك الجسم خروجاً غير تام وبمقدار الخروج يشتد الألم فإن تم الخروج فهو الموت . وهو مجاز في الأعراض النفسانية العارضة للأخلاق البشرية عروضا يخرجها عن كمالها ، وإطلاق المرض على هذا شائع مشهور في كلام العرب وتديير المزاج لإزالة هذا العارض والرجوع به إلى اعتداله هو الطب الحقيقي ومجازى كذلك قال علقمة بن عبدة الملقب بالفحل :

فإن تسألوني بالنساء فإنني خير بأدواء النساء طيب
فذكر الأدوية والطب لفساد الأخلاق وإصلاحها .

والمراد بالمرض في هاته الآية هو معناه المجازى لا محالة لأنه هو الذي اتصف به المنافقون وهو المقصود من مذمتهم وبيان منشأ مساوى أعمالهم .

ومعنى فزادهم الله مرضاً أن تلك الأخلاق الذميمة الناشئة عن النفاق والملازمة له كانت تزايد فيهم بتزايد الأيام لأن من شأن الأخلاق إذا تمكنت أن تزايد بتزايد الأيام حتى تصبح ملكات كما قال المعلوط القريني :

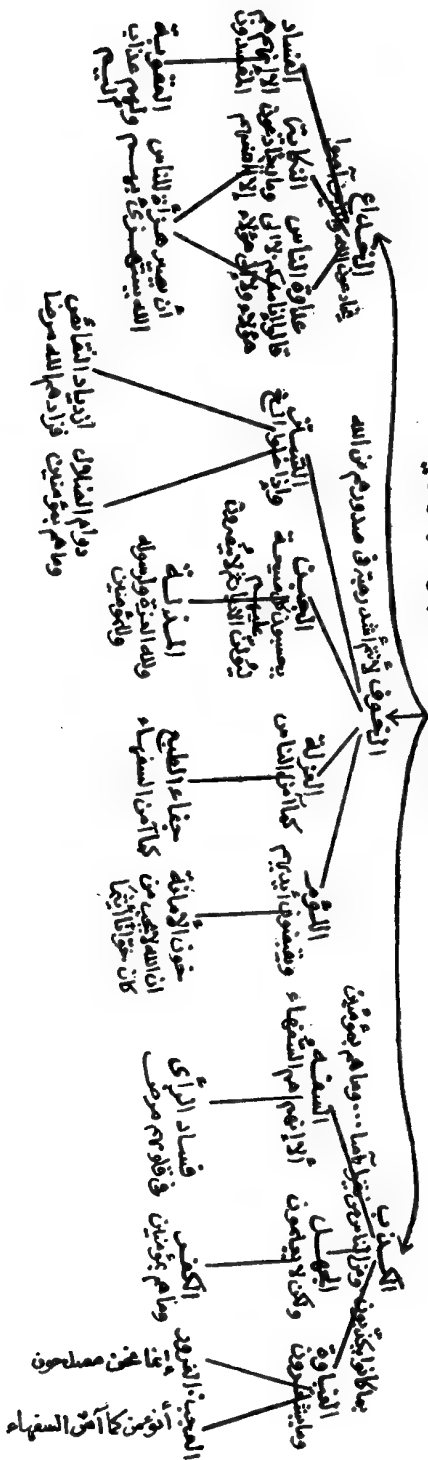
ورجّ الفتى للخير ما إن رأيتَه على السنِّ خيراً لا يزال يزيد

وكذلك القول في الشر ولذلك قيل : من لم يتحلم في الصغر لا يتحلم في الكبر وقال النابغة يهجو عامر بن الطفيل :

فإنك سوف تحلم أو تنأهى إذا ما شئت أو شاب الغراب

وإنما كان النفاق موجبا لازدياد ما يقارنه من سوء الأخلاق لأن النفاق يستر الأخلاق الذميمة فتكون محجوبة عن الناصحين والمربين والمرشدين وبذلك تتأصل وتتوالد إلى غير حد فالنفاق في كتمه مساوى الأخلاق بمنزلة كتم المريض داءه عن الطبيب ، وإليك بيان ما ينشأ عن النفاق من الأمراض الأخلاقية في الجدول المذكور هنا وأشرنا إلى ما يشير إلى كل خلق منها في الآيات الواردة هنا أو في آيات أخرى في هذا الجدول :

الأضرار النفسية الناشئة عن النفاق وما يتولد منها وتزايدها



اعلم أن هذه طباع تنشأ عن النفاق أو تقارنه من حيث هو ولا سيما النفاق في الدين فقد نهى الله تعالى لذلك تعليلًا وتربية فإن النفاق يعتمد على ثلاث خصال وهي: الكذب القول ، والكذب الفعل وهو الخداع ، ويقارن ذلك الخوف لأن الكذب والخداع إنما يصدران ممن يتوق إظهار حقيقة أمره. وذلك لا يكون إلا لخوف ضر أو لخوف إخفاق سعى وكلاهما مؤذن بقلة الشجاعة والثبات والثقة بالنفس وبحسن السلوك ، ثم إن كل خصلة من هاته الخصال الثلاث الذميمة تؤكد هنوات أخرى ، فالكذب ينشأ عن شيء من البله لأن الكاذب يعتقد أن كذبه يتمشى عند الناس وهذا من قلة الذكاء لأن النبيه يعلم أن في الناس مثله وخيرا منه ، ثم البله يؤدي إلى الجهل بالحقائق وجرأت العقول ، ولأن الكذب يمود فكر صاحبه بالحقائق المحرفة وتشبهه عليه مع طول الاسترسال في ذلك حتى إنه ربما اعتقد ما اختلقه وأبقا ، وينشأ عن الأمرين السفه وهو خلل في الرأي وأفن في العقل ، وقد أصبح علماء الأخلاق والطب يعدون الكذب من أمراض الدماغ . وأما نشأة المجب والغرور والكفر وفساد الرأي عن العباوة والجهل والسفه فظاهرة ، وكذلك نشأة الغزلة والجن والتستر عن الخوف ، وأما نشأة عداوة الناس عن الخداع فلأن عداوة الأضداد تبدأ من شعورهم بخداعه ، وتعقبها عداوة الأصحاب لأنهم إذا رأوا تقن ذلك الصاحب في النفاق والخداع داخلهم الشك أن يكون إخلاصه الذي يظهره لهم هو من الخادعة فإذا حصلت عداوة الفريقين تصدى الناس كلهم للتوقى منه والنكاية به ، وتصدى هو للمكر بهم والفساد ليصل إلى مرامه ، فرمته الناس عن قوس واحدة واجتني من ذلك أن يصير هزاة للناس أجمعين .

وقد رأيت أن الناشئ عن مرض النفاق والزائد فيه هو زيادة ذلك الناشئ أى تأصله وتمكنه وتولد مذمات أخرى عنه ، ولعل تنكير مرض في الموضعين أشعر بهذا فإن تنكير الأول للإشارة إلى تنويع أو تكثير ، وتنكير الثانى ليشير إلى أن المزيد مرض آخر على قاعدة إعادة النكرة نكرة .

وإنما أسندت زيادة مرض قلوبهم إلى الله تعالى مع أن زيادة هاته الأمراض القلبية من ذاتها لأن الله تعالى لما خلق هذا التولد وأسبابه وكان أمرا خفيا نبه الناس على خطر الاسترسال في النوايا الخبيثة والأعمال النكرة ، وأنه من شأنه أن يزيد تلك النوايا تمكنا

من القلب فيعسر أو يتعذر الإقلاع عنها بعد تمكنها ، وأسندت تلك الزيادة إلى اسمه تعالى لأن الله تعالى غضب عليهم فأهملهم وشأنهم ولم يتداركهم بلطفه الذي يوقظهم من غفلاتهم لينبه المسلمين إلى خطر أمرها وأنها مما يعسر إقلاع أصحابها عنها ليكون حذرهم من معاملتهم أشد ما يمكن .

جُملة « فزادهم الله مرضا » خبرية معطوفة على قوله « في قلوبهم مرض » واقعة موقع الاستئناف للبيان ، داخلة في دفع التعجب ، أى أن سبب توغّلهم في الفساد ومحاولتهم ما لا يُنال لأن في قلوبهم مرضا ولأنه مرض يتزايد مع الأيام تزايداً مجعولا من الله فلا طمع في زواله . وقال بعض المفسرين : هي دعاء عليهم كقول جبير بن الأضبط .

تَبَاعَدَ عَنِّي فَطَحَلْتُ إِذْ دَعَوْتُهُ أَمِينَ فزَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدًا .

وهو تفسير غير حسن لأنه خلاف الأصل في العطف بالفاء ولأن تصدى القرآن لشتهم بذلك ليس من دأبه ، ولأن الدعاء عليهم بالزيادة تنافي ما عهد من الدعاء للضالين بالهداية في نحو « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

وقوله « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » معطوف على قوله « فزادهم الله مرضا » إكمالاً للفائدة فكمل بهذا العطف بيان ما جره النفاق إليهم من فساد الحال في الدنيا والعذاب في الآخرة . وتقديم الجار والمجرور وهو « لهم » للتنبيه على أنه خبر لانعت حتى يستقر بمجرد سماع المبتدأ العلم بأن ذلك من صفاتهم فلا تلهو النفس عن تلقيه .

والأليم فعيل بمعنى مفعول لأن الأكثر في هذه الصيغة أن الرباعي بمعنى مُفَعَّل وأصله عذاب مؤلّم بضميعة اسم المفعول أى مؤلّمٌ من يعذب به على طريقة المجاز العقلي لأن المؤلّم هو المعذب دون العذاب كما قالوا جَدَّ جَدَّهُ ، أو هو فعيل بمعنى فاعل من أَلِمَ بمعنى صار ذا ألم ، وإما أن يكون فعيل بمعنى مفعول أى مؤلّم بكسر اللام ، فقيل لم يثبت عن العرب في هذه المادة وثبت في نظيرها نحو الحكيم والسميع بمعنى السميع كقول عمرو بن معديكرب :

وخيلٍ قد دَلَقَتْ لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

أى موجه ، واختلف في جواز القياس عليه والحق أنه كثير في الكلام البليغ وأن منع القياس عليه للمولدين قصد منه التباعد عن مخالفة القياس بدون داع لئلا يلتبس حال الجاهل بحال البليغ فلا مانع من تخريج الكلام الفصيح عليه .

وقوله « بما كانوا يكذبون » الباء للسببية وقرأ الجمهور يُكذِّبون بضم أوله وتشديد الذال . وقرأ عاصم وحزمة والكسائي وخلف بفتح أوله وتخفيف الذال أى بسبب تكذيبهم الرسول وإخباره بأنه مرسل من الله وأن القرآن وحى الله إلى الرسول ، فإدانة التفصيل للنسبة إلى الكذب مثل التعديل والتجريح ، وأما قراءة التخفيف فعلى كذبهم الخاص فى قولهم « آمنا بالله » ، وعلى كذبهم العام فى قولهم « إنما نحن مصلحون » فالقصد كذبهم فى إظهار الإيمان وفى جعل أنفسهم المصلحين دون المؤمنين . والكذب ضد الصدق ، وسيأتى عند قوله تعالى « ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب » فى سورة المائدة . و (مَا) المجرورة بالباء مصدرية ، والمصدر هو المنسبك من كان أى الكون .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ١١

يظهر لى أن جملة وإذا قيل لهم عطف على جملة فى قلوبهم مرض؛ لأن قوله وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون» إخبار عن بعض عجيب أحوالهم، ومن تلك الأحوال أنهم قالوا إنما نحن مصلحون فى حين أنهم مفسدون فىكون معطوفاً على أقرب الجمل الملاحظة^(١) لأحوالهم وإن كان ذلك آيلاً فى المعنى إلى كونه معطوفاً على الصلة فى قوله « من يقول آمنا بالله » . وإذا هنا لجرد الظرفية وليست متضمنة معنى الشرط كما أنها هنا للماضى وليست للمستقبل وذلك كثير فيها كقوله تعالى : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » الآية . ومن نكت القرآن المغفول عنها تقييد هذا الفعل بالظرف فإن الذى يتبادر إلى الذهن أن محل المذمة هو أنهم يقولون إنما نحن مصلحون مع كونهم مفسدين، ولكن عند التأمل يظهر أن هذا القول يكون قائلاًه أجدر بالمذمة حين يقولونه فى جواب من يقول لهم لا تفسدوا فى الأرض فإن هذا الجواب الصادر من المفسدين لا ينشأ إلا عن مرض القلب وأفن الرأى ، لأن شأن الفساد أن لا يخفى ولئن خفى فالتصميم عليه واعتقاد أنه صلاح بعد الإيقاظ إليه والموعظة إفراط فى الغباوة أو المكابرة وجهل فورة جهل . وعندي أن هذا هو المقتضى لتقديم الظرف على جملة « قالوا ... » ، لأنه أهم إذ هو محل التعجب من حالهم ، ونكت الإعجاز لا تنهاى .

(١) الملاحظة : اللازمة .

والقائل لهم لا تفسدوا في الأرض بعض من وقف على حالهم من المؤمنين الذين لهم اطلاع على شؤونهم لقراءة أو صحبة، فيخلصون لهم النصيحة والموعظة رجاء إيمانهم ويسترون عليهم خشية عليهم من العقوبة وعلماً بأن النبي صلى الله عليه وسلم يفضي عن زلاتهم كما أشار إليه ابن عطية . وفي جوابهم بقولهم إنما نحن مصلحون ما يفيد أن الذين قالوا لهم لا تفسدوا في الأرض كانوا جازمين بأنهم مفسدون لأن ذلك مقتضى حرف إنما كما سيأتي ويدل لذلك عندى بناء فعل قيل للمجهول بحسب ما يأتي في قواه تعالى « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » ولا يصح أن يكون القائل لهم الله - والرسول - إذ لو نزل الوحي وبلغ إلى معينين منهم لعلم كفرهم ولو نزل مجملاً كما تنزل مواضع القرآن لم يستقم جوابهم بقولهم إنما نحن مصلحون .

وقد عَنَّ لى في بيان إيقاعهم الفساد أنه مراتب : أولها إفسادهم أنفسهم بالإصرار على تلك الأدوية القلبية التي أثمرنا إليها فيما مضى وما يترتب عليها من المدام ويتولد من المفاسد . الثانية إفسادهم الناس بيبث تلك الصفات والدعوة إليها ، وإفسادهم أبناءهم وعيالهم في اقتنائهم بهم في مساوئهم كما قاله نوح عليه السلام « إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً - كفاراً » .

الثالثة إفسادهم بالأفعال التي ينشأ عنها فساد المجتمع ، كالإلقاء النجاسة والعداوة وتسمير القِتن وتأليب الأحزاب على المسلمين وإحداث العقبات في طريق المصلحين .

والإفساد فعل ما به الفساد والهمزة فيه للجعل أى جعل الأشياء فاسدة في الأرض . والفساد أصله استحالة منفعة الشيء النافع إلى مضرة به أو بغيره ، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملاً على مضرة ، وإن لم يكن فيه نفع من قبل يقال فسد الشيء بمد أن كان صالحاً ويقال فاسد إذا وجد فاسداً من أول وهلة ، وكذلك يقال أفسد إذا عمد إلى شيء صالح فأزال صلاحه ، ويقال أفسد إذا أوجد فساداً من أول الأمر . والأظهر أن الفساد موضوع للقدر المشترك من المعينين وليس من الوضع المشترك ، فليس إطلاقه عليهما كما هنا من قبيل استعمال المشترك في معنیه . فالإفساد في الأرض منه تصيير الأشياء الصالحة مضرة كالنفس في الأطعمة ، ومنه إزالة الأشياء النافعة كالحرق والقتل للبراء ، ومنه إفساد الأنظمة كالقِتن والجور ، ومنه إفساد المساعي كتكثير الجهل وتعليم الدعاة وتحسين الكفر ومناوأة

الصالحين المصلحين ، ولعل المنافقين قد أخذوا من ضروب الإفساد بالجميع ، فلذلك حُذِفَ متعلق تفسدوا تأكيداً للعموم المستفاد من وقوع الفعل في حيز النفي .

وذكر المحل الذي أفسدوا ما يحتوي عليه وهو الأرض لتفطيع فسادهم بأنه مبثوث في هذه الأرض لأن وقوعه في رقعة منها تشويه لمجموعها . والمراد بالأرض هذه الكرة الأرضية بما تحتوي عليه من الأشياء القابلة للإفساد من الناس والحيوان والنبات وسائر الأنظمة والنواميس التي وضعها الله تعالى لها ، ونظيره قوله تعالى « وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .

وقوله تعالى « قالوا إنما نحن مصلحون » جواب بالنقض فإن الإصلاح ضد الإفساد، أى جعل الشيء صالحاً، والصالح ضد الفساد يقال صلح بعد أن كان فاسداً ويقال صلح بمعنى وجد من أول وهلة صالحاً فهو موضوع للقدر المشترك كما قلنا . وجاءوا بإنما المفيدة للقصر باتفاق أئمة العربية والتفسير ولا اعتماد بمخالفه شذوذاً في ذلك . وأفاد إنما هنا قصر الموصوف على الصفة رداً على قول من قال لهم لا تفسدوا ، لأن القائل أثبت لهم وصف الفساد إما باعتقاد أنهم ليسوا من الصالح في شيء أو باعتقاد أنهم قد خلطوا عملاً صالحاً وفساداً ، فردوا عليهم بقصر القلب ، وليس هو قصرًا حقيقياً لأن قصر الموصوف على الصفة لا يكون حقيقياً ولأن حرف إنما يختص بقصر القلب كما في دلائل الإعجاز ، واختير في كلامهم حرف إنما لأنه يخاطب به مخاطب مُصِرٌّ على الخطأ كما في دلائل الإعجاز وجعلت جملة القصر اسمية لتنفيذ أنهم جعلوا انصافهم بالإصلاح أمراً ثابتاً دائماً ، إذ من خصوصيات الجملة الاسمية إفادة الدوام .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ١٢

رد عليهم في غرورهم وحصرهم أنفسهم في الإصلاح فرد عليهم بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه من الطريق الذى قالوه لأن تعريف المسند يفيد قصر المسند على المسند إليه فيفيد قوله ألا إنهم هم المفسدون قصر الإفساد عليهم بحيث لا يوجد في غيرهم وذلك ينفي حصرهم أنفسهم في الإصلاح وينقضه وهو جار على قانون النقص وعلى أسلوب القصر الحاصل بتعريف الجنس وإن كان الرد قد يكفي فيه أن يقال إنهم مفسدون بدون صيغة قصر ، إلا أنه

قَصْرَ ليفيد ادعاء نقي الإفساد عن غيرهم . وقد يفيد ذلك أن المنافقين ليسوا ممن ينتظم في عداد المصلحين لأن شأن الفساد عرفاً أن لا يكون مصلحاً إذ الإفساد هين الحصول وإنما يصد عنه الوازع فإذا خلع المرء عنه، الوازع وأخذ في الإفساد، هان عليه الإفساد ثم تكرر حتى يصبح سجية ودأباً لا يكاد يفارق موصوفه .
وحرف ألا للتنبيه إعلاناً لوضفهم بالإفساد .

وقد أكد قصر الفساد عليهم بضمير الفصل أيضاً - كما أكد به القصر في قوله « وأولئك هم المفلحون » كما تقدم قريباً - ودخول (إِنَّ) على الجملة وقرنها بألا المفيدة للتنبيه وذلك من الاهتمام بالخبر وتقويته دلالة على سخط الله تعالى عليهم فإن أدوات الاستفتاح مثل ألا وأما لما كان شأنها أن ينب بها السامعون دلت على الاهتمام بالخبر وإشاعته وإعلانه، فلا جرم أن تدل على أبلغية ما تضمنه الخبر من مدح أو ذم أو غيرها ، ويدل ذلك أيضاً على كمال ظهور مضمون الجملة للعيان لأن أدوات التنبيه شاركت أسماء الإشارة في تنبيه المخاطب .

وقوله « ولكن لا يشعرون » محمله محتملُ قوله تعالى قبله « وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون » فإن أفعالهم التي يتهجون بها ويزعمونها منتهى الحذق والفطنة وخدمة المصلحة الخالصة آيلة إلى فساد عام لا محالة إلا أنهم لم يهتدوا إلى ذلك خفائه وللغشاة التي ألقيت على قلوبهم من أثر النفاق ومخالطة عظماء أهله، فإن حال القرين وسخافة المذهب تطمس على العقول النيرة وتخفف بالأحلام الراجحة حتى ترى حسناً ما ليس بالحسن . وموقع حرف الاستدراك هنا لأن الكلام دَفَع لما أثبتوه لأنفسهم من الخلوص للإصلاح، فرفع ذلك التوهم بحرف الاستدراك .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾

هو من تمام القول قبله فحكمه حكمه بالعطف والقائل ، ويجوز هنا أن يكون القائل أيضاً طائفة من المنافقين يشيرون عليهم بالإفلاق عن النفاق لأنهم ضجروه وسئموا كلفه ومتقياته ، وكَلَّتْ أذهانهم من ابتكار الحيل واختلاق الخطل . وحذف مفعول آمِنُوا استغناء عنه بالتشبيه في قوله « كما آمن الناس » أو لأنه معلوم للسامعين . وقوله « كما آمن الناس »

الكاف فيه للتشبيه أو للتعليل، واللام في الناس للجنس أو للاستغراق العرفي . والمراد بالناس من عداً المخاطبين ، كلمة تقولها العرب في الإغراء بالفعل والحث عليه لأن شأن النفوس أن تسرع إلى التقليد والاعتداء بمن يسبقها في الأمر ، فلذلك يأتون بهاته الكلمة في مقام الإغراء أو التسلية أو الانتساء . قال عمرو ابن البراقة النهمي (١) .

وننصرُ مولانا ونعلمُ أنَّه كما الناس مجرؤمٌ عليه وجارم

وقوله « أنؤمن كما آمن السفهاء » استفهام للإنكار ، قصدوا منه التبري من الإيمان على أبلغ وجه ، وجعلوا الإيمان التبرأ منه شبيها بإيمان السفهاء تشبيها له وتعريضا بالمسلمين بأنهم حملهم على الإيمان سفاهة عقولهم ، ودلوا على أنهم علموا مراد من يقول لهم كما آمن الناس أنه يعني بالناس المسلمين .

والسفهاء جمع سفيه وهو المتصف بالسفاهة . والسفاهة خفة العقل وقلة ضبطه للأمور قال السموأل :

نَخَافُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلَامُنَا فَتَخْمَلَ الدَّهْرَ مَعَ الْخَامِلِ

والعرب تطلق السفاهة على أفن الرأي وضعفه ، وتطلقها على سوء التدبير للمال . قال تعالى « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » وقال « فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً » الآية لأن ذلك إنما يجيء من ضعف الرأي . ووصفهم المؤمنين بالسفاهة بهتان لزعهم أن مخالفهم لا تكون إلا لخفة في عقولهم ، وليس ذلك لتحقيرهم ، كيف وفي المسلمين سادة العرب من المهاجرين والأنصار . وهذه شنشنة أهل الفساد والسفه أن يرموا المصلحين بالذمات بهتاناً ووقاحة ليلهوهم عن تتبع مفسادهم ولذلك قال أبو الطيب :

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمُومٌ مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

وليس في هاته الآية دليل على حكم الزنديق إذا ظهر عليه وعرفت زندقته إثباتاً ، ولا نفياً لأن القائلين لهم آمنوا كما آمن الناس هم من أقاربهم أو خاصتهم من المؤمنين الذين لم يفشوا أمرهم فليس في الآية دليل على ظهور نفاقهم للرسول بوجه معتاد ولكنه شيء أُطلع

(١) بنون مكسورة وسكون الهاء نسبة إلى نهم: بطن من همدان

عليه نبينه ، وكانت المصلحة في ستره ، وقد اطلع بعض المؤمنين عليه بمخالطتهم وعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم الإعراض عن إذاعة ذلك فكانت الآية غير دالة على حكم شرعي يتعاق بمحكم النفاق والزندقة .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾¹³

أتى بما يقابل جفاء طبعهم انتصاراً للمؤمنين ، ولولا جفاء قولهم « أنؤمن كما آمن السفهاء » لما تصدى القرآن لسبابهم مع أن عادته الإعراض عن الجاهلين ولكنهم كانوا مضرب المثل « قُلْتَ فَأَوْجِبْتَ » ، ولأنه مقام بيان الحق من الباطل فتحسن فيه الصراحة والبصراحة كما تقرر في آداب الخطابة ، وأعلن ذلك بكلمة ألا المؤذنة بالتنبيه للخبر ، وجاء بصيغة القصر على نحو ما قرر في « ألا إنهم هم المفسدون » ليدل على أن السفاهة مقصورة عليهم دون المؤمنين فهو إضافي لا محالة . وإذا ثبتت لهم السفاهة انتفى عنهم الحلم لا محالة لأنهما ضدان في صفات العقول (إن) هنا لتوكيد الخبر وهو مضمون القصر وضمير الفصل لتأكيد القصر كما تقدم آتفا .

وَأَلَّا كَأَخْتِهَا المتقدمة في « ألا إنهم هم المفسدون » .

وقوله « ولكن لا يعلمون » نفى عنهم العلم بكونهم سفهاء بكلمة يعلمون دون يشعرون خلافاً للآيتين السابقتين لأن اتصافهم بالسفه ليس مما شأنه الخفاء حتى يكون العلم به شعوراً ويكون الجهل به نفى شعور ، بل هو وصف ظاهر لا يخفى لأن لقاءهم كل فريق بوجه واضطرا بهم في الاعتماد على إحدى الخلتين وعدم ثباتهم على دينهم ثباتاً كاملاً ولا على الإسلام كذلك كافي في النداء بسفاهة أحلامهم فإن السفاهة صفة لا تكاد تخفى ، وقد قالت العرب : السفاهة كاسمها . قال النابغة :

نُبْتُ زُرْعَةَ وَالسَّفَاهَةَ كَاسْمِهَا يُهْدَى إِلَى غَرَائِبِ الْأَشْعَارِ
وَقَالَ جَزْءُ بْنُ كِلَابٍ الْفَقْعَسِيُّ :

تَبَنَّى ابْنُ كُوزٍ وَالسَّفَاهَةَ كَاسْمِهَا لَيْسْتَادَ مِنَّا أَنْ شَتَوْنَا لِيَالِيَا

فظنهم أن ما هم عليه من الكفر رُشد ، وأن ما تقلده المسلمون من الإيمان سَفَهَ يدل على

انتفاء العلم عنهم . فوقع حرف الاستدراك لدفع تعجب من يتعجب من رضاهم بالاختصاص بوصف السفاهة .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ ١٤

عطف « وإذا لقوا » على ما عطف عليه « وإذا قيل لهم لا تفسدوا » « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس » .

والكلام في الظرفية والزمان سواء .

والتقييد بقوله « وإذا لقوا » الذين آمنوا ، تمديد لقوله « وإذا خلو » ، فبذلك كان مفيداً فائدة زائدة على ما في قوله « ومن الناس من يقول آمنا بالله » الآية فليس ما هنا تكراراً مع ما هناك ، لأن المقصود هنا وصف ما كانوا يعملون مع المؤمنين وإيهامهم أنهم منهم ولقاءهم بوجوه الصادقين ، فإذا فارقوهم وخلصوا إلى قومهم وقادتهم خلعوا ثوب التستر وصرحوا بما يبطنون . ونكتة تقديم الظرف تقدمت في قوله « وإذا قيل لهم لا تفسدوا » .

ومعنى قولهم آمنا أى كنا مؤمنين فالمراد من الإيمان في قولهم آمنا الإيمان الشرعى الذى هو مجموع الأوصاف الاعتقادية والعلمية التى تلقب بها المؤمنون وعُرفوا بها على حد قوله تعالى « إنا هدنا إليك » أى كنا على دين اليهودية فلا متعلق بقوله آمنا حتى يحتاج لتوجيه حذفه أو تقديره ، أو أريد آمنا بما آمنتم به ، والأول أظهر ، ولقاؤهم الذين آمنوا هو حضورهم مجلس النبىء صلى الله عليه وسلم ومجالس المؤمنين . ومعنى قالوا آمنا أظهر وأهم مؤمنون بمجرد القول لا بعقد القلب ، أى نطقوا بكلمة الإسلام وغيرها مما يترجم عن الإيمان .

وقوله « وإذا خلو » إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » معطوف على قوله « وإذا لقوا » ، والمقصود هو هذا المعطوف وأما قوله « وإذا لقوا » الذين آمنوا ، فتمهيد له كما علمت ، وذلك ظاهر من السياق لأن كل أحد يعلم أن المقصود أنهم يقولون آمنا فى حال استهزاء بصريحون بقصده إذا خلو ، بديل أنه قد تقدم أنهم يأبون من الإيمان ويقولون « أنؤمن كما آمن السفهاء » إنكاراً لذلك ، وواو المعطف صالحة للدلالة على المعية وغيرها بحسب السياق وذلك أن السياق فى بيان ما لهم من وجهين وجه مع المؤمنين ووجه مع قادتهم ، وإنما لم يجعل مضمون الجملة الثانية فى

صورة الحال كان يقال قائلين لشياطينهم إذا خلوا ولم تحمل الواو في قولهم وإذا خلوا على الحال، أما الأول فلأن مضمون كلتا الجملتين لما كان صالحاً لأن يعتبر صفة مستقلة دالة على النفاق قصد بالعطف استقلال كليهما لأن الغرض تعداد مساويهم فإن مضمون «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا» مناد وحده بنفاقهم في هاته الحالة .

كما يفصح عنه قوله « وإذا لقوا » الدال على أن ذلك في وقت مخصوص ، وأما الثاني فلأن الأصل اتحاد موقع الجملتين التماثلتين لفظاً . ولما تقدم إيضاحه في وجه العدول عن الإتيان بالحال .

والشياطين جمع شيطان - جمع تكسير - وحقيقة الشيطان أنه نوع من المخلوقات المجردة، طبيعتها الحرارة النارية وهم من جنس الجن قال تعالى في إبليس « كان من الجن » وقد اشتهر ذكره في كلام الأنبياء والحكماء، ويطلق الشيطان على المفسد ومثير الشر، تقول العرب فلان من الشياطين ومن شياطين العرب وذلك استعارة، وكذلك أطلق هنا على قادة المنافقين في النفاق، قال تعالى « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين » الخ .

ووزن شيطان اختلف فيه البصريون والكوفيون من علماء العربية فقال البصريون هو فيعال من شطن بمعنى بعد؛ لأنه أبعد عن رحمة الله وعن الجنة فنونه أصلية وقال الكوفيون هو فعلان من شاط بمعنى هاج أو احترق أو بطل ووجه التسمية ظاهر . ولا أحسب هذا الخلاف إلا أنه بحث عن صيغة اشتقاقه فحسب أى البحث عن حروفه الأصول وهل إن نونه أصل أو زائد وإلا فإنه لا يظن بنحاة الكوفة أن يدعوا أنه يعامل معاملة الوصف الذى فيه زيادة الألف والنون مثل غضبان، كيف وهو متفق على عدم منعه من الصرف في قوله تعالى « وحفظناها من كل شيطان رجيم » . وقال ابن عطية ويرد على قول الكوفيون أن سيبويه حكى أن العرب تقول تشيطن إذا فعل فعل الشيطان، فهذا يبين أنه من شطن وإلا لقالوا تشيط اه . وفي الكشف: جعل سيبويه نون شيطان في موضع من كتابه أصلية وفي آخر زائدة اه .

والوجه أن تشيطن لما كان وصفا مشتقا من الاسم كقولهم تنمر أثبتوا فيه حروف الاسم على ما هي عليه لأنهم عاملوه معاملة الجـامد دون المشتق لأنه ليس مشتقا مما اشتق منه الاسم بل من حروف الاسم فهو اشتقاق حصل بعد تحقيق الاستعمال

وقطع النظر عن مادة الاشتقاق الأول فلا يكون قولهم ذلك مرجحاً لأحد القولين. وعندى أنه اسم جامد شابه في حروفه مادة مشتقه ودخل في العربية من لغة سابقة لأن هذا الاسم من الاسماء المتعلقة بالمقائد والأديان ، وقد كان لعرب العراق فيها السبق قبل انتقالهم إلى الحجاز واليمن، وبديل لذلك تقارب الألفاظ الدالة على هذا المعنى في أكثر اللغات القديمة. وكنت رأيت قول من قال إن اسمه في الفارسية سَيِّطَان. وخلوا بمعنى انقردوا فهو فعل قاصر ويمدى بالباء وباللام ومن ومع بلا تضمين ويمدى بالي على تضمين معنى آب أو خلص ويمدى بنفسه على تضمين تجاوز وباعد ومنه ما شاع من قولهم «افعل كذا وخلاك ذم»^(١) أى إن تبعة الأمر أو ضره لا تعود عليك . وقد عدى هنا بالي ليشير إلى أن الخلوة كانت في مواضع هي مآبهم ومرجعهم وأن لقاءهم للمؤمنين إنما هو صدفة ولحats قليلة، أفاد ذلك كله قوله، لقوا وخلوا». وهذا من بديع فصاحة الكلمات وصراحتها .

واعلم أنه حكى خطابهم للذين آمنوا بما يقتضى أنهم لم يأتوا فيه بما يحقق الخبر من تأكيد، وخطابهم موهم بما يقتضى أنهم حققوا لهم بقاءهم على دينهم بتأكيد الخبر بما دل عليه حرف التأكيد في قوله إنا معكم مع أن مقتضى الظاهر أن يكون كلامهم بعكس ذلك؛ لأن المؤمنين يشكون في إيمان المنافقين، وقومهم لا يشكون في بقائهم على دينهم، فجاءت حكاية كلامهم الموافقة لدلولاته على خلاف مقتضى الظاهر لمرعاة ما هو أجدر بعناية البليغ من مقتضى الظاهر. فخلو خطابهم مع المؤمنين عما يفيد تأكيد الخبر لأنهم لا يريدون أن يعرضوا أنفسهم في معرض من يتطرق ساحته الشك في صدقه لأنهم إذا فعلوا ذلك فقد أيقظوهم إلى الشك وذلك من إيقان تفاقمهم على أنه قد يكون المؤمنون أخلياء الذهن من الشك في المنافقين لعدم تعيينهم عندهم فيكون تجريد الخبر من المؤكدات مقتضى الظاهر .

وأما قولهم لقومهم إنا معكم بالتأكيد فذلك لأنه لما بدا من لؤبذاعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر وتطرق به التهمة أبواب قلوبهم

(١) أول من قاله قصير بن سعد اللخمي لعمر بن عدى ملك اللخمين من عرب العراق حين حرض قصير عمرا على الأخذ بثأر خاله جذعة بن مالك الأبرش ملك اللخمين الذى قتلته الزبابة العمليقة ملكة تدمر إذ خدعته وجلبته إلى بلدها وقتلته غيلة فلما اللخميون ابن أخته عمرو بن عدى وكان قصير وزيراً لجذعة ولابن أخته فلما استصعب عمرو الأخذ بالثأر قال له قصير «اطلب الأمر وخلاك ذم» أى إن نجحت فذاك ، وإلا فلا لوم عليك .

احتاجوا إلى تأكيد ما يدل على أنهم باقون على دينهم . وكذلك قولهم إنما نحن مستهزئون فقد أبدوا به وجه ما أظهروه للمؤمنين وجاءوا فيه بصيغة قصر القلب لرد اعتقاد شياطينهم فيهم إن ما أظهروه للمؤمنين حقيقة وإيمان صادق .

وقد وجه صاحب الكشف العدول عن التأكيد في قولهم آمنا والتأكيد في قولهم إنما معكم بأن مخاطبتهم المؤمنين اتقى عنها ما يقتضى تأكيد الخبر لأن المخبرين لم يتعلق غرضهم بأكثر من ادعاء حدوث إيمانهم لأن نفوسهم لا تساعدهم على أن يتلفظوا بأقوى من ذلك ولأنهم علموا أن ذلك لا يروج على المسلمين أى فاقصروا على اللازم من الكلام فإن عدم التأكيد في الكلام قد يكون لعدم اعتناء التكلم بتحقيقه ، ولعله أن تأكيد عبث لعدم رواجه عند السامع ، وهذه نكتة غريبة مرجعها قطع النظر عن إنكار السامع والإعراض عن الاهتمام بالخبر . وأما مخاطبتهم شياطينهم فإنما أتوا بالخبر فيها مؤكدا لإفادة اهتمامهم بذلك الخبر وصدق رغبتهم في النطق به ولعلمهم أن ذلك رائج عند مخاطبين فإن التأكيد قد يكون لاعتناء التكلم بالخبر ورواجه عند السامع أى فهو تأكيد للاهتمام لا لرد الإنكار .

وقولهم إنما نحن مستهزئون قصرنا أنفسهم على الاستهزاء قصرا إضافيا للقلب أى مؤمنون مخلصون ، وجملة إنما نحن مستهزئون تقرير لقوله إنما معكم لأنهم إذا كانوا معهم كان ما أظهروه من مفارقة دينهم استهزاء أو نحوه فأما أن تكون الجملة الثانية استثناء واقعة في جواب سؤال مقدر كأن سائلا يعجب من دعوى بقاءهم على دينهم لما أتقنوه من مظاهر النفاق في معاملة المسلمين ، وينكر أن يكونوا باقين على دينهم ويسأل كيف أمكن الجمع بين البقاء على الدين وإظهار المودة للمؤمنين فأجابوا إنما نحن مستهزئون ، وبه يتضح وجه الإتيان بأداة القصر لأن النكر السائل يعتقد كذبهم في قولهم إنما معكم ويدعى عكس ذلك ، وإما أن تكون الجملة بدلا من « إنما معكم » بدل اشتمال لأن من دام على الكفر وتعالى فيه (وهو مقتضى معكم أى في تصلبكم) فقد حقر الإسلام وأهله واستخف بهم ، والوجه الأول أولى الوجوه لأنه يجمع ما تقيده البدلية والتأكيد من تقرير مضمون الجملة الأولى مع ما فيه من الإشارة إلى رد التحير الذى ينشأ عنه السؤال وهذا يفوت على تقديرى التأكيد والبدلية . والاستهزاء : السخرية يقال هزأ به واستهزأ به فالسين والتاء للتأكيد مثل استجاب ، أى عامله فعلا أو

قولا يحصل به احتقاره أو التطرية به، سواء أشعره بذلك أم أخفاه عنه. والباء فيه للسببية قيل لا يتعدى بغير الباء وقيل يتعدى بمن، وهو مرادف سخر في المعنى دون المادة كما سيأتي في سورة الأنعام. وقرأ أبو جعفر مستهزون بدون همزة وبضم الزاي تخفيفا وهو لغة فصيحة في المهور.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾

لم تعطف هاته الجملة على ما قبلها لأنها جملة مستأنفة استئنفا بيانيا جوابا لسؤال مقدر ، وذلك أن السامع لحكاية قولهم للمؤمنين آمنا ، وقولهم لشياطينهم إنا معكم الخ . يقول لقد راجت حيلتهم على المسلمين النافلين عن كيدهم وهل يتفطن متفطن في المسلمين لأحوالهم فيجازيهم على استهزائهم، أو هل يرد لهم ما راموا من المسلمين، ومن الذي يتولى مقابلة صنعهم فكان للاستئناف بقوله « الله يستهزئ بهم » غاية الفخامة والجزالة . وهو أيضا واقع موقع الاعتراض والأكثر في الاعتراض ترك العاطف . وذكر يستهزئ دليل على أن مضمون الجملة مجازاة على استهزائهم . ولأجل اعتبار الاستئناف قُدم اسم الله تعالى على الخبر الفعلي . ولم يقل يستهزئ الله بهم لأن مما يحول في خاطر السائل أن يقول من الذي يتولى مقابلة سوء صنعهم فأعلم أن الذي يتولى ذلك هو رب العزة تعالى . وفي ذلك تنويه بشأن المنتصر لهم وهم المؤمنون كما قال تعالى « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » فقديم المسند إليه على الخبر الفعلي هنا لإفادة تقوى الحكم لا محالة ثم يفيد مع ذلك قصر المسند على المسند إليه فإنه لما كان تقديم المسند إليه على المسند الفعلي في سياق الإيجاب يأتي لتقوى الحكم ويأتي للقصر على رأى الشيخ عبد القاهر وصاحب الكشف كما صرح به في قوله تعالى « والله يُقَدِّرُ الليل والنهار » في سورة الزمل ، كان الجمع بين قصد التقوى وقصد التخصيص جائزا في مقاصد الكلام البليغ وقد جوزوه في الكشف عند قوله تعالى « فلا يخاف بخسا ولا رهقا » في سورة الجن ، لأن ما يراعيه البليغ من الخصوصيات لا يُترك حملُ الكلام البليغ عليه فكيف بأبلغ كلام، ولذلك يقال النكت لا تتراحم.

كان المنافقون يفرهم ما يرون من صفح النبي صلى الله عليه وسلم عنهم وإعراض المؤمنين عن التنازل لهم فيحسبون رواج حيلتهم وتفاقهم ولذلك قال عبد الله بن أبي « ليخرجن الأعز »

منها الأذلّ» فقال الله تعالى « ولله العزة ولرسوله » فتقديم اسم الجلالة لمجرد الاهتمام لا لقصد التقوى إذ لا مقتضى له .

وفعل يستهزئ، المسند إلى الله ليس مستعملا في حقيقته لأن المراد هنا أنه يفعل بهم في الدنيا ما يُسمى بالاستهزاء بدليل قوله « وَيَعْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ » ولم يقع استهزاء حقيقي في الدنيا فهو إما تمثيل لمعاملة الله إياهم في مقابلة استهزائهم بالمؤمنين ، بما يشبه فعل المستهزئ بهم وذلك بالإملاء لهم حتى يظنوا أنهم سلموا من المؤاخذة على استهزائهم فيظنوا أن الله راضٍ عنهم أو أن أصنامهم تقعوهم حتى إذا نزل بهم عذاب الدنيا من القتل والفضح علموا خلاف ما توهموا فكان ذلك كهيئة الاستهزاء بهم . والمضارع في قوله يستهزئ، لزمن الحال . ولا يحمل على اتصاف الله بالاستهزاء حقيقة عند الأشاعرة لأنه لم يقع من الله معنى الاستهزاء في الدنيا ، ويحسن هذا التمثيل ما فيه من المشاكلة . ويجوز أن يكون يستهزئ بهم حقيقة يوم القيامة بأن يأمر بالاستهزاء بهم في الموقف وهو نوع من العقاب فيكون المضارع في يستهزئ للاستقبال ، وإلى هذا المعنى نَحَا ابن عباس والحسن في نقل ابن عطية ، ويجوز أن يكون مرادا به جزاء استهزائهم من العذاب أو نحوه من الإذلال والتحقير والمعنى يذلم وعبر عنه بالاستهزاء مجازاً ومشاكلة ، أو مرادا به مآل الاستهزاء من رجوع الوبال عليهم . وهذا كله وإن جاز فقد عينه هنا جمهور العلماء من المفسرين كما نقل ابن عطية والقرطبي وعينه الفخر الرازي والبيضاوي وعينه المعتزلة أيضا لأن الاستهزاء لا يليق إسناده إلى الله حقيقة لأنه فعلٌ قبيحٌ ينزه الله تعالى عنه كما في الكشف وهو مبني على التعارف بين الناس .

وجيء في حكاية كلامهم بالمسند الاسمي في قولهم إنما نحن مستهزئون لإفادة كلامهم معنى دوام صدور الاستهزاء منهم وثباته بحيث لا يحولون عنه .

وجيء في قوله « الله يستهزئ بهم » بإفادة التجدد من الفعل المضارع أى تجدد إملاء الله لهم زمانا إلى أن يأخذهم العذاب ، ليعلم المسلمون أن ما عليه أهل النفاق من النعمة إنما هو إملاء وإن طال كما قال تعالى « لا يغرَّبكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ » .

﴿وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ 15

يتمين أنه معطوف على الله يستهزئ بهم .

ويعد فعل مشتق من المدد وهو الزيادة، يقال مدّه إذا زاده وهو الأصل في الاشتقاق من غير حاجة إلى الهمزة لأنه متعد، ودليله أنهم ضموا العين في المضارع على قياس المضاعف التعدى، وقد يقولون أمدّه بهمة التعدية على تقدير جعله ذا مدد ثم غلب استعمال مد في الزيادة في ذات المفعول نحو مدّه له في عمره ومدّ الأرض أى مططها وأطالها، وغلب استعمال أمد المهموز في الزيادة للمفعول من أشياء يحتاجها نحو أمدّه بجيش « أمدّكم بأنعام وبنين » .

وإنما استعمل هذا في موضع الآخر على الأصل فلذلك قيل لا فرق بينهما في الاستعمال وقيل يختص أمد المهموز بالخير نحو «أُمدُّوننى بجال» «أن ما نمدّهم به من مال»، ويختص مد بغير الخير ونقل ذلك عن أبى على الفارسي في كتاب الحجة، ونقله ابن عطية عن يونس ابن حبيب، إلا الممدى باللام فإنه خاص بالزيادة في العمر والإمهال فيه عند الزمخشري وغيره خلافا لبعض اللغويين فاستغنوا بذكر اللام المؤذنة بأن ذلك للنفع وللأجل (بسكون الجيم) عن التفرقة بالهمز رجوعا للأصل لثلاث يجمعوا بين ما يقتضى التعدية وهو الهمزة وبين ما يقتضى القصور وهو لام الجر، وكل هذا من تأثير الأمثلة على الناظرين وهى طريقة لهم في كثير من الأفعال التى يتفرع معناها الوضعى إلى معان جزئية له أو مقيدة أو مجازية أن يخصصوا بعض لغاته أو بعض أحواله ببعض تلك المعانى جريا وراء التنصيص فى الكلام ودفع اللبس بقدر الإمكان. وهذا من دقائق استعمال اللغة العربية، فلا يقال إن دعوى اختصاص بعض الاستعمالات ببعض المعانى هى دعوى اشتراك أو دعوى مجاز وكلاهما خلاف الأصل كما أورد عبد الحكيم؛ لأن ذلك التخصيص كما علمت اصطلاح فى الاستعمال لا تمدد وضع ولا استعمال فى غير المعنى الموضوع له ونظير ذلك قولهم فرق وفرّق ووعد وأوعد ونشد وأنشد ونزّل (المضاعف) وأزّل، وقولهم العثار مصدر عثر إذ أريد بالفعل الحقيقة، والفتور مصدر عثر إذ أريد بالفعل المجاز وهو الاطلاع، وقد فرقت العرب فى مصادر الفعل الواحد وفى جموع الاسم الواحد لاختلاف القيود .

وتعمدية فعل يعد إلى ضمير الدال على أدب أو ذوق مع أن المد إنما يتمدى إلى الطغيان جاءت على طريقة الإجمال الذى يعقبه التفصيل ليتمكن التفصيل فى ذهن السامع مثل طريقة بدل الاشتمال وجعل الزجاج والواحدى أصله ويمد لهم فى طغيانهم فحذف لام الجر واتصل الفعل بالمجرور على طريقة نزع الخافض وليس بذلك .

والطغيان مصدر بوزن النفران والشكران، وهو مبالغة فى الطنى وهو الإفراط فى الشر والكبر وتعليق فعل يمدهم هنا بضمير الذوات تعليق إجمالى يفسره قوله « فى طغيانهم » ويجوز أن يكون على تقدير لام محذوفة أى يمد لهم فى طغيانهم أى يمهلهم فيكون نحو بعض ما فسر به قوله « الله يستهزئ بهم » وهذا قول الزجاج والواحدى وفيه بُعد .
والعمه أنطاس البصيرة وتحير الرأى وفعله عمه فهو عامه وأعمه .

وإسناد المد فى الطغيان إلى الله تعالى على الوجه الأول فى تفسير قوله « ويمدهم » إسناد خلق وتكوين منوط بأسباب التكوين على سنة الله تعالى فى حصول السببات عند أسبابها . فالنفاق إذا دخل القلوب ، كان من آثاره أن لا ينقطع عنها ، ولما كان من شأن وصف النفاق أن تنمى عنه الرذائل التى قدمنا بيانها كان تكونها فى نفوسهم متولدا من أسباب شتى فى طباعهم متسلسلا من ارتباط السببات بأسبابها وهى شتى ومتفرعة وذلك بخلق خاص بهم مباشرة ولكن الله حرمهم توفيقه الذى يقلعهم عن تلك الجبلية بمحاربة نفوسهم ، فكان حرمانه إياهم التوفيق مقتضيا استمرار طغيانهم وتزايدهم بالرسوخ، وإسناد ازدياده إلى الله لأنه خالق النظم التى هى أسباب ازدياده ، وهذا يعد من الحقيقة العقلية الشائعة وليس من المجاز لعدم ملاحظة خلق الأسباب بحسب ما تعارفه الناس من إسناد ما خفى فاعله إلى الله تعالى لأنه الخالق للأسباب الأصلية والجاعل لنواميسها بكيفية لا يعلم الناس سرها ولا شاهدوا من تسند إليه على الحقيقة غيره وهذا بخلاف نحوبنى الأمير المدينة لاسيما بعد التصريح بالإسناد إليه فى الكلام بحيث لم يبق للبناء على عرف الناس مجال وهذا بخلاف نحو « يزيدك وجهه حسنا » وسرتى رؤيتك؛ لأن ذلك وإن كان فى الواقع من فعل الله تعالى إلا أنه غير ملتفت إليه فى العرف فلذلك قال الشيخ عبد القاهر: إنه من المجاز الذى لا حقيقة له .

وإنما أضاف الطغيان لضمير المنافقين ولم يقل في الطغيان بتعريف الجنس كما قال في سورة الأعراف «وإخوانُهُمْ يُمدُّونَهُمْ في النَّارِ» إشارة إلى تعظيم شأن هذا الطغيان وغرابته في بابه وإنهم اختصوا به حتى صار يعرف بإضافته إليهم .
والظرف متعلق بيمدهم . ويمهون جملة حالية .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ﴾

الإشارة إلى من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما عطف على صلته من صفاتهم وجرى باسم إشارة الجمع لأن ما صدق «من» هو فريق من الناس، وفصلت الجملة عن التي قبلها لتفيد تقرير معنى «ويعدهم في طغيانهم يعمهون» فمضمونها بمنزلة التوكيد ، وذلك مما يقتضي الفصل ، ولتفيد تطيل مضمون جملة ويعدهم في طغيانهم يعمهون فتكون استثنافاً بيانياً لمسائل عن العلة ، وهي أيضاً فذلك للجمال السابقة الشارحة لأحوالهم وشأن الفذلكة عدم العطف كقوله تعالى «تلك عشرة كاملة» ، وكل هذه الاعتبارات مقتضى لعدم العطف فيها ثلاثة موجبات للفصل . وموقع هذه الجملة من نظم الكلام مقابل موقع جملة «أولئك على هدى من ربهم» ومقابل موقع جملة «ختم الله على قلوبهم» الآية واسم الإشارة هنا غير مشاربه إلى ذوات ولكن إلى صنف اجتمعت فيهم الصفات الماضية فانكشفت أحوالهم حتى صاروا كالحاضرين تجاه السامع بحيث يشار إليهم وهذا استعمال كثير الورد في الكلام البليغ .
وليس في هذه الإشارة إشعار ببعد أو قرب حتى تفيد تحقيراً ناشئاً عن البعد لأن هذان أسماء الإشارة الغالبة في كلام العرب فلا عدول فيها حتى يكون العدول لمقصد كما تقدم في قوله تعالى «ذلك الكتاب» ولأن المشار إليه هنا غير محسوس حتى يكون له مرتبة معينة فيكون العدول عن لفظها لقصد معنى ثان فإن قوله تعالى ذلك الكتاب مع قرب الكتاب للناطق بآياته عدول عن إشارة القريب إلى البعيد فأفاد التعظيم . وعكس هذا قول قيس بن الخطيم :

مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا يُلْفِ حَاجَةً لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتَ قَضَاءَهَا

فإن الموت بعيد عنه فحقه أن يشير إليه باسم البعيد، وعدل عنه إلى إشارة القريب لإظهار استخفافه به .

والاشتراء افتعال من الشرى وفعله شرى الذى هو بمعنى باع كما أن اشترى بمعنى ابتاع فاشترى وابتاع كلاهما مطاوع لفعله المجرد أشار أهل اللسان إلى أن فاعل هذه المطاوعة هو الذى قبل الفعل والتزمه فدلوا بذلك على أنه أخذ شيئاً لرغبة فيه، ولما كان معنى البيع مقتضياً آخذين وباذلين كان كل منهما بائعاً ومبتاعاً باختلاف الاعتبار، ففعل باع منظور فيه ابتداء إلى معنى البذل والفعل ابتاع منظور فيه ابتداء إلى معنى الأخذ فإن اعتبره التكلم آخذاً لما صار بيده عبّر عنه بمبتاع ومشتري، وإن اعتبره باذلاً لما خرج من يده من العوض، عبّر عنه ببائع وشار، وبهذا يكون الفعلان جاريتين على سَنٍّ واحد. وقد ذكر كثير من اللغويين أن شرى يستعمل بمعنى اشترى والذى جرّاهم على ذلك سوء التأمل في قوله تعالى « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » فتوهّموا الضمير عائداً إلى المصريين مع أن معاده واضح قريب وهو سيارة من قوله تعالى « وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ » أى باعوه، وحسبك شاهداً على ذلك قوله « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أما الذى اشتراه فهو فيه من الراغبين ألا ترى إلى قوله ولامرأته أكرى مشواً.

وعلى ذينك الاعتبارين في فعلى الشراء والبيع كانت تمديتهما إلى المفعول فهما يتعديان إلى المقصود الأصلى بأنفسهما وإلى غيره بالباء فيقال باع فرسه بألف وابتاع فرس فلان بألف لأن الفرس هو الذى كانت المعاقدة لأجله لأن الذى أخرجه ليبيعه علم أن الناس يرغبون فيه والذى جاء ليشتريه كذلك.

وإطلاق الاشتراء هنا مجاز مرسل بعلاقة اللزوم، أطلق الاشتراء على لازمه الثانى وهو الحرص على شئ والزهد في ضده أى حَرَصُوا على الضلالة، وزَهَدُوا في الهدى إذ ليس في ما وقع من المنافقين استبدال شئ بشئ إذ لم يكونوا من قبل مهتدين.

ويجوز أن يكون الاشتراء مستعملاً في الاستبدال وهو لازمه الأول واستعماله في هذا

اللازم مشهور. قال بشامة بن حَزَن :

إِنَّا بَنَى نَهْشَلَ لَا نَدْعِي لِأَبٍ عَنْهُ وَلَا هُوَ بِالْأَبْنَاءِ يَشْرِينَا

أى يبيعنا أى يبدلنا، وقال عنتر بن الأخرس المعنى من شعراء الحماسة :

وَمَنْ إِنْ بَعْتَ مَنَزْلَةً بِأُخْرَى حَلَلْتَ بَأْمَرِهِ وَبِهِ تَسِيرُ

أى إذا استبدلت دارا بأخرى . وهذا بخلاف قول أبى النجم :
أخذتُ بالجملة رأساً أزعرا وبالطويل العُمُر عُمرًا جَيِّدار
كما اشترى المسلم إذ تنصرا

فيكون الحمل عليه هنا أن اختلاطهم بالمسلمين وإظهارهم بالإيمان حالة تشبه حال
المهتدى تلبَّسوا بها فإذا خلوا إلى شياطينهم طرحوها واستبدلوها بحالة الضلال وعلى هذا
الوجه الثانى يصح أيضا أن يكون الاشتراء استعارة بتشبيه تبتك الحالتين بحال المشتري
لشيء كان غير جائز له وارتضاه فى الكشف .

والموصول فى قوله الذين اشترؤا بمعنى المرف بلام الجنس فيفيد التركيب قصر المسند
على المسند إليه وهو قصر ادعائى باعتبار أنهم بلغوا الغاية فى اشتراء الضلالة والحرص عليها
إذ جمعوا الكفر والسفه والخداع والإفساد والاستهزاء بالمهتدين .

﴿فَمَا رِيحَتْ بِجَنَّةٍ تَجْرَتْهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ 16

رَبَّتْ الفاء عدم الريح المعطوف بها وعدم الاهتداء المعطوف عليه على اشتراء الضلالة بالهدى
لأن كليهما ناشئ عن الاشتراء المذكور فى الوجود والظهور؛ لأنهم لما اشترؤا الضلالة بالهدى فقد
اشترؤا وما لا ينفع وبذلوا ما ينفع فلا جرم أن يكونوا خاسرين وأن يتحقق أنهم لم يكونوا مهتدين فعدم
الاهتداء وإن كان سابقا على اشتراء الضلالة بالهدى أو هو عينه أو هو سببه إلا أنه لكونه عدمًا فظهوره
للناس فى الوجود لا يكون إلا عند حصول أثره وهو ذلك الاشتراء، فإذا ظهر أثره تبين للناس
المؤثر فلذلك صح ترتيبه بفاء الترتيب فأشبه العلة الغائية، ولهذا عبر بما كانوا مهتدين دون
ما اهتدوا لأن ما كانوا أبلغ فى النفي لإشعاره بأن انتفاء الاهتداء عنهم أمر متأصل سابق
قديم، لأن كان تدل على اتصاف اسمها بخبرها منذ المضى فكان نفي الكون فى الزمن الماضى
أنسب بهذا التفریع .

والريح هو نجاح التجارة ومصادفة الرغبة فى السلع بأكثر من الأثمان التى اشتراها بها
التاجر ويطلق الربح على المال الحاصل للتاجر زائدا على رأس ماله . والتجارة - بكسر أوله -
على وزن فعالة وهى زنة الصنائع ومعنى التجارة التصدى لا شراء الأشياء لقصد بيعها بثمن

أوفر مما اشترى به ليكتسب من ذلك الوفر ما ينفقه أو يتأمله . ولما كان ذلك لا ينجح إلا بالثابرة والتجديد صيغ له وزن الضائع رونق الربح في الآية تشبيه لحال المنافقين إذ قصدوا من النفاق غاية فأخفقت مساعيهم وضاعت مقاصدهم بحال التجار الذين لم يحصلوا من تجارتهم على ربح فلا التفات إلى رأس مال في التجارة حتى يقال إنهم إذا لم يربحوا فقد بقي لهم نفق رأس المال ويحجب بأن نقي الربح يستلزم ضياع رأس المال لأنه يتلف في النفقة من القوت والكسوة لأن هذا كله غير منظور إليه إذ الاستمارة تعتمد على ما يقصد من وجه الشبه فلا تلزم المشابهة في الأمور كلها كما هو مقرر في فن البيان .

وإنما أسند الربح إلى التجارة حتى نقي عنها لأن الربح لما كان مسببا عن التجارة وكان الرابع هو التاجر صح إسناده للتجارة لأنها سببه فهو مجاز عقلي وذلك أنه لولا الإسناد المجازي لما صح أن ينفي عن الشيء ما يعلم كل أحد أنه ليس من صفاته لأنه يصير من باب الإخبار بالمعلوم ضرورة، فلا تظن أن النفي في مثل هذا حقيقة فتتركه، إن انتفاء الربح عن التجارة واقع ثابت لأنها لا توصف بالربح وهكذا تقول في نحو قول جرير « ونمت وما ليل المطى بنائم » بخلاف قولك ما ليله بطويل، بل النفي هنا مجاز عقلي لأنه فرع عن اعتبار وصف التجارة بأنها إلى الخسر ووصفها بالربح مجاز وقاعدة ذلك أن تنظر في النفي إلى النفي لو كان مثبتا فإن وجدت إثباته مجازا عقليا فاجمل تقييه كذلك وإلا فاجمل تقييه حقيقة لأنه لا ينفي إلا ما يصح أن يثبت . وهذه هي الطريقة التي انفصل عليها المحقق التفتراني في المطول، وعدل عنها في حواشي الكشاف وهي أمثل مما عدل إليه .

وقد أفاد قوله « ربح تجارتهم » ترشيحا للاستمارة في اشتروا فإن مرجع الترشيح إلى أن يقفى المجاز بما يناسبه سواء كان ذلك الترشيح حقيقة بحيث لا يستفاد منه إلا تقوية المجاز كما تقول له يد طولى أو هو أسد دامي البرائن أم كان الترشيح متميزا به أو مستعارا لمعنى آخر هو من ملاعمت المجاز الأول سواء حسن مع ذلك استقلاله بالاستمارة كما في هذه الآية فإن نقي الربح ترشح به اشتروا . ومثله قول الشاعر أنشده ابن الأعرابي كما في أساس البلاغة للزمخشري ولم يعزه :

ولما رأيت النَّسْرَ عزَّ ابنَ دَايَةَ وعششَ في وَكْرَيْنِ جاشَ له صدرى^(١)

فإنه لما شبه الشيب بالنسر والشعر الأسود بالغراب صح تشبيه حلول الشيب في محلى السواد وهما الفودان بتمشيش الطائر في موضع طائر آخر؛ أم لم يحسن إلا مع المجاز الأول كقول بعض فتاك العرب في أمه (أنشده في الكشاف ولم أقف على تعيين قائله) :

وما أمُّ الرُّدَيْنِ وإنْ أدلَّتْ بعالة بأخلاق الكرام
إذا الشيطانُ قصَّعَ في قفاها تنفَّقناه بالحبل التَّوَامِ

فإنه لما استعار قصع لدخول الشيطان أى وسوسته وهى استعارة حسنة لأنه شبه الشيطان بضرب يدخل للوسوسة ودخوله من مدخله المتعارف له وهو القاصماء . وجعل علاجهم وإزالة وسوسته كالتنفق أى تطلب خروج الضب من نافقائه بعد أن يسد عليه القاصماء ولا تحسن هذه الثانية إلا تبعاً للأولى . والآية ليست من هذا القبيل . وقوله «وما كانوا مهتدين» قد علم من قوله «اشتروا الضلالة بالهدى إلى ما كانوا مهتدين»، فتعين أن الاهتداء النفى هو الاهتداء بالمعنى الأصلى فى اللغة وهو معرفة الطريق الموصل للمقصود وليس هو بالمعنى الشرعى المتقدم فى قوله «اشتروا الضلالة بالهدى» فلا تكرير فى المعنى فلا يرد أنهم لما أخبر عنهم بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى كان من المعلوم أنه لم يبق فيهم هدى .

ومعنى نقي الاهتداء كناية عن إضاعة القصد أى أنهم أضاعوا ما سموا له ولم يعرفوا ما يوصل لخير الآخر ولا ما يضر المسلمين . وهذا نداء عليهم بسفه الرأى والخرق وهو كما علمت فيما تقدم يجرى مجرى العلة لعدم ربح التجارة ، فشبه سوء تصرفهم حتى فى كفرهم بسوء تصرف من يريد الربح ، فيقع فى الخسران . فقلوه «وما كانوا مهتدين» تمثيلية ويصح أن يؤخذ منها كناية عن الخسران وإضاعة كل شيء لأن من لم يكن مهتدياً أضاع الربح وأضاع رأس المال بسوء سلوكه .

(١) عز: غلب، وابن داية من أسماء الغراب، سمى ابن داية لسواده، لأن الداية: العاضنة، وكانت حواضن أبناء العرب والمشغلات فى شؤونهم فى بيوت أكابرهم من الإمامة السود، فيطلق على الصبيان من أبناء الإمام ابن داية تأنيساً له لئلا يقال العبد أو الوصف .

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾

أعقبت تفاصيل صفاتهم بتصوير مجموعها في صورة واحدة ، بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة وهذه طريقة تشبيه التمثيل ، إلحاقا لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة ، لأن النفس إلى المحسوس أميل .

وإنما للبيان بجمع المتفرقات في السمع ، المطالة في اللفظ ، في صورة واحدة لأن للإجمال بعد التفصيل وقما من نفوس السامعين .

وتقرير الجميع ما تقدم في الذهن بصورة تخالف ما صور سالفاً لأن تجدد الصورة عند النفس أحب من تكررها . قال في الكشف : « ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالغنى في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك التخيل في صورة المحقق والتوهم في معرض التيقن والغائب كالشاهد » .

واستدلالاً على ما يتضمنه مجموع تلك الصفات من سوء الحالة وخيبة السمي وفساد العاقبة ، فمن فوائد التشبيه قصد تفضيع المشبه .

وتقريباً لما في أحوالهم في الدين من التضاد والتخالف بين ظاهر جميل وباطن قبيح بصفة حال عجبية من أحوال العالم فإن من فائدة التشبيه إظهار إمكان المشبه ، وتنظير غرائبه بتمثلها في المشبه به . قال في الكشف « ولأمر ما أكثر الله تعالى في كتابه المبين أمثاله وفشت في كلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء قال تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » اهـ .

والتمثيل منزع جليل بدیع من منازع البلاء لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصتهم . وهو هنا من قبيل التشبيه لا من الاستعارة لأن فيه ذكر المشبه والمشبه به وأداة التشبيه وهي لفظ مثل .

فجمله « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » واقعة من الجمل الماضية موقع البيان والتقريب . والذليكة ، فكان بينها وبين ما قبلها كمال الاتصال فلذلك فصلت ولم تعطف ، والحالة التي وقع تمثيلها سيحىء بيانها في آخر تفسير الآية .

وأصل المثل بفتح الحين هو النظير والمشابه ، ويقال أيضاً مثل بكسر الميم وسكون الناء ،

ويقال مثيل كما يقال شبه وشبهه وشبيهه ، وبدل وبدل ، وبدل ، ولا رابع لهذه الكلمات في محيى فعل وفعل وقمىل بمعنى واحد .

وقد اختص لفظ المثل (بفتح الحين) بإطلاقه على الحال الغريبة الشأن لأنها بحيث تمثل للناس وتوضح وتشبه سواء شبهت كما هنا ، أم لم تشبه كما في قوله تعالى مثل الجنة . وإطلاقه على قول يصدر في حال غريبة فيحفظ ويشيع بين الناس لبلاغة وإبداع فيه ، فلا يزال الناس يذكرون الحال اننى قيل فيها ذلك القول تبعاً لذكره وكم من حالة عجيبة حدثت ونسيت لأنها لم يصدر فيها من قول بليغ ما يجعلها مذكورة تبعاً لذكره فيسمى مثلاً . وأمثال العرب باب من أبواب بلاغتهم وقد خصت بالتأليف ويعرفونه بأنه قول شبه مضر به بمورده وسأذكره قريباً .

فالظاهر أن إطلاق المثل على القول البديع السائر بين الناس الصادر من قائله في حالة عجيبة هو إطلاق مرتب على إطلاق اسم المثل على الحال العجيبة ، وأنهم لا يكادون يضربون مثلاً ولا يرونه أهلاً للتيسير وجديراً بالتداول إلا قولاً فيه بلاغة وخصوصية في فصاحة لفظ وإيجازه ووفرة معنى ، فالمثل قول عزيز غريب ليس من متعارف الأقوال العامة بل هو من أقوال فحول البلاغة فلذلك وصف بالغرابة^(١) أى العزة مثل قولهم « الصيف ضيعة اللين » وقولهم « لا يطاع لقصير أمر » وستعرف وجه ذلك .

ولما شاع إطلاق لفظ المثل (بالتحريك) على الحالة العجيبة الشأن جعل اللفاء إذا أرادوا تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة أعنى وصفين متزعين من متعدد أتوا في جانب المشبه والمشبه به معاً أو في جانب أحدهما بلفظ المثل وأدخلوا الكاف ونحوها من حروف التشبيه على المشبه به منهما ولا يطلقون ذلك على التشبيه البسيط فلا يقولون مثل فلان كبئله الأسد وقتلوا شهبوا حالاً مركبة بحال مركبة مقتصرين على الكاف كقوله تعالى « إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه » بل يذكرون لفظ المثل في الجانبين غالباً نحو الآية هنا ، وربما ذكروا لفظ

(١) أشرت بتفسير معنى الغرابة لدفع الجيرة الواقعة في المراد من قول صاحب الكشف « إلا قولاً فيه غرابة الخ » فقد فسرها الطيبي بغموض الكلام وكونه نادراً معنى ولفظاً وهذا لا يطرد وقد سكنت عنه الشارحان : السعد والسيد ، وقد حام حوله الخفاجي .

المثل في أحد الجانبين كقولهم إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء الآية وذلك ليتبادر للسامع أن المقصود تشبيه حالة بحالة لا ذات بذات ولا حالة بذات فصار لفظ المثل في تشبيه الهيئة منسياً من أصل وضعه ومستعملاً في معنى الحالة فلذلك لا يستغنون عن الإتيان بحرف التشبيه حتى مع وجود لفظ المثل فصارت الكاف في قوله تعالى «كمثل» دالة على التشبيه وليست زائدة كما زعمه الرضى في شرح الحاجبية ، وتبعه عبد الحكيم عند قوله تعالى «أو كصيب» وقوفاً مع أصل الوضع وإغضاء عن الاستعمال ألا ترى كيف استغنى عن إعادة لفظ المثل عند العطف في قوله تعالى أو كصيب ولم يستغن عن الكاف .

ومن أجل إطلاق لفظ المثل اقتبس علماء البيان مصطلحهم في تسمية التشبيه المركب بتشبيه التمثيل وتسمية استعمال المركب الدال على هيئة منتزعة من متعدد في غير ما وضع له مجموعته بملاقة المشابهة استعارة تمثيلية وقد تقدم الإلمام بشيء منه عند قوله تعالى «أولئك على هدى من ربهم» .

وإنني تتبعت كلامهم فوجدت التشبيه التمثيلي يمتريه ما يمتري التشبيه المفرد فيجىء في أربعة أقسام :

الأول ما صرح فيه بأداة التشبيه أو حذفت منه على طريقة التشبيه البليغ كما في هذه الآية وقوله «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى» إذا قدرنا أولئك كالذين اشتروا كما قدمنا .

الثاني ما كان على طريقة الاستعارة التمثيلية المصرحة بأن يذكر اللفظ الدال بالمطابقة على الهيئة المشبه بها ويحذف ما يدل على الهيئة المشبهة نحو المثال المشهور وهو قولهم : إنى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى .

الثالث تمثيلية مكنية وهي أن تشبه هيئة بهيئة ولا يذكر اللفظ الدال على الهيئة المشبه بها بل يرش إليه بما هو لازم مشتهر من لوازمه ، وقد كنت أعد مثالا لهذا النوع خصوص الأمثال المعروفة بهذا اللقب نحو الصيف ضيقت اللبن ويدي لا يبد عمرو ونحوها من الأمثال فإنها ألفاظ قيلت عند أحوال واشتهرت وسارت حتى صار ذكرها ينبيء بتلك الأحوال التي قيلت عندها وإن لم يذكر اللفظ الدال على الحالة ، وموجب شهرتها سيأتي ثم لم يحضرني مثال للمكنية التمثيلية من غير باب الأمثال حتى كان يوم حضرت فيه جنازة ، فلما

دفنوا الميت وفرغوا من مواراته التراب ضج أناس بقولهم : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة » فقلت إن الذين سنوا هذه المقالة في مثل هذه الحالة ما أرادوا إلا تنظير هيئة حفرهم للميت بهيئة الذين كانوا يحفرون الخندق مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ كانوا يكررون هذه المقالة كما ورد في كتب السنة قصداً من هذا التنظير أن يكون حفرهم ذلك شبيهاً بحفر الخندق في غزوة الأحزاب بجامع رجاء القبول عند الله تعالى فلم يذكرها ما يدل على التشبه به ولكنهم طووه ورمزوا إليه بما هو من لوازمه التي عرف بها وهو قول النبي تلك المقالة ثم ظفرت بقول أحمد بن عبدربه الأندلسي :

وَقُلْ لِمَن لَّامَ فِي التَّصَابِي خَلَّ قَلِيلاً عَنِ الطَّرِيقِ

فرايته من باب التمثيلية المكنية فإنه حذف التشبه به وهو حال المتعرض لسائر في طريقه يسده عليه وينعنه المرور به وأتى بشيء من لوازم هذه الحالة وهو قول السائر للمتعرض : خل عن الطريق .

رابعها تمثيلية تبعية كقول أبي عطاء السندی :

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيءُ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَلْتُ مَنِ الْمُتَقَفَّةُ السُّمُرُ

فأثبت النهل للرمح تشبيهاً لها بحالة الناهل فيما تصيبه من دماء الجرحى المرة بعد الأخرى كأنها لا يرويهما ما تصيبه أولاً ثم أتى بنهل على وجه التبعية، ومن هذا القسم عند التفترائي الاستمارة في (على) من قوله تعالى « أولئك على هدى من ربهم » وقد تقدم الكلام عليه هناك .

فأما المثل الذي هو قول شبه مضربه بمورده ، وهو الذي وعدت بذكره آنفاً فعني تشبيه مضربه بمورده أن تحصل حالة لها شبه بالحالة التي صدر فيها ذلك القول فيستحضر المتكلم تلك الحالة التي صدر فيها القول ويشبه بها الحالة التي عرضت وينطق بالقول الذي كان صدر في أثناء الحالة المشبه بها ليذكر السامع بتلك الحالة ، وبأن حالة اليوم شبيهة بها ويجعل علامة ذكر ذلك القول الذي قيل في تلك الحالة ؛ وإذا حققت التأمل وجدت هذا العمل من قبيل الاستمارة التمثيلية المكنية لأجل كون تلك الألفاظ المسماة بالأمثال قد سارت ونقلت بين البلغاء في تلك الحوادث فكانت من لوازم الحالات المشبه بها لا محالة لمقارنتها لها في أذهان الناس فهي

لوازم عرفية لها بين أهل الأدب فصارت من روادف أحوالها وكان ذكر تلك الأمثال رمزا إلى اعتبار الحالات التي قيلت فيها ، ومن أجل ذلك امتنع تغييرها عن ألفاظها الواردة بها لأنها إذا غيرت لم تبقى على ألفاظها المحفوظة الممهودة فيزول اقترانها في الأذهان بصورة الحوادث التي قيلت فيها فلم يعد ذكرها رمزا للحال المشبه به التي هي من روادفها لا محالة وفي هذا ما يغنى عن تطلب الوجه في احتراس العرب من تغيير الأمثال حتى تسلموا من الحيرة في الحكم بين صاحب الكشف وصاحب المفتاح إذ جعل صاحب الكشف سبب منع الأمثال من التغيير ما فيها من الغرابة فقال « ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتفسير ، ولا جديراً بالتداول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه ومن ثم حوفظ عليه وحمل من التغيير » فتردد شراحه في مراده من الغرابة، وقال الطيبي الغرابة غموض الكلام وندرته وذلك إما أن يكون بحسب المعنى وإما أن يكون بحسب اللفظ، أما الأول فكان يرى عليه أثر التناقض وما هو بتناقض نحو قول الحكم بن عبد يغوث: رب رمية من غير رام. أى رب رمية مصيبة من غير رام أى عارف وقوله تعالى « ولكم في القصص حياة » إذ جعل القتل حياة. وأما الثانى بأن يكون فيه ألفاظ غريبة لا تستعملها العامة نحو قول الحباب بن النذر « أنا جذياها المحكك وعذيقها المرجب »^(١) أو فيه حذف وإضمار نحو رمية من غير رام . أو فيه مشاكلة نحو : كما تدين تدان . أراد كما تفعل تجازى . وفسر بعضهم الغرابة بالبلاغة والفصاحة حتى صارت عجيبة وعندى أنه ما أراد بالغرابة إلا أن يكون قولاً بديعاً خاصياً إذ الغريب مقابل المألوف والغرابة عدم الإلف يريد عدم الإلف به في رفعة الشأن . وأما صاحب المفتاح فجعل منعها من التغيير لورودها على سبيل الاستعارة فقال : ثم إن التشبيه التمثيل متى شاع واشتهر استعماله على سبيل الاستعارة صار يطلق عليه المثل لا غير اه . وإلى طريقته مال التفتراني والسيد . وقد علمت سرها وشرحها فيما بيناه . ولورود الأمثال على سبيل الاستعارة

(١) الجذيل والعذيق - بوزن التصغير - فالجذيل تصغير جذل وهو أصل الشجرة ، والمحكك بصيغة اسم المفعول بمعنى المحكك عليه أى تتحكك عليه الإبل الجرباء فيصير صلباً بعد أن يزول قشره . والعذيق: تصغير عذق - بفتح العين - وهو النخلة، والمرجب بصيغة اسم المفعول الذى جعلته رجة - بضم الراء وسكون الجيم - وهى دعامة تبني حوله لئلا ينقع أسفله . وهو مثل يضرب لمن خبر الأمور وجربها حتى صار الناس يستشفون برأيه . قاله الصياد الأنصارى يوم السقيفة .

لا تغير عن لفظها الذى ورد فى الأصل تذكيراً وتأنيتاً وغيرها . فمعنى قولهم فى تعريف المثل بهذا الإطلاق « قول شبهه ضربه بمورده » أن ضربه هو الحالة المشبهة سميت مضرباً لأنها بمنزلة مكان ضرب ذلك القول أى وضعه أى النطق به يقال ضرب المثل أى شبه ومثل قال تعالى « أن يضرب مثلاما » وأما مورده فهو الحالة المشبهة بها وهى التى ورد ذلك القول أى صدر عند حدوثها ، سميت مورداً لأنها بمنزلة مكان الماء الذى يرده المستقون ، ويقال الأمثال السائرة أى الفاشية التى يتناقلها الناس ويتداولونها فى مختلف القبائل والبلدان فكأنها تسير من بلد إلى بلد . « والذى استوقد ناراً » مفرد مراد به مشبه واحد لأن مستوقد النار واحد ولا معنى لاجتماع جماعة على استيقاد نار ولا يريك كون الحالة المشبهة حالة جماعة المنافقين ، كأن تشبيه الهيئة بالهيئة إنما يتعلق بتصوير الهيئة المشبهة بها لا بكونها على وزن الهيئة المشبهة فإن المراد تشبيه حال المنافقين فى ظهور أثر الإيمان ونوره مع تعقبه بالضلالة ودوامه ، بحال من استوقد ناراً . واستوقد بمعنى أوقد فالسين والتاء فيه للتأكيد كما هما فى قوله تعالى « فاستجاب لهم ربهم » وقولهم استبان الأمر وهذا كقول بعض بنى بولان من طى فى الحماسة .

نَسْتَوْقِدُ النَّبْلَ بِالْحَضِيضِ وَنَصْ طَأَدُ نَفُوساً مُبْتً عَلَى الْكَرَمِ

أراد وقوداً يقع عند الرمح بشدة . وكذلك فى الآية لإيراد تمثيل حال المنافقين فى إظهار الإيمان بحال طالب الوقود بل هو حال الوقود .

وقوله :

﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾

مفرع على استوقد . ولما حرف يدل على وقوع شيء عند وقوع غيره فوقع جوابها مقارن لوقوع شرطها وذلك معنى قولهم حرف وجود لوجود أى حرف يدل على وجود الجواب لوجود شرطها أى أن يكون جوابها كالعلول لوجود شرطها سواء كان من ترتب المعلول على العلة أو كان ترتب المسبب العرفى على السبب أم كان ترتب المقارن على مقارنه الهيئة والمقارن الحاصل على سبيل المصادفة وكلها استعمالات واردة فى كلام العرب وفى القرآن . مثال ترتب المعلول على العلة لما تمفنت أخلاطه حُمٌ ، والمسبب على السبب، ولما

جاءت رسلنا لوطاً سئى بهم وضاق بهم ذرعاً، وقول عمرو بن معد يكرب :

لما رأيتُ نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
نازلتُ كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

ومثال المقارن المهيأ قول امرئ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحى واتحى بنا بطن خبت ذى حفاف عققل
هصرتُ بفوذى رأسها فمابلت على هضم الكشح رياءً المخلخل

ومثال المقارن الحاصل اتفاقاً لما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً وقوله، فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أخاه، فن ظن أن لما تؤذن بالسببية اغتراراً بقولهم وجود لوجود حملاً للآم فى عبارتهم على التعليل فقد ارتكب شططا ولم يجد من كلام الأئمة فرطاً.

وأضاء بجيء متمدياً وهو الأصل لأن مجرد ضاء فتكون حينئذ همزته للتعدي كقول أبي الطمحان القينى .

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى ثقب الجزع ثاقبه
وبجى قاصراً بمعنى ضاء فهمزته للصيرورة أى صار ذا ضوء فيساوى ضاء كقول امرئ القيس يصف البرق :

يُضيء سناءه أو مصابيح راهب آمال السليط بالذبال المقتل

والآية تحتلها أى فلما أضاءت النار الجهات التى حوله وهو معنى ارتفاع شمعها وسطوع لهبها ، فيكون ما حوله موصولاً مفعولاً لأضاءت وهو المتبادر . وتحتمل أن تكون من أضاء القاصر أى أضاءت النار أى اشتعلت وكثر ضوءها فى نفسها ، ويكون ما حوله على هذا ظرفاً للنار أى حصل ضوء النار حولها غير بعيد عنها . وحوله ظرف للمكان القريب ولا يلزم أن يراد به الإحاطة فتحوله هنا بمعنى لديه ومن توهم أن « ما حوله » يقتضى ذلك وقع فى مشكلات لم يجد منها مخلصاً إلا ببناء .

وجمع الضمير فى قوله « بنورهم » مع كونه بلسق الضمير المفرد فى قوله « ما حوله » مراعاة للحال المشبهة وهى حال المنافقين لا للحال المشبهة بها ؛ وهى حال المستوقد الواحد على وجه

بديع في الرجوع إلى الفرض الأصلي وهو انطماس نور الإيمان منهم، فهو عائذ إلى المنافقين لا إلى الذي، قريباً من رد العجز على الصدر فأشبهه تجريد الاستعارة المفردة وهو من التفنين كقول طرفة:

وفي الحى أحوى ينفض المرد شادن مظاهراً مغطى لؤلؤ وزبرجد

وهذا رجوع بديع، وقريب منه الرجوع الواقع بطريق الاعتراض في قوله الآتي «والله محيط بالكافرين». وحسنه أن التمثيل جمع بين ذكر المشبه وذكر المشبه به فالتكلم بالخيار في مراعاة كليهما لأن الوصف لهما فيكون ذلك البعض نوعاً واحداً في المشبه والمشبه به، فما ثبت للمشبه به يلاحظ كالثابت للمشبه. وهذا يقتضى أن تكون جملة ذهب الله بنورهم جواب (لما) فيكون جمع ضمائر بنورهم وتركهم إخراجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر إذ مقتضى الظاهر أن يقول ذهب الله بنوره وتركه، ولذلك اختير هنا لفظ النور عوضاً عن النار المبتدأ به، للتنبيه على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة ليدل على أن الله أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين، فهذا إيحاز بديع كأنه قيل فلما أضاءت ذهب الله بناره فكذلك ذهب الله بنورهم وهو أسلوب لا عهد للعرب بمثله فهو من أساليب الإيحاز. وقريب منه قوله تعالى «بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون». وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قل أولو جئكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون» فقوله «أرسلتم» حكاية لخطاب أقوام الرسل في جواب سؤال محمد صلى الله عليه وسلم قومه بقوله «أولو جئتمكم».

وبهذا يكون ما في هذه الآية موافقاً لما في الآية بعدها من قوله تعالى «يحملون أصابعهم في آذانهم» إذ يتعين رجوعه لبعض المشبه به دون المشبه. وجوز صاحب الكشف أن يكون قوله «ذهب الله بنورهم» استثناءً ويكون التمثيل قد انتهى عند قوله تعالى «فلما أضاءت ما حوله» ويكون جواب لما محذوفاً دلت عليه الجملة المستأنفة وهو قريب مما ذكرته إلا أن الاعتبار مختلف.

ومعنى ذهب الله بنورهم: أطفأ نارهم فبهر بالنور لأنه المقصود من الاستيقاد، وأسند إذهابه إلى الله تعالى لأنه حصل بلا سبب من ربح أو مطر أو إطفاء مطفىء، والعرب والناس يسندون الأمر الذي لم يتضح سببه لاسم الله تعالى كما تقدم عند قوله «ويدم في طغيانهم»

وذهب المدي بالباء أبلغ من أذهب المدي بالهمزة وهاته المبالغة في التعدية بالباء نشأت من أصل الوضع لأن أصل ذهب به أن يدل على أنهما ذهبا متلازمين فهو أشد في تحقيق ذهاب المصاحب كقوله « فلما ذهبوا به » وأذهب جعله ذاهبا بأمره أو إرساله فلما كان الذي يريد إذهاب شخص إذهابا لا شك فيه يتولى حراسة ذلك بنفسه حتى يوقن بحصول امتثال أمره صار ذهب به مفيدا معنى أذهب، ثم تنوسى ذلك بكثرة الاستعمال فقالوا ذهب به ونحوه ولو لم يضاحبه في ذهابه كقوله « يأتى بالشمس من المشرق » وقوله - « وجاء بكم من البدو » ثم جعلت الهمزة لجرد التعدية في الاستعمال فيقولون: ذهب القمار بمال فلان ولا يريدون أنه ذهب معه . ولكنهم تحفظوا ألا يستعملوا ذلك إلا في مقام تأكيد الإذهاب فبقيت المبالغة فيه . وضمير المفرد في قوله وما حوله مراعاة للحال المشبهة .

واختيار لفظ النور في قوله ذهب الله بنورهم دون الضوء ودون النار لأن لفظ النور أنسب؛ لأن الذى يشبه النار من الحالة المشبهة هو مظاهر الإسلام التى يظهرونها وقد شاع التعبير عن الإسلام بالنور فى القرآن فصار اختيار لفظ النور هنا بمنزلة تجريد الاستعارة لأنه أنسب بالحال المشبهة ، وعبر عما يقابله فى الحال المشبهة بلفظ يصلح لهما أو هو بالمشبهة أنسب فى اصطلاح المتكلم كما قدمنا الإشارة إليه فى وجه جمع الضمير فى قوله « بنورهم » .

﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ 17

هذه الجملة تتضمن تقريراً المضمون ذهب الله بنورهم لأن من ذهب نوره بقى فى ظلمة لا يبصر ، والقصد منه زيادة إيضاح الحالة التى صاروا إليها فإن للدلالة الصريحة من الارتسام فى ذهن السامع ما ليس للدلالة الضمنية فإن قوله ذهب الله بنورهم يفيد أنهم لما استيقنوا نارا فانطفأت انعدمت الفائدة وخابت المساعي ولكن قد يذهل السامع عما صاروا إليه عند هاته الحالة فيكون قوله بعد ذلك « وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » تذكيراً بذلك وتنبهاً إليه . فإنهم لا يقصدون من البيان إلا شدة تصوير المعانى ولذلك يطنبون ويشبهون ويمثلون ويصفون المعرفة ويأتون بالحال ويمددون الأخبار والصفات فهذا إطناب بديع كما فى قول طرفة :

ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح إلينا بين برد ومجسد

فإن قوله روح إلينا الخ لا يفيد أكثر من تصوير حالة القينة وتحسين منادمتها . وتفيد هذه الجملة أيضا أنهم لم يعودوا إلى الاستنارة من بعد ، على ما في قوله وتركهم من إفادة تحقيرهم ، وما في جمع ظلمات من إفادة شدة الظلمة وهي فائدة زائدة على ما استفيد ضمنا من جملة ذهب الله بنورهم وما يقتضيه جمع ظلمات من تقدير تشبيهات ثلاثة لضلالات ثلاث من ضلالاتهم كما سيأتي . وبهذا الاعتبار الزائد على تقرير مضمون الجملة قبلها عطفت على الجملة ولم تفصل .

وحقيقة الترك مفارقة أحد شيئا كان مقارنا له في موضع وإبقاؤه في ذلك الموضع . وكثيرا ما يذكرون الحال التي ترك الفاعل الفعول عليها ، وفي هذا الاستعمال يكثر أن يكون مجازا عن معنى صَيَّرَ أو جَعَلَ . قال النابغة :

فلا تتركني بالوعيد كأني إلى الناس مطلي به القار أجرب

أي لاتصيرني بهذه المشابهة ، وقول عنترة :

جاءت عليه كل عين ثرة فترك كل قرارة كالدرهم

يريد صيرن ، والأكثر أن يكنى به في هذا الاستعمال عن الزهادة في مفعوله كما في بيت النابغة ، أو عن تحقيره كما في هذه الآية .

والفرق بين ما يعتبر فيه معنى صَيَّرَ حتى يكون منصوبه الثاني مفعولا ، وما يعتبر المنصوب الثاني معه حالا ، أنه إن كان القصد إلى الإخبار بالتخلية والتنحي عنه فالمنصوب الثاني حال وإن كان القصد أولا إلى ذلك المنصوب الثاني وهو محل الفائدة فالمنصوب الثاني مفعول وهو في معنى الخبر فلا يحتمل واحد منهما غير ذلك معنى وإن احتمله لفظا .

وجمع ظلمات لقصد بيان شدة الظلمة كقوله تعالى « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » وقول النبي صلى الله عليه وسلم « الظلم ظلمات يوم القيامة » فإن السكثرة لما كانت في العرف سبب القوة أطلقوها على مطلق القوة وإن لم يكن تعدد ولا كثرة مثل لفظ كثير كما يأتي عند قوله تعالى « وادعوا ثبورا كثيرا » في سورة الفرقان ، ومنه ذكر ضمير الجمع للتعظيم ، للواحد ، وضمير التكلم ومعه غيره للتعظيم ، وصيغة الجمع من ذلك القبيل ، قيل لم يرد في القرآن ذكر الظلمة مفردا ، ولعل لفظ ظلمات أشهر إطلاقا في فصيح الكلام وسيأتي بيان هذا عند قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » في سورة الأنعام بخلاف قوله تعالى

« في ظلمات ثلاث » فإن التعدد مقصود بقرينة وصفه بثلاث . ولكن بلاغة القرآن وكلام الرسول عليه السلام لا تسمح باستعمال جمع غير مراد به فائدة زائدة على لفظه المفرد ، ويتعين في هذه الآية أن جمع ظلمات أشير به إلى أحوال من أحوال المنافقين كل حالة منها تصلح لأن تشبه بالظلمة وتلك هي : حالة الكفر ، وحالة الكذب ، وحالة الاستهزاء بالمؤمنين ، وما يتبع تلك الأحوال من آثار النفاق . وهذا التمثيل تمثيل لحال المنافقين في ترددهم بين مظاهر الإيمان وبواطن الكفر فوجه الشبه هو ظهور أمر نافع ثم انعدامه قبل الانتفاع به ، فإن في إظهارهم الإسلام مع المؤمنين صورة من حسن الإيمان وبشاشته لأن للإسلام نورا وبركة ثم لا يلبثون أن يرجعوا عند خلوم بشياطينهم فيزول عنهم ذلك ويرجعوا في ظلمة الكفر أشد مما كانوا عليه لأنهم كانوا في كفر فصاروا في كفر وكذب وما يتفرع عن النفاق من المذام ، فإن الذي يستوقد النار في الظلام يتطلب رؤية الأشياء فإذا انطفأت النار صار أشد حيرة منه في أول الأمر لأن ضوء النار قد عودَ بصره فيظهر أثر الظلمة في المرة الثانية أقوى ويرسخ الكفر فيهم . وبهذا تظهر نكتة البيان بجملة «لا يبصرون» لتصوير حال من انطفأ نورُه بعد أن استضاء به .

ومفعول لا يبصرون محذوف لقصد عموم نفي البصرات فنزل الفعل منزلة اللازم . ولا يقدَّر له مفعول كأنه قيل لا إحساس بصر لهم ، كقول البحترى :

شَجَوُ حَسَادِهِ وَغِيْظُ عَدَائِهِ أَنْ يَرَى مَبْصَرُهُ وَيَسْمَعَ وَاعٍ

وقد أجمل وجه الشبه في تشبيه حال المنافقين اعتمادا على فطنة السامع لأنه يَمْتَحِنُهُ من مجموع ما تقدم من شرح حالهم ابتداء من قوله « ومن الناس من يقول آمنا بالله » إلخ . ومما يتضمنه الثلثان من الإشارة إلى وجوه المشابهة بين أجزاء أحوالهم وأجزاء الحالة المشبه بها . فإن إظهارهم الإيمان بقولهم « آمنا بالله » وقولهم « إنما نحن مصلحون » وقولهم عند لقاء المؤمنين « آمنا » أحوالهم ومظاهر حسنة تلوح على المنافقين حينما يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم حينما يتظاهرون بالإسلام والصلاة والصدقة مع المسلمين ويصدر منهم طيب القول وقويم السلوك وتشرق عليهم الأنوار النبوية فيسكاد نور الإيمان يحترق إلى نقوسهم ولكن سرعان ما يعقب تلك الحالة الطيبة حالة تضادها عند انقضاءهم عن تلك المجالس الزكية وخلصهم إلى بطانتهم من كبرائهم أو من أتباعهم فتعاودهم الأحوال الذميمة

من محاولة الكفر وخداع المؤمنين والحقده عليهم والاستهزاء بهم ووصفهم بالسفه ، مثل ذلك التظاهر وذلك الانقلاب بحال الذي استوقد ناراً ثم ذهب عنه نورها . ومن بدائع هذا التمثيل أنه مع ما فيه من تركيب الهيئة الشبه بها ومقابلتها للهيئة المركبة من حالم هو قابل لتحليله بتشبيهات مفردة لكل جزء من هيئة أحوالهم بجزء مفرد من الهيئة الشبه بها فشبّه استماعهم القرآن باستيقاد النار ، ويتضمن تشبيه القرآن في إرشاد الناس إلى الخير والحق بالنار في إضاءة المسالك للسالكين ، وشبه رجوعهم إلى كفرهم بذهاب نور النار ، وشبه كفرهم بالظلمات ، وشبهون يقوم انقطع إبصارهم .

﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ١٨

أخبار لمبتدأ محذوف هو ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير « مثلهم » ولا يصح أن يكون عائداً على الذي استوقد لأنه لا يلتزم به أول التشبيه وآخره لأن قوله « قتل الذي استوقد ناراً » يقتضي أن المستوقد ذو بصر وإلا لما تأتى منه الاستيقاد ، وحذف السند إليه في هذا المقام استعمال شائع عند العرب إذا ذكروا موصوفاً بأوصاف أو أخبار جملوه كأنه قد عُرف السامع فيقولون : فلان أوفى أو رجل أو نحو ذلك على تقدير هو فلان . ومنه قوله تعالى « جزاء من ربك عطاءً حساباً ربُّ السماوات والأرض وما بينهما » التقدير هو رب السماوات عدل عن جعل رب بدلاً من ربك ، وقول الحماسي (١) :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلت

فتى غير محبوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

وسمى السكاكي هذا الحذف « الحذف الذي اتبع فيه الاستعمال الوارد على تركه » . والإخبار عنهم بهذه الأخبار جاء على طريقة التشبيه البليغ شبهوا في انعدام آثار الإحساس منهم بالصمم البكم العمى أى كل واحد منهم اجتمعت له الصفات الثلاث وذلك شأن الأخبار الواردة بصيغة الجمع بعد مبتدأ هو اسم دال على جمع ، فالمنى كل واحد منهم كالأصم الأبكم

(١) من الحماسة في باب الأضياف غير منسوب ، ونسبه الشريف المرتضى في أماليه لإبراهيم بن العباس الصولي . وقيل لعبد الله بن الزبير . وقيل لمحمد بن سعيد الكاتب ، وعمرو المذكور هو عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق .

الأعمى وليس المعنى على التوزيع فلا يفهم أن بعضهم كالأصم وبعضهم كالأبكم وبعضهم كالأعمى، وليس هو من الاستعارة عند محقق أهل البيان . قال صاحب الكشف « فإن قلت هل يسمى ما في الآية استعارة قلت مختلف فيه والمحققون على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون اهـ » أى لأن الاستعارة تعتمد على لفظ المستعار منه أو المستعار له . في جملة الاستعارة فتى ذكرنا معا فهو تشبيه ، ولا يضر ذكر لفظ المستعار له في غير جملة الاستعارة لظهور أنه لولا العلم بالمستعار له في الكلام لما ظهرت الاستعارة ولذلك اتفقوا على أن قول ابن العميد :

قامت تظللني من الشمس نفسٌ أعزُّ عليّ من نفسي

قامت تظللني ومن عجب شمسٌ تظللني من الشمس

أن قوله شمس استعارة ولم ينعهم من ذلك ذكر المستعار له قبل في قوله نفس أعز ، وضميرها في قوله قامت تظللني وكذا إذا كان لفظ المستعار غير مقصود ابتداء التشبيه عليه لم يكن مانعا من الاستعارة كقول أبي الحسن ابن طباطبآ :

لا تعجبوا من بلى غلاته قد زرّ أزراره على القمر

فإن الضمير لم يذكر لينبئ عليه التشبيه بل جاء التشبيه عقبه .

والصم والبكم والعمى جمع أصم وأعمى وأبكم وهم من اتصف بالصم والبكم والعمى . فالصم انعدام إحساس السمع عن من شأنه أن يكون سميا ، والبكم انعدام النطق عن من شأنه النطق ، والعمى انعدام البصر عن من شأنه الإبصار .

وقوله « فهم لا يرجعون » تفریع على جملة « صم بكم عمى » لأن من اعتراه هذه الصفات انعدم منه الفهم والإفهام وتعذر طمع رجوعه إلى رشد أو صواب . والرجوع الانصراف من مكان حلول ثاب إلى مكان حلول أول وهو هنا مجاز في الإقلاع عن الكفر .

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾

عطف على التمثيل السابق وهو قوله « كمثل الذي استوقد نارا » أعيد تشبيه حالهم بتمثيل آخر وبمراعاة أوصاف أخرى فهو تمثيل لحال المنافقين المختلطة بين جواذب ودوافع

حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده ، وجاذب الشر من أعراق النفوس والسخرية بالمسلمين ، بحال صيب من السوء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزيجات وأكدار ، جاء على طريقة بلغاء العرب في التفنن في التشبيه وهم يتنافسون فيه لا سيما التمثيل منه وهى طريقة تدل على تمكن الواصف من التوصيف والتوسع فيه .
وقد استقرت من استمالمهم فرأيتهم قد يسلكون طريقة عطف تشبيه على تشبيه كقول امرئ القيس في معلقته :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلع اليدين في حبيّ مُكَلَّل
يضي سناه أو مصايح راهب أَمال السليط بالذبال المُقَتَّل
وقول لبيد في معلقته يصف راحلته :

فلها هباب في الزمام كأنها صهباء خفّ مع الجنوب جهامها
أو مُلمِع وسقت لأحقب لآحه طردُ الفحول وضرُّها وكدامها^(١)

وكثر أن يكون العطف في نحوه بأو دون الواو ، وأو موضوعة لأحد الشئيين أو الأشياء فيتولد منها معنى التسوية وربما سلكوا في إعادة التشبيه مسلك الاستفهام بالهمزة أى لتختار التشبيه بهذا أم بذلك وذلك كقول لبيد عقب البيتين السابق ذكرهما :

أفئك أم وخشية مسبوعة خذلت وهادية الصّوار قوامها^(٢)

وقال ذو الرمة في تشبيه سير ناقته الحثيث :

وثبّ المسحج من عاناتٍ مَعْقَلَةٍ كأنّه مستبان الشكّ أو جنبُ

(١) الهباب - بكسر الهاء - مصدر كالمبوب وهو النهوض والنشاط. والصهباء : السحابة المائل لونها للسواد . والجهام : السحاب لا مطر فيه وهو خفيف السير . والملمع : الذى استبان حملها ، وأراد الأتان ووسقت : حملت . والأحقب : هو حمار الوحش وقوله لأحقب أى من أحقب . ولاحه : غيره . وطرده الفحول : خصامها . والكدام - بكسر الكاف - العض .

(٢) المسبوعة : التى أكل السبع ولدها . وخذلت بمعنى تأخرت عن صوابها في الرواح . وهادية المتقدمة . والصّوار - بكسر الصاد - قطيع الغنم . والقوام - بكسر القاف - ما به يقوم الأمر أى تأخرت النعجة الوحشية ولم تهتد بمقدمة القطيع .

ثم قال :

أَذَاكَ أَمْ نَعِشُ بِالْوَشْيِ أَكْرُهُ مَسْفَعُ الْخَدِّ غَادٍ نَاشِعُ شَبَبُ

ثم قال :

أَذَاكَ أَمْ خَاضِبُ بَالِسَى مَرْتَعُهُ أَبُو ثَلَاثِينَ أُمْسَى وَهُوَ مُنْقَلَبُ (١)

وربما عطفوا بالواو كما في قوله تعالى « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون » الآية ثم قال « وضرب الله مثلا رجلين » الآية . وقوله « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور » الآية . بل وربما جمعوا بلا عطف كقوله تعالى « حتى جعلناهم حصيداً خامدين » . وهذه تفننات جميلة في الكلام البليغ فما ظنك بها إذا وقعت في التشبيه التمثيلي فإنه لعزته مفرداً تمز استطاعةً تسكريه .

وأوعظت لفظ صيب على الذي استوقد بتقدير مثل بين الكاف وصيب . وإعادة حرف التشبيه مع حرف المطف المغنى عن إعادة العامل، وهذا التكرير مستعمل في كلامهم وحسنه هنا أن فيه إشارة إلى اختلاف الحالين المشبهين كما سنبينه وهم في الغالب لا يكررونه في المطف .

والتمثيل هنا لحال النافقين حين حضورهم مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماعهم القرآن وما فيه من آى الوعيد لأمثالهم وآى البشارة ، فالغرض من هذا التمثيل تمثيل حالة مغايرة للحالة التى مُثِّلَتْ فى قوله تعالى « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِّى اسْتَوْقَدَ » بنوع إطلاق وتقييد .

فقوله « أَوْ كَصِيبٍ » تقديره أو كفريق ذى صيب أى كقوم على نحو ما تقدم فى قوله « كَمَثَلِ الذِّى اسْتَوْقَدَ » دل على تقدير قوم قوله « يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ » وقوله

(١) قوله أذاك: الإشارة إلى حار الوحش فى الآيات قبله، وهو الذى أراد به المسحج . والمسحج : المكدوم وهو من الصفات الغالبة على حار الوحش لأنه لا يخلو عن كدما فى جلده من العراك مع الحر، والنش - بكسر الميم - الذى به النمش يفتحها وهو نقط بيض وسود، وأراد به الثور الوحشى . والوشى : الخطيط . والسفع : الأسود . والشب : المسن من ثيران الوحش . وقوله خاضب أراد ذكر النعام فإنه إذا أكل بقل الربيع احمرت ساقه . والسى - بكسر السين وتشديد الياء - المستوى من الأرض . وأبو ثلاثين أى له ثلاثون فرخا وذلك عدد ما يبيض النعام . ومنقلب : راجع لفراخه فهو شديد السير .

« يخطف أبصارهم » الآية . لأن ذلك لا يصح عوده إلى المنافقين فلا ينبغي فيه ما جاز في قوله « ذهب الله بنورهم » الخ . فشبهت حال المنافقين بحال قوم سائرين في ليل بأرض قوم أصابها الغيث وكان أهلها كائنين في مساكنهم كما علم ذلك من قوله « كما أضاء لهم مشوا فيه » . فذلك الغيث نفع أهل الأرض ولم يصبهم مما اتصل به من الرعد والصواعق ضر ولم ينفع المارين بها وأضر بهم ما اتصل به من الظلمات والرعد والبرق ، فالصيب مستعار للقرآن وهدى الإسلام وتشبيهه بالغيث وارد . وفي الحديث الصحيح « مثل ما بعتني الله به من الهدى كمثل الغيث أصاب أرضا فكان منها نقية » الخ . وفي القرآن « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » . ولا تجد حالة صالحة لتمثيل هيئة اختلاط نفع وضر مثل حالة المطر والسحاب وهو من بدیع التمثيل القرآني، ومنه أخذ أبو الطيب قوله :

فتى كالسحاب الجون يُرجى ويُتقى يُرجى الحياء منه وتُخشى الصواعق

والظلمات مستعار لما يعتري الكافرين من الوحشة عند مماته كما تعتري السائر في الليل وحشة النيم لأنه يحجب عنه ضوء النجوم والقمر . والرعد لقوارع القرآن وزواجره . والبرق لظهور أنوار هديه من خلال الزواجر فظهر أن هذا المركب التمثيلي صالح لاعتبارات تفريق التشبيه وهو أعلى التمثيل .

والصيب فيعمل من صاب يصوب صوباً إذا نزل بشدة ، قال الرزوقي إن ياءه للنقل من المصدرية إلى الاستمية فهو وصف للمطر بشدة الظلمة الحاصلة من كثافة السحاب ومن ظلام الليل . والظاهر أن قوله من السماء ليس بقيد للصيب وإنما هو وصف كاشف جيء به لزيادة استحضر صورة الصيب في هذا التمثيل إذ المقام مقام إطناب كقول امرئ القيس :

* جلمود صخر حطه السيل من عل *

إذ قد علم السامع أن السيل لا يحط جلمود صخر إلا من أعلى ولكنه أراد التصوير ، وكقوله تعالى « ولا طائر يطير بجناحيه » ، وقوله « كالذي استهوته الشياطين في الأرض » وقال تعالى « فأُمطر علينا حجارة من السماء » .

والسحاب تطلق على الجو المرتفع فوقنا الذي نخاله قبة زرقاء، وعلى الهواء المرتفع قال تعالى « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء » وتطلق على السحاب، وتطلق على المطر

نفسه في الحديث: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إثر سماء الخ ، ولما كان تكوّن المطر من الطبقة الزهريرية المرتفعة في الجو جعل ابتداءه من السماء وتكرر ذلك في القرآن .

ويمكن أن يكون قوله « من السماء » تقييدا للصيب إما بمعنى من جميع أقطار الجو إذا قلنا إن التعريف في السماء للاستغراق كما ذهب إليه في الكشف على بعد فيه إذ لم يعهد دخول لام الاستغراق إلا على اسم كلّي ذى أفراد دون اسم كل ذى أجزاء فيحتاج لتزليل الأجزاء منزلة أفراد الجنس ولا يعرف له نظير في الاستعمال فالذى يظهر لى إن جعلنا قوله « من السماء » قيّداً للصيب أن المراد من السماء أعلى الارتفاع والمطر إذا كان من سمت مقابل وكان عالياً كان أدوم بخلاف الذى يكون من جوانب الجو ويكون قريباً من الأرض غير مرتفع . وضمير « فيه » عائد إلى صيب والظرفية مجازية بمعنى معه ، والظلمات مضى القول فيه آتفا والمراد بالظلمات ظلام الليل أى كسحاب في لونه ظلمة الليل وسحابة الليل أشد مطراً وبرقا وتسمى سارية . والرعد أصوات تنشأ في السحاب . والبرق لامع نارى مضى يظهر في السحاب ، والرعد والبرق ينفشان في السحاب من أثر كهربائى يكون في السحاب فإذا تكاثفت سحبان في الجو إحداهما كهرباؤها أقوى من كهرباء الأخرى وتحاكّتا جذبت الأقوى منهما الأضعف فحدث بذلك انشقاق في الهواء بشدة وسرعة فحدث صوت قوى هو السمي الرعد وهو فرقة هوائية من فعل الكهرباء ، ويحصل عند ذلك التقاء الكهرباءين وذلك يسبب انقذاح البرق . وقد علمت أن الصيب تشبيه للقرآن وأن الظلمات والرعد والبرق تشبيه لنوازع الوعيد بأنها تسر أقواما وهم المتنفعون بالنيث وتسوء المسافرين غير أهل تلك الدار ، فكذلك الآيات تسر المؤمنين إذ يجدون أنفسهم ناجين من أن تحق عليهم وتسوء المنافقين إذ يجدونها منطبقة على أحوالهم .

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
 بِالْكَافِرِينَ¹⁹ يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا
 أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ²⁰﴾

الأظهر أن تكون جملة « يجعلون » حالا اتضح بها المقصود من الهيئة المشبه بها لأنها كانت جملة ، وأما جملة « يكاد البرق » فيجوز كونها حالا من ضمير يجعلون ، لأن بها كمال إيضاح الهيئة المشبه بها ويجوز كونها استثناء لبيان حال الفريق عند البرق نشأ عن بيان حالهم عند الرعد . وجملة « كلما أضاء لهم مشوا فيه » حال من البرق أو من ضمير أبصارهم لا غير ، وفي هذا تشبيه لجزع المنافقين من آيات الوعيد بما يعترى القائم تحت السماء حين الرعد والبرق والظلمات فهو يخشى استكالك سمعه ويخشى الصواعق حذر الموت ويعشيه البرق حين يلمع بإضاءة شديدة ويعمى عليه الطريق بعد انقطاع لمعانه . وقوله « كلما أضاء لهم » تمثيل لحال حيرة المنافقين بحال حيرة السائرين في الليل المظلم المرعد المبرق .

وقوله « والله محيط بالكافرين » اعتراض للتذكير بأن المقصود التمثيل لحال المنافقين في كفرهم لا لمجرد التنفن في التمثيل . وقوله « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » رجوع إلى وعيد المنافقين الذين هم المقصود من التمثيل فالضمائر التي في جملة « ولو شاء الله » راجعة إلى أصل الكلام ، وتوزيع الضمائر دل عليه السياق .

فعبّر عن زواجر القرآن بالصواعق وعن انحطاط قلوب المنافقين وهي البصائر عن قرار نور الإيمان فيها بخطف البرق للأبصار ، وإلى نحو من هذا يشير كلام ابن عطية نقلا عن جمهور المفسرين وهو مجاز شائع ، يقال فلان يرعد ويبرق ، على أن بناءه هنا على المجاز السابق يزيده قبولا ، وعبر عما يحصل للمنافقين من الشك في صحة اعتقادهم بمشي الساري في ظلمة إذا أضاء له البرق ، وعن إفلاهم عن ذلك الشك حين رجوعهم إلى كفرهم بوقوف الماشي عند انقطاع البرق على طريقة التمثيل ، وخلل ذلك كله تهديد لا يناسب إلا المشبهين وهو

ما أفاده الاعتراض بقوله « والله محيط بالكافرين » وقوله « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » فجاء بهذه الجمل الحالية والمستأنفة تنبيها على وجه الشبه وتقريراً لقوة مشابهة الزواجر وآيات الهدى والإيمان بالرعد والبرق في حصول أثرى النفع والضرر عنهما مع تفنن في البلاغة وطرائق الحقيقة والمجاز . وجعل في الكشف الجمل الثلاث مستأنفا بعضها عن بعض بأن تكون الأولى استثنافاً عن جملة « أو كصيب » والثانية وهي « يكاد البرق » مستأنفة عن جملة « يجمعون » لأن الصواعق تستلزم البرق، والثالثة وهي « كلما أضاء لهم مشوا » مستأنفة عن قوله « يكاد البرق » والمعنى عليه ضعيف وهو في بعضها أضعف منه في بعض كما أشرنا إليه آنفاً .

والجمل والأصابع مستعملان في حقيقتهما على قول بعض المفسرين لأن الجمل هو هنا بمعنى النوط، والظرفية لا تقتضى الإحاطة فجعل بعض الإصبع في الأذن هو جمل للإصبع فتمثل بعض علماء البيان بهذه الآية للمجاز الذى علاقته الجزئية تسامح ولذلك عبر عنه صاحب الكشف بقوله هذا من الاتساعات في اللغة التى لا يكاد الحاصر يحصرها كقوله « فاعسلوا وجوهكم » « فاقطعوا أيديهم » ومنه قولك مسحت بالنديل ، ودخلت البلد، وقيل ذلك مجاز في الأصابع، وقيل مجاز في الجمل ولما شاء أن يجعله مجازاً في الظرفية فتكون تبعية لكلمة في . ومن في قوله « من الصواعق » للتعليل أى لأجل الصواعق إذ الصواعق هى علة جعل الأصابع في الآذان ولا خير في كون الجمل لاتقاءها حتى يقال يلزم تقدير مضاف نحو ترك واتقاء إذ لا داعى إليه، ونظير هذا قولهم سقاه من العيمة (بفتح العين وسكون الياء وهى شهوة اللبن) لأن العيمة سبب السقى والمقصود زوالها إذ المفعول لأجله هو الباعث وجوده على الفعل سواء كان مع ذلك غاية للفعل وهو الغالب أم لم يكن كما هنا .
والصواعق جمع صاعقة وهى نار تندفع من كهربائية الأسحبة كما تقدم آنفاً . وقوله « خذ الموت » مفعول لأجله وهو هنا علة وغاية مما .

ومن بديع هذا التمثيل أنه مع ما احتوى عليه من مجموع الهيئة المركبة الشبه بها حال المنافقين حين منازعة الجواذب لنفوسهم من جواذب الاهتداء وترقيتها ما يفاض على نفوسهم من قبول دعوة النبىء وإرشاده مع جواذب الإصرار على الكفر وذبيهم عن أنفسهم أن يعلق بها ذلك الإرشاد حينما يخلون إلى شياطينهم ، هو مع ذلك قابل لتفريق التشبيه في

في مفرداته إلى تشابه مفردة بأن يشبه كل جزء من مجموع الهيئة المشبهة لجزء من مجموع هيئة قوم أصابهم صيب معه ظلمات ورعد وصواعق لا يطيقون سماع قصصها ويخشون الموت منها وبرق شديد يكاد يذهب بأبصارهم وهم في حيرة بين السير وتركه . وقوله « والله عيظ بالكافرين » اعتراض راجع للمنافقين إذ قد حق عليهم التمثيل واتضح منه حالهم فكان أن ينبه على وعيدهم وتهديدهم وفي هذا رجوع إلى أصل الغرض كالرجوع في قوله تعالى « ذهب الله بنورهم وتركهم » الخ كما تقدم إلا أنه هنا وقع بطريق الاعتراض .

والإحاطة استعارة للقدرة الكاملة شبت القدرة التي لا يفوتها المقدور بإحاطة المحيط بالمحاط على طريقة التبعية أو التمثيلية وإن لم يذكر جميع ما يدل على جميع المركب الدال على الهيئة المشبهة بها وقد استعمل هذا الخبر في لازمه وهو أنه لا يفلتهم وأنه يجازيهم على سوء صنعمهم .

والخطف الأخذ بسرعة .

وكما كلمة تفيد عموم مدخولها ، وما كافة لكل عن الإضافة أو هي مصدرية ظرفية أو نكرة موصوفة فالعموم فيها مستفاد من كلمة كل .

وذكر كلما في جانب الإضاءة وإذا في جانب الإظلام لدلالة كلما على حرصهم على المشي وأنهم يترصدون الإضاءة فلا يفيتون زمنا من أزمان حصولها ليتبينوا الطريق في سيرهم لشدة الظلمة . وأضاء فعل يستعمل قاصرا ومتعديا باختلاف المعنى كما تقدم في قوله « فلما أضاءت ماحوله » . وأظلم يستعمل قاصرا كثيرا ويستعمل متعديا قليلا والظاهر أن أضاء هنا متعد ففعلول أضاء محذوف لدلالة مشوا عليه وتقديره المشي أو الطريق أي أضاء لهم البرق الطريق وكذلك أظلم أي وإذا أظلم عليهم البرق الطريق بأن أمسك وميضه فإسناد الإظلام إلى البرق مجاز لأنه تسبب في الإظلام . ومعنى القيام عدم المشي أي الوقوف في الموضع .

وقوله تعالى « ولو شاء الله لذهب بسنعمهم وأبصارهم » مفعول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه وذلك شأن فعل المشيئة والإرادة ونحوهما إذا وقع متصلا بما يصلح لأن يدل على مفعوله مثل وقوعه صلة لموصول يحتاج إلى خبر نحو ما شاء الله كان أي ما شاء كونه كان ومثل وقوعه شرطا للوظهور أن الجواب هو دليل المفعول وكذلك إذا كان في الكلام السابق قبل فعل المشيئة ما يدل على مفعول الفعل نحو قوله تعالى « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله »

قال الشيخ في دلائل الإعجاز: إن البلاغة في أن يجاء به كذلك محذوفا وقد يتفق في بعضه أن يكون إظهار المفعول هو الأحسن وذلك نحو قول الشاعر (هو إسحاق الخريمي مولى بني خريم من شعراء عصر الرشيد يرثى أبا الهيثم الخريمي حفيده ابن ابن عمارة)

ولو شئتُ أن أبكي دما لبكيتَه عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وسبب حسنه أنه كأنه بدع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دما فلما كان كذلك كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره في نفس السامع الخ كلامه وتبعه صاحب الكشاف وزاد عليه أنهم لا يحذفون في الشيء المستغرب إذ قال لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب الخ وهو مؤول بأن مراده أن عدم الحذف حينئذ يكون كثيرا. وعندى أن الحذف هو الأصل لأجل الإيجاز فالبلغ تارة يستغنى بالجواب فيقصد البيان بعد الإبهام وهذا هو الغالب في كلام العرب، قال طرفة: وإن شئت لم ترقل وإن شئت أركلت. وتارة يبين بذكر الشرط أساس الإضمار في الجواب نحو البيت وقوله تعالى «لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه» ويحسن ذلك إذا كان في المفعول غرابة فيكون ذكره لا ابتداء تقريره كما في بيت الخريمي والإيجاز حاصل على كل حال لأن فيه حذفاً إما من الأول أو من الثاني. وقد يوهى كلام أئمة المعاني أن المفعول الغريب يجب ذكره وليس كذلك فقد قال الله تعالى «قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة» فإن إنزال الملائكة أمر غريب قال أبو العلاء المعري.

وإن شئتَ فازعُمنَّ من فوقَ ظهريها عبيدُك واستشهد إلهك يشهد

فإن زعم ذلك زعم غريب.

والضمير في قوله «يسمعهم وأبصارهم» ظاهره أن يعودوا إلى أصحاب الصيب المشبه بحال المنافقين لأن الإخبار بإمكان إتلاف الأسماع والأبصار يناسب أهل الصيب المشبه بحالهم بمقتضى قوله «يكاد البرق يخطف أبصارهم» وقوله «يجعلون أصابعهم في آذانهم» والمقصود أن الرعد والبرق الواقعين في الهيئة المشبه بها هما رعد وبرق بلغا منتهى قوة جنسيهما بحيث لا يمنع قصيف الرعد من إتلاف أسماع سامعيه ولا يمنع وميض البرق من إتلاف أبصار ناظريه إلا مشيئة الله عدم وقوع ذلك لحكمة وفائدة ذكر هذا في الحالة المشبهة بها أن يسرى نظيره في الحالة المشبهة وهي حالة المنافقين فهم على وشك انعدام الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم انهداما تاما من كثرة عنادهم وإعراضهم عن الحق إلا أن الله لم يشأ ذلك استدراجا لهم وإملاء ليزدادوا

إنما أو تلوما لهم وإعذارا لعل منهم من يثوب إلى الهدى وقد صيغ هذا المعنى في هذا الأسلوب لما فيه من التوجيه بالتهديد لهم أن يذهب الله سمعهم وأبصارهم من تفاههم إن لم يبتدروا الإفلاخ عن النفاق وذلك يكون له وقع الرعب في قلوبهم كما وقع لعتبة بن ربيعة لما قرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم « قُلْ أُنذِرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » .

فليس المقصود من اجتلاب لو في هذا الشرط إفادة ما تقتضيه لو من الامتناع لأنه ليس المقصود الإعلام بقدرة الله على ذلك بل المقصود إفادة لازم الامتناع وهو أن توفر أسباب إذهاب البرق والرعد أبصارهم الواقفين في التمثيل متوفرة وهي كفران النعمة الحاصلة منهما إذ إنما رزقوها للتبصر في الآيات الكونية وسماع الآيات الشرعية فلما أعرضوا عن الأمرين كانوا أحرىء بسلب النعمة إلا أن الله لم يشأ ذلك إمهالا لهم وإقامة للحجة عليهم فكانت لو مستعملة مجازاً مرسلًا في مجرد التعليق إظهارا لتوفر الأسباب لولا وجود المانع على حد قول أبي بن سُلَيم بن ربيعة من شعراء الحماسة يصف فرسه .

ولو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنه لم يطر

أى توفر فيها بسبب الطيران : فالمعنى لو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم بزيادة ما في البرق والرعد من القوة فيفيد بلوغ الرعد والبرق قرب غاية القوة . ويكون لقوله « إن الله على كل شىء قدير » موقع عجيب .

وقوله « إن الله على كل شىء قدير » تذييل ، وفيه ترشيح للتوجيه المقصود للتهديد بزيادة في تذكيرهم وإبلاغهم وقطعا لمعذرتهم في الدنيا والآخرة .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ 21

استئناف ابتدائي ثنى به العنان إلى موعظة كل فريق من الفرق الأربع المتقدم ذكرها موعظة تليق بحاله بعد أن قضى حق وصف كل فريق منهم بخلاله ، ومثلت حال كل فريق وضربت له أمثاله فإنه لما استوفى أحوالا للمؤمنين وأضدادهم من المشركين والمنافقين لا جرم تهيأ المقام لخطاب عمومهم بما ينفعهم إرشادا لهم ورحمة بهم لأنه لا يرضى لهم الضلال ولم

يكن ما ذكر آتقا من سوء صنعم حائلا دون إعادة إرشادهم والاقبال عليهم بالخطاب فيه تأنيس لأنفسهم بعد أن هددهم ولا مهم وذم صنعم ليعلموا أن الإغلاظ عليهم ليس إلا حرصا على صلاحهم وأنه غنى عنهم كما يفعله الربى الناصح حين يزجر أو يوبخ فيرى انكسار نفس مرباه فيجبر خاطره بكلمة لينة ليريه أنه إنما أساء إليه استصلاحا وحبا لخيره فلم يترك من رحمته خلقه حتى في حال عتوهم وضلالهم وفي حال حملهم إلى مصالحهم .

وبعد فهذا الاستثناس وجبر الخواطر يزاد به المحسنون إحسانا وينكف به المجرمون عن سوء صنعمم فيأخذ كل فريق من الذين ذكروا فيما سلف حظّه منه . فالقصد بالنداء من قوله « يا أيها الناس » الاقبال على موعظة نبذ الشرك وذلك هو غالب اصطلاح القرآن في الخطاب بيايها الناس ، وقرينة ذلك هنا قوله « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعملون » وافتتح الخطاب بالنداء تنويها به . ويا حرف للنداد وهو أكثر حروف النداء استعمالا فهو أصل حروف النداء ولذلك لا يقدر غيره عند حذف حرف النداء ولكونه أصلا كان مشتركا لنداء القريب والبعيد كما في القاموس . قال الرضى في شرح الكافية : إن استعمال يا في القريب والبعيد على السواء ودعوى المجاز في أحدهما أو التأويل خلاف الأصل . وهو يريد بذلك الرد على الزمخشري إذ قال في الكشاف « ويا حرف وضع في أصله لنداء البعيد ثم استعمل في مناداة من سها أو غفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد » وكذلك فعل في كتاب المفصل .

وأى في الأصل نكرة تدل على فرد من جنس اسم يتصل بها بطريق الإضافة ، نحو أى رجل أو بطريق الإبدال نحو أيها الرجل ، ومنه ما في الاختصاص كقولك لجلسك أنا كفيت مهمك أيها الجالس عندك وقد ينادون المنادى باسم جنسه أو بوصفه لأنه طريق معرفته أو لأنه أشمل لإحضاره كما هنا فرما يؤتى بالمنادى حينئذ نكرة مقصودة أو غير مقصودة ، وربما يأتون باسم الجنس أو الوصف معرفا باللام الجنسية إشارة إلى طرق التعريف إليه على الجملة تفننا لجرى استعمالهم أن يأتوا حينئذ مع اللام باسم إشارة إغراقا في تعريفه^(١)

(١) علله كثير من التحوين بأنه لكرهية اجتماع حرفي تعريف، ورده الرضى بأنه لا يستنكر اجتماع حرفين في أحدهما من الفائدة ما في الآخر وزيادة كما في لقد، وإلا، وقالوا يا هذا، ويا أنت. والذي يختار في تعليقه أنه كراهية اجتماع أداتى تعريف وهما حرف النداء وأل المعرفة .

وفصلوا بين حرف النداء والامم المنادى حينئذ بكلمة أى وهو تركيب غير جار على قياس اللغة ولعله من بقايا استعمال عتيق .

وقد اختصروا اسم الإشارة فأبقواها التنبيهية وحذفوا اسم الإشارة، فأصل يأياها الناس يأيهؤلاء وقد صرحوا بذلك فى بعض كلامهم كقول الشاعر الذى لانعرفه .
* أَيْهَذَانِ كُلا زَادَ يَكَا *

وربما أرادوا نداء المجهول الحاضر الذات أيضا بما يدل على طريق إحضاره من حالة قائمة به باعتبار كونه فردا من جنس فتوصلوا لذلك باسم الموصول الدال على الحالة بصلته والدال على الجنسية لأن الموصول يأتى لما تاتى له اللام فيحتمون أيّا كذلك نحو «بأيها الذى نزل عليه الذكر».

والناس تقدم الكلام فى اشتقاقه عند قوله تعالى «ومن الناس» وهو اسم جمع نودى هنا وعرف بأل.يشمل كل أفراد مسماء لأن الجموع المعرفة باللام للعموم مالم يتحقق عهد كما تقرر فى الأصول واحتمالها العهد ضعيف إذ الشأن عهد الأفراد فلذلك كانت فى العموم أنص من عموم المفرد المحلى بأل .

فإن نظرت إلى صورة الخطاب فهو إنما واجه به ناسا سامعين فعمومه لمن لم يحضر وقت سماع هذه الآية ولمن سيوجد من بعد يكون بقرينة عموم التكليف وعدم قصد تخصيص الحاضرين وذلك أمر قد تواتر نقلا ومعنى فلاجرم أن يعم الجميع من غير حاجة إلى القياس، وإن نظرت إلى أن هذا من أضرب الخطاب الذى لا يكون لمعين فيترك فيه التعمين ليم كل من يصلح للمخاطبة بذلك وهذا شأن الخطاب الصادر من الدعاة والأمراء والمؤلفين فى كتبهم من نحو قولهم يا قوم ، ويا فتى ، وأنت ترى ، وبهذا تعلم ، ونحو ذلك فما ظنك بخطاب الرسل وخطاب هو نازل من الله تعالى كان ذلك عاما لكل من يشمله اللفظ من غير استعانة بدليل آخر. وهذا هو تحقيق المسألة التى يفرضها الأصوليون ويمبرون عنها بخطاب المشافهة والمواجهة هل يعم أم لا. والجمهور وإن قالوا إنه يتناول الموجودين دون من بعدهم بناء على أن ذلك هو مقتضى المخاطبة حتى قال المضد إن إنكار ذلك مكابرة، وبحث فيه التفتراضى، فهم قالوا إن شمول الحكم لمن يأتى بعدهم هو مما تواتر من عموم البعثة وأن أحكامها شاملة للخلق فى جميع المصور كما أشار إليه البيضاوى .

قلت الظاهر أن خطابات التشريع ونحوها غير جارية على المعروف في توجه الخطاب في أصل اللغات لأن المشرع لا يقصد لفريق معين ، وكذلك خطاب الخلفاء والولاة في الظواهر والتقاليد ، فقرينة عدم قصد الحاضرين ثابتة واضحة ، غاية ما في الباب أن تعلقه بالحاضرين تعلق أصلي إلزامي وتعلقه بالذين يأتون من بعد تعلق معنوي إعلامي على نحو ما تقرر في تعلق الأمر في علم أصول الفقه فنفرض مثله في توجه الخطاب .

والعبادة في الأصل التذلل والخضوع وقد تقدم القول فيها عند قوله تعالى «إياك نعبد» ولما كان التذلل والخضوع إنما يحصل عن صدق اليقين كان الإيمان بالله وتوحيده بالإلهية مبدأ العبادة لأن من أشرك مع المستحق ما ليس بمستحق فقد تباعد عن التذلل والخضوع له . فالخطاب بالأمر بالعبادة المشركون من العرب واليهود منهم وأهل الكتاب والمؤمنون كل بما عليه من واجب العبادة من إثبات الخالق ومن توحيده ، ومن الإيمان بالرسول ، والإسلام للدين والامتثال لما شرعه إلى ما وراء ذلك كله حتى تنتهي العبادة ولو بالدوام والمواظبة بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه فإنهم مشمولون للخطاب على ما تقرر في الأصول ، فالأمورية هو القدر المشترك حتى لا يلزم استعمال المشترك في معانيه عند من يأبى ذلك الاستعمال وإن كنا لا نأباه إذا صلح له السياق بدليل تفرع قوله بعد ذلك « فلا تجعلوا لله أندادا » على قوله « اعبدوا ربكم » الآية . فليس في هذه الآية حجة للقول بخطاب الكفار بفروع الشريعة لأن الأمر بالعبادة بالنسبة إليهم إنما يُعنى به الإيمان والتوحيد وتصديق الرسول ، وخطابهم بذلك متفق عليه وهي مسألة ضمنية .

وقد مضى القول في معنى الرب عند قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » في سورة الفاتحة . ووجه العدول عن غير طريق الإضافة من طرق التعريف نحو العلمية إذ لم يقل اعبدوا الله ، لأن في الإتيان بلفظ الرب إيذانا بأحقية الأمر بعبادته فإن المدبر لأموال الخلق هو جدير بالعبادة لأن فيها معنى الشكر وإظهار الاحتياج .

وإفراد اسم الرب دل على أن المراد رب جميع الخلق وهو الله تعالى إذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالإفراد والإضافة إلى جميع الناس إلا الله ، فإن المشركين وإن أشركوا مع الله آلهة إلا أن بعض القبائل كان لها مزبد اختصاص ببعض الأصنام ، كما كان لثقيف

مزيد اختصاص بالآلات كما تقدم في سورة الفاتحة وتبعهم الأوس والخزرج كما سيأتي في تفسير قوله تعالى « فمن حج البيت أو اعتمر » في هذه السورة فالمدول إلى الإضافة هنا لأنها أخصر طريق في الدلالة على هذا المقصد فهي أخصر من الموصول فلو أريد غير الله لقليل اعبدوا أربابكم فلا جرم كان قوله « اعبدوا ربكم » صريحاً في أنه دعوة إلى توحيد الله ولذلك فقوله « الذي خلقكم » زيادة بيان لموجب العبادة ، أو زيادة بيان لما اقتضته الإضافة من تضمن معنى الاختصاص بأحقية العبادة .

وقوله « والذين من قبلكم » يفيد تذكير الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون أنهم إنما خلقهم آبائهم فقالوا « نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » فكان قوله « والذين من قبلكم » تذكيراً لهم بأن آبائهم الأولين لا بد أن ينتهوا إلى أب أول فهو مخلوق لله تعالى . ولعل هذا هو وجه التأكيـد بزيادة حرف (من) في قوله « من قبلكم » الذي يمكن الاستغناء عنه بالاختصار على قبلكم ، لأن (من) في الأصل للابتداء فهي تشير إلى أول الموصوفين بالقبلية فذكرها هنا استرواح لأصل معناها مع معنى التأكيـد الغالب عليها إذا وقعت مع قبل وبعد .

والخلق أصله الإيجاد على تقدير وتسوية ومنه (خلق الأديم إذا هياها ليقطعه ويخرزه) قال جبير في هرم بن سنان :

ولأنت تفرى ما خلقتَ وبمض القوم يخلقُ ثم لا يفرى

وأطلق الخلق في القرآن وكلام الشريعة على إيجاد الأشياء المدومة فهو إخراج الأشياء من العدم إلى الوجود إخراجاً لا صنعة فيه للبشر فإن إيجاد البشر بصنعتهم أشياء إنما هو تصويرها بتركيب متفرق أجزائها وتقدير مقادير مطلوبة منها كصانع الخزف فالخلق وإيجاد العوالم وأجناس الموجودات وأنواعها وتولد بعضها عن بعض بما أودعت الخلقة الإلهية فيها من نظام الإيجاد مثل تكوين الأجنة في الحيوان في بطونه وبيضه وتكوين الزرع في حبوب الزرعة وتكوين الماء في الأسحبة فذلك كله خلق وهو من تكوين الله تعالى ولا عبرة بما قد يقارن بعض ذلك الإيجاد من علاج الناس كالزواج وإلقاء الحب والنوى في الأرض للإنبات ، فالإيجاد الذي هو الإخراج من العدم إلى الوجود بدون عمل بشري

خص باسم الخلق في اصطلاح الشرع ، لأن لفظ الخلق هو أقرب الألفاظ في اللغة العربية دلالة على معنى الإيجاد من العدم الذي هو صفة الله تعالى وصار ذلك مدلول مادة خلق في اصطلاح أهل الإسلام فلذلك خص إطلاقه في لسان الإسلام بالله تعالى « أفمن يَخْلُقْ كمن لا يَخْلُقْ أفلا تذكرون » - وقال - « هل من خالق غير الله » وخص اسم الخالق به تعالى فلا يطلق على غيره ولو أطلقه أحد على غير الله تعالى بناء على الحقيقة اللغوية لكان إطلاقه معجزة فيجب أن ينبه على تركه . وقال الغزالي في المقصد الأسنى : لا حظ للعبد في اسمه تعالى الخالق إلا بوجه من المجاز بعيد فإذا بلغ في سياسة نفسه وسياسة الخلق مبلغاً يفرد فيه باستنباط أمور لم يسبق إليها ويقدر مع ذلك على فعلها كان كالمخترع لما لم يكن له وجود من قبل فيجوز إطلاق الاسم (أى الخالق) عليه مجازاً اه . فجعل جواز إطلاق فعل الخلق على اختراع بعض العباد مشروطاً بهذه الحالة النادرة ومع ذلك جعله مجازاً بعيداً فما حكاه الله في القرآن من قول عيسى عليه السلام « إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله » - وقول الله تعالى - « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى » فإن ذلك مراعى فيه أصل الإطلاق اللغوى قبل غلبة استعمال مادة خلق في الخلق الذى لا يقدر عليه إلا الله تعالى . ثم تخصيص تلك المادة بتكوين الله تعالى الموجودات ومن أجل ذلك قال تعالى فَيُبَارِكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ .

وجملة رملكم تتقون تعليل للأمر بعبادوا فلذلك فصلت أى أمرتكم بعبادته لرجاء منكم أن تتقوا .

« ولعل » حرف يدل على الرجاء . والرجاء هو الإخبار عن تهيب وقوع أمر في المستقبل وقوعاً مؤكداً . فتبين أن لعل حرف مدلوله خبرى لأنها إخبار عن تأكد حصول الشيء (١) ومعناها مركب من رجاء التكلم في مخاطب وهو معنى جزئى حرفى وقد شاع عند المفسرين وأهل العلوم الحيرة في عمل لعل الواقعة من كلام الله تعالى لأن معنى الترجى يقتضى عدم الجزم بوقوع الرجوع عند التكلم فللشك جانب في معناها حتى قال الجوهري « لعل كلمة

(١) وليس فيها معنى لإنشائى طلبى ولذلك لم ينصبوا الفعل في جوابها بعد الفاء والواو بخلاف جواب التثنية ولذلك لم ينصب فأطلع من قوله تعالى « لعل أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع » إلا في رواية حفص عن عاصم .

شك » وهذا لا يناسب علم الله تعالى بأحوال الأشياء قبل وقوعها ولأنها قد وردت في أخبار مع عدم حصول الرجو لقوله تعالى « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » مع أنهم لم يتذكروا كما بينته الآيات من بعد .
ولهم في تأويل لعل الواقعة في كلام الله تعالى وجوه :

أحدها قال سيبويه « لعل على بابها والترجي أو التوقع إنما هو في حيز مخاطبين اه . »
يعنى أنها للإخبار بأن المخاطب يكون مرجواً واختاره الرضى قائلاً لأن الأصل أن لا تخرج عن معناها بالكلية . وأقول لا يعنى سيبويه أن ذلك معنى أصل لها ولكنه يعنى أنها مجاز قريب من معنى الحقيقة لوقوع التمجيز في أحد جزأى المعنى الحقيقي لأن الرجاء يقتضى راجياً ومرجواً منه فحرف الرجاء دال على معنى فعل الرجاء إلا أنه معنى جزئى ، وكل من الفاعل والمفعول مدلول لمعنى الفعل بالالتزام، فإذا دلت قرينة على تمطيل دلالة حرف الرجاء على فاعل الرجاء لم يمكن فى الحرف أو الفعل تمجيزه، إذ المجاز إنما يتطرق للمدلولات اللغوية لا العقلية وكذلك إذا لم يحصل الفعل المرجو .

ثانيها أن لعل للإطعام تقول : للقاصد لعلك تنال بفيتك، قال الزمخشري « وقد جاءت على سبيل الإطعام فى مواضع من القرآن » . والإطعام أيضاً معنى مجازى للرجاء لأن الرجاء يلزمه التقريب والتقريب يستلزم الإطعام فالإطعام لازم بمرتبتين .

ثالثها أنها للتعليل بمعنى كى قاله قطرب وأبو على الفارسي وابن الأنباري، وأحسب أن مرادهم هذا المعنى فى المواقع التى لا يظهر فيها معنى الرجاء، فلا يرد عليهم أنه لا يطرد فى نحو قوله « وما يدريك لعل الساعة قريب » لصحة معنى الرجاء بالنسبة للمخاطب. ولا يرد عليهم أيضاً أنه إثبات معنى فى (لعل) لا يوجد له شاهد من كلام العرب وجعله الزمخشري قولاً متفرعاً على قول من جعلها للإطعام فقال « ولأنه إطعام من كريم إذا أطمع فعل » قال من قال: إن لعل بمعنى كى « يعنى فهو معنى مجازى ناشئ عن مجاز آخره فهو من تركيب المجاز على اللزوم بثلاث مراتب .

رابعها ماذهب إليه صاحب الكشف أنها استعارة فقال « ولعل واقعة فى الآية موقع المجاز لأن الله تعالى خلق عباده ليتعبد لهم ووضع فى أيديهم زمام الاختيار وأراد منهم الخير

والتقوى فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليرجع أمرهم وهم يختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجي بين أن يفعل وأن لا يفعل، ومصادقه قوله تعالى «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» وإنما يبلو ويختبر من تخفى عنه العواقب، ولكن شبه بالاختيار بناء أمرهم على الاختيار، فكلام الكشف يجعل لعل في كلامه تعالى استعارة تمثيلية لأنه جعلها تشبيه هيئة مركبة من شأن المزيد والمراد منه والإرادة بحال مركبة من الراجي والرجو منه والرجاء فاستمير المركب الموضوع للرجاء لعنى المركب الدال على الإرادة .

وعندي وجه آخر مستقل وهو «أن لعل الواقعة في مقام تعليل أمر أو نهى لها استعمال يفاير استعمال لعل المستأنفة في الكلام سواء وقعت في كلام الله أم في غيره، فإذا قلت افتقد فلاناً لملك تنصحه كان إخباراً باقتراب وقوع الشيء وأنه في حيز الإمكان إن تم ما علق عليه فأما اقتضاؤه عدم جزم التكلم بالحصول فذلك معنى التزاي أغلبي قد يعلم انتفاؤه بالقرينة وذلك الانتفاء في كلام الله أوقع، فاعتقادنا بأن كل شيء لم يقع أو لا يقع في المستقبل هو القرينة على تعطيل هذا المعنى الاتزاي دون احتياج إلى التأويل في معنى الرجاء الذي تفيدته لعل حتى يكون مجازاً أو استعارة لأن لعل إنما أتى بها لأن المقام يقتضى معنى الرجاء فالترام تأويل هذه الدلالة في كل موضع في القرآن تعطيل لعنى الرجاء الذي يقتضيه المقام والجماعة لجأوا إلى التأويل لأنهم نظروا إلى لعل بنظر متحد في مواقع استعمالها بخلاف لعل المستأنفة فإنها أقرب إلى إنشاء الرجاء منها إلى الإخبار به . وعلى كل فعنى لعل غير معنى أفعال المقاربة » .

والتقوى هي الحذر مما يكره، وشاعت عند العرب والمتدينين في أسبابها، وهو حصول صفات السكال التي يجمعها التدين ، وقد تقدم القول فيها عند قوله تعالى « هدى للمتقين » . ولما كانت التقوى نتيجة العبادة جعل رجاؤها أثراً للأمر بالعبادة وتقدم عند قوله تعالى « هدى للمتقين »، فالعنى اعبدوا ربكم رجاء أن تتقوا فتصبحوا كما بين متقين، فإن التقوى هي الغاية من العبادة فرجاء حصولها عند الأمر بالعبادة وعند عبادة العابد أو عند إرادة الخلق والتكوين واضح الفائدة .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾

يتمين أن قوله « الذي جعل لكم الأرض فراشا » صفة ثانية للرب لأن مساقها مساق قوله « الذي خلقكم »، والمقصود بالإيماء إلى سبب آخر لاستحقاقه العبادة وإفراده بها فإنه لما أوجب عبادة أنه خالق الناس كلهم أتبع ذلك بصفة أخرى تقتضى عبادتهم إياه وحده، وهى نعمه المستمرة عليهم مع ما فيها من دلائل عظيم قدرته فإنه مكن لهم سبل العيش وأوطأ المكان الصالح للاستقرار عليه بدون لغوب فجعله كالفرش لهم ومن إحاطة هذا القرار بالهواء النافع لحياتهم والذي هو غذاء الروح الحيوانى، وذلك ما أشير إليه بقوله « والسماء بناء » وبكون تلك الكرة الهوائية واقية الناس من إضرار طبقات فوقها متناهية فى العلو ، من زمهرير أو عناصر غريبة قاتلة خاتمة، فالكرة الهوائية جعلت فوق هذا العالم فهى كالبناء له وتحميها كنفع البناء فشبّهت به على طريقة التشبيه البليغ وبأن أخرج للناس ما فيه إقامة أود حياتهم باجتماع ماء السماء مع قوة الأرض وهو الثمار .

والمراد بالسماء هنا إطلاقها العرفى عند العرب وهو ما يبد وللناظر كالقبة الزرقاء وهو كرة الهواء المحيط بالأرض كما هو المراد فى قوله « أو كصيب من السماء » . وهذا هو المراد الغالب إذا أطلق السماء بالإفراد دون الجمع .

ومعنى جعل الأرض فراشا أنها كالفرش فى التمكن من الاستقرار والاضطجاع عليها وهو أخص أحوال الاستقرار . والمعنى أنه جعلها متوسطة بين شدة الصخور بحيث تؤلم جلد الإنسان وبين رخاوة الحماة بحيث يترشح الكائن فوقها ويسوخ فيها وتلك منة عظيمة .

وأما وجه شبه السماء بالبناء فهو أن الكرة الهوائية جعلها الله حجرة بين الكرة الأرضية وبين الكرة الأثيرية، فهى كالبناء فيما يراد له البناء وهو الوقاية من الأضرار النازلة، فإن للكرة الهوائية دفعا لأضرار أظهرها دفع ضرر طغيان مياه البحار على الأرض ودفع أضرار بلوغ أهوية تندفع عن بعض الكواكب الينا وتلطيفها حتى تحتلط بالهواء أو صد الهواء إياها عنا مع ما فى مشابهة منظر الكرة الهوائية لهيئة القبة ، والقبة بيت من آدم مقبب وتسمى بناء ،

والبناء في كلام العرب ما يرفع سمكه على الأرض للوقاية سواء كان من حجر أو من آدم أو من شعر، ومنه قولهم بنى على امرأته إذا تزوج، لأن المتزوج يجعل بيتا يسكن فيه مع امرأته وقد اشتهر إطلاق البناء على القبة من آدم ولذلك سموا الأدم الذي تبنى منه القباب مبناة بفتح الميم وكسر هاء، وهذا كقوله في سورة الأنبياء «وجعلنا السماء سقفا محفوظا».

فإن قلت يقتضى كلامك هذا أن الامتنان يجعل السماء كالبناء لوقاية الناس من قبيل المعجزات العلمية التي أشرت إليها في المقدمة العاشرة وذلك لا يدركه إلا الأجيال التي حدثت بعد زمان النزول فإذا يكون حظ المسلمين وغيرهم الذين نزلت بينهم الآية «والذين جاءوا من بعدهم» في عدة أجيال فإن أهل الجاهلية لم يكونوا يشعرون بأن السماء خاصية البناء في الوقاية وغاية ما كانوا يتخيلونه أن السماء تشبه سقف القبة كما قالت الأعرابية حين سئلت عن معرفة النجوم: أيجعل أحد خرزات معلقة في سقفه، فتتمحض الآية لإفادة العبرة بذلك الخلق البديع إلا أنه ليس فيه حظ من الامتنان الذي أفاده قوله «لكم» فهل يخص تعلقه بفعل جعل المصرح به دون تعلقه بالفعل المطوى تحت واو العطف، أو يجعله متعلقا بقوله «فراشا» فيكون قوله «والسمااء بناء» معطوفا على معمول فعل الجعل المجرد عن التقييد بالمتعلق.

قلت، وهذا يفضى إلى التحكم في تعلق قوله «لكم» تحكما لا يدل عليه دليل للسامع بل الوجه أن يجعل لكم متعلقا بفعل (جعل) ويكتفى في الامتنان بخلق السماء إشعار السامعين لهذه الآية بأن في خلق السماء على تلك الصفة ما في إقامة البناء من الفوائد على الإجمال ليفرضه السامعون على مقدار قرائحهم وأفهامهم ثم يأتي تأويله في قابل الأجيال.

وحذف (لكم) عند ذكر السماء إيجازا لأن ذكره في قوله «جعل لكم الأرض فراشا» دليل عليه.

«وجعل» إن كانت بمعنى أوجد فحمل الامتنان هو إن كانتا على هذه الحالة وإن كانت بمعنى صير فهي دالة على أن الأرض والسماء قد انتقلتا من حال إلى حال حتى صارتا كما هما و صار أظهر في معنى الانتقال من صفة إلى صفة وقواعد علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) تؤخذ بهذا الوجه الثاني فيكون في الآية متان وعبرتان في جعلهما على ما رأينا وفي الأطوار التي انتقلتا فيهما بقدرة الله تعالى وإذنه فيكون كقوله تعالى «أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما» إلى قوله. وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون».

وقد امتن الله وضرب العبرة بأقرب الأشياء وأظهرها لسائر الناس حاضرهم وباديهم وبأول الأشياء في شروط هذه الحياة. وفيهما أنفع الأشياء وهما الهواء والماء النابع من الأرض وفيهما كانت أول منافع البشر ، وفي تخصيص الأرض والسما بالذكر نكتة أخرى وهي التمهيد لما سيأتي من قوله « وأنزل من السماء ماء » إلخ . وابتدأ بالأرض لأنها أول ما يخطر ببال المتبرثم بالسماء لأنه بعد أن ينظر لما بين يديه ينظر إلى ما يحيط به .

وقوله « وأنزل من السماء ماء فأخرج به » إلخ هذا امتنان بما يلحق الإيجاد مما يحفظه من الاختلال وهو خليفة لما تتلفه الحرارة الغريزية والعمل العصبي والسماعي من القوة البدنية ليدوم قوام البدن بالغذاء وأصل الغذاء هو ما يخرج من الأرض وإنما تخرج الأرض النبات بنزول الماء عليها من السماء أى من السحاب والطبقات العليا .

واعلم أن كون الماء نازلا من السماء هو أن تسكونه يكون في طبقات الجو من آثار البخار الذى فى الجو فإن الجو ممتلئ دائما بالأبخرة الصاعدة إليه بواسطة حرارة الشمس من مياه البحار والأنهار ومن نداوة الأرض ومن النبات ولهذا نجد الإناء المملوء ماء فارغا بعد أيام إذا ترك مكشوقا للهواء فإذا بلغ البخار أقطار الجو العالية برد يبرودتها وخاصة فى فصل الشتاء فإذا برد مال إلى التميع ، فيصير سحابا ثم يمكث قليلا أو كثيرا بحسب التناسب بين برودة الطبقات الجوية والحرارة البخارية فإذا زادت البرودة عليه انقبض السحاب وثقل وتميع فتجتمع فيه الفقائيع المائية وتثقل عليه فتزل مطرا وهو ما أشار له قوله تعالى « وينشئ السحاب الثقال » . وكذلك إذا تعرض السحاب للريح الآتية من جهة البحر وهى ريح ندية ارتفع الهواء إلى أعلى الجو فبرد فصار مائما وربما كان السحاب قليلا فساقط إليه الريح سحابا آخر فانضم أحدهما للآخر ونزلا مطرا ، ولهذا غلب المظر بعد هبوب الريح البحرية وفى الحديث « إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غدقة » ومن القواعد أن الحرارة وقلة الضغط يزيدان فى صعود البخار وفى قوة انبساطه والبرودة وكثرة الضغط يصيران البخار مائما وقد جرب أن صعود البخار يزداد بقدر قرب الجهة من خط الاستواء وينقص بقدر بعده عنه وإلى بعض هذا يشير ما ورد فى الحديث أن المطر ينزل من صخرة تحت العرش فإن العرش هو اسم لسماء من السماوات والصخرة تقرب لمكان ذى رودة وقد علمت أن المطر تنشئه البرودة فيتميع السحاب فكانت البرودة هى لقاح المطر .

وإِمن التي في قوله « من الثمرات » ليست للتمييز إذ ليس التبعيض مناسباً لمقام الامتتان بل إما لبيان الرزق المخرج، وتقديم البيان على المبين شائع في كلام العرب، وإما زائدة لتأكيد تعلق الإخراج بالثمرات .

﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ٢٢

أتت الفاء لترتيب هاته الجملة على الكلام السابق وهو مترتب على الأمر بالعبادة ولا تاهية والفعل مجزوم وليست نافية حتى يكون الفعل منصوباً في جواب الأمر من قوله « عبادوا ربكم » . والمراد هنا تسبيه الخاص وهو حصوله عن دليل يوجبه وهو أن الذي أمركم بعبادته هو المستحق للإفراد بها فهو أخص من مطلق ضد العبادة لأن ضد العبادة عدم العبادة . ولكن لما كان الإشراف للمعبود في العبادة يشبه ترك العبادة جعل ترك الإشراف مساوياً لنقيض العبادة لأن الإشراف ما هو إلا ترك لعبادة الله في أوقات تعظيم شركائهم .

والند بكسر النون المساوي والمائل في أمر من مجد أو حرب، وزاد بعض أهل اللغة أن يكون مناوئاً أي معادياً، وكأنهم نظروا إلى اشتقاقه من ند إذا نقر وعاند . وليس يمتنع لجواز كونه اسماً جامداً وأظن أن وجه دلالة الند على المناوأة والمضادة أنها من لوازم المائلة عرفاً عند العرب، فإن شأن المثل عندهم أن ينافس ممثله ويواجهه في مراده فتحصل المضادة، ونظيره في عكسه تسميتهم المائل قريباً، فإن القريع هو الذي يقارع ويضارب . ولما كان أحد لا يتصدى لمقارعة من هو فوقه لخشيته ولا من هو دونه لاحتقاره كانت المقارعة مستلزمة للمائلة ، وكذلك قولهم قرن للمحارب الكافي في الشجاعة، ويقال جعل له نداً، إذا سوى غيره به .

والعنى لا تثبتوا لله أندادا تجعلونها جملأ وهي ليست أندادا وسماها أندادا تعريضاً بزعمهم لأن حال العرب في عبادتهم لها كحال من يسوى بين الله وبينها وإن كان أهل الجاهلية يقولون إن الآلهة شفعاء ويقولون ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله، وجعلوا الله خالق الآلهة فقالوا في التلبية « لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » ، لكنهم لما عبدوها ونسوا بعبادتها والسمي إليها والنذور عندها وإقامة المواسم حولها عبادة الله ، أصبح عملهم

عمل من يعتقد التسوية بينها وبين الله تعالى لأن العبرة بالفعل لا بالقول. وفي ذلك معنى من التعريض بهم ورميهم باضطراب الحال ومناقضة الأقوال للأفعال .

وقوله « وأنتم تعلمون » جملة حالية ومفعول تعلمون متروك لأن الفعل لم يقصد تعليقه بمفعول بل قصد إثباته لفاعله فقط فنزل الفعل منزلة اللازم ، والمعنى وأنتم ذو علم . والمراد بالعلم هنا العقل التام وهو رجحان الرأي المقابل عندهم بالجهل على نحو قوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقد جمعت هاته الحال محط النهي والتنفى لتليحافى الكلام للجمع بين التوبيخ وإثارة الهممة فإنه أثبت لهم علما ورجاحة الرأي ليشير همهم ويلفت بصائرهم إلى دلائل الواحداية ونهاهم عن اتخاذ الآلهة أو تنقي ذلك مع تلبسهم به وجعله لا يجتمع مع العلم توبيخا لهم على ما أهلكوا من مواهب عقولهم وأضاعوا من سلامة مداركهم . وهذا منزع تهذيبي عظيم أن يعمد الرب فيجمع لمن يريه بين ما يدل على بقية كمال فيه حتى لا يقتل همته باليأس من كماله فإنه إذا ساءت ظنونه في نفسه خارت عزيمته وذهبت مواهبه ، ويأتي بما يدل على نقائص فيه ليطلب الكمال فلا يستريح من الكد في طلب العلا والكمال .

وقد أوما قوله « وأنتم تعلمون » إلى أنهم يعلمون أن الله لا ندله ولكنهم تعاموا وتناسوا فقالوا « إلا شريكا هو لك » .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٢٣

انتقال لإثبات الجزء الثاني من جزئي الإيمان بعد أن تم إثبات الجزء الأول من ذلك بما قدمه من قوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الخ » . فتلك هي المناسبة التي اقتضت عطف هذه الجملة على جملة « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » ، ولأن النهي عن أن يجعلوا لله أندادا جاء من عند الله فهم بمظنة أن ينكروا أن الله نهى عن عبادة شفعائه ومقربيه لأنهم من ضلالهم كانوا يدعون أن الله أمرهم بذلك قال تعالى « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم » فقد اعتلوا لمعبادة الأصنام بأن الله أقامها وسائط بينه وبينهم ، فزادت بهذا مناسبة عطف قوله « وإن

كنتم في ريب» عقب قوله « فلا تجملوا لله أندادا » . وآتى يان في تعليق هذا الشرط وهو كونهم في ريب وقد علم في فن الماني اختصاص إن بمقام عدم الجزم بوقوع الشرط ، لأن مدلول هذا الشرط قد حُفَّ به من الدلائل ما شأنه أن يقلع الشرط من أصله بحيث يكون وقوعه مفروضا فيكون الإتيان بأن مع تحقق المخاطب علم التكلم بتحقيق الشرط توبيخا على تحقق ذلك الشرط ، كأن ريبهم في القرآن مستضعف الوقوع . ووجه ذلك أن القرآن قد اشتطت ألفاظه وممانيه على ما لو تدبره العقل السليم لجزم بكونه من عند الله تعالى فإنه جاء على فصاحة وبلاغة ما عهدوا مثلها من فحول بلغائهم ، وهم فيهم متوافرون متكاثرون حتى لقد سجد بعضهم لبلاغته واعترف بعضهم بأنه ليس بكلام بشر . وقد اشتمل من الماني على ما لم يطرقة شعراؤهم وخطبائهم وحكائهم ، بل وعلى ما لم يبلغ إلى بعضه علماء الأمم . ولم يزل العلم في طول الزمان يظهر خبايا القرآن ويبرهن على صدق كونه من عند الله فهذه الصفات كافية لهم في إدراك ذلك وهم أهل العقول الراجحة والفطنة الواضحة التي دلت عليها أشعارهم وأخبارهم وبداهتهم ومناظرتهم ، والتي شهد لهم بها الأمم في كل زمان ، فكيف يبقى بعد ذلك كله مسلك للريب فيه إليهم فضلا عن أن يكونوا منغمسين فيه .

وجه الإتيان بنى الدالة على الظرفية الإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف واستمارة (في) لمعنى اللابسة شائعة في كلام العرب كقولهم هو في نعمة . وآتى بفعل نزل دون أنزل لأن القرآن نزل نجوما . وقد تقدم في أول التفسير أن فقل يدل على التقضى شيئا فشيئا على أن صاحب الكشف قد ذكر أن اختياره هنا في مقام التحدى لمراعاة ما كانوا يقولون لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة فلما كان ذلك من مشارب شبههم ناسب ذكره في تحديهم أن يأتوا بسورة مثله منجمة . والسورة قطعة من القرآن معينة فتميزه عن غيرها من أمثالها بمبدأ ونهاية تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام أو عدة أغراض .

وجعل لفظ سورة اسما جنسيا لأجزاء من القرآن اصطلاحاً جاء به القرآن . وهي مشتقة من السور وهو الجدار الذي يحيط بالقرية أو الحظيرة ، فاسم السورة خاص بالأجزاء المعينة من القرآن دون غيره من الكتب وقد تقدم تفصيله في المقدمة الثامنة من مقدمات هذا

التفسير ، وإنما كان التحدى بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن لأن من جملة وجوه الإعجاز أموراً لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفى في غرض من الأغراض وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لقوايح الكلام وخواتمه بحسب الفرض ، واستيفاء الفرض المسوق له الكلام ، وصحة التقسيم ، ونكت الإجمال والتفصيل ، وأحكام الائتال من فن إلى آخر من فنون الفرض ، ومناسبات الاستطراد والاعتراض والخروج والرجوع ، وفصل الجمل ووصلها ، والإيجاز والإطناب ، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام ، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا تم الكلام واستوفى الفرض حقه ، فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجازٌ يفوت قدرة البشر هو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه وفصاحة ألفاظه . فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب وقصيدة الشاعر لا يُحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها. قال الطيبي في حاشية الكشف عند قوله تعالى « فلم تقتلوهم » في سورة الأتقال ، ولسر النظم القرآنى كان التحدى بالسورة وإن كانت قصيرة دون الآيات وإن كانت ذوات عدد .

والتنكير للإفراد أو النوعية . أى بسورة واحدة من نوع السور وذلك صادق بأقل سورة ترجمت باسم يخصها ، وأقل السور عدد آيات سورة الكوثر . وقد كان المشركون بالمدينة تبعاً للمشركين بمكة وكان نزول هذه السورة في أول العهد بالهجرة إلى المدينة فكان المشركون كلهم أنبا على النبي صلى الله عليه وسلم . يتداولون الإغراء بتكذيبه وصد الناس عن اتباعه ، فأعيد لهم التحدى بإعجاز القرآن الذى كان قد سبق تحديهم به في سورة يونس وسورة هود وسورة الإسراء . وقد كان التحدى أولاً بالإتيان بكتابٍ مثل ما نزل منه ففي سورة الإسراء « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » . فلما عجزوا استنزلوا إلى الإتيان بمشْرِ سور مثله في سورة يونس . ثم استنزلوا إلى الإتيان بسورة من مثله في سورة هود .

والمثل أصله المثل والمُشابه تمامُ المشابهة فهو في الأصل صفة يتبع موصوفاً ثم شاع إطلاقه على الشيء المشابه المكافئ .

والضمير في قوله «من مثله» يجوز أن يعود إلى «ما نزلنا» أي من مثل القرآن ، ويجوز أن يعود إلى «عبدنا» فإن أعيد إلى «ما نزلنا» أي من مثل القرآن فالأظهر أن من ابتدائية أي سورة مأخوذة من مثل القرآن أي كتاب مثل القرآن والجار والمجرور صفة لسورة ، ويحتمل أن تكون (من) تبعية أو بيانية أو زائدة وقد قيل بذلك كله ، وهي وجوه مرجوحة ، وعلى الجميع فالجار والمجرور صفة لسورة ، أي هي بعض مثل ما نزلنا ، ومثل اسم حينئذ بمعنى المائل ، أو سورة مثل ما نزلنا و (مثل) صفة على احتمالي كون من بيانية أو زائدة ، وكل هذه الأوجه تقتضي أن المثل سواء كان صفة أو اسما فهو مثل مقدّر بناء على اعتقادهم وفرضهم ولا يقتضي أن هذا المثل موجود لأن الكلام مسوق مساق التعميز . وإن أعيد الضمير لعبدنا فنل تعدية فعل ائثوا وهي ابتدائية وحينئذ فالجار والمجرور ظرف لغو غير مستقر . ويجوز كون الجار والمجرور صفة لسورة على أنه ظرف مستقر والمعنى فيهما ائثوا بسورة منزعة من رجل مثل محمد في الأمية ، ولفظ مثل إذن اسم .

وقد تبين لك أن لفظ مثل في الآية لا يحتمل أن يكون المراد به الكناية عن المضاف إليه على طريقة قوله تعالى « ليس كمثله شيء » بناء على أن لفظ مثل كناية عن المضاف إليه إذ لا يستقيم المعنى أن يكون التقدير فأتوا بسورة من القرآن ، أو من محمد خلافا لمن توهم ذلك من كلام الكشف وإنما لفظ مثل مستعمل في معناه الصريح إلا أنه أشبه المكّنّى به عن نفس المضاف هو إليه من حيث إن المثل هنا على تقدير الاسمية غير متحقق الوجود إلا أن سبب انتفاء تحققه هو كونه مفروضا فإن كون الأمر للتعميز يقتضي تعذر المأمور ، فليس شيء من هاته الوجوه بمقتضى وجود مثل للقرآن حتى يُراد به بعض الوجوه كما توهمه التفترائي . وعندى أن الاحتمالات التي احتملها قوله «من مثله» كلها مرادة رد دعاوى الكاذبين في اختلاف دعاويهم فإن منهم من قال: القرآن كلامُ بشر ، ومنهم من قال: هو مكتوب من أساطير الأولين ، ومنهم من قال: إنما يعلمه بشر . وهاته الوجوه في معنى الآية تُفند جميع الدعاوى فإن كان كلام بشر فأتوا بمثاله أو بمثله ، وإن كان من أساطير الأولين فأتوا أنتم بجزء من هذه الأساطير ، وإن كان يُعلمه بشر فأتوا أنتم من عنده بسورة فما هو بيخيل عنكم إن سألتموه . وكل هذا إرخاء لعنان المعارضة وتسجيل للإعجاز عند عدمها .

فالتحدى على صدق القرآن هو مجموع مماثلة القرآن في ألفاظه وتراكيبه ، ومماثلة الرسول المنزل عليه في أنه أي لم يسبق له تعليم ولا يعلم الكتب السالفة ، قال تعالى « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب » . فذلك معنى المماثلة فلو أتوا بشيء من خطب أو شعر بلغائهم غير مشتمل على ما يشتمل عليه القرآن من الخصوصيات لم يكن ذلك إتيانا بما تحداهم به ، ولو أتوا بكلام مشتمل على معان تشريعية أو من الحكمة من تأليف رجل عالم حكيم لم يكن ذلك إتيانا بما تحداهم به . فليس في جعل من ابتدائية إيهام أجزاء أن يأتوا بشيء من كلام بلغائهم لأن تلك مماثلة غير تامة .

وقوله تعالى « وادعوا شهداءكم من دون الله » معطوف على « فأتوا بسورة » أي اثبتوا بها وادعوا شهداءكم . والدعاء يستعمل بمعنى طلب حضور المدعو ، وبمعنى استعطافه وسؤاله لفعل ما ، قال أبو فراس يخاطب سيف الدولة ليفديه من أسر ملك الروم :
دَعَوْتُكَ لِلْجَفْنِ الْقَرِيحِ الْمَسْهَدِ لَدَيْ وَلِلنَّوْمِ الطَّرِيدِ الْمَشْرَدِ

والشهداء جمع شهيد فاعل بمعنى فاعل من شهد إذا حضر ، وأصله الحاضر قال تعالى « ولا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » ثم استعمل هذا اللفظ فيما يلزمه الحضور مجازاً أو كناية لا بأصل وضع اللفظ ، وأطلق على النصير على طريقة الكناية فإن الشاهد يؤيد قول المشهود فينصره على معارضه ولا يطلق الشهيد على الإمام والقُدوة وأثبتته البيضاوى ولا يعرف في كتب اللغة ولا في كلام المفسرين . ولعله أنجر إليه من تفسير الكشاف لحاصل معنى الآية فتوهمه معنى وضعياً فالمراد هنا ادعوا المهتكم بقرينة قوله « من دون الله » أي ادعوه من دون الله كدأبكم في الفزع إليهم عند مهماتكم معرضين بدعائهم واستنجاؤهم عن دعاء الله واللجأ إليه في الآية إدماج توبيخهم على الشرك في أثناء التعجيز عن المعارضة وهذا الإدماج من أفانين البلاغة أن يكون مراد البليغ غرضين فيقرن الغرض السوق له الكلام بالغرض الثاني وفيه تظهر مقدرة البليغ إذ يأتي بذلك الاقتران بدون خروج عن غرضه السوق له الكلام ولا تكلف . قال الحرث بن حنظلة :

أَذْنُنَا بَيْنَهَا اسْمَاهُ رَبِّ ثَاوِيَعْلٍ مِنْهُ الثَّوَاهُ

فإن قوله رب ثاو عند ذكر بعد الحبيبة والتحسر منه كناية عن أن ليست هي من هذا القبيل الذي يمل ثواؤه . وقد قضى بذلك حق إرضائها بأنه لا يحفل باقامة غيرها ، وقد عد

الإدماج من الحسنات البديعة وهو جدير بأن يعد في الأبواب البلاغية في مبحث الإطناب أو تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر . فإن ألهمتهم أنصار لهم في زعمهم .

ويجوز أن يكون المراد ادعوا نصراءكم من أهل البلاغة فيكون تمجيذاً للعامة والخاصة . وادعوا من يشهد بماثلة ما أتيت به لما نزلنا، على نحو قوله تعالى « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا » ويكون قوله من دون الله على هذه الوجوه حالا من الضمير في ادعوا أو من شهداءكم أى في حال كونكم غير داعين لذلك الله أو حال كون الشهداء غير الله بمعنى اجعلوا جانب الله الذى أنزل الكتاب كالجانب المشهود عليه فقد أذنكم بذلك تيسيراً عليكم لأن شدة تسجيل المعجز تكون بمقدار تيسير أسباب العمل، وجوز أن يكون دون بمعنى أمام وبين يدي معنى ادعوا شهداءكم بين يدي الله، واستشهد له بقول الأعشى :

تريك القذى من دونها وهى دونه إذا ذاقها من ذاقها يتمطق ^(١)

كما جوز أن يكون من دون الله بمعنى من دون حزب الله وهم المؤمنون أى أحضروا شهداء من الذين هم على دينكم فقد رضيناهم شهوداً فإن البارع في صناعة لا يرضى بأن يشهد بتصحيح فاسدها وعكسه إباءة أن ينسب إلى سوء المعرفة أو الجور، وكلاهما لا يرضاه ذو المروءة وقديماً كانت العرب تتنافر وتتحاكم إلى عقلائها وحكامها فما كانوا يحفظون لهم غلطاً أو جوراً. وقد قال السموأل :

إنا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل
لا نجعل الباطل حقاً ولا نلظ دون الحق بالباطل ^(٢)
نحاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

وعلى هذا التفسير يحى قول الفقهاء إن شهادة أهل المعرفة بإثبات الميوب أو بالسلامة لا تشترط فيها المدالة، وكنت أعلل ذلك في دروس الفقه بأن المقصود من المدالة تحقق الوازع عن شهادة الزور، وقد قام الوازع العلمى في شهادة أهل المعرفة مقام الوازع الدينى لأن العارف

(١) يصف الخمر في الضفاء بأنها تريك القذى أمامها من شدة ما تكبر حجمه في نظر العين وهى بينك وبين القذى . وقوله يتمطق أى يحرك فكيف ولسانه تلذذا بحسن طعمها . وهذا البيت من قصيدته القافية المشهورة . (٢) لظ بالشئ يلفظ، وألفظ به يلفظ ها بمعنى لزمه وثابر عليه

حريص ما استطاع أن لا يؤثر عنه الغلط والخطأ وكفى بذلك وازعاً عن تمعده وكفى بملمه مظنة لإصابة الصواب فحصل المقصود من الشهادة .

وقوله « إن كنتم صادقين » اعتراض في آخر الكلام وتذييل . أتى بأن الشرطية التي الأصل في شرطها أن يكون غير مقطوع بوقوعه لأن صدقهم غير محتمل الوقوع وإن كنتم صادقين في أن القرآن كلام بشر وإنكم أنتم بتمثله . والصدق ضد الكذب وهما وصفان للخبر لا يخلو عن أحدهما فالصدق أن يكون مدلول الكلام الخبري مطابقاً ومماثلاً للواقع في الخارج أى في الوجود الخارجى احترازاً عن الوجود الذهنى . والكذب ضد الصدق وهو أن يكون مدلول الكلام الخبري غير مطابق أى غير مماثل للواقع في الخارج . والكلام موضوع للصدق وأما الكذب فاحتمال عقلي والإنشاء لا يوصف بصدق ولا كذب إذ لا معنى لمطابقته لما في نفس الأمر لأنه إيجاد للمعنى لا للأمر الخارجية . هذا معنى الصدق والكذب في الإطلاق المشهور وقد يطلق الكذب صفة ذم فيلاحظ في معناه حينئذ أن مخالفته للواقع كانت عن تعمد فتوهم الجاحظ أن ماهية الكذب تتقوم من عدم مطابقة الخبر للواقع وللاعتقاد معا وسرى هذا التقوم إلى ماهية الصدق فجعل قوامها المطابقة للخارج والاعتقاد معا ومن هنا أثبت الوساطة بين الصدق والكذب . وقريب منه قول الراغب ويشبه أن يكون الخلاف لفظياً ومحل بسطه في علمي الأصول والبلاغة . والمعنى إن كنتم صادقين في دعوى أن القرآن كلام بشر، فحذف متملق صادقين لدلالة ما تقدم عليه ، وجواب الشرط محذوف تدل عليه جملة مقدرة بعد جملة « وادعوا شهداءكم من دون الله » إذ التقدير فتأتون بسورة من مثله ودل على الجملة المقدرة قوله قبلها « فأتوا بسورة من مثله » وتكون الجملة المقدرة دليلاً على جواب الشرط فتصير جملة إن كنتم صادقين تكرر للتحدى . وفي هذه الآية إثارة لحاسهم إذ عرض بعدم صدقهم فتتوفر دواعيهم على المعارضة .

﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ٢٤

تفريع على الشرط وجوابه ، أى فإن لم تأتوا بسورة أو أتيتم بما زعمتم أنه سورة ولم يستطع ذلك شهادوكم على التفسيرين فاعلموا أنكم اجترأتم على الله بتكذيب رسوله المؤيد بمعجزة القرآن فاتقوا عقابه المد لأمثالكم .

ومفعول تفعلوا محذوف يدل عليه السياق أى فإن لم تفعلوا ذلك أى الإتيان بسورة مثله وسيأتى الكلام على حذف المفعول فى مثله عند قوله تعالى « وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته » فى سورة المائدة .
وجىء بإبان الشرطية التى الأصل فيها عدم القطع مع أن عدم فعلهم هو الأرجح بقرينة مقام التحدى والتمجيز ؛ لأن القصد إظهار هذا الشرط فى صورة النادر مبالغة فى توفير دواعيهم على المعارضة بطريق اللاتينة والتحريض واستقصاء لهم فى إمكانها وذلك من استئزال طائر الخصم وقيد لأوإبد مكابرتة ومجادلة له بالتي هى أحسن حتى إذا جاء للحق وأنصف من نفسه يرتقى معه فى درجات الجدل ؛ ولذلك جاء بعده « ولن تفعلوا » كأن التحدى يتدبر فى شأنهم ، ويزن أمرهم فيقول أولا أثبتوا بسورة ، ثم يقول قدروا أنكم لا تستطيعون الإتيان بمثله وأعدوا لهاته الحالة مخلصاً منها ثم يقول ها قد أيقنت وأيقنت أنكم لا تستطيعون الإتيان بمثله . مع ما فى هذا من توفير دواعيهم على المعارضة بطريق المخاشنة والتحذير .

ولذلك حسن موقع لن الدالة على نفى المستقبل فالنفي بها أكد من النفي بلا ، ولهذا قال سيبويه لا لنفى يفعل ، ولن لنفى سيفعل فقد قال الخليل إن لن حرف مختزل من لا النافية وأن الاستقبالية وهو رأى حسن وإذا كانت لنفى المستقبل تدل على النفي المؤيد غالباً لأنه لما لم يوقت بحد من حدود المستقبل دل على استغراق أزمنته إذ ليس بعضها أولى من بعض ومن أجل ذلك قال الزمخشري بإفادتها التأييد حقيقة أو مجازاً وهو التأكيد ، وقد استقرت مواقعها فى القرآن وكلام العرب فوجدتها لا يؤتى بها إلا فى مقام إرادة النفي المؤكد أو المؤيد . وكلام الخليل فى أصل وضعها يؤيد ذلك فمن قال من النحاة أنها لا تقيد تأكيذاً ولا تأييداً فقد كابر .

وقوله « ولن تفعلوا » من أكبر معجزات القرآن فإنها معجزة من جهتين : الأولى أنها أثبتت أنهم لم يعارضوا لأن ذلك أبعد لهم على المعارضة لو كانوا قادرين ، وقد تأكد ذلك كله

بقوله قبل إن كنتم صادقين وذلك دليل المعجز عن الإتيان بمثله فيدل على أنه كلام من قدرته فوق طوق البشر . الثانية أنه أخبر بأنهم لا يأتون بذلك في المستقبل فما أتى أحد منهم ولا ممن خلفهم بما يعارض القرآن فكانت هاته الآية معجزة من نوع الإعجاز بالإخبار عن الغيب مستمرة على تعاقب السنين فإن آيات المعارضة الكثيرة في القرآن قد قرعت بها أسماع المعاندين من العرب الذين أبوا تصديق الرسول وتواترت بها الأخبار بينهم وسارت بها الركبان بحيث لا يسع ادعاء جهلها ، ودواعي المعارضة موجودة فيهم : ففي خاصتهم بما يأنسونه من تأهلهم لقول الكلام البليغ وهم شعراؤهم وخطباؤهم . وكانت لهم مجامع التقاول ونوادى التشاور والتعاون ، وفي عامتهم وصعاليكهم بحرصهم على حث خاصتهم لدفع مسببة الغلبة عن قبائلهم ودينتهم والانتصار لآلهم وإيقاف تيار دخول رجالهم في دين الإسلام . مع ما عرف به العربي من إباءة الغلبة وكرهه الاستكانة . فما أمسك الكافة عن الإتيان بمثل القرآن إلا لمعجزهم عن ذلك وذلك حجة على أنه منزل من عند الله تعالى ، ولو عارضه واحد أو جماعة لطاروا به فرحه وأشاعوه وتناقلوه فإنهم اعتادوا تناقل أقوال بلغائهم من قبل أن يغريهم التحدى فما ظنك بهم لو ظفروا بشيء منه يدفعون به عنهم هذه الاستكانة وعدم العثور على شيء يدعى من ذلك . يوجب اليقين بأنهم أمسكوا عن معارضته ، وسنبين ذلك بالتفصيل في آخر تفسير هذه الآية .

وتفعلوا الأول مجزوم بلم لا محالة لأن إن الشرطية دخلت على الفعل بعد اعتباره منفياً فيكون معنى الشرط متسلطاً على لم وفعلها فظهر أن ليس هذا متنازع بين إن ولم في العمل في تفعلوا لاختلاف المعنيين فلا يفرض فيه الاختلاف الواقع بين النحاة في صحة تنازع الحرفين معمولاً واحداً كما توهمه ابن المليح أحد نحاة الأندلس نسبة إليه في التصريح على التوضيح^(١) على أن الحق أنه لا مانع منه مع اتحاد الاقتضاء من حيث المعنى وقد أخذ جوازه من كلام أبي علي الفارسي في المسائل الدمشقيات ومن كتاب التذكرة له أنه جعل قول الراجز :

حتى تراها وكأنَّ وكانَّ أعناقها مُشْرِفَات في قرآن

من قبيل التنازع بين كأنَّ المشددة وكانَّ المخففة .

وقوله « فاتقوا النار » أثر لجواب الشرط في قوله « فإن لم تفعلوا » دل على جمل محذوفة

(١) قل من يعرف اسمه ، ولم يترجم له في البغية . وهو محمد بن عبد الله الأشبيلي له كتاب البسيط

للإيجاز لأن جواب الشرط في المعنى هو ما جرى بالشرط لأجله وهو مفاد قوله وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا، فتقدير جواب قوله فإن لم تفعلوا أنه «فأيقنوا بأن ما جاء به محمد مثزل من عندنا وأنه صادق فيما أمركم به من وجوب عبادة الله وحده واحذروا إن لم تمتثلوا أمره عذاب النار» فوقع قوله فأتقوا النار موقع الجواب لدلالته عليه وإيذانه به وهو إيجاز بديع وذلك أن اتقاء النار لم يكن مما يؤمنون به من قبل لتكذيبهم بالبعث فإذا تبين صدق الرسول لزمهم الإيمان بالبعث والجزاء . وإنما عُبِّرَ بلم تفعلوا ولن تفعلوا دون فإن لم تأتوا بذلك ولن تأتوا كما في قوله تعالى «قال إيتوني بأخ لكم من أبيكم إلى قوله فإن لم تأتوني به» إلخ لأن في لفظ تفعلوا هنا من الإيجاز ما ليس مثله في الآية الأخرى إذ الإتيان المتحدى به في هذه الآية إتيان مكيف بكيفية خاصة وهي كون المآتي به مثل هذا القرآن ومشهودا عليه ومستمعا عليه بشهادتهم فكان في لفظ تفعلوا من الإحاطة بتلك الصفات والقيود إيجاز لا يقتضيه الإتيان الذي في سورة يوسف .

والوقود بفتح الواو اسم لما يوقده، وبالضم مصدر وقيل بالعكس ، وقال ابن عطية حُكِيَ الضم والفتح في كل من الحطب والمصدر . وقياس فَعُول بفتح الفاء أنه اسم لما يفعل به كالوَضوء والحنوط والسَّموط والْوَجور إلَّا سبعة ألفاظ وردت بالفتح للمصدر وهي الوكوع والقبول والوضوء والطهور والوزوع واللغوب والوقود . والفتح هنا هو التمين لأن المراد الاسم وقرئ بالضم في الشاذ وذلك على اعتبار الضم مصدرا أو على حذف مضاف أي ذَوُو وَقُودِهَا النَّاسُ .

والناس أريد به صنف منهم وهم الكافرون فتعريفه تعريف الاستغراق العرفي ويجوز أن يكون تعريف العهد لأن كونهم المشركين قد علم من آيات أخرى كثيرة .
والحجارة جمع حجر على غير قياس وهو وزن نادر في كلامهم جمعا حجرا عن أحجار وألحقوا به هاء التأنيث قال سيبويه كما ألحقوها بالْمُؤلة والفُحولة . وعن أبي الهيثم أن العرب تدخل الهاء في كل جمع على فِعَال أو فُعُول لأنه إذا وقف عليه اجتمع فيه عند الوقف ساكنان أحدهما الألف الساكنة والثاني الحرف الموقوف عليه أي استحسنوا أن يكون خفيفا إذا وقفوا عليه ، وليس هو من اجتماع الساكنين المنوع ، ومن ذلك عِظامة ونِفارة وفِحالة وحِبالة وذِكارة وفُصولة ومُحولة (جموعا) رِبْكَارة جمع بَكَرٍ (بفتح الباء) ومِهارة جمع مِهْر .

ومعنى وقودها الحجارة أن الحجر جعل لها مكانَ الحطب لأنه إذا اشتعل صار أشدَّ إحراقاً وأبطأ انطفاءً ومن الحجارة أصنامهم فإنها أحجار وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى « إنكم وما تمبدون من دون الله حصب جهنم » وفي هذه الآية تعريض بتهديد المخاطبين والمعنى المعرض به فاحذروا أن تكونوا أنتم وما عبدتم وقود النار وقرينة التعريض قوله « فأتقوا » وقوله « والحجارة » لأنهم لما أمرُوا باتقائها أمرَ تحذير علموا أنهم هم الناس ، ولما ذكرت الحجارة علموا أنها أصنامهم ، فلزم أن يكون الناس هم عُبَاد تلك الأصنام فالتعريض هنا متفاوت فالأول منه بواسطة واحدة والثاني بواسطتين .

وحكمة إلقاء حجارة الأصنام في النار مع أنها لا تظهر فيها حكمة الجزاء أن ذلك تحقير لها وزيادة إظهار خطيئتها فيما عبدوا ، وتكرُّر لحسرتهم على إهانتها ، وحسرتهم أيضاً على أن كان ما أعدوه سبباً لعزيمهم ونفخهم سبباً لعذابهم ، وما أعدوه لنجاتهم سبباً لعذابهم ، قال تعالى « إنكم وما تمبدون من دون الله حصب جهنم » الآية .

وتعريف النار للمهد ووصفها بالموصول المقتضى علم المخاطبين بالصلة كما هو الغالب في صلة الموصول لتزليل الجاهل منزلة العالم بقصد تحقيق وجود جهنم ، أولأن وصف جهنم بذلك قد تقرر فيما نزل قبل من القرآن كقوله تعالى في سورة التحريم « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » وإن كانت سورة التحريم معدودة في السور التي نزلت بعد سورة البقرة فإن في صحة ذلك المد نظراً ، أولأنه قد علم ذلك عندهم من أخبار أهل الكتاب . وفي جعل الناس والحجارة وقوداً دليل على أن نار جهنم مشتملة من قبل زَجَّ الناس فيها وأن الناس والحجارة إنما تتقد بها لأن نار جهنم هي عنصر الحرارة كلها كما أشار إليه حديث الموطأ: إن شدة الحر من فيح جهنم فإذا اتصل بها الآدمي اشتعل ونضج جلده وإذا اتصلت بها الحجارة صهرت . وفي الاحتراق بالسيال الكهربائي نموذج يقرب ذلك للناس اليوم . وروى عن ابن عباس أن جهنم تتقد بحجارة الكبريت فيكون نموذجها البراكين الملتهبة .

وقوله أعدت للكافرين استئناف لم يُعطف لقصد التنبيه على أنه مقصود بالخبرية لأنه لو عطف لأوهم العطف أنه صفة ثانية أو صلة أخرى وجعله خبراً أهول وأنغم وأدخل للروع في قلوب المخاطبين وهو تعريض بأنها أعدت لهم ابتداء لأن المحاورة معهم .

وهذه الآية قد أثبتت إعجاز القرآن إثباتاً متواتراً امتاز به القرآن عن بقية المعجزات، فإن سائر المعجزات للأنبياء ولنبينا عليهم الصلاة والسلام إنما ثبتت بأخبار آحاد وثبت من جميعها قدر مشترك بين جميعها وهو وقوع أصل الإعجاز بتواتر معنوى مثل كرم حاتم وشجاعة عمرو فأما القرآن فأعجازه ثبت بالتواتر النقلي أدرك معجزته العرب بالحس . وأدركها عامة غيرهم بالنقل . وقد تدركها الخاصة من غيرهم بالحس كذلك على ما سنبينه .

أما إدراك العرب معجزة القرآن فظاهر من هذه الآية وأمثالها فإنهم كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وناووه وأعرضوا عن متابته فاجهم على إثبات صدقه بكلام أوحاه الله إليه، وجعل دليل أنه من عند الله عجزهم عن معارضته فإنه مركب من حروف لغتهم ومن كلماتها وعلى أساليب تراكيبها ، وأودع من الخصائص البلاغية ما عرفوا أمثاله في كلام بلغائهم من الخطباء والشعراء ثم حاكمهم إلى الفصل في أمر تصديقه أو تكذيبه بحكم سهل وعدل وهو معارضتهم لما أتى به أو عجزهم عن ذلك نطق بذلك القرآن في غير موضع كهاتة الآية فلم يستطيعوا المعارضة فكان عجزهم عن المعارضة لا يعدو أمرين: إما أن يكون عجزهم لأن القرآن بلغ فيما اشتمل عليه من الخصائص البلاغية التي يقتضيها الحال حد الإطاقة لأذهان بلغاء البشر بالإحاطة به ، بحيث لو اجتمعت أذهانهم وانقدحت قرائحهم وتأملوا وتشاوروا في نواديسهم وبطاحهم وأسواق موسمهم ، فأبدى كل بليغ ما لاح له من النكت والخصائص لوجدوا كل ذلك قد وفت به آيات القرآن في مثله وأتت بأعظم منه ، ثم لو لحق بهم لاحق ، وخلف من بعدهم خلف فأبدى ما لم يبدوه من النكت لوجد تلك الآية التي انقدحت فيها أفهام السابقين وأحصت ما فيها من الخصائص قد اشتملت على ما لاح لهذا الأخير وأوفر منه، فهذا هو القدر الذي أدركه بلغاء العرب بفطرتهم ، فأعرضوا عن معارضته علما بأنهم لا قبل لهم بمثله ، وقد كانوا من علو الهمة ورجاحة الرأي بحيث لا يعرضون أنفسهم للافتضاح ولا يرضون لأنفسهم بالانتقاص لذلك رأوا الإمساك عن المعارضة أجدى بهم واحتملوا النداء عليهم بالعجز عن المعارضة في مثل هذه الآية، لعلهم رأوا أن السكوت يقبل من التأويل بالأنفة ما لا تقبله المعارضة القاصرة عن بلاغة القرآن فثبت أنه معجز لبلوغه حدا لا يستطيعه البشر فكان هذا الكلام خارقاً للعادة ودليلاً على أن الله أوجده كذلك ليكون دليلاً على صدق الرسول فالعجز عن المعارضة لهذا الوجه كان لعدم القدرة على الإتيان

بمثله وهذا هو رأى جمهور أهل السنة والمعتزلة وأعيان الأشاعرة مثل أبى بكر الباقلانى وعبد القاهر الجرجانى وهو المشهور عن الأشعرى .

وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله ممكنة منهم المعارضة ولكنهم صرفهم الله عن التصدى لهم مع توفر الدواعى على ذلك فيكون صدمهم عن ذلك مع اختلاف أحوالهم أمرا خارقا للمادة أيضا وهو دليل المعجزة ، وهذا مذهب من قول ذهب إليه فريق وقد ذكره أبى بكر الباقلانى فى كتابه فى إعجاز القرآن ولم يعين له قائلا وقد نسبته التفتازانى فى كتاب المقاصد إلى القائلين إن الإعجاز بالصرفة^(١) وهو قول النظام من المعتزلة وكثير من المعتزلة ونسبه الخفاجى إلى أبى إسحاق الإسفرائينى ونسبه عياض إلى أبى الحسن الأشعرى ولكنه لم يشتر عنه وقال به الشريف المرتضى من الشيعة كفى المقاصد وهو مع كونه كافيا فى أن معجزهم على المعارضة بتعجيز الله إياهم هو مسلك ضعيف وقد تقدم الكلام على وجوه إعجاز القرآن تفصيلا فى المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير .

فإن قلت لم لا يجوز أن يكون ترك العرب للمعارضة تماجرا لا عجزا . وبعد فمن آمننا أن يكون العرب قد عارضوا القرآن ولم ينقل إلينا ما عارضوا به . قلت يستحيل أن يكون فعلهم ذلك تماجرا فإن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث فى أمة متوائمة له معادية لا كما بعث موسى فى بنى إسرائيل موالين معاضدين له ومشايخين فكانت العرب قاطبة معارضة للنبي صلى الله عليه وسلم إذ كذبوه ولمزوه بالجنون والسحر وغير ذلك لم يتبعه منهم إلا نفر قليل مستضعفين من قومهم لا نصير لهم فى أول الدعوة ثم كان من أمر قومه أن قاطعوه ثم أمروه بالخروج بين هم يقتله واقتصار على إخراجه كل هذا ثبت عنهم فى أحاديثهم وأقوالهم المنقولة نقلا يستحيل تواطؤنا عليه على الكذب وداموا على مناوراته بعد خروجه كذلك يصدونه عن الحج ويضطهدون أتباعه إلى آخر ما عرف فى التاريخ والسير ولم تكن تلك المناوأة فى أمد قصير يمكن فى خلاله كتم الحوادث وطى نشر المعارضة فإنها مدة تسع عشرة سنة إلى يوم فتح مكة .

(١) وقعت كلمة الصرفة فى عبارات التكميل ومنهم أبى بكر الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن »

ولم أر من ضبط الصاد منه فيجوز أن يكون صاده مفتوحا على زنة المرة مراداً بها مطلق وجود الصرف والأظهر أن يكون الصاد مقصورا على صيغة الهيئة أى حرفا مخصوصا بقدرة الله ويشعر بهذا قول الباقلانى فى كتاب « إعجاز القرآن » صرفهم الله عنه ضربا من الصرف .

لا جرم أن أقسى رغبة لهم في تلك المدة هي إظهار تكذيبه انتصاراً لأنفسهم ولأهلهم وتظاهراً بالنصر بين قبائل العرب كل هذا ثبت بالتواتر عند جميع الأمم المجاورة لهم من فارس وروم وقبط وأحباش .

ولا جرم أن القرآن قصر معهم مسافة المجادلة وهياً لهم طريق إلزامه بحقيقة ما نسبوه إليه فاتاهم كتاباً منزلاً نجوماً ودعاهم إلى المعارضة بالإتيان بقطعة قصيرة مثله وأن يجمعوا لذلك شهداءهم وأعوانهم نطق بذلك هذا الكتاب ، كل هذا ثبت بالتواتر فإن هذا الكتاب متواتر بين العرب ولا يخلو عن العلم بوجوده أهل الدين من الأمم وإن اشتماله على طلب المعارضة ثابت بالتواتر المعلوم لدينا فإنه هو هذا الكتاب الذي آمن المسلمون قبل فتح مكة به وحفظوه وآمن به جميع العرب أيضاً بعد فتح مكة فآلفوه كما هو اليوم شهدت على ذلك الأجيال جيلاً بعد جيل .

وقد كان هؤلاء المتحدون المدعوون إلى المعارضة بالمكانة المعروفة من أصالة الرأي واستقامة الأذهان ، ورجحان العقول وعدم رواج الزيف عليهم ، وبالكفاءة والقدرة على التفنن في المعاني والألفاظ تواتر ذلك كله عنهم بما نقل من كلامهم نظماً ونثراً وبما اشتهر وتواتر من القدر المشترك من بين المرويات من نوادرهم وأخبارهم فلم يكن يعوزهم أن يمارضوه لو وجدوه على النحو المتعارف لديهم فإن صحة أذهانهم أدركت أنه تجاوز الحد المتعارف لديهم فلذلك أعرضوا عن المعارضة مع توفر داعيهم بالطبع وحرصهم لو وجدوا إليه سبيلاً ثبت إعراضهم عن المعارضة بطريق التواتر إذ لو وقع مثل هذا لأعلنوه وأشاعوه وتناقله الناس لأنه من الحوادث العظيمة فعدلوا عن المعارضة باللسان إلى المحاربة والمكافأة ، ثبت ذلك بالتواتر لا محالة عند أهل التاريخ وغيرهم .

وأياماً جعلت سبب إعراضهم عن المعارضة من خروج كلامه عن طوق البشر أو من صرف الله أذهانهم عن ذلك فهو دليل على أمر خارق للعادة كان بتقدير من خلق القدر ومعجز البشر .

ووراء هذا كله دليل آخر يعرفنا بأن العرب بحسن فطرتهم قد أدرکوا صدق الرسول وفطنوا لإعجاز القرآن وأنه ليس بكلام معتاد للبشر وأنهم ما كذبوا إلا عناداً أو مكابرة وجرصاً على السيادة وتقوراً من الاعتراف بالخطأ ، ذلك الدليل هو إسلام جميع قبائل العرب

وتعاقبهم في الوفاة بعد فتح مكة فإنهم كانوا مقتدين بقريش في المارضة مكبرين المتأدبة لهذا الدين خشية مسبة بعضهم وخاصة قريش ومن ظاهريهم ، فلما غلبت قريش لم يبق ما يصد بقية العرب عن الحجة طائعين معترفين عن غير غلب فإنهم كانوا يستطيعون الثبات للمقارعة أكثر مما ثبتت قريش إذ قد كان من تلك القبائل أهل البأس والشدة من عرب نجد وطىء وغيرهم ممن اعتبر بهم الإسلام بعد ذلك فإنه ليس مما عرف في عوائد الأمم وأخلاقها أن تنبذ قبائل عظيمة كثيرة أدياناً تعتقد صحتها وتجيء جميعها طائفاً نابذاً دينه في خلال أشهر من عام الوفود لم يجمعهم فيه ناد ولم تسر بينهم سفراء ولا حشرهم مجتمع لولا أنهم كانوا متهيئين لهذا الاعتراف لا يصددهم عنه إلا صناد ضيف وهو السكارة والمائدة .

ثم في هذه الآية معجزة باقية وهي قوله ولن تفعلوا فإنها قد مرت عليها العصور والقرون ومصدقها واضح إذ لم تقع المعارضة من أحد من المخاطبين ولا ممن لحقهم إلى اليوم .

فإن قلت ثبت بهذا أن القرآن معجز للعرب وبذلك ثبت لديهم أنه معجزة وثبت لديهم به صدق الرسول ولكن لم يثبت ذلك لمن ليس مثلهم فإلى المعجزة لغيرهم؟ قلت إن ثبوت الإعجاز لا يستلزم مساواة الناس في طريق الثبوت فإنه إذا أعجز العرب ثبت أنه خارق للعادة لما علمت من الوجهين السابقين فيكون الإعجاز للعرب بالبداية ولن جاء بعدهم بالاستدلال والبرهان وهما طريقان لحصول العلم . وبعد فإن من شاء أن يدرك الإعجاز كما أدركه العرب فما عليه إلا أن يشتغل بتعلم اللغة وأدبها وخصائصها حتى يساوى أو يقارب العرب في ذوق لغتهم ثم ينظر بعد ذلك في نسبة القرآن من كلام بلغائهم ولم يخل عصر من فئة اضطلمت بفهم البلاغة العربية وأدركت إعجاز القرآن وهم علماء البلاغة وأدب العربية الصحيح . قال الشيخ عبد القاهر في مقدمة « دلائل الإعجاز » فإن قال قائل إن لنا طريقاً إلى إعجاز القرآن غير ما قلت (أى من توفقه على علم البيان) وهو علمنا بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله وتركهم أن يعارضوه مع تكرار التحدى عليهم وطول التقريع لهم بالعجز عنه ولو كان الأمر كذلك ما قامت به الحجة على العجم قيامها على العرب وما استوى الناس فيه قاطبة فلم يخرج الجاهل بلسان العرب عن أن يكون محجوجاً بالقرآن قيل له خبرنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص نبينا عليه السلام بأن كانت معجزته باقية على وجه الدهر أنعرف له معنى غير ألا يزال البرهان منه لائحاً معرضاً لكل من أراد العلم به والعلم به

ممكناً لمن التمسه وألا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذي كان به معجزاً قائم فيه أبداً اهـ . وقال السكاكي في معرض التنوية ببعض مسائل التقديم قوله « متوسلاً بذلك إلى أن يتأتنق في وجه الإعجاز في التنزيل منتقلاً مما أجمله عجز المتحدّين به عندك إلى التفصيل » وقد بينت في المقدمة العاشرة تفاصيل من وجوه إعجازه فقد اشتملت هذه الآية على أصناف من الإعجاز إذ نقلت الإعجاز بالتواتر وكانت بيلاغتها معجزة، وكانت معجزة من حيث الإخبار عن المستقبل كله بما تحقق صدقه فسبحان منزلها ومؤتيها .

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

في الكشف من عادته عز وجل في كتابه أن يذكر الترغيب مع التهيب ويشفع البشارة بالإنذار بإرادة التنشيط لا اكتساب ما يزلف والتثبيط عن اقتراف ما يتلف فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالمقاب قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة اهـ .

وجعل جملة وبشره معطوفة على مجموع الجمل المسوقة لبيان وصف عقاب الكافرين يعني جميع الذي فصل في قوله تعالى « وإن كنتم في ريب - إلى قوله - أعدت للكافرين » فمظف مجموع أخبار عن ثواب المؤمنين على مجموع أخبار عن عقاب الكافرين والمناسبة واضحة مسوغة لمطف المجموع على المجموع ، وليس هو عطفاً لجملة معينة على جملة معينة الذي يطلب معه التناسب بين الجملتين في الخبرية والإنشائية ، ونظره بقولك : زيد يعاقب بالقيّد والإرهاق وبشر عمرا بالعمو والإطلاق . وجعل السيد الجرجاني لهذا النوع من العطف لقبَ عطف القصة على القصة لأن المعطوف ليس جملة على جملة بل طائفة من الجمل على طائفة أخرى، ونظيره في المفردات ما قيل إن الواو الأولى والواو الثالثة في قوله تعالى « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » ليستا مثل الواو الثانية لأن كل واحدة منهما لإفلاة الجمع بين الصفتين المتقابلتين وأما الثانية فلمعطف مجموع الصفتين المتقابلتين اللتين بعدها على مجموع الصفتين المتقابلتين اللتين قبلها ولو اعتبر عطف الظاهر وحده على إحدى السابقتين

لم يكن هناك تناسب، هذا حاصله وهو يريد أن الواو عاطفة جملة ذات مبتدأ محذوف وخبرين على جملة ذات مبتدأ ملفوظ به وخبرين، فالتقدير وهو الظاهر والباطن وليس المراد أن المبتدأ فيها مقدر لإغناء حرف العطف عنه بل هو محذوف للقرينة أو المناسبة في عطف جملة الظاهر والباطن على جملة الأول والآخر . إنهما سفتان متقابلتان ثبتتا لموصوف واحد هو الذي ثبتت له صفتان متقابلتان أخريان .

قال السيد ولم يذكر صاحب المفتاح عطف القصة على القصة فتحير الجامدون على كلامه في هذا المقام وتوهموا أن مراد صاحب الكشف هنا عطف الجملة على الجملة وأن الخبر المتقدم مضمن معنى الطلب أو بالعكس لتتناسب الجملتان مع أن عبارة الكشف صريحة في غير ذلك وقصد السيد من ذلك إبطال فهم فهمه سعد الدين من كلام الكشف وأودعه في شرحه المطول على التلخيص (١) .

وجوز صاحب الكشف أن يكون قوله «وبشر» معطوفا على قوله فاتقوا الله الذي هو جواب الشرط فيكون له حكم الجواب أيضا وذلك لأن الشرط وهو فإن لم تفعلوا سبب لهما لأنهم إذا عجزوا عن المعارضة فقد ظهر صدق النبي فحق اتقاء النار وهو الإنذار لمن دام على كفره وحقت البشارة للذين آمنوا . وإنما كان المعطوف على الجواب مخالفا له لأن الآية سبقت مساق خطاب للكافرين على لسان النبي فلما أريد ترتب الإنذار لهم والبشارة للمؤمنين جعل الجواب خطابا لهم مباشرة لأنهم المبتدأ بخطابهم وخطابا للنبي ليخاطب المؤمنين إذ ليس للمؤمنين ذكر في هذا الخطاب فلم يكن طريق لخطابهم إلا الإرسال إليهم .

(١) قال قد يومئ تمثيل صاحب الكشف لذلك بقولك : زيد يعاقب بالقيد والإرهاق وبشر عمرا بالغفو والإطلاق توجيه ما توهمه المتوهمون في مراد الكشف لأن مثاله من قبيل عطف الجمل ، إلا أن كشف ذلك عنهم أنه أشار إلى تمثيل المناسبة بين الجملتين الموجبة العطف وإن كان المحكوم عليه بإحداها غير المحكوم عليه بالأخرى وكانتا مختلفتين بالخبرية والإنشائية . ومقصد السيد التعريض بكلام التفترائي في الطول لأنه ذكر بحثا بناء على أن كلام الكشف ناظر إلى أن الآية من عطف الجمل وأنه لم يرد أن الخبر بمعنى الإنشاء أو العكس حتى ورد أن التأويل غير متعين عند من لا يشترط اتحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية فإن التفترائي في شرح الكشف هو الذي فتح الطريق للسيد في هذا الفهم .

وقد استضعف هذا الوجه بأن علماء النحو قرروا امتناع عطف أمر مخاطب على أمر مخاطب إلا إذا اقترن بالنداء نحو قم يا زيد و اكتب يا عمرو ، وهذا لا نداء فيه .

وجوز صاحب المفتاح أن بشر معطوف على قُلْ مقدراً قبل « يا أيها الناس اعبدوا » وقال القزويني في الإيضاح إنه معطوف على مقدر بعد قوله « أعدت للكافرين » أى فأندر الذين كفروا وكل ذلك تكلف لا داعي إليه إلا الوقوف عند ظاهر كلام النحاة مع أن صاحب الكشف لم يعبأ به قال عبد الحكيم لأن منع النحاة إذا اتفقت قرينة تدل على تغاير المخاطبين والنداء ضرب من القرينة نحو « يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك » اهـ . يريد أن كل ما يدل على المراد بالمخاطب فهو كاف وإنما خص النحاة النداء لأنه أظهر قرينة واختلاف الأمرين هنا بعلامة الجمع والإفراد دال على المراد ، وأياً ما كان فقد روعي في الجمل المعطوفة ما يقابل ما في الجمل المعطوف عليها فقوبل الإنذار الذى فى قوله « فاتقوا النار » بالتبشير وقوبل الناس المراد به المشركون بالذين آمنوا وقوبل النار بالجنة فحصل ثلاثة طباقات .

والتبشير الإخبار بالأمر المحبوب فهو أخص من الخبر وقيد بعض العلماء معنى التبشير بأن يكون الخبر (بالفتح) غير عالم بذلك الخبر والحق أنه يكفي عدم تحقق الخبر (بالكسر) علم الخبر (بالفتح) فإن الخبر (بالكسر) لا يلزمه البحث عن علم المخاطب فإذا تحقق الخبر علم المخاطب لم يصح الإخبار إلا إذا استعمل الخبر فى لازم الفائدة أو فى توبيخ ونحوه .

والصالحات جمع صالحة وهى الفعل الحسنه فأصلها صفة جرت مجرى الأسماء لأنهم يقولون صالحة وحسنة ولا يقدرّون موصوفاً محذوفاً قال الخطيئة :

كيف الهجاء وما تنفك صالحةً من آل لأمٍ يظهر الغيب تأتينا

وكأن ذلك هو وجه تأنيثها للنقل من الوصفية للاسمية والتعريف هنا للاستفراق وهو استفراق عرقى يحدد مقداره بالتكليف والاستطاعة والأدلة الشرعية مثل كون اجتناب الكبائر يغفر الصغائر فيجعلها كالعدم

فإن قلت إذا لم يقل وعملوا الصالحة بالإفراد فقد قالوا إن استفراق المفرد أشمل من استفراق المجموع ، قلت تلك عبارة سرت إليهم من كلام صاحب الكشف فى هذا الموضع

من تفسيره إذ قال « إذا دخلت لام الجنس على المفرد كان صالحا لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه وإذا دخلت على المجموع صلح أن يراد به جميع الجنس وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه اهـ » . فاعتمدها صاحب المفتاح وتناقلها العلماء ولم يفصلوا بيانها .

ولعل سائلا يسأل عن وجه إتيان العرب بالجوع بعد أل الاستغراقية إذا كان المفرد مغنيا غناها فأقول: إن أل المعرفة تأتي للمهد وتأتي للجنس مرادا به الماهية وللجنس مرادا به جميع أفرادها التي لا قرار له في غيرها فإذا أرادوا منها الاستغراق نظروا فإن وجدوا قرينة الاستغراق ظاهرة من لفظ أو سياق نحو « إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا » . « وتؤمنون بالكتاب كله » « والمَلَكُ على أرجائها » اقتنموا بصيغة المفرد لأنه الأصل الأخف وإن رأوا قرينة الاستغراق خفية أو مفقودة عدلوا إلى صيغة الجمع لدلالة الصيغة على عدة أفراد لا على فرد واحد ولما كان تعريف المهد لا يتوجه إلى عدد من الأفراد غالبا تعين أن تعريفها للاستغراق نحو « والله يحب المحسنين » لثلاثتهم أن الحديث على محسن خاص نحو قولها « وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » لثلاثتهم أن الحديث عن خائن معين تعنى نفسها فيصير الجمع في هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق . وانتصب الصالحات على المفعول به لعملا على العروف من كلام أئمة العربية وزعم ابن هشام في الباب السادس من مغنى اللبيب أن مفعول الفعل إذا كان لا يوجد إلا بوجود فعله كان مفعولا مطلقا لا مفعولا به فنحو « عملوا الصالحات » مفعول مطلق ونحو « خلق الله السموات » كذلك، واعتضد لذلك يأن ابن الحاجب في شرح الفصل زعم أن المفعول المطلق يكون جملة نحو قال زيد عمرو منطلق وكلام ابن هشام خطأ وكلام ابن الحاجب مثله، وقد رده ابن هشام نفسه . والصواب أن المفعول المطلق هو مصدر فعله أو ما يجري مجراه .

والجنات جمع جنة، والجنة في الأصل فلة من جنه إذا ستره ثقلوه للمكان الذي تكاثرت أشجاره والتف بمضها يبعض حتى كثر ظلها وذلك من وسائل التمتع والترفة عند البشر قاطبة^(١) لا سيما في بلد تغلب عليه الحرارة كبلاد العرب قال تعالى « وجنات ألفافا » .

(١) فإن الإنسان مجبول على حب المناظر الجميلة والليل لما يقاربه في الخلقة ، وفي الشجر جمال الشكل واللون وفيه أنس للنفس لأن فيه حياة فناسب النفوس مثل التأنس بالحيوان والأنعام التي قال تعالى فيها « ولكم فيها جمال » ففي مناظر الأشجار جمال يفوق جمال مناظر ما لا حياة فيه كالقصور والرياش .

والجرى حقيقته سرعة شديدة في الشئ، ويطلق مجازا على سَيْلِ الماء سَيْلا متكررا متعاقبا وأحسن الماء ما كان جاريا غير قار لأنه يكون بذلك جديدا كلما اغترف منه شارب أو اغتسل مغتسل .

والأنهار جمع نهر بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح والنهر الأخدود الجاري فيه الماء على الأرض وهو مشتق من مادة نَهَرَ الدالة على الانشقاق والاتساع ويكون كبيرا وصغيرا . وأكمل محاسن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شئ اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس الناظر لأن في الماء طبيعة الحياة ولأن الناظر يرى منظرًا بديما وشيئا لذيذا .

وأودع في النفوس حب ذلك فيما لأن الله تعالى أعد نعيم الصالحين في الجنة على نحو ما ألفتهم أرواحهم في هذا العالم فإن للإلف تمكنا من النفوس والأرواح بمرورها على هذا العالم عالم المادة اكتسبت معارف ومألوفاً لم تزل تحن إليها وتعدّها غاية المني ولذا أعد الله لها النعيم الدائم في تلك الصور ، وإما لأن الله تعالى حجب إلى الأرواح هاته الأشياء في الدنيا لأنها على نحو ما ألفتها في العوالم العليا قبل نزولها للأبدان لإلفها بذلك في عالم المثال ، وسبب فقرتها من أشكال منحرفة وذوات بشعة عدم إلفها بأمثالها في عوالمها . والوجه الأول الذي ظهر لي أراه أقوى في تعليل محببة لذات الجنة على صور اللذات المعروفة في الدنيا وسينفعنا ذلك عند قوله تعالى « وأتوا به متشابهها » .

ومعنى من تحتها من أسفلها والضمير عائد إلى الجنات باعتبار مجموعها المشتمل على الأشجار والأرض النابتة فيها ويجوز عود الضمير إلى الجنات باعتبار الأشجار لأنها أهم ما في الجنات، وهذا القيد لمجرد الكشف فإن الأنهار لا تكون إلا كذلك وبفيد هذا القيد تصوير حال الأنهار لزيادة تحسين وصف الجنات كقول كعب بن زهير :

شَجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَحْنَى وَهُوَ مَشْمُولٌ

البيتين .

وقد أورد صاحب الكشف توجيهها لتعريف الأنهار ومخالفتها لتكثير جنات إما بأن يراد تعريف الجنس فيكون كالنكرة وإما بأن يراد من التعريف العهد إلا أنه عهد تقديرى لأن الجنات لما ذكرت استحضر لذهن السامع لوازمها ومقارناتها فساغ للمتكلم أن يشير

إلى ذلك المهود فجئء باللام ، وهذا معنى قوله أو يراد أنها رها فموض التعريف باللام من تعريف الإضافة ، يريد أن التكلم في مثل هذا المقام في حيرة بين أن يأتي بالأنهار معرفة بالإضافة للجنات وبين أن يعرفها بأل المهدي . عهدا تقديريا واختير الثاني تفاديا من كلفة الإضافة وتنبيها على أن الأنهار نعمة مستقلة جديرة بأن لا يكون التمتع بها تبعا للتمتع بالجنات وليس مراده أن أل عوض عن المضاف إليه على طريقة نحاة الكوفة لأنه قد أباه في تفسير قوله تعالى « فإن الجحيم هي المأوى » وإنما أراد أن الإضافة واللام متماقتان هنا وليس ذلك صالحا في كل موضع ^(١) على أنى أرى مذهب الكوفيين مقبولا وأنهم ما أرادوا إلا بيان حاصل المعنى من ذلك التعريف فإن تقدير المضاف إليه هو الذى جعل المضاف المذكور كالمهود فأدخلت عليه لام التعريف المهدي .

وعندى أن الداعى إلى التعريف هو التفنن لثلا يعاد التذكير مرة ثانية فغولف بينهما في اللفظ اقتناعا بسورة التعريف .

وقوله « من تحتها » يظهر أنه قيد كاشف قصد منه زيادة إحضار حالة جرنى الأنهار إذا الأنهار لا تكون في بعض الأحوال تجرى من فوق فهذا الوصف جئء به لتصوير الحالة للسامع لقصد الترغيب وهذا من مقاصد البلاغ إذ ليس البليغ يقتصر على مجرد الإفهام ، وقريب من هذا قول النابغة يصف فرس الصائد وكلايه ..

من حس أطلس تسمى تحتها شرع كأن أحنا كها السفلى مآشير

والتحت اسم لجهة المكان الأسفل وهو ضد الأعلى . ولكل مكان علو وسفل ولا يقتضى ذلك ارتفاع ما أضيف إليه التحت على التحت بل غاية مدلوله أنه بجهة سفله قال تعالى حكاية عن فرعون « وهذه الأنهار تجري من تحتي » فلا حاجة إلى تأويل الجنة هنا بالأشجار لتصحيح التحت ولا إلى غيره من التكاليف .

(١) إشارة إلى التفرقة بين ما جوزوه الزخمرى هنا وما منعه من مذهب الكوفيين ، وذلك أن الكوفيين جوزوا جعل اللام عوضا عن المضاف إليه مطلقا ، فعلى مذهبهم يصح أن تقول إذا لقيت زيدا فاسمع الكلام ، تريد كلامه ، أو فاضرب الوجه . وأما ما ذكره الزخمرى فذلك عند ما يكون المضاف مستحضرا في ذهن فتصح الإضافة وتصح اللام فهو أخص من مذهب الكوفيين وهو أيضا محتاج لنكته بخلاف مذهبهم وصحة حلول اللام عوضا عن المضاف على قوله حاصلة غير مقصودة بل هي بطريق المأل بخلاف مذهب الكوفيين .

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ 25

جملة «كلما رزقوا» يجوز أن تكون صفة ثانية للجنات . ويجوز أن تكون خبراً عن مبتدأ محذوف وهو ضمير الذين آمنوا فتكون جملة ابتدائية الغرض منها بيان شأن آخر من شؤون الذين آمنوا، ولكمال الاتصال بينها وبين جملة أن لهم جنات فصلت عنها كما تفصل الأخبار المتعددة .

وكلا ظرف زمان لأن كلا أضيفت إلى ما الظرفية المصدرية فصارت لاستغراق الأزمان المقيدة بصلة ما المصدرية وقد أشربت معنى الشرط لذلك فإن الشرط ليس إلا تعليقاً على الأزمان انقيدة بمدلول فعل الشرط ولذلك خرجت كثير من كلمات العموم إلى معنى الشرط عند اقترانها بما الظرفية نحو كيفما وحيثما وأما وأينما ومتى وما ومهما . والناصب لكلا الجواب لأن الشرطية طارئة عليها طرياً غير مطرد بخلاف مهما وأخواتها .

وإذ كانت كلما ناصاً في عموم الأزمان تعين أن قوله من قبل المبني على الضم هو على تقدير مضاف ظاهر التقدير أى من قبل هذه المرة فيقتضى أن ذلك ديدن صفات ثمراتهم أن تأتهم في صور ما قدم إليهم في المرة السابقة . وهذا إما أن يكون حكاية لصفة ثمار الجنة وليس فيه قصد امتنان خاص فيكون المعنى أن ثمار الجنة متحدة الصورة مختلفة الطعوم . ووجه ذلك والله أعلم أن اختلاف الأشكال في الدنيا نشأ من اختلاف الأمراض والتراكيب فأما موجودات الآخرة فإنها عناصر الأشياء فلا يعقورها الشكل وإعما يحىء في شكل واحد وهو الشكل العنصرى . ويحتمل أن في ذلك تعجيباً لهم والشئ العجيب لذيد الوقع عند النفوس ولذلك يرغب الناس في مشاهدة العجائب والنوادر . وهذا الاحتمال هو الأظهر من السياق . ويحتمل أن كلما لعموم غير الزمن الأول فهو عام مراد به الخصوص بالقرينة ، ومعنى من قبل في المرة الأولى من دخول الجنة . ومن المفسرين من حمل قوله من قبل على تقدير من قبل دخول الجنة أى هذا الذى رزقناه في الدنيا ، ووجهه في الكشف « بأن الإنسان بالمألوف آنس » وهو بعيد لاقتضائه أن يكون عموم كلما مراداً به خصوص الإتيان به في المرة الأولى في الجنة ولأنه يقتضى اختلاف الطعم واختلاف الأشكال وهذا أضعف في التعجيب ، ولأن من أهل الجنة من

لا يعرف جميع أصناف الثمار فيقتضى تحديد الأصناف بالنسبة إليه . وقوله « وأتوا به متشابهاً » ظاهره في أن التشابه بين المأثي به لا بينه وبين ثمار الدنيا . ثم من الله عليهم بنعمة التأنس بالأزواج وزه النساء عن عوارض نساء الدنيا مما تشمئز منه النفس لولا التسيان فجمع لهم سبحانه اللذات على نحو ما ألفوه فكانت نعمة على نعمة .

والأزواج جمع زوج يقال للذكر والأنثى لأنه جعل الآخر بعد أن كان منفرداً زوجاً وقد يقال للأنثى زوجة بالتاء وورد ذلك في حديث عمار بن ياسر في البخاري « إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة » يعني عائشة وقال الفرزدق :

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساعٍ إلى أسد الشرى يستميلها

وقوله « وهم فيها خالدون » احتراس من توهم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال وذلك ينقصها عند المنعم عليه كما قال أبو الطيب :

أشدُّ الغم عندى في سرور تحقَّقَ عنه صاحبه انتقالاً

وقوله « مطهرة » هو بزنة الأفراد وكان الظاهر أن يقال مطهرات كما قرئ بذلك ولكن العرب تعدل عن الجمع مع التأنيث كثيراً لثقلهما لأن التأنيث خلاف المألوف والجمع كذلك، فإذا اجتمعا تفادوا عن الجمع بالأفراد وهو كثير شائع في كلامهم لا يحتاج للاستشهاد.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي، أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

قد يبدو في بادى النظر عدم التناسب بين مساق الآيات السالفة ومساق هاته الآية حينما كانت الآية السابقة ثناء على هذا الكتاب المبين، ووصف حال المهتدين بهديه والتاكيد عن صراطه وبيان إعجازه والتحدى به مع ما تخلل وأعقب ذلك من المواظ، والزواج، النافمة والبيانات البالغة والتمثيلات الرائعة ، إذا بالكلام قد جاء يخبر بأن الله تعالى لا يعبأ أن يضرب مثلاً بشيء حقير أو غير حقير . فحقيق بالمناظر عند التأمل أن تظهر له المناسبة لهذا الانتقال : ذلك أن الآيات السابقة اشتملت على تحدى البلقاء بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، فلما عجزوا عن معارضة النظم سلكوا في الممارسة طريقة الطمن في المعاني فلبسوا على الناس بأن في القرآن من سخيف المعنى ما ينزه عنه كلام الله ليصلوا بذلك إلى إبطال

أن يكون القرآن من عند الله بإلقاء الشك في نفوس المؤمنين وبذر الخصب في تنفير المشركين والمنافقين .

روى الواحدى فى أسباب النزول عن ابن عباس أن الله تعالى لما أنزل قوله «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه - وقوله - مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً» قال المشركون أرايتم أى شئ يصنع بهذا فأُنزل الله «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها» وروى عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب بها المثل ضحك اليهود وقالوا ما يشبه أن يكون هذا كلام الله فأُنزل الله «إن الله لا يستحي» الآية .

والوجه أن نجتمع بين الروايتين ونبين ما انطوتا عليه بأن المشركين كانوا يفرعون إلى يهود يثرب فى التشاور فى شأن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وخاصة بعد أن هاجر النبىء صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فيتلقون منهم صوراً من الكيد والتشغيب فيكون قد تظاهر الفريقان على الطعن فى بلاغة ضرب المثل بالعنكبوت والذباب فلما أنزل الله تعالى تمثيل المنافقين بالذى استوقد ناراً وكان معظمهم من اليهود هاجت أحناقهم وضاق خناقهم فاختلفوا هذه المطاعن فقال كل فريق مانسب إليه فى إحدى الروايتين ونزلت الآية للرد على الفريقين ووضح الصبح لئى عيين .

فيحتمل أن ذلك قاله علماء اليهود الذين لاحظ لهم فى البلاغة ، أو قد قالوه مع علمهم بفنون ضرب الأمثال مكابرة وتجاهلاً . وكون القائلين هم اليهود هو الموافق لكون السورة نزلت بالمدينة ، وكان أشد المعاندين فيها هم اليهود ، ولأنه الأوفق بقوله تعالى « وما يضل به إلا الفاسقين الذى ينقضون عهد الله » وهذه صفة اليهود ، ولأن اليهود قد شاع بينهم التشاؤم والغلو فى الحذر من مدلولات الألفاظ حتى اشتهروا باستعمال الكلام الموجه بالشتيم والذم كقولهم راعنا ، قال تعالى « فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم » كما ورد تفسيره فى الصحيح ولم يكن ذلك من شأن العرب . وإما أن يكون قائله المشركون من أهل مكة مع علمهم بوقوع مثله فى كلام بلغائهم كقولهم أجراً من ذبابة ، وأسمع من قراد ، وأطيش من فراشة ، وأضعف من بموضة . وهذا الاحتمال أدل ، على أنهم ما قالوا ما هذا

التمثيل إلا مكابرة ومماندة فإنهم لما غلبوا بالتحدى وعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله تعلقوا في معاذيرهم بهاته السفاضة، والمكابر يقول ما لا يمتقد، والمججوج المبهوت يستعوج المستقيم ويخفى الواضح، وإلى هذا الثانى ينزع كلام صاحب الكشف وهو أوفق بالسياق. والسورة وإن كانت مدنية فإن المشركون لم يزالوا يلقون الشبه فى صحة الرسالة ويشيعون ذلك بعد الهجرة بواسطة المنافقين . وقد دل على هذا المعنى قوله بعده « فأما الذين آمنوا فمعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا - إلى قوله - ويهدى به كثيرا » .

فإن قيل لم يكن الرد عقب نزول الآيات الواقع فيها التمثيل الذى أنكروه فإن البدار بالرد على من فى مقاله شبهة رائجة يكون أقطع لشبهته من تأخير زمانا .

قلنا الوجه فى تأخير نزولها أن يقع الرد بعد الإتيان بأمثال معجبة اقتضاها مقام تشبيه الهيئات، فذلك كما يمنع الكريم عدوه من عطاء فيلمزه المنوع بلز البخل، أو يتأخر الكفى عن ساحة القتال مكيدة فيظنه ناس جبنا فيسرهما الأول فى نفسه حتى يأتية القاصد فيعطيه عطاء جزلا، والثانى حتى يكر كركة تكون القاضية على قرنه . فكذلك لما أتى القرآن بأعظم الأمثال وأروعها وهى قوله « مثلهم كمثل الذى استوقد » « أو كصيب » الآيات وقوله « صم بكم عى » أتى إثر ذلك بالرد عليهم فهذا يبين لك مناسبة نزول هذه الآية عقب التى قبلها وقد غفل عن بيانه المفسرون .

والمراد بالمثل هنا الشبه مطلقا لا خصوص المركب من أسيطة، بخلاف قوله فيما سبق « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » لأن المعنى هنا ما طعنوا به فى تشابه القرآن مثل قوله « لن يخلقوا ذبابا » وقوله « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا » . وموقع (إن) هنا بين .

وأما الإتيان بالسند إليه علما دون غيره من الصفات فلا أن هذا العلم جامع لجميع صفات الكمال فذكره أوقع فى الإقناع بأن كلامه هو أعلى كلام فى مراعاة ما هو حقيق بالمراعاة وفى ذلك أيضا إبطال لتمويههم بأن اشتغال القرآن على مثل هذا المثل دليل على أنه ليس من عند الله فليس معنى الآية أن غير الله ينبغى له أن يستحي أن يضرب مثلا من هذا القبيل . ولهذا أيضا اختيار أن يكون السند خصوص فعل الاستحياء زيادة فى الرد عليهم لأنهم أنكروا التمثيل بهاته الأشياء لمراعاة كراهة الناس ومثل هذا ضرب من الاستحياء كما سنبينه

فنبهوا على أن الخالق لا يستحي من ذلك إذ ليس مما يستحي منه، ولأن المخلوقات متساوية في الضعف بالنسبة إلى خالقها والمتصرف فيها، وقد يكون ذكر الاستحياء هنا محاكاة لقولهم أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والنعكبات .

فإن قلت إذا كان استعمال هذه الألفاظ الدالة على معان حقيرة غير محل بالبلاغة فما بالناس نرى كثيراً من أهل النقد قد تقدوا من كلام البلغاء ما اشتمل على مثل هذا كقول الفرزدق :
 من عزّم حجرت كليب بيتها زربا كأنهم لديه القمل
 وقول أبي الطيب :

أما تكم من قبل موتكم الجهل وجركم من خفة بكم النمل
 وقول الطرمّاح :

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة يكرّ على ضبعي تميم لولّت
 قلت أصول الانتقاد الأدبي تؤول إلى بيان ما لا يحسن أن يشتمل عليه كلام الأديب من جانب صناعة الكلام، ومن جانب صور المعاني، ومن جانب المستحسن منها والمكروه وهذا النوع الثالث يختلف باختلاف العوائد ومدارك العقول وأصالة الأفهام بحسب الغالب من أحوال أهل صناعة الأدب، ألا ترى أنه قد يكون اللفظ مقبولا عند قوم غير مقبول عند آخرين، ومقبولا في عصر مرفوضا في غيره، ألا ترى إلى قول النابغة يخاطب الملك النعمان :
 فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
 فإن تشبيه الملك بالليل لو وقع في زمان المولدين لعدّ من الجفاء أو العجرفة، وكذلك تشبيههم بالحية في الإقدام وإهلاك العدو في قول ذى الإصبع :

عذير الحى من عدوا ن كانوا حية الأرض
 وقول النابغة في رثاء الحارث الغسانی :

ماذا رزئنا به من حية ذكر نضناضة بالزايّا صلّ أصلال
 وقد زعم بعض أهل الأدب أن علياً بن الجهم مدح الخليفة التوكل بقوله
 أنت كالكلب في وفائك بالعم د وكالتيس في قراع الخطوط

وأنه لما سكن بغداد وعلقت نضارة الناس بخياله قال في أول ما قاله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري^(١)

وقد انتقد بشاراً على كثيرٍ قوله :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا لمسوها بالأكف تلينُ

فقال لو جعلها عصا مخ أو عصا زبد لما تجاوز من أن تكون عصا ، على أن بشاراً

هو القائل :

إذا قامت لجارتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وشبه بشار عبدة بالحية في قوله :

وكانها لما مشت أيتم تأود في كثيب

والاستحياء والحياء واحد ، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استقدم واستأخر واستجاب .

وهو اقتباس النفس من صدور فعل أو تلقيه لاستشمار أنه لا يليق أو لا يحسن في متعارف

أمثاله ، فهو هيئة تعرض للنفس هي من قبيل الانفعال يظهر أثرها على الوجه وفي الإمساك

عن ما من شأنه أن يفعل .

والاستحياء هنا منفي عن أن يكون وصفاً لله تعالى فلا يحتاج إلى تأويل في صحة إسناده

إلى الله ، والتعلل لذلك بأن نفي الوصف يستلزم صحة الاتصاف تعلق غير مسلم ،

والضرب في قوله (أن يضرب مثلاً) مستعمل مجازاً في الوضع والجمل من قولهم ضرب

خيمة وضرب بيتاً . قال عبدة بن الطبيب :

إن التي ضربت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند غالت ودّها غول

وقول الفرزدق :

ضربت عليك المنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

أي جعل شيئاً مثلاً أي شبهاً ، قال تعالى « فلا تضربوا لله الأمثال » أي لا تجعلوا له أمثاله

من خلقه فاتتصاب مثلاً على المفعول به وجوز بعض أئمة اللغة أن يكون فعل ضرب مشتقاً

(١) انظر صفحة ٤ جزء ٣ من محاضرات الأبرار لابن عربي طبع حجر بمطبعة شعراوي سنة

من الضرب بمعنى المائل فانتصاب مثلاً على المفعولية المطلقة للتوكيد لأن مثلاً مرادف مصدر فعله على هذا التقدير ، والمعنى لا يستحي أن يشبه بشيء ما . والمثل الثيل والمشابه وغلب على مماثلة هيئة بهيئة وقد تقدم عند قوله تعالى «مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً» وتقدم هناك معنى ضرب المثل بالمعنى الآخر وتنكير مثلاً للتنويع بقرينة بيانه بقوله بعوضة فما فوقها .

وما إبهامية تتصل بالنكرة فتؤكد معناها من تنويع أو تفخيم أو تحقير، نحو لأمر ما وأعطاه شيئاً ما . والأظهر أنها مزيدة لتسكون دلالتها على انتاكيد أشد وقيل اسم بمعنى النكرة المبهمة .

وبعوضة بدل أو بيان من قوله مثلاً . والبعوضة واحدة البعوض وهي حشرة صغيرة طائرة ذات خرطوم دقيق محوم على الإنسان لتمتص بخرطومها من دمه غذاء لها، وتعرف في لغة هذيل بالحموش، وأهل تونس يسمونه التاموس واحده التاموسة وقد جعلت هنا مثلاً لشدة الضعف والحقارة .

وقوله «فما فوقها» عطف على بعوضة ، وأصل فوق اسم للمكان المعتلى على غيره فهو اسم مبهم فذلك كان ملازماً للإضافة لأنه تتميز جهته بالاسم الذي يضاف هو إليه فهو من أسماء الجهات اللازمة للإضافة لفظاً أو تقديرأ ويستعمل مجازاً في التجاوز غيره في صفة تجاوزاً ظاهراً تشبيهاً بظهور الشيء المعتلى على غيره على ما هو معتل عليه ، ففوق في مثله يستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة سواء كانت من المحامد أو من المذام يقال فلان خسيس وفوق الخسيس وفلان شجاع وفوق الشجاع، وتقول أعطى فلان فوق حقه أى زائداً على حقه . وهو في هذه الآية صالح للمعنيين أى ما هو أشد من البعوضة في الحقارة وما هو أكبر حجماً . ونظيره قول النبي صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة» رواه مسلم، يحتمل أقل من الشوكة في الأذى مثل نخبة النملة كما جاء في حديث آخر، أو ما هو أشد من الشوكة مثل الوزر بسكين وهذا من تصاريف لفظ فوق في الكلام ولذلك كان لاختياره في هذه الآية دون لفظ أقل ، ودون لفظ أقوى مثلاً موقع من بليغ الإيجاز.

والفاء عاطفة مافوقها على بموضة أفادت تشريكهما في ضرب المثل بهما، وحققا أن تفيد الترتيب والتعقيب ولكنها هنا لا تفيد التعقيب وإنما استعملت في معنى التدرج في الرتب بين مفاعيل أن يضرب ولا تفيد أن ضرب المثل يكون بالمعوضة ويعقبه ضربه بما فوقها بل المراد بيان المثل بأنه المعوضة وما يتدرج في مراتب القوة زائدا عليها درجة تلي درجة الفاء في مثل هذا مجاز مرسل علاقته الإطلاق عن القيد لأن الفاء موضوعة للتعقيب الذي هو اتصال خاص، فاستعملت في مطلق الاتصال، أو هي مستعمارة للتدرج لأنه شبيه بالتعقيب في التأخر في التعقل كما أن التعقيب تأخر في الحصول ومنه « رحم الله المحلقين فالقصرين » . والمعنى أن يضرب المعوضة مثلا فيضرب ما فوقها أى ما هو درجة أخرى أى أحقر من المعوضة مثل النذرة وأعظم منها مثل المنكبات والحمار .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ ﴾

الفاء للتعقيب الذكري دون الحصولى أى لتعقيب الكلام المفصل على الكلام المجمل عطفت المقدر في قوله لا يستجى لأن تقديره لا يستجى من الناس كما تقدم، ولما كان في الناس مؤمنون وكافرون وكلا الفريقين تلقى ذلك المثل واختلفت حالهم في الانتفاع به، نشأ في الكلام إجمال مقدر اقتضى تفصيل حالهم . وإنما عطف بالفاء لأن التفصيل حاصل عقب الإجمال .

وأما حرف موضوع لتفصيل مجمل ملفوظ أو مقدر . ولما كان الإجمال يقتضى استشراف السامع لتفصيله كان التصدى لتفصيله بمنزلة سؤال مفروض كأن التكلم يقول إن شئت تفصيله فتفصيله كيت وكيت، فلذلك كانت أما متضمنة معنى الشرط ولذلك لزمها الفاء في الجملة التي بعدها لأنها كجواب شرط ، وقد تجاوز عن معنى التفصيل في خصوص قول العرب أما بعد فتتمحض للشرط وذلك في التحقيق لخفاء معنى التفصيل لأنه مبني على رقب السامع كلاماً بعد كلامه الأول . وقدرها سيويوه بمعنى مهما يكن من شيء، وتلقفه أهل العربية بعده وهو عندى تقدير معنى لتصحيح دخول الفاء في جوابها وفي النفس منه شيء

لأن دعوى قصد عموم الشرط غير بينة ، فإذا جئنا بأداة التفصيل المتضمنة معنى الشرط دل ذلك على مزيد اهتمام المتكلم بذلك التفصيل فأفاد تقوية الكلام التي سماها الزمخشري تأكيداً وما هو إلا دلالة الاهتمام بالكلام ، على أن مضمونه محقق ولولا ذلك لما اهتم به وبهذا يظهر فضل قوله «فأما الذين آمنوا فيعلمون» إلخ على أن يقال فالذين آمنوا يعلمون بدون أما والقاء . وجعل تفصيل الناس في هذه الآية قسامين لأن الناس بالنسبة إلى التشريع والتزويل قسمان إبتداء مؤمن وكافر ، والمقصود من ذكر المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم وتأييس الذين أرادوا إلقاء الشك عليهم فيعلمون أن قلوبهم لا مدخل فيها لذلك الشك . والمراد بالذين كفروا هنا إما خصوص المشركين كما هو مصطلح القرآن غالباً ، وإما ما يشملهم ويشمل اليهود بناء على ماسلف في سبب نزول الآية .

وإنما عبر في جانب المؤمنين بـ يعلمون تعريضاً بأن الكافرين إنما قالوا ما قالوا عنادا ومكابرة وأنهم يعلمون أن ذلك تمثيل أصاب الحز ، كيف وهم أهل اللسان وفرسان البيان ، ولكن شان المعاند المكابر أن يقول مالا يمتدح حسداً وعناداً . وضمير (أنه) عائد إلى المثل . (والحق) ترجع معانيه إلى موافقة الشيء لما يحق أن يقع وهو هنا الموافق لإصابة الكلام وبلاغته . (ومن ربه) حال من الحق ومن إبتدائية أى وارد من الله لا كما زعم الذين كفروا أنه مخالف للصواب فهو مؤذن بأنه من كلام من يقع منه الخطأ .

وأصل (ماذا) كلمة مركبة من ما الاستفهامية وذأ اسم الإشارة ولذلك كان أصلها أن يسأل بها عن شيء مشار إليه كقول القائل ماذا مشيراً إلى شيء حاضر بمنزلة قوله ما هذا . غير أن العرب توسعوا فيه فاستعملوه اسم استفهام مركباً من كلمتين وذلك حيث يكون المشار إليه معبراً عنه بلفظ آخر غير الإشارة حتى تصير الإشارة إليه مع التعبير عنه بلفظ آخر ليجرد التأكيدي ، نحو ماذا التواني ، أو حيث لا يكون للإشارة موقع نحو « وماذا عليهم لو آمنوا بالله » ولذلك يقول النحاة إن ذا ملغاة في مثل هذا التركيب .

وقد يتوسمون فيها توسعاً أقوى فيجعلون ذا اسم موصول وذلك حين يكون المسئول عنه معروفاً للمخاطب بشيء من أحواله فلذلك يُجرون عليه جملة أو نحوها هي صلة ويجعلون ذا موصولاً نحو « ماذا أنزل ربكم » وعلى هذين الاحتمالين الآخرين يصح إعرابه مبتدأً ويصح إعرابه مفعولاً مقدماً إذا وقع بعده فعل . والاستفهام هنا إنكارى أى جعل الكلام في صورة الاستفهام

كناية به عن الإنكار لأن الشيء المنكر يستفهم عن حصوله فاستعمال الاستفهام في الإنكار من قبيل الكناية، ومثله لايجاب بشيء غالبا لأنه غير مقصود به الاستعلام . وقد يلاحظ فيه معناه الأصلي فيجاء بجواب لأن الاستعمال الكنائي لا يمنع من إرادة المعنى الأصلي كقوله تعالى « عم يتساءلون عن النبأ العظيم » .

والإشارة بقوله « بهذا » مفيدة للتحقير بقرينة المقام كقوله « أهذا الذي يذكر آلهتكم » .

وانتصب قوله (مثلاً) على التمييز من هذا لأنه مبهم فحق له التمييز وهو نظير التمييز للضمير في قولهم « رَبُّهُ رَجُلًا » .

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ ۚ
يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ ٢٧ ﴾

بيان وتفسير للجملتين المصدرتين بأما على طريقة النشر المَكُوس لأن معنى هاتين الجملتين قد اشتمل عليهما معنى الجملتين السالفتين إجمالاً فإن علم المؤمنين أنه الحق من ربهم هُدى ، وقول الكافرين ماذا أراد الله الخ ضلال ، والأظهر أن لا يكون قوله « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا » جواباً للاستفهام في قول الذين كفروا « ماذا أراد الله بهذا مثلاً » لأن ذلك ليس استفهاماً حقيقياً كما تقدم . ويجوز أن يحمل جواباً عن استفهامهم تخريباً للكلام على الأسلوب الحكيم بحمل استفهامهم على ظاهره تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يسألوا عن حكمة ما أراد الله بتلك الأمثال فيكون قوله « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا » جواباً لهم ورداً عليهم وبياناً لحال المؤمنين ، وهذا لا ينافي كون الاستفهام الذي قبله مكنى به عن الإنكار كما علمته آتاه من عدم المانع من جمع المعنيين الكنائي والأصلي . وكون كلا الفريقين من المضلل والمهدي كثيراً في نفسه ، لا ينافي نحو قوله « وقليل من عبادي الشكور » لأن قوة الشكر التي اقتضاها صيغة المباعدة ، أخص في الاهتداء .

والفاسق لفظ من منقولات الشريعة أصله اسم فاعل من الفسق بكسر الفاء ، وحقبة
الفسق خروج الثمرة من قشرها وهو عاهة أو رداءة في الثمر فهو خروج مذموم يعد من
الأدواء مثل ما قال النابغة :

صِغار النوى مكنوزة ليس قشرُها إذا طار قشرُ التمر عنها بطائر
قالوا ولم يسمع في كلامهم في غير هذا المعنى حتى نقله القرآن للخروج عن أمر الله
تعالى الجازم بارتكاب المعاصي الكبار، فوقع بعد ذلك في كلام المسلمين : قال رؤبة
يصف إبلا :

فواسقاً عن قصدها جواراً يهوين في نجد وغورٍ غائراً
والفسق مراتب كثيرة تبلغ بعضها إلى الكفر . وقد أطلق الفسق في الكتاب والسنة
على جميعها لكن الذي يستخلص من الجمع بين الأدلة هو ما اصطلاح عليه أهل السنة من
المتكلمين والفقهاء وهو أن الفسق غير الكفر وأن المعاصي وإن كثرت لا تزيل الإيمان
وهو الحق، وقد لقب الله اليهود في مواضع كثيرة من القرآن بالفاسقين وأحسب أنه المراد
هنا وغزاه ابن كثير لجمهور من المفسرين . وإسناد الإضلال إلى الله تعالى مراعى فيه أنه
الذي مكن الضالين من الكسب والاختيار بما خالق لهم من العقول وما فصل لهم من
أسباب الخير وضره . وفي اختيار إسناده إلى الله تعالى مع صحة إسناده لفعل الضلال إشارة إلى
أنه ضلال متمكن من قومهم حتى صار كالجبلية فيهم فهم مأیوس من اهتدائهم كما قال تعالى
« حتم الله على قلوبهم » . فإسناد الإضلال إلى الله تعالى منظور فيه إلى خلق أسبابه القريبة
والبعيدة وإلا فإن الله أمر الناس كلهم بالهدى وهي مسألة مفروغ منها في علم الكلام .

وقوله « وما يضل به إلا الفاسقين » إمامسوق لبيان أن للفسق تأثيراً في زيادة الضلال
لأن الفسق يرين على القلوب ويكسب النفوس ظلمة فتتساقط في الضلال المرة بعد الأخرى
على التماقب ، حتى يصير لها درجة . وهذا الذي يؤذن به التعليق على الوصف المشتق إن كان
المراد به هنا المعنى الاشتقاقى ، فكأنه قيل هؤلاء فاسقون وما من فاسق إلا وهو ضال فما
ثبت الضلال إلا بثبوت الفسق على نحو طريقة القياس الاقترانى ، وإمامسوق لبيان أن
الضلال والفسق أخوان فحيثما تحقق أحدهما أنبأ بتحقيق الآخر على نحو قياس المساواة إذا أريد
من الفاسقين المعنى اللقبى المشهور فلا يكون له إيذان بتعليل . وإما لبيان أن الإضلال

التكليف في إنكار الأمثال إضلال مع غباوة فلا يصدر إلا من اليهود وقد عرفوا بهذا الوصف

والقول في مذاهب علماء الإسلام في الفسق وتأثيره في الإيمان ليس هذا مقام بيانه إذ ليس هو المقصود من الآية . فإن كان يحمل الفاسقين على ما يشمل المشركين واليهود الذين طعنوا في ضرب المثل كان القصر في قوله « وما يضل به » الخ بالإضافة إلى المؤمنين ليحصل تمييز المراد من المضلل والمتهدى . وإن كان يحمل الفاسقين على اليهود كان القصر حقيقيا ادعائيا أى يضل به كثيرا وهم الطاعنون فيه وأشدّهم ضلالا هم الفاسقون، ووجه ذلك أن المشركين أبعد عن الاهتداء بالكتاب لأنهم في شركهم، وأما اليهود فهم أهل كتاب وشأنهم أن يعلموا . أفانين الكتب السماوية وضرب الأمثال فإنكارهم إياها غاية الضلال فكأنه لا ضلال سواه . وجملة الذين ينقضون إلى آخره صفة للفاسقين لتقرير اتصافهم بالفسق لأن هاته الخلال من أكبر أنواع الفسوق بمعنى الخروج عن أمر الله تعالى . وجوز أن تكون مقطوعة مستأنفة على أن الذين مبتدأ وقوله أو لئلك هم الخاسرون "خبر وهى مع ذلك لا تخرج عن معنى توصيف الفاسقين بتلك الخلال إذ الاستئناف لما ورد إثر حكاية حال عن الفاسقين تعين في حكم البلاغة أن تكون هاته الصلة من صفاتهم وأحوالهم للزوم الاتحاد في الجامع الخيالى والإلصاق الكلام مقطعا منتوفا فليس بين الاعتبارين إلا اختلاف الإعراب وأما المعنى فواحد فلذلك كان إعرابه صفة أرجح أو متعينا إذ لا داعى إلى اعتبار القطع .

وحجىء الوصول هنا للتعريف بالمراد من الفاسقين أى الفاسقين الذين عرفوا بهذه الخلال الثلاث فالأظهر أن المراد من الفاسقين اليهود وقد أطلق عليهم هذا الوصف في مواضع من القرآن وهم قد عرفوا بما دلت عليه صلة الوصول كما سنبينه هنا بل هم قد شهدت عليهم كتب أنبيائهم بأنهم نقضوا عهد الله غير مرة وهم قد اعترفوا على أنفسهم بذلك فناسب أن يحمل النقض صلة لاشتهارهم بها ، ووجه تخصيصهم بذلك أن الطعن في هذا المثل جرهم إلى زيادة الطعن في الإسلام فازدادوا بذلك ضلالا على ضلالهم السابق في تغيير دينهم وفي كفرهم بعيسى ، فأما المشركون فضلالهم لا يقبل الزيادة، على أن سورة البقرة نزلت بالمدينة وأكثر الرد في الآيات المدنية متوجه إلى أهل الكتاب .

والنقض في اللغة حقيقة في فسخ وحل ما ركب ووصل ، بفعل يما كس الفعل الذي كان به التركيب ، وإنما زدت قولي بفعل الخ ليخرج القطع والحرق فيقال نقض الحبل إذا حل ما كان أبرمه ، ونقض الغزل ونقض البناء .

وقد استعمل النقض هنا مجازاً في إبطال العهد بقرينة إضافته إلى عهد الله وهي استمارة من مخترعات القرآن بنيت على ما شاع في كلام العرب في تشبيه العهد وكل ما فيه وصل بالحبل وهو تشبيه شائع في كلامهم ، ومنه قول مالك بن النيران الأنصاري للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بيمة العقبة « يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالا ونحن قاطعوها فنخشى إن أعزك الله وأظهرك أن ترجع إلى قومك » (يريد اليهود التي كانت في الجاهلية بين قريش وبين الأوس والخزرج) . وكان الشائع في الكلام إطلاق لفظ القطع والصرم وما في معناها على إبطال العهد أيضا في كلامهم . قال امرؤ القيس :

* وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى *

وقال لبيد :

أولم تكن تدرى نوارٍ بأننى وصَّالٌ عقد حبال جَدَّامها

وقال :

بل ما تذكّر من نوارٍ وقد نأت وتقطعت أسباها ورماها

وقال :

فاقطع لبانة من تعرض وصله فلشّر واصل خلة صرامها

ووجه اختيار استمارة النقض الذي هو حل طيات الحبل إلى إبطال العهد أنها تمثيل لإبطال العهد رويدا رويدا وفي أزمنة متكررة ومعالجة . والنقض أبلغ في الدلالة على الإبطال من القطع والصرم ونحوها لأن في النقض إفساداً لهيأة الحبل وزوال رجاء عودها وأما القطع فهو تجزئة .

وفي النقض رمز إلى استمارة مكنية لأن النقض من روادف الحبل فاجتمع هنا استمارتان مكنية وتصريحية وهذه الأخيرة تمثيلية وقد تقرر في علم البيان أن ما يرمز به للشبه به المطروح في المكنية قد يكون مستعملاً في معنى حقيق على طريقة التخيل وذلك حيث لا يكون للمشبه المذكور في صورة المكنية رديف يمكن تشبيهه برديف المشبه به المطروح ، مثل إثبات

الأظفار للننية في قولهم أظفارُ النية وإثباتِ المحالبِ والتابِ للكُمة في قول أبي فراس الحمداني :

فلما اشتدت الهيجاءُ كنّا أشدَّ غاليًا وأحدَّ نابا

وإثباتِ اليد للشمال في قول لبيد :

وغداة ريحٍ قد كشفتُ وقرّةٍ إذ أصبحت يَبْدُ الشمالِ زِمَامُهَا

وقد يكون مستعملا في معنى مجازي إذا كان للشبه في المكنية رديف يمكن تشبيهه برديف المشبه به المضمّر نحو ينقضون عهد الله ، وقد زدنا أنها تمثيلية أيضاً والبالغ لا يفلت هاته الاستعارة مهما تأت له ولا يتكاف لها مهما عسرت فليس الجواز المذكور في قرينة المكنية إلا جوازاً في الجملة أي بالنظر إلى اختلاف الأحوال .

وهذا الذي هو من روادف المشبه به في صورة المكنية وغيرها قد يقطع عن الربط بالمكنية فيكون استعارة مستقلة (وذلك حيث لا تذكر معه لفظاً يراد تشبيهه بمشبه به مضمّر) نحو أن تقول فلان ينقض ما أبرم . وقد يربط بالمكنية وذلك حيث يذكر معه شيء أريد تشبيهه بمشبه به مضمّر كما في الآية حيث ذكر النقض مع العهد . وقد يربط بمصرحة وذلك حيث يذكر مع لفظ المشبه به الذي الرادف من توابه نحو قوله « إن بيننا وبين القوم حرباً لا نحن قاطعوها » وحينئذ يكون ترشيحاً للمجاز وهذه الاعتبارات متداخلة لا متضادة إذ قد يصح في الموضع اعتباران منها أو جميعها وإنما التقسيم بالنظر إلى ما ينظر إليه البالغ أول النظر .

واعلم أن رديف المشبه به في المكنية إذا اعتبر استعارة في ذاته قد يتوهم أن اعتباره ذلك يناق كونه رضاءاً للمشبه به المضمّر كالنقض فإنه لما أريد به إبطال العهد لم يكن من روادف الحبل ، لكن لما كان إبدانه بالحبل سابقاً عند سماع لفظه لسبق المعنى الحقيقي إلى ذهن السامع حتى يتأمل في القرينة كنى ذلك السابق دليلاً ورضاءً على المشبه به المضمّر فإذا حصل ذلك الرضاء لم يضر فهم الاستعارة في ذلك اللفظ ، وأجاب عبد الحكيم بأن كونه رادفاً بعد كونه استعارة بناء على أنه لما شبه به الرادف وسمى به صار رادفاً إدعاءً وفيه تكلف .

وعهد الله هو ما عهد به أي ما أوصى برعيه وحفاظه ، ومعاني العهد في كلام العرب كثيرة وتصريفه عرف . قال الزجاج « قال بمضمّن ما أدري ما العهد » ومرجع معانيه إلى المماودة

والمحافظة والمراجعة والافتقاد ولا أدري أى معانيه أصل لبقيتها وغالب ظنى أنها متفرع بعضها عن بعض والأقرب أن أصلها هو العهد مصدر عهده عهدا إذا تذكره وراجع إليه نفسه يقولون عهده كذا أى أتذكر فيك كذا وعهده بك كذا، وفي حديث أم زرع ولا يسأل عما عهد أى عما عهد وترك في البيت ومنه قولهم في عهد فلان أى زمانه لأنه يقال للزمان الذى فيه خير وبشر لا ينساء الناس، وتمهد المكان أو فلانا وتماهده إذا افتقده وأحدث الرجوع إليه بعد ترك المهو الوصية ومنه ولى العهد . والعهد اليمين والعهد الالتزام بشيء، يقال عهد إليه وتمهد إليه لأنها أمور لا يزال صاحبها يتذكرها ويراعها في مواقع الاحتراز عن خفرها . وسمى الموضع الذى يتراجعه الناس بعد البعد عنه مهدا .

والعهد فى الآية الذى أخذه الله على بنى آدم أن لا يعبدوا غيره « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان » الآية فنقضه يشمل الشرك وقد وصف الله المشركين بنقض العهد فى قوله « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » الآية فى سورة الرعد . وفسر بالعهد الذى أخذه الله على الأمم على السنة رسلهم أنهم إذا بعث بعدهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به « وإذا أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه » الآيات لأن المقصود من ذلك أخذ العهد على أممهم . وفسر بالعهد الذى أخذه الله على أهل الكتاب ليتبننه للناس « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبنينه للناس » الآية فى تفاسير أخرى بعيدة . والصحيح عندى أن المراد بالعهد هو العهد الذى أخذه الله على بنى إسرائيل غير مرة من إقامة الدين وتأيد الرسل وأن لا يسفك بعضهم دماء بعض وأن يؤمنوا بالدين كله، وقد ذكرهم القرآن بعهود الله تعالى ونقضهم إياها فى غير ما آية من ذلك قوله تعالى « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » . « ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا » إلى قوله « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم » الخ وقوله « لقد أخذ فلان ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا » إلى قوله « فعموا وطمعوا » . « وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم » إلى قوله « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » إلى قوله « وتكفرون ببعض » . بل إن كتبهم قد صرحت بعهود الله تعالى لهم وأنحت عليهم نقضهم لها وجعلت ذلك انذارا بما يحل بهم من المصائب كما فى كتاب أرميا ومرثى أرميا وغير ذلك، بل قد صار لفظ العهد عندهم لقباً للشريعة التى جاء بها موسى . ولما كان قوله « الذين

ينقضون عهد الله « الآية وصف للفاسقين وكان المراد من الفاسقين اليهود كما علمت كان ذكر العهد إيماء إلى أن الفاسقين هنا هم، وتسجيلاً على اليهود بأنهم قد حق عليهم هذا الوصف من قبل اليوم بشهادة كتبهم وعلى السنة أنبيائهم فكان لاختيار لفظ العهد هنا وقع عظيم يتنزل منزلة المفتاح الذي يوضع في حل اللغز ليشير المقصود فهو العهد الذي سيأتي ذكره في قوله تعالى « وأوفوا بعهدي ». والميثاق مفعال وهو يكون للآلة كثيراً كمرقاة ومرآة ونحراث . قال الخفاجي كأنه إشباع للمفعل ، والمصدر أيضاً نحو الميلاد والميعاد وهو الأظهر هنا . والضمير للعهد أى من بعد تأكيد العهد وتوثيقه . ولما كان المراد بالعهد عهداً غير معين ، بل كل ما عاهدوا عليه كان تأكيد كل ما يفرضه المخاطب بما تقدمه من العهود وما تأخر عنه فهو على حد « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » فالميثاق إذن عهد آخر اعتبر مؤكداً لعهد سبقه أو لحقه .

وقوله « ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » قيل ما أمر الله به أن يوصل هو قرابة الأرحام يعنى وحيث ترجح أن المراد به بعض عمل اليهود فذلك إذ قاتلوا وأخرجوا كثيراً منهم من ديارهم ولم تزل التوراة توصى بنى إسرائيل بحسن معاملة بعضهم لبعض . وقيل الإعراض عن قطع ما أمر الله به أن يوصل هو موالاته المؤمنين . وقيل إقتران القول بالعمل . وقيل التفرقة بين الأنبياء في الإيمان ببعض والكفر ببعض . وقال البغوى يعنى بما أمر الله به أن يوصل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبجميع الرسل . وأقول تكميلاً لهذا إن مراد الله تعالى مما شرع للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد وهو إبلاغ البشر إلى الغاية التى خلقوا لها وحفظ نظام عالمهم وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتوره خلل ، وإنما اختلفت الشرائع على حسب مبلغ تهىء البشر لتلقى مراد الله تعالى ولذلك قلما اختلفت الأصول الأساسية للشرائع الإلهية قال تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين » الآية . وإنما اختلفت الشرائع في تفاريع أصولها اختلافاً مراعى فيه مبلغ طاقة البشر لطفاً من الله تعالى بالناس ورحمة منه بهم حتى في حملهم على مصالحهم ليكون تلقيهم لذلك أسهل ، وعملهم به أდوم ، إلى أن جاءت الشريعة الإسلامية في وقت راقق فيه البشر مبلغ غاية السكال العقلى وجاءهم دين تناسب أحكامه وأصوله استعدادهم الفكرى وإن تخالفت الأعصار وتباعدت الأقطار فكان ديناً عاماً لجميع البشر ، فلا جرم أن كانت الشرائع السابقة تمهيداً له تهىء البشر لقبول تعاليمه وتفاريحها

التي هي غاية مراد الله تعالى من الناس ولذا قال تعالى « إن الدين عند الله الإسلام » .
فما من شريعة سلفت إلا وهي حلقة من سلسلة جعلت وصلة للعروة الوثقى التي لا انقصاص لها
وهي عروة الإسلام فتى بلغها الناس فقد قصموا ما قبلها من الخلق وبلغوا المراد، ومتى انقطعوا
في أثناء بعض الخلق فقد قطعوا ما أراد الله وصله ، فاليهود لما زعموا أنهم لا يحل لهم العدول
عن شريعة التوراة قد قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ففارقوا مجتمعه .

والفساد في الأرض تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى « ألا إنهم هم المفسدون » ومن
الفساد في الأرض عكوف قوم على دين قد اضمحل وقت العمل به وأصبح غير صالح لما أراد
الله من البشر فإن الله ما جعل شريعة من الشرائع خاصة وقابلة للنسخ إلا وقد أراد منها
إصلاح طائفة من البشر معينة في مدة معينة في علمه ، وما نسخ ديننا لإلزام وقت صلوحيته
للعمل به فالتصميم على عدم تلقى الناسخ وعلى ملازمة المنسوخ هو عمل بما لم يبق فيه صلاح
للشخص فيصير ذلك فسادا في الأرض لأنه كمدواة المريض بدواء كان وصف له في حالة تبدلت
من أحوال مرضه حتى أتى دين الإسلام عاما دائما لأنه صالح للكل .

وقوله « أولئك هم الخاسرون » قصر قلب لأنهم ظنوا أنفسهم رابحين ، وهو استعارة
مكنية تمثيلية تقدمت في قوله تعالى « فما ربحت تجارتهم » . وذكر الخسران تخييل مراد منه
الاستعارة في ذاته على نحو ما قرر في ينقضون عهد الله فهذه الآية ظاهرة في أنها موجهة
إلى اليهود لما علمت عند قوله « وما يضل به إلا الفاسقين » ولما علمت من كثرة إطلاق وصف
الفاسقين على اليهود ، وإن كان الذين طعنوا في أمثال القرآن فريقين : المشركين واليهود ، كما
تقدم وكان القرآن قد وصف المشركين في سورة الرعد وهي مكية بهذه الصفات الثلاث في قوله
« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض
أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » فالمراد بهم المشركون لا محالة فذلك كله لا يُتناكد جعل
آية سورة البقرة موجهة إلى اليهود إذ ليس يلزم المفسر حملة آى القرآن على معنى واحد
كما يوهمه صنيع كثير من المفسرين حتى كان آى القرآن عندهم قوالب تفرغ فيها معان متحدة .
واعلم أن الله قد وصف المؤمنين بضد هذه الصفات في قوله تعالى « إنما يتذكر أولو
الألباب الذين يوفون بعهدهم ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل »
الآية في سورة الرعد .

واعلم أن نزول هذه الآيات ونحوها في بعض أهل الكتاب أو المشركين هو وعيد وتوبيخ للمشركين وأهل الكتاب وهو أيضا موعظة وذكري للمؤمنين ليعلم سامعوه أن كل من شارك هؤلاء المذمومين فيما أوجب ذمهم وسبب وعيدهم هو آخذ بحظ مما نالهم من ذلك على حسب مقدار المشاركة في الموجب .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ 28

ثم عني عنان الخطاب إلى الناس الذين خطبوا بقوله آقا « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم » ، بعد أن عقب بأفانين من الجمل المعترضة من قوله « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري - إلى قوله - الخاسرون » . وليس في قوله « كيف تكفرون بالله » تناسب مع قوله « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما » وما بعده مما حكي عن الذين كفروا في قولهم « ماذا أراد الله بهذا مثلاً » حتى يكون الانتقال إلى الخطاب في قوله « تكفرون » التفتاناً للناسبة بين موقع هاته الآية بعد ما قبلها هي مناسبة اتحاد الغرض ، بعد استيفاء ما تخلل واعترض .

ومن بديع المناسبة وفاق التفتان في ضروب الانتقالات في المحاطبات أن كانت الملل التي قرن بها الأمر بعبادة الله تعالى في قوله « يأيها الناس اعبدوا ربكم » إلخ هي الملل التي قرن بها إنكار ضد العبادة وهو الكفر به تعالى في قوله هنا « كيف تكفرون بالله » فقال فيما تقدم « الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » الآية وقال هنا « وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء » وكان ذلك مبدء التخلص إلى ما سيرد من بيان ابتداء إنشاء نوع الإنسان وتكوينه وأطواره .

فالخطاب في قوله « تكفرون » متعين رجوعه إلى « الناس » وهم المشركون لأن اليهود لم يكفروا بالله ولا أنكروا الإحياء الثاني .

وكيف اسم لا يعرف اشتقاقه يدل على حالة خاصة وهي التي يقال لها الكيفية نسبة إلى

كيف ويتضمن معنى السؤال في أكثر موارد استعماله فلدلالتة على الحالة كان في عداد الأسماء لأنه أفاد معنى في نفسه إلا أن المعنى الاسمي الذي دل عليه لما كان معنى مبهما شابه معنى الحرف فلما أشربوه معنى الاستفهام قوى شبهه بالحروف لكنه لا يخرج عن خصائص الأسماء فلذلك لا بد له من محل إعراب، وأكثر استعماله اسم استفهام فيعرب إعراب الحال . ويستفهم بكيف عن الحال العامة . والاستفهام هنا مستعمل في التمجيب والإنكار بقرينة قوله « وكنتم أمواتا » إلخ أى أن كفركم مع تلك الحالة شأنه أن يكون منتفيا لا تركز إلى النفس الرشيدة لوجود ما يصرف عنه وهو الأحوال المذكورة بعد فكان من شأنه أن ينكر فالإنكار متولد من معنى الاستفهام ولذلك فاستعماله فيهما من إرادة لازم اللفظ، وكأن المنكر يريد أن يقطع معذرة المخاطب فيظهر له أنه يتطلب منه الجواب بما يظهر السبب فيبطل الإنكار والعجب حتى إذا لم يبد ذلك كان حقيقا باللوم والوعيد .

والكفر بضم الكاف مصدر سماعي لكفر الثلاثي القاصر وأصله جحد النعم عليه نعمة النعم اشتق من مادة الكفر بفتح الكاف وهو الحجب والتغطية لأن جاحد النعمة قد أخفى الاعتراف بها كما أن شاكرها أعلنها . وضده الشكر ولذلك صيغ له مصدر على وزن الشكر وقالوا أيضا كفران على وزن شكران ، ثم أطلق الكفر في القرآن على الإشراك بالله في العبادة بناء على أنه أشد صور كفر النعمة إذ الذى يترك عبادة من أنعم عليه في وقت من الأوقات قد كفر نعمته في تلك الساعة إذ توجه بالشكر لغير النعم وترك النعم حين عزمه على التوجه بالشكر ولأن عزم نفسه على مداومة ذلك استمرار في عقد القلب على كفر النعمة وإن لم يتفطن لذلك ، فكان أكثر إطلاق الكفر بصيغة المصدر في القرآن على الإشراك بالله ولم يرد الكفر بصيغة المصدر في القرآن لغير معنى الإشراك بالله . وقل ورود فعل الكفر أو وصف الكافر في القرآن لجحد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك حيث تكون قرينة على إرادة ذلك كقوله « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين » وقوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » يريد اليهود . وأما إطلاقه في السنة وفي كلام أئمة المسلمين فهو الاعتقاد الذى يخرج معتقده عن الإسلام وما يدل على ذلك الاعتقاد من قول أو فعل دلالة لا تحتمل غير ذلك .

وقد ورد إطلاق الكفر في كلام الرسول عليه السلام وكلام بعض السلف على

ارتكاب جريمة عظيمة في الإسلام إطلاقاً على وجه التغليظ بالتشبيه المفيد لتشنيع ارتكاب ما هو من الأفعال الباحة عند أهل الكفر ولكن بعض فرق المسلمين يتشبثون بظاهر ذلك الإطلاق فيقضون بالكفر على مرتكب الكبائر ولا يلتفتون إلى ما يعارض ذلك في إطلاقات كلام الله ورسوله. وفرق المسلمين يختلفون في أن ارتكاب بعض الأعمال المنهي عنها يدخل في ماهية الكفر وفي أن إثبات بعض الصفات لله تعالى أو نفي بعض الصفات عنه تعالى داخل في ماهية الكفر على مذاهب شتى ومذهب أهل الحق من السلف والخلف أنه لا يكفر أحد من المسلمين بذنب أو ذنوب من الكبائر فقد ارتكبت الذنوب الكبائر في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء فلم يعاملوا المجرمين معاملة المرتدين عن الدين، والقول بتكفير العصاة، خطر على الدين لأنه يؤول إلى انحلال جامعة الإسلام ويهون على المذنب الانسلاخ من الإسلام منشداً «أنا الفريق فما خوفي من البلل» . ولا يكفر أحد بإثبات صفة لله لا تنافي كماله ولا نفي صفة عنه ليس في نقيا نقصان لجلاله فإن كثيراً من الفرق نقوا صفات ما قصدوا بنفيها إلا إجلالاً لله تعالى وربما أفرطوا في ذلك كما نفي المعتزلة صفات المعاني وجواز رؤية الله تعالى، وكثير من الفرق أثبتوا صفات ما قصدوا من إثباتها إلا احترام ظواهر كلامه تعالى كما أثبت بعض السلف اليد والإصبع مع جزمهم بأن الله لا يشبه الحوادث .

والإيمان ذكر معناه عند قوله تعالى «الذين يؤمنون بالغيب».

وقوله «وكنتم أمواتاً فأحياكم» جملة حالية وهي تخصص إلى بيان ما دلت عليه كيف بطريق الإجمال وبيان أولى الدلائل على وجوده وقدرته وهي ما يشعر به كل أحد من أنه وجد بعد عدم . ولقد دل قوله تعالى «وكنتم أمواتاً فأحياكم» أن هذا الإيجاد على حال بديع وهو أن الإنسان كان مركب أشياء موصوفاً بالموت أي لا حياة فيه إذ كان قد أخذ من العناصر المتفرقة في الهواء والأرض فجُمعت في الغذاء وهو موجود ثان ميت ثم استخلصت منه الأمزجة من الدم وغيره وهي ميتة، ثم استخلص منه النطقتان للذكر والأنثى، ثم امتزج فصار علقه ثم مضغة كل هذه أطوار أولية لوجود الإنسان وهي موجودات ميتة ثم بثت فيه الحياة بنفخ الروح فأخذ في الحياة إلى وقت الوضع فما بعده، وكان من حقهم أن يكتفوا به دليلاً على انفراد تعالى بالإلهية . وإطلاق الأموات هنا مجاز شائع بناء على

أن الموت هو عدم اتصاف الجسم بالحياة سواء كان متصفاً بها من قبل كما هو الإطلاق المشهور في العرف أم لم يكن متصفاً بها إذا كان من شأنه أن يتصف بها فعلى هذا يقال للحيوان في أول تكوينه نقطة وعلقة ومضغة ميت لأنه من شأنه أن يتصف بالحياة فيكون إطلاق الأموات في هذه الآية عليهم حين كانوا غير متصفين بالحياة إطلاقاً شائناً والمقصود به التمهيد لقوله «فأحياهم» التمهيد والتقريب لقوله «ثم يميتكم ثم يحييكم»، وقال كثير من أئمة اللغة الموت انعدام الحياة بعد وجودها وهو مختار الزحشرى والسكاكي وهو الظاهر وعليه فإطلاق الأموات عليهم في الحالة السابقة على حلول الحياة استعارة . واتفق الجميع على أنه إطلاق شائع في القرآن فإن لم يكن حقيقة فهو مجاز مشهور قد ساوى الحقيقة وزال الاختلاف .

والحياة ضد الموت وهي في نظر الشرع نفخ الروح في الجسم، وقد تعسر تعريف الحياة أو تعريف دوامها على الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين تعريفاً حقيقياً بالحد، وأوضح تعاريفها بالرسم أنها قوة ينشأ عنها الحس والحركة وأنها مشروطة باعتدال المزاج والأعضاء الرئيسية التي بها تدوم الدورة الدموية ، والمراد بالمزاج التركيب الخاص المناسب مناسبة تليق بنوع ما من المركبات العنصرية وذلك التركيب يحصل من تعادل قوى وأجزاء بحسب ما اقتضته حالة الشيء المركب مع انبثاث الروح الحيوانى ، فباعتدال ذلك التركيب يكون النوع معتدلاً ولكل صنف من ذلك النوع مزاج يخصه بزيادة تركيب ، ولكل شخص من الصنف مزاج يخصه ويتكون ذلك المزاج على النظام الخاص تنبعث الحياة في ذى المزاج في إبان نفخ الروح فيه وهي المعبر عنها بالروح النفساني . وقد أشار إلى هذا التكوين حديث الترمذى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نقطة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح » فأشير إلى حالات التكوين التي بها صار المزاج مزاجاً مناسباً حتى انبعثت فيه الحياة ، ثم بدوام انتظام ذلك المزاج تدوم الحياة وباختلاله يزول الحياة ، وذلك الاختلال هو المعبر عنه بالفساد، ومن أعظم الاختلال فيه اختلال الروح الحيوانى وهو الدم إذا اختلت دورته فمرض له فساد ، وبمروض حالة توقف عمل المزاج وتعطل آثاره يصير الحى شبيهاً بالميت كحالة المغنى عليه وحالة العضو المفلوج ، فإذا انقطع

عمل المزاج فذلك الموت . فاللوت عدم والحياة ملكة وكلاهما موجود مخلوق قال تعالى « الذي خلق الموت والحياة » في سورة الملك .

وليس المقصود من قوله « وكنتم أمواتاً فأحياكم » الامتنان بل هو استدلال محض ذكر شيئاً يعمده الناس نعمة وشيئاً لا يعدونه نعمة وهو الموتان فلا يشكل وقوع قوله « أمواتاً » وقوله « ثم يميتكم » في سياق الآية .

وأما قوله « ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » فذلك تفريع عن الاستدلال وليس هو بدليل إذ المشركون ينكرون الحياة الآخرة فهو ادماج وتعليم وليس باستدلال ، أو يكون ما قام من الدلائل على أن هناك حياة ثانية قد قام مقام العلم بها وإن لم يحصل العلم فإن كل من علم وجود الخالق العدل الحكيم ورأى الناس لا يجزؤون على مقتضى أوامره ونواهيه فيرى الفساد في الأرض في نعمة والصالح في عناء علم أن عدل الله وحكمته ما كان ليضيع عمل عامل وأن هناك حياة أحكم وأعدل من هذه الحياة تكون أحوال الناس فيها على قدر استحقاقهم وسمو حقائقهم .

وقوله « ثم إليه ترجعون » أي يكون رجوعكم إليه ، شبه الحضور للحساب برجوع السائر إلى منزله باعتبار أن الله خلق الخلق فكنائهم صدورا من حضرته فإذا أحياهم بعد الموت فكنائهم أرجعهم إليه وهذا إثبات للحشر والجزاء .

وتقديم التعلق على عامله مفيد القصر وهو قصر حقيق سيق للمخاطبين لإفادتهم ذلك إذ كانوا منكبين ذلك وفيه تأيس لهم من تقع أصنامهم إياهم إذ كان المشركون يحتاجون المسلمين بأنه إن كان بعث وحشر فسيجدون الآلهة ينصرونهم .

وترجمون بضم التاء وفتح الجيم في قراءة الجمهور ، وقراءه يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم والقراءة الأولى على اعتبار أن الله أرجعهم وإن كانوا كارهين لأنهم أنكروا البعث والقراءة الثانية باعتبار وقوع الرجوع منهم بقطع النظر عن الاختيار أو الجبر .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

هذا إما استدلال ثان على شناعة كفرهم بالله تعالى وعلى أنه مما يقضى منه العجب فإن دلائل ربوبية الله ووحدانيته ظاهرة في خلق الإنسان وفي خلق جميع ما في الأرض فهو ارتقاء في الاستدلال بكثرة المخلوقات ، وفصل الجملة السابقة يجوز أن يكون لمراعاة كمال الاتصال بين الجملتين لأن هذه كالنتيجة للدليل الأول لأن في خلق الأرض وجميع ما فيها وفي كون ذلك لمنفعة البشر إكمالاً لإيجادهم المشار إليه بقوله « وكنتم أمواتاً فأحياكم » لأن فائدة الإيجاد لا تكمل إلا بإمداد الموجود بما فيه سلامته من آلام الحاجة إلى مقومات وجوده . ويجوز أن يكون ترك العطف لدفع أن يوم العطف أن الدليل هو مجموع الأمرين فترك العطف يعلم أن الدليل الأول مستقل بنفسه وفي الأول بُد وفي الثاني مخالفة الأصل لأن أصل الفصل أن لا يكون قطعاً على أنه توهم لا يضير . وإما أن يكون قوله « هو الذي خلق » امتناناً عليهم بالنعم لتسجيل أن إشرألهم كفران بالنعمة أدمج فيه الاستدلال على أنه خالق لما في الأرض من حيوان ونبات ومعادن استدلالاً بما هو نعمة مشاهدة كما أشار إليه قوله « لكم » فيكون الفصل بين الجملتين كما قرر آنفاً ، ولم يلتفت إلى ما في هذه الجملة من مغايرة للجملة الأولى بالامتنان لأن ما أدمج فيها من الاستدلال رجح اعتبار المصطلح .

والخلق تقدم تفسيره عند قوله تعالى « يأبى الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم » . والأرض اسم للعالم الكروى المشتمل على البر والبحر . الذي يعمره الإنسان والحيوان والنبات والمعادن وهى المواليد الثلاثة وهذه الأرض هى موجود كائن هو ظرف لما فيه من أصناف المخلوقات وحيث إن العبرة كائنة فى مشاهدة الموجودات من المواليد الثلاثة ، علق الخلق هنا بما فى الأرض مما يحتويه ظرفها من ظاهره وباطنه ولم يعلق بذات الأرض لغفلة جل الناس عن الاعتبار ببديع خلقها إلا أن خالق المظروف جدير بخلق الظرف إذ الظرف إنما يقصد لأجل المظروف فلو كان الظرف من غير صنع خالق المظروف لزم إما تأخر الظرف عن مظهره وفى ذلك إتلاف المظروف والمشاهدة تنفى ذلك ، وإما تقدم الظرف وذلك عبث . فاستفادة أنه خلق الأرض مأخوذة بطريق الفحوى فمن البعيد أن يجوز صاحب الكشف أن يراد بالأرض الجهة السفلية كما يراد بالسماء الجهة العلوية ، وبعده من

وجهين أحدهما أن الأرض لم تطلق قط على غير الكرة الأرضية إلا مجازا كما في قول شاعر
أنشده صاحب المفتاح في بحث التعريف باللام ولم ينسبه هو ولا شارحوه :

الناس أرض بكل أرض وأنت من فوقهم سماء

بخلاف السماء فقد أطلقت على كل ما علا فأظل، والفرق بينهما أن الأرض شيء مشاهد
والسماء لا يتعقل إلا بكونه شيئا مرتفعا. الثاني على تسليم القياس فإن السماء لم تطلق على
الجهة العليا حتى يصح إطلاق الأرض على الجهة السفلى بل إنما تطلق السماء على شيء عال
لا على نفس الجهة .

وجملة « هو الذي خلق لكم » صيغة قصر وهو قصر حقيقى سيق للمخاطبين من
المشركين الذين لا شك عندهم في أن الله خالق ما في الأرض ولكنهم نزلوا منزلة الجاهل
بذلك فسيق لهم الخبر المحصور لأنهم في كفرهم وانصرافهم عن شكره والنظر في دعوته
وعبادته كحال من يجهل أن الله خالق جميع الموجودات . ونظير هذا قوله « أفمن يخلق كمن
لا يخلق أفلا تذكرون » « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » فإن
المشركين ما كانوا يثبتون لأصنامهم قدرة على الخلق وإنما جعلوها شفعاء ووسائط وعبدوها
وأعرضوا عن عبادة الله حق عبادته ونسوا الخلق الملتصق بهم وبما حولهم من الأحياء
والمقصود من الكلام فيما أراه موافقا للبلاغة التذكير بأن الله هو خالق الأرض وما عليها
وما في داخلها وأن ذلك كله خلقه بقدر ارتفاعنا بها وبما فيها في مختلف الأزمان والأحوال
فأوجز الكلام إيجازا بديعا بإقحام قوله « لكم » فأغنى عن جملة كاملة فالكلام مسوق
مسايق إظهار عظيم القدرة وإظهار عظيم المنة على البشر وإظهار عظيم منزلة الإنسان عند الله
تعالى . وكل أولئك يقتضى اقتلاع الكفر من نفوسهم .

وفي هذه الآية فائدتان :

الأولى أن لام التعليل دلت على أن خلق ما في الأرض كان لأجل الناس وفي هذا
تعليل للخلق وبيان لثمرته وفائدته فتثار عنه مسألة تعليل أفعال الله تعالى وتعلقها بالأغراض .
والمسألة تختلف فيها بين المتكلمين اختلافا يشبه أن يكون لفظيا فإن جميع المسلمين اتفقوا
على أن أفعال الله تعالى ناشئة عن إرادة واختيار وعلى وفق علمه وأن جميعها مشتمل على
حكم ومصالح وأن تلك الحكم هي ثمرات لأفعاله تعالى ناشئة عن حصول الفعل فهي لأجل

حصولها عند الفعل تتم رغبات ، هذا كله لا خلاف فيه . وإنما الخلاف في أنها أتوصف بكونها أغراضا وعلا غائية أم لا^(١) فأثبت ذلك جماعة استدلالا بما ورد من نحو قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . ومنع من ذلك أصحاب الأشعرى فيما عزاه إليهم الفخر في التفسير مستدلين بأن الذى يفعل لغرض يلزم أن يكون مستفيدا من غرضه ذلك ضرورة أن وجود ذلك الغرض أوّل بالقياس إليه من عدمه ، فيكون مستفيدا من تلك الأولوية ويلزم من كون ذلك الغرض سببا في فعله أن يكون ، هو ناقصا في فاعليته محتاجا إلى حصول السبب وقد أوجب بأن لزوم الاستفادة والاستكمال إذا كانت النعمة راجعة إلى الفاعل وأما إذا كانت راجعة للغير كالإحسان فلا ، فردّه الفخر بأنه إذا كان الإحسان أرجح من غيره وأولى لزم الاستفادة . وهذا الرد باطل لأن الأرجحية لا تستلزم الاستفادة أبدا بل إنما تستلزم تعلق الإرادة ، وإنما تلزم الاستفادة لو ادعينا التعين والوجوب .

والحاصل أن الدليل الذى استدلوأ به يشتمل على مقدمتين سفسطائيتين أولاها قولهم إنه لو كان الفعل لغرض للزم أن يكون الفاعل مستكملا به وهذا سفسطة شبه فيها الغرض النافع للفاعل بالغرض بمعنى الداعى إلى الفعل والراجع إلى ما يناسبه من الكمال لا توقف كماله عليه . الثانية قولهم إذا كان الفعل لغرض كان الغرض سبباً يقتضى عجز الفاعل وهذا شبه فيه السبب الذى هو بمعنى الباعث بالسبب الذى يلزم من وجبه الوجود ومن عدمه العدم وكلاهما يطلق عليه سبب .

ومن العجائب أنهم يسلمون أن أفعال الله تعالى لا تخلو عن الثمرة والحكمة ويعنعون أن تكون تلك الحكم عللا وأغراضا مع أن ثمرة فعل الفاعل العالم بكل شيء لا تخلو من أن تكون غرضا لأنها تكون داعيا للفعل ضرورة تحقق علم الفاعل وإرادته . ولم أدر أى حرج نظروا إليه حين منعوا تعليل أفعال الله تعالى وأغراضها .

ويترجح عندي أن هاته المسألة اقتضاها طرد الأصول في المناظرة فإن الأشاعرة لما

(١) اعلم أن الأثر المترتب على الفعل إذا نظر إليه من حيث إنه ثمرة سمي فائدة، وإذا نظر إليه من حيث إنه يحصل عند نهاية الفعل سمي غاية (لأن الغاية هي مبلغ سبق خيل الحلبة) فإذا كان مع ذلك داعيا للفاعل إلى الفعل سمي بذلك الاعتبار غرضا وسمى باعتبار حصوله عند نهاية الفعل غلة غائية (لأن الغرض هو هدف الرماية فهو كالغاية في سبق) .

أنكروا وجوب فعل الصلاح والأصلح أورد عليهم المعتزلة أو قدروا هم في أنفسهم أن يُورد عليهم أن الله تعالى لا يفعل شيئاً إلا لفرض وحكمة ولا تكون الأغراض إلا المصالح فالتزموا أن أفعال الله تعالى لا تناط بالأغراض ولا يعبر عنها بالعلل وينبئ عن هذا أنهم لما ذكروا هذه المسألة ذكروا في أدلتهم الإحسان للغير ورعى المصلحة . وهناك سبب آخر لفرض المسألة وهو التنزه عن وصف أفعال الله تعالى بما يؤهم المنفعة له أو لغيره وكلاهما باطل لأنه لا ينتفع بأفعاله ولأن الغير قد لا يكون فعلُ الله بالنسبة إليه منفعةً .

هذا وقد نقل أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات عن جمهور الفقهاء والمتكلمين أن أحكام الله تعالى معللة بالمصالح ودرء المفاسد . وقد جمع الأقوال الشيخ ابن عرفة في تفسيره فقال « هذا هو تعليل أفعال الله تعالى وفيه خلاف وأما أحكامه فمعللة » .

الفائدة الثانية أخذوا من قوله تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » أن أصل استعمال الأشياء فيما يراد له من أنواع الاستعمال هو الإباحة حتى يدل دليل على عدمها لأنه جمل ما فى الأرض مخلوقاً لأجلنا وامتن بذلك علينا وبذلك قال الإمام الرازى والبيضاوى وصاحب الكشاف ونسب إلى المعتزلة وجماعة من الشافعية والحنفية منهم الكرخى ونسب إلى الشافعى . وذهب المالكية وجمهور الحنفية والمعتزلة في نقل ابن عرفة إلى أن الأصل في الأشياء الوقف ولم يروا الآية دليلاً قال ابن العربى في أحكامه « إنما ذكر الله تعالى هذه الآية في معرض الدلالة والتنبيه على طريق العلم والقدرة وتصريف المخلوقات بمتقضى التقدير والإتيان بالعلم إلخ .

والحق أن الآية مجملة قصد منها التنبيه على قدرة الخالق بخلق ما فى الأرض وأنه خلق لأجلنا إلا أن خلقه لأجلنا لا يستلزم إباحة استعماله في كل ما يقصد منه بل خلق لنا في الجملة ، على أن الامتنان يصدق إذا كان لكل من الناس بعض مما فى العالم بمعنى أن الآية ذكرت أن المجموع للمجموع لا كل واحد لكل واحد كما أشار إليه البيضاوى لا سيما وقد خاطب الله بها قوما كافرين منكراً عليهم كفرهم وكيف يعلمون إباحة أو منعا ، وإنما محل الموعظة هو ما خلقه الله من الأشياء التى لم يزل الناس ينتفعون بها من وجوه متعددة . وذهب جماعة إلى أن أصل الأشياء الحظر ونقل عن بعض أهل الحديث وبعض المعتزلة فلمعتزلة الأقوال الثلاثة كما قال القرطبي . قال المحوى في شرح كتاب الأشباه لأن نجيم نقلا عن الإمام الرازى وإنما تظهر ثمرة المسألة في

حكم الأشياء أيام الفترة قبل النبوة أى فيما ارتكبه الناس من تناول الشهوات ومحوها ولذلك كان الأصح أن الأمر موقوف وأنه لا وصف للأشياء يترتب من أجله عليها الثواب والعقاب . وعندى أن هذا لا يحتاج العلماء إلى فرضه لأن أهل الفترة لا شرع لهم وليس لأفعالهم أحكام إلا فى وجوب التوحيد عند قوم . وأما بعد ورود الشرع فقد أغنى الشرع عن ذلك فإن وجد فعل لم يدل عليه دليل من نص أو قياس أو استدلال صحيح فالصحيح أن أصل المضار التحريم والمنافع الحل وهذا الذى اختاره الإمام فى الحصول فتصير المسألة ثمرة باعتبار هذا النوع من الحوادث فى الإسلام .

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

انتقال من الاستدلال بخلق الأرض وما فيها وهو مما علمه ضرورى للناس، إلى الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق الأرض وهو أيضا قد يُفعل عن النظر فى الاستدلال به على وجود الله، وذلك خلق السماوات، ويشبه أن يكون هذا الانتقال استطرادا لإكمال تنبيه الناس إلى عظيم القدرة .

وَعَطَفَتْ (ثُمَّ) جملة استوى على جملة خَلَقَ لَكُمْ . ولدلالة (ثُمَّ) على الترتيب والمهلة فى عطف المفرد على المفرد كانت فى عطف الجملة على الجملة للمهلة فى الرتبة وهى مهلة تخيلية فى الأصل تشير إلى أن المعطوف بـمُ أغرق فى المعنى الذى تتضمنه الجملة المعطوف عليها حتى كأنَّ العقل يتمهل فى الوصول إليه بعد الكلام الأول فينتبه السامع لذلك كي لا يففل عنه بما سمع من الكلام السابق، وشاع هذا الاستعمال حتى صار كالحقيقة، ويسمى ذلك بالترتيب الرتبى وبترتب الإخبار (بكسر الهمزة) كقوله تعالى «فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فَكَّ رَقَبَةً - إلى أن قال - ثم كان من الذين آمنوا» فإن قوله فَكَّ رَقَبَةً خبرٌ مبتدأ محذوف ولما كان ذكر هاته الأمور التى يعز إيفاؤها حقها مما يُفعل السامع عن أمر آخر عظيم نبه عليه بالعطف بـمُ للإشارة إلى أنه أكد وأهم، ومنه قول طرفة بن العبد يصف راحلته :

جَنُوحٌ دِفَاقٌ عَنَدَلٌ ثُمَّ أَفْرِعَتْ لَهَا كَتِفَاهَا فِي مُعَالَى مُصَعَّدٌ^(١)

(١) جنوح بمعنى تميل فى سيرها لليمين واليسار لشدة قوتها . والدفاق - بكسر الدال - المندفقة السير بمعنى السريعة . والعندل : عظيمة الرأس . وأفريعت بمعنى أطيلت كتفها . فى معالى أى فى جسم . معالى أى عال مصعد .

فإنه لما ذكر من محاسنها جملة نبه على وصف آخر أهم في صفات عنقها وهو طول قامتها. قال المرزوقي في شرح الحماسة في شرح قول جعفر بن عتبة الحارثي^(١) :

لَا يَكْشِفُ الْغَمَاءُ إِلَّا ابْنُ حُرَّةَ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

« إن ثم وإن كان في عطفه المفرد على المفرد يدل على التراخي فإنه في عطفه الجملة على الجملة ليس كذلك وذكر قوله تعالى « ثم كان من الذين آمنوا إياه » . وإفادة التراخي الرتبة هو المعتبر في عطف ثم للجمال سواء وافقت الترتيب الوجودي مع ذلك أو كان معطوفا متقدما في الوجود وقد جاء في الكلام الفصيح ما يدل على معنى البعدية مراداً منه البعدية في الرتبة وإن كان عكس الترتيب الوجودي فتكون البعدية مجازية مبنية على تشبيه البؤن المعنوي بالبعد المكاني أو الزماني ومنه قوله تعالى « هَمَّازٍ مَشَاءَ بَنَمِيمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُنِيمٍ عُتُلٌّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ » فإن كونه عُتُلًّا وزنياً أسبق في الوجود من كونه هَمَّازًا مَشَاءَ بَنَمِيمٍ لأنهما صفتان ذاتيتان بخلاف هَمَّازٍ مَشَاءَ بَنَمِيمٍ ، وكذلك قوله تعالى « فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » . فإذا تمحضت ثم للتراخي الرتبة حملت عليه وإن احتملته مع التراخي الزمني فظاهر قول المرزوقي « فإنه في عطف الجملة ليس كذلك » . إنه لا يحتمل حينئذ التراخي الزمني . ولكن يظهر جواز الاحتمالين وذلك حيث يكون المعطوف بها متأخرا في الحصول على ما قبلها وهو مع ذلك أهم كما في بيت جعفر بن عتبة . قلت وهو إما مجاز مرسل أو كناية، فإن أطلقت (ثم) وأريد منها لازم التراخي وهو البعد التعظيمي كما أريد التعظيم من اسم الإشارة الموضوع للبعيد ، والعلاقة وإن كانت بعيدة إلا أنها لشهرتها في كلامهم واستعمالهم ومع القرائن لم يكن هذا الاستعمال مردودا .

واعلم أني تتبعت هذا الاستعمال في مواضعه فرأيت أنه أكثر ما يرد فيما إذا كانت الجمل إخبارا عن مخبر عنه واحد بخلاف ما إذا اختلف المخبر عنه فإن (ثم) تتعين للمهلة الزمنية كقوله تعالى « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءُ تَقْتُلُونَ

(١) يحتمل أنه أراد بغمرات الموت مواقع القتال وملاحه التي لا يطعم الداخل فيها بالسلامة فيكون قوله ثم يزورها للمهلة الحقيقية ، ويحتمل أن يريد بالغمرات ما يصيب الكمي من ثخين الجراح وحلول سكرات الموت فيكون قوله ثم يزورها للترتيب الرتبة .

أنفسكم « أى بعد أن أخذنا الميثاق بأزمان صرتم تقتلون أنفسكم ونحو قولك : مرت كتيبة الأنصار ثم مرت كتيبة المهاجرين .

فأما هذه الآية فإنه إذا كانت السماوات متأخرا خلقها عن خلق الأرض فثم للتراخي الرتبة لا محالة مع التراخي الزمني وإن كان خلق السماوات سابقا فثم للترتيب الرتبة لا غير . والظاهر هو الثاني . وقد جرى اختلاف بين علماء السلف في مقتضى الأخبار الواردة في خلق السماوات والأرض فقال الجمهور منهم مجاهد والحسن ونسب إلى ابن عباس إن خلق الأرض متقدم على خلق السماء لقوله تعالى هنا « ثم استوى إلى السماء » وقوله في سورة حم السجدة « قل أنسكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين - إلى أن قال - ثم استوى إلى السماء وهى دخان » . وقال قتادة والسدى ومقاتل إن خلق السماء متقدم واحتجوا بقوله تعالى « بناها رفع سمكها فسواها - إلى قوله - والأرض بمد ذلك دحاها » . وقد أجيب بأن الأرض خلقت أولا ثم خلقت السماء ثم دُحيت الأرض فالتأخر عن خلق السماء هو دخو الأرض ، على ما ذهب إليه علماء طبقات الأرض من أن الأرض كانت في غاية الحرارة ثم أخذت تبرد حتى جمدت وتكونت منها قشرة جامدة ثم تشققت وتفجرت وهببت منها أقسام وعلت أقسام بالضغط إلا أن علماء طبقات الأرض يقدرون لحصول ذلك أزمنة متناهية الطول وقدرة الله صالحة لإحداث ما يحصل به ذلك التقلب في أمد قليل بمقارنة حوادث تمجّل انقلاب المخلوقات عما هى عليه .

وأرجح القولين هو أن السماء خلقت قبل الأرض لأن لفظ « بعد ذلك » أظهر في إفادة التأخر من قوله « ثم استوى إلى السماء » ولأن أنظار علماء الهيئة ترى أن الأرض كرة انفصلت عن الشمس كبقية الكواكب السيارة من النظام الشمسى وظاهر سفر التكوين يقتضى أن خلق السماوات متقدم على الأرض . وأحسب أن سلوك القرآن في هذه الآيات أسلوب الإجمال في هذا الفرض لقطع الخصومة بين أصحاب النظريتين .

والسما إن أريد بها الجو المحيط بالكرة الأرضية فهو تابع لها متأخر عن خلقها . وإن أريد بها الكواكب العلوية وذلك هو المناسب لقوله « فسواهن سبع سماوات » فالكواكب أعظم من الأرض فتكون أسبق خلقا وقد يكون كل من الاحتمالين ملاحظا في مواضع من القرآن غير الملاحظ فيها الاحتمال الآخر .

والاستواء أصله الاستقامة وعدم الاعوجاج يقال صراط مستو ، واستوى فلان وفلان واستوى الشيء مطاوع سواء ، ويطلق مجازاً على القصد إلى الشيء بعزم وسرعة كأنه يسير إليه مستوياً لا يلوى على شيء فيمضى إلى فتكون (إلى) قرينة المجاز وهو تثميل، فمعنى استواء الله تعالى إلى السماء تعلق إرادته بالتنجيزى بإيجادها تعلقاً يشبه الاستواء في التهيئ للعمل العظيم المتقن . ووزن استوى افتعل لأن السين فيه حرف أصلي وهو افتعال مجازى وفيه إشارة إلى أنه لما ابتداء خلق المخلوقات خلق السماوات ومن فيها ليكون توطئة لخلق الأرض ثم خلق الإنسان وهو الذى سبقت القصة لأجله .

وسواهن أى خلقهن فى استقامة، واستقامة الخلق هى انتظامه على وجه لا خلل فيه ولا عثم . وبين استوى وسواهن الجنس المحرف .

والسما مشتقة من السمو وهو العلو واسم السماء يطلق على الواحد وعلى الجنس من العوالم العليا التى هى فوق العالم الأرضى والمراد به هنا الجنس بقرينة قوله، فسواهن سبع سموات إذ جعلها سبعا ، والضمير فى قوله «فسواهن» عائد إلى السماء باعتبار إرادة الجنس لأنه فى معنى الجمع وجوز صاحب الكشف أن يكون المراد من السماء هنا جهة العلو - وهو وإن صح - لكنه لا داعى إليه كما قاله التفترانى .

وقد عد الله تعالى فى هذه الآية وغيرها السماوات سبعا وهو أعلم بها وبالمراد منها إلا أن الظاهر الذى دلت عليه القواعد العلمية أن المراد من السماوات الأجرام العلوية العظيمة وهى الكواكب السيارة المنتظمة مع الأرض فى النظام الشمسى ويدل لذلك أمور : أحدها أن السماوات ذكرت فى غالب مواضع القرآن مع ذكر الأرض وذكر خلقها هنا مع ذكر خلق الأرض فدل على أنها عوالم كالعالم الأرضى وهذا ثابت للسيارات . ثانياً أنها ذكرت مع الأرض من حيث إنها أدلة على بديع صنع الله تعالى فناسب أن يكون تفسيرها تلك الأجرام المشاهدة للناس المعروفة للأهم الدال نظام سيرها وباهر نورها على عظمتها خالقها . ثالثاً أنها وصفت بالسبع وقد كان علماء الهيئة يعرفون السيارات السبع من عهد الكلدان وتعاقب علماء الهيئة من ذلك العهد إلى العهد الذى نزل فيه القرآن فما اختلفوا فى أنها سبع . رابعاً أن هاته السيارات هى الكواكب المنضبط سيرها بنظام مرتبط مع نظام سير الشمس والأرض ، ولذلك يعبر عنها علماء الهيئة التأخرون بالنظام الشمسى فناسب أن تكون هى

التي قرن خلقها بخلق الأرض . وبعضهم يفسر السماوات بالأفلاك وهو تفسير لا يصح لأن الأفلاك هي الطرق التي تسلكها الكواكب السيارة في الفضاء ^(١) ، وهي خطوط فرضية لا ذوات لها في الخارج .

هذا وقد ذكر الله تعالى السماوات سبعا هنا وفي غير آية وقد ذكر العرش والكرسي بما يدل على أنهما محيطان بالسماوات وجعل السماوات كلها في مقابلة الأرض وذلك يؤيد ما ذهب إليه علماء الهيئة من عد الكواكب السيارة تسعة وهذه أسماؤها على الترتيب في بعدها من الأرض: نبتون . أورانوس . زحل . المشتري . المريخ . الشمس . الزهرة . عطارد . بلكان . والأرض في اصطلاحهم كوكب سيار وفي اصطلاح القرآن لم تعدمها لأنها التي منها تنظر الكواكب وتعد عوضا عنها القمر وهو من توابع الأرض فعده معها عوض من عد الأرض تقريبا لأفهام السامعين . وأما الثواب فهي عند علماء الهيئة شمس ساجدة في شاسع الأبعاد عن الأرض وفي ذلك شكوك . ولعل الله لم يجعلها سماوات ذات نظام كنظام السيارات السبع فلم يعدها في السماوات أو أن الله إنما عد لنا السماوات التي هي مرتبطة بنظام أرضنا . وقوله « وهو بكل شيء عليم » نتيجة لما ذكره من دلائل القدرة التي لا تصدر إلا من عليم فلذلك قال المتكلمون إن القدرة يجري تعلقها على وفق الإرادة . والإرادة على وفق العلم . وفيه تمييز بالإنكار على كفرهم والتمجيب منه فإن العليم بكل شيء يقبح الكفر به . وهذه الآية دليل على عموم العلم وقد قال بذلك جميع الملمين كما نقله المحقق السلكتي في الرسالة الخاقانية وأنكر الفلاسفة علمه بالجزئيات وزعموا أن تعلق العلم بالجزئيات لا يليق بالعلم الإلهي وهو توهم لا داعي إليه .

(١) إن علماء الهيئة يقسمون الأجرام العلوية أقساما: الأول الشمس وهي شمس عالمنا وهذا كشمس أخرى يعبر عنها بالثواب وهي لبعدها الشاسع عنا لم يقيس ضبط سيرها ويغير عن كل شمس بأنه الجرم المركزي لأنه تتبعه سيارات تدور حوله . الثاني السيارات وهي الكواكب التي تدور حول الشمس وتستمد نورها من نور الشمس وهي : نبتون أورانوس . زحل . المشتري . المريخ . الأرض . الزهرة . عطارد . الثالث : نجيمات وهي سيارات سفيرة واقعة بين فلكي المريخ والمشتري . الرابعة : الأقار وهي توابع للسيارات تدور حول واحد من السيارات وهي واحد تابع للأرض وأربعة للمشتري وثمانية لزحل وأربعة لأورانوس وواحد لنبتون . ويعبر عن هذا المجموع بالنظام الشمسي لأن جميع حركاته مرتبطة بحركة الشمس .

وقرأ الجمهور هاء « وهو » بالضم على الأصل وقرأها قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بالسكون للتخفيف عند دخول حرف العطف عليه ، والسكون أكثر من الضم في كلامهم وذلك مع الواو والفاء والام الابتداء ، ووجهه أن الحروف التي هي على حرف واحد إذا دخلت على الكلمة تنزل منزلة الجزء منها فصارت الكلمة ثقيلة بدخول ذلك الحرف فيها تخففت بالسكون كما فعلوا ذلك في حركة لام الأمر مع الواو والفاء ، ومما يدل على أن أفصح لغات العرب إسكان الهاء من (هو) إذا دخل عليه حرف أنك تجده في الشعر فلا يترن البيت إلا بقراءة الهاء ساكنة ولا تكاد تجد غير ذلك بحيث لا يمكن دعوى أنه ضرورة .

فهرس العشم الأول من الجزء الأول

5 التمهيد
10 المقدمة الاولى في التفسير والتأويل وكون التفسير علما
18 المقدمة الثانية في استمداد علم التفسير
28 المقدمة الثالثة في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأى ونحوه
38 المقدمة الرابعة فيما يحق ان يكون غرض المفسر
46 المقدمة الخامسة في اسباب النزول
51 المقدمة السادسة في القراءات
64 المقدمة السابعة في قصص القرآن
70 المقدمة الثامنة في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها واسماؤها
93 المقدمة التاسعة في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها
101 المقدمة العاشرة في إعجاز القرآن

سورة الفاتحة

131 سورة الفاتحة
152 الحمد لله
166 رب العالمين
169 الرحمن الرحيم
173 ملك يوم الدين
177 إياك نعبد وإياك نستعين
187 اهدنا الصراط المستقيم
192 صراط الذين أنعمت عليهم
195 غير المغضوب عليهم ولا الضالين

سورة البقرة

201 سورة البقرة
206 الم
219 ذلك الكتاب
222 لاريب فيه هدى للمتقين
228 الذين يؤمنون بالغيب
231 ويقيمون الصلاة
234 ومما رزقناهم ينفقون
237 والذين يؤمنون بما أنزل اليك - إلى - هم يوقنون
241 أولئك على هدى من ربهم
246 وأولئك هم المفلحون
247 إن الذين كفروا سواء عليهم آندرتهم أم لم تنذرهم
251 لا يؤمنون
254 ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم - إلى - غشاوة
258 ولهم عذاب عظيم
259 ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين
274 يخادعون الله والذين آمنوا - إلى - وما يشعرون
278 في قلوبهم مرض فزادهم مرضا - إلى - يكذبون
283 وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون
285 ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون
286 وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس - إلى - السفهاء
288 ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون
289 وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا - إلى - مستهزون
293 الله يستهزئ بهم
295 ويمدهم في طغيانهم يعمهون
297 أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى

- 299 فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين
- 302 مثلهم كمثل الذي استوقد نارا
- 307 فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم
- 310 وتركهم في ظلمات لا يبصرون
- 313 صم بكم عمي فهم لا يرجعون
- 314 أو كصّيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق
- 319 يجعلون أصابعهم في آذانهم - إلى - على كل شيء قدير
- 323 يا أيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم - إلى - تتقون
- 331 الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء - إلى - رزقا لكم
- 334 فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون
- 335 وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا - إلى - إن كنتم صادقين
- 342 فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النار - إلى - أعدت للكافرين
- 350 وبشر الذين آمنوا وعموا الصالحات - إلى - من تحتها الأنهار
- 356 كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقا - إلى - هم فيها خالدون
- 357 إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها
- 363 فأما الذين آمنوا فيعلمون - إلى - بهذا مثلا
- 365 يضلّ به كثيرا ويهدي به كثيرا - إلى - هم الخاسرون
- 373 كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم - إلى - اليه ترجعون
- 378 هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا
- 382 ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم

الحِزْبُ الأول
الْمَحْطَبُ الثَّانِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمُصَدِّقَةً مَّا كَذَّبُوا عَلَى أَشْرَفِ كُرْسِيِّهِ

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

عظفت الواو قصة خلق أول البشر على قصة خلق السماوات والأرض انتقالاتهم في الاستدلال على أن الله واحد وعلى بطلان شركهم وتخلصا من ذكر خلق السماوات والأرض إلى خلق النوع الذي هو سلطان الأرض والمتصرف في أحوالها ، ليجمع بين تعدد الأدلة وبين مختلف حوادث تكوين العوالم وأصلها ليعلم المسلمون ما علمه أهل الكتاب من العلم الذي كانوا يُباهون به العرب وهو ما في سفر التكوين من التوراة .

واعلم أن موقع الدليل بخلق آدم على الوجدانية هو أن خلق أصل النوع أمر مدرك بالضرورة لأن كل إنسان إذا لفت ذهنه إلى وجوده علم أنه وجود مسبق بوجود أصل له بما يشاهد من نشأة الأبناء عن الآباء فيوقن أن لهذا النوع أصلا أول ينتهي إليه نشوءه ، وإذا كانت العبرة بخلق ما في الأرض جيمما أذمجت فيها منة وهي قوله « لكم » المقتضية أن خلق ما في الأرض لأجلهم تهيمات أنفسهم لسماع قصة إيجاد منشأ الناس الذين خلقت الأرض لأجلهم ليحاط بما في ذلك من دلائل القدرة مع عظيم المنة وهي منة الخلق التي نشأت عنها فضائلُ جمة ومنّة التفضيل ومنّة خلافة الله في الأرض ، فكان خلق أصلنا هو أبداع مظاهر أحيائنا الذي هو الأصل في خلق ما في الأرض لنا ، فكانت المناسبة في الانتقال إلى التذكير به واضحة مع حسن التخلص إلى ذكر خبره العجيب ، فإيراد الو المطف هنا لأجل إظهار استقلال هذه القصة في حد ذاتها في عظم شأنها .

و (إذ) من أسماء الزمان المبهمة تدل على زمان نسبة ما ضية وقعت فيه نسبة أخرى ماضية قارنتها ، ف (إذ) تحتاج إلى جملتين جملة أصلية وهي الدالة على الظروف وتلك هي التي تكون مع جميع الظروف ، وجملة تبين الظرف ما هو ، لأن (إذ) لما كانت مبهمة احتاجت لما يبين زمانها عن بقية الأزمنة ، فلذلك لزمّت إضافتها إلى الجمل أبداً ، والأكثر في الكلام أن تكون إذ في محل ظرف لزمان الفعل فتكون في محل نصب على المفعول فيه ، وقد تخرج (إذ) عن النصب على الظرفية إلى المفعولية كأسماء الزمان المتصرفة على ما ذهب إليه صاحب الكشف وهو مختار ابن هشام خلافاً لظاهر كلام الجمهور ، فهي تصير ظرفاً مبهماً متصرفاً ، وقد يضاف إليها اسم زمان نحو يومئذ وساعتئذ فتجر بإضافة صورية ليكون ذكرها وسيلة إلى حذف الجملة المضافة هي إليها ، وذلك أن (إذ) ملازمة للإضافة فإذا حذفت جملتها علم السامع أن هنالك حذفاً ، فإذا أرادوا أن يحذفوا جملة مع اسم زمان غير (إذ) خافوا أن لا يهتدى السامع لشيء محذوف حتى يتطلب دليلاً فجعلوا إذ قرينة على إضافة وحذفوا الجملة لينبها السامع فيتطلب دليل المحذوف .

وهي في هذه الآية يجوز أن تكون ظرفاً وكذلك أعربها الجمهور وجعلوها متعلقة بقوله « قالوا » وهو يفضى إلى أن يكون المقصود من القصة قول الملائكة وذلك بعيد لأن المقصود من العبرة هو خطاب الله لهم وهو مبدأ العبرة وما تضمنته من تشریف آدم وتعليقه بعد الامتنان بإيجاد أصل نوع الناس الذي هو مناط العبرة من قوله « كيف تكفرون » الآيات ، ولأنه لا يتأتى في نظيرها وهو قوله الآتي « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » إذ وجود فاء التعقيب يمنع من جعل الظرف متعلقاً بدخولها ، ولأن الأظهر أن قوله « قالوا » حكاية للمراجعة والمحاورة على طريقة أمثاله كما سنحققه . فالذي ينساق إليه أسلوب النظم فيه أن يكون العطف على جملة « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » أي خلق لكم ما في الأرض وقال للملائكة إني خالق أصل الإنسان لما قدمناه من أن ذكر خلق ما في الأرض وكونه لأجلنا يهيء السامع لترقب ذكر شأننا بعد ذكر شأن ما خلق لأجلنا من سماء وأرض ، وتكون إذ على هذا مريدة للتأكيد قاله أبو عبيدة معمر بن المثنى وأنشد قول الأسود بن يعفر :

فإذ وذلك لامهات لذكره والدهر يُعقب صالحاً بفساد

(هكذا رواه فإذا على أن يكون في البيت زحاف الطي ، وفي رواية فإذا فلا زحاف ، والمهائ بهاءين الحسن ولا يشكل عليه أن شأن الزيادة أن تكون في الحروف لأن إذ وإذا ونحوها عوملت معاملة الحروف) ، أو أن يكون عطف القصة على القصة ويؤيده أنها تبتدأ بها القصص العجيبة الدالة على قدرة الله تعالى ، ألا ترى أنها ذكرت أيضا في قوله تعالى « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » ولم تذكر فيما بينهما وتكون (إذ) اسم زمان مفعولا به بتقدير اذكر ، ونظيره كثير في القرآن ، والمقصود من تعليق الذكر والقصة بالزمان إنما هو ما حصل في ذلك الزمان من الأحوال . وتخصيص اسم الزمان دون اسم المكان لأن الناس تمارفوا إسناد الحوادث التاريخية والقصص إلى أزمان وقوعها .

وكلام الله تعالى للملائكة أطلق على ما يفهمون منه إرادته وهو المعبر عنه بالكلام النفسى فيحتمل أنه كلام سمعوه بإطلاق القول عليه حقيقة وإسناده إلى الله « لأنه خلق ذلك القول بدون وسيلة معتادة ، ويحتمل أنه دال آخر على الإرادة ، بإطلاق القول عليه مجاز لأنه دلالة للعقلاء والمجاز فيه أقوى من المجاز الذى في نحو قول النبي صل الله عليه وسلم « اشتكت النار إلى ربها » وقوله تعالى « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » وقول أبى النجم « إذ قالت الآطال للبطن الحق » ، ولا طائل في البحث عن تعيين أحد الاحتمالين .

والملائكة جمع ملك وأصل صيغة الجمع ملائكة والهاء لتأكيد الجمعية لما في التاء من الإيذان بمعنى الجماعة ، والظاهر أن تأنيث ملائكة سرى إلى لغة العرب من كلام المتنصرين منهم إذ كانوا يعتقدون أن الأملاك بنات الله واعتقده العرب أيضا قال تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه » فلائك جمع ملائكة كشمائيل وشمائل ، ومما يدل عليه أيضا قول بعض شعراء عبد القيس أو غيره .

وَلَسْتُ لِنَاسٍ وَلَكِنْ لِمَلَائِكَةٍ تَنَزَّلُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ يُصَوِّبُ^(١)

ثم قالوا ملك تحفيضا . وقد اختلفوا في اشتقاقه فقال أبو عبيدة هو مفعول من لأك بمعنى

(١) قال أبو غبيدة البيت لشاعر جاهلي من عبد القيس يمدح بعض الملوك كما في الصحاح ، وقيل المدحود النعمان ، وقال ابن السرياق : البيت لأبي وجزة يمدح عبد الله بن الزبير . قلت ذكر ابن السرياق في شرح أبيات صلاح النطق القولين ولم يقتصر على ما نسب إليه شارح القاموس ، وأنشده الكسائي لمعلقة بن عبدة يمدح الحارث بن جبلة بن أبي شمر .

أرسل ومنه قولهم في الأمر بتبليغ رسالة الكنى إليه أى كن رسولى إليه وأصل الكنى الإكنى وإن لم يعرف له فعل . وإنما اشتق اسم الملك من الإرسال لأن الملائكة رسل الله إما بتبليغ أو تكوين كما في الحديث ثم يرسل إليه (أى للجنين في بطن أمه) الملك فينفخ فيه الروح ، فعلى هذا القول هو مصدر ميمى بمعنى اسم المفعول ، وقال الكسائى هو مقلوب ووزنه الآن معقل وأصله مألك من الألوكة والألوكة وهى الرسالة ويقال مألك ومألكة (بفتح اللام وضما) فقلبوا فيه قلبا مكانيا فقالوا ملاًك فهو صفة مشبهة . وقال ابن كيسان هو مشتق من الملك (بفتح الميم وسكون اللام) والملك بمعنى القوة قال تعالى « عليها ملائكة غلاظ شداد » والمهزة مزيدة فوزنه فعلاً بسكون العين وفتح المهزة كشمأل ، ورد بأن دعوى زيادة حرف بلا فائدة دعوى بعيدة ، ورد مذهب الكسائى بأن القلب خلاف الأصل ، فرجح مذهب أبى عبيدة ، ونقل القرطبى عن النضر بن شميل أنه قال لا اشتقاق للملك عند العرب يريد أنهم عربوه من اللغة العبرانية ويؤيده أن التوراة سمت الملك ملاًكا بالتخفيف ، وليس وجود كلمة متقاربة اللفظ والمعنى في لغتين بدال على أنها منقولة من إحداها إلى الأخرى إلا بأدلة أخرى .

والملائكة مخلوقات نورانية سماوية مجبولة على الخير قادرة على التشكل في خرق المادة لأن النور قابل للتشكل في كيفيات ولأن أجزائه لا تتراحم ونورها لا شعاع له فلذلك لا تضىء إذا اتصلت بالعالم الأرضى وإنما تتشكل إذا أراد الله أن يظهر بعضهم لبعض رسله وأنبيائه على وجه خرق المادة . وقد جعل الله تعالى لها قوة التوجه إلى الأشياء التى يريد الله تكوينها فتتولى التدبير لها ولهذه التوجهات الملكية حيثيات ومراتب كثيرة تتمذر الإحاطة بها وهى مضادة لتوجهات الشياطين ، فالخواطر الخيرية من توجهات الملائكة وعلاقتها بالنفوس البشرية وبمعكسها خواطر الشر .

والخليفة فى الأصل الذى يخلف غيره أو يكون بدلا عنه فى عمل يعمله ، فهو فاعل بمعنى فاعل والتاء فيه للبالغة فى الوصف كالعلامة . والمراد من الخليفة هنا إما المعنى المجازى وهو الذى يتولى عملا يريد المستخلف مثل الوكيل والوصى أى جاعل فى الأرض مدبرا يعمل ما نريده فى الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة لأن الله تعالى لم يكن حالا فى الأرض ولا عاملا فيها العمل الذى أودعه فى الإنسان وهو السلطنة على موجودات الأرض ،

ولأن الله تعالى لم يترك عملاً كان يعملُه فوكله إلى الإنسان بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان ، وإما أن يراد من الخليفة معناه الحقيقي إذا صح أن الأرض كانت معمورة من قبلُ بطائفة من المخلوقات يسمون الحن والين بحاء مهملة مكسورة ونون في الأول ، وبوحدة مكسورة ونون في الثاني . وقيل اسمهم الطم والرم بفتح أولهما ، وأحسبه من المزام ، وأن وضع هذين الاسمين من باب قول الناس (هَيَّانَ بن بَيَّان) إشارة إلى غير موجود أو غير معروف . ولعل هذا أنجز لأهل القصص من خرافات الفرس أو اليونان فإن الفرس زعموا أنه كان قبل الإنسان في الأرض جنس اسمه الطم والرم وكان اليونان يعتقدون أن الأرض كانت معمورة بمخلوقات تدعى (التيتان) وأن (زفس) و (هو المشتري) كبير الأرباب في اعتقادهم جلام من الأرض لفسادهم . وكل هذا يتلافيه سياق الآية فإن تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السماوات بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة دليل على أن جعل الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها فالخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته ولا يلزم أن يكون الخلف مستقراً في المكان من قبل ، فالخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي ، وبما يشمله هذا التصرف تصرف آدم بسن النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم . فكانت الآية من هذا الوجه إيماء إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازلهم إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك ، وقد بحث الله الرسل وبين الشرائع فربما اجتمعت الرسالة والخلافة وربما انفصلتا بحسب ما أراد الله من شرائعه إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة ولأن امتزاج الدين والمَلَك هو أكمل مظاهر الخطتين قال تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » . ولهذا أجمع أصحاب رسول الله بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمة وتنفيذ الشريعة ولم ينازع في ذلك أحد من الخاصة ولا من العامة إلا الذين ارتدوا على أذارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، من جُفَاة الأعراب ودعاة الفتنة فالنظرة مع أمثالهم سُدى .

والخليفة شروط محل بيانها كتب الفقه والكلام، وستجىء مناسبتها في آيات آتية .
والظاهر أن خطابه تعالى هذا للملائكة كان عند إتمام خلق آدم عند نفخ الروح فيه
أو قبل النفخ والأول أظهر ، فيكون المراد بالمخبر عن جعله خليفة هو ذلك المخلوق كما يقول
الذي كتب كتابا بحضرة جليس إني مرسل كتابا إلى فلان فإن السامع يعلم أن المراد أن
ذلك الذي هو بصدد كتابته كتاب لفلان ، ويجوز أن يكون خطابهم بذلك قبل خلق
آدم ، وعلى الوجوه كلها يكون اسم الفاعل في قوله « جاعِلٌ » للزمن المستقبل لأن وصف
الخليفة لم يكن ثابتا لآدم ساعته .

وقول الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس
الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس ، وليكون
كلاستشارة لهم تكريما لهم فيكون تعليما في قالب تكريم مثل إلقاء العلم فائدة للتلميذ
في صورة سؤال وجواب وليسئ الاستشارة في الأمور ، ولتنبيه الملائكة على ما دق وخفي
من حكمة خلق آدم كذا ذكر المفسرون .

وعندي أن هاته الاستشارة جمعت لتكون حقيقة مقارنة في الوجود لخلق أول البشر
حتى تكون ناموسا أشربتته نفوس ذريته لأن مقارنة شيء من الأحوال والمعاني لتكوين
شيء ما ، تؤثر تألفا بين ذلك الكائن وبين المقارن . ولعل هذا الاقتران يقوم في المعاني
التي لا توجد إلا تبعا لذوات مقام أمر التكوين في الذوات فسكا أن أمره إذا أراد شيئا
أى إنشاء ذات أن يقول له كُن فيكون ، كذلك أمره إذا أراد اقتران معنى بذات أو جنس
أن يقدر حصول مبدأ ذلك المعنى عند تكوين أصل ذلك الجنس أو عند تكوين الذات ،
الآ ترى أنه تعالى لما أراد أن يكون قبول العلم من خصائص الإنسان علم آدم الأسماء
عند ما خلقه .

وهذا هو وجه مشروعية تسمية الله تعالى عند الشروع في الأفعال ليكون اقتران
ابتدائها بلفظ اسمه تعالى مفيضاً للبركة على جميع أجزاء ذلك الفعل ، ولهذا أيضا طلبت منا
الشريعة تحييراً أكمل للحالات وأفضل الأوقات للشروع في فضائل الأعمال ومهمات المطالب
وتقدم هذا في الكلام على البسملة ، وسندكر ما يتعلق بالشورى عند قوله تعالى « وشاورهم
في الأمر » في سورة آل عمران .

وأُسندت حكاية هذا القول إلى الله سبحانه بعنوان الرب لأنه قول منبئ عن تدبير عظيم في جعل الخليفة في الأرض ، ففي ذلك الجعل نعمة تدبير مشوب بلطف وصلاح وذلك من معاني الربوبية كما تقدم في قوله « الحمد لله رب العالمين » ، ولما كانت هذه النعمة شاملة لجميع النوع أضيف وصف الرب إلى ضمير أشرف أفراد النوع وهو النبيء محمد صلى الله عليه وسلم مع تكريمه بشرف حضور مخاطبة .

﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾

هذا جواب الملائكة عن قول الله لهم « إني جاعل في الأرض خليفة » فالتقدير فقالوا على وزن قوله « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » وفُصل الجواب ولم يعطف بالفاء أو الواو جريا به على طريقة متبعة في القرآن في حكاية المحاورات وهي طريقة عربية قال زهير .

قيل لهم ألا اركبوا إلانا قالوا جميعا كلهم آلافا

أى فاركبوا ولم يقل فقالوا . وقال رؤية بن العجاج .

قالت بنات العم ياسلمى وإن كان فقيرا مُعدما قالت وإن

وانما حذفوا العاطف في أمثاله كراهية تكرير العاطف بتكرير أفعال القول فإن المحاورة تقتضى الإعادة في الغالب فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع وهو كثير في التنزيل وربما عطفوا ذلك بالفاء لنكتة تقتضى مخالفة الاستعمال وإن كان العطف بالفاء هو الظاهر والأصل وهذا مما لم أسبق إلى كشفه من أساليب الاستعمال العربى ، وبما عطف بالفاء قوله تعالى « فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملائكة » في سورة المؤمنين وقد يعطف بالواو أيضاً كما في قوله « فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون وقال الملائكة من قومه » إلخ في سورة المؤمنون وذلك إذا لم يكن المقصود حكاية التحاور بل قصد الإخبار عن أقوال جرت أو كانت الأقوال المحكية ممّا جرى في أوقات متفرقة أو أمكنة متفرقة . ويظهر ذلك لك في قوله تعالى « قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه - إلى قوله - وقال فرعون ذرونى أقتل موسى » ثم قال تعالى « وقال موسى إني عدت بربى وربكم » - ثم قال - « وقال رجل مؤمن من آل فرعون » الآية في سورة غافر ، وليس قوله « اتجمل فيها » جوابا لإذ عاملا فيها لما قدمناه آتفاً من أنه يفضى إلى أن يكون قولهم « اتجمل فيها » هو المقصود من القصة وأن تصير جملة إذ تابعة له إذ الطرف تابع للمظروف .

والاستفهام المحكى عن كلام الملائكة محمول على حقيقته مضمن معنى التمجيد والاستبعاد من أن تتعلق الحكمة بذلك فدلالة الاستفهام على ذلك هنا بطريق الكناية مع تطلب ما يزيل إنكارهم واستبعادهم فلذلك تعين بقاء الاستفهام على حقيقته خلافاً لمن توهم الاستفهام هنا مجرد التمجيد ، والذي أقدم الملائكة على هذا السؤال أنهم علموا أن الله لا أخبرهم أراد منهم إظهار علمهم تجاه هذا الخبر لأنهم مفطورون على الصدق والنزاهة من كل مؤاربة فلما نشأ ذلك في نفوسهم أفصح عنه دلالة تدل عليه يعلمها الله تعالى من أحوالهم لا سيما إذا كان من تمام الاستشارة أن يبدي المستشار ما يراه نصحاً وفي الحديث «الاستشارة مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم» يعنى إذا تكلم فعليه أداء أمانة النصيحة .

وعبر بالموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الكلام وهو الاستفهام والتعجب لأن من كان من شأنه الفساد والسفك لا يصلح للتممير لأنه إذا عمر تقضى ما عمره . وعُطف سفك الدماء على الإفساد للاهتمام به . وتكرير ضمير الأرض للاهتمام بها والتذكير بشأن عمرانها وحفظ نظامها ليكون ذلك أدخل في التعجب من استخلاف آدم وفي صرف إرادة الله تعالى عن ذلك إن كان في الاستشارة ائثار .

والإفساد تقدم في قوله تعالى « ألا إنهم هم المفسدون» .

والسفك الإراقة وقد غلب في كلامهم تعديته إلى الدماء وأما إراقة غير الدم فهي سفح بالحاء . وفي الجيء بالصلة جملة فعلية دلالة على توقع أن يتكرر الإفساد والسفك من هذا المخلوق وإنما ظنوا هذا الظن بهذا المخلوق من جهة ما استشعروه من صفات هذا المخلوق المستخلف بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية والعقلية والنطقية إما بوصف الله لهم هذا الخليفة أو برؤيتهم صورة تركيبه قبل نفخ الروح فيه وبعده ، والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه فعملوا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجبلية إلى الاكتساب وعن الامتثال إلى العصيان فإن العقل يشتمل على شاهدة وغاضبة وعاقلة ومن مجموعها ومجموع بعضها تحصل تراكيب من التفكير نافعة وضارة ، ثم إن القدرة التي في الجوارح تستطيع تنفيذ كل ما يخطر للعقل وقواه أن يفعله ثم إن النطق يستطيع إظهار خلاف الواقع وترويج الباطل ، فيكون من أحوال ذلك فساد كبير ومن أحواله أيضاً صلاح عظيم وإن طبيعة استخدام ذى القوة لقواه قاضية بأنه سيأتى بكل ما تصلح له هذه القوى خيرها وشرها فيحصل فعل مختلط من

صالح وسعي ، ومجرد مشاهدة الملائكة لهذا المخلوق العجيب المراد جعله خليفة في الأرض كاف في إحاطتهم بما يشتمل عليه من عجائب الصفات على نحو ما سيظهر منها في الخارج لأن مداركهم غاية في السمو لسلامتهم من كدورات المادة ، وإذا كان أفراد البشر يتفاوتون في الشعور بالخفيات ، وفي توجه نورانية النفوس إلى المعلومات ، وفي التوسم والتفرس في الذوات بمقدار تفاوتهم في صفات النفس جبلية واكتسابية ولدنية التي أعلاها النبوة ، فما ظنك بالنفوس المليكبة بالبحث .

وفي هذا ما يفنيك عما تكلف له بعض المفسرين من وجه اطلاع الملائكة على صفات الإنسان قبل بدوها منه من توقيف واطلاع على ما في اللوح أي علم الله ، أو قياس على أمة تقدمت وانقرضت ، أو قياس على الوحوش المفترسة إذ كانت قد وجدت على الأرض قبل خلق آدم كما في سفر التكوين من التوراة . وبه أيضاً تعلم أن حكم الملائكة هذا على ما يتوقع هذا المخلوق من البشر لم يلاحظ فيه واحد دون آخر ، لأنه حكم عليهم قبل صدور الأفعال منهم وإنما هو حكم بما يصلحون له بالقوة ، فلا يدل ذلك على أن حكمهم هذا على بني آدم دون آدم حيث لم يفسد ، لأن في هذا القول غفلة عما ذكرناه من البيان .

وأثر التعبير بالفعل المضارع في قوله من يفسد ويسفك لأن المضارع يدل على التجدد والحدوث دون الدوام أي من يحصل منه الفساد تارة وسفك الدماء تارة لأن الفساد والسفك ليسا بمستمرين من البشر .

وقولهم « أتعجل فيها من يفسد فيها » دليل على أنهم علموا أن مراد الله من خلق الأرض هو صلاحها وانتظام أمرها وإلا لما كان للاستفهام الشوب بالتمعجب موقع وهم علموا مراد الله ذلك من تلقينهم عنه سبحانه أو من مقتضى حقيقة الخلافة أو من قرائن أحوال الاعتناء بخلق الأرض وما عليها على نظم تقتضي إرادة بقاءها إلى أمد ، وقد دلت آيات كثيرة على أن إصلاح العالم مقصد للشارع قال تعالى « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله » - وقال « وإذا تولي سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .

ولا يرد هنا أن هذا القول غيبية وهم منزهون عنها لأن ذلك العالم ليس عالم تكليف ولأنه لا غيبية في مشورة ونحوها كالخطبة والتجريح لتوقف المصلحة على ذكر ما في الاستشارة

في شأنه من النقائص ، ورجحان تلك المصلحة على مفسدة ذكر أحدٍ بما يكره ، ولأن الموصوف بذلك غير معين إذ الحكم على النوع ، فاتفق جميع ما يرتب على النية من المفسد في واقعة الحال فلذلك لم يحجم عنها الملائكة .

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

الواو متمينة للحالية إذ لا موقع للعطف هنا وإن كان ما بعد الواو من مقرهم ومحكي عنهم لكن الواو من المحكي وليست من الحكاية لأن قولهم ونحن نسبح بحمدك يحتمل معنيين أحدهما أن يكون الغرض منه تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهام علمهم فيما أشاروا به كما يفعل المستشار مع من يعلم أنه أسدٌ منه رأياً وأرجح عقلاً فيشير ثم يفوض كما قال أهل مشورة بلقيس إذ قالت « أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون » قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأسٍ شديد (أى رأى أن نحاربه ونصدده عما يريد من قوله وأتوئى مسلمين) والأمرُ إليك فانظري ماذا تأمرين ، وكما يفعل التلميذ مع الأستاذ في بحثه معه ثم يصرح بأنه مبلغ علمه ، وأن القول الفصل للأستاذ ، أو هو إعلان بالتنزيه للخالق عن أن يخفى عليه ما بدا لهم من مانع استخلاف آدم ، وبراءة من شائبة الاعتراض ، والله تعالى وإن كان يعلم براءتهم من ذلك إلا أن كلامهم جرى على طريقة التعبير عما في الضمير من غير قصد إعلام الغير ، أو لأن في نفس هذا التصريح تبركا وعبادة ، أو إعلان لأهل الملا الأعلى بذلك .

فإذا كان كذلك كان العطف غير جائز لأن الجملة المحكية بالقول إذا عطف عليها جملة أخرى من القول فالشأن أن لا يقصد العطف على تقدير عامل القول إلا إذا كان القولان في وقتين كما في قوله تعالى « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » على أحد الوجوه في عطف جملة نعم الوكيل عند من لا يرون صحة عطف الإنشاء على الخبر وإن كان الحق صحة عطف الإنشاء على الخبر وعكسه وأنه لا ينافي حسن الكلام ، فلذلك لم يكن حظ للعطف ، ألا ترى أنهم إذا حكوا حادثاً مُلِمّاً أو مُصَاباً جَمّاً أعقبوه بنحو حسبنا الله ونعم الوكيل أو إنا لله وإنا إليه راجعون أو نحو ذلك ^(١) ولا يعطفون مثل ذلك فكانت الواو والحال للإشارة إلى

(١) مثل قول الفرزدق :

أَفْعَدِلْ أَحْسَاباً كِرَاماً مُمَاتَهَا بِأَحْسَابِكُمْ إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاجِعٌ

أن هذا أمر مستحضر لهم في حال قولهم « أتجعل فيها من يفسد » وليس شيئاً خطر لهم بعد أن توغلوا في الاستبعاد والاستغراب .

الاحتمال الثاني أن يكون الغرض من قولهم ونحن نسبح بحمدك التعريض بأنهم أولى بالاستخلاف لأن الجملة الاسمية دلت على الدوام وجملة من يفسد فيها دلت على توقع الفساد والسفك فكان المراد أن استخلافه يقع منه صلاح وفساد والذين لا يصدر منهم غشيان مراد الله هم أولى بالاستخلاف ممن يتوقع منه الفساد فتكون حالا مقررّة لدلول جملة أتجعل فيها من يفسد تكملة للاستغراب ، وعاملها هو تجعل وهذا الذي أشار إليه تمثيل الكشف . والعامل في الحال هو الاستفهام لأنه مما تضمن معنى الفعل لا سيما إذا كان المقصود منه التعجب أيضاً إذ تقدير أتجعل فيها إلخ تعجب من جعله خليفة .

والتسبيح قول أو مجموع قول مع عمل يدل على تعظيم الله تعالى وتزيهه ولذلك سمي ذكر الله تسبيحاً ، والصلاة سبحة ويطلق التسبيح على قول سبحان الله لأن ذلك القول من التزيه وقد ذكرنا أن التسبيح مشتق من السبح وهو الذهاب السريع في الماء إذ قد توسع في معناه إذ أطلق مجازاً على مر النجوم في السماء قال تعالى « وكل في فلك يسبحون » وعلى جرى الفرس قالوا فلعل التسبيح لوحظ فيه معنى سرعة المرور في عبادة الله تعالى ، وأظهر منه أن يكون سبح بمعنى كَسَبَ للسبح أى البعد وأريد البعد الاعتبارى وهو الرفعة أى التزيه عن أحوال النقائص وقيل سمع سبح مخففاً غير مضاعف بمعنى زه ، ذكره في القاموس .

وعندى أن كون التسبيح مأخوذاً من السبح على وجه المجاز بعيد والوجه أنه مأخوذ من كلمة سبحان ولهذا التزموا في هذا أن يكون بوزن فَعَل المضاعف فلم يسمع مخففاً .

وإذا كان التسبيح كما قلنا هو قول أو قول وعمل يدل على التعظيم فتملق قوله بحمدك به هنا وفي أكثر المواضع في القرآن ظاهر لأن القول يشتمل على حمد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه فالباء للملابسة أى نسبح تسبيحاً مصحوباً بالحمد لك وبذلك تتمحى جميع التكلفات التى فسرنا بها هنا .

والتقديس التزيه والتطهير وهو إما بالفعل كما أطلق المقدس على الراهب في قول امرئ القيس يصف تعلق الكلاب بالثور الوحشى

فأدركته يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس^(١)
ولما بالاعتقاد كما في الحديث « لا قدست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قوتها » أى لا تزها
الله تعالى وطهرها من الأرجاس الشيطانية .

وفعل قدس يتعدى بنفسه فالإتيان باللام مع مفعوله في الآية لإفادة تأكيد حصول
الفعل نحو شكرت لك ونصحت لك وفي الحديث عند ذكر الذى وجد كلباً يلهث من العطش
فأخذ خفه فأدلاه في الركبة فسقاه فشكر الله له أى شكره . مبالغة في الشكر لثلاث يتوهم ضعف
ذلك الشكر من أنه عن عمل حسنة مع دابة فدفع هذا الإيهام بالتأكيد باللام وهذا من أفصح
الكلام ، فلا تذهب مع الذين جملوا قوله « لك » متعلقاً بمحذوف تقديره حامدين أو هو متعلق
بنسبح واللام بمعنى لأجلك على معنى حذف مفعول نسبح أى نسبح أنفسنا أى نزهها عن
النقائص لأجلك أى لطاعتك فذلك عدول عن فصيح الكلام ، ولك أن تجعل اللام لام
التيين التي ستعرض لها عند قوله تعالى « واشكروا لى ولا تكفرون » .

فعنى ونحن نسبح بحمدك وتقديرك نحن نعظمك ونزهك والأول بالقول والعمل
والثاني باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العلية ، فلا يتوهم التكرارين نسبح وتقديس .
وأوثرت الجملة الإسمية في قوله « ونحن نسبح » لإفادة الدلالة على الدوام والثبات أى هو
وصفهم الملازم لجلبتهم ، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي دون حرف النفي يحتمل أن يكون
للتخصيص بحاصل ما دلت عليه الجملة الاسمية من الدوام أى نحن الداعون على التسبيح والتقديس
دون هذا المخلوق والأظهر أن التقديم لمجرد التقوى نحو هو يعطى الجزيل .

﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ 30

جواب الكلامهم فهو جار على أسلوب المفاولة في المحاورات كما تقدم ، أى أعلم ما في
البشر من صفات الصلاح ومن صفات الفساد ، وأعلم أن صلاحه يحصل منه المقصد من
تعمير الأرض وأن فساده لا يأتى على المقصد بالإبطال وأن في ذلك كله مصالح عظيمة ومظاهر

(١) شبرق : مزق أى يأخذون من ثوبه تبركاً به . وقيل أراد من المقدس الذى رجع من زيارة بيت

لتفاوت البشر في الراتب وإطلاعا على نموذج من غايات علم الله تعالى وإرادته وقدرته بما يظهره البشر من مبالغ نتائج العقول والعلوم والصنائع والفضائل والشرائع وغير ذلك . كيف ومن أبداع ذلك أن تركب الصفتين الذميتين يأتي بصفات الفضائل كحدث الشجاعة من بين طرفي التهور والجبن . وهذا إجمال في التذكير بأن علم الله تعالى أوسع مما علموه فهم يوقنون إجمالا أن لذلك حكمة ومن المعلوم أن لا حاجة هنا لتقدير وما تعلمون بعد « ما لا تعلمون » لأنه معروف لكل سامع ولأن الغرض لم يتعلق بذكره وإنما تعلق بذكر علمه تعالى بما شذ عنهم . وقد كان قول الله تعالى هذا تنبيه للمحاورة وإجمالا للحجة على الملائكة بأن سعة علم الله تحيط بما لم يحيط به علمهم وأنه حين أراد أن يجعل آدم خليفة كانت إرادته عن علم بأنه أهل للخلافة ، وتأكيده الجملة بأن لتزليل الملائكة في مراجعتهم وغفلتهم عن الحكمة منزلة المترددين .

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾

معطوف على قوله، قال إني أعلم ما لا تعلمون عطف حكاية الدليل التفصيلي على حكاية الاستدلال الإجمالي الذي اقتضاه قوله « إني أعلم ما لا تعلمون » فإن تعليم آدم الأسماء وإظهار فضيلته بقبوله لهذا التعليم دون الملائكة جعله الله حجة على قوله لهم إني أعلم ما لا تعلمون أي ما لا تعلمون من جدارة هذا المخلوق بالخلافة في الأرض وعطف ذكر آدم بعد ذكر مقالة الله للملائكة وذكر محاورتهم يدل على أن هذا الخليفة هو آدم وأن آدم اسم لذلك الخليفة وهذا الأسلوب من بديع الإجمال والتفصيل والإيجاز كما قال النابغة :

فقلت لهم لا أعرفن عقائلا رعايب من جنبي أريك وعاقل
الآيات ثم قال بعدها :

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتني على وعلى في ذى المطارة عاقل
مخافة عمرو أن تكون جياده يقدن إلينا بين حافٍ وناعل

فدل على أن ما ذكره سالفا من العقائل التي بين أريك وعاقل ومن الأنعام المقتنمة هو ما يتوقع من غزو عمرو بن الحرث النسماني ديار بني عوف من قومه .

وآدم اسم الإنسان الأول أبى البشر فى لغة العرب وقيل منقول من العبرانية لأن أداماً بالعبرانية بمعنى الأرض وهو قريب لأن التوراة تكلمت على خلق آدم وأطالت فى أحواله فلا يبعد أن يكون اسم أبى البشر قد اشتهر عند العرب من اليهود وسماع حكاياتهم ، ويجوز أن يكون هذا الاسم عرف عند العرب والعبرانيين معاً من أصل اللغات السامية فاتفقت عليه فروعها . وقد سمي فى سفر التكوين من التوراة بهذا الاسم « آدم » ووقع فى دائرة المعارف العربية أن آدم سمي نفسه إيش (أى ذا مقتنى) وترجمته إنسان أو قرء . قلت ولعله تحريف (إيث) كما ستعلمه عند قوله تعالى اسكن أنت وزوجك الجنة .

وللإنسان الأول أسماء أخر فى لغات الأمم وقد سماه الفرس القدماء « كيومرت » بفتح الكاف فى أوله وبتاء مثناة فوقية فى آخره ، ويسمى أيضاً « كيامرتن » بألف عوض الواو وبكسر الراء وبنون بعد المثناة فوقية ، قالوا إنه مكث فى الجنة ثلاثة آلاف سنة ثم هبط إلى الأرض فعاش فى الأرض ثلاثة آلاف سنة أخرى ، واسمه فى العبرانية (آدم) كما سمي فى التوراة وانتقل هذا الاسم إلى اللغات الأفرنجية من كتب الديانة المسيحية فسموه (آدام) بإشباع الدال ، فهو اسم على وزن فاعل صيغ كذلك اعتباطاً وقد جمع على أوادم بوزن فواعل كما جمع خاتم وهذا الذى يشير إليه صاحب الكشاف وجعل محاولة اشتقاقه كمحاولة اشتقاق يعقوب من العقب وإبليس من الإبلas ونحو ذلك أى هى محاولة ضئيلة وهو الحق . وقال الجوهري أصله آدم بهمزتين على وزن أفعل من الأدمة وهى لون السمرة فقلبت ثانية الهمزتين مدة ويبعده الجمع وإن أمكن تأويله بأن أصله أأدم فقلبت الهزمة الثانية فى الجمع واوا لأنها ليس لها أصل كما أجاب به الجوهري . ولعل اشتقاق اسم لون الأدمة من اسم آدم أقرب من العكس .

والأسماء جمع اسم وهو فى اللغة لفظ يدل على معنى يفهمه ذهن السامع فيختص بالألفاظ سواء كان مدلولها ذاتا وهو الأصل الأول ، أو صفة أو فعلا فيما طرأ على البشر الاحتياج إليه فى استيعانه بعضهم ببعض فحصل من ذلك ألفاظ مفردة أو مركبة وذلك هو معنى الاسم عرفا إذ لم يقع نقل . فما قيل إن الاسم يطلق على ما يدل على الشئ سواء كان لفظه أو صفته أو فعله توهم فى اللغة . ولعلمهم تطوحوا به إلى أن اشتقاقه من السمرة وهى العلامة ، وذلك على تسليمه لا يقتضى أن يبقى مساويا لأصل اشتقاقه . وقد قيل هو مشتق من السمولأنه

لما دل على الذات فقد أبرزها . وقيل مشتق من الوَسْم لأنه سمة على المدلول . والأظهر أنه مشتق من السَّمُو وأن وزنه سِمُو - بكسر السين وسكون الميم - لأنهم جمعوه على أسماء ولولا أن أصله سِمُو لما كان وجه زيادة الهمزة في آخره فإنها مبدلة عن الواو في الطرف إثر ألف زائدة ولكانوا جمعوه على أوْسَام .

والظاهر أن الأسماء التي علمها آدم هي ألفاظ تدل على ذوات الأشياء التي يحتاج نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى نداها ، أو استحضارها ، أو إفادة حصول بعضها مع بعض ، وهي أى الإفادة ما نسميه اليوم بالأخبار أو التوصيف فيظهر أن المراد بالأسماء ابتداء أسماء الذوات من الموجودات مثل الأعلام الشخصية وأسماء الأجناس من الحيوان والنبات والحجر والكواكب مما يقع عليه نظر الإنسان ابتداء مثل اسم جنة ، وملك ، وآدم ، وحواء ، وإبليس ، وشجرة وثمر ، ونجد ذلك بحسب اللغة البشرية الأولى ولذلك ترجح أن لا يكون فيما علمه آدم ابتداء شيء من أسماء المعاني والأحداث ثم طرأت بعد ذلك فكان إذا أراد أن يخبر عن حصول حدث أو أمر معنوي لذات قرن بين اسم الذات واسم الحدث نحو ماء برّد أى ماء بارد ثم طرأ وضع الأفعال والأوصاف بعد ذلك فقال الماء بارد أو برّد الماء . وهذا يرجح أن أصل الاشتقاق هو المصادر لا الأفعال لأن المصادر صنف دقيق من نوع الأسماء وقد دلنا على هذا قوله تعالى « ثم عرضهم » كما سيأتي .

والتعريف في الأسماء تعريف الجنس أريد منه الاستغراق للدلالة على أنه علمه جميع أسماء الأشياء المعروفة يومئذ في ذلك العالم فهو استغراق عرفي مثل جمع الأمير الصاعقة أى صاعقة أرضه ، وهو الظاهر لأنه المقدار الذي تظهر به الفضيلة فما زاد عليه لا يليق تعليمه بالحكمة، وقدرة الله صالحة لذلك .

وتعريف الأسماء يفيد أن الله علم آدم كل اسم ما هو مسماه ومدلوله ، والإتيان بالجمع هنا متعين إذ لا يستقيم أن يقول وعلم آدم الاسم ، وما شاع من أن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع في المعرفة باللام كلام غير محرر ، وأصله مأخوذ من كلام السكاكي وسنحققه عند قوله تعالى « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب » في هذه السورة . و« كلها » تأكيد لمعنى الاستغراق لئلا يتوهم منه العهد فلم ترد كلمة كل العموم شمولاً ولكنها دفعت عنه الاحتمال . (وكُل) اسم دال على الشمول والإحاطة فيما أضيف

هو إليه وأكثر ما يجيء مضافا إلى ضمير ما قبله فيُعرب تأكيدا تابعا لما قبله ويكون أيضا مستقلا بالإعراب إذا لم يقصد التوكيد بل قصدت الإحاطة وهو ملازم للإضافة لفظا أو تقديرا فإذا لم يذكر المضاف إليه عوض عنه التنوين ولكونه ملازماً للإضافة يعتبر معرفة بالإضافة فلا تدخل عليه لام التعريف .

وتعليم الله تعالى آدم الأسماء إما بطريقة التلقين بمرض المسمى عليه فإذا أراه لقن اسمه بصوت مخلوق يسمعه فيعلم أن ذلك اللفظ دال على تلك الذات بعلم ضرورى . أو يكون التعليم بإلقاء علم ضرورى فى نفس آدم بحيث يخطر فى ذهنه اسم شىء عند ما يعرض عليه فيضع له اسماً بأن ألهمه وضع الأسماء للأشياء ليتمكن أن يفيدها غيره وذلك بأن خلق قوة النطق فيه وجعله قادراً على وضع اللغة كما قال تعالى «خلق الإنسان علمه البيان» وجميع ذلك تعليم إذ التعليم مصدر علمه إظهاره ذا علم مثله أدبه فلا ينحصر فى التلقين وإن تبادر فيه عرفاً . وأياً ما كانت كيفية التعليم فقد كان سبباً لتفضيل الإنسان على بقية أنواع جنسه بقوة النطق وإحداث الموضوعات اللغوية للتعبير عما فى الضمير . وكان ذلك أيضاً سبباً لتفاضل أفراد الإنسان بعضهم على بعض بما ينشأ عن النطق من استفادة المجهول من المعلوم وهو مبدأ العلوم ، فالإنسان لما خلق ناطقاً معبراً عما فى ضميره فقد خلق مدركاً أى عالماً وقد خلق معلماً ، وهذا أصل نشأة العلوم والقوانين وتفاريحها لأنك إذا نظرت إلى المعارف كلها وجدتها وضع أسماء لمسميات وتعريف معانى تلك الأسماء وتحديدتها لتسهيل إيصال ما يحصل فى الذهن إلى ذهن الغير . وكلا الأمرين قد حُرِمَ بقية أنواع الحيوان، فلذلك لم تتفاضل أفرادها إلا تفاضلاً ضعيفاً بحسن الصورة أو قوة المنفعة أو قلة العجمة بله بقية الأجناس كالنبات والمعدن . وبهذا تعلم أن العبرة فى تعليم الله تعالى آدم الأسماء حاصلة سواء كان الذى علمه إياه أسماء الموجودات يومئذ أو أسماء كل ما سيوجد ، وسواء كان ذلك بلغة واحدة هى التى ابتدأ بها نطق البشر منذ ذلك التعليم أم كان بجميع اللغات التى ستنتطق بها ذرياته من الأمم ، وسواء كانت الأسماء أسماء الذات فقط أو أسماء المعانى والصفات ، وسواء كان المراد من الأسماء الإلفاظ الدالة على المعانى أو كل دال على شىء لفظاً كان أو غيره من خصائص الأشياء وصفاتها وأفعالها كما تقدم . إذ محاولة تحقيق ذلك لا طائل تحته فى تفسير القرآن . ولعل كثيراً من المفسرين قد هان عندهم أن يكون تفضيل آدم بتعليم الله متعلقاً بمعرفة عدد

من الألفاظ الدالة على المعاني الموجودة فراموا تعظيم هذا التعليم بتوسيعه وغفلوا عن موقع العبرة وملاك الفضيلة وهو إيجاد هاته القوة العظيمة التي كان أولها تعليم تلك الأسماء ، ولذلك كان إظهار عجز الملائكة عن لحاق هذا الشأو بعدم تعليمهم لشيء من الأسماء ، ولو كانت الزية والتفاضل في تعليم آدم جميع ما سيكون من الأسماء في اللغات لكفى في إظهار عجز الملائكة عدم تعليمهم لجمهرة الأسماء وإنما علم آدم أسماء الموجودات يومئذ كلها ليكون إنباؤه الملائكة بها أبهر لهم في فضيلته .

وليس في هذه الآية دليل على أن اللغات توقيفية أى لقنها الله تعالى البشر على لسان آدم ولا على عدمه لأن طريقة التعليم في قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء » مجملة محتملة لكيفيات كما قدمناه . والناس متفقون على أن القدرة عليها إلهام من الله وذلك تعليم منه سواء لقن آدم لغة واحدة أو جميع لغات البشر وأسماء كل شيء أو ألهمه ذلك أو خلق له القوة الناطقة ، والمسألة مفروضة في علم الله وفي أصول الفقه وفيها أقوال ولا أثر لهذا الاختلاف لا في الفقه ولا في غيره قال المازرى (إلا في جواز قلب اللغة والحق أن قلب الألفاظ الشرعية حرام وغيره جائز) ولقد أصاب المازرى وأخطأ كل من رام أن يجعل لهذا الخلاف ثمرة غير ما ذكر ، وفي استقراء ذلك ورده طول ، وأمره لا يخفى عن سالى العقول .

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴾ 31

قيل عطفه بثم لأن بين ابتداء التعليم وبين العرض مهلة وهى مدة تلقين الأسماء لآدم أو مدة إلهامه وضع الأسماء للمسميات . والأظهر أن ثم هنا للتراخي الرتبى كشأنها في عطفها الجمل لأن رتبة هذا العرض وظهور عدم علم الملائكة وظهور علم آدم وظهور أثر علم الله وحكمته كل ذلك أرفع رتبة في إظهار مزية آدم واستحقاقه الخلافة ، من رتبة مجرد تعلمه الأسماء لو بقى غير متصل به ما حدث من الحادثة كلها . ولما كان مفهوم لفظ (اسم) من المفهومات الإضافية التي يتوقف تعقلها على تعقل غيرها اذ الاسم لا يكون إلا لمسمى كان

ذكر الأسماء مشعراً لاحتالة بالمسميات فجاز للبليغ أن يعتمد على ذلك ويحذف لفظ المسميات إيجازاً. وضمير عرضهم للمسميات لأنها التي تعرض بقرينة قوله « أنبئوني بأسماء هؤلاء » وبقريته قوله « وعلم آدم الأسماء كلها » ، فإن الاسم يقتضى مسمى وهذا من إيجاز الحذف وأما الأسماء فلا تعرض لأن العرض إظهار الذات بعد خفائها ومنه عرض الشيء للبيع ويوم العرض والألفاظ لا تظهر فتعين أن المروض مدلولات الأسماء إما بأن تعرض صور من الذوات فقط ويسأل عن معرفة أسمائها أى معرفة الألفاظ الدالة عليها ، أو عن بيان مواهبها وخصائصها وإما بأن تعرض الذوات والمعاني بخلق أشكال دالة على المعاني كعرض الشجاعة في صورة فعل صاحبها والعلم في صورة إفاضة العالم في درسه أو تحريره كما نرى في الصور المنحوتة أو المدهونة للمعاني المقولة عند اليونان والرومان والفرس والصور الذهبية عند الإفرنج ، بحيث يجد الملائكة عند مشاهدة تلك الهيئة أن المروض معنى شجاعة أو معنى علم ويقرب ذلك ما يحصل في المرائي الحلية . والحاصل أن الحال المذكورة في الآية حالة عالم أوسع من عالم المحسوسات والمادة .

وإعادة ضمير المذكر العاقل على المسميات في قوله عرضهم للتغليب لأن أشرف المروضات ذوات العقلاء وصفاتهم على أن ورود مثله بالألفاظ التي أصابها للعقلاء طريقة عربية نحو قوله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » . والداعي إلى هذا أن يعلم ابتداء أن المروض غير الأسماء حتى لا يضل فهم السامع قبل سماع قرينة « أنبئوني بأسماء هؤلاء » .

وقوله تعالى « فقال أنبئوني » تفريع على العرض وقرن بالفاء لذلك . والأمر في قوله « أنبئوني » أمر تعجيز بقرينة كون المأمور يعلم أن الأمر عالم بذلك فليس هذا من التكليف بالحال كما ظنه بعض المفسرين . واستعمال صيغة الأمر في التعجيز مجاز ، ثم إن ذلك المعنى المجازي يستلزم علم الأمر بعجز المأمور وذلك يستلزم علم الأمر بالمأمور به . والإنباء الإخبار بالنبا وهو الخبر ذو الفائدة العظيمة والأهمية بحيث يحرص السامعون على اكتسابه ، ولذلك تضمن الإنباء معنى الإعلام لأن الخبر به يعد مما يعلم ويعتقد بوجه أخص من اعتقاد مطلق الخبر فهو أخص من الخبر .

وقوله « إن كنتم صادقين » إما أراد به إن كنتم صادقين في أنكم أفضل من هذا المخلوق إن كان قولهم « ونحن نسيح » الخ تعريضاً بأنهم أحقاء بذلك . أو أراد إن كنتم

صادقين في عدم جدارة آدم بالخلافة كما دل عليه قولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها » كان قولهم « ونحن نسبح بحمدك » لمجرد التفويض أو الإعلان للسامعين من أهل الملائكة الأعلى بالبراءة من شائبة الاعتراض على ما اخترناه .

وجه الملازمة بين الإنباء بالأسماء وبين صدقهم فيما ادعوه التي اقتضاها ربط الجزاء بالشرط أن العلم بالأسماء عبارة عن القوة الناطقة الصالحة لاستفادة المعارف وإفادتها ، أو عبارة عن معرفة حقائق الأشياء وخصائصها ، أو عبارة عن معرفة أسماء الذوات والمعاني ، وكل ذلك يستلزم ثبوت العالمية بالفعل أو بالقوة ، وصاحب هذا الوصف هو الجدير بالاستخلاف في العالم لأن وظيفة هذا الاستخلاف تدير وإرشاد وهدى ووضع الأشياء مواضعها دون احتياج إلى التوقيف في غالب التصرفات ، وكل ذلك محتاج إلى القوة الناطقة أو فروعها ، والقوى الملكية على شرفها إنما تصلح لأعمال معينة قد سخرت لها لا تمدوها ولا تتصرف فيها بالتحليل والتركيب ، وما يذكر من تنوع تصرفها وصواب أعمالها إنما هو من توجيه الله تعالى إياها وتلقيته المعبر عنه بالتسخير . وبذلك ظهر وجه ارتباط الأمر بالإنباء بهذا الشرط وقد تميز فيه كثير .

وإذا انتفى الإنباء انتفى كونهم صادقين في إنكارهم خلافة آدم ، فإن كان محل الصدق هو دعواهم أنهم أجدر فقد ثبت عدمها ، وإن كان محل التصديق هو دعواهم أن البشر غير صالح للاستخلاف فانتفاء الإنباء لا يدل على انتفاء دعواهم ولكنه تمهيد له لأن بعده إنباء آدم بالأسماء لأن المقام مؤذن بأنهم لما أمروا أمر تمجيز وجعل المأمور به دلالة على الصدق كان وراء ذلك إنباء آخر مترقباً من الذي طعنوا في جدارته ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى لهم « إني أعلم ما لا تعلمون » .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ 32

جرد قالوا من الفاء لأنه محاورة كما تقدم عند قوله تعالى « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها » وافتتاح كلامهم بالتسبيح وقوف في مقام الأدب والتعظيم لدى العظمة المطلقة ، وسبحان اسم التسبيح وقد تقدم عند قوله « ونحن نسبح بحمدك » وهو اسم مصدر سبج المضاعف وليس مصدراً لأنه لم يجرى على أبنية مصادر الرباعي وقيل هو مصدر سبج مخففاً

بمعنى نزه فيكون كالنفران والشكران ، والكفران من غفر وشكر وكفر وقد كثر استعماله منصوبا على المعنوية المطلقة بإضمار فعله كماذا الله وقد يخرج عن ذلك نادرا قال « سبحانك اللهم ذا السبحان » وكأنهم لما خصصوه في الاستعمال يجعله كالعلم على التنزيه عدلوا عن قياس اشتقاقه فصار سبحان كالعلم الجنسى مثل برة وفجار « بكسر الراء » في قول النابغة .

* فحملتُ برّةً واحتملتُ جَارِ *

ومنعوه من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون قال سيبويه وأما ترك تنوين سبحان فلا نه صار عندهم معرفة وقول الملائكة (لا علم لنا إلا ما علمتنا) خبر مراد منه الاعتراف بالمعجز لا الإخبار عن حالهم لأنهم يوقنون أن الله يعلم ما تضمنه كلامهم . ولا أنهم قصدوا لازم الفائدة وهي أن المخبر عالم بالخبر فتمين أن الخبر مستعمل في الاعتراف . ثم إن كلامهم هذا يدل على أن علومهم محدودة غير قابلة للزيادة فهي مقصورة على ما ألهمهم الله تعالى وما يأمرهم فللملائكة علم قبول المعاني لا علم استنباطها .

وفي تصدير كلامهم بسبحانك إيماء إلى الاعتذار عن مراجعتهم بقولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها » فهو افتتاح من قبيل براعة الاستهلال عن الاعتذار . والاعتذار وإن كان يحصل بقولهم (لا علم لنا إلا ما علمتنا) لكن حصول ذلك منه بطريق الكناية دون التصريح ويحصل آخر لا ابتداء فكان افتتاح كلامهم بالتنزيه تعجيلا بما يدل على ملازمة جانب الأدب العظيم (إنك أنت العليم الحكيم) ساقوه مساق التعليل لقولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا لأن المحيط علمه بكل شيء المحكم لكل خلق إذا لم يجعل لبعض مخلوقاته سبيلا إلى علم شيء لم يكن لهم قبل بعلمه إذ الحصول بقدر القبول والاستعداد أي فلا مطمع لنا في تجاوز العلم إلى ما لم تهيء لنا علمه بحسب فطرتنا . والذي دل على أن هذا القول مسوق للتعليل وليس مجرد ثناء هو تصديره بإن في غير مقام رد إنكار ولا تردد .

قال الشيخ في دلائل الإعجاز ^(١) ومن شأن إن إذا جاءت على هذا الوجه (أي أن تقع إثر كلام وتكون لمجرد الاهتمام) أن تغني غناء الفاء العاطفة (مثلا) وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا فأتت ترى الكلام بها مقطوعا موصولا وأنشد قول بشار :

بَكْرًا صَاحِبِيَّ قَبْلَ الْمَهِجِرِ إِنَّ ذَاكَ النِّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ

وقول بعض العرب :

فَفَنَّهُا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْخُدَاءُ

فإنهما استغنيا بذكر إن عن الفاء . وإن خلفا الأحمر لما سأل بشارا لماذا لم يقل « بكرا فالنجاح في التكبير » أجابه بشار بأنه أتى بها عربية بدوية ولو قال « فالنجاح » لصارت من كلام المولدين (أى أجابه جوابا أحاله فيه على الذوق) وقد بين الشيخ عبد القاهر سببه . وقال الشيخ في موضع آخر ^(١) ألا ترى أن الغرض من قوله « إن ذاك النجاح في التكبير » أن يبين المعنى في قوله لصاحبيه « بكرا » وأن يحتاج لنفسه في الأمر بالتكبير وبين وجه الفائدة منه « اهـ . (والعليم) الكثير العلم وهو من أمثلة المبالغة على الصحيح ويجوز كونه صفة مشبهة على تقدير تحويل عليم - المكسور اللام - إلى علم بضم اللام ليصير من أفعال السجايا نحو ما قرناه في الرحيم ونحن في غنية عن هذا التكلف إذ لا ينبغي أن يبقى اختلاف في أن وزن فعيل يجيء لمعنى المبالغة وإنما أنشأ هذه التحلات من زعموا أن فعيلًا لا يجيء للمبالغة .

(الحكيم) فعيل من أحكم إذا اتقن الصنع بأن حاطه من الخلل . وأصل مادة حكم في كلام العرب المنع من الفساد والخلل ومنه حكمة الدابة (بالتحريك) للحديدة التي توضع في فم الفرس لتمنعه من اختلال السير وأحكم فلان فلانا منعه قال جرير :

أَبْنَى حَنِيفَةً أَحْكَمُوا سُفْهَاءَ كَمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضِبَا

والحكمة بكسر الحاء ضبط العلم وكأله، فالحكيم إما بمعنى المتقن للأمر كلها أو بمعنى ذى الحكمة وأيًا ما كان فقد جرى بوزن فعيل على غير فعل ثلاثي وذلك مسموع قال عمرو ابن معديكرب :

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُوْرُقُنِي وَأَصْحَابِي هَجُوعِ

ومن شواهد النحو ما أنشده أبو علي ولم يعزه :

فَمَنْ يَكُ لَمْ يُنْجِبْ أَبُوهَ وَأُمَهُ فَإِنْ لَنَا الْأُمُّ النَّجِيَّةُ وَالْأَبُ

أراد الأم المنجية بدليل قوله لم ينجب أبوه وفي القرآن « بديع السماوات والأرض » ووصف

الحكيم والعرب تجرى أوزان بعض المشتقات على بعض فلا حاجة إلى التكلف بتأول بديع السماوات والأرض ببديع سماواته وأرضه أى على أن (أل) عوض عن المضاف إليه فتكون الموصوف بحكيم هو السماوات والأرض وهى محكمة الخلق فإن مساق الآية تمجيد الخالق لا عجائب مخلوقاته حتى يكون بمعنى مفعول . ولا إلى تأويل الحكيم بمعنى ذى الحكمة لأن ذلك لا يجدى فى دفع بحث مجيئه من غير ثلاثى .

وتمقيب العليم بالحكيم من إتباع الوصف بأخص منه فإن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم لأن الحكمة كمال فى العلم فهو كقولهم خطيب مصقع وشاعر مفلح .

وفى معارج النور للشيخ لطف الله الأرضومى وفى الحكيم ذوالحكمة وهى العلم بالشئ وإتقان عمله وهو الإيجاد بالنسبة إليه والتدبير بأكل ما تستعد له ذات المدبر (يفتح الباء) والاطلاع على حقائق الأمور اهـ . وقال أبو حامد الغزالى فى المقصد الأسنى : الحكيم ذوالحكمة والحكمة عبارة عن المعرفة بأفضل الأشياء ، فأفضل العلوم العلم بالله وأجل الأشياء هو الله وقد سبق أنه لا يعرفه كنه معرفته غيره وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم فهو الحكيم الحق لأنه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم إذ أجل العلوم هو العلم الأزلى القديم الذى لا يتصور زواله المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليها خفاء ، ولا شبهة ولا يتصور ذلك إلا فى علم الله اهـ .

وسيجىء الكلام على الحكمة عند قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء .

«وأنت» فى إنك أنت العليم الحكيم ضمير فصل ، وتوسيطه من صيغ القصر فالعنى قصر العلم والحكمة على الله قصر قلب لردم اعتقادهم أنفسهم أنهم على جانب من علم وحكمة حين راجعوا بقولهم أتجعل فيها من يفسد فيها أو تنزلهم منزلة من يعتقد ذلك على الاحتمالين المتقدمين ، أو هو قصر حقيق ادعائى مراد منه قصر كمال العلم والحكمة عليه تعالى .

﴿ قَالَ يَتَّخِذُمْ أُلَّهُهُمُ آبَاءَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾

لما دخل هذا القول فى جملة المحاوره جردت الجملة من الفاء أيضا كما تقدم فى نظائره لأنه وإن كان إقبالا بالخطاب على غير مخاطبين بالأقوال التى قبله فهو بمثابة خطاب لهم لأن المقصود من خطاب آدم بذلك أن يظهر عقبه فضله عليهم فى العلم من هاته الناحية فكان

الخطاب بمنزلة أن يكون مسوقاً إليهم لقوله عقب ذلك « قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض » .

وابتداء خطاب آدم بندائه مع أنه غير يُميد عن سماع الأمر الإلهي للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملأ الأعلى حتى ينال بذلك حسن السمعة مع ما فيه من التكريم عند الأمر لأن شأن الأمر والمخاطب (بالكسر) إذا تَلَطَّفَ مع المخاطب (بالفتح) أن يذكر اسمه ولا يقتصر على ضمير الخطاب حتى لا يساوى بخطابه كل خطاب ومنه ما جاء في حديث الشفاعة بعد ذكر سجود النبي وحمده الله بحامد يلهمه إياها فيقول « يا محمد ارفع رأسك سل تمطّ واشفع تشفع » وهذه نكتة ذكر الاسم حتى في أثناء المخاطبة كما قال امرؤ القيس:

* أفاطم مهلاً بعضَ هذا التدلل *

وربما جعلوا النداء طريقاً إلى إحضار اسمه الظاهر لأنه لا طريق لإحضاره عند المخاطبة إلا بواسطة النداء فالنداء على كل تقدير مستعمل في معناه المجازي .

﴿ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾

الإنباء إخبارهم بالأسماء وفيه إيماء بأن الخبر به شيء مهم . والضمير المجرور بالإضافة ضمير المسميات مثل ضمير عرضهم ، وفي إجرائه على صيغة ضمائر العقلاء ما قرر في قوله « ثم عرضهم » .

وقوله (فلما أنبأهم بأسمائهم) الضمير في أنبأ لآدم وفي قال ضمير اسم الجلالة وإنما لم يؤت بفاعله اسماً ظاهراً مع أنه جرى على غير من هوله أي جاء عقب ضمائر آدم في قوله « أنبأهم » و« أنبأهم » لأن السياق قرينة على أن هذا القول لا يصدر من مثل آدم .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

جواب لما والقاتل هو الله تعالى وهو المذكور في قوله، وإذ قال ربك، وعادت إليه ضمائر قال إني أعلم وعلم وعرضهم وما قبله من الضمائر وهو تذكير لهم بقوله لهم في أول المحاورة « إني أعلم ما لا تعلمون » وذلك القول وإن لم يكن فيه « أعلم غيب السموات

والأرض» صراحة إلا أنه يتضمنه لأن عموم مالا تعلمون يشمل جميع ذلك فيكون قوله هنا «إني أعلم غيب السموات والأرض» بيانا لما أجل في القول الأول لأنه يساويه ماصدقا لأن مالا تعلمون هو غيب السموات والأرض وقد زاد البيان هنا على البين بقوله :

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ 33

وإنما جرى بالإجمال قبل ظهور البرهان وجرى بالتفصيل بعد ظهوره على طريقة الحجاج وهو إجمال الدعوى وتفصيل النتيجة لأن الدعوى قبل البرهان قد يتطرقها شك السامع بأن يحملها على المبالغة ونحوها وبعد البرهان يصح للدعي أن يوقف المحجوج على غلطه ونحوه وأن يتبجح عليه بسلطان برهانه فإن للحق صولة . ونظيره قول صاحب موسى «سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً أما السفينة» إلى قوله «وما فعلته عن أمري» ثم قال «ذلك تأويل ما لم تمسّط عليه صبراً» . فجاء باسم إشارة البعيد تعظيماً للتأويل بعد ظهوره . وهذه طريقة مسلوكة للكتاب والخطباء وهي ترجع إلى قاعدة أخذ النتائج من المقدمات في صناعة الإنشاء كما بينته في كتاب أصول الإنشاء والخطابة وأكثر الخطباء يفضي إلى القرض من خطبته بعد المقدمات والتهديدات وقد جاءت الآية على طريقة الخطباء والبلغاء فيما ذكرنا تعليماً للخلق وجرياً على مقتضى الحال المتعارف من غير مراعاة لجانب الألوهية فإن الملائكة لا يمترون في أن قوله تعالى الحق ووعد الصديق فليسوا بحاجة إلى نصب البراهين . و «كنتم» في قوله «وما كنتم تكتمون» الأظهر أنها زائدة لتأكيد تحقق الكتمان فإن الذي يعلم ما اشتد كتمانهم يعلم ما لم يُحرص على كتمانهم ويعلم ظواهر الأحوال بالأولى . وصيغة المضارع في «تبدون» و «تكتمون» للدلالة على تجدد ذلك منهم فيقتضى تجدد علم الله بذلك كلما تجدد منهم .

ولبعضهم هنا تكلفات في جعل كنتم للدلالة على الزمان الماضي وجعل تبدون للاستقبال وتقدير اكتفاء في الجانبين أعني وما كنتم تبدون وما تكتمون واكتفاء في غيب السماوات والأرض يعني وشهادتهما وكل ذلك لا داعي إليه .

وقد جعل الله تعالى علم آدم بالأسماء وعجز الملائكة عن ذلك علامة على أهلية النوع البشري لخلافته في الأرض دون الملائكة لأن الخلافة في الأرض هي خلافة الله تعالى في القيام

بما أَراده من العُمران بجميع أحواله وشعبه بمعنى أن الله تعالى ناط بالنوع البشرى إتمام مراده من العالم فكان تصرف هذا النوع في الأرض قائماً مقام مباشرة قدرة الله تعالى بجميع الأعمال التي يقوم بها البشر ، ولا شك أن هذه الخلافة لا تتقوم إلا بالعلم أعنى اكتساب المجهول من المعلوم وتحقيق المناسبة بين الأشياء ومواقعها ومقارناتها وهو العلم الاكتسابي الذي يدرك به الإنسان الخير والشر ويستطيع به فعل الخير وفعل الشر كل في موضعه ولا يصلح لهذا العلم إلا القوة الناطقة وهي قوة التفكير التي أجلى مظاهرها معرفة أسماء الأشياء وأسماء خصائصها والتي تستطيع أن تصدر الأضداد من الأفعال لأن تلك القوة هي التي لا تنحصر متعلقاتها ولا تقف معلوماتها كما شوهد من أحوال النوع الإنساني منذ النشأة إلى الآن وإلى ما شاء الله تعالى . والملائكة لما لم يخلقوا مهيتين لذلك حتى أعجزهم وضع الأسماء للمسميات وكانوا مجبولين على سجية واحدة وهي سجية الخير التي لا تختلف ولا تتخلف لم يكونوا مؤهلين لاستفادة المجهولات من المعلومات حتى لا تقف معارفهم . ولم يكونوا مصادر للشرور التي يتعين صدورها لإصلاح العالم بخيرتهم وإن كانت صالحة لاستقامة عالمهم الطاهر لم تكن صالحة لنظام عالم مخلوط وحكمة خلطه ظهور منتهى العلم الإلهي كما قال أبو الطيب :

ووضع الندى في موضع السيف بالأملا مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى والآية تقتضى حزية عظمية لهذا النوع في هذا الباب وفي فضل العلم ولكنها لا تدل على أفضلية النوع البشرى على الملائكة إذ المزية لا تقتضى الأفضلية كما بينه الشهاب القرافي في الفرق الحادى والتسعين فهذه فضيلة من ناحية واحدة وإنما يعتمد التفضيل المطلق مجموع الفضائل كما دل عليه حديث موسى والخضر .

والاستفهام في قوله « ألم أقل لكم » إلخ تقريرى لأن ذلك القول واقع لا محالة والملائكة يعلمون وقوعه ولا ينكرونه . وإنما أوقع الاستفهام على نفي القول لأن غالب الاستفهام التقريرى يقحم فيه ما يفيد النفي لقصد التوسيع على المقرّر حتى يُخَيَّل إليه أنه يُسأل عن نفي وقوع الشيء فإن أراد أن يزعم نفيه فقد وسّع المقرّر عليه ذلك ولكنه يتحقق أنه لا يستطيع إنكاره فلذلك يقرره على نفيه ، فإذا أقر كان إقراره لازماً له لا مناص له منه . فهذا قانون الاستفهام التقريرى الغالب عليه وهو الذى تكرر في القرآن

وبنى عليه صاحب الكشف معاني آياته التي منها قوله تعالى « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وتوقف فيه ابن هشام في معنى اللبيب وردده عليه شارحه . وقد يقع التقرير بالإثبات على الأصل نحو « أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » وهو تقرير مُراد به إبطال دعوى النصارى وقوله « قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بَالِهْتَنَا يَا إِبْرَاهِيمَ » .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ 34

عطف على جملة « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » عطف القصة على القصة وإعادة إذ بعد حرف العطف المغنى عن إعادة ظرفه تنبيه على أن الجملة مقصودة بذاتها لأنها متميزة بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام ، ولأجل هذه المراجعة لم يؤت بهذه القصة معطوفة بفاء التفریع فيقول « فَقُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ » وإن كان مضمونها في الواقع متفرعا على مضمون التي قبلها فإن أمرهم بالسجود لآدم ما كان إلا لأجل ظهور مزيته عليهم إذ علم ما لم يعلموه وذلك ما اقتضاه ترتيب ذكر هذه القصص بعضها بعد بعض ابتداء من خلق السماوات والأرض وما طرأ بعده من أطوار أصول المأمرين بالأرض وما بينها وبين السماء فإن الأصل في الكلام أن يكون ترتيب نظمه جاريا على ترتيب حصول مدلولاته في الخارج ما لم تُنصب قرينة على مخالفة ذلك .

ولا يريبك قوله تعالى في سورة الحجر « إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ فَإِذَا سُوِّيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » لأن تلك حَكَتْ القصة بإجمال فطوتْ أُنْبَاءَهَا طِيًّا جاء تبينه في ما تكرر منها في آيات أخرى وأوضحها آية البقرة لاقتضاء الآية السابقة أن فضيلة آدم لم تظهر للملائكة إلا بعد تعاليمه الأسماء وَعَرَضَهَا عليهم وعجزهم عن الإنشاء بها وأنهم كانوا قبل ذلك مترقبين بيان ما يكشف ظنهم بآدم أن يكون مفسداً في الأرض بعد أن لازموا جانب التوقف لما قال الله لهم « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » ، فكان إنباء آدم بالأسماء عند عجزهم عن الإنشاء بها بيانا لكشف شبهتهم فاستحقوا أن يأتوا بما فيه معذرة عن عدم علمهم بحقه .

وقد أريد من هذه القصة إظهارُ مزية نوع الإنسان وأن الله يخص أجناس مخلوقاته وأنواعها بما اقتضته حكمته من الخصائص والمزايا لئلا يخلو شيء منها عن فائدة من وجوده في هذا العالم ؛ وإظهارُ فضيلة المعرفة ، وبيانُ أن العالم حقيق بتعظيم مَنْ حوله إياه وإظهارُ ما للنفوس الشريرة الشيطانية من الخبث والفساد ، وبيانُ أن الاعتراف بالحق من خصال الفضائل الملائكية ، وأن الفساد والحسد والكبر من مذام ذوى العقول .

والقول في إعراب (إذ) كالقول الذى تقدم في تفسير قوله « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .

وإظهار لفظ الملائكة ولفظ آدم هنا دون الإتيان بضميريهما كما في قوله « قالوا سبحانك » وقوله « فلما أنبأهم » لتكون القصة المعطوفة معنونة بمثل عنوان القصة المعطوف عليها إشارة إلى جدارة المعطوفة بأن تكون قصة مقصودة غير مندوجة في القصة التي قبلها .

وغير أسلوب إسناد القول إلى الله فأتى به مسندا إلى ضمير العظمة « وإذ قلنا » وأتى به في الآية السابقة مسندا إلى رب النبي « وإذ قال ربك » للتفنن ولأن القول هنا تضمن أمراً بفعل فيه غضاضة على المأمورين فناسبه إظهار عظمة الأمر ، وأما القول السابق فجرد إعلام من الله بمراده ليظهر رأيهم ، ولقصد اقتران الاستشارة بمبدأ تكوين الذات الأولى من نوع الإنسان المحتاج إلى التشاور فناسبه الإسناد إلى الموصوف بالربوبية المؤذنة بتدبير شأن الربوبين . وأضيف إلى ضمير أشرف الربوبين وهو النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم عند قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .

وحقيقة السجود طائفة الجسد أو إيقاعه على الأرض بقصد التعظيم لمشاهد بالعيان كالسجود للملك والسيد والسجود للكواكب ، قال تعالى « وخروا له سجدا » ، وقال « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » وقال الأعشى :

فلما آتانا بُعَيْدَ الكرى سَجَدْنَا له وَخَلَعْنَا العِمارا

وقال أيضا :

برواح من صلوات الملب كطورا سَجودا وطورا جَوَّارا

أو لمشاهد بالتخيل والاستحضار وهو السجود لله ، قال تعالى « فاسجدوا لله واعبدوا » .
والسجود ركن من أركان الصلاة في الإسلام . وأما سجود الملائكة فهو تمثيل لحالة فيهم
تدل على تعظيم ، وقد جمع معانيه قوله تعالى « ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من
دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » .

فكان السجود أول تحية تلقاها البشر عند خلق العالم .

وقد عرف السجود منذ أقدم عصور التاريخ فقد وجد على الآثار الكلدانية منذ القرن
التاسع عشر قبل المسيح صورة حموراني ملك كلدية راكعا أمام الشمس . ووجدت على
الآثار المصرية صور أسرى الحرب سجداً لفرعون وهيآت السجود تختلف باختلاف العوائد .
وهيئة سجود الصلاة مختلفة باختلاف الأديان . والسجود في صلاة الإسلام انحرور على
الأرض بالجهة واليدين والرجلين .

وتعمدية اسجدوا لاسم آدم باللام دال على أنهم كلفوا بالسجود لذاته وهو أصل دلالة
لام التعاميل إذا علق بمادة السجود مثل قوله تعالى « فاسجدوا لله واعبدوا » وقوله « لا
تسجدوا للشمس ولا للقمر » ولا يمسكرك عليه أن السجود في الإسلام لغير الله محرم لأن هذا
شرع جديد نسخ ما كان في الشرائع الأخرى ولأن سجود الملائكة من عمل العالم الأعلى
وليس ذلك بداخل تحت تكاليف أهل الأرض فلا طائل تحت إطالة البحث في أن آدم
مسجود له أو هو قبلة للساكنين كالكمبة للمسلمين ، ولا حاجة إلى التكاف بجعل اللام بمعنى
إلى مثلها في قول حسان : * أليس أول من صلى لقبلكم *

فإن للضرورة أحكاماً . لا يناسب أن يقاس بها أحسن الكلام نظاماً .

وفي هذه الآية منزع بديع لتعظيم شأن العلم وجدارة العلماء بالتعظيم والتبجيل لأن الله
لما علم آدم علماً لم يؤهل له الملائكة كان قد جعل آدم أنموذجاً^(١) للمبدعات والمخترعات
والعلوم التي ظهرت في البشر من بعد والتي ستظهر إلى فناء هذا العالم .

(١) بضم المهمزة هو الشائع وفي القاموس إن صوابه نموذج بدون همز وفتح النون ، وإن الأنموذج لحين
قلت وقد سمي الزمخشري مختصراً له في النحو الأنموذج ، والزمخشري لا يرتاب في سعة اطلاعه . وهي كلمة
معربة عن الفارسية وهي بالفارسية « نمونه » .

وقرأ أبو جعفر في أشهر الرواية عنه للملائكة اسجدوا بضمة على التاء في حال الوصل على إتباع حركة التاء لضمة الجيم في اسجدوا لعدم الاعتداد بالساكن الفاصل بين الحرفين لأنه حاجز غير حصين، وقراءته هذه رواية وهي جرت على لغة ضعيفة في مثل هذا فلذلك قال الزجاج والفارسي : هذا خطأ من أبي جعفر ، وقال الزنجشیری : لا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتياع إلا في لغة ضعيفة كقراءة الحسن الحمد لله - بكسر الدال - قال ابن جنی : وإنما يجوز هذا الذي ذهب إليه أبو جعفر إذا كان ما قبل الهمزة ساكناً صحيحاً نحو « وقالتُ اخرج عليهن » في سورة يوسف اه وإنما حملوا عليه هذه الجملة لأن قراءته معدودة في القراءات المتواترة فما كان يحسن فيها مثل هذا الشذوذ وإن كان شذوذاً في وجوه الأداء لا يخالف رسم المصحف .

وعطف فسجدوا بفاء التعقيب يشير إلى مبادرة الملائكة بالامتثال ولم يصدّم ما كان في قلوبهم من التخوف من أن يكون هذا المخلوق مظهر فساد وسفك دماء لأنهم مترهون عن المعاصي .

واستثناء إبليس من ضمير الملائكة في فسجدوا استثناء منقطع لأن إبليس لم يكن من جنس الملائكة قال تعالى في سورة الكهف « إلا إبليس كان من الجن » ولكن الله جعل أحواله كأحوال النفوس الملكية بتوفيق غلب على جبلته لتتأني معاشرته بهم وسيره على سيرتهم فساغ استثناء حاله من أحوالهم في مظنة أن يكون مماثلاً لمن هو فيهم .

وقد دلّت الآية على أن إبليس كان مقصوداً في الخبر الذي أخبر به الملائكة إذ قال للملائكة « إني جاعل في الأرض خليفة » وفي الأمر الذي أمر به الملائكة إذ قال لهم « اسجدوا لآدم » ذلك أن جنس المجرّدات كان في ذلك العالم منموراً بنوع الملك إذ خلق الله من نوعهم أفراداً كثيرة كما دل عليه صيغة الجمع في قوله « وإذ قال ربك للملائكة » ولم يخلق الله من نوع الجن إلا أصلهم وهو إبليس . وخلق من نوع الإنسان أصلهم وهو آدم . وقد أقام الله إبليس بين الملائكة إقامة ارتياض وتخلق وسخره لاتباع سننهم فجري على ذلك السنن أمداً طويلاً لا يعلمه إلا الله ثم ظهر ما في نوعه من الخبث كما أشار إليه قوله تعالى « ففسق عن أمر ربه » في سورة الكهف فعصى ربه حين أمره بالسجود لآدم .

وإبليس اسم الشيطان الأول الذى هو مولد الشياطين ، فكان إبليس لنوع الشياطين والجن بمنزلة آدم لنوع الإنسان . وإبليس اسم معرب من لغة غير عربية لم يمينها أهل اللغة ، ولكن يدل لكونه معربا أن العرب منعه من الصرف ولا سبب فيه سوى العلمية والعجمة ولهذا جعل الزجاج همزته أصلية ، وقال وزنه على فاعيل . وقال أبو عبيدة هو اسم عربى مستق من الإبلال وهو البعد من الخير واليأس من الرحمة وهذا اشتقاق حسن لولا أنه يناكد منعه من الصرف وجعلوا وزنه إفعيل لأن همزته مزيدة وقد اعتذر عن منعه من الصرف بأنه لما لم يكن له نظير فى الأسماء العربية عد بمنزلة الأعجمى وهو اعتذار ركيك . وأكثر الذين أحصوا الكلمات العربية فى القرآن لم يعدوا منها اسم إبليس لأنهم لم يتبينوا ذلك ولصلاحية الاسم لمادة عربية ومناسبتها لها .

و«جمل» أبى واستكبر وكان من الكافرين ، استئناف يبانى مشير إلى أن مخالفة حاله لحال الملائكة فى السجود لآدم ، شأنه أن يثير سؤالا فى نفس السامع كيف لم يفعل إبليس ما أمر به وكيف خالف حال جماعته وما سبب ذلك لأن مخالفته لحالة معشره مخالفة عجيبه إذ الشأن الموافقة بين الجماعات كما قال دريد بن الصمة .

وهل أنا إلا من غُرْبَةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غُرْبَةٍ أَرَشُدُ
فبين السبب بأنه أبى واستكبر وكفر بالله .

والإباء الامتناع من فعل أو تلقيه . والاستكبار شدة الكبر والسين والتاء فيه للعد أى عد نفسه كبيرا مثل استعظم واستعذب الشراب أو يكون السين والتاء للبالغة مثل استجاب واستقر فعنى استكبر اتصف بالكبر . والمعنى أنه استكبر على الله بإنكار أن يكون آدم مستحقا لأن يسجد هو له إنكارا عن تصميم لا عن مراجعة أو استشارة كما دلت عليه آيات أخرى مثل قوله «قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين» وبهذا الاعتبار خالف فعل إبليس قول الملائكة حين قالوا «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» ، لأن ذلك كان على وجه التوقف فى الحكمة ولذلك قالوا «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» فإبليس بإيائه انتقضت الجبل التى جبل عليها أول مرة ، فاستحالت إلى جبل أخرى على نحو ما يعرض من تطور للعاقل حين يختل عقله . وللقادر حين تشل بعض أعضائه . ومن العلل علل جسمانية ومنها علل روحانية كما قال :

فكنتُ كذى رجلين رجلٌ صحيحه ورجل رى فيها الزمان فشلت

. والاستكبار التزايد في الكبر لأن السين والتاء فيه للمبالغة لا للطلب كما علمت ، ومن لطائف اللغة العربية أن مادة الاتصاف بالكبر لم تحي منها إلا بضيعة الاستفعال أو التفعّل إشارة إلى أن صاحب صفة الكبر لا يكون إلا متطلبا الكبر أو متكافلا له وما هو بكبير حقا ويحسن هنا أن نذكر قول أبي العلاء :

علوتم فتواضعتم على ثقة لما تواضع أقوام على غرر

وحقيقة الكبر قال فيها حجة الإسلام في كتاب الإحياء : الكبر خلق في النفس وهو الاسترواح والركون إلى اعتقاد المرء نفسه فوق التكبر عليه ، فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه ومتكبرا به وبذلك ينفصل الكبر عن العجب فإن العجب لا يستدعى غير المعجب ولا يكفي أن يستعظم المرء نفسه ليكون متكبرا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مماثلا لها فلا يتكبر عليه ، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فمن هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل خلق الكبر وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في نفسه اعتداد وعزة وفرح وركون إلى ما اعتقد ، وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون إلى تلك العقيدة هو خلق الكبر .

وقد كانت هذه الآية ونظائرها مثار اختلاف بين علماء أصول الفقه فيما تقتضيه دلالة الاستثناء من حكم يثبت للمستثنى فقال الجمهور الاستثناء يقتضى اتصاف المستثنى بنقيض ما حكم به للمستثنى منه فلذلك كثر الاكتفاء بالاستثناء دون أن يتبع بذلك حكم معين للمستثنى سواء كان الكلام مثبتا أو منفيا .

ويظهر ذلك جليا في كلمة الشهادة لا إله إلا الله فإنه لولا إفادة الاستثناء أن المستثنى يثبت له نقيض ما حكم به للمستثنى منه لكانت كلمة الشهادة غير مفيدة سوى نفي الإلهية عما عدا الله فتكون إفادتها الوحدانية لله بالانترام وقال أبو حنيفة الاستثناء من كلام منفي يثبت للمستثنى نقيض ما حكم به للمستثنى منه ، والاستثناء من كلام مثبت لا يفيد إلا أن المستثنى يثبت له نقيض الحكم لا نقيض المحكوم به ، فالمستثنى بمنزلة السكوت عن وصفه ،

فعند الجمهور المستثنى مخرج من الوصف المحكوم به للمستثنى منه وعند أبي حنيفة المستثنى مخرج من الحكم عليه فهو كالمسكوت عنه .

وسوى التأخرون من الحنفية بين الاستثناء من كلام منفي والاستثناء من كلام مثبت في أن كليهما لا يفيد المستثنى الاتصاف بنقيض المحكوم به للمستثنى منه وهذا رأى ضعيف لا تساعده اللغة ولا موارد استعماله في الشريعة .

فعلى رأى الجمهور تكون جملة «أبى واستكبر» استثناءً بيانياً، وعلى رأى الحنفية تكون بياناً للإجمال الذى اقتضاه الاستثناء ولا تنهض منها حجة تقطع الجدل بين الفريقين .

وجملة «وكان من الكافرين» معطوفة على الجمل المستأنفة، وكان لا تفيد إلا أنه اتصف بالكفر فى زمن مضى قبل زمن نزول الآية ، وليس المعنى أنه اتصف به قبل امتناعه من السجود لآدم ، وقد تحير أكثر المفسرين فى بيان معنى الآية من جهة حملهم فعل (كان) على الدلالة على الاتصاف بالكفر فيما مضى عن وقت الامتناع من السجود، ومن البديهي أنه لم يكن يومئذ فريق يوصف بالكافرين فاحتاجوا أن يتمحلوا بأن إبليس كان من الكافرين أى فى علم الله ، وتمحل بعضهم بأن إبليس كان مظهراً للطاعة مبطناً للكفر نقافاً، والله مطلع على باطنه ولكنه لم يخبر به الملائكة وجعلوا هذا الاطلاع عليه مما أشار إليه قوله تعالى «إني أعلم ما لا تعلمون» وكل ذلك تمحل لاداعى إليه لما علمت من أن فعل المضى يفيد مضى الفعل قبل وقت التكلم ، وأمثلهم طريقة الذين جعلوا كان بمعنى صار فإنه استعمال من استعمال فعل كان قال تعالى « وحال بينهما الموج فكان من الفريقين » وقال « وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً » وقول ابن أحر :

بتيهاء قفر والمطى كأنها قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

أى صار كافراً بعدم السجود لأن امتناعه نشأ عن استكباره على الله واعتقاد أن ما أمر به غير جار على حق الحكمة وقد علمت أن الانقلاب الذى عرض لإبليس فى جبلته كان انقلاب استخفاف بحكمة الله تعالى فلذلك صار به كافراً صراحاً .

والذى أراه أحسن الوجوه فى معنى وكان من الكافرين أن مقتضى الظاهر أن يقول « وكفر » كإقال «أبى واستكبر» فعدل عن مقتضى الظاهر إلى وكان من الكافرين لدلالة كان

في مثل هذا الاستعمال على رسوخ معنى الخبر في اسمها والمعنى أبى واستكبر وكفر ككراً عميقاً في نفسه وهذا كقوله تعالى فأنجيناها وأهلها إلا امرأتها كانت من الفافرين ، وكقوله تعالى « ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون » دون أن يقول أم لا تهتدى لأنها إذا رأت آية تنكير عرشها ولم تهتد كانت راسخة في الاتصاف بعدم الاهتداء ، وأما الإتيان بخبر كان « من الكافرين » دون أن يقول وكان كافراً فلأن إثبات الوصف لموصوف بعنوان كون الموصوف واحداً من جماعة تثبت لهم ذلك الوصف أدل على شدة تمكن الوصف منه مما لو أثبت له الوصف وحده بناء على أن الواحد يزداد تمسكاً بفعله إذا كان قد شاركه فيه جماعة لأنه بمقدار ما يرى مع كثرة المتلبسين بمثل فعله تبعد نفسه عن التردد في سداد عملها وعليه جاء قوله تعالى « أصدقت أم كنت من الكاذبين » وقوله الذي ذكرناه آنفاً « أم تكون من الذين لا يهتدون » وهو دليل كنهى واستعمال بلاغى جرى عليه نظم الآية وإن لم يكن يومئذ جمع من الكافرين بل كان إبليس وحيداً في الكفر . وهذا منزع انتزعه من تتبع موارد مثل هذا التركيب في هاتين الخصوصيتين خصوصية زيادة (كان) وخصوصية إثبات الوصف لموصوف بعنوان أنه واحد من جماعة موصوفين به وسيجيء ذلك قريباً عند قوله تعالى « واركعوا مع الراكعين » .

وإذا لم يكن في زمن امتناع إبليس من السجود جمع من الكافرين كان قوله وكان من الكافرين جارياً على المتعارف في أمثال هذا الإخبار الكنائى .

وفي هذا العدول عن مقتضى الظاهر مراعاة لما تقتضيه حروف الفاصلة أيضاً ، وقد رتب الأخبار الثلاثة في الذكر على حسب ترتيب مفهوماتها في الوجود وذلك هو الأصل في الإنشاء أن يكون ترتيب الكلام مطابقة لترتيب مدلولات جملة كقوله تعالى « ولما جاءت رسلنا لوطاسى بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عاصيب » وقد أشرت إلى ذلك في كتابي « أصول الإنشاء والخطابة » .

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَامِنَهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾³⁵

عطف على «قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» بعد أن انقضى ذلك قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وهذه تكرمه أكرم الله بها آدم بعد أن أكرمه بكرامة الإجلال من تلقاء الملائكة .

ونداء آدم قبل تخويله سكنى الجنة نداء تنويه بذكر اسمه بين الملائكة الأعلى لأن نداءه يسترعي إسماع أهل الملائكة الأعلى فيتطلعون لما سيخاطب به ، وينتزع من هذه الآية أن العالم جدير بالإكرام بالعيش الهنيء ، كما أخذ من التي قبليها أنه جدير بالتمعظيم ، والأمر بقوله « اسكن » مستعمل في الامتنان بالتمكين والتخويل وليس أمراً له بأن يسمى بنفسه لسكنى الجنة إذ لا قدرة له على ذلك السعي فلا يكلف به .

وضمير أنت واقع لأجل عطف وزوجك على الضمير المستتر في اسكن وهو استعمال العربية عند عطف اسم على ضمير متصل مرفوع المحل لا يكادون يتركونه ، يقصدون بذلك زيادة إيضاح المعطوف فتحصل فائدة تقرير مدلول المعطوف لئلا يكون تابعه المعطوف عليه أبرز منه في الكلام ، فليس الفصل بمثل هذا الضمير مقيداً تأكيداً للنسبة لأن الإتيان بالضمير لازم لا خيرة للمستكلم فيه فلا يكون مقتضى حال ولا يعرف السامع أن التكلم يريد به تأكيداً ولكنه لا يخلو من حصول تقرير معنى المضمر وهو ما أشار إليه في الكشف بمجموع قوله ، وأنت تأكيد للضمير المستكن ليصح العطف عليه .

والزوج كل شيء ثان مع شيء آخر بينهما تقارن ، في حال ما . ويظهر أنه اسم جامد لأن جميع تصاريفه في الكلام ملاحظ فيها معنى كونه ثاني اثنين أو مماثل غيره . فكل واحد من اثنين مقترنين في حال ما يسمى زوجاً الآخر قال تعالى «أو يزوجهما ذكراً أو أنثى» أي يجعل لأحد الطرفين زوجاً أي سواء من غير صنفه ، وقريب من هذا الاستعمال استعمال لفظ شفع . وسميت الأنثى القرينة للرجل بنكاح زوجها لأنها اقترنت به وصيرته ثانياً ، ويسمى الرجل زوجاً لها لذلك بالافرق ، فمن ثم لا يقال للمرأة زوجة بهاء تأنيث لأنه اسم وليس بوصف . وقد لحنوا الفرزدق في قوله :

وإن الذي يَسمي لُيُفسِد زوجتي كساعٍ إلى أَسَد الشرى يستبيلها

وتسامح الفقهاء في إلحاق علامة التأنيث للزوج إذا أرادوا به امرأة الرجل لقصد نفي الالتباس في تقرير الأحكام في كتبهم في مثل قولهم القول قول الزوج، أو القول قول الزوجة وهو صنيع حسن .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه يا فلان فجاء فقال له هذه زوجتي فلانة» - الحديث ، فقوله زوجتي بالتاء فتعين كونه من عبارة راوى الحديث في السند إلى أنس وليست بعبارة النبي صلى الله عليه وسلم .

وطوى في هذه الآية خلق زوج آدم وقد ذكر في آيات أخرى كقوله تعالى «الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها» وسيأتى ذلك في سورة النساء وسورة الأعراف .

ولم يرد اسم زوج آدم في القرآن واسمها عند العرب حواء وورد ذكر اسمها في حديث رواه ابن سعد في طبقاته عن خالد بن خدّاش عن ابن وهب يبلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الناس لآدم وحواء كطف لصاع لن يملأوه» الحديث (طف المكيال - بفتح الطاء وكسرها - ما قرب من ملئه) أى هم لا يبيغون الكمال فإن كل كمال من البشر قابل للزيادة . وخالد بن خدّاش بصرى وثقه ابن معين وأبو حاتم وسليمان بن حرب وضعفه ابن المديني . فلم زوج آدم عند العرب حواء واسمها في العبرانية مضطرب فيه، ففي سفر التكوين في الإصحاح الثاني أن اسمها امرأة سماها كذلك آدم قال: لأنها من امرئ أخذت . وفي الإصحاح الثالث أن آدم دعا اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي . وقال ابن سعد نام آدم فخلقت حواء من ضلعه فاستيقظ ووجدها عنده فقال أنا أى امرأة بالنبطية ، أى اسمها بالنبطية المرأة كما سماها آدم . وقد تقدم عند قوله تعالى «وعلم آدم الأسماء» أن آدم دعا نفسه ، إيش ، فاعمل أنا محرقة عن إيشا . واسمها بالعبرية (خواء) بالخاء المعجمة وبهاء بعد الألف ويقال أيضاً حيوا بجاء مهملة وألف في آخره فصارت بالعربية حواء وصارت في الطليانية إيبا . وفي الفرنسية إيب . وفي التوراة أن حواء خلقت في الجنة بعد أن أسكن آدم في الجنة وأن الله خلقها لتؤنس قال تعالى «وجعل منها زوجها ليسكن إليها» أى يأنس . والأمر في أسكن أمر إعطاء أى جعل الله آدم هو وزوجه في الجنة .

والسكنى اتخاذ المكان مقراً لغالب أحوال الإنسان .

والجنة قطعة من الأرض فيها الأشجار المثمرة والمياه وهي أحسن مقر للإنسان إذا لفحه حر الشمس وبأكل من ثمره إذا جاع ويشرب من المياه التي يشرب منها الشجر ويروقه منظر ذلك كله . فالجنة تجمع ما تطمح إليه طبيعة الإنسان من اللذات . وتعريف الجنة تعريف المهد وهي جنة معهودة لآدم يشاهدها إذا كان التعريف في الجنة حكاية لما يرادفه فيما خوطب به آدم ، أو أريد بها المعهود لنا إذا كانت حكاية قول الله لنا بالمعنى وذلك جائز في حكاية القول .

وقد اختلف علماء الإسلام في تعيين هذه الجنة فالذى ذهب إليه جمهور السلف أنها جنة الخلد التي وعد الله المؤمنين والمصدقين رسله وجزموا بأنها موجودة في العالم العلوى عالم الغيب أى في السماء وأنها أعدها الله لأهل الخير بعد القيامة وهذا الذى تقلده أهل السنة من علماء الكلام وأبو علي الجبائى وهو الذى تشهد به ظواهر الآيات والأخبار المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم . ولا تعدّو أنها ظواهر كثيرة لكنهما تقييد غلبة الظن وليس لهذه القضية تأثير في العقيدة . وذهب أبو مسلم الأصفهاني محمد بن بحر وأبو القاسم البلخى والمعتزلة عدا الجبائى إلى أنها جنة في الأرض خلقها الله لإسكان آدم وزوجه ، ونقل البيضاوى عنهم أنها بستان في فلسطين أو هو بين فارس وكرمان ، وأحسب أن هذا ناشئ عن تطلبهم تعيين المكان الذى ذكر ما يسمى في التوراة باسم عدن .

ففي التوراة في الإصحاح الثانى من سفر التكوين « وأخذ الرب الإله آدم ووضع في جنة عدن ليعملها ويحفظها - ثم قالت - فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها » وهذا يقتضى أن جنة عدن ليست في الأرض لكن الذى عليه شراح التوراة أن جنة عدن في الأرض وهو ظاهر وصف نهر هذه الجنة الذى يسقيها بأنه نهر يخرج من عدن فيسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد (قيشون) وهو المحيط بجميع أرض الحويلة وهم من بنى كوش كما في الإصحاح من التكوين واسم النهر الثانى (جيحون) وهو المحيط بجميع أرض كوش . واسم النهر الثالث (حيداً قل) وهو الجارى شرق أشور (دجلة) . والنهر الرابع الفرات .

ولم أتف على ضبط عدن هذه . ورأيت في كتاب عبد الحق الإسلامى السبتي الذى كان

يهوديا وأسلم وألف كتابا في الرد على اليهود سماه « الحسام المحدود في الرد على اليهود » كتبه بغير دين وضبطه بالعلامات بكسر الغين المعجمة وكسر الدال المهملة ولعل النقطة على حرف العين فهو من الناسخ فذلك هو منشأ قول القائلين أنها يمدن أو بفلسطين أو بين فارس وكرمان ، والذي ألبأهم إلى ذلك أن جنة التواب دار كمال لا يناسب أن يحصل فيها المصيان وأنها دار خلد لا يخرج ساكنها وهو التجاء بلا ملجئ لأن ذلك من أحوال سكان الجنة لا لتأثير السكان وكله جعل الله تعالى عندما أراد . واحتج أهل السنة بأن آل في الجنة للعهد الخارجي ولا معهود غيرها ، وإنما تعين كونها للعهد الخارجي لعدم صحة الحمل على الجنس بأنواعه الثلاثة ، إذ لا معنى للحمل على أنها لام الحقيقة لأنها قد نيط بها فعل السكنى ولا معنى لتعلقه بالحقيقة بخلاف نحو الرجل خير من المرأة ، ولا معنى للحمل على العهد الذهني إذ الفرد من الحقيقة هنا مقصود معين لأن الأمر بالإسكان جزاء وإكرام فلا بد أن يكون متعلقا بجنة معروفة ، ولا معنى للحمل على الاستغراق لظهور ذلك . ولما كان المقصود هو الجزاء تعين أن يكون متعلقا بأمر معين معهود ولا معهود إلا الجنة المعروفة لا سيما وهو اصطلاح الشرع .

وقد يقال يختار أن اللام للعهد ولعل المعهود لآدم هو جنة في الأرض معينة أشير إليها بتعريف العهد ولذلك أختار أنا أن قوله تعالى « أسكن أنت وزوجك الجنة » لما كان المقصود منه القصص لنا حكى بالألفاظ المتعارفة لدينا ترجمة لألفاظ اللذة التي خوطب بها آدم أو عن الإلهام الذي ألقى إلى آدم فيكون تعريف الجنة منظورا فيه إلى متعارفنا فيكون آدم قد عرف المراد من مسكنه بطريق آخر غير التعريف ويكون قد حُكي لنا ذلك بطريقة التعريف لأن لفظ الجنة المقترن في كلامنا بلام التعريف يدل على عين ما دل عليه الطريق الآخر الذي عرّف به آدم مراد الله تعالى أي قلناله أسكن البقعة التي تسمونها أنتم اليوم بالجنة، والحاصل أن الأظهر أن الجنة التي أسكنها آدم هي الجنة المعدودة دارا لجزء المحسنين .

ومعنى الأكل من الجنة من ثمرها لأن الجنة تستلزم ثمارا وهي مما يقصد بالأكل ولذلك تجعل (من) تبعية بتزليل بعض ما يحويه المكان منزلة بعض لذلك المكان . ويجوز أن تكون (من) ابتدائية إشارة إلى أن الأكل المأذون فيه أكل ما تثمره تلك الجنة كقولك هذا الثمر من خير .

والرَّغْدَ وصف لموصوف دل عليه السياق أى أكل رَغْدًا، والرَّغْدُ الهنيء الذى لا عناء فيه ولا تقتير وقوله «حيث شئنا» ظرّف مكان أى من أى مواضع أَرَدْتُمَا الأكل منها ، ولما كانت مشيئتهما لا تنحصر بمواضع استيفيد العموم فى الإذن بطريق اللزوم ، وفى جعل الأكل من الثمر من أحوال آدم وزوجه حين إنشائها تنبيه على أن الله جعل الاقتيات جبلة للإنسان لا تدوم حياته إلا به .

وقوله « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » يعنى به ولا تأكلا من الشجرة لأن قربانها إنما هو لقصد الأكل منها فالنهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل لأن القرب من الشيء ينشئ داعية وميلا إليه فى الحديث «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » وقال ابن العربى سمعتُ الشاشي فى مجلس النظر يقول « إذا قيل لا تقرب » (بفتح الراء) كان معناه لا تتلبس بالفعل ، وإذا قيل بضم الراء كان معناه لا تدن منه اه . وهو غريب فإن قُرْبَ وقُرْبَ نحو كرم وسمع بمعنى دنا، فسواء ضمت الراء أو فتحتها فى المضارع فالمراد النهي عن الدنو إلا أن الدنو بعضه مجازى وهو التلبس وبعضه حقيقى ولا يكون للمجازى وزن خاص فى الأفعال وإلا لصار من المشترك لا من الحقيقة والمجاز، اللهم إلا أن يكون الاستعمال خص المجازى ببعض التصاريف فتكون تلك الزنة قرينة لفظية للمجاز وذلك حسن وهو من محاسن فروق استعمال الألفاظ المترادفة فى اللغة العربية مثل تخصيص بعد مكسور العين بالانقطاع التام وبعد مضموم العين بالتنجى عن المكان ولذلك خص الدعاء بالمكسور فى قولهم للمسافر لا تبعّد، قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية :

إِخْوَتِي لَا تَبْعَدُوا أَبَدًا وَكَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا

وفى تعليق النهى بقربان الشجرة إشارة إلى منزع سد الذرائع وهو أصل من أصول مذهب مالك رحمه الله وفيه تفصيل مقرر فى أصول الفقه .

والإشارة « بهذه » إلى شجرة مرثية لآدم وزوجه والمراد شجرة من نوعها أو كانت شجرة وحيدة فى الجنة . وقد اختلف أهل القصص فى تعيين نوع هذه الشجرة فعن على وابن مسعود وسعيد بن جبير والسدى أنها الكرمة ، وعن ابن عباس والحسن وجمهور المفسرين أنها الحنطة ، وعن قتادة وابن جريج ونسبه ابن جريج إلى جمع من الصحابة أنها شجرة التين . ووقع فى سفر التكوين من التوراة إيهامها وهرب عنها بشجرة معرفة الخير والشر .

وقوله « فتكونا من الظالمين » أى من المعتدين وأشهر معانى الظلم فى استعمال العرب هو الاعتداء، والاعتداء إما اعتداء على نهى الناهى إن كان المقصود من النهى الجزم بالترك وإما اعتداء على النفس والفضيلة إن كان المقصود من النهى عن الأكل من الشجرة بقاء فضيلة التنعم لآدم فى الجنة، فعلى الأول الظلم لأنفسهما بارتكاب غضب الله وعقابه وعلى الثانى الظلم لأنفسهما بحرمانها من دوام الكرامة .

﴿ فَازْلَهِمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ 36

الفاء عاطفة على قوله « ولا تقربا » وحققها إفادة التعقيب فيكون التعقيب عرفيا لأن وقوع الإزلال كان بعد مضى مدة هى بالنسبة للمدة المرادة من سكنى الجنة كالأمد القليل . والأحسن جعل الفاء للتفريع مجردة عن التعقيب .

والإزلال جعل الغير زالاً أى قائماً به الزلل وهو كالزلق أن تسير الرجلان على الأرض بدون اختيار لارتخاء الأرض بطين ونحوه ، أى ذاهبة رجلاه بدون إرادة وهو مجاز مشهور فى صدور الخطيئة والغلط المضر ومنه سمي العصيان ونحوه الزلل .

والضمير فى قوله « عنها » يجوز أن يعود إلى الشجرة لأنها أقرب وليتبين سبب الزلة وسبب الخروج من الجنة إذ لو لم يحمل الضمير عائداً إلى الشجرة خللت القصة عن ذكر سبب الخروج . و (عن) فى أصل معناها أى أزلهما إزالالا ناشئا عن الشجرة أى عن الأكل منها ، وتقدير المضاف دل عليه قوله « ولا تقربا هذه الشجرة » ، وليست (عن) للسببية ومن ذكر السببية أراد حاصل المعنى كما قال أبو عبيدة فى قوله تعالى « وما ينطق عن الهوى » أن معناه وما ينطق بالهوى فقال الرضى : الأولى أن (عن) بمعناها وأن الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف أى نطقاً صادراً عن الهوى . ويجوز كون الضمير للجنة وتكون (عن) على ظاهرها والإزلال مجازاً فى الإخراج بكره والمراد منه المهبوط من الجنة مكرهين كمن يزل عن موقفه فيسقط كقوله : « وكم منزل لولاي طيحت » .

وقوله « فأخرجهما مما كانا فيه » تفريع عن الإزلال بناء على أن الضمير للشجرة ،

والمراد من الموصول وصلته التعظيم، كقولهم قد كان ما كان، فإن جعلت الضمير في قوله رعبها، عائداً إلى الجنة كان هذا التفريع تفريع الفصل عن المجمل وكانت الفاء للترتيب الذكري المجرد كما في قوله تعالى «وَمَنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فُجَاءَهَا بِأَسْنَاءٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ» وقوله «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ».

أما دلالة الموصول عن التعظيم فهي هي .

وقرأ حمزة فأزالها، بأنف بعد الزاي وهو من الإزالة بمعنى الإبعاد، وعلى هذه القراءة يتمين أن يكون ضمير عنها عائداً إلى الجنة لا إلى الشجرة . وقد نبه عليه بخصوصه مع العلم بأن من خرج من الجنة فقد خرج مما كان فيه إحضاراً لهذه الخسارة العظيمة في ذهن السامعين حتى لا تكون استفادتها بدلالة الالتزام خاصة فإنها دلالة قد تخفى فكانت إعادته في هذه الصلة بمرادفه كإعادته بلفظه في قوله تعالى «فَغَشَّيْهِمْ مِنْ أَلَيْمٍ مَا غَشَّيْهِمْ» .

وتفيد الآية إثارة الحسرة في نفوس بني آدم على ما أصاب آدم من جراء عدم امتثاله لوصاية الله تعالى وموعظة تُنبهُ بوجود الوقوف عند الأمر والنهي والترغيب في السعي إلى ما يميدهم إلى هذه الجنة التي كانت لأبيهم وتربية العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده إذ كان سبباً في جر هذه المصيبة لأبيهم حتى يكونوا أبداً ثاراً لأبيهم مُعَادِينَ لِلشَّيْطَانِ ووسوسته مسيئين الظنون بإغرائه كما أشار إليه قوله تعالى «يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ» وقوله هنا «بِمَضْكُمْ لِبَعْضِ عَدُوِّ» . وهذا أصل عظيم في تربية العامة ولأجله كان قادة الأمم يذكرون لهم سوابق عداوات منافسيهم ومَن غلبهم في الحروب ليكون ذلك باعثاً على أخذ الثأر .

وعطف «وَقُلْنَا اهْبِطُوا» بالواو دون الفاء لأنه ليس بمُتَفَرِّعٍ عَنِ الإِخْرَاجِ بل هو متقدم عليه ولكن ذكر الإخراج قبل هذا لمناسبة سياق ما فعله الشيطان وغروره بآدم فلذلك قدم قوله «فَأَخْرَجَهُمَا» إثر قوله «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ» . ووجه جمع الضمير في اهبطوا قيل لأن هبوط آدم وحواء اقتضى أن لا يوجد نسلهما في الجنة فكان إهباطهما إهباطاً لنسلهما، وقيل الخطاب لهما ولا إبليس وهو وإن أهبط عند إيايته السجود كما أفاده قوله تعالى في سورة الأعراف «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إناك من الصاغرين - إلى قوله - قال أخرج منها

مذءوماً مدحوراً - إلى قوله - ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » فهذا إهباط ثان فيه تحجير دخول الجنة عليه والإهباط الأول كان إهباطاً منع من الكرامة مع تمكينه من الدخول للوسوسة وكلا الوجهين بعيد ، فالذى أراه أن جمع الضمير مراد به التثنية لكرامية توالى المثنيات بالإظهار والإضمار من قوله « وكلاً منها رغدا » والعرب يستقلون ذلك قال امرؤ القيس :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وإنما له صاحبان لقوله « قفا نبك » إلخ وقال تعالى « فقد صفت قلوبكم » وسيأتى في سورة التحريم .

وقوله « بعضكم لبعض عدو » يحتمل أن يراد بالبعض بعض الأنواع وهو عداوة الإنس والجن إن كان الضمير في اهبطوا لآدم وزوجه وإبليس ، ويحتمل أن يراد عداوة بعض أفراد نوع البشر ، إن كان ضمير اهبطوا لآدم وحواء فيكون ذلك إعلالاً لهما بأثر من آثار عملهما يورث في بينهما ، ولذلك مبدأ ظهور آثار الاختلال في تكوين خلقتهما بأن كان عصيانهما يورث في أنفسهما وأنفس ذريتهما داعية التغيرير والحيلة على حد قوله تعالى « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم » فإن الأخلاق تورث وكيف لا وهى مما يعدى بكثرة الملابس والمصاحبة وقد قال أبو تمام :

* لأعديتنى بالحلم إن العلاء تعدى *

ووجه المناسبة بين هذا الأثر وبين منشئه الذى هو الأكل من الشجرة أن الأكل من الشجرة كان مخالفة لأمر الله تعالى ورفضاً له وسوء الظن بالفائدة منه دعا لمخالفته الطمع والحرص على جلب نفع لأنفسهما ، وهو الخلود فى الجنة والاستئثار بخيراتهما مع سوء الظن بالذى نهاهما عن الأكل منها وإعلالهما بأنهما إن أكلا منها ظلما أنفسهما لقول إبليس لهما « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » فكذلك كانت عداوة أفراد البشر مع ما جبلوا عليه من الألفة والأنس والاتحاد منشؤها رفض تلك الألفة والاتحاد لأجل جلب النفع للنفس وإهمال منفعة الغير ، فلا جرم كان بين ذلك الخاطر الذى بهما على الأكل من الشجرة وبين أثره الذى بقى فى نفوسهما والذى سيورثونه نسلهما فيخلق النسل مركبة عقولهم على التخلق بذلك الخلق الذى طرأ على عقل

أبويهما ، ولا شك أن ذلك الخلق الراجع لإيثار النفس بالخير وسوء الظن بالغير هو منبع العداوات كلها لأن الواحد لا يعادى الآخر إلا لاعتقاد مزاحمة في منفعة أو لسوء ظن به في مضرة . وفي هذا إشارة إلى مسألة أخلاقية وهي أن أصل الأخلاق حسنها وقيحها هو الخواطر الخيرة والشريرة ثم ينقلب الخاطر إذا ترتب عليه فعل فيصير خلقا وإذا قاومه صاحبه ولم يفعل صارت تلك المقاومة سببا في اضطلال ذلك الخاطر ، ولذلك حذرت الشريعة من الهم بالمعاصي وكان جزاء ترك فعل ما يهيم به منها حسنة وأمرت بخواطر الخير فكان جزاء مجرد الهم بالحسنة حسنة ولو لم يعملها وكان العمل بذلك الهم عشر حسنات كما ورد في الحديث الصحيح « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً - ثُمَّ قَالَ - وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَعَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ » وجعل العفو عن حديث النفس منة من الله تعالى ومغفرة في حديث « إن الله تجاوز عن أمتي فيما حدثت به نقوسها » .

إن الله تعالى خلق الإنسان خيرا سالما من الشرور والخواطر الشريرة على صفة ملكية وهو معنى « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ثم جعله أطوارا فأولها طور تعليمه النطق ووضع الأسماء للمسميات لأن ذلك مبدأ المعرفة وبه يكون التعليم أى يعلم بعض أفرادها بعضا ما علمه وجهله الآخر فكان إلهامه اللغة مبدأ حركة الفكر الإنسانى وهو مبدأ صالح للخير ومعين عليه لأن به علم الناس بعضهم بعضا ولذلك ترى الصبي يرى الشئ فيسرع إلى قرئائه يُناديهم ليرَوْهُ معه حرصا على إقادتهم فكان الإنسان معلما بالطبع وكان ذلك معينا على خيريته إلا أنه صالح أيضا لاستعمال النطق في التويه والكذب ؛ ثم إن الله تعالى لما نهاه عن أمر كلفه بما فى استطاعته أن يمتثل وأن يخالفه فتلك الاستطاعة مبدأ حركة نفسه فى الحرص والاستئثار فكان خلق الله تعالى إياه على تلك الاستطاعة مبدأ طور جديد هو المشار إليه بقوله « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » ، ثم هداه بواسطة الشرائع فصار باتباعها يبلغ إلى مراتب الملائكة ويرجع إلى تقويمه الأول وذلك معنى قوله « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » وقد أشير إلى هذا الطور الأخير بقوله فيما يأتى « فَإِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ مَنِ هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدًى » الآية .

وجملة « بعضكم لبعض عدو » إما مستأنفة استئنافا ابتدائيا وإما جملة حال من ضمير « اهبطوا » وهى اسمية خلت من الواو ، وفى اعتبار الجملة الاسمية الخالية من الواو حالا

خلاف بين أئمة العربية منع ذلك الفراء والزخشرى وأجازه ابن مالك وجماعة . والحق عندى أن الجملة الحالية تستغنى بالضمير عن الواو وبالواو عن الضمير فإذا كانت فى معنى الصفة لصاحبها اشتملت على ضميره أو ضمير سببیه فاستغنت عن الواو نحو الآية ونحو جاء زيد يده على رأسه أو أبوه يرافقه ، وإلا وجبت الواو إذ لا رابط حينئذ غيرها نحو جاء زيد والشمس طالعة وقول تأبط شرا :

نخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا به كدحة الموت خزيان ينظر
وقوله « ولكم فى الأرض مستقر » ضميره راجع إلى ما رجع إليه ضمير « اهبطوا » على التقادير كلها . والحين انوقت والمراد به وقت انقراض النوع الإنسانى والشيطانى بانقراض العالم ، ويحتمل أن يكون المراد من ضمير لكم التوزيع أى ولكل واحد منكم فى الأرض مستقر وممتع إلى حين . وإنما كان ذلك متاعا لأن الحياة أمر مرغوب لسائر البشر على أن الحياة لا تخلو من لذات وتمتع بما وهبنا الله من الملائمات . هذا إن أريد بالخبر المجموع أى لجميعكم وإن أريد به التوزيع فالحين هو وقت موت كل فرد على حد قولك للجيش « هذه الأفراس لكم » أى لكل واحد منكم فرس .

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ 37

جاء بالفاء إيذانا بمبادرة آدم بطلب العفو .

والتلقى استقبال إكرام ومسرة قال تعالى « وتلقاهم الملائكة » ووجه دلالة على ذلك أنه صيغة تفعل من لقيه وهى دالة على التكلف لحصوله وتطلبه وإنما يتكلف ويتطلب لقاء الأمر المحبوب بخلاف لاقى فلا يدل على كون الملاقى محبوباً بل تقول لاقى العدو واللقاء الحضور نحو الغير بقصد أو بغير قصد وفى خير أو شر : قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً » الآية فالتعبير بتلقى هنا مؤذن بأن الكلمات التى أخذها آدم كلمات نافعة له فعلم أنها ليست كلمات زجر وتوبيخ بل كلمات عفو ومغفرة : ورضى وهى إما كلمات لقنها آدم من قبل الله تعالى ليقولها طالباً للمغفرة وإما كلمات إعلام من الله إياه بأنه عفا عنه بعد أن أهبطه من الجنة اكتفاء بذلك فى العقوبة ، ومما يدل على أنها كلمات عفو عطف فتاب عليه بالفاء إذ لو كانت كلمات توبيخ لما صح التسبب ، وتلقى آدم للكلمات إما بطريق الوحي

أوالإلهام ولهم في تعيين هذه الكلمات روايات أعرضنا عنها لقلة جدوى الاشتغال بذلك، فقد قال آدم الكلمات فتيب عليه فلنهتم نحن بما ينفعنا من الكلام الصالح والفعل الصالح . ولم تذكر توبة حواء هنا مع أنها مذكورة في مواضع أخرى نحو قوله «قال ربنا ظلمنا أنفسنا» لظهور أنها تتبعه في سائر أحواله وأنه أرشدها إلى ما أرشد إليه وإنما لم يذكر في هذه الآية لأن الكلام جرى على الابتداء بتكريم آدم وجعله في الأرض خليفة فكان الاعتناء بذكر توبته هو الغرض المقصود، وأصل معنى تاب رجع ونظيره تاب بالثالثة، ولما كانت التوبة رجوعاً من التائب إلى الطاعة ونبذاً للعصيان وكان قبولها رجوعاً من التوب إلى الرضى وحسن المعاملة وصف بذلك رجوع الماصى عن العصيان ورجوع المعصى عن العقاب فقالوا تاب فلان لفلان فتاب عليه لأنهم ضمنوا الثانى معنى عطف ورضى باختلاف مفادى هذا الفعل باختلاف الحرف الذى يتعدى به وكان أصله مبنياً على المشاكلة .

والتوبة تتركب من علم وحال وعمل فالعلم هو معرفة الذنب والحال هو تألم النفس من ذلك الضرر ويسمى ندماً والعمل هو الترك للإثم وتدارك ما يمكن تداركه وهو المقصود من التوبة وأما الندم فهو الباعث على العمل ولذلك ورد فى الحديث «الندم توبة» قاله الغزالي. قلت أى لأنه سببها ضرورة أنه لم يقصر لأن أحد الجزئين غير معرفة .

ثم التعبير بتاب عليه هنا مشعر بأن أكل آدم من الشجرة خطيئة إثم غير أن الخطيئة يومئذ لم يكن مرتباً عليها جزاء عقاب أخرى ولا نقص فى الدين ولكنها أوجبت تأديباً عاجلاً لأن الإنسان يومئذ فى طور كطور الصبا فلذلك لم يكن ارتكابها بقادح فى نبوة آدم على أنها لا يظهر أن تعد من الكبائر بل قصارها أن تكون من الصغائر إذ ليس فيها معنى يؤذن بقلّة اكتراث بالأمر ولا يترتب عليه فساد وفى عصمة الأنبياء من الصغائر خلاف بين أصحاب الأشعرى وبين الماتريدى وهى فى كتب الكلام، على أن نبوة آدم فيما يظهر كانت بعد النزول إلى الأرض فلم تكن له عصمة قبل ذلك إذ العصمة عند النبوة .

وعندى - وبعبارة مأخوذ من كلامهم - أن ذلك العالم لم يكن عالم تكليف بالمعنى المتعارف عند أهل الشرائع بل عالم تربية فقط فتكون خطيئة آدم ومعصيته مخالفة تأديبية ولذلك كان الجزاء عليها جارياً على طريقة العقوبات التأديبية بالحرمان مما جره إلى المعصية، فإطلاق المعصية والتوبة وظلم النفس على جميع ذلك هو بغير المعنى الشرعى المعروف بل هى معصية كبيرة

وتوبة بمعنى الندم والرجوع إلى التزام حسن السلوك ، وتوبة الله عليه بمعنى الرضى لا بمعنى غفران الذنوب ، وظلم النفس بمعنى التسبب في حرمانها من لذات كثيرة بسبب لذة قليلة فهو قد خالف ما كان ينبغي أن لا يخالفه ويدل لذلك قوله بعد ذلك « فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى - إلى قوله - خالدون » فإنه هو الذى بين به لهم أن المعصية بعد ذلك اليوم جزاؤها جهنم فأورد على بعض الخذاق من طلبة الدرس أنه إذا لم يكن العالم عالم تكليف فكيف كفر إبليس باعتراضه وامتناعه من السجود؟ فأجبت بآن دلالة ألوهية الله تعالى في ذلك العالم حاصلة بالمشاهدة حصولا أقوى من كل دلالة زيادة على دلالة العقل لأن إبليس شاهد بالحس الدلائل على تفردته تعالى بالألوهية والخلق والتصرف المطلق وبعلمه وحكمته واتصافه بصفات الكمال كما حصل العلم بمثله للملائكة فكان اعتراضه على فعله والتغليط إنكارا لمقتضى تلك الصفات فكان مخالفة لدلائل الإيمان فكفر به . وأما الأمر والنهى والطاعة والمعصية وجزاء ذلك فلا يتلقى إلا بالإخبارات الشرعية وهى لم تحصل يومئذ وإنما حصلت بقوله تعالى لهم "فمن تبع هداى" الآية فظهر الفرق . وقرأ الجمهور "آدم بالرفع" وكلمات بالنصب، وقرأ ابن كثير بنصب آدم ورفع كلمات على تأويل تلقى بمعنى بلغته كلمات فيكون التلقى مجازاً عن البلوغ بعلاقة السببية . وقوله « إنه هو التواب الرحيم » تذييل وتعليل للجملة السابقة وهى فتاب عليه لأنه يفيد مفادها مع زيادة التعميم والتذييل من الاطئاب كما تقرر في علم المعاني . ومعنى المبالغة في التواب أنه الكثير القبول للتوبة أى لكثرة التائبين فهو مثال مبالغة من تاب المتعدى بعلى الذى هو بمعنى قبول التوبة إيذان بأن ذلك لا يخص تائباً دون آخر وهو تذييل لقوله « فتلقى آدم من ربه » المؤذن بتقدير تاب آدم فتاب الله عليه على جعل التواب بمعنى الملهم لعباده الكثيرين أن يتوبوا فإن أمثلة المبالغة قد تجيء من غير التكاثر فالتواب هنا معناه الملهم التوبة وهو كناية عن قبول توبة التائب .

وتعقيبه بالرحيم لأن الرحيم جار مجرى العلة للتواب إذ قبوله التوبة عن عباده ضرب من الرحمة بهم وإلا لكانت التوبة لا تقتضى إلا تقع التائب نفسه بعدم العود للذنوب حتى ترتب عليه الآثام . وأما الإثم المترتب فكان من العدل أن يتحقق عقابه لكن الرحمة سبقت العدل هنا بوعده من الله .

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ³⁸ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ³⁹﴾

كررت جملة قلنا اهبطوا فاحتمل تكريرها أن يكون لأجل ربط النظم في الآية القرآنية من غير أن تكون دالة على تكرير معناها في الكلام الذي خوطب به آدم فيكون هذا التكرير لمجرد اتصال ما تعلق بمدلول وقلنا اهبطوا وذلك قوله «بعضكم لبعض عدو» وقوله «فإما يأتينكم مني هدى» إذ قد فصل بين هذين التعليقين ما اعترض بينهما من قوله «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم» فإنه لو عقب ذلك بقوله «فإما يأتينكم مني هدى» لم يرتبط كمال الارتباط ولتوهم السامع أنه خطاب للمؤمنين على عادة القرآن في التفنن فلدفع ذلك أعيد قوله «قلنا اهبطوا» فهو قول واحد كرر مرتين لربط الكلام ولذلك لم يعطف قلنا لأن بينهما شبه كمال الاتصال لتنزل قوله «قلنا اهبطوا منها جميعا» من قوله «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو» منزلة التوكيد اللفظي ثم بنى عليه قوله «فإما يأتينكم مني هدى» الآية وهو مغاير لما بنى على قوله «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو» ليحصل شيء من تجدد فائدة في الكلام لكي لا يكون إعادة اهبطوا مجرد توكيد ويسمى هذا الأسلوب في علم البديع بالترديد نحو قوله تعالى «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب» وإفادته التأكيد حاصله بمجرد إعادة اللفظ ^(١). وقيل هو أمر ثان بالهبوط بأن اهبط آدم من الجنة إلى السماء الدنيا بالأمر الأول ثم اهبط من السماء الدنيا إلى الأرض فتكون إعادة قلنا اهبطوا للتنبيه على اختلاف زمن القولين والهبوط وهو تأويل يفيد أن المراحل والمسافات لا عبرة بها عند المسافر ولأن ضمير منها المتعين للعود إلى الجنة لتنسق الضمائر في قوله «وكلامها

(١) أردت بهذا أن أنبه على أن ما وقع في الكشف أن اهبطوا الثاني تأكيد أراد به ما يقارب التأکید وهو أنه يحصل من مجرد إعادة اللفظ تقرير لمدلوله في الذهن وإن لم يكن المقصود من ذكره التأکید وعليه فالفصل ليس لكمال الاتصال كما توهمه الشيخ عبد الحكيم عند قول البيضاوي كرر للتأكيد.

رغدا» وقوله « فأزلهما الشيطان عنها » مانع من أن يكون المراد اهبطوا من السماء جميعا إذ لم يسبق معاد للسماء فالوجه عندي على تقدير-أن تكون إعادة اهبطوا الثاني لتغير ربط نظم الكلام أن تكون لحكاية أمر ثان لآدم بالهبوط كيلا يظن أن توبة الله عليه ورضاه عنه عند مبادرته بالتوبة عقب الأمر بالهبوط قد أوجبت العفو عنه من الهبوط من الجنة فأعاد له الأمر بالهبوط بعد قبول توبته ليعلم أن ذلك كائن لا محالة لأنه مراد الله تعالى وطور من الأطوار التي أَرادها الله تعالى من جملة خليفة في الأرض وهو ما أخبر به الملائكة، وفيه إشارة أخرى وهي أن العفو يكون من التائب في الزواجر والعقوبات . وأما تحقيق آثار المخالفة وهو العقوبة التأديبية فإن العفو عنها فساد في العالم لأن الفاعل للمخالفة إذا لم ير أثر فعله لم يتأدب في المستقبل فالتسامح معه في ذلك تقويت لمقتضى الحكمة، فإن الصبي إذا لوث موضعا وغضب عليه مربيّه ثم تاب فعفا عنه فالعفو يتعلق بالعقاب وأما تكليفه بأن يزيل بيده التلوث الذي لوث به الموضع فذلك لا يحسن التسامح فيه ولذا لما تاب الله على آدم رضى عنه ولم يؤاخذه بعقوبة ولا بزاجر في الدنيا ولكنه لم يصفح عنه في تحقق أثر مخالفته وهو الهبوط من الجنة ليرى أثر حرصه وسوء ظنه، هكذا ينبغي أن يكون التوجيه إذا كان المراد من اهبطوا الثاني حكاية أمر ثان بالهبوط خوطب به آدم .

«جميعاً حال» . وجميع اسم له جتمعين مثل لفظ (جمع) فلذلك التزموا فيه حالة واحدة وليس هو في الأصل وصفاً وإلا لقالوا جاءوا جميعين لأن فعلاً بمعنى فاعل يطابق موصوفه وقد تأولوا قول امرئ القيس * فلو أنها نفس تموت جميعة * بأن التاء فيه للمبالغة والمعنى اهبطوا مجتمعين في الهبوط متقارنين فيه لأنهما استويا في اقتراف سبب الهبوط .

وقوله « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي » شرط على شرط لأن إما شرط مركب من إن الشرطية ، وصا الزائدة دالة على تأكيد التعليق لأن إن بمجرد دالة على الشرط فلم يكن دخول ما الزائدة عليها كدخولها على (متى) و(أي) و(أين) و(أيان) و(ما) و(من) و(مهما) على القول بأن أصلها ماما لأن تلك كانت زيادتها لجعلها مفيدة معنى الشرط فإن هذه الكلمات لم توضع له بخلاف (إن) وقد التزمت العرب تأكيد فعل الشرط مع إما بنون التوكيد لزيادة توكيد التعليق بدخول علامته على أدواته وعلى فعله فهو تأكيد لا يفيد تحقيق حصول الجواب لأنه مناف للتعليق ، ولذلك لم يؤكّد جواب الشرط بالنون بل يفيد تحقيق الربط أي إن كون

حصول الجواب متوقفاً على حصول الشرط أمر محقق لا محالة فإن التعليق ما هو إلا خبر من الأخبار، إذ حاصله الإخبار بتوقف حصول الجزاء على حصول الشرط فلا جرم كان كغيره من الأخبار قابلاً للتوكيد وقلماً خلا فعل الشرط مع إما عن نون التوكيد كقول الأعشى :

إما تريننا حُفَاءَ لا نعال لنا إنا كذلك ما نخفى ونتمل

وهو غير حسن عند سيبويه والفارسي، وقال المبرد والزجاج هو ممنوع جمعاً خلو الفعل عنه ضرورة .

وقوله « فمن تبع هداى » من شرطية بدليل دخول الفاء في جوابها فلا خوف عليهم لأن الفاء وإن دخلت في خبر الموصول كثيراً فذلك على معاملته معاملة الشرط فلتحمل هنا على الشرطية اختصاراً للمسافة .

وأظهر لفظ الهدى في قوله « هُداى » وهو عين الهدى في قوله « منى هدى » فكان المقام للضمير الرابط للشرطية الثانية بالأولى لكنه أظهر اهتماماً بالهدى ليزيد رسوخاً في أذهان المخاطبين على حد « كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول » ولتكون هاته الجملة مستقلة بنفسها لا تشتمل على عائد يحتاج إلى ذكر معادٍ حتى يتأتى تسييرها مسير المثل أو النصيحة فتلاحظ فتحفظ وتتذكرها النفوس لتهدب وترتاض كما أظهر في قوله « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » لتسير هذه الجملة الأخيرة مسير المثل ومنه قول بشار :

إذا بلغ رأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غصاصةً مكان الخوافى قوةً للقوادم
وأذن إلى الشورى المسدّد رأيه ولا تشهد الشورى أمراً غير كاتم

فكرر الشورى ثلاث مرات في البيتين الثانى والثالث ليكون كل نصف سائراً مسير المثل وبهذا يظهر وجه تعريف الهدى الثانى بالإضافة لضمير الجلالة دون ال مع أنها الأصل في وضع الظاهر موضع الضمير الواقع معاد لثلاث يفوت هاته الجملة المستقلة شئاً أضمته الجملة الأولى إذ الجملة الأولى تضمنت وصف الهدى بأنه آت من الله والإضافة في الجملة الثانية تفيد هذا المقاد .

والإتيان^(١) في قوله تعالى « فإِذَا يَأْتِيَنكُمْ » بحرف الشرط الدال على عدم الجزم بوقوع الشرط إيدان ببقية من عتاب على عدم امتثال الهدى الأول وتعريض بأن محاولة هديكم في المستقبل لا جدوى لها كما يقول السيد لمبده إذا لم يعمل بما أوصاه به فغضب عليه ثم اعتذر له فرضى عنه: إِنْ أَوْصَيْتَكَ يَوْمَا آخِرَ بَشَىءٍ فَلَا تَعُدْ لِمِثْلِ فَعَلْتِكَ، يعرض له بأن تعلق الغرض بوصيته في المستقبل أمر مشكوك فيه إذ لعله قليل الجدوى، وهذا وجه بليغ فات صاحب الكشاف حجه عنه توجيهه تكلفه لإرغام الآية على أن تكون دليلا لقول المعتزلة بعدم وجوب بعثة الرسل للاستغناء عنها بهدى العقل في الإيمان بالله مع كون هدى الله تعالى الناس واجبا عندهم وذلك التكلف كثير في كتابه وهو لا يليق برسوخ قدمه في العلم، فكان تقريره هذا كالاعتذار عن القول بعدم وجوب بعثة الرسل على أن الهدى لا يختص بالإيمان الذي يغني فيه العقل عن الرسالة عندهم بل معظمه هدى التكليف وكثير منها لا قبل للعقل بإدراكه، وهو على أصولهم أيضا واجب على الله إبلاغه للناس فيبقى الإشكال على الإتيان بحرف الشك هنا بحاله فلذلك كانت الآية أسعد بذهبننا أيها الأشاعرة من عدم وجوب الهدى كله على الله تعالى لو شئنا أن نستدل بها على ذلك كما فعل البيضاوي ولكننا لا نراها واردة لأجله.

وقوله « فإِذَا يَأْتِيَنكُمْ مِّمِّيَّ هَدَى » الآية هو في معنى العهد أخذه الله على آدم فلم يذريته أن يتبعوا كل هدى يأتيهم من الله وأن من أعرض عن هدى يأتي من الله فقد استوجب العذاب

(١) اعلم أن أصل تكرير الكلمة أو الجملة في الكلام أن يكون مكروها لما يورثه التكرير من سماجة السامع، لأن المقصود من الكلام تجديد المعاني غير أن تلك الكراهة متفاوتة، فتكرير المفردات لا مندوحة عنه، فكان اختلاف الإخبار عنها والأوصاف دافعا لكراهة تكريرها، ولذلك لا يعد تكريرها عيبا إلا إذا كثر في كلام غير طويل نحو:

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ نَعَصَ الْمَوْتُ ذَا الْغَنَى وَالْفَقِيرَا

ولذلك عدت كثرة التكرير منافية للفصاحة. وأما تكرير الجمل في الكلام القريب فأصله السماجة إلا إذا حصل من التكرير سكتة بلاغية فحينئذ يغالb النشاط الحاصل من التكرير أو التأثر والانزعاج تلك السماجة فيدحضها وذلك كتكرير التهويل في « قربا مربوط النعمة منى » وتكرير التطريب في إعادة اسم المحبوب فيقصد التكلم تجديد ذلك التأثر في السامع حبا فيه أو نكابة وذلك تابع لحالة السامعين في ذلك المقام بحيث لا يسأمون من التكرير لأنهم يطلبونه ويحمدونه لما يتجدد لهم عنده من الانفعال الحسن.

فشمل جميع الشرائع الإلهية المخاطب بها طوائف الناس لوقوع هدى نكرة في سياق الشرط وهو من صيغ العموم ، وأولى الهدى وأجدره بوجوب اتباعه الهدى الذى أتى من الله لسائر البشر وهو دين الإسلام الذى خاطب به جميع بنى آدم وبذلك تنهياً للموقع لقوله والذين كفروا الخ فالله أخذ العهد من لدن آدم على اتباع الهدى العام كقوله « وإذ أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة » الآية وهذه الآية تدل على أن الله لا يؤاخذ البشر بما يقترفونه من الضلال إلا بعد أن يرسل إليهم من يهديهم فأما في تفاصيل الشرائع فلا شك في ذلك ولا اختلاف وأما في توحيد الله تعالى وما يقتضيه من صفات الكمال فيجربى على الخلاف بين علمائنا في مؤاخذه أهل الفترة على الإشراك ، ولعل الآية تدل على أن الهدى الآتى من عند الله في ذلك قد حصل من عهد آدم ونوح وعرفه البشر كلهم فيكون خطاباً ثابتاً لا يسع البشر ادعاء جهله وهو أحد قولين عن الأشعري ، وقيل لا ، وعند المعتزلة والماتريدية أنه دليل على .

وقوله فلا خوف عليهم نفي الجنس الخوف . والخوف مرفوع في قراءة الجمهور وقرأه يعقوب مبنياً على الفتح وها وجهان في اسم لا النافية للجنس وقد روى بالوجهين قول المرأة الرابعة من نساء حديث أم زرع « زوجي كليل تهامه لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سامه » . وبناء الاسم على الفتح نص في نفي الجنس ورفع محتمل لنفي الجنس ولنفي فرد واحد ، ولذلك فإذا انتفى اللبس استوى الوجهان كما هنا إذ القرينة ظاهرة في نفي الجنس .

وقوله « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » يحتمل أنه من جملة ما قيل لآدم فأكمال ذكره هنا استيعاب لأقسام ذرية آدم وفيه تعريض بالمشركون من ذرية آدم وهو يعنى من كذب بالمعجزات كلها ومن جعلتها القرآن ، عطف على من الشرطية في قوله فمن تبع هداى الخ فهو من عطف جملة اسمية على جملة اسمية ، وأتى بالجملة المعطوفة غير شرطية مع ما في الشرطية من قوة الربط والتنصيص على ترتب الجزاء على الشرط وعدم الانتكاس عنه لأن معنى الترتب والتسبب وعدم الانتكاس قد حصل بطرق أخرى فحصل معنى الشرط من مفهوم قوله « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم » فإنه بشارة يؤذن مفهومها بنذارة من لم يتبعه فهو خائف حزين فيترقب السامع ما يبين هذا الخوف والحزن فيحصل ذلك بقوله « والذين كفروا وكذبوا » الآية . وأما معنى التسبب فقد حصل من تعليق الخبر على الموصول ووصلته الموصلة إلى وجه بناء الخبر وعلته على أحد التفسيرين في الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، وأما عدم الانتكاس

فقد اقتضاه الإخبار عنهم بأصحاب النار المقتضى للملازمة ثم التصريح بقوله «هم فيها خالدون» .
ويحتمل أنه تذييل ذيلت به قصة آدم لمناسبة ذكر المهتدين وليس من القول له، والمقصود
من هذا التذييل تهديد المشركين والعود إلى عرض قوله تعالى «يا أيها الناس اعبدوا ربكم»
وقوله «كيف تكفرون بالله» فتكون الواو في قوله «والذين كفروا» اعتراضية والمراد
بالذين كفروا الذين أنكروا الخالق وأنكروا أنبياءه وجحدوا عهده كما هو اصطلاح القرآن
والمعنى والذين كفروا بي وبهداي كما دلت عليه المقابلة .

والآيات جمع آية وهي الشيء الدال على أمر من شأنه أن يخفى، ولذلك قيل لأعلام الطريق
آيات لأنهم وضموها للإرشاد إلى الطرق الخفية في الرمال ، وتسمى الحجة آية لأنها تظهر
الحق الخفي .

كما قال الحارث بن حنظلة :

من لنا عنده من الخير آيات ثلاث في كلهن القضاء

يعنى ثلاث حجج على نصحتهم وحسن بلائهم في الحرب وعلى اتصالهم بالملك عمرو بن هند.
وسمى الله الدلائل على وجوده وعلى وحدانيته وعلى إبطال عقيدة الشرك آيات ، فقال
«وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين» وقال «وهو الذي جعل لكم
النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون» - إلى قوله - إن
في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون» وقال «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن
بها» وسمى القرآن آية فقال «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله
- إلى قوله - أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» في سورة العنكبوت .
وسمى أجزاء آيات فقال «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر
يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا» وقال «لآلئك آيات الكتاب والذي أنزل إليك
من ربك الحق» لأن كل سورة من القرآن يعجز البشر عن الإتيان بمثلها كما قال تعالى
«فأتوا بسورة من مثله» ، فكان دالا على صدق الرسول فيما جاء به وكانت جملة آيات
لأن بها بعض المقدار المعجز ، ولم تسم أجزاء الكتب السماوية الأخرى آيات ، وأما ما ورد
في حديث الرجم أن ابن صوريا حين نشر التوراة وضع يده على آية الرجم فذلك على تشبيه
الجزء من التوراة بالجزء من القرآن وهو من تعبير راوى الحديث . وأصل الآية عند سيبويه

فَعَلَّةٌ بِالْتَحْرِيكِ أَيْيَّةٌ أَوْ أُوْيَةٌ عَلَى الْخِلَافِ فِي أَنَّهَا وَائِيَّةٌ أَوْ يَائِيَّةٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ أَىِ الْاسْتِفْهَامِيَّةِ أَوْ مِنْ أَوَىِ^(١) فَلَمَّا تَحَرَّكَ حَرْفَا الْعَلَّةِ فِيهَا قَلْبٌ أَحَدُهُمَا وَقُلْبُ الْأَوَّلِ تَخْفِيفًا عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ لِأَنَّ قِيَاسَ اجْتِمَاعِ حَرْفِي عِلَّةٍ صَالِحِينَ لِلْإِعْلَالِ أَنْ يَعْلَ ثَانِيَهُمَا إِلَّا مَا قَلَّ مِنْ نَحْوِ آيَةِ وَقَايَةِ وَطَايَةِ وَثَائِيَةِ وَرَائِيَةِ^(٢) .

فَالْمُرَادُ بِآيَاتِنَا هُنَا آيَاتُ الْقُرْآنِ أَىِ وَكَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ أَىِ بَأَنَّهُ وَحَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بَاءٌ يَكْثُرُ دَخُولُهَا عَلَى مُتَعَلِّقٍ مَادَّةُ التَّكْذِيبِ مَعَ أَنَّ التَّكْذِيبَ مُتَعَدٍّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ أَقِفْ فِي كَلَامِ أَئِمَّةِ اللَّفْظَةِ عَلَى خِصَائِصٍ لِحَاقِهَا بِهَذِهِ الْمَادَّةِ وَالصِّغَةِ فَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا لَتَأْكِيدُ اللَّصُوقِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّكْذِيبِ فَتَكُونُ كَالْبَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ » وَقَوْلِ النَّابِغَةِ :

* لَكَ الْخَيْرَ أَنْ وَارْتِ بِكَ الْأَرْضُ وَاحِدًا *

وَيَحْتَمِلُ أَنْ أَصْلُهَا لِلْسَّبِيَّةِ وَأَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يُقَالَ كَذَّبَ فَلَانَا نَجْزِيهِ ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ فَصَارَ كَذَبَ بِهِ وَكَذَّبَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَالْأَكْثَرُ أَنْ يُقَالَ كَذَّبَ فَلَانَا ، وَكَذَبَ بِالْخَبْرِ الْفُلَانِي ، فَقَوْلُهُ « بِآيَاتِنَا » يَتَنَازَعُهُ فَعَلًا كَفَرُوا وَكَذَّبُوا . وَقَوْلُهُ « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » بَيَانٌ لِمُضْمُونِ قَوْلِهِ « أَصْحَابُ النَّارِ » فَإِنَّ الصَّاحِبَ هُنَا بِمَعْنَى الْمَلَاذِمِ وَلِذَلِكَ فَصَلْتُ جُمْلَةً فِيهَا خَالِدُونَ لِتَنْزِلِهَا مِنَ الْأَوَّلَى مُنْزِلَةَ الْبَيَانِ فَيَبِينُهَا كَمَا لَ الْإِتِّصَالِ .

(١) وَزَنَ آيَةُ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ أَلْفُهَا مُنْقَلَبَةً عَنْ أَصْلٍ أَوْ أَنَّ يَكُونُ هُنَاكَ أَصْلٌ مَحْذُوفٌ وَأَلْفُهَا زَائِدَةٌ لِأَنَّ حَالَتَهَا الظَّاهِرَةَ لَا تَسَاعِدُ عَلَى وَزَنِ صَرْفٍ ، ثُمَّ قِيلَ إِنَّ أَصْلَهَا مُشْتَقَّةٌ مِنْ أَىِ الْاسْتِفْهَامِيَّةِ كَمَا اشْتَقَّ السَّكَمُ مِنْ كَمِ الْخَبَرِيَّةِ وَاللُّوْ مِنْ كَلِمَةٍ لَوْ الَّتِي لِلتَّنْيِ ، وَقِيلَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ أَوَىِ . وَالْحَقُّ أَنَّ الْمَشْتَقَّ مِنْهُ آيَةُ غَيْرُ مَعْرُوفِ الْأَصْلِ وَإِنَّمَا ذَكَرُوا هَذِهِ الْإِحْتِمَالَاتِ عَلَى وَجْهِ التَّرَدُّدِ ثُمَّ قَالَ سَبِيوِيَّةٌ : وَزَنُهَا فَعَلَّةٌ أَيْيَّةٌ ، أَوْ أُوْيَةٌ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَزَنُهَا فَعَلَّةٌ بِسَكُونِ الْعَيْنِ أَيْيَّةٌ أَوْ أُوْيَةٌ وَكَانَ الْقِيَاسُ حِينَئِذٍ لِإِدْغَامِ الْيَاءِ فِي الْيَاءِ أَوْ قَلْبِ الْوَاوِ يَاءً وَإِدْغَامُهَا ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا الْحَذْفَ أَخْفَ عَدَلُوا عَنِ الْإِدْغَامِ لِأَنَّ إِدْغَامَ حَرْفِي عِلَّةٍ لَا يَخْلُو مِنْ ثِقَلٍ وَلِثَلَاثَيْتَبَةِ بَأْيَةٍ مُؤَنَّثَةٍ أَىِ نَحْوِ بَأْيَةٍ سَنَةٍ . وَقَالَ الْكَسَاؤِيُّ أَصْلُهُ آيِيَّةٌ بِوَزْنِ فَاعِلَةٍ فَقَلَبْتُ الْيَاءَ الْأَوَّلَى هَمْزَةً لَوْ قَوْعَهَا لِأَنَّ أَلْفَ فَاعِلٍ ثُمَّ حَذَفَتْ الْهَمْزَةُ . وَفِيهَا مَذَاهِبٌ أُخَرُ .

(٢) الطَّايَةُ : السُّطْحُ الَّتِي يَقَامُ عَلَيْهِ . وَالطَّايَةُ مِنَ الْإِبِلِ : الْقَطِيعُ جَمْعُ طَايَاتٍ وَهُوَ وَائِيَّةٌ . وَالثَّائِيَةُ حِجَارَةٌ تَرْفَعُ بِجَعْلِهَا الرِّعَاةَ عَلَامَةً عَلَى مَوَاقِعِهِمْ فِي اللَّيْلِ إِذَا رَجَعُوا

﴿ يَكُنِي إِسْرَآئِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِلَيَّ فَآرْهُبُونِ ﴾ 40

انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب وبذلك تتم موعظة الفرق المتقدم ذكرها، لأن فريق المنافقين لا يمدو أن يكونوا من المشركين أو من أهل الكتاب اليهود، ووجه الخطاب هنا إلى بني إسرائيل وهم أشهر الأمم القديمة ذات الكتاب الشهير والشريعة الواسعة ، وذلك لأن هذا القرآن جاء يهدي للتي هي أقوم فكانت هاته السورة التي هي فسطاطه مشتملة على الغرض الذي جاء لأجله وقد جاء الوفاء بهذا الغرض على أبداع الأساليب وأكمل وجوه البلاغة فكانت فاتحتها في التنويه بشأن هذا الكتاب وآثار هديه وما يكتسب متبعوه من الفلاح دنيا وأخرى ، وبالتحذير من سوء مغبة من يُعرض عن هديه ويتنكب طريقه ، ووُصف في خلال ذلك أحوال الناس تجاه تلقى هذا الكتاب من مؤمن وكافر ومنافق ، بعد ذلك أُقبل على أصناف أولئك بالدعوة إلى المقصود ، وقد انحصر الأصناف الثلاثة من الناس المتلقين لهذا الكتاب بالنسبة لحالهم تجاه الدعوة الإسلامية في صنفين لأنهم إما مشرك أو متدين أي كتابي، إذ قد اندرج صنف المنافقين في الصنف المتدين لأنهم من اليهود كما قدمناه . فدعا المشركين إلى عبادته تعالى بقوله « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم » . فالناس إن كان المراد به المشركين كما هو اصطلاح القرآن غالبا كما تقدم فظاهر . وإن كان المراد به كل الناس فقوله « اعْبُدُوا رَبَّكُم » يختص بهم لا محالة إذ ليس المؤمنون بداخلين في ذلك ، وذكَرْهم بدلائل الصنعة وهي خلق أصولهم وبأصول نعم الحياة وهي خلق الأرض والسماء وإزالة الماء من السماء لإخراج الثمرات ، وعَجَّبَ من كفرهم مع ظهور دلائل إثبات الخالق من الحياة والموت ، وذكَرْهم بنعمة عظيمة وهي نعمة تكريم أصلهم وتوبيخه على أبيهم ، كل ذلك اقتصار على القدر الثابت في فطرتهم إذ لم يكن لديهم من الأصول الدينية ما يُمكن أن يُجمل مزجها في المحاوراة والمجادلة يقتنمون به ، وخاطبهم في شأن إثبات صدق الرسول خلال ذلك بالدليل الذي تُدرکه أذواقهم البلاغية فقال « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » الآيات . ولما قَضِيَ ذلك كُلُّهُ حَقَّهُ أُقبل بالخطاب هنا على الصنف الثاني وهم أهل الشرائع والكتاب وخَصَّ من

بينهم بنى إسرائيل لأنهم أمثل أمة ذات كتاب مشهور في العالم كله وهم الأوحِدَاء بهذا الوصف من المتكلمين باللغة العربية الساكنين المدينة وما حولها ، وهم أيضا الذين ظهر منهم العناد والنواء لهذا الدين ، ومن أجل ذلك لم يدعُ اليهود إلى توحيد ولا اعتراف بالخالق لأنهم موحدون ولكنه دعاهم إلى تذكر نعم الله عليهم وإلى ما كانت تلاقية أنبياءهم من مكذبيهم ، ليدذكروا أن تلك سنة الله وليرجعوا على أنفسهم بمثل ما كانوا يؤنّبون به من كذب أنبياءهم وذكركم ببشارات رسلهم وأنبيائهم بنبي يأتي بعدهم .

وتوجيه الخطاب إليهم طريقة أخرى وهي أنه جادلهم بالأدلة الدينية العلمية وإثبات صدق الرسالة بما تعارفوه من أحوال الرسل ، ولم يرج لهم على إثبات الصدق بدلالة معجزة القرآن إذ لم يكونوا من فرسان هذا الميدان كما قدمناه في تفسير قوله تعالى « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما » فكان خطابهم هنا بالدلائل الدينية وبحجج الشريعة الموسوية ليكون دليل صدق الرسول في الاعتبار بحاله وأنه جاء على وفاق أحوال إخوانه المرسلين السابقين .

وقد أفاض القرآن في ذلك وتدرج فيه من درجة إلى آخرتها بأسلوب بديع في مجادلة المخاطبين وأفاد فيه تعليم المسلمين حتى لا يفوتهم علماء بنى إسرائيل قال تعالى « أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَلْعَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » فقد كان العلم يومئذ معرفة التشريع ومعرفة أخبار الأنبياء والأمم الماضية وأحوال العالمين العلوي والسفلي مع الوصايات الأدبية والمواظب الأخلاقية ، فبذلك كان اليهود يفوقون العرب ومن أجله كانت العرب تسترشد في الشؤون وبه امتاز اليهود على العرب في بلادهم بالفكرة المدنية . وكان علم عامة اليهود في هذا الشأن ضعيفا وإنما انفردت بعلمه علماءهم وأخبارهم فجاء القرآن في هاته المجادلات معلما أيضا للمسلمين وملحقا لهم بعلماء بنى إسرائيل حتى تكون الدرجة العليا لهم لأنهم يضمون هذا العلم إلى علومهم اللسانية ونباهتهم الفكرية فتصبح عامة المسلمين مساوية في العلم خاصة الإسرائيليين وهذا معنى عظيم من معاني تعميم التعليم والإلحاق في مسابقة التمدن .

وبه ننكشف لكم حكمة من حكمكم تعرض القرآن لقصاص الأمم وأحوالهم فإن في ذلك مع العبرة تعليما اصطلاحيا . ولقد نعد هذا من معجزات القرآن وهو أنه شرح من أحوال بنى إسرائيل ما لا يعلمه إلا أبحارهم وخاصتهم مع حرصهم على كتابته والاستئثار به

خشية المزاخرة في الجاه والمنافع فجاء القرآن على لسان أبعد الناس عنهم وعن علمهم صادعا بما لا يعلمه غير خاصتهم فكانت هذه المعجزة للكتابين قائمة مقام المعجزة البلاغية للأمين. وقد تقدم الإلمام بهذا في المقدمة السابعة . وقد روعيت في هذا الانتقال مسابقة ترتيب كتب التوراة إذا عقت كتاب التكوين بكتاب الخروج أى وصف أحوال بني إسرائيل في مدة فرعون ثم بعثة موسى وقد اقتصر مما في سفر التكوين على ذكر خلق آدم وإسكانه الأرض لأنه موضع العبرة وانتقل من ذلك إلى أحوال بني إسرائيل لأن فيها عبراً جمّة لهم وللأمة .

فقوله « يا بني إسرائيل » خطاب لذرية يعقوب وفي ذريته انحصر سائر الأمة اليهودية ، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول يا أيها اليهود لكونه هو اسم القبيلة أما اليهود فهو اسم النحلة والديانة ولأن من كان متبعاً دين اليهودية من غير بني إسرائيل كحميز لم يعتد بهم لأنهم تبع لبني إسرائيل فلو آمن بنو إسرائيل بالنبي صلى الله عليه وسلم لآمن أتباعهم لأن المقلد تبع لمقلده. ولأن هذا الخطاب للتذكير بنعم أنهم الله بها على أسلافهم وكرامات أكرمهم بها فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب وأعقابهم مريد مناسبة لذلك ألا ترى أنه لما ذكروا بعنوان التدين بدين موسى ذكروا بوصف الذين هادوا في قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا » الآية كما سيأتي قريباً . وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم لأن ما خطبوا به هو من التذكير بنعمة الله على أسلافهم وبعهد الله لهم . وكذلك نجد خطابهم في الأغراض التي يراد منها التسجيل على جميعهم يكون بنحو « يا أهل الكتاب » أو بوصف اليهود الذين هادوا أو بوصف النصارى ، فأما إذا كان الغرض التسجيل على علماءهم نجد القرآن يعنونهم بوصف « الذين أوتوا الكتاب » أو « الذين آتيناهم الكتاب » . وقد يستغنى عن ذلك بكون الخبر المصوق مما يناسب علماءهم خاصة مثل قوله تعالى « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » . . ونحو « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً » - ونحو « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » - الآية « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك

يلعنهم الله» - «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك» الآية .

فإذا جاء الخطاب بأسلوب شامل لعلمائهم وعامتهم صرف إلى كل طائفة من الطائفتين ما هو لائق بها .

وبنون مما ألحق بجمع المذكر السالم وليس منه لأنه دخله التكسير بحذف لامه وزيادة همزة الوصل في أوله فحقه أن يجمع على أبناء .

وقد اختلف في أصل ابن ف قيل هو مشتق من بنى أى فهو مصدر بمعنى المفعول كالخلق فأصله بنى أى مبنى لأن أباه بناء وكونه فحذفت لامه للتخفيف وعوض عنها همزة الوصل فيه مناسبة في معنى الاشتقاق إلا أن الحذف حينئذ على غير قياس لأن الياء لا موجب لحذفها إلا أن يتسكف له بأن الياء تحركت مع سكون ما قبلها فنقلت حركتها للساكن إجراء له مجرى عين الكلمة ثم لما انقلب ألفاً على تلك القاعدة خيف التباسه بفعل بنى فحذفت اللام وعوض عنها همزة الوصل . وقيل أصله وأو على وزن بُنُو أو بُنُو بسكون النون أو بالتحريك فحذفت الواو كما حذفت من نظائره نحو أخ وأب وفي هذا الوجه بعد عن الاشتقاق وبعد عن نظائره لأن نظائره لما حذفت لاماتها لم تعوض عنها همزة الوصل .

وإسرائيل لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام قال ابن عباس - معناه عبد الله ، لأن إسرا بمعنى عبد وإيل اسم الله أى مركب من كلمتين - إسرا - و - إيل - اسم الله تعالى كما يقولون بيت إيل (اسم لقرية تسمى ، لوز ، من أرض كنعان تزها يعقوب عليه السلام في مهاجره فرارا من أخيه عيسو وبني فيها مذبحا ودعا اسمه بيت إيل) . والذي في كتب اليهود أن سبب تسمية يعقوب إسرائيل أنه لما كان خائفاً في مهاجره من أن يلحقه أخوه عيسو لينتقم منه (١) عرض له في إحدى الليالي شخص فعلم يعقوب أنه ربه (أى ملك من ملائكة الله) فأمسكه وصارعه يعقوب كامل الليل إلى طلوع الفجر فقال له أطلقني فقد طلع الفجر فقال له يعقوب لا أطلقك حتى تباركنى فقال له ما اسمك قال يعقوب قال له لا يدعى اسمك يعقوب بعد اليوم بل أنت

(١) إن تاريخ اليهود يقول إن إسحاق لما كبر وضعف بصره أراد أن يبارك ابنه عيسو ليكون خليفته في النبوة بعد موته فأمره أن يصيد له صيدا ويجعل له طعاماً ليأكل ويباركه فأشعرت أمهما رفقة ابنيها يعقوب بذلك وكانت تحبه فتعجل وأوهم أباه أنه هو عيسو وذبح له جديدين أوهمه أنها صيده فباركه ، فلما رجع عيسو وعلم حيلة أخيه وكانت البركة تمت ليعقوب عزم عيسو على قتل أخيه يعقوب . (تكوني لإصحاح ٢٧)

إسرائيل لأنك جاهدت الله والناس وقدرت. وباركه هناك^(١). فهذا يدل على أن إسرا في هذا الاسم راجع إلى معنى الأسر في الحرب كما هو في العربية فإذا كان هذا من أصل التوراة فهو على تأويل رؤيا رآها يعقوب جعل الله بها له شرفاً أو عرض له ملك كذلك. ثم إن يعقوب له اثنا عشر ابنا وهم المشهورون بالاسباط لأنهم أسباط إسحاق بن إبراهيم وإلى هؤلاء الاسباط يرجع نسب جميع بني إسرائيل وسيأتي ذكر الاسباط في هذه السورة.

واذكروا أمر من الذكر وهو أى الذكر بكسر الدال وضما يطلق على خطور شيء ببال من نسيه ولذلك قيل ، وكيف يذكركم من ليس ينسأه ، ويطلق على النطق باسم الشيء الخاطر ببال الناس ، ثم أطلق على التصريح بالدال مطلقاً لأن الشأن أن أحداً لا ينطق باسم الشيء إلا إذا خطر بباله ، وقد فرق بعض اللغويين بين مكسور الدال ومضمومه فجعل المكسور للسان والمضموم للعقل ولعلها تفرقة استعمالية مولدة إذ لا يحجر على المستعمل تخصيصه أحد مصدرى الفعل الواحد لأحد معانى الفعل عند التعبير فيصير ذلك اصطلاحياً استعمالياً لا وضعاً حتى يكون من المترادف إذ اتحاد الفعل مانع من دعوى ترادف المصدرين فقد قال عمر رضى الله عنه أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه فسمى النوعين ذكراً. والمقصود هنا الذكرك العقل إذ ليس المراد ذكر النعمة باللسان.

والمراد بالنعمة هنا جميع ما أنعم الله به على الخاطبين مباشرة أو بواسطة الإنعام على أسلافهم فإن النعمة على الأسلاف نعمة على الأبناء لأنها سمعة لهم ، وقدوة يقتدون بها ، وبركة تعود عليهم منها ، وصلاح حالهم الحاضر كان بسببها ، وبعض النعم يكون فيما فطر الله عليه الإنسان من فطنة وسلامة ضمير وتلك قد تورث في الأبناء . ولولا تلك النعم لهلك سلفهم أو لساءت حالهم فجاء أبنائهم في شر حال . فيشمل هذا جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم فهو بمنزلة اذكروا نعمي عليكم . وهذا العموم مستفاد من إضافة نعمة إلى ضمير الله تعالى إذ الإضافة تأتي لما تأتي له اللام ولا يستقيم من معانى اللام العهد إذ ليس في الكلام نعمة معينة معهودة ، ولا يستقيم معنى اللام الجنسية ، فتعين أن تكون الإضافة على معنى لام الاستغراق فالعموم حصل من إضافة نعمة إلى المعرفة وقليل من علماء أصول الفقه من يذكرون الفرد المعرفة بالإضافة في صيغ العموم ، وقد ذكره الإمام الرازى في الحصول في أثناء

الاستدلال . وقال ولي الدين الإضافة عند الإمام أدل على العموم من اللام وقال ابن السبكي في شرح مختصر ابن الحاجب : دلالة المفرد المضاف على العموم ما لم يتحقق عهد هو الصحيح نحو قوله تعالى « فليحذر الذين يخالفون عن أمره » وقد تأيد قصد عموم النعمة بأن المقام للامتنان والدعوة إلى الإسلام فيناسبه تكثير النعم . والمراد النعم التي أنعم الله بها على أسلافهم وعلى الحاضرين منهم زمن نزول القرآن فإن النعمة على أسلافهم نعمة عليهم وقد تتابعت النعم عليهم إذ بوأهم قرى في بلاد العرب بعد أن سلبت بلادهم فلسطين وجعلهم في مجبوحة من العيش مع الأمن والثروة ومسألة العرب لهم . والأمر بذكر النعمة هنا مراد منه لازمه وهو شكرها ومن أول مراتب الشكر ترك المكابرة في تلقى ما ينسب إلى الله من الرسالة بالنظر في أدلتها ومتابعة ما يأتي به المرسلون . فقله « التي أنعمت عليكم » وصف أشير به إلى وجوب شكر النعم لما يؤذن الوصول وصلته من التعليل فهو من باب قوله تعالى « ولتيم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

ويفيد مع ذلك أمرهم بتفكر النعم التي أنعم بها عليهم لينصرفوا بذلك عن حسد غيرهم فإن تذكير الحسود بما عنده من النعم عظة له وصرف له عن الحسد الناشئ عن الاشتغال بنعم الغير وهذا تعريض بهم أنهم حاسدون للعرب فيما أوتوا من الكتاب والحكمة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانتقال النبوة من بنى إسرائيل إلى العرب وإنما ذكروا بذلك لأن النفس غفلة عما هو قائم بها وإنما تشتغل بأحوال غيرها لأن الحسد هو أصل المعلومات فإذا رأى الحاسد نعم الغير نسي أنه أيضا في نعمة فإذا أريد صرفه عن الحسد ذكر بنعمه حتى يخف حسده فإن حسدهم هو الذي حال دون تصديقهم به فيكون وزانه وزان قوله تعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » ، وتقديمه على قوله « وأوفوا بعهدي » من باب تقديم التحلية بالمجمعة على التحلية بالمهملة ويكون افتتاح خطابهم بهذا التذكير تهية لنفوسهم إلى تلقى الخطاب بسلامة طوية وإنصاف .

وقوله تعالى « وأوفوا بعهدي » هو فعل مهموز من (وفي) المجرد وأصل معنى وفي آتم الأمر تقول وفيته حقه ، ولما كان المجرد متعديا للمفعول ولم يكن في المهموز زيادة تعدية للتساوي بين قولك وفيته حقه وأوفيته حقه تعينت الزيادة للمجرد المبالغة في التوفية مثل بان وأبان وشغل وأشغل ، وأما وفي بالتضعيف فهو أبلغ من أوفى لأن فعل وإن شارك أوفى في معانيه إلا أنه لما كان

دأى على التقضى شيئاً بعد شيء كان أدل على المبالغة لأن شأن الأمر الذى يفعل مدرجا أن يكون أتقن . وقد أطلق الوفاء على تحقيق الوعد والعهد إطلاقاً شائعاً صيره حقيقة . والعهد تقدم معناه عند قوله تعالى «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه» فى هذه السورة . والعهد هنا هو الالتزام للغير بمعاملة التزاماً لا يفرض فيه المعاهد حتى يفسخاه بينهما واستمير العهد المضاف إلى ضمير الجلالة لقبول ما يكلفهم به من الدين واستعمل مجازاً لقبول التكليف والدخول فى الدين واستمير المضاف إلى ضمير مخاطبين للوعد على ذلك بالثواب فى الآخرة والنصر فى الدنيا فلك أن تجعل كل عهد مجازاً مفرداً استعمل العهد الأول فى التكليف واستعمل العهد الثانى فى الوعد بالثواب والنصر واستعمل الإيفاء مع كليهما فى تحقيق ما التزم به كلا الجانبين مستعاراً من ملائم المشبه به إلى ملائم المشبه ليفيد ترشيحاً لاستعارته ولك أن تجعل المجموع استعارة تمثيلية بأن شبه الهيئة الحاصلة من قولهم لما أمرهم الله به وأن لا يقصروا فى العمل ومن وعد الله إياهم على ذلك بالثواب بهيئة المتعاهدين على التزام كل منهما بعمل للآخر ووفائه بمعهده فى عدم الإخلال به فاستمير لهذه الهيئة الكلام المشتمل على قوله «وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم» وهذا أحسن وبه يتبين وجه استعمال لفظ العهد الثانى فى قوله تعالى «أوف بعهدكم» وتقربه المشاكلة .

وعلى الوجهين فالعهد فى الومضين مضاف للمفعول وهو ما ذهب إليه صاحب الكشاف لأن إضافته إلى المفعول متعينة إذا تعلق به الإيفاء إذ لا يوفى أحد إلا بعهد نفسه فإذا أضيف العهد الذى هو مفعول أوفوا إلى غير فاعل الإيفاء تعين أن تكون إضافته للمفعول وبذلك يتم ترشيح المجاز إن كان مفرداً كما أشار له المحقق التفزانى فإن كان مركباً فأخلق به لأن اللفظ الموضوع للهيئة المشبه بها يضاف بقيد الإيفاء إلى مفعوله لا محالة .

ومن لطائف القرآن فى اختيار لفظ العهد للاستعارة هنا لتكليف الله تعالى إياهم أن ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم فى كتبهم فإن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام تلقب عندهم بالعهد لأنها وصاياات الله تعالى لهم ولذا عبر عنه فى مواضع من القرآن بالميثاق وهذا من طرق الإعجاز العلمى الذى لا يعرفه إلا علماءهم وهم أشجع به منهم فى كل شيء بحيث لا يعرف ذلك إلا خاصة أهل الدين فجيئته على لسان النبىء العربى الأسمى دليل على أنه وحى من العلام بالغيوب . والعهد قد أخذ على أسلافهم بواسطة رسالهم وأنبيائهم قال تعالى «وإذ

أخذ الله ميثاق النبیین لما آتینا کم من کتاب وحکمة ثم جاء کم رسول مصدق لما معکم لتؤمنن به ولتنصرنه « الآية وإذ قد کان المخاطبون بالآية قد تلقوا الشریعة من أسلافهم بما فیها من عهد فقد کان العهد لازماً لهم وکان الوفاء متعیناً علیهم لأنهم الذین جاء فیهم الرسول الموعود به .

وقوله وإیای فارهبون عطفت الواو جملة وإیای علی الجمل المتقدمة من قوله وأوفوا بعهدي « إلى آخرها علی طريقة الانتقال من معنی إلى المعنی التولد عنه وهی أصل طريقة المنشئين أن یراعوا الترتیب الخارجی فی الخبر والإنشاء لأنه الأصل ما لم یطرأ مقتض لتغییر الترتیب الطبیعی ومنه فی القرآن قوله « ولما جاءت رسلنا لوطا سیء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا یوم عصیب وجاءه قومه یهرعون إلیه « إلخ ، فإنه لما افتتح خطابهم بالتذکیر بالنعمة الباعث علی شکر المنعم ومراقبة حقه والطهر لهم من الحسد فإنه صارف عن الاعتراف بالنعمة كما قدمنا . ثم عطف علیہ قوله « وأوفوا بعهدي « وهو مبدأ المقصود من الأمر بتصدق الرسول الموعود به علی ألسنة أنبیائهم . ثم عقب ذلك بقوله « وإیای فارهبون « فهو تكمیل لذلك الأمر السابق بالنهی عما یحول بینهم وین الإیفاء بالعهد علی وجهه وذلك هو صد کبرائهم وأخبارهم إیاءهم عن الانتقال عما هم علیہ من التمسک بالتوراة فإنهم هم القوم الذین کانوا یقولون لملک بلادهم فرعون مصر یوم بمثة موسی « لن تؤثرک علی ما جاءنا من البینات والذی فطرنا « فکانوا أحریاء بأن یخاطبوا سادتهم وأخبارهم بمثل ذلك الخطاب عند البعثة المحمدية .

فتقديم المفعول هنا متعین للاختصاص لیحصل من الجملة إثبات ونفی واختیر من طرق القصر طریق التقديم دون ما وإلا لیسکون الحاصل بالمنطوق هو الأمر برهبة الله تعالی ویسکون النهی عن رهبة غیره خلاصا بالمفهوم فإنهم إذا رهبوا الله تعالی حرصوا علی الإیفاء بالعهد ولما كانت رهبتهم أخبارهم تنمهم من الإیفاء بالعهد أدمج النهی عن رهبة غیر الله مع الأمر برهبة الله تعالی فی صیغة واحدة .

وتقديم المفعول مع اشتغال فعله بضمیره آكد فی إفادة التقديم الحصر من تقديم المفعول علی الفعل غیر المشتغل بضمیره ، إیای ارهبون آكد من نحو إیای ارهبوا كما أشار إلیه صاحب الکشاف إذ قال « وهو من قولك زیدا رهبتة وهو أوكد فی إفادة الاختصاص من إیاك نعبد « اه . ووجهه عندی أن تقديم المفعول یحتمل الاختصاص ، إلا أن الأصل فیہ أن یدل

على الاختصاص إلا إذا أقامت القرينة على التقوى فإذا كان مع التقديم اشتغال الفعل بضمير المقدم نحو: زيداً ضربته كان الاختصاص أوكد أى كان احتمال التقوى أضعف وذلك لأن إسناد الفعل إلى الضمير بعد إسناذه إلى الظاهر المتقدم يفيد التقوى فتمين أن تقديم المفعول للاختصاص دون التقوى إذ التقوى قد حصل بإسناد الفعل أولاً إلى الاسم أو الظاهر المتقدم وثانياً إلى ضمير المتقدم ولهذا لم يقل صاحب الكشف وهو أكثر اختصاصاً ولا أقوى اختصاصاً إذ الاختصاص لا يقبل التقوية بل قال وهو أوكد في إفادة الاختصاص أى أن إفادته الاختصاص أقوى لأن احتمال كون التقديم للتقوى قد صار مع الاشتغال ضعيفاً جداً . ولسنا ندعى أن الاشتغال متمين للتخصيص فإنه قد يأتى بلا تخصيص في نحو قوله تعالى: «إنا كل شيء خلقناه بقدر» وقوله: «أبشرا منا واحد اتبعه» وقول زهير .

فكلا أراهم أصبحوا يعقلونه صحاحات مال طالعات بمخرم

لظهور أن لا معنى للتخصيص في شيء مما ذكرنا غير أن الغالب أن يكون التقديم مع صيغة الاشتغال للتخصيص إذ العرب لا تقدم المفعول غالباً إلا لذلك ولا التفات إلى ماوجه به صاحب المفتاح أن احتمال المفعول في الاشتغال بالتخصيص والتقوى باق على حاله ولكنك إن قدرت الفعل المحذوف متقدماً على المفعول كان التقديم للتقوى وإن قدرته بعد المفعول كان التقديم للتخصيص فإنه بناء على حالة موقع الفعل المقدر مع أن تقدير الفعل اعتبار لا يلاحظه البلغاء ولأنهم ينصبون على موقعه قرينه فتمين أن السامع إنما يعتد بالتقديم المحسوس وتكرير التعلق وأما الاعتداد بموقع الفعل المقدر نحوالة على غير مشاهد لأن التقدير إن كان بنية التكم فلا قبل للسامع بمعرفة نيته ولا يصح أن يكون الخيار في التقدير للسامع .

هذا والتقديم إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة ، لأن الفاء كما في هذه الآية مؤذنة بشرط مقدر ولما كان هذا الشرط لا دليل عليه إلا الفاء تعين تقديره عاماً نحو إن يكن شيء أو مهما يكن شيء كما أشار له صاحب الكشف في قوله تعالى «وربك فكبر» حيث قال «ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل مهما كان فلا تدع تكبيره» . فاللغنى هنا وأوفوا بعهدي أوف بعهديكم ومهما يكن شيء فإياي ارهبوني ، فلما حذفت جملة الشرط بعد واو العطف بقيت فاء الجواب موالية لواو العطف فزحلت إلى أثناء الجواب كراهية توالى

حرفين فقيل وإيأى فارهبون بدلا عن أن يقال فارهبون . والتعليق على الشرط العام يستلزم تحقق وقوع الجواب لأن التعليق الشرطى بمنزلة ربط المسبب بالسبب فإذا كان المعلق عليه أمراً محقق الوقوع لعدم خلو الحدثنان عنه تعين تحقق وقوع المعلق ، وهذا مبني على مذهب سيويوه في باب الأمر والنهى يختار فيهما النصب في الاسم الذى يبنى عليه الفعل وذلك مثل قولك زيدا أضربه ومثل ذلك أما زيدا فاقتله فإذا قلت زيد فاضربه لم يستقم أن تحمله على الابتداء ألا ترى أنك لو قلت زيد فنطلق لم يستقم ، ثم أشار إلى أن الفاء هنا في معنى فاء الجزاء فن ثم جزم الزمخشري بأن هاته الفاء مهمما وجدت في الاشتغال دلت على شرط عام محذوف وإن الفاء كانت داخلة على الاسم فزحلت على حكم فاء جواب أما الشرطية^(١) وأحسب أن مثل هذا التركيب من مبتكر أساليب القرآن ولم أذكر أنى عثرت على مثله في كلام العرب .

ومما يؤيد ما ذهب إليه صاحب الكشف المبني على كلام سيويوه من اعتبار الفاء مشعرة بشرط مقدر ، أن غالب مواقع هاته الفاء المتقدم معها المفعول على مدخلها أن تقع بعد النهى أو أمر يناقض الأمر والنهى الذى دخلت عليه تلك الفاء نحو قوله تعالى « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت » إلى قوله « بل الله فاعبد » وقول الأعشى « ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا » فكان ما يتقدم هاته الفاء يتولد منه شرط في المعنى وكانت الفاء مؤذنة بذلك الشرط وعلامة عليه فلا أجل كونه مدلولاً عليه بدليلين أصله وفرعه كان كالذكور كأنه قيل لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإن كنت عابداً شيئاً فالله فاعبد ، وكذا في البيت وهذه فائدة لم يفصح عنها السلف فخذها ولا تحف .

(١) وقيل إن الفاء في مثل هذا عاطفة على محذوف ، فقال السيراق في شرح الكتاب إن الفاء تدل على فعل من شأنه أن يكون سبباً فيما دخلت عليه الفاء ، ففي نحو زيدا فاضرب تأهب فاضرب زيدا أو نحوه فلما حذف المعطوف عليه قدم معمول الفعل ليكون عوضاً عن المعطوف عليه المحذوف ولأجل كون تقديمه لعلته صح إعمال ما بعد الفاء فيه كما أعمل ما بعد الفاء الواقعة في جواب أما فيما قبلها لأنه قدم ليحل محل فعل الشرط . وعلى هذا القول فالتقديم ليس لقصد تخصيص ولا تقو . وقال صاحب المفتاح : الفاء عطف الفعل على فعل مثله للتقوى ، والمفعول المذكور مفعول الفعل المحذوف ، والتقدير اضرب زيدا فاضرب ، ويرد هذين أن الفاء لو كانت عاطفة لما اجتمعت مع حرف عطف في مواضع كثيرة نحو « وربك فكبر وثيابك فطهر » إلخ .

قال التفترأني وتقل عن صاحب الكشف أنه قال إن في قوله تعالى وإياي فارهبون « وجوهاً من التأكيذ : تقديم الضمير المنفصل . وتأخير المتصل . والفاء الموجبة معطوفاً عليه ومعطوفاً تقديره إياي ارهبوا فارهبون أحدهما مقدر والثاني مظهر . وما في ذلك من تكرار الرهبة . وما فيه من معنى الشرط بدلالة الفاء كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئاً فارهبون اه . يريد أن في تقديم الضمير إفادة الاختصاص والاختصاص تأكيداً ، قال صاحب المفتاح ليس الحصر والتخصيص إلا تأكيداً على تأكيداً وأما تأخير الضمير المتصل فلما في إعادة الإسناد من التقوى ، ومراد الزمخشري بقوله معطوفاً عليه ومعطوفاً المطف اللغوي أى معقباً ومعقباً به لا المطف النحوي إذ لا يستقيم هنا . فتحصل أن في التعبير عن مثل هذا الاختصاص في كلام البلغاء مراتب أربع : مجرد التقديم للمفعول نحو إياك نعبد . وتقديمه على فعله العامل في ضميره نحو زيدا رهبت . وتقديمه على فعله مع اقتران الفعل بالفاء نحو وربك فكبر . وتقديمه على فعله العامل في ضميره مع اقتران الفعل بالفاء نحو وإياي فارهبون .

فالثانية والثالثة والرابعة أوكد منهما .

وحذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية في قوله « فارهبون » للجمهور من المشرة في الوصل والوقف وأثبتها يعقوب في الوصل والوقف . وجمهور العرب يحذفونها في الوقف دون الوصل وهذيل يحذفونها في الوقف والوصل وأهل الحجاز يثبتونها في الحالين وإنما اتفق الجمهور هنا على حذفها في الوصل مثل الوقف لأن كلمة فارهبون كتبت في المصحف الإمام بدون ياء وقرئت كذلك في سنة القراءة . ووجه ذلك أنها وقعت فاصلةً فاعتبروها كالوقوف عليها قال سيويوه في باب ما يحذف من أواخر الأسماء في الوقف « وجميع ما لا يحذف في الكلام وما يختار فيه أن لا يحذف يحذف في الفواصل والقوافي » . ولأن لغة هذيل تحذفها مطلقاً ، وقراءة يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف جرى على لغة أهل الحجاز ولأنه رواها بالإثبات وهو وجه في العربية ويكون قد تأول كتابتها بدون ياء في المصحف أنه اعتماد على أن القاريء يجريها على روايته ولذلك لو لم تكن ياء المتكلم في كلمة هي فاصلة من الآي لما اتفق الجمهور على حذفها كما في قوله تعالى « أجب دعوة الداعي إذا دعان » كما سيأتي .

﴿وَعَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾

شروع فی دعوة بنی اسرائیل إلى الإسلام وهدی القرآن وهذا هو المقصود من خطابهم ولكن قدم بین یدیه ما یعھی نفوسهم إلى قبوله کما تتقدم المقدمة على الفرض ، والتخلية على التحلية .

والإيمان بالكتاب المنزل من عند الله أو بكتب الله وإن كان من جملة ما شمله العهد المشار إليه بقوله « وأوفوا بعهدي » إلا أنه لم يلتفت إليه هنا من تلك الجهة لأنهم عاهدوا الله على أشياء كثيرة كما تقدم ومن جملتها الإيمان بالرسول والكتب التي تأتي بعد موسى عليه السلام إلا أن ذلك مجمل في العهد فلا يتعين أن يكون ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو مما عاهدوا الله عليه بل حتى يصدقوا بأنه من عند الله وأن الجائي به رسول من الله فهم مدعوون إلى ذلك التصديق هنا . فعطف قوله « وآمنوا » على قوله « وإياي فارهبون » كمطف المقصد على المقدمة ، وعطفه على قوله « وأوفوا بعهدي » من قبيل عطف الخاص على العام في المعنى ولكن هذا من عطف الجمل فلا يقال فيه عطف خاص على عام لأنه إنما يكون في عطف الجزئ على الكل من المفردات لا في عطف الجمل وإنما أردنا تقرب موقع الجملة وتوجيه إرادها موصولة غير مفصولة .

وفي تعليق الأمر باسم الموصول وهو ما أنزلت دون غيره من الأسماء نحو الكتاب أو القرآن أو هذا الكتاب إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان به وهو أنه منزل من الله وهم قد أوصوا بالإيمان بكل كتاب يثبت أنه منزل من الله . ولهذا أتى بالحال التي هي علة الصلة إذ جعل كونه مصدقا لما في التوراة علامة على أنه من عند الله . وهي العلامة الدينية المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب فكما جعل الإعجاز اللفظي علامة على كون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب كما أشير إليه بقوله « ألم ذلك الكتاب » إلى قوله « فأتوا بسورة من مثله » ؛ كذلك جعل الإعجاز المعنوي وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية علامة على أنه من عنده لأهل الدين والعلم بالشرائع .

ثم الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بالذي جاء به وبالذي أنزله .

والمراد بما معهم كتب التوراة الأربعة وما ألحق بها من كتب الأنبياء من بنی اسرائیل

كأزبور ، وكتاب أشعيا ، وأرميا ، وحزقيال ، ودانيال وغيرها ولذا اختير التعبير بما معكم دون التوراة مع أنها عبر بها في مواضع غير هذا لأن في كتب الأنبياء من بعد موسى عليه السلام بشارات بيعة محمد صلى الله عليه وسلم أصرح مما في التوراة فكان التنبيه إليها أوقع . والمراد من كون القرآن مصدقا لما معهم أنه يشتمل على الهدى الذي دعت إليه أنبياءهم من التوحيد والأمر بالفضائل واجتناب الرذائل وإقامة العدل ومن الوعد والوعيد والمواظب والقصاص فما تماثل منه بها فأمره ظاهر وما اختلف فإنما هو لاختلاف المصالح والمصروف مع دخول الجميع تحت أصل واحد . ولذلك سمي ذلك الاختلاف نسخا لأن النسخ إزالة حكم إناثت ولم يسم إبطالا أو تكذيبا فظهر أنه مصدق لما معهم حتى فيما جاء مخالفا فيه لما معهم لأنه ينادى على أن المخالفة تغيير أحكام تبعا لتغير أحوال المصالح والمفاسد بسبب تفاوت الأعصار بحيث يكون الغير والغير حقا بحسب زمانه وليس ذلك إبطالا ولا تكذيبا قال تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات » الآية . فالإيمان بالقرآن لا يتناقض معكم القديم بدينهم ولا ما سبق من أخذ رسلهم عليهم العهد باتباعه . ومما يشمله تصديق القرآن لما معهم أن الصفات التي اشتمل عليها القرآن ودين الإسلام والجائي به موافقة لما بشرت به كتبهم فيكون وروده معجزة لأنبيائهم وتصديقا آخر لدينهم وهو أحد وجهين ذكرهما الفخر والبيضاوي فيلزم تأويل التصديق بالتحقيق لأن التصديق حقيقة في إعلام المخبر (بفتح الباء) بأن خبر المخبر مطابق للواقع إما بقوله صدقت أو صدق فلان كما ورد في حديث جبريل في صحيح البخاري لما سألته عن الإيمان والإسلام والإحسان أنه لما أخبره قال السائل صدقت قال فمعجبنا له يسأله ويصدقها ، وإما بأن يخبر الرجل بخبر مثل ما أخبر به غيره فيكون إخباره الثاني تصديقا لإخبار الأول . وأما إطلاق التصديق على دلالة شيء على صدق خبر ما فهو إطلاق مجازي والمقصود وصف القرآن بكونه مصدقا لما معهم بأخباره وأحكامه لا وصف الدين والنبوة كما لا يخفى .

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾

جمع الضمير في تكونوا مع أفراد لفظ كافر يدل على أن المراد من الكافر فريق ثبت له الكفر لا فرد واحد إضافة أول إلى كافر ببيان تقييد معنى فريق هو أول فرق الكافرين . والضمير المجرور في به ظاهره أنه عائد إلى ما أنزلت لأنه المقصود . وهو عطف على جملة « وآمنوا بما أنزلت » وهو ارتقاء في الدعوة واستجلاب القلوب فإنه لما أمرهم بالإيمان بالقرآن وكانت صيغة الأمر محتملة لطلب الامتثال بالفور أو بالتأخير وكانوا معروفين بشدة العداوة لدين الإسلام ، عطف على أمرهم بالإيمان بالقرآن نهيهم عن أن يكونوا أول كافر بالقرآن وذلك يصدق بمعان بعضها يستفاد من حق التركيب وبعضها من لوازمه وبعضها من مستتبعاته وكلها تحتملها الآية ، فالعنى الأول أن يحمل قوله « أول كافر » على حقيقة معنى الأول وهو السابق غيره فيحصل من الجملة المعطوفة تأكيد الجملة المعطوف عليها بدلالة المطابقة فالنهي عن الكفر بالقرآن يؤكد قوله « وآمنوا بما أنزلت » ثم إن وصف أول يشعر بتقييد النهي بالوصف ولكن قرينة السياق دالة على أنه لا يراد تقييد النهي عن الكفر بحالة أوليتهم في الكفر ، إذ ليس المقصود منه مجرد النهي عن أن يكونوا مبادرين بالكفر ولا سابقين به غيرهم لقلّة جدوى ذلك ولكن المقصود الأهم منه أن يكونوا أول المؤمنين فأفيد ذلك بطريق الكناية التلويحية فإن وصف أول أصله السابق غيره في عمل يعمل أو شيء يذكر فالسبق والمبادرة من لوازم معنى الأولى لأنها بعض مدلول اللفظ ولما كان الإيمان والكفر تقيضين إذا اتقى أحدهما ثبت الآخر كان النهي عن أن يكونوا أول الكافرين يستلزم أن يكونوا أول المؤمنين .

والقصد من النهي توبيخهم على تأخرهم في اتباع دعوة الإسلام فيكون هذا المركب قد كنى به عن معنيين من ملزوماته ، هما معنى المبادرة إلى الإسلام ومعنى التوبيخ المكنى عنه بالنهي ، فيكون معنى النهي مراداً ولوازمه وهو الأمر بالمبادرة بالإيمان مراداً وهو المقصود فيكون الكلام كناية اجتماع فيها الملزوم واللازم معاً ، فباعتبار اللازم يسكون النهي في معنى الأمر فيؤكد به الأمر الذي قبله كأنه قيل « وآمنوا بما أنزلت » وكونوا أول المؤمنين ، وباعتبار الملزوم يكون نهياً عن الكفر بعد الأمر بالإيمان فيحصل بذلك غرضان .

وهذه الكناية تعريضية لأن غرض المعنى الكنائي غير غرض المعنى الصريح وهذا هو الذى استخلصته فى تحقيق معنى التعريض وهو أن يكون غرض الحكم المشار إليه به غير غرض الحكم المصرح به ، أو أن يكون المحكوم له به غير المحكوم له بالصريح . وهذا الوجه مستند إلى الظاهر والتحقيق بين متناثر كلامهم فى التعريض المعروف من الكناية^(١) ويندفع بهذا سؤالان مستقلان أحدهما ناشئ عما قبله : الأول كيف يصح النهى عن أن يكونوا أول الكافرين ومفهومه يقتضى أنهم لو كفروا به ثانيا لما كان كفرهم منهياً عنه . الثانى أنه قد سبقهم أهل مكة للكفر لأن آية البقرة فى خطاب اليهود نزلت فى المدينة فقد تحقق أن اليهود لم يكونوا أول الكافرين فالنهي عن أن يكونوا أول الكافرين تحصيل حاصل . ووجه الاندفاع أن المقصود الأهم هو المعنى التعريضى وهو يقوم قرينة على أن القصد من النهى أن لا يكونوا من المبادرين بالكفر أى لا يكونوا متأخرين فى الإيمان وهذا أول الوجوه فى تفسير الآية عند صاحب الكشف واختاره البيضاوى فاقتصر عليه .

واعلم أن التعريض فى خصوص وصف « أول » وأما أصل النهى عن أن يكونوا كافرين به فذلك مدلول اللفظ حقيقة وصريحا . والتعريض من قبيل الكناية التلويحية لما فيه من خفاء الانتقال من المعنى إلى لوازمه . وبعض التعريض يحصل من قرائن الأحوال عند النطق بالكلام ولعل هذا لا يوصف بحقيقة ولا مجاز ولا كناية وهو من مستتبعات التراكيب ودلالاتها العقلية وسيجىء لهذا زيادة بيان عند قوله تعالى « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » فى هذه السورة .

المعنى الثانى أن يكون المقصود التعريض بالمشركين وأنهم أشد من اليهود كفرا أى لا تكونوا فى عدادهم ولعل هذا هو مراد صاحب الكشف من قوله « ويجوز أن يراد ولا تكونوا مثل أول كافر به يعنى من أشرك من أهل مكة » ولا يريد أنه تشبيه بليغ وإن كان كلامه يؤممه وسكت عنه شراحه .

(١) والتكى عن الانصاف بالنقيض بلفظ النهى عن أن يكون أول فى تقيضه طريقة عربية ورد عليها قول أبى العباس الثقفى لقومه ثقيف حين هموا بالارتداد مع من ارتد من العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم : « يا معشر ثقيف كنتم آخر العرب لإسلاما فلا تكونوا أولهم ارتدادا » أى دوموا على الإيمان وهو عكس الآية وليس المراد كونوا آخر الناس ارتدادا .

المعنى الثالث: أن يراد من «أول» المبادر والمستعجل لأنه من لوازم الأولوية كما قال تعالى «فأنا أول العابدين» وقال سميد بن مقروم الضبي :

فَدَعَوْا نَزَالَ فَكَفْتُ أَوَّلَ نَازِلٍ وَعَلَامَ أَرْكَبُهُ إِذَا لَمْ أَنْزِلِ

فقوله أول نازل لا يريد تحقيق أنه لم ينزل أحد قبله وإنما أراد أنه بادر مع الناس فإن الشأن أنه إذا دعا القوم نزال أن ينزل السامعون كلهم ولكنه أراد أنه ممن لم يتربص . ويكون المعنى ولا تمجّلوا بالتصريح بالكفر قبل التأمل ، فالمراد من الكفر هنا التصميم عليه لا البقاء على ما كانوا عليه فتكون الكناية بالفرد وهو كلمة أول .

المعنى الرابع: أن يكون «أول» كناية عن القدوة في الأمر لأن الرئيس وصاحب اللواء ونحوها يتقدمون القوم، قال تعالى «يقدم قومه يوم القيامة» وقال خالد بن زهير وهو ابن أخت أبي ذؤيب الهذلي :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا

أى الأجدد والناصر لسنة . والمعنى ولا تكونوا مقربين للكافرين بكفرهم فإنهم إن شاهدوا كفرهم كفروا اقتداء بهم وهذا أيضا كناية بالفرد .

المعنى الخامس: أن يكون المراد الأول بالنسبة إلى الدعوة الثانية وهى الدعوة فى المدينة لأن ما بعد الهجرة هو حال ثانية للإسلام، فيها ظهر الإسلام متميزا مستقلا .

هذا كله مبنى على جعل الضمير المجرور بالباء فى قوله «كافر به» عائدا على «ما أنزلت» أى القرآن وهو الظاهر لأنه ذكر فى مقابل الإيمان به . وقيل إن الضمير عائد على ما معكم وهو التوراة قال ابن عطية : «وعلى هذا القول يحىء - أول كافر - مستقيا على ظاهره فى الأولوية» ولا يخفى أن هذا الوجه تكلف لأنه مؤول بأن كفرهم بالقرآن وهو الذى جاء على نحو ما وصفت التوراة وكتب أنبيائهم فى بشاراتهم بنبيء وكتاب يكونان من بعد موسى فإذا كذبوا بذلك فقد كفروا بصحة ما فى التوراة فيفضى إلى الكفر بما معهم .

قال التفزائى : وهذا كله إنما يتم لو كان كفرهم به بمعنى ادعائهم أنه كله كذب وأما إذا كفروا بكونه كلام الله واعتقدوا أن فيه صدقا وكذبا فلا يتم، ولهذا كان هذا الوجه مرجوحا، ورده عبد الحكيم بما لا يليق به .

وبهذا كله يتضح أن قوله « ولا تكونوا أول كافر به » لا يتوهم منه أن يكون النفي منصبا على القيد بحيث يفيد عدم النهي عن أن يكونوا ثاني كافر أو ثالث كافر بسبب القرينة الظاهرة وأن أول كافر ليس من قبيل الوصف الملازم حتى يستوى في نفي موصوفه أن يذكر الوصف وأن لا يذكر كقول امرئ القيس :

* على لاحبٍ لا يُهتدى بمناره *

وقول ابن أحر :

* ولا ترى الضبَّ بها ينجحِرُ *

كما سيأتى في قوله تعالى « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » عقب هذا .

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

عطف على النهي الذى قبله وهذا النهي موجه إلى علماء بنى إسرائيل وهم القدوة لقومهم والمناسبة أن الذى صدم عن قبول دعوة الإسلام هو خشيتهم أن تزول رئاستهم فى قومهم فكانوا يتظاهرون بإنكار القرآن ليلتف حولهم عامة قومهم فتبقى رئاستهم عليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود كلهم .

والاشتراء تقدم عند قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » وهو اعتياض أعيانٍ بغيرها مثلها أو ثمنها من النقيدين ونحوها كأوراق المال والسفاتيح وقد استعير الاشتراء هنا لاستبدال شيء بآخر دون تبايع .

والآيات جمع آية وأصلها فى اللغة العلامة على المنزل أو على الطريق قال النابغة :

توهَّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها لستِ أعوام وذا العام سابع

ثم أطلقت الآية على الحجة لأن الحجة علامة على الحق قال الحارث ابن حلزة :

من لنا عنده من الخير آيا ت ثلاثٌ فى كلهن القضاء

ولذلك سميت معجزة الرسول آية كما فى قوله تعالى « فى تسع آيات إلى فرعون وقومه »

« وإذا لم تأتهم بآية » ، وأطلقت أيضا على الجملة التامة من القرآن قال تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » وفى الحديث الصحيح قال رسول الله : أما تكفيك

آية الصيف « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » لأن جمل القرآن حجة على صدق الرسول لأن بلاغتها ممجزة . وأما إطلاق آية على الجملة من التوراة في حديث الرجم في قول الراوى فوضع المدراس يده على آية الرجم فذلك مجاز على مجازٍ لعلاقة المشابهة . ووجه المشابهة بين إعراضهم وبين الاشتراء ، أن إعراضهم عن آيات القرآن لأجل استبقاء السيادة ، والنفع في الدنيا يشبه استبدال المشتري في أنه يمطى ما لا حاجة له به ويأخذ ما إليه احتياجه وله فيه منفعته ، فهو تشتروا استعارة تحقيقية في الفعل ، ويجوز كون تشتروا مجازا مرسلا بعلاقة اللزوم أو بعلاقة الاستعمال المقيد في المطلق كما تقدم في قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ، لكن هنا الاستعارة متأنية فهي أظهر لظهور علاقة المشابهة واستغناء علاقة المشابهة عن تطلب وجه المدول عن الحقيقة إلى المجاز لأن مقصد التشبيه وحده كاف في المدول إلى الاستعارة ، إذ التشبيه من مقاصد البلاء . وإذا قد كان فعل الاشتراء يقتضى شيئين أبداً أحدهما بالآخر جُعل العوض المرغوب فيه هو المشتري وهو المأخوذ ويمعدي إلى الفعل بنفسه ، وجعل العوض الآخر هو المدفوع ويسمى الثمن ويتمعدي الفعل إليه بالبلاء الدالة على معنى العوض .

وقد عدى الاشتراء هنا إلى الآيات بالبلاء فكانت الآيات هي الواقعة موقع الثمن لأن الثمن هو مدخل الباء فدل دخول الباء على أن الآيات شبهت بالثمن في كونها أهون العوضين عند الاستبدال ، وذكر الباء قرينة المكنية لأنها تدخل على الثمن ولا يصح كونها تبعية إذ ليس ثم معنى حقه أن يؤدي بالحرف شبه بمعنى الباء ، فها هنا يتعين سلوك طريقة السكاكي في رد التبعية للمكنية . ولا يصح أيضاً جعل الباء تخيلاً إذ ليست دالة على معنى مستقل يمكن تخيله .

ثم عبر عن مفعول الاشتراء بلفظ الثمن وكان الظاهر أن يعطى لفظ الثمن لدخول الباء أو أن يعبر عن كل بلفظ آخر كأن يقال لا تشتروا بآياتي متاعاً قليلاً فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وعبر عن المتاع ونحوه بالثمن على طريق الاستعارة التحقيقية لتشبيه هذا العوض من الرئاسة أو المال بالثمن أو لأنه يشبه الثمن في كونه أعياناً وحطاماً جعلت بدلاً عن أمر نافع وفي ذلك تعريض بهم في أنهم مغبونون الصفقة إذ قد بذلوا أنفسهم وأخذوا حظاً ما قليلاً فكان كلا البديلين في الآية مشبهاً بالثمن إلا أن الآيات شبهت به في كونها أهون

على المعتاض ، والمتاع الذى يأخذونه شبه بالثمن فى كونه شيئاً مادياً يناله كل أحد أولاً إشارة إلى أن كلامنا من الآيات والثنى أمرهين على فريق فالآيات هانت على الأخبار والأموال هانت على العامة وخُص الهين حقيقة بإعطائه اللفظ الحقيقى الدال على أنه هين وأما الهين صورة فقد أعطى الباء المجازية وكل من الاستعارتين قرينة على الأخرى - ولأنه لما غلب فى الاستعمال إطلاق الثمن على النقدين اختير إطلاق ذلك على ما يأخذونه تلميحاً إلى أنهم يأخذون المال عن تغيير الأحكام الشرعية كقوله يأخذون عرض هذا الأدنى .

وقد قيل إن قوله ثمننا قرينة الاستعارة فى قوله ولا تشتروا وجهه أنه لما أدخلت الباء على الآيات تعين أن الآيات هى ثمن الشراء فلما عبر بعده بلفظ ثمننا مفعولاً لفعل تشتروا علم السامع أن الأول ليس بثمن حقيقى فلم أن الشراء مجاز ثم هو يعلم أن المعبر عنه بالثمن بعد ذلك أيضاً ليس بثمن حقيقى تبعاً للعلم بالمجاز فى الفعل الناصب له .

وقد قيل إن قوله ثمننا تجريد وتقريره مثل تقرير كونه قرينة إذا جعلنا القرينة قوله بآياتى .

وقيل هو ترشيح لأن لفظ الثمن من ملائم الشراء وهو قريب مما قدمناه فى كونه استعارة لأن الترشيح فى نفسه قد يكون استعارة من ملائم المشبه به لملائم المشبه على الاحتمالات كلها هى تدل على تجهيلهم وتقريعهم .

والآيات لا تستبدل ذواتها فتعني تقدير مضاف أى لا تشتروا بقبول آياتى ثمننا . وإضافة آيات إلى ضمير الجلالة للتشريف قال الشيخ محمد بن عرفة عظم الآيات بشيئين الجمع والإضافة إلى ضمير الجلالة وحُقر العوض بتحقيقين التنكير والوصف بالقلة أى وفى ذلك تعريض بغير صفقتهم إذ استبدلوا نقيساً بخسيس وأقول وصف قليلا صفة كاشفة لأن الثمن الذى تباع به إضاعة الآيات هو قليل ولو كان أعظم متمول بالنسبة إلى ما أضاعه آخذ ذلك الثمن وعلى هذا المراد ينبغى حمل كلام ابن عرفة .

وقد أجمل العوض الذى استبدلوا به الآيات فلم يبين أهو الرئاسة أو الرشى التى يأخذونها ليشمل ذلك اختلاف أحوالهم فإنهم متفاوتون فى المقاصد التى تصدهم عن اتباع الإسلام على حسب اختلاف همهم .

وَوَصَفَ ثَمَنًا بِقَوْلِهِ « قَلِيلًا » لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ التَّقْيِيدُ بِحَيْثُ يَفِيدُ النِّهْيَ عَنْ اخْتِذَاكَ عَوْضٍ قَلِيلٍ دُونَ اخْتِذَاكَ عَوْضٍ لَهُ بَالٌ وَإِنَّمَا هُوَ وَصَفَ مُلَازِمَ الثَّمَنِ الْمَأْخُوذَ عَوْضًا عَنْ اسْتِبْدَالِ الْآيَاتِ فَإِنَّ كُلَّ ثَمَنٍ فِي جَانِبِ ذَلِكَ هُوَ قَلِيلٌ فَذَكَرَ هَذَا الْقَيْدَ مَقْصُودًا بِهِ تَحْقِيرُ كُلِّ ثَمَنٍ فِي ذَلِكَ فَهَذَا النَّفْيُ شَبِيهُ بَنَى الْقَيُودَ لِلْمُلَازِمَةِ لِلْعَقْدِ لِيَفِيدَ نَفْيَ الْقَيْدِ وَالْقَيْدَ مَعَ كَمَا فِي الْبَيْتِ الْمَشْهُورِ لِأَمْرِ الْقَيْسِ :

عَلَى لَا حَبِّ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ الدِّيَافِي جَرَجَرَا
أَيُّ لَا مَنَارَ لَهُ فَيُهْتَدَى بِهِ لِأَنَّ الْإِهْتِدَاءَ لَازِمٌ لِلْمَنَارِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ أَحْمَرَ :
لَا يُفْزَعُ الْأَرْبَ أَهْوَالُهَا وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ
أَيُّ لَا أَرْبَ بِهَا حَتَّى يَفْزَعَ مِنْ أَهْوَالِهَا وَلَا ضَبَّ بِهَا حَتَّى يَنْجَحِرَ ، وَقَوْلُ النَّابِغَةِ :
* مِثْلُ الزَّجَاجَةِ لَمْ تَكْحَلْ مِنَ الرَّمْدِ *

أَيُّ عَيْنَا لَمْ تَرْمَدْ حَتَّى تُكْحَلَ ؛ لِأَنَّ التَّكْحِيلَ لَازِمٌ لِلْعَيْنِ الرَّمْدَاءِ وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ .

وَقَدْ وَقَعَ « ثَمَنًا » نَكْرَةً فِي سِيَاقِ النَّهْيِ وَهُوَ كَالنَّفْيِ فَشَمِلَ كُلَّ عَوْضٍ ، كَمَا وَقَعَتِ الْآيَاتُ جَمْعًا مُضَافًا فَشَمِلَتْ كُلَّ آيَةٍ ، كَمَا وَقَعَ الْفِعْلُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَشَمِلَ كُلَّ اشْتِرَاءٍ إِذَا الْفِعْلُ كَالنَّكْرَةِ .

وَالْخُطَابُ وَإِنْ كَانَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ غَيْرُ أَنْ خُطَابَاتُ الْقُرْآنِ وَقِصَصُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْأُمَمِ الْأُخْرَى إِنَّمَا يَقْصَدُ مِنْهَا الْإِعْتِبَارَ وَالْإِعْتَظَافَ فَنَحْنُ مَحْذَرُونَ مِنْ مِثْلِ مَا وَقَعُوا فِيهِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلِ لِأَنَّنَا أَوَّلَى بِالْكَفَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ كَمَا قَالَ بَشَارُ :

* الْحُرُّ يُلْحَتِي وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ *

وَكَالَيْتَ السَّائِرُ :

الْعَبْدُ يُقْرِعُ بِالْعَصَا وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ الْإِشَارَةَ

فَعَلِمَاؤُنَا مِنْهُمْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمَا نَهَى عَنْهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الصَّدَفِ عَنِ الْحَقِّ لِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ كَانَتْ سِيرَةُ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

وَمِنْ هُنَا فَرَضْتُ مَسْأَلَةً جَعَلَهَا الْمَفْسُرُونَ مُتَعَلِّقَةً بِهَاتِهِ الْآيَةِ وَإِنْ كَانَ تَعَلُّقُهَا بِهَا ضَعِيفًا وَهِيَ مَسْأَلَةٌ اخْتِذَاكَ الْأَجْرَةَ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ وَالِدِينِ وَيَتَفَرَّعُ عَنْهَا اخْتِذَاكَ الْأَجْرَةَ عَلَى تَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَعَلَى

بعض ما فيه عبادة كالأذان والإمامة. وحاصل القول فيها أن الجمهور من العلماء أجازوا أخذ الأجر على تعليم القرآن فضلاً عن الفقه والعلم فقال بجواز ذلك الحسن وعطاء والشعبي وابن سيرين ومالك والشافعي وأحمد وأبو ثور والجمهور، وحجتهم في ذلك الحديث الصحيح عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله» وعليه فلا محل لهاته الآية على هذا المعنى عندهم بحال؛ لأن المراد بالإشتراء فيها معناه المجازي وليس في التعليم استبدال ولا عدول ولا إضاعة. وقد نقل ابن رشد إجماع أهل المدينة على الجواز ولعله يريد إجماع جمهور فقهاءهم. وفي المدونة: لا بأس بالإجارة على تعليم القرآن. ومنع ذلك ابن شهاب من التابعين من فقهاء المدينة وأبو حنيفة وإسحاق بن راهويه وتمسكوا بالآية وبأن التعليم لذلك طاعة وعبادة كالصلاة والصوم فلا يؤخذ عليها أجر كذلك وبما روى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «درهم المعلمين حرام» وعن عبادة بن الصامت أنه قال «علمت ناساً من أهل الصفة للقرآن والكتابة فأهدى إلى رجل منهم قوساً فسألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن سرك أن تطوق بها طوقاً من نار فأقبلها» وأجاب عن ذلك القرطبي بأن الآية محملها فيمن تعين عليه التعليم فأبى إلا بالأجر، ولا دليل على ما أجاب به القرطبي. فالوجه أن ذلك كان في صدر الإسلام وبث الدعوة فلو رخص في الأجر فيه لتمطل تعليم كثير لقلة من ينفق في ذلك لأن أكثرهم لا يستطيعه ومحمل حديث ابن عباس على ما بعد ذلك حين شاع الإسلام وكثر حفاظ القرآن. وأقول لا حاجة إلى هذا كله لأن الآية بعيدة عن هذا الغرض كما علمت وأجاب القرطبي عن القياس بأن الصلاة والصوم عبادتان قاصرتان وأما التعليم فعبادة متعدية فيجوز أخذ الأجر على ذلك الفعل وهذا فارق مؤثر. وأما حديث أبي هريرة وحديث عبادة ففيهما ضعف من جهة إسناديهما كما بينه القرطبي، قلت ولا أحسب الزهري يستند لهما ولا للآية ولا لذلك القياس. ولكنه رآه واجباً فلا تؤخذ عليه أجرة وقد أفتى متأخرو الحنفية بجواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والفقه قال في الدرر وشرحه «ويفتى اليوم بصحتها أي الإجارة لتعليم القرآن والفقه والأصل أن الإجارة لا تجوز عندنا على الطاعات والمعاصي لكن لما وقع الفتور في الأمور الدينية جوزها المتأخرون» اهـ.

ومن فروع هاته المسألة جواز أخذ الأجرة على الأذان والإمامة، قال ابن عبد البر هي مأخوذة من مسألة الأجر على تعليم القرآن وحكمهما واحد، وفي المدونة تجوز الإجارة على

الأذان وعلى الأذان والصلاة معاً وأما على الصلاة وحدها فكرهه مالك، قال ابن شاس جازت على الأذان لأن المؤذن لا يلزمه الإتيان به أما جمعه مع الصلاة فالأجرة على الأذان فقط، وأجاز ابن عبد الحكم الإجارة على الإمامة ووجهه أنه تكلف الصلاة في ذلك الموضع في ذلك الوقت، وروى أشهب عن مالك لا بأس بالأجر على تراويح رمضان وكرهه في الفريضة قال القرطبي وكرهها أبو حنيفة وأصحابه وفي الدرر ويفتي اليوم بصحتها لتعليم القرآن والفقه والإمامة والأذان ويجبر المستأجر على دفع الأجرة ويحبس، وقال القرافي في الفرق الخامس عشر والمائة ولا يجوز في إمامة الصلاة الإجارة على المشهور من مذهب مالك لأنها عقد مكايسة من المعاوضات فلا يجوز أن يحصل العوضان فيها لشخص واحد لأن أجر الصلاة له فإذا أخذ عنها عوضاً اجتمع له العوضان اهـ . وهو تعليل مبني على أصل واه قدمه في الفرق الرابع عشر والمائة على أن في كونه من فروع ذلك الأصل نظراً لا تظيلاً فيه فانظره فقد نبهتكم إليه، فالحق أن الكراهة المنقولة عن مالك كراهة تنزيه. وهذه المسألة كانت قد حدث بين ابن عرفة والذكالي وهي أنه ورد على تونس في حدود سنة سبعين وسبعمائة رجل زاهد من المغرب اسمه محمد الذكالي فكان لا يصلي مع الجماعة ولا يشهد الجمعة معتلاً بأن أئمة تونس يأخذون الأجور على الإمامة وذلك جريحة في فاعله فأنكر عليه الشيخ ابن عرفة وشاع أمره عند العامة وحدث خلاف بين الناس فخرج إلى المشرق فاراً بنفسه وبلغ أنه ذهب لمصر فكتب ابن عرفة إلى أهل مصر أبياتاً هي :

يا أهل مصر ومن في الدين شاركهم	تنهبوا لسؤال معضل نزل
لزوم فسقكم أو فسق من زعمت	أقواله أنه بالحق قد عملا
في تركه الجمع والجمعات خلفكم	وشرط إيجاب حكم الكل قد حصلا
إن كان شأنكم التقوى فغيركم	قد باء بالفسق حتى عنه ما عدلا
وإن يكن عكسه فالأمر منعكس	قولوا بحق فإن الحق ما اعتزلا

فيقال إن أهل مصر أجابوه بأبيات منها :

ما كان من شيم الأبرار أن يسموا	بالفسق شيخاً على الخيرات قد جبلا
لا لا ولكن إذا ما أبصروا خللا	كسوه من حسن تأويلاتهم حللا
أليس قد قال في النهاج صاحبه	يسوغ ذاك لمن قد ينجثي زللا

ومنها:

وقد رويت عن ابن القاسم العتق فيما اختصرت كلاماً أوضح السبلا
 ما إن ترد شهادة لتاركها إن كان بالعلم والتقوى قد احتفلا
 نعم وقد كان في الأعلين منزلة من جانب الجمع والجمعات واعتزلا
 كمالك غير مبد فيه معذرة إلى المات ولم يسأل وما عذلا
 هذا وإن الذي أبداه متجهاً أخذ الأئمة أجراً منعه تقلا
 وهبك أنك راء حله نظرا فما اجتهدك أولى بالصواب ولا

هكذا نسبت هذه الأبيات في بعض كتب التراجم المغاربة أنها وردت من أهل مصر
 وقد قيل إنها نظمها بعض أهل تونس انتصاراً للدكالي ذكر ذلك الخفاجي في طراز
 المجالس، وقال إن المجيب هو أبو الحسن علي السلمي التيونسى وذكر أن السراج البلقيني
 ذكر هاته الواقعة في فتاواه وذكر أن والده أجاب في المسألة بأبيات لامية انظرها هناك .

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ 41

القول فيه كالقول في « وإياي فارهبون » إلا أن التعبير في الأول بارهبون وفي الثاني
 باتقون لأن الرهبة مقدّمة التقوى إذ التقوى رهبة معتبر فيها العمل بالمأمورات واجتناب
 المنهيات بخلاف مطلق الرهبة فإنها اعتقاد وانفعال دون عمل، ولأن الآية المتقدمة تأمرهم
 بالوفاء بالعهد فناسبها أن يخوفوا من نكثه، وهذه الآية تأمرهم بالإيمان بالقرآن الذي منعهم
 منه بقية دهايمهم فناسبها الأمر بأن لا يتقوا إلا الله . وللتقوى معنى شرعى تقدم في قوله
 تعالى « هدى للمتقين » وهى بذلك المعنى أخص لا محالة من الرهبة ولا أحسب أن ذلك
 هو المقصود هنا .

والقول في حذف ياء التكلم من قوله « فاتقون » نظير القول فيه من قوله « وإياي
 فارهبون » .

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٤٢

معطوف على جميع ما تقدم من قوله « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » إلى هنا لأن هاته الجمل كلها لم يقصد أن الواحدة منها معطوفة على التي قبلها خاصة بل على جميع ما تقدمها لا سيما قوله « ولا تلبسوا » فإنه مبدأ انتقال من غرض التحذير من الضلال إلى غرض التحذير من الإضلال بعد أن وسط بينهما قوله « ولا تشتروا بآياتي » كما تقدم . وإن شئت أن تجعل كلا معطوفا على الذي قبله فهو معطوف على الذي قبله بمد اعتبار كون ما قبله معطوفا على ما قبله كذلك، وهذا شأن الجمل المتعاطفة إلا إذا أريد عطف جملة على جملة معينة لكون الثانية أعلق بالتي والتمها دون البقية وذلك كمطف « وتكتموا الحق » على « لا تلبسوا » فإنها متعينة للمطف على تلبسوا لا محالة إن كانت معطوفة وهو الظاهر فإن كلا الأمرين منهي عنه والتفليظ في النهي عن الجمع بينهما واضح بالأولى . وجوزوا أن يكون وتكتموا الحق منصوبا بأن مضمرة بعد واو المية ويكون مناط النهي الجمع بين الأمرين وهو بعيد لأن كليهما منهي عنه والتفريق في المنهي يفيد النهي عن الجمع بالأولى بخلاف العكس اللهم إلا أن يقال إنما نهوا عن الأمرين معا على وجه الجمع تعريضا بهم بأنهم لا يراجا منهم أكثر من هذا الترك للبس وهو ترك اللبس المقارن لكتم الحق فإن كونه جريمة في الدين أمر ظاهر . أما ترك اللبس الذي هو بمعنى التحريف في التأويل فلا يراجا منهم تركه إذ لا طاعية في صلاحهم العاجل و (الحق) الأمر الثابت من حق إذا ثبت ووجب وهو ما تعترف به سائر النفوس بقطع النظر عن شهواتها . والباطل في كلامهم ضد الحق فإنه الأمر الزائل الضائع يقال بطل بطلا وبطولا وبطلانا إذا ذهب ضياعا وخسرا وذهب دمه بطلا أي هدر . والمراد به هنا ما تنبرأ منه النفوس وتزيله مادامت خلية عن غرض أو هوى وسمى باطلا لأنه فعل يذهب ضياعا وخسارا على صاحبه .

(واللبس) خلط بين متشابهات في الصفات يعسر معه التمييز أو يتعذر وهو يتعدى إلى الذي اختلط عليه بمدة حروف مثل على واللام والباء على اختلاف السياق الذي يقتضي معنى بعض تلك الحروف . وقد يعلق به ظرف عند . وقد يجرد عن التعليق بالحرف . ويُطلق على اختلاط المعاني وهو الغالب وظاهر كلام الراغب في مفردات القرآن أنه

هو المعنى الحقيقي ، ويقال في الأمر لبسةٌ بضم اللام أى اشتباه ، وفي حديث شق الصدر « نخت أن يكون قد التبس بي » أى حصل اختلاط في عقلي بحيث لا يعز بين الرؤية والخيال ، وفعله من باب ضرب وأما فعل لبس الثياب فمن باب سَمِعَ .

فلبس الحق بالباطل ترويج الباطل في صورة الحق . وهذا اللبس هو مبدأ التضليل والإلحاد في الأمور المشهورة فإن المزاويلين لذلك لا يروج عليهم قصد إبطالها فشان من يريد إبطالها أن يعمد إلى خلط الحق بالباطل حتى يوم أنه يريد الحق قال تعالى « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم » لأنهم أوهموهم أن ذلك قرابة إلى الأصنام . وأكثر أنواع الضلال الذى أدخل في الإسلام هو من قبيل لبس الحق بالباطل ، فقد قال الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة أننا كنا نعطى الزكاة للرسول ونطيعه فليس علينا طاعة لأحد بعده وهذا تقصص لجامعة الملة في صورة الأتفة من الطاعة لغير الله ، وقد قال شاعرهم وهو الخطيل بن أوس :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيالعباد الله مالاً بى بكر

وقد فعل ذلك الناقون على عثمان رضى الله عنه فلبسوا بأمور زينوها للعامة كقولهم رقى إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في المنبر وذلك استخفاف لأن الخليفين قبله نزل كل منهما عن الدرجة التي كان يجلس عليها سلفه . وسقط من يده خاتم النبي صلى الله عليه وسلم وذلك رمز على سقوط خلافته . وقد قالت الخوارج « لا حكم إلا لله » فقال على رضى الله عنه « كلمة حق أريد بها باطل » . وحرف أقوام آيات بالتأويل البعيد ثم سمو ذلك بالباطن وزعموا أن القرآن ظاهراً وباطناً فكان من ذلك لبس كثير ، ثم نشأت عن ذلك نحلة الباطنية . ثم تأويلات المتفلسفين في الشريعة كأصحاب الرسائل الملقبين بإخوان الصفاء . ثم نشأ تليس الواعظين والمرغبين والمرجئة فأخذوا بعض الآيات فأشاعوها وكتبوا ما يقيدها ويمارضها نحو قوله تعالى « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » فأوهوا الناس أن المغفرة عامة لكل ذنب وكل مذهب ولو لم يتب وأغضوا عن آيات الوعيد وآيات التوبة . وللتفادى من هذا الوصف الذى ذمه الله تعالى قال علماء أصول الفقه إن التأويل لا يصح إلا إذا دل عليه دليل قوى ، أما إذا وقع التأويل لما يُظن أنه دليل فهو

تأويل باطل فإن وقع بلا دليل أصلاً فهو لعب لا تأويل ولهذا نهى الفقهاء عن اقتباس القرآن في غير المعنى الذي جاء له كما قال ابن الرومي :

لئن أخطأتُ في مذهبي لك ما أخطأتُ في منعي
لقد أنزلتُ حاجاتي بواد غير ذي زرع

وقوله « وأنتم تعلمون » حال وهو أبلغ في النهي لأن صدور ذلك من العالم أشد ففعول (تعملون) محذوف دل عليه ما تقدم، أي وأنتم تعلمون ذلك أي لبسكم الحق بالباطل. قال الطيبي عند قوله تعالى الآتي « أفلا تعقلون » إن قوله تعالى « وأنتم تعلمون » غير منزل منزلة اللازم لأنه إذا نزل منزلة اللازم دل على أنهم موصوفون بالعلم الذي هو وصف كمال وذلك يتنافى قوله الآتي « أنأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » إلى قوله « أفلا تعقلون » إذ نفى عنهم وصف العقل فكيف يثبت لهم هنا وصف العلم على الإطلاق.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ 43

أمرٌ بالتلبس بشعار الإسلام عقب الأمر باعتقاد عقيدة الإسلام فقوله « وآمنوا بما أنزلت » الآية راجع إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وما هو وسيلة ذلك وما هو غايته فالوسيلة « اذكروا نعمتي - إلى - فارهبون » والمقصود « وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ». والغاية « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ». وقد تحلل ذلك نهى عن مفاسد تصدم عن المأمورات مناسبات للأوامر. فقوله « وأقيموا الصلاة » الخ أمر بأعظم القواعد الإسلامية بعد الإيمان والنطق بكلمة الإسلام، وفيه تعريض بحسن الظن بإجابتهم وامثالهم للأوامر السالفة وأنهم كملت لهم الأمور المطلوبة. وفي هذا الأمر تعريض بالمنافقين، ذلك أن الإيمان عقد قلبي لا يدل عليه إلا النطق، والنطق اللساني أمر سهل قد يفتحمه من لم يمتدّد إذا لم يكن ذا غلو في دينه فلا يتحرج أن ينطق بكلام يخالف الدين إذا كان غير معتقد مدلوله كما قال تعالى « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » الآية، فلذلك أمروا بالصلاة والزكاة لأن الأولى عمل يدل على تعظيم الخالق والسجود إليه وخلع الآلهة، ومثل هذا الفعل لا يفعله المشرك لأنه يغيظ آلهته بالفعل وبقول الله أكبر ولا يفعله الكفاي لأنّه يخالف عبادته. ولأن الزكاة إنفاق المال

وهو عزيز على النفس فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه إلا عن اعتقاد تقع أخرى لا سيما إذا كان ذلك المال ينفق على العدو في الدين، فلذلك عقب الأمر بالإيمان بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما لا يتجشهما إلا مؤمن صادق. ولذلك جاء في المنافقين «وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى» وقوله «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون» وفي الصحيح «أن صلاة العشاء أثقل صلاة على المنافقين». وفي هذه الآية دلائل للمالك على قتل من يمتنع من أداء الصلاة مع تحقق أنه لم يؤدها من أول وقت صلاة من الصلوات إلى خروجه إذا كان وقتا متفقا بين علماء الإسلام، لأنه جعل ذلك الامتناع مع عدم العذر دليلا على انتفاء إيمانه، لكنه لما كان مصرحا بالإيمان، قال مالك إنه يقتل حدا جمعا بين الأدلة ومنعا لذريعة خرم الملة. ويوشك أن يكون هذا دليلا لمن قالوا بأن تارك الصلاة كافر لولا الأدلة المعارضة. وفيها دليل لما فعل أبو بكر رضى الله عنه من قتال مانعي الزكاة وإطلاق اسم المرتدين عليهم؛ لأن الله جعل الصلاة والزكاة أمانة صدق الإيمان إذ قال لبنى إسرائيل «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» ولهذا قال أبو بكر لما راجمه عمر في عزمه على قتال أهل الردة حين منعوا إعطاء الزكاة وقال له: كيف تقاتلهم وقد قالوا لا إله إلا الله وقد قال رسول الله «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» فقال أبو بكر لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، فحصل من عبارته على إيجازها جواب فن دليل عمر.

وقوله «واركعوا مع الراكعين» تأكيد لمعنى الصلاة لأن لليهود صلاة لا ركوع فيها فلنكى لا يقولوا إننا نقيم صلاتنا دفع هذا التوهم بقوله «واركعوا مع الراكعين».

والركوع طأطأة وانحناء الظاهر لقصد التعظيم أو التبجيل. وقد كانت العرب تفعله لبعض كبرائهم. قال الأعشى:

إذا ما أتانا أبو مالك رَكَعْنَا له وَخَلَعْنَا الْعِمَامَةَ

(وروى سجدنا له وخلصنا العماراء، والعمار هو العمامة).

وقوله «مع الراكعين» إيماء إلى وجوب مماثلة المسلمين في أداء شعائر الإسلام المفروضة فالمراد بالراكعين المسلمون وفيه إشارة إلى الإتيان بالصلاة بأركانها وشرائطها.

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ 44

اعتراض بين قوله، وأقيموا الصلاة وقوله، واستعينوا بالصبر والصلاة ووجه المناسبة في وقوعه هنا أنه لما أمرهم بفعل شعائر الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذيل ذلك بقوله « واركعوا مع الراكعين » ليشير إلى أن صلاتهم التي يفعلونها ، أصبحت لا تغني عنهم ، ناسب أن يزداد لذلك أن ما يأمر به دينهم من البر ليسوا قائلين به على ما ينبغي ، فجاء بهذا الاعتراض ، وللتنبية على كونه اعتراضا لم يقرن بالواو لئلا يتوهم أن المقصود الأصلي التحريض على الأمر بالبر وعلى ملازمته ، والغرض من هذا هو النداء على كمال خسارهم ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه حتى صاروا يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها ليستحقوا بذلك ما يعرضون عليه من مراتب ورواتب فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون بها الناس .

والمخاطب بقوله تأمرون، جميع نبي إسرائيل الذين خطبوا من قبل فيقتضي أن هذه الحالة ثابتة لجميعهم أي أن كل واحد منهم تجده يصرح بأوامر دينهم ويشيها بين الناس ولا يمثلها هو في نفسه ، ويجوز أن يكون المقصود بهذا الخطاب فريقا منهم فإن الخطاب الموجه للجماعات والقبائل يأخذ كل فريق ما هو حظه من ذلك الخطاب ، فيكون المقصود أحبارهم وعلماءهم وهم أخص بالأمر بالبر ، فعلى الوجه الأول يكون المراد بالناس إما الشركيين من العرب فإن اليهود كانوا يذكرون لهم ما جاء به دينهم والعرب كانوا يحفلون بسماع أقوالهم كما قال تعالى « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » وإما أن يكون المراد من الناس من عدا الأمر كما تقول أفعل كما يفعل الناس وكقوله « إن الناس قد جمعوا لكم » أي أيأمر الواحد غيره وينسى نفسه، وعلى الوجه الثاني يكون المراد بالناس العامة من أمة اليهود أي كيف تأمرون أتباعكم وعامتكم بالبر وتنسون أنفسكم؟ ففيه تنديد بحال أحبارهم أو تعريض بأنهم يعلمون أن ما جاء به رسول الإسلام هو الحق فهم يأمرون أتباعهم بالمواعظ ولا يطلبون نجاة أنفسهم .

والاستفهام هنا للتوبيخ لعدم استقامة الحل على الاستفهام الحقيقي فاستعمل في التوبيخ

مجازا بقرينة المقام وهو مجاز مرسل لأن التوييح يلزم الاستفهام لأن من يأتي ما يستحق التوييح عليه من شأنه أن يتساءل الناس عن ثبوت الفعل له ويتوجهون إليه بالسؤال فينتقل من السؤال إلى التوييح ويقول منه معنى التعجيب من حال الموجج وذلك لأن الحالة التي وبخوا عليها حالة عجيبة لما فيها من إرادة الخير للغير وإهمال النفس منه لتحقيق بكل سامع أن يجب منها ، وليس التعجب بل لازم لمعنى التوييح في كل موضع بل في نحو هذا مما كان فيه الموجج عليه غريبا غير مألوف من العقلاء فإذا استعمل الاستفهام في لازم واحد فكونه مجازا مرسلا ظاهر وإذا استعمل في لازمين يتولد أحدهما من الآخر أو متقاربين فهو أيضا مجاز مرسل واحد لأن تعدد اللوازم لا يوجب تعدد العلاقة ولا تكرار الاستعمال لأن المعاني المجازية مستفادة من العلاقة لا من الوضع فتعدد المجازات للفظ واحد أوسع من استعمال المشترك وأياما كان فهو مجاز مرسل على ما اختاره السيد في حاشية الطول في باب الإنشاء علاقته للزوم وقد تردد في تعيين علاقته التفراني وقال إنه مما لم يحم أحد حوله .

والبر بكسر الباء الخير في الأعمال في أمور الدنيا وأمور الآخرة والمعاملة ، وفعله في الغالب من باب علم إلا البر في الين فقد جاء من باب علم وباب ضرب ، ومن الأقوال الماثورة البر ثلاثة: بر في عبادة الله وبر في مراعاة الأقارب وبر في معاملة الأجانب، وذلك تبع للوفاء بسمة الإحسان في حقوق هذه الجوانب الثلاثة .

والنسيان ذهاب الأمر المعلوم من حافظة الإنسان لضعف الذهن أو الغفلة ويرادفه السهو وقيل السهو الغفلة اليسيرة بحيث يتنبه بأقل تنبيه، والنسيان زواله بالكلية وبعض أهل اللغة فسر النسيان بمطلق الترك وجعله صاحب الأساس مجازا وهو التحقيق وهو كثير في القرآن . والنسيان هنا مستعار للترك عن عمد أو عن التهاون بما يذكر المرء في البر على نحو ما .

قيل في قوله تعالى «الذين هم عن صلاتهم ساهون» أي وتتركون أنفسكم من ذلك أي من أمرها بالبر أو وتنسون أن تأمروا أنفسكم بالبر وفي هذا التقدير يبقى النسيان على حقيقته لأنهم لما طال عليهم الأمد في التهاون بالتخلق بأمور الدين والاجترأ على تأويل الوحي بما يمليه عليهم الهوى بغير هدى صاروا ينسون أنهم متلبسون بمثل ما ينهون عنه فإذا تصدوا إلى مواعظ قومهم أو الخطابة فيهم أو أمروهم بالمعروف ونهوه عن المنكر كانوا ينهونهم عن مدام قد تلبسوا بأمثالها إلا أن التعود بها أنساهم إياها فأنساهم أمر أنفسهم بالبر لنسيان سببه

وقد يرى الإنسان عيب غيره لأنه يشاهده ولا يرى عيب نفسه لأنه لا يشاهدها ولأن المادة تنسبه حاله . ودواء هذا النسيان هو محاسبة النفس فيكون البر راجعا إلى جميع ما تضمنته الأوامر السابقة من التفاصيل فهم قد أمروا غيرهم بتفاصيلها ونسوا أنفسهم عند سماعها وذلك يشمل التصديق بدين الإسلام لأنه من جملة ما تضمنته التوراة التي كانوا يأمرون الناس بما فيها .

وجملة « وتنسوا أنفسكم » يجوز أن تكون حالا من ضمير « تأمرون » أو يكون محل التوبيخ والتعجب هو أمر الناس بالبر بقيد كونه في حال نسيان ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على « تأمرون » وتكون هي المقصودة من التوبيخ والتعجب ويجعل قوله « تأمرون الناس » تمهيدا لها على معنى أن محل الفطاعة الموجبة للنهي هي مجموع الأمرين . وبهذا تعلم أنه لا يتوهم قصد النهي عن مضمون كلا الجملتين إذ القصد هو التوبيخ على اتصاف بحالة فظيعة ليست من شيم الناصحين لا قصد تحريم فلا تقع في حيرة من تحير في وجه النهي عن ذلك ولا في وهم من وهم فقال إن الآية دالة على أن العاصي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر كما نقل عنهم الفخر في التفسير فإنه ليس المقصود نهى ولا تحريم وإنما المقصود تفضيع الحالة ويدل لذلك أنه قال في تذييلها « أفلا تعقلون » ولم يقل « أفلا تتقون » أو نحوه .

والأنفس جمع نفس ، بسكون الفاء وهي مجموع ذات الإنسان من الهيكل والروح كما هنا وباعتبار هذا التركيب الذي في الذات اتسع إطلاق النفس في كلام العرب تارة على جميع الذات كما في التوكيد نحو جاء فلان نفسه وقوله « النفس بالنفس » وقوله « تقتلون أنفسكم » وتارة على البعض كقول القائل أنكرت نفسي وقوله « وتنسوا أنفسكم » . وعلى الإحساس الباطني كقوله « تعلم ما في نفسي » أي ضميري . وتطلق على الروح الذي به الإدراك « إن النفس لأمارة بالسوء » وسيأتي لهذا زيادة إيضاح عند قوله تعالى « يوم تأتي كل نفس » في سورة النحل .

وقوله « وأنتم تتلون الكتاب » جملة حالية قيد بها التوبيخ والتعجب . لأن نسيان أنفسهم يكون أغرب وأفظع إذا كان معهم أمران يقلعانه، وهما أمر الناس بالبر، فإن شأن الأمر بالبر

أن يذكر الأمر حاجة نفسه إليه إذا قدر أنه في غفلة عن نفسه ، وتلاوة الكتاب أى التوراة يعرفون فيها على الأوامر والنواهي من شأنه أن تذكرهم مخالفة حالهم لما يتلون .

وقوله « أفلا تعقلون » استفهام عن انتفاء تعقلهم استفهاما مستعملا في الإنكار والتوبيخ نزلوا منزلة من انتفى تعقله فأنكر عليهم ذلك، ووجه المشابهة بين حالهم وحال من لا يعقلون أن من يستمر به التغفل عن نفسه وإهمال التذكر في صلاحها مع مصاحبة شيطان يذكرانه ، قارب أن يكون منفياً عنه التعقل .

وفعل « تعقلون » منزل منزلة اللازم أوهو لازم وفي هذا نداء على كمال غفلتهم واضطراب حالهم . وكون هذا أمراً قبيحاً فظيماً من أحوال البشر مما لا يشك فيه عاقل .

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁴⁵ 46

خطاب لبنى إسرائيل بالإرشاد إلى ما يعينهم على التخلق بجميع ما عده لهم من الأوامر والنواهي الراجعة إلى التحلى بالمحامد والتخلى عن المذمات ، له أحسن وقع من البلاغة فإنهم لما خطبوا بالترغيب والترهيب والتمنيى والتشويه ظن بهم أنهم لم يبق في نفوسهم مسلك للشيطان ولا مجال للخذلان وأنهم أنشأوا يتحفزون للامتنال والالتساء إلا أن ذلك الإلف القديم ، يثقل أرجلهم في الخطو إلى هذا الطريق القويم ، فوصف لهم الدواء الذى به الصلاح ورش بقادمتى الصبر والصلاة منهم الجناح . فالأمر بالاستعانة بالصبر لأن الصبر ملاك الهدى فإن مما يصد الأمم عن اتباع دين قويم إلفهم بأحوالهم القديمة وضعف النفوس عن تحمل مفارقتها فإذا تدرعوا بالصبر سهل عليهم اتباع الحق . وأما الاستعانة بالصلاة فالمراد تأكيد الأمر بها الذى فى قوله « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وهذا إظهار لحسن الظن بهم وهو طريق بديع من طرق الترغيب . ومن المفسرين من زعم أن الخطاب فى قوله « واستعينوا » إلخ للمسلمين على وجه الانتقال من خطاب إلى خطاب آخر ، وهذا وهم لأن وجود حرف العطف ينادى على خلاف ذلك ولأن قوله « إلا على الخاشعين » مراد به « إلا على المؤمنين » حسبما بينه قوله « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم » الآية اللهم إلا أن

يكون من الإظهار في مقام الإضمار وهو خلاف الظاهر مع عدم وجود الداعي . والذي غرم بهذا التفسير توهم أنه لا يؤمر بأن يستعين بالصلاة من لم يكن قد آمن بعد وأى عجب في هذا؟ وقريب منه آتفاً قوله تعالى «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين» خطاباً لبني إسرائيل لا محالة. والصبر عرفه الغزالي في إحياء علوم الدين بأنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة وهو تعريف خاص بالصبر الشرعى صالح لان يكون تفسيراً للآية لأنها في ذكر الصبر الشرعى، وأما الصبر من حيث هو الذى هو وصف كمال فهو عبارة عن احتمال النفس أمراً لا يلائمها إما لأن مآله ملائم ، أو لأن عليه جزاء عظيمًا فأشبه مآله ملائم ، أولعدم القدرة على الانتقال عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر فالصبر احتمال وثبات على مالا يلائم ، وأقل أنواعها كان عن عدم المقبرة ولذا ورد فى الصحيح «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» أى الصبر الكامل هو الذى يقع قبل العلم بأن التفتى عن ذلك الأمر غير ممكن وإلا فإن الصبر عند اعتقاد عدم إمكان التفتى إذا لم يصدر منه ضجر وجزع هو صبر حقيقة فصيفة الحصر فى قوله إنما الصبر حصر ادعائى للكمال كما فى قولهم أنت الرجل .

والصلاة أريد بها هنا معناها الشرعى فى الإسلام وهى مجموع محامد الله تعالى قولاً وعملاً واعتقاداً فلا جرم كانت الاستعانة بالمأمور بها هنا راجعة لأمرين الصبر والشكر وقد قيل إن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر كما فى الإحياء وهو قول حسن ، ومعظم الفضائل ملاكها الصبر إذ الفضائل تنبعث عن مكارم الخلال ، والمكارم راجعة إلى قوة الإرادة وكبح زمام النفس عن الإسامة فى شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والفضيية عما لا يفيد كمالاً أو عما يورث نقصاناً فكان الصبر ملاك الفضائل فما التحلم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل فى الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر . ومما يؤثر عن على رضى الله عنه : الشجاعة صبر ساعة . وقال زفر بن الحارث الكلابى يمتد عن انهزام قومه :

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبراً

وحسبك بمنية الصبر أن الله جملة مكمل سبب الفوز فى قوله تعالى « والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقال هنا « واستمعينوا بالصبر والصلاة » . قال الغزالي : ذكر الله الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ، فقال عز من قائل

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » . وقال « وتمت كلمة ربك الحسنى على نبي إسرائيل بما صبروا » وقال « إن الله مع الصابرين » اه .

وأنت إذا تأملت وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر فإن فيه مخالفة النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو منيب عن الحس الذي اعتادته ، وبوجوب طاعتها واحداً من جنسها لا تراه يفوقها في الخلقة وفي مخالفة عادة آبائها وأقوامها من الديانات السابقة . فإذا صار الصبر خلقاً لصاحبه هون عليه مخالفة ذلك كله لأجل الحق والبرهان فظهر وجه الأمر بالاستعانة على الإيمان وما يتفرع عنه بالصبر فإنه خلق يفتح أبواب النفوس لقبول ما أمروا به من ذلك .

وأما الاستعانة بالصلاة فلأن الصلاة شكر والشكر يذكر بالنعمة فيبعث على امتثال النعم على أن في الصلاة صبراً من جهات في مخالفة حال المرء المعتادة ولزومه حالة في وقت معين لا يسوغ له التخلف عنها ولا الخروج منها على أن في الصلاة سرّاً إلهياً لعله ناشئ عن تجلي الرضوان الرباني على المصلي فلذلك نجد للصلاة سرّاً عظيماً في تجلية الأحران وكشف غم النفس وقد ورد في الحديث « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه (برأى) وباء موحدة أي نزل به) أمر فزع إلى الصلاة » وهذا أمر يجده من راقبه من المصلين وقال تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » لأنها تجمع ضرورياً من العبادات . وأما كون الشكر من حيث هو معيناً على الخير فهو من مقتضيات قوله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » . وقوله « وإنها لكبيرة » اختلف المفسرون في معاد ضمير إنها فقيل عائذ إلى الصلاة والمعنى إن الصلاة تصعب على النفوس لأنها سجن للنفس وقيل الضمير للاستعانة بالصبر والصلاة المأخوذة من استمعينوا على حد اعدلوا هو أقرب للتقوى . وقيل راجع إلى الأمور المتقدمة من قوله تعالى « اذكروا نعمتي - إلى قوله - واستمعينوا بالصبر والصلاة » وهذا الأخير مما جوزه صاحب الكشف ولعله من مبتكراته وهذا أوضح الأقوال وأجمعها والمحمل مرادة .

والمراد بالكبيرة هنا الصعبة التي تشق على النفوس ، وإطلاق الكبر على الأمر الصعب والشاق مجاز مشهور في كلام العرب لأن المشقة من لوازم الأمر الكبير في حمله أو تحصيله قال تعالى « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » وقال « وإن كان كبر عليك إعراضهم » الآية . وقال « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » .

وقوله «إلا على الخاشعين» أي الذين اتصفوا بالخشوع، والخشوع لئنه هو الانزواء والانخفاض
قال النابغة :

* وَنُؤَى كِحِذْمِ الْحَوْضِ أَلَمْ خَاشِعِ *

أي زال ارتفاع جوانبه . والتذلل خشوع، قال جعفر بن عبلة الحارثي :

فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم لشيء ولا أني من الموت أفرق

وهو مجاز في خشوع النفس وهو سكون وانقباض عن التوجه إلى الإيابة أو المصيان .
والمراد بالخاشع هنا الذي ذلل نفسه وكسر سورتها وعودها أن تطمئن إلى أمر الله وتطلب
حسن العواقب وأن لا تغتر بما ترينه الشهوة الحاضرة فهذا الذي كانت تلك صفته قد استعادت
نفسه لقبول الخير . وكان المراد بالخاشعين هنا الخائفون الناظرون في العواقب فتخف عليهم
الاستعانة بالصبر والصلاة مع ما في الصبر من القمع للنفس وما في الصلاة من التزام أوقات
معينة وطهارة في أوقات قد يكون للعبد فيها اشتغال بما يهوى أو بما يحصل منه مالا
أولذة . وقريب منه قول كثير :

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطئت يوماً لها النفس ذلت

وأحسب أن مشروعية أحكام كثيرة قصد الشارع منها هذا المعنى وأعظمها الصوم .
ولا يصح حمل الخشوع هنا على خصوص الخشوع في الصلاة بسبب الحال الحاصل في النفس
باستشعار العبد الوقوف بين يدي الله تعالى حسبما شرحه ابن رشد في أول مسألة من كتاب
الصلاة الأول من البيان والتحصيل وهو المعنى المشار إليه بقوله تعالى « قد أفلح المؤمنون
الذين هم في صلاتهم خاشعون » ، فإن ذلك كله من صفات الصلاة وكال المصلي فلا يصح
كونه هو الخشوع لكلفة الصلاة على المستعدين بالصلاة كما لا يخفى .

وقد وصف تعالى الخاشعين بأنهم الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون
وهي صلة لها مزيد اتصال بمعنى الخشوع ففيها معنى التفسير للخاشعين ومعنى بيان منشأ
خشوعهم ، فدل على أن المراد من الظن هنا الاعتقاد الجازم وإطلاق الظن في كلام

العرب على معنى اليقين كثير جداً ، قال أوس بن حجر يصف صياداً رى حمار وحش
بسهم^(١) :

فأرسله مستيقن الظن أنه مغالط ما بين الشرا سيف جائف
وقال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بالقيُّ مدجج سراتهم بالفارسي المرسج
فهو مشترك بين الاعتقاد الجازم وبين الاعتقاد الراجح والملاقاة والرجوع هنا مجازان
عن الحساب والحشر أو عن الرؤية والثواب؛ لأن حقيقة اللقاء - وهو تقارب الجسمين، وحقيقة
الرجوع وهو الانتهاء إلى مكان خرج منه المنهى - مستحيلة هنا . والمقصود من قوله « وإنها
لكبيرة » إلخ التعريض بالثناء على المسلمين ، وتحريض بني إسرائيل على التهمم بالاعتداء
بالمؤمنين وعلى جعل الخطاب في قوله « واستمعينوا » للمسلمين يكون قوله « وإنها لكبيرة »
تعريضاً بغيرهم من اليهود والمنافقين .

والملاقاة مفاعلة من لقي ، واللقاء الحضور كما تقدم في قوله « فلتلق آدم من ربه كلمات » والمراد
هنا الحضور بين يدي الله للحساب أى الذين يؤمنون بالبعث ، وسيأتى تفصيل لها عند قوله تعالى
« واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه » في هذه السورة ، وفي سورة الأنعام عند قوله تعالى « قد
خسر الذين كذبوا بقاء الله » .

(١) أوس بن حجر - بجاء مهمله وجيم مفتوحين ، ويغلط من يضم حاءه ويسكن جيمه - وهو من
فحول شعراء بني تميم في الجاهلية وكان فعل مضر قبل النافذة وزهير ، فلما نبغ زهير والنافذة أخلاه .
وهذا البيت من قصيدة أولها :

تسكّر بعمى من أميمة صائف فبرك فأعلى تولب فالمخالف
وصائف وبرك وتولب والمخالف أسماء بقاء ، وقد ذكر في أثنائها وصف الصياد لحمار الوحش فقال:
فأمهله حتى إذا أن كأنه معاطى يد من جمعة الماء غارف
فسير سهما راشه بمنابك لؤام ظهار فهو أعجف شائف

(يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا تَعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) ٤٧

أعيد خطاب بني إسرائيل بطريق النداء مماثلاً لما وقع في خطابهم الأول لقصد التكرير للاهتمام بهذا الخطاب وما يترتب عليه ، فإن الخطاب الأول قصد منه تذكيرهم بنعم الله تعالى ليكون ذلك التذكير داعية لامتنال مايرد إليهم من الله من أمر ونهي على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، غير أنه لما كان الغرض المقصود من ذلك هو الامتنال كان حق البلاغة أن يفضي البليغ إلى المقصود ولا يطيل في المقدمة ، وإنما يلم بها إلاماً ويشير إليها إجمالاً تنبيهاً بالمبادرة إلى المقصود على شدة الاهتمام به ولم يزل الخطباء والبلغاء يمدون مثل ذلك من نبأه الخطيب ويذكرونه في مناقب وزير الأندلس محمد بن الخطيب السلماي إذ قال عند سفارته عن ملك غرناطة إلى ملك المغرب ابن عنان أبياته المشهورة التي ارتجلها عند الدخول عليه طالعها :

خليفة الله ساعدَ القدرُ عَلاك ملاح في الدجا قر

ثم قال :

والناس طرا بأرض أندلس لولاك ما وطنوا ولا عمروا

وقد أهمتهم تقوسهم فوجهوني إليك واعتظروا

فقال له أبو عنان ما ترجع إليهم إلا بجميع مطالبهم وأذن له في الجلوس فسلم عليه . قال القاضي أبو القاسم الشريف ^(١) - وكان من جملة الوفد - لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا .

فكان الإجمال في المقدمة قضاء لحق صدارتها بالتقديم وكان الإنشاء إلى المقصود قضاء لحقه في العناية ، والرجوع إلى تفصيل النعم قضاء لحقها من التعداد فإن ذكر النعم تمجيد للنعم وتكريم للنعم عليه وعظة له ولمن ييلفهم خبر ذلك تبعث على الشكر .

(١) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني السبكي ثم الفرطاني قاضي غرناطة التوفي سنة ٧٦٠

وله المرح المشهور على مقصورة حازم القرطاجني .

فللتكرير هنا نكتة جمع الكلامين بعد تفريقهما ونكتة التعداد لما فيه إجمال معنى النعمة .

والنعمة هنا مراد بها جميع النعم لأنَّه جنس مضاف فله حكم الجمع كما في قوله تعالى « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » .

وقوله تعالى « وأنى فضلة لكم على العالمين » عطف على « نعمتي »، أى واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين وهذا التفضيل نعمة خاصة فمطفه. على نعمتي عطف خاص على عام وهو مبدأ التفصيل النعم وتعدادها وربما كان تعداد النعم مغنياً عن الأمر بالطاعة والامتثال لأن من طبع النفوس الكريمة امتثال أمر المنعم لأن النعمة تورث المحبة. وقال منصور الوراق :

تمصى الإله وأنت تُظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حُبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يُحب مُطيع

وهذا التذكير مقصود به الحث على الاتسام بما يناسب تلك النعمة ويستبقى ذلك الفضل .

ومعنى العالمين تقدم عند قوله الحمد لله رب العالمين، والمراد به هنا صنف من المخلوقات ولا شك أن المخلوقات تصنف أصنافاً متنوعة على حسب تصنيف التكلم أو السامع، فالعالمون في مقام ذكر الخلق هم أصناف المخلوقات كالإنس والدواب والطيور والحوت . والعالمون في مقام ذكر فضائل الخلق أو الأمم أو القبائل يراد بها أصناف تلك المتحدث عنها فلا جرم أن يكون المراد من العالمين هنا هم الأمم الإنسانية فيعم جميع الأمم لأنه جمع معرف باللام لكن عمومها هنا عرفي يختص بأمم زمانهم كما يختص نحو جمع الأمير الصاغة بصاغة مكانه أى بلده ويختص أيضاً بالأمم المعروفة كما يختص جمع الأمير الصاغة بالصاغة المتخذين الصياغة صناعة دون كل من يعرف الصياغة وذلك كقولك هو أشهر العلماء وأنجب التلامذة، فالآية تشير إلى تفضيل بنى إسرائيل المخاطبين أو سلفهم على أُمم عصرهم لا على بعض الجماعات الذين كانوا على دين كامل مثل نصارى نجران ، فلا علاقة له بمسألة تفضيل الأنبياء على الملائكة بحال ولا التفات إلى ما يشذ في كل أمة أو قبيلة من الأفراد فلا يلزم تفضيل كل فرد من بنى إسرائيل على أفراد من الأمم بلفوا مرتبة صالحة أو نبوة لأن التفضيل في مثل هذا يراد به تفضيل المجموع، كما تقول قريش أفضل من طيء وإن كان في طيء حاتم الجواد .

فكذلك تفضيل بنى إسرائيل على جميع أمم عصرهم وفي تلك الأمم أمم عظيمة كالعرب والفرس والروم والهند والصين وفيهم العلماء والحكماء ودعاة الإصلاح والأنبياء لأنه تفضيل المجموع على المجموع في جميع المصور ومعنى هذا التفضيل أن الله قد جمع لهم من الحماد التي تنصف بها القبائل والأمم ما لم يجمعه لغيرهم وهي : شرف النسب . وكمال الخلق . وسلامة العقيدة . وسعة الثرية . والحزبة . والشجاعة . وعناية الله تعالى بهم في سائر أحوالهم . وقد أشارت إلى هذا آية « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يأت أحدكم من العالمين » وهذه الأوصاف ثبتت لأسلافهم في وقت اجتماعها وقد شاع أن الفضائل تعود على الخلف بحسن السمعة وإن كان مخاطبون يومئذ لم يكونوا بحال التفضيل على العالمين ولكنهم ذكروا بما كانوا عليه فإن فضائل الأمم لا يلاحظ فيها الأفراد ولا المصور . ووجه زيادة الوصف بقوله التي أنعمت عليكم في أختها الأولى .

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ 48

عطف التحذير على التذكير فإنه لما ذكرهم بالنعمة وخاصة تفضيلهم على العالمين في زمانهم وكان ذلك منشأ غرورهم بأنه تفضيل ذاتي فتوهوا أن التقصير في العمل الصالح لا يضرهم فعب بالتحذير من ذلك .

والمراد بالتقوى هنا معناها المتعارف في اللغة لا المعنى الشرعى ، وانتصاب يوما على المفعولية به وليس على الظرفية ولذلك لم يقرأ بغير التنوين .

والمراد باتقائه اتقاؤه من حيث ما يحدث فيه من الأهوال والعذاب فهو من إطلاق اسم الزمان على ما يقع فيه كما تقول مكان مخوف .

وتجزى مضارع جزى بمعنى قضى حقا عن غيره وهو متعد بمن إلى أحد مفعوليه فيكون شيئا مفعوله الأول، ويجوز أيضا أن يكون مفعولا مطلقا إذا أريد شيئا من الجزاء ويكون المفعول محذوفا .

وجملة لا تجزى نفس صفة ليوما وكان حق الجملة إذا كانت خبراً أو صفة أو حالا أو صلة أن تشتمل على ضمير ما أجريت عليه ، ويكثر حذفه إذا كان منصوباً أو ضميراً مجروراً فيحذف مع جاره ولا سيما إذا كان الجار معلوماً لكون متعلقه الذى فى الجملة لا يتعدى الأبحار معين كما هنا تقديره فيه وإنما جاز حذفه لأن المحذوف فيه متمين من الكلام وقد يحذف لقريئة كما فى حذف ضمير الموصول إذا جر بما جربه الموصول. ونظير هذا الحذف قول العريان الجرمى من جرم طى :

فقلت لها لا والذي حج حاتم أخونك عهداً إننى غير خوآن
تقديره حج حاتم إليه .

وتنكير النفس فى الموضعين وهو فى حيز النفي يفيد عموم النفوس أى لا يغنى أحد كائناً من كان فلا تغنى عن الكفار آلهتهم ولا صلحاؤهم على اختلاف عقائدهم فى غناء أولئك عنهم . فالقصد نفي غنائهم عنهم بأن يحولوا بينهم وبين عقاب الله تعالى، أى نفي أن يجزوا عنهم جزاء يمنح الله عن نواهم بسوء رعياء لأوليائهم . فالمراد هنا الغناء بجرمة الشخص وتوقع غضبه وهو غناء كفاء العدو الذى يخافه العدو على ما هو معروف عند الأمم يومئذ من اتقائهم بطش مولى أعدائهم وإحجامهم عما يوجب غضبه تقية من مكروه أو ضرره أوحمرمان نفعه قال السموأل :

وما ضربنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل
وقال العنبرى :

لو كنت من مازن لم تستبج إلي بنو الشقيقة من ذهل بن شيبان

وبهذا يتبين أن مفاد قوله لا تجزى نفس عن نفس شيئاً مغاير لمفاد ما ذكر بعده بقوله «ولا يقبل منها شفاعَةٌ الخ فقوله لا تجزى نفس عن نفس شيئاً هو بمعنى قوله تعالى «يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله» .

وقوله «ولا يقبل منها شفاعَةٌ ولا يؤخذ منها عدل» الضميران عائدان للنفس الثانية المجرورة بمن أى لا يقبل من نفس شفاعَةٌ تأتى بها ولا عدل تماض به لأن المقصود الأصلى إبطال عقيدة تنصل المجرم من عقاب الله ما لم يشأ الله ؛ ليكون الضمير فى قوله ولا هم ينصرون .

راجعا إلى مرجع الضميرين قبله . وهذا التأنيس يستتبع تحقير من توهّمهم الكفرة شفعا وإبطال ما زعموه مغنيا عنهم من غضب الله من قرايين قربوها ومجادلات أعدوها وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله . يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ومن المفسرين من فسر قوله ولا تجزى نفس عن نفس شيئا بما يعم الأجزاء فجعل ما هو مذكور بعده من عطف الخاص على العام ولذلك قال الشيخ ابن عطية حصرته هذه الآية المعاني التي اعتاد بها بنو آدم في الدنيا فإن الواقع في شدة لا يتخلص إلا بأن يُشفع له أو يفتدى أو ينصر اه والنبي جمعها لحالة أن يتجنب الناس إيقاعه في شدة اتقاء لمواليه، وما فسرنا به أُرشق . وقد جمع كلام شيوخ بنى أسد مع أمرى القيس حين كلوه في دم أبيه حاجر فقالوا : فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث: أما إن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا فقدناه إليك بنسبه تذهب مع شفرات حسامك بياق قصرته . أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها فهي ألوف . وإما وادعتنا إلى أن تضع الحوامل فتُسدل الأزر وتعتقد الخمر فوق الرايات اه .

وقرأ الجمهور ولا يقبل بياء تحتية ياء المضارع المسند إلى مذكر لمناسبة قوله بعده ولا يؤخذ منها عدل ، ويجوز في كل مؤنث اللفظ غير حقيقى التأنيث أن يعامل معاملة المذكر لأن صيغة التذكير هي الأصل في الكلام فلا تحتاج إلى سبب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بمشناة فوقية رعيّا لتأنيث لفظ شفاعة .

والشفاعة : السمي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضرر سواء كانت الوساطة بطلب من المنتفع بها أم كانت بمجرد سمي المتوسط ويقال لطالب الشفاعة مستشفع .

وهي مشتقة من الشفع لأن الطالب أو النائب يأتي وحده فإذا لم يجد قبولا ذهب فأتى بمن يتوسل به فصار ذلك الثاني شافعا للأول أى مصيره شفعا . والعدل بفتح العين العوض والفداء ، سمي بالمصدر لأن الفادى يعدل المفدى بمثله في التهمة أو العين ويسويه به ، يقال عدل كذا بكذا أى سواه به . والنصر هو إغاثة الخصم في الحرب وغيره بقوة الناصر وغلبته . وإنما قدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم يحقق زيادة على ما استفيد من نفي الفعل مع إسناده المجهول كما أثرنا إليه آنفا .

وقد كانت اليهود تتوهم أو تعتقد أن نسبتهم إلى الأنبياء وكرامة أجدادهم عند الله تعالى مما يجعلهم في أمن من عقابه على العصيان والتمرد كما هو شأن الأمم في إبان جهالتها وانحطاطها

وقد أشار لذلك قوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم » .

وقد تمسك المعتزلة بهذه الآية للاحتجاج لقولهم بنفى الشفاعة في أهل الكبار يوم القيامة لعموم نفس في سياق النفي المقتضى أن كل نفس لا يقبل منها شفاعة وهو عموم لم يرد ما يخصه عندهم . والمسألة فيها خلاف بين المعتزلة وأصحاب الأشعرى .

واتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة يوم القيامة للطائفتين والتائبين لرفع الدرجات ، لم يختلف في ذلك الأشاعرة والمعتزلة فهذا اتفاق على تخصيص العموم ابتداء . والخلاف في الشفاعة لأهل الكبار فمندنا تقع الشفاعة لهم في حط السيئات وقت الحساب أو بعد دخول جهنم لما اشتهر من الأحاديث الصحيحة في ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة وقد ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي » وغير ذلك . قال القاضي أبو بكر الباقلاني : إن الأحاديث في ذلك بلغت مبلغ التواتر المعنوي كما أشار إليه القرطبي في نقل كلامه وعند المعتزلة لا شفاعة لأهل الكبار لوجوه منها الآيات الدالة على عدم نفع الشفاعة كهاته الآية . وقوله « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » . « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » . « ما للظالمين من حميم ولا شفيع » قالوا والمعصية ظلم . ومنها قوله تعالى « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » وصاحب الكبيرة ليس بمرتضى . ومنها قوله « فاغفر للذين تابوا » . والجواب عن الجميع أن محل ذلك كله في الكافرين جمعاً بين الأدلة وأن قوله « لمن ارتضى » يدل على أن هنالك إذناً في الشفاعة كما قال « إلا لمن أذن له » وإلا لكان الإسلام مع ارتكاب بعض المعاصي مساوياً للكفر وهذا لا ترضى به حكمة الله وأما قوله « فاغفر للذين تابوا » فدعاء لا شفاعة .

والظاهر أن الذى دعا المعتزلة إلى إنكار الشفاعة منافعها لخلود صاحب الكبيرة في العذاب الذى هو مذهب جمهورهم الذين فسروا قول واصل بن عطاء بالمنزلة بين المنزلتين بمعنى إعطاء المعاصي حكم المسلم في الدنيا وحكم الكافر في الآخرة ولا شك أن الشفاعة تنافي هذا الأصل فما تمسكوا به من الآيات إنما هو لقصد التأييد ومقابلة أدلة أهل السنة بأمثالها .

ولم نر جوابهم عن حديث الشفاعة وأحسب أنهم يجهلون عنه بأن أخبار الآحاد لا تنقض أصول الدين ولذلك احتاج القاضي أبو بكر إلى الاستدلال بالتواتر المعنوي . والحق أن المسألة أعلق بالفروع منها بالأصول لأنها لا تتعلق بذات الله ولا بصفاته ولو جاريناها في القول بوجوب إثابة المطيع وتعذيب العاصي ، فإن الحكمة تظهر بدون الخلود وبحصول الشفاعة بعد المكث في العذاب ، فلما لم نجد في إثبات الشفاعة ما ينقض أصولهم فنحن نقول لهم : لم يبق إلا أن هذا حكم شرعي في تقدير تعذيب صاحب الكبيرة غير الثائب وهو يتلقى من قبل الشارع وعليه فيكون تحديد العذاب بمدة معينة أو إلى حصول عفو الله أو مع الشفاعة ، ولعل الشفاعة تحصل عند إرادة الله تعالى إنهاء مدة التعذيب . وبمد فمن حق الحكمة أن لا يستوى الكافرون والعصاة في مدة العذاب ولا في مقداره ، فهذه قولة ضعيفة من أقوالهم حتى على مراعاة أصولهم ، وقد حكى القاضي أبو بكر الباقلاني إجماع الأمة قبل حدوث البدع على ثبوت الشفاعة في الآخرة ، وهو حق فقد قال سواد بن قارب يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعه بمغنٍ فتيلة عن سواد بن قارب

وأما الشفاعة الكبرى العامة لجميع أهل موقف الحساب الواردة فيها الحديث الصحيح المشهور فإن أصول المعتزلة لا تأبأها .

وقوله « ولا يؤخذ منها عدل » والعدل بفتح العين يطلق على الشيء المساوي شيئا والمائل له ولذلك جعل ما يفتدى به عن شيء عدلا وهو المراد هنا كما في قوله تعالى « أو عدل ذلك صياما » فالعنى « ولا يقبل منها » ما تفتدى به عوضا عن جرمها .

والنصر هو إعانة العدو على عدوه ومحاربه إما بالدفاع معه أو الهجوم معه فهو في العرف مراد منه الدفاع بالقوة الذاتية وأما إطلاقه على الدفاع بالحجة نحو « من أنصاري إلى الله » وعلى التشجيع والاتباع نحو « إن تنصروا الله يتصركم » فهو استمارة .

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٤٩

عطف على قوله «رغمي»، فيجمل (إذ) مفعولا به كما هو في قوله تعالى «واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم» فهو هنا اسم زمان غير ظرف لفعل والتقدير اذكروا وقت نجيناكم ، ولما غلبت إضافة أسماء الزمان إلى الجمل وكان معنى الجملة بعدها في معنى المصدر وكان التقدير اذكروا وقت إنجائنا إياكم ، وفائدة العدول عن الإتيان بالمصدر الصريح لأن في الإتيان باذ المتضمنة للجملة استحضارا للتكوين العجيب المستفاد من هيئة الفعل لأن الذهن إذا تصور المصدر لم يتصور إلا معنى الحدث وإذا سمع الجملة الدالة عليه تصور حدوث الفعل وفاعله ومفعوله ومتعلقاته دفعة واحدة فنشأت من ذلك صورة عجيبة ، فوزان الإتيان بالمصدر وزان الاستعارة المفردة، وزان الإتيان بالفعل وزان الاستعارة التمثيلية ، وليس هو عطفاً على جملة « اذكروا » كما وقع في بعض التفاسير لأن ذلك يجعل إذ ظرفا فيطلب متعلقاً وهو ليس بموجود ، ولا يفيد حرف العطف لأن العاطف في عطف الجمل لا يفيد سوى التشريك في حكم الجملة المعطوف عليها ، وليس نائبا مناب عامل ، ولا يربيك الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه أعني « وإذ نجيناكم » بجملة « واتقوا يوما » فتظنه ملجأ لاعتبار العطف على الجملة لما علمت فيما تقدم أن قوله « واتقوا » ناشئ عن التذكير فهو من علائق الكلام وليس بأجنبي ، على أنه ليس في كلام النحاة ما يقتضي امتناع الفصل بين المعطوف والمعطوف عاياه بالأجنبي فلن المتماطين ليسا بمرتبة الاتصال كالمامل والمعمول ، وعُدَى فعل أنجينا إلى ضمير المخاطبين مع أن التنجية إنما كانت تنجية أسلافهم لأن تنجية أسلافهم تنجية للخلف فإنه لو بق أسلافهم في عذاب فرعون لكان ذلك لاحقا لأخلافهم فلذلك كانت منه التنجية منتتين : منه على الساف ومنه على الخلف فوجب شكرها على كل جيل منهم ولذلك أوجب عليهم شريعتهم الاحتفال بما يقابل أيام النعمة عليهم من أيام كل سنة وهي أعيادهم وقد قال الله لموسى « وذكركم بأيام الله » .

وآل الرجل أهله . وأصل آل أهل قلبت هاؤه همزة تخفيفا ليتوصل بذلك إلى تسهيل الحزمة مدا . والدليل على أن أصله أهل رجوع الهاء في التصغير إذ قالوا أهيل ولم يسمع أويل خلافا للكسائي .

والأهل والآل يراد به الأقارب والعشيرة والموالى وخاصة الإنسان وأتباعه. والمراد من آل فرعون وَزَعَتَهُ وَكُلَّاهُ، ويختص الآل بالإضافة إلى ذى شأن وشرف دنيوى ممن يعقل فلا يقال آل الجانى ولا آل مكة ، ولما كان فرعون فى الدنيا عظيماً وكان الخطاب متعلقاً بنجاة دنيوية من عظيم فى الدنيا أطلق على أتباعه آل فلا توقف فى ذلك حتى يحتاج لتأويله بقصد التهم كما أول قوله تعالى « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » لأن ذلك حكاية لكلام يقال يوم القيامة وفرعون يومئذ محقر ، هلك عنه سلطانه .

فإن قلت إن كلمة أهل تطلق أيضاً على قرابة ذى الشرف لأنها الاسم المطلق فلماذا لم يؤت بها هنا حتى لا يطلق على آل فرعون ما فيه تنويه بهم؟ قلت خصوصية لفظ آل هنا أن المقام لتعظيم النعمة وتوفير حق الشكر والنعمة تعظم بما يحف بها فالنجاة من العذاب وإن كانت نعمة مطلقاً إلا أن كون النجاة من عذاب ذى قدرة ومكانة أعظم لأنه لا يكاد ينفلت منه أحد * ولا قرار على زار من الأسد^(١) *

وإنما جعلت النجاة من آل فرعون ولم تجعل من فرعون مع أنه الأمر بتعذيب بنى إسرائيل تعليقاً للفعل بمن هو من متعلقاته على طريقة الحقيقة العقلية وتنبيهاً على أن هؤلاء الوزعة والمكلفين ببني إسرائيل كانوا يتجاوزون الحد المأمور به فى الإعانات على عادة المنفذين فإنهم أقل رحمة وأضيق نفوساً من ولاة الأمور كما قال الراعى يخاطب عبد الملك بن مروان :
إن الذين أمرتهم أن يعدلوا لم يفعلوا مما أمرت فتيلاً^(٢)

جاء فى التاريخ أن مبداً استقرار بنى إسرائيل بمصر كان سببه دخول يوسف عليه السلام

(١) نصف بيت للنايفة، وأوله :

* أنبت أن أبا قابوس أوعدنى *

(٢) الراعى هو عبيد بن حصين من بنى عامر بن صعصعة، لقب الراعى لكثرة وصفه للابل وهو من شعراء الدولة الأموية. وهذا البيت من قصيدة خاطب بها الخليفة يشتكى من سعاة الزكاة فى ظلمهم لقومه وتجاوزهم ما أمروا به شرعاً وأول الأبيات :

أُولَى أمر الله إنا معشر حنفاء نسجدُ بكرة وأصيلا
وبعد البيت الذى ذكرناه :

أخذوا الخاض من الفصيل غلبة ظلماً ويكتبُ للأمير أفيلا

في تربية العزيز طيفنار كبير شرط فرعون ، وكانت مصر منقسمة إلى قسمين مصر العليا الجنوبية المعروفة اليوم بالصعيد لحكم فراعنة من القبط وقاعدتها طيوه، ومصر السفلى وهي الشمالية وقاعدتها منفيس وهي القاعدة الكبرى التي هي مقر الفراعنة وهذه قد تغلب عليها العمالقة من الساميين أبناء عم نمود وهم الذين يلقبون في التاريخ المصري بالراعة الحاليين وبالهكصوص في سنة ٣٣٠٠ أو سنة ١٩٠٠ قبل المسيح على خلاف ناشئ عن الاختلاف في مدة بقائهم بمصر الذي انتهى سنة ١٧٠٠ ق م ، عند ظهور العائلة الثامنة عشرة . فكان يوسف عند رئيس شرط فرعون العمليقي ، واسم فرعون يومئذ أبو فيس أو أبيبي وأهل القصص ومن تلقف كلامهم من المفسرين سموه ريان بن الوليد وهذا من أوهامهم وكان ذلك في حدود سنة ١٧٣٩ قبل ميلاد المسيح ، ثم كانت سكنى بنى إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر حين ظهر أمر يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السفلى . وكانت معايشة الإسرائيليين للمصريين حسنة زمناً طويلاً غير أن الإسرائيليين قد حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم فلم يعمدوا آلهة المصريين وسكنوا جميعاً بجهة يقال لها أرض (جاسان) ومكث الإسرائيليون على ذلك نحواً من أربعائة سنة تغلب في خلالها ملوك المصريين على ملوك العمالقة وطردهم من مصر حتى ظهرت في مصر العائلة التاسعة عشرة وملك ملوكها جميع البلاد المصرية ونبع فيهم رعمسيس الثاني الملقب بالأكبر في حدود سنة ١٣١١ قبل المسيح وكان محارباً بأسلاً وثار في وجه الممالك التي أخضعها أبوه ومنهم الأمم الكائنة بأطراف جزيرة العرب ، فحدثت أسباب أو سوء ظنون أوجبت تنكر القبط على الإسرائيليين وكلفوهم أشق الأعمال وسخروهم في خدمة المزارع والمباني وصنع الآجر . وتقول التوراة إنهم بنوا لفرعون مدينة مخازن (فيثوم) ومدينة (رعمسيس) ثم خشي فرعون أن يكون الإسرائيليون أعواناً لأعدائه عليه فأمر باستئصالهم وكأنه اطلع على مساعدة منهم لأبناء نسبهم من العمالقة والعرب فكان يأمر بقتل أبنائهم وسبي نساءهم وتسخير كبارهم ولا بد أن يكون ذلك لما رأى منهم من التنكر ، ولأن القبط لما أفرطوا في استخدام العبرانيين علم فرعون أنه إن اختلطت جيوشه في حرب لا يسلم من ثورة الإسرائيليين فأمر باستئصالهم . وأما ما يحكيه القصاصون أن فرعون أخبره كاهن أن ذهاب ملكه يكون على يد فتى من إسرائيل فلا أحسبه صحيحاً إذ يبعد أن يروج

مثل هذا على رئيس مملكة فيفنى به فريقاً من رعاياه، اللهم إلا أن يكون الكهنة قد أغروا فرعون باليهود قصداً لتخليص المملكة من الغرباء أو تفرسوا من بنى إسرائيل سوء النوايا فابتكروا ذلك الإنشاء الكهنوتى لإقناع فرعون ، يوجب الحذر من الإسرائيليين ولعل ذبح الأبناء كان من فعل المصريين استخفافاً باليهود ، فكانوا يقتلون اليهودى فى الخصام القليل كما أنبأت بذلك آية « فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه » والحاصل أن التاريخ يفيد على الإجمال أن عداوة عظيمة نشأت بين القبط واليهود آلت إلى أن استأصل القبط الإسرائيليين .

ولقد أبدع القرآن فى إجمالها إذ كانت تفاصيل إجمالها كثيرة لا يتعلق غرض التذكير ببيانها .

وجملة « يسومونكم سوء العذاب » حال من آل فرعون، يحصل بها بيان ما وقع الأنبياء منه وهو العذاب الشديد الذى كان الإسرائيليون يلاقونه من معاملة القبط لهم .

ومعنى يسومونكم يعاملونكم معاملة المحقوق بما عومل به يقال سامه خسفاً إذا أذله واحتقره فاستعمل سام فى معنى أنال وأعطى ولذلك يعدى إلى مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر . وحقيقة سام عرض السوم أى الثمن .

وسوء العذاب أشده وأظلمه وهو عذاب التسخير والإرهاق وتسليط العقاب الشديد بتذبيح الأبناء وسبى النساء والمعنى يذبحون أبناء آبائكم ويستحيون نساء قومكم الأولين . والمراد من الأبناء قيل أطفال اليهود وقيل أريد به الرجال بدليل مقابلته بالنساء وهذا الوجه أظهر وأوفق بأحوال الأمم إذ المظنون أن المحق والاستئصال إنما يقصد به الكبار ، ولأنه على الوجه الأول تكون الآية سكنت عن الرجال إلا أن يقال إنهم كانوا يذبحون الصغار قطعاً للنسل ويسبون الأمهات استعباداً لهم ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقضوا على سبيل التدرج . وإبقاء الرجال فى مثل هاته الحالة أشد من قتلهم . أو لعل تقصيراً ظهر من نساء بنى إسرائيل مرضعات الأطفال ومربيات الصغار وكان سببه شغلهن بشؤون أبنائهن فكان المستعبدون لهم إذا غضبوا من ذلك قتلوا الطفل .

والاستحياء استفعال يدل على الطلب للحياة أى ييقنهن أحياء أو يطلبون حياتهن . ووجه ذكره هنا فى معرض التذكير بما نالهم من المصائب أن هذا الاستحياء للإناث كان

المقصود منه خبيثا وهو أن يمتدوا على أعراضهن ولا يجدن بدا من الإجابة بحكم الأسر والاسترقاق فيكون قوله ويستحيون نساءكم، كناية عن استحياء خاص ولذلك أدخل في الإشارة في قوله « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ولو كان المراد من الاستحياء ظاهره لما كان وجه لعطفه على تلك المصيبة .

وقيل إن الاستحياء من الحياء وهو الفرج أى يفتشون النساء في أرحامهن ليعرفوا هل بهن حمل وهذا بعيد جدا وأحسن منه أن لو قال إنه كناية كما ذكرنا آتقا .
وقد حكى التوراة أن فرعون أوصى القوابل بقتل كل مولود ذكر .

وجملة « يذبحون أبناءكم » الخ بيان لجملة يسومونكم سوء العذاب فيكون المراد من سوء العذاب هنا خصوص التذبيح وما عطف عليه وهو ويستحيون نساءكم لما عرفت فكلاهما بيان لسوء العذاب فكان غير ذلك من العذاب لا يمتد به تجاه هذا . ولك أن تحمل الجملة في موضع بدل البعض تخصيصا لأعظم أحوال سوء العذاب بالذكر وهذا هو الذي يطابق آية سورة إبراهيم التي ذكر فيها « ويذبحون أبناءكم » بالعطف على سوء العذاب وليس قوله ويستحيون مستأنفا لاتمام تفصيل صنيع فرعون بل هو من جملة البيان أو البدل للعذاب ويدل لذلك قوله تعالى في الآية الأخرى « يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين » فمقب الفعلين بقوله إنه كان من المفسدين .

والبلاء الاختبار بالخير والشر قال تعالى « وبلوناهم بالحسنات والسيئات » وهو مجاز مشهور حقيقته بلاء الثوب بفتح الباء مع المد وبكسرها مع القصر وهو تخلقه وترهله ولما كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمى بلاء كأنه يُخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشر لأنه أكثر اعتنا بالنفس، وأشهر استعماله إذا أطلق أن يكون للشر فإذا أرادوا به الخير احتاجوا إلى قرينة أو تصريح كقول زهير :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلى

فيطلق غالبا على المصيبة التي تحمل بالمبدل لأن بها يختبر مقدار الصبر والأناة والمراد هنا المصيبة بدليل قوله عظيم . وقيل أراد به الانجاء والبلاء بمعنى إختبار الشكر وهو بعيد هنا .
وتملأ الإنجاء بالمخاطبين لأن إنجاء سلفهم لإنجاء لهم فإنه لو أبقى سلفهم هنالك للحق المخاطبين سوء العذاب وتذبيح الأبناء . أو هو على حذف مضاف أى نجينا آبائكم، أو هو تعبير عن الغائب

بضمير الخطاب إما لنكتة استحضر حاله وإما ليكون مخاطبين مثالمهم وصورتهم فإن ما يثبت من الفضائل لآباء القبيلة يثبت لأعقابهم فالإتيان بضمير المخاطب على خلاف مقتضى الظاهر على حد ما يقال في قوله تعالى «إنا لما طغنا الماء حملناكم في الجارية» فالخطاب ليس بالتفات لأن اعتبار أحوال القبائل يعتبر للخلف ما ثبت منه للسلف .

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ 50

هذا زيادة في التفصيل بذكر نعمة أخرى عظيمة خارقة للعادة بها كان تمام الإنجاء من آل فرعون وفيها بيان مقدار إكرام الله تعالى لهم ومعجزة لموسى عليه السلام وتمعية فعل (فرقنا) إلى ضمير المخاطبين بواسطة الحرف جار على نحو تمعية فعل نجيئناكم إلى ضميرهم كما تقدم . وفرق وفرق بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد إذ التشديد يفيد تمعية ومعناه الفصل بين أجزاء شيء متصل الأجزاء، غير أن فرق يدل على شدة التفرقة وذلك إذا كانت الأجزاء المفرقة أشد اتصالا وقد قيل إن فرق للأجسام وفرق للمعاني نقله القرافي عن بعض مشايخه وهو غير تام كما تقدم في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير بدليل هذه الآية، فالوجه أن فرق بالتشديد لما فيه علاج ومحاولة وأن الخفف والمشدد كليهما حقيقة في فصل الأجسام وأما في فصل المعاني الملتبسة فجاز . وقد اتفقت القراءات المتواترة العشر على قراءة فرقنا بالتخفيف والتخفيف منظور فيه إلى عظيم قدرة الله تعالى فكان ذلك الفرق الشديد خفيفا * وتصفروا في عين العظيم المظائم *

وآل في البحر للمهد وهو البحر الذي عهدوه أعني بحر القلزم المسمى اليوم بالبحر الأحمر وسمته التوراة بحر سوف .

والباء في بكم إما للملابسة كما في طارت به العنقاء وعدا به الفرس . أي كان فرق البحر ملابسا لكم والمراد من الملابسة أنه يفرق وهم يدخلونه فكان الفرق حاصلًا بجانبيهم . وجوز صاحب الكشف كون الباء للسببية أي بسببكم يعني لأجلكم .

والخطاب هنا كالخطاب في قوله « وإذ نجيئناكم من آل فرعون » . وقوله « فأنجيئناكم وأغرقنا آل فرعون » هو محل المنة وذكر النعمة وهو نجاتهم من الهلاك وهلاك عدوهم . قال الفرزدق:

كيف ترانى قاليا مجنى قد قتل الله زياداً عنى
فيكون قوله، وإذ فرقنا بكم البحر، تمهيدا للمنة لأنه سبب الأمرين النجاة والهلاك وهو
مع ذلك معجزة لموسى عليه السلام .

وقد أشارت الآية إلى ما حدث لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر من لحاق جند
فرعون بهم لنفهم من مفارقة البلاد المصرية وذلك أنهم لما خرجوا ليلاً إما بأذن من فرعون
كما تقول التوراة في بعض المواضع ، وإما خفية كما عبرت عنه التوراة بالهروب ، حصل
لفرعون ندم على إطلاقهم أو أغراه بعض أعوانه بصدم عن الخروج لما في خروجهم من إضاعة
الأعمال التي كانوا يسخرون فيها أو لأنه لما رآهم سلكوا غير الطريق المألوف لاجتياز مصر
إلى الشام ظنهم يرومون الانتشار في بعض جهات مملكته المصرية فخشى شرم إن هم بمدوا
عن مركز ملكه ومجتمع قوته وجنده .

إن بني إسرائيل لما خرجوا من جهات حاضرة مصر وهي يومئذ مدينة منفيس^(١) لم يسلكوا
الطريق المألوف لبلاد الشام إذ تركوا أن يسلكوا طريق شاطئ بحر الروم (المتوسط)
فيدخلوا برية سيناء من غير أن يخرقوا البحر ولا يقطعوا أكثر من اثنتي عشرة مرحلة أعنى
مائتين وخمسين ميلاً وسلكوا طريقاً جنوبية شرقية حول أعلى البحر الأحمر لثلاث يسلكوا
الطريق المألوفة الآهلة بقوافل المصريين وجيوش الفراعنة فيصدوم عن الاسترسال في سيرهم
أو يلحق بهم فرعون من يردم لأن موسى علم بوحى كما قال تعالى « وأوحينا إلى موسى أن
أسر بعبادى إنكم متبعون » إن فرعون لا يلبث أن يصدم عن المضي في سيرهم
فلذلك سلك بهم - بالأمر الإلهي - طريقاً غير مطروقة فكانوا مضطرين للوقوف أمام البحر في
موضع يقال له « فم الحيروث » فهناك ظهرت المعجزة إذ فلق الله لهم البحر بياهر قدرته فأمر
موسى أن يضربه بمصاه فارتلق وصار فيه طريق يبس مرت عليه بنو إسرائيل وكان جند
فرعون قد لحق بهم ورام اقتحام البحر وراءهم فانطبق البحر عليهم ففرقوا .

(١) لأن مقر الإسرائيليين كان بمصر السفلى كما تقدم وكانت قاعدتها منفيس وهي يوم دخوله
بني إسرائيل لحكم العالقة، وكان مقر الفراعنة أيام خروج مصر السفلى منهم بمدينة طيبة أو طيبة قاعده
مصر العليا، ثم رجعوا لمنفيس وكان خروج بني إسرائيل من مدينة تسمى رمسيس في جهات مصر السفلى .

وقوله « وأغرقنا آل فرعون » أى جنده وأنصاره . ولم يذكر فى هاته الآية غرق فرعون لأن محل المنة هو إهلاك الذين كانوا المباشرين لتسخير بنى إسرائيل وتعذيبهم والذين هم قوة فرعون وقد ذكر غرق فرعون فى آيات أخرى تتكلم عليها فى موضعها إن شاء الله وكان ذلك فى زمن الملك « منفتاح » ويقال له « منفطة » أو « مينيته » من فراعنة العائلة التاسعة عشرة فى ترتيب فراعنة مصر عند المؤرخين .

قوله « وأنتم تنظرون » جملة حالية من الفاعل وهو ضمير الجلالة فى فرقنا وأنجيننا وأغرقنا مقيدة للعوامل الثلاثة على سبيل امتناع فيها ، ولا يتصور فى التنازع فى الحال إضمار فى الثانى على تقدير إعمال الأول لأن الجملة لا تضم كما لا يضم فى التنازع فى الظرف نحو سكنى وقرأ عندك ولعل هذا مما يوجب إعمال الأول وهذا الحال زيادة فى تقرير النعمة وتمظيمها فإن مشاهدة النعم عليه للنعمة لنة عظيمة لاسيما ومشاهدة إغراق العدو أيضاً نعمة زائدة كما أن مشاهدة فرق البحر نعمة عظيمة لما فيها من مشاهدة معجزة تزيدهم إيماناً وحادث لا تتأتى مشاهدته لأحد . ويجوز أن تكون الجملة حالاً من المفعول وهو آل فرعون أى تنظرونهم ، ومفعول تنظرون محذوف ولا يستقيم جملة منزلاً منزلة اللازم . وإسناد النظر إليهم باعتبار أن أسلافهم كانوا ناظرين ذلك لأن النعمة على السلف نعمة على الأبناء لا محالة فضمير الخطاب مجاز .

﴿ وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ^{٥١} . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ^{٥٢} ﴾

تذكير لهم بنعمة عفو الله عن جرمهم العظيم بعبادة غيره وذلك مما فعله سلفهم ، وإسناد تلك الأفعال إلى ضمير المخاطبين باعتبار ما عطف عليه من قوله « ثم عفوونا عنكم » فإن العفو عن الآباء منة عليهم وعلى أبنائهم يجب على الأبناء الشكر عليه كما تقدم عند قوله « اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » .

ووقع فى الكشف وتفسير البغوى وتفسير البيضاوى أن الله وعد موسى أن يؤتیه بالشریعة بعد أن عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد مهلك فرعون وهذا وهم فإن بنى إسرائيل لم

يمودوا إلى مصر البتة بعد خروجهم كيف والآيات صريحة في أن نزول الشريعة كان بطور سيناء وأن خروجهم كان ليعطيهم الله الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وقد أشار في الكشف في سورة الدخان إلى التردد فيه ولا ينبغي التردد في ذلك .

وقوله « ثم اتخذتم العجل من بعده » هو المقصود وأما ما ذكر قبله فهو تصعيد وتأسيس لبنائه وتهويل لذلك الجرم إظهارا لسعة عفو الله تعالى وحلمه عنهم . وتوسيط التذكير بالمعفو عن هذه السيئة بين ذكر النعم المذكورة مراعاة لترتيب حصولها في الوجود ليحصل غرضان غرض التذكير وغرض عرض تاريخ الشريعة .

والمراد من المواعدة هنا أمر الله موسى أن ينقطع أربعين ليلة لمناجاة الله تعالى وإطلاق الوعد على هذا الأمر من حيث إن ذلك تثيريف لموسى ووعد له بكلام الله وإعطاء الشريعة . وقرأة الجمهور هو اعداء بأف بعد الواو على صيغة المفاعلة المقتضية حصول الوعد من جانبيين الواعد والموعود والمفاعلة على غير بابها لمجرد التأكيد على حد سافر وعافاه الله، وعالج المريض وقتله الله، فتكون مجازاً في التحقيق لأن المفاعلة تقتضي تكرار الفعل من فاعلين فإذا أخرجت عن بابها بقي التكرار فقط من غير نظر للفاعل ثم أريد من التكرار لازمه وهو المبالغة والتحقق فتكون بمنزلة التوكيد اللفظي . والأشهر أن المواعدة لما كان غالب أحوالها حصول الوعد من الجانبين شاع استعمال صيغتها في مطلق الوعد وقد شاع استعمالها أيضا في خصوص التواعد بالملاقاة كما وقع في حديث الهجرة «وواعداء غار ثور» وقول الشاعر :

فواعديه سرحتي مالك أو الرُّبَا بينهما أسهلا

واستعملت هنا لأن المناجاة والتكلم يقتضي القرب فهو بمنزلة اللقاء على سبيل الاستمارة ولذلك استغنى عن ذكر الموعود به لظهوره من صيغة المواعدة . وقيل المفاعلة على بابها بتقدير أن الله وعد موسى أن يعطيه الشريعة وأمره بالحضور للمناجاة فوعد موسى ربه أن يمثل لذلك ، فكان الوعد حاصلًا من الطرفين وذلك كاف في تصحيح المفاعلة بقطع النظر عن اختلاف الموعود به، وذلك لا ينافي المفاعلة لأن مبنى صيغة المفاعلة حصول فعل متبادل من جانبيين لا سيما إذا لم يذكر التعلق في اللفظ كما هنا لقصد الإيجاز البديع لقصد إعظام التعلق من الجانبين، ولك أن تقول سوغ حذفه علم المخاطبين به فإن هذا الكلام مسوق للتذكير لا للاخبار والتذكير يكتفي فيه بأقل إشارة فاستوى الحذف والذكر فرجح الإيجاز وإن كان الغالب اتحادهما .

وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وعبدنا بدون ألف عقب الواو على الحقيقة .

وموسى هو رسول الله إلى بنى إسرائيل وصاحب شريعة التوراة وهو موسى بن عمران ولم يذكرا اسم جده ولكن الذى جاء فى التوراة أنه هو وأخوه هارون من سبط لاوى بن يعقوب . ولد بمصر فى حدود سنة ألف وخمسمائة قبل ميلاد عيسى ولما ولدته أمه خافت عليه أن يأخذه القبط فيقتلوه لأنه فى أيام ولادته كان القبط قد ساموا بنى إسرائيل سوء العذاب لأسباب غير مشروعة كما تقدم عند قوله تعالى « يذبجون أبناءكم » فأمر ملك مصر بقتل كل ذكر يولد فى بنى إسرائيل ، وأمته تسمى « يوحانذ » وهى أيضاً من سبط لاوى وكان زوجها قد توفى حين ولدت موسى فتحييت لإخفائه عن القبط مدة ثلاثة أشهر ثم ألهمها الله فأرضعته رضة ووضعت فى سبط منسوج من خوص البردى وطلته بالمغرة والقار لئلا يدخله الماء ووضعت فيه الولد وألقته فى النيل بمقربة من مساكن فرعون على شاطئ النيل ووكلت أختاه اسمها مريم بأن ترقب الجهة التى يلقيه النيل فيها وماذا يصنع به وكان ملك مصر فى ذلك الوقت تقريباً هو فرعون رعمسيس الثانى ، ولما حمله النهر كانت ابنة فرعون المسماة ثرموت مع جوار لها يمشين على حافة النهر لقصد السباحة والتبرد فى مائه قيل كانوا فى مدينة عين شمس فلما بصرت بالسفط أرسلت أمة لها لتنظر السفط فلما فتحتنه وجدن الصبي فأخذته ابنة فرعون إلى أمها وأظهرت مريم أخت موسى نفسها لابنة فرعون فلما رأت رقة ابنة فرعون على الصبي قالت إن فىنا مرضعاً فأذهب فادعوه لترضعه ؟ فقالت نعم فذهبت وأتت بأم موسى . وأخذت امرأة فرعون الولد وتبنته وسمته موسى قيل إنه مركب من كلمة « مو » بمعنى الماء وكلمة « شى » بمعنى المنقذ وقد صارت فى العربية موسى والأظهر أن هذا الاسم مركب من اللغة العبرية لا من القبطية فلعله كان له اسم آخر فى قصر فرعون وأنه غير اسمه بمد ذلك . ونشأ موسى فى بيت فرعون كولد له ولما كبر علم أنه ليس بابن لفرعون وأنه إسرائيلى ولعل أمه أعلمته بذلك وجعلت له أمارات يوقن بها وأنشأه الله على حب العدل ونصر الضعيف وكان موسى شديداً قوى البنية ولما بلغ أشده فى حدود نيف وثلاثين من عمره حدث له حادث قتل فيه قبطياً انتصاراً لإسرائيلى ولعل ذلك كان بمد مفارقه لقصر فرعون أى بعد موت مرييه نخاف موسى أن يقتص منه وهاجر من مصر ومر فى مهاجرته بمدين وتزوج ابنة شعيب ثم خرج من مدين بعد عشر سنين وعمره يومئذ نيف وأربعون سنة .

وأوحى الله إليه في طريقه أن يخرج بنى إسرائيل من مصر وينقذهم من ظلم فرعون فدخل مصر ولقي أخاه هارون في جملة قومه في مصر وسعى في إخراج بنى إسرائيل من مصر بما قصه الله في كتابه وكان خروجه بنى إسرائيل من مصر في حدود سنة ١٤٦٠ ستين وأربعمائة وألف قبل المسيح في زمن منفتحاح الثانى وتوفى موسى عليه السلام قرب أريحا على جبل نيبو سنة ١٣٨٠ ثمانين وثلاثمائة وألف قبل ميلاد عيسى ودفن هنالك وقبره غير معروف لأحد كما هو نص التوراة .

وقوله «أربعين ليلة» انتصب على أنه ظرف لمتعلق واعدنا وهو اللقاء الموعود به ناب هذا الظرف عن المتعلق أى مناجاة وغيرها فى أربعين ليلة إن جعل واعدنا مسلوب المفاعلة وإن أبقى على ظاهره قدرنا متعلقين وعلى كلا التقديرين فانتصاب أربعين على الظرفية لذلك المحذوف على أن إطلاق اسم الزمان على ما يقع فيه مجاز شائع فى كلام البلغاء ومنه « واتقوا يوماً لا تجزى نفس » كما تقدم والأمور التى اشتملت عليها الأربعون ليلة معلومة للمخاطبين يتذكرونها بمجرد الإلماع إليها .

وبما حررناه فى قوله « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة » تستغنى عن تطويلات واحتمالات جرت فى كلام السكاكين هنا من وجوه ذكرها التفترانى وعبد الحكيم وقد جمع الوجه الذى أبديناه محاسنها . وجعل الميقات ليالى لأن حسابهم كان بالأشهر القمرية .

وعطف جملة « اتخذتم العجل من بعده » بحرف ثم الذى هو فى عطف الجمل للتراخى الترتيبى للإشارة إلى ترتيب فى درجات عظم هذه الأحوال وعطف ثم عفونا عنكم من بعد ذلك أيضاً لتراخى مرتبة العفو العظيم عن عظم جرمهم فروعى فى هذا التراخى أن ما تضمنته هذه الجمل عظامم أمور فى الخير وضده تنبيهاً على عظم سعة رحمة الله بهم قبل المعصية وبعدها وحذف المفعول الثانى لا تتخذتم لظهوره وعلمهم به ولشناعة ذكره وتقديره معبوداً أو إلهاً وبه تظهر فائدة ذكر من بعده لزيادة التشنيع بأنهم كانوا جديرين بانتظارهم الشريعة التى تريدكم كمالاً لا بالنكوص على أعقابهم عما كانوا عليه من التوحيد والانغماس فى نعم الله تعالى وبأنهم كانوا جديرين بالوفاء لموسى فلا يحدثوا ما أحدثوا فى مغيبه بعد أن رأوا معجزاته وبعد أن نهاهم عن هاته العبادة لما قالوا له « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » الآية . وفائدة ذكر من للإشارة إلى أن الاتحاد ابتداءً من أول أزمان بعدية مغيب موسى عليه السلام

وهذه أيضاً حالة غريبة لأن شأن التنفير عن المهد أن يكون بعد طول المغيب على أنه ضعف في المهد كما قال الحرث بن كعدة :

فما أدري أغيرهم نساء وطول المهد أم مال أصابوا

ففي قوله من بعده تعريض بقلة وفائهم في حفظ عهد موسى .

وقوله من بعده أى بعد مغيبه وتقدير المضاف مع بعد المضاف إلى اسم المتحدث عنه شائع في كلام العرب لظهوره بحسب المقام وإذا لم يكن ما يعنيه من المقام فلا أكثر أنه يراد به بعد الموت كما في قوله تعالى قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا، وقوله : ألم ترأى الملا من بنى إسرائيل من بعد موسى .

وإنما اتخذوا العجل تشبها بالكنعانيين الذين دخلوا إلى أرضهم وهم الفنيقيون سكان سواحل بلاد الشام فإنهم كانوا عبدة أوثان وكان العجل مقدساً عندهم وكانوا يمثلون أعظم الآلهة عندهم بصورة إنسان من نحاس له رأس عجل جالس على كرسي ماداً ذراعيه كتناول شئ . يحتضنه وكانوا يحمونه بالنار من حفرة تحت كرسيه لا يتفطن لها الناس فكانوا يقرّبون إليه القرابين وربما قربوا له أطفالهم صفاراً فإذا وضع الطفل على ذراعيه اشتوى فظنوا ذلك أمانة قبول القرابين فتباً لجهلهم وما يصنعون . وكان يسمى عندهم « بعل » وربما سموه « مولوك » وهم أمة سامية لغتها وعوائدها تشبه في الغالب لغة وعوائد العرب فلما مر بهم بنو إسرائيل قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فانتهرهم موسى وكانوا يخشونه فلما ذهب للمناجاة واستخلف عليهم هارون استضعفوه وظنوا أن موسى هلك فاتخذوا العجل الذى صنعوه من ذهب وفضة من حليتهم وعبدوه .

وقوله : وأنتم ظالمون حال مقيدة لاتخذتم ليكون الإلتخاذ مقترنا بالظلم من مبدئه إلى منتهاه وفائدة الحال الإشعار بأنقطاع عذرهم فيما صنعوا وأن لا تأويل لهم في عبادة العجل أو لأنهم كانوا مدة إقامتهم بمصر ملازمين للتوحيد محافظين على وصية إبراهيم ويمقوب لذريتهما بملازمة التوحيد فكان انتقاهم إلى الإشراف بعد أن جاءهم رسول انتقالاتاً عجيباً .

فلذلك كانوا ظالمين في هذا الصنع ظالماً مضاعفاً فالظاهر أن ليس المراد بالظلم في هاته الآية الشرك والكفر وإن كان من معانى الظلم في اصطلاح القرآن لظهور أن اتحاد العجل

ظلم فلا يكون للحال معه موقع . وقد اطلعت بعد هذا على تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي فوجده قال وأنتم ظالمون أى لا شبهة لكم فى اتخاذها .

وقوله « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك » هو محل المنة وعطفه بـ ثم تراخى رتبة هذا العفو فى أنه أعظم من جميع تلك النعم التى سبق عدها فيه زيادة المنة فالمقصود من الكلام هو المعطوف بـ ثم وأما ما سبق من قوله « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة » إلخ فهو تمهيد له وتوصيف لما حفت بهذا العفو من عظم الذنب . وقوله من بعد ذلك حال من ضمير عفونا مقيدة للعفو إعجاباً به أى هو عفو حال حصوله بعد ذلك الذنب العظيم وليس ظرفاً لغواً متعلقاً بعفونا حتى يقال إن ثم دلت على معناه فيكون تأكيذاً للدلول ثم تأخير العفو فيه وإظهار شناعته بتأخير العفو عنه وإنما جاء قوله ذلك مقترناً بكاف خطاب الواحد فى خطاب الجماعة لأن ذلك لكونه أكثر أسماء الإشارة استعمالاً بالافراد إذ خطاب المفرد أكثر غلب فاستعمل لخطاب الجمع تنبيهاً على أن الكاف قد خرجت عن قصد الخطاب إلى معنى البعد ومثل هذا فى كلام العرب كثير لأن التثنية والجمع شيئان خلاف الأصل لا يصار إليهما إلا عند تعيين معناه فإذا لم يقصد تعيين معناه فالصير إليهما اختيار محض .

وقوله « لعلكم تشكرون » رجاء لحصول شكرهم ، وعدل عن لام التعليل إيماء إلى أن شكرهم مع ذلك أمر يطرقة احتمال التخلف فذكر حرف الرجاء دون حرف التعليل من بدیع البلاغة فتفسير لعل بمعنى لكى يفيت هذه الخصوصية وقد تقدم كيفية دلالة لعل على الرجاء فى كلام الله تعالى عند قوله « يا أيها الناس اعبدوا ربكم - إلى قوله - لعلكم تتقون » . ومعنى الشكر تقدم فى قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » وللغزالي فيه باب حافل عدلنا عن ذكره لطوله فارجع إليه فى كتاب الإحياء .

﴿ وَإِذْ عَاثَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ٥٣

هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التى بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم مع الإشارة إلى تمام النعمة وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم حتى كانت كتاباً فكانوا به أهل كتاب أى أهل علم تشريع . والمراد من الكتاب التوراة التى أوتيتها موسى فالتعريف للعمد، ويعتبر معها ما ألحق بها على نحو ما قدمناه فى قوله تعالى « ذلك

الكتاب . والفرقان مصدر بوزن فعلان مشتق من الفرق وهو الفصل استمير لتمييز الحق من الباطل فهو وصف لنوى للفرقة فقد يطلق على كتاب الشريعة وعلى المعجزة وعلى نصر الحق على الباطل وعلى الحجة القائمة على الحق وعلى ذلك جاءت آيات « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده » ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان « فلعله أراد المعجزات لأن هارون لم يؤت وحياً وقال (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) يعنى يوم النصر يوم بدر وقال (وأُنزل الفرقان) هطفاً على دُنزل عليك الكتاب بالحق وأُنزل التوراة والإنجيل الآية . والظاهر أن المراد به هنا المعجزة أو الحجة لثلا يلزم عطف الصفة على موصوفها إن أريد بالفرقان الكتاب الفارق بين الحق والباطل والصفة لا يجوز أن تتبع موصوفها بالمعطف ومن نظر ذلك بقول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

فقد سراً لأن ذلك من عطف بعض الصفات على بعض لا من عطف الصفة على الموصوف كما نبه عليه أبو حيان .

وقوله « لعلكم تهتدون » هو محل المنة لأن إتيان الشريعة لو لم يكن لاهتدائهم وكان قاصراً على عمل موسى به لم يكن فيه نعمة عليهم . والقول فى لعلكم تهتدون كالقول فى لعلكم تشكرون السابق .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَلْقَوْنِى نَكُم مَّظْلَمِينَ أَنْفُسَكُمْ بِاتَّخَذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ 54

هذه نعمة أخرى وهى نعمة نسخ تكليف شديد عليهم كان قد جعل جابراً لما اقترفوه من إثم عبادة الوثن فحصل العفو عنهم بدون ذلك التكليف فتمت المنة وبهذا صح جعل هذه منة مستقلة بعمد المنة المتضمن لها قوله تعالى « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك » لأن العفو عن المؤاخذه بالذنب فى الآخرة قد يحصل مع العقوبة الدنيوية من حد ونحوه وهو حينئذ منة إذ لو شاء الله لجعل للذنب عقابين دنيوى وأخروى كما كان المذنب النفس والبدن واسكن الله برحمته

جعل الحدود جوارب في الإسلام كما في الحديث الصحيح فلما عفا الله عن بني إسرائيل على أن يقتلوا أنفسهم فقد تفضل بإسقاط العقوبة الأخروية التي هي أثر الذنب ولما نسخ تكليفهم بقتل أنفسهم فقد تفضل بذلك فصارت منتان .

فقول موسى لقومه « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » تشريع حكم لا يكون مثله إلا عن وحى لا عن اجتهد وإن جاز الاجتهاد للأنبياء فإن هذا حكم مخالف لقاعدة حفظ النفوس التي قيل قد اتفق عليها شرائع الله فهو يدل على أنه كلفهم بقتل أنفسهم قتلا حقيقة إما بأن يقتل كل من عبد العجل نفسه فيكون المراد بالأنفس الأرواح التي في الأجسام فالفاعل والمفعول واحد على هذا وإنما اختلفا بالاعتبار كقوله ظلمتم أنفسكم وقول ابن أدينة :

وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها
وإما بأن يقتل من لم يعبدوا العجل عابديه، وكلام التوراة في هذا الغرض في غاية الإيهام وظاهره أن موسى أمره الله أن يأمر اللاويين (الذين هم من سبط لاوى الذى منه موسى وهارون) أن يقتلوا من عبد العجل بالسيف وأنهم فعلوا وقتلوا ثلاثة آلاف نفس ثم استشفع لهم موسى فغفر الله لهم أى فيكون حكم قتل أنفسهم منسوخاً بعد العمل به ويكون المعنى فليقتل بعضكم بعضاً ، فالأنفس مراد بها الأشخاص كما في قوله تعالى « فإذا دخلتهم بيوتاً فسلخوا على أنفسهم » أى فليسلم بعضكم على بعض وقوله « وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم » أى لا يفسك بعضكم دماء بعض وقوله عقبه « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » فالفاعل والمفعول متغايران . ومن الناس من حمل الأمر بقتل النفس هنا على معنى القتل المجازى وهو التذليل والقهر على نحو قول امرئ القيس « في أعشار قلب مقتل » وقوله خر مقتلة أو مقتولة، أى مذلة سورتها بالماء . قال بجير بن زهير :

إن التي ناولتني فرددتها قُتِلَتْ قُتِلَتْ فهايتها لم تُقْتَلِ^(١)
وفيه بعد عن اللفظ بل مخالفة لفرض الامتنان لأن تذليل النفس وقهرها شريعة غير منسوخة .

(١) ومن معنى القتل في التذليل جاء معنى مجازى آخر وهو إطلاق القتل على إتيان العمل لأن في الإتيان تذليلاً للمصنوع من ذلك قولهم قتل اللسان علماً، وفري الدهر خيرة وقوله تعالى « وما قتلوه يقينا » على وجه (٣١ / ١ - التحرير)

والظلم هنا الجناية والمعصية على حد قوله « إن الشرك لظلم عظيم » . والفاء في قوله « فَعَزَّوْا » فاء التسبب لأن الظلم سبب في الأمر بالتوبة فالفاء لتفريع الأمر على الخبر وليست هنا عاطفة عند الزمخشري وابن الحاجب إذ ليس بين الخبر والإنشاء ترتيب في الوجود، ومن النجاة من لا يرى الفاء تخرج عن العطف وهو الجارى على عبارات الجمهور مثل صاحب معنى اللبيب فيجعل ذلك عطف إنشاء على خبر ولا ضير في ذلك . وذكر التوبة تقدم في قوله تعالى « فتلقي آدم من ربه كلمات فتاب عليه » .

والفاء في قوله « فاقتلوا أنفسكم » ظاهرة في أن قتلهم أنفسهم بيان للتوبة المشروعة له فتكون الفاء للترتيب الذكري وهو عطف مفصل على محمل كقوله تعالى « فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة » كما في معنى اللبيب وهو يقتضى أنها تفيد الترتيب لا التعقيب . وأما صاحب الكشف فقد جوز فيه وجهين أحدهما تأويل الفعل المطوف عليه بالزم على الفعل فيكون ما بعده مرتباً عليه ومعقباً وهذا الوجه لم يذكره صاحب المعنى وهذا لا يتأتى في قوله تعالى : « فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا » . وثانيهما جعل التوبة المطلوبة شاملة لأقوال وأعمال آخرها قتلهم أنفسهم فتكون الفاء للترتيب والتعقيب أيضاً .

وعندى أنه إذا كانت الجملة الثانية منزلة منزلة البيان من الجملة الأولى وكانت الأولى معطوفة بالفاء كان الأصل في الثانية أن تقطع عن العطف فإذا قرنت بالفاء كما في هذه الآية كانت الفاء الثانية مؤكدة للأولى، ولعل ذلك إنما يحسن في كل جملتين تكون أولاهما فعلا غير محسوس وتكون الثانية فعلا محسوساً مبيناً للفعل الأول فينزل منزلة حاصل عقبه فيقرن بالفاء لأنه لا يحصل تمامه إلا بعد تقرير الفعل الأول في النفس ولذلك قربه صاحب الكشف بتأويل الفعل الأول بالزم في بعض المواضع .

والبارئ هو الخالق الخلق على تناسب وتعديل فهو أخص من الخالق ولذلك أتبع به الخالق في قوله تعالى « هو الله الخالق البارئ » .

وتعبير موسى عليه السلام في كلامه بما يدل على معنى لفظ البارئ في العربية تحريض على التوبة لأنها رجوع عن المعصية فيها معنى الشكر وكون الخلق على مثال متناسب يزيد تحريضاً على شكر الخالق .

وقوله «فتاب عليكم» ظاهر في أنه من كلام الله تعالى عند تذكيرهم بالنعمة وهو محل التذكير من قوله «وإذ قال موسى لقومه» إلخ فالماضي مستعمل في بابه من الإخبار وقد جاء على طريقة الالتفات لأن المقام للتكلم فعدل عنه إلى الغيبة ورجحه هنا سبق معاد ضمير الغيبة في حكاية كلام موسى. وعطفت الفاء على محذوف إيجازاً، أى ففعلتم فتاب عليكم أوفزتم فتاب عليكم، على حد «أن اضرب بعصاك البحر فانقلب» أى فضرب، وعطف بالفاء إشارة إلى تعقيب جرمهم بتوبته تعالى عليهم وعدم تأخيرها إلى ما بعد استئصال جميع الذين عبدوا العجل بل نسخ ذلك بقرب نزوله بعد العمل به قليلاً أو دون العمل به وفي ذلك رحمة عظيمة بهم إذ حصل العفو عن ذنب عظيم بدون تكليفهم توبة شاقة بل اكتفاء بتجرد ندمهم وعزمهم على عدم الود لذلك.

ومن البعيد أن يكون «فتاب عليكم» من كلام موسى لما فيه من لزوم حذف في الكلام غير واضح القرينة؛ لأنه يلزم تقدير شرط تقديره فإن فعلتم يتب عليكم فيكون مراداً منه الاستقبال والفاء فصيحة، ولأنه يعبرى هذه الآية عن محل النعمة المذكور به إلا تضمننا.

وجملة «إنه هو التواب الرحيم» خبر وثناء على الله، وتأكيده بحرف التوكيد لتنزيلهم منزلة من يشك في حصول التوبة عليهم لأن حاطم في عظم جرمهم حال من يشك في قبول التوبة عليه وإنما جمع التواب مع الرحيم لأن توبته تعالى عليهم كانت بالعفو عن زلة اتخاذهم العجل وهى زلة عظيمة لا يغفرها إلا الغفار، وبالنسخ لحكم قتلهم وذلك رحمة فكان للرحيم موقع عظيم هنا وليس هو لمجرد الثناء.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۖ﴾⁵⁶

تذكير بنعمة أخرى نشأت بعد عقاب على جفاء طبع فحل المنة والنعمة هو قوله «ثم بعثناكم» وما قبله تمهيد له وتأسيس لبنائه كما تقدم في قوله «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة» الآية. والقاتلون هم أسلاف المخاطبين وذلك أنهم قالوا لموسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة.

والظاهر أن هذا القول وقع منهم بعد العفو عن عبادتهم العجل كما هو ظاهر ترتيب الآيات روى ذلك البغوى عن السدى ، وقيل إن ذلك سأله عند مناجاته وأن السائلين هم السبعون الذين اختارهم موسى للمعقات وهم المعبر عنهم في التوراة بالكهنة وبشيوخ بنى إسرائيل وقيل سأل ذلك جمع من عامة بنى إسرائيل نحو العشرة الآلاف وهذا القولان حكاهما في الكشف وليس في التوراة ما هو صريح لترجيح أحد القولين ولا ما هو صريح في وقوع هذا السؤال ولكن ظاهر ما في سفر التثنية منهما ما يشير إلى أن هذا الاقتراح قد صدروا أنه وقع بعد كلام الله تعالى الأول لموسى لأنها لما حكمت تذكير موسى في مخاطبة بنى إسرائيل ذكرت ما يفاير كيفية النجاة الأولى إذ قال ^(١) فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعل بالنار تقدم إلى جميع رؤساء أسباطكم وشيوخكم وقلتم هو ذا الرب إلهنا قد أرانا مجده وعظمته وسمعنا صوته من وسط النار إن عندما نسمع صوت الرب إلهنا أيضا نموت تقدم أنت واسمع كل ما يقول لك الرب إلهنا وكلما بكل ما يكلمك به الرب الخ فهذا يؤذن أن هنالك رقباً كان منهم لرؤية الله تعالى وأنهم أصابهم ما بلغ بهم مبلغ الموت ، وبعد فالقرآن حجة على غيره مصداقاً لما بين يديه ومهيئاً عليه . والظاهر أن ذلك كان في الشهر الثالث بعد خروجهم من مصر .

ومعنى لا تؤمن لك يحتمل أنهم توقعوا الكفر إن لم يروا الله تعالى أى أنهم يرتدون في المستقبل عن إيمانهم الذى اتصفوا به من قبل ، ويحتمل أنهم أرادوا الإيمان الكامل الذى دليله المشاهدة أى أن أحد هذين الإيمانين ينتفى إن لم يروا الله جهرة لأن لننى المستقبل قال سيبويه « لا لننى يفعل ولن لننى سيفعل » وكما أن قولك سيقوم لا يقتضى أنه الآن غير قائم فليس في الآية ما يدل على أنهم كفروا حين قولهم هذا ولكنها دالة على عجزهم وقلة اكرائهم بما أوتوا من النعم وما شاهدوا من المعجزات حتى راموا أن يروا الله جهرة وإن لم يروه دخلهم الشك في صدق موسى وهذا كقول القائل إن كان كذا فأنا كافر . وليس في القرآن ولا في غيره ما يدل على أنهم قالوا ذلك عن كفر .

وإنما عدى تؤمن باللام لتضمينه معنى الإقرار بالله ولن نقرلك بالصدق والذى دل على هذا الفعل المحذوف هو اللام وهى طريقة التضمين .

(١) انظر سفر التثنية الإصحاح ٥ .

والجهرة مصدر بوزن فَعلة من الجهر وهو الظهور الواضح فيستعمل في ظهور الذوات والأصوات حقيقة على قول الراغب إذ قال «الجهر ظهور الشيء بإفراط إما بحاسة البصر نحو رأيته جهارا ومنه جهر البئر إذا أظهر ماءها، وإما بحاسة السمع نحو «وإن تجهر بالقول» وكلام الكشف مؤذن بأن الجهر مجاز في الرؤية بتشبيه الذي يرى بالعين بالجهر بالصوت والذي يرى بالقلب بالخافت، وكان الذي حدها على ذلك اشتهاً استعمال الجهر في الصوت وفي هذا كله بعد إذ لا دليل على أن جهرة الصوت هي الحقيقة ولا سبيل إلى دعوى الاشتهاً في جهرة الصوت حتى يقول قائل إن الاشتهاً من علامات الحقيقة على أن الاشتهاً إنما يعرف به المجاز القليل الاستعمال، وأما الأشهرية فليست من علامات الحقيقة . ولأنه لا نكتة في هذه الاستعارة ولا غرض يرجع إلى المشبه من هذا التشبيه فإن ظهور الذوات أوضح من ظهور الأصوات . وانتصب جهرة على المفعول المطلق لبيان نوع فعل ترى لأن من الرؤية ما يكون لمحّة أو مع سائر شفاف فلا تكون واضحة .

ووجه العدول عن أن يقول عيانا إلى قوله جهرة لأن جهرة أفصح لفظاً لخفته، فإنه غير مبدوء بحرف حلق والابتداء بحرف الحلق أتعب للحلق من وقوعه في وسط الكلام ولسلامته من حرف العلة وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض الحسن وقعها في الكلام وخفها على السمع وللقرآن السهم المعلي في ذلك وهو في غاية الفصاحة .

وقوله «فأخذتكم الصاعقة» أي عقوبة لهم عما بدا منهم من العجرفة وقلة الاكتراث بالمعجزات . وهذه عقوبة دينوية لا تدل على أن المعاقب عليه حرام أو كفر لا سيما وقد قدر أن موتهم بالصاعقة لا يدوم إلا قليلاً فلم تكن مثل صاعقة عاد وثمود . وبه تعلم أن ليس في إصابة الصاعقة لهم دلالة على أن رؤية الله تعالى مستحيلة وأن سؤالها والإلحاح فيه كفر كما زعم المعتزلة وأن لا حاجة إلى الجواب عن ذلك بأن الصاعقة لا اعتقادهم أنه تعالى يشبه الأجسام فكانوا بذلك كافرين إذ لا دليل في الآية ولا غيرها على أنهم كفروا ، كيف وقد سأل الرؤية موسى عليه السلام .

والصاعقة نار كهربائية من السحاب تحرق من أصابته، وقد لا تظهر النار ولكن يصل هواؤها إلى الأحياء فيختنقون بسبب ما يخاط الهواء الذي يتنفسون فيه من الحوامض الناشئة عن شدة الكهرباء، وقد قيل: إن الذي أصابهم نار، وقيل سمعوا صعقة فأتوا .

وقوله « وأنتم تنظرون » فائدة التقييد بهذا الحال عند صاحب الكشف الدلالة على أن الصاعقة التي أصابتهم نار الصاعقة لأصوتها الشديد لأن الحال دلت على أن الذي أصابهم مما يرى، وقال القرطبي أي وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض أي مجتمعون . وعندى أن معمول تنظرون محذوف وأن تنظرون بمعنى تحدقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعا أن يظهر لهم الله من خلاله لأنهم اعتادوا أن الله يكلم موسى كلاما يسمعه من خلال السحاب كما تقوله التوراة في مواضع ، ففائدة الحال إظهار أن العقوبة أصابتهم في حين الإساءة والمعجزة إذ طمعوها فيما لم يكن لينال لهم .

وقوله « ثم بعثناكم من بعد موتكم » إيجاز بديع، أي فتم من الصاعقة « ثم بعثناكم من بعد موتكم » وهذا خارق عادة جعله الله معجزة لموسى استجابة لدعائه وشفاعته أو كرامة لهم من بعد تأديبهم إن كان السائلون هم السبعين فإنهم من صالحى بنى إسرائيل .
فإن قلت إذا كان السائلون هم الصالحين فكيف عوقبوا .

قلت قد علمت أن هذا عقاب دنيوى وهو ينال الصالحين ويسمى عند الصوفية بالعتاب وهو لا ينال الكرامة، ونظيره أن موسى سأل رؤية ربه فتجلى الله للجبل « جعله دكا » وخر موسى صمقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك .

فإن قلت إن الموت يقتضى انحلال التركيب المزاجى فكيف يكون البعث بعده في غير يوم إعادة الخلق قلت: الموت هو وقوف حركة القلب وتمطيل وظائف الدورة الدموية فإذا حصل عن فساد فيها لم تعقبه حياة إلا في يوم إعادة الخلق وهو المعنى بقوله تعالى « لا يدقون فيها الموت إلا الموتة الأولى » وإذا حصل عن حادث قاهر مانع وظائف القلب من عملها كان للجسد حكم الموت في تلك الحالة لكنه يقبل الرجوع إن عادت إليه أسباب الحياة بزوال الموانع العارضة، وقد سار الأطباء اليوم يعتبرون بعض الأحوال التي تعطل عمل القلب اعتبار الموت وبما لجئون القلب بأعمال جراحية تميد إليه حركته . والموت بالصاعقة إذا كان عن اختناق أو قوة ضغط الصوت على القلب قد تعقبه الحياة بوصول هواء صاف جديد وقد يطول زمن هذا الموت في العادة ساعات قليلة ولكن هذا الحادث كان خارق عادة فيمكن أن يكون موتهم قد طال يوما وليلة كما روى في بعض الأخبار ويمكن دون ذلك .

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^{٥٧}

عطف وظللنا على بعثناكم . وتعقيب ذكر الوحشة بذكر جائزة شأن الرحيم في تربية عبده ، والظاهر أن تظليل الغمام ونزول المن والسلوى كان قبل سؤالهم رؤية الله جهرة لأن الثوراة ذكرت نزول المن والسلوى حين دخولهم في بركة سين بين إيليم وسينا في اليوم الثاني عشر من الشهر الثاني من خروجهم من مصر حين اشتاقوا أكل الخبز واللحم لأنهم في رحلتهم ما كانوا يطبخون بل الظاهر أنهم كانوا يقتاتون من ألبان مواشيهم التي أخرجوها معهم . وما تنبته الأرض . وأما تظليلهم بالغمام فالظاهر أنه وقع بعد أن سألوهم رؤية الله لأن تظليل الغمام وقع بعد أن نصب لهم موسى خيمة الاجتماع محل القرايين ومحل مناجاة موسى وقبلة الداعين من بني إسرائيل في بركة سين فلما تمت الخيمة سنة اثنتين من خروجهم من مصر غطت سحابة خيمة الشهادة ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة فذلك إذن لبني إسرائيل بالرحيل فإذا حلت السحابة حلوا إلخ كذا تقول كتبهم^(١) .

فلما سأل بنو إسرائيل الخبز واللحم كان المن ينزل عليهم في الصباح والسلوى تسقط عليهم في المساء بمقدار ما يكفي جميعهم ليومه أو ليلته إلا يوم الجمعة فينزل عليهم منهما ضعف الكمية لأن في السبت انتقطاع النزول .

والمن مادة صغية جوية ينزل على شجر البادية شبه الدقيق المبلول ، فيه حلاوة إلى الخضرة ولونه إلى الصفرة ويكثر بوادي تركستان وقد ينزل بقلة غيرها ولم يكن يعرف قبل في بركة سين . وقد وصفته الثوراة^(٢) بأنه ، دقيق مثل القشور يسقط ندى كالجليد على الأرض وهو مثل زرع الكزبرة أبيض وطعمه كرقاق بمسل وسمته بنو إسرائيل منا ، وقد أمروا أن لا يبقوا منه للصباح لأنه يتولد فيه دود وأن يلتقطوه قبل أن تحمي الشمس لأنها تذيبه فكانوا إذا التقطوه طحنوه بالراح أو دقوه بالهاون وطبخوه في القدور وعملوه ملات وكان طعمه كطعم قطائف زيت^(٣) وأنهم أكلوه أربعين سنة حتى جاءوا إلى طرف أرض كنعان يريد إلى حبرون .

(١) سفر الخروج من الإصحاح ٢٥ - ٣٣ وسفر العدد الإصحاح ٩ .

(٢) سفر الخروج الإصحاح ١٦ . (٣) سفر العدد الإصحاح ١١ .

وأما السلوى فهي اسم جنس جمى واحدة سلواة وقيل لا واحده وقيل واحده وجمعه سواء وهو طائر برى لذيد اللحم سهل الصيد كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضاً ويسمى هذا الطائر أيضاً السمانى بضم السين وفتح اليم مخففة بعدها ألف فنون مقصور كجبارى . وهو أيضاً اسم يقع للواحد والجمع ، وقيل هو الجمع وأما المفرد فهو سمانة .

وقوله « كلوا من طيبات ما رزقناكم » مقول قول محذوف لأن الخطابين حين نزول القرآن لم يؤمروا بذلك فدل على أنه من بقية الخبر عن أسلافهم .

وقوله « وما ظلمونا » قدره صاحب الكشف معطوفاً على مقدر أى فظلموا وقرره شارحوه بأن ما ظلمونا نقي لظلم متعلق بمفعول معين وهو ضمير الجلالة وهذا النقي يفيد في المقام الخطابي أن هنالك ظلماً متعلقاً بغير هذا المنصوب إذ لو لم يكن الظلم واقعا لنقي مطلقاً بأن يقال « وما ظلموا » . وليس المعنى عليه وأنه إنما قدر في الكشف الفعل المحذوف مقترناً بالفاء لأن الفاء في عطف الجمل تفيد مع الترتيب والتعقيب معنى السببية غالباً ، فتكون الجملة المعطوفة متسببة عن الجملة المعطوف عليها فشبه وقوع ظلمهم حين كفروا النعمة عقب الإحسان بترتب السبب على السبب في الحصول بلا ريث وبدون مراقبة ذلك الإحسان حتى كأنهم يأتون بالظلم جزاء للنعمة ، ورمى إلى لفظ المشبه به برديفه وهو فاء السببية وقرينة ذلك ما يعلمه السامع من أن الظلم لا يصلح لأن يكون مسبباً عن الإنعام على حد قولك أحسنتُ إلى فلان فأساء إلىَّ وقوله تعالى « وجمعولون رزقكم أنكم تكذبون » أى يجمعولون شكر رزقكم أنكم تكذبون فالفاء مجاز لغير الترتيب على أسلوب قولك : أنعمتُ عليه فكفر . ولك أن تقول إن أصل معنى الفاء العاطفة الترتيب والتعقيب لا غير وهو المعنى الملازم لها في جميع مواقع استعمالها فإن الاطراد من علامات الحقيقة . وأما الترتيب أى السببية فأمر عارض لها فهو من المجاز أو من مستتبعات التراكيب ألا ترى أنه يوجد تارة ويتخلف أخرى فإنه مفقود في عطف المفردات نحو جاء زيد فعمرو وفي كثير من عطف الجمل نحو قوله تعالى « لقد كنتُ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك » فلذلك كان معنى السببية حينما استفيد محتاجاً إلى القرائن فإن لم تتطلب له علاقة قلت هو من مستتبعات تراكيب بقرينة المقام وإن تطلبت له علاقة - وهى لا تموزك - قلت هو مجاز لأن أكثر الأمور الحاصلة عقب غيرها

يكون موجب التعقيب فيها هو السببية ولو عرفا ولو ادعاء فليس خروج الفاء عن الترتيب هو المجاز بل الأمر بالعكس . ومما يدل على أن حقيقة الفاء العاطفة هو الترتيب والتعقيب فقط أن بعض البيانين جعلوا قوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً » اللام فيه مستعارة لمعنى فاء التعقيب أى فكان لهم عدواً فجعلوا الفاء حقيقة في التعقيب ولو كانت للترتيب لساوت اللام فلم تستقم الاستعارة فيكون الوجه الحامل للزخشرى على تقدير المحذوف مقترنا بالفاء هو أنه رأى عطف الظلم على « وظللنا عليكم الغمام » وما بعده بالواو ولا يحسن لعدم الجهة الجامعة بين الامتنان والذم والمناسبة شرط في قبول الوصل بالواو بخلاف العطف بالفاء، فتعين إما تقدير ظلّموا مستأنفاً بدون عطف وظاهر أنه ليس هنالك معنى على الاستئناف وإما ربط ظلّموا بعاطف سوى الواو وليس يصلح هنا غير الفاء لأن المعطوف حصل عقب المعطوف عليه فكان ذلك التعاقب في الخارج مغنياً عن الجهة الجامعة ولذلك كانت الفاء لا تستدعى قوة مناسبة كمناسبة الواو ولكن مناسبة في الخيال فقط وقد وجدت هنا لأن كون المعطوف حصل في الخارج عقب المعطوف عليه مما يجعله حاضراً في خيال الذى يتكلم عن المعطوف عليه، وأما قبح نحو قولك جاء زيد فصاح الديك فلقلة جدوى هذا الخبر ألا تراه يصير حسناً لو أردت بقولك فصاح الديك معنى التوقيت بالفجر فهذا ظهر أنه لم يكن طريق لربط الظلم المقدر بالفعلين قبله إلا الفاء .

وفى ذلك الإخبار والربط والتصدى لبيانه مع غرابة هذا التعقيب تعريض بمذمتهم إذ قابلو الإحسان بالكفران وفيه تعريض بقبائحهم إذ صدقوا عن الشكر كأنهم ينكون بالنعم وهم إنما يوقعون النكايّة بأنفسهم ، هذا تفصيل ما يقال على تقدير صاحب الكشف . والذى يظهر لى أن لا حاجة إلى التقدير وأن جملة « وما ظلّمونا » عطف على ما قبلها لأنها مثلها في أنها من أحوال بنى إسرائيل ومثار ذكر هذه الجملة هو ما تضمنته بعض الجمل التى سبقت من أن ظلماً قد حصل منهم من قوله « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » وقوله « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » وما تضمنه قوله « فأخذتكم الساعة وأنتم تنظرون » الدال على أن ذلك عذاب جروه إلى أنفسهم فأتى بهذه الجملة كالفعل لك لما تضمنته الجمل السابقة نظير قوله « وما يخادعون إلا أنفسهم » عقب قوله « يخادعون الله والذين آمنوا » ونظير قوله « وظلموا أنفسهم » بعد الكلام السابق وهو قوله « وجعلنا بينهم وبين

القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة » الآية. وغير الأسلوب في هذه الجملة إذ انتقل من خطاب بنى إسرائيل إلى الحديث عنهم بضمير الغيبة لقصد الاتعاظ بحالهم وتعريضاً بأنهم متبادون على غيرهم وليسوا مستفيقين من ضلالهم فهم بحيث لا يقرون بأنهم ظلموا أنفسهم . وهذا الظلم الذي قدر في نظم الآية هو ضجرهم من مداومة أكل المن والسلوى الذي سيأتي ذكره بقوله تعالى « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد » الآية فكان قوله « وما ظلمونا » تمهيداً له وتعجيلاً بتسجيل قلة شكرهم على نعم الله وعنايته بهم إذ كانت شكيمتهم لم تليها الزواجر ولا المكارم .

وقوله « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » قدم فيه المفعول للقصر وقد حصل القصر أولاً بمجرد الجمع بين النفي والإنبات ثم أكد بالتقديم لأن حالهم كحال من ينكى غيره كما قيل: يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو بعدوه .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا
الْبَابَ سَجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ يُغْفَرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ⁵⁸
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا
مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ⁵⁹

هذا تذكير بنعمة أخرى مكثوا منها فأحسنوا قبولها ولا رعوها حق رعايتها فحرموا منها إلى حين وعوقب الذين كانوا السبب في عدم قبولها . وفي التذكير بهذه النعمة امتنان عليهم ببذل النعمة لهم لأن النعمة نعمة وإن لم يقبلها المنعم عليه ، وإثارة لحسرتهم على ما فات أسلافهم وما لقوه من جراء إعجابهم بآرائهم ، وموعظة لهم أن لا يقيموا فيما وقع فيه الأولون فقد علموا أنهم كلما صدقوا عن قدر حق النعم نالهم المصائب . قال الشيخ ابن عطاء الله: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقلها . ولعلم مخاطبين بما عنته هذه الآية اختصر فيها الكلام اختصاراً ترك كثيراً من المفسرين فيها حيارى . فسلكوا طرائق في انتزاع تفصيل المعنى من مجملها فما أتوا على شيء مقنع، وكنت تجد أقوالهم هنا إذا التأم

بعضها بنظم الآية^(١) لا يلتزم بعضه الآخر، وربما خالف جميعها ما وقع في آيات آخر . والذي عندي من القول في تفسير هاته الآية أنها أشارت إلى قصة معلومة تضمنتها كتبهم وهي أن بني إسرائيل لما طوحت بهم الرحلة إلى بركة فاران نزّلوا بمدينة قادش فأصبحوا على حدود أرض كنعان التي هي الأرض المقدسة التي وعدها الله بني إسرائيل وذلك في أثناء السنة الثانية بعد خروجهم من مصر فأرسل موسى اثني عشر رجلاً ليتجسسوا أرض كنعان من كل سبط رجل وفيهم يوشع بن نون وكالب بن بفتة فصعدوا وآتوا إلى مدينة حبرون فوجدوا الأرض ذات خيرات وقطعوا من عنبها ورمانيها وتينها ورجعوا لقومهم بعد أربعين يوماً وأخبروا موسى وهارون وجميع بني إسرائيل وأروهم ثمر الأرض وأخبروهم أنها حقاً تفيض لبناً وعسلاً غير أن أهلها ذوو عزة ومدنها حصينة جداً فأمر موسى كالباً فأنصت إسرائيل إلى موسى وقال إننا نصعد ونمتلكها وكذلك يوشع أما العشرة الآخرون فأشاعوا في بني إسرائيل مذمة الأرض وأنها تأكل سكانها وأن سكانها جبابرة يخافون بنو إسرائيل من سكان الأرض وجبنوا عن القتال فقام فيهم يوشع وكالب قائلين لا تخافوا من العدو فإنهم لقمة لنا والله معنا ، فلم يصغ القوم لهم وأوحى الله لموسى أن بني إسرائيل أساءوا الظن بربهم وأنه مهلكهم فاستشفع لهم موسى فعفا الله عنهم ولكنه حرمهم من الدخول إلى الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون فلا يدخل لها أحد من الحاضرين يومئذ إلا يوشعاً وكالباً وأرسل الله على الجواسيس العشرة المتيهين وباء أهلهم . فهذه الآية تنطبق على هذه القصة تمام الانطباق لاسيما إذا ضمت لها آية سورة المائدة « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم - إلى قوله - الفاسقين » فقوله « ادخلوا هذه القرية » الظاهر أنه أراد بها « حبرون » التي كانت قريبة منهم والتي ذهب إليها جواسيسهم وآتوا بثمارها ، وقيل أراد من القرية الجهة كما قاله القرطبي عن عمرو بن شبة فإن القرية تطلق على الزرعة لكن هذا يبعده قوله « وادخلوا الباب » وإن كان الباب يطلق على المدخل بين الجبلين وكيفما كان ينتظم

(١) ذلك أن الآية لم تعين اسم القرية ولا عامل حطة ولا مفعوله، وأجلت في الذين بدلوا وفي القول ما هو، وفي الذي قيل لهم، والقصد من ذلك تجنب نقل إعادة الأمر المعلوم فإن بني إسرائيل المخاطبين كانوا يعلمون ذلك والمسلمين بالمدينة كانوا يتأقنونه مفصلاً من النبي صلى الله عليه وسلم ومن مسلمي أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام .

ذلك مع قوله « فكلوا منها حيث شئتم رغدا » يشير إلى الثمار الكثيرة هناك . وقوله « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » يعمين أنه إشارة إلى ما أشاعه الجواسيس العشرة من مذمة الأرض وصعوبتها وأنهم لم يقولوا مثل ما قال موسى حيث استنصت الشعب بلسان كالب بن بَفْتَةَ ويوشع ويدل لذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف « فبدل الذين ظلموا منهم قولا » أى من الذين قيل لهم ادخلوا القرية وأن الرجز الذى أصاب الذين ظلموا هو الوباء الذى أصاب العشرة الجواسيس وينتظم ذلك أيضاً مع قوله فى آية المائدة « ولا تردوا على أديباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين » إلخ وقوله « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليهم الباب » فإن الباب يئاسب القرية . وقوله « قال فإنها محرمة عليهم » . فهذا هو التفسير الصحيح المنطبق على التاريخ الصريح . فقوله « وإذ قلنا » أى على لسان موسى فبلغه للقوم بواسطة استنصات كالب بن بَفْتَةَ ، وهذا هو الذى يوافق ما فى سورة العنكبوت فى قوله تعالى « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » الآيات . وعلى هذا الوجه فقوله « ادخلوا » إما أمر بدخول قرية قريبة منهم وهى « حبرون » لتكون مركزاً أولاً لهم، والأمر بالدخول أمر بما يتوقف الدخول عليه أعنى القتال كما دلت عليه آية المائدة إذ قال « ادخلوا الأرض المقدسة - إلى قوله - ولا تردوا على أديباركم » فإن الارتداد على الأديبار من الألفاظ المتعارفة فى الحروب كما قال تعالى « فلا تولوهم الأديبار » .

ولعل فى الإشارة بكلمة هذه المفيدة للقرب ما يرجح أن القرية هى حبرون التى طلع إليها جواسيسهم .

والقرية بفتح القاف لا غير على الأصح البلدة المشتمة على المساكن المبنية من حجارة وهى مشتقة من القرى بفتح فسكون وبالياء وهو الجمع يقال قرى الشيء يقربه إذا جمعه وهى تطلق على البلدة الصغيرة وعلى المدينة الكبيرة ذات الأسوار والأبواب كما أريد بها هنا بدليل قوله « وادخلوا الباب سجدا » . وجمع القرية قرى بضم القاف على غير قياس لأن قياس فعل أن يكون جمعا لفعل بكسر الفاء مثل كسوة وكسوى وقياس جمع قرية أن يكون على قراء بكسر القاف وبالد كما قالوا رَكوة وركاء وشكوة وشكاء .

وقوله « وادخلوا الباب سجدا » مراد به باب القرية لأن آل متعينة للعوضية عن

المضاف إليه الدال عليه اللفظ المتقدم - ومعنى السجود عند الدخول الانحناء شكراً لله تعالى لا لأن بابها قصير كما قيل إذ لا جدوى له والظاهر أن المقصود من السجود مطلق الانحناء لإظهار العجز والضعف كيلا يفتن لهم أهل القرية وهذا من أحوال الجوسسة، ولم تعترض لها التوراة ويبعد أن يكون السجود المأمور به سجود الشكر لأنهم داخلون متجسسين لا فاتحين وقد جاء في الحديث الصحيح أنهم بدلوا وصية موسى فدخلوا يزحفون على استاهم كأنهم أرادوا إظهار الزمانة فأفراطوا في التصنع بحيث يكاد أن يفتضح أمرهم لأن بعض التصنع لا يستطاع استمراره .

وقوله، وقولوا حطة الحطة فعلة من الحط وهو الخفض وأصل الصيغة أن تدل على الهيئة ولكنها هنا مراد بها مطلق المصدر، والظاهر أن هذا القول كان معروفاً في ذلك المكان للدلالة على العجز أو هو من أقوال السؤال والشحاذين كيلا يحسب لهم أهل القرية حساباً ولا يأخذوا حذراً منهم فيكون القول الذي أمروا به قولاً يخاطبون به أهل القرية . وقيل المراد من الحطة سؤال غفران الذنوب أي حط عنا ذنوبنا أي اسألو الله غفران ذنوبكم إن دخلتم القرية . وقيل من الحط بمعنى حط الرحال أي إقامة أي ادخلوا قائلين إنكم ناوون الإقامة بها إذ الحرب ودخول ديار العدو يكون فتحا ويكون صلحا ويكون للغنيمة ثم الإياب . وهذان التأويلان بعيذان ولأن القراءة بالرفع وهي المشهورة تنافي القول بأنها طلب المغفرة لأن المصدر المراد به الدعاء لا يرتفع على معنى الإخبار نحو سقيا ورعيا وإنما يرتفع إذا قصد به المدح أو التعجب لقربهما من الخبر دون الدعاء ولا يستعمل الخبر في الدعاء إلا بصيغة الفعل نحو رحمه الله ويرحمه الله .

وحطة بالرفع على أنه مبتدأ أو خبر نحو سمع وطاعة وصبر جميل .
واخطايا جمع خطيئة ولا مأى مهموزة فقياس جمعها خطائى بهمزتين بوزن فمائل فلما اجتمعت الهمزتان قلبت الثانية ياء لأن قبلها كسرة أو لأن في الهمزتين ثقلاً فخففوا الأخيرة منهما ياء ثم قلبوها ألفاً إما لاجتماع ثقل الياء مع ثقل صيغة الجمع وإما لأنه لما أشبه جأى استحق التخفيف ولكنهم لم يعاملوه معاملة جأى لأن همزة جأى زائدة وهمزة خطائى أصلية ففروا بتخفيفه إلى قلب الياء ألفاً كما فعلوا في يتامى ووجدوا له في الأسماء الصحيحة نظيراً وهو طهاري جمع طاهرة . والخطيئة فعلية بمعنى مفعولة لأنها مخطوء بها أي مسلوكة بها

مسلك الخطأ أشاروا إلى أنها فعل يحق أن لا يقع فيه فاعله إلا خطأ فهي الذنب والمعصية .
 وقوله « وسنزيد المحسنين » وعد بالزيادة من خيري الدنيا والآخرة ولذلك حذف
 مفعول تزيد . والواو عاطفة جملة (سنزيد) على جملة « قلنا ادخلوا » أى وقلنا سنزيد
 المحسنين ؛ لأن جملة سنزيد حكيت في سورة الأعراف مستأنفة فعلم أنها تعبر عن نظير لها في
 الكلام الذى خاطب الله به موسى على معنى الترقى فى التفضل فلما حكيت هنا عطفت عطفت
 القول على القول .

وقوله « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » أى بدل العشرة القول الذى أمر
 موسى بإعلانه فى القوم وهو الترغيب فى دخول القرية وتهوين العدو عليهم فقالوا لهم
 لا نستطيعون قتالهم وثبطوهم ولذلك عوقبوا فأنزل عليهم رجز من السماء وهو الطاعون .
 وإنما جعل من السماء لأنه لم يكن له سبب أرضى من عدوى أو نحوها فعلم أنه رمتهم به
 الملائكة من السماء بأن ألقىت عناصره وجراثيمه عليهم فأصيبوا به دون غيرهم . ولأجل
 هذا خص التبديل بفريق معروف عندهم فعبّر عنه بطريق الموصولية لعلم المخاطبين به وبذلك
 الصلة فدل على أن التبديل ليس من فعل جميع القوم أو معظمهم لأن الآية تذكر لليهود
 بما هو معلوم لهم من حوادثهم .

وإنما جاء بالظاهر فى موضع المضمّر فى قوله « فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا » ولم يقل
 عليهم لئلا يتوهم أن الرجز عم جميع بنى إسرائيل وبذلك تنطبق الآية على ما ذكرته التوراة
 تمام الانطباق .

وتبديل القول بتبديل جميع ما قاله الله لهم وما حدثهم الناس عن حال القرية، وللإشارة
 إلى جميع هذا بنى فعل قيل إلى المجهول إيجازاً . فقولاً مفعول أول لبدّل، وغير الذى قيل
 مفعول ثان لأن بدل يتعدى إلى مفعولين من باب كسى أى مما دل على عكس معنى كسى
 مثل سلبه ثوبه . قال أبو الشيص :

بَدَّلْتُ مِنْ بُرْدِ الشَّبَابِ مَلَاءَةً خَلَقًا وَبُسْ مَثْوَبَةً الْمُقْتَبَاضِ

وفائدة إظهار لفظ القول دون أن يقال فبدلوه لدفع توهم أنهم بدّلوا لفظ حطة خاصة
 وامتثلوا ما عدا ذلك لأنه لو كان كذلك لكان الأمر هيئا .

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة أن القول الذي بدّلوا به أنهم قالوا حبة في شجرة أو في شمية ، والظاهر أن المراد به أن العشرة استهزأوا بالكلام الذي أعلنه موسى عليه السلام في الترغيب في فتح الأرض وكنوا عن ذلك بأن حاولتهم فتح الأرض كمحاولة ربط حبة بشجرة أى في التعمد ، أو هو ككل حبة مع شجرة تخنق آكلها ، أو حبة من برّ مع شمية .

وقوله « فبدل الذين ظلموا » وقوله « فأزلنا على الذين ظلموا » اعتنى فيهما بالإظهار في موضع الإضمار ليظهر أن الرجز خص الذين بدّلوا القول وهم العشرة الذين أشاعوا مذمة الأرض لأنهم كانوا السبب في شقاء أمة كاملة . وفي هذا موعظة وذكري لكل من ينصب نفسه لإرشاد قوم ليكون على بصيرة بما يأتي ويذر وعلم بمواقب الأمور فمن البر ما يكون عقوباً ، وفي المثل « على أهلها تجنى براش » وهي اسم كلبة قوم كانت تحرسهم بالليل فدل نجاح أعداءهم عليهم فاستأصلوهم فضربت مثلاً .

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ 60

تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم وهي الرى من المطش، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام ولذلك شاع التمثيل برى الظمان في حصول المطلوب . وكون السقي في مظنة عدم تحصيله وتلك معجزة لموسى وكرامة لأمته لأن في ذلك فضلاً لهم . وكون العيون اثنتى عشرة ليستقل كل سبط بمشرب فلا يتدافعوا . وقوله وإذ متعلق بأذكروا وقد أشارت الآية إلى حادثة معروفة عند اليهود وذلك أنهم لما نزلوا في « ريفديم » قبل الوصول إلى بركة سينا وبعد خروجهم من بركة سين في حدود الشهر الثالث من الخروج عطشوا ولم يكن بالموضع ماء فتذمروا على موسى وقالوا أتصعدنا من مصر لنموت وأولادنا ومواشيها عطشاً فدعا موسى ربه فأمره الله أن يضرب بعصاه صخرة هناك في « حوريب » فضرب فانفجر منها الماء . ولم تذكر التوراة أن العيون اثنتا عشرة عيناً وذلك التقسيم من الرفق بهم لئلا يتزاحوا مع كثرتهم فيهلكوا فهذا مما بينه الله في القرآن .

فقوله استسقى موسى صريح في أن طالب السقي هو موسى وحده، سألته من الله تعالى ولم يشاركه قومه في الدعاء لتظهر كرامته وحده، كذلك كان استسقاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على النبر لما قال له الأعرابي هلك الزرع والضرع فادع الله أن يسقينا والحديث في الصحيحين .

وقوله لقومه مؤذن بأن موسى لم يصبه العطش وذلك لأنه خرج في تلك الرحلة موقناً أن الله حافظهم ومبلغهم إلى الأرض المقدسة فلذلك وقاه الله أن يصبه جوع أو عطش وكلل وكذلك شأن الأنبياء فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث وصال الصوم: إني لست كهيتكم إني آيت عند ربى يطعمنى ويسقئنى - قال ابن عرفة في تفسيره أخذ المازرى من هذه الآية جواز استسقاء الخصب للمجذب لأن موسى عليه السلام لم ينله ماناهم من العطش ورده ابن عرفة بأنه رسولهم وهو معهم اه . وهو رد متمكن إذ ليس المراد باستسقاء الخصب للمجذب الأشخاص وإنما المراد استسقاء أهل بلد لم ينلهم الجذب لأهل بلد مجدين والمسألة التي أشار إليها المازرى مختلف فيها عندنا واختار اللخمي جواز استسقاء الخصب للمجذب لأنه من التعاون على البر ولأن دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة وقال المازرى فيه نظر لأن السلف لم يفعلوه .

وعصا موسى هي التي ألقاها في مجلس فرعون فتلقفت ثماين السحرة وهي التي كانت في يد موسى حين كلمه الله في بركة سيناء قبل دخوله مصر وقد رويت في شأنها أخبار لا يصح منها شيء فقليل إنها كانت من شجر آس الجنة أهبطها آدم معه فورثها موسى ولو كان هذا صحيحاً لعد موسى في أوصافها حين قال هي عصا الخ فإنه أكبر أوصافها . والمصا بالقصر أبداً ومن قال عصاه بالهاء فقد لحن وعن الفراء أن أول لحن ظهر بالعراق قولهم عصاى .

وال (أل) في الحجر لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت، أوللمهد مشيراً إلى حجر عرفه موسى بوحي من الله وهو حجر صخر في جبل حوريب الذي كلم الله منه موسى كما ورد في سفر الخروج وقد وردت فيه أخبار ضمنية .

والفاء في قوله فانتجرت قالوا هي فاء الفصيحة ومعنى فاء الفصيحة أنها الفاء العاطفة إذ لم يصلح المذكور بعدها لأن يكون معطوفاً على المذكور قبلها فيتمين تقدير معطوف

آخر بينهما يكون ما بعد الفاء معطوفاً عليه وهذه طريقة السكاكي فيها وهي المثل . وقيل إنها التي تدل على محذوف قبلها فإن كان شرطاً فالفاء فاء الجواب وإن كان مفرداً فالفاء عاطفة ويشملها اسم فاء الفصيحة وهذه طريقة الجمهور على الوجهين قسميتها بالفصيحة لأنها أفصحت عن محذوف ، والتقدير في مثل هذا فضرِب فانتجرت وفي مثل قول عباس ابن الأحنف :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القول فقد جئنا خراسانا

أى إن كان القول بعد الوصول إلى خراسان فقد جئنا خراسان أى فالتفتل فقد جئنا . وعندى أن الفاء لا تعد فاء فصيحة إلا إذا لم يستقم عطف ما بعدها على ما قبلها فإذا استقام خفي الفاء العاطفة والحذف إيجاز وتقدير المحذوف لبيان المعنى وذلك لأن الانفجار مترتب على قوله تعالى لموسى « اضرب بعصاك الحجر » لظهور أن موسى ليس ممن يشك في امتثاله بل ولظهور أن كل سائل أمراً إذا قيل له افعل كذا أن يعلم أن ما أمر به هو الذى فيه جوابه كما يقول لك التلميذ ما حكم كذا ؟ فتقول افتح كتاب الرسالة في باب كذا ، ومنه قوله تعالى الآتى « اهبطوا مصرأ » وأما تقدير الشرط هنا أى فإن ضربت فقد انتجرت إلخ فغير بين ومن السجب ذكره في الكشف .

وقوله « قد علم كل أناس مشربهم » قال العكبرى وأبوحيان إنه استئناف، وما يريدان الاستئناف البياني ولذلك فصل كأن سائلاً سأل عن سبب انقسام الانفجار إلى اثنتى عشرة عيناً فقيل قد علم كل سبط مشربهم والأظهر عندى أنه حال جردت عن الواو لأنه خطاب لمن يعقلون القصة فلا معنى لتقدير سؤال . والمراد بالأناس كل ناس سبط من الأسباط .

وقوله « كلوا واشربوا من رزق الله » مقول قول محذوف وقد جمع بين الأكل والشرب وإن كان الحديث على السق لأنه قد تقدمه إزال المن والسلوى، وقيل هناك « كلوا من طيبات ما رزقناكم » فلما شفع ذلك بالماء اجتمع المتان .

وقوله « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » من جملة ما قيل لهم ووجه النهي عنه أن النعمة قد تنسى العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد قال تعالى « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » « ولا تعثوا » مضارع عثى كرضى ، وهذه لغة أهل الحجاز وهي (٣٢ / ١ - التحرير)

الفصحى فقوله « ولا تمثوا » بوزن لا ترضوا ومصدره عند أهل اللغة يقتضى أن يكون بوزن رضى ولم أر من صرح به وذكر له فى اللسان مصادر المَثَى والمَثَى بضم العين وكسرها مع كسر التاء فيهما وتشديد الياء فيهما ، والمَثَانِ بفتحين وفى لغة غير أهل الحجاز عثا يمثو مثل : مما يسمو ولم يقرأ أحد من القراء « ولا تمثوا » بضم التاء .

وهو أشد الفساد وقيل هو الفساد مطلقا وعلى الوجهين يكون مفسدين حالا مؤكدة لعاملها . وفى الكشف جعل معنى لا تمثوا لا تتماذوا فى فسادكم فجعل النهى عنه هو الدوام على الفعل وكأنه يأتى صحة الحال المؤكدة للجملة الفعلية فحاول المغايرة بين « لا تمثوا » وبين « مفسدين » تجنباً للتأكيده ذلك هو مذهب الجمهور ولكن كثيراً من المحققين خالف ذلك ، واختار ابن مالك التفصيل فإن كان معنى الحال هو معنى العامل جعلها شبيهة بالمؤكدة لصاحبها كما هنا وخص المؤكدة لمضمون الجملة الواقعة بعد الاسمية نحو زيد أبوك عطوفاً وقول سالم بن دارة اليربوعى :

أنا ابن دارة معروفاتها نسبي وهل بدارة يا للناس من عار

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّيِّهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالِ اتَّسَبَّدُوا إِنَّ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنْ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

هى معطوفة على الجمل قبلها بأسلوب واحد، وإسناد القول إلى ضمير المخاطبين جار على ما تقدم فى نظائره وما تضمنته الجمل قبلها هو من تعداد النعم عليهم محضة أو مخلوطة بسوء شكرهم وبترتب النعمة على ذلك الصنيع بالمفو ونحوه كما تقدم، فالظاهر أن يكون مضمون هذه الجملة نعمة أيضاً، والمفسرين حيرة فى الإشارة إليها فيؤخذ من كلام الفخران قوله تعالى « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » هو كالإجابة لما طلبوه بمعنى والإجابة بإنعام ولو كان معلقاً على دخول قرية من القرى ولا يخفى أنه بعيد جداً لأن إعطائهم ما سألوه لم يثبت وقوعه . ويؤخذ من كلام المفسرين الذى صدر الفخر بنقله ووجهه عبد الحكيم أن سؤالهم تعويض المن والسلوى بالبقل ونحوه ممصية لما فيه من كراهة النعمة التى أنعم الله بها عليهم إذ عبروا عن

تناولها بالصبر والصبر هو حمل النفس على الأمر المكروه ويدل لذلك أنه أنكر عليهم بقوله « أتستبدلون الذي هو أدنى » فيكون محل النعمة هو الصفح عن هذا الذنب والتنازع معهم إلى الإجابة بقوله « اهبطوا » ولا يخفى أن هذا بعيد إذ ليس في قوله « اهبطوا » إنعام عليهم ولا في سؤالهم ما يدل على أنهم عصوا لأن طلب الانتقال من نعمة لغيرها لفرض معروف لا يعد معصية كما بينه الفخر . فالذي عندي في تفسير الآية أنها انتقال من تعداد النعم المعقبة بنعم أخرى إلى بيان سوء اختيارهم في مشهوراتهم والاختيار دليل عقل اللبيب ، وإن كان يختار مباحا ، مع ما في صيغة طلبهم من الجفاء وقلة الأدب مع الرسول ومع النعم إذ قالوا لن نصبر فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية وآتوا بما دل عليه لن في حكاية كلامهم من أنهم لا يتناولون المن والسلوى من الآن فإن لن تدل على استغراق النفي لأزمته فعل نصبر من أولها إلى آخرها وهو معنى التأييد وفي ذلك إلقاء لموسى أن يبادر بالسؤال يظنون أنهم يأسوه من قبول المن والسلوى بعد ذلك الحين فكان جواب الله لهم في هذه الطلبة أن قطع عنايته بهم وأهملهم ووكلمهم إلى نفوسهم ولم يُرهم ما عودهم من إزال الطعام وتفجير العيون بعد فلق البحر وتظليل الغمام بل قال لهم « اهبطوا مصرا » فأمرهم بالسمي لأنفسهم وكفى بذلك تأديبا وتوبيخا قال الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله : من جهل المرید أن يسئ الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول لو كان في هذا إساءة لعوقبت فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد، وقد يقام مقام البعد من حيث لا يدري، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد ، والمقصود من هذا أن ينتقل من تعداد النعم إلى بيان تلقيهم لها بالاستخفاف لينتقل من ذلك إلى ذكر انقلاب أحوالهم وأسباب خذلانهم وليس شيء من ذلك بمقتضى كون السؤال معصية فإن العقوبات الدنيوية وحرمان الفضائل ليست من آثار خطاب التكليف ولكنها من أشباه خطاب الوضع ترجع إلى ترتب المسببات على أسبابها وذلك من نوااميس نظام العالم وإنما الذي يدل على كون الجزى عليه معصية هو العقاب الأخرى وبهذا زالت الحيرة واندفع كل إشكال وانتظم سلك الكلام .

وقد أشارت الآية إلى قصة ذكرتها التوراة بمجملته منتثرة وهي أنهم لما ارتحلوا من بركة سيناء من « حوريب » ونزلوا في بركة « فاران » في آخر الشهر الثاني من السنة الثانية من الخروج سائر إلى جهات « حبرون » فقالوا تذكرونا السمك الذي كنا نأكله في مصر

مجاناً (أى يصطادونه بأنفسهم) والقضاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم وقديست نفوسنا فلا نرى إلا هذا المن فبكوا ففضب الله عليهم وسأله موسى المفو فعفا عنهم وأرسل عليهم السلوى فادخروا منها طعام شهر كامل .

والتعبير بلن المفيدة لتأييد النفي في اللغة العربية لأداء معنى كلامهم المحكى هنا في شدة الضجر وبلوغ الكراهية منهم حدها الذى لا طاقة عنده . فإن التأييد يفيد استغراق النفي في جميع أجزاء الأبد أولها وآخرها فلن في نفي الأفعال مثل لا التبرئة^(١) في نفي النكرات . ووصفوا الطعام بواحد وإن كان هو شيئين المن والسلوى لأن المراد أنه متكرر كل يوم .

وجملة يخرج لنا « إلى آخرها هي مضمون ما طلبو منه أن يدعو به فعى في معنى مقول قول محذوف كأنه قيل قل لربك يخرج لنا ومقتضى الظاهر أن يقال أن يخرج لنا فعدل عن ذلك إلى الإتيان بفعل مجزوم في صورة جواب طلبهم إيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابهم حتى كأن إخراج ما تنبت الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربه، وهذا أسلوب تكرر في القرآن مثل قوله « قل لعباد الذين آمنوا يقيموا الصلاة » و « قل لعبادى يقولوا التى هي أحسن » وهو كثير فهو بمنزلة شرط وجزاء كأنه قيل إن تدع ربك بأن يخرج لنا يخرج لنا، وهذا بتزليل سبب السبب منزلة السبب فجزم الفعل المطلوب في جواب الأمر بطلبه لله للدلالة على تحقق وقوعه لثقتهم بإجابة الله تعالى دعوة موسى، وفيه تحريض على إيجاد ما علق عليه الجواب كأنه أمر في مكنته فإذا لم يفعل فقد شح عليهم بما فيه نعمهم . والإخراج: الإبراز من الأرض، ومن الأولى تبعيضية والثانية بيانية أو الثانية أيضاً تبعيضية لأنهم لا يطلبون جميع البقل بل بعضه، وفيه تسهيل على المسؤول ويكون قوله من بقلها حالا من ما أو هو بدل من ما تنبت بإعادة حرف الجر، وعن الحسن « كانوا قوما فلاحة فزعوا إلى عكرهم »^(٢) وقد اختلف في القوم فقيل هو الثوم بالمثلثة وإبدال الثاء فاء شائع في كلام العرب كما قالوا جدت وجدف وتلغ وفلغ، وهذا هو الأظهر والموافق لما عد معه . ولما في التواراة . وقيل القوم الحنطة وأنشد الزجاج لا حيحة بن الجلاح :

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً ورد المدينة من مزارع قوم

(١) هي النافية للجنس ، المفيدة لاستغراق النفي جميع أفراد الجنس .

(٢) العكر - بكسر العين وسكون الكاف - الأصل .

(يريد مزارع الحنطة) وقيل القوم الحمص بلغة أهل الشام .

وقوله « قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » هو من كلام موسى وقيل من كلام الله وهو توبيخ شديد لأنه جرده عن المقنعات وعن الزجر ، واقتصر على الاستفهام المقصود منه التعجب فالتوبيخ . وفي الاستبدال للخير بالأدنى النداء بنهاية حماقتهم وسوء اختيارهم .

وقوله «أتستبدلون» السين والتاء فيه لتأكيد الحدث وليس للطلب فهو كقوله « واستغنى الله » وقولهم استجاب بمعنى أجب ، واستكبر بمعنى تكبر ، ومنه قوله تعالى « كان شره مستطيرا » في سورة الإنسان . وفعل استبدل مشتق من البذل بالتحريك مثل شبه ، ويقال بكسر الباء وسكون الدال مثل شبه ويقال بديل مثل شبه وقد سمع في مشتقاته استبدل وأبدل وبذل وتبدل وكأها أفعال مزيدة ولم يسمع منه فعل مجرد وكأنهم استفنوا بهذه الزيدة عن المجرد ، وظاهر كلام صاحب الكشف في سورة النساء عند قوله تعالى « ولا تبدلوا الخبيث بالطيب » أن استبدل هو أصلها وأكثرها وأن تبدل محمول عليه لقوله والتفعل بمعنى الاستفعال غزير ومنه التمجيل بمعنى الاستعجال والتأخر بمعنى الاستخار .

وجميع أفعال مادة البذل تدل على جعل شيء مكان شيء آخر من الذوات أو الصفات أو عن تمويض شيء بشيء آخر من الذوات أو الصفات .

ولما كان هذا معنى الحدث المصوغ منه الفعل اقتضت هذه الأفعال تعدية إلى متعلقين إما على وجه المفعولية فيهما معاً مثل تعلق فعل الجمل ، وإما على وجه المفعولية في أحدهما والجر للآخر مثل متعلق أفعال التعويض كاشتري وهذا هو الاستعمال الكثير ، فإذا تعدى الفعل إلى مفعولين نحو « يوم تبدل الأرض غير الأرض » كان المفعول الأول هو الزال والثاني هو الذي يخلقه نحو قوله تعالى « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » « يوم تبدل الأرض غير الأرض » وقولهم أبدلت الخلقه خاتماً ، وإذا تمدت إلى مفعول واحد وتمدت إلى الآخر بالباء وهو الأكثر فالنصب هو المأخوذ والجرور هو المبدول نحو قوله هنا « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير - وقوله - ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل

سواء السبيل - وقوله في سورة النساء - ولا تبدلوا الخبيث بالطيب » ، وقد يجر المعمول الثاني بمن التي هي بمعنى باء البدلية كقول أبي الشيص :

بُدِّلْتُ مِنْ مُرْدِ الشَّبَابِ مِلَادَةً خَلَقًا وَبُسْ مَثُوبَةً الْمُقْتَنَاضِ

وقد يعدل عن تعمية الفعل إلى الشيء المعوض ويعدى إلى أخذ العوض فيصير من باب أعطى فينصب مفعولين وينبه على التروك بما يدل على ذلك من نحو من كذا ، وبعد كذا ، كقوله تعالى « وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا » التقدير ليعبدلن خوفهم أمنا هذا تحرير طريق استعمال هذه الأفعال .

ووقع في الكشف عند قوله تعالى « ولا تبدلوا الخبيث بالطيب » ما يقتضى أن فعل بدل له استعمال غير استعمال فعل استبدل وتبدل بأنه إذا عدى إلى المعمول الثانى بالباء كان مدخول الباء هو المأخوذ وكان المنصوب هو المتروك والمعطى فقرره القطب في شرحه بما ظاهره أن بدّل لا يكون في معنى تعديته إلا مخالفا لتبدل واستبدل ، وقرره التفتراني بأن فيه استعمالين إذا تعدى إلى المعمول الثانى بالباء أحدهما يوافق استعمال تبدل والآخر بعكسه ، والأظهر عندى أن لا فرق بين بدل وتبدل واستبدل وأن كلام الكشف مُشْكَلٌ وحسبك أنه لا يوجد في كلام أئمة اللغة ولا في كلامه نفسه في كتاب الأساس .

فالأمر في قوله اهبطوا للإباحة المشوبة بالتوبيخ أى إن كان هذا همكم فاهبطوا بقرينة قوله « أتبديلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » فالعنى اهبطوا مصرا من الأمصار يعنى وفيه إعراض عن طلبهم إذ ليس حولهم يومئذ بلد قريب يستطيعون وصوله .

وقيل أراد اهبطوا مصرَ أى بلدَ مصرَ بلدَ القبط أى ارجعوا إلى مصر التي خرجتم منها والأمر لمجرد التوبيخ إذ لا يمكنهم الرجوع إلى مصرَ . واعلم أن مصر على هذا المعنى يجوز منعه من الصرف على تأويله بالبقعة فيكون فيه العلمية والتأنيث ، ويجوز صرفه على تأويله بالمكان أو لأنه مؤنث ثلاثى ساكن الوسط مثل هُنْدُ فهو في قراءة ابن مسعود بدون تنوين وأنه في مصحف أبى بن كعب بدون ألف وأنه ثبت بدون ألف في بعض مصاحف عثمان قاله ابن عطية ، وذكر أن أشهب قال قال لى مالك هي عندى مصر قريتك مسكنُ فرعون اهـ ويكون قول موسى لهم « اهبطوا مصرأ » أمراً قصد منه التهديد على تذكّرهم أيام ذلهم وعنائهم وتمنيهم الرجوع لتلك المعيشة ، كأنه يقول لهم ارجعوا إلى ما كنتم فيه إذ لم تقدروا

قدر الفضائل النفسية ونعمة الحرية والاستقلال . وربما كان قوله « اهبطوا » دون نهبط مؤذنا بذلك لأنه لا يريد إدخال نفسه في هذا الأمر وهذا يذكر بقول أبي الطيب :

فإن كان أعجبكم عاممكم فعودوا إلى رخص في القابل

وقوله فإن لكم ما سألتهم اظاهر أن الفاء للتعقيب عطفت جملة إن لكم ما سألتهم على جملة اهبطوا للدلالة على حصول سؤالهم بمجرد هبوطهم مصر أو ليست مفيدة للتعليل إذ ليس الأمر بالهبوط يحتاج إلى التعليل بمثل مضمون هذه الجملة لظهور المقصود من قوله اهبطوا مصرًا لأنه ليس بمقام ترغيب في هذا الهبوط حتى يشجع المأمور بتعليل الأمر والظاهر أن عدم إرادة التعليل هو الداعي إلى ذكر فاء التعقيب لأنه لو أريد التعليل لكانت إن مغنية غناء الفاء على ما صرح به الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز في الفصل الخامس والفصل الحادى عشر من فصول شتى في النظم إذ يقول « واعلم أن من شأن إن إذا جاءت على هذا الوجه (أى الذى فى قول بشار: بكرأ صاحبى قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

أن كفى غناء الفاء العاطفة مثلاً وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجبياً فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف مقطوعاً موصولاً معاً - وقال - إنك ترى الجملة إذا دخلت إن ترتبط بما قبلها وتأنف معه حتى كأن الكلامين أفرغاً إفراغاً واحداً حتى إذا أسقطت إن رأيت الثانى منهما قد نبا عن الأول وتجنأى معناه عن معنى حتى تجىء بالفاء فتقول مثلاً :

بكرأ صاحبى قبل الهجير بكرأ فالنجاح فى التبكير

ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة وهذا الضرب كثير فى التنزيل جداً من ذلك قوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم » وقوله « يا بنى أقم الصلاة » إلى قوله « إن ذلك من عزم الأمور » وقال « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » إلخ . فظاهر كلام الشيخ أن وجود إن فى الجملة المقصود منها التعليل والربط مغن عن الإتيان بالفاء ، وأن الإتيان بالفاء حينئذ لا يناسب الكلام البليغ إذ هو كالجمع بين العوض والم عوض عنه فإذا وجدنا الفاء مع إن علمنا أن الفاء لجرد العطف وإن لإرادة التعليل والربط بين الجملتين المتعاطفتين بأكثر من معنى التعقيب . ويستخلص من ذلك أن مواقع التعليل هى التى يكون فيها معناه بين مضمون الجملتين كالأمثلة التى ذكرها .

وجعل أبو حيان في البحر المحيط جملة «فإن لكم ما سألتكم» جواباً للأمر وزعم أن الأمر كما يجاب بالفعل يجاب بالجملة الاسمية ولا يخفى أن كلا المعنيين ضعيف ههنا لعدم قصد الترغيب في هذا المهبوط حتى يعمل أو يملق، وإنما هو كلام غضب كما تقدم. واقتران الجملة بأن المؤكدة لتنزيلهم منزلة من يشك لبعدهم بما سألوه حتى يشكون هل يجدونه من شدة شوقهم، والمحـب بسوء الظن مـفـرى .

﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾

عطف على الجمل المتقدمة بالواو وبدون إعادة إذ، فأما عطفه فلأن هاته الجملة لها مزيد الارتباط بالجمل قبلها إذ كانت في معنى النتيجة والأثر لدلول الجمل قبلها من قوله «وإذ نجيناكم من آل فرعون» فإن مضمون تلك الجمل ذكر مامن الله تعالى به عليهم من نعمة تحريرهم من استعباد القبط إياهم وسوقهم إلى الأرض التي وعدهم فتضمن ذلك نعمتي التحرير والتمكين في الأرض وهو جمل الشجاعة طوع يدهم لو فعلوا فلم يقدروا قدر ذلك وتمنوا العود إلى المعيشة في مصر إذ قالوا إن نصبر على طعام واحد كما فصلناه لكم هنا لك مما حكته التوارة وتقاسوا عن دخول القرية وجبنوا عن لقاء العدو كما أشارت له الآية الماضية وفصلته آية المائدة فلا جرم إذ لم يشكروا النعمة ولم يقدروها أن تنتزع منهم ويسلبوها ويعوضوا عنها بضدها وهو الذلة المقابلة للشجاعة إذ لم يثقوا بنصر الله إياهم والمسكنة وهي العبودية فتكون الآية مسوقة مساق المجازاة للكلام السابق فهذا وجه العطف .

وأما كونه بالواو دون الفاء فليكون خبراً مقصوداً بذاته وليس متفرعاً على قول موسى لهم «أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير» لأنهم لم يشكروا النعمة فإن شكر النعمة هو إظهار آثارها المقصودة منها كإظهار النصر للحق بنعمة الشجاعة وإغاثة الملهوفين بنعمة الكرم وتنقيف الأذهان بنعمة العلم فكل من لم يشكر النعمة فهو جدير بأن تسلب عنه ويعوض بضدها قال تعالى «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خبط وأثل» الآية، ولو عطف بغير الواو لكان ذكره تبعاً لذكر سببه فلم يكن له من الاستقلال ما ينبه البال .

« فالضمير في قوله وضربت عليهم وباءوا إلخ عائدة إلى جميع بني إسرائيل لا إلى خصوص الذين أبوا دخول القرية والذين قالوا لن نصبر على طعام واحد بدليل قوله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق فإن الذين قتلوا النبيين هم أبناء الذين أبوا دخول القرية وقالوا « لن نصبر » فالإتيان بضمير الغيبة هنا جار على مقتضى الظاهر لأنهم غير المخاطبين فليس هو من الالتفات إذ ليس قوله « وضربت عليهم الذلة » إلخ من بقية جواب موسى إياهم لما علمت من شموله للمتحدث عنهم الآيين دخول القرية ولغيرهم ممن أتى بمدحهم فقد جاء ضمير الغيبة على أصله، أما شموله للمخاطبين فإنما هو بطريقة التعريض وهو لزوم توارث الأبناء أخلاق الآباء وشمائهم كما قررناه في وجه الخطابات الماضية من قوله « وإذ فرقنا بكم البحر » الآيات ويؤيده التعميل الآتي بقوله « ذلك بأنهم كانوا يكفرون » المشعر بأن كل من اتصف بذلك فهو جدير بأن يثبت له من الحكم مثل ما ثبت للآخر .

والضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة . يقال ضرب بمصا ويده وبالسيف وضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق . فنه ضرب في الأرض . سار طويلا ، وضرب قبة بيتا في موضع كذا بمعنى شدها ووثقها من الأرض . قال عبدة بن الطبيب :

* إن التي ضربت بيتا مهاجرة *

وقال زياد الأعجم :

* في قبة ضربت على ابن الحشرج *

وضرب الطين على الحائط ألصقه وقد تقدم ما لجميع هذه المعاني عند قوله تعالى « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » .

فقوله « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » استعارة مكنية إذ شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها وذكر الضرب تخييل لأنه ليس له شبيه في علائق المشبه . ويجوز أن يكون ضربت استعارة تبعية وليس ثمة مكنية بأن شبه لزوم الذلة لهم ولصوقها بلصوق الطين بالحائط، ومعنى التبعية أن المنظور إليه في التشبيه هو الحدث والوصف لا الذات بمعنى أن جريان الاستعارة في الفعل ليس بعنوان كونه تابعا لفاعل كما في التخيلية بل بعنوان كونه حدثا وهو معنى قولهم أجريت في الفعل تبعا لجريانه

في المصدر وبه يظهر الفرق بين جعل ضربت تخيلاً وجعله تبعية وهي طريقة في الآية سلكها الطيبي في شرح الكشاف وخالفه التفّزّاني وجعل الضرب استعارة تبعية بمعنى الإحاطة والشمول سواء كان المشبه به القبة أو الطين ، وها احتمالان مقصودان في هذا المقام يشعر بهما البلغاء .

ثم إن قوله تعالى « وضربت عليهم الذلة » ليس هو من باب قول زياد الأعجم :

إن السباحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج^(١)

لأن القبة في الآية مشبه بها وليست بموجودة والقبة في البيت يمكن أن تكون حقيقة فالآية استعارة وتصريح والبيت حقيقة وكناية كما نبه عليه الطيبي وجعل التفّزّاني الآية على الاحتمالين في الاستعارة كناية عن كون اليهود أذلاء متصاغرين وهي نكت لا تتزاحم . والذلة الصغار وهي بكسر الذال لا غير وهي ضد العزة ولذلك قابل بينهما السموأل أو الحارثي في قوله :

وما ضَرَرْنَا أنا قليل وجارُنا عَزِيز وجارُ الأكثرين ذليل

والمسكنة الفقر مشتقة من السكون لأن الفقر يقلل حركة صاحبه . وتطلق على الضعف ومنه المسكين للفقير . ومعنى لزوم الذلة والمسكنة لليهود أنهم فقدوا البأس والشجاعة وبدا عليهم سيما الفقر والحاجة مع وفرة ما أنعم الله عليهم فإنهم لما سئموها صارت لديهم كالعدم ولذلك صار الحرص لهم سجية باقية في أعقابهم .

والبوء الرجوع وهو هنا مستعار لانقلاب الحالة مما يرضى الله إلى غضبه .

(١) البيت لزياد الأعجم من قصيدة في عبد الله بن الحشرج القيسي أمير نيسابور لبني أمية وكان عبد الله جواداً سيّداً ، وقول زياد في قبة كناية عن نسبة الكرم إلى عبد الله وإن لم تكن لعبد الله قبة سكن مع جواز أن تكون له قبة على قاعدة الكناية . أما الآية فبنية على تشبيه الذلة بالقبة فالقبة ممتعة الحصول لأن المشبه به لا يكون واقعا

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِقَالَتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^١

استئناف بياني أثاره ما شنع به حالهم من لزوم الذلة والمسكنة لهم والإشارة إلى ما تقدم من قوله وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب . وأفرد اسم الإشارة لتأويل المشار إليه بالذكور وهو أولى بجواز الإفراد من إفراد الضمير في قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

قال أبو عبيدة لرؤية : إن أردت الخطوط فقل كأنها وإن أردت السواد والبياض فقل كأنهما فقال رؤبة « أردت كأن ذلك وملك » وإنما كان ما في الآية أولى بالإفراد لأن الذلة والمسكنة والغضب مما لا يشاهد فلا يشار إلى ذاتها ولكن يشار إلى مضمون الكلام وهو شيء واحد أى مذكور ومقول ومن هذا قوله تعالى « ذلك نتلو عليك من الآيات والذكر الحكيم » أى ذلك القصص السابق . ومنه قوله تعالى « عوان بين ذلك » وسيأتى وقال صاحب الكشاف^(١) « والذي حسن ذلك أن أسماء الإشارة ليست تثنيها وجمعها وتأتيها على الحقيقة وكذلك الموصولات ولذلك جاء الذى بمعنى الجمع اه قيل أراد به أن جمع أسماء الإشارة وتثنيها لم يكن بزيادة علامات بل كان بألفاظ خاصة بتلك الأحوال فلذلك كان استعمال بعضها فى معنى بعض أسهل إذا كان على تأويل . وهو قليل الجدوى لأن المدار على التأويل والمجاز سواء كان فى استعمال لفظ فى معنى آخر أو فى استعمال صيغة فى معنى أخرى فلا حسن يخص هذه الألفاظ فيما يظهر فلمعله أراد أن ذا موضوع لجنس ما يشار إليه .

والذى موضوع لجنس ما عرف بصلة فهو صالح للإطلاق على الواحد والثنى والجمع والمذكر والمؤنث وإن ما يقع من أسماء الإشارة والموصولات للمثنى نحو ذان وللجمع نحو أولئك ، إنما هو اسم بمعنى الثنى والجمع لا أنه تثنية مفرد، وجمع مفرد، فذا يشار به للمثنى والجمع ولا عكس فلذلك حسن استعمال المفرد منها للدلالة على المتعدد .

وباءوا بقوله « بأنهم كانوا يكفرون » سببية أى أن كفرهم وما معه كان سببا لعقابهم فى الدنيا بالذلة والمسكنة وفى الآخرة بغضب الله وفيه تحذير من الوقوع فى مثل ما وقعوا فيه .

(١) فى تفسير قوله تعالى « عوان بين ذلك »

وقوله « ويقتلون النبيين بغير الحق » خاص بأجيال اليهود الذين اجترموا هذه الجريمة العظيمة سواء في ذلك من باشر القتل وأمر به ومن سكنت عنه ولم ينصر الأنبياء . وقد قتل اليهود من الأنبياء أشعيا بن أموص الذي كان حيا في منتصف القرن الثامن قبل المسيح قتله الملك منسى ملك اليهود سنة ٧٠٠ قبل المسيح نشر نشرا على جذع شجرة .

وأرميا النبي الذي كان حيا في أواسط القرن السابع قبل المسيح وذلك لأنه أكثر التوبيخات والنصائح لليهود فرجموه بالحجارة حتى قتلوه وفي ذلك خلاف . وزكرياء الأخير أبا يحيى قتله هيرودس العبراني ملك اليهود من قبل الرومان لأن زكرياء حاول تخليص ابنه يحيى من القتل وذلك في مدة نبوة عيسى ، ويحيى بن زكرياء قتله هيرودس لغضب ابنة اخت هيرودس على يحيى .

وقوله بغير الحق أى بدون وجه معتبر في شريعتهم فإن فيها : « أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » فهذا القيد من الاحتجاج على اليهود بأصول دينهم لتخليد مذمتهم ، وإلا فإن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال ، وإنما قال الأنبياء لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ قال تعالى « إنا لننصر رسلنا » وقال « والله يعصمك من الناس » ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافيا لحكمة الإرسال ولكن الله أنهى مدة رسالته بحصول المقصد مما أرسل إليه .

وقوله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » يحتمل أن تكون الإشارة فيه إلى نفس المشار إليه بذلك الأولى فيكون تكريرا للإشارة لزيادة تمييز المشار إليه حرصا على معرفته ، ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة ولغضب الله تعالى عليهم ، والآية حينئذ من قبيل التكرير وهو مغنى عن العطف مثل قوله تعالى « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » ويجوز أن يكون المشار إليه بذلك الثانى هو الكفر بآيات الله وقتلهم النبيين فيكون ذلك إشارة إلى سبب ضرب الذلة الخ فبا بعد كلمة ذلك هو سبب السبب تنبيها على أن إيمان العاصي يفضى إلى التفلل فيها والتنقل من أصفرها إلى أكبرها .

والباء على الوجهين سببية على أصل معناها . ولا حاجة إلى جعل إحدى الباءين بمعنى

مع على تقدير جمل اسم الإشارة الثاني تكريرا للأول أخذا من كلام الكشف الذي احتفل به الطيبي فأطال في تقريره وتفنن توجيهه فإن فيه من التكلف ما ينبو عنه نظم القرآن . وكان الذي دعا إلى فرض هذا الوجه هو خلو الكلام عن عاطف يعطف بما عصوا على بأنهم كانوا يكفرون إذا كانت الإشارة لمجرد التكرير . ولقد نبهناك آنفا إلى دفع هذا بأن التكرير يعني غناء العطف .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّالِحِينَ مِنْ ءَمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ 62

توسط هاته الآية بين آيات ذكر بنى إسرائيل بما أنعم الله عليهم وبما قابلوا به تلك النعم من الكفران وقلة الاكتراث فجاءت معترضة بينها لمناسبة يدرکها كل بليغ وهي أن ما تقدم من حكاية سوء مقابلتهم لنعم الله تعالى قد جرت عليهم ضرب الذلة والمسكنة ورجوعهم بنفض من الله تعالى عليهم ولما كان الإنحاء عليهم بذلك من شأنه أن يفزعهم إلى طلب الخلاص من غضب الله تعالى لم يترك الله تعالى عادته مع خلقه من الرحمة بهم وإرادته صلاح حالهم فبين لهم في هاته الآية أن باب الله مفتوح لهم وأن اللجأ إليه أمرهين عليهم وذلك بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات ومن بديع البلاغة أن قرن معهم في ذلك ذكر بقية من الأمم ليكون ذلك تأنيسا لوحشة اليهود من القوارع السابقة في الآيات الماضية وإنصافا للصالحين منهم ، واعترافا بفضلهم ، وتبشيرا لصالحى الأمم من اليهود وغيرهم الذين مضوا مثل الذين كانوا قبل عيسى وامتثلوا لأنبيائهم ، ومثل الحواريين ، والموجودين في زمن نزول الآية مثل عبد الله بن سلام وصهيب ، فقد وفّت الآية حق الفريقين من الترغيب والبشارة ، وراعت المناسبتين للآيات المتقدمة مناسبة اقتران الترغيب بالترهيب ، ومناسبة ذكر الضد بعد الكلام على ضده .

فجىء (إنَّ) هنا لمجرد الاهتمام بالخبر وتحقيقه لدفع توهم أن ما سبق من المذمات شامل لجميع اليهود فإن كثيراً من الناس يتوهم أن سلف الأمم التي ضلّت كانوا مثلهم في الضلال . ولقد عجب بعض الأصحاب لما ذكرت لهم أنى حين حلت في رومة تبركت بزيارة

قبر القديس بطرس توهماً منهم بكون قبره في كنيسة رومة فينت لهم أنه أحد الحوارين أصحاب المسيح عيسى عليه السلام .

وابتدئ بذكر المؤمنين للاهتمام بشأنهم ليكونوا في مقدمة ذكر الفاضلين فلا يذكر أهل الخير إلا ويذكرون معهم ، ومن مراعاة هذا المقصد قوله تعالى في سورة النساء « لكن الراسخون في العلم منهم (أى الذين هادوا) والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك » الآية ، ولأنهم القدوة لغيرهم كما قال تعالى « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » فالمراد من الذين آمنوا في هذه الآية هم المسلمون الذين صدقوا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا لقب للأمة الإسلامية في عرف القرآن .

و « الذين هادوا » هم بنو إسرائيل وقد مضى الكلام عليهم وإنما نذكر هنا وجه وصفهم بالذين هادوا ، ومعنى هادوا كانوا يهودا أو دانوا بدين اليهود . وأصل اسم يهود منقول في العربية من العبرانية وهو في العبرانية بذال معجمة في آخره وهو علم أحد أسباط إسرائيل ، وهذا الاسم أطلق على بنى إسرائيل بعد موت سليمان سنة ٩٧٥ قبل المسيح فإن مملكة إسرائيل انقسمت بعد موته إلى مملكتين مملكة رحبعام بن سليمان ولم يتبعه إلا سبط يهوذا وسبط بنيامين وتلقب بمملكة يهوذا لأن معظم أتباعه من سبط يهوذا وجعل مقر مملكته هو مقر أبيه (أورشليم) ، ومملكة ملكها يوربعام بن بناط غلام سليمان وكان شجاعاً نجيباً فلكنه بقية الأسباط العشرة عليهم وجعل مقر مملكته (السامرة) وتلقب بمملكة إسرائيل إلا أنه وقومه أفسدوا الديانة الموسوية وعبدوا الأوثان فلأجل ذلك انتفضوا عن الجامعة الإسرائيلية ولم يدم ملكهم في السامرة إلا مائتين ونيفاً وخمسين سنة ثم انقرض على يد ملوك الآشوريين فاستأصلوا الإسرائيليين الذين بالسامرة وخربوها ونقلوا بنى إسرائيل إلى بلاد آشور عبيداً لهم وأسكنوا بلاد السامرة فريقاً من الآشوريين فمن يومئذ لم يبق لبنى إسرائيل ملك إلا ملك يهوذا بأورشليم يتداوله أبناء سليمان عليه السلام فنذ ذلك غلب على بنى إسرائيل اسم يهودا أى يهوذا ودام ملكهم هذا إلى حد سنة ١٢٠ قبل المسيح مسيحية في زمن الأمبراطور أدریان الرومانى الذى أجلى اليهود الجلاء الأخير ففرقوا في الأقطار باسم اليهود هم ومن التحق بهم من فلول بقية الأسباط .

ولعل هذا وجه اختيار لفظ « الذين هادوا » في الآية دون اليهود للإشارة إلى أنهم

الذين انتسبوا إلى اليهود ولو لم يكونوا من سبط يهوذا . ثم صار اسم اليهود مطلقاً على المتدينين بدين التوراة قال تعالى « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء » الآية ويقال يهود إذا اتبع شريعة التوراة وفي الحديث « يولد الولد على الفطرة ثم يكون أبواه إما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . ويقال هاد إذا دان باليهودية قال تعالى « وعلى الذين هادوا حرامنا كل ذي ظفر » .

وأما ما في سورة الأعراف من قول موسى « إِنَّا هَدَانَا إِلَيْكَ » فذلك بمعنى المتاب .
وأما النصارى فهو اسم جمع نصارى (بفتح فسكون) أو ناصرى نسبة إلى الناصرة وهي قرية نشأت منها مريم أم المسيح عليهما السلام وقد خرجت مريم من الناصرة قاصدة بيت المقدس فولدت المسيح في بيت لحم ولذلك كان بنو إسرائيل يدعونه يشوع الناصرى أو النصارى فهذا وجه تسمية أتباعه بالنصارى .

وأما قوله « والصايين » فقرأ الجمهور بهمزة بعد الموحدة على صيغة جمع صابى بهمزة في آخره ، وقرأ نافع وحده بياء ساكنة بعد الموحدة المكسورة على أنه جمع صابٍ منقوصاً فأما على قراءة الجمهور فالصايئون لعله جمع صابى وصابى لعله اسم فاعل صَبَاً مهموزاً أى ظهر وطلع ، يقال صَبَاً النجم أى طلع وليس هو من صَبَاً يصبو إذا مال لأن قراءة الهمز تدل على أن ترك تخفيف الهمز في غيرها تخفيف لأن الأصل توافق القراءات في المعنى . وزعم بعض علماء الأفرنج^(١) أنهم سموا صابئة لأن دينهم أتى به قوم من صبا . وأما على قراءة نافع فجعلوها جمع صاب مثل رام على أنه اسم فاعل من صبا يصبو إذا مال قالوا لأن أهل هذا الدين مالوا عن كل دين إلى دين عبادة النجوم (ولو قيل لأنهم مالوا عن أديان كثيرة إذ اتخذوا منها دينهم كما استعرفه لكان أحسن) . وقيل إنما خَفَّفَ نافع همزة الصايين فجعلها بياء مثل قراءته سَالَ سائل ، ومثل هذا التخفيف سماعي لأنه لا موجب لتخفيف الهمز المتحرك بعد حرف متحرك .

والأظهر عندي أن أصل كلمة الصابى أو الصابئة أو ما تفرع منها هو لفظ قديم من لغة عربية أو سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين من العراق وفي دائرة المعارف الإسلامية^(٢)

(١) انظر جديد لاروس باللغة الفرنسية . (٢) في فصل حرره المستشرق (كارارفو) .

أن اسم الصابئة مأخوذ من أصل عبري هو (ص ب ع) أى غطس عرفت به طائفة (الندبا) وهى طائفة يهودية نصرانية فى العراق يقومون بالتعميد كالنصارى ، ويقال الصابئون بصيغة جمع صابئ والصابئة على أنه وصف لمقدر أى الأمة الصابئة وهم التدينون بدين الصابئة ولا يعرف لهذا الدين إلا اسم الصابئة على تقدير مضاف أى دين الصابئة إضافة إلى وصف أتباعه ويقال دين الصابئة . وهذا الدين دين قديم ظهر فى بلاد الكلدان فى العراق وانتشر معظم أتباعه فيما بين الحابور ودجلة وفيما بين الحابور والفرات فكانوا فى البطائح وكسكر فى سواد واسط وفى حرّان من بلاد الجزيرة .

وكان أهل هذا الدين نبطاً فى بلاد العراق فلما ظهر الفرس على إقليم العراق أزالوا مملكة الصابئين ومنعهم من عبادة الأصنام فلم يجسروا بعد على عبادة أوثانهم . وكذلك منع الروم أهل الشام والجزيرة من الصابئين فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على التنصر فبطلت عبادة الأوثان منهم من ذلك الوقت وتظاهروا بالنصرانية فلما ظهر الإسلام على بلادهم اعتبروا فى جملة النصارى وقد كانت صابئة بلاد كسكر والبطائح معتبرين صنفاً من النصارى ينتمون إلى النبي يحيى بن زكرياء ومع ذلك لهم كتب يزعمون أن الله أنزلها على شيث بن آدم ويسمونه (أغاناديمون) ، والنصارى يسمونهم يوحناسية (نسبة إلى يوحنا وهو يحيى) .

وجامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالى وهم يؤمنون بخالق العالم وأنه واحد حكيم مقدس عن سمات الحوادث غير أنهم قالوا إن البشر عاجزون عن الوصول إلى جلال الخالق فلزم التقرب إليه بواسطة مخلوقات مقربين لديه وهى الأرواح المجردات الطاهرة المقدسة وزعموا أن هذه الأرواح ساكنة فى الكواكب وأنها تنزل إلى النفوس الإنسانية وتتصل بها بمقدار ما تقترب نفوس البشر من طبيعة الروحانيات فعبدوا الكواكب بقصد الاتجاه إلى روحانياتها ولأجل زول تلك الروحانيات على النفوس البشرية يتعين تركية النفس بتطهيرها من آثار القوى الشهوانية والغضبية بقدر الإمكان والإقبال على العبادة بالتضرع إلى الأرواح وبتطهير الجسم والصيام والصدقة والطيب وألزموا أنفسهم فضائل النفس الأربع الأصلية (وهى العفة والمدالة والحكمة والشجاعة) والأخذ بالفضائل الجزئية (المتشعبة عن الفضائل الأربع وهى الأعمال الصالحة) وتجنب الرذائل الجزئية (وهى أضداد الفضائل وهى الأعمال السيئة).

ومن العلماء من يقول إنهم يقولون بعدم الحاجة إلى بعثة الرسل وأنهم يعلمون ذلك بأن مدعى الرسالة من البشر فلا يمكن لهم أن يكونوا واسطة بين الناس والخالق . ومن العلماء من ينقل عنهم أنهم يدعون أنهم على دين نوح . وهم يقولون إن المعلمين الأولين لدين الصابئة هما أغاثاديمون وهرمس وهما شيت بن آدم . وإدريس ، وهم يأخذون من كلام الحكماء ما فيه عون على الكمال فلذلك يكثر في كلامهم المائلة لأقوال حكماء اليونان وخاصة سولون وإفلاطون وإرسطاطاليس (ولا يبعد عندي أن يكون أولئك الحكماء اقتبسوا بمض الآراء من قدماء الصابئة في العراق فإن ثمة تشابها بينهم في عبادة الكواكب وجعلها آلهة وفي إثبات إله الآلهة) .

وقد بنوا هياكل للكواكب لتكون مهابط لأرواح الكواكب وحرصوا على تطهيرها وتطيبها لكي تألفها الروحانيات وقد يجعلون للكواكب تماثيل من الصور يتوخون فيها محاكاة صور الروحانيات بحسب ظنهم .

ومن دينهم صلوات ثلاث في كل يوم ، وقبلتهم نحو مهب ريح الشمال ويتطهرون قبل الصلاة وقرأاتهم ودعواتهم تسمى الزمزمة بزائين كما ورد في ترجمة أبي إسحاق الصابي* .
ولهم صيام ثلاثين يوما في السنة ، موزعة على ثلاثة مواقيت من العام .
ويجب غسل الجنابة وغسل المرأة الحائض .

ونحرم العزوبة ، ويجوز للرجل تزوج ما شاء من النساء ولا يتزوج إلا امرأة صابئة على دينه فإذا تزوج غير صابئة أو تزوجت الصابئة غير صابي* خرجا من الدين ولا تقبل منهما توبة .

وينسلون موتاهم ويكفنونهم ويدفنونهم في الأرض . ولهم رئيس للدين يسمونه الكمر (بكاف وميم وراء) .

وقد اشتهر هذا الدين في حران من بلاد الجزيرة ، ولذلك تعرف الصابئة في كتب العقائد الإسلامية بالحرثانية (بنونين نسبة إلى حرثان على غير قياس كما في القاموس) . قال ابن حزم في كتاب الفصل : كان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا إلى أن أحدثوا فيه الحوادث فبعث الله إبراهيم عليه السلام بالحنيفية هـ .

ودين الصابئة كان معروفا للعرب في الجاهلية ، بسبب جوار بلاد الصابئة في العراق والشام لمنازل بعض قبائل العرب مثل ديار بكر وبلاد الأنباط المجاورة لبلاد تغلب وقضاة .
 ألا ترى أنه لما بحث محمد صلى الله عليه وسلم وصفه المشركون بالصابي وربما دَعَوْه بَابْنِ أَبِي كَبْشَةَ الذي هو أحد أجداد أئمة الزهريّة أمّ النبي صلى الله عليه وسلم ، كان أظهر عبادة الكواكب في قومه فزعموا أن النبي ورث ذلك منه وكَذَبُوا . وفي حديث عمران ابن حصين أنهم كانوا في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ماؤهم فابتغوا الماء فلقوا امرأة بين مزادتين على بيعير فقالوا لها انطلقى إلى رسول الله فقالت الذي يقال له الصابي قالوا هو الذي تمنين . وساق حديث تكثر الماء .

وكانوا يُسمُّون المسلمين الصُّبَاة كما ورد في خبر سعد بن معاذ، أنه كان صديقا لأمية بن خلف وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة انطلق سعد ذات يوم معتمرا فنزل على أمية بمكة وقال لأمية انظر لي ساعة خلوة لعل أطوف بالبيت فخرج به فلقيهما أبو جهل فقال لأمية يا أبا صفوان من هذا معك قال سعد فقال له أبو جهل ألا أراك تطوف بمكة أمنا وقد أويتم الصُّبَاة .

وفي حديث غزوة خالد بن الوليد إلى جذيمة أنه عرض عليهم الإسلام أو السيف فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا صباأنا الحديث .

وقد قيل إن قوما من تميم عبدوا نجم الدبران . وأن قوما من لخم وخزاعة عبدوا الشَّعْرَى العَبَّورَ ، وهو من كواكب برج الجوزاء في دائرة السرطان . وأن قوما من كنانة عبدوا القمر فظن البعض أن هؤلاء كانوا صابئة وأحسب أنهم تلقفوا عبادة هذه الكواكب عن سوء تحقيق في حقائق دين الصابئة ولم يجزم الزخشرى بأن في العرب صابئة فإنه قال في الكشف في تفسير سورة فصلت في قوله تعالى « لا تسجدُوا للشمس ولا للقمر » قال لعل ناسا منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين فنُهِوا عن ذلك .

وقد اختلف علماء الإسلام في إجراء الأحكام على الصابئة ، فمن مجاهد والحسن أنهم طائفة بين اليهود والمجوس ، وقال البيضاوى: هم قوم بين النصارى والمجوس فمن العلماء من ألحقهم بأهل الكتاب ، ومن العلماء من ألحقهم بالمجوس ، وسبب هذا الاضطراب هو اشتباه

أحوالهم وتكتمهم في دينهم، وما دخل عليه من التخليط بسبب قهر الأمم التي تغلبت على بلادهم. فالقسم الذي تغلب عليهم الفرس اختلط دينهم بالمجوسية، والذين غلب عليهم الروم اختلط دينهم بالنصرانية. قال ابن شاس في كتاب الجواهر الثمينة: قال الشيخ أبو الطاهر (يعني ابن بشير التنوخي القيرواني) مَنَعُوا ذِبَاغَ الصَّابِئَةِ لِأَنَّهُمْ بَيْنَ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ (ولا شك أنه يعني صابئة العراق، الذين كانوا قبل ظهور الإسلام على بلادهم على دين المجوسية).

وفي التوضيح على مختصر ابن الحاجب الفرعي في باب الذبائح «قال الطرطوشي: لا تؤكل ذبيحة الصابي وليست بحرام كذبيحة المجوسي» وفيه في باب الصيد «قال مالك لا يؤكل صيد الصابي ولا ذبيحته».

وفي شرح عبد الباقي على خليل «إِنَّ أَخْذَ الصَّابِئِ بِالنَّصْرَانِيَّةِ لَيْسَ بِقَوِيٍّ كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو إِسْحَاقَ التُّونِسِيُّ، وَعَنْ مَالِكٍ لَا يَتَزَوَّجُ الْمُسْلِمُ الْمَرْأَةَ الصَّابِئَةَ».

قال الجصاص في تفسير سورة العقود وسورة براءة، روى عن أبي حنيفة أن الصابئة أهل كتاب، وقال أبو يوسف ومحمد ليسوا أهل كتاب. وكان أبو الحسن الكرخي يقول الصابئة الذين هم بناحية حرَّانَ يعبدون الكواكب، فليسوا أهل كتاب عندهم جميعاً. قال الجصاص: الصابئة الذين يعرفون بهذا الاسم في هذا الوقت ليس فيهم أهل كتاب وانتحالهم في الأصل واحد أعني الذين هم بناحية حران، والذين هم بناحية البطائح وكسكرك في سواد واسط. وإنما الخلاف بين الذين بناحية حران والذين بناحية البطائح في شيء من شرائعهم وليس فيهم أهل كتاب فالذي يغلب على ظني في قول أبي حنيفة أنه شاهد قوما منهم يظهر أنهم نصارى تقيّة، وهم الذين كانوا بناحية البطائح وكسكرك ويسمىهم النصارى يوحناً سيّة وهم ينتمون إلى يحيى بن زكرياء، وينتحلون كتباً يزعمون أنها التي أنزلها الله على شيث ويحيى. ومن كان اعتقاده من الصابئين على ما وصفنا وهم الحرانيون الذين بناحية حران وهم عبدة أوثان لا ينتمون إلى أحد من الأنبياء ولا ينتحلون شيئاً من كتب الله فلا خلاف بين الفقهاء في أنهم ليسوا أهل كتاب، وأنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم وأبو يوسف ومحمد قالوا إن الصابئين ليسوا أهل كتاب ولم يفصلوا بين الفريقين وكذا قول الأوزاعي ومالك بن أنس اه. كلامه.

ووجه الاختصار في الآية ، على ذكر هذه الأديان الثلاثة مع الإسلام دون غيرها من نحو المجوسية والدهريين والزنادقة أن هذا مقام دعوتهم للدخول في الإسلام والثاب عن أديانهم التي أبطلت لأنهم أرجى لقبول الإسلام من المجوس والدهريين لأنهم يثبتون الإله المتفرد بخلق العالم ويتبعون الفضائل على تفاوت بينهم في ذلك، فلذلك اقتصر عليهم تقريباً لهم من الدخول في الإسلام . ألا ترى أنه ذكر المجوس معهم في قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » لأن ذلك مقام تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

وقوله تعالى « من آمن » يجوز أن تكون من شرطاً في موضع المبتدأ ويكون فلهم أجراً جواب الشرط، والشرط مع الجواب خبر إن ، فيكون المعنى إن الذين آمنوا من يؤمن بالله منهم فله أجره وحذف الرابط بين الجملة وبين اسم إن لأن من الشرطية عامة فكان الرابط العموم الذي شمل المبتدأ أعني اسم إن ويكون معنى الكلام على الاستقبال لوقوع الفعل الماضي في حيز الشرط أي من يؤمن منهم بالله ويعمل صالحاً فله أجره ويكون المقصود منه فتح باب الإنابة لهم بعد أن قرعوا بالقوارع السالفة وذكر معهم من الأمم من لم يذكر عنهم كفر لمناسبة ما اقتضته العلة في قوله ذلك بأنهم كانوا يكفرون وتذكيراً لليهود بأنهم لا مزية لهم على غيرهم من الأمم حتى لا يتكلموا على الأوهام أنهم أحباء الله وأن ذنوبهم مغفورة . وفي ذلك أيضاً إشارة إلى أن المؤمنين الخالصين من اليهود وغيرهم ممن سلف مثل النقباء الذين كانوا في الناجاة مع موسى ومثل يوشع بن نون وكالب بن يفته لهم هذا الحكم وهو أن لهم أجراً عند ربهم لأن إناطة الجزاء بالشرط المشتق مؤذن بالتعليل بل السابقون بفعل ذلك قبل التقييد بهذا الشرط أولى بالحكم فقد قضت الآية حق الفريقين .

ويجوز أن تكون من موصولة، بدلاً من اسم إن، والفعل الماضي حينئذ باق على الماضي لأنه ليس ثمة ما يخلصه للاستقبال ودخلت الفاء في فلهم أجراً إما على أنها تدخل في الخبر نحو قول الشاعر وهو من شواهد كتاب سيبويه * وقائلة خوّلان فانكح فئاتهم * ونحو « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم » عند غير سيبويه . وإما على أن الموصول عومل معاملة الشرط للإيدان بالتعليل فأدخلت الفاء قرينة على ذلك .

ويكون المقاد من الآية حينئذ استثناء صالحى بنى إسرائيل من الحكم، بضرب الذلة

والمسكنة والغضب من الله ويكون ذكر بقية صالحى الأمم معهم على هذا إشارة إلى أن هذه سنة الله فى معاملته خلقه ومجازاته كلا على فعله .

وقد استشكل ذكر الذين آمنوا فى عداد هؤلاء ، وإجراء قوله من آمن بالله عليهم مع أنهم مؤمنون فذكرهم تحصيل للحاصل ، فقل أريد به خصوص المؤمنين بالسنة فقط وهم المنافقون . وقيل أراد به الجميع وأراد بمن آمن من دام بالنسبة للمخلصين ومن أخلص بالنسبة للمنافقين . وهما جوابان فى غاية البعد . وقيل يرجع قوله من آمن بالله واليوم الآخر لخصوص الذين هادوا والنصارى والصايين دون المؤمنين بقرينة المقام لأنهم وصفوا بالذين آمنوا وهو حسن . وعندى أنه لا حاجة إلى شيء من ذلك ، لأن الشرط والصلة تركبت من شيئين الإيمان والعمل الصالح . والمخلصون وإن كان إيمانهم حاصلًا فقد بقى عليهم العمل الصالح فلما تركب الشرط أو الصلة من أمرين فقد علم كل أناس مشربهم وترجع كل صفة لمن يفتر إليها كلا أو بعضاً .

ومعنى من آمن بالله ، الإيمان الكامل وهو الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بقرينة المقام وقرينة قوله « وعمل صالحاً » إذ شرط قبول الأعمال ، الإيمان الشرعى لقوله تعالى « ثم كان من الذين آمنوا » . وقد عد عدم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة عدم الإيمان بالله لأن مكابرة المعجزات ، القائمة مقام تصديق الله تعالى للرسول المتحدى بها يؤول إلى تكذيب الله تعالى فى ذلك التصديق فذلك المكابر غير مؤمن بالله الإيمان الحق . وبهذا يعلم أن لا وجه لدعوى كون هذه الآية منسوخة بقوله تعالى « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » إذ لا استقامة فى دعوى نسخ الخبر إلا أن يقال إن الله أخبر به عن مؤمنى أهل الكتاب والصابئين الذين آمنوا بما جاءت به رسل الله دون تحريف ولا تبديل ولا عصيان وماتوا على ذلك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيكون معنى الآية كمنى قوله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر من يؤتى أجره مرتين « ورجل من أهل الكتاب آمن برسوله ثم آمن بى فله أجران » .

وأما القائلون بأنها منسوخة ، فأحسب أن تأويلها عندهم أن الله أمهلهم فى أول تلقى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن ينظروا فلما عاندوا نسخها بقوله « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » لئلا يفضى قولهم إلى دعوى نسخ الخبر .

وقوله تعالى « فلهم أجرهم عند ربهم » أطلق الأجر على الثواب مجازاً لأنه في مقابلة العمل الصالح والمراد به نعيم الآخرة ، وليس أجراً دنيوياً بقرينة المقام وقوله « عند ربهم » عندية مجازية مستعملة في تحقيق الوعد كما تستعمل في تحقيق الإقرار في قولهم لك عندي كذا . ووجه دلالة عند في نحو هذا على التحقق أن عند دالة على المكان فإذا أطلقت في غير ما من شأنه أن يحل في مكان كانت مستعملة في لازم المكان ، وهو وجود ما من شأنه أن يكون في مكان على أن إضافة عند لاسم الرب تعالى مما يزيد الأجر تحققا لأن المضاف إليه أكرم الكرماء فلا يفوت الأجر الكائن عنده^(١) .

وإنما أجمع الضمير في قوله « أجرهم عند ربهم » مراعاة لما صدق من ، وأفرد شرطها أو صلتها مراعاة للفظها . ومما حسن ذلك هنا وجعله في الوقع الأعلى من البلاغة أن هذين الوجهين الجائزين عريضة في معاد الموصولات وأسماء الشروط قد جمع بينهما على وجه أنبأ على قصد العموم في الموصول أو الشرط فلذلك أتى بالضمير الذي في صلتها أو فعله مناسبا للفظه لقصد العموم ثم لما جرى بالضمير مع الخبر أو الجواب جُمع ليكون عوداً على بدء فيرتبط باسم (إن) الذي جرى بالموصول أو الشرط بدلا منه أو خبراً عنه حتى يعلم أن هذا الحكم العام مراد منه ذلك الخاص أولاً ، كأنه قيل إن الذين آمنوا إلخ كل من آمن بالله وعمل إلخ فلأولئك الذين آمنوا أجرهم فعلم أنهم مما شمله العموم على نحو ما يذكره المناطقة في طي بعض المقدمات للعلم به . فهو من العام الوارد على سبب خاص .

وقوله « ولا خوف عليهم » قراءة الجميع بالرفع لأن النقي خوف مخصوص وهو خوف الآخرة . والتعبير في نقي الخوف بالخبر الاسمي وهو لا خوف عليهم لإفادة نقي جنس الخوف نفياً قاراً ، لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات ، والتعبير في نقي خوف بالخبر الفعلي وهو

(١) ذكرني هذا التقرير في حالة الدرس قصة وهي أن النعمان بن المنذر وفد عليه وفد من العرب فيه رجل من عبس اسمه شقيق ، فرض فات قبل أن يأخذ حياؤه فلما بلغ ذلك النعمان أمر بوضع حياؤه على قبره ثم أرسل إلى أهله فأخذوه فقال النابتة في ذلك :

أبقيت للعبسى فضلا ونعمة	ومحمد من باقيات المحامد
حباؤه شقيق فوق أحجار قبره	وما كان يحجي قبله قبر وافر
أني أهله منه حباؤه ونعمة	ورب امرئ يسمى لآخر قاعد

يخزنون لإفادتهم تخصيصهم بنفى الحزن فى الآخرة أى بخلاف غير المؤمنين . ولما كان الخوف والحزن متلازمين كانت خصوصية كل منهما سارية فى الآخر . واعلم أن قوله « فلهم أجرهم » مقابل لقوله « وباءوا بغضب من الله » ولذلك قرن بعند الدالة على العناية والرضى . وقوله « ولا خوف عليهم » مقابل وضربت عليهم الذلة لأن الذلة ضد العزة فالذليل خائف لأنه يخشى العدوان والقتل والغزو ، وأما العزيز فهو شجاع لأنه لا يخشى ضرا ويعلم أن ما قدره له فهو كائن قال تعالى « والله العزة لرسوله وللمؤمنين » وقوله « ولا هم يحزنون » مقابل قوله « والمسكنة » لأن المسكنة تقضى على صاحبها بالحزن وتمنى حسن العيش قال تعالى « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة » فالخوف المنفى هو الخوف الناشئ عن الذلة والحزن المنفى هو الناشئ عن المسكنة .

﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَإِذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^{٦٣} ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ^{٦٤}﴾

تذكير بقصة أخرى أرى الله تعالى أسلافهم فيها بطشه ورحمته فلم يرتدعوا ولم يشكروا وهى أن أخذ الميثاق عليهم بواسطة موسى عليه السلام أن يعملوا بالشرعة وذلك حينما تجلى الله لموسى عليه السلام فى الطور تجليا خاصا للجبل فترزع الجبل وترزّل وارْتَجَفَ وأحاط به دخان وضباب ورجود وبرق كما ورد فى صفة ذلك فى الفصل التاسع عشر من سفر الخروج وفى الفصل الخامس من سفر التثنية فلعل الجبل من شدة الزلازل وما ظهر حوله من الأسحبة والدخان والرجود صار يلوح كأنه سحابة ، ولذلك وصف فى آية الأعراف بقوله « وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » (تنقه زعزعه وتقضه) حتى يخيل إليهم أنه يهتز وهذا نظير قولهم استطاره إذا أزعجه فاضطرب فأعطوا العهد وامتثلوا لجميع ما أمرهم الله تعالى وقالوا « كل ما تكلم الله به تفعله فقال الله لموسى فليؤمنوا بك إلى الأبد » وليس فى كتب بنى إسرائيل ولا فى الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن الله قلع الطور من موضعه ورفع فوقهم وإنما ورد ذلك فى أخبار ضعاف فلذلك لم نعتمده فى التفسير . وضمائر الخطاب لتحميل الخلف تبعات السلف

كيلا يقوموا في مثلها وليستغفروا لأسلافهم عنها . والميثاق في هاته الآية كالعهد في الآيات المتقدمة مراد به الشريعة ووعدهم بالعمل بها وقد سمته كتبهم عهدا كما قدمنا وهو إلى الآن كذلك في كتبهم . وهذه معجزة علمية لرسولنا صلى الله عليه وسلم .

والطُّور علم على جبل بيرية سينا ، ويقال إن الطور اسم جنس للجبال في لغة الكنعانيين نقل إلى العربية وأنشدوا قول المجاج :

دَأَى جَنَاحِيهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرَّ تَقَضَّى الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرَ

فإذا صح ذلك فإطلاقه على هذا الجبل علم بالقلبة في البيرية لأنهم وجدوا الكنعانيين يذكرونه فيقولون الطور يعنون الجبل كلمة لم يسبق لهم أن عرفوها فحسبوها علما له فسموه الطور . وقوله « خذوا ما آتيناكم بقوة » مقول قول محذوف تقديره قائلين لهم خذوا ، وذلك هو الذي أخذ الميثاق عليه . والأخذ مجاز عن التلق والتفهم . والقوة مجاز في الإيحاء وإيقان التلق والعزيمة على العمل به كقوله تعالى « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » . ويجوز أن يكون الذكـر مجازا عن الامتثال أى اذكروه عند عزمكم على الأعمال حتى تكون أعمالكم جارية على وفق ما فيه ، أو المراد بالذكـر التفهم بدليل حرف (فى) المؤذن بالظرفية المجازية أى استنباط الفروع من الأصول . والمراد بما آتاهم ما أوحاه إلى موسى وهو الكلمات العشر التى هى قواعد شريعة التوراة .

وجملة « لعلكم تتقون » علة للأمر بقوله « خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه » ولذلك فصلت بدون عطف .

والرجاء الذى يقتضيه حرف (لعل) مستعمل فى معنى تقرب سبب التقوى بحضهم على الأخذ بقوة ، وتمهد التذكـر لما فيه ، فذلك التقرب والتبيين شبيه بـرجاء الراجى . ويجوز أن يكون لعل قرينة استعارة تمثيل شأن الله حين هيا لهم أسباب الهداية بحال الراجى تقوأم وعلى هذا يحمل موارد كلمة (لعل) فى الكلام المسند إلى الله تعالى . وتقدم عند قوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » الآية .

وقوله « ثم توليت من بعد ذلك » إشارة إلى عبادتهم العجل فى مدة مناجاة موسى وأن الله تاب عليهم بفضلـه ولولا ذلك لكانوا من الخاسرين الهالكين فى الدنيا أو فيها وفى الآخرة . ولا حاجة بنا إلى الخوض فى مسألة التكليف الإلجائى ومنافاة الإلجاء للتكليف .

وهي مسألة تكليف الملجأ المذكورة في الأصول لأنها بنيت هنا على أطلال الأخبار الروية في قلع الطور ورفعهم فوقهم وقول موسى لهم إما أن تؤمنوا أو يقع عليكم الطور ، على أنه لو صحت تلك الأخبار لما كان من الإلجاء في شيء إذ ليس نصب الآيات والمعجزات والتخويف من الإلجاء وإنما هو دلالة وبرهان على صدق الرسول وصحة ما جاء به والممتنع في التكليف هو التكليف في حالة الإلجاء لا التخويف لإتمام التكليف فلا تغفلوا .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ⁶⁵ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁶⁶

هذه من جملة الأخبار التي ذكرها الله تعالى تذكيراً لليهود بما أتاه سلفهم من الاستخفاف بأوامر الله تعالى وبما عرض في خلال ذلك من الزواجر والرحمة والتوبة وإنما خالف في حكاية هاته القصة أسلوب حكاية ما تقدمها وما تلاها من ذكر (إذ) المؤذنة زمن القصة والمشعرة بتحقيق وقوعها إلى قوله هنا « ولقد علمتم » لمعنى بديع هو من وجوه إعجاز القرآن وذلك أن هذه القصة المشار إليها بهذه الآية ليست من القصص التي تضمنتها كتب التوراة مثل القصص الأخرى المأتى في حكايتها بكلمة إذ لأنها متواترة عندم بل هذه القصة وقعت في زمن داود عليه السلام ، فكانت غير مسطورة في الأسفار القديمة وكانت معروفة لملأهم وأخبارهم فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عليها وتلك معجزة غيبية وأوحى إليه في لفظها ما يؤذن بأن العلم بها أخفى من العلم بالقصص الأخرى فأسند الأمر فيها لعلمهم إذ قال « ولقد علمتم » .

والاعتداء وزنه افتعال من العدو وهو تجاوز حد السير والحد والغاية . وغلب إطلاق الاعتداء على مخالفة الحق وظلم الناس والراد هنا اعتداء الأمر الشرعي لأن الأمر الشرعي يشبه بالحد في أنه يؤخذ بما شمله ولا يؤخذ بما وراءه والاعتداء الواقع منهم هو اعتداء أمر الله تعالى إياهم من عهد موسى بأن يحافظوا على حكم السبت وعدم الاكتساب فيه ليتفرغوا فيه للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا ، فكانت طائفة من سكان أيلة^(١) على البحر رأوا

(١) أيلة - بفتح الهمزة وبتاء تأنيث في آخره - بلدة على خليج صغير من البحر الأحمر في أطراف

مشارف الشام وتعرف اليوم بالعقبة وهي غير ليلياء بكسر الهمزة وبياءين معدولين الذي هو اسم بيت المقدس

تكثر الحيتان يوم السبت بالشاطئ لأنها إذا لم تر سفن الصيادين وشبها بهم أمنت فتقدمت إلى الشاطئ فتفتح أفواهها في الماء لا ابتلاع ما يكون على الشواطئ من آثار الطعام ومن صغير الحيتان وغيرها فقالوا لو حفرنا لها حياضاً وشرعنا إليها جداول يوم الجمعة فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فنصطادها وفعلوا ذلك فغضب الله تعالى عليهم لهذا الحرص على الرزق أو لأنهم يشغلون بالهم يوم السبت بالفكر فيما تحصل لهم أو لأنهم تحيلوا على اعتياض العمل في السبت، وهذا الذي أحسبه لما اقترن به من الاستخفاف واعتقادهم أنهم علموا ما لم تهتد إليه شريعتهم فعاقبهم الله تعالى بما ذكره هنا.

ف قوله «في السبت» يجوز أن تكون (في) للظرفية . والسبت مصدر سبت اليهودى من باب ضرب ونصر بمعنى احترام السبت وعظمه . والمعنى اعتدوا في حال تعظيم السبت أو في زمن تعظيم السبت . ويجوز أن تكون (في) لليلة أى اعتدوا اعتداء لأجل ما أوجبه احترام السبت من قطع العمل . ولعل تحريم الصيد فيه ليكون أمناً للدواب .

ويجوز أن تكون (في) ظرفية والسبت بمعنى اليوم وإنما جعل الاعتداء فيه مع أن الحفر في يوم الجمعة لأن أثره الذى ترتب عليه العصيان وهو دخول الحيتان للحياض يقع في يوم السبت .

وقوله «فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين» كونوا أمر تكوين والقردة بكسر القاف وفتح الراء جمع قرد وتكوينهم قردة يحتمل أن يكون بتصيير أجسامهم أجسام قردة مع بقاء الإدراك الإنسانى وهذا قول جمهور العلماء والفسرين، ويحتمل أن يكون بتصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء الهيكل الإنسانى. وهذا قول مجاهد والعبارة حاصلة على كلا الاعتبارين والأول أظهر في العبرة لأن فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار الناس بهم بخلاف الثانى والثانى أقرب للتاريخ إذ لم ينقل مسخ في كتب تاريخ العبرانيين والقدرة صالحة للأمرين والكل معجزة للشريعة أولداود ولذلك قال الفخر ليس قول مجاهد ببعيد جداً لكنه بخلاف الظاهر من الآية وليس الآية صريحة في المسخ . ومعنى كونهم قردة أنهم لما لم يتلقوا الشريعة بفهم مقاصدها ومعانيها وأخذوا بصورة الألفاظ فقد أشبهوا المجماوات في وقوفها عند المحسوسات فلم يتميزوا عن المجماوات إلا بالشكل الإنسانى وهذه القردة تشاركهم في هذا الشبه وهذا معنى قول مجاهد هو مسخ قلوب لا مسخ ذوات .

ثم إن القائلين بوقوع المسخ في الأجسام اتفقوا أو كادوا على أن المسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام وأنه لا يتناسل وروى ذلك ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم أنه قال «لم يهلك الله قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً» وهو صريح في الباب ومن العلماء من جوز تناسل المسوخ وزعموا أن الفيل والقرد والضب والخنزير من الأمم المسوخة وقد كانت العرب تعتقد ذلك في الضب قال أحد بني سليم وقد جاء لزوجه بضب فأبت أن تأكله :

قلت وكنت رجلاً فطيناً هذا لعمر الله إسرائيناً

حتى قال بعض الفقهاء بحرمة أكل الفيل ونحوه بناء على احتمال أن أصله نسل آدمي قال ابن الحاجب «وأما ما يذكر أنه ممسوخ كالفيل والقرد والضب ففي المذهب الجواز لمعوم الآية والتحريم لما يذكر» أي لمعوم آية المأكولات، وصحح صاحب التوضيح عن مالك الجواز وقد روى مسلم في أحاديث متفرقة من آخر صحيحه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدري ما فعلت ولا أراها إلا الفأر، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته اهـ . وقد تأوله ابن عطية وابن رشد في البيان وغير واحد من العلماء بأن هذا قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن اجتهد قبل أن يوقفه الله على أن المسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ولا يتناسل كما هو صريح حديث ابن مسعود ، قلت يؤيد هذا أنه قاله عن اجتهد قوله «ولا أراها» . ولا شك أن هاته الأنواع من الحيوان موجودة قبل المسخ وأن المسخ إليها دليل على وجودها ومعرفة الناس بها .

وهذا الأمر التكويني كان لأجل العقوبة على ما اجتروا من الاستخفاف بالأمر الإلهي حتى تحيلوا عليه وفي ذلك دليل على أن الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه فإن شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم فالتحليل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة مع تحقق تعطيل الحكمة منها جراءة على الله تعالى، ولا حجة لمن ينتحل جواز الحيل بقوله تعالى في قصة أيوب «وخذ بيدك ضعفاً فاضرب به ولا تحنث» لأن تلك فتوى من الله تعالى لنبيه لتجنب الحنث الذي قد يتفادى عنه بالكفارة ولكن الله لم يرض أصل الحنث لنبيه لأنه خلاف الأولى فأقتاه بما قاله، وذلك مما يعين على حكمة اجتناب الحنث لأن فيه

حفاظة على تعظيم اسم الله تعالى فلا فوات للحكمة في ذلك، ومسألة الحيل الشرعية لعلنا نتعرض لها في سورة ص وفيها تمحيص .

وقوله «جعلناها نكالا» عاد فيه الضمير على العقوبة المستفادة من قوله «فقلنا لهم كونوا قردة» والنكال بفتح النون العقاب الشديد الذي يردع الماغب عن العود للجناية ويردع غيره عن ارتكاب مثلها، وهو مشتق من نكل إذا امتنع ويقال نكل به تنكيلا ونكالا بمعنى عاقبه بما يمنعه من العود . والمراد بما بين يديها وما خلفها ما قارنها من معاصيهم وما سبق يعنى أن تلك الفعل كانت آخر ما فعلوه فزلت العقوبة عندها ولما بين يديها من الأمم القريبة منها ولما خلفها من الأمم البعيدة . والموعظة ما به الوعظ وهو الترهيب من الشر .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ٢٧

تمرضت هذه الآية لقصة من قصص بنى إسرائيل ظهر فيها من قلة التوفير لنبيهم ومن الإعانت في المسألة والإلحاح فيها إما للتفصي من الإمتثال وإما لبعد أفهامهم عن مقصد الشارع ورومهم التوقيف على ما لا قصد إليه . قيل إن أول هذه القصة هو المذكور بقوله تعالى « وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها » الآيات وإن قول موسى «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» ناشئ عن قتل النفس المذكورة، وإن قول موسى قدم هنا لأن خطاب موسى عليه السلام لهم قد نشأ عنه ضرب من مذامهم في تلقى التشريع وهو الاستخفاف بالأمر حين ظنوه هزواً والإعانت في المسألة فأريد من تقديم جزء القصة تعدد تقريرهم هكذا ذكر صاحب الكشاف والموجهون لكلامه ، ولا يخفى أن ما وجهوا به تقديم جزء القصة لا يقتضى إلا تفكيك القصة إلى قصتين تعنون كل واحدة منهما بقوله « وإذ » مع بقاء الترتيب، على أن المذام قد تعرف بحكايتها والتنبية عليها بنحو قوله « أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين - وقوله - وما كادوا يفعلون » .

فالذى يظهر لى أنهما قصتان أشارت الأولى وهي الحكاية هنا إلى أمر موسى بإيham بذبح بقرة وهذه هي القصة التي أشارت إليها التوراة في السفر الرابع وهو سفر التشريع الثاني (ثنية) في الإصحاح ٢١ أنه « إذا وجد قتيل لا يعلم قاتله فإن أقرب القرى إلى موقع القتل

يخرج شيوخها ويخرجون عجلة من البقر لم يحرق عليها ولم تنجّر بالنير فيأتون بها إلى وادٍ دائم السيلان لم يحرق ولم يزرع ويقطعون عنقها هناك ويتقدم الكهنة من بني لاوى فيفسل شيوخ تلك القرية أيديهم على العجلة في الوادي ويقولون لم تسفك أيدينا هذا الدم ولم تبصر أعيننا سافكه فيغفر لهم الدم « اه . هكذا ذكرت القصة بإجمال أضاع المقصود وأبهم الغرض من هذا الذبح أهو إضاعة ذلك الدم باطلا أم هو عند تعذر معرفة المتهم بالقتل وكيفما كان فهذه بقرة مشروعة عند كل قتل نفس جهل قاتلها وهي المشار إليها هنا ، ثم كان ما حدث من قتل القتييل الذي قتله أبناء عمه وجاءوا مظهرين المطالبة بدمه وكانت تلك النازلة نزلت في يوم ذبح البقرة فأمرهم الله بأن يضربوا القتييل ببعض تلك البقرة التي شأنها أن تذبح عند جهل قاتل نفس . وبذلك يظهر وجه ذكرهما قصتين وقد أجمل القرآن ذكر القصتين لأن موضع التذكير والعبرة منهما هو ما حدث في خلاهما لا تفصيل الوقائع فكانت القصة الأولى تشريفاً سيق ذكره لما قارنه من تلقيهم الأمر بكثرة السؤال الدال على ضعف الفهم للشرية وعلى تطلب أشياء لا ينبغي أن يظن اهتمام التشريع بها ، وكانت القصة الثانية منة عليهم بآية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسوله بينما الله لهم ليزدادوا إيماناً ولذلك ختمت بقوله « ويريك آياته لعلكم تعقلون » وأتبعه بقوله « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك » .

والتأكيد في قوله بأن الله يأمركم بحكاية لما عبر به موسى من الاهتمام بهذا الخبر الذي لو وقع في العربية لوقع مؤكداً بأن .

وقولهم تتخذنا هزواً استفهام حقيق لظنهم أن الأمر بذبح بقرة للاستبراء من دم قتييل كاللعب وتخذنا بمعنى تجعلنا وسيأتي بيان أصل فعل اتخذ عند قوله تعالى « اتخذ أصناماً آلهة » في سورة الأنعام والهزؤ بضم الهمزة والزاي وبسكون الزاي مصدر اهزأ به هزأ وهو هنا مصدر بمعنى المفعول كالصيد والخلق .

وقرأ الجمهور هزواً بضمين وهمز بعد الزاي وصلاً ووقفاً وقرأ حمزة بسكون الزاي وبالهمز وصلاً ، ووقف عليه بتخفيف الهمز واوا وقد رسمت في المصحف ، واوا وقرأ حفص بضم الزاي وتخفيف الهمز واوا في الوصل والوقف .

وقول موسى « أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » تبرؤ وتنزه عن الهزء لأنه لا يليق بالعتلاء الأفاضل فإنه أخص من الزح لأن في الهزء مزحاً مع استخفاف واحتقار للمزوح معه على أن الزح لا يليق في الجامع العامة والخطابة، على أنه لا يليق بمقام الرسول ولذا تبرأ منه موسى بأن نفي أن يكون من الجاهلين كناية عن نفي المزح بنفي ملزومه، وبالع في التنزه بقوله أعوذ بالله أى منه لأن العياذ بالله أبلغ كلمات النفي فإن المرء لا يعموذ بالله إلا إذا أراد التغلب على أمر عظيم لا يغلبه إلا الله تعالى . وصيغة أن أكون من الجاهلين أبلغ في انتفاء الجهالة من أن لو قال أعوذ بالله أن أجهل كما سيأتى في سورة الأنعام عند قوله « وما أنا من المهتدين » .

والجهل ضد العلم وضد الحلم وقد ورد لهما في كلام العرب، فمن الأول قول عمرو بن كلثوم.
 ألا لا يجهلني أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
 ومن الثانى قول الحماسى * فليس سواء عالم وجهول * وقول النابغة :
 وليس جاهل شئ مثل من علما

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالِ إِنَّهُ يُقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ٦٨

جىء في مراجعتهم لنبيهم بالطريقة المألوفة في حكاية المحاورات وهى طريقة حذف العاطف بين أفعال القول وقد بينها لكم في قصة خلق آدم .

ومعنى ادع لنا يحتمل أن يراد منه الدعاء الذى هو طلب بخضوع وحرص على إجابة المطلوب فيكون في الكلام رغبتهم في حصول البيان لتحصيل المنفعة المرجوة من ذبح بقرة مستوفية للصفات المطلوبة في القرابين المختلفة المقاصد ، بنوه على ما ألفوه من الأمم عبدة الأوثان من اشتراط صفات وشروط في القرابين المقربة تختلف باختلاف المقصود من الذبيحة ويحتمل أنهم أرادوا مطلق السؤال فعبروا عنه بالدعاء لأنه طلب من الأدنى إلى الأعلى . ويحتمل أنهم أرادوا من الدعاء النداء الجهرى بناء على وهمهم أن الله بعيد المكان ، فسأله يجهر بصوته . وقد نهى المسلمون عن الجهر بالدعاء في صدر الإسلام ، واللام في قوله لنا لام الأجل أى ادع

عنا ، وجزم يبين في جواب ادع لتزليل المسبب منزلة السبب أى إن تدعه يسمع فيبين وقد تقدم .

وقوله « ما هي » حكى سؤالهم بما يُدل عليه بالسؤال بما في كلام العرب وهو السؤال عن الصفة لأن (ما) يسأل بها عن الصفة كما يقول من يسمع الناس يذكرون حاتما أو الأحنف وقد علم أنهما رجلان ولم يعلم صفتيهما ما حاتم؟ أو ما الأحنف؟ فيقال كريم أو حليم وليس (ما) موضوعة للسؤال عن الجنس كما توهمه بعض الواقفين على كلام الكشف فتكفوا لتوجيه حيث إن جنس البقرة معلوم بأنهم نزلوا هاته البقرة المأمور بذبحها منزلة فرد من جنس غير معلوم لغرابة حكمة الأمر بذبحها وظنوا أن الموقع هنا للسؤال بـ (أى) أو (كيف) وهو وهم نبه عليه التفتراني في شرح الكشف واعتضدله بكلام المفتاح إذ جعل الجنس والصفة قسمين للسؤال بما . والحق أن المقام هنا للسؤال بما لأن أيّا إنما يسأل بها عن مميز الشيء عن أفراد من نوعه التبست به وعلامة ذلك ذكر المضاف إليه مع أى نحو « أى الفريقين خير » وأى البقرتين أعجبتك وليس لنا هنا بقرات معينات يراد تمييز إحداها .

وقوله « قال إنه يقول إنها بقرة » أكد مقول موسى ومقول الله تعالى بأن لحكاية ما اشتمل عليه كلام موسى من الاهتمام بحكاية قول الله تعالى فأكد به إن ، وما اشتمل عليه مدلول كلام الله تعالى لموسى من تحقيق إرادته ذلك تنزيلا لهم منزلة التنكير لما بدا من تعنتهم وتصلبهم ، ويجوز أن يكون التأكيذ الذى فى كلام موسى لتنزيلهم منزلة أن يكون الله قال لموسى ذلك جريا على اتهامهم السابق فى قولهم « أتتخذنا هزوا » جوابا عن قوله « إن الله يأمركم » .

ووقع قوله « لا فارض ولا بكر » موقع الصفة لبقرة وأفحم فيه حرف (لا) لكون الصفة بنى وصف ثم بنى آخر على معنى إثبات وصف واسطة بين الوصفين المنفيين فلما جىء بحرف لا أجرى الإعراب على ما بعده لأن لا غير عاملة شيئا فيعتبر ما قبل لا على عمله فيما بعدها سواء كان وصفا كما هنا وقوله تعالى « زيتونة لا شرقية ولا غربية » وقول جويرية أو حويثة بن بدر الراى :

وقد أدركتني والحوادثُ جمة أسنة قوم لا ضاعف ولا غزل

أو حالاً كقول الشاعر وهو من شواهد النحو :

قَهَرْتَ الْعِدَا لَا مُسْتَعِينَا بِمُصْبَةٍ وَلَكِنْ بِأَنْوَاعِ الْخُدَائِعِ وَالْمَكْرِ^(١)
أو مضافاً كقول النابغة :

وشيمة لا وَاَن ولا وَاهِن القَوَى وَجَدَّ إِذَا خَابَ الْمُفِيدُونَ صَاعِدِ

أو خبر مبتدأ كما وقع في حديث أم زرع قول الأولى « لا سهل فيرتقى ، ولا سمين خينقل » على رواية الرفع أى هو أى الزوج لا سهل ولا سمين . وجهور النحاة أن لا هذه يجب تكريرها في الخبر والنعت والحال أى بأن يكون الخبر ونحوه شيئين فأكثر فإن لم يكن كذلك لم يجز إدخال (لا) في الخبر ونحوه وجعلوا بيت جويرية أو حويرة ضرورة وخالف فيه المبرد . وليست (لا) في مثل هذا بعاملة عمل ليس ولا عمل إن ، وذكر النحاة لهذا الاستعمال في أحد هذين البابين لمجرد المناسبة . واعلم أن نقي وصفين بحرف (لا) قد يستعمل في إفادة إثبات وصف ثالث هو وسط بين حالى ذينك الوصفين مثل ما في هذه الآية بدليل قوله « عوان بين ذلك » ومثل قوله تعالى « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » وقد يستعمل في إرادة مجرد نقي ذينك الوصفين لأنهما مما يطلب في الفرض الواردين فيه ولا يقصد إثبات وصف آخر وسط بينهما وهو الغالب كقوله تعالى « في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم » .

والفارض المسنة لأنها فرضت سنّها أى قطعتها . والفرض القطع ويقال للقديم فارض . والبكر الفتية مشتقة من البكرة بالضم وهى أول النهار لأن البكر فى أول السنوات عمرها والعوان هى المتوسطة السن .

وإنما اختيرت لهم العوان لأنها أنقى وأقوى ولذلك جمعت العوان مثلاً للشدة فى قول النابغة :

ومن يترَبَّصَ الْحَدَثَانِ تَنْزِلَ بِمَوْلَاهُ عَوَانٌ غَيْرُ بَكْرٍ
أى مصيبة عوان أى عظيمة . ووصفوا الحرب الشديدة فقالوا حرب عوان .
وقوله (بين ذلك) أى بين هذين السنين ، فالإشارة للمذكور المتعدد .

ولهذا صحت إضافة بين لاسم الإشارة كما تضاف للضمير الدال على متعدد وإن كان كلمة واحدة في نحو بينها . وإفراد اسم الإشارة على التأويل بالذكور كما تقدم قريباً عند قوله تعالى « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله » .

وجاء في جوابهم بهذا الإطناب دون أن يقول من أول الجواب إنها عنوان تعريضاً بقبولهم واحتياجهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يترك لهم مجالاً لإعادة السؤال .

فإن قلت هم سألوا عن صفة غير معينة فن أين علم موسى أنهم سألوا عن السن ومن أين علم من سؤالهم الآتى بما هي أيضاً أنهم سألوا عن تدريبها على الخدمة .

قلت يحتمل أن يكون ما هي اختصاراً لسؤالهم المشتمل على البيان وهذا الاختصار من إبداع القرآن اكتفاء بما يدل عليه الجواب، ويحتمل أن يكون ما حكى في القرآن مرادف سؤالهم فيكون جواب موسى عليه السلام بذلك لعلمه بأن أول ما تتعلق به أغراض الناس في معرفة أحوال الدواب هو السن فهو أهم صفات الدابة ولما سألوه عن اللون ثم سألوا السؤال الثانى المبهم علم أنه لم يبق من الصفات التى تختلف فيها مقاصد الناس من الدواب غير حالة الكرامة أى عدم الخدمة لأن ذلك أمر ضعيف إذ قد تخدم الدابة النفيسة ثم يكرمها من يكتسبها بعد ذلك فتزول آثار الخدمة وشعثها .

وقوله « فافعلوا ما تؤمرون » الفاء للفصيحة وموقعها هنا موقع قطع العذر مع الحث على الامتثال كما هي في قول عباس بن الأحنف .

قالوا خراسانُ أقصَى ما يُرادُ بنا ثم القُفُولُ فقد جئنا خُرَاسانا

أى فقد حصل ما تعلمتم به من طول السفر . والمعنى فبادروا إلى ما أمرتم به وهو ذبح البقرة، وما موصولة والمائد محذوف بعد حذف جياره على طريقة التوسع لأنهم يقولون أمرتك بالخير، فتوسلوا بحذف الجار إلى حذف الضمير .

وفى حث موسى إياهم على المبادرة بذبح البقرة بعد ما كلفوا به من اختيارها عوانا دليل على أنهم مأمورون بذبح بقرة ما غير مراد منها صفة مقيدة لأنه لما أمرهم بالمبادرة بالذبح حينئذ علمنا وعلموا أن ما كلفوا به بعد ذلك من طلب أن تكون صفراء فاقعة وأن تكون

سائلة من آثار الخدمة ليس مما أراده الله تعالى عند تكليفهم أول الأمر وهو الحق إذ كيف تكون تلك الأوصاف مرادة مع أنها أوصاف طردية لا أثر لها في حكمة الأمر بالذبح لأنه سواء كان أمراً بذبحها للصدقة أو للقربان أو للرش على النجس أو للقسامة فليس لشيء من هاته الصفات مناسبة للحكم وبذلك يعلم أن أمرهم بهاته الصفات كلها هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على سؤالهم فإن كان سؤالهم للطل والتنصل فطلب تلك الصفات المشقة عليهم تأديب على سوء الخلق والتذرع للعصيان ، وإن كان سؤالاً ناشئاً عن ظنهم أن الاهتمام بهاته البقرة يقتضى أن يراد منها صفات نادرة كما هو ظاهر قولهم بعد « وإنا إن شاء الله لمتدون » فتكليفهم بهاته الصفات العسير وجودها مجتمعة تأديب على سوء فهمهم في التشريع كما يؤدّب طالب العلم إذا سأل سؤالاً لا يليق برتبته في العلم . وقد قال عمر لأبي عبيدة في واقعة الفرار من الطاعون « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة » . ومن ضروب التأديب الحمل على عمل شاق ، وقد أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه عباساً رضى الله عنه على الحرص حين حمل من خمس مال المغنم أكثر من حاجته فلم يستطع أن يقله فقال له مرأحداً يرفعه لى فقال لا آمر أحداً فقال له إرفعه أنت لى فقال لا ، حتى جعل العباس يحثو من المال ويرجمه لصبرته إلى أن استطاع أن يحمل ما بقى فذهب والنبى صلى الله عليه وسلم يتبعه بصرة . تعجباً من حرصه كما فى صحيح البخارى .

ومما يدل على أنه تكليف لقصد التأديب أن الآية سقت مساق الذم لهم وعدت القصة في عداد قصص مساوئهم وسوء تلقينهم للشريعة بأصناف من التقصير عملاً وشكراً وفيها دليل قوله تعالى آخر الآيات « وما كادوا يفعلون » مع ما روى عن ابن عباس أنه قال : لو ذبحوا أى بقرة أجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

وبهذا تعلمون أن ليس فى الآية دليل على تأخير البيان عن وقت الخطاب ولا على وقوع النسخ قبل التمكن لأن ما طرأ تكليف خاص للإغنائى على أن الزيادة على النص ليست بنسخ عند المحققين وتسميتها بالنسخ اصطلاح القدماء .

﴿ قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعُ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ ٩٠

سألوا بما عن ماهية اللون وجنسه لأنه ثانی شيء تتعلق به أغراض الراغبين في الحيوان . والقول في جزم «يبين» وفي تأكيد «إنه يقول إنها بقرة» كالقول في الذي تقدم . وقوله « صفراء فاقع لونها » احتيج إلى تأكيد الصفرة بالفقوع وهو شدة الصفرة لأن صفرة البقر تقرب من الحمرة غالباً فأكد به فاقع والفقوع خاص بالصفرة ، كما اختص الأحمر بقان والأسود بحالك ، والأبيض بيقق ، والأخضر بمدهام ، والأورق بخطباني (نسبة إلى الخطبان بضم الخاء وهو نبت كالهلبيون) ، والأرمك وهو الذي لونه لون الرماد بُرداني (براء في أوله) والردان الزعفران كذا في الطيبي (ووقع في الكشف والطبي بألف بمد الدال ووقع في القاموس أنه بوزن صاحب) وضبط الراء في نسخة من الكشف ونسخة من حاشية القطب عليه ونسخة من حاشية الهمداني عليه بشكل ضمة على الراء وهو مخالف لما في القاموس .

والنصوع يعم جميع الألوان وهو خلوص اللون من أن يخاطله لون آخر

ولونها إما فاعل بفاقع أو مبتدأ مؤخر وإضافته لضمير البقرة دلت على أنه اللون الأصفر فكان وصفه بفاقع وصفاً حقيقياً ولكن عدل عن أن يقال صفراء فاقعة إلى صفراء فاقع «لونها» ليحصل وصفها بالفقوع مرتين إذ وُصف اللون بالفقوع ، ثم لما كان اللون مضافاً للضمير الصفراء كان ما يجري عليه من الأوصاف جارياً على سببيه (على نحو ما قاله صاحب المفتاح في كون المسند فعلاً من أن الفعل يستند إلى الضمير ابتداء ثم بواسطة عود ذلك الضمير إلى المبتدأ يستند إلى المبتدأ في الدرجة الثانية) وقد ظن الطيبي في شرح الكشف أن كلام صاحب الكشف مشير إلى أن إسناد فاقع لونها مجاز عقلي وهو وهم إذ ليس من المجاز العقلي في شيء . وأما تمثيل صاحب الكشف بقوله جد جده فهو تنظير في مجرد إفادة التأكيد .

وقوله «تسر الناظرين» أي تدخل رؤيتها عليهم مسرة في نفوسهم . والمسرة لذة نفسية تنشأ عن الإحساس باللائم أو عن اعتقاد حصوله ومما يوجبها التعجب من الشيء والإعجاب به . وهذا اللون من أحسن ألوان البقر فلذلك أسند فعل تسر إلى ضمير البقرة لا إلى ضمير اللون فلا يقتضي أن لون الأصفر مما يسر الناظرين مطلقاً . والتعبير بالناظرين دون الناس ونحوه

للإشارة إلى أن السرة تدخل عليهم عند النظر إليها من باب استفادة التعليل من التعليق بالمشتق.

﴿ قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ لِنَآمَ مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَلِّبُهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۖ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنِ الْخَلْقُ بِالْخَلْقِ ۖ﴾

القول في ما هي كالقول في نظيره فإن كان الله تعالى حكى مرادف كلامهم بلغة العرب فالجواب لهم بأنها «بقرة لا ذلول» لما علم من أنه لم يبق من الصفات التي تتعلق بالأغراض بها إلا الكرامة والنفاسة، وإن كان المحكى في القرآن اختصاراً لكلامهم فالأمر ظاهر. على أن الله قد علم مرادهم فأنبأهم به.

وجملة إن البقر تشابه علينا مستأنفة استثناء بياناً لأنهم علموا أن إعادتهم السؤال توقع في نفس موسى تساؤلاً عن سبب هذا التكرير في السؤال وقولهم إن البقر تشابه علينا اعتذار عن إعادة السؤال، وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا الآن لأن الثالثة في التكرير وقما من النفس في التأكيد والسأمة وغير ذلك ولذلك كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة. وقد جرى بحرف التأكيد في خبر لا يشك موسى في صدقه فتمين أن يكون الإتيان بحرف التأكيد لمجرد الاهتمام ثم يتوسل بالاهتمام إلى إفادة معنى التفريع والتعليل فتفيد إن مفاد فاء التفريع والتسبب وهو ما اعتنى الشيخ عبد القاهر بالتنبيه عليه في دلائل الإعجاز ومثله بقول بشار:

بَكَرَا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

تقدم ذكرها عند قوله تعالى «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» في هذه السورة وذكر فيه قصة. وقولهم «وإنا إن شاء الله لمهتدون» تنشيط لموسى ووعدله بالامتنال لينشط إلى دعاء ربه بالبيان ولتندفع عنه سآمة مراجعتهم التي ظهرت بوارقها في قوله «فأفعلوا ما تؤمرون» ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأن ليس قصدهم الإغنيات. تفادياً من غضب موسى عليهم. والتعليق بأن شاء الله للتأدب مع الله في رد الأمر إليه في طلب حصول الخير. والقول في وجه التأكيد في أنه يقول إنها بقرة كالقول في نظيره الأول

والذلول بفتح الذال فاعول من ذل ذلا بكسر الذال في المصدر بمعنى لان وسهل. وأما الذل بضم الذال فهو ضد العز وهما مصدران لفعل واحد خص الاستعمال أحد المصدرين بأحد المعنيين. والمعنى أنها لم تبلغ سن أن يحرق عليها وأن يسقى بجرها أى هى عجلة قاربت هذا السن وهو الموافق لما حدد به سنها في التوراة .

ولا ذلول صفة لبقرة . وجملة تثير الأرض حال من ذلول .

وإثارة الأرض حرثها وقلب داخل ترابها ظاهرا وظاهرا باطنا أطلق على الحرث فعل الإثارة تشبيها لا انقلاب أجزاء الأرض بشورة الشيء من مكانه إلى مكان آخر كما قال تعالى «فتثير سحابا» أى تبعثه وتنقله ونظير هذا الاستعمال قوله في سورة الروم «وأناروا الأرض» ولا تسقى الحرث في محل نصب على الحال .

وإحتام لا بعد حرف العطف في قوله ولا تسقى الحرث مع أن حرف العطف على المنفى بها يفنى عن إعادتها إنما هو لمراعاة الاستعمال الفصيح في كل وصف أو ما في معناه أدخل فيه حرف لا كما تقدم في قوله تعالى « لا فارض ولا بكر » فإنه لما قيدت صفة ذلول بجملة تسقى الحرث صار تقدير الكلام أنها بقرة لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث فجرت الآية على الاستعمال الفصيح من إعادة لا وبذلك لم تسكن في هذه الآية حجة للمبرد كما يظهر بالتأمل .

واختيار الفعل المضارع في تثير وتسقى لأنه الأنسب بذلول إذ الوصف شبيه بالمضارع ولأن المضارع دال على الحال . و«مسلة» أى سليمة من عيوب نوعها فهو اسم مفعول من سلت المبني للمفعول وكثيرا ما تذكر الصفات التي تعرض في أصل الخلقة بصيغة البناء للمجهول في الفعل والوصف إذ لا يخطر على بال المتكلم تعيين فاعل ذلك ومن هذا معظم الأفعال التي التزم فيها البناء للمجهول .

وقوله « لاشية فيها » صفة أخرى تميز هذه البقرة عن غيرها . والاشية العلامة وهى بزنة فعلة منى وشى الثوب إذا نسجه ألوانا وأصل شية وشية ويقول العرب ثوب موشى وثوب وشى، ويقولون ثور موشى الأكارع لأن في أكارع ثور الوحش سواد يخالط صفته فهو ثور أشيه ونظائره قولهم فرس أبلق . وكبش أدرع . وتيس أزرق وغراب أبقع . بمعنى مختلط لونين . وقوله « قالوا الآن جئت بالحق » أرادوا بالحق الأمر الثابت الذي لا احتمال فيه كما تقول جاء بالأمر على وجهه، ولم يريدوا من الحق ضد الباطل لأنهم ما كانوا يكذبون بينهم فإن

قلت لماذا ذكر هنا بلفظ الحق وهلا قيل قالوا الآن جئت بالبيان أو بالثبوت .
 قلت لعل الآية حكمت معنى ما عبر عنه اليهود لموسى بلفظ هو في لغتهم محتمل للوجهين
 فحكي بما يرادفه من العربية تنبيها على قلة اهتمامهم بانتقاء الألفاظ الزينة في مخاطبة أنبيائهم
 وكبرائهم كما كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم راعنا ، فنهينا نحن عن أن نقوله بقوله
 تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا » وهم لقلة جدارتهم بفهم الشرائع
 قد توهموا أن في الأمر بذبح بقرة دون بيان صفاتها تقصيرا كأنهم ظنوا الأمر بالذبح كالأمر
 بالشراء فجعلوا يستوصفونها بجميع الصفات واستكملوا موسى لما بين لهم الصفات التي تختلف
 بها أغراض الناس في الكسب للبقرة ظنا منهم أن في علم النبي بهذه الأغراض الدنيوية كالا
 فيه ، فلذا مدحوه بعد البيان بقولهم الآن جئت بالحق كما يقول المتحن للتلميذ بعد جمع صور
 السؤال الآن أصبت الجواب ، ولعلمهم كانوا لا يفرقون بين الوصف الطردى وغيره في التشريع .
 فليحذر المسلمون أن يقموا في فهم الدين على شيء مما وقع فيه أولئك واذموا لأجله .

﴿ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ 71

عطف الفاء جملة فذبحوها على مقدر معلوم وهو فوجدوها أو فظفروا بها أو نحو ذلك
 وهذا من إيجاز الحذف الاقتصاري ولما ناب المظوف في الوقع عن المظوف عليه صح أن
 نقول الفاء فيه للفصيحة لأنها وقعت موقع جملة محذوفة فيها فاء للفصيحة ولك أن تقول إن
 فاء الفصيحة ما أفصحت عن مقدر مطلقا كما تقدم وقوله « وما كادوا يفعلون » تعريض بهم
 بذكر حال من سوء تلقيهم الشريعة تارة بالإعراض والتفريط ، وتارة بكثرة التوقف والإفراط
 وفيه تعليم للمسلمين بأصول التفقه في الشريعة ، والأخذ بالأوصاف المؤثرة في معنى التشريع
 دون الأوصاف الطردية ، ولذلك قال ابن عباس لو ذبحوا أية بقرة لأجزأتهم ولكن شددوا
 فشدد الله عليهم . وروى ابن مردويه والبراء وابن أبي حاتم بسندهم إلى الحسن البصري عن
 رافع عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها
 لكفتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم » وفي سنده عبادة بن منصور وهو ضعيف ، وكان
 النبي صلى الله عليه وسلم ينهى أصحابه عن كثرة السؤال وقال « فإنما أهلك الذين من قبلكم
 كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » وبين للذي سأله عن اللقطة ما يفعله في شأنها فقال

السائل: فضالة النعم - قال - « هي لك أو لأخيك أو للذئب، قال السائل فضالة الإبل فعضب رسول الله وقال مالك ولها معها حداؤها وسقاؤها تشرب الماء وترعى الشجر حتى يأتيها ربها » .

وجملة وما كادوا يفعلون « تحتمل الحال والاستئناف والأول أظهر لأنه أشد ربطا للجملة وذلك أسهل الجمل أى ذبحوها فى حال تقرب من حال من لا يفعل ، والمعنى أنهم ذبحوها مكرهين أو كالسكرهين لما أظهروا من المماطلة وبذلك يكون وقت الذبح ووقت الاتصاف بمقاربة انتفائه وقتا متحدا اتحادا عرفيا بحسب المقامات الخطائية للإشارة إلى أن مماطلتهم قارنت أول أزمته الذبح . وعلى الاستئناف يصح اختلاف الزمнин أى ذبحوها عند ذلك أى عند إتمام الصفات وكان شأنهم قبل ذلك شأن من لم يقارب أن يفعل ثم إن « ما كادوا يفعلون » يقتضى بحسب الوضع نفي مدلول كاد فإن مدلولها المقاربة ونفي مقاربة الفعل يقتضى عدم وقوعه بالأولى فيقال أنى يجتمع ذلك مع وقوع ذبحها بقوله « فذبحوها » فأما على وجه الاستئناف فيمكن الجواب بأن نفي مقاربة الفعل كان قبل الذبح حين كرروا السؤال وأظهروا المطال ثم وقع الذبح بعد ذلك وقد أجاب بمثل هذا جماعة يعنون كأن الفعل وقع فجأة بعد أن كانوا يعمزل عنه على أنه مبنى على جعل الواو استئنافا وقد علمت بعده . فالوجه القالع للإشكال هو أن أئمة العربية قد اختلفوا فى مفاد كاد المنفية فى نحو ما كاد يفعل فذهب قوم منهم الزجاجى إلى أن نفيها يدل على نفي مقاربة الفعل وهو دليل على انتفاء وقوع الفعل بالأولى فيكون إثبات كاد نفيًا لوقوع الخبر الذى فى قولك كاد يقوم أى قارب فإنه لا يقال إلا إذا قارب ولم يفعل ونفيها نفيًا للهـل بطريق فحوى الخطاب فهو كالنطوق وأن ماورد مما يوم خلاف ذلك مؤول بأنه باعتبار وقتين فيكون بمنزلة كلامين ومنه قوله تعالى وما كادوا يفعلون فى هذه الآية أى فذبحوها الآن وما كادوا يفعلون قبل ذلك ولعلمهم يجعلون الجمع بين خبرين متنافيين فى الصورة قرينة على قصد زمانين وإلى هذا ذهب ابن مالك فى الكافية إذ قال :

وبُشُوتْ كَادُ يُنْفَى الْخَبْرُ وَحِينَ يَنْفَى كَادَ ذَاكَ أَجْدَرُ
وغير ذَا على كَلَامَيْنِ يَرِدُ كَوَلَدَتْ هَنْدٌ وَلَمْ تَسْكَدْ تَلَدُ

وهذا المذهب وقوف مع قياس الوضع . وذهب قوم إلى أن إثبات كاد يستلزم نفي الخبر على الوجه الذي قررناه في تقرير المذهب الأول وأن نقيها يصير إثباتاً على خلاف القياس وقد اشتهر هذا بين أهل الأعراب حتى ألفز فيه أبو العلاء المعري بقوله :

أَمْحَوَىٰ هَذَا الْعَصْرَ مَا هِيَ لَفْظَةٌ أَتَتْ فِي لِسَانِي جُرْهُمَ وَثَنُودٍ
إِذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي صُورَةِ الْجَنَحِ أَثْبِتَتْ وَإِنْ أَثْبِتَتْ قَامَتْ مَقَامَ جُحُودٍ

وقد احتجوا لذلك بقوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » وهذا من غرائب الاستعمال الجاري على خلاف الوضع اللغوي . وقد جرت في هذا نادرة أدبية ذكرها الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز وهي أن عنبة العنسي الشاعر قال : قدم ذو الرمة الكوفة فوقف على ناقته بالكناسة ^(١) ينشد قصيدته الحائية التي أولها :

أَمْزَلَتْنِي مَيِّ سَلَامَ عَلَيْكَمَا عَلَى النَّأْيِ وَالنَّأْيِ يَوَدُّ وَيَنْصَحُ
حتى بلغ قوله فيها :

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكْدُ رَسِيسُ الْهَوَىٰ مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

وكان في الحاضرين ابن شبرمة فناده ابن شبرمة يا غيلان أراه قد برح قال فشنق ناقته وجعل يتأخر بها ويتفكر ثم قال « لم أجد » عوض « لم يكد » قال عنبة فلما انصرفت حدثت أبي فقال لي أخطأ ابن شبرمة حين أنكر على ذي الرمة ، وأخطأ ذو الرمة حين غير شعره لقول ابن شبرمة وإنما هذا كقول الله تعالى « ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يَسْكُدْ يراها » وإنما هو لم يرها ولم يكد .

وذهب قوم منهم أبو الفتح بن جني وعبد القاهر وابن مالك في التسهيل إلى أن أصل كاد أن يكون نقيها لنفي الفعل بالأولى كما قال الجمهور إلا أنها قد يستعمل نقيها للدلالة على وقوع الفعل بعد بقاء وجهه وبعد أن كان بعيداً في الظن أن يقع وأشار عبد القاهر إلى أن ذلك استعمال جرى في العرف وهو يريد بذلك أنها مجاز تمثيلي بأن تشبه حالة من فعل الأمر بعد عناء بحالة من بعد عن الفعل فاستعمل المركب الدال على حالة التشبه به في حالة التشبه، ولعلهم يجملون نحو قوله فذبحوها قرينة على هذا القصد . قال في التسهيل « وتنفى كاد إعلماً

(١) الكناسة: بضم الكاف أصله اسم لما يكنس، وسمي بها ساحة بالكوفة مثل المريد بالبصرة

بوقوع الفعل عسيراً أو بعدمه وعدم مقاربتة « واعتذر في شرحه للتسهيل عن ذى الرمة في تغييره بيته بأنه غيره لدفع احتمال هذا الاستعمال . وذهب قوم إلى أن كاد إن نقيت بصيغة المضارع فهي لنفى المقاربة وإن نقيت بصيغة الماضى فهي للإثبات وشبهته أن جاءت كذلك فى الآيتين «لم يكدرها - وما كادوا يفعلون» وأن نفى الفعل الماضى لا يستلزم الاستمرار إلى زمن الحال بخلاف نفى المضارع . وزعم بعضهم أن قولهم ما كاد يفعل وهم يريدون أنه كاد ما يفعل إن ذلك من قبيل القلب الشائع . وعندى أن الحق هو المذهب الثانى وهو أن نقيتها فى معنى الإثبات وذلك لأنهم لما وجدوها فى حالة الإثبات مفيدة معنى النفى جعلوا نقيتها بالعكس كما فعلوا فى لو ولولا ويشهد لذلك مواضع استعمال نقيتها فإنك تجد جميعها بمعنى مقاربة النفى لا نفى المقاربة ولعل ذلك من قبيل القلب المطرد فيكون قولهم ما كاد يفعل ولم يكدر يفعل بمعنى كاد ما يفعل، ولا يبعد أن يكون هذا الاستعمال من بقايا لغة قديمة من العربية تحمل جرف النفى الذى حقه التأخير مقدماً ولعل هذا الذى أشار إليه المعرى بقوله « جرت فى لسانى جرهم وثمود » ويشهد لكون ذلك هو المراد تغيير ذى الرمة بيته وهو من أهل اللسان وأصحاب الذوق فإنه وإن كان من عصر المولدين إلا أنه لا تقطاعه إلى سكنى باديته كان فى مرتبة شعراء العرب حتى عد فيمن يحتج بشعره وما كان مثله ليغير شعره بعد التفكير لو كان لصحته وجه فما اعتذر به عنه ابن مالك فى شرح التسهيل ضعيف . وأما دعوى الجواز فيه فيضعفها اطراد هذا الاستعمال حتى فى آية لم يكدرها فإن الواقف فى الظلام إذا مد يده يراها ببناء وقال تأبط شرا « فأبى إلى فهم وما كدت آيا » وقال تعالى « ولا يكاد يبين » .

وإنما قال وما كادوا يفعلون ولم يقلن يذبحون كراهية إعادة اللفظ تفننا فى البيان .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣ ﴾

تصديره بإذ على طريقة حكاية ماسبق من تعداد النعم والألطف ومقابلتهم إياها بالكفران والاستخفاف يومئذ إلى أن هذه قصة غير قصة الذبح ولكنها حدثت عقب الأمر بالذبح

لإظهار شيء من حكمة ذلك الأمر الذي أظهروا استنكاره عند سماعه إذ قالوا أتتخذنا هزواً وفي ذلك إظهار معجزة لموسى . وقد قيل إن ما حكى في هذه الآية هو أول القصة وإن ما تقدم هو آخرها وذكروا للتقديم نكتة تقدم القول في بيانها وتوهمينها .

وليس فيما رأيت من كتب اليهود ما يشير إلى هذه القصة فلعلها مما أدمج في قصة البقرة المتقدمة لم تتعرض السورة لذكرها لأنها كانت معجزة لموسى عليه السلام ولم تكن تشريعاً بعده .

وأشار قوله « قتلتم » إلى وقوع قتل فيهم وهي طريقة القرآن في إسناد أفعال البعض إلى الجميع جرياً على طريقة العرب في قولهم قتل بنو فلان فلاناً قال النابغة يذكر بنى حُنَ (١) .

وهم قتلوا الطائي بالجو عنوة أبا جابر واستنكحوا أم جابر

وذلك أن نفرا من اليهود قتلوا ابن عمهم الوحيد ليرثوا عمهم وطرحوه في محلة قوم وجاءوا موسى يطالبون بدم ابن عمهم بهتاناً وأنكر التهمون فأمره الله بأن يضرب القتل ببعض تلك البقرة فينطق ويخبر بقاتله، والنفس الواحد من الناس لأنه صاحب نفس أى روح وتنفس وهي مأخوذة من التنفس وفي الحديث ما من نفس منقوسة ولا إشعارها بمعنى انتنفس اختلف في جواز إطلاق النفس على الله وإضافتها إلى الله فقيل يجوز لقوله تعالى حكاية عن كلام عيسى « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » ولقوله في الحديث القدسي « وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » وقيل لا يجوز إلا للمشاكلة كما في الآية والحديث القدسي والظاهر الجواز ولا عبرة بأصل مأخذ الكلمة من التنفس فالنفس الذات قال تعالى « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » . وتطلق النفس على روح الإنسان وإدراكه ومنه قوله تعالى « تعلم ما في نفسي » وقول العرب قلت في نفسي أى في تفكرى دون قول لفظي، ومنه إطلاق العلماء الكلام النفسي على الممانى التي في عقل المتكلم التي يعبر عنها باللفظ . وإدارأتهم افتعال، وإدارأتهم أصله تدارأتهم تفاعل من الدراء وهو الدفع لأن كل فريق يدفع الجناية عن نفسه فلما أريد إدغام التاء في الدال على قاعدة تاء الافتعال مع الدال والدال جلبت همزة الوصل لتيسير التسكين للإدغام .

وقوله « والله خرج » جملة حالية من ادارأتهم أى تدارأتهم في حال أن الله سيخرج ما كتمتموه فاسم الفاعل فيه للمستقبل باعتبار عامله وهو ادارأتهم .

والخطاب هنا على نحو الخطاب في الآيات السابقة المبني على تنزيل المخاطبين منزلة أسلافهم لحل تبعثهم عليهم بناء على ما تقرر من أن خلق السلف يسرى إلى الخلف كما بيناه فيما مضى وسنبينه إن شاء الله تعالى عند قوله « أفنتطمعون أن يؤمنوا لكم » .

وإنما تعلق إرادة الله تعالى بكشف حال قاتلي هذا القتيل مع أن دمه ليس بأول دم ظل في الأمم إكراماً لموسى عليه السلام أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم وبمرآى منه ومسمع لآسيا وقد قصد القاتلون استغفال موسى ودبروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه فلو لم يظهر الله تعالى هذا الدم في أمة لضعف يقينها برسولها ولكان ذلك مما يزيد شكاً في صدقه فينقلبوا كافرين فكان إظهار هذا الدم كرامة لموسى ورحمة بالأمة لثلاث تفضل فلا يشك عليكم أنه قد ضاع دم في زمن نبينا صلى الله عليه وسلم كما في حديث خويصة ومحبيصة الآتي لظهور الفرق بين الحالين بانتفاء تدير المكيدة وانتفاء شك الأمة في رسولها وهي خير أمة أخرجت للناس .

وقوله كذلك يحيي الله الموتى الإشارة إلى محذوف للإيجاز أي فضر به فخي فأخبر بمن قتله أي كذلك الإحياء يحيي الله الموتى فالتشبيه في التحقق وإن كانت كيفية المشبه أقوى وأعظم لأنها حياة عن عدم بخلاف هاته فالمقصد من التشبيه بيان إمكان المشبه كقول المتنبي :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وقوله كذلك يحيي الله الموتى من بقية القول لبني إسرائيل فيتمين أن يقدر وقتلناهم كذلك يحيي الله الموتى لأن الإشارة لشيء مشاهد لهم وليس هو اعتراضاً أريد به مخاطبة الأمة الإسلامية لأنهم لم يشاهدوا ذلك الإحياء حتى يشبه به إحياء الله الموتى .

وقوله « لعلكم تعقلون » رجاء لأن يعقلوا فلم يبلغ الظن بهم مبلغ القطع مع هذه الدلائل

كلها .

وقد جرت عادة فقهاءنا أن يحتجوا بهذه الآية على مشروعية اعتبار قول المقتول ذي عند فلان موجباً للقسامة ويجعلون الاحتجاج بها لذلك متفرعاً على الاحتجاج بشرع من قبلنا وفي ذلك تنبيه على أن محل الاستدلال بهذه الآية على مشروعية ذلك هو أن إحياء الميت لم يقصد منه إلا سماع قوله فدل على أن قول المقتول كان معتبراً في أسر الدماء . والتوراة قد أجلت أمر الدماء إجمالاً شديداً في قصة ذبح البقرة التي قدمناها، نعم إن الآية لا تدل على

وقوع القسامة مع قول المقتول ولكنها تدل على اعتبار قول المقتول سبباً من أسباب القصاص ولما كان الظن بتلك الشريعة أن لا يقتل أحد بمجرد الدعوى من المطعون تبين أن هنالك شيئاً تقوى به الدعوى وهو القسامة وقد أورد على احتجاج المالكية بها أن هذا من خوارق العادات وهي لا تفيد أحكاماً وأجاب ابن العربي بأن المعجزة في إحياء الميت فلما حي صار كلامه كلام سائر الأحياء وهو جواب لطيف لكنه غير قاطع، والخلاف في القضاء بالقسامة إثباتاً وتقياً وفي مقدار القضاء بها مبسوط في كتب الفقه وقد نقصاه القرطبي وليس من أغراض الآية .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٤

ثم هنا للترتيب الرتبى الذى تهيأ له ثم إذا عطفت الجمل أى ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم ولم تنفعكم الآيات فيقتت قلوبكم « وكان من البعيد قسوتها . وقوله « من بعد ذلك » زيادة تعجيب من طرق القساوة للقلب بعد تكرار جميع الآيات السابقة المشار إلى مجموعها بذلك على حد قول القطامى :

أكفرا بعد رد الموت عنى وبعد عطاءك المائة الرتاعاً

أى كيف أكفر نعمتك أى لا أكفرها مع إنجائك لى من الموت إلخ . ووجه استعمال بعد فى هذا المعنى أنها مجاز فى معنى (مع) لأن شأن المسبب أن يتأخر عن السبب ولما لم يكن المقصد التنبيه على تأخره للعلم بذلك وأريد التنبيه على أنه معه إثباتاً أو تقياً عبر ببعد عن معنى (مع) مع الإشارة إلى التأخر الرتبى .

والقسوة والقساوة توصف بها الأجسام وتوصف بها النفوس المعبر عنها بالقلوب فالمعنى الجامع للوصفين هو عدم قبول التحول عن الحالة الموجودة إلى حالة تحالفها . وسواء كانت القساوة موضوعة للقدر المشترك بين هذين المعنيين الحسى والقلبى وهو احتمال ضعيف ، أم كانت موضوعة للأجسام حقيقة واستعملت فى القلوب مجازاً وهو الصحيح ، فقد شاع هذا

المجاز حتى ساوى الحقيقة وصار غير محتاج إلى القرينة فأل اللفظ إلى الدلالة على القدر المشترك بالاستعمال لا بأصل الوضع وقد دل على ذلك العطف في قوله « أو أشد قسوة » كما سيأتى .

وقوله « فهى كالحجارة » تشبيه فرع بالفاء لإرادة ظهور التشبيه بعد حكاية الحالة المعبر عنها بقست لأن القسوة هى وجه الشبه ولأن أشهر الأشياء فى هذا الوصف هو الحجر فإذا ذكرت القسوة فقد تهيأ التشبيه بالحجر ولذا عطف بالفاء أى إذا علمت أنها قاسية فشبها بالحجارة كقول النابغة يصف الحجيج :

عليهن شعثٌ عامدون لربهم فهن كأطراف الحنئِ جواشع

وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر لأنها محسوسة فلذلك شبه بها . وهذا الأسلوب يسمى عندى تهية التشبيه وهو من عأسنه ، وإذا تتبعت أساليب التشبيه فى كلامهم تجدها على ضربين ضرب لا يهيا فيه التشبيه وهو الغالب وضرب يهيا فيه كما هنا والعطف بالفاء فى مثله حسن جدا وأما أن يأتى المتكلم بما لا يناسب التشبيه فذلك عندى يعد مذموما وقد رأيت بيتاً جمع تهية التشبيه والبعد عنه وهو قول ابن نباتة :

فى الريق سُكر وفى الأصداغ تجميد هذا المدام وهاتيك العناقيد

فإنه لما ذكر السكر تهيأ التشبيه بالخمر ولكن قوله تجميد لا يناسب العناقيد

فإن قلت لم عدده مذموما وما هو إلا كتجريد الاستعارة .

قلت لا لأن التجريد يحىء بعد تكرار الاستعارة وعلم بها فيكون تغننا لطيفاً بخلاف ما يحىء قبل العلم بالتشبيه .

وقوله « أو أشد قسوة » مرفوع على أنه خبر مبتدأ دل عليه قوله « فهى كالحجارة » وأو بمعنى بل الانتقالية لتوفر شرطها وهو كون معطوفها جملة .

وهذا المعنى متولد من معنى التخيير الموضوعة له أو لأن الانتقال ينشأ عن التخيير فإن القلوب بعد أن شبّهت بالحجارة وكان الشأن أن يكون المشبه أضعف فى الوصف من المشبه به يُبنى على ذلك ابتداء التشبيه بما هو أشهر ثم عقب التشبيه بالترقى إلى التفضيل فى وجه الشبه على حد قول ذى الرمة^(١) :

(١) نسيه إليه ابن جني وقال البغدادي لم أجده فى ديوان ذى الرمة .

بَدَتْ مثل قرن الشمس في رونق الضُّحَى وصورتها أو أنتِ في العين أَمْلَحَ
 فليست أو للتخيير في التشبيه أى ليست عاطفة على قوله الحجارة المجرورة بالكاف لأن
 تلك لها موقع ما إذا كرر المشبه به كما قدمناه عند قوله تعالى « أو كصيب من السماء » .
 ويجوز أن تكون للتخيير في الأخبار عطفًا على الخبر الذى هو كالحجارة أى فى مثل
 الحجارة أو هى أقوى من الحجارة والمقصود من التخيير أن التكلم يشير إلى أنه لا يرى
 بكلامه جزافًا ولا يذمهم تحاملاً بل هو مثبت متحرر في شأنهم فلا يُثبت لهم إلا ما تبين له
 بالاستقراء والتقصى فإنه ساوهم بالحجارة في وصف ثم تَقَصَّى فرأى أنهم فيه أقوى فكانه
 يقول للمخاطب إن شئت فسوّهم بالحجارة في القسوة ولك أن تقول هم أشد منها وذلك يفيد
 مفاد الانتقال الذى تدل عليه بل وهو إنما يحسن في مقام الذم لأن فيه تلطفاً وأما في مقام
 المدح فالأحسن هو التعبير ببل كقول الفرزدق :

فَقَالَتْ لَنَا أَهْلًا وَسَهْلًا وَزَوَّدَتْ جَنَى النَّحْلِ بِلْ مَازَوَّدَتْ مِنْهُ أَطِيبُ

وجه تفضيل تلك القلوب على الحجارة في المساواة أن المساواة التى اتصفت بها القلوب
 مع كونها نوعاً مغايراً لنوع مساواة الحجارة قد اشتركا في جنس المساواة الراجعة إلى معنى
 عدم قبول التحول كما تقدم فهذه القلوب مساوتها عند التخصيص أشد من مساواة الحجارة لأن
 الحجارة قد يعترىها التحول عن صلابتها وشدتها بالتفرق والتشقق وهذه القلوب لم تُجَدِّ فيها
 محاولة .

وقوله « وإن من الحجارة لما يتفجر » إلخ تعليل لوجه التفضيل إذ من شأنه أن
 يُستغرب ، وموقع هذه الواو الأولى في قوله « وإن من الحجارة » عسيف قيل هى للحال من
 الحجارة المقدرة بعد أشد أى أشد من الحجارة قسوة ، أى تفضيل القلوب على الحجارة في
 القسوة يظهر في هذه الأحوال التى وُصِفَتْ بها الحجارة ومعنى التقييد أن التفضيل أظهر في
 هذه الأحوال ، وقيل هى الواو للمعطف على قولهم رفهى كالحجارة أو أشد قسوة ، قاله
 التفريانى ، وكأنه يجعل مضمون هذه المعطوفات غير راجع إلى معنى تشبيه القلوب بالحجارة
 في المساواة بل يجعلها إخباراً عن مزايا فضلت بها الحجارة على قلوب هؤلاء بما يحصل عن
 هذه الحجارة من منافع في حين تعطل قلوب هؤلاء من صدور النفع بها ، وقيل الواو
 استثنائية وهو تذييل للجملة السابقة وفيه بعد كما صرح به ابن عرفة ، والظاهر أنها الواو

الاعتراضية وأن جملة وإن من الحجارة وما عطف عليها معترضات بين قوله ثم قست قلوبكم وبين جملة الحال منها وهي قوله « وما الله بغافل عما تعملون » .

والتوكيد بأن للاهتمام بالخبر وهذا الاهتمام يؤذن بالتعميل ووجود حرف العطف قبلها لا يُنافي كد ذلك كما تقدم عند قوله تعالى « فإن لكم ما سألتم » .

ومن بديع التخلص تأخر قوله تعالى « وإن منها لما يهبط من خشية الله » والتعبير عن التسخر لأمر التكوين بالخشية ليم ظهور تفضيل الحجارة على قلوبهم في أحوالها التي نهايتها الامتثال للأمر التكويني مع تعاضى قلوبهم عن الامتثال للأمر التكليفي ليتأتى الانتقال إلى قوله « وما الله بغافل عما تعملون » وقوله « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » .

وقد أشارت الآية إلى أن انتجار الماء من الأرض من الصخور منحصر في هذين الحالين وذلك هو ما تقرر في علم الجغرافيا الطبيعية أن الماء النازل على الأرض يخرق الأرض بالتدريج لأن طبع الماء النزول إلى الأسفل جريا على قاعدة الجاذبية فإذا اضبط عليه بثقل نفسه من تكاثره أو بضائط آخر من أهوية الأرض تطلب الخروج حتى إذا بلغ طبقة صخرية أو صلصالية طفا هناك فالحجر الرمل يشرّب الماء والصخور والصلصال لا يخرقها الماء إلا إذا كانت الصخور مركبة من مواد كلسية وكان الماء قد حمل في جريته أجزاء من معدن الحامض الفحمي فإن له قوة على تحليل الكلس فيحدث ثوبا في الصخور الكلسية حتى يخرقها فيخرج منها نابعا كالعيون . وإذا اجتمعت العيون في موضع نشأت عنها الأنهار كالنيل النابع من جبال القمر ، وأما الصخور غير الكلسية فلا يفتتها الماء ولكن قد يمرض لها انشقاق بالزلازل أو بقلق الآلات فيخرج منها الماء إما إلى ظاهر الأرض كما نرى في الآبار وقد يخرج منها الماء إلى طبقة تحتها فيختزن تحتها حتى يخرج بحالة من الأحوال السابقة . وقد يجد الماء في سيره قبل الدخول تحت الصخر أو بعده متفذا إلى أرض ترابية فيخرج طافيا من سطح الصخور التي جرى فوقها . وقد يجد الماء في سيره منخفضات في داخل الأرض فيستقر فيها ثم إذا انضمت إليه كميات أخرى تطلب الخروج بطريق من الطرق المتقدمة ولذلك يكثر أن تنفجر الأنهار عقب الزلازل .

والخشية في الحقيقة الخوف الباعث على تقوى الخائف غيره . وهي حقيقة شرعية في امتثال الأمر التكليفي لأنها الباعث على الامتثال . وجعلت هنا مجازا عن قبول الأمر التكويني

إما مرسلا بالإطلاق والتقييد ، وإما تمثيلا للهيئة عند التكوين بهيئة المكف إذ ليست للحجارة خشية إذ لا عقل لها . وقد قيل إن إسناد يهبط للحجر مجاز عقلي والراد هبوط القلوب أي قلوب الناظرين إلى الصخور والجبال أي خضوعها فأسند المهبوط إليها لأنها سبيه كما قالوا ناقة تاجرة أي تبعت من يراها على المساومة فيها^(١) .

وقوله « وما الله بغافل عما تعملون » تذييل في محل الحال أي فعلتم ما فعلتم وما الله بغافل عن كل صنعكم وقد قرأه الجمهور بالتاء الفوقية تكملة خطاب بني إسرائيل ، وقرأ ابن كثير ويمقوب وخلف يعملون بالياء التحتية وهو انتقال من خطابهم إلى خطاب المسلمين فلذلك غير أسلوبه إلى الغيبة وليس ذلك من الالتفات لاختلاف مرجع الضميرين لأن تفريع قوله « أفطمعون أن يؤمنوا لكم » عليه دل على أن الكلام نقل من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب المسلمين . وهو خبر مراد به التهديد والوعيد لهم مباشرة أو تعريضا .

﴿ أَفَظَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ 75

هذا اعتراض استطرادي بين القصة الماضية والقصة التي أولها « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون » جميع الجمل من قوله تعالى « أفطمعون - إلى قوله - وإذ أخذنا » داخلة في هذا الاستطراد . والفاء لتفريع الاستفهام الإنكارى أو التعجيبى على جملة « ثم قست » أو على مجموع الجمل السابقة لأن جميعها مما يقتضى اليأس من إيمانهم بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه قيل فلا تطمعوا أن يؤمنوا لكم أو فاعجبوا من طمعكم وسيأتى تحقيق موقع الاستفهام مع حرف العطف في مثله عند قوله تعالى « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم » . والطمع رقب حصول شيء محبوب وهو يرادف الرجاء وهو ضد اليأس ، والطمع يتعدى في حذف هنا قبل (أن) .

(١) قال النافذة يصف نغلا :

بزاخية ألوت بليغ كأنه عفاء قلاص طار عنها تواجز

فإن قلت كيف يُنهى عن الطمع في إيمانهم أو يُعجَّب به والنبىء والمسلمون مأمورون بدعوة أولئك إلى الإيمان دائماً وهل لمعنى هذه الآية ارتباط بمسألة التكليف بالاحمال الذى استحالاته لتعلق علم الله بعدم وقوعه .

قلت : إنما نُهيئنا عن الطمع في إيمانهم لا عن دعائهم للإيمان لأننا ندعوهم للإيمان وإن كنا آيسين منه لإقامة الحجة عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم وفي الآخرة أيضاً ولأن الدعوة إلى الحق قد تصادف نفساً نيرة فتنتفعها فإن استبعاد إيمانهم حُكم على غالبهم وجمهرتهم أما الدعوة فإنها تقع على كل فرد منهم والمسألة أخص من تلك المسألة لأن مسألة التكليف بالاحمال لتعلق العلم بعدم وقوعه مفروضة فيما علم الله عدم وقوعه وتلك قد كنا أجبننا لكم فيها جواباً واضحاً وهو أن الله تعالى وإن علم عدم إيمان مثل أبى جهل إلا أنه لم يطلعنا على ما علمه فيه والأوامر الشرعية لم تجيء بتخصيص أحد بدعوة حتى يقال كيف أمر مع علم الله بأنه لا يؤمن ، وأما هذه الآية فقد أظهرت نفي الطامعية في إيمان من كان دأبهم هذه الأحوال فالجواب عنها يرجع إلى الجواب الأعم وهو أن الدعاء لأجل إقامة الحجة وهو الجواب الأعم لأصحابنا في مسألة التكليف بما علم الله عدم وقوعه على أن بعض أحوالهم قد تغير فيكون للطامعية بعد ذلك حظ .

واللام في قوله « لكم » لتضمنين يؤمنوا معنى يُقرُّوا وكأن فيه تليحاً إلى أن إيمانهم بصدق الرسول حاصل ولكنهم يكابرون ويحجدون على نحو قوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » الآية فما أبدع نسج القرآن . ويجوز حمل اللام على التعليل وجعل يؤمنوا منزلاً منزلة اللازم تمريضاً بهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الذى جاءهم على ألسنة أنبيائهم وهم أخص الناس بهم أفتطمعون أن يعترفوا به لأجلكم .

وقوله « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله » جملة حالية هي قيد إنكار الطمع في إيمانهم فيكون قد علل هذا الإنكار بملتين إحداهما بالتفريع على ما علمناه ، والثانية بالتقيد بما علمناه .

وقوله « فريق منهم » يحتمل أن يريد من قومهم الأقدمين أو من الحاضرين في زمن

نزول الآية . وسماهم كلام الله على التقديرين هو سماع الوحي بواسطة الرسول إن كان الفريق من الذين كانوا زمن موسى أو بواسطة النقل إن كان من الذين جاءوا من بعده . أما سماع كلام الله مباشرة فلم يقع إلا لموسى عليه السلام وأياً ما كان فالقصد بهذا الفريق جمع من علمائهم دون عامتهم . والتحريف أصله مصدر حَرَّف الشيء إذا مال به إلى الحرف وهو يقتضى الخروج عن جادة الطريق . ولما شاع تشبيه الحق والصواب والرشد والى الكرام بالجادة وبالصرط المستقيم شاع في عكسه تشبيه ما خالف ذلك بالانحراف وبنيات الطريق . قال الأشر :

بَقِيْتُ وَفَرَى وَانْحَرَفْتُ عَنْ الْعُلَا وَلَقِيتُ أَضْيَافِي بِوَجْهِ عَبُوسٍ

ومن فروع هذا التشبيه قولهم : زَاغَ ، وَحَادَ ، وَمَرَقَ ، وَالْحَدَّ . وقوله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف » . فالمراد بالتحريف إخراج الوحي والشرية عما جاءت به إما بتبديل وهو قليل وإما بكتمان بعض وتناسيه وإما بالتأويل البعيد وهو أكثر أنواع التحريف .

وقوله « وهم يملكون » حال من فريق وهو قيد في القيد يعني يسمعون ثم يعقلونه ثم يحرفونه وهم يملكون أنهم يحرفون ، وأن قوما توارثوا هذه الصفة لا يطمع في إيمانهم لأن الذين فعلوا هذا إما أن يكونوا آبائهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو بنى عمهم فالغالب أن يكون خلقهم واحداً وطباعهم متقاربة كما قال نوح عليه السلام « ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » وللعرب والحكاء في هذا المعنى أقوال كثيرة مرجمها إلى أن الطباع تورث ، ولذلك كانوا يصفون القبيلة بصفات جمهورها أو أراد بالفريق علماءهم وأخبارهم ، فالمراد لا طمع لكم في إيمان قوم هذه صفات خاصتهم وعلمائهم فكيف ظنكم بصفات دعاتهم لأن الخاصة في كل أمة هم مظهر عمادها وكالاتها فإذا بلغت الخاصة في الاضططاط مبلغاً شنيعاً فاعلم أن العامة أظعم وأشنع وأراد بالعامة الموجودين منهم زمن القرآن لأنهم وإن كان فيهم علماء إلا أنهم كالعامة في سوء النظر ووهن الوازع .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِمَعْشُرِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ⁷⁶ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ 77

الأظهر أن الضمير في لقوا عائد على بنى إسرائيل على نسق الضمائر السابقة في قوله «أفتطمعون أن يؤمنوا» وما بعده، وأن الضمير المرفوع بقالوا عائد عليهم باعتبار فريق منهم وهم الذين أظهروا الإيمان ثقافاً أو تقادياً من مر القارعة والحاجة بقرينة قوله «آمنا» وذلك كثير في ضمائر الأمم والقبائل ونحوها نحو قوله تعالى «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن» لأن ضمير طلقتم للمطلقين وضمير تعضلوهن للأولياء لأن الجميع راجع إلى جهة واحدة وهي جهة المخاطبين من المسلمين لاشتمالهم على الصنفين، ومنه أن تقول لئن نزلت بيني فلان ليكرمك وإنما يكرمك سادتهم وكرماؤهم ويكون الضمير في قوله «بعضهم» عائد إلى الجميع أى بعض الجميع إلى بعض آخر ومعلوم أن القائل من لم ينافق لمن نافق، ثم تلتئم الضمائر بمد ذلك في يعلمون ويسرون ويعلنون بلا كلفة وإلى هذه الطريقة ذهب صاحب الكشف ويرجحها عندى أن فيها الاختصار على تأويل ما به الحاجة والتأويل عند وجود دليله بجنبه وهو آمنا.

وجملة إذا لقوا معطوفة على جملة «وقد كان فريق منهم» على أنها حال مثلها من أحوال اليهود وقد قصد منها تقييد النهي أو التعجيب من الطمع في إيمانهم فهو معطوف على الحال بتأويل وقد كان فريق منهم آخر إذا لقوا. وقوله «وإذا خلا بعضهم» معطوف على إذا لقوا وهو المقصود من الحالية أى والحال أنهم يحصل منهم مجموع هذا لأن مجرد قولهم آمنا لا يكون سبباً للتعجب من الطمع في إيمانهم فضمير بعضهم راجع إلى ما رجع إليه لقوا وهم عموم اليهود. ونكتة التعبير بقالوا آمنا مثلها في نظيره السابق في أوائل السورة.

وقوله «أتحذثونهم» استفهام للإنكار أو التقرير أو التوبيخ بقرينة أن المقام دل على أنهم جرى بينهم حديث في ما ينزل من القرآن فاضحاً لأحوال أسلافهم ومثالب سيرتهم مع أنبيائهم وشريعتهم. والظاهر عندى أن معناه أنهم لما سمعوا من القرآن ما فيه فضيحة أحوالهم وذكر

ما لا يملئه إلا خاستهم ظنوا أن ذلك خلص للنبيء من بعض الذين أظهروا الإيمان من أتباعهم وأن ثقافتهم كان قد بلغ بهم إلى أن أخبروا المسلمين ببعض قصص قومهم سترأ لكفرهم الباطن فونجوههم على ذلك توييخ إنكار أى كيف يبلغ بكم النفاق إلى هذا وأن فى بعض إظهار المودة للمسلمين كفاية على حد قول المثل الذى حكاه بشار بقوله :

واسعدُ بما قال فى الحلم ابنُ ذي يزنَ يلهو الكرام ولا يَنسَوْنَ أحسابا

فحكى الله ذلك عنهم حكاية لحيرتهم واضطراب أمرهم لأنهم كانوا يرسلون نقرأ من قومهم جواسيس على النبيء والمسلمين يظهرن الإسلام ويبطنون اليهودية ثم اتهموهم بخرق الرأى وسوء التدبير وأنهم ذهبوا يتجسسون فكشفوا أحوال قومهم ويدل لهذا عندى قوله تعالى بعد «أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون» وأخبار مروية عن بعض التابعين بأسانيد لبيان المتحدث به، فمن السدى كان بعض اليهود يحدث المسلمين بما عذب به أسلافهم وعن أبى العالية قال بعض المنافقين إن النبيء مذكور فى التوراة وعن ابن زيد كانوا يخبرون عن بعض قصص التوراة .

والمراد « بما فتح الله » إما ما قضى الله به من الأحوال والمصائب فإن الفتح بمعنى القضاء وعليه قوله تعالى « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » والفتح القاضى بلفظة اليقين ، وإما بمعنى البيان والتعليم ، ومنه الفتح على الإمام فى الصلاة بإظهار الآية له وهو كناية مشهورة لأن القضاء يستلزم بيان الحق ، ومنه قوله تعالى « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » أى يسألونهم العلم بالأمور التشريعية على أحد وجهين فالمنى بما علمكم الله من الدين .

وقوله « ليحاجوكم به عند ربكم » صيغة المفاعلة غير مقصود بها حصول الفعل من جانبين بل هى لتأكيد الاحتجاج أى ليحتجوا عليكم به أى بما فتح الله عليكم . واللام فى قوله تعالى « ليحاجوكم » لام التعليل لكنها مستعملة فى التعقيب مجازاً أو ترشيحاً لاستعمال الاستفهام فى الإنكار أو التقرير مجازاً فإنه لما كان الاستفهام الموضوع لطلب العلم استعمل هنا فى الإنكار أو التقرير مجازاً لأن طلب العلم يستلزم الإقرار والمقرر عليه يقتضى الإنكار لأن المقر به مما ينكر بداهة وكانت الحاجة به عند الله فرعاً عن التحديث بما فتح الله عليهم جعل فرع وقوع التحديث النكر كأنه علة مسؤول عنها أى لكان فملىكم هذا معللاً بأن يحاجوكم وهو غاية فى الإنكار إذ كيف يسمى أحد فى إيجاد شيء تقوم به عليه الحجة فالقرينة هى

كون المقام للإِنْكار لا للاستفهام ولذلك كانت اللام ترشيحاً متميزاً به أيضاً . والأظهر أن قوله «عند ربكم» ظرف على بابه مراد منه عندية التحاكم المناسب لقوله يحاجوكم وذلك يوم القيامة لا محالة أى يحملون ذلك حجة عليكم أمام الله على صدق رسولهم وعلى تبعثكم فى عدم الإيمان به وذلك جار على حكاية حال عقيدة اليهود من تشبيههم الرب سبحانه وتعالى بحكام البشر فى تمشى الحيل عليه وفى أنه إنما يأخذ السببات من أسبابها الظاهرية فلذلك كانوا يرتكبون التحيل فى شرعهم وتجد كتبهم ملائى بما يدل على أن الله ظهر له كذا وعلم أن الأمر الفلانى كان على خلاف المظنون وكقولهم فى سفر التكوين « وقال الرب هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر » وقال فيه « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فحزن الرب انه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه فقال امحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته » وجاء فى التكوين أيضاً « لما شاخ إسحاق وكنت عيناه عن النظر دعا ابنه الأكبر عيسو وقال له إني شخت ولست أعرف يوم وفاتى فالآن خذ عدتك واخرج إلى البرية فتصيد لى صيداً واصنع لى أطعمة حتى أباركك قبل أن أموت فسمعت (رفقة) أمهما^(١) ذلك فكلمت ابنها يعقوب وقالت اذهب إلى الغنم وخذ جديدين جديدين من المزمى فاصنعهما أطعمة لأبيك حتى يباركك قبل وفاته فقال يعقوب لأمه إن عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون واجلب على نفسى لمة فقالت اسمع لقولى فذهب وصنعت له أمه الطعام وأخذت ثياب ابنها الأكبر عيسو وألبستها يعقوب وألبست يديه وملاسه عنقه جلود الجديدين فدخل يعقوب إلى أبيه وقال يا أبى أنا ابنك الأكبر قد فعلت كما كلمتنى فحسه إسحاق وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو فباركه (أى جعله نبياً) وجاء عيسو وكلم أباه وعلم الحيلة ثم قال لأبيه باركنى أنا فقال قد جاء أخوك بكرة وأخذ بركتك الخ » فساظنك بقوم هذه مبالغ عقائدهم أن لا يقولوا لا تعلموهم لئلا يحاجوكم عند الله يوم القيامة وبهذا يندفع استبعاد البيضاوى وغيره أن يكون المراد بمنذ ربكم يوم القيامة بأن إخفاء الحقائق يوم القيامة لا يفيد من يحاوله حتى سلكوا فى تأويل معنى قوله عند ربكم مسالك فى غاية التكلف قياساً منهم لحال اليهود على حال عقائد

(١) رفقة هى أم عيسو ويعقوب ولكنها تمل إلى يعقوب لأن عيسو كان قد تزوج امرأتين من

بنى حث فكانت رفقة ساخطة على عيسو .

الإسلام ففسروا (عند) بمعنى الكتاب أو على حذف مضاف أو حذف موصول ثم سلك متعقوبهم في إعرابه غاية الإغراب .

وقوله « أفلا تعقلون » من بقية مقولهم لقومهم ولا يصح جملة خطابا من الله للمسلمين تذيلا لقوله « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » لأن المسلمين وفيهم الرسول صلى الله عليه وسلم ليسوا جديرين بمثل هذا التوبيخ وحسبهم ما تضمنه الاستفهام من الاستغراب أو النهي . فإن قلت لم لم يذكر في الآية جواب المخاطبين بالتبرؤ من أن يكونوا حدثوا المؤمنين بما فتح الله عليهم كما ذكر في قوله المتقدم « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون »؟ قلت ليس القرآن بصدد حكاية مجادلاتهم وأحوالهم فإنها أقل من ذلك وإنما يحكى منها ما فيه شناعة حالهم وسوء سلوكهم ودوام إصرارهم وانحطاط أخلاقهم فغيرهم مما نسب إليه كبرائهم من التهمة معلوم ، للقطع بأنهم لم يحدثوا المسلمين بشيء . ولما دل عليه قوله الآتي « أو لا يعلمون أن الله يعلم » إلخ . وأما ما في الآية المتقدمة من تنصلهم بقولهم إنا معكم فلا في فيه التسجيل عليهم في قولهم فيه . إنما نحن مستهزئون

وقوله « أو لا يعلمون » الآية ، الاستفهام فيه على غير حقيقته فهو إما مجاز في التقرير أي ليسوا يعلمون ذلك والمراد التقرير بلازمه وهو أنه إن كان الله يعلمه فقد علمه رسوله وهذا لزوم عرفي ادعائي في المقام الخطابي أو مجاز في التوبيخ والمعنى هو هو . أو مجاز في التحضيض أي هل كان وجود أسرار دينهم في القرآن موجبا لهم أن الله يعلم ما يسرون والمراد لازم ذلك أي يعلمون أنه منزل عن الله أي هلاك ذلك دليلا على صدق الرسول عوض عن أن يكون موجبا لتهمة قومهم الذين تحققوا صدقهم في اليهودية وهذا الوجه هو الظاهر لي ويرجحه التعبير بـ « يعلمون بالمضارع دون علموا » . وموقع الاستفهام مع حرف العطف في قوله « أفلا تعقلون » وقوله « أو لا يعلمون » سيأتي الكلام على نظائره وخلاف علماء العربية فيه عند قوله تعالى « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم »

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾⁷⁸

معطوف على قوله، وقد كان فريق منهم يسمعون عطف الحال على الحال ومنهم خبر مقدم وتقديمه للتشويق إلى السند إليه كما تقدم في قوله تعالى «ومن الناس من يقول» والمعنى كيف تطعمون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم محرفين وفريق جملة وإذا اتقى إيمان أهل العلم منهم الظنون بهم تطلب الحق المنجى والاهتداء إلى التفرقة بينه وبين الباطل فشكلوا يحرفون الدين ويكبرون فيما يسمعون من معجزة القرآن في الإخبار عن أسرار دينهم فكيف تطعمون أيضا في إيمان الفريق الأميين الذين هم أبعد عن معرفة الحق وألهم عن تطلبه وأضل في التفرقة بين الحق والباطل وأجدر بالاعتداء بأنهم وعلماهم فالفريق الأول هم الماضون . وعلى هذا الجملة، ومنهم أميون» معطوفة على جملة، وقد كان فريق منهم» الخ باعتبار كونها معادلا لها من جهة ما تضمنته من كونها حالة فريق منهم وهذه حالة فريق آخر . وأما قوله «وإذا لقوا» وقوله «وإذا خلا» فتلك معطوفات على جملة «وقد كان فريق» عطف الحال على الحال أيضا لكن باعتبار ما تضمنته الجملة الأولى من قوله «يسمعون» الذي هو حال من أحوال اليهود وبهذا لا يجيء في جملة «ومنهم أميون» التخيير البني على الخلاف في عطف الأشياء المتعددة بعضها على بعض هل يحمل الأخير معطوفاً على ما قبله من المعطوفات أو معطوفاً على المفعول الأول لأن ذلك إذا كان مرجع العطف جهة واحدة وهنا قد اختلفت الجهة .

والأمرى من لا يعرف القراءة والكتابة والأظهر أنه منسوب إلى الأمة بمعنى عامة الناس فهو يرادف العامي ، وقيل منسوب إلى الأم وهي الوالدة أي أنه بقى على الحالة التي كان عليها مدة حضانه أمه إياه فلم يكتسب علما جديدا ولا يعكر عليه أنه لو كان كذلك لكان الوجه في النسب أن يقولوا أمهى بناء على أن النسب يرد الكلمات إلى أصولها وقد قالوا في جمع الأم أمهات فردوا المفرد إلى أصله فدلوا على أن أصل أم أمهة لأن الأسماء إذا نقلت من حالة الاشتقاق إلى جعلها أعلاما قد يقع فيها تغيير لأصلها . وقد اشتهر اليهود عند العرب بوصف أهل الكتاب فلذلك قيل هنا «ومنهم أميون» أي ليس جميعهم أهل كتاب . ولم تكن الأمية في العرب وصف ذم لكنها عند اليهود وصف ذم كما أشار إليه قوله تعالى «ذلك بأنهم

قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » وقال ابن صياد للنبي صلى الله عليه وسلم « أشهد أنك رسول الأميين » وذلك لما تقتضيه الأمية من قلة المعرفة ومن أجل ذلك كانت الأمية معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث كان أعلم الناس مع كونه نشأ أمياً قبل النبوة وقد قال أبو الوليد الباجي : إن الله علم نبيه القراءة والكتابة بمد تحقق معجزة الأمية بأن يطلعه على ما يعرف به ذلك عند الحاجة استناداً لحديث البخاري في صلح الحديبية وأيده جماعة من العلماء في هذا وأنكر عليه أكثرهم مما هو مبسوط في ترجمته من كتاب المدارك ليعاض وما أراد إلا إظهار رأيه .

والكتاب إما بمعنى التوراة اسم للمكتوب وإما مصدر كتب أى لا يعلمون الكتابة ويبيده قوله بعده « إلا أمانى » فلى الوجه الأول يكون قوله « لا يعلمون الكتاب » أثراً من آثار الأمية أى لا يعلمون التوراة إلا علما مختلطاً حاصلًا مما يسمونه ولا يتقنونه ، وعلى الوجه الثانى تكون الجملة وصفاً كاشفاً لمعنى الأميين كقول أوس بن حجر :

الألمى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع

والأمانى بالتشديد جمع أمنيّة على وزن أفاعيل وقد جاء بالتخفيف فهو جمع على وزن أفاعل عند الأخفش كما جمع مفتاح على مفاتيح ومفاتيح ، والأمنية كَأَنفِيّة وأضحية أفعولة كالأمجوبة والأضحوكة والأكذوبة والأغلوطة ، والأمانى كالأعاجيب والأضاحيك والأكاذيب والأغاليط ، مشتقة من مَنَى كرمى بمعنى قدر الأمر ولذلك قيل تمنى بمعنى تكلف تقدير حصول شيء متعذر أو متعسر ، ومنه أى جملة ما نيا أى مقدراً كناية عن الوعد الكاذب لأنه ينقل الموعود من تقدير حصول الشيء اليوم إلى تقدير حصوله غداً ، وهكذا كما قال كعب بن زهير :

فلا يَفْرُثْكَ ما مَنَّتْ وما وعدت إن الأمانى والأحلام تضليل
ولأن الكاذب ما كذب إلا لأنه يتمنى أن يكون ما في نفس الأمر موافقاً لخبره فمن أجل ذلك حدثت العلاقة بين الكذب والتمنى فاستعملت الأمنية في الأكذوبة ، فالأمانى هى التقادير النفسية أى الاعتقادات التى يحسبها صاحبها حقاً وليست بحق أو هى الفعال التى يحسبها العامة من الدين وليست منه بل ينسون الدين ويحفظونها ، وهذا دأب الأمم الضالة عن شرعها أن تعتقد مالها من العوائد والرسوم والواسم شرعاً ، أو هى التقادير التى

وضعها الأحبار موضع الوحي الإلهي إما زيادة عليه حتى أنستهم الأصل وإما تضليلا وهذا أظهر الوجوه ، وقيل الأمانى هنا الأكاذيب أى ما وضعه لهم الذين حرفوا الدين ، وقد قيل الأمانى القراءة أى لا يعلمون الكتاب إلا كلمات يحفظونها ويدرسونها لا يفقهون منها معنى كما هو عادة الأمم الضالة إذ تقتصر من الكتب على السرد دون فهم وأنشدوا على ذلك قول حسان في رثاء عثمان رضى الله عنه .

تَمْنَى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لَاقَى حَمَامِ الْمَقَادِرِ

أى قرأ القرآن في أول الليل الذى قُتل في آخره ، وعندى أن الأمانى هنا التمنيات وذلك نهاية في وصفهم بالجهل المركب أى هم يزعمون أنهم يعلمون الكتاب وهم أميون لا يعلمونه ولكنهم يدعون ذلك لأنهم تمنوا أن يكونوا علماء فلما لم يتالوا العلم ادعوه باطلا فإن غير العالم إذا اتهم بميسم العلماء دل ذلك على أنه يتمنى لو كان عالما ، وكيف كان الراد فلاستثناء منقطع لأن واحدا من هاته المعانى ليس من علم الكتاب .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَ شَيْءٌ بِهِمْ تَنْمَنَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ 79

الفاء للترتيب والتسبب فيكون ما بعدها مترتبا على ما قبلها والظاهر أن ما بعدها مترتب على قوله « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » الدال على وقوع تحريف منهم عن عمد فرُتب عليه الإخبار باستحقاقهم سوء الحالة . أو رتب عليه إنشاء استفظاع حالهم ، وأعيد في خلال ذلك ما أجمل في الكلام المطوف عليه إعادة تفصيل .

ومعنى « يكتبون الكتاب بأيديهم » أنهم يكتبون شيئا لم يأتهم من رسلهم بل يضعونه ويتكبرونه كما دل عليه قوله ثم يقولون هذا من عند الله الشمر بأن ذلك قولهم بأنفواهم ليس مطابقا لما في نفس الأمر .

وتم للترتيب الرتبة لأن هذا القول أدخل في استحقاقهم الويل من كتابة الكتاب

بأيديهم إذ هو المقصود . وليس هذا القول متراخيا عن كتابتهم ما كتبوه في الزمان بل هما متقارنان .

والويل لفظ دال على الشر أو الهلاك ولم يسمع له فعل من لفظه فلذلك قيل هو اسم مصدر، وقال ابن جني هو مصدر امتنع العرب من استعمال فعله لأنه لو صُرِّف لوجب اعتلال فائه وعينه بأن يجتمع فيه إعلالان أى فيكون ثقيلا، والويلة : البلية . وهي مؤنث الويل قال تعالى « قالوا يا ويلتنا » وقال امرؤ القيس :

* فقالت لك الويلات إنك مُرْجِلِي *

ويستعمل الويل بدون حرف نداء كما في الآية ويستعمل بحرف النداء كقوله تعالى « قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين » كما يقال يا حسرتنا .

فأما موقعه من الإعراب فإنه إذا لم يضاف أعرب إعراب الأسماء المبتدأ بها وأُخبر عنه بلام الجر كما في هذه الآية وقوله « ويل للمطففين » قال الجوهري وينصب فيقال ويلا يزيد وجعل سيبويه ذلك قبيحا وأوجب إذا ابتدئ به أن يكون مرفوعا ، وأما إذا أضيف فإنه يضاف إلى الضمير غالبا كقوله تعالى « وَيَلْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرَ لِمَنْ آمَنَ » وقوله « وَيَلْكَ آمِينَ » فيكون منصوبا وقد يضاف إلى الاسم الظاهر فيعرب إعراب غير المضاف كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بصير « وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرٍ حَرْبٍ » .

ولما أشبه في إعرابه المصادر الآتية بدلا من أفعالها نصبا ورفعا مثل : حمد الله وصبر جميل كما تقدم عند قوله تعالى « الحمد لله » قال أكثر أئمة العربية إنه مصدر أميت فعله ، ومنهم من زعم أنه اسم وجعل نصبه في حالة الإضافة نصبا على النداء بحذف حرف النداء لكثرة الاستعمال فأصل وَيْلَهْ يا ويله بدليل ظهور حرف النداء معه في كلامهم . وربما جملوه كالندوب فقالوا وَيْلَاهْ وقد أعربه الزجاج كذلك في سورة طه . ومنهم من زعم أنه إذا نصب فعلى تقدير فعل، قال الزجاج في قوله تعالى « وَيَلْكُمْ لا تفتروا على الله كذبا » في طه يجوز أن يكون التقدير ألزمكم الله ويلا . وقال الفراء إن ويل كلمة مركبة من وَيْ بمعنى الحزن ومن مجرور باللام المكسورة فلما كثر استعمال اللام مع وَيْ صيروها حرفا واحدا فاختراروا فتح اللام كما قالوا يَالْ ضَبَّةً ففتحوا اللام وهي في الأصل مكسورة . وهو يستعمل دعاء وتمعجا وزجرا مثل قولهم : لا أب لك، وثكلتك أمك . ومعنى « فويل للذين يكتبون الكتاب »

دعاء مستعمل في إنشاء الغضب والجزر ، قال سيبويه : لا ينبغي أن يقال ويل للمطففين دعاء لأنه قبيح في اللفظ ولكن العباد كلّموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم على مقدار فهمهم أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم . وقد جاء على مثال ويل ألفاظ وهي وَيُخْ وَيُسْ وَيُؤْب وَيُؤْيَ وَيُؤْيَك .

وذكر « بأيديهم » تأكيد مثل نظرته بمعنى ومثل « يقولون بأفواههم » وقوله « ولا طائر يطير بجناحيه » . والقصد منه تحقيق وقوع الكتابة ورفع المجاز عنها وأنهم في ذلك عامدون قاصدون . وقوله « ليشتروا به ثمنا قليلا » هو كقوله « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » والتمن المقصود هنا هو إرضاء العامة بأن غيروا لهم أحكام الدين على ما يوافق أهواءهم أو انتحال العلم لأنفسهم مع أنهم جاهلون فوضعوا كتباً تافهة من القصص والمعلومات البسيطة ليتفهموها بها في الجامع لأنهم لما لم تصل عقولهم إلى العلم الصحيح وكانوا قد طعموا في التصدر والرئاسة الكاذبة لفقوا تنفا سطحية وجمعوا موضوعات وفراغات لا تثبت على حيك العلم الصحيح ثم أشاعوها ونسبوها إلى الله ودينه وهذه شنشنة الجملّة المتطلعين إلى الرئاسة عن غير أهلية ليظهروا في صور العلماء لدى أنظار العامة ومن لا يميز بين الشحم والورم .

وقوله « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » تفصيل لجنس الويل إلى ويلين وهما ما يحصل لهم من الشر لأجل ما وضعوه وما يحصل لهم لأجل ما اكتسبوه من جراء ذلك فهو جزاء بالشر على الوسيلة وعلى المقصد وليس في الآية ثلاث ويلات كما قد توهم ذلك .

وكان هذه الآية تشير إلى ما كان في بني إسرائيل من تلاشي التوراة بعد تخريب بيت المقدس في زمن بختنصر ثم في زمن طيطس القائد الروماني وذلك أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام قد أمر بوضعها في تابوت العهد حسبما ذلك مذكور في سفر التثنية وكان هذا التابوت قد وضعه موسى في خيمة الاجتماع ثم وضعه سليمان في الهيكل فلما غزاهم بختنصر سنة ٥٨٨ قبل المسيح أحرق الهيكل والمدينة كلها بالنار وأخذ معظم اليهود فباعهم عبيداً في بلده وترك فئة قليلة بأورشليم قصرهم على الفراسة والزراعة ثم ثاروا على بختنصر وقتلوا نائبه وهربوا إلى مصر ومعهم أرميا فخربت مملكة اليهود . ومن العلوم أنهم لم يكونوا

يومئذ يستطيعون إنقاذ التوراة وهم لم يكونوا من حفظها لأن شريعتهم جعلت التوراة أمانة بأيدي اللاويين كما تضمنه سفر التثنية وأمر موسى القوم بنشر التوراة لهم بعد كل سبع سنين تمضى وقال موسى ضموا هذا الكتاب عند تابوت العهد ليكون هناك شاهداً عليكم لأنى أعرف تمردكم وقد صرتم تقاومون ربكم وأنا حى فأحرى أن تفعلوا ذلك بعد موتى ولا يخفى أن اليهود قد نبذوا الديانة غير مرة وعبدوا الأصنام في عهد رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وفي عهد يوربعام غلام سليمان ملك إسرائيل قبل تخريب بيت المقدس وذلك مؤذن بتنامى الدين ثم طراً عليه التخريب المشهور ثم أعقبه التخريب الرومانى فى زمن طيطس سنة ٤٠ للمسيح ثم فى زمن أدریان الذى تم على يده تخريب بلد أورشليم بحيث صيرها مزرعة وتفرق من أبقاه السيف من اليهود فى جهات العالم . ولهذا اتفق المحققون من العلماء الباحثين عن تاريخ الدين على أن التوراة قد دخلها التحريف والزيادة والتلاشى وأنهم لما جمعوا أمرهم عقب بعض مصائبهم الكبرى افتقدوا التوراة فأرادوا أن يجمعوها من متفرق أوراقهم وبقايا مكاتبهم . وقد قال (لنجرك) أحد اللاهوتيين من علماء الإفرنج إن سفر التثنية كتبه يهودى كان مقيماً بمصر فى عهد الملك يوشيا ملك اليهود وقال غيره إن الكتب الخمسة التى هى مجموع التوراة قد دخل فيها تحريف كثير من علم صموئيل أو عزير (عزرا) . ويذكر علماءنا أن اليهود إنما قالوا عزير ابن الله لأنه ادعى أنه ظفر بالتوراة . وكل ذلك يدل على أن التوراة قد تلاشت وتمزقت والموجود فى سفر الملوك الثانى من كتبهم فى الإصحاح الحادى والعشرين أنهم بينما كانوا بصدد ترميم بيت المقدس فى زمن يوشيا ملك يهوذا ادعى حلقيا الكاهن أنه وجد سفر الشريعة فى بيت الرب وسلمه الكاهن لكتاب الملك فلما قرأه الكاتب على الملك مزق ثيابه وتاب من ارتداده عن الشريعة وأمر الكهنة بإقامة كلام الشريعة المكتوب فى السفر الذى وجده حلقيا الكاهن فى بيت الرب اه . فهذا دليل قوى على أن التوراة كانت مجهولة عندهم منذ زمان .

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ⁸⁰ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ⁸¹ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ⁸²﴾

قيل الواو لعطف الجملة على جملة « وقد كان فريق منهم » فتكون حالا مثلها أى كيف تطمعون أن يؤمنوا لكم وهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ويقولون لن تمسنا النار . والأظهر عندى أن الواو عطف على قوله يكتبون إلخ أى فعلوا ذلك وقالوا لن تمسنا النار ووجه المناسبة أن قولهم لن تمسنا النار دل على اعتقاد مقرر في نفوسهم يشيعونه بين الناس بالسنتهم قد أنبأ بفرور عظيم من شأنه أن يقدمهم على تلك الجريمة وغيرها إذ هم قد آمنوا من المؤاخذة إلا أياماً معدودة تعادل أيام عبادة العجل أو أياماً عن كل ألف سنة من العالم يوم وإن ذلك عذاب مكتوب على جميعهم فهم لا يتوقون الإقدام على المعاصى لأجل ذلك فبالعطف على أخبارهم حصلت فائدة الإخبار عن عقيدة من ضلالتهم . ولموقع هذا العطف حصلت فائدة الاستئناف البياني إذ يجب السامع من جراتهم على هذا الإجماع .

وقوله « وقالوا » أراد به أنهم قالوه عن اعتقاد لأن الأصل الصدق في القول حتى تقوم القرينة على أنه قول على خلاف الاعتقاد كما في قوله « قالوا آمنا » ولأجل أن أصل القول أن يكون على وفق الاعتقاد ساغ استعمال القول في معنى الظن والاعتقاد في محو قولهم : قال مالك ، وفى نحو قول عمرو بن معد يكرب * علام تقول الرمح يشغل عاتق *

والمس حقيقته اتصال اليد بجرم من الأجرام وكذلك اللمس قال تعالى « والذين كفروا بآياتنا يعذبهم العذاب » .

وعبر عن فهمهم بحرف لن الدال على تأييد النفي تأكيداً لا كيدا لا تنفاء العذاب عنهم بعد تأكيد ، ولدلالة لن على استغراق الأزمان تأتي الاستثناء من عموم الأزمنة بقوله « إلا أياماً معدودة » على وجه التفريع فهو منصوب على الظرفية . والوصف بمعدودة مؤذن بالقلّة لأن المراد بالمعدود الذى يعمده الناس إذا رأوه أو تحدثوا عنه ، وقد شاع في العرف والموائد

أن الناس لا يعمدون إلى عد الأشياء الكثيرة دفعا للعلل أو لأجل الشغل سواء عرفوا الحساب أم لم يعرفوه لأن المراد العد بالعين واللسان لا العد بجمع الحسابات إذ ليس مقصودا هنا . وتأنيث معدودة وهو صفة أياماً مراعى فيه تأويل الجمع بالجماعة وهي طريقة عربية مشهورة ولذلك كثر في صفة الجمع إذا أشوها أن يأتوا بها بصيغة الأفراد إلا إذا أرادوا تأويل الجمع بالجماعات ، وسيأتي ذلك في قوله تعالى «أياماً معدودات» .

وقوله «قل اتخذتم عند الله عهداً» جواب لسكلامهم ولذلك فصل على طريقة المحاورات كما قدمناه في قوله تعالى «قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها» والاستفهام غير حقيقى بدليل قوله بعده بلى فهو استفهام تقريرى للإلجاء إلى الاعتراف بأصدق الأمرين وليس إنكارى لوجود المعادل وهو أم تقولون لأن الاستفهام الإنكارى لا معادل له . والمراد بالعهد الوعد المؤكد فهو استعارة، لأن أصل العهد هو الوعد المؤكد بقسم والزام، ووعد الذى لا يخلف الوعد كالعهد ويجوز أن يكون العهد هنا حقيقة لأنه في مقام التقرير دال على انتفاء ذلك . وذكر الاتخاذ دون أعاهدتم أو عاهدكم لما فى الاتخاذ من تأكيد العهد و«عند» لزيادة التأكيد يقولون اتخذ يداً عند فلان. وقوله «فلن يخلف الله عهده» الفاء فصيحة دالة على شرط مقدر وجزائه وما بعد الفاء هو علة الجزاء والتقدير فإن كان ذلك فلكم العذر فى قولكم لأن الله لا يخاف عهده وتقدم ذلك عند قوله تعالى «فانجرت منه اثنتا عشرة عينا» .

ولكون ما بعد فاء الفصيحة دليل شرط وجزائه لم يلزم أن يكون ما بعدها مسبباً عما قبلها ولا مترتباً عنه حتى يشكل عليه عدم صحة ترتب الجزاء فى الآية على الشرط المقدر لأن لن للاستقبال .

وأم فى قوله «أم تقولون على الله ما لا تعلمون» معادلة همزة الاستفهام فهى متصلة وتقع بعدها الجملة كما صرح به ابن الحاجب فى الإيضاح وهو التحقيق كما قال عبد الحكيم فإنا قاله صاحب المفتاح من أن علامة أم المنقطعة كون ما بعدها جملة أمر أغلبى ولا معنى للانقطاع هنا لأنه يفسد ما أفاده الاستفهام من الإلجاء والتقرير .

وقوله بلى إبطال لقولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ، وكلمات الجواب تدخل على الكلام السابق لأعلى ما بعدها فعنى بلى بل أنتم تمسكم النار مدة طويلة . وقوله «من كسب سيئة» سند لما تضمنته بلى من إبطال قولهم أى ما أنتم إلا ممن كسب سيئة إلخ ومن كسب

سيئة وأحاطت به خطيئاته فأولئك أصحاب النار فأنتم منهم لا محالة على حد قول لبيد :

تَمَنَّى ابْتِغَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رِبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ

أى فلا أخلد كما لم يخلد بنو ربيعة ومضر ، فمن في قوله « من كسب سيئة » شرطية بدليل دخول الفاء في جوابها وهى في الشرط من صيغ العموم فلذلك كانت مؤذنة بجملة محذوفة دل عليها تعقيب بلى بهذا العموم لأنه لو لم يرد به أن المخاطبين من زمر هذا العموم لكان ذكر العموم بعدها كلاما متناثرا فى الكلام إيجاز الحذف ليكون الذكور كالتقصية الكبرى لبرهان قوله بلى . والمراد بالسيئة هنا السيئة العظيمة وهى الكفر بدليل المطف عليها بقوله « وأحاطت به خطيئاته » .

وقوله « وأحاطت به خطيئاته » الخطيئة اسم لما يقترفه الإنسان من الجرائم وهى فعيلة بمعنى مفعولة من خطى إذا أساء ، والإحاطة مستعارة لعدم الخلو عن الشيء لأن ما يحيط بالمرء لا يترك له منفذا للإقبال على غير ذلك قال تعالى « وظنوا أنهم أحيط بهم » وإحاطة الخطيئات هى حالة الكفر لأنها تجرى على جميع الخطايا ولا يعتبر مع الكفر عمل صالح كما دل عليه قوله « ثم كان من الذين آمنوا » . فلذلك لم تكن فى هذه الآية حجة للزاعمين خلود أصحاب الكبائر من المسلمين فى النار إذ لا يكون المسلم محيطة به الخطيئات بل هو لا يخلو من عمل صالح وحسبك من ذلك سلامة اعتقاده من الكفر وسلامة لسانه من النطق بكلمة الكفر الخبيثة .

والقصر المستفاد من التعريف فى قوله « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » قصر إضافى لقلب اعتقادهم . وقوله « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » تذييل لتعقيب النذارة بالبشارة على عادة القرآن . والمراد بالخلود هنا حقيقته .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ⁸³

أعيد ذكر أحوال بني إسرائيل بعد ذلك الاستطراد للتفتن فيه فأعيد الأسلوب القديم وهو العطف بإعادة لفظ إذ في أول القصص . وأظهر هنا لفظ - بني إسرائيل وعدل عن الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب المراد به سلف المخاطبين وخلفهم لوجهين أحدهما أن هذا رجوع إلى مجادلة بني إسرائيل وتوقيفهم على مساوئهم فهو افتتاح ثان جرى على أسلوب الافتتاح الواقع في قوله تعالى «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم» الآية . ثانيهما أن ماسيد كرهنما لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ليتأتى توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين حتى لا يظن أنه من الخطاب الذي أريد به أسلافهم على وزان « وإذ نجيناكم من آل فرعون » أو على وزان « ثم اتخذتم العجل من بعده » . وقوله « ميثاق بني إسرائيل » أريد به أسلافهم لأنهم الذين أعطوا الميثاق لموسى على امتثال ما أنزل الله من التوراة كما قدمناه . أو المراد بلفظ بني إسرائيل المتقدمون والمتأخرون والمراد بالخطاب في «توليتهم» خصوص من بعدهم لأنهم الذين تولوا فليس في الكلام التفات ما وهو أولى من جعل ما صدق بني إسرائيل هو ما صدق ضمير توليتهم وأن الكلام التفات .

وقوله « لا تعبدون إلا الله » خبر في معنى الأمر ومحجى الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر لأن الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنه يخبر عنه . وجلة « لا تعبدون » مبدأ بيان للميثاق فلذلك فصلت وعطف ما بعدها عليها ليكون مشاركا لها في معنى البيانية سواء قدّرت أن أولم تقدّرها أو قدّرت قولاً محذوفاً .

وقوله « وبالوالدين إحسانا » هو مما أخذ عليهم الميثاق به وهو أمر مؤكد لما دل عليه تقديم التعلّق على متعلّقه وهما « بالوالدين إحسانا » وأصله وإحساناً بالوالدين ، والمصدر بدل

من فعله والتقدير وأحسنوا « بالوالدين إحساناً » . ولا يريكم أنه معمول مصدر وهو لا يتقدم على عامله على مذهب البصريين لأن تلك دعوى واهية دعاهم إليها أن المصدر في معنى أن والفعل فهو في قوة الصلة ومعمول الصلة لا يتقدم عليها مع أن أن والفعل هي التي تكون في معنى المصدر لا العكس والعجب من ابن جني كيف تأبهم في شرحه للحجاسة على هذا عند قول الحامسي :

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان

وعلى طريقتهم تعلق قوله « بالوالدين » بفعل محذوف تقديره وأحسنوا وقوله « إحساناً » مصدر ويرد عليهم أن حذف عامل المصدر المؤكد ممتنع لأنه تبطل به فائدة التأكيد الحاصلة من التكرير فلا حاجة إلى جميع ذلك. ونجزم بأن المجرور مقدم على المصدر ، على أن التوسع في المجرورات أمر شائع وأصل مفروغ منه، واليتامى جمع يتيم كالندامى للنديم وهو قليل في جمع فاعيل .

وجعل الإحسان لسائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به وذلك أن أصل القول أن يكون عن اعتقاد، فهم إذا قالوا للناس حسناً فقد أضربوا لهم خيراً وذلك أصل حسن المعاملة مع الخلق قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وقد علمنا الله تعالى ذلك بقوله «ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا» على أنه إذا عرض ما يوجب تسكدر الخاطر فإن القول الحسن يزيل ما في نفس القائل من الكدر ويرى للمقول له الصفاء فلا يعامله إلا بالصفاء قال المعري :

والخل كلاماً يبدى لى ضمائرهُ مع الصفاء ويُخفيها مع الكدر

على أن الله أمر بالإحسان الفعلي حيث يتعين ويدخل تحت قدرة الأمور وذلك الإحسان للوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين وإيتاء الزكاة، وأمر بالإحسان القولى إذا تعذر الفعلي على حد قول أبي الطيب : * فليسعد النطق إن لم تسعد الحال *

وقوله « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » أطلقت الزكاة فيه على الصدقة مطلقاً أو على الصدقة الواجبة على الأموال وليس المراد الكتابة عن شريعة الإسلام لما علمت من أن هاته المماطيف تابعة لبيان الميثاق وهو عهد موسى عليه السلام .

وقوله « ثم توليتم إلا قليلا منكم » خطاب للحاضرين وليس بالتفات كما علمت آنفا . والمعنى أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم شرعا اتبعتموه . والتولى الإعراض وإبطال ما التزموه وحذف متعلقه لدلالة ما تقدم عليه ، أى توليتم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به أى أشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتهم الوالدين وأسأتم لدوى القربى واليتامى والمساكين وقلتم للناس أخفش القول وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة . ويجوز أن يكون المراد بالخطاب فى توليتم المخاطبين زمن نزول الآية ، وبعض من تقدمهم من متوسط عصور الإسرائيليين فيكون ضمير الخطاب تغليبا ، نكته إظهار براءة الذين أخذ عليهم العهد أولا من نكته وهو من الإخبار بالجمع والمراد التوزيع أى توليتم فنكم من لم يحسن للوالدين وذى القربى إلخ وهذا من صفات اليهود فى عصر نزول الآية كما سيأتى فى تفسير الآية التى بعدها . ومنكم من أشرك بالله وهذا لم ينقل عن يهود زمن النزول وإنما هو من صفات من تقدمهم من بعد سليمان فقد كانت من ملوك إسرائيل عبدة أصنام وتكرر ذلك فيهم مرارا كما هو مسطور فى سفرى الملوك الأول والثانى من التوراة . وثم للترتيبين الترتيبى والخارجى .

وقوله « إلا قليلا منكم » إنصاف لهم فى توبيخهم ومذمتهم وإعلان بفضل من حافظ على العهد .

وقوله « وأنتم معرضون » جملة حالية وليكونها اسمية أفادت أن الاعراض وصف ثابت لهم وعادة معروفة منهم كما أشار إليه فى الكشف وهو مبنى على اعتبار اسم الفاعل مشتقا من فعل منزل منزلة اللازم ولا يقدر له متعلق ويجوز أن يقدر مشتقا من فعل حذف متعلقه تمويلا على القرينة أى « وأنتم معرضون » عن الوصايا التى تضمنت ذلك الميثاق أى توليتم عن تعمد وجراءة وقلة أكثرث بالوصايا وتركها للتدبر فيها والعمل بها .

﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَيْرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ⁸⁴ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دَيْرِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

تفنن الخطاب هنا فجاء على نسق ما قبل الآية السابقة إذ عبر هنا عن جميع بنى إسرائيل بضمير الخطاب على طريق التغليب لأن المخاطبين حين نزول القراءات هم المقصودون من هذه الموعظة أو على طريق تنزيل الخلف منزلة السلف، كما تقدم لأن الداعي للإظهار عند الانتقال من الاستطراد إلى بقية المقصود في الآية السابقة قد أخذ ما يقتضيه فماد أسلوب الخطاب إلى ما كان عليه .

والقول في «لا تسفكون» كالقول في «لا تعبدون إلا الله» والسفك الصب وإضافة الدماء إلى ضمير فاعل تسفكون اقتضت أن مفعول تسفكون هو دماء السافكين وليس المراد النهي عن أن يسفك الإنسان دم نفسه أو يخرج نفسه من داره لأن مثل هذا مما يزع المرء عنه وازعه الطبيعي فليس من شأن الشريعة الاهتمام بالنهي عنه . وإنما المراد أن لا يسفك أحد دم غيره ولا يخرج غيره من داره على حد قوله تعالى « فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم » أى فليسلم بعضكم على بعض . فوجه إضافة الدماء إلى ضمير السافكين أن هذه الأحكام المتعلقة بالأمة أو القبيلة يكون مدلول الضمائر فيها مجموع الناس، فإذا تعلق أحكام بتلك الضمائر من إسناد أو بمفعولية أو إضافة أرجع كل إلى ما يناسبه على طريقة التوزيع وهذا كثير في استعمال القرآن ونكتته الإشارة إلى أن المغايرة في حقوق أفراد الأمة مغايرة صورية وأنها راجعة إلى شيء واحد وهو المصلحة الجامعة أو الفسدة الجامعة، ومثله قوله تعالى « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ومن هذا القبيل قول الحماسي الحارث بن وعله الذهلي :

قوى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهن عظمي

يريد أن سهمه إذا أصاب قومه فقد أضرَّ بنفسه وإلى هذا الوجه أشار ابن عطية ومما ألف في القول . أى الإجمال المراد به التوزيع، وذهب صاحب الكشف إلى أنه من تشبيه الغير بالنفس لشدة اتصال الغير بالنفس فى الأصل أو الدين فإذا قتل المتصل به نسباً أو ديناً

افسكاً كما قتل نفسه وهو قريب من الأول ومبناه على المجاز في الضمير المضاف إليه في قوله «دماءكم» وأنفسكم. وقيل إن المعنى لا تسفكون دماءكم بالتسبب في قتل الغير فيقتص منكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم بالجناية على الغير فتغنوا من دياركم، وهذا مبني على المجاز التبعي في تسفكون وتخرجون بملاقة التسبب.

وأشارت هذه الآية إلى وصيتين من الوصايا الإلهية الواقعة في العهد المعروف بالكلمات العشر المنزلة على موسى عليه السلام من قوله «لا تقتل»، لا تشته بيت قريبك «فإن النهي عن شهوة بيت القريب لقصد سد ذريعة السعى في اغتصابه منه بفحوى الخطاب. وعليه إضافة ميثاق إلى ضمير المخاطبين مراعى فيها أنهم لما كانوا متدينين بشريعة التوراة فقد التزموا بجميع ما تحوى عليه.

وقوله «ثم أقرتم وأنتم تشهدون» مرتب ترتيباً رتبياً أى أخذ عليكم العهد وأقرتموه أى علمتم به وشهدتم عليه فالضميران في «أقرتم وأنتم تشهدون» راجعان لما رجع له ضمير ميثاقكم وما بعده لتكون الضمائر على سنن واحد في النظم وجملة «وأنتم تشهدون» حالية أى لا تنكروا إقراركم بذلك إذ قد تقلدتموه والتزمتم التدين به.

والعطف بـ «ثم» في قوله «ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم» للترتيب الرتبي أى وقع ذلك كله وأنتم هؤلاء تقتلون، والخطاب لليهود الحاضرين في وقت نزول القرآن بقرينة قوله «هؤلاء» لأن الإشارة لا تكون إلى غائب وذلك نحو قولهم ها أنا ذا وها أنتم أولاء، فليست زيادة اسم الإشارة إلا لتعيين مفاد الضمير وهذا استعمال عربى يختص غالباً بمقام التعجب من حال المخاطب وذلك لأن أصل الإخبار أن يكون بين المخبر والمخبر عنه تخالف في المفهوم واتحاد في الصدق في الخارج وهو المعروف عند المناطقة بحمل الاشتقاق نحو أنت صادق. ولذلك لزم اختلاف المسند والمسند إليه بالجود والاشتقاق غالباً أو الاتحاد في الاشتقاق ولا تجدهما جامدين إلا بتأويل.

ثم إن العرب قد تقصد من الإخبار معنى مصادفة التكلم الشيء عين شيء يبحث عنه في نفسه نحو «أنت أبا جهل» قاله له ابن مسعود يوم بدر إذ وجده مشغولاً بالجراح صريحا ومصادفة المخاطب ذلك في اعتقاد التكلم نحو «قال أنا يوسف وهذا أخى» فإذا أرادوا ذلك توسعوا في طريقة الإخبار فمن أجل ذلك صح أن يقال «أنا ذلك» إذا كانت الإشارة

إلى متقرر في ذهن السامع وهو لا يعلم أنه عين المسند إليه كقول خفاف بن نَدبة :
* تَأْمَلُ خُفَافًا إِنِّي أَنَا ذَلِكَ ^(١) *

وقول طريف العنبري :

* فتوسموني إِنِّي أَنَا ذَالِكُم ^(٢) *

وأوسع منه عندهم نحو قول أبي النجم :

* أَنَا أَبُو النَجْمِ وشعري شعري *

ثم إذا أرادوا العناية بتحقيق هذا الاتحاد جاءوا « بها التنبيه » فقالوا هَا أَنَا ذَا
يقوله المتكلم لمن قد يشك أنه هو نحو قول الشاعر :

* إِن الْفَتَى مَن يَقُولُ هَا أَنَا ذَا ^(٣) *

فإذا كان السبب الذي صحح الأخبار معلوما اقتصر المتكلم على ذلك وإلا أتبع مثل ذلك
التركيب بجملة تدل على الحال التي اقتضت ذلك الإخبار ولهم في ذلك مراتب: الأولى ثم أنتم
هؤلاء تقتلون، الثانية، هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تَحْبُونَهُمْ. ومنه « هَا أَنَا ذَالِكُمَا » قاله أمية بن أبي
الصلت. الثالثة هَا أَنْتُمْ هَوْلَاءُ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . ويستفاد معنى التعجب في أكثر
مواقفه من القرينة كما تقول لمن وجدته حاضرا وكنت لا تترقب حضوره هَا أَنْتَ ذَا، أو من
الجملة المذكورة بعده إذا كان مفادها عجيبا كما رأيت في الأمثلة .

والأظهر أن يكون الضمير واسم الإشارة مبتدأ وخبرا والجملة بعدها حالا وقيل هي
مستأنفة لبيان منشأ التعجب وقيل الجملة هي الخبر واسم الإشارة منادى معترض ومنعه
سببويه وقيل اسم الإشارة منصوب على الاختصاص وهذا ضعيف . وعلى الخلاف في موقع
الجملة اختلف فيما لو أتى بعدها أَنْتَ ذَا ونحوه بمفرد فقيل يكون منصوبا على الحال وقيل
مرفوعا على الخبر ولم يسمع من العرب إلا مثال أنشده النحاة وهو قوله :

* أبا حَكَمٍ هَا أَنْتَ نَجْمٌ مُّجَالِدٌ *

ولأجل ذلك جاء ابن مالك في خطبة التسهيل بقوله وهَا أَنَا سَاعَ فِيمَا اتَّهَبْتُ إِلَيْهِ وجاء

(١) قبله « أقول له والرمح يأطر منته » . (٢) تمامه « شاكي سلاحى فى الحوادث معلم » .

(٣) تمامه « ليس الفتى من يقول كان أبى » .

ابن هشام في خطبة الغنى بقوله وها أنا مبيح بما أسررتة واختلف النحاة أيضا في أن وقوع الضمير بعد ما التنبيه هل يتعين أن يعقبه اسم الإشارة فقال في التسهيل هو غالب لا لازم وقال ابن هشام هو لازم صرح به في حواشي التسهيل بنقل الدماميني في الحواشي المصرية في الخطبة وفي الهاء المفردة . وقال الرضى إن دخول ما التنبيه في الحقيقة إنما هو على اسم الإشارة على ما هو المعروف في قولهم هذا وإنما يفصل بينها وبين اسم الإشارة بفصل فنه الضمير المرفوع المنفصل كما رأيت ومنه القسم نحو قول الشاعر من شواهد الرضى :

تَمَلَّيْنِ هَا لِعَمْرٍ اللهُ ذَا قَبَا فاقدر بذرعك فانظر أين تنسلك
وشذ بغير ذلك نحو قول النابغة :

ها إن تَأَعَذَرَةَ إن لا تكن تَفَعْتَ فإن صاحبها قد تاه في البلد

وقوله « تقتلون » حال أو خبر وعبر بالمضارع لقصد الدلالة على التجدد وأن ذلك من شأنكم وكذلك قوله « تخرجون فريقا منكم » .

وجعل في الكشف المقصود بالخطابات كلها في هذه الآية مرادا به أسلاف الحاضرين وجعل قوله « ثم أنتم هؤلاء تقتلون » مع إشعاره بمغاية المشار إليهم للذين وجه إليهم الخطاب مرادا منه مغاية تنزيلية لتغير صفات المخاطب الواحد وذلك تكلف ساقه إليه محبة جعل الخطابات في هذه الآية موافقة للخطابات التي في الآي قبلها وقد علمت أنه غير لازم وأن المغاية مقصودة هنا وقد استقامت فلا داعي إلى التكلف .

وقد أشارت هذه الآية إلى ما حدث بين اليهود من التخاذل وإهمال ما أمرتهم به شريعتهم^(١) والأظهر أن المقصود يهود قريظة والنضير وقَيْنُقَاعَ . وأراد من ذلك بخاصة ما حدث بينهم في حروب بُعَاثَ القائمة بين الأوس والخزرج وذلك أنه لما تَقَاتَلَ الأوسُ

(١) ابتداء التخاذل بين اليهود بعد وفاة سليمان وبيعة ابنه رجبعام ملكا على إسرائيل لأُفْرِشَ عليه عصا الطاعة غلام أبيه المسمى يربعام وتحزب الأسباط عدا سبطي يهوذا وبنيامين مع يربعام وقد هم رجبعام أن يقاتل من خرج عنه فهناه النبي شمعيا وبذلك كف رجبعام عن القتال ورضى بمن بقي معه (إصحاح ١٢ ملوك أول) ولما مات رجبعام وولى ابنه « أبيا » جمع جيشا لقتال يربعام عبد جده وصارت بينهم مقاتلات كثيرة في جبل (افرايم) قيل إن القتلى من الفريقين بلغت خمسمائة ألف (إصحاح ١٣ الأيام الثاني) ثم نشأت بينهم حروب سنة (٤٠) للمسيح .

والخزرجُ اعتزل اليهودَ الفريقينَ زمنا طويلا والأوسُ مغلوبون في سائر أيام القتال فدبر الأوس أن يخرجوا يسمعون لمخالفة قريظة والنضير فلما علم الخزرج توعدوا اليهود إن فعلوا ذلك فقالوا لهم إنا لا نحالف الأوس ولا نحالفكم فطلب الخزرجُ على اليهود رهائن أربعين غلاماً من غلمان قريظة والنضير فسلموهم لهم . ثم إن عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي أطمع قومه أن يتحولوا لقريظة والنضير لحسن أرضهم ونخلهم وأرسل إلى قريظة والنضير يقول لهم إما أن تخلوا لنا دياركم وإما أن تقتل الرهائن نخشى القوم على رهائهم واستشاروا كعب بن أسيد القرظي فقال لهم « يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الغلمان فإهي إلا ليلة يصيب أحدكم فيها امرأته حتى يولد له مثلُ أحدكم » فلما أجابت قريظة والنضير عمرا بأنهم يمنعون ديارهم عدا عمرو على الغلمان فقتلهم فلذلك تحالفت قريظة والنضير مع الأوس فسمى الخزرج في مخالفة بني قينقاع من اليهود وبذلك نشأ قتال بين فرق اليهود وكان بينهم يوم بعث قبل الهجرة بخمس سنين فكانت اليهود تتقاتل وتجلى المغلوبين من ديارهم وتأسرهم، ثم لما ارتفعت الحرب جمعوا مالا وفدوا به أسرى اليهود الواقفين في أسر أحلاف أحد الفريقين من الأوس أو الخزرج. فعيرت العربُ اليهودَ بذلك وقالت كيف تقاتلونهم ثم تغدونهم بأموالكم فقالوا قد حرم علينا قتالهم ولكننا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد أمرنا أن نغدي الأسرى فذلك قوله تعالى « وإن يأتوكم أسارى تغادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » .

﴿ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَىٰ تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ٨٦

الواو في قوله « وإن يأتوكم أسارى » يجوز أن تكون للعطف فهو عطف على قوله « تقتلون أنفسكم وتخرجون » فهو من جملة ما وقع التوبيخ عليه مما نكث فيه العهد وهو

وإن لم يتقدم في ذكر ما أخذ عليهم العهد ما يدل عليه إلا أنه لما رجع إلى إخراج الناس من ديارهم كان في جملة التهيات . ولك أن تجعل الواو للحال من قوله « وتخرجون فريقا » أى تخرجونهم والحال إن أسرتهم تغدوهم . وكيفما قدرت فقوله « وهو محرم عليكم إخراجهم » جملة حالية من قوله « يأنوكم » إما حال من معطوف وإما حال من حال إذ ليس فداء الأسير بمذموم لذاته ولكن ذمه باعتبار ما قارنه من سبب الفداء فحل التوبيخ هو مجموع المفاداة مع كون الإخراج محرما وبمد أن قتلهم وأخرجهم ، جملة « وهو محرم عليكم إخراجهم » حالية من ضمير « تفادوهم » . وصدرت بضمير الشأن للاهتمام بها وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم وليست معطوفة على قوله « وتخرجون فريقاً منكم » وما بينهما اعتراض لقلة جدواه إذ قد تحقق ذلك بقوله « ولا تخرجون أنفسكم » .

وفي قوله « وهو محرم عليكم إخراجهم » تشنيع وتبليد لهم إذ توهموا القربة فيما هو من آثار المعصية أى كيف ترتكبون الجناية وترعون أنكم تقتربون بالفداء وإنما الفداء المشروع هو فداء الأسرى من أيدي الأعداء لا من أيديكم فهلا تركتم موجب الفداء ؟ وعندى أن في الآية دلالة على ترجيح قول إمام الحرمين في أن الخارج من المغصوب ليس آتياً بواجب ولا بحرام ولكنه انقطع عنه تكليف النهى وأن القربة لا تكون قربة إلا إذا كانت غير ناشئة عن معصية .

والأسارى بضم الهمزة جمع أسير محملاً له على كسلان كما حملوا كسلان على أسير فقالوا كسلَى هذا مذهب سيبويه لأن قياس جمعه أسرى كقتلى . وقيل هو جمع نادر وليس مبني على حمل ، كما قالوا قدأى جمع قديم . وقيل هو جمع جمع فالأسير يجمع على أسرى ثم يجمع أسرى على أسارى وهو أظهر . والأسير فَعِيل بمعنى مفعول من أَسَرَهُ إذا أوثقه وهو فعل مشتق من الاسم الجامد فإن الإِسَارَ هو السَّيْر من الجِلْد الذى يوثق به المسجون والمؤثوق وكانوا يُوثَقون المغلوبيين في الحرب بسيور من الجلد ، قال النابغة :

لم يبقَ غيرُ طريدٍ غيرِ مُنْفَلِتٍ أو موثقٍ في جبالِ القدِّ مسلوبٍ
وقرأ الجمهور أسارى ، وقرأ حمزة أنمرى .

وقرأ نافع والكسائى وعاصم ويعقوب « تفادوهم » بصيغة المفاعلة المستعملة في المبالغة

في الفداء أى تقدهم فداء حريصاً ، فاستعمال فادى هنا مسلوب المفاضلة مثل عافاه الله وقول امرئ القيس :

فمادى عداء بين ثور ونمجة دراكا فلم ينضح بماء فيفسل

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمة وأبو جعفر وخلف «تقدهم» بفتح الفوقية وإسكان الفاء دون ألف بعد الفاء، والحرم الممنوع ومادة حرم في كلام العرب للمنع ، والحرام الممنوع منعاً شديداً أو الممنوع منعاً من قبل الدين ، ولذلك قالوا الأشهر الحرم وشهر الحرم .

وقوله «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» استفهام إنكارى توبيخى أى كيف تعدتم مخالفة التوراة في قتال إخوانكم واتبعتموها في فداء أسراهم ، وسعى الإتياع والإعراض إيماناً وكفراً على طريقة الاستمارة لتشويه المشبه والإنذار بأن تعدم المخالفة للكتاب قد تفضى بصاحبها إلى الكفر به ، وإنما وقع «تؤمنون» في حيز الإنكار تنبيهاً على أن الجمع بين الأمرين عجيب وهو مؤذن بأنهم كادوا أن يجحدوا بتحريم إخراجهم أو لعلهم جحدوا ذلك وجحد ما هو قطعى من الدين مروق من الدين . والفاء عاطفة على تقتلون أنفسكم ، وما عطف عليه ، عطفت الاستفهام أو عطفت مقدراً دل عليه الاستفهام وسيأتى تحقيق ذلك قريباً عند قوله أفكلما جاءكم رسول . والفاء في قوله «فما جزاء من يفعل ذلك منكم» فصيحة عاطفة على محذوف دل عليه الاستفهام الإنكارى أو عاطفة على نفس الاستفهام لما فيه من التوبيخ . وقال عبد الحكيم إن الجملة معترضة والاعتراض بالفاء وهذا بعيد معنى ولفظاً ، أما الأول فلأن الاعتراض في آخر الكلام المبر عنه بالتذييل لا يكون إلا مفيداً لحاصل ما تقدم وغير مفيد حكماً جديداً وأما الثانى فلأن اقتران الجملة المعترضة بحرف غير الواو غير معروف في كلامهم .

والخزى بالكسر ذل في النفس طارئ عليها فجأة لإهانة لحقتها أو معرفة صدرت منها أوحيلة وغلبة تمشت عليها وهو اسم لما يحصل من ذلك وفعله من باب سمع فصدره بفتح الخاء ، والمراد بالخزى ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من الذلة بإجلاء النصير عن ديارهم وقتل قريظة وفتح خيبر وما قدر لهم من الذل بين الأمم .

وقرأ الجمهور يُردون ويعملون بياء الغيبة، وقرأ عاصم في رواية عنه تردون بقاء الخطاب نظراً إلى معنى من وإلى قوله منكم، وقرأ نافع وابن كثير ويعقوب يعملون بياء الغيبة وقرأ الجمهور بقاء الخطاب .

وقد دلت هذه الآية على أن الله يعاقب الحائدين عن الطريق بمقوبات في الدنيا وعقوبات في الآخرة . وقد وقع اسم الإشارة وهو قوله « أولئك الذين اشتروا » موقع نظيره في قوله « أولئك على هدى من ربهم » .

والقول في « اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة » كالقول في « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » . والقول في « فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » قريب من القول في « ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » . وموقع الفاء في قوله « فلا يخفف عنهم العذاب » هو الترتب لأن المجرم بمثل هذا الجرم العظيم يناسبه العذاب العظيم ولا يجد نصيراً يدفع عنه أو يخفف .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ٥٧

انتقال من الإنحاء على بنى إسرائيل في فعالهم مع الرسول موسى عليه السلام بما قابله به من العصيان والتبرم والتعلل في قبول الشريعة وبما خالفوا من أحكام التوراة بعد موته إلى قرب مجيء الإسلام إلى الإنحاء عليهم بسوء مقابلتهم للرسول الذين أتوا بعد موسى مثل يوشع وإلياس وأرمياء وداوود ومؤيدن لشريعته ومفسرين وباعثين للأمة على تجديد العمل بالشريعة مع تعدد هؤلاء الرسل واختلاف مشاربهم في الدعوة لذلك المقصد من لين وشدة ، ومن رغبة ورهبة ، ثم جاء عيسى مؤيداً وناسخاً ومبشراً فكانت مقابلتهم لأولئك كلهم بالإعراض والاستكبار وسوء الصنيع وتلك أماراة على أنهم إنما يمرضون عن الحق لأجل مخالفة الحق أهواءهم وإلا فكيف لم يجدوا في خلال هاته العصور ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحق ويتمحض للنصح . وإن قوماً هذا دأبهم يرثه الخلف عن السلف لجديرون

زيادة التوبيخ ليكون هذا حجة عليهم في أن تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد حتى تنقطع حججهم إذ لو كانت معاندتهم للإسلام هي أولى فعلاتهم لأوهوا الناس أنهم ما أعرضوا إلا لِمَا تبين لهم من بطلان فكان هذا مرتبطاً بقوله «وآمنوا بما أنزلت مصداقاً» ومقدمة للإنحاء عليهم في مقابلتهم للدعوة المحمدية الآتي ذكرها في قوله تعالى «وقالوا قلوبنا غُلْفٌ» .

فقوله تعالى «ولقد آتينا موسى الكتاب» تهديد للمعطوف وهو قوله «وقفينا من بعده بالرسول» الذي هو المبني عليه التعجب في قوله «أفكلما جاءكم رسول» فقوله «ولقد آتينا موسى الكتاب» تهديد للتهديد وإلا فهو قد علم من الآيات السابقة فلا مقتضى للإعلام به استقلالاً هنا ولكنه ذكر ليبين عليه ما بعده فكأنه تحصيل لما تقدم أي ولقد كان ما كان مما تقدم وهو إتياء موسى الكتاب وقفينا أيضاً بعده بالرسول فهو كالملأوة أو كقول القائل هذا وقد كان كذا .

وقفي مضاعف قفا تقول قفوت فلانا إذا جئت في إثره لأنك حينئذ كأنك تقصد جهة قفاه فهو من الأفعال المشتقة من الجوامد مثل جبهه . فصار المضاعف قفاه بفلان تقفية وذلك أنك جعلته مأموراً بأن يقفو بحمل منك لا من تلقاء نفسه أي جعلته يقفوه غيره ولكون المفعول واحداً جعلوا المفعول الثاني عند التضعيف متعلقاً بالفعل بباء التعمدية لئلا يلتبس التابع بالتبوع فقالوا قفى زيداً بمعرو عوض أن يقولوا قفى زيداً عمراً .

فغنى وقفينا من بعده بالرسول أرسلنا رسلاً وقد حذف مفعول وقفينا للعلم به وهو ضمير موسى . وقوله «من بعده» أي من بعد ذهابه أي موته، وفيه إيماء إلى التسجيل على اليهود بأن مجيء الرسل بعد موسى ليس ببدع . والجمع في الرسل للمعدد والتعريف للجنس وهو مراد به التكاثر قاله صاحب الكشف أي لأن شأن لفظ الجنس المرفوع إذا لم يكن عهد أن يدل على الاستغراق فلما كان الاستغراق هنا متعذراً دل على التكاثر مجازاً لمشابهة الكثير بجميع أفراد الجنس كقولك لم يبق أحد في البلد لم يشهد الهلال إذا شهد جماعات كثيرة وهو قريب من معنى الاستغراق العرفي^(١) .

وسمى أنبياء بني إسرائيل الذين من بعد موسى رسلاً مع أنهم لم يأتوا بشرع جديد اعتباراً

(١) لأن الاستغراق العرفي منظور فيه إلى استغراق جميع الأفراد في مكان أو زمان تنزيلاً لهم منزلة

الكل . وهذا جعل بمعنى الكثرة لا غير .

بأن الله لما أمرهم بإقامة التوراة وتفسيرها والتفريع منها فقد جعل لهم تصرفاً شرعياً وبذلك كانوا زائدين على مطلق النبوة التي لا تملق لها بالتشريع لا تأصيلاً ولا تفريعاً. وقال الباقلاني فيما نقله عنه الفخر: لا بد أن يكون هؤلاء الرسل جاءوا بشرع جديد ولو مع المحافظة على الشرع الأول أو تجديد ما اندرس منه وهو قريب مما قلناه قال تعالى « وإن إلياس لمن المرسلين » وقال « وإن يونس لمن المرسلين » وما كان عيسى عليه السلام إلا مثلهم في أنه ما أتى بأحكام جديدة إلا شيئاً قليلاً وخص عيسى بالذكر من بين سائر الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى زيادة في التشكيل على اليهود لأنهم يكفرون به ويكذبونه ولذلك أيضاً خصه بقوله « وأيدناه بروح القدس » ولأن من جاء بعد موسى من الرسل لم يخبروا أن جبريل جاءهم بوحى وعيسى كان أوسع منهم في الرسالة .

وعيسى اسم معرب من يشوع أو يسوع وهو اسم عيسى ابن مريم قلبوه في تعريبه قلباً مكانياً ليحجرى على وزن خفيف كراهية اجتماع ثقل المعجمة وثقل ترتيب حروف الكلمة فإن حرفي علة في الكلمة وشينا وانحتم بحرف حلق لا يجرى هذا التنظيم على طبيعة ترتيب الحروف مع التنفس عند النطق بها فقدما العين لأنها حلقية فهي مبدأ النطق ثم حركوا حروفه بحركات متناسبة وجعلوا شينه المعجمة الثقيلة سينا مهملة فله فصاحة العربية . ومعنى يشوع بالعبرانية السيد أو المبارك . ومريم هي أم عيسى وهذا اسمها بالعبرانية نقل للعربية على حاله لحقيقته ولا معنى لمريم في العربية غير العلمية إلا أن العرب المتنصرة عاملوه معاملة الصفة في معنى المرأة المتباعدة عن مشاهدة النساء لأن هاته الصفة اشتهرت بها مريم إذ هي أول امرأة عبرانية خدمت بيت المقدس فلذلك يقولون امرأة مريم أى معرصة عن صفات النساء كما يقولون رجل حاتم بمعنى جواد وذلك معلوم منهم في الأعلام المشتهرة بالأوصاف ولذلك قال رؤبة :

* قلت ليزير لم تزره مريمه ^(١) *

فليس هو مشتقاً من رام يريم كما قد يتوهم . وينبغي أن يكون وزنها فعيل بفتح الفاء وإن كان نادراً ^(٢) .

(١) قال في الكشف وزت مريم عند النحويين مفعول لأن فعيل بفتح الفاء لم يثبت أى وثبت فعيل بكسر الفاء نحو عثير للغباء، لكن الحق أن وزن فعيل ثبت قليلاً منه صهيئ اسم مكان أعني فيختص بالاسماء الجوامد . (٢) الزير بكسر الزاى هو الرجل الذى يعيل لمحادثة النساء ومجالستهن وناؤه منقلبة عن الواو ووزنه فعل بكسر الفاء من زار يزور . وقوله مريمه، أى المرأة التى ترغب فى محادثته وهذا البيت من قصيدة مدح بها أبا جعفر المنصور .

وعيسى عليه السلام هو ابن مريم كونه الله في بطنها بدون من رجل، وأمه مريم ابنة عمران من سبط يهوذا .

ولد عيسى في مدة سلطنة أغسطس ملك رومية وفي مدة حكم هيرودس على القدس من جهة سلطان الرومان وذلك في سنة ٤٣٠ عشرين وستمائة قبل الهجرة المحمدية ، وكانت ولادته بقرية تعرف ببית لحم اليهودية ، ولما بلغ ثلاثين سنة بعث رسولا إلى بنى إسرائيل وبقي في الدنيا إلى أن بلغ سنه ثلاثا وثلاثين سنة .

وأما مريم أمه فهي مريم ابنة عمران بن ماثان من سبط يهوذا ولدت عيسى وهي أبنه ثلاث عشرة سنة فتكون ولادتها في سنة ثلاث عشرة قبل ميلاد عيسى وتوفيت بعد أن شاخت ولا تعرف سنة وفاتها ، وكان أبوها مات قبل ولادتها فسكرها زكرياء من بنى أيا وهو زوج الیصابات خالة مريم وكان كاهنا من أخبار اليهود كما سيأتى في سورة آل عمران . واليّنات صفة لمحدوف أى الآيات والمعجزات الواضحات ، وأيدناه قويناه وشددنا عضده ونصرناه وهو مشتق من اسم جامد وهو اليد فأيد بمعنى جعله ذايد واليد مجاز في القوة والقدرة فوزن أيد أفعل ، ولك أن تجعله مشتقا من الأيد وهو القوة فوزنه فعل .

والتأييد التقوية والإقدار على العمل النفسى وهو مشتق من الأيد وهو القوة قال تعالى « واذكر عبدنا داود ذا الأيد » والأيد مشتق من اليد لأنها آلة القدرة والأحسن أن يكون مشتقا من اليد أى جعله ذايد أى قوة ، والمراد هنا قوة معنوية وهى قوة الرسالة وقوة الصبر على أذى قومه وسيأتى في الأنفال قوله « هو الذى أيدك بنصره » .

والروح جوهر نورانى لطيف أى غير مدرك بالحواس فيطلق على النفس الإنسانى الذى به حياة الإنسان ، ولا يطلق على ما به حياة العجماوات إلا لفظ نفس ، قال تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » ويطلق على قوة من لدن الله تعالى يكون بها عمل عجيب ومنه قوله « فنفخنا فيها من روحنا » ، ويطلق على جبريل كما في قوله « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » وهو المراد في قوله تعالى « نزل الملائكة والروح فيها » وقوله « يوم يقوم الروح والملائكة » والقدس بضممتين وبضم فسكون مصدر أو اسم مصدر بمعنى النزاهة والطهارة . والقدس المطهر وتقدم في قوله تعالى « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

وروح القدس روح مضاف إلى الزاهرة فيجوز أن يكون المراد به الروح الذي نفخ الله في بطن مريم فتكون منه عيسى وإنما كان ذلك تأييداً له لأن تكوينه في ذلك الروح الذي المطهر هو الذي هيأه لأن يأتي بالمعجزات العظيمة، ويجوز أن يكون المراد به جبريل والتأييد به ظاهر لأنه الذي يأتيه بالوحي وينطق على لسانه في المهد وحين الدعوة إلى الدين وهذا الإطلاق أظهر هنا ، وفي الحديث الصحيح « ان روح القدس نث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستوفى أجلها » . وعلى كلا الوجهين فإضافة روح إلى القدس إما من إضافة ما حقه أن يكون موصوفاً إلى ما حقه أن تستحق منه الصفة ولكن اعتبر طريق الإضافة إلى ما منه اشتقاق الصفة لأن الإضافة أدل على الاختصاص بالجنس المضاف إليه لاقتضاء الإضافة ملابسة المضاف بالمضاف إليه وتلك الملابسة هنا تؤول إلى التوصيف وإلى هذا قال التفريزي في شرح الكشاف وأنكر أن يكون المضاف إليه في مثله صفة حقيقة حتى يكون من الوصف بالمصدر .

وقوله تعالى « أفكلما جاءكم رسول » هو المقصود من الكلام السابق ، وما قبله من قوله ولقد آتيناكم عهداً له كما تقدم ، فالفاء للسببية والاستفهام للتمجيب من طغيانهم ومقابلتهم جميع الرسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة ساوى فيها الخلف السلف مما دل على أن ذلك سجية في الجميع .

وتقديم همزة الاستفهام على حرف العطف المفيد للتشريك في الحكم استعمال متبع في كلام العرب وظاهره غريب لأنه يقتضي أن يكون الاستفهام متسلطاً على العاطف والمعطوف وتسلط الاستفهام على حرف العطف غريب فلذلك صرفه علماء النحو عن ظاهره ولهم في ذلك طريقتان : إحداهما طريقة الجمهور قالوا همزة الاستفهام مقدمة من تأخير وقد كان موقعها بعد حرف العطف فقدمت عليه لاستحقاق الاستفهام التصدير في جملته ، وإنما خصوا التقديم بالهمزة دون غيرها من كلمات الاستفهام لأن الهمزة متأصلة في الاستفهام إذ هي الحرف الموضوع للاستفهام الأكثر استعمالاً فيه ، وأما غيرها فكلمات أشربت معنى الاستفهام منها ما هو اسم مثل (أين) ، ومنها حرف تحقيق وهو (هل) فإنه بمعنى قد فلما كثر دخول همزة الاستفهام عليه حذفوا الهمزة لكثرة الاستعمال فأصل هل فعلت أهل فعلت فالتقدير فأكلما جاءكم رسول فقلب ، وقيل أفكلما جاءكم رسول فعلى هذه الطريقة يكون الاستفهام

معطوفاً وتكون الجملة معطوفة على التي قبلها أو معطوفة على محذوف بحسب ما يسمح به المقام . الطريقة الثانية طريقة صاحب الكشف وفي معنى اللبيب أن الزخشرى أول القائلين بها وادعى الدماميني أن الزخشرى مسبوق في هذا ولم يعين من سبقه فإنه قد جوز طريقة الجمهور وجوز أن تكون همزة الاستفهام هي مبدأ الجملة وأن المستفهم عنه محذوف دل عليه ما عطف عليه بحرف العطف والتقدير في مثله أنكذبونهم فكلما جاءكم رسول إلخ . وعلى هذه الطريقة تكون الجملة استفهامية مستأنفة محذوفاً بقيتها ثم عطف عليها ما عطف ، ولا أثر لهذا إلا في اختلاف الاعتبار والتقدير فأما معنى الكلام فلا يتغير على كلا الاعتبارين لأن العطف والاستفهام كليهما متوجهان إلى الجملة الواقعة بعدهما . والظاهر من كلام صاحب الكشف في هذه الآية وفي قوله تعالى في سورة آل عمران « أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » أن الطريقتين جائزتان في جميع مواقع الاستفهام مع حرف العطف وهو الحق وأما عدم تعرضه لذلك عند آيات « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم . أفلا تعقلون . أفتؤمنون ببعض الكتاب » فيما مضى من هذه السورة فذلك ذهول منه وقد تداركه هنا . وعندى جواز طريقة ثالثة وهي أن يكون الاستفهام عن العطف والمعنى أتريدون على مخالفتكم استكباركم كلما جاءكم رسول إلخ وهذا متأت في حروف التشريك الثلاثة كما تقدم من أمثلة الواو والفاء وكقوله تعالى « أثم إذا ما وقع آمنتم به » في سورة يونس وقول النابغة :

أثم تَعَذَّرَانِ إلى منها فإني قد سمعتُ وقد رأيتُ

وقد استقرت هذا الاستعمال فوجدت مواقفه خاصة بالاستفهام غير الحقيقي كما رأيت من الأمثلة . ومعنى الفاء هنا تسبب الاستفهام التعجيبى الإنكارى على ما تقرر عندهم من تقفية موسى بالرسول أى قفينا موسى بالرسول فمن عجيب أمركم أن كل رسول جاءكم استكبرتم وجوز صاحب الكشف كون العطف على مقدر أى آتينا موسى الكتاب إلخ ففعلتم ثم وبخهم بقوله أفكلاً ، فالهمزة للتوبيخ والفاء حينئذ عاطفة مقدراً معطوفاً على المقدر المؤهل للتوبيخ ، وهو وجه بعيد ، ومرمى الوجهين إلى أن جملة آتينا موسى الكتاب إلخ غير مراد منها الإخبار بمدلولها . وانتصب كلا بالنيابة عن الظرف لأنه أضيف إلى ما الظرفية المصدرية والعامل فيه قوله واستكبرتم ، وقدم الظرف ليكون موالياً للاستفهام المراد منه التعجيب ليظهر أن عمل العجب هو استمرار ذلك منهم الدال على أنه سجية لهم وليس ذلك لعارض عرض في

بعض الرسل وفي بعض الأزمنة، والتقدير أفاستكبرتم كلما جاءكم رسول فقدم الظرف للاهتمام لأنه محل العجب، وقد دل العموم الذي في كلما على شمول التكذيب أو القتل لجميع الرسل المرسلين إليهم لأن عموم الأزمان يستلزم عموم الأفراد المظروفة فيها .

و « تهوى » مضارع هوى بكسر الواو إذا أحب والمراد به ماتميل إليه أنفسهم من الانحلال عن القيود الشرعية والانغماس في أنواع اللذات والتصميم على العقائد الضالة . والاستكبار الاتصاف بالكبر وهو هنا الترفع عن اتباع الرسل وإعجاب المتكبرين بأنفسهم واعتقاد أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل ويكونوا أتباعاً لهم ، فالسين والتاء في استكبرتم الـمبالغة كما تقدم في قوله تعالى « إلا إبليس أبى واستكبر » وقوله « فريقاً كذبتهم وفريقاً تقتلون » مسبب عن الاستكبار فالفاء للسببية فإنهم لما استكبروا بلغ بهم العصيان إلى حد أن كذبوا فريقاً أى صرحوا بتكذيبهم أو عاملوهم معاملة الكاذب وقتلوا فريقاً وهذا كقوله تعالى عن أهل مدين « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك » وتقديم المفعول هنا لما فيه من الدلالة على التفصيل فناسب أن يقدم ليدل على ذلك كما في قوله تعالى « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة » . وهذا استعمال عربى كثير في لفظ فريق وما في معناه نحو طائفة إذا وقع معمولاً لفعل في مقام التقسيم نحو « يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهتت بهم أنفسهم » .

والتفصيل راجع إلى ما في قوله « رسول » من الإجمال لأن كلما جاءكم رسول أفاد عموم الرسول وشمل هذا موسى عليه السلام فإنهم وإن لم يكذبوه بصريح اللفظ لكنهم عاملوه معاملة المكذبين به إذ شكوا غير مرة فيما يخبرهم عن الله تعالى وأساءوا الظن به مراراً في أوامره الاجتهادية وحملوه على قصد التنفير بهم والسعى لإهلاكهم كما قالوا حين بلغوا البحر الأحمر . وحين أمرهم بالحضور لسماع كلام الله تعالى ، وحين أمرهم بدخول أريحا ، وغير ذلك وأما بقية الرسل فكذبوهم بصريح القول مثل عيسى وقتلوا بعض الرسل مثل أشعياء وزكرياء ويحيى ابنه . وأرمياء .

وجاء في تقتلون بالمضارع عوضاً عن الماضى لاستحضار الحالة الفظيعة وهى حالة قتلهم رسلهم كقوله « الله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه » مع ما في صيغة تقتلون من مراعاة القواصل فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم .

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ٨٨

لما عطف على قوله «استكبرتم»، أو على «كذبتم»، فيكون على الوجه الثاني تفسيراً للاستكبار أى يكون على تقدير عطفه على كذبتم من جملة تفصيل الاستكبار بأن أشير إلى أن استكبارهم أنواع تكذيب وتقتيل وإعراض . وعلى الوجهين ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وإبعاد لهم عن مقام الحضور فهو من الالتفات الذى نكته أن ما أجرى على الخطاب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد فهو كناية (١) .

وقد حسن الالتفات أنه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية وهو غرض جديد فإنهم لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم مع أنبيائهم وجه الخطاب إليهم . ولما أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم صار الخطاب جارياً مع المؤمنين وأجرى على اليهود ضمير الغيبة . على أنه يحتمل أن قولهم قلوبنا غلف لم يصرحوا به علناً ويدل لذلك أن أسلوب الخطاب جرى على الغيبة من مبدأ هذه الآية إلى قوله تعالى «ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل» . والقلوب مستعملة في معنى الأذهان على طريقة كلام العرب في إطلاق القلب على العقل . والغلف بضم فسكون جمع أغلف وهو الشديد الغلاف مشتق من غلفه إذا جعل له غلافاً وهو الوعاء الحافظ للشيء والساير له من وصول ما يذكره له . وهذا كلام كانوا يقولونه للنبي صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم للإسلام قصدوا به التهمك وقطع طمعه في إسلامهم وهو كقول المشركين «قلوبنا في أكنة» مما تدعونا إليه وفي آذاننا وفر ومن بيننا وبينك حجاب» . وفي الكلام توجيه لأن أصل الأغلف أن يكون محجوباً عما لا يلائمه فإن ذلك معنى الغلاف فهم يُخَيَّلُونَ أن قلوبهم مستورة عن الفهم ويريدون أنها محفوظة من فهم الضلالات ولذلك قال المفسرون إنه مؤذن بمعنى

(١) قلت نظير هذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة بعد إجراء صفات نقص قول الشاعر يذم من بخل

في قضاء مهم :

أبى لك كسب الجدرأى مقصر ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هي حنته على الخير مرة عصاها وإن همت بشرط أطاعها

(٣٧ / ١ - التحرير)

أنها لا تعى ما تقول ولو كان حقا لوعته وهذان المعنيان اللذان تضمنهما لتوجيه بلاقيهما الرد بقوله تعالى « بل لعنهم الله بكفرهم » أى ليس عدم إيمانهم لقصور فى أفهامهم ولا لربوها عن قبول مثل ما دعوا إليه ولكن لأنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وأبعدهم عن الخير وأسبابه .

وبهذا حصل المعنيان المرادان لهم من غير حاجة إلى فرض احتمال أن يكون غلف جمع غلاف لما فيه من التكافى فى حذف المضاف إليه حتى يقدر أنها أوعية للعلم والحق فلا يتسرب إليها الباطل .

وقوله « بل لعنهم الله بكفرهم » تسجيل عليهم ونضج لهم بأنهم صمموا على الكفر والتمسك بدينهم من غير التفات لحجة النبىء صلى الله عليه وسلم فلما صمموا على ذلك عاقبهم الله باللعن والإبعاد عن الرحمة والخير فخرمهم التوفيق وانتبصر فى دلائل صدق الرسول، فاللعنة حصلت لهم عقابا على التصميم على الكفر وعلى الإعراض عن الحق وفى ذلك رد لما أوهوه من أن قلوبهم خلقت بعيدة عن الفهم لأن الله خلقهم كسائر العقلاء مستطيعين لإدراك الحق لو توجهوا إليه بالنظر وترك الكآبة وهذا معتقد أهل الحق من المؤمنين عدا الجبرية .

وقوله « فقايلما ما يؤمنون » تفريع على « لعنهم » وقليلما صفة لمحذوف دل عليه الفعل والتقدير فإيماننا قليلا وما زائدة للمبالغة فى التقليل والضمير لمجموع بنى إسرائيل ويجوز أن يكون قليلا صفة للزمان الذى يستلزمه الفعل أى فحينما قليلا يؤمنون . وقليل يجوز أن يكون باقيا على حقيقته مشارا به إلى إيمانهم ببعض الكتاب أو إلى إيمانهم ببعض ما يدعوه النبىء صلى الله عليه وسلم مما يوافق دينهم القديم كالتوحيد ونبوة موسى أو إلى إيمان أفراد منهم فى بعض الأيام فإن إيمان أفراد قايمة منهم يستلزم صدور إيمان من مجموع بنى إسرائيل فى أزمنة قايمة أو حصول إيمانات قليلة . ويجوز أن يكون قايلا هنا مستعملا فى معنى العدم فإن القلة تستعمل فى العدم فى كلام العرب قال أبو كبير الهذلى :

قليلُ التشكى للمهم يصيبه كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالك

أراد أنه لا يتشكى . وقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فى أرض نصيبين « كثيرة العقارب قليلة الأقارب » أراد عديمة الأقارب ويقولون فلان قليل الحياء وذلك كله إما مجاز لأن القليل شبه بالعدم وإما كناية وهو أظهر لأن الشئ إذا قل آل إلى الاضمحلال

فكان الاندسام لازماً عرفياً للقلة ادعائياً فتكون ما مصدرية والوجهان أشار إليهما في الكشف باختصار واقتصر على الوجه الثاني منهما في تفسيره قوله تعالى « ءِإِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ » في سورة النمل فقال « والمعنى نفى التذكير والقلة تستعمل في معنى النفي » وكأن وجه ذلك أن التذكر من شأنه تحصيل العلم فلو تذكر المشركون المخاطبون بالآية لحصل لهم العلم بأن الله واحد لا شريك له كيف وخطابهم بقوله « ءِإِلَهُ مَعَ اللَّهِ » المقصود منه الإنكار بناءً على أنهم غير معتقدين ذلك .

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا . فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٨٩

معطوف على قوله « وقالوا قلوبنا غلف » لقصد الزيادة في الإنحاء عليهم بالتوبيخ فإنهم لو أعرضوا عن الدعوة المحمدية إعراضاً مجرداً عن الأدلة لكان في إعراضهم معذرة ما ولكنهم أعرضوا وكفروا بالكتاب الذي جاء مصدقاً لما معهم والذي كانوا من قبل يستفتحون به على الشركين . فقوله « من عند الله » متعلق بجاءهم وليس صفة لأنه ليس أمراً مشاهداً معلوماً حتى يوصف به . وقوله « مصدق لما معهم » وصف شأن لقصد زيادة التسجيل عليهم بالذمة في هذا الكفر والقول في تفسيره قد مضى عند قوله تعالى « وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم » . والاستفتاح ظاهره طلب الفتح أى النصر قال تعالى « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » وقد فسروه بأن اليهود كانوا إذا قاتلوا الشركين أى من أهل المدينة استنصروا عليهم بسؤال الله أن يبعث إليهم الرسول الموعود به في التوراة . وجوز أن يكون يستفتحون بمعنى يفتحون أى يعلمون ويخبرون كما يقال فتح على القارئ أى علمه الآية التى ينساها فالسين والتاء مجردان لكيد مثل زيادتهما في استعصم واستصرخ واستعجب والمراد كانوا يخبرون الشركين بأن رسولا سيبعث فيؤيد المؤمنين ويعاقب الشركين . وقوله « فلما جاءهم ما عرفوا » أى ما كانوا يستفتحون به أى لما جاء الكتاب الذى عرفوه كفروا به وقد عدل عن أن يقال فلما جاءهم الكتاب ليكون اللفظ أشمل فيشمل الكتاب والرسول الذى جاء به

فإنه لا يجيء كتاب إلا مع رسول . ووقع التعبير بما الموصولة دون من لأجل هذا الشمول ولأن الإبهام يناسبه الموصول الذي هو أعم فإن الحق أن ما تجيء لما هو أعم من العاقل .

والمراد بما عرفوا القرآن أى أنهم عرفوه بالصفة المتحققة في الخارج وإن جهلوا انطباقها على القرآن لضلالهم لأن الظاهر أن بنى إسرائيل لم يكن أكثرهم يعتقد صدق القرآن وصدق الرسول وبعضهم كان يعتقد ذلك ولكنه يتنامى ويتغافل حسداً قال تعالى « حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » ويصير معنى الآية « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم » وعرفوا أنه الذى كانوا يستفتحون به على المشركين .

وجملة « وكانوا من قبل يستفتحون » في موضع الحال وقائدها هنا استحضار حالتهم العجيبة وهي أنهم كذبوا بالكتاب والرسول في حال رقبهم لمحيطه وانتظار النصر به وهذا منتهى الخذلان والبهتان .

وقوله « فلما جاءهم ما عرفوا » بالفاء عطف على جملة « كانوا يستفتحون » . ولما الثانية تتنازع مع لما الأولى الجواب وهو قوله « كفروا به » فكان موقع جملة وكانوا إلخ بالنسبة إلى كون الكتاب مصدقاً موقع الحال لأن الاستنصار به أو التبشير به يناسب اعتقاد كونه « مصدقاً لما معهم » وموقعها بالنسبة إلى كون الكتاب والرسول معروفين لهم بالأمارات والدلائل موقع المنشأ من المتفرع عنه مع أن مفاد جملة « لما جاءهم كتاب من عند الله » إلخ وجملة « لما جاءهم ما عرفوا » إلخ واحد وإعادة لما في الجملة الثانية دون أن يقول وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فجاءهم ما عرفوا إلخ قصد إظهار اتحاد مفاد الجملتين المفتحتين بلما وزيادة الربط بين المعنيين حيث انفصل بالجملة الحالية فحصل بذلك نظم عجيب وإيجاز بديع وطريقة تكرير العامل مع كون المعمول واحداً طريقة عربية فصلى ، قال تعالى « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » - وقال « أيمدكم أنكم إذا تمم كنتم تراباً وعظماً أنكم مخرجون » فأعاد أنكم قبل خبر الأولى وقد عدلنا في هذا البيان عن طريقة الزجاج وطريقة المبرد وطريقة الفراء المذكورات في حاشية الخفاجي وعبد الحكيم وصغناه من محاسن تلك الطرائق كلها لما في كل طريقة منها من مخالفة للظاهر .

وقوله « فلعنة الله على الكافرين » جملة دعاء عليهم وعلى أمثالهم والدعاء من الله تعالى

تقدير وقضاء لأنه تعالى لا يعجزه شيء وليس غيره مطلوباً بالأدعية وهذا كقوله « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم » وقوله قاتلهم الله أنى يؤفكون » وسيأتى بيانه عند قوله تعالى « عليهم دائرة السوء » في سورة براءة . والفاء للسببية والمراد التسبب الذكرى بمعنى أن ما قبلها وهو المعطوف عليه يسبب أن ينطق المتكلم بما بعدها كقول قيس بن الخطيم :

و كنت امرءاً لا أسمع الدهر سبة أسب بها إلا كشفت غطاءها
فإنى فى الحرب الضروس موكل بإقدام نفس ما أريد بقاءها

فمطف قوله فإنى على قوله كشفت غطاءها لأن هذا الحكم يوجب بيان أنه فى الحرب مقدم . واللام فى الكافرين للاستغراق بقريئة مقام الدعاء يشمل المتحدث عنهم لأنهم من جملة أفراد هذا العموم بل هم أول أفراد سبباً للذهن لأن سبب ورود العام قطعى الدخول ابتداء فى العموم . وهذه طريقة عربية فصيحة فى إسناد الحكم إلى العموم والمراد ابتداء بعض أفراد لأن دخول المراد حينئذ يكون بطريقة برهانية كما تدخل النتيجة فى القياس قال بشامة بن حزن النهشلى :

إنا محيوك يا سلمى فحينئذ وإن سقيت كرام الناس فاسقيننا
أراد الكفاية عن كرمهم بأنهم يسقون حين يسقى كرام الناس .

﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴾ ٩٥

استئناف لدمهم وتسفيه رأيهم إذ رضوا لأنفسهم الكفر بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وأعرضوا عن النظر فيما اشتملت عليه كتبهم من الوعد بمجىء رسول بعد موسى ، إرضاء لداعية الحسد وهم يحسبون أنهم مع ذلك قد استبقوا أنفسهم على الحق إذ كفروا بالقرآن فهذا إيقاظ لهم نحو معرفة داعيهم إلى الكفر وإشهار لما ينطوى عليه عند المسلمين . و « بئسما » مركب من (بئس) و (ما) الزائدة . وفي بئس وضدّها نعم خلاف فى كونهما فعلين أو اسمين والأصح أنهما فعلاّن وفي (ما) المتصلة بهما مذاهب أحدها أنها معرفة تامة أي تفسر باسم معروف

بلام التعريف وغير محتاجة إلى صلة احترازاً عن ما الموصولة فقوله «بئسما» يفسر ببئس الشيء .
قاله سيدييه والكسائي . والآخر أنها موصولة قاله الفراء والفارسي وهذان هما أوضح الوجوه
فإذا وقعت بعدها ما وحدها كانت ما معرفة تامة نحو قوله تعالى «إن تبدوا الصدقات
فنعماً هي» أى نعم الشيء هي وإن وقعت بعد ما جملة تصلح لأن تكون صلة كانت ما
معرفة ناقصة أى موصولة نحو قوله هنا «بئسما اشتروا به أنفسهم» وما فاعل بئس .

وقد يذكر بعد بئس ونعم اسم يفيد تعيين المقصود بالذم أو المدح ويسمى في علم العربية
المخصوص وقد لا يذكر لظهوره من المقام أو لتقدم ما يدل عليه فقوله «أن يكفروا» هو
المخصوص بالذم والتقدير كفرهم بآيات الله ولك أن تجعله مبتدأ محذوف الخبر أو خبراً محذوف
المبتدأ أو بدلاً أو بيانا من «ما» وعليه فقوله تعالى «اشتروا» إما صفة للمعرفة أو صلة
للموصولة و «أن يكفروا» هو المخصوص بالذم خبر مبتدأ محذوف وذلك على وزن قولك
نعم الرجل فلان .

والاشتراء الاتباع وقد تقدم في قوله تعالى «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى»
فقوله تعالى هنا «بئسما اشتروا به أنفسهم» مجاز أطلق فيه الاشتراء على استبقاء الشيء
المرغوب فيه تشبيهاً لاستبقائه باتباع شيء مرغوب فيه فهم قد آثروا أنفسهم في الدنيا
فأبقوا عليها بأن كفروا بالقرآن حسداً . فإن كانوا يعتقدون أنهم يحقون في إعراضهم عن
دعوة محمد صلى الله عليه وسلم لتمسكهم بالتوراة وأن قوله فيما تقدم «فلما جاءهم ما عرفوا»
بمعنى جاءهم ما عرفوا صفته وإن فرطوا في تطبيقها على الموصوف ، فعنى اشتراء أنفسهم جار
على اعتقادهم لأنهم نجوها من العذاب في اعتقادهم فقوله «بئسما اشتروا به أنفسهم» أى بئسما
هو في الواقع وأما كونه اشتراء فبحسب اعتقادهم وقوله «أن يكفروا بما أنزل الله» هو أيضاً
بحسب الواقع وفيه تنبيه لهم على حقيقة حالهم وهى أنهم كفروا برسول مرسل إليهم للدوام
على شريعة نسخت .

وإن كانوا معتقدين صدق الرسول وكان إعراضهم لمجرد المكابرة كما يدل عليه قوله قبله
«فلما جاءهم ما عرفوا» على أحد الاحتمالين المتقدمين ، فالاشتراء بمعنى الاستبقاء الدينى
أى بئس الموضع بذلهم الكفر ورضاهم به لبقاء الرئاسة والسمة وعدم الاعتراف برسالة
الصادق فالآية على نحو قوله تعالى «أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة» .

وقيل إن اشتروا بمعنى باعوا أى بذلوا أنفسهم والمراد بذلك للعذاب في مقابلة إرضاء مكابرتهم وحسدكم وهذا الوجه منظور فيه إلى قوله قبله « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وهو بعيد من اللفظ لأن استعمال الاشتراء بمعنى البيع مجاز بعيد إذ هو يفضى إلى إدخال الغلط على السامع وإفساد ما أحكمته اللغة من التفرقة وإتاما دعا إليه قصد قائله إلى بيان حاصل المعنى . على أنك قد علمت إمكان الجمع بين مقتضى قوله « ما عرفوا » وقوله هنا « اشتروا به أنفسهم » فأنّت في غنى عن التكاف . وعلى كلا التفسيرين يكون اشتروا مع ما تفرع عنه من قوله « فبأءوا بغضب على غضب » تمثيلاً لحالهم بحال من حاول تجارة ليربح فأصابه خسران وهو تمثيل يقبل بعض أجزائه أن يكون استمارة وذلك من محاسن التمثيلية .

وحجى بصيغة المضارع في قوله « أن يكفروا » ولم يؤت به على ما يناسب الميّن وهو « ما اشتروا » المقتضى أن الاشتراء قد مضى للدلالة على أنهم صرحوا بالكفر بالقرآن من قبل نزول الآية فقد تبين أن اشتراء أنفسهم بالكفر عمل استقر ومضى ، ثم لما أريد بيان ما اشتروا به أنفسهم نبه على أنهم لم يزالوا يكفرون ويعلم أنهم كفروا فيما مضى أيضا إذ كان الميّن بأن يكفروا معبرا عنه بالماضى بقوله « ما اشتروا » .

وقوله « بغيا » مفعول لأجله علة لقوله « أن يكفروا » لأنه الأقرب إليه ، ويجوز كونه علة لاشتروا لأن الاشتراء هنا صادق على الكفر فإنه المخصوص بحكم الذم وهو عين المذموم ، والبنى هنا مصدر بنى يبنى إذا ظلم وأراد به هنا ظلمنا خلاصا وهو الحسد وإنما جعل الحسد ظلمنا لأن الظلم هو المعاملة بغير حق والحسد تمنى زوال النعمة عن المحسود ولا حق للحاسد في ذلك لأنه لا يناله من زوالها تقع ، ولا من بقائها ضر ، ولقد أجاد أبو الطيب إذ أخذ هذا المعنى في قوله :

وَأَظْلَمُ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ بَاتِ حاسداً لِمَنْ بَاتَ فِي نِعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ .

وقوله « أن ينزل الله بمتعلق بقوله بغيا يحذف حرف الجر وهو حرف الاستعلاء لتأويل بغيا بمعنى حسدا .

فاليهود كفروا حسدا على خروج النبوة منهم إلى العرب وهو المشار إليه بقوله تعالى على من يشاء من عباده وقوله فبأءوا بغضب على غضب أى فرجعوا من تلك الصفقة وهى اشتراء أنفسهم بالخسران البين وهو تمثيل لحالهم بحال الخارج بسلخته لتجارة فأصابته خسارة فرجع

إلى منزله خامرا . شبه مصيرهم إلى الخسران بـرجوع التاجر الخاسر بعد ضميمة قوله «بئس ما اشتروا به أنفسهم» . والظاهر أن المراد بغضب على غضب الغضب الشديد على حد قوله تعالى «نور على نور» أى نور عظيم وقوله «ظلمات بعضها فوق بعض» وقول أبى الطيب :

* أَرَقُّ عَلَى أَرَقٍّ وَمِثْلِي بِأَرَقِّ *

وهذا من استعمال التكرير باختلاف صيغه فى معنى القوة والشدة كقول الخطيئة :

أنت آل شماس بن لأى وإنا أناهم بها الإحكام والحسب العد
أى الكثير العدد أى العظيم وقال المرى * بنى الحسب الوضاح والمفخر الجم * أى العظيم
قال القرطبي قال بعضهم المراد به شدة الحال لا أنه أراد غضبين وهما غضب الله عليهم للكفر
وللحسد أو للكفر بمحمد وعيسى عليهما السلام .

وقوله « وللكافرين عذاب مهين » هو كقوله فلعنة الله على الكافرين أى ولهم عذاب مهين لأنهم من الكافرين ، والمهين المذل أى فيه كيفية احتقارهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ٩١

معطوف على قوله « ولما جاءهم كتاب من عند الله » المعطوف على قوله « وقالوا قلوبنا غلف » وبهذا الاعتبار يصح اعتباره معطوفا على « وقالوا قلوبنا غلف » على المعروف فى اعتبار العطف على ما هو معطوف وهذا كله من عطف حكايات أحوالهم فى معاذيرهم عن الإعراض عن الدعوة الإسلامية فإذا دعوا قالوا قلوبنا غلف ، وإذا سمعوا الكتاب أعرضوا عنه بعد أن كانوا منتظره حسدا أن نزل على رجل من غيرهم ، وإذا وعظوا وأنذروا ودعوا إلى الإيمان بالقرآن وبأنه أنزله الله وأن ينظروا فى دلائل كونه منزلا من عند الله أعرضوا وقالوا نؤمن بما أنزل علينا أى بما أنزله الله على رسولنا موسى ، وهذا هو مجمع ضلالتهم ومنع عنادهم فلذلك تصدى القرآن لتطويل الحاجة فيه بما هنا وما بعده تمهيدا لقوله الآتى « ما ننسخ من آية » الآيات .

وقولهم نؤمن بما أنزل علينا أرادوا به الاعتذار وتعلمة أنفسهم لأنهم لما قيل لهم آمنوا بما أنزل الله علموا أنهم إن امتنعوا امتناعاً مجرداً عدت عليهم شناعة الامتناع من الإيمان بما يدعى أنه أنزله الله فقالوا في معذرتهم ولإرضاء أنفسهم نؤمن بما أنزل علينا أى أن فضيلة الانتساب للإيمان بما أنزل الله قد حصلت لهم أى فنحن نكتفى بما أنزل علينا وزادوا إذ تمسكوا بذلك ولم يرفضوه . وهذا وجه التعبير في الحكاية عنهم بلفظ المضارع نؤمن أى ندوم على الإيمان بما أنزل علينا وقد عرضوا بأنهم لا يؤمنون بغيره لأن التعبير بنؤمن بما أنزل علينا في جواب من قال لهم آمنوا بما أنزل الله وقد علم أن مراد القائل الإيمان بالقرآن مشعر بأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم فقط لأنهم يرون الإيمان بغيره مقتضياً الكفر به فهنا مستفاد من مجموع جملتي آمنوا بما أنزل الله وجوابها بقولهم نؤمن بما أنزل علينا .

وقوله تعالى « ويكفرون بما وراءهم » بالمضارع محاذة لقولهم نؤمن بما أنزل علينا وتصريح بما لوحوا إليه ورد عليهم أى يدومون على الإيمان بما أنزل عليهم ويكفرون كذلك بما وراءه فهم يرون أن الإيمان به مقتض لل كفر بغيره على أن للمضارع تأثيراً في معنى التعجب والغرابة . وفي قرنه بواو الحال إشعار بالرد عليهم وزاد ذلك بقوله وهو الحق مصدقاً لما معهم .

والوراء في الأصل اسم مكان للجهة التي خلف الشيء وهو عريق في الظرفية وليس أصله مصدراً . جعل الوراء مجازاً أو كناية عن الغائب لأنه لا يبصره الشخص واستعمل أيضاً مجازاً عن المجاوز لأن الشيء إذا كان أمام السائر فهو صائر إليه فإذا صار وراءه فقد تجاوزه وتباعده عنه قال النابغة * وليس وراء الله للمرء مطلب * واستعمل أيضاً بمعنى الطلب والتعقب تقول ورأى فلان بمعنى يتعقبني ويطلبني ومنه قول الله تعالى « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » وقول لبيد:

أليس ورأى أن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

فمن ثم زعم بعضهم أن الوراء يطلق على الخلف والأمام إطلاق اسم الضدين واحتج بيت لبيد وبقرآن وكان أمامهم ملك وقد علمت أنه لا حجة فيه ولذلك أنكر الآمدى في الموازنة كونه ضدًا .

فلما أراد بما وراءه في الآية بما عداه وتجاوزه أى بغيره والمقصود بهذا الغير هنا خصوص

القرآن بقرينة السياق لتقدم قوله، وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ولتعميقه بقوله، وهو الحق مصداقاً .

وجملة وهو الحق حالية واللام في الحق للجنس والمقصود اشتهاه المسند إليه بهذا الجنس أي وهو المشتهر بالحقيقة المسلم ذلك له على حد قول حسان :

وإن سنام الجند من آل هاشم بنوبت مخزوم ووالدك العبد

لم يرد حسان انحصار العبودية في الوالد وإنما أراد أنه المعروف بذلك المشتهر به فليست اللام هنا مفيدة للحصر لأن تعريف المسند باللام لا تطرد إفادته الحصر على مافي دلائل الإعجاز . وقيل يفيد الحصر باعتبار القيد أعني قوله مصداقاً أي هو المنحصر في كونه حقاً مع كونه مصداقاً فإن غيره من الكتب السماوية حق ولكنه ليس مصداقاً لما معهم ولعل صاحب هذا التفسير يعتبر الإنجيل غير متمرص لتصديق التوراة بل مقررراً على تحليل بعض الحرمات وذلك يشبه عدم التصديق . ففي الآية صد لبني إسرائيل عن مقابلة القرآن بمثل ما قبلوا به الإنجيل وزيادة في توبيخهم .

وقوله مصداقاً حال مؤكدة لقوله، وهو الحق، وهذه الآية علم في التمثيل للحال المؤكدة وعندي أنها حال مؤسسة لأن قوله مصداقاً لما معهم مشعر بوصف زائد على مضمون وهو الحق إذ قد يكون الكتاب حقاً ولا يصدق كتاباً آخر ولا يكذبه وفي مجيء الحال من الحال زيادة في استحضر شؤونهم وهيئاتهم .

وقوله « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » فصله عما قبله لأنه اعتراض في أنباء ذكر أحوالهم قصد به الرد عليهم في معذرتهم هذه لإظهار أن معاداة الأنبياء دأب لهم وأن قولهم « نؤمن بما أنزل علينا » كذب إذ لو كان حقاً لما قتل أسلافهم الأنبياء الذين هم من قومهم ودعواهم إلى تأييد التوراة والأمر بالعمل بها ولكنهم يعرضون عن كل مالا يوافق أهواءهم . وهذا إلزام للحاضرين بما فعله أسلافهم لأنهم يرونهم على حق فيما فعلوا من قتل الأنبياء . والإتيان بالمضارع في قوله « تقتلون » مع أن القتل قد مضى لقصد استحضر الحالة الفظيعة وقرينة ذلك قوله، من قبل، فذلك كما جاء الخطيئة بالماضي مراداً به الاستقبال في قوله : شهد الخطيئة يوم يلتق ربه أن الوليد أحق بالمعذر

بقرينة قوله يوم يلتق ربه .

والمراد بأنبياء الله الذين ذكرناهم عند قوله تعالى « ويقتلون النبيئين بغير الحق » .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ٩٢ ﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ٩٣

عطف على قوله « فلم تقتلون أنبياء الله » والقصد منه تعليم الانتقال في المجادلة معهم إلى ما يزيد إبطال دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم خاصة وذلك أنه بعد أن أكذبهم في ذلك بقوله « فلم تقتلون أنبياء الله من قبل » كما بينا ترقى إلى ذكر أحوالهم في مقابلتهم دعوة موسى الذي يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بما جاءهم به فإنهم مع ذلك قد قابلو دعوة بالعصيان قولاً وفعلاً فإذا كانوا أعرضوا عن الدعوة الحميدة بعمدة أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم فلماذا قابلو دعوة أنبيائهم بعد موسى بالقتل ولماذا قابلو دعوة موسى بما قابلو . فهذا وجه ذكر هذه الآيات هنا وإن كان قد تقدم نظائرها فيما مضى فإن ذكرها هنا في محاجة أخرى وغرض جديد ، وقد بينت أن القرآن ليس مثل تأليف في علم يُحَال فيه على ما تقدم بل هو جامع مواظ وتذكيرات وقوارع ومجادلات نزلت في أوقات كثيرة وأحوال مختلفة فلذلك تكرر فيه الأغراض لاقتضاء المقام ذكرها حينئذ عند سبب نزول تلك الآيات . وفي الكشف أن تكرير حديث رفع الطور هنا لما نيط به من الزيادة على ما في الآية السابقة معنى في قوله « قالوا سمعنا وعصينا » الآية وهي نكتة في الدرجة الثانية . وقال البيضاوي إن تكرير القصة للتنبيه على أن طريقتهم مع محمد صلى الله عليه وسلم طريقة أسلافهم مع موسى وهي نكتة في الدرجة الأولى وهذا إلزام لهم بعمل أسلافهم بناء على أن الفرع يتبع أصله والولد نسخة من أبيه وهو احتجاج خطابي .

والقول في هاته الآيات كالقول في سابقتهما وكذلك القول في البيّنات . إلا أن قوله « واسمعوا » مراد به الامتثال فهو كناية كما تقول فلان لا يسمع كلامي أي لا يمتثل أمري إذ ليس الأمر هنا بالسمع بمعنى الإصغاء إلى التوراة فإن قوله « خذوا ما آتيناكم بقوة » يتضمنه ابتداء لأن المراد من الأخذ بالقوة الاهتمام به وأول الاهتمام بالكلام هو سماعه

والظاهر أن قوله « خذوا ما آتيناكم بقوة » لا يشمل الامتثال فيكون قوله « واسمعوا » دالا على معنى جديد وليس تأكيداً، ولك أن تجعله تأكيداً لدلول خذوا ما آتيناكم بقوة بأن يكون الأخذ بقوة شاملاً لنية الامتثال وتكون نكتة التأكيد حينئذ هي الإشعار بأنهم مظنة الإهمال والإخلال حتى أكد عليهم ذلك قبل تبين عدم امتثالهم فيما يأتي في هذه الآية زيادة بيان لقوله في الآية الأولى « واذكروا ما فيه » .

واعلم أن من دلائل النبوة والمعجزات العلمية إشارات القرآن إلى العبارات التي نطق بها موسى في بني إسرائيل وكتبت في التوراة فإن الأمر بالسمع تكرر في مواضع مخاطبات موسى للإبن إسرائيل بقوله « اسمع يا إسرائيل » فهذا من نكت اختيار هذا اللفظ للدلالة على الامتثال دون غيره مما هو أوضح منه وهذا مثل ما ذكرنا في التعبير بالعهد .

وقوله « قالوا سمعنا وعصينا » يحتمل أنهم قالوه في وقت واحد جواباً لقوله، و« واسمعوا » وإنما أجابوه بأمرين لأن قوله اسمعوا تضمن معنيين معنى صريحاً ومعنى كنائياً فأجابوا بامتثال الأمر الصريح وأما الأمر الكنائى فقد رفضوه وذلك يتضمن جواب قوله « خذوا ما آتيناكم بقوة » أيضاً لأنه يتضمن ما تضمنه « واسمعوا » وفي هذا الوجه بعد ظاهر إذ لم يعهد منهم أنهم شافهوا نبيهم بالعزم على العصية وقيل إن قوله « سمعنا » جواب لقوله « خذوا ما آتيناكم » أى سمعنا هذا الكلام . وقوله « وعصينا » جواب لقوله « واسمعوا » لأنه بمعنى امتثلوا ليكون كل كلام قد أجيب عنه ويبيده أن الإتيان في جوابهم بكامة سمعنا مشير إلى كونه جواباً لقوله « اسمعوا » لأن شأن الجواب أن يشتمل على عبارة الكلام المجاب به وقوله ليكون كل كلام قد أجيب عنه قد علمت أن جعل سمعنا وعصينا جواباً لقوله « واسمعوا » ينفي عن تطلب جواب لقوله خذوا، ففيه إيجاز، فالوجه في معنى هذه الآية هو ما نقله الفخر عن أبي مسلم أن قولهم « عصينا » كان بلسان الحال يعني فيكون « قالوا » مستعملاً في حقيقته ومجازاً أى قالوا سمعنا وعصوا فكان لسانهم يقول عصينا . ويحتمل أن قولهم عصينا وقع في زمن متأخر عن وقت نزول التوراة بأن قالوا عصينا في حشم على بعض الأوامر مثل قولهم لموسى حين قال لهم ادخلوا القرية « لن ندخلها أبداً » وهذان الوجهان أقرب من الوجه الأول . وفي هذا بيان لقوله في الآية الأولى « ثم توليت من بعد ذلك » .

والإشراب هو جعل الشيء شارباً ، واستمير لجعل الشيء متصلاً بشيء وداخلاً فيه ووجه الشبه هو شدة الاتصال والسرير لأن الماء أسرى الأجسام في غيره ولذا يقول الأطباء الماء مطية الأغذية والأدوية ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن فذلك استعاروا الإشراب لشدة التداخل استعارة تبعية قال بعض الشعراء :

تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافى يسير^(١)

تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور

ومنه قولهم أشرب الثوب الصبغ، قال الراغب من عادتهم إذا أرادوا مخامرة حب وبغض أن يستمروا لذلك اسم الشراب اهـ . وقد اشتهر المعنى المجازي فهجر استعمال الإشراب بمعنى السقي وذكر القلوب قرينة على أن إشراب العجل على تقدير مضاف من شأن القلب مثل عبادة العجل أو تأليه العجل . وإنما جعل حبهم العجل إشراباً لهم للإشارة إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه كقولهم أولع بكذا وشغف . والعجل مفعول أشربوا على حذف مضاف مشهور في أمثاله من تعليق الأحكام وإسنادها إلى الذوات مثل « جُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْيَتَةُ » أى أكل لحما . وإنما شغفوا به استحساناً واعتقاداً أنه إلههم وأن فيه نفعهم لأنهم لما رأوه من ذهب قدسوه من فرط حبهم الذهب .

وقد قوى ذلك الإعجاب به بفرط اعتقادهم ألوهيته ولذلك قال تعالى « بكنفرهم » فإن الاعتقاد يزيد المعتقد توغلاً في حب معتقده . وإسناد الإشراب إلى ضمير ذواتهم ثم توضيحه بقوله « في قلوبهم » مبالغة وذلك مثل ما يقع في بدل البعض والاشتمال وما يقع في تمييز النسبة . وقريب منه قوله تعالى « إنما يأكلون في بطونهم نارا » وليس هو مثل ما هنا لأن الأكل متمحض لكونه منحصراً في البطن بخلاف الإشراب فلا اختصاص له بالقلوب .

وقوله « قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » تذييل واعتراض ناشئ عن قولهم « سمعنا وعصينا » وهو خلاصة لإبطال قولهم « نؤمن بما أنزل علينا » بعد أن أبطل ذلك

(١) ذكر هذه الآيات القرطبي في تفسيره وقال إنها لأحد التابعين أى التابعة الديان أو التابعة الجعدي في زوجته عثمة كان عتب عليها في بعض الأمر فطلقها وكان محباً لها . وبعدها :

أ كاد إذا ذكرت العهد منها أظير لو أن إنساناً يطير

بشواهد التاريخ وهي قوله « قل فلم تقتلون أنبياء الله » وقوله « ولقد جاءكم موسى بالبينات » وقوله « قالوا سمعنا وعصينا » ولذلك فصله عن قوله « قل فلم تقتلون أنبياء الله » لأنه يجري من الأول مجرى التقرير والبيان لحاصله ، والمعنى قل لهم إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم كما زعمتم معنى التوراة فبئسما أمركم به هذا الإيمان إذ فعلتم ما فعلتم من الشنائع من قتل الأنبياء ومن الإشرak بالله في حين قيام التوراة فيكم فكيف وأنتم اليوم لا تعرفون من الشريعة إلا قليلا، وخاصة إذا كان هذا الإيمان بزعمهم يصددهم عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فالجلة الشرطية كلها مقول قل والأمر هنا مستعمل مجازا في التسبب .

وإنما جعل هذا مما أمرهم به إيمانهم مع أنهم لم يدعوا ذلك لأنهم لما فعلوه وهم يزعمون أنهم متصليون في التمسك بما أنزل إليهم حتى أنهم لا يخالفونه قيد فترولا يستمعون لكتاب جاء من بعده فلا شك أن لسان حالهم ينادى بأنهم لا يفعلون فعلا إلا وهو مأذون فيه من كتابهم هذا وجه الملازمة وأما كون هذه الأفعال مذمومة شنيعة فذلك معلوم بالبداهة فأتيج ذلك أن إيمانهم بالتوراة يأمرهم بارتكاب الفظائع وهذا ظاهر الكلام والمقصود منه القدح في دعواهم الإيمان بالتوراة وإبطال ذلك بطريق يستنزل طائرهم ويرى بهم في مهواة الاستسلام للحجة فأظهر إيمانهم المقطوع بدمه في مظهر الممكن المفروض ليتوصل من ذلك إلى تبكيثهم وإخفاءهم نحو « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » ولهذا أضيف الإيمان إلى ضميرهم لإظهار أن الإيمان المذموم هو إيمانهم أى الذى دخله التحريف والاضطراب لما هو معلوم من أن الإيمان بالكتب والرسل إنما هو لصالح الناس والخروج بهم من الظلمات إلى النور فلا جرم أن يكون مرتكبو هاته الشنائع ليسوا من الإيمان بالكتاب الذى فيه هدى ونور فى شيء فبطل بذلك كونهم « مؤمنين » وهو المقصود بقوله بئسما يأمركم جواب الشرط مقدم عليه أو قل دليل الجواب ولأجل هذا جئنا فى هذا الشرط بأن التى من شأن شرطها أن يكون مشكوك الحصول وينتقل من الشك فى حصوله إلى كونه مفروضا كما يفرض الحال وهو المراد هنا؛ لأن التكلم عالم بانتفاء الشرط ولأن المخاطبين يعتقدون وقوع الشرط فكان مقتضى ظاهر حال التكلم أن لا يؤتى بالشرط المتضمن لكونهم « مؤمنين » إلا متفهماً ومقتضى ظاهر حال المخاطب أن لا يؤتى به إلا مع إذا و لكن التكلم مع علمه بانتفاء الشرط فرضه كما يفرض الحال استنزالا لطائرهم . وفى الإتيان بيان إشعار بهذا

الفرض حتى يقعوا في الشك في خالهم وينقلوا من الشك إلى اليقين بأنهم غير مؤمنين حين يحىء الجواب وهو بثما يأمركم وإلى هذا أشار صاحب الكشف كما قاله انتفزانى وهو لا ينافى كون القصد التبكيت لأنها معان متعاقبة يفضى بعضها إلى بعض فمن الفرض يتولد التشكيك ومن التشكيك يظهر التبكيت .

ولا معنى لجمل « إن كنتم مؤمنين » ابتداء كلام وجوابه محذوفا تقديره فإيمانكم لا يأمركم بقتل الأنبياء وعبادة العجل إلخ لأنه قطع لأواصر الكلام وتقدير بلا داع مع أن قوله « قل بثما يأمركم به إيمانكم » إلخ يتطلبه مزيد تطلب ونظائره في آيات القرآن كثيرة . على أن معنى ذلك التقدير لا يلاقى الكلام المتقدم المثبت أن إيمانهم أمرهم بهذه المذام فكيف ينفي بعد ذلك أن يكون إيمانهم يأمرهم .

وبثما هنا نظير بثما المتقدم في قوله « بثما اشتروا به أنفسهم » سوى أن هذا لم يؤت له باسم مخصوص بالذم لدلالة قوله « وأمرىوا في قلوبهم العجل بكفرهم » والتقدير بثما يأمركم به إيمانكم عبادة العجل .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٩٤ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٩٥ ﴾

إبطال لدعوى قارة في نفوسهم اقتضاها قولهم تؤمن بما أنزل علينا الذى أرادوا به الاعتذار عن إعراضهم عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بعذر أنهم متصلبون في التمسك بالتوراة لا يمدونها وأنهم بذلك استحقوا محبة الله إياهم وتكون الآخرة لهم فلما أبطلت دعوى إيمانهم بما أنزل عليهم يلزامهم الكذب في دعواهم بسند ما أتاه سلفهم وهم جدودهم من الفطائع مع أنبيائهم والخروج عن أوامر التوراة بالإشراك بالله تعالى بعبادة العجل عقب ذلك بإبطال ما في عقائدهم من أنهم أهل الانفراد برحمة الله ماداموا متمسكين بالتوراة وأن من خالفها لا يكون له حظ في الآخرة ، وارتكب في إبطال اعتقادهم هذا طريقة الإحالة على ما اعتدوا عليه اعتقادهم من الفقه بحسن المصير أو على شكهم في ذلك فإذا ثبت لديهم شكهم في ذلك علموا أن إيمانهم

بالتوراة غير ثابت على حقه وذلك أشد ما يفت في أعضادهم ويسقط في أيديهم لأن ترقب الحظ الأخرى أهم ما يتعلق به المعتقد المتدين فإن تلك هي الحياة الدائمة والنعم المقيم .

وقد قيل إن هذه الآية رد لدعوى أخرى صدرت من اليهود تدل على أنهم يجعلون الجنة خاصة بهم مثل قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه وقولهم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وإلى هذا مال القرطبي والبيضاوي وعليه فيكون ذكر الرد عليهم بينا لمجرد المناسبة في رد معتقد لهم باطل أيضاً لا في خصوص الغرض المسوق فيه الآيات المتقدمة بناء على أن الآيات لا يلزم أن تكون متناسبة تمام المناسبة ونحن لا نساعد على ذلك فعلى هذا الوجه تكون هاته الآية هنا نزلت مع سوابقها للرد على أقوالهم المتفرقة المحكية في آيات أخرى وإنما اتصلت مع الآيات الراجعة إلى رد دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم للمناسبة بجمع رد جميع دعاويهم ولكن فيما ذكرناه غنية . وإيأما كان فهذه الآية يتحدث اليهود كما يتحدث القرآن مشركي العرب بقوله فأتوا بسورة من مثله .

وإنما فصلت هاته الجملة عما قبلها لاختلاف السياق لأن هذه الآية إلقاء حجة عليهم والآيات السابقة تفضيع لأحوالهم وإن كان في كل من ذلك احتجاج لكن الانتقال من أسلوب إلى أسلوب كان محسناً للفصل دون العطف لإسيا مع افتتاح الاحتجاج بقل .
والكلام في « لكم » مشعر بأن المراد من الدار الآخرة نعيمها ولكم خبر كانت قدم للحصر بناء على اعتقادهم كتقديمه في قول الكميث يمدح هشاماً بن عبد الملك حين عفا عنه من قصيدة :

لكم مسجداً الله المزوران والخصى لكم قبضة من بين أثرى وأقترى
وعند الله ظرف متعلق بكانت والمندية عندية تشريف وادخار أى مدخرة لكم عند الله
وفي ذلك إيذان بأن الدار الآخرة مراد بها الجنة . وانتصب خالصة على الحال من اسم كان
ولا وجه لتوقف بعض النحاة في مجيء الحال من اسم كان . ومعنى الخالصة السالمة من مشاركة
غيركم لكم فيها فهو يؤول إلى معنى خاصة بكم .

وقوله « من دون الناس » دون في الأصل ظرف للكان الأقرب من مكان آخر غير متصرف وهو مجاز في المفارقة فلذلك تدل على تخالف الأوصاف أو الأحوال ، تقول هذا لك دون زيد أى لاحق لزيد فيه فقوله « من دون الناس » تؤكد لمعنى الاختصاص المستفاد من تقديم الخبر ومن

قوله «خالصة» لدفع احتمال أن يكون المراد من الخلوص الصفاء من المشارك في درجاتهم مع كونه له حظ من النعيم . والمراد من الناس جميع الناس فاللام فيه للاستغراق لأنهم قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا .

وقوله «فتمنوا الموت» جواب الشرط ووجه الملازمة بين الشرط - وهو أن الدار الآخرة لهم - وجزائه وهو تمنى الموت أن الدار الآخرة لا ينحصر أحد إليها إلا بأرواح حين تفارق جسده ومفارقة الروح الجسد هو الموت فإذا كان الموت هو سبب مصيرهم إلى الخيرات كان الشأن أن يتمنوا حلوله كما كان شأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كما قال عمير بن الحمام رضى الله عنه :

جربا إلى الله بنير زاد إلا التقي وعمل الماد
وارتجز جعفر بن أبي طالب يوم غزوة مؤتة حين اقتحم على المشركين بقوله :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

وقال عبد الله بن رواحة عند خروجه إلى غزوة مؤتة ودعا المسلمون له ولمن معه أن يردمهم الله سالمين :

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أوطعنةً من يدى حران مجهزةً بحربة تُنفذُ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدنى أرشدك الله من غاز وقد رشدا

وجملة «ولن يتمنوا أبدا» إلى آخره معترضة بين جملة «قل إن كانت لكم الدار الآخرة» وبين جملة «قل من كان عدوا لجبريل» والكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إعلاما لهم ليزدادوا يقينا ولا يحصل منه تحذ لليهود إذ يسمعون ويودون أن يخالفوه لئلا ينهض حجة على صدق الخبر به فيلزمهم أن الدار الآخرة ليست لهم .

وقوله بما قدمت أيديهم يشير إلى أنهم قد صاروا في عقيدة مختلطة متناقضة كشأن عقائد الجهلة المغرورين فهم يعتقدون أن الدار الآخرة لهم بما دل عليه قولهم تؤمن بما أنزل علينا وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه ثم يعترفون بأنهم اجتروا على الله واكتسبوا السيئات حسبما

سطر ذلك عليهم في التوراة وفي كتب أنبيائهم فيعتذرون بأن النار تمسهم أياماً معدودة ولذلك يخافون الموت فراراً من العذاب . والمراد بما قدمت أيديهم ما أتوه من المعاصي سواء كان باليد أم بغيرها بقرينة المقام، فقليل عبر باليد هنا عن الذات مجازاً كما في قوله « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » وكما عبر عن الذات بالعين في باب التوكيد لأن اليد أهم آلات العمل . وقيل أريد بها الأيدي حقيقة لأن غالب جنایات الناس بها وهو كناية عن جميع الأعمال قاله الواحدى ولعل التكني بها دون غيرها لأن أجمع معاصيها وأفظعها كان باليد فالأجمع هو تحريف التوراة والأفظع هو قتل الأنبياء لأنهم بذلك حرموا الناس من هدى عظيم . وإسناد التقديم للأيدي على الوجه الأول حقيقة وعلى الوجه الثاني مجاز عقلي . وقوله « والله عليم بالظالمين » خبر مستعمل في التهديد لأن القدير إذا علم بظلم الظالم لم يتأخر عن معاقبته فهذا كقول زهير :

* فهما يكتم الله يعلم *

وقد عدت هذه الآية في دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنها نقت صدور تمنى الموت مع حرصهم على أن يظهروا تكذيب هذه الآية ولا يقال لهم تمناوا الموت بقلوبهم لأن التمنى بالقلب لو وقع لنطقوا به بالسنتهم لقصد الإعلان بإبطال هذه الوصمة فسكوتهم يدل على عدم وقوعه وإن كان التمنى موضعه القلب لأنه طلب قلبي إذ هو محبة حصول الشيء وتقدم في قوله « إلا أمانى » أن الأمنية ما يقدر في القلب . وهذا بالنسبة إلى اليهود المخاطبين زمن النزول ظاهر إذ لم ينقل عن أحد منهم أنه تمنى الموت كما أخبرت الآية وهي أيضاً من أعظم الدلائل عند أولئك اليهود على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فإنهم قد أيقن كل واحد منهم أنه لا يتمنى الموت وأيقن أن بقية قومه لا يتمنونه لأنه لو تمناه أحد لأعلن بذلك لعلهم يحرص كل واحد منهم على إبطال حكم هذه الآية . ويفيد بذلك إعجازاً عاماً على تعاقب الأجيال كما أفاد عجز العرب عن المعارضة علم جميع الباحثين بأن القرآن معجز وأنه من عند الله . على أن الظاهر أن الآية تشمل اليهود الذين يأتون بعد يهود عصر النزول إذ لا يعرف أن يهودياً تمنى الموت إلى اليوم فهذا ارتقاء في دلائل النبوة وجملة « والله عليم بالظالمين » في موضع الحال من ضمير الرفع في يتمنوه أى علم الله ما في نفوسهم فأخبر رسوله بأن يتحداهم وهذا زيادة في تسجيل امتناعهم من تمنى الموت ، والمراد بالظالمين اليهود فهو من وضع الظاهر موضع الضمير ليصنفهم بالظلم .

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ
لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنَّ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴾ ٩٦

معطوف على قوله « ولن يتمنوه أبداً » للإشارة إلى أن عدم تمنيمهم الموت ليس على الوجه المعتاد عند البشر من كراهة الموت ما دام المرء بعافية بل هم تجاوزوا ذلك إلى كونهم أحرص من سائر البشر على الحياة حتى المشركين الذين لا يرجون بثنا ولا نشورا ولا نعيما فتميمهم عندهم هو نعيم الدنيا وإلى أن تمنوا أن يعمرؤا أقصى أمد التعمير مع ما يعتري صاحب هذا العمر من سوء الحالة ورذالة العيش . فلما في هذه الجملة المعطوفة من التأكيد لمضمون الجملة المعطوف عليها أخرت عنها ولما فيها من الزيادة في وصفهم بالأحرصية المتجاوزة الحد عطف عليه ولم يفصل لأنه لو كان لجرد التأكيد لفصل كما يفصل التأكيد عن المؤكد .

وقوله « لتجدنهم » من الوجدان القلبي المتعدى إلى مفعولين . والمراد من الناس في الظاهر جميع الناس أى جميع البشر فهم أحرصهم على الحياة فإن الحرص على الحياة غريزة في الناس إلا أن الناس فيه متفاوتون قوة وكيفية وأسبابا قال أبو الطيب :

أرى كلنا يهوى الحياة بسميه حريصاً عليها مستهماً بها صبا
فحب الجبان النفس أوردته التقى وحب الشجاع النفس أوردته الحربا

ونكر الحياة قصداً للتنويع أى كيفما كانت تلك الحياة وتقول يهود تونس ما معناه « الحياة وكفى » .

وقوله « ومن الذين أشركوا » عطف على الناس لأن المضاف إليه أفضل التفضيل تقدر معه من التفضيلية لا محالة فإذا عطف عليه جاز إظهارها ويتمين الإظهار إذا كان المفضل من غير نوع المفضل عليه لأن الإضافة حينئذ تمتنع كما هنا فإن اليهود من الناس وليسوا من الذين أشركوا . وعند سيبويه أن إضافته على تقدير اللام فيكون قوله « ومن الذين أشركوا » على قوله -عطفًا بالحل على المعنى أو بتقدير معطوف محذوف تقديره أحرص هو متعلق من الذين أشركوا وإليه مال في الكشف .

وقوله « يود أحدهم » بيان لأحرصيتهم على الحياة وتحقيق لمعوم النوعية في الحياة النكرة لدفع توهم أن الحرص لا يبلغ بهم مبلغ الطمع في الحياة البالغة لمدة ألف سنة فإنها مع تمذرها لو تمت لهم كانت حياة خسف وأرذل عيش يظن بهم أن لا يبلغ جهنم الحياة إلى تنميتها ، وقد قال الحريري :

والموت خير للقي من عيشه عَيْشَ الْبَهِيمَةِ

نحى بهاته الجملة لتحقيق أن ذلك الحرص يشمل حتى هاته الحياة الذميمة ولما في هاته الجملة من البيان لضمون الجملة قبلها فُصِلَتْ عنها . والود المحبة ولو للتمنى وهو حكاية للفظ الذى يودون به والنجى فيه بلفظ الغائب مراعاة للمعنى ويجوز أن تكون لو مصدرية والتقدير يود أحدهم تعمير ألف سنة .

وقوله لو يعمر ألف سنة بيان ليود أى يود ودًا بيانه لو يعمر ألف سنة، وأصل لو انه حرف شرط للماضى أو للمستقبل فكان أصل موقعه مع فعل يود ونحوه أنه جملة مبينة لجملة يود على طريقة الإيجاز والتقدير فى مثل هذا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة لَمَا سَيَّمْ أَوْ لَمَا كَرِهَ فلما كان مضمون شرط لو ومضمون مفعول يود واحداً استغنوا بفعل الشرط عن مفعول الفعل فحذفوا المفعول ونزل حرف الشرط مع فعله منزلة المفعول فلذلك صار الحرف مع جملة الشرط فى قوة المفعول فاكتسب الاسمى فى المعنى فصار فعل الشرط مؤولا بالمصدر المأخوذ منه ولذلك صار حرف لو بمنزلة أن المصدرية نظرا لكون الفعل الذى بعدها صار مؤولا بمصدر فصارت جملة الشرط مستعملة فى معنى المصدر استعمالاً غلب على لو الواقعة بعد فعل يود وقد يلحق به ما كان فى معناه من الأفعال الدالة على المحبة والرغبة . هذا تحقيق استعمال لو فى مثل هذا الجارى على قول المحققين من النحاة ولغلبة هذا الاستعمال وشيوع هذا الحذف ذهب بعض النحاة إلى أن لو تستعمل حرفا مصدريا وأثبتوا لها من مواقع ذلك موقعها بعد يود ونحوه وهو قول الفراء وأبى على الفارسى والتبريزى والمكبرى وابن مالك فيقولون لا حذف ويحملون لو حرفا لمجرد السبك بمنزلة أن المصدرية والفعل مسبوكا بمصدر والتقدير يود أحدهم التعمير وهذا القول أضعف تحقيقا وأسهل تقديرا .

وقوله « وما هو بمزحزحه » يجوز أن يكون الضمير لأحدهم ويجوز أن يكون ضميرا مبهما يفسره المصدر بعده على حد قول زهير :

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم ولم يجعل ضمير شأن لدخول النفي عليه كالذى فى البيت لكنه قريب من ضمير الشأن لأن المقصود منه الاهتمام بالخبر ولأن ما بعده فى صورة الجملة وقيل هو عائد على التعمير المستفاد من لو يعمر ألف سنة . وقوله « أن يعمر » بدل منه وهو بعيد . والزحزح المبعد .

وقوله « والله بصير بما يعملون » البصير هنا بمعنى العليم كما فى قول علقمة الفحل :
فإن تسألونى بالنساء فإننى بصيرٌ بأدواء النساء طيبٌ
وهو خبر مستعمل فى التهديد والتوبيخ لأن القدير إذا علم بما يجترحه الذى يعصيه وأعلمه بأنه علم منه ذلك علم أن العقاب نازل به لا محالة ومنه قول زهير :

فلا تكتمنَّ الله ما فى نفوسكم ليخفى فهما يُكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يجعل فينقم
فجعل قوله « يعلم » بمعنى العلم الراجع للتهديد بدليل إبداله منه قوله يؤخر البيت وقريب من هذا قول النابغة فى النعمان :

علمتك رعمانى بعين بصيرةٍ وتبعث حُرَّاسا على وناظرا

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ٩٨ ﴾

موقع هاته الجملة موقع الجمل قبلها من قوله « قل فلم تقتلون أنبياء الله » . وقوله « قل بئسما يأمركم » . وقوله « قل إن كانت لكم الدار الآخرة » . فإن الجميع للرد على ماتضمنه قولهم تؤمن بما أنزل علينا لأنهم أظهروا به عذرا عن الإعراض عن الدعوة الحمدية وهو عذر كاذب ستروا به السبب فى الواقع وهو الحسد على نزول القرآن على رجل من غيرهم فجاءت هاته المجادلات المصدرة بقل لإبطال معذرتهم وقضح مقصدهم . فأبطل أولا ماتضمنه قولهم تؤمن بما أنزل علينا من أنهم إنما يقبلون ما أنزل على رسلهم بأنهم قد قابلوا رسلهم أيضا بالتكذيب والأذى والمعصية وذلك بقوله « قل فلم تقتلون » وقوله « قل بئسما » الخ .

وأبطل ثانيا ما تضمنه من أنهم شديداً التمسك بما أنزل عليهم حريصون على العمل به متباعدون من البعد عنه لتقصد النجاة في الآخرة بقوله « قل إن كانت لكم الدار الآخرة ». وأبطل ثالثاً أن يكون ذلك المذر هو الصارف لهم عن الإيمان مع إثبات أن الصارف لهم هو الحسد بقوله هنا « قل من كان عدواً لجبريل » الخ . ويؤيد هذا الارتباط وقوع الضمير في قوله نزَّله عائداً على ما أنزل الله في الآية الحجة بهاته الإبطالات، ولذلك فصلت هذه كما فصلت أخواتها ولأنها لا علاقة لها بالجل القريية منها فتمطف عليها فجاءت لذلك مستأنفة .

والعدو المبغض وهو مشتق من عداً عليه يمدو بمعنى وثب، لأن المبغض يثب على المبغوض لينتقم منه ووزنه فعول . وجبريل اسم عبراني للملك المرسل من الله تعالى بالوحي لرأسه مركب من كلمتين . وفيه لغات أشهرها جبريل كقطمير وهي لغة أهل الحجاز وبها قرأ الجمهور . وجبريل بفتح الجيم وكسر الراء وقع في قراءة ابن كثير وهذا وزن فمليل لا يوجد له مثال في كلام العرب قاله الفراء والنحاس . وجبريل بفتح الجيم أيضاً وفتح الراء وبين الراء والياء همزة مكسورة وهي لغة تميم وقيس وبعض أهل نجد وقرأ بها حمزة والكسائي . وجبريل بفتح الجيم والراء بينها وبين اللام همزة مكسورة قرأ بها أبو بكر عن عاصم وفيه لغات أخرى قرئ بها في الشواذ .

وهو اسم مركب من كلمتين كلمة جبر وكلمة إيل . فأما كلمة جبر فعناها عند الجمهور نقلاً عن العبرانية أنها بمعنى عبد والتحقيق أنها في العبرانية بمعنى القوة . وأما كلمة إيل فهي عند الجمهور اسم من أسماء الله تعالى . وذهب أبو علي الفارسي إلى عكس قول الجمهور فزعم أن جبر اسم الله تعالى وإيل العبد وهو مخالف لما في اللغة العبرانية عند العارفين بها . وقد قفا أبو العلاء المعري رأى أبي علي الفارسي في صدر رسالته التي خاطب بها علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح وهي المعروفة برسالة الغفران فقال « قد علم الجبر الذي نسب إليه جبريل وهو في كل الخيرات سبيل أن في مسكني كحاطة » الخ . أي قد علم الله الذي نسب جبريل إلى اسمه أي اسمه جبر يريد بذلك القسم وهذا إغراب منه وتنبية على تبصره باللغة .

وعداوة اليهود لجبريل نشأت من وقت نزوله بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل لأنه ينزل على الأمم التي كذبت رسلها بالعذاب والوعيد ، نقله القرطبي عن حديث خرجه الترمذى . وقوله « من كان عدوا لجبريل » شرط عام مراد به خاص وهم اليهود . قصد الإتيان بالشمول ليعلموا أن الله لا يعبأ بهم ولا يفرحهم ممن يعادى جبريل إن كان له معاد آخر .

وقد عرف اليهود في المدينة بأنهم أعداء جبريل ففي البخارى عن أنس بن مالك قال سمع عبدالله بن سلام بقدم رسول الله وهو في أرض يحترف فأتى النبي فقال إني سألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيء « فأول أشرط الساعة ، وما أول طعام أهل الجنة ، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال رسول الله أخبرني بهن جبريل آتفا قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة فإنهم أبغضوه لأنه يجيء بما فيه شدة وبالأمر بالقتال الحديث وفي سفر دانيال من كتبهم في الإصحاحين الثامن والتاسع ذكروا أن جبريل عبر لدانيال رؤيا رآها وأنذره بخراب أورشليم . وذكر المفسرون أسبابا أخرى لبغضهم جبريل . ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من الله ويبغضونه وهذا من أخط دركات الانحطاط في العقل والعقيدة ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبىء عن تظافر آرائهم على الخطأ والأوهام .

وقوله « فإنه نزل على قلبك بإذن الله » . الضمير المنصوب بـ (نزل) عائد للقرآن إما لأنه تقدم في قوله « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله » وإما لأن الفعل لا يصلح إلا له هنا على حدٍ حتى توارت بالحجاب . « فلو لا إذا بلغت الحلقوم » . وهذه الجملة قائمة مقام جواب الشرط . لظهور أن المراد أن لا موجب لعداوته لأنه واسطة أذنه الله بالنزول بالقرآن فهم بمعادته إنما يعادون الله تعالى بالتقدير من كان عدوا لجبريل فلا يعاده وليعاده الله تعالى . وهذا الوجه أحسن مما ذكره وأسعد بقوله تعالى بإذن الله وأظهر ارتباطا بقوله بعد من كان عدوا لله وملائكته كما ستعرفونه ويجوز أن يكون التقدير فإنه قد نزل عليك سواء أحبه أم عادوه فيكون في معنى الإغظة من باب قل موتوا بفيظكم ، كقول الربيع بن زياد :

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأتِ ساحتنا بوجه نهار
يمجد النساء حواسرا يندبته بالليل قبل تبليج الإسفار

أى فلا يسر بمقتله فإننا قد قتلنا قاتله قبل طلوع الصباح فإن قاتله من أولياء من كان

مسرورا بمقتله . ويجوز أن يكون المراد فإنه نزل به من عند الله مصداقاً لكتابهم وفيه هدى وبشرى، وهذه حالة تقتضى محبة من جاء به فمن حققهم ومكابرهم عداوتهم لمن جاء به فالتقدير فقد خلع ربة العقل أو حلية الإنصاف . والأتیان بحرف التوكيد في قوله « فإنه نزل » لأنهم منكرون ذلك .

والقلب هنا بمعنى النفس وما به الحفظ والفهم، والعرب تطلق القلب على هذا الأمر المعنوي نحو « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » كما يطلقونه أيضاً على العضو الباطني الصنوبري كما قال : * كان قلوب الطير رطباً ويابساً *

« ومصدقا » حال من الضمير المنصوب في أنزله أى القرآن الذى هو سبب عداوة اليهود لجبريل أى أنزله مقارناً لحالة لا توجب عداوتهم إياه لأنه أنزله مصداقاً لما بين يديه من الكتب وذلك التوراة والإنجيل . والمصدق الخبر بصدق أحد . وأدخلت لام التقوية على مفعول مصداقاً للدلالة على تقوية ذلك التصديق أى هو تصديق ثابت محقق لا يشوبه شيء من التكذيب ولا التخطئة فإن القرآن نوه بالتوراة والإنجيل ووصف كلا بأنه هدى ونور كما في سورة المائدة .

وتصديق الرسل السالفين من أول دلائل صدق المصدق لأن الدجاجة المدعين النبوات يأتون بتكذيب من قبلهم لأن ما جاءوا به من الهدى يخالف ضلالات الدجالين فلا يسمهم تصديقهم ولذا حذر الأنبياء السابقون من المتنبيين الكذبة كما جاء في مواضع من التوراة والأنجيل .

والمراد بما بين يديه ما سبقه وهو كناية عن السبق لأن السابق يحى قبل المسبوق ولما كان كناية عن السبق لم يناف طول المدعى الكتب السابقة والقرآن ولأن اتصال العمل بها بين أممها إلى محىء القرآن فجعل سبقهما مستمرا إلى وقت محىء القرآن فكان سبقهما متصلا . والهدى وصف للقرآن بالمصدر لقصد المبالغة في حصول الهدى به . والبشرى الإخبار بحصول أمر سار أو بترقب حصوله فالقرآن بشر المؤمنين بأنهم على هدى وكمال ورضى من الله تعالى وبشرهم بأن الله سيؤتيهم خير الدنيا وخير الآخرة .

فقد حصل من الأوصاف الخمسة للقرآن وهى أنه منزل من عند الله بإذن الله . وأنه منزل على قلب الرسول . وأنه مصدق لما سبقه من الكتب . وأنه هاد أبلغ هدى . وأنه بشرى

للمؤمنين ، الثناء على القرآن بكرم الأصل . وكرم المقر . وكرم الفتة . ومفيض الخير على أتباعه الأخيار خيراً عاجلاً . وواعد لهم بمقابلة الخير .

وهذه خصال الرجل الكريم محته . وبيته . وقومه . السخى بالبذل الواعد به وهى خصال نظر إليها بيت زياد الأعجم :

إِنَّ السَّاحَةَ وَالرَّوَةَ وَالنَّدَى فِي قَبَةِ ضُرْبَتِ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ

وقوله « من كان عدوا لله » الخ قد ظهر حسن موقعه بما علمتموه من وجه معنى فإنه نزل على قلبك ياذن الله أى لما كانت عدوتهم جبريل لأجل عدوتهم الرسول ورجعت بالأخرة إلى إلزامهم بعدوتهم الله المرسل ، لأن سبب العداوة هو بحيثه بالرسالة تسنى أن سجل عليهم أنهم أعداء الله لأنه المرسل ، وأعداء رسله لأنهم عادوا الرسول ، وأعداء الملائكة لذلك ، فقد صارت عدوتهم جبريل كالحذ الوسط في القياس لا يلتفت إليه وإنما يلتفت للمقدمتين الصغرى والكبرى فعداوتهم الله بمنزلة المقدمة الكبرى لأنها العلة في المعنى عند التأمل . وعداوتهم الرسول بمنزلة المقدمة الصغرى لأنها السبب الجزئى الثبت له فلا يرد أنه لا وجه لذكر عداوة الله تعالى هنا حتى يجاب بأن عداوة الملائكة والرسول عداوة لله على حد « من يطع الرسول فقد أطاع الله » فإن ذلك بعيد .

وقد أثبت لهم عداوة الملائكة والرسول مع أنهم إنما عادوا جبريل ومحمداً لأنهم لما عادوها عادوا جبريل لأجل قيامه بما هو من خصائص جنسه الملكى وهو تبليغ أمر الله التكليفى فإن ذلك خصيصة لهم قال تعالى « وهم بأمره يعملون » كانت عدوتهم إياه لأجل ذلك آيلة إلى عداوة جنس الملائكة إذ تلك طريق ليس جبريل فيها بأوحد وكذلك لما عادوا محمداً لأجل مجيئه بالرسالة لسبب بذاته ، كانت عدوتهم إياه آيلة إلى عداوة الوصف الذى هو قوام جنس الرسول فمن عادى واحداً كان حقيقاً بأن يعاديه كلهم وإلا كان فعله تحكماً لا عذراً له فيه . وخُص جبريل بالذكر هنا لزيادة الاهتمام بعقاب معاديه وأُيِّدَ كَرَمُه ميكائيل ولعلمهم عادوها مما أو لأنهم زعموا أن جبريل رسول الخسف والعذاب وأن ميكائيل رسول الخصب والسلام وقالوا نحن نحب ميكائيل فلما أريد إنذارهم بأن عدوتهم الملائكة تجر إليهم عداوة الله وأعيد ذكر جبريل للتنويه به وعطف عليه ميكائيل لثلاثتهموا أن محبتهم ميكائيل تكسب المؤمنين عداوته .

وفى ميكائيل لغات إحداها ميكائيل بهمة بعد الألف وياء بعد الهمزة وبها قرأ الجمهور .

الثانية ميكائل بهمزة بعد الألف وبلا ياء بعد الهمزة وبها قرأ نافع . الثالثة ميكال بدون همز ولا ياء وبها قرأ أبو عمرو وحفص وهي لغة أهل الحجاز .

وقوله « فإن الله عدو للكافرين » جواب الشرط . والعدو مستعمل في معناه المجازي وهو ما يستلزمه من الانتقام والهلاك وأنه لا يفلكه كما قال النابغة :

* فإنك كالليل الذي هو مدركي * البيت

وقوله تعالى « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » وما ظنك بمن عاداه الله . ولهذا ذكر اسم الجلالة بلفظه الظاهر ولم يقل فإني عدو أو فإنه عدو لما يشعر به الظاهر هنا من القدرة العظيمة على حد قول الخليفة « أمير المؤمنين يأمر بكذا » حثاً على الامتثال . والمراد بالكافرين جميع الكافرين وجميع العالم ليكون دخولهم فيه كإثبات الحكم بالدليل . وليلد على أن الله عاداهم لكفرهم ، وأن تلك العداوة كفر . ولتكون الجملة تذييلاً لما قبلها .

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ يَتَّبِعِ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ⁹⁹ أَوْ كَلِمَاتٍ عَلَهُدٍ وَآعْهَدًا تَبَدُّوْ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ¹⁰⁰ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ¹⁰¹﴾

عطف على قوله « قل من كان عدواً لجبريل » عطف القصة على القصة لذكر كفرهم بالقرآن فهو من أحوالهم . وهاته الجملة جواب لقسم محذوف فمطعها على « قل من كان عدواً من عطف الإنشاء على الإنشاء وفيه زيادة لإبطال لقولهم « تؤمن بما أنزل علينا » .

وفي الانتقال إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إقبال عليه وتسليته عما لقي منهم وأن ما أنزل إليه لا يكذب به إلا من لا يؤبه بتكذيبه لكون هذا النزل دلائل واضحة لا تقصر عن إقناعهم بأحقيتها ولكنهم يظهرون أنفسهم أنهم لم يوقنوا بحقيتها .

واللام موطئة لقسم محذوف فهنا جملة قسم وجوابه حذف القسم لدلالة اللام عليه .

وقوله « وما يكفر بها إلا الفاسقون » عطف على « ولقد أنزلنا » فهو جواب للقسم أيضاً .

والفاسق هو الخارج عن شيء من فسقت الثمرة كما تقدم في قوله تعالى « وما يضل به إلا الفاسقين » وقد شاع إطلاقه على الخارج عن طريق الخير لأن ذلك الوصف في الثمرة وصف مذموم وقد شاع في القرآن وصف اليهود به والمعنى ما يكفر بهاته الآيات إلا من كان الفسق شأنه ودأبه لأن ذلك يهيئه للكفر بمثل هذه الآيات فالمراد بالفاسقين المتجاوزون الحد في الكفر المتمردون فيه . والإخبار وقع بالمضارع الدال على التجدد . والتوصيف وقع باسم الفاعل المعروف باللام وقوله « أو كلما عهدوا عهداً نبذه فريق منهم » استفهام مستعمل في التوبيخ معطوف على جملة القسم لا على خصوص الجواب وقدمت الهزمة محافظة على صدارتها كما هو شأنها مع حروف العطف . والقول بأن الهزمة للاستفهام عن مقدر محذوف والواو عاطفة ما بعدها على المحذوف علمتم إبطاله عند قوله تعالى « أفكلما جاءكم رسول . » وتقديم كلما تبع لتقديم حرف الاستفهام وقد تقدم توجيهه عند قوله تعالى « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم » .

والنبذ إلقاء الشيء من اليد وهو هنا استعارة لنقض العهد شبه إبطال العهد وعدم الوفاء به بطرح شيء كان ممسوكاً باليد كما سماوا المحافظة على العهد والوفاء به تمسكاً قال كعب — * ولا تمسك بالوعد الذي وعدت * . والمراد بالعهد عهد التوراة أى ما اشتملت عليه من أخذ العهد على بنى إسرائيل بالعمل بما أمروا به أخذاً مكبراً حتى سميت التوراة بالعهد، وقد تكرر منهم نقض العهد مع أنبيائهم ومن جملة العهد الذى أخذ عليهم ، أن يؤمنوا بالرسول المصدق للتوراة . وأسند النبذ إلى فريق إما باعتبار العصور التى نقضوا فيها العهد كما تؤذن به كلما أو احتراساً من شمول الذم للذين آمنوا منهم . وليس المراد أن ذلك الفريق قليل منهم فنبه على أنه أكثرهم بقوله « بل أكثرهم لا يؤمنون » وهذا من أفانين البلاغة وهو أن يظهر المتكلم أنه يوفى حق خصمه فى الجدال فلا ينسب له المذمة إلا بتدرج وتدبر قبل الإبطال . ولك أن يجعلها للإنتقال من شيء إلى ما هو أقوى منه فى ذلك الغرض لأن النبذ قد يكون بمعنى عدم العمل دون الكفر والأول أظهر .

وقوله « ولما جاءهم رسول » إلخ معطوف على قوله « أو كلما » عطف. القصة على القصة لغرابية هاته الشئون . والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم لقوله « مصدق لما معهم » . والنبذ طرح الشيء من اليد فهو يقتضى سبق الأخذ . وكتاب الله ظاهر فى أنه المراد به القرآن

لأنه الأتم في نسبته إلى الله . فالنبذ على هذا مراد به تركه بعد سماعه فنزل السماع منزلة الأخذ ونزل الكفر به بعد سماعه منزلة النبذ . وقيل المراد بكتاب الله التوراة وأشار في الكشف إلى ترجيحه بالتقديم لأن النبذ يقتضى سابقة أخذ النبوذ وهم لم يتمسكوا بالقرآن، والأصل في إطلاق اللفظ المفرد أنه حقيقة لفظاً ومعنى وقيل المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى وفيه نظر لأن ذلك في إعادة الاسم المعروف باللام . أو تجعل النبذ تمثيلاً لحال قلة اكتراث المعرض بالشئ . فليس مراداً به معناه .

وقوله « وراء ظهورهم » تمثيل للاعراض لأن من أعرض عن شئ تجاوزه خلفه وراء ظهره وإضافة الورا إلى الظهر لتأكيد بُعد التروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك فجعل للظهر وراء وإن كان هو هنا بمعنى الورا . فالإضافة كالبيانىة وبهذا يجاب عما نقله ابن عرفة عن الفقيه أبي العباس أحمد بن عبلون أنه كان يقول مقتضى هذا أنهم طرحوا كتاب الله أمامهم لأن الذى وراء الظهر هو الوجه وكما أن الظهر خلف للوجه كذلك الوجه وراء للظهر قال ابن عرفة وأجيب بأن المراد أى بذكر الظهر تأكيد لمعنى وراء كقولهم من وراء وراء . وقوله « كأنهم لا يعلمون » تسجيل عليهم بأنهم عالمون بأن القرآن كتاب الله أو كأنهم لا يعلمون التوراة وما فيها من البشارة ببعثة الرسول من ولد إسماعيل .

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ ﴾

قوله « واتبعوا » عطف على جملة الشرط وجوابه في قوله « ولما جاءهم رسول من عند الله » الآية بذكر خصلة لهم عجبية وهى أخذهم بالأباطيل بعد ذكر خصلة أخرى وهى نبذهم للكتاب الحق فذلك هو مناسبة عطف هذا الخبر على الذى قبله . فإن كان المراد بكتاب الله في قوله « كتاب الله وراء ظهورهم » القرآن فالمعنى أنهم لما جاءهم رسول الله مصداقاً لما معهم نبذوا كتابه بملء أنهم متمسكون بالتوراة فلا يتبعون ما خالف أحكامها وقد اتبعوا ما تلو الشياطين على ملك سليمان وهو مخالف للتوراة لأنها تنهى عن السحر والشرك فكما قيل لهم فيما مضى « أفتؤمنون بيض الكتاب » يقال لهم أفتؤمنون بالكتاب تارة وتكفرون به تارة أخرى .

وإن كان المراد بكتاب الله التوراة فالمعنى لما جاءهم رسول الله نبذوا ما في التوراة من دلائل صدق هذا الرسول وهم مع ذلك قد نبذوها من قبل حين « اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » مع أن ذلك مخالف لأحكام التوراة . قال القرطبي قال ابن إسحاق لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سليمان في الأنبياء قالت اليهود إن محمداً يزعم أن سليمان نبيء وما هو بنبيء ولكنه ساحر فنزلت هذه الآية

والشياطين « يحتمل أن يكونوا شياطين من الجن وهو الإطلاق المشهور . ويحتمل أن يراد به ناس تمردوا وكفروا وأتوا بالفظائع الخفية فأطلق عليهم الشياطين على وجه التشبيه كما في قوله تعالى « وكذلك جعلنا لكل نبيء عدواً شياطين الإنس والجن » وقرينة ذلك قوله « يعلمون الناس السحر » فإنه ظاهر في أنهم يدرسونه للناس وكذلك قوله بعده « ولكن الشياطين كفروا » إذ هذا الاستدراك في الإخبار يدل على أنهم من الإنس لأن كفر الشياطين من الجن أمر مقرر لا يحتاج للإخبار عنه . وعن ابن إسحاق أيضاً أنه لما مات سليمان عليه السلام عمدت الشياطين فكتبوا أصنافاً من السحر وقالوا من أحب أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا لأصناف من السحر وختموه بخاتم يشبه نقش خاتم سليمان ونسبوه إليه ودفنوه وزعموا أن سليمان دفنه وأنهم يعلمون مدفنه ودلوا الناس على ذلك الموضع فأخرجوه فقالت اليهود ما كان سليمان إلا ساحراً وما تم له الملك إلا بهذا . وقيل كان آصف ابن برخيا^(١) كاتب سليمان يكتب الحكمة بأمر سليمان ويدفن كتبه تحت كرسى سليمان لتجدها الأجيال فلما مات سليمان أغرت الشياطين الناس على إخراج تلك الكتب وزادوا في خلال سطورها سحراً وكفراً ونسبوا الجميع لسليمان فقالت اليهود كفر سليمان .

والمراد من الآية مع سبب نزولها إن نزلت عن سبب أن سليمان عليه السلام لما مات انقسمت مملكة إسرائيل بعده بقبائل إلى مملكتين إحداهما مملكة يهوذا وملكها رحبعام ابن سليمان جعلوه ملكاً بعد أبيه وكانت بنو إسرائيل قد سئمت ملك سليمان لحمله إياهم على

(١) آصف بن برخيا يعده مؤرخو المسلمين وزيرا لسليمان حكيما كبيرا ولذلك ضربوا به الأمثال للسياسيين الناصحين ولكن هذا ليس بمعروف في كتب الإسرائيليين والمعروف عندهم آساف بن برخيا أحد أئمة المغنين عند داود الملك وينسب إليه وضع بعض الترامير والأغاني المقدسة . فلعله قد عاش إلى زمن سليمان فاتخذته وزيراً لأنه من خواص أبيه وإن لم يذكر هذا « لاروس » ولا « البستاني » .

ما يخالف هواهم فجاءت أعيانهم وفي مقدمتهم ربحام بن نباط مولى سليمان ليكملوا ربحام قائلين إن أباك قاس علينا . وأما أنت نخف عنا من عبودية أيك لتطيعك فأجابهم إذ ذهبوا ثم ارجعوا إلى بعد ثلاثة أيام واستشار ربحام أصحاب أبيه ووزراءه فأشاروا عليه بملاينة الأمة لتطيعه . واستشار أصحابه من الفتيان فأشاروا عليه أن يقول للأمة ان خنصري أغلظ من متني أبي فإذا كان أبي قد أدبكم بالسياط فأنا أدبكم بالمقارب فلما رجع إليه شيوخ بني إسرائيل في اليوم الثالث وأجابهم بما أشار به الأحداث خلعت بنو إسرائيل طاعته وملكوا عليهم ربحام ولم يبق على طاعة ربحام الا سبطا يهود وبنيا من واعتصم ربحام بأورشليم وكل أمته لا تريد على مائة وثمانين ألف محارب يعني رجالا قادرين على حمل السلاح وانقسمت المملكة من يؤمذ إلى مملكتين مملكة يهوذا وقاعدتها أورشليم . ومملكة إسرائيل ومقرها السامرة . وذلك سنة ٩٧٥ قبل المسيح كما قدمناه عند الكلام على قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصايين » الآية ولا يخفى ما تكون عليه حالة أمة في هذا الانتقال فإن خصوم ربحام لما سلبوا منه القوة المادية لم يغفلوا عما يعتضد به من القوة الأدبية وهي كونه ابن سليمان بن داود من بيت الملك والنبوة والسمعة الحسنة فلم يأل أعداؤه جهدهم من إسقاط هاته القوة الأدبية وذلك بأن اجتمع مدبرو الأمر على أن يعضوا أكاذيب عن سليمان يثنونها في العامة ليقضوا بها وطرين أحدهما نسبة سليمان إلى السحر والكفر لتنفيص سممة ابنه ربحام كما صنع دعاة الدولة العباسية فيما وضموه من الأخبار عن بني أمية والثاني تشجيع العامة الذين كانوا يستعظمون ملك سليمان وابنه على الخروج عن طاعة ابنه بأن سليمان ماتم له الملك إلا بتلك الأسحار والطلاسم وأنهم لما ظفروا بها فإنهم يستطيعون أن يؤسسوا ملكا يماثل ملك سليمان كما صنع دعاة انقلاب الدول في تاريخ الإسلام من وضع أحاديث انتظار المهدي وكما يفعلونه من بث أخبار عن الصالحين تؤذن بقرب زوال الدولة . ولا يخفى ما تثيره هذه الأوهام في نفوس العامة من الجزم بنجاح السعى وجعلهم في مأمن من خيبة أعمالهم ولحاق التنكيل بهم فإذا قضى الوطر بذلك الخبر التصق أثره في الناس فيبقى ضر ضلاله بعد اجتناء ثماره .

والاتباع في الأصل هو المشي وراء الغير ويكون مجازاً في العمل بقول الغير وبرأيه وفي الاعتقاد باعتقاد الغير تقول اتبع مذهب مالك واتبع عقيدة الأشعرى ، والاتباع هنا مجاز

لا محالة لوقوع مفعوله ممالا يصح اتباعه حقيقة . والتلاوة قراءة المکتوب والكتاب وعرض المحفوظ عن ظهر قلب وفعلها يتعدى بنفسه « يتلون عليكم آياتي » فتعديته بحرف الاستعلاء يدل على تضمنه معنى تكذب أى تتلو تلاوة كذب على ملك سليمان كما يقال تقول على فلان أى قال عليه ما لم يقله ، وإنما فهم ذلك من حرف (على) .

والمراد بالملك هنا مدة الملك أو سبب الملك بقرينة أن التلاوة لا تتعلق بنفس الملك وحذف المضاف مع ما يدل على تعيين الوقت شائع فى كلام العرب كقولهم وقع هذا فى حياة رسول الله أو فى خلافة عمر بن الخطاب وقول حميد ابن ثور :

وما هى إلا فى إزار وعِلقة . مُغَارَ ابن همام على حى خُثَمَا^(١)

يريد أزمان مغار ابن همام . وكذلك حذف المضاف إذا أريد به الحوادث أو الأسباب كما تقول تكلم فلان على خلافة عمر أو هذا كتاب فى ملك العباسيين وذلك أن الاسم إذا اشتهر بصفة أو قصة صح إطلاقه وإرادة تلك الصفة أو القصة بحيث لو ظهرت لكانت مضافة إلى الاسم ، قال النابغة :

* وليل أفاقيه بطيء الكواكب *

أراد متاعب ليل لأن الليل قد اشتهر عند أهل الفراء بأنه وقت الشوق والأرق .
والشياطين قيل أريد بها شياطين الإنس أى المضللون وهو الظاهر . وقيل أريدت شياطين الجن وأل للجنس على الوجهين . وعندى أن المراد بالشياطين أهل الحيل والسحرة كما يقولون فلان من شياطين العرب وقد عد من أولئك ناشب الأعور أحد رجال يوم الوقيط .

وقوله « تتلوا » جاء بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية على ما قاله الجماعة . أو هو مضارع على بابه على ما اخترناه من أن الشياطين هم أحبارهم فإنهم لم يزالوا يتلون ذلك فيكون المعنى أنهم اتبعوا أى اعتقدوا ما تلبته الشياطين ولم تزل تتلوه .

وسليمان هو النبىء سليمان بن داود بن يسى من سبط يهوذا ولد سنة ١٠٣٢ اثنتين وثلاثين وألف قبل المسيح وتوفى فى أورشليم سنة ٩٧٥ خمس وسبعين وتسعمائة قبل المسيح وولى

(١) العِلقة بكسر العين قيس بلا كين وهو أول ثوب يتخذ للصبيان ،

ملك إسرائيل سنة ١٠١٤ أربع عشرة وألف قبل المسيح بعد وفاة أبيه داود النبيء ملك إسرائيل، وعظم ملك بنى إسرائيل فى مدته وهو الذى أمر ببناء مسجد بيت المقدس وكان نبيا حكيما شاعرا وجعل لمملكته أسطولا بحريا عظيما كانت تتمخر سفنه البحار إلى جهات قاصية مثل شرق إفريقيا .

وقوله « وما كفر سليمان » جملة معترضة أثار اعتراضها ما أشعر به قوله « ملأنا الشياطين على ملك سليمان » من معنى أنهم كذبوا على سليمان ونسبوه إلى الكفر فهى معترضة بين جملة واتبعوا وبين قوله « وما أنزل على الملوك » إن كان وما أنزل معطوفا على ما قبلها وبين اتبعوا وبين ولقد علموا لمن اشتراه الخ إن كان وما أنزل معطوفا على السحر ، ولك أن تجعله معطوفا على واتبعوا إذا كان المراد من الشياطين أحبار اليهود لأن هذا الحكم حينئذ من جملة أحوال اليهود لأن مآله واتبعوا وكفروا وما كفر سليمان ولكنه قدم نفي كفر سليمان لأنه الأهم تعجيلا بإثبات نزاهته وعصمته ولأن اعتقاد كفره كان سبب ضلال للذين اتبعوا ما كتبه الشياطين فلا شك أن حكم الأتباع وحكم المتبوعين واحد فكان خبرا عن اليهود كذلك . وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان فى كتبهم فقد جاء فى سفر الملوك الأول أن سليمان فى زمن شيخوخته أمالت نساؤه المصريات والصيدونيات والعمونيات قلبه إلى آلهتهن مثل (عشروت) إله الصيدونيين (ومولوك) إله العمونيين (الفينقيين) وبني لهاته الآلهة هياكل فغضب الله عليه لأن قلبه مال عن إله إسرائيل الذى أوصاه أن لا يتبع آلهة أخرى .

وقوله « يعلمون الناس السحر » حال من ضمير كفروا والمقصد منه تشنيع حال كفرهم إذ كان مصحوبا بتعليم السحر على حد قوله كفر دون كفر فهى حال مؤسفة .
والسحر الشعوذة وهى تمويه الحيل بإخفائها تحت حركات وأحوال يظن الرائي أنها هى المؤثرة مع أن المؤثر خفى قال تعالى « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » ولذلك أطلق السحر على الحديعة تقول سحرت الصبي إذا غلبته بشيء . قال ليلى :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام السحر
ثم أطلق على ما علم ظاهره وخفى سببه وهو التمويه والتلبيس وتخيل غير الواقع واقعا

وترويح الحال تقول العرب عز مسحورة إذا عظم ضرعها وقل لبنها وأرض مسحورة لا تنبت قال أبو عطاء :

فوالله ما أدرى وإنى لصادق أداء عراني من حبابك أم سحر

أى شيء لا يعرف سببه . والعرب تزعم أن الفيلان سحرة الجن لما تشكل به من الأشكال وتعرضها للإنسان . والسحر من المعارف القديمة التي ظهرت في منبع المدينة الأولى أعنى ببلاد المشرق فإنه ظهر في بلاد الكلدان والبابليين وفي مصر في عصر واحد وذلك في القرن الأربعين قبل المسيح مما يدل على أنها كانت في تينك الأمتين من تعاليم قوم نشأوا قبلهما فقد وجدت آثار مصرية سحرية في عصر العائلة الخامسة من الفراعنة والعائلة السادسة (٣٩٥١ - ٣٧٠٣) ق . م .

وللعرب في السحر خيال واسم وهو أنهم يزعمون أن السحر يقلب الأعيان ويقلب القلوب ويطوع المسحور للساحر ولذلك كانوا يقولون إن القول ساحرة الجن ولذلك تشكل للرأى بأشكال مختلفة . وقالت قريش لما رأوا معجزات رسول الله : إنه ساحر ، قال الله تعالى « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » وقال الله تعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » . وفي حديث البخارى عن عمران ابن حصين أن القوم عطشوا في سفر مع رسول الله فطلبوا الماء فوجدوا امرأة على بئر لها مزاداتان من ماء فأتيا بها رسول الله فسقى رسول الله جميع الجيش ثم رد إليها مزادتيها كملتين فقالت لقومها : فوالله إنه لَأَسْحَرُ من بين هذه وهذه ، تعنى السماء والأرض وفي الحديث « إن من البيان لسحراً » . ولم أر ما يدل على أن العرب كانوا يتعاطون السحر فإن السحر مستمد من خصائص الأمور الطبيعية والتركيب ولم يكن للعرب ضلالة في الأمور اليدوية بل كانت ضلالتهم فكرية محضة ، وكان العرب يزعمون أن أعلم الناس بالسحر اليهود والصابئة وهم أهل بابل ، ومساق الآية يدل على شهرة هؤلاء بالسحر عند العرب . وقد اعتقد المسلمون أن اليهود في يثرب سحروهم فلا يولد لهم فلذلك استبشروا لما ولد عبد الله بن الزبير وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة كما في صحيح البخارى . ولذلك لم يكثر ذكر السحر بين

العرب المسلمين إلا بعد أن هاجروا إلى المدينة إذ قد كان فيها اليهود وكانوا يوهمون بأنهم يسحرون الناس . ويدأوى من السحر العراف ودواء السحر السلوة وهي خرزات معروفة تحك في الماء ويشرب ماؤها . وورد في التوراة النهي عن السحر فهو معدود من خصال الشرك وقد وصفت التوراة به أهل الأصنام فقد جاء في سفر التثنية في الإصحاح ١٨ « إذا دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يزوج ابنة أو ابنته في النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جاناً أو تابعة ولا من يستشير الموتى لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب » .

وفي سفر اللاويين الإصحاح ٢٠ « (٦) والنفس التي تلتفت إلى الجان وإلى التوابع لتزني وراءهم أجعل وجهي ضد تلك النفس وأقطعها من شعبها (٢٧) وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يُقتل بالحجارة يرحمونه دمه عليه » .

وكانوا يجعلونه أصلاً دينياً لمخاطبة أرواح الموتى وتسخير الشياطين وشفاء الأمراض وقد استفحل أمره في بلد السكندان وخالطوه بعلوم النجوم وعلم الطب . وأرجع المصريون المعارف السحرية إلى جملة العلوم الرياضية التي أفاضها عليهم « طوط » الذي يزعمون أنه إندريس وهو هرمس عند اليونان . وقد استخدم السكندان والمصريون فيه أسراراً من العلوم الطبيعية والفلسفية والروحية قصداً لإخراج الأشياء في أبهر مظاهرها حتى تكون فاتنة أو خادعة وظاهرة، تكوارق عادات ، إلا أنه شاع عند عامتهم وبعمد ضلالهم عن المقصد العلمي منه فصار عبارة عن التمويه والتضليل وإخراج الباطل في صورة الحق، أو القبيح في صورة حسنة أو المضر في صورة النافع .

وقد صار عند السكندان والمصريين خاصية في يد السكينة وهم يومئذ أهل العلم من القوم الذين يجمعون في ذواتهم الرئاسة الدينية والعلمية فاتخذوا قواعد العلوم الرياضية والفلسفية والأخلاقية لتسخير العامة إليهم وإخضاعهم بما يظهرونه من القدرة على علاج الأمراض والاطلاع على الضمائر بواسطة الفراسة والتأثير بالعين وبالمكائد .

وقد نقلته الأمم عن هاتين الأمتين وأكثر ما نقلوه عن السكندانيين فالتبس منهم السريان (الأشوريون) واليهود والعرب وسائر الأمم المتدينة والفرس واليونان والرومان .

وأصول السحر ثلاثة :

الأول - زجر النفوس بمقدمات توهيمية وإرهابية بما يمتاده الساحر من التأثير النفساني في نفسه ومن الضعف في نفس المسحور ومن سوابق شاهدتها المسحور واعتقدتها فإذا توجه إليه الساحر سُخر له وإلى هذا الأصل الإشارة بقوله تعالى في ذكر سحرة فرعون « سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ » .

الثاني - استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام من الحيوان والعدن وهذا يرجع إلى خصائص طبيعية تخصّصة الزئبق ومن ذلك العقاقير المؤثرة في العقول صلاحا أو فسادا والمفترة للزائيم والمخدرات والمركبات على تفاوت تأثيرها وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى في سحرة فرعون « إِنَّ مَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ » .

الثالث - الشعوذة واستخدام خفايا الحركة والسرعة والتموج حتى يخيل الجماد متحركاً وإليه الإشارة بقوله تعالى « يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَمَّا تَسْمَى » .

هذه أصول السحر بالاستقراء وقد قسمها الفخر في التفسير إلى ثمانية أقسام لا تعدّو هذه الأصول الثلاثة وفي بعضها تداخل . ولعلماء الأفرنج تقسيم آخر ليس فيه كبير جدوى . وهذه الأصول الثلاثة كلها أعمال مباشرة للمسحور ومتصلة به ولها تأثير عليه بمقدار قابلية نفسه الضعيفة وهو لا يتقطن لها ، ومجموعها هو الذي أشارت إليه الآية ، وهو الذي لا خلاف في إثباته على الجملة دون تفصيل ، وما عداها من الأوهام والزعام هو شيء لا أثر له وذلك كل عمل لا مباشرة له بذات من يراد سحره ويكون غائباً عنه فيدعى أنه يؤثر فيه ، وهذا مثل رسم أشكال يمر عنها بالطلاسم ، أو عقد خيوط والنقث عليها بقرينات معينة تتضمن الاستنجاد بالكواكب أو بأسماء الشياطين والجن وآلهة الأقدمين ، وكذا كتابة اسم المسحور في أشكال . أو وضع صورته أو بعض ثيابه وعلاقته وتوجيه كلام إليها بزعم أنه يؤثر ذلك في حقيقة ذات المسحور ، أو يستعملون إشارات خاصة نحو جهته أو نحو بلده وهو ما يسمونه بالأرصاد وذكر أبو بكر ابن العربي في القبس أن قريشا لما أشار النبي صلى الله عليه وسلم بأصبعه في التشهد قالوا هذا محمد يسحر الناس ، أو جمع أجزاء معينة وضم بعضها إلى بعض مع نية أن ذلك الرسم أو الجمع لتأثير شخص معين بضر أو خير أو محبة أو بغضة

أو مرض أو سلامة، ولا سيما إذا قرن باسم المسحور وصورته أو بطالع ميلاده ، فذلك كله من التوهّمات وليس على تأثيرها دليل من العقل ولا من الطبع ولا ما يثبت من الشرع ، وقد انحصرت أدلة إثبات الحقائق في هذه الأدلة ، ومن العجائب أن الفخر في التفسير حاول إثباته بما ليس بمقنع .

وقد تمسك جماعة لإثبات تأثير هذا النوع من السحر بما روى في الصحيحين - عن قول عائشة أن لبید بن الأعصم سحر النبي صلى الله عليه وسلم - ورؤيا النبي صلى الله عليه وسلم أن ملكين أخبراه بذلك السحر ، وفي النسائي عن زيد بن أرقم مثله مختصراً ، وينبغي التثبت في عباراته ثم في تأويله ، ولا شك أن لبیدا حاول أن يسحر النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان اليهود سحرة في المدينة وأن الله أطلع رسوله على ما فعله لبید لتكون معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم في إبطال سحر لبید وليعلم اليهود أنه نبي لا تلحقه أضرارهم وكألم يؤثر سحر السحرة على موسى كذلك لم يؤثر سحر لبید على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما عرض للنبي صلى الله عليه وسلم - عارض جسدي شفاء الله منه فصادف أن كان مقارناً لما عمله لبید بن الأعصم من محاولة سحره وكانت رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم - إنباء من الله له بما صنع لبید، والعبارة عن صورة تلك الرؤيا كانت جملة فإن الرأي رموز ولم يرد في الخبر تعبير ما اشتملت عليه فلا تكون أصلاً لتفصيل القصة .

ثم إن لتأثيراته الأسباب أو الأصول الثلاثة شروطاً وأحوالاً بعضها في ذات الساحر وبعضها في ذات المسحور ، فيلزم في الساحر أن يكون مفرط الذكاء منقطعاً لتجديد المحاولات السحرية جسوراً قوى الإرادة كتوماً للسر قليل الاضطراب للحوادث سالم البنية مرتاض الفكر خفي السكيد والحيلة ، ولذلك كان غالب السحرة رجالاً ولكن كان الحبشة يجعلون السواحر نساء وكذلك كان الغالب في الفرس والعرب قال تعالى « ومن شر النفائث في العقد » فجاء بجمع الإناث وكانت الجاهلية تقول إن الفيلان عجائز من الجن ساحرات فلذلك تستطيع التشكل بأشكال مختلفة ، وكان معلمو السحر يتمتحنون صلاحية تلامذتهم لهذا العلم بتعريضهم للمخاوف وأمرهم بارتكاب المشاق تجربة لمقدار عزائمهم وطاقاتهم .

وأما ما يلزم في المسحور فخور العقل ، وضعف العزيمة ، ولطافة البنية ، وجهالة العقل ،

ولذلك كان أكثر الناس قابلية له النساء والصبيان والعامة ومن يتعجب في كل شيء . ولذلك كان من أصول السحر إلقاء أقوال كاذبة على المسحور لاختبار مقدار عقله في التصديق بالأشياء الواهية والثقة بالساحر ، قال تعالى «ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» فحملوا ذلك القول الغريب سحراً .
ثم تحف بالسحر أعمال القصد منها التمويه وهذه الأعمال أنواع .

نوع الغرض منه تقوية اعتقاد الساحر في نجاح عمله لتقوى عزيمته فيشتد تأثيره على النفوس وهذا مثل تلقين معلمى هذا الفن تلامذتهم عبادة كواكب ومناجاتها لاستخدام أرواحها والاستنجاد بتلك الأرواح على استخدام الجن والقوى المتعاضية ليعتقد المتعلم أن ذلك سبب نجاح عمله فيقدم عليه بعزم، وفي ذلك تأثير نفساني عجيب ولذلك يسمون تلك الأقوال والمناجاة عزائم جمع عزيمة ويقولون فلان يعزم إذا كان يسحر ، ثم هو إذا استكمل المعرفة قد يتفطن لقلة جدوى تلك العزائم وقد لا يتفطن وعلى كلتا الحالتين فعملوه لا يتعرضون له في نهاية التعليم بالتنبيه على فساد ذلك لئلا يدخلوا عليه الشكوك في مقدرته ، فلذلك بقيت تلك الأوهام يتلقاها الأخلاف عن أسلافهم ، ومن هذا النوع ضروب هي في الأصل تجارب لمقدار طاعة المتعلم لمعلمه بقيت متلقاة عندهم عن غير بصيرة مثل ارتكاب الخبائث وإهانة الصالحات والأمور المقدسة إيهاماً بأنها تبليغ إلى مرضاة الشياطين وتسخيرها ، وذلك في الواقع اختبار لمقدار خضوع المتعلم ، لأن أكبر شيء على النفس نبذ أغر الأشياء وهو الدين ، ولأن السحرة ليسوا من الملمين فهم يبلغون بمريديهم إلى مبالفهم السافلة ، وقد سمعنا أن كثيراً ممن يتعاطون السحر في المسلمين يزعمون أنهم لا يتأتى لهم نجاح إلا بعد أن ياطخوا أيديهم بالنجاسات أو نجو من هذا الضلال .

ونوع الغرض منه إخفاء الأسباب الحقيقية لتمويهاتهم حتى لا يطلع الناس على كنهها ، فيستندون في تعليل أعمالهم إلى أسباب كاذبة كندائهم بأسماء سموها لا مسميات لها ووضعهم أشكالا على الورق أو في الجدران يزعمون أن لها خصائص التأثير، واستنادهم لطوالع كواكب في أوقات معينة لاسيما القمر ، ومن هذا تظاهروا للناس بمظهر الزهد والهمة .

ونوع يستعان به على نفوذ السحر وهو التجسس والتطلع على خفايا الأشياء وأسرار الناس بواسطة السعي بالنيمة وإلقاء المداوات بين الأقارب والأصحاب والأزواج

حتى يُفشي كل منهم سر الآخر فيتخذ الساحر تلك الأسرار وسيلة يُلقي بها الرعب في قلوب أصحابها بإظهار أنه يعلم الغيب والضمائر ، ثم هو يأمر أولئك الذين أُرهبهم ويستخدمهم بما يشاء فيطيعونه فيأمر المرأة بمغاضبة زوجها وطلب فراقه ويأمر الزوج بطلاق زوجته وهكذا ، وفي هذا القسم تظهر مقدرة الساحر الفكرية وبه تكثر أضراره وأخطاره على الناس وجراته على ارتكاب الرعبات والمطوعات باستئصال الأموال بالسرقة يسرقها من لا يتهمه المروق ، ومنه أنه يفعل ذلك من خاصته وأبنائه وزوجه الذين يستهويهم السحرة ويسخرونهم للإخلاص لهم ، وينتهي فعل السحرة في هذا إلى حد إزهاق النفوس التي يشعرون بأنها تفتنت لخديعتهم أو التي تعاصت عن امتثال أوامرهم يُغرون بها من هي آمن الناس منه ، ثم استطلاع ضمائر الناس بتقاريرات خفية وأسئلة تدريجية يوجه بها أنه يسأله عنها ليعلمه بمستقبله .

ونوع يُجمل لاختبار المقدار مراتب أذهان الناس في قابلية سحره وذلك بوضع أشياء في الأطعمة غيفة الظهور ليرى هل يتفطن لها من وضعها ، وإبراز خيالات أو أشباح يوهم بها الناظر أنها جن أو شياطين أو أرواح ، وما هي إلا أشكال مموهة أو أعوان من أعوانه متنكرة ، لينظر هل يقتنع رأيها بما أخبره الساحر عنها أم يتطلب كشف حقيقتها أو استقصاء أثرها .

فكان السحر قرين خباثة نفس ، وفساد دين ، وشر عمل ، وإرهاب وتهويل على الناس ، من أجل ذلك ما فتئت الأديان الحقة تحذر الناس منه وتمد الاشتغال به مروفا عن طاعة الله تعالى لأنه مبني على اعتقاد تأثير الآلهة والجن للنسوين إلى الآلهة في عقائد الأقدمين ، وقد حذر موسى قومه من السحر وأهله في سفر التثنية الإصحاح ١٨ أن مما خاطب به موسى عليه السلام قومه « متى دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يجيز^(١) ابنه أو ابنته في النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانا أو تابعة ولا من يستثير الموتى » . وجعلت التوراة جزاء السحرة القتل في سفر اللاويين الإصحاحين ٢٠ - ٢٧ « وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل » .

(١) كذا ولعل المراد من يزوج أو يجوز به .

وذكروا عن مالك أنه قال الأسماء التي يكتبها السحرة في التائم أسماء أصنام .

وقد حذر الإسلام من عمل السحر وذمه في مواضع وليس ذلك بمقتضى إثبات حقيقة ^{بمقتضى} وجودية للسحر على الإطلاق ولكنه تحذير من فساد العقائد وخلع قيود الديانة ومن سخياف الأخلاق . وقد اختلف علماء الإسلام في إثبات حقيقة السحر وإنكارها وهو اختلاف في الأحوال فيما أراه فكل فريق نظر إلى صنف من أصناف ما يُدعى بالسحر . ^{المعلم} وحكى عياض في إكمال العلم أن جمهور أهل السنة ذهبوا إلى إثبات حقيقة . قلت وليس في كلامهم وصف كيفية السحر الذي أثبتوا حقيقة فإنما أثبتوه على الجملة . وذهب عامة المعتزلة إلى أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وتخيل وأنه ضرب من الخفة والشموذة ووافقهم على ذلك بعض أهل السنة كما اقتضته حكاية عياض في الإكمال ، قلت وعمن سُمي منهم أبو إسحاق الاسترابادي من الشافعية . والسائلة بحذافرها من مسائل الفروع الفقهية تدخل في عقاب المرتدين والقاتلين والتحليلين على الأموال ، ولا تدخل في أصول الدين . وهو وإن أنكره الملاحدة لا يقتضى أن يكون إنكاره إلحادا . وهذه الآية غير صريحة . وأما الحديث فقد علمته آتفا . وشدد الفقهاء العقوبة في تماطيه . قال مالك : يقتل الساحر ولا يستتاب إن كان مسلما وإن كان ذميا لا يقتل بل يؤدب إلا إذا أدخل بسحره أضرا را على مسلم فإنه يقتل لأنه يكون ناقضا للعهد لأن من جملة العهد أن لا يتعرضوا للمسلمين بالأذى قال الباجي في المنتقى رأى مالك أن السحر كفر وشرك ودليل عليه وإنه لما كان يستتر صاحبه بفعله فهو كالزندقة لأجل إظهار الإسلام وإبطان الكفر ولذلك قال ابن عبد الحكم وابن المواز وأصبغ هو كالزنديق إن أسر السحر لا يستتاب وإن أظهره استتيب وهو تفسير لقول مالك لا خلاف له قال الباجي فلا يقتل حتى يثبت أن ما يفعله من السحر هو الذي وصفه الله بأنه كفر قال أصبغ يكشف ذلك من يعرف حقيقة ويثبت ذلك عند الإمام . وفي الكافي لابن عبد البر إذا عمل السحر لأجل القتل وقتل به قُتل وإن لم يكن كفرا ، وقد أدخل مالك في الموطأ السحر في باب الغيلة ، فقال ابن العربي في القبس وجه ذلك أن المسحور لا يعلم بعمل السحر حتى يقع فيه ، قلت لا شك أن السحر الذي جُعل جزاؤه القتل هو ما كان كفرا صريحا مع الاستتار به أو حصل به إهلاك النفوس وذلك أن الساحر كان يعد من يأتيه للسحر بأن فلانا يموت الليلة أو غدا أو يصيبه جنون ثم يتحیل في إيصال

سموم خفية من العقاقير إلى المسحور تُلقى له في الطعام بواسطة أناس من أهل المسحور فيصبح المسحور ميتاً أو مختل العقل فهذا هو مراد مالك بأن جزاءه القتل أى إن قتل ولذلك قال لا تقبل توبته وبدون هذا التأويل لا يصح فقه هذه المسألة ، فقول مالك في السحر ليس استناداً لدليل معين في خصوص السحر ولكنه من باب تحقيق المناط بتطبيق قواعد التعزير والإضرار ، ولبعض فقهاء المذهب في حكاية هذه المسألة إطلاقات عجيب صدورها من أمثالهم ، على أن السحر أكثر ما يتطلب لأجل تسخير المحبين محبوبهم فهو وسيلة في الغالب للزنا أو للانتقام من المحبوب أو الزوج . سئل مالك عن يعقود الرجال عن النساء وعن الجارية تطعم رجلاً شيئاً فيذهب عقله فقال لا يقتلان فأما الذى يعقود فيؤدب وأما الجارية فقد أتت أمراً عظيماً قيل أفتقتل فقال لا قال ابن رشد في البيان رأى أن فعلها ليس من السحر اهـ .

وقال أبو حنيفة يقتل الرجل الساحر ولا يستتاب وأما المرأة فتحبس حتى تتركه فجعل حكمه حكم المرتد ووجه أبو يوسف بأنه جمع مع كفره السعى في الأرض بالفساد . وعن الشيخ أبى منصور أن القول بأن السحر كفر على الإطلاق خطأ بل يجب البحث عن حقيقته فإن كان في ذلك رد ما لزم من شرط الإيمان فهو كفر وإلا فلا ، وما ليس بكفر وفيه إهلاك النفس ففيه حكم قطاع الطريق ويستوى فيه الذكور والإناث وتقبل توبته إذا تاب ومن قال لا تقبل فقد خلط فإن سحره فرعون قبلت توبتهم اهـ . وهذا استدلال بشرع من قبلنا .

وقال الشافعى يُسأل الساحر عن سحره فإن ظهر منه ما هو كفر فهو كالمرتد يستتاب فإن أصر قتل وإن ظهر منه تجويز تغيير الأشكال لأسباب قراءة تلك الأساطير أو تدخين الأدوية وعلم أنه يفعل محرماً فحكمه حكم الجنابة فإن اعترف بسحره إنسان وأن سحره يقتل غالباً قتل قوداً (يعنى إذا ثبت أنه مات بسببه) وإن قال إن سحرى قد يقتل وقد لا يقتل فهو شبه عمد ، وإن كان سحره لغير القتل فمات منه فهو قتل خطأ تجب الدية فيه مخففة في ماله .

ويجب أن يستخلص من اختلافهم ومن متفرق أقوالهم ما يكون فيه بصيرة لإجراء أعمال ما يسمى بالسحر وصاحبُه بالساحر مُجْرَى جنایات أمثاله ومقدار ما أثره من

الاعتداء دون مبالغة ولا أوهام ، وقد يطلق اسم الساحر اليوم على اللاعب بالشعوذة في الأسفار وذلك من أصناف اللاهو فلا ينبغي عد ذلك جناية .

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

يتعين أن ما موصولة وهو معطوف على قوله « مُلْكُ سُلَيْمَانَ » أى وما تتلوا الشياطين على ما أنزل على الملكين ، والمراد بما أنزل ضرب من السحر لكنه سحر يشتمل على كفر عظيم وتعليم الخضوع لغير الله مع الاستخفاف بالدين ومع الإضرار بالناس كما بيناه آنفا فيكون عطفا على « ما تتلوا » الذى هو صادق على السحر فمطف ما أنزل عليه لأنه نوع منه أشد مما تتلوه الشياطين الذين كانوا يعلمونه الناس مع السحر الموضوع منهم ، فالعطف لتغاير الاعتبار أو للتنبيه على أن أصل السحر مقتبس مما ظهر ببابل في زمن هذين المعلمين وعطف شيء على نفسه باعتبار تغاير الفهوم والاعتبار وارد في كلامهم كقول الشاعر (وهو من شواهد النحو) :

إلى الملك القرم وابن الهما م وليث الكتيبة فى المزدحم

وقيل أريد من السحر أخف مما وضعته الشياطين على عهد سليمان لأن غاية ما وصف به هذا الذى ظهر ببابل فى زمن هذين المعلمين أنه يُفرق بين المرء وزوجه وذلك ليس بكفر وفيه ضعف .

والقراءة المتواترة الملكين بفتح لام الملكين وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن وابن أبى رزى بكسر اللام .

وكل هاته الوجوه تقتضى ثبوت نزول شيء على الملكين ببابل وذلك هو الذى يعنيه سياق الآية إذا فصلت كيفية تعليم هذين المعلمين علم السحر .

فالوجه أن قوله « وما أنزل » عطف على « مُلْكُ سُلَيْمَانَ » فهو معمول لتتلوا الذى هو بمعنى تكذب فيكون المراد عدم صحة هذا الخبر أى ما تكذبه الشياطين على ما أنزل على الملكين ببابل ، أى ينسبون بعض السحر إلى ما أنزل ببابل . قال الفخر وهو اختيار أبى

مسلم وأنكر أبو مسلم أن يكون السحر نازلاً على الملّكين إذ لا يجوز أمر الله به وكيف يتولى الملائكة تعليمه مع أنه كفر أوفسق ، وقيل ما نافية معطوفة على ما كفر سليمان أي وما كفر سليمان بوضع السحر كما يزعم الذين وضعوه ، ولا أنزل السحر على الملّكين ببابل . وتعريف الملّكين تعريف الجنس أو هو تعريف العهد بأن يكون الملّكان معهودين لدى العارفين بقصة ظهور السحر ، وقد قيل إن هاروت وماروت بدل من الشياطين وأن المراد بالشياطين شيطانان وضعا السحر للناس هما هاروت وماروت على أنه من إطلاق الجمع على الثني كقوله « قلوبكما » وهذا تأويل خطأ إذ يصير قوله « على الملّكين » كلاماً حشوياً . وعلى ظاهر هذه الآية إشكال من أربعة وجوه : أحدها كون السحر مُنزلاً إن حمل الإنزال على المعروف منه وهو الإنزال من الله ، الثاني كون المباشر لذلك ملّكين من الملائكة على القراءة المتواترة ، الثالث كيف يجتمع الملّكان بين قولهما نحن فتنة وقولهما فلا تكفر فكيف يجتمع قصد الفتنة مع التحذير من الوقوع فيها . الرابع كيف حصرا حالهما في الاتصاف بأنهما فتنة فها هي الحكمة في تصديهما لذلك لأنهما إن كانا ملّكين فالإشكال ظاهر وإن كانا ملّكين بكسر اللام فهما قد علما مضرة الكفر بدليل نهيهما عنه وعلما معنى الفتنة بدليل قولهما إنما نحن فتنة فلماذا تورطاً في هذه الحالة .

ودفع هذا الإشكال برمته أن الإنزال هو الإيصال وهو إذا تعدى بعلى حل على إيصال من علو واشتهر ذلك في إيصال العلم من وحى أو إلهام أو نحوها ، فالإنزال هنا بمعنى الإلهام وبمعنى الإيداع في العقل أو في الخلقة بأن يكون الملّكان قد برعا في هذا السحر وابتكرا منه أساليب لم يسبق لهما تلقيها من معلم شأن العلامة المتصرف في علمه المبتكر لوجوه المسائل وعللها وتصاريقها وفروعها ، والظاهر عندي أن ليس المراد بالإنزال إنزال السحر إذ السحر أمر موجود من قبل ولكنه إنزال الأمر للملّكين أو إنزال الوحي أو الإلهام للملّكين بأن يتصدىبا لبث خفايا السحريين المتعلمين ليمطل انفراد شرمذة بعلمه فيندفع الوجهان الأول والثاني . ثم إن الحكمة من تعميم تعليمه أن السحرة في بابل كانوا اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم في أبدانهم وعقولهم وأمواهم ثم تطلعوها منه إلى تأسيس عبادة الأصنام والكواكب وزعموا أنهم أي السحرة - مترجمون عنهم وناطقون بإرادة الآلهة فحدث فساد عظيم وعمت الضلالة فأراد الله على معتاد حكمته إتقاذ الخلق من ذلك فأرسل

أو أوحى أو ألهم هاروت وماروت أن يكشفوا دقائق هذا الفن للناس حتى يشترك الناس كلهم في ذلك فيعلموا أن السحرة ليسوا على ذلك ويرجع الناس إلى صلاح الحال فاندفع الوجه الثالث . وأما الوجه الرابع فستعرف دفعه عند تفسير قوله « وما يعلمان من أحد » الآية .

وفي قراءة ابن عباس والحسن المكيين بكسر اللام وهي قراءة صحيحة المعنى فعنى ذلك أن ملكين كانا يملكان بابل قد علما علم السحر . وعلى قراءة فتح اللام فالأظهر في تأويله أنه استعارة وأنهما رجلان صالحان كان حكما مدينة بابل وكانا قد اطلعا على أسرار السحر التي كانت تأتينا السحرة بابل أو هما وضعا أصله ولم يكن فيه كفر فأدخل عليه الناس الكفر بعد ذلك . وقيل هما ملكان أنزلهما الله تعالى تشكلا للناس يعلمانهم السحر لكشف أسرار السحرة لأن السحرة كانوا يزعمون أنهم آلهة أو رسل فكانوا يسخرون العامة لهم فأراد الله تكذيبهم ذبا عن مقام النبوة فأنزل ملكين لذلك . وقد أجيبت بأن تعلم السحر في زمن هاروت وماروت جائز على جهة الابتلاء من الله لخلقهم فالطائع لا يتعلمه والمعاصي يبادر إليه وهو فاسد لمنافاته عموم قوله « يعلمون الناس » قالوا كما امتحن الله قوم طالوت بالنهر إلخ ولا يخفى فساد التنظير .

وبابل بلد قديم من مدن العالم وأصل الاسم باللغة الكلدانية باب إيلو أى باب الله ويرادفه بالعبرانية باب إيل وهو بلد كائن على ضفتي الفرات بحيث يخترقه الفرات يقرب موضعه من موقع بلد الحلة الآن على بعد أميال من ملتقى الفرات والدجلة . كانت من أعظم مدن العالم القديم بناها أولا أبناء نوح بعد الطوفان فيما يقال ثم توالى عليها اعتناء أصحاب الحضارة بمواطن العراق في زمن الملك النمرود في الجيل الثالث من أبناء نوح ولكن ابتداء عظمة بابل كان في حدود سنة ٣٧٥٥ ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وخمسين قبل المسيح فكانت إحدى عواصم أربعة لملكة الكلدانيين وهي أعظمها وأشهرها ولم تزل هم ملوك الدولتين السكلمانية والأشورية منصرفة إلى تعمير هذا البلد وتنميته فكان بلد المعجائب من الأبنية والبساتين ومنبع المعارف الأسىوية والمعجائب السحرية وقد نسبوا إليها قديما الحجر المعتقة والسحر قال أبو الطيب :

سقى الله أيام الصِّبا ما يسرها ويفعل فعل البابلي المَعْتَق^(١)

ولاشتهار بابل عند الأمم القديمة بمعارف السحر كما قدمنا في تعريف السحر صرح جعل صلة الموصول قوله « أنزل على الملكين ببابل » إشارة إلى قصة يعلمونها .

وهاروت وماروت بدل من الملكين وهما اسمان كلدانيان دخلهما تغيير التعريف لإجرائهما على خفة الأوزان العربية، والظاهر أن هاروت معرب (هاروكا) وهو اسم القمر عند الكلدانيين وأن ماروت معرب (ما روداخ) وهو اسم المشتري عندهم وكانوا يعدون الكواكب السيارة من المعبودات المقدسة التي هي دون الآلهة لا سيما القمر فإنه أشد الكواكب تأثيراً عندهم في هذا العالم وهو رمز الأثني ، وكذلك المشتري فهو أشرف الكواكب السبعة عندهم ولعله كان رمز الذكرك عندهم كما كان بعل عند الكنعانيين الفينيقيين . ومن المعلوم أن إسناد هذا التقديس للكواكب ناشئ عن اعتقادهم أنهم كانوا من الصالحين المقدسين وأنهم بعد موتهم رفعوا للسماء في صورة الكواكب فيكون (هاروكا) و (ماروداخ) قد كانا من قدماء علمائهم وصالحهم والحاكمين في البلاد وهما اللذان وضعا السحر ولعل هذا وجه التعبير عنهما في القصة بالملكين بفتح اللام ولأهل القصص هنا قصة خرافية من موضوعات اليهود في خرافاتهم الحديثة اعتاد بعض المفسرين ذكرها منهم ابن عطية والبيضاوي وأشار المحققون مثل البيضاوي والفخر وابن كثير والقرطبي وابن عرفة إلى كذبها وأنهما من مرويات كتب الأخبار وقد وهم فيها بعض المتساهلين في الحديث فنسبوا روايتها عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن بعض الصحابة بأسانيد واهية والمجب للإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى كيف أخرجها مسندة للنبي صلى الله عليه وسلم ولعلها مدسوسة على الإمام أحمد أو أنه غره فيها ظاهر حال روايتها مع أن فيهم موسى بن جبير وهو متكلم فيه واعتذر عبد الحكيم بأن الرواية صحيحة إلا أن المروي راجع إلى أخبار اليربوع وهو باطل

(١) الذي ذكره الواحدى والمعري في تفسير البيت أنه أراد بالبابلي الخمر وكنت رأيت في بعض كتب الأدب أن بعض من ناظر المتن انتقد هذا الإطباب مع أنه كان يستطيع أن يقول سقاها خمر لا سيما وقد قال ما يسرها، قلت وقرينة كونه المراد وصفه بالمعتق وهو من أوصاف الخمر، والعذر لامتنى أنه أراد سقاها الله خمر بابل فلا خير في ذلك .

في نفسه ورواته صادقون فيما رووا وهذا عذر قبيح لأن الرواية أسندت إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عرفة في تفسيره وقد كان الشيوخ يخطئون ابن عطية في هذا الموضع لأجل ذكره القصة ونقل بعضهم عن القرافي أن مالكا رحمه الله أنكر ذلك في حق هاروت وماروت. وقوله «وما يعلمان من أحد» جملة حالية من هاروت وماروت وما نافية والتعبير بالمضارع لحكاية الحال إشارة إلى أن قولها لتعلمي السحر «إنما نحن فتنة» قول مقارن لوقت التعليم لمتأخر عنه. وقد علم من هذا أنهما كانا معلمين وطوى ذلك للاستغناء عنه بمضمون هاتيه الجملة فهو من إيجاز الحذف أو هو من لحن الخطاب مفهوم للغاية.

وقوله «إنما نحن فتنة» الفتنة لفظ يجمع معنى مرج واضطراب أحوال أحد وتشنت باله بالخوف والخطر على الأنفس والأموال على غير عدل ولا نظام وقد تخصص وتعمم بحسب ما تضاف إليه أو بحسب المقام يقال فتنة المال وفتنة الدين.

ولما كانت هذه الحالة يختلف ثبات الناس فيها بحسب اختلاف رجاحة عقولهم وصبرهم ومقدرتهم على حسن الخارج منها كان من لوازمها الابتلاء والاختيار فكان ذلك من المعاني التي يكمن بالفتنة عنها كثيرا ولذلك تسامح بعض علماء اللغة ففسر الفتنة بالابتلاء وجراه على ذلك قول الناس فتنت الذهب أو الفضة إذا أذا بهما بالنار لتمييز الردي من الجيد وهذا الإطلاق إن لم يكن مولدا فإن معنى الاختبار غير منظور إليه في لفظ الفتنة وإنما المنظور إليه ما في الإذابة من الاضطراب والمرج وقد سمي القرآن هاروت وماروت فتنة وقال «إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات» وقال «لا يفتنكم الشيطان». والإخبار عن أنفسهم بأنهم فتنة إخبار بالمصدر للمبالغة وقد أكدت المبالغة بالحصر الإضافي والمقصد من ذلك أنهما كانا يصرحان أن ليس في علمهما شيء من الخير الإلهي وأنه فتنة محضة ابتلاء من الله لعباده في مقدار تمسكهم بدينهم وإنما كانا فتنة لأن كل من تعلم منهما عمل به «فلا تكفر» كما كفر السحرة حين نسبوا التأثيرات للآلهة وقد علمت سرها. وفي هذا ما يضعف أن يكون المقصد من تعليمهما الناس السحر إظهار كذب السحرة الذين نسبوا أنفسهم للألوهية أو النبوة.

والذي يظهر في تفسير هذه الجملة أن قولها «إنما نحن فتنة» قصر ادعائى للمبالغة جملا كثرة افتتان الناس بالسحر الذي تصديا لتعليمه بمنزلة انحصار أو صافهما في الفتنة ووجه

ابتدائهما لمن يعلمانه بهذه الجملة أن يبيننا له أن هذا العلم في مبادئه يظهر كأنه فتنة وشرب فيوشك أن يكفر متعلمه عند مفاجأة تلك التعاليم إياه إذا كانت نفسه قد توطنت على اعتقاد أن ظهور خوارق العادات علامة على ألوهية من يظهرها، وقولها « فلا تكفر » أى لا تعجل باعتقاد ذلك فينا فإنك إذا توغلت في معارف السحر علمت أنها معلولة لعلل من خصائص النفوس أو خصائص الأشياء فالفتنة تحصل لمن يتعلم السحر حين يرى ظواهره وعجائبه على أيدى السحرة ولن كان في مبدأ التعليم فإذا تحقق في علمه اندفعت الفتنة فذلك معنى قولها « فلا تكفر » فالكفر هو الفتنة وقولها فلا تكفر بمنزلة فلا تفتن وقد اندفع الإشكال الرابع المتقدم.

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

تفريع عما دل عليه قوله « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا » المقتضى أن التعليم حاصل فيتعلمون، والضمير في « فيتعلمون » راجع لأحد الواقع في حيز النفي مدخولا لمن الاستغرافية في قوله تعالى « وما يعلمان من أحد » فإنه بمعنى كل أحد فصار مدلوله جمعا .

قوله « ما يفرقون به بين المرء وزوجه » إشارة إلى جزئى من جزئيات السحر وهو أقصى تأثيراته إذ فيه التفرقة بين طرفى آصرة متينة إذ هى آصرة مودة ورحمة قال تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فإن المودة وحدها آصرة عظيمة وهى آصرة الصداقة والأخوة وتقاريمهما : والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة ، فما ظنكم بآصرة جمعت الأمرين وكانت بجعل الله تعالى وما هو بجعل الله فهو فى أقصى درجات الإتيان وقد كان يشير إلى هذا المعنى شيخنا الجليل سالم أبو حاجب فى قوله تعالى « وجعل بينكم مودة ورحمة » . وهذا التفريق يكون إما باستعمال مفسدات لعقل أحد الزوجين حتى يبغض زوجه وإما بإلقاء الحيل والتوبيهات والتميمة حتى يفرق بينهما .

وقوله « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » جملة معترضة . وضمير « هم » عائد إلى أحد من قوله « وما يعلمان من أحد » لوقوعه فى سياق النفي فيعم كل أحد من المتعلمين أى وما المتعلمون بضارين بالسحر أحداً . وهذا تنبيه على أن السحر لا تأثير له بذاته وإنما يختلف

تأثير حيله باختلاف قابلية المسحور، وتلك القابلية متفاوتة ولها أحوال كثيرة أجملتها الآية بالاستثناء من قوله «إلا بإذن الله» أى يجعل الله أسباب القابلية لأثر السحر في بعض النفوس فهذا إجمال حسن مناسب لحال المسلمين الموجه إليهم الكلام لأنهم تخلقوا بتعظيم الله تعالى وقدرته وليس المقام مقام تفصيل الأسباب والمؤثرات ولكن المقصود إبطال أن تكون للسحر حالة ذاتية وقواعد غير مموهة فالبراء في قوله « بإذن الله » للملابسة .

وأصل الإذن في اللغة هو إباحة الفعل، واستأذن طلب الإذن في الفعل أو في الدخول للبيت وقد استعمله القرآن مجازاً في معنى التمكين إما بخلق أسباب الفعل الخارقة للعادة نحو قوله « وتبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله » وإما باستمرار الأسباب المودعة في الأشياء والقوى كقوله تعالى « وما أصابكم يوم التقى الجمعان بإذن الله » فقوله وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله أى إلا بما أعد الله في قابل السحر من استعداد لأن يضر به فإن هذا الاستعداد وإمكان التأثير مخلوق في صاحبه فهو بإذن الله ومشيبته كذا قرره الراغب وهو يرجع إلى استعمال مما تستعمل فيه كلمة إذن (ومن هذا القبيل ونظيره لفظة الأمر في قوله تعالى « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » أى مما خلق الله من الأشياء التي تلحق أضرارها للناس وقد اشتهر هذا الاستعمال في لسان الشرع حتى صار حقيقة عرفية في معنى المشيئة والإرادة فينبغي أن يلحق بالألفاظ التي فرق المتكلمون بين مدلولاتها وهي الرضا والمحبة والأمر والمشية والإرادة) . فليس المعنى أن السحر قد يضر وقد لا يضر بل المعنى أنه لا يضر منه إلا ما كان إيصال أشياء ضار بطبعها وقوله « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » يعنى ما يضر الناس ضرراً آخر غير التفرقة بين المراء وزوجه فضمير يضرهم عائد على غير ما عاد عليه ضمير يتعلمون والمعنى أن أمور السحر لا يأتى منها إلا الضرر أى في الدنيا فالساحر لا يستطيع سحر أحد ليصير ذكياً بعد أن كان بليداً أو ليصير غنياً بعد الفقر وهذا زيادة تنبيه على سخافة عقول المشتغلين به وهو مقصد الآية وبهذا التفسير يكون عطف قوله « ولا ينفعهم » تأسيساً لا تأكيداً والملاحظ في هذا الضر والنفع هو ما يحصل في الدنيا وأما حلهم في الآخرة فسيبيده قوله « ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » وقد أفادت الآية بجمعها بين إثبات الضر ونفي النفع الذي هو ضده مفاد الحصر كأنه قيل ويتعلمون ما ليس إلا ضراً كقول السموءل وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي :

تسيل على حد الظُّبَاتِ نفوسنا وليس على غير الظُّبَاتِ تسيل
وعدل عن صيغة القصر لتلك النكتة المتقدمة وهي التنبيه على أنه ضرر . وإعادة فعل
يتعلمون مع حرف العطف لأجل ما وقع من الفصل بالجملة المترضة .
﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا
بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾¹⁰²

عطف على قوله «واتبعوا ما اتلوا الشياطين» أى اتبعوا ذلك كله وهم قد علموا إلخ والضمير
للإهود تبعاً لضمير واتبعوا، أو الواو للحال أى فى حال أنهم تحقق علمهم . واللام فى لقد علموا
يجوز أن تكون لام القسم وهى اللام التى من شأنها أن تدخل على جواب القسم لربطه
بالقسم ثم يحذفون القسم كثيراً استغناء لدلالة الجواب عليه دلالة التزمية لأنه لا ينتظم
جواب بدون مجاب . ويجوز أن تكون لام الابتداء ، وهى لام تفيد تأكيد القسم ويكثر
دخولها فى صدر الكلام فلذلك قيل لها لام الابتداء والاحتمالان حاصلان فى كل كلام صالح
للقسم وليس فيه قسم فإن حذف لفظ القسم مشعر فى المقام الخطابى بأن التكم غير حريص
على مزيد التأكيد كما كان ذكر إن وحدها فى تأكيد الجملة الاسمية أضعف تأكيداً من الجمع
بينها وبين لام الابتداء لأنهما أهما تأكيداً . قال الرضى إن مواقع لام القسم فى نظر الجمهور
هى كلها لامات الابتداء . والكوفيون لا يثبتون لام الابتداء ويحملون مواقعها على معنى
القسم المحذوف والخلاف فى هذا متقارب . واللام فى قوله لمن اشتراه يجوز كونها لام قسم
أيضاً تأكيداً للمعلوم أى علموا تحقيق أنه لا خلاق لمشتري السحر ويجوز كونها لام ابتداء
والاشتراء هو اكتساب شئ ببذل غيره فالمعنى أنهم اكتسبوه ببذل إيمانهم المعبر عنه فيما
يأتى بقوله أنفسهم . والخلاق الحظ من الخير خاصة .

فى الحديث «إنا يلبس هذا من لا خلاق له» وقال البغيث بن حريث :

ولست وإن قربت يوماً ببائع خلاق ولا ديني ابتغاء التحجب

ونفى الخلاق وهو نكرة مع تأكيد النفى عن الاستغرافية دليل على أن تعاطى هذا
السحر جرم كفر أو دونه فلذلك لم يكن لتعاطيه حظ من الخير فى الآخرة وإذا اتفق كل

حظ من الخير ثبت الشر كله لأن الراحة من الشر خير وهي حالة الكفاف وقد تمنّاها الفضلاء أو دونه خشية من الله تعالى .

قوله « ولبئس ما شروا به أنفسهم » عطف على ولقد علموا عطف الإنشاء على الخبر وشروا بمعنى باعوا بمعنى بذلوا وهو مقابل قوله « لمن اشتراه » ومعنى بذل النفس هو التسبب لها في الخسار والبوار .

وقوله « لو كانوا يعلمون » مقتضى لنفي العلم بطريق لو الامتناعية والعلم المنفي عنهم هنا هو غير العلم المثبت لهم في قوله « ولقد علموا » إلا أن الذي علموه هو أن مكتسب السحر ماله خلاق في الآخرة والذي جهلوه هنا هو أن السحر شيء مذموم وفيه تجهيل لهم حيث علموا أن صاحبه لا خلاق له ولم يهتدوا إلى أن نفي الخلاق يستلزم الخسران إذ ما بعد الحق إلا الضلال وهذا هو الوجه لأن لو كانوا يعلمون ذيل به قوله « ولبئس ما شروا به أنفسهم » فدل على أنه دليل مفعوله وبذلك يندفع الإشكال عن إثبات العلم ونفيه في معلوم واحد بناء على أن العلم بأنه لا خلاق لصاحب السحر عين معنى كون السحر مذموما فكيف يعدون غير عالين بذمه وقد علمت وجهه وهذا هو الذي تحمل عليه الآية . ولهم في الجواب عن دفع الإشكال وجوه أخرى أحدها مذهب إليه صاحب الكشف وتبعه صاحب المفتاح من أن المراد من نفي العلم هو أنهم لما كانوا في علمهم كمن لا يعلم بعدم علمهم به نفي العلم عنهم لعدم الاعتداد به أي فيكون ذلك على سبيل التهمك بهم . الثاني أن المراد بالعلم المنفي هو علم كون ما يتعاطونه من جملة السحر المنهى عنه فكأنهم علموا مذمة السحر علماً كلياً ولم يتفطنوا لكون صنيعهم منه كما قالوا إن الفقيه يعلم كبرى القياس والقاضى والمفتى يعلمان صفراء وأن الفقيه كالصيدلاني والقاضى والمفتى كالطبيب وهذا الوجه الذي اخترناه . الثالث أن المراد لو كانوا يعلمون ما يتبعه من العذاب في الآخرة أي فهم ظنوا أن عدم الخلاف لا يستلزم العذاب وهذا قريب من الذي ذكرناه . الرابع أن المراد من العلم المنفي التفكير ومن المثبت العلم الغريزي وهذا وجه بعيد جداً إذ لا يمكن أن يكون علمهم بأن من اكتسب السحر لا خلاق له علماً غريزياً فلو قيل العلم التصوري والعلم التصديقي . وفي الجمع بين لقد علموا ولو كانوا يعلمون طباق عجيب .

وهناك جواب آخر مبني على اختلاف معاد ضمير علموا وضميرى لو كانوا يعلمون فضمير لقد علموا راجع إلى الجن الذين يعلمون السحر وضمير لو كانوا يعلمون راجعان إلى الإنس الذين تعلموا السحر وشروا به أنفسهم، قاله قطرب والأخفش وبذلك صار الذين أثبت لهم العلم غير المنفى عنهم .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ¹⁰³

أى لو آمنوا بحمد واتقوا الله فلم يقدموا على إنكار ما بشرت به كتبهم لكانت لهم مثوبة من عند الله ومثوبة الله خير من كل تقع حملهم على الكابرة .

ولو شرطية امتناعية اقترن بشرطها بأن مع التزام الفعل الماضى فى جملته على حد قول امرئ القيس :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال

وأن مع صلتها فى محل مبتدأ عند جمهور البصريين وما فى جملة الصلة من السند والسند إليه أكل الفائدة فأعنى عن الخبر . وقيل خبرها محذوف تقديره ثابت أى ولو إيمانهم ثابت . وقوله لمثوبة يترجح أن يكون جواب لو فانه مقترن باللام التى يكثر اقتران جواب لو المثبت بها والجواب هنا جملة اسمية وهى لا تقع جواباً للو فى الغالب وكان هذا الجواب غير ظاهر الترتب والتعليق على جملة الشرط لأن مثوبة الله خير سواء آمن اليهود واتقوا أم لم يفعلوا . قال بعض النحاة الجواب محذوف أى لا يثبوا ومثوبة من عند الله خير . وعدل عنه صاحب الكشاف فقال أوثرت الجملة الاسمية فى جواب لو على الفعلية لما فى ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع فى سلام عليكم لذلك اهـ . ومراده أن تقدير الجواب لا يثبوا ومثوبة من الله خير آلهم مما شروا به أنفسهم ، أو لمثوبة بالنصب على أنه مصدر بدل من فعله ، وكيفما كان فالفعل أوبده بدلان على الحدوث فلا دلالة له على الدوام والثبات .

ولما كان المقام يقتضى حصول المثوبة وثباتها وثبات الخيرية لها ليحصل مجموع معان عدل عن النصب المؤذن بالفعل إلى الرفع لأن الجملة الاسمية لا تقيد الحدوث بل الثبوت

وينتقل من إقادتها الثبوت إلى إفادة الدوام والثبات فدلالة الآية على ثبات المثوبة بالمدول عن نصب المصدر إلى رقبه كما في سلام عليكم والحمد لله ودلالاتها على ثبات نسبة الخيرية للمثوبة من كون النسبة مستفادة من جملة اسمية فصارت الجملة بمنزلة جملتين لأن أصل المصدر الآتي بدلا من فعله أن يدل على نسبة لفاعله فلو قيل لمثوبة بالنصب لكان تقديره لا يثبوا مثوبة فإذا حولت إلى المصدر المرفوع لزم أن تعتبر ما كان فيه من النسبة قبل الرفع، ولما كان المصدر المرفوع لا نسبة فيه علم السامع أن التقدير لمثوبة لهم كما أنك إذا قلت سلاماً وحمداً علم السامع أنك تريد سلمتُ سلاماً وحمدتُ حمداً، فإذا قلت سلام وحمد كان التقدير سلام مني وحمد مني، وهذا وجه تنظير الكشف وقرينة كون هذا المصدر في الأصل منصوباً وقوعه جواباً للو المتأصل في الفعلية، ثم إذا سمع قوله خير علم السامع أنه خبر عن المثوبة بعد تحويلها فاستفاد ثبات الخيرية ولهذا لم يتعرض صاحب الكشف لبيان إفادة الجملة ثبات الخيرية للمثوبة لأنه لصراحته لا يحتاج للبيان فإن كل جملة اسمية تدل على ثبات خبرها لمبتدئها .

وبهذا ظهر الترتب لأن المقصود من الإخبار عن المثوبة بأنها خيراتها ثبتت لهم لو آمنوا . وعندى وجه آخر وهو أن يقال إن قوله «المثوبة من عند الله خير» دليل الجواب بطريقة التعمير فإنه لما جعل معلقاً على قوله «لو آمنوا» علم أن في هذا الخبر شيئاً يهمهم ولما كانت لو امتناعية ووقع في موضع جوابها جملة خبرية تامة علم السامع أن هذا الخبر ممتنع ثبوته لمن امتنع منه شرط لو فيكون تنكيلاً عليهم وتعليحاً بهم .

وقد قيل إن لو للتمنى على حد لو أن لنا كربة . والتحقق أن لو التي للتمنى هي لو الشرطية أشربت معنى التمنى لأن الممتنع يتمنى إن كان محبوباً * وأحب شيء إلى الإنسان ما منما * واستدل على هذا بأنها إذا جاءت للتمنى أجيب جوابين جواباً منصوباً كجواب ليت وجواباً مقترناً باللام كجواب الامتناعية كقول الملهل :

فلو نبش المقابر عن كليب فيخبر بالذنائب أي زير

ويوم الشعثين لقرعينا وكيف لقاء من تحت القبور

فأجيب بقوله فيخبر وقوله لقرعينا . والتمنى على تقديره مجاز من الله تعالى عن الدعاء

للإيمان والطاعة أو تمثيل لحال الداعي لذلك بحال التمنى فاستعمل له المركب الموضوع

للتمنى أو هو ما لو نطق به العربي في هذا المقام لنطق بالتمنى على نحو ما قيل في قوله تعالى « لعلكم تتقون » ونحوه . وعلى هذا الوجه يكون قوله لثوبة مستأنفا واللام للقسام .

والثوبة اسم مصدر أثناب إذا أعطى الثواب والثواب الجزاء الذى يعطى لخير المعطى ويقال ثوبوا ثوب بمعنى أثناب فالثوبة على وزن المفعولة كالصدوقة والمشورة والمكروهة .

وقوله ولو كانوا يعلمون شرط ثان محذوف الجواب لدلالة ما تقدم عليه وحذف مفعول يعلمون لدلالة لثوبة من الله خير ، أى لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السحر .

وليس تكرير اللفظة أو الجملة في فواصل القرآن بإبطاء لأن الإبطاء إنما يعاب في الشعر دون النثر لأن النثر إنما يعتد فيه بمطابقة مقتضى الحال وفائدة هذا التكرير التسجيل عليهم بأنهم لا يعلمون ما هو النفع الحق .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا
وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ١٠٤

يتعين في مثل هذه الآية ^(١) تطلب سبب تزولها ليظهر موقعها ووجه معناها فإن النهى عن أن يقول المؤمنون كلمة لا ذم فيها ولا سخف لا بد أن يكون لسبب وقد ذكروا في سبب تزولها أن المسلمين كانوا إذا ألقى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الشريعة والقرآن يتطلبون منه الإعادة والتأني في إلقائه حتى يفهموه ويموه فكانوا يقولون له راعنا يارسول الله أى لا تتخرج منا وارفق وكان المنافقون من اليهود يشتمون النبي صلى الله عليه وسلم في خلواتهم سرا وكانت لهم كلمة بالعبانية تشبه كلمة راعنا بالعربية ومعناها في العبرانية سب وقيل معناها لا سمعت دعاء فقال بعضهم لبعض كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا به الآن أو قالوا هذا وأرادوا به اسم فاعل من رعن إذا اتصف بالرعونة وسيأتى فكانوا يقولون هاته الكلمة مع المسلمين ناوين بها السب فكشفهم الله وأبطل عملهم بنهى المسلمين عن قول هاته الكلمة حتى ينتهى المنافقون عنها ويعلموا أن الله أطلع نبيه على سرهم .

(١) أى مثلها من الآيات التي نزلت في أحوال معينة ولم يشرح في أثناءها ما يفصح عن سبب تزولها لمجازا واستغناء يعلم المخاطبين بها يوم تزولها بالسبب الذى أوجب تزولها، فإذا لم يقل السبب لم يحضره لم يعلم المراد منها .

ومناسبة نزول هاته الآية عقب الآيات المتقدمة في السحر وما نشأ عن ذمه أن السحر كما قدمنا راجع إلى التويه وأن من ضروب السحر ما هو تمويه ألفاظ وما مبناه على اعتقاد تأثير الألفاظ في السحور بحسب نية الساحر وتوجهه النفسى إلى السحور، وقد تأصل هذا عند اليهود واقتنموا به في مقاومة أعدائهم . ولما كان أذى الشخص بقول أو فعل لا يعلم مغزاهما خطابه بلفظ يفيد معنى ومقصود التكلم منه أذى، أو كإهانة صورته أو الوطاء على ظله كل ذلك راجعاً إلى الاكتفاء بالنية والتوجه في حصول الأذى كان هذا شبيهاً ببعض ضروب السحر ولذلك كان من شعار من استهواهم السحر واشتروه ناسب ذكر هاته الحالة من أحوالهم عقب الكلام على افتتانهم بالسحر وحبه دون بقية ما تقدم من أحوالهم وهاته المناسبة هي موجب التعقيب في الذكر . وإنما فصلت هذه الآية عما قبلها لاختلاف الغرضين لأن هذه في تأديب المؤمنين ثم يحصل منه التعريض باليهود في تفاههم وأذامهم والإشعار لهم بأن كيدهم قد أطلع الله عليه نبيه وقد كانوا يعدون تفتن السحور للسحر يبطل أثره فأشبهه التفتن للنوايا الخبيثة وصريح الآيات قبلها في أحوالهم الدينية المنافية لأصول دينهم ولأن الكلام المفتتح بالنداء والتنبية ونحوه نحو « يا أيها الناس » ويازيد وألا ونحوها لا يناسب عطفه على ما قبله وينبغي أن يعتبر افتتاح كلام بحيث لا يعطف إلا بالفاء إذا كان مترتباً عما قبله لأن العطف بالفاء بعيد عن العطف بالواو وأوسع من جهة التناسب .

وراعنا أمر من راعاه يراعيه وهو مبالغة في رعاه يراعه إذا حرصه بنظره من الهلاك والتلف وراعى مثل رعى قال طرفة * خذول تراعى ربها بخميلة * وأطلق مجازاً على حفظ مصلحة الشخص والرفق به ومراقبة نفعه وشاع هذا المجاز حتى صار حقيقة عرفية ومنه رعاك الله ورعى ذمامه، فقول المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم راعنا هو فعل طلب من الرعى بالمعنى المجازى أى الرفق والمراقبة أى لا تتخرج من طلبنا وارفق بنا . وقوله « وقولوا انظرونا » أبدلهم بقولهم « راعنا » كلمة تساويها في الحقيقة والمجاز وعدد الحروف والمقصود من غير أن يتدفع بها الكفار لأذى النبي صلى الله عليه وسلم وهذا من أبدع البلاغة فإن نظر في الحقيقة بمعنى حرص وصار مجازاً على تدبير المصالح، ومنه قول الفقهاء هذا من النظر، والمقصود منه الرفق والمراقبة في التيسير فيتعين أن قوله « انظرونا » بضم همزة الوصل وضم الظاء وأنه من النظر لا من الانتظار .

وقد دلت هذه الآية على مشروعية أصل من أصول الفقه وهو من أصول المذهب المالكي . يلقب بسد الذرائع وهي الوسائل التي يتوصل بها إلى أمر محظور .

وقوله تعالى « واسمعوا » أريد به سماع خاص وهو الوعى ومزيد التلقى حتى لا يحتاجوا إلى طلب المراجعة أو النظر وقيل أراد من اسمعوا امتثلوا لأوامر الرسول قاله ابن عطية وهو أظهر .

وقوله « وللكافرين عذاب أليم » التعريف للمهد والمراد بالكافرين اليهود خاصة أى تأدبوا أنتم مع الرسول ولا تتأسوا باليهود فى أقوالهم « فلهم عذاب أليم » والتعبير بالكافرين دون اليهود زيادة فى ذمهم وليس هنا من التذييل لأن الكلام السابق مع المؤمنين فلا يصلح ما بعده من تعميم حكم الكافرين لتذييل ما قبله .

﴿ مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ 105

فصله عما قبله باختلاف الغرضين لأن الآية قبله فى تأديب المؤمنين مع التعريض باليهود وهذه الآية لبيان حسد اليهود وغيرهم للمسلمين ووجه المناسبة بين الآيتين ظاهر لاتحاد المال ولأن الداعى للسب والأذى هو الحسد .

وهذه الآية رجوع إلى كشف السبب الذى دعا لامتناع اليهود من الإيمان بالقرآن لما قيل لهم آمنوا بما أنزل الله فقالوا تؤمن بما أنزل علينا أى ليس الصارف لهم تمسكهم بما أنزل إليهم بل هو الحسد على ما أنزل على النبيء والمسلمين من خير ، فبين أدلة نقي كون الصارف لهم هو التصلب والتمسك بدينهم بقوله « قل فلم تقتلون أنبياء الله » وما تخلل ذلك ونشأ عنه من المجادلات وبيان إعراضهم عن أوامر دينهم واتباعهم السحر وبين الآن حقيقة الصارف عن الإيمان بالقرآن والموجب للشتم وقول البهتان ليتخلص من ذلك إلى بيان النسخ .

والود بضم الواو المحبة ومن أحب شيئاً تمناه فليس الود هو خصوص التمنى ولا المحبة

الفرطة كإحققه الراغب . وذكر الذين كفروا هنادون اليهود لقصد شمول هذا الحكم اليهود والنصارى معاً تمهيداً لما يأتي من ذكر حكمة النسخ ومن قوله « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » الآيات . ونبه بقوله « الذين كفروا من أهل الكتاب » دون ما يود أهل الكتاب على أنهم لم يتبعوا كتابهم لأن كتبهم تأمرهم باتباع الحق حيناً وجدوه وبالإيمان بالنبيء الفقى على آثارهم وفى التوراة والإنجيل مواضع كثيرة فيها أخذ الميثاق على ذلك فلما حسدوا النبيء صلى الله عليه وسلم على النبوة وحسدوا المسلمين فقد كفروا بما أمرت به كتبهم وبهذا تخلص الكلام إلى الجمع بين موعظة النصارى مع موعظة اليهود .

ولما كان ما اقتضاه الحال من التعبير بقوله « الذين كفروا من أهل الكتاب » قديوم كون البيان قيداً وأن الكافرين من غير أهل الكتاب لا يحسدون المسلمين عطف عليه قوله « ولا المشركين » كالاحتراس وليكون جمعاً للحكم بين الجميع فيكون له حظ فى التمهيد لقوله فيما يأتى « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » وقرأ الجمهور أن ينزل بتشديد الزاى مفتوحة والتعبير بالتنزيل دون الإنزال لحكاية الواقع إذ القرآن نزل منجها لتسهيل حفظه وفهمه وكتابته وللتيسير على المكلفين فى شرع الأحكام تدريجاً . وقرأه ابن كثير وابن عمرو بتخفيف الزاى مفتوحة أيضاً وذلك على أن تقى ودادتهم متعلق بمطلق إنزال القرآن سواء كان دفعة أو منجها .

والخير النعمة والفضل ، قال النابغة * فلست على خير أذاك بحاسد * وأراد به هنا النبوة وما أيدها من الوحي والقرآن والنصر وهو المبر عنه بالرحمة فى قوله « والله يختص برحمته » . وقوله « والله يختص برحمته من يشاء » عطف على « ما يود » لئلا يتضمنه أن الله أراد ذلك وإن كانوا هم لا يريدونه . والرحمة هنا مثل الخير المنزل عليهم وذلك إدماج للامتنان عليهم بأن ما نزل عليهم هو رحمة بهم ومعنى الاختصاص جعلها لأحد دون غيره لأن أصل الاختصاص والتخصيص راجع إلى هذا المعنى أعنى جمل الحكم خاصاً غير عام سواء خص واحداً أو أكثر ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه أى من يشاء اختصاصه بالرحمة . والمشيئة هى الإرادة ولما كانت إرادة الله تتعلق بالمراد على وفق علمه تعالى

كانت مشيئته أى إرادته جارية على وفق حكته التى هى من كفيات علم الله تعالى فهى من تعلقات العلم الإلهى بإبراز الحوادث على ما ينبغى وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى «إنا أنك أنت العليم الحكيم» فالله يختص برحمته من علم أنه حقيق بها لا سيما الرحمة المراد منها النبوة فإن الله يختص بها من خلقه قابلاً لها فهو يخلقها على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة لتلقى الوحي شيئاً فشيئاً قال تعالى «ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً» وقال «الله يعلم حيث يجعل رسالته» ولذلك لم تكن النبوة حاصلة بالاكتساب لأن الله يخلق للنبوة من أرادها لها خطر أمرها بخلاف غيرها من الفضائل فهو ممكن الاكتساب كالصلاح والعلم وغيرها قرب فاسق صاحبت حاله ورب جاهل مطبق صار عالماً بالسمى والاكتساب ومع هذا فلا بد لصاحبها من استعداد فى الجملة ثم وراء ذلك التوفيق وعناية الله تعالى بعبده . ولما كانت الاستعدادات لمراتب الرحمة من النبوة فما دونها غير بادية للناس طوى بساط تفصيلها لتعذرهم ووكّل إلى مشيئة الله التى لا تتعلق إلا بما علمه واقتضته حكته سبحانه رفقاَ بأفهام المخاطبين .

وقوله «والله ذو الفضل العظيم» تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة وتنبية على أن واجب مرید الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه فى أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة فيتخلّى عن الماصى والخبائث ويتحلّى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه وفى الحديث الصحيح «تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» .

﴿ مَا تَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾

مناسبة هذه الآية للآيات قبلها أن اليهود اعتذروا عن إعراضهم عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم بقولهم «نؤمن بما أنزل علينا» وأرادوا به أنهم يكفرون بغيره وهم فى عذرهم ذلك يدعون أن شريعتهم لا تنسخ ويقولون إن محمداً وصف التوراة بأنها حق وأنه جاء مصداقاً لها فكيف يكون شرعه مبطلاً للتوراة ويعوهون على الناس بما سموه البداء وهو لزوم أن يكون الله تعالى غير عالم بما يحسن تشريعه وأنه يبدو له الأمر ثم يعرض عنه ويبدل شريعة بشرية . وقد قدمنا أن الله تعالى رد عليهم عذرهم وفضحهم بأنهم ليسوا متمسكين بشرعهم حتى يتصلبوا فيه وذلك من قوله «قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل» وقوله «قل

إن كانت لكم الدار الآخرة « إلخ وبأنهم لا داعي لهم غير الحسد بقوله « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب » إلى قوله « ذو الفضل العظيم » النبي أن العلة هي الحسد . فلما بين الرد عليهم في ذلك كله أراد نقض تلك السفسطة أو الشبهة التي راموا ترويجها على الناس بمنع النسخ . والمقصد الأصلي من هذا هو تعليم المسلمين أصلاً من أصول الشرائع وهو أمل النسخ الذي يطرأ على شريعة بشرية بعدها ويطرأ على بعض أحكام شريعة بأحكام تبطلها من تلك الشريعة . ولكون هذا هو المقصد الأصلي عدل عن مخاطبة اليهود بالرد عليهم ووجه الخطاب إلى المسلمين كما دل عليه قوله « ألم تعلم » وعطفه عليه بقوله « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » ولقوله « ما ننسخ من آية » ولم يقل من شريعة . وفي هذا إعراض عن مخاطبة اليهود لأن تعليم المسلمين أهم وذلك يستتبع الرد على اليهود بطريق المساواة لأنه إذا ظهرت حكمة تغيير بعض الأحكام لمصلحة تظهر حكمة تغيير بعض الشرائع .

وقد ذكر بعض المفسرين لهاته الآية سبب نزول ، ففي الكشف والعالم نزلت لما قال اليهود ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ، وفي تفسير القرطبي أن اليهود طعنوا في تغيير القبلة وقالوا إن محمداً يأمر أصحابه بشيء وينهاهم عنه فما كان هذا القرآن إلا من جهته ولذلك يخالف بعضه بعضاً .

وقرأ الجمهور ننسخ بفتح النون الأولى وفتح السين وهو أصل مضارع نسخ ، وقرأ ابن عامر بضم النون الأولى وكسر السين على أنه مضارع أنسخ مهموزاً بهجزة التعدية أي تأمر بنسخ آية .

وما شرطية وأصلها الموصولة أشربت معنى الشرط فلذلك كانت اسماً للشرط يستحق إعراب المفاعيل وتبين بما يفسر إبهامها وهي أيضاً توجب إبهاماً في أزمان الربط لأن الربط وهو التعليق لما ينط بمبهم صار مبهماً فلا تدل على زمن معين من أزمان تعليق الجواب على الشرط وربطه به .

ومن آية بيان لما . والآية في الأصل الدليل والشاهد على أمر .

قال الحرث بن حنزة :

مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا تٌ ثَلَاثٌ فِي كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ

ووزنها فعلة بتحريك العين عند الخليل وعينها ياء أو واو قلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها والنسبة إليها آتية أو آوى . ثم أطلقت الآية على المعجزة لأنها دليل صدق الرسول قال تعالى « وما نرسل بالآيات إلا تحويفاً » . وتطلق الآية على القطعة من القرآن المشتعلة على حكم شرعى أو موعظة أو نحو ذلك وهو إطلاق قرآنى قال تعالى « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » ويؤيد هذا أن من معانى الآية فى كلام العرب الأمانة التى يعطيها المرسل للرسول ليصدقها المرسل إليه وكانوا إذا أرسلوا وصاية أو خبراً مع رسول أرفقوه بأمانة يسمونها آية لاسيما الأسير إذا أرسل إلى قومه برسالة كما فعل ناشب الأعمور حين كان أسيراً فى بنى سعد بن مالك وأرسل إلى قومه بلمنبر رسالة وأراد تحذيرهم بما يبيتهم أعداؤهم الذين أسروه فقال للرسول قل لهم كذا بآية ما أكلت معكم حبساً . وقال سبحانه العبد :

أَلَكُنِ إِلَيْهَا عَمَرُكَ اللَّهُ يَافَتَى بآية ما جاءت إلينا نهاديا

ولذا أيضاً سمو الرسالة آية تسمية للشيء باسم مجاوره عرفاً . والمراد بالآية هنا حكم بالآية سواء أزيل لفظها أم أبقى لفظها لأن المقصود بيان حكمة إبطال الأحكام لا إزالة ألفاظ القرآن .

والنسخ إزالة الشيء بشيء آخر قاله الراغب، فهو عبارة عن إزالة صورة أو ذات وإثبات غيرها عوضها تقول نسخت الشمس الظل لأن شاعها أزال الظل وخلفه فى موضعه ونسخ بالظل الشمس كذلك لأن خيال الجسم الذى حال بين الجسم المستنير وبين شعاع الشمس الذى أناره قد خلف الشعاع فى موضعه ويقال نسخت ما فى الخلية من النحل والمسل إلى خلية أخرى، وقد يطلق على الإزالة فقط دون تمويض كقولهم نسخت الريح الأثر وعلى الإثبات لكن على إثبات خاص وهو إثبات الزيل، وأما أن يطلق على مجرد الإثبات فلا أحسبه صحيحاً فى اللغة وإن أوممه ظاهر كلام الراغب وجعل منه قولهم نسخت الكتاب إذا خططت أمثال حروفه فى صحيفتك إذ وجدوه إثباتاً محضاً لكن هذا توم لأن إطلاق النسخ على محاكاة حروف الكتاب إطلاق مجازى بالصورة أو تمثيلية بتشبيه الحالة بحالة من يزيل الحروف من الكتاب الأصل إلى الكتاب النسخ ثم جاءت من ذلك النسخة قال تعالى « أنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » وقال « وفى نسختها هدى ورحمة » وأما قولهم

الولد نسخة من أبيه فجاز على مجاز . ولا يطلق النسخ على الزوال بدون إزالة فلا تقول نسخ الليل النهار لأن الليل ليس بأمر وجودي بل هو الظلمة الأصلية الحاصلة من انعدام الجرم المنير .

والمراد من النسخ هنا الإزالة وإثبات العوض بدليل قوله ونأت بحير منها أو مثلها وهو المعروف عند الأصوليين بأنه رفع الحكم الشرعي بخطاب نخرج التشريع المستأنف إذ ليس برفع وخرج بقولنا الحكم الشرعي رفع البراءة الأصلية بالشرع المستأنف .

إذ البراءة الأصلية ليست حكماً شرعياً بل هي البقاء على عدم التكليف الذي كان الناس عليه قبل مجيء الشرع بحيث إن الشريعة لا تعرض للتخصيص على إباحة المباحات إلا في مظنة اعتقاد تحريمها أو في موضع حصر المحرمات أو الواجبات ، فالأول نحو قوله : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » في التجارة في الحج حيث ظن المسلمون تحريم التجارة في عشر ذي الحجة كما كانت عليه الجاهلية بعد الانصراف من ذي الحجاز^(١) ، ومثال الثاني قوله تعالى « وأحل لكم ما وراء ذلكم » بعد ذكر النساء المحرمات وقوله « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » لحصر وجوب الإمساك في خصوص زمن النهار . وفهم من قولهم في التعريف رفع الحكم أن ذلك الحكم كان ثابتاً لولا رفعه وقد صرح به بعضهم ولذلك اخترنا زيادة قيد في التعريف وهو رفع الحكم الشرعي المعلوم دوامه بخطاب يرفعه ليخرج عن تعريف النسخ رفع الحكم الشرعي الغني بفاية عند انتهاء غايته ورفع الحكم المستفاد من أمر لا دليل فيه على التكرار . وحيث تبينت حكمة نسخ الآيات علم منه حكمة نسخ الشرائع بعضها ببعض وهو الذي أنكروه وأنكروا كون الإسلام قد نسخ التوراة وزعموا أن دوام التوراة مانع من الإيمان بالإسلام كما قالوا تؤمن بما أنزل علينا وهو أحوال : الأول مجيء شريعة تقوم مجيئاً مؤقتاً لمدة حياة الرسول المرسل بها

(١) ذلك أن العرب كانوا إذا انصرفوا من سوق ذي الحجاز ليلة التروية يحرمون البيع إلى اقضاء الحج

قال النابغة يذكر ناقته :

كادت تساقطني رحلى وميئرتي	بذي الحجاز ولم تحسس به نفما
من صوت حرمية قالت وقد ظمنوا	هل في تخيمكم من يشتري أدما
قالت لها وهي تسمى تحت لبثها	لا تحطمنك إن البيع قد زرما

فإذا توفى ارتفعت الشريعة كشرية نوح وإبراهيم وشريعة يوسف وشريعة شمعيل قال تعالى « ولقد جاءكم يوسف » إلى قوله « إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » وبقي الناس في فترة وكان لكل أحد يريد الاهتداء أن يتبع تلك الشريعة أو بعضها كما كانوا يتبعون شريعة إبراهيم فإذا جاءت شريعة بعدها فليست الثانية بناسخة للأولى في الحقيقة ولكنها نسخ بخير الناس في متابعتها الذي كان لهم في زمن الفترة كما إذا كانت عبس مثلاً يجوز لها اتباع شريعة إبراهيم فلما جاءهم خالد بن سنان بشريعته تعين عليهم اتباعه . الثاني أن تحيء شريعة لقوم مأمورين بالدوام عليها كشرع موسى ثم تحيء بعدها شريعة ليست رافعة لتلك الشريعة بأسرها ولكنها ترفع بعض أحكامها وتثبت بعضها كشرعية عيسى فهذه شريعة ناسخة في الجملة لأنها تنسخ بعضاً وتفسر بعضاً ، فالسيح رسول نسخ بعض التوراة وهو مانص على نسخه وأما غيره فباق على أحكام التوراة فهو في معظمها مبين ومذكر ومفسر كمن سبقه من أنبياء بنى إسرائيل مثل أشعياء وأرمياء وزكرياء الأول ودانيال وأضرابهم ولا يخالف هذا النوع نسخ أحكام شريعة واحدة إلا بكونه بواسطة رسول ثان . الثالث تحيء شريعة بعد أخرى بحيث تبطل الثانية الأولى إبطالا عاماً بحيث تعد تلك الشريعة باطلة سواء في ذلك الأحكام التي نصت الشريعة الثانية فيها بشيء . يخالف ما في الأولى أم فيما سكنت الشريعة الثانية عنه وهذا هو الإسلام بالنسبة لما تقدمه من الشرائع فإنه رفع الشرائع كلها بحيث لا يجوز لأحد من المسلمين أن يتلقى شيئاً من الشرائع السالفة فيما لم يتكلم الإسلام فيه بشيء بل يأخذ أحكام ذلك بالاستنباط والقياس وغير ذلك من طرق أصول الإسلام وقد اختلف في أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد ناسخ لكن ذلك الخلاف ناظر إلى دليل آخر وهو قوله تعالى « فبهدهم اقتده » .

وقوله « أو ننسها » قرأه نافع وابن عامر وعاصم وحزة والكسائي ويعقوب وأبو جعفر وخلف ننسها بنون مضمومة في أوله وبسین مكسورة ثم هاء . وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ننسأها بنون مفتوحة في أوله وبسین مفتوحة وبعدها همزة ساكنة ثم هاء فعلى قراءة ترك الهمز فهو من النسيان والهمزة للتعدي ومفعوله محذوف للعموم أى ننس الناس إياها وذلك بأسر النبي صلى الله عليه وسلم بترك قراءتها حتى ينساها المسلمون ، وعلى قراءة الهمز فالعنى أو تؤخرها أى تؤخر تلاوتها أو تؤخر العمل بها والمراد بإبطال العمل بقراءتها أو بحكمها

فكفى عنه بالنسء وهو قسم آخر مقابل للنسخ وهو أن لا يذكر الرسول الناس بالعمل بحكم مشروع ولا يأمر من يتركه بفضائه حتى ينسى الناس العمل به فيكون ذلك إبطالا للحكم لأنه لو كان قائماً لما سكنت الرسول عن إعادة الأمر به ولما أقر تاركه عند موجب العمل به ولم أجدهذا مثالا في القرآن ونظيره في السنة قول رسول الله «لا يمنع أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره» عند من يقول إن النهي فيه للتحريم وهو قول أبي هريرة ولذلك كان يذكر هذا الحديث ويقول مالى أراكم عنها معرضين والله لأرmin بها بين أظهركم . ومعنى النسء مشعر بتأخير يعقبه إبرام وحينئذ فالعنى بقاء الحكم مدة غير منسوخ أو بقاء الآية من القرآن مدة غير منسوخة . أو يكون المراد إنساء الآية بمعنى تأخير مجيئها مع إرادة الله تعالى وقوع ذلك بعد حين والاحتمالات المفروضة في نسخ حكم من الشريعة تتأتى في نسخ شريعة بشرية وإنسائها أو نسئها .

وقوله « نأت بخير منها أو مثلها » جواب الشرط وجمله جواباً مشعر بأن هذين الحالين وهما النسخ والإنساء أو النسء لا يفارقان حالين وهما الإتيان في وقت النسخ ووقت الإنساء بشيء هو خير من المنسوخ أو مثله أو خير من المنسى أو المنسوء أو مثله فالمأتى به مع النسخ هو التناسخ من شريعة أو حكم والمأتى به مع الإنساء من النسيان هو التناسخ أيضاً من شريعة أو حكم أو هو ما يجيء من الأحكام غير ناسخ ولكنه حكم يخالف ينزل بعد الآخر والمأتى به مع النسء أى التأخير هو ما يقارن الحكم الباقي من الأحكام النازلة في مدة عدم النسخ . وقد أجملت جهة الخيرية والمثلية لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن فتجده مراداً إذ الخيرية تكون من حيث الاشتغال على ما يناسب مصلحة الناس ، أو ما يدفع عنهم مضرة ، أو ما فيه جلب عواقب حميدة ، أو ما فيه ثواب جزيل ، أو ما فيه رفق بالمكلفين ورحمة بهم في مواضع الشدة وإن كان حملهم على الشدة قد يكون أكثر مصلحة . وليس المراد أن كل صورة من الصور المفروضة في حالات النسخ والإنساء أو النسء هى مشتملة على الخير والمثل معاً وإنما المراد أن كل صورة منهما لا تخلو من الاشتغال على الخير منها أو المثل لها فلذلك جىء بأو في قوله « بخير منها أو مثلها » فهى مفيدة لأحد الشئتين مع جواز الجمع .

وتحقيق هاته الصور بأيديكم ، ولنضرب لذلك أمثالا ترشد إلى المقصود وتغنى عن البقية مع عدم التزام الدرج على القول الأصح فنقول : (١) نسخ شريعة مع الإتيان بخير منها كنسخ التوراة والإنجيل بالإسلام . (٢) نسخ شريعة مع الإتيان بمثلها كنسخ شريعة هود بشريعة صالح فإن لكل فائدة مماثلة للأخرى في تحديد أحوال أمتين متقاربتى الموائد والأخلاق فهود نهام أن يبنوا بكل ريع آية يعبثون وصالح لم يته عن ذلك ونهى عن التعرض للناقة بسوء . (٣) نسخ حكم في شريعة بخير منه مثل نسخ كراهة الخمر الثابتة بقوله « قل فيها إثم كبير ومنافع » بتحريرها بتاتا فهذه الناسخة خير من جهة المصلحة دون الرفق وقد يكون الناسخ خيراً في الرفق كنسخ تحريم الأكل والشرب وقربان النساء في إيل رمضان بعد وقت الإفطار عند الغروب إذا نام الصائم قبل أن يتعشى بقوله تعالى « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - من الفجر » قال في الحديث في صحيح البخارى ففرح المسلمون بنزولها . (٤) نسخ حكم في الشريعة بحكم مثله كنسخ الوصية للوالدين والأقربين بتعيين الفرائض والكل نافع للكل في إعطائه مالا وكنسخ فرض خمسين صلاة بخمسين صلوات مع جعل ثواب الخمسين للخمسين فقد تماثلتا من جهة الثواب ، وكنسخ آية « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين » بقوله تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » إلى قوله « وأن تصوموا خير لكم » فأثبت كون الصوم خيراً من الفدية . (٥) إنساء بمعنى التأخير لشريعة مع مجيء خير منها ، تأخير ظهور دين الإسلام في حين الإتيان بشرائع سبقتها كل واحدة منها هي خير بالنسبة للأمة التي شرعتها والعصر الذي شرعت فيه فإن الشرائع تأتي للناس بما يناسب أحوالهم حتى يتبها البشر كلهم لقبول الشريعة الجامعة التي هي الدين عند الله فالخيرية هنا ببعض معانيها وهي نسبية . (٦) إنساء شريعة بمعنى تأخير مجيئها مع إرادة الله تعالى وقوعه بعد حين ومع الإتيان بمثلها كتأخير شريعة عيسى في وقت الإتيان بشريعة موسى وهي خير منها من حيث الاشتغال على معظم المصالح وما تحتاج إليه الأمة . (٧) إنساء بمعنى تأخير الحكم المراد مع الإتيان بخير منه كتأخير تحريم الخمر وهو مراد مع الإتيان بكراهته أو تحريمه في أوقات الصلوات فقط فإن المأني به خير من التجريم من حيث الرفق بالناس في حملهم على مفارقة شيء اقتنوا بحبته . (٨) إنساء شريعة بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها أى أوسع وأعم مصلحة وأكثر

ثوابا لكن في أمة أخرى أو بمثلها كذلك . (٩) إنشاء آية من القرآن بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها في باب آخر أى أهم مصلحة أو بمثلها في باب آخر أى مثلها مصلحة أو ثوابا مثل تحريم الخمر في وقت الصلوات وينزل في تلك المدة تحريم البيع في وقت صلاة الجمعة . (١٠) نسيان شريعة بمعنى إضمحلالها كشرعية آدم ونوح مع مجيء شريعة موسى وهى أفضل وأوسع وشريعة إدريس مثلاً وهى مثل شريعة نوح . (١١) نسيان حكم شريعة مع مجيء خير منه أو مثله، كان فيما نزل عشر رضعات معلومات يحرم، فنسخن بخمس معلومات ثم نسيا معاً وجاءت آية « وأخواتكم من الرضاغة » على الإطلاق والكل متماثل في إثبات الرضاغة ولا مشقة على المكلفين في رضعة أو عشر لقرب المقدار .

وقيل المراد من النسيان الترك وهو حينئذ يرجع معناه وصوره إلى معنى وصور الإنشاء بمعنى التأخير .

والمقصود من قوله تعالى « نأت بخير منها أو مثلها » إظهار منتهى الحكمة والرد عليهم بأنهم لا يهتمهم أن تنسخ شريعة بشرريعة أو حكم في شريعة بحكم آخر ولا يقدح ذلك في علم الله تعالى ولا في حكمته ولا ربوبيته لأنه ما نسخ شرعاً أو حكماً ولا تركه إلا وهو قد عوض الناس ما هو أتم لهم منه حينئذ أو ما هو مثله من حيث الوقت والحال ، وما آخر حكماً في زمن ثم أظهره بعد ذلك إلا وقد عوض الناس في إبان تأخيره ما يسد مسده بحسب أحوالهم ، وذلك مظهر الربوبية فإنه يرب الخلق ويحملهم على مصالحهم مع الرفق بهم والرحمة، ومراد الله تعالى في تلك الأزمنة والأحوال كلها واحد وهو حفظ نظام العالم وضبط تصرف الناس فيه على وجه يعصم أحوالهم من الاختلال بحسب المصور والأمر والأحوال إلى أن جاء بالشرعية الخاتمة وهى مراد الله تعالى من الناس ولذلك قال « إن الدين عند الله الإسلام » وقال أيضاً « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » الآية .

والظاهر أن الإتيان بخير أو بمثل راجع إلى كل من النسخ والإنشاء فيكون الإتيان بخير من المنسوخة أو المنسأة أو بمثلها وليس الكلام من ألف والنشر . فقوله تعالى « نأت بخير منها أو مثلها » هو إما إتيان تعويض أو إتيان تعزيز . وتوزيع هذا

الضابط على الصور المتقدمة غير عزيز . والمعنى إنا لم نترك الخلق في وقت سدى . وأن ليس في النسخ ما يتوهم منه البذا .

وفي الآية إيجاز بديع في التقسيم قد جمع هاته الصور التي سمتموها وصورا تنشق منها لا أسألكموها لأنه ما فرضت منها صورة بعد هذا إلا عرفتموها .

ومما يقف منه الشعر ولا ينبغي أن يوجه إليه النظر ما قاله بعض المفسرين في قوله تعالى « ننسها » أنه إن شاء الله تعالى المسلمين للآية أو للسورة، أي إذهابها عن قلوبهم أو إنساؤه النبي صلى الله عليه وسلم إياها فيكون نسيان الناس كلهم لها في وقت واحد دليلا على النسخ واستدلوا بذلك بحديث أخرجه الطبراني بسنده إلى ابن عمر : قال قرأ رجلان سورة أقرأهما إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فنجديا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال لهما إنها مما نسخ وأنسى فالحوا عنها . قال ابن كثير هذا الحديث في سنده سليمان بن أرقم وهو ضعيف وقال ابن عطية هذا حديث منكر أغرب به الطبراني وكيف خفي مثله على أئمة الحديث . والصحيح أن نسيان النبي ما أراد الله نسخه ولم يرد أن يثبت قرآنا جائز ، أي لكنه لم يقع فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي معصوم عنه قبل التبليغ ، وأما بعد التبليغ وحفظ المسلمين له جائز وقد روى أنه أسقط آية من سورة في الصلاة فلما فرغ قال لأبي لم لم تذكرني قال حسبت أنها رفعت قال لا ولكن نسيها . والحق عندى أن النسيان المارض الذي يُتذكر بعده جائز ولا تحمل عليه الآية لمناطاته لظاهر قوله « نأت بخير منها أو مثله » وأما النسيان المستمر للقرآن فأحسب أنه لا يجوز . وقوله تعالى « سنقرئك فلا تنسى » دليل عليه وقوله « إلا ما شاء الله » هو من باب التوسعة في الوعد وسيأتى بيان ذلك في سورة الأعلى . وأما ما ورد في صحيح مسلم عن أنس قال كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول ببراءة فأنسيتها غير أنى حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لا يفتنى لهما ثالثا وما يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب اه . فهو غريب وتأويله أن هنالك سورة نسخت قراءتها وأحكامها ، ونسيان المسلمين لما نسخ لفظه من القرآن غير عجيب على أنه حديث غريب اه .

وقد دلت هذه الآية على أن النسخ واقع وقد اتفق علماء الإسلام على جواز النسخ ووقوعه ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم الأصفهاني محمد بن بحر فقيل إن خلافه لفظي وتفصيل

الأدلة في كتب أصول الفقه. وقد قسموا نسخ أدلة الأحكام ومدلولاتها إلى أقسام: نسخ التلاوة والحكم معاً وهو الأصل ومثله بما روى عن أبي بكر كان فيما أنزل لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم. ونسخ الحكم وبقاء التلاوة وهذا واقع لأن إبقاء التلاوة يقصد منه بقاء الإعجاز ببلاغة الآية ومثاله آية أن يكن منكم عشرون صابرون إلى آخر الآيات. ونسخ التلاوة وبقاء الحكم ومثله بما روى عن عمر كان فيما يتلى الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما وعندي أنه لا فائدة في نسخ التلاوة وبقاء الحكم وقد تأولوا قول عمر كان فيما يتلى أنه كان يتلى بين الناس تشهيراً بحكمه. وقد كان كثير من الصحابة يرى أن الآية إذا نسخ حكمها لا تنق كتابتها في المصحف في البخاري في التفسير قال ابن الزبير قلت لعثمان «والذين يتوفون منكم وينذرون أزواجاً» نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها قال يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾¹⁰⁶ ¹⁰⁷

مسوق لبيان حكمة النسخ والإتيان بالخير والمثل بياناً غير مفصل على طريقة الأسلوب الحكيم وذلك أنه بعد أن فرغ من التنبيه على أن النسخ الذي استبعدوه وتذرعوا به لتكذيب الرسول هو غير مفارق لتعويض المنسوخ بخير منه أو مثله أو تعزيز المبق بمثله أريد أن ينتقل من ذلك إلى كشف ما بقي من الشبهة وهي أن يقول المنكر وماهى الفائدة في النسخ حتى يحتاج للتعويض وكان مقتضى الظاهر أن يتصدى لبيان اختلاف المصالح ومناسبتها للأحوال والأعصار وبيان تفاصيل الخيرية والثابتة في كل ناسخ ومنسوخ ولما كان التصدى لذلك أمراً لم تنهأ له عقول السامعين لعسر إدراكهم مراتب المصالح وتفاوتها لأن ذلك مما يحتاج إلى تأصيل قواعد من أصول شرعية وسياسية، عدل بهم عن بيان ذلك وأجملت لهم المصلحة بالحالة على قدرة الله تعالى التي لا يشذ عنها ممكن مراد، وعلى سعة ملكه الشمر بعظيم علمه. وعلى حاجة المخلوقات إليه إذ ليس لهم رب سواه ولا ولي دونه وكفى بذلك دليلاً على أنه يحملهم

على مصالحهم في سائر الأحوال . ومما يزيد هذا العدول توجيهاً أن التصدى للبيان يفتح باب الجدل في إثبات المصلحة وتفاوت ذلك بحسب اختلاف القرائح والفهوم .

ولأن أسباب التشريع والنسخ أقسام منه ما ظهر وجهه بالنص فيمكن إفهامهم إياه نحو قوله « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم المداواة والبغضاء في الخمر والميسر » الآية بعد قوله « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » الآية ونحو (وعلم أن فيكم ضعفاً الآية . ومنها ما يفسر إفهامهم إياه لأنه يحتاج إلى علم وتفصيل من شأن الشرعين وعلماء الأصول كالأشياء التي عرفت بالقياس وأصول التشريع . ومنها ما لم يطلع على حكمته في ذلك الزمان أو فيما يليه ولما كان معظم هاته التفاصيل يفسر أو يتعذر إفهامهم إياه وقع العدول المذكور .

ولكون هاته الجملة تنزل منزلة البيان للأولى فصلت عنها .

والخطاب في تعلم ليس مراداً منه ظاهره الواحد وهو النبي صلى الله عليه وسلم بل هو إما خطاب لغير معين خارج على طريقة المجاز بتشبيهه من ليس حاضراً للخطاب وهو الغائب منزلة المخاطب في كونه بحيث يصير مخاطباً لشهرة هذا الأمر والمقصد من ذلك ليعم كل مخاطب صالح له وهو كل من يظن به أو يتوهم منه أنه لا يعلم أن الله على كل شيء قدير ولو بعدم جريانه على موجب علمه ، وإلى هذه الطريقة مال القطب والطبي من شراح الكشاف وعليها يشمل هذا الخطاب ابتداء اليهود والمشركين ومن عسى أن يشبهه عليه الأمر وتزوج عليه الشبهة من ضعفاء المسلمين ، أما غيرهم فغنى عن التقرير في الظاهر وإنما أدخل فيه ليعلم غيره . وإما مراد به ظاهره وهو الواحد فيكون المخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم لكن المقصود منه المسلمون فينتقل من خطاب النبي إلى مخاطبة أمته انتقالاً كنهائياً لأن علم الأمة من لوازم علم الرسول من حيث إنه رسول لزوماً عرفياً فكل حكم تعلق به بعنوان الرسالة فالمراد منه أمته لأن ما ثبت له من المعلومات في باب العقائد والتشريع فهو حاصل لهم فتارة يراد من الخطاب توجه مضمون الخطاب إليه ولأتمته وتارة يقصد منه توجه المضمون لأتمته فقط على قاعدة الكناية في جواز إرادة المعنى الأصلي مع الكنهائى ، وههنا لا يصلح توجه المضمون للرسول لأنه لا يقرر على الاعتراف بأن الله على كل شيء قدير فضلاً عن أن ينكر عنه وإنما التقرير للأمة ، والمقصد من تلك الكناية التعريض باليهود . وإنما سلك هذا الطريق

دون أن يؤتى بضمير الجماعة المخاطبين لما في سلوك طريق الكناية من البلاغة والمبالغة مع الإيجاز في لفظ الضمير .

والاستفهام تقريرى على الوجهين وهو شأن الاستفهام الداخلى على النفي كما تقدم عند قوله « ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض » أى أنكم تعلمون أن الله قدير وتعلمون أنه مالك السماوات والأرض بما يجرى فيهما من الأحوال، فهو ملكه أيضا فهو يصرف الخلق كيف يشاء . وقد أشار في الكشف إلى أنه تقريرى وصرح به القطب في شرحه ولم يسمع في كلام العرب استفهام دخل على النفي إلا وهو مراد به التقرير .

وقوله « ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض » قال البيضاوى : هو متنزل من الجملة التى قبله منزلة الدليل لأن الذى يكون له ملك السماوات والأرض لا جرم أن يكون قديرا على كل شيء ولذا فصلت هذه الجملة عن التى قبلها . وعندى أن موجب الفصل هو أن هاتى الجملة بمنزلة التكرير للأولى لأن مقام التقرير ومقام التوبيخ كلاهما مقام تكرير لما به التقرير والإنكار تمديدا على المخاطب .

﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ 108

أم حرف عطفت مختص بالاستفهام وما فى معناه وهو التسوية^(١) فإذا عطفت أحد مفردين مستفهما عن تعيين أحدهما استفهما حقيقيا أو مسوئى بينهما فى احتمال الحصول فهى بمعنى أو العاطفة ويسمى النحاة متصلة، وإذا وقعت عاطفة جملة دلت على انتقال من الكلام السابق إلى استفهام فتكون بمعنى بل الاتقالية ويسمى النحاة منقطعة والاستفهام ملازم لما بعدها فى الحالين . وهى هنا منقطعة لا محالة لأن الاستفهامين اللذين قبلها فى معنى الخبر لأنهما للتقرير كما تقدم إلا أن وقوعهما فى صورة الاستفهام ولو للتقرير يحسن موقع أم بعدها كما هو الغالب والاستفهام الذى بعدها هنا إنكار وتحذير، والمناسبة فى هذا الانتقال تامة فإن التقرير

(١) لأن التحقيق أن همزة التسوية همزة استفهام تدل على استواء أمرين بمعنى استواء الجواب لو سأل سائل عن أحد أمرين .

الذى قبلها مراد منه التحذير من الغلط وأن يكونوا كمن لا يعلم والاستفهام الذى بعدها مراد منه التحذير كذلك والمحذر منه فى الجميع مشترك فى كونه من أحوال اليهود المذمومة ولا يصح كون أم هنا متصلة لأن الاستفهامين اللذين قبلها ليسا على حقيقتهما لا محالة كما تقدم .

وقد جوز القزوينى فى الكشف على الكشف كون أم هنا متصلة بوجه مرجوح وتبعه البيضاوى وتكلفا لذلك مما لا يساعد استعمال الكلام العربى ، وأفرط عبد الحكيم فى حاشية البيضاوى فزعم أن حملها على المتصلة أرجح لأنه الأصل لا سيما مع اتحاد فاعل الفعلين المتعاطفين بأم ولدلائته على أنهم إذا سألوا سؤال قوم موسى فقد علموا أن الله على كل شيء قدير وإنما قصدوا التعنت وكان الجميع فى غفلة عن عدم صلاحية الاستفهامين السابقين للحمل على حقيقة الاستفهام .

وقوله « تريدون » خطب للمسلمين لا محالة بقرينة قوله « رسولكم » وليس كونه كذلك بمرجح كون الخطابين اللذين قبله متوجهين إلى المسلمين لأن انتقال الكلام بعد أم المنقطعة يسمح بانتقال الخطاب . وقوله « تريدون » يؤذن بأن السؤال لم يقع ولكنه ربما جاش فى نفوس بعضهم أو ربما أثارته فى نفوسهم شبه اليهود فى إنكارهم النسخ وإلقائهم شبهة البداء ونحو ذلك مما قد يبعث بعض المسلمين على سؤال النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله « كما سئل موسى » تشبيه وجهه أن فى أسئلة بنى إسرائيل موسى كثيراً من الأسئلة التى تفضى بهم إلى الكفر كقولهم « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » أو من العجرفة كقولهم « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » فيكون التحذير من تسلسل الأسئلة المفضى إلى مثل ذلك . ويجوز كونه راجعاً إلى أسئلة بنى إسرائيل عما لا يعنيههم وعما يجز لهم المشقة كقولهم ما لونىها وما هى ، قال الفخر : إن المسلمين كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور لا خير لهم فى البحث عنها ليعلموها كما سأل اليهود موسى اه . وقد ذكر غيره أسباباً أخرى للنزول ، منها : أن المسلمين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر لما مروا بذات الأنواط التى كانت للمشركين أن يجعل لهم مثلها ونحو هذا مما هو مبنى على أخبار ضعيفة ، وكل ذلك تكلف لما لا حاجة إليه فإن الآية مسوقة مساق الإنكار التحذيرى بدليل قوله « تريدون » قصداً للوصاية بالثقة بالله ورسوله والوصاية والتحذير لا يقتضيان

وقوع الفعل بل يقتضيان عدمه . والمقصود التحذير من تطرق الشك في صلاحية الأحكام المنسوخة قبل نسخها لا في صلاحية الأحكام الناسخة عند وقوعها .

وقوله « ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » تذييل للتحذير الماضي للدلالة على أن المحذر منه كفر أو يفضى إلى الكفر لأنه يناهى حرمة الرسول والثقة به وبحكم الله تعالى ، ويحتمل أن المراد بالكفر أحوال أهل الكفر أى لا تتبدلوا بأادابكم تقلد عوائد أهل الكفر في سؤالهم كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين: « فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » وإطلاق الكفر على أحوال أهله وإن لم تكن كفرا شائع في ألفاظ الشريعة وألفاظ السلف كما قالت جميلة بنت عبد الله بن أبي زوجه ثابت بن قيس : إني أكره الكفر تريد الزنا ، فإن ذكر جملة بعد جملة يؤذن بمناسبة بين الجملتين فإذا لم يكن مدلول الجملتين واضح التناسب علم المخاطب أن هنالك مناسبة يرضى إليها البليغ فهنا تعلم أن الارتداد عن الإيمان إلى الكفر معنى كللى عام يندرج تحته سؤالهم الرسول كما سأل بنو إسرائيل موسى فتكون تلك القضية كفرا وهو المقصود من التذييل المعروف في باب الإطنباب بأنه تعقيب الجملة بجملة مشتملة على معناها تنزل منزلة الحجة على مضمون الجملة وبذلك يحصل تأكيد معنى الجملة الأولى وزيادة فالتذييل ضرب من ضروب الإطناب من حيث يشتمل على تقرير معنى الجملة الأولى ويزيد عليه بفائدة جديدة لها تعلق بفائدة الجملة الأولى . وأبدعه ما أخرج مخرج الأمثال لما فيه من عموم الحكم ووجيز اللفظ مثل هاته الآية، وقول النابغة :

ولست بمستبقٍ أخا لا تُلِمُّهُ على شعثٍ أى الرجال المهذب

والمؤكد بجملة « ومن يتبدل الكفر بالإيمان » هو مفهوم جملة « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » مفهوم الجملة التي قبلها لا منطوقها فهي كالتذييل الذي في بيت النابغة . والقول في تعدية فعل يتبدل مضى عند قوله تعالى « قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » . وقد جعل قوله « فقد ضل » جوابا لمن الشرطية لأن المراد من الضلال أعظمه وهو الحاصل عقب تبدل الكفر بالإيمان ولا شبهة في كون الجواب مترتبا على الشرط ولا يربك في ذلك وقوع جواب الشرط فعلا ماضيا مع أن الشرط إنما هو تعليق على المستقبل ولا اقتران الماضي بقدر الدالة على تحقق المضى لأن هذا استعمال عربى جيد يأتون بالجزء ماضيا لقصد

الدلالة على شدة ترتب الجزاء على الشرط وتحقق وقوعه معه حتى أنه عند ما يحصل مضمون الشرط يكون الجزاء قد حصل فكأنه حاصل من قبل الشرط نحو "ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى" وعلى مثل هذا يحمل كل جزاء جاء ماضيا فإن القرينة عليه أن مضمون الجواب لا يحصل إلا بعد حصول الشرط وهم يجعلون قد علامة على هذا القصد ولهذا قلنا خلا جواب ماض لشرط مضارع إلا والجواب مقترن بقدر حتى قيل إن غير ذلك ضرورة ولم يقع في القرآن كما نص عليه الرضى بخلافه مع قد فكثير في القرآن . وقد يجعلون الجزاء ماضيا مريدين أن حصول مضمون الشرط كاشف عن كون مضمون الجزاء قد حصل أو قد تذكره الناس نحو إن يسرق فقد سرق أخ له من قبله وعليه فيكون تحقيق الجزاء في مثله هو ما يتضمنه الجواب من معنى الانكشاف أو السبق أو غيرها بحسب المقامات قبل أن يقدر فلا تعجب إذ قد سرق أخ له ^(١) ويمكن تخريج هذه الآية على ذلك بأن يقدر ومن يتبدل الكفر بالإيمان فالسبب فيه أنه قد كان ضل سواء السبيل حتى وقع في الارتداد كما تقول من وقع في المهواة فقد خبط خبط عشواء إن أريد بالماضي أنه حصل وأريد بالضلال ما حف بالمرتد من الشبهات والخذلان الذي أوصله إلى الارتداد وهو بعيد من غرض الآية .

والسواء الوسط من كل شيء قال بلعاء بن قيس :

غَشَّيْتُهُ وَهُوَ فِي جَأَوَاءَ بَاسِلَةٍ عَضْبَتًا أَصَابَ سِوَاءَ الرَّأْسِ فَاتَقَلَقَا

ووسط الطريق هو الطريق الجادة الواضحة لأنه يكون بين بنيات الطريق التي لا تنتهى إلى الغاية .

(١) ومثل هذا أت يكون الشرط والجزاء ماضيين فإن ذلك يدل على أن المعنى إن تحقق هذا تحقق هذا نحو إن كنت قلته فقد علمته . ويقرب منه مجيء الجزاء جملة اسمية لدالاتها على ثبوت مضمونها دون زمان أصلا نحو قوله « من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك » أى من يتحقق عداوته لجبريل فلتدم عداوته لأنه نزله ونحو قول الشاعر :

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحٍ

أى فليصد فأنا المعروف بالشجاعة .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٠﴾

مناسبتة لما قبله أن ما تقدم إخبار عن حسد أهل الكتاب وخاصة اليهود منهم ، وآخرتها شبهة النسخ . فجاء في هذه الآية بتصريح بمفهوم قوله « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب » الآية لأنهم إذا لم يودوا بحىء هذا الدين الذى اتبعه المسلمون فهم يودون بقاء من أسلم على كفره ويودون أن يرجع بعد إسلامه إلى الكفر . وقد استطرد بينه وبين الآية السابقة بقوله « ما ننسخ » الآيات للوجوه المتقدمة . فلاجل ذلك فصلت هاته الجملة لكونها من الجملة التى قبلها بمنزلة البيان إذهى بيان لمنطوقها ولمفهومها ، وفي تفسير ابن عطية والكشاف وأسباب النزول للواحدي أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر أتيا بيت المدراس ^(١) وفيه فنحاص بن عازراء وزيد بن قيس وغيرهما من اليهود فقالوا لحذيفة وعمار « ألم تروا ما أصابكم يوم أحد ولو كنتم على الحق ما هزتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير ونحن أهدى منكم » فردا عليهم وثبتا على الإسلام . والود تقدم في الآية السالفة .

وإنما أسند هذا الحكم أى الكثير منهم وقد أسند قوله « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب » إلى جميعهم لأن تمنهم أن لاينزل دين إلى المسلمين يستلزم تمنهم أن يتبع المشركون دين اليهود أو النصرى حتى ييم ذلك الذين جميع بلاد العرب فلما جاء الإسلام شرقت لذلك صدورهم جميعا فأما علماؤهم وأجبارهم فخابوا وعلموا أن ماصار إليه المسلمون خير مما كانوا عليه من الإشراك لأنهم صاروا إلى توحيد الله والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وفي ذلك إيمان بموسى وعيسى وإن لم يتبعوا ديننا ، فهم لا يودون رجوع المسلمين إلى الشرك القديم لأن في مودة ذلك تمنى الكفر وهو رضى به . وأما عامة اليهود وجهاتهم فقد بلغ بهم الحسد والغيفظ

(١) المدراس بكسر الميم بيت تعليم التوراة لتلاميذ اليهود .

إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك ولا يبقوا على هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمه نكايه بالمسلمين وبالنبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » وفي هذا المعنى المكتنز ما يدلكم على وجه التعبير « يردونكم » دون لو كفرتم ليشار إلى أن ودادتهم أن يرجع المسلمون إلى الشرك لأن الرد إنما يكون إلى أمر سابق ولو قيل لو كفرتم لكان فيه بعض العذر لأهل الكتاب لاحتماله أنهم يودون مصير المسلمين إلى اليهودية . وبه يظهر وجه مجيء كفاراً معمولاً لمعمول ود كثير ليشار إلى أنهم ودوا أن يرجع المسلمون كفاراً بالله أى كفاراً كفراً متفقاً عليه حتى عند أهل الكتاب وهو الإشراك فليس ذلك من التعبير عن ما صدق ما ودوه بل هو من التعبير عن مفهوم ما ودوه . وبه يظهر أيضاً وجه قوله تعالى « من بعد ما تبين لهم الحق » فإنه تبين أن ما عليه المسلمون حق من جهة التوحيد والإيمان بالرسول بخلاف الشرك ، أو من بعد ما تبين لهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندهم إذا كان المراد بالكثير منهم خاصة علمائهم والله مطلع عليهم .

و « لو » هنا بمعنى أن المصدرية ولذلك يؤول ما بعدها بمصدر .

و « حسداً » حال من ضمير (وَدَّ) أى أن هذا الود لا سبب له إلا الحسد لا الرغبة في الكفر .

وقوله « من عند أنفسهم » جىء فيه بمن الابتدائية للإشارة إلى تأصل هذا الحسد فيهم وصدوره عن نفوسهم . وأكّد ذلك بكلمة عند الدالة على الاستقرار ليزداد بيان تمكنه وهو متعلق بحسداً لا بقوله (وَدَّ) .

وإنما أمر المسلمون بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع خاصة لأن ما حكى عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدة كراهيتهم للكفر قال تعالى « وكره إليكم الكفر » فلا جرم أن كان من يود لهم ذلك يعدونه أكبر أعدائهم فلما كان هذا الخبر مثيراً للغضب خيف أن يفتكوا باليهود وذلك ما لا يريده الله منهم لأن الله أراد منهم أن يكونوا مستودع عفو وحلم حتى يكونوا قدوة في الفضائل .

والعفو ترك عقوبة المذنب . والصفح بفتح الصاد مصدر صفحاً إذا عرض لأن الإنسان إذا عرض عن شيء ولأه من صفحة وجهه ، وصفح وجهه أى جانبه وعرضه وهو مجاز فى عدم مواجهته بذلك الذنب أى عدم لومه وتثريبه عليه وهو أبلغ من العفو كما نقل عن الراغب ولذلك عطف الأمر به على الأمر بالعفو لأن الأمر بالعفو لا يستلزمه ولم يستغن باصفحوا لقصد التدرىج فى أمرهم بما قد يخالف ما تميل إليه أنفسهم من الانتقام تلطفاً من الله مع المسلمين فى حملهم على مكارم الأخلاق .

وقوله « حتى يأتى الله بأمره » أى حتى يحىء ما فيه شفاء غليلكم قيل هو إجلاء بنى النضير وقتل قريظة ، وقيل الأمر بقتال الكتائبين أو ضرب الجزية .

والظاهر أنه غاية مهمة للعفو والصفح تطميناً لخواطر المأمورين حتى لا يأسوا من ذهاب أذى الجرمين لهم بطلا وهذا أسلوب مسلوكة فى حمل الشخص على شيء لا يلائمه كقول الناس « حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً » فإذا جاء أمر الله بترك العفو انتهت الغاية ومن ذلك إجلاء بنى النضير .

ولعل فى قوله « إن الله على كل شيء قدير » تعليماً للمسلمين فضيلة العفو أى فإن الله قدير على كل شيء وهو يعفو ويصفح وفى الحديث الصحيح لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل يدعون له ندأ وهو يرزقهم ، أو أراد أنه على كل شيء قدير فلو شاء لأهلكهم الآن ولكنه لحكمته أمرهم بالعفو عنهم وكل ذلك يرجع إلى الالتساء بصنع الله تعالى وقد قيل إن الحكمة كلها هى التشبه بالخالق بقدر الطاقة البشرية . فجملة « إن الله على كل شيء قدير » تذييل مسوق مساق التعليل . وجملة « فاعفوا واصفحوا » إلى قوله « وقالوا لن يدخل » تفريع مع اعتراض فإن الجملة المعارضة هى الواقعة بين جملتين شديدتى الاتصال من حيث الغرض المسوق له الكلام والاعتراض هو محىء ما لم يسق غرض الكلام له ولكن للكلام والغرض به علاقة وتسكيلاً وقد جاء التفريع بالفاء هنا فى معنى تفريع الكلام على الكلام لا تفريع معنى المدلول على المدلول لأن معنى العفو لا يتفرع عن ود أهل الكتاب ولكن الأمر به تفرع عن ذكر هذا الود الذى هو أذى وتجيء الجملة المعارضة بالواو وبالفاء بأن يكون المعطوف اعتراضاً . وقد جوزة صاحب الكشف عند قوله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » فى سورة النحل ، وجوزة ابن هشام فى معنى اللبيب واحتج له

بقوله تعالى « فآله أولى بهما » على قول ونقل بعض تلامذة الرخشي أنه سئل عن قوله تعالى في سورة عبس « إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة » أنه قال لا يصح أن تكون جملة « فمن شاء ذكره » اعتراضاً لأن الاعتراض لا يكون مع الفاء ورده صاحب الكشف بأنه لا يصح عنه لمنافاته كلامه في آية سورة النحل وقوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » أريد به الأمر بالثبات على الإسلام فإن الصلاة والزكاة ركناه فالأمر بهما يستلزم الأمر بالدوام على ما أنتم عليه على طريق الكناية .

وقوله « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » مناسب للأمر بالثبات على الإسلام وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه تعريض باليهود بأنهم لا يقدرُونَ قدر عفوكم وصفحكم ولكنه لا يضع عند الله ولذلك اقتصر على قوله « عند الله » قال الخطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقوله تعالى « إن الله بما تعملون بصير » تذييل لما قبله والبصير العليم كما تقدم وهو كناية عن عدم إضاعة جزاء الحسن والسيء لأن العليم القدير إذا علم شيئاً فهو يرتب عليه ما يناسبه إذ لا يذهله جهل ولا يعوزه عجز وفي هذا وعد لهم يتضمن وعيداً لغيرهم لأنه إذا كان بصيراً بما يعمل المسلمون كان بصيراً بما يعمل غيرهم .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهًا لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢ ﴾

عطف على « ود كثير » وما بينهما من قوله « فاعفوا واصفحوا » الآية اعتراض كما تقدم . والضمير لأهل الكتاب كلهم من اليهود والنصارى بقرينة قوله بعده « إلا من كان هوداً أو نصارى » . ومقول القول مختلف باختلاف القائل فاليهود قالت لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، والنصارى قالت لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فجمع القرآن بين قوليهما على طريقة الإيجاز بجمع ما اشتراك فيه وهو نفي دخول الجنة عن المستثنى منه المحذوف لأجل تفريع الاستثناء . ثم جاء بعده تفريق ما اختص به كل فريق وهو قوله « هوداً أو نصارى »

فكلمة أو من كلام الحاكى فى حكايته وليست من الكلام المحكى فأوهنا لتقسيم القولين ليرجع السامع كل قول إلى قائله والقرينة على أن أو ليست من مقولهم المحكى أنه لو كان من مقولهم لاقتضى أن كلا الفريقين لا ثقة له بالنجاة وأنه يمتقد إمكان نجاة مخالفه والمعلوم من حال أهل كل دين خلاف ذلك فإن كلام من اليهود والنصارى لا يشك فى نجاة نفسه ولا يشك فى ضلال مخالفه وهى أيضاً قرينة على تعيين كل من خبرى كان لبقية الجملة المشتركة التى قالها كل فريق بإرجاع هوداً إلى مقول اليهود وإرجاع نصارى إلى مقول النصارى . فأوهنا للتوزيع وهو ضرب من التقسيم الذى هو من فروع كونها لأحد الشيئين وذلك أنه إيجاز مركب من إيجاز الحذف لحذف المستثنى منه ولجمع القولين فى فعل واحد وهو قالوا ومن إيجاز القصر لأن هذا الحذف لما لم يمتد فيه على مجرد القرينة المحوجة لتقدير وإنما دل على المحذوف من القولين بجلب حرف أو كانت أو تعبيراً عن المحذوف بأقل عبارة فينبغى أن يعد قسماً ثالثاً من أقسام الإيجاز وهو إيجاز حذف وقصر معا .

وقد جعل إلتزوينى فى تلخيص الفتاح هاته الآية من قبيل اللف والنشر الإجمالى أخذاً من كلام الكشف لقول صاحب الكشف « فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله وأما من الإلباس لما علم من التعادى بين الفريقين » فقوله فلف بين القولين أراد به اللف الذى هو لقب للمحسن البديعى المسمى اللف والنشر ولذلك تطلبوا لهذا اللف نشرأً وتصويراً للف فى الآية من قوله قالوا مع ما بينه وهو لاف إجمالى يبينه نشره الآتى بعده ولذلك لقبوه اللف الإجمالى . ثم وقع نشر هذا اللف بقوله « إلا من كان هوداً أو نصارى » فعلم من حرف أو توزيع النشر إلى ما يليق بكل فريق من الفريقين . وقال التفترانى فى شرح المفتاح جرى الاستعمال فى النفي الإجمالى أن يذكر نشره بكلمة أو .

والمهود جمع هائد أى متبع اليهودية وقد تقدم عند قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا الآية وجمع فاعل على فعل غير كثير وهو سماعى منه قولهم عوذ جمع عائذ وهى الحديثة النتاج من الظباء والخليل والإبل ومنه أيضاً عائط . وغوط للمرأة التى بقيت سنين لم تلد . وحائل وحول ، وبازل وبزل ، وفاره وفُرّه ، وإنما جاء هوداً جمعاً مع أنه خبر عن ضميره كان وهو مفرد لأن من مفرداً لفظاً ومراد به الجماعة فجرى ضميره على مراعاة لفظه وجرى خبراً وضميراً على مراعاة المعنى . والإشارة بتلك إلى القولة الصادرة منهم لن يدخل الجنة إلا من كان

هوداً أو نصارى كما هو الظاهر فالإخبار عنها بصيغة الجمع إما لأنها لما كانت أمنية كل واحد منهم صارت إلى أمانى كثيرة وإما إرادة أن كل أمانهم كهذه ومعتادهم فيها فيكون من التشبيه البليغ .

والأمانى تقدمت في قوله لا يلمون الكتاب إلا أمانى وجملة تلك أمانهم معترضة .
وقوله « قل هاتوا برهانكم » أمر بأن يجابوا بهذا ولذلك فصله لأنه في سياق المحاوراة كما تقدم عند قوله « قالوا أتجمل فيها » الآية وأتى بإن المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم الصدق لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يمجزون عن البرهان لأن كل اعتقاد لا يقيم معتقده دليل اعتقاده فهو اعتقاد كاذب لأنه لو كان له دليل لاستطاع التعبير عنه ومن باب أولى لا يكون صادقاً عند من يريد أن يروج عليه اعتقاده .

وبلى إبطال لدعواهما . وبلى كلمة يجاب بها المنفى لإثبات تقيض النفي وهو الإثبات سواء وقعت بعد استفهام عن نفي وهو الغالب أو بعد خبر منفي نحو أيجسب الإنسان أن لن يجمع عظامه بلى ، وقول أبى حية التمرى :

يخبرك الواشون أن لن أحبكم بلى وستور الله ذات المحارم
وقوله « من أسلم » جملة مستأنفة عن بلى لجواب سؤال من يتطلب كيف تقض نفي دخول الجنة عن غير هذين الفريقين أريد بها بيان أن الجنة ليست حكرة لأحد ولكن إنما يستحقها من أسلم إلخ لأن قوله فله أجره هو في معنى له دخول الجنة وهو جواب الشرط لأن من شرطية لا محالة . ومن قدر هنا فعلا بعد بلى أى يدخلها من أسلم فإنما أراد تقدير معنى لا تقدير إعراب إذ لا حاجة للتقدير هنا .

وإسلام الوجه لله هو تسليم الذات لأوامر الله تعالى أى شدة الامتثال لأن أسلم بمعنى ألقى السلاح وترك المقاومة قال تعالى فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى . والوجه هنا الذات عبر عن الذات بالوجه لأنه البعض الأشرف من الذات كما قال الشنفرى :
* إذا قطعوا رأسى وفي الرأس أكرهى ^(١) *

(١) مصراع بيت وقامه :

* وغودر عند الملتقى ثم سارى *

ومن إطلاق الوجه على الذات قوله تعالى « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .
وأطلق الوجه على الحقيقة تقول جاء بالأمر على وجهه أى على حقيقته قال الأعشى :
وأول الحكم على وجهه ليس قضاء بالهوى الجائر
ووجوه الناس أشرافهم ويجوز أن يكون أسلم بمعنى أخلص مشتقاً من السلامة أى
جعله سالماً ومنه (ورجلاً سالماً لرجل).

وقوله وهو محسن أى به جملة حالية لإظهار أنه لا يفنى إسلام القلب وحده ولا العمل
بدون إخلاص بل لا نجاة إلا بهما ورحمة الله فوق ذلك إذ لا يخلو امرؤ عن تقصير .
وجمع الضمير في قوله ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون اعتباراً بعموم من كما أفرد الضمير
في قوله وجهه وهو محسن اعتباراً بإفراد اللفظ وهذا من تفنن العربية لدفع سامة التكرار .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ
عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ
فَإِنَّ اللَّهَ يُحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ ﴾ 113

مطوف على قوله وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى زيادة بيان أن
المجازفة دأبهم وأن رعى المخالف لهم بأنه زال شنشنة قديمة فيهم فهم يرمون المخالفين بالضلال
لمجرد المخالفة فقديمًا رمت اليهود النصارى بالضلال ورمت النصارى اليهود بمثل فلا تعجبوا
من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة وفي ذلك إخماء على أهل الكتاب
وتطمين لحواطر المسلمين ودفع الشبهة عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب
في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوئته وثباتاً على شركهم .

والمراد من القول التصريح بالكلام الدال فهم قد قالوا هذا بالصراحة حين جاء وفد
نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أعيان دينهم من النصارى^(١) فلما بلغ مقدمهم

(١) نجران بفتح النون وسكون الجيم قبيلة من عرب اليمن كانوا ينزلون قرية كبيرة تسمى نجران
بين اليمن واليامة وهم على دين النصرانية ولهم الكعبة اليمانية المشهورة وهى كنيسهم التى ذكرها الأعشى
في شعره . وقد وفد وفد منهم على النبي صلى الله عليه وسلم في ستين رجلاً عليهم اثنا عشر ثقبياً =

اليهود أتوهم وهم عند النبي صلى الله عليه وسلم فناظروهم في الدين وجادلوهم حتى تسابوا فكفر
اليهود بعميسى وبالإنجيل وقالوا للنصارى ما أنتم على شيء فكفر وفد نجران بموسى وبالتواترة
وقالوا لليهود لستم على شيء .

وقولهم على شيء نكرة في سياق النفي والشيء الموجود هنا مبالغة أى ليسوا على أمر
يعتد به . فالشيء المنفى هو الشيء العرفى أو باعتبار صفة محذوفة على حد قول عباس
ابن مرداس:

وقد كنت في الحرب ذا تدراً فلم أعط شيئاً ولم أُنم

أى لم أعط شيئاً نافعاً مغنياً بدليل قوله ولم أُنم ، وسئل رسول الله عن الكهان فقال
ليسوا بشيء ، فالصيغة صيغة عموم والمراد بها في مجارى الكلام نفي شيء يعتد به في الغرض
الجارى فيه الكلام بحسب المقامات فهى مستعملة مجازاً كالعام المراد به الخصوص أى ليسوا
على حظ من الحق فالمراد هنا ليست على شيء من الحق وذلك كناية عن عدم صحة ما بين
أيديهم من الكتاب الشرعى فكل فريق من الفريقين رى الآخر بأن ما عنده من الكتاب
لاحظ فيه من الخير كما دل عليه قوله بعده « وهم يتلون الكتاب » فإن قوله « وهم يتلون
الكتاب » جملة حالية جىء بها لمزيد التمجيد من شأنهم أن يقولوا ذلك وكل فريق منهم
يتلون الكتاب وكل كتاب يتلونه مشتمل على الحق لو اتبعه أهله حتى اتباعه ولا يخلو أهل
كتاب حق من أن يتبعوا بعض ما في كتابهم أو جل ما فيه فلا يصدق قول غيرهم أنهم
ليسوا على شيء . وجىء بالجملة الحالية لأن دلالتها على الهيئة أقوى من دلالة الحال المفردة لأن
الجملة الحالية بسبب اشتغالها على نسبة خبرية تفيد أن ما كان حقه أن يكون خبراً عدل به عن
الخبر لادعاء أنه معلوم اتصاف الخبر عنه به فيؤتى به في موقع الحال المفردة على اعتبار
التذكير به ولفت الذهن إليه فصار حالاً . وضمير قوله « هم » عائد إلى الفريقين وقيل عائد إلى
النصارى لأنهم أقرب مذكور . والتعريف في الكتاب جعله صاحب الكشف تعريف
الجنس وهو يرى بذلك إلى أن المقصود أنهم أهل علم كما يقال لهم أهل الكتاب في مقابلة
الأميين ، وحدها إلى ذلك قوله عقبه كذلك قال الذين لا يعلمون فلعنى أنهم تراجعوا بالنسبة

== ورئيسهم السيد وهو عبد المسيح . وأمين الوفد العاقب واسمه الأيهم وكانت وفودهم في السنة الثانية
من الهجرة .

إلى نهاية الضلال وهم من أهل العلم الذين لا يليق بهم المجازفة ومن حقهم الإنصاف بأن يبينوا مواقع الخطأ عند مخالفهم . وجعل ابن عطية التعريف للمهد وجعل المهود التوراة أى لأنها الكتاب الذى يقرأه الفريقان ووجه التعجيب على هذا الوجه أن التوراة هى أصل للنصرانية والإنجيل ناطق بحقيقتها فكيف يسوغ للنصارى ادعاء أنها ليست بشيء كما فعلت نصارى نجران . وأن التوراة ناطقة بمجيء رسل بعد موسى فكيف ساغ لليهود تكذيب رسول النصارى .

وإذا جعل الضمير عائدا للنصارى خاصة يحتمل أن يكون المهود التوراة كما ذكرنا أو الإنجيل الناطق بأحقية التوراة وفي يتلون دلالة على هذا لأنه يصير التعجب مشربا بضرب من الاعتذار أعنى أنهم يقرأون دون تدبر وهذا من التهمك وإلا لقال « وهم يعلمون الكتاب » وبهذا يتبين أن ليست هذه الآية واردة للانتصار لأحد الفريقين أو كليهما .

وقوله « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » أى يشبه هذا القول قول فريق آخر غير الفريقين وهؤلاء الذين لا يعلمون هم مقابل الذين يتلون الكتاب وأريد بهم مشركو العرب وهم لا يعلمون لأنهم أميون وإطلاق الذين لا يعلمون على المشركين وارد فى القرآن من ذلك قوله الآتى « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية » بدليل قوله « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » يعنى كذلك قال اليهود والنصارى : والمعنى هنا أن المشركين كذبوا الأديان كلها اليهودية والنصرانية والإسلام والمقصود من التشبيه تشويه المشبه به بأنه مشابه لقول أهل الضلال البحت .

وهذا استطراد للإلحاء على المشركين فيما قابلوا به الدعوة الإسلامية أى قالوا للمسلمين مثل مقالة أهل الكتابين بعضهم لبعض وقد حكي القرآن مقاتلهم فى قوله « إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » . والتشبيه المستفاد من الكاف فى « كذلك » تشبيه فى الادعاء على أنهم ليسوا على شيء والتقدير مثل ذلك القول الذى قالت اليهود والنصارى قال الذين لا يعلمون ولهذا يكون لفظ مثل قولهم تأكيذا لما أفاده كاف التشبيه وهو تأكيدي يشير إلى أن المشابهة بين قول الذين لا يعلمون وبين قول اليهود والنصارى مشابهة تامة لأنهم لما قالوا « ما أنزل الله على بشر من شيء » قد كذبوا اليهود والنصارى والمسلمين .

وتقديم الجار والمجرور على متعلقه وهو قال إما لجرد الاهتمام ببيان الماثلة وإما ليفنى عن حرف العطف في الانتقال من كلام إلى كلام إيجازاً بديماً لأن مفاد حرف العطف التشريك ومفاد كاف التشبيه انتشريك إذ التشبيه تشريك في الصفة . ولأجل الاهتمام أو لزيادته أكد قوله كذلك بقوله مثل قولهم فهو صفة أيضاً لمعمول قالوا المحذوف أى قالوا مقولاً مثل قولهم . ولك أن تجعل كذلك تأكيداً لمثل قولهم وتعتبر تقديمه من تأخير الأول أظهر . وجوز صاحب الكشف وجماعة أن لا يكون قوله « مثل قولهم » أو قوله « كذلك » تأكيداً للآخر وأن مرجع التشبيه إلى كيفية القول ومنهجه في صدوره عن هوى ، ومرجع الماثلة إلى الماثلة في اللفظ فيكون على كلامه تكريراً في التشبيه من جهتين للدلالة على قوة التشابه .

وقوله « فالله يحكم بينهم » الآية جاء بالفاء لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والحسد متفرع عن هذه المقالات ومسبب عنها وهو خبر مراد به التوبيخ والوعيد والضمير المجرور بإضافة بين راجع إلى الفرق الثلاث وما كانوا فيه يختلفون يعم ما ذكر وغيره والجملة تذييل .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

عطف على « وقالت اليهود ليست النصرى على شيء » باعتبار ما سبق ذلك من الآيات الدالة على أفانين أهل الكتاب في الجراءة وسوء المقالة أى أن قولهم هذا وما تقدمه ظلم ولا كظم من منع مساجد الله وهذا استطراد واقع معترضا بين ذكر أحوال اليهود والنصارى لذكر مساوئ المشركين في سوء تلقيهم دعوة الإسلام الذى جاء لهديهم ونجاتهم . والآية نازلة في مشركى العرب كما في رواية عطاء عن ابن عباس وهو الذى يقتضيه قوله « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » الآية كما سيأتى وهى تشير إلى منع أهل مكة النبىء صلى الله عليه وسلم والمسلمين من الدخول لمكة كما جاء في حديث سعد بن معاذ

حين دخل مكة خفية وقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد أوتيم الصباء ، وتكرر ذلك في عام الحديبية .

وقيل نزلت في مختصر ملك أشور وغزوه بيت المقدس ثلاث غزوات أولاها في سنة ٦٠٦ قبل المسيح زمن الملك يهوياقيم ملك اليهود سبي فيها جما من شعب إسرائيل . والثانية بعد ثمان سنين سبي فيها رؤساء المملكة والملك يهوياكين بن يهوياقيم ونهب المسجد المقدس من جميع نقائسه وكنوزه . والثالثة بعد عشر سنين في زمن الملك صدقيا فأسر الملك وسمل عينيه وأحرق المسجد الأقصى وجميع المدينة وسبي جميع بني إسرائيل وانقرضت بذلك مملكة يهوذا وذلك سنة ٥٧٨ قبل المسيح وتسمى هذه الواقعة بالسبي الثالث فهو في كل ذلك قد منع مسجد بيت المقدس من أن يذكر فيه اسم الله وتسبب في خرابه .

وقيل نزلت في غزو طيطس الروماني لأورشليم سنة ٧٩ قبل المسيح فخرّب بيت المقدس وأحرق التوراة وترك بيت المقدس خرابا إلى أن بناء المسلمون بعد فتح البلاد الشامية . وعلى هاتين الروايتين الأخيرتين لا تظهر مناسبة لذكرها عقب ما تقدم فلا ينبغي بناء التفسير عليهما . والوجه هو التعويل على الرواية الأولى وهي الماثورة عن ابن عباس فللناسبة أنه بعد أن وفي أهل الكتاب حقهم من فضح نواياهم في دين الإسلام وأهله وبيان أن تلك شنشنة متأصلة فيهم مع كل من جاءهم بما يخالف هواهم وكان قد أشار إلى أن المشركين شابهوهم في ذلك عند قوله « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » عطف الكلام إلى بيان ما تفرع عن عدم ودادة المشركين نزول القرآن فبين أن ظلمهم في ذلك لم يبلغه أحد ممن قبلهم إذ منعوا مساجد الله وسدوا طريق الهدى وحالوا بين الناس وبين زيارة المسجد الحرام الذي هو نجرم وسبب مكانتهم وليس هذا شأن طالب صلاح الخلق بل هذا شأن الحاسد المقتاظ .

والاستفهام بمن إنكارى ولما كان أصل من أنها نكرة موصوفة أشربت معنى الاستفهام وكان الاستفهام الإنكارى في معنى النفي صار الكلام من وقوع النكرة في سياق النفي فلذلك فسروه بمعنى لا أحد أعظم .

والظلم الاعتداء على حق الغير بالتصرف فيه بما لا يرضى به ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه والعنيان صالحان هنا .

وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم أتوا بظلم عجيب فقد ظلّموا المسلمين من المسجد الحرام وهم أحق الناس به وظلموا أنفسهم بسوء السمعة بين الأمم .

وجُمِعَ المساجدُ وإن كان المشركون ممنوعوا الكعبة فقط إما للتعظيم فإن الجمع يحى للتعظيم كقوله تعالى « وقوم نوح لما كذبوا رسل أغرقناهم » ، وإما لما فيه من أما كن العبادة وهي البيت والمسجد الحرام ومقام إبراهيم والحطيم ، وإما لما يتصل به أيضا من الخيف ومنى والشعر الحرام وكلها مساجد والإضافة على هذه الوجوه على معنى لام التعريف العهدى ، وإما لقصد دخول جميع مساجد الله لأنه جمع تعرف بالإضافة ووقع في سياق منع الذى هو في معنى النفي ليشمل الوعيد كل مخرب لمسجد أو مانع من العبادة بتعطيله عن إقامة العبادات ويدخل المشركون في ذلك دخولا أوليا على حكم ورود العام على سبب خاص والإضافة على هذا الوجه على معنى لام الاستفراق ولعل ضمير الجمع المنصوب في قوله « أن يدخلوها » يؤيد أن المراد من المساجد مساجد معاومة لأن هذا الوعيد لا يتعدى لكل من منع مسجدا إذ هو عقاب دينوى لا يلزم اطراده في أمثال المعاقب . والمراد من المنع منع العبادة في أوقاتها الخاصة بها كالطواف والجماعة إذا قصد بال منع حرمان فريق من المتأهلين لها منها . وليس منه غلق المساجد في غير أوقات الجماعة لأن صلاة الفذ لا تفضل في المسجد على غيره ، وكذلك غلقها من دخول الصبيان والمسافرين للنوم ، وقد سئل ابن عرفة في درس التفسير عن هذا فقال : غلق باب المسجد في غير أوقات الصلاة حفظ وصيانة اه . وكذلك منع غير المتأهل لدخوله وقد منع رسول الله المشركين الطواف والحج ومنع مالك الكافر من دخول المسجد ومعلوم منع الجنب والحائض .

والسمى أصله المشى ثم صار مجازا مشهورا في التسبب المقصود كالحقيقة العرفية نحو « ثم أدبر سعى » ويمدى بقى الدالة على التعليل نحو : سميت في حاجتك فالنوع هنا حقيقة على الرواية الأولى المتقدمة في سبب النزول والسمى مجاز في التسبب غير المقصود فهو مجاز على مجاز . وأما على الروايتين الأخريين فالنوع مجاز والسمى حقيقة لأن يختص وطيطس لم ينما أحدا من الذكر ولكنهما تسببا في الخراب بالأمر بالتخريب فأفضى ذلك إلى النوع وآل إليه .

وقوله « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » جملة مستأنفة تغني عن سؤال ناشئ عن قوله « من أظلم » أو عن قوله « سعى » لأن السامع إذا علم أن فاعل هذا أظلم الناس أو سمع هذه الجراءة وهي السعى في الخراب تطلب بيان جزاء من اتصف بذلك أو فعل هذا . ويجوز كونها اعتراضا بين من أظلم وقوله لهم في الدنيا خزي .

والإشارة بأولئك بعد إجراء الأوصاف الثلاثة عليهم للتنبيه على أنهم استحضروا بتلك الأوصاف ليخبر عنهم بعد تلك الإشارة بخبرهم جديرون بمضمونه على حد ما تقدم في « أولئك على هدى من ربهم » وهذا يدل على أن المقصود من هذه الجمل ليس هو بيان جزاء فعلهم أو التحذير منه بل المقصود بيان هاته الحالة العجيبة من أحوال المشركين بعد بيان عجائب أهل الكتاب ثم يرتب العقاب على ذلك حتى تعلم جدارتهم به وقد ذكر لهم عقوبتين دنيوية وهي الخوف والخزي وأخروية وهي العذاب العظيم .

ومعنى « ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » أنهم لا يكون لهم بعد هذه الفعلة أن يدخلوا تلك المساجد التي منعوها إلا وهم خائفون فإن ما كان إذا وقع أن المضارع في خبرها تدل على نفي المستقبل وإن كان لفظ كان لفظ الماضي وأن هذه هي التي تستتر عند مجيء اللام نحو ما كان الله ليعذبهم فلا إشعار لهذه الجملة بمضى . واللام في قوله لهم للاستحقاق أى ما كان يحق لهم الدخول في حالة إلا في حالة الخوف فهم حقيقون بها وأحرىاء في علم الله تعالى وهذا وعيد بأنهم قدر الله عليهم أن ترفع أيديهم من التصرف في المسجد الحرام وشعائر الله هناك وتصير للمسلمين فيكونوا بعد ذلك لا يدخلون المسجد الحرام إلا خائفين ، ووعد للمؤمنين وقد صدق الله وعده فكانوا يوم فتح مكة خائفين وجلين حتى نادى منادى النبي صلى الله عليه وسلم من دخل المسجد الحرام فهو آمن فدخله الكثير منهم مذعورين أن يؤخذوا بالسيف قبل دخولهم .

وعلى تفسير « مساجد الله » بالعموم يكون قوله ما كان لهم أن يدخلوها أى منعوا مساجد الله في حال أنهم كان ينبغي لهم أن يدخلوها خاشعين من الله فيفسر الخوف بالخشعية من الله فلذلك كانوا ظالمين بوضع الجبروت في موضع الخضوع فاللام على هذا في قوله ما كان لهم للاختصاص وهذا الوجه وإن فرضه كثير من المفسرين إلا أن مكان اسم الإشارة المؤذن بأن ما بعده ترتب عما قبله ينافيه لأن هذا الابتغاء مقرر وسابق على المنع والسعى في الخراب .

وقوله « لهم في الدنيا خزي » استئناف ثان ولم يعطف على ما قبله ليكون مقصودا بالاستئناف اهتماما به لأن المعطوف لكونه تابعا لا يهتم به السامعون كمال الاهتمام ولأنه يجري من الاستئناف الذي قبله مجرى البيان من المبين فإن الخزي خوف والخزي الذل والهوان وذلك ما نال صناديد المشركين يوم بدر من القتل الشنيع والأسر ، وما نالهم يوم فتح مكة من خزي الانهزام. وقوله « ولهم في الآخرة عذاب عظيم » عطف على ما قبلها لأنها تتميم لها إذ المقصود من مجموعهما أن لهم عذابين عذابا في الدنيا وعذابا في الآخرة .

وعندى أن نزول هذه الآية مؤذن بالاحتجاج على المشركين من سبب انصراف النبي عن استقبال الكعبة بعد هجرته فإن منعمهم المسلمين من المسجد الحرام أشد من استقبال غير الكعبة في الصلاة على حد قوله تعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ».

115

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَنُفِثَ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَالِمٌ﴾

لما جاء بوعيدهم ووعد المؤمنين عطف على ذلك تسليية المؤمنين على خروجهم من مكة ونكاية المشركين بفسخ ابتهاجهم بخروج المؤمنين منها وانفرادهم هم بمزية جوار الكعبة فين أن الأرض كلها لله تعالى وأنها ما تناضلت جهاتها إلا بكونها مظنة للتقرب إليه تعالى وتذكر نعمه وآياته العظيمة فإذا كانت وجهة الإنسان نحو مرضاة الله تعالى فأينما تولى فقد صادف رضى الله تعالى وإذا كانت وجهته الكفر والنور والظلم فما ينبت عنه العياذ بالمواضع المقدسة بل هو فيها دخیل لا يلبث أن يقلع منها قال تعالى « وما كانوا أولياءه إن أولياءه إلا المتقون » وقال صلى الله عليه وسلم في بنى إسرائيل : نحن أحق بموسى منهم. فالمراد من « المشرق والمغرب » في الآية تعميم جهات الأرض لأنها تنقسم بالنسبة إلى مسير الشمس قسمين قسم يبتدىء من حيث تطلع الشمس وقسم ينتهى في حيث تغرب وهو تقسيم اعتبارى كان مشهورا عند المتقدمين لأنه المبني على المشاهدة مناسب لجميع الناس والتقسيم الذاتى للأرض هو تقسيمها إلى شمالي وجنوبي لأنه تقسيم ينبت على اختلاف آثار الحركة الأرضية .

وقد قيل إن هذه الآية إذن للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يتوجه في الصلاة إلى أية جهة شاء ، ولعل مراد هذا القائل أن الآية تشير إلى تلك المشروعية لأن الظاهر أن الآية نزلت قبيل نسخ استقبال بيت المقدس إذ الشأن توالى نزول الآيات وآية نسخ القبلة قريبة الموقع من هذه ، والوجه أن يكون مقصد الآية عاما كما هو الشأن فتشمل الهجرة من مكة والانصراف عن استقبال الكعبة .

وتقديم الظرف للاختصاص أى أن الأرض لله تعالى فقط لا لهم ، فليس لهم حق في منع شيء منها عن عباد الله المخلصين .

و « وجه الله » بمعنى الذات وهو حقيقة لغوية تقول : لوجه زيد أى ذاته كما تقدم عند قوله « من أسلم وجهه لله » وهو هنا كناية عن عمله فحيث أمرهم باستقبال بيت المقدس فرضاه منوط بالامتثال لذلك . وهو أيضاً كناية رمزية عن رضاه بهجرة المؤمنين في سبيل الدين لبلاد الحبشة ثم للمدينة ويؤيد كون الوجه بهذا المعنى قوله في التذييل « إن الله واسع عليم » فقوله « واسع » تذييل لدلول « والله المشرق والمغرب » والمراد سعة ملكه أو سعة تيسيره والمقصود عظمة الله وأنه لا جهة له وإنما الجهات التي يقصد منها رضى الله تفضل غيرها وهو عليم بمن يتوجه لقصد مرضاته وقد فسرت هذه الآية بأنها المراد بها القبلة في الصلاة .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

كُلِّ لَّهُ ۖ قَلْبُتُون ۚ ۝ ١١٦

الضمير المرفوع بقالوا عائد إلى جميع الفرق الثلاث وهي اليهود والنصارى والذين لا يعملون إشارة إلى ضلال آخر اتفق فيه الفرق الثلاث ، وقد قرئ بالواو وقالوا على أنه معطوف على قوله « وقالت اليهود » وهي قراءة الجمهور . وقرأ ابن عامر بدون واو عطف وكذلك ثبتت الآية في المصحف الإمام الوجه إلى الشام فتكون استثناء كأن السامع بعد أن سمع ما مر من عجائب هؤلاء الفرق الثلاث جمعا وتفريقا تسنى له أن يقول لقد أسمعنا من مساويهم عجبا فهل انتهت مساويهم أم لهم مساو أخرى لأن ما سمعناه مؤذن بأنها مساو لا تصدر إلا عن فطر خبيثة .

وقد اجتمع على هذه الضلالة الفرق الثلاث كما اتفقوا على ما قبلها، فقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال المشركون الملائكة بنات الله فتكون هاته الآية رجوعا إلى جمعهم في قرآن إتماما لجمع أحوالهم الواقع في قوله « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين » وفي قوله « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ». وقد ختمت هذه الآية بآية جمعت الفريق الثالث في مقالة أخرى وذلك قوله تعالى « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله » إلى قوله « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم » .

والقول هنا على حقيقته وهو الكلام اللسانى ولذلك نصب الجملة وأريد أنهم اعتقدوا ذلك أيضا لأن الغالب في الكلام أن يكون على وفق الاعتقاد . وقوله « اتخذ الله ولدا » جاء بلفظ اتخذ تعريضا بالاستهزاء بهم بأن كلامهم لا يلتزم لأنهم أثبتوا ولداً لله ويقولون اتخذ الله . والاتخاذ الاكتساب وهو ينافى الولدية إذ الولدية تولد بدون صنع فإذا جاء الصنع جاءت العبودية لاحالة وهذا التخالف هو ما يعبر عنه في علم الجدل بفساد الوضع وهو أن يستنتج وجود الشيء من وجود ضده كما يقول قائل القتلُ جناية عظيمة فلا تكفر مثل الردة .

وأصل هذه المقالة بالنسبة للمشركين ناشئة عن جهالة وبالنسبة لأهل الكتابين ناشئة عن توغلهما في سوء فهم الدين حتى توهموا التشبيهاً والمجازات حقائق فقد ورد وصف الصالحين بأنهم أبناء الله على طريقة التشبيه وورد في كتاب النصارى وصف الله تعالى بأنه أبو عيسى وأبو الأمة فتلقفته عقول لا تعرف التأويل ولا تؤيد اعتقادها بواضح الدليل فظنته على حقيقته . جاء في التوراة في الإصحاح ١٤ من سفر التثنية « أنتم أولاد للرب إلهكم لا تخمشوا أجسامكم » وفي إنجيل متى الإصحاح ٥ « طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يُدْعَوْنَ » وفيه « وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » وفي الإصحاح ٦ « انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوى يقوتها » وتكرر ذلك فى الأناجيل غير مرة ففهموها بسوء الفهم على ظاهر عبارتها ولم يراعوا أصول الديانة التى توجب تأويلها ألا ترى أن المسلمين لما جاءتهم أمثال هاته العبارات أحسنوا تأويلها وتبينوا دليلها كما فى الحديث « اخلق عيال الله » .

وقوله « سبحانه » تزيه الله عن شنيع هذا القول . وفيه إشارة إلى أن الولدية نقص بالنسبة إلى الله تعالى وإن كانت كمالاتها في الشاهد لأنها كانت كمالاتها في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عند العجز والفقر وتسد مكانه عند الاضمحلال والله مثزه عن جميع ذلك فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وبالحاجة إليه .

وقوله « بل له ما في السموات والأرض » إضراب عن قولهم لإبطاله، وأقام الدليل على الإبطال بقوله « له ما في السموات والأرض » فالجملتان استئناف ابتدائي واللام للملك وما في السموات والأرض أى ما هو موجود فإن السموات والأرض هى مجموع العوالم العلوية والسفلية . وما من صيغ العموم تقع على العاقل وغيره وعلى المجموع وهذا هو الأصح الذى ذهب إليه فى الفصل واختاره الرضى . وقيل ما تغلب أو تختص بغير العقلاء ومن تختص بالعقلاء وربما استعمل كل منهما فى الآخر وهذا هو المشتهر بين النحاة وإن كان ضعيفا وعليه فهم يحجبون على نحو هاته الآية بأنها من قبيل التغليب تزيلا للعقلاء فى كونهم من صنع الله بمنزلة مساوية لغيره من بقية الموجودات تصغيرا لشأن كل موجود .

والقنوت الخضوع والالتقياد مع خوف وإنما جاء قانتون بجمع المذكر السالم المختص بالعقلاء تغليباً لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة .

والمضاف إليه المحذوف بعد كل دل عليه قوله « ما فى السموات والأرض » أى كل ما فى السموات والأرض أى العقلاء له قانتون وتنوين كل تنوين عوض عن المضاف إليه وسيأتى بيانه عند قوله تعالى « ولكل وجهة هو موليها » فى هذه السورة . وفى قوله « له قانتون » حجة ثالثة على انتفاء الولد لأن الخضوع من شعار العبيد أما الولد فله إدلال على الوالد وإنما يبره به ولا يقنت ، فكان إثبات القنوت كناية عن انتفاء الولدية بانتفاء لازمها لثبوت مساوى تقيضه ومساوى التقيض تقيض وإثبات التقيض يستلزم نفي ما هو تقيض له .

وفصل جملة « كل له قانتون » لقصد استقلالها بالاستدلال حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله « له ما فى السموات والأرض » .

وقد استدلل بها بعض الفقهاء على أن من ملك ولده أعتق عليه لأن الله تعالى جعل نفي الولدية بإثبات العبودية فدل ذلك على تنافى الماهيتين وهو استرواح حسن .

﴿ يَدْبِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ ﴾ ١١٧

هو بالرفع خبر لمحذوف على طريقة حذف المسند إليه لاتباع الاستعمال كما تقدم في قوله تعالى « صم بكم » وذلك من جنس ما يسمونه بالتمت المقطوع .

والبديع مشتق من الإبداع وهو الإنشاء على غير مثال فهو عبارة عن إنشاء المنشآت على غير مثال سابق وذلك هو خلق أصول الأنواع وما يتولد من متولداتها تخلق السماوات إبداع وخلق الأرض إبداع وخلق آدم إبداع وخلق نظام التناسل إبداع ، وهو فمیل بمعنى فاعل فقيل هو مشتق من بدع المجرد مثل قدر إذا صح وورد بدع بمعنى قدر بقلة أو هو مشتق من أبداع وبحىء فمیل من أفعل قليل ، ومنه قول عمرو بن معديكرب :
أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُوْرِقْنِي وَأَصْحَابِي هَجُوعٌ ^(١)

يريد المسمع . ومنه أيضاً قول كعب بن زهير :

سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ كَأَسَا رَوِيَّةً فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ

أى كأساً مروية . فيكون هنا مما جاء قليلا وقد قدمنا الكلام عليه في قوله تعالى « إنك أنت العليم الحكيم » ويأتى في قوله « بشيراً ونذيراً » . وقد قيل في البيت تأويلات متكلفة والحق أنه استعمال قليل حفظ في ألفاظ من الفصيح غير قليلة مثل النذير والبشير إلا أن قلته لا تخرجه عن الفصاحة لأن شهرته تمنع من جملة غريباً . وأما كونه مخالفا للقياس فلا يمنع من استعماله إلا بالنسبة إلى المولد إذا أراد أن يقيس عليه في مادة أخرى .

(١) أغار الصمة بن بكر الجشمي في خيل من قيس على بني زيد رهط عمرو فسي الصمة بن بكر ربحانة أخت عمرو ولم يستطع عمرو اقتكاها منه ، فرغب من الصمة أن يردها إليه فأبى وذهب بها وهي تنادى يا عمرو يا عمرو فقال عمرو هاته الأبيات وبعدها :

سَبَاها الصَّمَّةُ الْجُشْمِيُّ غَصْبَا كَأَنَّ بِياضَ غُرَّتِهَا صَدِيعُ
وَحَالَتْ دُونَهَا فِرْسَانُ قَيْسٍ تَكْشَفُ عَنْ سَوَاعِدِهَا الدَّرُوعُ
إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعُهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ
وَكَلَّهُ لِلزَّمَانِ فَكُلْ خُطْبَ سَمَّا لَكَ أَوْ سَمَوْتَ لَهُ وَلَوْعُ

هذا هو الصحيح والرواة في هذه القصة اختلافات لا يعتد بها .

وذهب صاحب الكشف إلى أن بديع هنا صفة مشبهة مأخوذ من بدع بضم الدال أى كانت البداعة صفة ذاتية له بتأويل بداعة السماوات والأرض التى هى من مخلوقاته فأضيفت إلى فاعلها الحقيقى على جملة مشبها بالمفعول به وأجريت الصفة على اسم الجلالة ليكون ضميره فاعلها لفظاً على نحو زيد حسن الوجه كما يقال فلان بديع الشعر، أى بديعة مهاباته .

وأما بيت عمرو فإنما عينوه للتظهير ولم يجوزوا فيه احتمال أن يكون السميع بمعنى المسموع لوجوه أحدها أنه لم يرد سميع بمعنى مسموع مع أن فعلاً بمعنى مفعول غير مطرد . الثانى أن سميع وقع وصفاً للذات وهو الداعى وحكم سميع إذا دخلت على ما لا يسمع أن تصوير من أخوات ظن فيلزم مجيء مفعول ثان بعد النائب المستتر وهو مفقود . الثالث أن المعنى ليس على وصف الداعى بأنه مسموع بل على وصفه بأنه مسمع أى الداعى القاصد للإسماع المعلن لصوته وذلك مؤذن بأنه داع فى أمر مهم . ووصف الله تعالى ببديع السماوات والأرض مراد به أنه بديع ما فى السماوات والأرض من المخلوقات وفى هذا الوصف استدلال على نقي بنوة من جعلوه ابناً لله تعالى لأنه تعالى لما كان خالق السماوات والأرض وما فيها . فلا شيء من تلك الموجودات أهل لان يكون ولداً له بل جميع ما بينهما عبيد لله تعالى كما تقدم فى قوله « بل له ما فى السماوات والأرض » ولهذا رتب نقي الولد على كونه « بديع السماوات والأرض » فى سورة الأنعام بقوله « بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء » .

وقوله « وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » إلخ كشف لشبهة النصارى واستدلال على أنه لا يتخذ ولداً بل يكون الكائنات كلها بتكوين واحد وكلها خاضعة لتكوينه وذلك أن النصارى توهموا أن مجيء المسيح من غير أب دليل على أنه ابن الله فبين الله تعالى أن تكوين أحوال الموجودات من لا شيء أعجب من ذلك وأن كل ذلك راجع إلى التكوين والتقدير سواء فى ذلك ما وجد بواسطة تامة أو ناقصة أو بلا واسطة قال تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » فليس تخلق عيسى من أم دون أب بموجب كونه ابن الله تعالى .

وكان فى الآية تامة لا تطلب خبراً أى يقول له يمجّد فيوجد والظاهر أن القول والمقول . والسبب هنا تشثيل لسرعة وجود الكائنات عند تعلق الإرادة والقدرة بهما بأن شبه فعل الله

تعالى بتكوين شيء وحصول المكون عقب ذلك بدون مهلة بتوجه الأمر للأمور بكلمة الأمر وحصول امتثاله عقب ذلك لأن تلك أقرب الحالات المتعارفة التي يمكن التقريب بها في الأمور التي لا تتسع اللغة للتعبير عنها وإلى نحو هذا مال صاحب الكشف ونظره بقول أبي النجم :

إِذْ قَالَتِ الْأَنْسَاءُ لِلْبَطْنِ الْحَقُّ قَدْ مَا فَاضَتْ كَالْفَنَيْقِ الْمُحْنَقِ^(١)

والذي يعين كون هذا تمثيلاً أنه لا يتصور خطاب من ليس بموجود بأن يكون موجوداً فليس هذا التقرير الصادر من الزخشرى مبنياً على منع المعتزلة قيام صفة الكلام بذاته تعالى إذ ليس في الآية ما يلجئهم إلى اعتبار قيام صفة الكلام إذ كان يمكنهم تأويله بما تأولوا به آيات كثيرة ولذلك سكنت عنه ابن المنير خلافاً لما يوهمه كلام ابن عطية .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ يَتَنَا آلَاءُ لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ ﴾ 118

عطف على قوله « وقالوا اتخذ الله ولداً » المطفوف على قوله « وقالت اليهود ليست النصرارى » . لمناسبة اشتراك المشركين واليهود والنصارى في الأقوال والمقائد الضالة إلا أنه قدم قول أهل الكتاب في الآية الماضية وهي وقالت اليهود لأنهم الذين ابتدأوا بذلك أيام مجادلهم في تفاضل أديانهم ويومئذ لم يكن للمشركين ما يوجب الاشتغال بذلك إلى أن جاء الإسلام فقالوا مثل قول أهل الكتاب . وجمع الكل في « وقالوا اتخذ الله ولداً » إلا أنه لم يكن فريق من الثلاثة فيه مقتبساً من الآخر بل جميعه ناشئ من الغلو في تقديس الموجودات الفاضلة ومنشؤه سوء الفهم في العقيدة سواء كانت مأخوذة من كتاب كما تقدم في منشأ قول

(١) الأنساع جمع نسع وهو الحزام الذي يشد على بطن الراحلة . ومعنى قولها للبطن ألحق أنها شددت على البطن حتى ضم البطن والتحق بالظهر . والقدم بضم القاف وضم الدال المضى سريعا وسكنه للضرورة والفنيق : الفحل : والحنيق : الضامر .

أهل الكتابين « اتخذ الله ولداً » أم مأخوذة من أقوال قاداتهم كما قالت العرب : الملائكة بنات الله . وقدم قول المشركين هنا لأن هذا القول أعلق بالمشركين إذ هو جديد فيهم وفاش بينهم . فلما كانوا مخترعي هذا القول نسب إليهم ، ثم نظر بهم الذين من قبلهم وهم اليهود والنصارى . إذ قالوا مثل ذلك لرسلهم .

ولولا هنا حرف تخصيص قصد منه التعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرسول استكباراً بأن عدوا أنفسهم أحرىاء بالرسالة وسماع كلام الله تعالى وهذا مبالغة في الجهالة لا يقولها أهل الكتاب الذين أثبتوا الرسالة والحاجة إلى الرسل .

وقوله ، أو تأتينا آيةً أرادوا مطلق آية فالتنكير للنوعية وحينئذ فهو مكابرة وجحود لما جاءهم من الآيات وحسبك بأعظمها وهو القرآن وهذا هو الظاهر من التنكير وقد سألوا آيات مقترحات ، وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً والآيات وهم يحسبون أن الآيات هي عجائب الحوادث أو المخلوقات وما دروا أن الآية العلمية العقلية أوضح المعجزات لعمومها ودوامها وقد تحداهم الرسول بالقرآن فجزوا عن معارضته وكفاهم بذلك آية لو كانوا أهل إنصاف .

وقوله « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » أى كمثل مقالاتهم هذه قال الذين من قبلهم من الأمم مثل قولهم والمراد بالذين من قبلهم اليهود والنصارى فقد قال اليهود لموسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة وسأل النصارى عيسى هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء .

وفي هذا الكلام تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن ما لقيه من قومه مثل ما لاقاه الرسل قبله ولذلك أردفت هذه الآية بقوله « إنا أرسلناك بالحق » الآية . ثم يجوز أن تكون جملة « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » واقعة موقع الجواب لقالة الذين لا يعلمون وهو جواب إجمالي اقتصر فيه على تنظير حالهم بحال من قبلهم فيكون ذلك التنظير كناية عن الإعراض عن جواب مقالهم وأنه لا يستأهل أن يجاب لأنهم ليسوا بمرتبة من يكلمهم الله وليست أفهامهم بأهل لإدراك ما في نزول القرآن من أعظم آية وتكون جملة « تشابهت قلوبهم » تقريراً أى تشابهت عقولهم في الأفق وسوء النظر . وتكون جملة « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » تعليلاً للإعراض عن جوابهم بأنهم غير أهل للجواب لأن أهل الجواب هم القوم الذين

يوقنون وقد بينت لهم آيات القرآن بما اشتملت عليه من الدلائل، وأما هؤلاء فليسوا أهلاً للجواب لأنهم ليسوا بقوم يوقنون بل ديدنهم المبكارة .

ويجوز أن تكون جملة كذلك قال إلى آخرها معترضة بين جملة وقال الذين لا يعلمون وبين جملة قد بينا الآيات وتجمل جملة قد بينا الآيات هي الجواب عن مقالهم والمعنى لقد أتاكم الآية وهي آيات القرآن ولكن لا يعقلها إلا الذين يوقنون أي دونكم فيكون على وزن قوله تعالى « أو لم يكنهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » . ووقع الإعراض عن جواب قولهم لولا يكلمنا الله لأنه بديهي البطلان كما قال تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً .

والقول في مرجع التشبيه والمماثلة من قوله « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » على نحو القول في الآية الماضية « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .

وقوله تشابهت قلوبهم، تقرير لمعنى قال الذين من قبلهم مثل قولهم، أي كانت عقولهم متشابهة في الأفق وسوء النظر فلذا اتحدوا في المقالة . فالقلوب هنا بمعنى العقول كما هو المتعارف في اللغة العربية . وقوله تشابهت صيغة من صيغ التشبيه وهي أقوى فيه من حروفه وأقرب بالتشبيه البليغ، ومن محاسن ما جاء في ذلك قول الصابي :

تشابه دمعى إذ جرى ومُدَامَيتى فَمِنْ مِثْلِ مَا فِى الْكَأْسِ عَيْنِى تَسْكُبُ

وفي هذه الآية جعلت اليهود والنصارى مماثلين للمشركين في هذه المقالة لأن المشركين أعرق فيها إذ هم أشركوا مع الله غيره فليس ادعاؤهم ولداً لله بأكثر من ادعائهم شركة الأصنام مع الله في الإلهية فكان اليهود والنصارى ملحقين بهم لأن دعوى الابن لله طرأت عليهم ولم تكن من أصل ملتهم وبهذا الأسلوب تأتى الرجوع إلى بيان أحوال أهل الكتابين الخاصة بهم وذلك من رد المعجز على الصدر .

وجيء بالفعل المضارع في يوقنون لدلالته على التجدد والاستمرار كناية عن كون الإيمان خلقاً لهم فأما الذين دأبهم الإعراض عن النظر والمكبارة بعد ظهور الحق فإن الإعراض يحول دون حصول اليقين والمكبارة تحول عن الانتفاع به فكأنه لم يحصل فأصحاب هذين الخلقين ليسوا من الموقنين .

وتبيين الآيات هو ما جاء من القرآن المعجز للبشر الذي تحدى به جميعهم فلم يستطيعوا الإتيان بمثله كما تقدم، وفي الحديث «ما من الأنبياء نبيء إلا أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» فالمنى قد بينا الآيات لقوم من شأنهم أن يوقفوا ولا يشككوا أنفسهم أو يعرضوا حتى يحول ذلك بينهم وبين الإيقان أو يكون المنى قد بينا الآيات لقوم يظهرن اليقين ويمترفون بالحق لا لقوم مثلكم من الكافرين .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾¹¹⁹

جملة معترضة بين حكايات أحوال المشركين وأهل الكتاب القصد منها تأنيس الرسول عليه الصلاة والسلام من أسفه على ما لقيه من أهل الكتاب مما يماثل ما لقيه من المشركين وقد كان يود أن يؤمن به أهل الكتاب فيتأيد بهم الإسلام على المشركين فإذا هو يلقى منهم ما لقي من المشركين أو أشد وقد قال لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلهم فكان لتذكير الله إياه بأنه أرسله تهديئة لخاطره الشريف وعذره إذ أبلغ الرسالة وتطمين لنفسه بأنه غير مسئول عن قوم رضوا لأنفسهم بالجحيم . وفيه تمهيد للتأنيس من إيمان اليهود والنصارى . وجيء بالتأكيد وإن كان النبيء لا يتردد في ذلك لمزيد الاهتمام بهذا الخبر وبيان أنه ينوء به لما تضمنه من تنويه شأن الرسول .

وجيء بالسند إليه ضمير الجلالة تشريفاً للنبيء صلى الله عليه وسلم بجز الحضور لمقام التكلم مع الخالق تعالى وتقدس كأن الله يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة فلذا لم يقل له إن الله أرسلك . وقوله بالحق متعلق بإرسالناك . والحق هو الهدى والإسلام والقرآن وغير ذلك من وجوه الحق والمعجزات وهي كلها ملابسة للنبيء صلى الله عليه وسلم في رسالته بعضها بملاسة التبليغ وبعضها بملاسة التأييد . فالمنى إنك رسول الله وأن القرآن حق منزل من الله .

وقوله بشيرا ونذيرا حالان وهما بزنة فعيل بمعنى فاعل مأخوذان من بشر المضاعف وأنذر المزيد فجيئتهما من الرباعي على خلاف القياس كالقول في بديع السماوات والأرض المتقدم آقا وقيل البشير مشتق من بشر الخفف الشين من باب نصر ولا داعي إليه .

وقوله «ولا تسأل عن أصحاب الجحيم» الواو للعطف وهو إما على جملة «إنا أرسلناك» أو على الحال في قوله بشيرا ونذيرا ويجوز كون الواو للحال . قرأ نافع ويعقوب بفتح الفوقية وسكون اللام على أن لا حرف نهى جازم للمضارع وهو عطف إنشاء على خبر والسؤال هنا مستعمل في الاهتمام والتطلع إلى معرفة الحال مجازاً مرسلًا بملافة اللزوم لأن المعنى بالشئ المتطلع لمعرفة أحواله يكثر من السؤال عنه . أو هو كناية عن فظاعة أحوال المشركين والكافرين حتى إن المتفكر في مصير حالهم ينهى عن الاشتغال بذلك لأنها أحوال لا يحيط بها الوصف ولا يبلغ إلى كنهها العقل في فظاعتها وشناعتها ، وذلك أن النهى عن السؤال يرد لمعنى تعظيم أمر المسؤول عنه نحو قول عائشة « يصلى أربعمائة فلا تسأل عن حسنهن وطولهن » ولهذا شاع عند أهل العلم إلقاء المسائل الصعبة بطريقة السؤال نحو (فإن قلت) للاهتمام .

وقراء جمهور العشرة بضم الفوقية ورفع اللام على أن لا نافية أى لا يسألك الله عن أصحاب الجحيم وهو تقرير لمضمون « إنا أرسلناك بالحق » والسؤال كناية عن المؤاخذة واللوم مثل قوله صلى الله عليه وسلم « وكلكم مسئولون عن رعيتهم » أى لست مؤاخذا ببقاء الكافرين على كفرهم بعد أن بلغت لهم الدعوة .

وما قيل إن الآية نزلت في نهيه صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافيا للبلاغة إذ قد علمت أن قوله «إنا أرسلناك» تأنيس وتسكين فالإتيان معه بما يذكر المكدرات خروج عن الغرض وهو مما يعبر عنه بفساد الوضع .

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ 120

عطف على قوله «ولا تسأل عن أصحاب الجحيم» أو على «إنا أرسلناك» وقد جاء هذا الكلام المؤيس من إيمانهم بعد أن قدم قبله التأنيس والتسلية على نحو مجيء العتاب بعد تقديم العفو في قوله تعالى « عفا الله عنك لم أذنت لهم » وهذا من كرامة الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم .

والنفي بلن مبالغة في التأييس لأنها لنفي المستقبل وتأنيده . والملة بكسر الميم الدين والشريعة وهى مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من الناس يتفقون عليها وتكون جامعة لهم كطريقة يتبعونها ، ويحتفل أنها مشتقة من أمل الكتاب فسميت الشريعة ملة لأن الرسول أو واضع الدين يعلمها للناس ويعلمها عليهم كما سميت ديناً باعتبار قبول الأمة لها وطاعتهم واتباعهم . ومعنى الغاية فى « حتى تتبع ملتهم » الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملتهم فهم لا يتبعون ملته ، ولما كان اتباع النبي ملتهم مستحيلاً كان رضاهم عنه كذلك على حدٍ حتى يلج الجمل فى سم الخياط وقوله « لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » والتصریح بلا النافية بعد حرف العطف فى قوله « ولا النصارى » للتخصيص على استقلالهم بالنفى وعدم الاقتناع باتباع حرف العطف لأنهم كانوا يظن بهم خلاف ذلك لإظهارهم شيئاً من المودة للمسلمين كما فى قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » وقد تضمنت هذه الآية أنهم لا يؤمنون بالنبي لأنه غير متبع ملتهم وأنهم لا يصدقون القرآن لأنه جاء بنسخ كتابهم .

وقوله « قل إن هدى الله هو الهدى » أمر بالجواب عما تضمنه قوله « ولن ترضى » من خلاصة أقوالهم يقتضى مضمونها أنهم لا يرضيهم شئ مما يدعوهم النبي إليه إلا أن يتبع ملتهم وأنهم يقولون إن ملتهم هدى فلا ضير عليه إن اتبعها مثل قولهم « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » وغير ذلك من التلون فى الإعراض عن الدعوة ولذلك جىء فى جوابهم بما هو الأسلوب فى المجاوبة من فعل القول بدون حرف العطف .

ويجوز أن يكونوا قد قالوا ما تضمنته الآية من قوله « حتى تتبع ملتهم » . وهدى الله ما يقدره للشخص من التوفيق أى قل لهم لا أمل لك من هدى إلا أن يهديكم الله ، فالقصر حقيقى . ويجوز أن يكون المراد بهدى الله الذى أنزله إلى هو الهدى يعنى أن القرآن هو الهدى إبطالا لغورهم بأن ما هم عليه من الملة هو الهدى وأن ما خالفه ضلال . والمعنى أن القرآن هو الهدى وما أنتم عليه ليس من الهدى لأن أكثره من الباطل . فإضافة الهدى إلى الله تشریف ، والقصر إضافى . وفيه تعريض بأن ما هم عليه يومئذ شئ حرفوه ووضعوه . فيكون القصر إما حقيقياً ادعائياً بأن يراد هو الهدى الكامل فى الهداية فهدى غيره من الكتب السماوية

بالنسبة إلى هدى القرآن كلاً هدى لأن هدى القرآن أعم وأكمل فلا ينافي إثبات الهداية لكتابهم كما في قوله تعالى « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » وقوله « وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة » وإما قصرأ إضافيا أى هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مبدلة مشوبة بضلالات وبذلك أيضاً لا ينتفى الهدى عن كثير من التعاليم والنصايح الصالحة الصادرة عن الحكماء وأهل العقول الراجحة والتجربة لكنه هدى ناقص .

وقوله « هو الهدى » الضمير ضمير فصل . والتعريف فى الهدى تعريف الجنس الدال على الاستغراق ففيه طريقان من طرق الحصر هما ضمير الفصل وتعريف الجزأين . وفى الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به فأيهما اعتبرته طريق قصر كان الآخر تأكيداً للقصر وللخبر أيضاً . والتوكيد يان لتحقيق الخبر وتحقيق نسبه وإبطال تردد المتردد لأن القصر الإضافى لما كان المقصود منه رد اعتقاد المخاطب قد لا يتفطر . حطب إلى ما يقتضيه من التأكيد فزيد هنا مؤكد آخر وهو حرف (إن) اهتماماً بتأكيد هذا الحكم . فقد اجتمع فى هذه الجملة عدة مؤكدات هى : حرف إن . والقصر ، إذ القصر تأكيد على تأكيد كما فى المفتاح فهو فى قوة مؤكدين ، مع تأكيد القصر بضمير الفصل وهى تنحل إلى أربعة مؤكدات لأن القصر بمنزلة تأكيدين وقد انضم إليهما تأكيد القصر بضمير الفصل وتأكد الجملة بحرف إن .

ولعل الآية تشير إلى أن استقبال النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة إلى القبلة التى يستقبلها اليهود لقطع معذرة اليهود كما سيأتى فى قوله تعالى « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » ، فأعلم رسوله بقوله « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى » بأن ذلك لا يلين من تصلب اليهود فى عنادهم فتكون إيماء إلى تمهيد نسخ استقبال بيت المقدس .

وقوله « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم » . اللام موطئة للقسم وذلك توكيد للخبر وتحقيق له . وعبر عن طريقهم هنالك بالملة نظرا لاعتقادهم وشهرة ذلك عند العرب ، وعبر عنها هنا بالأهواء بعد أن مهد له بقوله « إن هدى الله هو الهدى » فإن الهوى

رأى ناشئ عن شهوة لا عن دليل ، ولهذا لم يؤت بالضمير الراجع لليلة وعبر عنها بالاسم الظاهر فشملت أهواؤهم التكذيب بالنبي وبالقرآن واعتقادهم أن ملتهم لا ينقضها شرع آخر .

وقوله « مالك من الله من ولى ولا نصير » تحذير لكل من تلقى الإسلام أن لا يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى ، جاء على طريقة تحذير النبي صلى الله عليه وسلم مثل « لئن أشركت ليحبطن عملك » وهو جواب القسم ودليل جواب الشرط لأن اللام موطئة للقسم فالجواب لها . وجيء بإن الشرطية التي تأتي في مواقع عدم القطع بوقوع شرطها لأن هذا فرض ضعيف في شأن النبي والمسلمين . والولى القريب والحليف .

والنصير كل من يعين أحدا على من يريد به ضرا وكلاهما فعيل بمعنى فاعل ، ومن في قوله من الله متعلقة بولى لتضمينه معنى مانع من عقابه ويقدر مثله بعد ولا نصير أى نصير من الله . و (من) في قوله من ولى مؤكدة للنفي . وعطف النصير على الولي احتراسا لأن نفي الولي لا يقتضى نفي كل نصير إذ لا يكون لأحد ولى لكونه دخيلا في قبيلة ويكون أنصاره من جبرته . وكان القصد من نفي الولاية التعريض بهم في اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فنفي ذلك عنهم حيث لم يتبعوا دعوة الإسلام ثم نفي الأعم منه وهذه نكتة عدم الاختصار على نفي الأعم .

وقد اشتملت جملة « ولئن اتبعت أهواءهم » إلى آخرها على تحذير من الطمع في استثناء اليهود أو النصارى بشيء من استرضائهم طمعا في إسلامهم بتألف قلوبهم فأكد ذلك التحذير بمشرة مؤكدة وهى القسم المدلول عليه باللام الموطئة للقسم . وتأكيده جملة الجزاء بإن . وبلاد الابتداء في خبرها . واسمية جملة الجزاء وهى مالك من الله من ولى ولا نصير . وتأكيده النفي بين في قوله من ولى . والاحمال ثم التفصيل بذكر اسم الموصول وتبيينه بقوله من العلم . وجعل الذى جاء (أى أنزل إليه) هو العلم كله لعدم الاعتداد بغيره لنقصانه . وتأكيده من ولى بمطف ولا نصير الذى هو آيل إلى معناه وإن اختلف مفهومه ، فهو كالتأكيده بالمرادف .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ١٢١

استئناف ناشئ عن قوله « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى » مع قوله « إن هدى الله هو الهدى » لتضمنه أن اليهود والنصارى ليسوا يومئذ على شيء من الهدى كأن سائلا سأل كيف وهم متمسكون بشريعة ومن الذى هو على هدى ممن اتبع هاتين الشريعتين .

فأجيب بأن الذين أوتوا الكتاب وتلوه حق تلاوته هم الذين يؤمنون به . ويجوز أن يكون اعتراضا فى آخر الكلام لبيان حال المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب لقصد إبطال اعتقادهم أنهم على التمسك بالإيمان بالكتاب . وهو ينظر إلى قوله تعالى « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه » الخ . وهو صدر هاته المحاورات وما تخللها من الأمثال والعبر والبيان . فقوله « الذين آتيناهم الكتاب » فذلك لما تقدم وجواب قاطع لمذرتهم المتقدمة وهو من باب رد العجز على الصدر . ولأحد هذين الوجهين فصلت الجملة ولم تعطف لأنها فى معنى الجواب ، ولأن المحكى بها مبين لما يقابله المتضمن له قوله « قالوا نؤمن بما أنزل علينا » ولما انتقل منه إليه وهو قوله « وقالوا اتخذ الله ولدا » وقوله « وقال الذين لا يعلمون » . وقوله « يتلون حق تلاوته » حال من الذين أوتوا الكتاب إذ هم الآن يتلون حق تلاوته . وانتصب حق تلاوته على المفعول المطلق وإضافته إلى المصدر من إضافة الصفة إلى الموصوف أى تلاوة حقا .

والحق هنا ضد الباطل أى تلاوة مستوفية قوام نوعها لا ينقصها شيء مما يعتبر فى التلاوة وتلك هى التلاوة بفهم مقاصد الكلام المتلوفان الكلام يراد منه إفهام السامع فإذا تلاه القارىء ولم يفهم جميع ما أراده فأنه كانت تلاوته غامضة فحق التلاوة هو العلم بما فى المتلو .

وقوله « أولئك يؤمنون به » جملة هى خبر المبتدأ وهو اسم الموصول ، وجيء باسم الإشارة فى تعريفهم دون الضمير وغيره للتنبيه على أن الأوصاف المتقدمة التى استحضروا

بواسطة حتى أشير إليهم باتصافهم بها هي الموجبة لجدارتهم بالحكم المسند لاسم الإشارة على حد أولئك على هدى من ربهم فلا شك أن تلاوتهم الكتاب حق تلاوته تثبت لهم أوحديتهم بالإيمان بذلك الكتاب لأن إيمان غيرهم به كالمعدم . فالقصر ادعائي . فضمير به راجع إلى الكتاب من قوله الذين آتيناهم الكتاب . وإذا كانوا هم المؤمنون به كانوا مؤمنين بحمد صلى الله عليه وسلم لانطباق الصفات التي في كتبهم عليه ولأنهم مأخوذ عليهم العهد أن يؤمنوا بالرسول الملقى وأن يجتهدوا في التمييز بين الصادق من الأنبياء والكذبة حتى يستيقنوا انطباق الصفات على النبي الموعود به فن هنا قال بعض المفسرين إن ضمير به عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يتقدم له معاد .

ويجوز أن يعود الضمير من قوله يؤمنون به إلى الهدى في قوله قل إن الهدى هدى الله ، أى يؤمنون بالقرآن أنه منزل من الله فالضمير المجرور بالباء راجع للكتاب في قوله آتيناهم الكتاب والمراد به التوراة والإنجيل واللام للجنس أو التوراة فقط لأنها معظم الدينين والإنجيل تكملة فللام العهد . ومن هؤلاء عبد الله بن سلام من اليهود وعدى بن حاتم وتميم الداري من النصارى .

والقول في قوله «ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون» كالقول في أولئك يؤمنون به وهو تصريح بحكم مفهوم أولئك يؤمنون به وفيه اكتفاء عن التصريح بحكم المنطوق وهو أن المؤمنين به هم الراجحون ففي الآية إيجاز بديع لدلالاتها على أن الذين أوتوا الكتاب يتلونهم حق تلاوته هم المؤمنون دون غيرهم فهم كفرون فالؤمنون به هم الفائزون والكافرون هم الخاسرون .

﴿يَلْبَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْ كُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ 123

أعيد نداء بنى إسرائيل نداء انتبيه والإنذار والتذكير على طريقة التكرير في القرض الذي سبق الكلام الماضي لأجله فإنه ابتداء نداءهم أولاً بمثل هاته الموعظة في ابتداء التذكير

بأحوالهم الكثيرة خيرها وشرها عقب قوله « وأنهم إليه راجعون » فذكر مثل هاته الجملة هناك كذكر المطلوب في صناعة المنطق قبل إقامة البرهان وذكرها هنا كذكر النتيجة في المنطق عقب البرهان تأييداً لما تقدم وفذلكة له وهو من ضروب رد العجز على الصدر .

وقد أعيدت هذه الآية بالألفاظ التي ذكرت بها هناك للتنبيه على نكتة التكرير للتذكير ولم يخالف بين الآيتين إلا في الترتيب بين العدل والشفاعة فهناك قدم ولا يقبل منها شفاعة وآخر ولا يؤخذ منها عدل وهنا قدم « ولا يقبل منها عدل » وآخر لفظ الشفاعة مسنداً إليه تنفعها وهو تفنن والتفنن في الكلام تنقضي به سامة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير، وقد حصل مع التفنن نكتة لطيفة إذ جاءت الشفاعة في الآية السابقة مسنداً إليها المقبولية فقدمت على العدل بسبب نفي قبولها ونفي قبول الشفاعة لا يقتضي نفي أخذ الفداء فعطف نفي أخذ الفداء للاحتراس . وأما في هذه الآية فقدم الفداء لأنه أسند إليه المقبولية ونفي قبول الفداء لا يقتضي نفي نفع الشفاعة فعطف نفي نفع الشفاعة على نفي قبول الفداء للاحتراس أيضاً . والحاصل أن الذي نفي عنه أن يكون مقبولا قد جعل في الآيتين أولاً وذكر الآخر بعده . وأما نفي القبول مرة عن الشفاعة ومرة عن العدل فلأن أحوال الأقوام في طلب الفكاك عن الجناة تختلف فمرة يقدمون الفداء فإذا لم يقبل قدموا الشفعاء . ومرة يقدمون الشفعاء فإذا لم تقبل شفاعتهم عرضوا الفداء .

وقوله « ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » مراد منه أنه لا عدل فيقبل ولا شفاعة شفيح يجدونه فتقبل شفاعته لأن دفع الفداء متعذر وتوسط الشفيح لثلمهم ممنوع إذ لا يشفع الشفيح إلا لمن أذن الله له . قال ابن عرفة فيكون نفي نفع الشفاعة هنا من باب قوله * على لا حب لا يهتدى بمناره *^(١) يريد أنها كناية عن نفي الموصوف بنفي صفته الملازمة

(١) فائله امرؤ القيس، وقبلة:

وإني زعيم إن رجعت مملكا بسير ترى منه الفراق أزدرا

على لا حب إلخ . . . إذا سافه العوذ الدنيا في جرجرا

الفراق بضم الفاء وكسر النون هو الذي يدل صاحب البريد . وأزدرا أفعل تفضيل لغة في أصدرنا قرى بها قوله تعالى « يومئذ يصدر الناس أشتاتا » . والاحب : الطريق الواسع . والنار : العلامة . وسافه : مشه . والديافي منسوب إلى دياف - بكسر الدال - قرية تنسب لها كرام الإبل . وجرجرا : =

له كقولهم * ولا ترى الضب بها ينجر *^(١) ، وهو ما يعبر عنه المنطقة بأن السالبة تصدق مع نفي الموضوع وإنما يكون ذلك بطريق الكناية وأما أن يكون استمالة في أصل العربية فلا والمنطقة تبعوا فيه أساليب اليونان .

والقول في بقية الآيات مستغنى عنه بما تقدم في نظيرتها .

وهنا ختم الحجاج مع أهل الكتاب في هذه السورة وذلك من براعة المقطع .

﴿وَإِذْ أَسْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ رَبُّهُ يُكَلِّمُتِ فَأَتَمَّتْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا
قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ 124

لما كملت الحجج نهوضاً على أهل الكتابين ومشركي العرب في عميق ضلالهم بإعراضهم عن الإسلام ، وتبين سوء نواياهم التي حالت دون الاهتداء بهديه والاتفاف بفضل ، وسجل ذلك على زعماء الماندين أعني اليهود ابتداء بقوله « يا بني إسرائيل » مرتين ، وأدمج معهم النصراني استطراداً مقصوداً ، ثم أنصف النصفون منهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته ، انتقل إلى توجيه التوبيخ والتذكير إلى العرب الذين يزعمون أنهم أفضل ذرية إبراهيم وأنهم يتعلقون بملته ، وأنهم زرع إسماعيل وسدنة البيت الذي بناه ، وكانوا قد وُخزوا بجانب من التعريض في خلال المحاورات التي جرت مع أهل الكتاب للصفة التي جمعهم وإياهم من حسد النبيء والمسلمين على ما أنزل عليهم من خير ، ومن قولهم ليس المسلمون على شيء ، ومن قولهم اتخذ الله ولداً ، ومن قولهم لولا يكلمنا الله . فلما أخذ اليهود والنصارى حظهم من الإنذار والموعظة كاملاً فيما اختصوا به ، وأخذوا مع المشركين حظهم من ذلك فيما اشتركوا فيه تهيأ المقام للتوجه إلى مشركي العرب لإعطائهم حظهم من الموعظة كاملاً فيما

== أي صوت. والمعنى أنه بعد أنه إذا رجع ليعيد السير في طريق صعبة المسالك . وفي شرح التفتراني على المفتاح في باب الإيجاز والإطناب ذكر أول هذا البيت هكذا :

سدا بيديه ثم أج بسيره . على لاحق ... الخ

قال وهو في وصف ظليم وسدا بمعنى مد وهو مجاز عن السرعة. وأج الظليم إذا جرى وسمع له خفيف.

(١) ينجر أي يدخل جعره وهو يجيم ثم جاء . وقبل هذا المصراع قوله :

* لا تفرغ الأرنب أهوالها * كذا في شرح التفتراني على المفتاح في باب الإيجاز .

اختصوا به ، فمناسبة ذكر فضائل إبراهيم ومنزلته عند ربه ودعوته لعقبه عقب ذكر أحوال
بنى إسرائيل ، هي الاتحاد في المقصد ، فإن المقصود من تذكير بنى إسرائيل بالنعم ،
والتخويف ، تحريضهم على الإنصاف في تلقى الدعوة الإسلامية والتجرد من الكارّة والحسد
وترك الحظوظ الدنيوية لنيل السعادة الآخروية .

والمقصود من ذكر قصة إبراهيم موعظة المشركين ابتداء وبنى إسرائيل تبعاله ، لأن
العرب أشد اختصاصاً بإبراهيم من حيث إنهم يزيدون على نسبهم إليه بكونهم حفظة حرمة ،
ومنتمين قديماً للحنيفية ولم يطرأ عليهم دين يخالف الحنيفية بخلاف أهل الكتابين .

تحقيق أن نجمل قوله وإذا ابتلى عطفاً على قوله تعالى « وإذا قال ربك للملائكة
إني جاعل في الأرض خليفة » كما دل عليه افتتاحه بإذ على نحو افتتاح ذكر
خلق آدم بقوله « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » فإن الأول تذكير
بنعمة الخلق الأول وقد وقع عقب التعجب من كفر المشركين بالخالق في قوله « كيف
تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم » ، ثم عقت تلك التذكرة بإنذار من يكفر بآيات
الله من ذرية آدم بقوله « فإما يأتينكم مني هدى » الآية ، ثم خص من بين ذرية آدم
بنو إسرائيل الذين عهد إليهم على لسان موسى عهد الإيمان وتصديق الرسول الذي يجيء
مصدقاً لما معهم ، لأنهم صاروا بمنزلة الشهداء على ذرية آدم . فتهيأ المقام لتذكير الفريقين
بأنبيهم الأقرب وهو إبراهيم أى وجه يكون المقصود بالخطاب فيه ابتداء العرب ، ويضم
الفريق الآخر معهم في قرن ، ولذلك كان معظم الثناء على إبراهيم بذكر بناء البيت الحرام
وما تبعه إلى أن ذكرت القبلة وسط ذلك ، ثم طوى بالانتقال إلى ذكر سلف بنى إسرائيل
بقوله « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت » ليفضى إلى قوله « وقالوا كونوا هوداً أو
نصارى تهتدوا » فيرجع إلى تفضيل الحنيفية والإعلام بأنها أصل الإسلام وأن المشركين
ليسوا في شيء منها وكذلك اليهود والنصارى . وقد افتتح ذكر هذين الطورين بفضل ذكر
فضل الأبوين آدم وإبراهيم ، فجاء الخبران على أسلوب واحد على أبداع وجه وأحكم نظم .
فتمين أن تقدير الكلام وإذا ذكر إذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات .

ومن الناس من زعم أن قوله وإذا ابتلى عطف على قوله (رغمتمى) أى اذكروا نعمتى وابتلائى

إبراهيم ، ويلزمه تخصيص هاته الموعظة ببني إسرائيل ، وتخلل واتقوا يوماً بين المطفوفين وذلك يضيق شمول الآية ، وقد أدمج في ذلك قوله «ومن ذريتي» وقوله «لا ينال عهدى الظالمين» وفي هذه الآية مقصد آخر وهو تمهيد الانتقال إلى فضائل البلد الحرام والبيت الحرام ، لإقامة الحجة على الذين عجبوا من نسخ استقبال بيت المقدس وتذرعوا بذلك إلى الطعن في الإسلام بوقوع النسخ فيه ، وإلى تنفير عامة أهل الكتاب من اتباعه لأنه غير قبلتهم ليظهر لهم أن الكعبة هي أجدر بالاستقبال وأن الله استبقاها لهذه الأمة تنبيهاً على مزية هذا الدين .

والابتلاء افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة والبلاء الاختبار وتقدم في قوله «وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم» وهو مجاز مشهور فيه لأن الذي يكلف غيره بشيء يكون تكليفه متضمناً انتظار فعله أو تركه فيلزمه الاختبار فهو مجاز على مجاز ، والمراد هنا التكليف لأن الله كلفه بأوامر ونواه إما من الفضائل والآداب وإما من الأحكام التكليفية الخاصة به ، وليس في استناد الابتلاء إلى الله تعالى إشكال بعد أن عرفت أنه مجاز في التكليف ، ولك أن تجعله استعمارة تمثيلية ، وكيفما كان فطريق التكليف وحى لا محالة ، وهذا يدل على أن إبراهيم أوحى إليه بنبوته لتهيئاً نفسه لتلقى الشريعة فلما امتثل ما أمر به أوحى إليه بالرسالة وهي في قوله تعالى «إني جاعلك للناس إماماً» ، فتكون جملة «إني جاعلك للناس إماماً» بدل بعض من جملة «وإذ ابتلى» ويجوز أن يكون الابتلاء هو الوحي بالرسالة ويكون قوله «إني جاعلك للناس إماماً» تفسيراً لابتلى .

والإمام الرسول والقنوة .

وإبراهيم اسم الرسول العظيم الملقب بالخليل وهو إبراهيم بن تارح (وتسمى العرب تارح آزر) بن ناحور بن سروج ، ابن رعو ، ابن فالج ، ابن عابر ابن شالح ابن ارفكشاد ، ابن سام ابن نوح هكذا تقول التوراة ، ومعنى إبراهيم في لغة الكلدانيين أب رحيم أو أب راحم قاله السهلي وابن عطية ، وفي التوراة أن اسم إبراهيم إبرام وأن الله لما أوحى إليه وكلمه أمره أن يسمى إبراهيم لأنه يحمله أباً لجمهور من الأمم ، فعنى إبراهيم على هذا أبو أمم كثيرة . ولد في أور الكلدانيين سنة ١٩٩٦ ست وتسعين وتسعمائة وألف قبل ميلاد المسيح ، ثم انتقل به والده إلى أرض كنعان (وهي أرض الفينيقيين) فأقاموا بحاران (هي حوران)

ثم خرج منها لتخط أصاب حاران فدخل مصر وزوجه سارة وهنا لك رام ملك مصر افتكاك سارة فرأى آية صرفته عن مرأته فأكرمها وأهداها جاريةً مصريةً اسمها هاجر وهي أم ولده إسماعيل ، وسماه الله بعد ذلك إبراهيم ، وأسكن ابنه إسماعيل وأمه هاجر بوادي مكة ثم لما شب إسماعيل بنى إبراهيم البيت الحرام هناك .

وتوفي إبراهيم سنة ١٧٧٣ ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف قبل ميلاد المسيح ، وفي اسمه لغات للعرب : إحداهما إبراهيم وهي المشهورة وقرأ بها الجمهور ، والثانية إبراهيم وقعت في قراءة هشام عن ابن عامر حيثما وقع اسم إبراهيم ، الثالثة إبراهيم وقعت في رجز لزيد بن عمرو بن ثعلبة :

عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم

وذكر أبو شامة في شرح حرز الأمان عن القراء في إبراهيم ست لغات :

إبراهيم ، إبراهيم ، إبراهيم ، إبراهيم ، إبراهيم ، إبراهيم ، إبراهيم (بفتح الهاء) إبراهيم (بضم الهاء) .

ولم يقرأ جمهور القراء العشرة إلا بالأولى وقرأ بعضهم بالثانية في ثلاثة وثلاثين موضعاً سيقع التنبيه عليها في مواضعها ، ومع اختلاف هذه القراءات فهو لم يكتب في معظم المصاحف الأصلية إلا إبراهيم بإثبات الياء ، قال أبو عمرو الداني لم أجد في مصاحف العراق والشام مكتوباً إبراهيم بيم بعد الهاء ولم يكتب في شيء من المصاحف إبراهيم بالألف بعد الهاء على وفق قراءة هشام ، قال أبو زرعة سمعت عبد الله بن ذكوان قال سمعت أبا خنيد القاري يقول في القرآن ستة وثلاثون موضعاً إبراهيم قال أبو خنيد فذكرت ذلك لمالك بن أنس فقال عندنا مصحف قديم فنظر فيه ثم أعلمني أنه وجدها فيه كذلك ، وقال أبو بكر ابن مهران روى عن مالك بن أنس أنه قيل له إن أهل دمشق يقرأون إبراهيم ويدعون أنها قراءة عثمان رضي الله عنه فقال مالك ها مصحف عثمان عندي ثم دعا به فإذا فيه كما قرأ أهل دمشق .

وتقديم المفعول وهو لفظ إبراهيم لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم رب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز فلذلك لم يقل وإذا ابتلى الله إبراهيم .

والكلمات الكلام الذى أوحى الله به إلى إبراهيم إذ الكلمة لفظ يدل على معنى والمراد بها هنا الجمل كما فى قوله تعالى « كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ، وأَجْمَلَهَا هنا إذ ليس الغرض تفصيل شريعة إبراهيم ولا بسط القصة والحكاية وإنما الغرض بيان فضل إبراهيم ببيان ظهور عزمه وامتناله لتكاليف فأتى بها كاملة فجوزى بمظيم الجزاء ، وهذه عادة القرآن فى إجمال ما ليس بمحل الحاجة ، ولعل جمع الكلمات جمع السلامة يؤذن بأن المراد بها أصول الحنيفية وهى قليلة العدد كثيرة الكلفة ، فلمل منها الأمر بذبح ولده ، وأمره بالاختنان ، وبالمهاجرة بهاجر إلى شقة بعيدة وأعظم ذلك أمره بذبح ولده إسماعيل بوحي من الله إليه فى الرؤيا ، وقد سمي ذلك بلاء فى قوله تعالى « إن هذا لهو البلاء المبين » .

وقوله « فأتَمَّنْ » جىء فيه بالفاء للدلالة على الفور فى الامتنال وذلك من شدة العزم . والإتمام فى الأصل الإتيان بنهاية الفعل أو إكمال آخر أجزاء المصنوع .

وتعدية فعل أتم إلى ضمير كلمات مجاز عقلى ، وهو من تعليق الفعل بمجاوى المفعول لأنه كالمكان له وفى معنى الإتمام قوله تعالى « وإبراهيم الذى وفى » ، وقوله « قد صدقت الرؤيا » ، فالأفعال هنا بمعنى إيقاع الفعل على الوجه الأتم وليس المراد بالهمز التصيير أى صيرها تامة بعد أن كانت ناقصة إذ ليس المراد أنه فعل بعضها ثم أتى بالبعض الآخر ، فدل « قوله فأتَمَّنْ » مع إيجازه على الامتنال وإتقانه والفور فيه . وهذه الجملة هى المقصود من جزء القصة فيكون عطفها للدلالة على أنه ابتلى فامتثل كقولك دعوت فلانا فأجاب . وجملة « قال إني جاعلك للناس إماما » مستأنفة استثنافا بيانيا ناشئا عما اقتضاه قوله « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات » من تمظيم الخبر والتنويه به ، لما يقتضيه ظرف إذ من الإشارة إلى قصة من الأخبار التاريخية العظيمة فيترقب السامع ما يترتب على اقتصاصها ، ويجوز أن يكون الفصل على طريقة المناولة لأن هذا القول مجاوبة لما دل عليه قوله « ابتلى » .

والإمام مشتق من الأم بفتح الهمزة وهو القصد وهو وزن فِعال من صيغ الآلة سماعاً كالعماد والنقاب والإزار والرداء ، فأصله ما يحصل به الأم أى القصد ولما كان الدال على الطريق يقتدى به السائر دل الإمام على القدوة والهادى .

والمراد بالإمام هنا الرسول فإن الرسالة أكل أنواع الإمامة والرسول أكل أفراد هذا النوع . وإنما عدل عن التعبير (برسولا) إلى (إماماً) ليكون ذلك دالاً على أن رسالته تنفع

الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء ، فإن إبراهيم عليه السلام رحل إلى آفاق كثيرة فتنقل من بلاد السكدان إلى العراق وإلى الشام والحجاز ومصر ، وكان في جميع منازل محل التبجيل ولا شك أن التبجيل يبعث على الاقتداء ، وقد قيل إن دين برّهما المتبّع في الهند أصله منسوب إلى اسم إبراهيم عليه السلام مع تحريف أدخل على ذلك الدين كما أدخل التحريف على الحنيفية ، وليتأتى الإيجاز في حكاية قول إبراهيم الآتي ومن ذريتي ، فيكون قد سأل أن يكون في ذريته الإمامة بأنواعها من رسالة ومُلْك وقُدوة على حسب التهوُّوفِهم ، وأقل أنواع الإمامة كون الرجل الكامل قدوةً لبنيه وأهل بيته وتلاميذه .

وقوله « قال ومن ذريتي » جواب صدر من إبراهيم فلذا حكى بقال دون عاطف على طريق حكاية المحاورات كما تقدم عند قوله تعالى « قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها » والقول معطوف على خطاب الله تعالى إياه يسمونه عطف التلقين وهو عطف المخاطب كلاماً على ما وقع في كلام المتكلم تزيلاً لنفسه في منزلة المتكلم يكمل له شيئاً ترّكه المتكلم إما عن غفلة وإما عن اقتصار فليقلّنه السامع تداركه بحيث يلتئم من الكلامين كلام تام في اعتقاد المخاطب .

وفي الحديث الصحيح قال جرير بن عبد الله بايعت النبي على شهادة أن لا إله إلا الله الخ فشرط على والنصح لكل مسلم ، ومنه قول ابن الزبير للذي سأله فلم يعطه فقال لعن الله ناقة حملتني إليك فقال ابن الزبير « إنَّ وراكِها » ، وقد لقبوه عطف التلقين كما في شرح التفريزاني على الكشف وذلك لأن أكثر وقوع مثله في موقع العطف ، والأولى أن تحذف كلمة عطف وتُسمّى هذا الصنف من الكلام باسم التلقين وهو تلقين السامع المتكلم ما يراه حقيقاً بأن يلحقه بكلامه ، فقد يكون بطريقة العطف وهو الغالب كما هنا ، وقد يكون بطريقة الاستفهام الإنكارى والحال كقوله تعالى « قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً » فإن الواو مع الواو الصلية أو الحال وليس واو العطف فهو إنكار على إلحاقهم المستفهم عنه بقولهم ودعواهم ، وقد يكون بطريقة الاستثناء كقول العباس لما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حرم مكة « لا يُعْصَدُ شَجَرُهُ » فقال العباس إلا الإذخر لبيوتنا وقيننا ، وللإسلام المعطوف عطف التلقين من الحكم حكم

الكلام المطوف هو عليه خبرا وطلبا ، فإذا كان كما هنا على طريق المرض علم إمضاء التكلم له إياه ، بإقراره كما في الآية أو التصريح به كما وقع في الحديث إلا الإذخر ، ثم هو في الإنشاء إذا عطف معمول الإنشاء يتضمن أن المطوف له حكم المطوف عليه ، ولما كان التكلم بالمطف في الإنشاء هو المخاطب بالإنشاء لزم تأويل عطف التلقين فيه بأنه على إرادة العطف على معمول لازم الإنشاء ففي الأمر إذا عطف المأمورُ مفعولا على مفعول الأمر كان المعنى زدني من الأمر فأنا بصدد الامتثال وكذا في المنهى . والمطوف محذوف دل عليه المقام أى وبمض من ذريتي أو وجاعلُ بعض من ذريتي .

والذرية نسل الرجل وما توألد منه ومن أبنائه وبناته ، وهي مشتقة إما من الذرّ اسما وهو صغار النمل ، وإما من الذرّ مصدراً بمعنى التفريق ، وإما من الذرى والذرو (بالياء والواو) وهو مصدر ذرت الريح إذا سفت ، وإما من الذرء بالهمز وهو الخلق ، فوزنها إما فُعْلِيَّة بوزن النسب إلى ذروضم الذال في النسب على غير قياس كما قالوا في النسب إلى دهر دُهرى بضم الدال ، وإما فُعْلِيَّة أو فُعُولَة من الذرى أو الذرو أو الذرء بإدغام اليائين أو الياء مع الواو أو الياء مع الهمزة بعد قلبها ياء وكل هذا تصريف لاشتقاق الواضع فليس قياس التصريف .

وإنما قال إبراهيم «ومن ذريتي» ولم يقل وذريتي لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يُقتدى بهم فلم يسأل ما هو مستحيل عادة لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء .

وإنما سأل لذريته ولم يقصر السؤال على عقبه كما هو المتعارف في عصبية القائل لابناء دينه على الفطرة التي لا تقتضى تفاوتاً فىرى أبناء الابن وأبناء البنت في القرب من الجد بل هماسواء في حكم القرابة ، وأما مبنى القبلية فعلى اعتبارات عرفية ترجع إلى النصرة والاعتزاز فأما قول :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد

فَوْهٌ جاهلي ، وإلا فإن بنى الأبناء أيضاً بنوهم أبناء النساء الأبعد ، وهل يتكون نسل إلا من أب وأم . وكذا قول...:

وإنما أمهات الناس أُوَعيّة فيها خلقن وللأبناء أبناء
فذلك سنسطة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي سأله عن الأحقّ بالبر من
أبويه « أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك » وقال الله تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه حملته
أمه وهنا على وهن ».

وقوله تعالى « لا ينال عهدى الظالمين » استجابة مطوية بإيجاز وبيان للفريق الذى تتحقق
فيه دعوة إبراهيم والذى لا تتحقق فيه بالاعتصار على أحدهما لأن حكم أحد الضدين يثبت
تقيضه للآخر على طريقة الإيجاز ، وإنما لم يذكر الصنف الذى تحقق فيه الدعوة لأن المقصد
ذكر الصنف الآخر تعريضاً بأن الذين يزعمون يومئذ أنهم أولى الناس بإبراهيم وهم أهل
الكتاب ومشركو العرب هم الذين يحرمون من دعوته ، قال تعالى « ما كان إبراهيم يهودياً
ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين
اتبعوه » ولأن الربى يقصد التحذير من المفسد قبل الحث على المصلح ، فبيان الذين لا
تتحقق فيهم الدعوة أولى من بيان الآخرين .

و(ينال) مضارع نال نيلاً بالياء إذا أصاب شيئاً والتحق به أى لا يصيب عهدى الظالمين
أى لا يشملهم ، فالعهد هنا بمعنى الوعد المؤكد .
وسمى وعد الله عهداً لأن الله لا يخلف وعده كما أخبر بذلك فصار وعده عهداً ولذلك سماه
النبي عهداً في قوله أنشدك عهدك ووعدك، أى لا ينال وعدى بإجابة دعوتك الظالمين منهم ،
ولا يحسن أن يفسر العهد هنا بغير هذا وإن كان في مواقع من القرآن أريد به غيره، وسيأتى ذكر
العهد في سورة الأعراف .

ومن دقة القرآن اختيار هذا اللفظ هنا لأن اليهود زعموا أن الله عهد لإبراهيم عهداً بأنه
مع ذريته ففى ذكر لفظ العهد تعريض بهم وإن كان صريح الكلام لتوبيخ المشركين. والمراد
بالظالمين ابتداء المشركون أى الذين ظلموا أنفسهم إذ أشركوا بالله قال تعالى « إن الشرك
ظلم عظيم » والظلم يشمل أيضاً عمل المعاصى الكبار كما وقع فى قوله تعالى « ومن ذريتهما
محسن وظالم لنفسه مبين » وقد وصف القرآن اليهود بوصف الظالمين فى قوله « ومن لم يحكم
بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » فالمراد بالظلم المعاصى الكبيرة وأعلها الشرك بالله
تعالى .

وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشرّكين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم والانهاك في المعاصي حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم . وإناطة الحكم بوصف الظالمين إيماء إلى علة تقى أن ينالهم عهد الله فيفهم من العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد .

وفي الآية أن المتصف بالكبيرة ليس مستحقاً لإسناد الإمامة إليه أعنى سائر ولايات المسلمين: الخلافة والإمارة والقضاء والفتوى ورواية العلم وإمامة الصلاة ونحو ذلك . قال فخر الدين قال الجمهور من الفقهاء والمتكلمين الفاسق حال فسقه لا يجوز عقد الإمامة له . وفي تفسير ابن عرفة تسليم ذلك ونقل ابن عرفة عن المازري والقرطبي عن الجمهور إذا عقد للإمام على وجه صحيح ثم فسق وجار فإن كان فسقه بكفر وجب خلمه وأما بغيره من المعاصي فقال الخوارج والمعتزلة وبمض أهل السنة يخلع وقال جمهور أهل السنة لا يخلع بالفسق والظلم وتمطيل الحدود ويجب وعظه وترك طاعته فيما لا تجب فيه طاعة وهذا مع القدرة على خلمه فإن لم يقدر عليه إلا بفتنة وحرب فاتفقوا على منع القيام عليه وأن الصبر على جوره أولى من استبدال الأمن بالخوف وإراقة الدماء وانطلاق أيدي السفهاء والفساق في الأرض وهذا حكم كل ولاية في قول علماء السنة وما نقل عن أبي حنيفة من جواز كون الفاسق خليفة وعدم جواز كونه قاضياً قال أبو بكر الرازي الجصاص هو خطأ في النقل .

وقرأ الجمهور من العشرة عهدي بفتح ياء المتكلم وهو وجه من الوجوه في ياء المتكلم وقرأه حمزة وحفص بإسكان الياء .

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ 125

تدرج في ذكر منقبة إبراهيم إذ جعل الله بيته بهذه الفضيلة ، وإذ أضافها إلى جلالته فقال بيتي ، واستهلال لفضيلة القبلة الإسلامية ، فالواو عاطفة على ابتلى وأعيدت إذ للتنبيه على

استقلال القصة وأنها جديرة بأن تعد بنية أخرى ، ولا الثقات إلى حصول مضمون هذه بعد حصول الأخرى أو قبله إذ لا غرض في ذلك في مقام ذكر الفضائل ، ولأن الواو لا تفيد ترتيباً . والبيت اسم جنس للمكان المتخذ مسكناً لواحد أو عدد من الناس في غرض من الأغراض . وهو مكان من الأرض يحيط به ما يميزه عن بقية بقعته من الأرض ليكون الساكن مستقلاً به لنفسه ولمن يتبعه فيكون مستقراً له وكنناً يكتنه من البرد والحر وسائراً يستتر فيه عن الناس ومحطاً لأنثائه وشثونه ، وقد يكون خاصاً وهو الغاب وقد يكون لجماعة مثل دار الندوة في العرب وخيمة الاجتماع في بني إسرائيل ، وقد يكون محيط البيت من حجر وطين كالكمة ودار الندوة ، وقد يكون من أديم مثل القباب ، وقد يكون من نسيج صوف أو شعر قال تعالى « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها » ، ولا يكون بيتاً إلا إذا كان مستوراً أعلاه عن الحر والقر وذلك بالسقف لبيوت الحجر وبيوت الأديم والحيام .

والبيت علم بالغلبة على الكمة كما غلب النجم على الثريا . وأصل آل التي في الأعلام بالغلبة هي آل المهديّة وذلك إذا كثر عهد فرد من أفراد جنس بين طائفة أو قوم صار اسم جنسه مع آل المهديّة كما علم له ثم قد يتعمدون مع ذلك المعنى الأصلي كما في النجم للثريا والكتاب للقرآن والبيت للكمة ، وقد ينسب المعنى الأصلي إما بقلة الحاجة إليه كالصعق علم على خويلد بن ثعلبة وإما بأخصار الجنس فيه كالشمس .

والكمة بيت بنى إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده دون شريك فيأوى إليه من يدين بالتوحيد ويطوف به من يقصد تعظيم الله تعالى ولذلك أضافه إلى الله تعالى باعتبار هذا المعنى كما قال « أن طهرا بيتي للطائفين » وفي قوله « عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة » وقد عرفت الكمة باسم البيت من عهد الجاهلية قال زهير :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجُرم

والثابة مفعلة من ثاب يثوب إذا رجع ويقال مثابة ومثاب مثل مقامة ومقام ، والمراد بالثابة أنه يقصده الناس بالتعظيم ويلوذون به . والمراد من الناس سكان مكة من ذرية إسماعيل وكل من يجاورهم ويدخل في حلفهم ، فتعريف الناس للجنس المعهود ، وتعليق للناس بمثابة على التوزيع أي يزوره ناس ويذهبون فيخلفهم ناس .

ولما كان المقصود من هذا ذكر منقبة البيت والمنة على ساكنيه كان الفرض التذكير
 بنعمة الله أن جعله لا ينصرف عنه قوم إلا ويخلفهم قوم آخرون، فكان الذين يخلفون الزائرين
 قاعين مقامهم بالنسبة للبيت وسكانه، ويجوز حمل تعريف الناس على العهد أى يثوب إليه
 الناس الذين ألفوه وهم كل الزائرين فهم يعودون إليه مراراً، وكذلك كان الشأن عند العرب.
 والأمن مصدر أخبر به عن البيت باعتبار أنه سبب أمن تحمل كونه نفس الأمن مبالغة.
 والأمن حفظ الناس من الأضرار فتشريد الدغار وحراسة البلاد وتمهيد السبل وإزالة الطرق
 أمن، والاتصاف من الجناة والضرب على أيدي الظلمة وإرجاع الحقوق إلى أهلها أمن،
 فالأمن يفسر في كل حال بما يناسبه، ولما كان الغالب على أحوال الجاهلية أخذ
 القوى مال الضعيف ولم يكن بينهم تحاكم ولا شريعة كان الأمن يومئذ هو الخيلولة بين
 القوى والضعيف، فجعل الله لهم البيت أمناً للناس يومئذ أى يصد القوى عن أن
 يتناول فيه الضعيف قال تعالى «أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم»
 فهذه منة على أهل الجاهلية، وأما في الإسلام فقد أغنى الله تعالى بما شرعه من أحكامه وما
 أقامه من حكمه فكان ذلك أمناً كافياً. قال السهيلي فقوله تعالى «مقام إبراهيم ومن دخله
 كان آمناً» إنما هو إخبار عن تعظيم حرمة في الجاهلية نعمة منه تعالى على أهل مكة فكان في
 ذلك مصلحة لذرية إسماعيل عليه السلام.

وقد اختلف الفقهاء في الاستدلال بهذه الآية وأضرابها على حكم إقامة الحدود والعقوبات
 في الحرم وسيأتي تفصيلها عند قوله تعالى «ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام» الآية وليس من
 غرض هذه الآية.

والمراد من الجمل في الآية إما الجمل التكويني لأن ذلك قدره الله وأوجد أسبابه فاستقر
 ذلك بين أهل الجاهلية ويسرهم إلى تعظيمه، وإما الجمل أن أمر الله إبراهيم بذلك فأبلغه
 إبراهيم ابنه إسماعيل وبثه في ذريته فتلقاه أعقابهم تلقى الأمور المسلمة، فدام ذلك الأمن في
 العصور والأجيال من عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن أغنى الله عنه بما شرع من أحكام
 الأمن في الإسلام في كل مكان وتم مراد الله تعالى، فلا يريكم ما حدث في المسجد الحرام من
 الخوف في حصار الحجاج في فتنة ابن الزبير ولا ما حدث فيه من الرعب والقتل والنهب في
 زمن القرامطة حين غزاه الحسن ابن بهرام الجنابي (نسبة إلى بلدة يقال لها جنازة بتشديد

(النون) كبير القرامطة إذ قتل بمكة آلافا من الناس وكان يقول لهم يا كلاب أليس قال لكم محمد المكي ومن دخله كان آمنا أي آمن هنا ، وهو جاهل غبي لأن الله أراد الأمر بأن يجعل المسجد الحرام مأمنا في مدة الجاهلية إذ لم يكن للناس وازع عن الظلم ، أو هو خير مراد به الأمر مثل « والطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » .

وقوله « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » قرأه نافع وابن عامر بصيغة الماضي عطفا على « جعلنا » فيكون هذا الاتخاذ من آثار ذلك الجعل فالمنى ألهمنا الناس أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، أو أمرناهم بذلك على لسان إبراهيم فامتثلوا واتخذوه ، فهو للدلالة على حصول الجعل بطريق دلالة الاقتضاء فكأنه قيل جعلنا ذلك فاتخذوا ، وقرأه باقي العشرة بكسر الخاء بصيغة الأمر على تقدير القول أي قلنا اتخذوا بقرينة الخطاب فيكون العامل المطوف محذوفا بالقرينة وبقي معموله كقول لبيد :

فَمَلَأَ فُرُوعُ الْأَيْهَقَانِ وَأَطْفَلَتْ بِالْجَلَمَتَيْنِ ظِبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا

أراد وباضت نعامها فإنه لا يقال لأفراخ الطير أطفال ، فآل القراءتين ، إلى مفاد واحد .

ومقام إبراهيم يطلق على الكعبة لأن إبراهيم كان يقوم عندها يعبد الله تعالى ويدعو إلى توحيده ، قال زيد بن عمرو بن نفيل :

عَذْتُ بِمَا عَاذَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَقِيلَ الْكَعْبَةِ وَهُوَ قَائِمٌ

وبهذا الاطلاق جاء في قوله تعالى « مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا » إذ الدخول من علائق البيت ، ويطلق مقام إبراهيم على الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنائه الكعبة ليرتفع لوضع الحجارة في أعلى الجدار كما أخرجه البخاري ، وقد ثبتت آثار قدميه في الحجر . قال أنس بن مالك رأيت في المقام أثر أصابعه وأخص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم ، وهذا الحجر يعرف إلى اليوم بالمقام ، وقد ركع النبي صلى الله عليه وسلم في موضعه ركعتين بعد طواف القدوم فكان الركوع عنده من سنة الفراغ من الطواف .

والمصلى موضع الصلاة وصلاتهم يومئذ الدعاء والخضوع إلى الله تعالى ، وكان إبراهيم

قد وضع المسجد الحرام حول الكعبة ووضع الحجر الذي كان يرتفع عليه للبناء حولها فكان المصلّي على الحجر المسمى بالمقام فذلك يكون المصلّي متخذاً من مقام إبراهيم على كلا الإطلاقين .

والقراءتان تقتضيان أن اتخذوا مقام إبراهيم مصلّي كان من عهد إبراهيم عليه السلام ولم يكن الحجر الذي اعتلى عليه إبراهيم في البناء مخصوصاً بصلاة عنده ولكنه مشمول للصلاة في المسجد الحرام ولما جاء الإسلام بقي الأمر على ذلك إلى أن كان عام حجة الوداع أو عام الفتح دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام ومعه عمر بن الخطاب ثم سنت الصلاة عند المقام في طواف القدوم . روى البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال : « وافقت ربي في ثلاث : قلتُ يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلّي فنزلت واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّي » ، وهذه الرواية تثير معنى آخر للآية وهي أن يكون الخطاب موجهاً للمسلمين فتكون جملة « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّي » معترضة بين جملة « جعلنا البيت مثابة للناس » وجملة « وعهدنا إلى إبراهيم » اعتراضاً استطرادياً ، وللجمع بين الاحتمالات الثلاثة في الآية يكون تأويل قول عمر فنزلت أنه نزل على النبي صلى الله عليه وسلم شرع الصلاة عند حجر المقام بعد أن لم يكن مشروعاً لهم ليستقيم الجمع بين معنى القراءتين واتخذوا بصيغة الماضي وبصيغة الأمر فإن صيغة الماضي لا تحتل غير حكاية ما كان في زمن إبراهيم وصيغة الأمر تحتل ذلك وتحتل أن يراد بها معنى التشريع للمسلمين ، إعمالاً للقرآن بكل ما تحتمله ألفاظه حسبما بيناه في المقدمة التاسعة .

وقوله « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل » ، العهد أصله الوعد المؤكد وقوعه وقد تقدم آتفاً عند قوله تعالى « قال لا ينال عهدي الظالمين » ، فإذا عدى بإلى كان بمعنى الوصية المؤكد على الموصى العمل بها فعهد هنا بمعنى أرسل عهداً إليه أي أرسل إليه يأخذ منهم عهداً ، فالعنى وأوصينا إلى إبراهيم وإسماعيل وقوله « أن طهراً » أن تفسيرية لأن الوصية فيها معنى القول دون حروفه فالتفسير للقول الضمني والمفسر هو ما بعد أن فلا تقدير في الكلام ولولا قصد حكاية القول لما جاء بعد أن بلفظ الأمر ، ولقال بتطهير بيتي الخ .

والمراد من تطهير البيت ما يدل عليه لفظ التطهير من محسوس بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ ليكون التبعّد فيه مقبلاً على العبادة دون تكدير ، ومن تطهير معنوى وهو أن يُبعد عنه مالا يليق بالقصد من بنائه من الأصنام والأفعال المنافية للحق كالعدوان والفسوق ، والمنافية للمروءة كالطواف عرياً دون ثياب الرجال والنساء . وفي هذا تعريض بأن المشركين ليسوا أهلاً لمهارة المسجد الحرام لأنهم لم يطهروه مما يجب تطهيره منه قال تعالى « وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون - وقال - يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس » .

والطائفون والمالكفون والراكمون والساجدون أصناف المتعبدين في البيت من طواف واعتكاف ، وصلاة وهم أصناف التلبسين بتلك الصفات سواء انقردت بعض الطوائف ببعض هذه الصفات أو اجتمعت الصفات في طائفة أو طوائف ، وذلك كله في الكعبة قبل وضع المسجد الحرام ، وهؤلاء هم إسماعيل وأبناؤه وأصهاره من جرم وكل من آمن بدين الحنيفية من جيرانهم .

وقد جمع الطائف والمالكف جمع سلامة ، وجمع الراكع والساجد جمع تكسير ، تفننا في الكلام وبعداً عن تكرير الصيغة أكثر من مرة بخلاف نحو قوله مسلمات مؤمنات قاتلات تائبات الآية ، وقوله إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الآية ، وقال ابن عرفة « جمع الطائفين والمالكفين جمع سلامة لأنه أقرب إلى لفظ الفعل بمنزلة يطوفون أى يحددون الطواف للإشعار بعلّة تطهير البيت وهو قرب هذين من البيت بخلاف الركوع والسجود فإنه لا يلزم أن يكونا في البيت ولا عنده فلذلك لم يجمع جمع سلامة » ، وهذا الكلام يؤذن بالفرق بين جمع السلامة وجمع التكسير من حيث الإشعار بالحدوث والتجدد ، ويشهد له كلام أبي الفتح ابن جني في شرح الحاشية عند قول الأحوص الأنصارى :

فإذا تزول تزول عن متخمّط تخشى بواذرهُ على الأقران

قال أبو الفتح « جازأن يتعلق على بواذر ، وإن كان جمعاً مكسراً والمصدر إذا كسر بُعد بتكسيه عن شبه الفعل ، وإذا جاز تعلق المفعول به بالمصدر مكسراً نحو « مواعيد عروق أخاه » كان تعلق حرف الجر به أجوز » . فصرّح كلامه أن التكسير يبعد ما هو بمعنى الفعل عن شبه الفعل .

وخولف بين الركوع والسجود زيادة في التفنن وإلا فإن الساجد يجمع على سجد إلا أن الأكثر فيهما إذا اقترنا أن يخالف بين صيغتهما قال كثير:

لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركعاً وسجوداً

وقد علمت من النحو والصرف أن جمع فاعل على فاعول سماعي فنه شهود وهجوع وهجود وسجود .

ولم يعطف السجود على الركع لأن الوصفين متلازمان ولو عطف لتوهم أنهما وصفان مفترقان .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾¹²⁶

عطف على «وإذ جعلنا البيت مثابة» لإفادة منقبة ثالثة لإبراهيم عليه السلام في استجابة دعوته بفضل مكة والنعمة على ساكنيها إذا شكروا، وتنبيه ثالث لمشركي مكة يومئذ ليتذكروا دعوة أبيهم إبراهيم المشعرة بحرصه على إيمانهم بالله واليوم الآخر حتى خص من ذريته بدعوته المؤمنين فيعرض المشركون أنفسهم على الحال التي سألها أبوهم فيتضح لهم أنهم على غير تلك الحالة، وفي ذلك بعث لهم على الاتصاف بذلك لأن للناس رغبة في الاقتداء بأسلافهم وحنينا إلى أحوالهم، وفي ذلك كله تعريض بهم بأن ما يدلون به من النسب لإبراهيم ومن عمارة المسجد الحرام ومن شعائر الحج لا ينفى عنهم من الإيثراك بالله، كما عرض بالآيات قبل ذلك باليهود والنصارى وذلك في قوله هنا «ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير» وبه تظهر مناسبة ذكر هذه المنقبة عقب قوله تعالى «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا» .

واسم الإشارة في قوله هذا بلداً مراد به الموضع القائم به إبراهيم حين دعائه وهو المكان الذي جعل به امرأته وابنه وعزم على بناء الكعبة فيه إن كان الدعاء قبل البناء، أو الذي بني فيه الكعبة إن كان الدعاء بعد البناء، فإن الاستحضار بالذات مفعول عن الإشارة الحسية

باليد لأن تمييزه عند المخاطب مفن عن الإشارة إليه بإطلاق اسم الإشارة حينئذ واضح .
وأصل أسماء الإشارة أن يستغنى بها عن زيادة تبين المشار إليه تبيينا لفظيا لأن الإشارة بيان ، وقد يزيدون الإشارة بيانا فيذكرون بعد اسم الإشارة اسما يعرب عطف بيان أو بدلا من اسم الإشارة للدلالة على أن المشار إليه قصد استحضاره من بعض أوصافه كقولك هذا الرجل يقول كذا ، ويتأكد ذلك إن تركت الإشارة باليد اعتمادا على حضور المراد من اسم الإشارة . وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو الواقع عند الدعاء ، فإن إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي بنى فيه الكعبة لأن الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء إنما هو بيان استجابة دعائه وفضيلة محل الدعوة وجعل مكة بلدا آمنا ورزق أهله من الثمرات ، وتلك عادة القرآن في الإعراض عما لا تعلق به بالمقصود ألا ترى أنه لما جعل البلد مفعولا ثانيا استغنى عن بيان اسم الإشارة ، وفي سورة إبراهيم لما جعل آمنا مفعولا ثانيا بين اسم الإشارة بلفظ البلد ، فحصل من الآيتين أن إبراهيم دعا لبلد بأن يكون آمنا .

والبلد المكان المتسع من الأرض التحيز عامرا أو غامرا ، وهو أيضا الأرض مطلقا ، قال صَنَانُ الشُّكْرِ :

لَكِنَّهُ حَوْضٌ مِّنْ أَوْدَى بِإِخْوَتِهِ رَبُّ الْمَنُونِ فَأُضْحَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ

يريد بيضة النعام في أودى النعام أى محل بيضه ، ويطلق البلد على القرية المكونة من بيوت عدة لسكنى أهلها بها وهو إطلاق حقيقى هو أشهر من إطلاق البلد على الأرض المتسعة والظاهر أن دعوة إبراهيم المحكية في هذه الآية كانت قبل أن تقترب مكة حيث لم يكن بها إلا بيت إسماعيل أو بيت أو بيتان آخران لأن إبراهيم ابتداء عمارته ببناء البيت من حجر ، ولأن إلهام الله إياه لذلك لإرادته تعالى مصيرها مهيم الحضارة لتلك الجهة إرhasا لبنوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن ذلك المكان كان مأهولا بسكان وقت مجئ إبراهيم وامراته وابنه ، والعرب يذكرون أنه كان في تلك الجهة عشائر من جرهم وقطورا والعمالقة والكركر في جهات أجياد وعرفات .

والآمن اسم فاعل من أمن ضد خاف ، وهو عند الإطلاق عدم الخوف من عدو ومن قتال وذلك ما ميز الله مكة به من بين سائر بلاد العرب ، وقد يطلق الأمن على عدم الخوف مطلقا فتعين ذكر

متعلقه ، وإنما يوصف بالأمن ما يصح اتصافه بالخوف وهو ذو الإدراكية ، فالإخبار بآمننا عن البلد إما بجعل وزن فاعل هنا للنسبة بمعنى ذا أمن كقول النابغة * كليني لهم يا أميمة ناصب * أى ذى نصب ، وإما على إرادة آمنا أهله على طريقة المجاز العقلي لملازمة المكان ، ثم إن كان المشار إليه فى وقت دعاء إبراهيم أرضاً فيها بيت أو بيتان . فالتقدير فى الكلام اجعل هذا المكان بلداً آمناً أى قرية آمنة فيكون دعاء بأن يصير قرية وأن تكون آمنة .

وإن كان المشار إليه فى وقت دعائه قرية بنى أناس حولها ونزلوا حذوها وهو الأظهر الذى يشعر به كلام الكشف هنا وفى سورة إبراهيم كان دعاء للبلد بحصول الأمن له وأما حكاية دعوته فى سورة إبراهيم بقوله « اجعل هذا البلد آمناً » فتلك دعوة له بمد أن صار بلداً .

ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوة فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويتقضى العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها ، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختلت الثلاثة الأخيرة ، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراد له لذلك البلد من كونه منبع الإسلام .

والثمرات جمع ثمرة وهى ما تحمل به الشجرة وتنتج مما فيه غذاء للإنسان أو فاكهة له ، وكأن اسمه منتسب من اسم التمر بالثناة فإن أهل الحجاز يردون بالتمر بالثناة التمر الرطب وبالثناة التمر اليابس .

وللثمرة جموع متعددة وهى ثمر بالتحريك وثمر ، وثمر ، بضمين ، وأثمار ، وأنامير ، قالوا ولا نظير له فى ذلك إلا أكمة جمعت على أكم وإكام وأكم وآكام وأكاميم .

والتعريف فى الثمرات تعريف الاستغراق وهو استغراق عُرْفِ أى من جميع الثمرات المعروفة للناس ودليل كونه تعريف الاستغراق محيى من التى للتبويض ، وفى هذا دعاء لهم بالفاهية حتى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه .

وقوله من آمن منهم بالله بدل بعض من قوله أهله يفيد تخصيصه لأن أهله عام إذ هو اسم جمع مضاف وبَدَل البعض مخصص .

وخصَّ إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيوع الإيمان لساكنيه لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم خصت المؤمنين تجنبوا ما يحيد بهم عن الإيمان ، فجعل تيسير الرزق لهم على شرط إيمانهم باعثاً لهم على الإيمان ، أو أراد التأدب مع الله تعالى فسأله سؤالاً أقرب إلى الإجابة ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال « ومن ذريتي » فقال « لا ينال عهدى الظالمين » أن غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم وقد أعقب الله دعوته بقوله « ومن كفر فأمتعه قليلاً » .

ومقصد إبراهيم من دعوته هذه أن تتوفر لأهل مكة أسباب الإقامة فيها فلا تضطرم الحاجة إلى سكنى بلد آخر لأنه رجا أن يكونوا دعاة لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنيفية وهي خصال الكمال ، وهذا أول مظاهر تكوين المدينة الفاضلة التي دعا أفلاطون لإيجادها بعد بضعة عشر قرناً .

وجملة « قال ومن كفر فأمتعه » جاءت على سنن حكاية الأقوال في المحاورات والأجوبة مفصولة ، وضمير قال عائد إلى الله ، فمن جوز أن يكون الضمير في قال لإبراهيم وأن إعادة القول لطول القول الأول فقد غفل عن المعنى وعن الاستعمال وعن الضمير في قوله « فأمتعه » .

وقوله « ومن كفر » الأظهر أنه عطف على جملة « وأرزقُ أهله » باعتبار القيد وهو قوله « من آمن » فيكون قوله « ومن كفر » مبتدأ وضمن الموصول معنى الشرط فلذلك قرن الخبر بالفاء على طريقة شائعة في مثله ، لما قدمناه في قوله « ومن ذريتي » أن عطف التلقين في الإنشاء إذا كان صادراً من الذى خوطب بالإنشاء كان دليلاً على حصول الغرض من الإنشاء والزيادة عليه ، ولذلك آل المعنى هنا إلى أن الله تعالى أظهر فضله على إبراهيم بأنه يرزق ذريته مؤمنهم وكافرهم ، أو أظهر سمة رحمته برزق سكان مكة كلهم مؤمنهم وكافرهم . ومعنى أمتعه أجعل الرزق له متاعاً ، وقليلاً صفة لمصدر محذوف بعد قوله « فأمتعه » والمتاع القليل متاع الدنيا كما دلت عليه المقابلة بقوله « ثم أضطره إلى عذاب النار » .

وفى هذه الآية دليل لقول الباقلاني والماتريدية والمعتزلة بأن الكفار منعم عليهم بنعم الدنيا ، وقال الأشعرى لم ينعم على الكافر لا في الدنيا ولا في الآخرة وإنما أعطاهم الله في

الدنيا ملاذ على وجه الاستدراج ، والمسألة معدودة في مسائل الخلاف بين الأشرى والماتريدي ، ويشبه أن يكون الخلاف بينهما لفظيا وإن عده السبكي في عداد الخلاف المعنوي .

وقوله « ثم أضطره إلى عذاب النار » احتراز من أن يفتى الكافر بأن تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضى الله فلذلك ذكر العذاب هنا .

و ثم للتراخي الرتبى كشأنها في عطف الجمل من غير التفات إلى كون مصيره إلى العذاب متأخرا عن تميمه بالمعاقبة القليل .

والاضطرار في الأصل الالتجاء وهو بوزن افتعل مطاوع أضره إذا صيره ذا ضرورة أى حاجة ، فالأصل أن يكون اضطر قاصرا لأن أصل المطاوعة عدم التمرد ولكن الاستعمال جاء على تعديته إلى مفعول وهو استعمال فصيح غير جار على قياس يقال اضطره إلى كذا أى ألجأه إليه ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة لقمان « نمتهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » .

وقوله « وبئس المصير » تذييل والواو للاعتراض أو للحال والخبر محذوف هو المخصوص بالنم وتقديره .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ 127

هذه منقبة ثالثة لإبراهيم عليه السلام ، وتذكير بشرف الكعبة ، ووسيلة ثالثة إلى التعريض بالمشركين بعد قوله « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة » الخ ، وتمهيد للرد على اليهود إنكارهم استقبال الكعبة الذى يوجب عند قوله تعالى « سيقول السفهاء » ولأجل استقلالها بهاته المقاصد الثلاثة التى تضمنتها الآيات قبلها عطفت على سوابقها مع الاقتران بإذ تنبيهها على الاستقلال .

وحول الأسلوب الذى يقتضيه الظاهر في حكاية الماضى أن يكون بالفعل الماضى بأن يقول وإذ رفع إلى كونه بالمضارع لاستحضار الحالة

وحكايتها كأنها مشاهدة لأن المضارع دال على زمن الحال فاستعماله هنا استعارة تبعية ، شبه الماضي بالحال لشهرته وتكرر الحديث عنه بينهم فإنهم لحبهم إبراهيم وإجلالهم إياه لا يزالون يذكرون مناقبه وأعظمها بناء الكعبة فشبه الماضي لذلك بالحال ولأن ما مضى من الآيات في ذكر إبراهيم من قوله « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » إلى هنا مما يوجب امتلاء أذهان السامعين بإبراهيم وشؤونه حتى كأنه حاضر بينهم وكأن أحواله حاضرة مشاهدة ، وكلمة إذ قرينة على هذا التنزيل لأن غالب الاستعمال أن يكون للزمن الماضي وهذا معنى قول النحاة أن إذ تخلص المضارع إلى الماضي . والقواعد جمع قاعدة وهي أساس البناء الموالى للأرض الذى به ثبات البناء أطلق عليها هذا اللفظ لأنها أشبهت القاعد فى اللصوق بالأرض فأصل تسمية القاعدة مجاز عن اللصوق بالأرض ثم عن إرادة الثبات فى الأرض وهاء التأنيث فيها للمبالغة مثل هاء علامة . ورفع القواعد إرازها من الأرض والاعتلاء بها لتصير جداراً لأن البناء يتصل ببعضه ببعض ويصير كالشيء الواحد فالجدار إذا اتصل بالأساس صار الأساس مرتفعاً ، ويجوز جعل القواعد بمعنى جدران البيت كما سموها بالأركان ورفعها إطالتها ، وقد جعل ارتفاع جدران البيت تسعة أذرع .

ويجوز أن يفاد من اختيار مادة الرفع دون مادة الإطالة ونحوها معنى التشريف ، وفى إثبات ذلك للقواعد كناية عن ثبوته للبيت ، وفى إسناد الرفع بهذا المعنى إلى إبراهيم مجاز عقلى لأن إبراهيم سبب الرفع المذكور أى بدعائه المقارن له .
وعطف إسماعيل على إبراهيم تنويه به إذ كان معاونه ومناوله .

وللاشارة إلى التفاوت بين عمل إبراهيم وعمل إسماعيل أوقع العطف على الفاعل بعد ذكر المفعول والمتعلقات ، وهذا من خصوصيات العربية فى أسلوب العطف فيما ظهر لى ولا يحضر فى الآن مثله فى كلام العرب ، وذلك أنك إذا أردت أن تدل على التفاوت بين الفاعلين فى صدور الفعل تجعل عطف أحدهما بعد انتهاء ما يتعلق بالفاعل الأول ، وإذا أردت أن تجعل المعطوف والمعطوف عليه سواء فى صدور الفعل تجعل المعطوف موالياً للمعطوف عليه .

وإسماعيل اسم الابن البكر لإبراهيم عليه السلام وهو ولده من جاريته هاجر القبطية ،

ولد في أرض الكنعانيين بين قادش وبارد سنة ١٩١٠ عشر وتسعمائة وألف قبل ميلاد المسيح، ومعنى اسماعيل بالعبرية سمع الله أى إجابة الله لأن الله استجاب دعاء أمه هاجر إذ خرجت حاملاً باسماعيل مفارقة الموضع الذى فيه سارة مولاتها حين حدث لسارة من الغيرة من هاجر لما حملت هاجر ولم يكن لسارة أبناء يومئذ، وقيل هو معرب عن يشمعييل بالعبرانية ومعناه الذى يسمع له الله، ولما كبر اسماعيل رأى إبراهيم رؤيا وحى أن يذبحه فحزم على ذبحه ففداه الله، واسماعيل يومئذ الابن الوحيد لإبراهيم قبل ولادة إسحاق، وكان اسماعيل مقيماً بمكة حول الكعبة، وتوفي بمكة سنة ١٧٧٣ ثلاث وسبعين وسبعائة وألف قبل ميلاد المسيح تقريباً، ودفن بالحجر الذى حول الكعبة.

وجملة «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» مقول قول محذوف يقدر حالا من يرفع إبراهيم وهذا القول من كلام إبراهيم لأنه الذى يناسبه الدعاء لذريته لأن إسماعيل كان حينئذ صغيراً.

والمدول عن ذكر القول إلى نطق التكلم بما قاله المحكى عنه هو ضرب من استحضار الحالة قد مهد له الإخبار بالفعل المضارع في قوله «وإذ يرفع» حتى كأن التكلم هو صاحب القول وهذا ضرب من الإيغال.

وجملة «إنك أنت السميع العليم» تعليل لطلب التقبل منهما، وتعريف جزءى هذه الجملة والإتيان بضمير الفصل يفيد قصرين للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتزليل سمع غيره وعلم غيره منزلة عدم.

ويجوز أن يكون قصرأ حقيقياً باعتبار متعلق خاص أى السميع العليم لدعائنا لا يعلمه غيرك وهذا قصر حقيقى مقيد وهو نوع مغاير للقصر الإضافى لم ينبه عليه علماء المائى.

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ 128

قائدة تكرير النداء بقوله «ربنا» إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى

فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل والثانية لطلب الاهتداء فجملة النداء معترضة بين المعطوف هنا والمعطوف عليه في قوله الآتي « ربنا وابحث فيهم رسولا » .

والمراد بمسلمين لك النقادان إلى الله تعالى إذ الإسلام الانقياد ، ولما كان الانقياد للخالق بحق يشمل الإيمان بوجوده وأن لا يشرك في عبادته غيره ومعرفة صفاته التي دل عليها فعلة كانت حقيقة الإسلام ملازمة لحقيقة الإيمان والتوحيد ، ووجه تسمية ذلك إسلاما سيأتي عند قوله « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، وأما قوله تعالى « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » فإنه فكك بينهما لأن إسلامهم كان عن خوف لا عن اعتقاد ، فالإيمان والإسلام متغايران مفهوما وبينهما عموم وخصوص وجهي في الماصدق ، فالتوحيد في زمن الفترة إيمان لا يترب منه انقياد إذ الانقياد إنما يحصل بالأعمال ، وانقياد الغلوب المكروه إسلام لم ينشأ عن اعتقاد إيمان ، إلا أن صورتى الانفراد في الإيمان والإسلام نادرتان

ألم الله إبراهيم اسم الإسلام ثم ادخره بعده للدين المحمدي فُسى هذا الاسم بعد إبراهيم ولم يلقب به دين آخر لأن الله أراد أن يكون الدين المحمدي إتماماً للحنيفية دين إبراهيم وسيجيء بيان لهذا عند قوله تعالى ما كان إبراهيم يهودياً في سورة آل عمران .

ومعنى طلب أن يجعلهما مسلمين هو طلب الزيادة في ماها عليه من الإسلام وطلب الدوام عليه ، لأن الله قد جعلهما مسلمين من قبل كما دل عليه قوله « إذ قال له ربه أسلم » الآية .

وقوله « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » يتعين أن يكون (من ذريتنا) ومسلمة (معمولين لفعل (اجعلنا) بطريق المطف ، وهذا دعاء ببقاء دينهما في ذريتهما ، ومن في قوله (من ذريتنا) للتبويض ، وإنما سأل ذلك لبعض الذرية جمعاً بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء لأن نبوءة إبراهيم تقتضى علمه بأنه ستكون ذريته أئمة كثيرة وأن حكمة الله في هذا العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتاله على الأخيار والأشرار فدعا الله بالممكن عادة وهذا من أدب الدعاء وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : قال ومن ذريتي .

ومن هنا ابتدئ التعريض بالمشركين الذين أعرضوا عن التوحيد واتبعوا الشرك ، والتمهيد لشرف الدين المحمدي .

والأمة اسم مشترك يطلق على معان كثيرة والمراد منها هنا الجماعة العظيمة التي يجمعها جامع له بال من نسب أو دين أو زمان، ويقال أمة محمد مثلاً للمسلمين لأنهم اجتمعوا على الإيمان بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بزنة فعله وهذه الزنة تدل على المفعول مثل لقطة وضحكة وقذوة، فالأمة بمعنى مأمومة اشتقت من الأم بفتح الهمزة وهو القصد، لأن الأمة تقصدها الفرق العديدة التي تجمعها جامعة الأمة كلها، مثل الأمة العربية لأنها ترجع إليها قبائل العرب، والأمة الإسلامية لأنها ترجع إليها المذاهب الإسلامية، وأما قوله تعالى «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» فهو في معنى التشبيه البليغ أي كأمم إذا تدبرتم في حكمة اتقان خلقهم ونظام أحوالهم وجدتموه كأمم أمثالكم لأن هذا الاعتبار كان الناس في غفلة عنه.

وقد استجيب دعوة إبراهيم كى المسلمين من العرب الذين تلاحقوا بالإسلام قبل الهجرة وبعدها حتى أسلم كل العرب إلا قبائل قليلة لا تنخرم بهم جامعة الأمة، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم»، وأما من أسلموا من بنى إسرائيل مثل عبد الله بن سلام فلم يلتئم منهم عدد أمة.

وقوله «وأرنا مناسكنا» سؤال لإرشادهم لكيفية الحج الذي أمروا به من قبل أمراً مجعلاً، ففعل أرنا هو من رأى العرفانية وهو استعمال ثابت لفعل الرؤية كما جزم به الراغب في المفردات والزحشرى في الفصل وتعدت بالهمز إلى مفعولين.

وحق رأى أن يتعدى إلى مفعول واحد لأن أصله هو الرؤية البصرية ثم استعمل مجازاً في العلم يجعل العلم اليقيني شبيهاً برؤية البصر، فإذا دخل عليه همز التعدية تعدى إلى مفعولين وأما تعدية أرى إلى ثلاثة مفاعيل فهو خلاف الأصل وهو استعمال خاص وذلك إذا أراد الله تكلم الإخبار عن معرفة صفة من صفات ذات فيذكر اسم الذات أولاً ويعلم أن ذلك لا يفيد مراده فيكمله بذكر خال لازمة إتماماً للفائدة فيقول رايت الهلال طالماً مثلاً ثم يقول أرانى فلان الهلال طالماً، وكذلك فعل علم وأخواته من باب ظن كله ومثله باب كان وأخواتها، ألا ترى أنك لو عدلت عن المفعول الثانى فى باب ظن أو عن الخبر فى باب كان إلى الإتيان بمصدر فى موضع الاسم فى أفعال هذين البابين لاستغنىت عن الخبر والمفعول الثانى فتقول

كان حضور فلان أى حصل وعلمت بحجى صاحبك وظننت طلوع الشمس وقد روى قولُ
الفنيد الزّمانى :

عَسَى أَنْ يُرْجَعَ الْإِيَّاهُ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
وقال حطّائط بن يَمْفَر :

أَرَبْنِي جَوَادًا مَاتَ هُزْلًا لَعَلَّنِي أَرَى مَاتَرِينَ أَوْ بِخَيْلًا مُخَلَّدًا

فإن جملة مات هزلا ليست خبراً عن جواد إذ المبتدأ لا يكون نكرة ، وبهذا يتبين أن
الصواب أن يعد الخبر في باب كان والمفعول الثانى في باب ظن أحوالا لازمة لتمام الفائدة
وأن إطلاق اسم الخبر أو المفعول على ذلك المنصوب تسامح وعبرة قديمة .

وقرأ ابن كثير ويعقوب ، وأرنا يسكون الراء للتخفيف وقرأه أبو عمرو باختلاس كسرة
الراء تخفيفاً أيضاً ، وجملة إنك أنت التواب الرحيم تعليل لجل الدعاء .

والمناسك جمع منسك وهو اسم مكان من نسك نسكا من باب نصرأى تعبد أو من
نسك بضم السين نساكة بمعنى ذبح تقرباً ، والأظهر هو الأول لأنه الذى يحق طلب التوفيق
له وسيأتى في قوله تعالى « فإذا قضيتُم مناسككم » .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ 129

كرر النداء لأنه عطف غرض آخر في هذا الدعاء وهو غرض الدعاء بحجى الرسالة في
ذريته لتشریفهم وحرصاً على تمام هديهم .

وإنما قال « فيهم » ولم يقل لهم لتكون الدعوة بحجى رسول برسالة عامة فلا يكون
ذلك الرسول رسولا إليهم فقط ، ولذلك حذف متعلق رسولا ليعم ، فالنداء في قوله ربنا
وابعث اعتراض بين جل الدعوات المتعاطفة ، ومظهر هذه الدعوة هو محمد صلى الله عليه وسلم
فإنه الرسول الذى هو من ذرية إبراهيم وإسماعيل كليهما ، وأما غيره من رسل غير العرب
فليسوا من ذرية إسماعيل ، وشعيب من ذرية إبراهيم وليس من ذرية إسماعيل ، وهود
وصالح هما من العرب العاربة فليسا من ذرية إبراهيم ولا من ذرية إسماعيل .

وجاء في التوراة (في الإصحاح ١٧ من التكوين) « ظهر الرب لإبرام » أى إبراهيم « وقال له أنا الله القدير سرّ أُمّى وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً وفي فقرة ٢٠ وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . وذكر عبد الحق الإسلامى السبتي الذى كان يهودياً فأسلم هو وأولاده وأهله في سبته وكان موجوداً بها سنة ٧٣٦ ست وثلاثين وسبعمائة في كتاب له سماه الحسام المحدود في الرد على اليهود : أن كلمة كثيراً جداً أصلها في النص العبرانى « مادا مادا » وأنها رمز في التوراة لاسم محمد بحساب الجمل لأن عدد حروف « مادا مادا » بحساب الجمل عند اليهود تجمع عدد اثنين وتسعين وهو عدد حروف محمد اه وتبعه على هذا البقاعى في نظم الدرر . ومعنى يتلو عليهم آياتك يقرؤها عليهم قراءة تذكير ، وفي هذا إيحاء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع .

فآيات جمع آية وهى الجملة من جمل القرآن ، سميت آية لدلالتها على صدق الرسول بمجموع ما فيها من دلالة صدور مثلها من أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وما نُسجت عليه من نظم أعجز الناس عن الإتيان بمثله ، ولما اشتملت عليه من الدلالة القاطعة على توحيد الله وكال صفاته دلالة لم تترك مسلكاً للضلال في عقائد الأمة بحيث أمنت هذه الأمة من الإشراك ، قال النبىء صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع « إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في بلدكم هذا » . وحجى بالمضارع في قوله « يتلو » للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته .

والحكمة العلم بالله ودقائق شرائعه وهى معانى الكتاب وتفصيل مقاصده ، وعن مالك : الحكمة معرفة الفقه والدين والاتباع لذلك ، وعن الشافعى الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما ناظر إلى أن عطف الحكمة على الكتاب يقتضى شيئاً من المغايرة بزيادة معنى وسيجىء تفصيل معنى الحكمة عند قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء في هذه السورة . والتزكية التطهير من النقائص وأكبر النقائص الشرك بالله ، وفي هذا تعريض بالذين أعرضوا عن متابعة القرآن وأبوا إلا البقاء على الشرك .

وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه قال تعالى « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » ، ثم العلم تحصل به التزكية وهى في العمل بإرشاد القرآن .

وقوله «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» تذييل لتقريب الإجابة أى لأنك لا يفلبك أمر عظيم ولا يعزب عن علمك وحكمتك شيء والحكيم بمعنى المحكم هو فاعيل بمعنى مفعول وقد تقدم نظيره في قوله تعالى «ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون» - وقوله - «قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» .

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ 131

موقع هاته الآيات من سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل فإنه لما بين فضائل إبراهيم من قوله «وإذا بطل» إلى هنا علم أن صاحب هاته الفضائل لا يعدل عن دينه والاعتداء به إلا سفيه العقل أفن الرأي ، فمقتضى الظاهر أن تعطف على سوابقها بالفاء وإنما عدل من الفاء إلى الواو ليكون مدلول هذه الجملة مستقلاً بنفسه في تكميل التنويه بشأن إبراهيم وفي أن هذا الحكم حقيق بملة إبراهيم من كل جهة لا من خصوص ما حكى عنه في الآيات السالفة وفي التعريض بالذين حادوا عن الدين الذي جاء متضمناً لملة إبراهيم ، والدلالة عن التفرع لا تقوت لأن وقوع الجملة بعد سوابقها متضمنة هذا المعنى دليل على أنها نتيجة لما تقدم كما تقول أحسن فلان تدبير المهم وهو رجل حكيم ولا تحتاج إلى أن تقول فهو رجل حكيم .

والاستفهام للإنكار والاستبعاد ، واستعماله في الإنكار قد يكون مع جواز إرادة قصد الاستفهام فيكون كناية ، وقد يكون مع عدم جواز إرادة معنى الاستفهام فيكون مجازاً في الإنكار ويكون معناه معنى النفي ، والأظهر أنه هنا من قبيل الكناية فإن الإعراض عن ملة إبراهيم مع العلم بفضلها ووضوحها أمر منكر مستبعد . ولما كان شأن النكر المستبعد أن يسأل عن فاعله استعمل الاستفهام في ملزومه وهو الإنكار والاستبعاد على وجه الكناية مع أنه لو سئل عن هذا المعرض لكان السؤال وجيهاً ، والاستثناء قرينة على إرادة النفي واستعمال اللفظ في معنيين كثنائين ، أو ترشيح للمعنى الكنائى وهما الإنكار . والاستفهام لا يجيء فيه ما قالوا في استعمال اللفظ المشترك في معنييه واستعمال اللفظ

في حقيقته ومجازه أو في مجازيه لأن الدلالة على المعنى الكنائى بطريق العقل بخلاف الدلالة على المعنيين الموضوع لهما الحقيقى وعلى المعنى الحقيقى والمجازى إذ الذين رأوا ذلك منعوا بعلّة أن قصد الدلالة باللفظ على أحد المعنيين يقتضى عدم الدلالة به على الآخر لأنه لفظ واحد فإذا دل على معنى تمت دلالة وأن الدلالة على المعنيين المجازيين دلالة باللفظ على أحد المعنيين فتقتضى أنه نقل من مدلوله الحقيقى إلى مدلول مجازى وذلك يقتضى عدم الدلالة به على غيره لأنه لفظ واحد ، وقد أبطلنا ذلك فى المقدمة التاسعة ، أما المعنى الكنائى فالدلالة عليه عقلية سواء بقى اللفظ دالا على معناه الحقيقى أم تعطلت دلالاته عليه . ولك أن تجعل استعمال الاستفهام فى معنى الإنكار مجازا بعلاقة اللزوم كما تكرر فى كل كناية لم يرد فيها المعنى الأصلى وهو أظهر لأنه مجاز مشهور حتى صار حقيقة عرفية فقال النحاة : الاستفهام الإنكارى نقي ولذا يجىء بعده الاستثناء ، والتحقيق أنه لا يطرد أن يكون بمعنى النفي ولكنه يكثر فيه ذلك لأن شأن الشيء المنكر بأن يكون معدوما ولهذا فالاستثناء هنا يصح أن يكون استثناء من كلام دل عليه الاستفهام كأن مجيباً أجاب السائل بقوله « لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه » .

والرغبة طلب أمر محبوب : فحق فعلها أن يتعدى بقى وقد يعدى بمن إذا ضمن معنى المدول عن أمر وكثر هذا التضمن فى الكلام حتى صار منسياً ، والملة الدين وتقدم بيانها عند قوله تعالى « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .
وسفه بمعنى استخف لأن السفاهة خفة العقل واضطرابه يقال تسفهه استخفه قال ذو الرمة .

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تُسْفَهَتُ أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ

ومنه السفاهة فى الفعل وهو ارتكاب أفعال لا يرضى بها أهل المروءة والسفه فى المال وهو إضاعته وقلة البالاة به وسوء تمنعته . وسفه بمعنى استخفه وأهانته لأن الاستخفاف ينشأ عنه الإهانة وسفه صار سفيهاً وقد تضم الفاء فى هذا .

وانتصاب (نفسه) إما على المفعول به أى أهملها واستخفها ولم يبال بإضاعتها دنيا وأخرى ويجوز انتصابه على التمييز المحول عن الفاعل وأصله سَفِهَتْ نَفْسَهُ أى خفت ، وطاشت فحوّل الإسناد إلى صاحب النفس على طريقة المجاز العقلى للملابسة قصدا للمبالغة وهى أن السفاهة

سرت من النفس إلى صاحبها من شدة تمسكها بنفسه حتى صارت صفة لجمانه ، ثم انتصب الفاعل على التمييز تفسيرا لذلك الإبهام في الإسناد المجازي ، ولا يعكر عليه مجيء التمييز معرفة بالإضافة لأن تنكير التمييز أعلي .

والمقصود من قوله « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » تسفيه المشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام بعد أن بين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الإسلام مقام على أساس الحنيفية وهي معروفة عندهم بأنها ملة إبراهيم قال تعالى « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً » وقال في الآية السابقة « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » وقال « وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » - إلى قوله - فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون .

• وجملته « ولقد اصطفيناه » معطوفة على الجمل التي قبلها الدالة على رفعة درجة إبراهيم عند الله تعالى إذ جعله للناس إماما وضمن له النبوة في ذريته وأمره ببناء مسجد لتوحيده واستجاب له دعواته .

وقد دلت تلك الجمل على اختيار الله إياه فلا جرم أعقبت بعطف هذه الجملة عليها لأنها جامعة لفذلكتها وزائدة بذكر أنه سيكون في الآخرة من الصالحين . واللام جواب قسم محذوف وفي ذلك اهتمام بتقرير اصطفاؤه وصلاحه في الآخرة .

ولأجل الاهتمام بهذا الخبر الأخير أكد بقوله وإنه في الآخرة لمن الصالحين فقوله وإنه في الآخرة إلى آخره اعتراض بين جملة اصطفيناه وبين الظرف وهو قوله « إذ قال له ربه أسلم » ، إذ هو ظرف لاصطفيناه وما عطف عليه ، قصد من هذه الظرفية التخلص إلى منقبة أخرى ، لأن ذلك الوقت هو دليل اصطفاؤه حيث خاطبه الله بوحي وأمره بما تضمنه قوله « أسلم » من معاني جماعها التوحيد والبراءة من الحول والقوة وإخلاص الطاعة ، وهو أيضا وقت ظهور أن الله أراد إصلاح حاله في الآخرة إذ كلُّ مُيسر لما خلق له .

وقد فهم أن مفعول أسلم ومتعلقه محذوفان يعلمان من المقام أي أسلم نفسك لي كما دل عليه الجواب بقوله « أسلمت لرب العالمين » وشاع الاستثناء عن مفعول أسلم فنزل الفعل منزلة اللازم يقال أسلم أي دَانَ بالإسلام كما أنبأ به قوله تعالى « ولكن كان حنيفا مسلما » كما سيأتي قريبا .

وقوله قال أسلمت فصلت الجملة على طريقة حكاية المحاورات كما قدمناه في « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .

وقوله وقال أسلمت يشعر بأنه يادر بالفور دون تريث كما اقتضاه وقوعه جواباً ، قال ابن عرفة إنما قال لرب العالمين دون أن يقول أسلمت لك ليكون قد أتى بالإسلام وبدليله اهـ .
يعنى أن إبراهيم كان قد علم أن لهذا العالم خالفاً عالماً حصل له بإلهام من الله فلما أوحى الله إليه بالإيمان صادف ذلك عقلاً رشداً .

﴿ وَأَوْصَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ 132

لما كان من شأن أهل الحق والحكمة أن يكونوا حريصين على صلاح أنفسهم وصلاح أمتهم كان من مبهكلات ذلك أن يحرصوا على دوام الحق في الناس متبعماً مشهوراً فكان من سننهم التوصية لمن يظنونهم خلفاء عنهم في الناس بأن لا يحدوا عن طريق الحق ولا يفرطوا فيما حصل لهم منه ، فإن حصوله بمجاهدة نفوس ومرور أزمان فكان لذلك أمراً نفيساً يجدر أن يحتفظ به .

والإيصاء أمر أو نهى يتعلق بصلاح المخاطب خصوصاً أو عموماً ، وفي فوته ضرر ، فالوصية أبلغ من مطلق أمر ونهى فلا تطلق إلا في حيث يخاف الفوات إما بالنسبة للموصى ولذلك كثر الإيصاء عند توقع الموت كما سيأتى عند قوله تعالى « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي » ، وفي حديث العرابض « وعظنا رسول الله موعظة ورجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا » الحديث ، وإما بالنسبة إلى الموصى كالوصية عند السفر في حديث معاذ حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لليمن « كان آخر ما أوصاني رسول الله حين وضعت رجلى في الفرز أن قال حسن خُلقك للناس » ، وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أوصني قال « لا تغضب » .

فوصية إبراهيم ويعقوب إما عند الموت كما تشمر به الآية الآتية « إذ حضر يعقوب الموت » وإما في مظان خشية القوات .

والضمير المجرور بالباء عائد على الملة أو على الكلمة أى قوله « أسلمت رب العالمين » فإن كان الملة فالمعنى أنه أوصى أن يلازموا ما كانوا عليه معه في حياته ، وإن كان الثانى فالمعنى أنه أوصى بهذا الكلام الذى هو شعار جامع لمعانى ما فى الملة .

وبنو إبراهيم ثمانية : إسماعيل وهو أكبر بنيه وأمه هاجر ، وإسحاق وأمه سارة وهو ثانى بنيه ، ومديان ، ومدان ، وزمران ، ويقشان ، وبشباق ، وشوح ، وهؤلاء أهمهم قطورة التى تزوجها إبراهيم بدموت سارة ، وليس لغير إسماعيل وإسحاق خبر مفصل فى التوراة سوى أن ظاهر التوراة أن مديان هو جد أمة مدين أصحاب الأيكة وأن موسى عليه السلام لما خرج خائفاً من مصر نزل أرض مديان وأن يثرون أو رعوئيل (هو شعيب) كان كاهن أهل مدين . وأما يعقوب فهو ابن إسحاق من زوجه رفقة الأرامية تزوجها سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألف قبل المسيح فى حياة جده إبراهيم فكان فى زمن إبراهيم رجلاً ولقب بإسرائيل وهو جد جميع بنى إسرائيل ومات يعقوب بأرض مصر سنة تسع وثمانين وتسعمائة وألف قبل المسيح ودفن بمغارة الكفلية بأرض كنعان (بلد الخليل) حيث دفن جده وأبوه عليهم السلام .

وعطف يعقوب على إبراهيم هنا إدماج مقصود به تذكير بنى إسرائيل (الذى هو يعقوب) بوصية جدهم فكما عرض بالمشركين فى إعراضهم عن دين أوصى به أبوهم عرض باليهود كذلك لأنهم لما انتسبوا إلى إسرائيل وهو يعقوب الذى هو جامع نسبهم بعد إبراهيم لتقام الحجة عليهم بحق اتباعهم الإسلام .

وقوله « يا بنى » إلخ حكاية صيغة وصية إبراهيم وسيجىء ذكر وصية يعقوب . ولما كان فعل أوصى متضمناً للقول صح مجىء جملة بعده من شأنها أن تصلح لحكاية الوصية لتفسر جملة أوصى ، وإنما لم يؤت بأن التفسيرية التى أكثر مجيئها بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه ، لأن التفسيرية تحتل أن يكون ما بعدها محكيًا بلفظه أو بمعناه والأكثر أن يحكى بالمعنى ، فلما أريد هنا التنصيص على أن هذه الجملة حكاية لقول إبراهيم بنصه (ما عدا مخالفة المفردات العربية) غومت معاملة فعل القول نفسه فإنه لا تجىء بعده أن التفسيرية بحال ، ولهذا

يقول البصريون في هذه الآية إنه مقدر قول محذوف خلافاً للكوفيين القائلين بأن وصى ونحوه ناصب للجملة المفعولة ، ويشبه أن يكون الخلاف بينهم لفظياً .

و(اصطفى لكم) . اختار لكم الدين أى الدين الكامل ، وفيه إشارة إلى أنه اختاره لهم من بين الأديان وأنه فضلهم به لأن اصطفى لك يدل على أنه ادخره لأجله ، وأراد به دين الحنيفية المسمى بالإسلام فلذلك قال فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

ومعنى فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون النهى عن مفارقة الإسلام أعنى ملة إبراهيم في جميع أوقات حياتهم ، وذلك كناية عن ملازمته مدة الحياة لأن الحى لا يدرى متى يأتيه الموت فنهى أحد عن أن يموت غير مسلم أمر بالاتصاف بالإسلام في جميع أوقات الحياة فالمراد من مثل هذا النهى شدة الحرص على ترك النهى .

وللعرب في النهى المراد منه النهى عن لازمه طرق ثلاثة : الأول: أن يجعلوا النهى عنه مما لا قدرة للمخاطب على اجتنابه فيدلوا بذلك على أن المراد نهي لازمه مثل قولهم لا تنس كذا أى لا ترتكب أسباب النسيان ، ومثل قولهم لا أعرفك تفعل كذا أى لا تفعل فأعرفك لأن معرفة التكلم لا ينهى عنها المخاطب ، وفي الحديث « فلا يذادن أقوام عن حوضى » ، الثانى: أن يكون النهى عنه مقدوراً للمخاطب ولا يريد التكلم النهى عنه ولكن عما يتصل به أو يقارنه فيجمل النهى في اللفظ عن شيء ويقيده بمقارنه للعلم بأن النهى عنه مضطر لإيقاعه فإذا أوقعه اضطر لإيقاع مقارنه نحو قولك لا أراك بشياب مشوهة ، ومنه قوله تعالى « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، الثالث: أن يكون النهى عنه ممكن الحصول ويجعله مفيداً مع احتمال المقام لأن يكون النهى عن الأمرين إذا اجتمعا ولو لم يفعل أحدهما نحو لا تجثنى سائلاً وأنت تريد أن لا يسألك فيما أن يجيىء ولا يسأل وإما أن لا يجيىء بالمرّة ، وفي الثانية إثبات أن بنى إبراهيم ويعقوب كانوا على ملة الإسلام وأن الإسلام جاء بما كان عليه إبراهيم وبنوه حين لم يكن لأحد سلطان عليهم ، وفيه إيماء إلى أن ما طرأ على بنيه بعد ذلك من الشرائع إنما اقتضته أحوال عرضت وهى دون الكمال الذى كان عليه إبراهيم ولهذا قال تعالى « إن الدين عند الله الإسلام » وقال « وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » .

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَوْ مُسْلِمُونَ ﴾¹³³

تفصيل لوصية يعقوب بأنه أمر أبناءه أن يكونوا على ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهي نظير ما وصى به إبراهيم بنيه فأجل هنا اعتماداً على ما صرح به في قوله سابقاً « يا بني إن الله اضطى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وهذا تنويه بالحنيفية التي هي أساس الإسلام، وتمهيد لإبطال قولهم « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » وإبطال لزعهم أن يعقوب كان على اليهودية وأنه أوصى بها بنيه فلزمت ذريته فلا يحولون عنها . وقد ذكر أن اليهود قالوا ذلك قاله الواحدي والبقوي بدون سند ، ويدل عليه قوله تعالى « أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى » الآية فلذلك جيء هنا بتفصيل وصية يعقوب لإبطال ادعوى اليهود ونقضاً لمعتقدهم الذي لا دليل عليه كما أنبأ به الإنكار في قوله « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ » إلخ .

« أم » عاطفة جملة « كنتم شهداء » على جملة « وأوصى بها إبراهيم بنيه » فإن أم من حروف العطف كينها وقعت ، وهي هنا منقطعة للانتقال من الخبر عن إبراهيم ويعقوب إلى مجادلة من اعتقدوا خلاف ذلك الخبر ، ولما كانت أم يلزمها الاستفهام كما مضى عند قوله تعالى « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » إلخ فلا استفهام هنا غير حقيق لظهور أن عدم شهودهم احتضار يعقوب محقق ، فتمين أن الاستفهام مجاز : ومحملة على الإنكار لأنه أشهر محامل الاستفهام المجازي ، ولأن مثل هذا المستفهم عنه مألوف في الاستفهام الإنكارى ، ثم إن كون الاستفهام إنكارياً يمنع أن يكون الخطاب الواقع فيه خطاباً للمسلمين لأنهم ليسوا بمظنة حال من يدهى خلاف الواقع حتى ينكر عليهم ، خلافاً لمن جوز كون الخطاب للمسلمين من المفسرين ، توهموا أن الإنكار يساوى النفي مساواة تامة وغفلوا عن الفرق بين الاستفهام الإنكارى وبين النفي المجرد فإن الاستفهام الإنكارى مستعمل في الإنكار مجازاً بدلالة المطابقة وهو يستلزم النفي بدلالة الالتزام ، ومن العجيب وقوع الرغشرى في هذه الغفلة . فتمين أن المخاطب اليهود وأن الإنكار متوجه إلى اعتقاد اعتقدوه يعلم من سياق الكلام

وسوابقه وهو ادعاؤهم أن يعقوب مات على اليهودية وأوصى بها فلزمت ذريته ، فكان موقع الإنكار على اليهود واضحاً وهو أنهم ادعوا ما لا قبل لهم بعلمه إذ لم يشهدوا كما سيأتى ، فالعنى ما كنتم شهداء احتضار يعقوب . ثم أكمل الله القصة تعليماً وتفصيلاً واستقصاءً في الحجة بأن ذكر ما قاله يعقوب حين اختصاره وما أجابه أبناؤه وليس ذلك بداخل في خيز الإنكار ، فالإنكار ينتهى عند قوله « الموت » والبقية تكملة للقصة ، والقرينة على الأمرين ظاهرة اعتماداً على مألوف الاستعمال في مثله فإنه لا يُطال فيه المستفهم عنه بالإنكار ألا ترى إلى قوله تعالى « أشهدوا خلقهم » ، فلما قال هنا « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت » ، علم السامع موقع الإنكار ، ثم يعلم أن قول أبناء يعقوب نعبد إلهك لم يكن من دعوى اليهود حتى يدخل في خيز الإنكار لأنهم لو ادعوا ذلك لم ينكر عليهم إذ هو عين المقصود من الخبر ، وبذلك يستقر كلا الكلامين في قراره ، ولم يكن داع لجمع أم متصلة بتقدير محذوف قبلها تكون هى معادلة له ، كأن يقدر أ كنتم غائبين إذ حضر يعقوب الموت أم شهداء وأن الخطاب لليهود أو للمسلمين والاستفهام للتقرير ، ولا لجمع الخطاب في قوله « كنتم » للمسلمين على معنى جعل الاستفهام للنفي المحض أى ما شهدتم احتضار يعقوب أى على حد « وما كنت بجانب الغربى » وحد « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم » كما حوله الزمخشري ومتابعوه ، وإنما حداه إلى ذلك قياسه على غالب مواقع استعمال أمثال هذا التركيب مع أن موقعه هنا موقع غير معهود وهو من الإيجاز والإكمال إذ جمع الإنكار عليهم في القول على من لم يشهده ، وتعليمهم ما جهلوه ، ولأجل التنبيه على هذا الجمع البديع أعيدت إذ في قوله « إذ قال لبنيه » ليكون كالبدل من « إذ حضر يعقوب الموت » فيكون مقصوداً بالحكم أيضاً .

والشهداء جمع شهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للأمر والشأن ، ووجه دلالة نفي المشاهدة على نفي ما نسبوا إلى يعقوب هو أن تنبيههم إلى أنهم لم يشهدوا ذلك يثير في نفوسهم الشك في معتقدهم .

وقوله تعالى « قالوا نعبد إلهك » هو من بقية القصة المنفى شهود المخاطبين محضرها فهذا من مجيء القول في المحاورات كما قدمنا ، فقوله « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها » فيكون الكلام تنقياً لشهودهم مع إفادة تلك الوصية ، أى ولو شاهدتم ما اعتقدتم خلافها

فلما اعتقدوا اعتقاداً كالضرورى وبخهم وأنكر عليهم حتى يرجعوا إلى النظر في الطرق التي استندوا إليها فعملوا أنها طرق غير موصلة ، وبهذا تملون وجهة الاقتصار على تقى الحضور مع أن تقى الحضور لا يدل على كذب المدعى لأن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ، فالمقصود هنا الاستدراج في إبطال الدعوى بإدخال الشك على مدعيها .

وقوله تعالى « إذ قال لبنيه » يدل من إذا حضر يعقوب الموت ، وفائدة الجيء بالخبر على هذه الطريقة دون أن يقال أم كنتم شهداء إذ قال يعقوب لبنيه عند الموت ، هي قصد استقلال الخبر وأهمية القصة وقصد حكايتها على ترتيب حصولها ، وقصد الإجمال ثم التفصيل لأن حالة حضور الموت لا تخلو من حدث هام سيحكي بعدها فيترقبه السامع .

وهذه الوصية جاءت عند الموت وهو وقت التعجيل بالحرص على إبلاغ النصيحة في آخر ما يبقى من كلام الموصى فيكون له رسوخ في نفوس الموصين ، أخرج أبو داود والترمذى عن العرياض بن سارية قال « وعظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها الميون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا » الحديث .

وجاء يعقوب في وصيته بأسلوب الاستفهام لينظر مقدار ثباتهم على الدين حتى يطلع على خالص طوبيتهم ليلقى إليهم ما سيوصيهم به من التذكير وجيء في السؤال بما الاستفهامية دون من لأن ما هي الأصل عند قصد العموم لأنه سألهم عما يمكن أن يعيده العابدون .

واقترن ظرف (بعدي) بحرف من لقصد التوكيد فإن من هذه في الأصل ابتدائية فقولك جئت من بعد الزوال يفيد أنك جئت في أول الأزمنة بعد الزوال ثم عوملت معاملة حرف تأكيد .

وبنو يعقوب هم الأسباط أى أسباط إسحاق ومنهم تشعبت قبائل بنى إسرائيل وهم اثنا عشر ابناً : راويين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون ، (وهؤلاء أهم ليثة) ويوسف ، وبنيامين ، (أمهما راحيل) ودان ، ونفتالى ، (أمهما بلهة) وجاد ، وأشير (أمهما زلفة) .

وقد أخبر القرآن بأن جميعهم صاروا أنبياء وأن يوسف كان رسولا .

وواحد الأسباط سبط بكر السنين وسكون الباء وهو ابن الابن أى الحفيد ، وقد

اختلف في اشتقاق سبط قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى « وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما » في سورة الأعراف عن الزجاج الأظهر أن السبط عبراني عرب اه . قلت وفي العبرانية سبيط بتحتية بعد السين ساكنة .

وجملة « قالوا نعبد إلهك » جواب عن قوله « ماتعبدون » جاءت على طريقة المحاورات بدون واو وليست استثنافاً لأن الاستثناف إنما يكون بعد تمام الكلام ولا تمام له قبل حصول الجواب ، وجيء في قوله « نعبد إلهك » معرفاً بالإضافة دون الاسم العلم بأن يقول نعبد الله لأن إضافة إله إلى ضمير يعقوب وإلى آباءه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآبؤه يصفون الله بها فيما لقنه لأبنائه منذ نشأتهم ، ولأنهم كانوا سكنوا أرض كنعان وفلسطين مختلطين ومصاهرين لأمم تعبد الأصنام من كنعانيين وفلسطينيين وحثيين وأراميين ثم كان موت يعقوب في أرض الفراعنة وكانوا يعبدون آلهة أخرى .

وأيضاً فمن فوائد تعريف الذي يعبدونه بطريق الإضافة إلى ضمير أبيهم وإلى لفظ آباءه أن فيها إيماء إلى أنهم مقتدون بسلفهم .

وفي الإتيان بعطف البيان من قولهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ضرب من محسن الاطراد تنويعها بأسماء هؤلاء الأسلاف كقول ربيعة بن نصر بن قعين :

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعُتْبَةَ بن الحارث بن شهاب

وإنما أعيد المضاف في قوله « وإله آباءك » لأن إعادة المضاف مع المعطوف على المضاف إليه أفصح في الكلام وليست بواجبة ، وإطلاق الآباء على ما شمل إسماعيل وهو عم ليعقوب إطلاق من باب التغليب ولأن العم بمنزلة الأب .

وقد مضى التعريف بإبراهيم وإسماعيل .

وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم وهو أصغر من إسماعيل بأربع عشرة سنة وأمه سارة ولد سنة ١٨٩٦ ست وتسعين وثمانمائة وألف قبل ميلاد المسيح وهو جد بني إسرائيل وغيرهم من أُمم تقرب لهم .

واليهود يقولون إن الابن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه وفداه الله هو إسحاق ، والحق أن الذي أمر بذبحه هو إسماعيل في صغره حين لم يكن لإبراهيم ولد غيره ليظهر كمال الامتثال

ومن الغريب أن التوراة لما ذكرت قصة الذبيح وصفته بالابن الوحيد لإبراهيم ولم يكن إسحاق وحيداً قط ، وتوفى إسحاق سنة ثمان وسبعمائة وألف قبل الميلاد ودفن مع أبيه وأمه في مغارة المكفيلة في حبرون (بلد الخليل) وقوله « إلهها واحدا » توضيح لصفة الإله الذي يعبدونه فقوله « إلهها » حال من إلهك ووقوع إلهها حالاً من إلهك مع أنه مرادف له في لفظه ومعناه إنما هو باعتبار إجراء الوصف عليه بواحد فالحال في الحقيقة هو ذلك الوصف ، وإنما أعيد لفظ إلهها ولم يقتصر على وصف واحداً لزيادة الإيضاح لأن المقام مقام إطناب ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله ، وهذا أسلوب من الفصاحة إذ يعاد اللفظ ليبني عليه وصف أو متعلق ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعاً ، وليس المقصود من ذلك مجرد التوكيد ومنه قوله تعالى « وإذا مروا باللغو مروا كراماً » وقوله « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » وقوله « واتقوا الذي أمدكم بما تعملون أمدكم بأنعام وبنين » إذ أعاد فعل أمدكم وقول الأحوص الأنصارى :

فَإِذَا تَزُولُ تَزُولُ عَنْ مُتَخَمِّطٍ تُخْشَى بَوَادِرُهُ عَلَى الْأَقْرَانِ

قال ابن جني في شرح الحماسة « محال أن تقول إذا قت قت لأنه ليس في الثاني غير ما في الأول وإنما جاز أن يقول فإذا تزل تزل لما اتصل بالفعل الثاني من حرف الجر المفاد منه الفائدة، ومثله قول الله تعالى « هؤلاء الذين أغوينا أغويانهم كما غوينا » وقد كان أبو على امتنع في هذه الآية مما أخذناه غير أن الأمر فيها عندي على ما عرفتك .

وجوز صاحب الكشف أن يكون قوله « إلهها واحداً » بدلاً من إلهك بناء على جواز إبدال النكرة الموصوفة من المعرفة مثل « لنسفن بالناسية ناسية كاذبة » ، أو أن يكون منصوباً على الاختصاص بتقدير أمدح فإن الاختصاص يجيء من الاسم الظاهر ومن ضمير الغائب .
وقوله « ونحن له مسلمون » جملة في موضع الحال من ضمير نعبد ، أو معطوفة على جملة نعبد ، جيء بها اسمية لإفادة ثبات الوصف لهم ودوامه بعد أن أفيد بالجملة الفعلية المعطوف عليها معنى التجدد والاستمرار .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ 134

عقب الآيات المتقدمة من قوله « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » بهذه الآية لأن تلك الآيات تضمنت الثناء على إبراهيم وبنيه والتنويه بشأنهم والتعريض بمن لم يقتف آثارهم من ذريتهم وكأن ذلك قد ينتحل منه المغرورون عذرا لأنفسهم فيقولون نحن وإن قصرنا فإن لنا من فضل آبائنا مسلكا لنجاتنا ، فذكرت هذه الآية لإفادة أن الجزاء بالأعمال لا بالانكال . والإشارة بتلك عائدة إلى إبراهيم وبنيه باعتبار أنهم جماعة وباعتبار الإخبار عنهم باسم مؤنث لفظه وهو أمة .

والأمة تقدم بيانها آتفا عند قوله تعالى « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » . وقوله قد خلت صفة لأمة ومعنى خلت مضت ، وأصل الخلاء الفراغ فأصل معنى خلت خلا منها المكان فأسند الخلو إلى أصحاب المكان على طريقة المجاز العقلي لنكتة البالغة ، والخبر هنا كناية عن عدم انتفاع غيرهم بأعمالهم الصالحة وإلا فإن كونها خلت مما لا يحتاج إلى الإخبار به ، ولذا فقولها ما كسبت الآية بدل من جملة قد خلت بدل مفصل من مجمل .

والخطاب موجه إلى اليهود أى لا ينفعكم صلاح آبائكم إذا كنتم غير متبعين طريقتهم ، فقولها ما كسبت تهديد لقوله وإسكم ما كسبت إذ هو المقصود من الكلام ، والمراد بما كسبت وبما كسبتكم ثواب الأعمال بدليل التعبير فيه بلها ولكم ، ولك أن تجعل الكلام من نوع الاحتباك والتقرير لها ما كسبت وعليكم ما كسبت أى إثم . ومن هذه الآية ونظائرها انتزع الأشعري التعبير عن فعل العبد بالكسب .

وتقديم المسندين على المسند إليهما فررها ما كسبت ولكم ما كسبت لتقصر المسند إليه على المسند أى ما كسبت الأمة لا يتجاوزها إلى غيرها وما كسبت لا يتجاوزكم ، وهو قصر إضافي لقلب اعتقاد المخاطبين فإنهم لغرورهم يزعمون أن ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبهوه من المعاصي أو يحمله عنهم أسلافهم .

وقوله ولا تسألون عما كانوا يعملون معطوف على قوله لها ما كسبت وهو من تمام التفصيل

لمعنى خلت ، فإن جعلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، خاصا بالأعمال الصالحة فقوله ولا تسألون إلخ تكميل للأقسام أى وعلى كل ما عمل من الإثم ولذا عبر هنالك بالكسب المتعارف فى الادخار والتنافس وعبر هنا بالعمل . وإنما نقي السؤال عن العمل لأنه أقل أنواع المأخذة بالجريمة فإن المرء يؤخذ بجريمته فيسأل عنها ويعاقب وقد يسأل المرء عن جريمة غيره ولا يعاقب كما يلام على القوم فعل بعضهم ما لا يليق وهو شائع عند العرب قال زهير :

لعمري لنعم الحى جرّ عليهم بما لا يؤاتهم حصين بن ضمضم

فنفى أصل السؤال أبلغ وأشمل للأمرين ، وإن جعلت قوله ولكم ما كسبتم مرادا به الأعمال الذميمة المحيطة بهم كان قوله ولا تسألون إلخ احتراسا واستيفاء لتحقيق معنى الاختصاص أى كل فريق يختص به عمله أو تبعته ولا يلحق الآخر من ذلك شيء ولا السؤال عنه ، أى لا تحاسبون بأعمال سلفكم وإنما تحاسبون بأعمالكم .

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾

الظاهر أنه عطف على قوله ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، فإنه بعد أن ذمهم بالعدول عن تلقى الإسلام الذى شمل خصال الحنيفية بين كيفية إعراضهم ومقدار غرورهم بأنهم حصروا الهدى فى اليهودية والنصرانية أى كل فريق منهم حصر الهدى فى دينه .

ووجه الحصر حاصل من جزم تهتدوا فى جواب الأمر فإنه على تقدير شرط فيفيد مفهوم الشرط أن من لم يكن يهوديا لا يراه اليهود مهتديا ومن لم يكن نصرانيا لا يراه النصارى مهتديا أى تقوا الهدى عن متبع ملة إبراهيم وهذا غاية غرورهم .

والواو فى قال عائدة لليهود والنصارى بقرينة مساق الخطاب فى وقالوا أى كنتم شهداء . وقوله ولكم ما كسبتم ؛ (وأو) فى قوله أو نصارى تقسيم بعد الجمع لأن السامع يرد كلا إلى من قاله ، وجزم تهتدوا فى جواب الأمر للإيدان بمعنى الشرط ليفيد بفهوم الشرط أنكم إن كنتم على غير اليهودية والنصرانية فلستم بمهتدين .

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ¹³⁵

جاءت جملة قل من العاطف لوقوعها في مقام الحوار مجاوبة لقولهم كونوا هودا أو نصارى تهتدوا على نحو ما تقدم أى بل لا اعتداء إلا باتباع ملة إبراهيم فإنها لما جاء بها الإسلام أبطل ما كان قبله من الأديان .

وانتصب ملة بإضمار تتبع لدلالة المقام لأن كونوا هودا بمعنى اتبعوا اليهودية ، ويجوز أن ينصب عطفاً على هودا والتقدير بل نكون ملة إبراهيم أى أهل ملته كقول عدى بن حاتم لما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ليسلم : إني من دين أو من أهل دين يعنى النصرانية ، والحنيف فعيل بمعنى فاعل مشتق من الحنف بالتحريك وهو الميل في الرجل قالت أم الأحنف ابن قيس فيما ترقصه به :

والله لولا حنف برجله ما كان في فتيانكم من مثله

والمراد الميل في المذهب أن الذى به حنف يعيل في مشيه عن الطريق المعتاد . وإنما كان هذا مدحاً للعملة لأن الناس يوم ظهور ملة إبراهيم كانوا في ضلالة عمياء فجاء دين إبراهيم مائلاً عنهم فلقب بالحنيف ثم صار الحنيف لقب مدح بالغلبة . والوجه أن يجعل حنيفاً حالاً من إبراهيم وهذا من مواضع الاتفاق على صحة بحى الحال من المضاف إليه ولك أن تجعله حالاً للملة إلا أن فعيلاً بمعنى فاعل يطابق موصوفه إلا أن تؤول ملة بدين على حد إن رحمة الله قريب من المحسنين أى إحسانه أو تشبيهه فعيل إلخ بمعنى فاعل بفعيل بمعنى مفعول .

وقد دلت هذه الآية على أن الدين الإسلامى من إبراهيم .

وقوله وما كان من المشركين جملة هى حالة ثانية من إبراهيم وهو احتباس لثلا يفتر المشركون بقوله بل ملة إبراهيم أى لا نكون هوداً ولا نصارى فيتوهم المشركون أنه لم يبق من الأديان إلا ما هم عليه لأنهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم وإلا فليس ذلك من المدح له بعد ما تقدم من فضائله وهذا على حد قوله تعالى « وما صاحبكم بمجنون » غلط فيه صاحب الكشف غلطاً فاحشاً كما سيأتى .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ
رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ 136

بدل من جملة « قل بل ملة » لتفصيل كيفية هاته الملة بعد أن أوجل ذلك في قوله قل بل ملة إبراهيم حنيفاً. والأمر بالقول أمر بما يتضمنه إذ لا اعتداد بالقول إلا لأنه يطابق الاعتقاد، إذ النسبة إنما وضعت للصدق لا للكذب، والمقصود من الأمر بهذا القول الإعلان به والدعوة إليه لما يشتمل عليه من الفضيلة الظاهرة بحصول فضيلة سائر الأديان لأهل هاته الملة ولما فيه من الإنصاف وسلامة الطوية، ليرغب في ذلك الراغبون ويكبد عند سماعه المماندون وليكون هذا كالاختلاس بعد قوله قل بل ملة إبراهيم حنيفاً أي نحن لا نطعن في شريعة موسى وشريعة عيسى وما أُوتِيَ النبيون ولا نكذبهم ولكننا مسلمون لله بدين الإسلام الذي بقى على أساس ملة إبراهيم وكان تفصيلاً لها وكالمراد الله منها حين أراد الله إكمالها فكانت الشرائع التي جاءت بعد إبراهيم كمنعرجات الطريق سلك بالأمر فيها لمصالح ناسبت أحوالهم وعصورهم بعد إبراهيم كما يسلك بمن أتبعه المسير طريق منمرج ليهيئاً من ركر السيارة في الحجة فيحط رحله وينام ثم يرجع به بعد حين إلى الجادة، ومن مناسبات هذا المعنى أن ابتدئ بقوله وما أنزل إلينا، واختتم بقوله ونحن له مسلمون، ووُسِّط ذكر ما أنزل على النبيين بين ذلك.

وجمع الضمير ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فهم مأمورون بأن يقولوا ذلك . وجعله بدلاً يدل على أن المراد من الأمر في قوله « قل بل ملة » النبي وأُمَّته . وأُفرد الضمير في الكلامين اللذين للنبي، فيهما مزيد اختصاص بمباشرة الرد على اليهود والنصارى لأنه مبعوث لإرشادهم وزجرهم وذلك في قوله « قل بل ملة إبراهيم » إلخ وقوله الآتي - « قل أتجادوننا في الله » وجمع الضمير في الكلام الذي للأمة فيه مزيد اختصاص بمضمون المأمور به في سياق التعاليم أعنى قوله « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ » إلخ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك من قبل فيما تضمنته علوم الرسالة ، ولذلك لم يخل واحد من هاته الكلمات ، عن الإيدان بشمول الأمة مع النبي، أما هنا فظاهر بجمع الضمائر كلها ، وأما

في قوله « قل بل ملة » إلخ فلكونه جواباً مالياً لقولهم « كونوا هوداً » بضمير الجمع فلم أنه رد عليهم بلسان الجميع ، وأما في قوله الآتي « قل أتحاجوننا » فلا أنه بعد أن أفرد قل جمع الضمائر في « أتحاجوننا ، وربنا ، ولنا ، وأعمالنا ، ونحن ، ومخلصون » ، فانظر بدائع النظم في هاته الآيات ودلائل إعجازها .

وقدم الإيمان بالله لأنه لا يختلف باختلاف الشرائع الحق ، ثم عطف عليه الإيمان بما أنزل من الشرائع .

والمراد بما أنزل إلينا القرآن ، وبما عطف عليه ما أنزل على الأنبياء والرسل من وحي وما أوتوه من الكتب ، والمعنى أنا آمنا بأن الله أنزل تلك الشرائع ، وهذا لا ينافي أن بعضها نسخ بعضاً ، وأن ما أنزل إلينا نسخ جميعها فيما خالفها فيه ، ولذلك قدم « وما أنزل إلينا » للاهتمام به ، والتعبير في جانب بعض هذه الشرائع بلفظ أنزل وفي بعضها بلفظ أوتى تفنن لتجنب إعادة اللفظ الواحد مراراً ، وإنما لم يفرد أحد الفعلين ولم تعطف متعلقاته بدون إعادة الأفعال تجنباً لتتابع المتعلقات فإنه كتتابع الإضافات في ما نرى .
والأسباط تقدم ذكرهم آنفاً .

وجملة « لا تفرق بين أحد منهم » حال أو استئناف كأنه قيل كيف تؤمنون بجميعهم فإن الإيمان بحق بواحد منهم ، وهذا السؤال المقدّر ناشئ عن ضلالة وتعصب حيث يعتقدون أن الإيمان برسول لا يتم إلا مع الكفر بغيره وأن تركية أحد لا تتم إلا بالظن في غيره ، وهذه زلة في الأديان والمذاهب والنحل والأحزاب والأخلاق كانت شائعة في الأمم والتلامذة فاقتلعها الإسلام ، قال أبو علي بن سينا في الإشارات رداً على من انتصر في الفلسفة لأرسطو وتنقص أفلاطون « والمعلم الأول وإن كان عظيم المقدار لا يخرجنا الثناء عليه إلى الظن في أساتيذه » .

وهذا رد على اليهود والنصارى إذا آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمن جاء بعدهم ، فالقصد عدم التفرقة بينهم في الإيمان ببعضهم ، وهذا لا ينافي اعتقاد أن بعضهم أفضل من بعض .

وأحد أصلا وحده بالواو ومعناه منفرد وهو لغة في واحد ومخفف منه وقيل هو صفة مشبهة فأبدلت واوه همزة تخفيفاً ثم صار بمعنى الفرد الواحد فتارة يكون بمعنى ما ليس بمتعدد وذلك

حين يجرى على مخبر عنه أو موصوف نحو « قل هو الله أحد » واستعماله كذلك قليل في الكلام ومنه اسم العدد أحد عشر ، وتارة يكون بمعنى فرد من جنس وذلك حين يبين بشيء يدل على جنس نحو خذ أحد الثوبين ويؤنث نحو قوله تعالى « فتذكر إحداها الأخرى » وهذا استعمال كثير وهو قريب في المعنى من الاستعمال الأول ، وتارة يكون بمعنى فرد من جنس لكنه لا يبين بل يعمم وتعميمه قد يكون في الإنبات نحو قوله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره » ، وقد يكون تعميمه في النفي وهو أكثر أحوال استعماله نحو قوله تعالى « فما منكم من أحد عنه حاجزين » وقول الرب: أحد لا يقول ذلك ، وهذا الاستعمال يشيد العموم كشأن النكرات كلها في حالة النفي .

وبهذا يظهر أن أحد لفظ معناه واحد في الأصل وتصريفه واحد ولكن اختلفت مواقع استعماله المتفرقة على أصل وضعه حتى صارت بمنزلة معان متعددة وصار أحد بمنزلة المترادف ، وهذا يجمع مشتت كلام طويل للملاء في لفظ أحد وهو ما احتفل به القرافي في كتابه «المقد المنظوم في الخصوص والعموم» .

وقد دلت كلمة «ين» على محذوف تقديره وآخر لأن بين تقتضي شيئين فأكثر .
وقوله « ونحن له مسلمون » القول فيه كالقول في نظيره المتقدم أننا عند قوله تعالى « إلهنا واحداً ونحن له مسلمون » .

﴿ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ١٣٧

كلام مترض بين قوله « قولوا آمنا بالله » وقوله « صيغة الله » والفاء للتفريع ودخول الفاء في الاعتراض وورد في الكلام كثيراً وإن تردد فيه بعض النحاة والتفريع على قوله « قولوا آمنا بالله » والمراد من القول أن يكون إعلاناً أي أعلنوا دينكم واجهروا بالدعوة إليه فإن اتبعكم الذين قالوا « كونوا هوداً أو نصارى » فإيمانهم اهتداء وليسوا قبل ذلك على هدى خلافاً لزعيمهم أنهم عليه من قولهم « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » فدل مفهوم الشرط على أنهم ليسوا على هدى ماداموا غير مؤمنين بالإسلام .

وجاء الشرط هنا بحرف إن المفيدة للشك في حصول شرطها إيذاناً بأن إيمانهم غير مرجو .

والباء في قوله «بمثل ما آمنتم به» للملابسة وليست للتعدي أي إيماناً مماثلاً لإيمانكم ، فالمثالة بمعنى المساواة في العقيدة والمثابة فيها باعتبار أصحاب العقيدة وليست مشابهة معتبراً فيها تمدد الأديان لأن ذلك ينبو عنه السياق ، وقيل لفظ مثل زائد ، وقيل الباء للآلة والاستعانة ، وقيل الباء زائدة ، وكلها وجوه متكلفة .

وقوله «وإن تولوا فإنما هم في شقاق» أي فقد تبين أنهم ليسوا طالبي هدى ولا حق إذ لا أئين من دعوتكم إياهم ولا إنصاف أظهر من هذه الحجة .

والشقاق شدة المخالفة، مشتق من الشق بفتح الشين وهو الفلق وتفریق الجسم، وحيء بى للدلالة على تمكن الشقاق منهم حتى كأنه ظرف محيط بهم . والإيتان بإن هنا مع أن توليهم هو المظنون بهم لمجرد المشاكلة لقوله فإن آمنوا .

وفرع قوله سيكفيكم الله على قوله فإنما هم في شقاق تبييناً للنبي صلى الله عليه وسلم لأن إعلامه بأن هؤلاء في شقاق مع ما هو معروف من كثرتهم وقوة أنصارهم مما قد يتخرج له السامع فوعده الله بأنه يكفيه شرهم الحاصل من توليهم .

والسين حرف يحض المضارع للاستقبال فهو مختص بالدخول على المضارع وهو كحرف سوف والأصح أنه لا فرق بينهما في سوى زمان الاستقبال . وقيل إن سوف أوسع مدى واشتهر هذا عند الجماهير فصاروا يقولون سوفه إذا ماطل الوفاء بالآخر ، وأحسب أنه لا محيص من التفرقة بين السين وسوف في الاستقبال ليكون لموقع أحدهما دون الآخر في الكلام . البليغ خصوصية ثم إن كليهما إذا جاء في سياق الوعد أفاد تخفيف الوعد ومنه قوله تعالى « قال سأستغفر لك ربى » فالسين هنا لتحقيق وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه يكفيه سوء شقاقهم .

ومعنى كفايتهم كفاية شرهم وشقاقهم فإنهم كانوا أهل تعصب لدينهم وكانوا معتضدين باتباع وأنصار وخاصة النصارى منهم ، وكفاية النبیء كفاية لأمته لأنه ما جاء لشيء ينفع ذاته .

وهو السميع العليم أى السميع لأذاهم بالقول العليم بضايرهم أى اطمئن بأن الله كافيك ماتوجس من شرهم وأذاهم بكثرتهم ، وفى قوله « فسيكفيهم الله وهو السميع العليم » وعد ووعد .

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ 138

هذا متصل بالقول المأمور به فى « قولوا آمنا بالله » وما بينها اعتراض كما علمت والمعنى آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى الأنبياء من قبل إيماناً صبغة الله .

وصبغة بكسر الصاد أصلها صِغ بدون علامة تأنيث وهو الشيء الذى يصبغ به بزنة فعل الدال على معنى المفعول مثل ذبح وقشر وكسر وفلق . واتصاله بعلامة التأنيث لإرادة الوحدة مثل تأنيث قشرة وكسرة وفلقة . فالصبغة الصِغ المعين المحضر لأن يصبغ به . واتصابه على أنه مفعول مطلق نائب عن عامله أى صبغنا صبغة الله كما انتصب « وعد الله لا يخاف الله وعده » بعد قوله « ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » بتقدير وعدهم النصر . أو على أنه بدل من قوله « ملة إبراهيم » أى الملة التى جعلها الله شعارنا كالصبغة عند اليهود والنصارى ، أو منصوباً وصفاً لمصدر محذوف دل عليه فعل آمنا بالله والتقدير آمنا إيماناً صبغة الله ، وهذا هو الوجه اللائق لإطلاق صبغة على وجه المشاكلة ، وما ادعاه صاحب الكشف من أنه يفضى إلى تفكيك النظم تهويل لا يعبأ به فى الكلام البليغ لأن التثام المانى والسياق يدفع التفكك ، وهل الاعتراض والتعاقات إلا من قبيل الفصل يتفكك بها الألفاظ ولا تؤثر تفككا فى المانى ، وجعله صاحب الكشف تبعاً لسيبويه مصدراً مبيناً للحالة مثل الجلوسة والمشيئة وجعلوا نصبه على المفعول المطلق المؤكد لنفسه أى لشيء هو عينه أى أن مفهوم المؤكد (بالفتح) والتأكيد متحدان فيكون مؤكداً لآمنا لأن الإيمان والصبغة متلازمان على حد انتصاب وعد الله من قوله تعالى « وعد الله لا يخلف الله وعده » توكيداً لمضمون الجملة التى قبله وهى قوله « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء » وفيه تكلفان لا يخفيان .

والصبغة هنا اسم للماء الذى يقتسل به اليهود عنواناً على التوبة لمغفرة الذنوب والأصل فيها عندهم الاغتسال الذى جاء فرضه فى التوراة على الكاهن إذا أراد تقديم قربان كفارة

عن الخطيئة عن نفسه أو عن أهل بيته ، والاعتسال الذي يقتله الكاهن أيضا في عيد الكفارة عن خطايا بني إسرائيل في كل عام ، وعند النصارى الصبغة أصلها التطهر في نهر الأردن وهو اغتسال سنه النبي يحيى بن زكرياء لمن يتوب من الذنوب فكان يحيى يعظ بعض الناس بالتوبة فإذا تابوا أتوه فيأمرهم بأن يغتسلوا في نهر الأردن رمزا للتطهر الروحاني وكانوا يسمون ذلك « معموديت » بذال معجمة وبتاء فوقية في آخره ويقولون أيضا معموديتا بألف بعد التاء وهي كلمة من اللغة الآرامية معناها الطهارة ، وقد عربه العرب فقالوا معمودية بالدال المهملة وهاء تأنيث في آخره ويأؤه التحتية مخففة ، وكان عيسى بن مريم حين تعمد بماء المعمودية أنزل الله عليه الوحي بالرسالة ودعا اليهود إلى ما أوحى الله به إليه وحدث كفر اليهود بما جاء به عيسى وقد آمن به يحيى فنشأ الشقاق بين اليهود وبين يحيى وعيسى فرفض اليهود التعميد ، وكان عيسى قد عمد الحواريين الذين آمنوا به ، فقرر في سنة النصارى تعمد من يدخل في دين النصرانية كبيرا ، وقد تعمد قسطنطين قيصر الروم . حين دخل في دين النصرانية ، أما من يولد للنصارى فيعمدونه في اليوم السابع من ولادته . وإطلاق اسم الصبغة على المعمودية يحتمل أن يكون من مبتكرات القرآن ويحتمل أن يكون نصارى العرب سموا ذلك الغسل صبغة ، ولم أقف على ما يثبت ذلك من كلامهم في الجاهلية وظاهر كلام الراغب أنه إطلاق قديم عند النصارى إذ قال « وكانت النصارى إذا ولد لهم ولد غمسوه بعد السابع في ماء معمودية يزعمون أن ذلك صبغة لهم » ، أما وجه تسمية المعمودية (صبغة) فهو خفي إذ ليس لماء المعمودية لون فيطلق على التلطيخ به مادة ص ب غ وفي دائرة المعارف الإسلامية^(١) أن أصل الكلمة من العبرية ص ب ع أى غطس . فيقتضى أنه لما عرب أبدلوا العين المهملة غينا معجمة لعله لندرة مادة صبيع بالعين المهملة في المشتقات وأيا ما كان فإطلاق الصبغة على ماء المعمودية أو على الاغتسال به استعارة مبنية على تشبيه وجهه تخيلى إذ تخيلوا أن التعميد يكسب المعمد به صفة النصرانية ويلونه بلونها كما يلون الصبغ ثوبا مصبوغا وقريب منه إطلاق الصبغ على عادة القوم وخلقهم وأنشدوا لبعض ملوك همدان :

(١) في مادة الصابئة .

وكل أناس لهم صبغة وصبغة همدان خير الصبغ
صَبَغْنَا عَلَى ذَلِكَ أَبْنَاءَنَا فَأَكْرَمَ بِصَبْغَتِنَا فِي الصَّبْغِ

وقد جعل النصارى في كنائسهم أحواضا صغيرة فيها ماء يزعمون أنه مخلوط ببقايا الماء الذى أهرق على عيسى حين عمده يحيى وأن ما تقاطر منه جمع وصب في ماء كثير ومن ذلك الماء تؤخذ مقادير تعتبر مباركة لأنها لا تخلو عن جزء من الماء الذى تقاطر من اغتسال عيسى حين تعميده كما ذلك في أوائل الأنجيل الأربعة .

ف قوله « صبغة الله » رد على اليهود والنصارى معا أما اليهود فلأن الصبغة نشأت فيهم وأما النصارى فلأنها سنة مستمرة فيهم ، ولما كانت المعمودية مشروعة لهم لغلبة تأثير المحسوسات على عقائدهم رد عليهم بأن صبغة الإسلام الاعتقاد والعمل المشار إليهما بقوله « قولوا آمنا بالله » إلى قوله « ونحن له مسلمون » أى إن كان إيمانكم حاصلًا بصبغة القسيس فإيماننا بصبغ الله وتلوينه أى تكليفه الإيمان في الفطرة مع إرشاده إليه ، فإطلاق الصبغة على الإيمان استعارة علاقتها المشابهة وهى مشابهة خفية حسنها قصد المشاكلة ، والمشاكلة من المحسنات البديمية ومرجمها إلى الاستعارة وإنما قصد المشاكلة باعث على الاستعارة ، وإنما سماها العلماء المشاكلة لخفاء وجه التشبيه فأغفلوا أن يسموها استعارة وسموها المشاكلة ، وإتمامى الإتيان بالاستعارة لداعى مشاكلة لفظ للفظ وقع معه . فإن كان اللفظ المقصود مشاكلة مذكورة فى المشاكلة ، ولنا أن نصفها بالمشاكلة التحقيقية كقول ابن الرقعمق (١) .

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئًا نَجِدْ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقِيصًا

استعار الطبخ للخياطة لمشاكلة قوله نجد لك طبخه ، وإن كان اللفظ غير مذكور بل معلوما من السياق سميت مشاكلة تقديرية كقول أبى تمام :

مَنْ مُبْلَغٌ أَفْنَاءَ يَمْرُبَ كُلِّهَا أُنَى بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ

استعار البناء للاصطفاء والاختيار لأنه شاكل به بناء المنزل المقدّر فى الكلام العلوم

(١) هو أحمد بن محمد الأنطاكي ويكنى أبا حامد توفى سنة ٣٩٩ وكنى أبا الرقعمق (براء مفتوحة وقاف مفتوحة وعين ساكنة وميم مفتوحة آخره قاف) ولم أقف على معناه وهو ليس بعرى ولعله لفظ هزل وقبل هذا البيت قوله :

إِخْوَانُنَا قَصَدُوا الصَّبْغَ بِسَحَرَةٍ فَأَتَى رَسُولُهُمْ إِلَى خَصِيصَا

من قوله قبل المنزل ، وقوله تعالى « صبغة الله » من هذا القليل والتقدير في الآية أدق من تقدير بيت أبي تمام وهو مبنى على ما هو معلوم من عادة النصارى واليهود بدلالة قوله « كونوا هودا أو نصارى » على ما يتضمنه من التعميد .

والاستفهام في قوله « ومن أحسن من الله صبغة » إنكارى ومعناه لا أحسن من الله في شأن صبغته ، فاتصب صبغة على التمييز ، تمييز نسبة محول عن مبتدأ ثان يقدر بعد من في قوله « ومن أحسن » والتقدير ومن صبغته أحسن من الله أى من صبغة الله قال أبو حيان في البحر المحيوط وقل ما ذكر النحاة في التمييز المحول عن المبتدأ .

وقد تأتى بهذا التحويل في التمييز إيجاز بديع إذ حذف كلمتان بدون لبس فإنه لما أسندت الأحسنية إلى من جاز دخول من التفضيلية على اسم الجلالة بتقدير مضاف لأن ذلك التحويل جعل ما أضيفت إليه صبغة هو المحكوم عليه باتقاء الأحسنية فلم أن الفضل عليه هو المضاف المقدر أى ومن أحسن من صبغة الله .

وجملة « ونحن له عابدون » عطف على آمنا وفي تقديم الجار والمجرور على عامله في قوله له عابدون إفادة قصر إضافي على النصارى الذين اصطبغوا بالمعمودية لكنهم عبدوا المسيح .

﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾

استئناف عن قوله قولوا آمنا بالله كما تقدم هنا لك ، وتحاجونا خطاب لأهل الكتاب لأنه جواب كلامهم السابق ولدليل قوله الآتى « أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى » .

والاستفهام للتعجب والتوبيخ ، ومعنى الحاجة في الله الجدال في شئونه بدلالة الاقتضاء إذ لا حاجة في الذات بما هي ذات والمراد الشأن الذى حمل أهل الكتاب على الحاجة مع المؤمنين فيه وهو ما تضمنته بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من أن الله نسخ شريعة اليهود والنصارى وأنه فضله وفضل أمته ، ومحاجتهم راجعة إلى الحسد واعتقاد اختصاصهم بفضل الله تعالى وكرامته .

فلذلك كان لقوله وهو ربنا وربكم موقع في تأييد الإنكار أى بلغت بكم الوفاة إلى أن تحاجونا في إبطال دعوة الإسلام بلا دليل سوى زعمكم أن الله اختصكم بالفضيلة مع أن الله ربنا كما هو ربكم فلماذا لا يمين علينا بما مَنَّ به عليكم .

فجملته وهو ربنا حالية أى كيف تحاجوننا في هاته الحالة المعروفة التي لا تقبل الشك ، وبهذه الجملة حصل بيان لموضوع الحاجة ، وكذلك جملة ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم وهي عطف على الحال ارتقاء في إبطال مجادلتهم بعد بيان أن المربوبية تؤهل لا نعمانه كما أهلتهم، ارتقى فجعل مرجع رضى الله تعالى على عباده أعمالهم فإذا كان قد أكرمكم لأجل الأعمال الصالحة فلهلأ أكرمنا لأجل صالحات أعمالنا فعمالوا فانظروا أعمالكم وانظروا أعمالنا تجدوا حالنا أقرب إلى الصلاح منكم .

قال البيضاوى « كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحونه إغاما وتبكيئا فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله على من يشاء فالكل فيه سواء وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة فكأن لكم أعمالا ربما يعتبرها الله في إعطائها فلنا أيضا أعمال » .

وتقديم المجرور في لنا أعمالنا للاختصاص أى لنا أعمالنا لا أعمالكم فلا تحاجونا في أنكم أفضل منا ، وعطف ولكم أعمالكم احتراس لدفع توهم أن يكون المسلمون مشاركين للمخاطبين في أعمالهم وأن لنا أعمالنا يفيد اختصاص المتكلمين بما عملوا مع الاشتراك في أعمال الآخرين وهو نظير عطف قوله تعالى « ولى دين » على قوله « لكم دينكم » .

وهذا كله من الكلام المصنف مثل قوله تعالى « وإنا أوياكم لعلى هدى أو فى ضلال

مبين » .

وجملة « ونحن له مخلصون » عطف آخر على جملة الحال وهي ارتقاء ثالث لإظهار أن المسلمين أحق بإفاضة الخير فإنهم وإن اشتروا مع الآخرين في المربوبية وفي الصلاحية لصدور الأعمال الصالحة فالمسلمون قد أخلصوا دينهم لله ومخالفوهم قد خلطوا عبادة الله بعبادة غيره ، أى فلماذا لا نكون نحن أقرب إلى رضى الله منكم إليه .

والجملة الاسمية مفيدة الدوام على الإخلاص كما تقدم في قوله « ونحن له مسلمون » .

من الطيب بن عثمان

569582

﴿ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ
كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَعْلِمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً
عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

أم منقطعة بمعنى بل وهي إضراب للانتقال من غرض إلى غرض وفيها تقدير استفهام وهو استفهام للتوبيخ والإنكار وذلك لمبلغهم من الجهل بتاريخ شرائعهم زعموا أن إبراهيم وأبناءه كانوا على اليهودية أو على النصرانية كما دل عليه قوله تعالى « قل ءأنتم أعلم أم الله » ولدلالة آيات أخرى عليه مثل « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا » ومثل قوله « يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون » والأمة إذا انفمست في الجهالة وصارت عقائدها غرورا ومن دون تدبر اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل واجتمعت في عقائدها المتناقضات ، وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح في الكعبة صورة إبراهيم يستقسم بالأزلام في الكعبة فتلا قوله تعالى « ما كان إبراهيم - إلى قوله - وما كان من المشركين » وقال والله إن استقسم بها قط ، وقال تعالى في شأن أهل الكتاب « وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون » فرماهم بفقد العقل . وقرأ الجمهور وأبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب بياء الغائب وقرأه ابن عامر وحمة والكسائي وحفص عن عاصم بقاء الخطاب على أن أم متصلة معادلة لقوله أتحاجونا في الله فيكون قوله « قل ءأنتم أعلم أم الله » أمراً ثانياً لاحقاً لقوله « قل أتحاجونا » وليس هذا الحمل بمتعين لأن في اعتبار الالتفات مناصاً من ذلك .

ومعنى « قل ءأنتم أعلم أم الله » التقدير ، وقد أعلمنا الله أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا وهذا كقوله في سورة آل عمران « قل يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون » .

وقد استفيد من التقرير في قوله « قل ءأنتم أعلم أم الله » أنه أعلمهم بأمر جهلته عامتهم وكنتمته خاصتهم ولذلك قال « ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله » يشير إلى خاصة الأخبار والزهبان الذين تركوا عامة أمتهم مسترسلين على عقائد الخطأ والغرور والضلالة وهم ساكنون لا يغيرون عليهم إرضاء لهم واستجلاباً لمحبتهم وذلك أمر إذا طال على الأمة تعودته

وظنت جهالتها علما فلم ينجع فيها إصلاح بعد ذلك لأنها ترى المصلحين قد أتوا بما لم يأت به الأولون فقالوا « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ».

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

هذا من جملة المقول المحكى بقوله « قل أنتم أعلم أم الله » أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ذلك تذكراً لهم بالمهد الذي في كتبهم عسى أن يراجعوا أنفسهم ويعيدوا النظر إن كانوا مترددين أو أن يفيثوا إلى الحق إن كانوا متممدين المكابرة . ومن في قوله « من الله » ابتدائية أى شهادة عنده بلغت من جانب الله على لسان رسله . والواو عاطفة جملة « ومن أظلم ممن كتم شهادة » على جملة « أنتم أعلم أم الله » .

وهذا الاستفهام التقريري كناية عن عدم اغترار المسلمين بقولهم إن إبراهيم وأبناء كانوا هوداً أو نصارى وليس هذا احتجاجاً عليهم . وقوله « وما الله بغافل عما تعملون » بقية مقول القول وهو تهديد لأن القادر إذا لم يكن غافلاً لم يكن له مانع من العمل بمقتضى علمه وقد تقدمت نظائر هذا في مواضع .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

تكرير لنظيره الذى تقدم آنفاً لزيادة رسوخ مدلوله في نفوس السامعين اهتماماً بما تضمنه لكونه معنى لم يسبق سماعه للمخاطبين فلم يقتنع فيه بمرة واحدة ومثل هذا التكرير وارد في كلام العرب ، قال ليلى .

فَتَنَازَعَا سَبِيْطًا يَطِيْرُ ظِلَالُهُ كَدْحَانَ مُشْعَلَةً يُشَبُّ ضِرَامُهَا
مَشْمُولَةٌ غُلِثَتْ بِنَابِتٍ عَرَفِجٍ كَدْحَانَ نَارٍ سَاطِعٍ أَسْنَامُهَا^(١)

فإنه لما شبه الغبار المتطاير بالنار المشبوبة واستطرد بوصف النار بأنها هبت عليها ريح الشمال وزادها دخاناً وأوقدت بالعرفج الرطيب لكثرة دخانه ، أعاد التشبيه ثانياً لأنه غريب مبتكر .

(١) الضمير المثنى لبحر الوحش وإتانه المذكورين في قوله قبله « أو ملمع وسقت لاحقب للاحه » ومعنى تنازعا تسابقا في غبار متمد والسيط الطويل يعلو ظله في الشمس والمشعلة صفة موصوف محذوف أى نار والمشمولة التى هبت عليها ريح الشمال ونابت العرفج الجديد نباته ، والعرفج نبت معروف .

فهرس القسم الثاني من الجزء الأول

- 395 وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة
- 401 قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء
- 404 ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك
- 406 قال إني أعلم ما لا تعلمون
- 407 وعلم آدم الأسماء كلها
- 411 ثم عرضهم على الملائكة - إلى - إن كنتم صادقين
- 413 قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم
- 416 قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم
- 417 فلما أنبأهم بأسمائهم
- 417 قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض
- 418 وأعلم ما تبذون وما كنتم تكتمون
- 420 وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا - إلى - من الكافرين
- 428 وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة - إلى - من الظالمين
- 433 فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه - إلى - ومتاع إلى حين
- 437 فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم
- 440 قلنا اهبطوا منها جميعا - إلى - هم فيها خالدون
- 447 يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي - إلى - وإياي فارهبون
- 458 وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم
- 460 ولا تكونوا أول كافر به
- 463 ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا
- 469 وإياي فاتقون

- 470 ولا تلبسوا الحقّ بالباطل - إلى - وأنتم تعلمون
- 472 وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين
- 474 أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم - إلى - أفلا تعقلون
- 477 واستعينوا بالصبر والصلاة - إلى - اليه راجعون
- 482 يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي - إلى - العالمين
- 484 واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً - إلى - ولا هم ينصرون
- 489 وإذ نجيناكم من آل فرعون - إلى - من ربكم عظيم
- 494 وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم - إلى - وأنتم تنظرون
- 496 وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة - إلى - لعلكم تشكرون
- 501 وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون
- 502 وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم - إلى - التواب الرحيم
- 505 وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله - إلى - لعلكم تشكرون
- 509 وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى - إلى - يظلمون
- 512 وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية - إلى - بما كانوا يفسقون
- 517 وإذ استسقى موسى لقومه - إلى - في الأرض مفسدين
- 520 وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد - إلى - ما سألتكم
- 526 وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله
- 529 ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله - إلى - وكانوا يعتدون
- 531 إن الذين آمنوا والذين هادوا - إلى - ولا هم يحزنون
- 541 وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور - إلى - من الخاسرين
- 543 ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت - إلى - للمتقين
- 546 وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم - إلى - من الجاهلين
- 548 قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي - إلى - ماتومرون
- 553 قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها - إلى - تسرّ الناظرين
- 554 قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي - إلى - الآن جئت بالحق
- 556 فذبّحوها وما كادوا يفعلون

- 559 وإذ قتلتم نفسا - إلى - لعلكم تعقلون
- 562 ثم قست قلوبهم من بعد ذلك - إلى - عما تعملون
- 566 أفتظنم أن يؤمنوا لكم - إلى - وهم يعلمون
- 569 وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا - إلى - وما يعلنون
- 573 ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب - إلى - إلاّ يظنون
- 575 فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم - إلى - مما يكسبون
- 579 وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياما معدودة - إلى - هم فيها خالدون
- 582 وإذا اخذنا ميثاق بني اسرائيل - إلى - وأنتم معرضون
- 585 وإذا أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم - إلى - والعدوان
- 589 وإن ياتوكم أسارى تفادوهم - إلى - ولاهم ينصرون
- 592 ولقد آتينا موسى الكتاب - إلى - وفريقا تقتلون
- 599 وقالوا قلوبنا غلف - إلى - فقليل ما يؤمنون
- 601 ولما جاءهم كتاب من عند الله - إلى - على الكافرين
- 603 بشما اشتروا به أنفسهم - إلى - عذاب مهين
- 606 وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله - إلى - إن كنتم مؤمنين
- 609 ولقد جاءكم موسى بالبينات - إلى - إن كنتم مؤمنين
- 613 قل إن كانت لكم الدار الآخرة - إلى - والله عليم بالظالمين
- 617 ولتجدنهم أحرص الناس على حياة - إلى - بصير بما يعملون
- 619 قل من كان عدواً لجبريل - إلى - عدواً للكافرين
- 624 ولقد أنزلنا إليك آيات بينات - إلى - كأنهم لا يعلمون
- 626 واتبعوا ما تتلوا الشياطين - إلى - يعلمون الناس السحر
- 639 وما أنزل على الملكين ببابل - إلى - فلا تكفر
- 644 فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه - إلى - ولا ينفهم
- 646 ولقد علموا لمن اشتراه - إلى - لو كانوا يعلمون
- 648 ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون
- 650 يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا - إلى - عذاب أليم

- 652 ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب - إلى - ذو الفضل العظيم
- 654 ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها
- 663 ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير - إلى - من ولي ولا نصير
- 665 ام تريدون ان تسألوا رسولكم - إلى - سواء السبيل
- 669 ود كثير من أهل الكتاب - إلى - بما تعملون بصير
- 672 وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا - إلى - ولا هم يحزنون
- 675 وقالت اليهود ليست النصارى على شيء - إلى - كانوا فيه يختلفون
- 678 ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه - إلى - عذاب عظيم
- 682 والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم
- 683 وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه - إلى - كل له قانتون
- 686 بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون
- 688 وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله - إلى - لقوم يوقنون
- 691 إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم
- 692 ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى - إلى - ولا نصير
- 696 الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته - إلى - هم الخاسرون
- 697 يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي - إلى - ولا هم ينصرون
- 699 وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات - إلى - الظالمين
- 707 وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا - إلى - والركع السجود
- 713 وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا - إلى - وبئس المصير
- 717 وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت - إلى - السميع العليم
- 719 ربنا واجعلنا مسلمين لك - إلى - التواب الرحيم
- 722 ربنا وابعث فيهم رسولا منهم - إلى - العزيز الحكيم
- 724 ومن يرغب عن ملة إبراهيم - إلى - لرب العالمين
- 727 وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب - إلى - وأنتم مسلمون
- 730 أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت - إلى - ونحن له مسلمون
- 735 تلك أمة قد خلت لها ما كسبت - إلى - عما كانوا يعملون

- 736 وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا
- 737 قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين
- 738 قولوا آمنا بالله وما انزل الينا - إلى - ونحن له مسلمون
- 740 فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا - إلى - السميع العليم
- 742 صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون
- 745 قل أتحتاجوننا في الله وهوربتنا وربكم - إلى - ونحن له مخلصون
- 747 أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل - إلى - عما تعملون
- 748 ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون
- 748 تلك أمة قد خلت لما ما كسبت - إلى - عما كانوا يعملون